

الوَاسِطَةُ
بَيْنَ اللَّهِ وَخَلْقِهِ خِدَالُفُ
السُّنَّةِ وَتَحَالُفِهِمْ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أصل هذا الكتاب رسالة علمية تقدم بها المؤلف لنيل درجة
الدكتوراة بقسم العقيدة بالجامعة الإسلامية ومنح صاحبها درجة
الدكتوراة بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف الأولى بإشراف فضيلة
الشيخ الدكتور/ عبدالرزاق بن عبدالمحسن العباد عام ١٤٢٤ هـ

الواسطة بين الله وخلقِه عند اهل السنة ومخالفهم

إعداد

د. / المرابط بن محمد سام المجتبي السنيطي

دار الفضيحة
الرياض - السعودية

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٢٤م - ٢٠٠٣م

دار الفضيحة للنشر والتوزيع

الرياض: ١١٥٤٣ ص ب: ٥١١٤٢

تلفاكس: ٢٣٣٣٠٦٣



المقدمة

الحمد لله، الأول، الآخر، الظاهر، الباطن، الكبير، المتعال، القريب، المجيب الدعاء، الذي يجيب المضطر إذا دعاه، ويكشف السوء عمن ناداه، بديع السماوات والأرض، لم يتخذ وزراء، ولا وسائط، ولا شفعاء: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾^(١).

والحمد لله الذي لم يتخذ ولدا، ولم يكن له ولي من الذل، ولا شريك من الشركاء، الذي يعطي، ويمنع، ويضر، وينفع، ويخفض، ويرفع، ويعز، ويذل، يعدله، وفضله، وحكمته، لا لأجل أحد من خلقه. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ولا وسيط عنده حال الدعاء، والتضرع، والرجاء؛ بل هو أقرب إلى عبادته من حبل الوريد، القائل لنبيه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾^(٢).

أنزل الكتب، وأرسل الرسل بالبشارة، والندارة، وسائط بينه وبين خلقه في تبليغ شرعه، وإقامة الحجة على الناس أجمعين: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِّئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾^(٣).

وأشهد أن محمدا نبيه المصطفى، ورسوله المجتبي، صلوات الله وسلامه عليه، وعلى آله الطيبين، الألباء، وصحابته المصطفين النجباء، أولئك الذين اهتموا بهديه، ودعوا بدعوته، وتخرجوا من مدرسته، الذين ضربوا أروع المثل لتحقيق التوحيد، وحماية حماء، فكان يسقط سوط أحدهم، فما يسأل أحدا يناوله إياه، تحقيقا لقول الصادق المصدوق: (إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ)^(٤).

أما بعد: فلقد بعث الله نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم خاتمة للوسائط من النبيين،

(١) سورة السجدة الآية ٤

(٢) سورة البقرة الآية ١٨٦

(٣) سورة النساء الآية ١٦٥

(٤) أخرجه الإمام أحمد في المسند ١/٢٩٣، والترمذي في سننه ٤/٦٦٧، وقال: هذا حديث حسن صحيح. قال ابن رجب: (وأصح الطرق كلها طريق حنش الصنعاني التي خرجها الترمذي، كذا قاله ابن منده وغيره) جامع العلوم والحكم ص ١٨٤



ورحمة مهداة للعالمين، أرسله بين يدي الساعة بشيرا ونذيرا، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا، وواسطة في التبليغ، وهاديا بالدلالة والبيان؛ لتحرير الخلق من عبودية الإنسان إلى عبادة الخالق الرحمن، ومن التعلق بمظاهر الكون، إلى التعلق بمن أمره بين الكاف، والنون.

وقد انتشر إذ ذاك في الأرض قاطبة التعلق بالوسائط، والأوثان، وعم شرك التقريب، وعبادة غير الله كل مكان، فكان لكل قبيلة في الجاهلية صنمها، وطاغوتها، وواسطتها، وعليه تقصر جميع طقوسها، وعبادتها، (وكانت الأم إذ ذاك ما بين مشرك بالرحمن عابد للأوثان، وعابد للنيران، وعابد للصلبان، أو عابد للشمس، والقمر، والنجوم، كافر بالله الحي القيوم، أو تائه في بيداء ضلّالته، حيران قد استهواه الشيطان، وسد عليه طريق الهدى، والإيمان، فالمعروف عنده ما وافق إرادته ورضاه، والمنكر ما خالف هواه، قد تخلى عنه الرحمن، وفاز به الخذلان، يسمع، ويبصر بهواه لا بمولاه، ويبطش، ويمشي بنفسه، وشيطانه لا بالله، فباب الهدى دونه مسدود، وهو عن الوصول إلى معرفة ربه واتباع مرضاته مسدود، فأهل الأرض بين تائه حيران، وعبد للدنيا فهو عليها لهفان، ومنقاد للشيطان جاهل، أو جاحد، أو مشرك بالرحمن)^(١).

فدعاهم رسول الله ﷺ إلى الإيمان بالله، واجتناب الطواغيت التي تعبد من دون الله، فجاء صلى الله عليه وسلم بالحنيفية السمحة، والتوحيد الخالص، فعلق القلوب ببارئها، وربط النفوس بمنشئها، فتهافت الوسائط، وتحطمت الأصنام، وهربت الخرافة خوفا من أنوار التوحيد الساطعة، وتميزت رسالته ﷺ بالدعوة إلى التوحيد، فكسرت القيود، والأغلال، وحررت العبيد في الحال، وأخرجتهم من عبادة العباد، إلى عبادة رب العباد، فمن الناس من كتب الله له السعادة، والهدى، واتبع النور الذي جاء به النبي فاهتدى، فكانوا جنود السنة وأولياء الرحمن، ومنهم من كابر، وعاند، وقاتل دون واسطته البدعية، وجالد، فكانوا جنود الشرك والبدعة، وأولياء الشيطان، فقاتلهم رسول الله (بجنده الذين اختارهم الله لصحبة نبيه، فتبدد الظلام، وعم نور الإسلام أرجاء المعمورة، وصفت العقيدة من الشوائب، والمكدرات، وخلص الدين لبديع الأرض والسموات، ولم يلحق صلوات الله وسلامه عليه بالرفيق الأعلى حتى أكمل الله برسالته



الدين، وتمت النعمة على المسلمين. قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾^(١)، وترك الأمة على مثل البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها بعده إلا هالك -صلوات ربي وسلامه عليه-، فلم يدعُ خيرا إلا دل أمته عليه، ولا شرا إلا حذرهما منه، ومن الأمور التي دل عليها الأمة أن العبادة المشروعة، والعمل الصالح واسطة مقبولة، ووسيلة مشروعة، ومن الأمور التي حذر منها الأمة أشد تحذير الاستغاثة بغير الله، وجعل العبد واسطة بدعية بينه وبين ربه في دعائه، ورجائه، وعبادته، فبلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جهاده حتى أتاه اليقين من ربه -صلوات ربي وسلامه عليه-.

واستمرت الأمة على هذه الجادة، حتى نبتت في الإسلام نوابت من أهل البدع، وظهر في الدين مقالات تصادم العقل، والشرع، ومن ذلك مسألة الواسطة، وقد تبين لي أن المخطئين في مسألة الواسطة ثلاث طوائف:

أ - الفلاسفة: الذين يقولون إن الكواكب، والروحانيات، والعقول المدبرة هي الواسطة بين الله وخلقهِ.

ب - الرافضة: الذين يزعمون أن الأئمة من أهل البيت -رحمهم الله- هم الواسطة بين الله والناس

ج - الصوفية: الذين يدعون أن أرباب الطرق، وشيوخ الفرق هم الواسطة بين الحق والخلق.

فكانت الفلسفة التي تجمع بين هذه الطوائف في نظرتهم للواسطة أن قالوا: إن الإنسان العادي لا يمكن أن يتوجه إلى ربه بمطالبه مباشرة؛ بل عليه أن يبحث عن واسطة نظيفة الظاهر، مصقولة الباطن، حتى توصله بمولاه، ويتحقق له بسببها مبتغاه، فزعموا أن هؤلاء المقربين هم الواسطة بين الخلق، والخالق، حال الاضطراب، وهجوم الحوادث، والأخطار، وأن الدعاء لا يثمر إلا إذا كان بواسطتهم، والاستغاثة، والاستعانة لا تصح إلا إذا كانت بهم، فإليهم يفزع الملهوف، ونحوهم يسم المضطرب، فلا فيض إلا من جهتهم، ولا مدد إلا بواسطتهم، فعلقوا القلوب بغير الله تعالى، وانقطعوا عن الله بوسائط بدعية، وفتنوا بوسائل وهمية، وقد يتمكن الغلو في الوسائط من قلوبهم، وتنشأ الخرافة أظفارها

(١) سورة المائدة، الآية: ٣.



في خلقهم، فينقطعون عن الله بالكلية، ويتوجهون إلى وسائطهم المزعومة بالعبادة، فتراهم يتقلبون بين حالتين: كل حالة شر من الأخرى؛ إما أن يتوسلوا بهم ويدعوا الله تعالى بواسطتهم، وإما أن يستغيثوا بهم ويستمدوا منهم، ويستغثوا بهم عن الله بعبادتهم. وهكذا أصبح لكل طائفة من هذه الطوائف مفهومها الخاص للواسطة؛ بيد أن الفلسفة التي سبقت الإشارة إليها تجمعهم جميعا، من أجل ذلك تعلق الفلاسفة ومن تبعهم بالكواكب والروحانيات، وتعلقت الرافضة بأئمة أهل البيت رحمهم الله تعالى، كما تعلقت الصوفية بالأولياء وأرباب الطرق، وشيوخ الفرق.

وقد رأيت أن تكون هذه الرسالة بعنوان: «الواسطة بين الله وخلقه عند أهل السنة وأهل الأهواء، وأثرها في العقيدة»، أهمية الموضوع وأسباب اختياره:

يعد موضوع الواسطة بين الله وخلقه من أهم الموضوعات التي تبنى عليها مسائل الاعتقاد، ويترتب عليها كثير من الآثار الإيجابية، والسلبية، فهي من المواضيع الجديرة بالبحث، والمستحقة للدراسة، والاهتمام. وبيان ذلك فيما يلي:-

أولاً: أن مسألة الواسطة هي أعظم مسألة خالف فيها رسول الله ﷺ أهل الجاهلية، ولأجلها تفرق الناس إلى مؤمنين، وكافرين.

ثانياً: أهمية بيان مفهوم الواسطة الشرعية في معتقد أهل السنة والجماعة، ذلك الفهم الذين نجده منضبطاً بالكتاب والسنة حتى يفهمه الناس، وينضبطوا بضوابطه؛ لأن بيان مفهوم الواسطة عند أهل السنة بنوعيتها: الواسطة في التبليغ، والواسطة في العبادة يحمي الأمة من تلبيسات أهل الأهواء، والبدع بشبهاتهم التي انطلت على بعض العوام من المسلمين.

ثالثاً: أهمية بيان مفهوم الواسطة البدعية في عقائد أهل الأهواء، ذلك الفهم الفاسد الذي يقوم على التقليد الأعمى، ويتميز بالخروج عن دائرة الكتاب والسنة، حتى يعرفه الناس، ويحذروه، ولكي يرجع عنه المنصف، المتحري للصواب.

رابعاً: أنه ببيان منهج أهل الأهواء في الواسطة يتضح للناس أنهم انجرفوا مع تيار كل صائح وناق، واعتمدوا في هذا المنهج على خرافات، وحكايات، وأوهام، لا زمام لها في الحقيقة، ولا خطام.



خامسا: قصدت توضيح كون العبادة الصحيحة وسيلة مقبولة، وواسطة شرعية بنفسها- وذلك يأخذ بأيدي العوام من المسلمين، ويحصنهم ضد ما أثاره أهل الأهواء من شبهات؛ لتبرير تشبثهم بالوسائط البدعية.

سادسا: ظهور من تأثر بمقولة الفلاسفة كالمنجمين والسحرة وغيرهم وانتشار عقائد الرافضة، والصوفية في العالم الإسلامي؛ مع العلم أن مسألة وساطة الأئمة عند الرافضة، ووساطة أرباب الطرق، والأولياء عند الصوفية هي أهم مسألة يقوم عليها الكيان العقدي لهاتين الطائفتين.

سابعا: أني لمست من خلال المناقشات، والمحاورات التي تدور في بعض المجالس أن مسألة الوساطة، والتفريق بين الوساطة الشرعية، والبدعية لم يكن واضحا في أذهان كثير من المتحاورين، كما أن هناك نوعيات من عوام المسلمين في بعض النواحي يتوجهون إلى القبور بالدعاء، والسؤال؛ ظانين أن ذلك من تعظيم المقبورين؛ بل يعتقد بعضهم أن الدعاء لا يقبل إلا بواسطة!! وأحسب أن الكتابة في هذا الموضوع تأخذ بأيدي هؤلاء، وتوجههم إلى فهم الوساطة الشرعية، وعدم قياس الوساطة في العبادة على الوساطة في التبليغ.

ثامنا: أن البحث في هذه الرسالة تلبية لرغبة شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله حيث ذكر في خاتمة رسالته الصغيرة "الواسطة بين الحق والخلق" أن البحث في مسألة الوساطة يحتاج إلى بسط، وبيان، فقال: (وهذه الجمل لها بسط لا تحتمله هذه الوريقات، والله أعلم)^(١).

تاسعا: أن البحث في الوساطة من أجل البحوث، والكلام حول هذه المسألة من أفضل الكلام؛ (إذ فيها بيان التوحيد، ونفي الشرك عن الصمد المجيد)^(٢)، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية.

عاشرًا: أن هذا الموضوع على أهميته، وخطورته - كما يرى بعض الباحثين-^(٣)، لم أجد من تطرق إليه بالبحث، والدراسة مفصلا سوى رسالة شيخ الإسلام ابن تيمية الصغيرة الآتي ذكرها، وسوى ما يرد من إشارات خفيفة للموضوع في أثناء الكلام على توحيد الألوهية، وإخلاص العبادة لله تعالى، وفي الكلام على الشرك، واتخاذ المشركين

(٢) تلخيص كتاب الاستغاثة ١/ ٥٢

(١) الوساطة بين الحق والخلق ص ٤٥

(٣) صرح بخطورة البحث في الوساطة الشيخ محمد جميل زينو في مقدمة تحقيق الوساطة بين الحق والخلق، انظر ص ٧ من تلك الرسالة.

أصناما يدعون أنها تقربهم إلى الله تعالى زلفى ، فأردت بهذه الدراسة أن أبين الوساطة في التبليغ من الملائكة ، والأنبياء عليهم السلام ، مع بيان حقوق الوساطة الشرعية في التبليغ ، وأن أوضح صورة الوساطة في العبادة ، وأبرز وجه كون العبادة واسطة ، وحاولت أن ألم شتات الموضوع ، وأجمع متفرقاته ، وأبسط الكلام حول الوساطة الشرعية عند أهل السنة والجماعة ، والوساطة البدعية عند أهل الأهواء من الفلاسفة والرافضة والصوفية ، مع الربط بين مفهوم الوساطة البدعية في القديم ، والحديث ، وبيان الآثار المترتبة على ذلك في العقيدة ، هذا كله من الأسباب التي دفعتني لاختيار هذا الموضوع ، والكتابة فيه على صعوبته ، وتوسع مباحثه ، ودقة الخطة التي وضعت من أجله .

فاستخرت الله تعالى ، واستعنت به على خوضه ، والكتابة فيه ، فأسأله تعالى أن يجعلني في كتابته موفقا ، وأن يرضاه عملا صالحا ، متقبلا ، إنه ولي ذلك والقادر عليه .

الدراسات السابقة في الموضوع: أما فيما يتعلق بالدراسات السابقة في هذا الموضوع ، فكما أشرت -سابقا- فإن هذا الموضوع من المواضيع النادرة ، التي لم أجد من أفردا بالبحث ، والدراسة مستقلة حسب اطلاعي المحدود- سوى شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- ، وذلك في رسالته الصغيرة "الواسطة بين الحق والخلق" ^(١) ، وكما يعلم فإن هذه الرسالة الصغيرة الحجم ، الكبيرة النفع : اهتمت ببيان الفرق بين الوساطة في التبليغ

(١) مطبوعة ضمن مجموع الفتاوى ١/ ١٢١ ، كما طبعها الجامعة الإسلامية بتصحيح الشيخ محمد جميل زينو المدرس في دار الحديث الخيرية بمكة المكرمة . والجدير بالذكر : أن هناك من ينسب هذه الرسالة للعز بن عبد السلام -رحمه الله- خطأ ، وقد وقع في هذا اللبس بعض الفضلاء من الباحثين : منهم : الشيخ محمد ناصر الدين الألباني -رحمه الله- في كتابه " التوسل أنواعه وأحكامه " ص ١٤٨ ، والشيخ الدكتور ربيع المدخلي في تحقيقه لقاعدة جليلة في التوسل والوسيلة ص ٢٨٥ ، وعنه جامع التوسل حكمه وأقسامه ، جمعه من كلام الشيخين الألباني ، وابن عثيمين -رحمهما الله- علي ابن حسين أبو لوز ص ٧١ والدكتور محمد لوح في كتابه " تقديس الأشخاص في الفكر الصوفي .

وقد قمت بمقابلة الرسالتين فأتضح لي أنهما رسالة واحدة ، وأنها لشيخ الإسلام ابن تيمية ، وأن نسبتها للعز بن عبد السلام خطأ ووهم ، وذلك لأسباب منها : -

أ- الاتفاق الحرفي بين الرسالتين .

ب - لم يوجد في كتب التراجم -التي اطلعت عليها- من ذكر أن للعز بن عبد السلام رسالة بهذا العنوان مع إثباتهم رسالة الوساطة لشيخ الإسلام ابن تيمية .

ج - أن أسلوب هذه الرسالة ، وعباراتها هو أسلوب شيخ الإسلام ابن تيمية ، وعباراته في كثير من كتبه ، ولعل في تصحيح نسبة هذه الرسالة لؤلؤها الحقيقي إضافة علمية يفخر بها هذا البحث ، ولعل الذي لبس على هؤلاء الفضلاء كون الرسالة مطبوعة مع رسالة الأبدال ، والغوث ، للعز بن عبد السلام ضمن مجموعة رسائل في كتاب شجرة الإرشاد جمعته وفاء حسن ، ويبدو أنهم لم يقارنوا بين الرسالتين ، والله أعلم .



والواسطة في العبادة، والرد على بعض الشبهات التي يثيرها القائلون بالواسطة البدعية، ولم تتطرق إلى بيان الوسائط من الملائكة في التبليغ، وكيف كانت تبلغ الوحي إلى الوسائط من النبيين، وهل هنالك واسطة في التبليغ في الآخرة؟ وما صورتها؟ وبيان منهج أهل السنة والجماعة في مفهوم الواسطة، ومذهب أهل الأهواء من الفلاسفة والرافضة والصوفية في إثبات الواسطة البدعية، والتوسع في الرد على شبهاتهم، وبيان صورة الواسطة البدعية عند الصوفية في الأحياء، وصورة الواسطة البدعية عندهم في الأموات، مع ذكر الآثار المترتبة على القول بالواسطة الشرعية، والبدعية في العقيدة، كما وضحه مقيد هذه السطور في هذه الرسالة.

خطة الرسالة: وقد جعلت العمل في هذه الرسالة مكونا من مقدمة، وتمهيد، وثلاثة أبواب، وخاتمة، وفهارس، وكانت الخطة التفصيلية لأبواب الرسالة، وفصولها ومباحثها على النحو التالي :-

المقدمة: وقد اشتملت على بيان أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، والدراسات السابقة في الموضوع، وعرض عام لهيكل الرسالة، وخطتها المتبعة، مع ذكر بعض الضوابط المنهجية التي سرت عليها في كتابة هذه الرسالة، وكلمة الشكر، والتقدير.

التمهيد ويشتمل على خمسة مباحث:-

المبحث الأول: تعريف الواسطة لغة، وشرعا.

المبحث الثاني: التعريف بأهل السنة، وتوضيح ألقابهم.

المبحث الثالث: تعريف الهوى، وبيان خطورته، وإفساده لعقائد أهله.

المبحث الرابع: التعريف بأهل الأهواء، وبيان سماتهم: وفيه أربعة مطالب:-

المطلب الأول: التعريف بأهل الأهواء، وبيان سماتهم.

المطلب الثاني: تعريف الفلاسفة.

المطلب الثالث: تعريف الرافضة.

المطلب الرابع: تعريف الصوفية.

المبحث الخامس: المراد بالآثر لغة، واصطلاحا.



الباب الأول: الواسطة بين الله وخلقه عند أهل السنة والجماعة. وفيه أربعة فصول:
 الفصل الأول: مفهوم الواسطة عند أهل السنة والجماعة، وبيان أهمية فهم الواسطة على ضوء الكتاب والسنة. وفيه أربعة مباحث:-

- المبحث الأول: حاجة الناس إلى بعثة الرسل " الواسطة " .
- المبحث الثاني: الواسطة بين الله ورسله . وفيه أربعة مطالب:-
- المطلب الأول: جبريل واسطة بين الله ، والملائكة .
- المطلب الثاني: جبريل واسطة بين الله ، ورسله .
- المطلب الثالث: الملائكة واسطة بين الله ، وغير الأنبياء .
- المطلب الرابع: الوحي وأنواعه .
- المبحث الثالث: الحكمة في كون الواسطة من البشر .
- المبحث الرابع: تقيد أهل السنة والجماعة بالكتاب والسنة في فهم الواسطة .
- الفصل الثاني: صورة الواسطة في التبليغ وفيه ثمانية مباحث:-

- المبحث الأول: صورة الواسطة في التبليغ في الدنيا .
- المبحث الثاني: صورة الواسطة في التبليغ في الآخرة .
- المبحث الثالث: مقام الرسالة وخصائصها عند أهل السنة والجماعة .
- المبحث الرابع: حقوق النبي ﷺ على أمة عند أهل السنة والجماعة
- المبحث الخامس: وجوب الإيمان بعصمة النبي ﷺ .
- المبحث السادس: الهداية وأنواعها وبيان ما للرسول ﷺ منها .
- المبحث السابع: الرسول ﷺ واسطة في التبليغ والبيان لا في العبادة وجزاء الإنسان .
- المبحث الثامن: وسطية أهل السنة والجماعة في باب تعظيم النبي ﷺ .
- الفصل الثالث: صورة الواسطة في العبادة. وفيه خمسة مباحث:-
- المبحث الأول: تعريف العبادة لغة وشرعا .
- المبحث الثاني: وجه كون العبادة واسطة .



المبحث الثالث: صورة الوساطة في الدعاء .

المبحث الرابع: صورة الوساطة في التوسل المشروع .

المبحث الخامس: صورة الوساطة في العمل الصالح .

الفصل الرابع: صورة الوساطة في الشفاعة في الآخرة. وفيه أربعة مباحث:--

المبحث الأول: تعريف الشفاعة لغة واصطلاحاً .

المبحث الثاني: صورة الوساطة في شفاعة النبي ﷺ .

المبحث الثالث: صورة الوساطة في شفاعة غير النبي ﷺ .

المبحث الرابع: صورة الوساطة في شفاعة القرآن والصيام .

الباب الثاني: الوساطة بين الله وخلقه عند أهل الأهواء . وفيه أربعة فصول:--

الفصل الأول: مفهوم الوساطة عند أهل الأهواء وبيان خروجهم فيه عن دائرة الكتاب

والسنة. وفيه أربعة مباحث:--

المبحث الأول: مذهب أهل الأهواء في فهم الوساطة وبيان فساده .

المبحث الثاني: غلو بعض أهل الأهواء في الوساطة الصحيحة .

المبحث الثالث: تنقيص بعض أهل الأهواء لمقام الوساطة الصحيحة .

المبحث الرابع: قياسهم الوساطة في العبادة على الوساطة في التبليغ .

الفصل الثاني: الوساطة بين الله وخلقه عند الفلاسفة ومن تبعهم. وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: مقالة الفلاسفة في الوساطة .

المبحث الثاني: صورة الوساطة عند الفلاسفة .

المبحث الثالث: بيان شبهة الفلاسفة في الوساطة والرد عليهم .

الفصل الثالث: الوساطة بين الله وخلقه عند الرافضة وبيان شبهاتهم، والرد عليهم. وفيه أربعة مباحث:--

المبحث الأول: نظرة الرافضة للرسول ﷺ .

المبحث الثاني: عقيدة الرافضة في الملائكة الكرام عليهم السلام .

المبحث الثالث: نظرة الرافضة لأنتمهم " وسائطهم " .

المبحث الرابع: بيان شبهات الرافضة والرد عليها.

الفصل الرابع: الواسطة بين الله وخلقهم عند الصوفية، وبيان شبهاتهم والرد عليهم. وفيه ستة مباحث:-

المبحث الأول: نظرة الصوفية للرسول ﷺ.

المبحث الثاني: مقام النبوة والولاية عند الصوفية.

المبحث الثالث: صورة الواسطة البدعية عندهم في الأحياء.

المبحث الرابع: صورة الواسطة البدعية عندهم في الأموات.

المبحث الخامس: نظرة الصوفية لشيوخهم "وسائطهم".

المبحث السادس: بيان شبهات الصوفية والرد عليها.

الباب الثالث: أثر الواسطة الشرعية والبدعية في العقيدة. وفيه فصلان:-

الفصل الأول: أثر الواسطة الشرعية في معتقد أهل السنة والجماعة. وفيه ستة مباحث:-

المبحث الأول: نبيل رضوان الله تعالى ودخول جنته.

المبحث الثاني: تحقيق التوحيد الخالص.

المبحث الثالث: الطمأنينة والثبات.

المبحث الرابع: الشعور بالعزة والقوة والنصر.

المبحث الخامس: حصول السيادة والاستخلاف في الأرض.

المبحث السادس: تحقيق الوحدة بين المسلمين.

الفصل الثاني: أثر الواسطة البدعية في عقائد أهل الأهواء. وفيه خمسة مباحث:-

المبحث الأول: الوقوع في التشبيه والشرك.

المبحث الثاني: الحيرة والشك والضياع.

المبحث الثالث: الذلة والانكسار لغير الله تعالى.

المبحث الرابع: ضياع العمل لتوزعه بين الوسائط.

المبحث الخامس: انتشار الضعف بين المسلمين وانشطار شملهم.

الخاتمة: وفيها نتائج البحث، وثمراته، وبعض التوصيات المتمخضة عنه.



الفهارس العلمية: وهي:-

- ١- فهرس الآيات القرآنية .
- ٢- فهرس الأحاديث ، والآثار .
- ٣- فهرس الأبيات الشعرية .
- ٤- فهرس المصطلحات والألفاظ الغريبة .
- ٥- فهرس الطوائف والفرق .
- ٦- فهرس المواضع والبلدان .
- ٧- فهرس الأعلام المترجم لهم .
- ٨- فهرس المصادر والمراجع .
- ٩- فهرس الموضوعات .

الضوابط المنهجية التي سرت عليها في كتابة الرسالة:-

١- حرصت في توثيق المادة العلمية التي أنقلها أن أعود إلى المصادر الأصلية قدر الإمكان ، فكلام الفلاسفة أنقله من كتبهم أو من الكتب التي اهتمت بنقل مقالاتهم وعقائد الرافضة أو ثقتها من كتب الرافضة ، وعقائد الصوفية من كتب الصوفية ، ولم أنقل بالواسطة إلا عن المصادر التي يتعذر الوقوف عليها ؛ وذلك مثل كتب أهل الأهواء المليئة بالخرافات ، والشرك ، التي توجد في بعض بلدان العالم الإسلامي عند طائفة معينة ، ويشكل محدود ، ولم أنقل بالواسطة عن هذه الكتب إلا بعد البحث المستمر ، وسؤال المختصين .

٢- قد أقول : إن الصوفية تعتقد مسألة من المسائل ، ثم أستدل على تلك المسألة بكلام فرقة أو فرقتين من فرق الصوفية ؛ لأن المقصود الاستدلال على أن هذه المسألة يوجد في الصوفية من يقول بها ، أما حصر مقالات كل الطرق في المسألة الواحدة فأمر متعذر ، ومخرج عن المقصود .

٣- إذا قلت : إن الصوفية تعتقد كذا ، أو تقول بكذا في هذه الرسالة ، فالمراد غلاتهم ، المعتقدون في الوسائط البدعية ، والمتعلقون بالوسائل الوهمية .

٤- حاولت في جمع المادة أن أقف على أكبر قدر من المصادر ، والمراجع القديمة ، كما استفدت من الدراسات ، والبحوث العلمية الجادة الحديثة ، كرسائل الماجستير ،

والدكتوراه، وغيرها، حرصا على الاستقراء التام، وطلبا للفائدة.

٥- إذا استدلت لمسألة من المسائل فإني أذكر فيها عدة أقوال، وأجلب لها بعض الأمثلة لبيان أنها تشكل منهجا، أو مذهبا من المذاهب، وحاولت أن أذكر الأقوال -في الغالب- حسب التسلسل التاريخي؛ لمعرفة صاحب القول الأول في المسألة، ومدى اتفاق اللاحق مع السابق، وقد أذكر عدة أقوال في المسألة الواحدة لتعدد الفرق القائلة بها؛ وذلك تأكيداً للقضية، وتأصيلاً للمسألة، ويكثر هذا في المسائل التي يظهر الخلاف فيها، وكذلك في المسائل الاعتقادية عند أهل الأهواء والبدع.

٦- التزمت استعمال الألقاب الواردة عن السلف مثل الصلاة والسلام على الأنبياء، والترضي عن الصحابة، والترحم على من بعدهم من العلماء، وإذا نقلت كلاماً لأهل الأهواء فيه خلط بين هذه الألقاب كالصلاة والسلام عند الرافضة على غير الأنبياء، والترضي عند الصوفية على غير الصحابة فإني أكتبه باتباع هذا المنهج من غير أن أشير في الحاشية إلى ذلك؛ لكثرة النقول، وتحاشياً لإثقال الحواشي.

٧- أنني اهتمت بالنقل الحرفي في الغالب، رعاية للموضوعية، ونقلاً للواقع بصورته الحقيقية، وطلباً للدقة في النقل، خصوصاً إذا كان المقام يتطلب ذكر أقوال أئمة أهل الأهواء في المسألة الواحدة، وهذا ما يفرضه المنهج العلمي في نقل كلام الخصوم.

٨- إذا نقلت كلاماً بالنص من غير تصرف فإني أضعه بين قوسين، وأذكر المرجع في الحاشية من غير أن أقول "انظر"، فإذا أضفت إليه مرجعاً آخر للفائدة فإني أصدره بكلمة "انظر"، وكذلك إذا نقلت كلاماً بالمعنى فإني لا أضعه بين قوسين، ولكن أشير بالحاشية إلى أن النقل كان بالمعنى، وذلك بأن أقول "انظر" ثم أذكر المراجع التي استفدت منها. وأما إذا جمعت بين النقل والتصرف بالاختصار، والتقديم، والتأخير، فإني أشير إلى ذلك في الحاشية بكلمة (بتصرف).

٩- لم أذكر البيانات الخاصة بالكتب في الحواشي خشية إثقالها؛ لضخامة العمل في هذه الرسالة؛ وكثرة المصادر، والمراجع التي استعنت بها؛ ولأن فهرس المصادر، والمراجع في نهاية الرسالة يؤدي هذا الغرض.

١٠- إذا ذكرت اسم الكتاب في الحاشية فإني أختصره إن كان طويلاً، ويكثر هذا في كتب التفسير مثل، تفسير الطبري، وتفسير ابن كثير، وتفسير السعدي، إلا إذا كان

الاختصار يوقع في اللبس، أو يخل بالمعنى فأذكره كاملاً، مثل كتاب "مظاهر الانحرافات العقدية والعلمية في القرنين الثالث عشر، والرابع عشر الهجريين لعلي بخيت الزهراني.

١١- شرحت في الحاشية بعض الكلمات التي رأيت أنها غريبة.

١٢- ترجمت للأعلام غير المشهورين، ولم أترجم للأنبياء عليهم السلام، ولا للصحابة رضي الله عنهم، ولا للأئمة الأربعة، ولا للمشهورين من أهل العلم رحمهم الله جميعاً، وكان منهجي في ترجمة العلم أن أصدرها بكنيته إن كانت له كنية فإن كان ميتاً أكتب (رحمه الله) عند أول وروده، فإذا ما تكرر وروده فإني أترحم عليه شفهيًا، لا كتابيًا، اتباعاً لمنهج موحد.

١٣- عرّفت بمواضع البلدان غير المشهورة الواردة في الرسالة.

١٤- ذكرت مواضع الآيات القرآنية من سورها، مبتدئاً بذكر اسم السورة، ورقم الآية في الحاشية.

١٥- خرجت الأحاديث التي وردت في الرسالة بعزوها إلى مصادرهما، فإن كان الحديث في الصحيحين أو في أحدهما فإني أكتفي بعزوه إليهما، أو إلى أحدهما، والتزمت الرجوع إلى صحيح البخاري مع شرحه فتح الباري للحافظ ابن حجر، وإلى صحيح مسلم بشرح الإمام النووي رحمهم الله جميعاً. أما إن لم يكن الحديث في الصحيحين فإني أبحث عن مصدر الحديث في غيرهما من كتب السنة، ناقلاً حكم الغلماء على الحديث باختصار.

١٦- حاولت أن أصوغ المادة العلمية التي استعنت بها في الرسالة بأسلوب علمي سليم قدر استطاعتي.

١٧- ختمت الرسالة بعمل الفهارس العلمية الضرورية التي تسهل على القارئ العودة إلى مواد الرسالة بيسر، وسهولة.



شكر، وتقدير: الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وله الشكر على آلائه، ونعمه اللاتي أعد منها، ولا أعددها، ومن أجلها - بعد نعمة الإسلام - الجمع بين نعمتين كبيرتين، وشرفين عظيمين: ألا وهما شرف طلب العلم الشرعي، وطلبه في مدينة شريفة، وبقعة مباركة، في طيبة الطيبة، على ساكنها أفضل الصلاة وأزكى التسليم.

واعترافاً بالفضل، وجميل الإحسان، وانطلاقاً من قول الله تعالى: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾^(١)، وامثالاً لقول النبي ﷺ: (لا يشكر الله من لا يشكر الناس)^(٢) فإنني أتقدم بعظيم الشكر، وفائق التقدير لفضيلة شيخني الدكتور عطية ابن عتيق الزهراني المشرف الأول على هذه الرسالة على ما أولانيه من رعاية واهتمام؛ حيث شجعني على اختيار الموضوع، ومناصرته، فجزاه الله عني كل خير، كما أزجي شكري الوافر لفضيلة شيخني الأستاذ الدكتور عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر، المشرف الثاني على الرسالة؛ حيث تابع - حفظه الله - مراحل العمل في هذه الرسالة، مرحلة، مرحلة، وخطوة، خطوة - رغم صعوبة موضوع الرسالة، وتوسع مباحثها، ودقة الخطة التي وضعت لها - حتى خرجت الرسالة بهذه الصورة التي نرجو أن تكون مقبولة، فجزاه الله عني خيراً، وبارك له في علمه، وعمره، وقر عينه في ذريته.

كما أشكر كل من قدم لي نصيحة، أو تفضل علي برأي، أو إعارة كتاب، أو دعوة خالصة.

وأخيراً... لا أدعي أنني بلغت الكمال بهذا العمل في هذه الرسالة، ولا أنني وقّيت الموضوع حقّه، ولكن حسبي أنني بذلت فيه جهدي، واستفرغت فيه وسعي - رغم ضعفِي وقلة علمي - ولعل جمع مادة هذا الموضوع المتناثرة، ولم شتاته رغم صعوبته، والكتابة فيه حسب الخطة الشاملة التي وضعت له يعد من الجدة، وعدم التقليد، ورجائي أن يكون في ذلك إضافة علمية من هذه الناحية.

فإن بلغ عملي في هذه الرسالة الشأو الذي قصدته فذلك بفضل الله، وكرمه، وإن

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٧.

(٢) رواه الإمام أحمد في المسند ٢/٢٨٨، وأبو داود في سننه ٥/١٥٧، والترمذي في سننه ٤/٣٣٩، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وصححه الشيخ الألباني. انظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة ١/١٥٨ برقم ٤١٧.

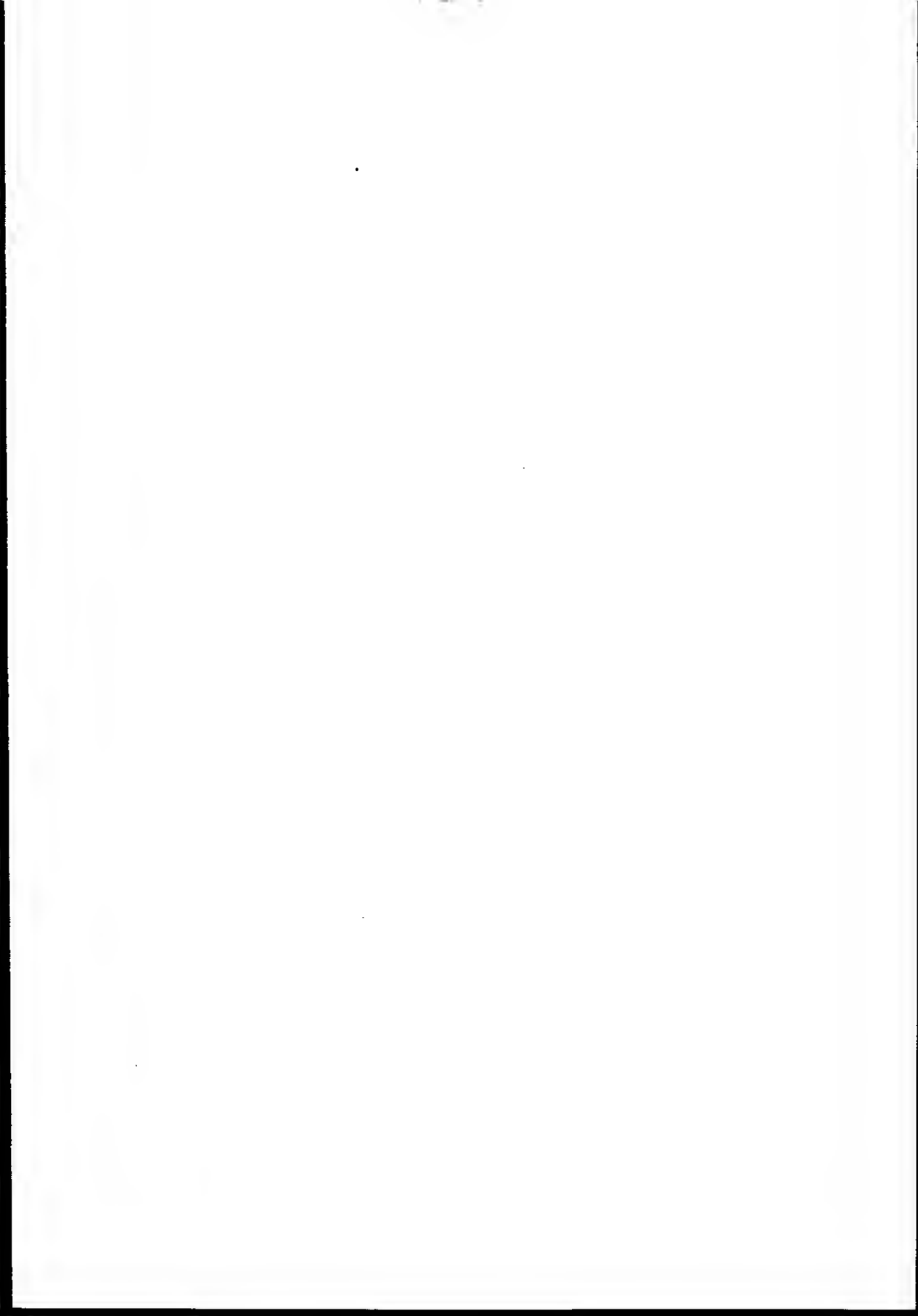
قصر دونه فذلك من نفسي، والشيطان، وأستغفر الله من ذلك .

والله المسئول أن يهدي قلوبنا، ويصلح نياتنا، ويسدد ألسنتنا، وأيدينا، كما أسأله تعالى أن يجعل عملي في هذه الرسالة خالصا لوجهه، وواسطة لرضاه، وذخرا لي يوم ألقاه، إنه ولي ذلك والقادر عليه، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

همسة: وبعد، فهذه همسة في آذان السارحين في الوهم، والمبتلين بالوسائط البدعية، والمتعلقين بالوسائل الوهمية، الذين قطعتم القواطع، وعاقبتهم العواقق، وشغلتهم الشواغل عن الله تعالى، وأولئك الحيارى الذين وقفوا مشدوهين أمام مسألة الوساطة، وكل من أراد التقرب إلى الله، جل في علاه فأقول لهم :-

يا من تريد إلى الإله تقربا	بهواك ثم متاك فهي مغالطه
وعليك بالوحيين إن رمت الهدى	وحذار من وحي العقول الساقطه
وإذا أردت خلاص نفسك صادقا	فهلمّ دونك ما حوته الوساطه

وصلّى الله على خاتمة الوسائط من النبيين محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه أجمعين، وسلم تسليما كثيرا .



التمهيد

وفيه خمسة مباحث:

المبحث الأول: تعريف الواسطة لغة واصطلاحاً.

المبحث الثاني: التعريف بأهل السنة وتوضيح ألقابهم.

المبحث الثالث: تعريف الهوى وبيان خطورته وإفساده لعقائد أهله.

المبحث الرابع: التعريف بأهل الأهواء وبيان سماتهم.

المبحث الخامس: المراد بالأثر لغة واصطلاحاً.

المبحث الأول

تعريف الواسطة لغة واصطلاحاً

أ - الواسطة في اللغة: قال ابن فارس رحمه الله: الواو، والسين، والطاء، هذه الأحرف الثلاثة بناء صحيح يدل على العدل والنصف^(١).

وقال ابن منظور رحمه الله: وسطت القوم أسطهم وسطاً، وسطة: أي توسطتهم، ووسط الشيء، وتوسطه: أي صار بين طرفيه، قال الشاعر:-

إذا رحلت فاجعلوني وسطاً إني كبير لا أطيق العنءاً^(٢)

وقال أعرابي للحسن رحمه الله: علمني ديناً وسُوطاً لا ذاهباً قروطاً، ولا ساقطاً سقوطاً: أي المتوسط بين الغالي والتالي، ألا ترى إلى قول علي رضي الله عنه: خير الناس هذا النمط الأوسط، يلحق بهم التالي، ويرجع إليهم الغالي^(٣).

وواسط الرجل وواسطته: ما بين القادمة والآخرة، وواسطة القلادة: الدرة التي في وسطها، وهي أنفس خرزها^(٤).

وقال الليث رحمه الله: وإنما سمي واسط الرجل واسطاً؛ لأنه وسط بين القادمة والآخرة، وكذلك واسطة القلادة؛ لأنها الجوهرة التي تكون في وسط العقد المنظوم^(٥).

وقال أبو منصور الأزهري رحمه الله: يقال للجوهرة التي تجعل وسط القلادة واسطة، وتسمى الإصبع الوسطى واسطة^(٦).

وقال الزمخشري: يقال وسط الرجل وساطة، وسطة، وهو من واسطة

قومه إذا كان أرفعهم محلاً، قال العرجي^(٧): -

(١) انظر معجم مقاييس اللغة لابن فارس ١٠٨/٦، مادة (وسط)، ومجمل اللغة له أيضاً ٩٢٤/٤، مادة (وسط)

(٢) أي فاجعلوني وسطاً بينكم ترفقون بي وتحفظونني فإني أخاف إن كنت متقدماً أو متأخراً عنكم أن تفرط دابتي أو ناقتي فتصرعني. انظر لسان العرب ٢٩٣/١٥

(٣) انظر لسان العرب ٢٩٦/١٥

(٤) الخرز بفتح الخاء: الحب الذي ينظم في العقد، واحدته خَرْزَة. انظر مختار الصحاح ص ١٧٢ مادة (خرز)، والمصباح المنير ١٦٦/١ مادة (خرزت).

(٥) انظر لسان العرب ٢٩٣/١٥ مادة (وسط).

(٦) انظر تهذيب اللغة ٢٦/١٣ مادة (وسط).

(٧) انظر أساس البلاغة ٢/٥٥٥ مادة (وسط) ولسان العرب ٢٩٧/١٥ مادة (وسط).



كأنني لم أكن فيهم وسيطا ولم تك نسبتي في آل عمرو

وقال سيويوه رحمه الله : سمت العرب المكان الذي بين البصرة والكوفة واسط ، قال طرفه بن العبد^(١) : -

وان شئت سامي واسط الكور رأسها وعامت بضبيها نجاء الخفيدة
فلو أرادوا التأنيث قالوا واسطة^(٢) .

والواسطة في لغة هذيل : الباب ، وترادف الوساطة الواسطة في المعنى ، يقال : توسط فلان بين القوم إذا عمل الوساطة^(٣) .

وتقول العرب : صار الماء وسيطة : إذا غلب على الطين ، وواسطة الدنانير : خيارها^(٤) .

وقال ابن دريد رحمه الله : واسط : موضع بنجد ، وواسطة بالهاء قرية تحت الموصل ، وواسطة قرية في حضرموت^(٥) .

(والواسطة بين القوم : هي الوسيط ، ويقال بعثنا إليهم بواسطة للتفاوض في الأمر ، والواسطة هي السبب المؤدي إلى نتيجة ، فيقال : كان النجاح في ذلك بواسطة الجد والاجتهاد ، أي بسبب الجد والاجتهاد)^(٦) .

والواسطة تطلق على الأسطوانة الواقعة وسط الروضة الشريفة بين بيت النبي ﷺ ومنبره عن يمينها إلى المنبر أسطوانتان ، وبينها وبين الحجرة أسطوانتان ، وبينها وبين الرحبة أسطوانتان ، وهي واسطة بين ذلك ، وتعرف اليوم بأسطوانة السيدة عائشة رضي الله عنها^(٧) .

وقال الدكتور جميل صليبا في معجمه الفلسفي : (الوساطة : عمل الوسيط ، وهي

(١) ديوان طرفه بشرح مهدي محمد ناصر الدين ص ٢٣ ، وسامي : أي ارتفع ، والكور : الرجل ، وضبيها : عضدها ، نجاء : سرعة ، الخفيدة : ذكر النعام .

فالشاعر يصف ناقته التي يركبها ، ويقول : لو شئت جعلتها تمشي بسرعة ذكر النعام .

(٢) انظر تاج العروس ٢٣٩ / ٥ مادة (وسط) ودائرة معارف القرن العشرين لمحمد فريد وجدي ١٠ / ٧٨٠ مادة (وسط) .

(٣) انظر تاج العروس ٢٣٩ / ٥ مادة (وسط) .

(٤) انظر تاج العروس ٢٤٠ / ٥ ، ومعجم البلدان ٣٥٣ / ٥

(٥) الهادي إلى لغة العرب لحسن الكرمي ٤ / ٤٨٤ مادة (وسط) .

(٦) انظر وفاء الوفاء ٢ / ٤٤١ ، والأحاديث الواردة في فضائل المدينة للدكتور صالح الرفاعي ص ٤٨٧ ، والدر الثمين في معالم

دار الرسول الأمين للشيخ غالي الشنقيطي ص ٤٤



التوسط بين الشئيين أو الموجودين، إذا كان هذان الشيئان، أو الموجودان مستقلين في الواقع عن ذلك التوسط.

والواسطة: هي الشيء الذي يتم به الانتقال من طرف إلى آخر، مثل: .. توسط الحواس بين العقل والطبيعة^(١).

ويمكن القول: إن الوساطة في عصرنا أصبحت شائعة من حيث الإطلاق في لغة العصر على الجاه، والمنزلة، والمكانة، فيقولون: (فلان عنده واسطة) ويعنون بذلك أن له شخصا ذا جاه، ومنزلة يستطيع عن طريقه أن يحصل على وظيفة ما، أو حاجة من حوائج الدنيا^(٢).

ب- الوساطة في الاصطلاح: لعل من المناسب أن أبدأ أولا بذكر الوساطة في اصطلاح أهل السنة والجماعة، ثم أتبع ذلك بذكر معانيها المختلفة في اصطلاح الفرق؛ إذ لم تجمع الفرق على تعريف محدد لمصطلح الوساطة، نظرا للاختلاف الحاصل في مفهوم الوساطة عند هذه الفرق.

أولا: الوساطة في اصطلاح أهل السنة والجماعة: تنوعت عبارات أهل السنة في تعريف الوساطة، وكلها يدور حول تعريف الوساطة بأنها: الوسيلة^(٣)، والشفاعة^(٤). فقد ذكر الشهرستاني رحمه الله أن الوساطة: هي الشيء الذي تجعله لك قبلة، وشفيعا، ووسيلة^(٥).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالى: (ومن التوسل بالنبي ﷺ أيضا التوسل بالإيمان به، ومحبه، وطاعته، وموالاته، واتباع سنته، ونحو ذلك من أعمال البر المتعلقة به، فهذا أعظم القرب، والوسائل إلى الله تعالى؛ فإن التوسل: هو التوصل، والتقرب، وما تقرب أحد إلى الله عز وجل بأعظم من طاعة رسوله ﷺ)^(٦).

وقال أيضا في تلخيص كتاب الاستغاثة المعروف بالرد على البكري: (فتبين أن

(١) المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية، والفرنسية، والإنجليزية، واللاتينية ٥٧٢/٢

(٢) انظر في حكم هذا النوع من الوساطة: فتاوى للموظفين والمُعَمَّلَ لسماحة الشيخ عبد العزيز بن باز، والشيخ ابن عثيمين،

والشيخ عبد الله الجبرين، جمع محمد بن عبد العزيز المسند ص ١١

(٣) انظر تعريف الوسيلة مفصلا في ص ٤٣ (٤) انظر تعريف الشفاعة في ص ٤٦١ من هذه الرسالة.

(٥) انظر الملل والنحل ٣٥٧/٢

(٦) مجموع الفتاوى ١/١٢٥، وتلخيص كتاب الاستغاثة ١/١٦٥، وانظر جلاء العينين في محاكمة الأحمدين ص ٤٧٤

الوسيلة بين العباد وبين ربهم عز وجل الإيمان بالرسول، وطاعتهم... ، فالتوسل بهم الذي جاءت به الشريعة: هو التوسل إلى الله بالإيمان بهم، ويطاعتهم، أو بدعائهم، وشفاعتهم، كما كان الصحابة يتوسلون بدعاء رسول الله ﷺ في الاستسقاء، وغيره، وكما يتوسل الخلائق يوم القيامة بشفاعته، وأعظم وسائل الخلائق إلى الله تعالى الإيمان بهم، واتباعهم، وطاعتهم، فأما التوسل بذواتهم، والسؤال بهم بدون دعائهم، وشفاعتهم، وطاعتهم التي يشيب الله عليها، فهذا باطل لا أصل له في شرع، ولا عقل^(١).

وقال العلامة ابن القيم - رحمه الله تعالى: (وبالجملة فتجعل الرسول شيخك، وأستاذك، ومعلمك، ومربيك، ومؤدبك، وتسقط الوسائط بينك وبينه إلا في التبليغ، كما تسقط الوسائط بينك وبين المرسل في العبودية، ولا تثبت وساطة إلا في وصول أمره، ونهيه، ورسائله إليك، وهذان التجريدان هما حقيقة شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدا عبده ورسوله^(٢)).

وقال الشيخ تقي الدين المقرئ رحمه الله^(٣): (التوحيد حقيقة أنه ترى الأمور كلها من الله تعالى رؤية تقطع الالتفات إلى الأسباب، والوسائط، فلا ترى الخير، والشر، إلا منه تعالى، وهذا المقام يثمر التوكل، وترك شكاية الخلق، وترك لومهم، والرضا عن الله تعالى، والتسليم لحكمه^(٤)).

ويقول العلامة نعمان الألوسي رحمه الله - موضحا الترادف بين الوساطة والوسيلة - : (وتحقيق الكلام في هذا المقام أن الاستغانة بمخلوق، وجعله وسيلة بمعنى طلب الدعاء منه لا شك في جوازه إن كان المطلوب منه حيا^(٥)).

(١) تلخيص كتاب الاستغاثة ١/١٦٥ وما بعدها، وانظر اقتضاء الصراط المستقيم ٢/٧٨٦

(٢) مدارج السالكين ٣/١٤٤، وانظر التوضيح عن توحيد الخلائق في جواب أهل العراق للشيخ سليمان ابن عبد الله آل الشيخ ص ٣١٠

(٣) هو أبو العباس أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد بن إبراهيم الحسيني العبيدي البعلبي تقي الدين المقرئ، كان متبحرا في التاريخ على اختلاف أنواعه، ولد في القاهرة سنة ٧٦٦ هـ، وكانت وفاته سنة ٨٤٥ هـ. انظر شذرات الذهب ٧/٢٥٤، والأعلام ١/١٧٧

(٤) تجريد التوحيد المفيد ص ٥

(٥) جلاء العينين في محاكمة الأحمدين ص ٤٩٤، وانظر صيانة الإنسان عن وسوسة الشيخ دحلان ص ١٦٠

ويوضح العلامة محمود شكري الأولوسي رحمه الله : معنى الواسطة الشرعية الصحيحة عند أهل السنة بقوله : (فليس لنا وسيلة إلى الله إلا الدعاء المبني على أصول الذل، والافتقار، والثناء، فهو الوسيلة التي أمرنا الله سبحانه بالتوسل به، وجعله من أفضل الوسائل، وأخبرنا أنه مخ عبادته، تحقيقاً لِعَبْدِيَّتِنَا، فسد به عن غيره أبواب الذرائع^(١) .

٩- وقال الشيخ محمد الأمين الجكني الشنقيطي رحمه الله في تفسيره : (التحقيق في معنى الوسيلة هو ما ذهب إليه عامة العلماء من أنها التقرب إلى الله تعالى بالإخلاص له في العبادة، على وفق ما جاء به الرسول ﷺ، وتفسير ابن عباس داخل في هذا^(٢)؛ لأن دعاء الله والابتهاال إليه في طلب الخوائج من أعظم أنواع عبادته التي هي الوسيلة إلى نيل رضاه ورحمته، وبهذا التحقيق تعلم أن ما يزعمه كثير من ملاحدة أتباع الجهال المدعين للتصوف من أن المراد بالوسيلة في الآية^(٣) الشيخ الذي يكون له واسطة بينه وبين ربه أنه تخطيط في الجهل، والعمى، وضلال مبين، وتلاعب بكتاب الله تعالى، واتخاذ الوسائل من دون الله من أصول كفر الكفار، فيجب على كل مكلف أن يعلم أن الطريق الموصلة إلى رضا الله، وجنته، ورحمته هي اتباع رسوله ﷺ ومن حاد عن ذلك فقد ضل سواء السبيل^(٤) .

وقال الشيخ محمد بن صالح العثيمين رحمه الله : (الواسطة : هي الشفاعة للغير بجلب منفعة أو دفع مضرة^(٥)) .

ويقول الشيخ أحمد بن يحيى النجمي : (وأقول التوسل معناه : التوصل بشيء إلى شيء، فما لا يمكن الوصول إليه بغير واسطة تتخذ الوسيلة للوصول إليه بواسطة، وتلك الوسطة هي الوسيلة، فمثلاً ماء البئر لا ينال باليد، فيتخذ الرشاء - وهو الحبل - وسيلة للوصول إليه، أو المضخة في العصر الحديث، ومعنى الوسيلة في الشرع : القربة التي تكون سبباً في الوصول إلى مرضاة الله وجنته، وهي تكون بفعل أو امر الله، واجتناب

(١) غاية الأمان في الرد على النبهاني ٢٥٤ / ١

(٢) فسر ابن عباس رضي الله عنهما الوسيلة بالحاجة . انظر تفسير ابن كثير ٥٥ / ٢، وأضواء البيان ٧٦ / ٢

(٣) وهي قوله تعالى : { يا أيها الذين آمنوا اتقوا وابتغوا إليه الوسيلة } المائدة ٣٥

(٤) أضواء البيان ٨٧ / ٢

(٥) مجموع فتاوى ورسائل ابن عثيمين ٦١ / ٥، وانظر معجم ألفاظ العقيدة لعامر فالح ص ٢٢٨، والدعاء ومنزله من العقيدة

الإسلامية لجيلان العروسي ٨٣٨ / ٢

نواهيه، وبذلك أمر الله عز وجل (١).

ويقول الدكتور ناصر العمر: (والتوسط بين الناس من الوساطة، وهي الشفاعة) (٢).

ويقول الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ حفظه الله: (فالوسيلة: التقرب إلى الله بأنواع القُرب، والطاعات، وأعلامها إخلاص الدين له، والتقرب إليه بمحبته، ومحبة رسوله، ومحبة دينه، ومحبة من شرع حبه، وبهذا يجمع ما قاله السلف، وقولهم من اختلاف التنوع) (٣).

ومما يدل على الترادف المعنوي بين الوساطة والوسيلة قول مجد الدين الفيروز آبادي رحمه الله في قاموسه: (الوسيلة والواسطة: المنزلة عند الملك، والدرجة، والقربة، ووسل إلى الله تعالى توسلا عمل عملا تقرب به إليه) (٤).

وبين ابن الأثير رحمه الله: أن التوسل في اللغة هو التقرب إلى المطلوب، والتوصل إليه برغبة؛ لأن الواسل هو الراغب، والوسيلة: هي القربة، والواسطة، والأسباب هي التي يتوصل بها إلى الشيء، ويتقرب بها إليه، وجمعها وسائل (٥).

- فالتوسط، والتوجه، والتوسل، والتحبب، والتقرب، كلها بمعنى، وهو اتخاذ الوسيلة الشرعية، وهي الإيمان بالرسول ﷺ وطاعته.

(فالواسطة الوحيدة للوصول إليه تعالى هي الإيمان به إيمانا صحيحا، ثم عبادته بما شرع) (٦).

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (والتحبب، والتقرب إليه إنما هو بطاعة رسوله، فالإيمان بالرسول، وطاعته هو وسيلة الخلق إلى الله، ليس لهم وسيلة يتوسلون بها ألبتة إلا الإيمان برسوله، وطاعته، وليس لأحد من الخلق وسيلة إلى الله تبارك وتعالى إلا توسله بالإيمان بهذا الرسول الكريم، وطاعته) (٧).

ولعل التعريف المختار الذي يجمع أقوال أهل السنة في تعريف الوساطة هو: أن

(١) أوضح الإشارة في الرد على من أبجاز المنوع من الزيارة ص ٢٧٤، وانظر الرد على شبهات المستعنيين بغير الله لأحمد بن

عبس النجمي ص ٩٢ (٢) الوسطة في ضوء القرآن الكريم ص ١٦

(٣) هذه مفاهيمنا ص ١٢، وانظر قاعدة جلية في التوسل والوسيلة لشيخ الإسلام ابن تيمية تحقيق د. ربيع المدخلي ص ١٧

(٤) القاموس المحيط ٦٥ / ٤ مادة (وسل). (٥) انظر النهاية في غريب الحديث ١٨٥ / ٥ مادة (وسل).

(٦) مقدمة تحقيق الوساطة بين الحق والخلق ص ١٠ (٧) الجواب الباهر في زوار المقابر ص ١٠٢

الواسطة هي الوسائل، والأسباب الشرعية المقربة إلى الله الواردة في الكتاب والسنة، بمعرفتها، والإيمان بها، والعمل بمقتضاها، يتقرب العبد إلى الله تعالى لقبول أعماله.

فالواسطة عند أهل السنة والجماعة تطلق على أمرين:-

الأمر الأول: واسطة من الله إلى العباد لتبليغ شريعته، وهذه الواسطة تختص بالملائكة الكرام، والأنبياء عليهم الصلاة والسلام؛ حيث ينزل الملك الأمين بالوحي من الله تعالى إلى نبيه المصطفى^(١)، فيكون النبي سفيرا، وواسطة بين الله تعالى وخلقهم يبلغهم الوحي، ويبين لهم الشريعة، وهذه واسطة صحيحة.

يقول الإمام الماوردي رحمه الله: (لا منزلة في العالم أعلى من النبوة التي هي سفارة بين الله تعالى وعباده، تبعث على مصالح الخلق، وطاعة الخالق، فكان أفضل الخلق بها أخص، وأكملهم شروطا، أحق بها وأمس)^(٢).

ويتحدث شيخ الإسلام ابن تيمية عن نبينا محمد ﷺ مبينا أنه الواسطة في التبليغ بيننا وبين الله تعالى فيقول: (. . . وهذه الحقوق الثابتة بعد موته هي تبع لرسالته؛ فإنه هو السفير، والواسطة بيننا وبين الله تعالى في تعليمنا، وانتفاعنا بما علمنا من علم الله، وخبره، وفي أمرنا، وإرشادنا إلى ما أمر الله به، وأحبه، ورضيه، وبذلك حصل لمن آمن به، واتبعه سعادة الدنيا والآخرة، بل أعظم نعمة أنعم الله بها على المؤمنين أن أرسله إليهم، وأنزل عليه الكتاب، ومن عليهم باتباعه، فليس في الدنيا خير أعظم من هذا)^(٣).

وأما الأمر الثاني: فهو واسطة من العباد إلى الله تعالى لتحقيق طاعته، كالواسطة في العبادة، وقبول الطاعة، مثل واسطة توحيد الله تعالى، والتوسل بأسمائه، وصفاته، وواسطة العمل الصالح، وشفاعة نبينا ﷺ يوم القيامة. **فالواسطة نوعان:**

أ - واسطة من الحق إلى الخلق وهي الرسالة.

ب - واسطة من الخلق إلى الحق وهي العبادة^(٤).

يقول الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ رحمه الله: (وإن أعظم

(١) في كون الملك واسطة بين الله تعالى ورسوله. انظر ص من هذه الرسالة.

(٢) أعلام النبوة ص ٢٥٤

(٣) تلخيص كتاب الاستغاثة ١/ ٢٣٧، وانظر قاعدة جلييلة في التوسل والوسيلة ص ٢٤٠

(٤) انظر تفسير الفخر الرازي ١/ ٢٥١، وتفسير ابن كثير ١/ ٢٦

الوسائل، وأشرف المقاصد هو توحيد الله تعالى بعبادته، ودعائه وحده لا شريك له^(١).

فالوسائل التي تقرب العبد من الله سبحانه وتعالى، وتدنيه من رحمته سبحانه إنما تكون بما شرعه الله على لسان نبيه ﷺ من علم، أو عمل قلبي، أو بدني، أو ترك، وكف عن عمل محظور، فيدخل في ذلك جميع الطاعات، وترك جميع المعاصي امتثالاً لأمر الشارع^(٢).

ويقول الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله موضحاً الأعمال الموصلة إلى رضا الله والمقربة منه وبها يكون (القرب منه والحظوة لديه، والحب له، وذلك بأداء فرائضه القلبية، كالحب له وفيه، والخوف، والرجاء، والإنابة، والتوكل، والبدنية كالزكاة، والحج، والمركبة من ذلك كالصلاة، ونحوها من أنواع القراءة، والذكر، ومن أنواع الإحسان إلى الخلق بالمال، والعلم، والجاه، والبدن، والنصح لعباد الله، فكل هذه الأعمال تقرب إلى الله حتى يحبه... ويستجيب له الدعاء)^(٣).

فهذه أقوال أهل السنة في تعريف الواسطة، وهي أن الواسطة والوسيلة: كل ما يتقرب به إلى الله تعالى من فعل الطاعات، وترك المحظورات. وأن التوسط: هو ابتغاء الواسطة إلى الله تعالى أي: الاجتهاد في فعل ما يتقرب به إليه جل في علاه.

فالإقرار بوحداية الله تعالى واسطة، والشهادة للنبي ﷺ بالرسالة واسطة، وإقام الصلاة واسطة، وإيتاء الزكاة واسطة، وصوم رمضان واسطة، وحج بيت الله الحرام واسطة، وذكر الله تعالى واسطة، والصلاة على النبي ﷺ واسطة، وتلاوة القرآن واسطة، والكلمة الطيبة واسطة، وإمالة الأذى عن الطريق واسطة، وكل شعبة من شعب الإيمان واسطة، تقرب العبد إلى الله تعالى، وتدنيه من رحمته^(٤).

ثانياً: الواسطة في اصطلاح أهل الأهواء والبدع: أما الواسطة عند أهل الأهواء فليست

(١) تحفة الطالب والجلس في كشف شبه داود بن جرجيس ص ٤٩، وانظر مدارج السالكين ٣/ ٣٦٤، ومعارج الألباب في مناهج الحق والصواب لحسين النعمي ص ٢٩٩

(٢) انظر القول الجلي في حكم التوسل بالنبي والولي ص ٢٨، والرد على شبهات المستعنيين بغير الله تعالى ص ٩٢

(٣) تفسير السعدي ٢/ ١٣٤

(٤) انظر: الوسيلة لأبي الوفاء محمد بن درويش ص ٢٨، وتطهير الاعتقاد عن أدران الإلحاد للأمير الصنعاني ص ٥٥، والتوسل أنواعه وأحكامه للشيخ الألباني ص ١٤

مضبوطة بضابط شرعي، ولا محددة بحد عُرْفِي ولا عقلي، فهي عالم خيالي، وباب واسع دخل عن طريقه من الحكايات، والخرافات، والبدع ما جعل أهل الأهواء يتيهون في هذه المسألة العقدية الخطيرة، ويتبعون كاصائح، وناقق، ويتعلقون بكل شيء، ويصرحون بوساطة ذات المخلوق، الميت، أو الحي، حتى وصل بهم الأمر إلى أن قالوا: (لو أحسن أحدكم ظنه بحجر لنفعه)^(١)، وهو حديث مكذوب على رسول الله ﷺ؛ والذي جرهم إلى ذكره والاستدلال به؛ هو عدم وجود الأدلة الصحيحة التي تؤيد الوسائط البدعية التي يثبتونها، وعدم التقيد بالنصوص الثابتة من الكتاب والسنة، ثم اعتماد أهل الأهواء

- كما جرت العادة - على التموهيات، والحكايات المختلقة، والأحاديث المكذوبة؛ بل جَوَّز بعضهم توسيط الحيوانات، والجمادات^(٢).

وفي الصفحات التالية بيان لتعريف الوساطة إجمالاً عند أهل الأهواء عموماً، وتفصيلاً عند الفلاسفة والرافضة، والصوفية.

الواسطة عند علماء الحساب والرياضيين: الوسط: بالفتح وسكون السين المهملة عند الرياضيين هو الحد الأوسط المسمى بالواسطة، والمحاسبون يسمون العدد الثاني من الأعداد الثلاثة المتناسبة بالوسط، والثالث من الأعداد الأربعة المتناسبة بالوسطين.

فالواسطة في النسبة: هي التي يكون نسبة أحد الطرفين إليها كنسبتها إلى الطرف الآخر.

والواسطة العددية: هي التي تكون نصف مجموع حاشيتها المتقابلين، كالأربعة فإنها وسط بين ثلاثة، وخمسة، ومن هاهنا أخذ البعدان الأوسطان بحسب المسافة.

فأما البعدان الوسطان بحسب المصير فيعني مصير الكوكب بالقياس إليهما ليس سريعاً ولا بطيئاً^(٣).

فالواسطة الحسابية: تقال لجملة من المقادير هي حاصل قسمة مجموعها على عددها؛ ولهذه الوساطة الحسابية نفع كبير في المقاييس النفسية^(٤).

(١) وهذا الحديث باطل لا أصل له. انظر تخريجه ص

(٢) نقله خير الدين الأوسي عن بعضهم. انظر جلاء العينين ص ٥٧٧

(٣) انظر كشاف اصطلاحات الفنون ٢/ ١٣٧٥

(٤) انظر المعجم الفلسفي للدكتور جميل صليبا ٢/ ٥٧٣

الواسطة عند دعاة تحضير الأرواح: ذكر صاحب المعجم الفلسفي: أن الوساطة في عرف علماء الأرواح: هي الشيء الذي يتم به الاتصال بين الأحياء وأرواح الموتى^(١).

وقد ظهرت في القرن العشرين ظاهرة غريبة هدامة يرى بعض الباحثين أن لها صلة بالصهيونية العالمية، هذه الظاهرة هي: الروحية الحديثة، أو تحضير الأرواح، فتتخذ هذه الدعوة - بزعم أصحابها- أسلوب العلوم التجريبية في استدعاء أرواح من ماتوا، ومناجاتهم، واستفتائهم في قضايا الغيب المجهولة، والاستعانة بهم في علاج مرضى الأبدان، والنفوس، وفي الإرشاد إلى كشف المجرمين.

يعتمد أسلوب هذه الدعوة الهدامة على أربعة محاور:-

- المحور الأول: خباء، أو غرفة تسمى الخدر، أو المخدع.

- المحور الثاني: الظلام حتى تتم عملية الخداع.

- المحور الثالث: الوسيط الذي يكلم -حسب زعمه- أرواح من ماتوا، ويكلمونه، فيكون واسطة بين الناس الحاضرين، وعالم الغيب.

- المحور الرابع: شهود الجلسة.

وبلغ الانخداع بهذه الظاهرة ذروته حينما صرح الدكتور علي راضي^(٢) -وهو أحد المخدوعين بهذه الدعوة - قائلاً: إن أكبر واسطة في العالم قد حضر إلى القاهرة منذ عدة شهور إنه أمريكي لا يزيد عمره عن إحدى وعشرين سنة، تسميه بعض الصحف الأمريكية نبي القرن العشرين لكثرة ما أتى من المعجزات على حد زعمها^(٣).

يقول الدكتور محمد محمد حسين: (إن الروحيين لا يثبتون للرسول، والأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه إلا صفة الوساطة هذه، فالنبي -على حسب تعبير (آرثر فندلاي) هو

(١) انظر بد العارف لابن سبعين ص ٢٩٦، والمعجم الفلسفي ٥٧٤/٢، والروحية عند محي الدين ابن عربي ٨٦/١ للدكتور علي راضي.

(٢) هو الدكتور علي راضي أستاذ الفيزياء بجامعة عين شمس بالقاهرة، وعمل أستاذا لهذه المادة بجامعة الرياض، ثم استقال من التدريس، وتفرغ لأرائه الروحية، ويعمل حالياً رئيساً لجمعية الأهرام الروحية، وكما يقول عن نفسه إنه حاصل على دكتوراه في العلم الروحي؛ حيث اجتمعت به صاحبة المرجع الآتي فأفادها بذلك. انظر موقف الإسلام من السحر لحياة با أخضر ٢/٢٧٤

(٣) انظر سفير الأرواح العليا أو مقتطفات من تعاليم السيد سلفر برش ترجمة د. راضي ص ٨٥، وثلاثون سنة بين الموتى لكارل ويكلاند ترجمة علي راضي ص ٥٠

وسيط في درجة عالية من درجات الوساطة، والمعجزات التي جرت على أيديهم ليست إلا ظواهر روحية كالظواهر التي تحدث في حجرة تحضير الأرواح، بل إن هؤلاء المفسدين يتحدثون الكنيسة في أوروبا، وأمريكا زاعمين أن في وسع بعض الوسطاء أن يعيدوا إحداث كلما نسب للمسيح عليه السلام من معجزات^(١).

وقد اتضح أن الروحية الحديثة نوع من السحر يستعين فيه الوسيط بالشياطين للقيام بأعمال خارقة لعادة الحاضرين في الجلسة^(٢).

يقول أحد الكتاب الذي اتخذ بهذه الدعوة في أول أمره، ثم ظهر له زيفها وبطلانها، وأنها تقوم على الخداع والشعوذة، فرجع عنها، وكتب عن فضائحتها: إن الوساطة التي كانت بينه وبين الأرواح رجل يوصون بحسن رعايته وإكرامه وهو رجل تارك للصلاة، وحليق اللحية، وهم لا ينفونه عن منكر فعله^(٣).

الواسطة عند الفلاسفة: لم تكن نظرة الفلاسفة موحدة - كما هي عادتهم - فيما يتعلق بالواسطة، فحينما يرى معظمهم أن العقول المدبرة أو الكواكب العلوية الروحانية هي الوساطة بين الله تعالى وخلقهم^(٤)، يذهب قسم آخر منهم إلى إنكار وجود واسطة بين العباد وبارئهم قائلين: إن الوساطة غير معقولة^(٥).

ولهذا عرّف القسم الأول من الفلاسفة الوساطة بقولهم: (الواسطة هي الشيء الذي يتم به الانتقال من طرف إلى آخر، مثل توسط الزمان، والمكان بين الحرية والعالم، وتوسط الحواس بين العقل والطبيعة، وتوسط العقول السماوية بين الله وخلقهم... فالوسيط هو المتوسط بين الشيئين لتقريب أحدهما من الآخر، مثال ذلك قول (لافل): إن التعداد في النفوس هو الوسيط بين العقل المحض، وكثرة الأفكار والأشياء.

(١) الروحية الحديثة - دعوة هدامة - تحضير الأرواح وصلته بالصهيونية العالمية ص ٣٨ وأكد صاحب مفاهيم يجب أن تصحح على حد زعمه أن الأرواح يمكن أن تنجيب من يتادها، وتفث من يستغيث بها، كالأحياء سواء بسواء؛ بل أشد وأعظم.

انظر مفاهيم يجب أن تصحح لمحمد علوي مالكي ص ١٧٤

(٢) انظر موقف الإسلام من السحر ٤٥٣ / ٢ (٣) انظر عالم الجن والشياطين د. سليمان الأشقر ص ١٠٧

(٤) انظر جامعة الجامعة من تراث إخوان الصفا تحقيق عارف تامر ص ٩٦، والملل والنحل ٢ / ٢٨، والرء على المتطفين ص ٥٣٤، وتلخيص كتاب الاستفائة ٢ / ٥٧٢، وبغية المرتاد ص ١٨٧، والجواب الكافي ص ١٩٥، ونشر الطوالع للمرعي ص ٩٩، والتنجيم والنجومون للمعني ص ٤٣، وهذه مفاهيمنا ص ٩٥

(٥) انظر حاشية القوشجي على شرح التجريد للطوسي بهامش المواقف.

وقول بعض علماء اللاهوت : إن السيد المسيح هو الوسيط بين الله والناس^(١) .

وقال الإيجي : (الفلاسفة قالوا : إنه واحد حقيقي ، فلا يصدر عنه أثران ، والصادر عنه العقل الأول ، والبواقي صادرة عنه بالوسائط)^(٢) .

وفي نشر الطوالع : إن الفلاسفة (قالوا : الواحد لا يصدر عنه إلا واحد ، فاحتاجوا إلى إثبات العقول العشرة واسطة بينه وبين العالم الجسماني)^(٣) .

وقال العلامة ابن القيم -وهو يتحدث عن شرك الوساطة- : (ومنه شرك الملاحظة القائلين بقدم العالم ، وأبديته ، وأنه لم يكن معدوما أصلا ، بل لم يزل ، ولا يزال ، والحوادث بأسرها مستندة عندهم إلى أسباب ، ووسائط اقتضت إيجادها ، يسمونها العقول والنفوس)^(٤) .

الواسطة عند الرافضة : تعتقد الرافضة في العموم أن النبي ﷺ واسطة بين الله تعالى وخلقه ؛ حيث كان يأتيه جبريل عليه السلام بالوحي^(٥) حتى بلغ رسالة الإسلام الخالدة ، وليت الروافض وقفوا عند هذا الحد في تعريف الوساطة ، حتى يتفقوا مع أهل السنة في الفهم الصحيح للواسطة في التبليغ ، ولكن الرافضة شطت عن الحق ، وابتعدت عن التصور الصحيح للواسطة ، حينما يصرح أئمتها ، وعلمائها ، مرة بأن عليا رضي الله عنه كان مشاركا للنبي ﷺ في تبليغ الرسالة ، ومرة يصرحون بأن الأئمة من آل البيت هم الوساطة بين الله تعالى ، وخلقه ، ناهيك عن اعتقادات الغلاة في حق علي رضي الله عنه ورفع درجته فوق النبي ﷺ^(٦) .

وبما أن التناقض سمة من سمات مذهب الرافضة ؛ فإن الباحث في كتبهم لن تعوزه الأدلة على كل ما تقدم ، إلا أن الأمر الذي يبدو واضحا ، وتطفح به كتب القوم ، خصوصا

(١) المعجم الفلسفي ٥٧٣/٢ ، ونشر الطوالع ص ٩٩

(٢) المواقف في علم الكلام ص ٢٨٣ ، وانظر لوامع الأنوار البهية ١٤٦/١ ، وقد رد شيخ الإسلام ابن تيمية على الفلاسفة في قولهم : (الواحد لا يصدر عنه إلا واحد) انظر : مجموع الفتاوى ١٣٨/٨

(٣) ص ٩٩ ، وانظر الرسول والوحي للدكتور محمد المسير ص ٢٢٦

(٤) الجواب الكافي ص ٢٥٤ ، وانظر تجريد التوحيد المقيّد ص ٢٥ ، وانظر رد الشهرستاني عليهم في الملل والنحل ٣٢٨/٢ ، وكذلك رد المرعشي في نشر الطوالع ص ١٨٢

(٥) سيمر معنا في بيان نظرهم للرسول (أن من غلاتهم من يزعم أن جبريل عليه السلام أرسله الله بالوحي إلى علي فخان الأمانة ، وبلغ الرسالة إلى محمد صلى الله عليه وسلم .

(٦) سوف يأتي تفصيل هذا التصور في مبحث : تنقيص بعض أهل الأهواء لمقام الوساطة الصحيحة .

في باب الأدعية، والزيارات هو أن الوساطة بين الخلائق، وبارئهم سبحانه وتعالى هم الأئمة.

ومن صور هذا التناقض قول صاحب عقائد الإمامية - وهو يتكلم عن النبوة: (نعتقد أن النبوة وظيفة إلهية، وسفارة ربانية، يجعلها الله لمن ينتخبه، ويختاره من عباده الصالحين، وأوليائه الكاملين في إنسانيتهم، فيرسلهم إلى سائر الناس لغاية إرشادهم إلى ما فيه منافعهم، ومصالحهم في الدنيا والآخرة... ونعتقد أن قاعدة اللطف توجب أن يبعث الخالق اللطيف بعباده رسله لهداية البشر، وأداء الرسالة الإصلاحية، وليكونوا سفراء الله، وخلفاءه)^(١).

فيلاحظ هنا أن هذا التعريف للنبوة ينسحب حسب مفهوم الرافضة للوساطة حتى على أعمال الأئمة المعصومين - على حد زعمهم -، فلم يكن هذا التعريف مقصوراً عندهم على الأنبياء فحسب؛ بل استمع إلى صاحب الكتاب نفسه وهو يتكلم عن الإمامة فيقول: (والإمامة كالنبوة لطف من الله تعالى، وهي استمرار لها، والذي يوجب إرسال الرسل، وبعث الأنبياء هو نفسه يوجب أيضاً نصب الإمام)^(٢).

ويقول أيضاً مصرحاً بأن الأئمة هم الوساطة، والوسيلة إلى الله تعالى: (ونعتقد أن الأئمة هم أولو الأمر الذين أمر الله تعالى بطاعتهم، وأنهم الشهداء على الناس، وأنهم أبواب الله، والسبل إليه، والأدلة عليه، وأنهم عيّنة^(٣) علمه، وتراجمة وحيه، وأركان توحيده، وخزان معرفته؛ ولذا كانوا أماناً لأهل الأرض، كما أن النجوم أمان لأهل السماء)^(٤).

ونجد التناقض نفسه عند صاحب كتاب المعارف الحسينية فحينما يصرح مرة بأن الأنبياء، والرسل هم السفراء، والوساطة بين الله والخلق في قوله: (يجب على الخالق المتوحد من باب اللطف أن يجعل بينه وبين خلقه وسائط، وسفراء أمناء نسميهم رسلاً، وأنبياء يليقون من جهة لاستماع كلامه، وتلقي وحيه، وإلهامه، ومن جهة ثانية لتبليغ مراده إلى جملة عباده)^(٥)، حينما يصرح بهذا التعريف للوساطة نجده يشرك في عمل الأنبياء هذا - وهو

(١) عقائد الإمامية لمحمد رضا المظفر ص ٢٨

(٢) عقائد الإمامية ص ٥٠

(٣) العيبة: وعاء من جلد وموضع السر من الرجل. انظر القاموس المحيط ١/ ١١٣، مادة (العب).

(٤) المعارف الحسينية ص ١٧

(٥) عقائد الإمامية ص ٥٤

التوسط بين العباد وبارئهم في تبليغ رسالات الله - يَشْرِكُ معهم الأئمة من آل البيت رحمهم الله فيقول في خطبة كتابه : (أما بعد : فيقول الحسين بن آل حيدر الكاظمي ^(١) : إن الذي حدا بي لوضع هذا الكتاب أمران : أولاً : خدمة للأمة الإسلامية عامة ، ولذاكرين خاصة ، وتقرباً إلى الله تبارك وتعالى ، بواسطة خاتم النبيين وبأهل بيته الميامين المعصومين - رحمهم الله أجمعين) ، ثم ذكر الأمر الثاني : وهو استخراج الأخبار الصحيحة المعروفة عند العامة والخاصة دون ما يستشهد به الغلاة ^(٢) .

ومن صرح بمشاركة الأئمة من آل البيت رحمهم الله للأتباع والرسول عليهم السلام - في توسطهم عالم الرافضة الأسترابادي ^(٣) ؛ حيث يقول : (فيجب على الإنسان أن يعتقد بحقيقة الأنبياء ، وأوصيائهم ، وكونهم من قبل الله تعالى ، وأنهم الوسائط بينه تعالى ، وبين خلقه ، والمبلغون عنه سبحانه إليهم ، وهم حفظة شرائعه ، ويؤمن بهم ، وأنهم قالوا الحق عن الله تعالى ، وأنه تعالى أثنى عليهم بطاعته وإجابته وذكره ، وشكره ، ومن أثنى الله عليه فقوله وعمله وفعله حق ، وأن يؤمن بكل ما أنزل الله على أنبيائه ، وأوصيائهم ، وكتبه ، ووحيه ، وبما أدته ملائكته إليهم ؛ لأن الله تعالى أخبر به نبيه محمداً ﷺ وحججه [الصادقين] ^(٤)) .

ومما يؤيد أن المقصود بالواسطة عند الرافضة هم الأئمة تصريح الحافظ البرسي ^(٦) الرافضي بأنه ليس هناك واسطة بين الله تعالى ، والأئمة ، وهذا تفضيل لهم على أنبياء الله ، ورسله الذين كانوا يأخذون عن الله بواسطة الملك في غالب الأحيان .

يقول البرسي : (وليس بينه [أي الله] وبين رسول الله ، وولي سر ، وهذا رمز ، وحله : أن ليس بينهم وبين الله واسطة في الخلق ، ولا أول في السبق ، ولا أقرب إلى حضرة الحق ؛ لأنهم الخلق الأول ، والعالم الأعلى ، والكل تحت رفعتهم) ^(٧) .

وإذا كان مذهب الحافظ البرسي أن الإمام يأخذ عن الله ، ويطلع على اللوح المحفوظ

(١) لم أقف على ترجمته . (٢) المعارف الحسينية ص ٢

(٣) هو محمد باقر بن محمد الأسترابادي الشهير بداماد من شيوخ الرافضة في الدولة الصفوية ، توفي سنة ١٠٤٠ هـ . انظر الكنى والألقاب ٢/ ٢٠٦ ، وخلاصة الأثر للمحيي ٢/ ٣٠١ ، ومعجم المؤلفين ٩/ ٩٣

(٤) في الأصل المنقول (الصادقون) وهو خطأ نحواً .

(٥) مقتبس من حياة الأرواح للأسترابادي . انظر دائرة المعارف للأعلمي الشيعي ٧/ ٦٣

(٦) لم أقف على ترجمته . (٧) مشارق أنوار اليقين ص ١٣٥

بلا واسطة، وقد قرر هذا المذهب في مواطن كثيرة من كتابه "مشارك أنوار اليقين" مصرحاً بأن الإمام علياً رضي الله عنه أفضل من النبي ﷺ؛ لأن النبي مقيد بالتبليغ، وبتوسط الملك، أما الإمام فإنه مطلق العنان، يأخذ من اللوح المحفوظ ما شاء، ويخبر كيف شاء^(١)، إذا كان الأمر كذلك فإننا نجد المامقاني^(٢) الرافضي يصرح بأن الواسطة بين الأئمة، وبين الله تعالى تكون عن طريق جبريل عليه السلام تارة، وعن طريق النبي ﷺ تارة أخرى^(٣).

وهذا يؤكد أن التناقض سمة من السمات البارزة في عقائد الرافضة، فاعتقاد الحافظ البرسي في الإمامة، وهو بلا شك معتقد إخوانه من الرافضة أن الإمامة ركن من الدين، ولطف يجب على الله نصبه، وتعيينه، وأن معرفة الولي الإمام واجبة على كل مكلف، كوجوب معرفة النبي سواء بسواء، ومن مات ولم يعرف إمام زمانه مات كافراً، وهذه الإمامة كمال الدين، وعين اليقين، ورجح الموازين، وأن الإمام يجب أن يكون معصوماً، واجب الطاعة، خُصّاً من العلي العظيم، ونصاً من الرؤوف الرحيم، وأن الأئمة هم الواسطة بين الله تعالى، وخلقته في حياتهم يبلغون الشرائع، ويهدون الضائع، وفي قبورهم هم الوسيلة، والذخيرة ليوم الحشر، وقبورهم، ومشاهدتهم ملجأ القاصدين، وملاذ الداعين، فلا مهرب من قبضتهم، ولا فوز، ولا نجاة إلا بواسطتهم، ولن يلج الجنة إلا من دخل من بابهم^(٤).

وتراهم يصرحون بأن الأئمة من آل البيت هم الواسطة يقول أحدهم: (وما يعترض به من ليس فيه أنس بالفن، ولا باصطلاح أهله بأني قلت: إنهم (رحمهم الله) [يقصد الأئمة] العلة الفاعلة فمرادي أنهم محال مشيئة الله؛ بمعنى أن الله سبحانه أطلعهم على خلق ما خلق [فوجودهم]^(٥) شرط لإيجاد غيرهم؛ لأنهم الوسائط من الله، من خلقه، وإن كان الله تعالى قادراً على الإيجاد بدون توسط الأسباب، والآلات، إلا أنه عز وجل جرت عادته أنه يجري الأشياء على ترتيب أسبابها؛ ليعرف العباد الدليل، والاستدلال

(١) انظر مشارق أنوار اليقين ص ١٩٨

(٢) هو عبد الله بن محمد حسن بن عبد الله بن محمد باقر المامقاني النجفي من كبار شيوخ الرافضة، ولد بالنجف سنة ١٢٩٠ هـ، وتوفي بها سنة ١٣٥١ هـ من كتبه، تنقيح المقال في علم الرجال. انظر الأعلام ٩٣/٦، ومعجم المؤلفين ١١٦/٦، ونقباء البشر ١١٩/٢

(٣) انظر تنقيح المقال ٣/٢٤٠، ومسألة التقريب بين أهل السنة والشيعة للدكتور ناصر القفاري القسم الأول ص ٣٨٤

(٤) انظر مشارق أنوار اليقين ص ٢١٤-٢١٥ (٥) في النص المنقول (وجوهم) وليس له معنى.

على معرفة ما يريد منهم . . . فإنه تعالى إنما يخلق على العلل ليعرف لعباده كل شيء بما يتوقف عليه الإيجاد، والتعريف من العلل الفاعلية، لا من العلل المادية، ولا الصورية، ولا الغائية، وهذا هو المعروف عند أهله، وليس المراد بالعلة الفاعلية أنهم هم الخالقون، تعالى الله عما يشاركونه في خلقه علوا كبيرا^(١).

ويقول الكليني^(٢): (إن الإمام ينطق عن الله في الكتاب، وإنه أوضح بأئمة الهدى من أهل بيت نبينا صلى الله عليه وسلم عن دينه، وأبلغ عن سبيل مناهجه، وفتح بهم عن باطن ينابيع علمه، وجعلهم مسالك لمعرفة، ومعالم لدينه، وحججاً بينه وبين خلقه، والباب المؤدي إلى معرفة حقه، أطلعهم الله على المكنون من سره)^(٣).

وأبواب الأدعية والزيارات من كتب الرافضة تطفح بالتوجه إلى الأئمة، والتوسل بهم، واعتبارهم واسطة بينهم، وبين الله تعالى، فمن ذلك دعاء التوسل بالأئمة (يا سادتي، وموالي إني توجهت بكم أئمتي، وعدتي ليوم فقري، وحاجتي إلى الله، وتوسلت بكم إلى الله، واستشفعت بكم إلى الله فاشفعوا لي عند الله، واستغفروني من ذنوبي عند الله؛ فإنكم وسيلتي إلى الله، وبحبكم، وبقرّبكم أرجو نجاة من الله، فكونوا عند الله رجائي، يا سادتي، يا أولياء الله)^(٤).

ونقل عن عباس القمي^(٥) الدعاء الآتي الذي تدعوه به الرافضة، وإن كان قد تعدى دعاء الله بالواسطة إلى دعاء الواسطة نفسها: (يا محمد، يا علي، يا علي، يا محمد اكفياني فإنكما كافيان، وانصراني فإنكما ناصراني، يا مولانا يا صاحب الزمان: الغوث، الغوث، الغوث، أدركني، أدركني، أدركني، الساعة، الساعة، الساعة، العجل، العجل، العجل، يا أرحم الراحمين، بحق محمد وآله الطاهرين)^(٦).

ومن الأدعية في كتاب "كليات مفاتيح الجنان" (يا مولاي، يا صاحب الزمان، يا ابن

(١) دائرة المعارف للأعلامي الشيعي ١١٤/٧، نقلا عن أحمد بن زين الدين الأحسائي.

(٢) هو أبو جعفر محمد بن يعقوب بن إسحاق الكليني من كبار فقهاء الشيعة الإمامية، صنف للشيعة كتاب الكافي جمع فيه أحاديث الشيعة، وهو عندهم بمنزلة صحيح البخاري عند أهل السنة، وقد جمع في كتابه سن الطامات، والشناعات، والافتراءات على أهل البيت ما لا يعلمه إلا الله، توفي سنة ٣٢٨هـ. انظر الكنى والألقاب لعباس القمي ١٢٠/٣، ولسان الميزان لابن حجر ٤٣٣/٥، والأعلام للزركلي ١٤٥/٧.

(٣) أصول الكافي ١/١، وانظر الصلة بين التصوف والتشيع للدكتور مصطفى كامل الشبيبي الشيعي ٤٦٣/١.

(٤) كليات مفاتيح الجنان لعباس القمي ص ١١٠، وانظر مناسك حج لأية الله العظمى فاضل لنكراني ص ٢٨٤.

(٥) هو عباس بن محمد رضا بن أبي القاسم القمي من الإمامية، ولد بقم حوالي ١٢٩٣هـ، وتوفي بالنجف سنة ١٣٥٩هـ.

انظر الأعلام للزركلي ٢٦٥/٣، ونقباء البشر ٩٩/٢ (٦) كليات مفاتيح الجنان ص ١١٦.

رسول الله، حاجتي، كذا وكذا، فاشفع لي في نجاحها، فقد توجهت بحاجتي لعلمي أن لك عند الله شفاعاة مقبولة، ومقاما محمودا، فبحق من اختصكم بأمره، وارتضاكم لسره، وبالشأن الذي لكم عند الله بينكم وبينه، سل الله تعالى في نجاح طلبتي، وإجابة دعوتي، وكشف كربتي^(١).

وفي كتاب "مناسك حج" التوجه بالأئمة في الدعاء، وجعلهم واسطة، ووسيلة إلى رضوان الله: (رب صل على الأئمة الذين اخترتهم لأمرك، وجعلتهم خزنة علمك، وحفظة دينك، وخلفاءك في أرضك، وحججك على عبادك وطهرتهم من الرجز، والدنس تطهيرا، بإرادتك، وجعلتهم الوسيلة إليك، والمسلك إلى جنتك)^(٢).

ويعلق الباحث جيلان العروسي على هذه الأدعية عند الرفضة، مبينا أن هذه النماذج من الأدعية فيها اعتقاد أن الأئمة هم الواسطة بين الله، وبين الخلق في الحوائج، بل في اعتقاد أنهم الواسطة في الحوادث الكونية: من إنزال الغيث، وإمساك السماء، تعالى الله عما يقولون، فكأن الله لا يعمل شيئا إلا لجبر خاطر الأئمة، وإرضائهم وبوساطتهم أوجد العالم، فكأن الله محتاج إليهم في تدبير شؤون الكون، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا^(٣).

ويخاطبون عليا رضي الله عنه في قبره بعبارات الواسطة، والحجة، والباب، والمعدن، والأمين، وعين الله، ويد الله، ولسانه، وسفير الله، وخازنه، ومستودع علمه إلى غير ذلك^(٤).

ووجدت أحمد السرهندي، النقشبندي الصوفي يؤيد الرفضة في ادعائها أن عليا رضي الله عنه، والأئمة من بنيته هم الواسطة، وأن ما يصل إلى أولياء الصوفية من فيض على حد زعمهم -إنما هو بتوسطه رضي الله عنه، بالأصالة، وحضرات الفاطمة والحسين رضي الله عنهم تبع له^(٥).

وهذا يوضح لنا الصلة القوية، والتمازج البين بين الأفكار، والمعتقدات عند كل من

(٢) مناسك حج للنكراني ص ٣٠٦

(٤) انظر كليات مفاتيح الجنان ص ٣٧٧

(١) المرجع نفسه ص ١١٧

(٣) انظر الدعاء ومنزلته من العقيدة الإسلامية ٩٣٣/٢

(٥) انظر المنتخبات من المكتوبات ص ٢٢٤

الرافضة، والصوفية^(١)، وسوف يتضح هذا التشابه، والتداخل في مفهوم الواسطة عند هاتين الطائفتين في تعريف الصوفية للواسطة في الحديث الآتي.

الواسطة عند الصوفية: تتقارب عقائد أهل الأهواء، وتشابه في كثير من الأحيان؛ وذلك لعدم الضابط من الدليل الشرعي، وفي هذا المنزع نجد الصوفية مشت على سنن الرافضة في مسائل عديدة من الاعتقاد، ومن ذلك مسألة تعريف الواسطة، وتعيين المتوسط بين الله تعالى، وخلقه.

فكما رأينا الرافضة فيما سبق تعتقد أن الأئمة من آل البيت -رحمهم الله- هم الواسطة بين الله تعالى، وخلقه نجد أن الصوفية لم تلتزم معتقد أهل السنة والجماعة في قصر الواسطة في التبليغ على خاتم النبيين محمد ﷺ، بل ضارعت الرافضة في مسلكها، واعتبرت أن الواسطة بين الله، والخلق هو الشيخ^(٢)، والولي الذي أضفت عليه كثيرا من هالات التقديس، والإجلال، والتعظيم حتى رفعته إلى مرتبة النبي ﷺ وفي بعض الأحيان فوق مرتبته^(٣).

وفي كتب الصوفية، والغلاة منهم على وجه الخصوص، التصريح بأن ما يصل إلى المرئيين من هداية، وتوفيق، وخير، وما يندفع عنهم من شقاوة، وخذلان، وسوء، وشر، فإنما هو بتوسط الشيخ.

فأهمية الشيخ لا تقتصر على هداية المرئيين، وإرشادهم، وتبصيرهم بعيوب أنفسهم؛ بل إنها تتعدى هذه الحدود لتجعل الشيخ واسطة بين المرئيين وربهم، يقوي العلاقة بين العباد وبارئهم، من خلال تحبيب الله إلى العباد، وتحبيب العباد إلى الله^(٤).

يقول الشيخ عبد القادر الجيلاني مصرحا بأن الشيخ هو الواسطة: (فيجعله وسيلة، وواسطة بينه وبين ربه عز وجل، وطريقا، وسببا يتوصل به إليه، كمن يريد الدخول على ملك، ولا معرفة له به؛ فإنه لا بد له من أن يصادف حاجبا من حجاب، أو واحدا من

(١) انظر الصلة بين التصوف والتشيع للشبيبي الشبيبي ١/ ٤١٤، والعلاقة بين التشيع والتصوف لفلاح بن أحمد رسالة دكتوراه غير منشورة.

(٢) انظر مفاهيم يجب أن تصحح لمحمد علوي مالكي ص ٩٥، وزيارة القبور والاستنجاد بالقبور لشيخ الإسلام ابن تيمية ص ٦٢، وأصواء البيان للشقيطي ٢/ ٩٨، والتحفة السنية بتوضيح الطريقة التجانية لمحمد البرناري ص ١٧٩، والموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة ص ٣٤٤.

(٣) انظر تفصيل هذا التصور في مبحث تقيص بعض أهل الأهواء لقيام الواسطة الصحيحة.

(٤) انظر نظرية الاتصال عند الصوفية لسارة بنت عبد المحسن ص ٩٨.

حواشيه، وخواصه؛ ليعصره بسياسة الملك، ودأبه، وعادته^(١).

ويقول -أيضا- في كتابه " الغنية " (فالمشايع هم الطريق إلى الله عز وجل، والأدلاء عليه، والباب الذي يدخل منه إليه، فلا بد لكل مرید لله عز وجل من شيخ على ما بينا)^(٢).

ويقول السهروردي^(٣): (إن العالم ما خلا قط عن الحكمة، وعن شخص قائم بها عنده الحجب، والبيئات، وهذا يدل على أن القطبانية هي صورة من صور النبوة، فالإمام، أو الخليفة هو القطب، أو الإنسان الكامل، والأقطاب، أو الأئمة هم الدعائم التي يقوم عليها صرح الوجود، وهم الواسطة بين عالم الأمر، وعالم الخلق)^(٤).

ونقل ملاً علي القاري رحمه الله^(٥) في مرقاة المفاتيح عن بعض الصوفية: أن القطب هو الواسطة في الفيض بين الله وعباده، فقال: (القطب، ويقال له الغوث: هو الواحد الذي هو محل نظر الله تعالى من العالم في كل زمان، أي: نظراً خاصاً يترتب عليه إفاضة الفيض، واستفاضته، فهو الواسطة في ذلك بين الله تعالى وبين عباده، فيقسم الفيض المعنوي على أهل بلاده بحسب تقديره، ومراده)^(٦).

ويبين صاحب معجم مصطلحات الصوفية أن الشيخ هو الذي سلك طريق الحق ويعرف المخاوف، ويبصر المهالك، فإذا ظفر الإنسان بهذا الشيخ عليه أن يعتقد في قلبه أن لا شيخ غيره، ولا يوصل إلى الله إلا هذا، فهو واسطته وسببه الذي يوصله بالحق تبارك وتعالى، وهذا يسمى توحيد المطلب^(٧).

(١) الغنية ٢/ ١٦٥، وانظر نظرية الاتصال ص ٩٩

(٢) الغنية ٢/ ١٦٦، وانظر كتاب الفتح الرباني فيما يحتاج إليه المرید التجاني لمحمد بن عبد الله الطصفاوي ص ٢

(٣) هو أبو النجيب عبد القادر بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن سعد البكري الصديقي السهروردي صوفي ولد بسهرورد سنة ٤٩٠ هـ، وسكن بغداد، فولى المدرسة النظامية، ثم توفي ببغداد سنة ٥٦٣ هـ، وقيل: غير ذلك. انظر معجم البلدان ٣/ ٢٨٩، والوفيات ١/ ٢٩٩، والأعلام للزركلي ٤/ ٤٩

(٤) عوارف المعارف ص ١٨٠، وانظر معجم ألقاظ الصوفية للدكتور حسن الشرقاوي ص ٢٣٥

(٥) هو علي بن سلطان بن محمد الهروي المعروف بالقاري الخفي أحد صدور العلم، ألف التأليف الكثيرة النافعة في فنون العلم مثل: مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، وشرح الشفا وغيرها، توفي سنة ١٠١٤ هـ. انظر خلاصة الأثر للمحبي ٣/ ١٨٥، والبدر الطالع للشوكاني ١/ ٤٤٥

(٦) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ١٠/ ١٧٨ (٧) انظر معجم مصطلحات الصوفية ص ١٤٣

وذكر الألوسي ما رواه القشيري^(١) عن معروف الكرخي^(٢) أنه قال لتلامذته : (إن كانت لكم إلى الله حاجة فأقسموا عليه بي فإني الواسطة بينكم وبينه الآن)^(٣) !! .

ومثل ذلك يروى عن أبي الحسن علي الشاذلي^(٤) فإنه قال لأحد أتباعه : (إذا عرضت لك إلى الله تعالى حاجة فأقسم عليه بي)^(٥) .

وقال ابن الحاج^(٦) : (ثم يتوسل بأهل تلك المقابر : أعني بالصالحين منهم في قضاء حوائجهم ، ومغفرة ذنوبهم ، ويكثر التوسل بهم إلى الله تعالى ؛ لأن الله تعالى اجتباهم ، وشرفهم ، وكرمهم ، فكما نفع بهم في الدنيا ففي الآخرة أكثر ، فمن أراد حاجة فليذهب إليهم ، ويتوسل بهم ؛ فإنهم الواسطة بين الله تعالى ، وخلقه)^(٧) .

ويقول صاحب كتاب " ميزاب الرحمة الربانية في التربية بالطريقة التجانية " (ولكل مؤمن بنور الإيمان بواسطة الشيخ مدد وجيه . . . ولا يقدح في صدق المرید توجهه إلى الله تعالى بشيخه في قضاء حوائجه الدنيوية ، والأخروية ، أن يكمل أموره إليه كافة حتى يكون بحيث لا يرى مددا إلا منه ، ولا فتحا إلا عنه ، وأن به جميع الفتوحات النورانية ، والظلمانية من الأقوات الجسمانية ، والروحانية)^(٨) .

وصرح أحد أتباع أحمد التجاني^(٩) بأنه هو الوسيلة والواسطة ، فقال : إن ختم الولاية

(١) هو أبو القاسم عبد الكريم بن هواز بن عبد الملك بن طلحة النيسابوري القشيري الصوفي ، ولد سنة ٣٧٦ هـ وتوفي بنيسابور سنة ٤٦٥ هـ . انظر ترجمته في طبقات الشافعية للسبكي ٢٤٣/٣ ، وفيات الأعيان ١/٢٩٩ ، والأعلام للزركلي ٥٧/٤

(٢) هو أبو محفوظ معروف بن فيروز الكرخي أحد أعلام الزهد المتصوفين من موالى الإمام الرضى بن موسى الكاظم اشتهر بالصلاح والتقشف ولأتباعه غلو فيه كانت وفاته سنة ٢٠٠ هـ انظر سير أعلام النبلاء ٩/٣٣٩ ، وفيات الأعيان ٢/١٠٤ ، والأعلام للزركلي ٢٦٩/٧

(٣) جلاء العينين ص ٥٥٩ ، وصيانة الإنسان عن وسوسة الشيخ دحلان ص ١٨٩ ، والقول الفصل النفيس ص ١٨٢
(٤) هو أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن خلف بن جبريل المنوفي المصري الشاذلي ، الصوفي ، يعتقد فيه أتباعه كثيرا من الخرافات والأساطير ، ولد سنة ٨٥٧ هـ بالقاهرة ، وتوفي بها سنة ٩٣٩ هـ . انظر إيضاح المكنون للبيهقي ١/٥٥٧ ، والأعلام للزركلي ٥/١٦٤ ، ومعجم المؤلفين ٧/٢٣٠ (٥) جلاء العينين ص ٨٣

(٦) هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد العبادري القليلي المغربي القاسي المالكي الصوفي الشهير بابن الحاج ، عالم شارك في بعض العلوم ، ولد بفاس ، وتوفي بها ، وقدم مصر وحج ، كف بصره في آخر عمره ، توفي سنة ٧٣٧ هـ . انظر الدرر الكامنة ٤/٢٣٧ ، وذكرات مشاهير رجال المغرب لعبد الله كنون ص ٦ ، ومعجم المؤلفين ١/٢٨٤

(٧) المدخل ١/٢٤٩ (٨) ميزاب الرحمة الربانية ص ٣٣

(٩) هو التجاني وقيل : التجاني أبو العباس أحمد بن محمد فتحا بن المختار الصوفي المغربي مؤسس الطريقة التجانية ، ولد ونشأ بعين ماضي سنة ١١٥٠ هـ ، وتوفي بفاس سنة ١٢٣٠ هـ . له مقالات تصادم الشرع والطبع ، لأتباعه غلو زائد فيه . انظر : ترجمته في جواهر المعاني ، ١/١٩ ، وكشف الحجاب ص ١٠ ، وبغية المستفيد ص ١٣٥ ، والأعلام للزركلي ١/٢٣٢ ، ومعجم المؤلفين ٢/٢٤٣



لم يثبت لأحد قبل شيخنا، وإن أحدا ما ادعاها، وثبت على ادعائها لنفسه، ما عدا شيخنا، وسيدنا وواسطتنا، ووسيلتنا إلى ربنا^(١).

ويقول عبد العزيز الدباغ^(٢) لمريده: (إذا وجدت، وأعطاك المولى الشيخ الذي يريك فقم على خدمته، واعرف حق صحبتته، واتخذة وسيلة إلى الله عسى أن تدرك معرفة الله عز وجل)^(٣).

وقال -أيضا- لأحد مريديه: (إن ذاتي ليست بمحجوبة في القبر، بل هي في العالم كله، عامرة له، ومالئة، وفي أي موضع تطلبني تجدني، حتى لو أنك قمت إلى سارية في المسجد، وتوسلت بي إلى الله عز وجل، فإنني أكون معك حيث، ثم أشار إلى العالم كله فقال: وأنا فيه بأجمعه، فحيثما طلبتني وجدتني)^(٤).

ويقول أحمد السرهندي منوها بقدر هذا الشيخ الواسطة وأهميته: (ومن لم يشرف بصحبة مثل هذا الشيخ، فإن كان من المرادين يجذبه الحق سبحانه، ويجتبيه إليه، ويكفيه أمره، بمحض عنايته التي لا غاية لها، ولا نهاية، ويعلمه كل شرط، وأدب لازم له، ويجعل روحانية بعض الأكابر وسائل طريقه، ودليله في قطع منازل السلوك، فإن توسط روحانيات المشايخ في قطع طريق السلوك لازم، بطريق جري عادة الله سبحانه، وإن كان من المريدن فأمره من غير توسط شيخ مقتدى به مشكل، فينبغي أن يلتجئ إلى الله سبحانه دائما، إلى أن يصل إلى شيخ مقتدى به)^(٥).

ويقول الدكتور تقي الدين الهلالي في بيانه لنشأة صلاة الفاتح عند التجانيين، والواسطة المعظم الذي نقلها إلى الشيخ الواسطة التجاني: (إن هذه الصلاة وجدت في أول أمرها عند شخص يسمى محمد بن العربي التازي^(٦)، ويسميه التجانيون الواسطة المعظم؛ لأنه -بزعمهم- كان واسطة بين النبي ﷺ وبين الشيخ أحمد التجاني يحمل الرسائل من الشيخ

(١) انظر الهدية الهادية إلى الطائفة التجانية ص ٣٣

(٢) هو أبو فارس عبد العزيز بن مسعود الدباغ من الأشراف الحسنيين صوفي، لأتباعه مبالغات وغلو في شأنه، ولد بفاس بالمغرب سنة ١٠٩٥ هـ وكانت وفاته بها سنة ١١٣٢ هـ، انظر الإبريز لمريده أحمد بن المبارك اللمطي ص ٤، والأعلام للزركلي ٢٨/٤ (٣) الإبريز ص ٢٣٧

(٤) الإبريز ص ٢٤٢ (٥) المنتخبات من المكتوبات ص ٩٨

(٦) هو أبو عبدالله محمد بن العربي التازي دارا، الدمراوي أصلا (الواسطة العظمى)، حين يزعمون أنه كان واسطة بين النبي صلى الله عليه وسلم والشيخ التجاني، توفي بعين ماضي سنة ١٢٠٤ هـ. انظر كشف الحجاب عم تلاقى مع الشيخ التيجاني من الأصحاب لأحمد بن الحاج العياش ص ٩٧



إلى النبي ﷺ ومن النبي إلى الشيخ التجاني، وفي ذلك الوقت، أي وقت الواسطة لم يكن النبي ﷺ يظهر للشيخ التجاني، وإنما كان يظهر لمحمد بن العربي، وزعموا أن النبي ﷺ، قال للواسطة محمد بن العربي: لولا محبتك لحبيبي التجاني ما رأيتني، وكان الواسطة يخبر الشيخ التجاني بأنه إذا جاء الوقت الموعود يظهر النبي ﷺ له بلا واسطة، يحدثه، ويكلمه^(١).

فهذه هي الواسطة في عرف التجانيين، وهي داخلة في تعريف بقية الصوفية للواسطة كما رأينا.

وتعبر الصوفية أحيانا عن الشيخ الواسطة بالإنسان الكامل، والبرزخ.

يقول التهانوي^(٢): (إن الإنسان الكامل الحقيقي هو البرزخ بين الوجود، والإمكان، والمرأة الجامعة بين صفات القدم، وأحكامه، وبين صفات الحداث، وهو الواسطة بين الحق والخلق، وبه، وبمرتبه يصل فيض الحق، والمدد الذي سبب بقاء ما سوى الحق إلى العالم كله، علوا، وسفلا، ولولاه من حيث برزخيته التي لا تغاير الطرفين لم يقبل شيء من العالم المدد الإلهي، الوجداني؛ لعدم المناسبة، والارتباط، ولم يصل إليه)^(٣).

ويقول أحمد السرهندي -موضحا أن المقصود بهذا البرزخ هو الشيخ، الواسطة-: (وهذه المحافظة إنما هي إلى زمان الوصول إلى الشيخ الكامل، المكمل، ثم بعد الوصول إليه لا شيء عليه سوى تفويض جميع مراداته إليه، وكونه كالميت بين يدي الغسال لديه، والفناء الأول هو الفناء في الشيخ، ويكون هذا وسيلة الفناء في الله:

من أجل كونك في البداية أحولا لا بد من شيخ يقودك أولا

فإن طريقة الإفادة، والاستفادة مبني على وجود المناسبة أولا بين الطرفين، والطلب لا بد له أولا من برزخ، ذي جهتين؛ لكونه في الابتداء في غاية الدناءة، ونهاية الخساسة، وعدم مناسبته أصلا لجناح قدسه جل سلطانه، من هذه الحيشية، وذلك البرزخ (هو

(١) الهدية الهادية ص ١١١، وانظر التحفة السنية بتوضيح الطريقة التجانية ص ٦٢

(٢) هو محمد بن علي بن محمد بن حامد بن محمد صابر الفاروقي الحنفي التهانوي، من أهل الهند، لغوي مشارك في بعض العلوم من آثاره كشف اصطلاحات الفنون والعلوم، كان حيا سنة ١١٥٨ هـ. انظر ترجمته في الأعلام للزركلي ١٨٨/٧، ومعجم المؤلفين ٤٧/١١

(٣) كشف اصطلاحات الفنون ١١٢/١، وانظر التعريفات ص ٦٣، ومعجم مصطلحات الصوفية للحنفي ص ٢٧، والمعجم الصوفي الحكمة في حدود الكلمة د. سعاد الحكيم ص ١٥٨

الشيخ) الكامل المكمل (١).

فوساطة الإنسان الكامل نوعان : أ- واسطة فيض . ب- واسطة مد ، ومعناها الإنسان الكامل الذي يمثل الرابطة بين الحق والخلق بمناسبته للطرفين (٢) . وأصبحت بذلك رتبة المشيخة من أعلى الرتب في طريق الصوفية للتوسط بين الحق والخلق ، ونيابة النبوة في الدعاء إلى الله تعالى (٣) .

ومما يؤكد صحة المقولة التي سبقت الإشارة إليها ، وهي تأثير الصوفية في مسألة الوساطة بالرافضة اعتبار أحمد السرهندي أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه هو الوساطة العظمى في الوجود ، ثم انتقلت منه هذه الوساطة إلى الاثني عشر من بنيهِ -رحمهم الله- ، ثم إلى الأولياء من الصوفية ، حتى وصلت النوبة إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني .

يقول السرهندي : (وأظن أنه [أي علي] رضي الله عنه كان ملاذ هذا المقام ، قبل النشأة العنصرية أيضاً ، كما أن بعد النشأة العنصرية كل من وصل إليه الفيض ، والهداية من هذا الطريق وصل بتوسطه ؛ فإنه عند نقطة منتهى هذا الطريق ، ومركز هذا المقام متعلق به ، ولما تم دوره (رضي الله عنه) فوض هذا المنصب العظيم القدر ، وسلمه إلى حضرات الحسين ، على الترتيب ، وبعدهما إلى كل واحد من الأئمة الاثني عشر ، على الترتيب ، والتفصيل ، وكل من وصل إليه الفيض ، والهداية في أعصار هؤلاء الأكابر ، وكذلك بعد ارتحالهم ، وصل بتوسطهم ، وبحيلولتهم ، وإن كان من الأقطاب ، ونجباء الوقت ، وكان ملاذ الجميع ، وملجأ الكل هؤلاء الأكابر ؛ فإنه لا بد للأطراف من اللحوق بالمركز إلى أن وصلت النوبة إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني ، قدس سره ، ولما بلغت النوبة إليه فوض المنصب المذكور إليه قدس سره ، ولا يشاهد على هذا المركز أحد بين الأئمة المذكورين ، وبين الشيخ قدس سره ، ويفهم وصول الفيوض ، والبركات في هذا الطريق إلى أي فرد كان من الأقطاب ، والنجباء ، بتوسطه الشريف ، فإن هذا المركز لم يتيسر لغيره ؛ ولهذا قال :-

أفلت شمس الأولين وشمسنا أ بدا على أفق العلا لا تغرب

والمراد بالشمس : شمس فيضان الهداية ، والإرشاد ، ولما تعلققت المعاملة التي كانت

(٢) انظر الكشف عن حقيقة الصوفية ص ٩٣

(١) المنتخبات من المكتوبات ص ٢٧

(٣) انظر عوارف المعارف ص ٨٣ ، ونظرية الاتصال عند الصوفية ص ٩٥

أولا متعلقة بالأولين بالشيخ بعد وجوده، وصار هو واسطة وصول الرشد، والهداية كما كان الأولون قبله، ويكون وصول الفيض أيضا بتوسطه، مادامت معاملة التوسط بأقية^(١).

ويمكن القول: إن نظرة الصوفية للواسطة من الأولياء، والمشايخ، سارت على منوال النظرة الشيعية للواسطة في الأئمة المعصومين - على حد زعمهم - ولم تحد عنها في غالب الأحيان.

يقول الدكتور كامل الشيبى الشيعي: (ومن هنا جاء التزاوج بين التشيع والتصوف؛ بل جاء رسم التصوف على مثال المثل الروحية الشيعية، وصار الأولياء صوراً أخرى من ولي الله علي بن أبي طالب، وصاروا يتحرون ما يقال في الأئمة فيضيفونه إلى الأولياء)^(٢).

ويرى بعض الروافض أن الصوفية باعتقادهم في مشايخ طرقتهم أنهم هم الواسطة؛ إنما أرادوا بذلك مقابلة الشيعة في اعتقادهم وساطة الأئمة من آل البيت، فهم شر الطوائف، والسبب عنده: أن علماء الصوفية صرحوا بأن طريقتهم يشترط فيها أن تكون على مذهب أهل السنة والجماعة، فأرادوا إخلاف الحق بمقابلته بما يشابهه من الباطل؛ لأن الباطل مشابه للحق في الصورة الظاهرة، وفي بادئ الرأي، ثم إن كل هذه الضلالات، والترهات، والتكلفات، ما ابتدعتها الصوفية إلا لأجل معارضة أئمة الهدى رحمهم الله^(٣).

ويقول الشيبى: (وبذلك يتضح كنه الصحبة الصوفية، وصدورها عن التشيع، ويتبين التألف بين الإمام، والشيخ، والشيعي، والمريد... والواقع أن ذلك كله أت من الثقة العمياء في الشيخ... ولذلك كانت طاعة المريد للشيخ فوق طاعته للرب. فالمريد لا يستطيع بنفسه أن يتفهم ما أراه الله بأسراره، وآياته، ولكن الشيخ يفهم، وبذلك وجب على المريد أن يطيعه تلك الطاعة التي لا طاعة فوقها)^(٤).

وأكد ابن خلدون رحمه الله^(٥) رسم وساطة الشيخ عند الصوفية على مثال وساطة الإمام عند الرافضة مبيناً: أن سلف الصوفية كانوا مخالطين للإسماعيلية المتأخرين من الرافضة؛ فلذلك تأثروا بكثير من معتقداتهم، وتشابهت الخرافات التي يقوم عليها مذهب كل من الطائفتين...^(٦).

(٢) الصلة بين التصوف والتشيع للشيبى ١/ ٣٨٣

(١) المنتخبات من المكتوبات ص ٢٢٤ وما بعدها.

(٤) الصلة بين التصوف والتشيع للشيبى ١/ ٤٦٤

(٣) انظر دائرة المعارف للأعلامي الشيعي ٨/ ٤٢

(٥) هو أبو زيد عبدالرحمن بن محمد بن محمد بن الحسن بن محمد بن جار الحضرمي الأشبيلي الأصل، التونسي، ثم القاهري، المالكي، ولي الدين المعروف بابن خلدون، ولد بتونس سنة ٧٣٢هـ، وتنقل في البلدان، ولي كتابة السر بفاس، ثم عزل، فرحل إلى مصر، وولي قضاء المالكية بالقاهرة، حتى توفي بها سنة ٨٠٨هـ. انظر الضوء اللامع

للسخاوي ٤/ ١٤٥، وشذرات الذهب ٧/ ٧٦، ومعجم المؤلفين ٥/ ١٨٨

(٦) انظر مقدمة ابن خلدون ص ٤٣٧



المبحث الثاني

التعريف بأهل السنة وتوضيح ألقابهم

أولاً: التعريف بأهل السنة: لكي نقف على تعريف محدد وواضح للمراد بأهل السنة ينبغي أن نقف على تعريف السنة وبيان المراد بها في اللغة واصطلاح العلماء؛ لأن معرفة الاسم (السنة) وبيانه واسطة ووسيلة إلى معرفة المسمى (أهل السنة) والمراد بهم. فأقول:

أ - السنة في اللغة: السنة - بضم الأول وفتح الثاني المشدد -: الطريقة والسيرة، حسنة كانت أو قبيحة، وتجمع على سنن مثل غرفة وغُرْف (١).

قال ابن فارس: السنة: السيرة، وسنة رسول الله ﷺ: سيرته، قال الهذلي (٢):

فلا تجزعن من سنة أنت سرتها فأول راض سنة من يسيرها.

وقال ابن منظور: السنة: السيرة المحمودة أو المذمومة، وقد تكرر في الأحاديث ذكر السنة والمراد بها الطريقة (٣).

ومن تلك الأحاديث حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: (من سن في الإسلام سنة حسنة، فعمل بها بعده كتب له مثل أجر من عمل بها ولا ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة فعمل بها بعده كتب عليه مثل وزر من عمل بها ولا ينقص من أوزارهم شيء) (٤).

ب - السنة في الاصطلاح: يختلف المراد السنة في اصطلاح المحدثين والأصوليين والفقهاء وعلماء الوعظ وأصول الدين وإن كان الجميع يتفق على أنها سنة النبي (، لكن الاختلاف حصل عند التفصيل والتحديد (٥).

ولعل مرد هذا الاختلاف في تحديد المعنى الاصطلاحي للسنة راجع إلى تنوع الأغراض التي يعنى بها كل فئة من أهل العلم (٦).

فعلماء الحديث عرفوا السنة بأنها: (هي ما أثر عن النبي ﷺ من قول، أو فعل، أو

(١) انظر مختار الصحاح ص ٣١٧ مادة (س ن ن)، والمصباح المنير ٢٩٢/١ مادة (س ن ن).

(٢) انظر مجمل اللغة ٢ / ٤٥٥ مادة (س ن ن). (٣) انظر لسان العرب ١٣ / ٢٢٥ مادة (س ن ن).

(٤) صحيح مسلم بشرح النووي كتاب العلم باب من سن في الإسلام سنة حسنة ١٦ / ٢٢٦

(٥) انظر وسطية أهل السنة بين الفرق ص ٣٠

(٦) انظر: السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي للبياعي ص ٤٨



تقرير، أو صفة خَلْقِيَّة، أو خُلُقِيَّة، أو سيرة، سواء كان قبل البعثة^(١) أو بعدها^(٢).

وعلماء الأصول لما كانت عنايتهم منصبة في البحث عن الأدلة الشرعية اهتموا بأقواله ﷺ، وأفعاله - وتقريراته، فعرفوا السنة بأنها: (ما نقل عن النبي ﷺ من قول، أو فعل، أو تقرير).

وقال الشوكاني رحمه الله في بيانه لتعريف السنة عند الأصوليين - هي: (ما صدر عن النبي (من غير القرآن، من قول، أو فعل، أو تقرير، وهذا هو المقصود بالبحث عنه في هذا العلم)^(٣).

وأما علماء الفقه فإنهم ذهبوا في تعريفهم للسنة مذهباً آخر مختلفاً عن تعريف المحدثين والأصوليين نظراً لاشتغالهم في البحث عن أحكام الشارع على أفعال العباد من حيث الوجوب، أو الحرمة، أو الإباحة، أو غير ذلك.

يقول الخطيب البغدادي رحمه الله^(٤): (وقد غلب على السنة الفقهاء أنهم يطلقون السنة فيما ليس بواجب، فينبغي أن يقال في حد السنة: أنها ما رسم ليحتذى استحباباً)^(٥).

وعلى رأي الخطيب البغدادي قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في تعريف السنة عند الفقهاء: (وفي اصطلاح بعض الفقهاء: ما يرادف المستحب)^(٦).

هكذا عرف المحدثون، والأصوليون، والفقهاء السنة في اصطلاحاتهم، أما السنة في باب العقائد عند علماء السلف فيعنون بها معنى أوسع من التعريفات السابقة عند هؤلاء العلماء، فإنهم يقصدون بالسنة موافقة كتاب الله وسنة الرسول ﷺ، وأصحابه الكرام

(١) كنهه ﷺ في غار حراء، وحسن سيرته؛ لأن الحال يستفاد منها ما كان عليه قبل النبوة من كرائم الأخلاق، ومحاسن الأفعال، كقول أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها: (كلا والله لا يخزيك الله؛ إنك لتصل الرحم وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتكسب المعدوم، وتعين على نوائب الحق...). انظر قواعد التحديث للقاسمي ص ٣٨، وأصول الحديث لمحمد عجاج الخطيب ص ١٩ (٢) فتح المغيب شرح ألفية الحديث للعراقي شرح السخاوي ١٢ / ١

(٣) إرشاد الفحول ص ٣٣

(٤) هو الحافظ أبوبكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي المعروف بالخطيب البغدادي، ولد سنة ٣٩٢ هـ واشتغل بالحديث، والأصول، والتاريخ، توفي في بغداد سنة ٤٦٣ هـ. انظر ترجمته في وفيات الأعيان ٩٢ / ١، وطبقات الشافعية الكبرى للسبكي ٢٩ / ٤، ومعجم الأدباء ١٣ / ٤

(٥) الفقيه والمتفقه ٨٦ / ١، وانظر تهذيب الأسماء واللغات للنووي القسم الثاني ١٥٦ / ١

(٦) فتح الباري ٢٤ / ١٣ في شرح صحيح البخاري لابن حجر، وانظر: أنيس الفقهاء للقونوي ص ١٠٦



رضي الله عنهم، وتشمل أمور الاعتقادات، والعبادات^(١)، وتقابلها البدعة^(٢)، فيقال: فلان على السنة إذا كانت أعماله على وفق الكتاب والسنة، وفلان على البدعة إذا كانت أعماله مخالفة للكتاب والسنة، أو أحدهما.

قال الشاطبي رحمه الله^(٣): (ويطلق -أي لفظ السنة- في مقابلة البدعة فيقال: فلان على سنة إذا عمل على وفق ما عمل عليه النبي ﷺ كان ذلك مما نص عليه الكتاب أو لا، ويقال: فلان على بدعة إذا عمل على خلاف ذلك، وكأن هذا الإطلاق إنما اعتبر فيه عمل صاحب الشريعة فأطلق لفظ السنة من تلك الجهة، وإن كان العمل بمقتضى الكتاب، ويطلق أيضا لفظ السنة على ما عمل عليه الصحابة وجد ذلك في الكتاب والسنة أو لم يوجد^(٤)؛ لكونه اتباعا لسنة ثبتت عندهم لم تنقل إلينا، أو اجتهدا مجمعا عليه منهم، أو من خلفائهم...^(٥)).

ولأهمية مسائل الاعتقاد وخطورتها لأنها هي أصل الدين وأساسه وعليها يبنى غيرها من شعائر الإسلام التعبدية أطلق السلف رحمهم الله لفظ السنة على ما يوافق الكتاب والسنة في المسائل الاعتقادية.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (ولفظ السنة في كلام السلف يتناول السنة في العبادات

(١) انظر: مجموع الفتاوى ٤/ ١٨٠، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لشيخ الإسلام ابن تيمية ص ١٠٩
(٢) البدعة في اللغة: الإحداث في الدين، قال ابن منظور: البدعة: الحدث، وما ابتدئ من الدين بعد الكمال، وأنشد قول رؤبة: **إن كنت لله تغي الأطرعا فليس وجه الحق أن تبدعا**

انظر: لسان العرب ١/ ١٧٤، وتهذيب اللغة ٢/ ٢٤٠ مادة (بدع).

والبدعة في اصطلاح الشرع: (عبارة عن طريقة في الدين مخترعة تضاهي الشرعية يقصد بالسلوك عليها المبالغة في التعبد لله سبحانه) الاعتصام للشاطبي ١/ ٥٠، وقال ابن رجب: "كل ما أحدث بما لا أصل له في الشريعة يدل عليه فهو بدعة، أما ما كان له أصل من الشرع يدل عليه فليس ببدعة شرعا وإن كان بدعة لغة". انظر: جامع العلوم والحكم ص ٢٥٢، وقال الحافظ ابن حجر: "وتطلق لبدعة في الشرع على ما يقابل السنة، فتكون مذمومة". انظر: فتح الباري ٤/ ٢٥٣، والحوادث البدع ص ٤٠، وحقيقة البدعة وأحكامها لسعيد الغامدي ١/ ٢٥٢

(٣) هو أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي، القرناطي، المالكي، الشهير بالشاطبي، أصول لغوي، محدث، مفسر، من كبار أئمة المالكية، كان سيفا على المبتدعة، والمقلدة المتعصبة في زمنه توفي -رحمه الله تعالى- سنة ٧٩٠هـ.

انظر مقدمة الاعتصام ١/ ١٠، والأعلام للزركلي ١/ ٧٥، ومعجم المؤلفين ١/ ١١٨

(٤) معنى ذلك: عثرنا عليه في السنة، أو لم نعثر عليه فيها. قاله شارح الموافقات الشيخ عبد الله دراز. انظر: لموفقات ٤/ ٤ الحاشية رقم (١).

(٥) الموافقات ٤/ ٤

وفي الاعتقادات وإن كان كثير ممن صنف في السنة يقصدون الكلام في الاعتقادات، وهذا كقول ابن مسعود، وأبي بن كعب^(١)، وأبي الدرداء - رضي الله عنهم - : (اقتصاد في سنة خير من اجتهاد في بدعة)^{(٢)(٣)}.

وقال ابن رجب الحنبلي رحمه الله^(٤) : (السنة طريقة النبي ﷺ التي كان عليها هو وأصحابه السالمة من الشبهات والشهوات، ثم صار معنى السنة في عرف كثير من العلماء المتأخرين^(٥) من أهل الحديث وغيرهم : عبارة عما سلم من الشبهات في الاعتقادات خاصة في مسائل الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وكذلك في مسائل القدر، وفصائل الصحابة، وصنفوا في هذا العلم تصانيف، وسموها كتب السنة، وإنما خصوا هذا العلم باسم السنة؛ لأن خطره عظيم، والمخالف فيه على شفا هلكة)^(٦).

المراد بأهل السنة: فالمراد بأهل السنة -أخذاً مما سبق- هم المتبعون للسنة المتمسكون بها وهم الصحابة رضي الله عنهم ومن تبعهم بإحسان من هذه الأمة إلى يوم الدين .

وقد ظهر إطلاق هذا اللفظ (أهل السنة) في صدر الإسلام وعصر النبوة، فقد أخرج الألكائي^(٧) - رحمه الله تعالى - (عن ابن عباس رضي الله عنهما في قول الله تعالى : ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾^(٨) أن ابن عباس قال : (فأما الذين ابيضت

(١) أورده البيهقي عن أبي بلفظ (إن اقتصاداً في سبيل سنة خير من اجتهاد في خلاف سبيل سنة) شرح السنة ١٨٣/١ باب الاعتصام بالكتاب والسنة .

(٢) أخرج هذا الأثر الدارمي عن ابن مسعود بلفظ (القصد في السنة خير من الاجتهاد في البدعة) ٧٢/١ وقال : " هذا موقوف وروي عن الحسن عن النبي ﷺ مرسلًا بزيادة ألفاظ " . والبيهقي في السن الكبرى ١٩/٣، والحاكم في المستدرک ١٠٣، وصححه الشيخ الألباني . انظر : صلاة التراويح ص ٧

(٣) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ص ١٠٩

(٤) هو أبو الفرج عبد الرحمن بن أحمد بن رجب زين الدين السلامي البغدادي ثم الدمشقي أحد العلماء الحفاظ في الحديث مشارك في كثير من العلوم، ولد في بغداد سنة ٧٣٦هـ ونشأ في دمشق وبها كانت وفاته سنة ٧٩٥هـ . انظر ترجمته في الدرر الكامنة ٣٢١/٢، وشذرات الذهب ٣٣٩/٦

(٥) ينبغي ملاحظة أن تخصيص مفهوم السنة بأصول الاعتقاد بدأ في عصور متقدمة وأن كثيراً من علماء السلف صنفوا كتباً في أبواب الاعتقاد وأصول الدين وأطلقوا على هذه المصنفات اسم السنة . انظر تلك الكتب وتفصيل الكلام عنها في مسألة التفريق للقضاري القسم الأول ص ٥٣، ووسطية أهل السنة بين الفرق ص ٣٧

(٦) كشف الكربة ص ٥٧

(٧) هو أبو القاسم هبة الله بن الحسن بن منصور الطبري الرازي، اللاكائي، وهذا اللقب نسبة إلى بيع (اللولك) التي تلبس في الأرجل، كان حافظاً للحديث، من فقهاء الشافعية، من أهل طبرستان ثم استوطن بغداد، ومات معمرًا بالدينور سنة ٤١٨هـ . انظر : شذرات الذهب ٢١١/٣، والأعلام للزركلي ٥٧/٩

(٨) سورة آل عمران الآية ١٠٦

وجوهم فأهل السنة والجماعة وأولو العلم، وأما الذين اسودت وجوهم فأهل البدع والضلالة^(١).

ويقول ابن حزم -رحمه الله-^(٢): (وأهل السنة أهل الحق ومن عداهم فأهل البدعة، فإنهم الصحابة رضي الله عنهم، ومن سلك نهجهم من خيار التابعين رحمة الله عليهم، ثم أصحاب الحديث ومن تبعهم من الفقهاء جيلاً فجيلاً إلى يومنا هذا، ومن اقتدى بهم من العوام في شرق الأرض وغربها رحمة الله عليهم)^(٣).

والسبب في تسميتهم بأهل السنة هو: كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (إنما سموا أهل السنة لاتباعهم سنته ﷺ)^(٤).

ثانياً: توضيح ألقابهم: من الأسماء والألقاب المرضية عند أهل السنة وتميزهم عن أهل الأهواء والبدع: أنهم:-

(أ) **أهل الجماعة**^(٥)، وقد ورد هذا الاسم في عدد من الأحاديث النبوية أشهرها حديث معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: (إن هذه الأمة ستفرق على إحدى وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة، وهي الجماعة)^(٦).

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة ١/ ٧٢، وتفسير البغوي ١/ ٣٣٩، ومجموع الفتاوى ٣/ ٢٧٨، وتفسير ابن كثير ٢/ ٧٦، قال السيوطي: أخرجه ابن أبي حاتم وأبو نصر في الإبانة والخطيب في تاريخه. ثم ذكر السيوطي أن هذا الأثر الموقوف ورد مرفوعاً عن ابن عمر وأبي سعيد الخدري رضي الله عنهما. انظر الدر المنثور ٢/ ٦٣، (٢) هو أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري عالم الأندلس في عصره فقيه، أديب، حافظ، متكلم، ولد بقرطبة سنة ٣٨٤هـ، وقيل غير ذلك، وتوفي بالأندلس سنة ٤٥٦هـ. انظر ترجمته في نفح الطيب ٢/ ٢٨٣، والأعلام للزركلي ٥/ ٥٩.

(٣) الفصل ٢/ ١٠٧ وانظر تليس إبليس ص ١٧.

(٤) المنتقى وهو مختصر متهاج السنة النبوية، اختصره الحافظ الذهبي ص ١٨٩.

(٥) قد استوفى الكلام عن معنى الجماعة الدكتور جمال بن بادي في كتابه وجوب لزوم الجماعة وترك الفرق، فانظره ص ٣٠ (٦) أخرجه بهذا اللفظ ابن أبي عاصم في السنة ١/ ٣٢ حديث ٦٣، قال محقق السنة الشيخ الألباني: حديث صحيح، وقد ورد بالفاظ أخرى فيها ثلاث وسبعون، وفيها وصف الفرقة الناجية بأنها (الجماعة) في السنة لابن أبي عاصم أيضاً ١/ ٧ وأخرجه بهذه اللفظة (هم الجماعة) الإمام أحمد في المسند من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه ٣/ ١٤٥، وأبو داود في أول كتاب السنة باب شرح السنة ٥/ ٦، وابن ماجه في سننه ٢/ ١٣٢٢، وأخرجه الحاكم في مستدركه ١/ ١١٢٨ وقال: هذه أسانيد تقوم بها الحجة، ووافقه الذهبي، واللالكائي ١/ ١٠٢ قال محققه: حديث حسن. والأجري في الشريعة ص ١٨، وابن بطة في الإبانة ص ١٠٦، وذكره الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة برقم ٢٠٤ وانظر تخريج حديث افتراق الأمة بطرقه كلها وأقوال العلماء في تلك الطرق في اليمانيات المسولة للكوراني تحقيق المؤلف ص ١٢٠.



وفي حديث أسامة بن شريك رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : (يد الله على الجماعة)^(١).

وفي حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : (عليكم بالجماعة، وإياكم والفرقة فإن الشيطان مع الواحد وهو من الإثنين أبعد، ومن أراد بحبوة^(٢) الجنة فعليه بالجماعة)^(٣).

وأحق من يوصف بالجماعة : سلف هذه الأمة المحمدية من الصحابة الأبرار، والتابعين الأخيار الذين اجتمعوا على الحق الصريح من كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ^(٤)؛ لأن ما ذهبوا إليه هو الحق وهو مذهب أهل السنة والجماعة، وأهل السنة والجماعة معتصمون بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ مجمعون على ذلك، وما عدا أهل الجماعة فهم أهل الأهواء والبدع الذين هم أهل الافتراق المتبعون للسبل المتفرقة عن سبيل الحق^(٥).

وقال ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير قول الله تعالى : ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾^(٦) (تبيض وجوه أهل السنة والجماعة وتسود وجوه أهل البدعة والفرقة)^(٧) وهذا الاسم (الجماعة) ينطبق على أهل السنة وإن تفرقت ديارهم وتباعدت أبدانهم، كما قال قتادة^(٨) رحمه الله : (أهل رحمة الله أهل الجماعة وإن تفرقت ديارهم وأبدانهم وأهل معصيته أهل فرقة وإن اجتمعت ديارهم وأبدانهم)^(٩). وقد ورد عن ابن مسعود رضي الله

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة بتحقيق الشيخ الألباني ٤٠ / ١، قال الألباني : حديث صحيح وإسناده ضعيف جداً، ثم قال الألباني / أخرجه أيضاً الطبراني ٢٢٥ / ١ وهو صحيح وله شواهد، وأخرجه الترمذي في سننه ٤٦٥ / ٤، والنسائي في سننه ٩٢ / ٧.

(٢) بحبوة الجنة : أوسطها وأوسعها وأرجحها . انظر مختار الصحاح ص ٤١ مادة (ب ح ح) .

(٣) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة ٤٢ / ١ بأسانيد فيها ضعف، قال محقق السنة الشيخ الألباني : لكن هذه الأسانيد يقوي بعضها بعضاً إلى درجة الحسن، وأخرجه الإمام أحمد في المسند ١٨ / ١، والترمذي في سننه ٤٦٥ / ٤، وقال : هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه، وأخرجه الحاكم في مستدرك ١١٤ / ١، وقال صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي .

(٤) انظر الاعتصام للشاطبي ٢٨ / ١، وشرح العقيدة الواسطية للهراس ص ١٦.

(٥) انظر حقيقة البدعة وأحكامها لسعيد الغامدي ٢٧٤ / ١.

(٦) سورة آل عمران الآية ١٠٦.

(٧) سبق تخريجه .

(٨) هو أبو الخطاب قتادة بن دعامة بن عذير السدوسي البصري، تابعي مفسر حافظ ضريز قال فيه الإمام أحمد : قتادة أحفظ أهل البصرة، ولد قتادة سنة ٦١ هـ وتوفي بواسط سنة ١١٨ هـ . انظر ترجمته في تذكرة الحفاظ للذهبي ١١٥ / ١،

ووفيات الأعيان ٨٥ / ٤، والأعلام للزركلي ٢٧ / ٦.

(٩) ذكره ابن كثير في تفسيره، انظره ٢٩١ / ٤، وانظر شرح النووي لصحيح مسلم ٦٧ / ١٣.



عنه تفسير لمفهوم الجماعة حيث قال : (الجماعة ما وافق الحق وإن كنت وحدك) (١).

وقد بين أبو شامة المقدسي (٢) - رحمه الله - تفسير ابن مسعود (للمجماعة بقوله : ﷺ) وحيث جاء الأمر بلزوم الجماعة فالمراد به لزوم الحق واتباعه وإن كان المتمسك بالحق قليلا والمخالف له كثيرا؛ لأن الحق هو الذي كانت عليه الجماعة الأولى من عهد النبي ﷺ وأصحابه، ولا نظرة إلى كثرة أهل الباطل بعدهم (٣).

وقال أبو عيسى الترمذي - رحمه الله - (٤) : (وتفسير الجماعة عند أهل العلم : هم أهل الفقه والعلم والحديث) ثم قال : ولما سئل ابن المبارك - رحمه الله - (٥) من الجماعة؟ قال : أبوبكر، وعمر، فقيل له : قد مات أبوبكر، وعمر، قال : فلان، وفلان، فقيل له : قد مات فلان، وفلان، قال : أبو حمزة السُّكُري - رحمه الله (٦) جماعة (٧).

ونجد شيخ الإسلام ابن تيمية يجعل التقيد بمصادر التلقي عند أهل السنة بالكتاب والسنة والإجماع هو الفصيل بين أهل السنة والجماعة ومن عداهم من أهل الأهواء فيقول : (فمن قال بالكتاب والسنة والإجماع كان من أهل السنة والجماعة) (٨)، ثم يقول : (لأن الجماعة هي الاجتماع، وضدها الفرقة... وهم يَزِنُون بهذه الأصول الثلاثة جميع ما عليه الناس

(١) الباعث على إنكار البدع والحوادث ص ٢٢، وانظر إغاثة اللهفان لابن القيم ٧٠ / ١

(٢) هو أبو القاسم عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم شهاب الدين المعروف بأبي شامة المقدسي الدمشقي محدث حافظ مؤرخ مفسر أصولي متكلم، ولد سنة ٥٩٩ هـ في دمشق ونشأ بها حتى كانت وفاته بها رحمه الله سنة ٦٦٥ هـ. انظر ترجمته في البداية والنهاية لابن كثير ٢٥٠ / ١٣، وشذرات الذهب ٣١٨ / ٥، والأعلام للزركلي ٧٠ / ٤

(٣) الباعث على إنكار البدع والحوادث ص ٢٢

(٤) هو أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة بن موسى السلمي البوغي الترمذي من أئمة الحديث وحفاظه نتملذ للبخاري وشاركه في بعض شيوخه، ولد سنة ٢٠٩ هـ وترحل في البلدان لجمع الحديث، كان يضرب به المثل في الحفظ عمي في آخر عمره، وكانت وفاته سنة ٢٧٩ هـ. انظر ترجمته في نكت الهميان ص ٢٦٤، وتهذيب التهذيب ٣٨٧ / ٩، والأعلام للزركلي ٣٢٢ / ٦

(٥) هو أبو عبد الرحمن عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي، كان إماما، حجة، كثير الحديث، ولد سنة ١١٨ هـ ومات بهيت مصرفا من الغزو سنة ١٨١ هـ. انظر ترجمته في الطبقات الكبرى لابن سعد ٣٧٢ / ٧، وتاريخ بغداد ١٥٢ / ١٠، والأعلام للزركلي ٢٥٦ / ٤

(٦) هو الإمام الحجة أبو حمزة محمد بن ميمون السُّكُري المروزي، عالم مرو، كان من الأئمة المقتدى بهم في زمنه، لقب بالسكري لحلاوة كلامه كانت وفاته سنة ١٦٧ هـ. انظر ترجمته في تاريخ بغداد الخطيب ٢٦٦ / ٣، وسير أعلام النبلاء ٣٨٥ / ٧

(٧) انظر سنن الترمذي ٤٦٧ / ٤

(٨) مجموع الفتاوى ٣ / ٣٤٦، وانظر قواعد الأديان لشيخ الإسلام أيضا ص ٤١



من أقوال وأعمال مما له تعلق بالدين^(١).

ويستخلص الدكتور محمد بن عبد الله الوهيبي من أقوال أهل العلم في معنى الجماعة قوله: (يمكن للباحث أن يعتبر مسمى أهل السنة والجماعة بين الفرق كمسمى المسلمين بين الملل، فالانتساب إلى هذا الاسم (أهل السنة والجماعة) والتسمي به كمصطلح يدل على صحة الاعتقاد، وصحة المنهج أمر حسن، وجائز باعتباره انتساباً لاسم شرعي، وقد استعمله أئمة السلف، ومن أكثر الأئمة استعمالاً لهذا المصطلح شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله^(٢).

والحق أن مصطلح (أهل السنة والجماعة) يعطينا المعنى، ويفهم منه المسمى المراد به وهم أصحاب هذا الاتجاه من غير فصل بين اللفظين في المعنى حتى أصبح كأنه لفظ واحد، فقد صار مصطلحاً شائعاً يؤدي المعنى من دون بحث عن معنى الكلمتين، كما أنه يمكن أن يكتفى بأحد اللفظين فيؤدي المعنى بانفراده^(٣)؛ ولهذا لما سئل الإمام مالك رحمه الله عن السنة قال: (هي ما لا اسم له غير السنة وتلا: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾^(٤)^(٥).

ولما سئل أيضاً عن أهل السنة قال: (أهل السنة: الذين ليس لهم لقب يعرفون به، لاجهمي، ولا قدري، ولا رافضي)^(٦).

(ب) الفرقة الناجية^(٧). وهذا الوصف مأخوذ من الحديث الذي رواه أنس بن مالك رضي الله عنه وغيره أن النبي ﷺ قال: (... وأن أمتي ستفرق على ثنتين وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة، وهي الجماعة)^(٨). وفي رواية أخرى أخبر ﷺ عن هذه الفرقة الناجية بقوله: (الذين على ما أنا عليه وأصحابي)^(٩).

(١) مجموع الفتاوى ١٥٧/٣، وقال أيضاً: (والبدعة مقرونة بالفرقة كما أن السنة مقرونة بالجماعة فيقال أهل السنة والجماعة، كما يقال: أهل البدعة والفرقة) الاستقامة لشيخ الإسلام ٤٢/١

(٢) انظر نوافذ الأيمان الاعتقادية وضوابط التكفير عند السلف ١٧/١

(٣) انظر: مسألة التقريب بين أهل السنة والشيعية القسم الأول ص ٣٤

(٤) سورة الأنعام الآية ١٥٣ (٥) الاعتصام للشاطبي ٥٨/١

(٦) الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء لابن عبد البر ص ٣٥

(٧) انظر في سبب تعيين الفرقة الناجية الاعتصام للشاطبي ٢٥١/٢ وما بعدها، وفرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام للدكتور

غالب العواجي ٣٢/١

(٨) رواه ابن ماجه في سننه ١٣٢٢/٢، وصححه الشيخ الألباني. انظر صحيح ابن ماجه ٣٦٤/٢ رقم الحديث ٣٢٢٧

(٩) رواه الترمذي في سننه ٢٦/٥، وحسنه الشيخ الألباني. انظر صحيح الترمذي ٣٣٤/٢

ولا شك أن هذا الوصف لا ينطبق إلا على أهل السنة والجماعة، فهم المتبعون للكتاب والسنة المتمسكون بما كان عليه النبي ﷺ، فهم إذا الفرقة الناجية. ولما سئل الإمام أحمد رحمه الله عن الفرقة الناجية قال: (إن لم يكونوا أصحاب الحديث فلا أدري من هم؟) (١).

وقال القاضي عياض (٢) - رحمه الله تعالى - في التعليق على قول الإمام أحمد: (إنما أراد أحمد أهل السنة والجماعة ومن يعتقد مذهب أهل الحديث) (٣).

وقال الشيخ عبد القادر الجيلاني: (أما الفرقة الناجية فهي أهل السنة والجماعة، وأهل السنة لا اسم لهم إلا اسم واحد، وهو: أصحاب الحديث) (٤).

أما في كلام شيخ الإسلام ابن تيمية فكثيراً ما يطلق اسم الفرقة الناجية على أهل السنة والجماعة، ومن ذلك قوله في مقدمة العقيدة الواسطية: (أما بعد: فهذا اعتقاد الفرقة الناجية المنصورة إلى قيام الساعة أهل السنة والجماعة) (٥).

ج - (السلفية أو السلفيون وأتباع السلف) (٦).

اختلف العلماء في تحديد مفهوم السلف زمنياً فمن قائل: إنهم الصحابة رضوان الله عليهم، ومن قائل: إنهم الصحابة والتابعون، وذهب آخرون إلى أن السلف إذا أطلق يراد به الصحابة والتابعون وتابعو التابعين (٧)، أي: القرون الثلاثة التي ثبتت لها الخيرية بقول النبي ﷺ: (خير أمتي قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، قال عمران: فلا أدري أذكر بعد

(١) شرف أصحاب الحديث للخطيب ص ٢٥

(٢) هو أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض بن عمرو اليحصبي السبتي، عالم المغرب، وإمام أهل الحديث في وقته، ولد بسنة عام ٤٧٦ هـ، ثم ولي قضاءها، وكانت وفاته بمراكش عام ٥٤٤ هـ. انظر ترجمته في الإحاطة في أخبار غرناطة لابن الخطيب ٢٢٢/٤، والديباج المذهب لابن فرحون ٢/٤٦٣، وأزهار الرياض في أخبار القاضي عياض لأحمد بن محمد المقرئ ٢٣/١

(٣) شرح النووي لصحيح مسلم ١٣/٦٧، وانظر تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذي ٦/٤٣٤

(٤) الغنية لطالبي طريق الحق ص ٨٠ (٥) العقيدة الواسطية بشرح الهراص ص ١٥

(٦) السلف في اللغة: جمع سالف على وزن حارس، ويجمع على أسلاف وسلأف، والسلف: المتقدم، والجماعة المتقدمون، والقوم السلاف: المتقدمون. انظر مختار الصحاح ص ٣٠٩ مادة (س ل ف)، ولسان العرب ٩/١٥٨ مادة (س ل ف). وقال ابن الأثير: (سلف الإنسان: من تقدمه بالموت من آبائه وذوي قرابته، ولهذا سمي الصدر الأول من التابعين السلف الصالح) النهاية ٢/٣٩٠

(٧) انظر: تفصيل تلك الأقوال في وسطية أهل السنة بين الفرق ص ٩٧ وما بعدها، ومنهج الأشاعرة في العقيدة للحوالي ص ١٥، نقلاً عن السلفية وأعلامها في موريتانيا للطبيب بن عمر ص ٢٠

قرنه قرنين أو ثلاثة...) (١). وإلى هذا الرأي ذهب كثير من أهل العلم، وهو مختار شيخ الإسلام ابن تيمية (٢).

ولعل الراجح أن مفهوم السلف يصح إطلاقه على الصحابة الكرام، والتابعين لهم بإحسان وأتباعهم، وأئمة الدين ممن شهد له بالإمامة، وعرف عظم شأنه في الدين، وتلقى الناس كلامهم خلفا عن سلف (٣).

ويحدد ابن رجب - رحمه الله تعالى - السلف المقتدى بهم إلى عصر الإمام أحمد وأقرانه فيقول: (وفي زماننا يتعين كتابة كلام السلف المقتدى بهم إلى زمن الشافعي، وأحمد وإسحاق (٤) [رحمه الله] وأبي عبيد (٥) [رحمه الله] وليكن الإنسان على حذر مما حدث بعدهم فإنه حدث بعدهم حوادث كثيرة (٦).

وفي الانتساب إلى السلف والتلقب بالسلفية: يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (لا عيب على من أظهر مذهب السلف وانتسب إليه واعتزى إليه، بل يجب قبول ذلك منه فإن مذهب السلف لا يكون إلا حقا (٧).

ونقول - بصراحة: إننا إذا عرفنا أن الدعوة إلى اتباع السلف أو الدعوة إلى السلفية كما يعبر البعض إنما هي دعوة إلى الإسلام كما أنزل على الرسول (وتلقاه عنه أصحابه الكرام رضوان الله عليهم، فلا شك أن هذه الدعوة دعوة حق والانتساب إليها شرف، وفخر، فلا ضير في الانتساب إلى السلف والاعتزاء إليهم حينئذ (٨).

د - (أهل الحديث). كثيرا ما يطلق أهل العلم هذا الاسم، ويقصدون به أهل السنة

(١) صحيح البخاري مع الفتح كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ ٣/٧ حديث ٣٦٤٩، وصحيح مسلم بشرح النووي كتاب فضائل الصحابة ٨٤/١٦ (٢) انظر: درء تعارض العقل والنقل ٢٠٧/١

(٣) انظر: لوامع الأنوار للسفاريني ١/ ٢٠، ووسطية أهل السنة بين الفرق ص ١٠١

(٤) هو أبو يعقوب إسحاق بن إبراهيم بن مخلد الحنظلي التميمي المروزي ابن راهويه، عالم خراسان في عصره، ولد في طريق مكة سنة ١٦٦ هـ طاف البلاد لجمع الحديث قال فيه الخطيب البغدادي: (اجتمع له الحديث والفقه والحفظ والصدق والورع والزهد، كانت وفاته سنة ٢٣٨ هـ. انظر: تاريخ بغداد ٦/ ٣٤٥، والأعلام للزركلي ١/ ٢٩٢

(٥) هو أبو عبيد القاسم بن سلام الهروي الأزدي الحزاعي بالولاء، من كبار علماء الحديث والأدب والفقه، ولد في هراة سنة ١٥٧ هـ وتعلم بها ثم رحل إلى بغداد فولى القضاء بطرسوس، ورحل إلى مصر والحجاز، ثم توفي بمكة سنة ٢٢٤ هـ. انظر

ترجمته في سير أعلام النبلاء ١٠/ ٤٩٠، والأعلام للزركلي ١٠/ ٦

(٦) فضل علم السلف على علم الخلف ص ٤٤ (٧) مجموع الفتاوى ٤/ ١٤٩

(٨) انظر وسطية أهل السنة بين الفرق ص ١٠٩

والجماعة؛ حتى إنه قد يرد المصطلحان: (أهل السنة) و (أهل الحديث) في كلام واحد لبعض العلماء مما يشير إلى الترادف المعنوي بين الاسمين، فالإمام الصابوني -رحمه الله-^(١) يقول في عقيدته إن: (أصحاب الحديث المتمسكين بالكتاب والسنة -حفظ الله أحياءهم ورحم أمواتهم- يشهدون لله تعالى بالوحدانية، وللرسول ﷺ بالرسالة والنبوة... وقد أعاد الله تعالى أهل السنة من التحريف والتكيف ومن عليهم بالتعريف والتفهيم حتى سلكوا سبل التوحيد والتنزيه)^(٢).

ويوضح شيخ الإسلام ابن تيمية صحة تسمية السلف وأهل السنة والجماعة بلقب أهل الحديث في قوله: (. مذهب السلف، أهل الحديث والسنة والجماعة)^(٣). وإطلاق مصطلح أهل الحديث على أهل السنة والجماعة إنما يقصده أهل العلم أنهم أهل الحديث رواية ودراية واتباعاً؛ لأن المرء قد يكون من أهل الحديث صناعة ورواية وليس هو من أهل السنة والجماعة، فقد يكون مبتدعاً يرى اعتقاد أهل البدع وينتهج منهج أهل الأهواء؛ ولذلك قال شيخ الإسلام ابن تيمية -في بيان المراد بلفظ أهل الحديث-: (ونحن لانعني بأهل الحديث المقتصرين على سماعه، أو كتابته وروايته، بل نعني بهم كل من كان أحق بحفظه، ومعرفة، وفهمه ظاهراً وباطناً واتباعه باطناً وظاهراً، وكذلك أهل القرآن)^(٤).

فعلى رأي شيخ الإسلام ابن تيمية يصح إطلاق مصطلح (أهل الحديث) -بهذا المعنى- على أهل السنة، وهذا المعنى هو المراد عند الإطلاق في كتب السلف للدلالة على أهل السنة والجماعة.

هـ (أهل الأثر) . يرد هذا الاسم كثيراً في مصنفات أهل العلم المتقدمين ويريدون به أهل السنة.

يقول أبوحاتم الرازي -رحمه الله-^(٥): (مذهبنا واختيارنا: اتباع رسول الله ﷺ

(١) هو أبو عثمان إسماعيل بن عبد الرحمن بن أحمد بن إسماعيل الصابوني لقبه أهل السنة في خراسان بشيخ الإسلام، وكان عارفاً بالحديث، والتفسير، والعربية، كانت ولادته بخراسان سنة ٣٧٣هـ ووفاته بها سنة ٤٤٩هـ. انظر طبقات الشافعية

للسيكي ١١٧/٣، وتاريخ دمشق لابن عساكر ٢٧/٣، والأعلام للزركلي ٣١٧/١

(٢) عقيدة السلف وأصحاب الحديث ضمن مجموعة الرسائل المنيرة ص ١٠٦

(٣) درء نعارض العقل والنقل ٢٠٣/١ (٤) مجموع الفتاوى ٩٥/٤

(٥) هو أبوحاتم محمد بن إدريس بن المنذر بن داود بن مهران الخنظلي الرازي، حافظ للحديث من أقران البخاري ومسلم، ولد في الري سنة ١٩٥هـ وإليها نسبته، وتقل في البلدان لطلب الحديث، كانت وفاته في بغداد سنة ٢٧٧هـ. انظر

نرجسته في تاريخ بغداد ٧٣/٢، تهذيب التهذيب ٣١/٩، والأعلام للزركلي ٢٥٠/٦



وأصحابه والتابعين ، والتمسك بمذهب أهل الأثر ، مثل أبي عبد الله أحمد بن حنبل^(١) .
ولاشك أن أهل الأثر هنا المراد بهم أهل السنة والجماعة . ويرد في كثير من مصنفات شيخ
الإسلام ابن تيمية إطلاق مصطلح (أهل الأثر) ولا يريد به إلا أهل السنة^(٢) .
وبين السفاريني^(٣) - رحمه الله - في منظومته أن اسم (أهل الأثر) لا يطلق إلا على أهل
السنة والجماعة تلك الفرقة الناجية^(٤) فقال^(٥) :

وليس هذا النص جزما يعتبر في فرقة إلا على أهل الأثر

ثم شرح هذا البيت وعرف أهل الأثر بقوله : (أصحاب الأثر : يعني الذين إنما يأخذون
عقيدتهم من المأثور عن الله جل شأنه في كتابه ، أو في سنة النبي) ، أو ما ثبت وصح عن
السلف الصالح من الصحابة الكرام والتابعين الفخام^(٦) .

و - (الطائفة المنصورة) . ورد هذا الاسم في الحديث الصحيح المروي عن المغيرة بن
شعبة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (لاتزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق
لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله)^(٧) . وسبب اختصاصهم بهذه الصفة أنهم أحبوا
الله ورسوله والتزموا ما شرعه الله تعالى على لسان رسوله ﷺ وطبقوا ذلك الالتزام في
المعتقد ، والسلوك ، والمنهج ، فلذلك استحقوا نصر الله تعالى لهم دون من سواهم من
طوائف أهل الأهواء والبدع .

وقد ورد عن بعض العلماء تعيين لهذه الطائفة المنصورة ، فقال عبد الله بن المبارك : (هم
عندي أصحاب الحديث)^(٨) .

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة لللالكائي ١ / ١٧٩ ،

(٢) انظر - على سبيل المثال - درء تعارض العقل والنقل ٦ / ٢٦٦ ،

(٣) هو أبو العون محمد بن أحمد بن سالم السفاريني الحنبلي ، كان عالما بالحديث والأصول والأدب ، من مصنفاته ((البحور
الزاخرة في علوم الآخرة)) و ((لوامع الأنوار البهية)) ، توفي سنة ١١٨٨ هـ . انظر الأعلام ٦ / ١٤٠ ، ومعجم
المؤلفين ٨ / ٢٦٢

(٤) خالف السفاريني رحمه الله ما قرره في منظومته حيث بين في شرحها أن الفرقة الناجية تضم ثلاث طوائف : ١ - الأثرية :
وإمامهم أحمد بن حنبل ٢ - الأشعرية : وإمامهم أبو الحسن الأشعري ٣ - الماتريدية : وإمامهم أبو منصور الماتريدي . انظر

لوامع الأنوار ١ / ٧٣ ، وانظر ردي عليه في تحقيقي كتاب اليمانيات المسلوطة ص ١٢٥

(٦) لوامع الأنوار ١ / ٦٤

(٥) لوامع الأنوار ١ / ٧٣

(٧) رواه مسلم انظر صحيح مسلم بشرح النووي كتاب الإمارة باب قوله ﷺ : (لاتزال طائفة من أمتي) ١٣ / ٦٧

(٨) شرف أصحاب الحديث للخطيب البغدادي ص ٢٦

وقال الإمام أحمد بن حنبل : (إن لم تكن هذه الطائفة المنصورة أصحاب الحديث فلا أدري من هم)^(١).

وقال القاضي عياض رحمه الله - مفسرا قول الإمام أحمد هذا - : (إنما أراد الإمام أحمد أهل السنة والجماعة ومن يعتقد مذهب أهل الحديث)^(٢). وقال الإمام النووي - رحمه الله - بعد نقل هذه الأقوال في تعيين الطائفة المنصورة - : (ويحتمل أن هذه الطائفة مفرقة بين أنواع المؤمنين : منهم شجعان مقاتلون ، ومنهم فقهاء ، ومنهم محدثون ، ومنهم زهاد ، وأمروا بالمعروف ، ونهوا عن المنكر ، ولا يلزم أن يكونوا مجتمعين ، بل يكونون متفرقين في أقطار الأرض)^(٣).

وقد جمع شيخ الإسلام ابن تيمية بين وصف أهل السنة والجماعة : بالفرقة الناجية والطائفة المنصورة في قوله - في مقدمة العقيدة الواسطية - : (أما بعد : فهذا اعتقاد الفرقة الناجية المنصورة إلى قيام الساعة أهل السنة والجماعة)^(٤). وهذه الأسماء والألقاب التي مر ذكرها ، وصح وصف أهل السنة بها لا شك أنها لم تكن شائعة في عصور السلف الأولى ؛ لأن الحاجة لم تكن داعية إلى إظهارها والتمييز بها ، ولكنها برزت بعد ذلك في مواجهة مناهج أهل الأهواء والبدع الضالة ؛ لرد تلك البدع والتمييز عن أصحابها وإبعاد الخلطة بهم والتحذير منهم ، فلما ظهرت البدعة تميزوا بالسنة ، ولما حكم الرأي تميزوا بالحديث والأثر ، ولما فشت البدع والأهواء في الخلوف تميزوا بهدي السلف هلم جرا^(٥).

وبعد أن بينت المراد بأهل السنة والجماعة ، ووضحت بشيء من التفصيل الأسماء والألقاب المرضية عندهم ، وأنها تنصرف عند الإطلاق إليهم لا إلى غيرهم من أهل الأهواء والبدع ، يحسن بي أن أشير هنا من غير تفصيل^(٦) إلى أن الفرق المخالفة لأهل السنة تدعي الانتساب إلى هذا الاسم ، والتسمي به لما فيه من شرف النسبة ؛ ولأن الفرقة

(١) انظر المصدر السابق ص ٢٥

(٢) شرح النووي لصحيح مسلم ٦٧/١٣ ، وانظر تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذي ٣٤٤/٦

(٣) شرح النووي لصحيح مسلم ٦٧/١٣ (٤) العقيدة الواسطية بشرح الشيخ الهراس ص ١٤

(٥) انظر : حكم الانتماء إلى الفرق للشيخ بكر أبي زيد ص ٤٢

(٦) قد كفاني مؤونة الرد على هذا الادعاء مفصلا القول في ذلك فضيلة الدكتور محمد باكرم حفظه الله في كتابه القيم وسطية أهل السنة بين الفرق ، فمن أراد التوسع في الرد على هذا الزعم الكاذب فليرجع إلى الكتاب المذكور ص ٤٨ وما بعدها ،

وينظر نواقض الإيمان الاعتقادية وضوابط التكفير عند السلف للدكتور محمد بن عبد الله الوهيبي ١٨/١

الناجية، والطائفة المنصورة هم الذين اتبعوا ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (فكثير من الناس يخبر عن هذه الفرق بحكم الظن، والهوى، فيجعل طائفته، والمنتسبة إلى متبوعه الموالية له هم أهل السنة والجماعة ويعجل من خالفها هم أهل البدع، وهذا ضلال مبين؛ فإن أهل الحق والسنة لا يكون متبوعهم إلا رسول الله ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى... وليست هذه المنزلة لغيره من الأئمة، بل كل يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ فمن جعل شخصا من أشخاص غير رسول الله ﷺ من أحبه ووافقه كان من أهل السنة والجماعة، ومن خالفه كان من أهل البدعة، والفرقة، كما يوجد ذلك في الطوائف من أتباع أئمة الكلام في الدين وغير ذلك، كان من أهل البدع والضلال والافتراق^(١). وقد تنازعت طوائف أهل الأهواء هذا المطلب.

يقول الإمام الشاطبي: (فكل طائفة تدعي أنها على الصراط المستقيم وأن ما سواها منحرف عن الجادة، وراكب بُنيات الطريق... فعدد الأقوال في تعيين هذا اللقب على عدد الفرق)^(٢).

فالرافضة تدعي أنها هي الفرقة الناجية، وأن الحق معها، وأن أهل السنة من الفرق الضالة^(٣) والمعتزلة يزعمون أنهم أهل الحق وأنهم الفرقة الناجية، وأن غيرهم ليسوا على الحق^(٤). وأما استعمال مصطلح (أهل السنة والجماعة) بين الأشاعرة والماتريدية فأمر شائع في كتب الفرق^(٥) وخصوصا عند المصنفين من الأشاعرة.

يقول الإيجي في كتابه المواقف: الفرقة الناجية المستثناة: هم الأشاعرة، والسلف من المحدثين وأهل السنة والجماعة^(٦). وقد انتحل رأيه زين العابدين الكوراني^(٧) - رحمه

(٢) الاعتصام ٢/ ٨٠

(١) مجموع الفتاوى ٣/ ٣٤٦

(٣) انظر: مشارق أنوار اليقين للبرسي ص ٢١٥، والمعارف الحسينية لآل كاشف الغطا ص ٦٣، واليمانيات ص ١٧٧، وانظر نقل ابن المطهر الحلي لهذا القول في منهاج الكرامة للمطبوع مع كتاب منهاج السنة النبوية ١/ ٩٥

(٤) انظر: شرح الأصول الخمسة للفاضل عبد الجبار ص ١٢٤

(٥) وقد رددت عليهم في هذا الادعاء بشيء من التفصيل في اليمانيات المسلوقة ص ١٢٣ حاشية رقم (٢)

(٦) انظر: المواقف ص ٤٢٩

(٧) هو فخر الأفاضل زين العابدين بن يوسف بن محمد بن زين العابدين بن طاهر بن صدر الدين محمد بن إسماعيل الكوراني الكردي الحنفي، مفسر لغوي، أصولي، متكلم، توفي بعد سنة ١٠٦٦ هـ انظر ترجمته في اليمانيات المسلوقة

الله - في اليمانيات المسلولة على الرافضة المخذولة فإنه لم يحد في تعريفه للفرقة الناجية عن تعريف الإيجي قيد أغملة^(١).

ولما ذكر أبو المظفر الأسفراييني^(٢) اعتقاد الفرقة الناجية لم يذكر إلا اعتقاد الأشاعرة الذي يخالف في كثير من الأحيان معتقد السلف رحمهم الله^(٣). وقد سبقت الإشارة إلى أن السفارين جعل أهل السنة ثلاث طوائف: (الأثرية، والأشعرية، والماتريدية).

ويقول أشعري آخر: (إذا أطلق أهل السنة والجماعة فالمراد بهم الأشاعرة والماتريدية)^(٤).

ولا شك أن منهج أهل السنة والجماعة، أو الفرقة الناجية، أو الطائفة المنصورة، أو أهل الأثر، أو السلف واضح، وصريح بينه الحديث: (الذين على ما أنا عليه وأصحابي) وهو التمسك بالكتاب والسنة، والسير على منهاج الصحابة رضي الله عنهم والتابعين، لهم بإحسان إلى يوم الدين؛ وذلك باتباعهم، وترك الابتداع في الدين بعدهم، فمن سار على هذا المنهج الرباني البين كان من أهل السنة والجماعة، ومن انحرف عنه كان من الفرق المخالفة، والمفارقة للجماعة. ثم تبقى بعد ذلك الدعاوى التي تدعيها الفرق المنحرفة عن هذا المنهج بأن الحق معها، وأن أهل السنة ليسوا على شيء، وما أصدق قول الشاعر^(٥):

إذا اشتبكت دموع في حدود تبين من بكى ممن تباكى
وكل يدعي وصلاً بليلى وليلى لا تقر لهم بذاكرا

الألقاب التي تميز بها طوائف أهل الأهواء والبدع أهل السنة.

لا يفتأ أهل الأهواء يبنزون أهل السنة والجماعة بألقاب، وأسماء ابتدعوها من عند أنفسهم يقصدون بها الوقعة في أهل السنة، والخطأ من شأنهم، والسخرية منهم، والتشنيع عليهم وعلى منهجهم.

يقول الإمام أحمد: (وقد أحدث أهل الأهواء والبدع والخلاف أسماء شنيعة قبيحة يسمون بها أهل السنة، يريدون بذلك الطعن عليهم، والإزرار بهم عند السفهاء،

(١) انظر: اليمانيات المسلولة على الرافضة المخذولة ص ١٢٣

(٢) هو أبو المظفر شهور بن طاهر بن محمد الأسفراييني، الأصولي، الفقيه، المفسر، شافعي المذهب، توفي سنة ٤٧١ هـ.

انظر ترجمته في طبقات الشافعية ١١/٥، والأعلام للزركلي ٣/٢٦٠

(٣) انظر: التبصير في الدين للزبيدي ص ٩١ وما بعدها. (٤) إتحاف السادة المتقين شرح إحياء علوم الدين للرازي ٦/٢

(٥) انظر - للتوسع - اليمانيات المسلولة ص ١٢٣ وما بعدها.

والجهال^(١). فقد يسمونهم: حشوية، وبعضهم يسميهم: مشبهة، وبعضهم: ناصبة، وبعضهم: نابثة، وبعضهم: جبرية، وعصابة أهل السنة والجماعة بعيدة من هذه المعايير، بريئة زكية نقية، وليس معها إلا السنة الماضية، والسيرة المرضية، والسبل السوية، والحجج البالغة القوية^(٢).

وفي باب الأسماء والصفات ترميهم الجهمية، والمعتزلة، والأشاعرة بالتشبيه؛ لأن أهل السنة يصفون الله تعالى بكل ما وصف به نفسه، أو وصفه به رسوله ﷺ من غير تعطيل، ولا تأويل، ولا تشبيه، ولا تمثيل، ولا تكييف، ولما كانت هذه الطوائف تؤول النصوص الواردة في الصفات؛ لأن ظاهرها يوهم التشبيه عندهم؛ لذلك عدوا كل من أثبت لله ما أثبتته النصوص الشرعية من غير تأويل مشبهاً^(٣).

وفي باب أفعال العباد: تنزههم المعتزلة، والقدرية بأنهم مجبرة، وذلك لأن أهل السنة يقولون: كل شيء بقضاء الله وقدره، وأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وهذا هو الجبر عند القدرية؛ لأنهم يرون أن العبد هو الخالق لفعله، والمحدث له، وليس مخلوقاً لله^(٤).

وفي باب الإمامة: ترميهم الرافضة بلقب النواصب، أي المعادون لعلي رضي الله عنه حيث لم ييغضوا أبابكر، وعمر رضي الله عنهما^(٥).

وتسميهم الرافضة، والصوفية (عامه)^(٦)، والعامه: ضد الخاصة^(٧) وذلك في كتب

(١) السنة للإمام أحمد ص ٤٠، وانظر عقيدة السلف وأصحاب الحديث ضمن مجموعة الرسائل المنيرية ص ١٣٢

(٢) انظر: عقيدة السلف وأصحاب الحديث ضمن مجموعة الرسائل المنيرية ص ١٣٣، والصيد الثمين في رسائل ابن عثيمين ١٤٩/١

(٣) انظر: شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكاني ١/١٨٢، والانتصار والرد على ابن الراوندي الملحد لأبي الحسين الحياطي المعتزلي ص ٥٥

(٤) انظر: شرح الأصول الخمسة ص ٧٧٥، وشرح أصول اعتقاد أهل السنة ١/١٨٢

(٥) انظر: الغنية للجليلاني ص ٨٥، ووسطية أهل السنة بين الفرق ص ١٣٦

(٦) يرى الدكتور محمد باكرم حفظه الله أن هذا اللقب انفردت الرافضة بإطلاقه على أهل السنة. انظر وسطية أهل السنة بين الفرق ص ١٣٨، وقد وجدت الصوفية تطلق على فقهاء أهل السنة فتصف الصوفية بأنهم أهل الحقيقة، وأما الفقهاء من أهل السنة فهم أهل الظاهر وهم العامة. يقول الشعراني: (وسمعت -أي علي الخواص- يقول: ليس الغيب الذي يعلم للعارفين غيباً عندهم إنما هو من قسم عالم الشهادة فيخبرون عما يشاهدونه فما سماه غيباً إلا من كان محجوباً من العامة) الجواهر والدرر للشعراني مطبوع بحاشية الإبريز ص ١٨٠، وانظر الاعتصام ٢/٣٤٩، وجواهر المعاني لعلي حراز م ٤/٢ (٧) انظر: لسان العرب ١٢/٤٢٦ مادة (ع م م).



الرافضة أمر لا يحتاج إلى دليل^(١). وقد وجد عند الصوفية باعتبارها تسير على سنن الرافضة في كثير من المسائل الاعتقادية.

وينبذها الغلاة أعداء السنن والآثار بأنها حشوية^(٢) وهم يقصدون بذلك الطعن على أهل السنة؛ لأنهم يروون الأحاديث النبوية الثابتة عن المعصوم عليه السلام فجمعوها بطريق الاستقصاء، فلما رأى ذلك أهل الأهواء، وعلموا أنهم ذكروا أحاديث تخالف مناهج المبتدعة رموهم بالحشو^(٣)، وللحشو على هذا المعنى مرادان:

١- جمع الأحاديث من غير تمييز صحيحها من سقيمها.

٢- وقد يريد الغلاة من بغض السلف بهذا اللقب رميهم بالتجسيم^(٤).

وهذه الألقاب الشنيعة التي يطلقها أهل الأهواء جهارا على السلف الصالح أهل السنة والجماعة، نبزا وطمعنا، وتشنيعا لاتلحق بهم عارا، ولا تلصق بهم شنارا^(٥)، ولا تزيدهم بين الفرق إلا جلالة ووقارا، فالوقية في أهل الخير دليل على صلاحهم، ولقد أحسن القائل^(٦):

وإذا أتت مذمتي من ناقص فهي الشهادة لي بأني كامل

وتسمية أهل الباطل للحق بغير اسمه لا يغير من الحق شيئا، وقد رد أهل العلم على بعض هذه الألقاب بطريقة يفهم منها المخالف اعتزاز أهل السنة بعقيدتهم وإن سميت بغير اسمها، وهي طريقة تبكت الخصم وتسكته، فعند ما سمي أهل البدع حب أهل البيت

(١) انظر: مشارق أنوار اليقين للبرسي ص ٢١٥، والمعارف الحسينية ص ٦٣، واليمانيات ص ١٧٧، كشف الأسرار للخميني ص ١٧١.

(٢) الحشو في اللغة: يطلق على ما يحشى به الفراش من فطن وغيره، والحشو من الكلام: الفضل الذي لا فائدة منه، والحشو من الناس: رذلتهم، والذين لا يعتمد عليهم، وحشوة البطن ما فيه من كبد وطحال وغير ذلك، والحشو: صغار الإبل، ويقال: تحشيت من فلان إذا تدمت منه، فرجعت معاني الحشو هنا كلها إلى الدم. انظر تهذيب اللغة للأزهري ١٣٧/٥ مادة (ح ش ١)، ولسان العرب لابن منظور ١٩٣/٣ مادة (ح ش ١).

(٣) قال أبو عبد الله الحاكم: (وعلى هذا عهدنا في أسفارنا وأوطاننا كل من ينسب إلى نوع من الإلحاد والبدع لا ينظر إلى الطائفة المنصورة إلا بعين الحقارة ويسميتها الحشوية) كتاب معرفة علوم الحديث الحاكم ص ٤ وانظر: البرهان في معرفة عقائد أهل الأديان للسكسكي ص ٩٥، ومسائل الجاهلية التي خالف فيها رسول الله (أهل الجاهلية ألف أصلها الإمام محمد بن عبد الوهاب وتوسع في شرحها محمود شكري الألويسي ص ٩٤/١ وما بعدها).

(٤) انظر: النية والأمل للمرتضى ص ٤ بواسطة منهج الزمخشري في تفسير القرآن وبيان المجاز للدكتور مصطفى الخويني ص ٦٨، وشرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي ١٨٢/١، والصيد الثمين في رسائل بن عثيمين ١٥٠/١.

(٥) الشُّنار: بفتح الشين المعجمة: العيب والعار. انظر مختار الصحاح ص ٣٤٨ مادة (ش ن ر).

(٦) البيت للمنتبي. انظر ديوانه بشرح العكبري ٢٦٠/٣.



-رحمهم الله الحب الشرعي- رفضا رد عليهم الإمام الشافعي رحمه الله بقوله^(١) :

إن كان رفضا حب آل محمد فليشهد الثقلان أنني رافضي

ولما أطلق أهل الأهواء والبدع على أهل السنة لقب الحشوية ؛ لحبهم حديث رسول الله ﷺ ، وتفانيهم في جمعه وفهمه ، رواية ودراية اقتفيت أنا أثر الإمام الشافعي رحمه الله في رده على من سمي حب أهل البيت رفضا فقلت^(٢) :

إن كان حشوا حب قول محمد نفسي إذا حشوية وفؤادي^(٣)

ولما انتشرت العقيدة السلفية بدعوة الشيخ المصلح محمد بن عبد الوهاب رحمه الله في العصر الحديث ، وركزت هذه الدعوة المباركة على تنقية العقيدة الإسلامية من شوائب البدع ، والخرافات ، فانتشر الوعي ، وأضاء نور الدعوة السلفية ربوع الجزيرة العربية التي كانت تعيش حال الجاهلية الأولى ؛ لذلك وقف في وجه هذه الدعوة أهل البدع ، وصاروا يؤلفون الكتب ، وينشرون الرسائل في ذمها ، والتحذير منها ، وينبذونها بألقاب مثل : الوهابية^(٤) ، والمنكرون^(٥) ، ولكن ذلك لا يغير من حقيقة هذه الدعوة المباركة شيئا ، وقد رد عليهم الشاعر بقوله^(٦) :-

(١) ديوان الإمام الشافعي جمع وتعليق محمد الزغبى ص ٥٥

(٢) انظر اليمانيات المسلولة ص ١٣٩ حاشية رقم (١) .

(٣) ثم وجدت رد العلامة ابن القيم رحمه الله قد رد على من نبذ أهل السنة بهذا اللقب فقال :-

يا قوم إن كان الكتاب وسنة الله	مختار حشوا فاشهدوا ببيان
إنا بحمد إلهنا حشوية	سرف بلا جحد ولا كتمان
تدرون من أولى بهذا الاسم وهـ	و مناسب أحواله بوزان
من قد حشى الأوراق والأذهان من	بدع تخالف مَوَاجِب القرآن
هذا هو الحشوي لا أهل الحديث	أئمة الإسلام والإيمان

انظر توضيح المقاصد في شرح قصيدة ابن القيم الكافية الشافية ١/ ٧٩

(٤) انتشر هذا اللقب ، حتى أصبح بعض مصنفي أهل السنة -وللاسف- يذكرونه في كتبهم بعد ما كان قابعا في كتب المخالفين لدعوة الشيخ رحمه الله . انظر معجم ألفاظ العقيدة لعامر بن عبد الله فالح ص ٤٤٥ ، والدرر السنية في الرد على الوهابية لأحمد زيني دحلان ص ٥٠ ، والمجاهدات المعصومية ص ٧٠ ، والمجموع المفيد ص ٢٨٦ ، وتصحيح خطأ تاريخي حول الوهابية للدكتور محمد الشويعر ص ٢٥

(٥) سمعت هذا اللقب بأذني من بعضهم ويقصدون بذلك أنهم هم المحبون وأن أتباع هذه الدعوة يتكرون محبة النبي ﷺ ولقد كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون (إلا كذبا) ما يتكرون محبة أبي هو وأمي ﷺ ؛ لأن حبه أساس الإيمان ومفتاح دار الجنان ، وكيف لا يحبونه -صلوات الله وسلامه عليه- وقد أحبته الجبال ، وحنن إليه جذوع الأشجار؟ ولكنهم لما رأوا نهيبهم عن الغلو في الأنبياء والأشخاص وتوضيحيهم للناس أن حب النبي ﷺ إنما هو باتباع شرعه لا بالابتداع في الدين بعده ، ادعاء تلك المحبة ، لما رأوا ذلك قالوا هذه المقالة الشنيعة .

(٦) البيت للشاعر ملا عمران . انظر مجموعة الرسائل الكمالية ص ١٨٤



إن كان تابع أحمد متوهبا فأنا المقر بأنني وهابي

ولست أشك في أن سبب هذه العداوة، وظهور تلك الألقاب الشنيعة، والفظيعة من قبل أهل الأهواء والبدع، إنما هو الهوى الذي يميز جميع طوائف أهل الباطل، ذلك الصنم الذي يعشعش في قلوب أهل الأهواء وسيكون التعريف به وبيان خطورته في الحديث الآتي.

المبحث الثالث

تعريف الهوى وبيان خطورته وإفساده لعقائد أهله

الهوى في اللغة: يقال: هوى بالفتح يهوي هويًا، وهويًا، وهويانا، وانهوى: سقط من فوق إلى أسفل، ويقال: أهويته: إذا ألقيته من فوق وأنشد:

هَوَى زَهْدَمَ تَحْتَ الْغُبَارِ لِحَاجِبٍ كَمَا انْقَضَ بَازِ أَقْتَمِ الرِّيشِ كَاسِرٍ

ويقال: رأيتهم يتهاوون في المهواة: إذا سقط بعضهم في إثر بعض.

وهوى، وأهوى، وانهوى: سقط قال الشاعر^(١):

وكم منزل لولاي طحت كما هوى بأجرامه من قلة النيق منهوي

والهوية: بفتح الهاء وضمها: الموضع الذي يهوي من يقوم عليه، أي: يسقط^(٢) والهوى: مقصور: هوى النفس، وإذا أضفته إليك قلت: هواي، وهوى النفس: إرادتها، والجمع الأهواء.

وقال اللغويون: الهوى: محبة الإنسان الشيء، وغلبته على قلبه، قال الله عز وجل: ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴾^(٣) معناه: نهاها عن شهواتها، وما تدعو إليه من معاصي الله عز وجل.

ومتى تكلم بالهوى مطلقاً لم يكن إلا مذموماً، حتى ينعت بما يخرج عنه هذه الصفة^(٤)؛ لقولهم: هوى حسن، وهوى موافق للصواب^(٥).

ويقال: هوى الرجل، ومعناه: مات، قال الشاعر^(٦): -

وقال الشامتون هوى زيادٌ لكل منية سبب متين

وقالوا: إذا أجذب الناس أتى الهاوي والعاوي، فالهاوي: الجراد، والعاوي الذئب^(٧).

(١) انظر: لسان العرب ١٥/١٦٧

(٢) انظر: معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٤/٢٦٦

(٣) سورة التازعات الآية ٤٠

(٤) وهناك من أهل العلم من يرى أن الله تعالى لم يجعل في الهوى شيئاً من الخير، فلا يصلح للمدح، حتى في النعت. انظر قول ابن عباس رضي الله عنهما الآتي في ص.

(٥) انظر: تهذيب اللغة ٦/٤٩٠ مادة (هوا)، ومختار الصحاح ص ٧٠٢ مادة (هوا)، ولسان العرب ١٥/١٦٨ مادة (هوا).

(٦) ينسب هذا البيت للناطقة الذبياني ولم أجده في ديوانه. انظر تهذيب اللغة ٦/٤٩٠

(٧) انظر: لسان العرب ١٥/١٦٩ مادة (هوا).

وبالجملة فالهوى في اللغة تدور معانيه حول: السقوط، والميل عن الحق، والموت، والحيرة، والرضوخ لرغبات النفس، وشهواتها، والخضوع لما يتمناه القلب.

الهوى في الاصطلاح: قال ابن القيم في تعريفه: (الهوى: ميل الطبع إلى ما يلائمه)^(١).

فالهوى اصطلاحاً: خلاف الهدى، وهو ميل الإنسان إلى رغبات نفسه، ومحاب قلبه بحيث يخرج به ذلك عن حد الشرع، والاعتدال، ويكون ذلك في الشهوات، والعقائد، والمذاهب، والآراء^(٢). فكل من لم يتبع الهدى فقد اتبع الهوى، قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ﴾^(٣) فإن الهدى في الوحي الذي جاء به خاتم النبيين، صلوات الله وسلامه عليه، وفيه الخير، والصالح للعباد في دنياهم، وآخرهم، من اتبعه فقد ضمن السلامة، والصحة في المعتقد، والرأي، والسلوك، والمنهج، ومن لم يتبع الهدى قاده الهوى إلى ظلمات بعضها فوق بعض، وانتهى به الأمر إلى عبادة هواه، قال الله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾^(٤).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في بيان حقيقة الهوى: (والهوى نفسه: وهو الحب والبغض الذي في النفس لا يلام العبد عليه، فإن ذلك لا يملكه، وإنما يلام على اتباعه كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ﴾^(٥) فمن اتبع ذلك بغير أمر الله ورسوله فهو ممن اتبع هواه بغير هدى من الله، بل قد يتمادى به الأمر إلى أن يتخذ إلهه هواه)^(٦).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية -موضحاً ما أشرت إليه من أن المعرض عن الهدى متبع للهوى لا محالة-: (ولهذا كان من خرج عن موجب الكتاب والسنة من المنسوبين إلى العلماء، والعباد يجعل من أهل الأهواء كما كان السلف يسمونهم أهل الأهواء؛ وذلك أن كل من لم يتبع العلم فقد اتبع هواه، والعلم بالدين لا يكون إلا بهدى الله الذي بعث به

(١) روضة المحبين ونزهة المشتاقين ص ٤٦٩

(٢) انظر: مقدمات في الأهواء والانفراق، والبدع للدكتور ناصر العقل ص ٢٢

(٣) سورة القصص الآية ٥٠

(٤) سورة القصص الآية ٥٠

(٥) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لشيخ الإسلام ابن تيمية ص ٢٣-٢٤، وانظر: الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء

الشافي لابن القيم ص ٢٧٠

رسوله ﷺ . . . ومجرد الحب، والبغض هو هوى، لكن المحرم منه اتباع حبه، وبغضه بغير هدى من الله؛ ولهذا قال الله لنبيه داود: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾^(١) فأخبر أن من اتبع هواه أضله ذلك عن سبيل الله وهو هداه الذي بعث به رسوله، وهو السبيل إليه^(٢).

وقد بين العلامة ابن القيم - رحمه الله تعالى - أنه لا ينبغي ذم الهوى مطلقاً، ولا مدحه مطلقاً، كما أن الغضب لا يدم مطلقاً، ولا يحمد مطلقاً؛ وإنما يذم المفرط من النوعين^(٣).

وقد ورد ذم الهوى في كثير من الآيات القرآنية^(٤) لمضادته للهدى والاتباع، ومن تلك الآيات قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾^(٥) وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ (٤) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾^(٦) وقال تعالى: ﴿وَلَا تَطْعَمَنْ أَغْفَلًا قَلْبُهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا﴾^(٧)؛ لأن ذلك من هوى الغفلة عن ذكر الله، واتباع شهوات النفس. وقال الله تعالى: ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾^(٨) وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوُّوا أَوْ نَعَزَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾^(٩)، فبينت الآيات أن الله سبحانه وتعالى يحذر، وينهى عن هوى الحكم بغير ما أنزل الله.

وقد ذم السلف رحمهم الله الهوى، وبينوا خطورته، وإفساده للعقائد^(١٠)، فمن ذلك قولهم: إن سبب تسمية الهوى هوى: لأنه يهوي بصاحبه في نار جهنم، روى اللالكائي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال له رجل: (الحمد لله الذي جعل هوانا على هواكم

(٢) الاستقامة ٢/٢٢٦

(١) سورة ص الآية ٢٦

(٣) انظر روضة المحبين ص ٤٦٩

(٤) انظر تلك الآيات مجتمعة في المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم لمحمد فؤاد عبد الباقي ص ٩٠٨ مادة (هوى).

(٦) سورة النازعات الآية ٤٠

(٥) سورة المائدة الآية ٧٠

(٧) سورة الكهف الآية ٢٨

(٩) سورة النساء الآية ١٣٥

(٨) سورة ص الآية ٢٦

(١٠) بينما نجد الصوفية تمجد الهوى ونقول إنه أعظم مجلى عبد فيه الله، فما عبد الله ولا غيره من أنواع المعبودات بشيء أعظم من الهوى، وقد صوب ابن عربي عبادة العجل والأصنام؛ لأنهم عبدوا تلك المعبودات بطريق الهوى. انظر الرد على هذا الزعم في العلم الشامخ ص ٢٩٤

فقال ابن عباس : إن الله لم يجعل في هذه الأهواء شيئاً من الخير ، وإنما سمي هوى لأنه يهوي بصاحبه في النار ^(١) .

وقال عثمان بن عفان رضي الله عنه : (الباطل فيما وافق النفس ، وإن رأيت أن لله عز وجل فيه طاعة) ^(٢) . والباطل الذي يوافق النفس هو الهوى .

وقال علي رضي الله عنه : (الهوى يصد عن الحق) ^(٣) .

وقال الحسن البصري : (ما من داء أشد من هوى خالط قلباً) ^(٤) .

ورى اللالكائي عن طاوس ^(٥) - رحمه الله تعالى - أنه قال : (ما ذكر الله هوى في القرآن إلا عابه) ^(٦) .

وسأل رجل إبراهيم النخعي ^(٧) - رحمه الله تعالى - عن الأهواء أمنها خير؟ فقال النخعي : (ما جعل الله في شيء منها مثقال ذرة من خير ، وما هي إلا زينة الشيطان ، وما الأمر إلا الأمر الأول ، يعني : ما كان عليه السلف الصالح) ^(٨) .

وقال الإمام الشافعي : (لأن يلقى الله العبد بكل ذنب ما خلا الشرك خير له من أن يلقاه بشيء من الأهواء) ^(٩) .

وقال العلامة ابن القيم : (والمقصود أنه سبحانه جمع بين الاستمتاع بالخلق ^(١٠) ، وبين الخوض بالباطل ؛ لأن فساد الدين إما أن يقع بالاعتقاد والباطل ، والتكلم به وهو الخوض ، أو يقع في العمل بخلاف الحق والصواب ، وهو الاستمتاع بالخلق ، فالأول : البدع ، والثاني : الهوى ، وهذان هما أصل كل شر ، وفتنة ، وبلاء ، وبهما كذبت الرسل ، وعصي

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة ١/ ١٣٠ ، رقم الأثر ٢٢٥ ، ورواه ابن بطة في الشرح والإبانة ص ١٢٣ رقم الأثر ٦٢

(٢) رواه ابن بطة في الشرح والإبانة ص ١٢١ رقم الأثر ٥٣

(٣) رواه ابن بطة في الشرح والإبانة ص ١٢٢ رقم الأثر ٥٤

(٤) رواه ابن بطة في الشرح والإبانة ص ١٢٤ رقم الأثر ٦٤

(٥) هو طاوس بن كيسان الفارسي ثم اليماني العالم الحافظ الزاهد كان يقول : لو وزن رجاء المؤمن وخوفه لا اعتدلا ، كانت وفاته سنة ١٠٥ هـ . انظر طبقات الشعرائي ١/ ٣٩ ، سير أعلام النبلاء ٥/ ٣٨ ، شذرات الذهب ١/ ١٣٣

(٦) شرح أصول اعتقاد أهل السنة ١/ ١٣٠ رقم الأثر ٢٢٨

(٧) هو الإمام التابعي أبو عمران إبراهيم بن يزيد بن قيس بن الأسود النخعي من أكابر التابعين صلاحاً ، وصدقاً ، ورواية ، وحفظاً للحديث ، عاش بالكوفة ، وكانت وفاته في سنة ٩٦ هـ . انظر : حلية الأولياء ٤/ ٢١٩ ، وتهذيب التهذيب ١/ ١٧٧

(٨) الاعتصام ٢/ ١٨٠ (٩) الأمر بالاتباع والنهي عن الابتداء للسيوطي ص ٧١

(١٠) الخلاق : النصب . انظر مختار الصحاح ص ١٨٧ مادة (خ ل ق) .

الرب، ودخلت النار، وحلت العقوبات، فالأول من جهة الشبهات، والثاني من جهة الشهوات؛ ولهذا كان السلف يقولون: احذروا من الناس صنفين: صاحب هوى، فتنه هواه، وصاحب دنيا، أعجبته دنياه^(١).

وقد بين الإمام الشاطبي أن المرء إما أن يتبع الهدى والحق فينقذ نفسه من الهلكة، وإما أن يتبع الهوى والشهوة فيقع في الابتداع والضلال، وليس هناك قسيم ثالث.

يقول الشاطبي محذرا من الابتداع: (إنه اتباع الهوى لأن العقل إذا لم يكن متبعا للشرع لم يبق إلا الهوى، والشهوة، وأنت تعلم ما في اتباع الهوى، وأنه ضلال مبين، ألا ترى قول الله تعالى: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾^(٢) فحصر الحكم في أمرين لا ثالث لهما عنده وهو الحق، والهوى، وعزل العقل مجردا؛ إذ لا يمكن في العادة إلا ذلك، وقال: ﴿وَلَا تَطْعَمَنْ أَعْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾^(٣)، فجعل الأمر محصورا بين أمرين: اتباع الذكر، واتباع الهوى، وقال: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ﴾^(٤)، وهي مثل ما قبلها، وتأملوا هذه الآية فإنها صريحة في أن من لم يتبع هدى الله في هوى نفسه فلا أحد أضل منه، وهذا شأن المبتدع فإنه اتبع هواه بغير هدى من الله، وهدى الله هو القرآن^(٥).

وقد ورد أن من البدع المحرمة: المشي في هوى النفس، وتلبية أمانيتها، والتعصب في هواها، فإن حبك الشيء يعمي ويصم^(٦).

وروى ابن الجوزي عن أبي بكر الوراق^(٧) - رحمه الله تعالى - أنه قال: (أصل غلبة الهوى مقارنة الشهوات، فإذا غلب الهوى أظلم القلب، وإذا أظلم القلب ضاق الصدر، وإذا ضاق الصدر ساء الخلق، وإذا ساء الخلق أبغضه الخلق، وإذا أبغضه الخلق أبغضهم، وإذا أبغضهم جفاهم، وإذا جفاهم صار شيطانا رجيمًا)^(٨).

(١) أعلام الموقعين ١/ ١٣٦

(٢) سورة ص الآية ٢٦

(٣) سورة الكهف الآية ٢٨

(٤) سورة القصص الآية ٥٠

(٥) الاعتصام ١/ ٥١، وانظر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لشيخ الإسلام ابن تيمية ص ٢٦

(٦) انظر: الأمر بالاتباع والنهي عن الابتداع للسيوطي ص ٢٩٨، والدين الخالص للفتنوجي ٤/ ٢٩

(٧) هو أبو بكر محمد بن إسماعيل بن العباس البغدادي، المستملي، الوراق، ولد سنة ٢٩٣هـ، قال الخطيب البغدادي:

سألت البرقاني عن محمد بن إسماعيل، فقال: ثقة، ثقة، توفي سنة ٣٧٨هـ. انظر تاريخ بغداد ٢/ ٥٣، وسير أعلام

(٨) ذم الهوى لابن الجوزي ص ٣٣

النبلاء ١٦، ٣٣٨

وقال أعرابي : (ما أشد تحويل الرأي عند الهوى ، هو الهوان وإنما غلط باسمه فاشتق له من جنسه)^(١).

وقد نظم هذا المعنى شاعر فقال^(٢) :

إن الهوان هو الهوى قلب اسمه فإذا هويت فقد لقيت هوانا

وقال العلامة ابن القيم : (وقد قيل : الهوى كمين^(٣) لا يؤمن)^(٤) . وشرح كلام ابن القيم هذا أن يقال : الهوى لص فإذا ترك مع صاحبه سرق منه دينه ، وعقله ، ومروءته ، وحياءه ، وتركه كالبيت الخاوي ، ولا شك أن سرقة هذه الأمور أخطر وأنكى وأفطع وأبكى من ومن سرقة متاع البيت ، فليأخذ المرء الحيلة والحذر من هذا اللص الخطر .

(١) ذم الهوى ص ٢٨

(٢) انظر : ذم الهوى ص ٣٣

(٣) الكمين في اللغة : الذي يستخفي في الحرب حيلة حتى يأخذ عدوه على غفلة . انظر المصباح المنير ٥٤١ / ٢ مادة (كمين) .

(٤) روضة المحبين ص ٤٦٩

المبحث الرابع

التعريف بأهل الأهواء وبيان سماتهم

المطلب الأول: التعريف بأهل الأهواء.

لما كانت الغاية من هذا المبحث هي الوقوف على معرفة مفهوم الوساطة بين الله تعالى وخلقته من جانب أهل السنة وفق ما جاء في الكتاب والسنة وبيان السلف رحمهم الله لتلك الوساطة، ثم بيان مفهوم الوساطة عند أهل الأهواء، وإيضاح أنواع الوسائط البدعية التي يشتونها، لما كان الأمر كذلك رأيت أنه من المناسب التعريف بأهل الأهواء عموماً، وبيان شيء من سماتهم التي يعرفون بها، ومن ثم الوقوف على تعريف الطوائف التي اشتهرت بالقول بالوساطة البدعية، فكان لكل منها مفهومها الخاص بها: هذه الطوائف هي: الفلاسفة والرافضة، والصوفية. وسوف يكون التعريف مختصراً؛ لأن ذكر تاريخ منشأ هذه الطوائف وبيان الأطوار التاريخية التي مرت بها وإلقاء الضوء على فرقها ورجالاتها ليس من أغراض هذه الرسالة^(١).

أ - المراد بأهل الأهواء: قال أهل اللغة: الأهواء واحدها هوى، وكل فارغ هواء، والهواء: الجبان لأنه لا قلب له فكأنه فارغ، الواحد والجمع في ذلك سواء.

وقال الجرجاني^(٢): (أهل الأهواء أهل القبلة الذين لا يكون معتقدهم معتقد أهل السنة وهم الجبرية، والقدرية، والروافض، والخوارج، والمعتلة، والمشبهة، وكل منهم اثنا عشر فرقة، فصاروا اثنين وسبعين^(٣)).

وقال الحافظ ابن رجب: (فالبدع إنما تنشأ من تقديم الهوى على الشرع ومن أجل ذلك يسمى أهلها أهل الأهواء^(٤)).

(١) انظر تهذيب اللغة ٦/٤٩٢، ولسان العرب ١٥/١٦٦، مادة (هـ. و. ي.).

(٢) هو أبو الحسن علي بن محمد بن علي السيد الحسيني المعروف بالشريف الجرجاني من كبار علماء العربية، ولد سنة ٧٤٠هـ بجرجان، ودرس العلوم في شیراز، ثم خرج إلى بلاد الروم وبها ذاع صيته، توفي بشيراز سنة ٨١٦هـ. انظر

الفوائد البهية ص ١٢٥، والضوء اللامع ٥/٣٢٨، والبدر الطالع ١/٤٨٨، والأعلام ٥/١٥٩.

(٣) هكذا في النص، والصحيح (اثنان واثنان) بالتأنيث.

(٤) التعريفات ص ٥٧، وحصر الجرجاني فرق الأمة في هذه الأصول وتفرعها حتى يكتمل العدد اثنان وسبعون غير مسلم

كما درج عليه غيره من المصنفين في الفرق؛ لأن الأمة باقية، والافتراق حاصل وانظر للتوسع اليمانيات المسلوطة ص ١٤٠

(٥) جامع العلوم والحكم ص ٣٨٨

ولعل الضابط لأهل الأهواء أن كل من خرج عن موجب الكتاب والسنة فهو من أهل الأهواء، وإن كان منسوباً إلى العلماء، أو مصنفاً مع طائفة العباد.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (ولهذا كان من خرج عن موجب الكتاب والسنة من المنسوبين إلى العلماء والعباد يجعل من أهل الأهواء، كما كان السلف يسمونهم أهل الأهواء^(١)).

ويرى الإمام الشاطبي أن مصطلح أهل الأهواء لا يطلق حقيقة إلا على الذين ابتدعوا أصلاً، وقدموا فيها شريعة الهوى بالاستنباط، والتعبد، والانتصار لها، والاستدلال على صحتها في زعمهم، حتى عد خلافهم خلافاً، وشبههم منظوراً فيها ومحتاجاً إلى ردها، والجواب عنها؛ بخلاف العوام فإنهم متبعون عادة لما يقرره علماءهم؛ لأنه فرضهم، فليسوا بمتبعين للهوى، وإنما يتبعون ما يقال لهم كائناً ما كان، فلا يطلق - إذاً - على العوام لفظ أهل الأهواء، حتى يخوضوا بأنظارهم فيها ويحسنوا بعقولهم ويُقَبِّحُوا، وإنما يتعين لمصطلح أهل الأهواء مدلول واحد وهو من انتصب للابتداع، وترجيحه على غيره، وأما الأتباع من أهل الغفلة عن ذلك والساكنون سبل رؤسائهم بمجرد التقليد من غير نظر فلا يشملهم هذا المصطلح^(٢).

ثم يستدرك الشاطبي فيضيق العذر على العوام المقلدين فيوضح أن تقليد أهل الغفلة من العوام لأبائهم، ومن يعتقدون فيه الصلاح من شيوخهم، دون النظر إلى كونهم من أهل العلم والاجتهاد أولاً ولا نوع من استدلالهم للبدعة بشرع الهوى، فيدخلون بهذا الاعتبار في مسمى أهل الأهواء؛ لأن الله تعالى ذم من احتج بهذا التقليد، فقال تعالى حكاية عن الكفار في تقليدهم لأبائهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهُتَدُونَ﴾^{(٣)(٤)}.

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (والبدعة التي يعد بها الرجل من أهل الأهواء ما اشتهر عند أهل العلم بالسنة مخالفتها للكتاب والسنة كبدعة الخوارج، والروافض، والقدرية، والمرجئة^(٥)) فمذهب شيخ الإسلام أن الضابط الذي يعرف به أهل الأهواء هو: ابتداع أمر اشتهر عند العلماء مخالفته للكتاب والسنة وهو ضابط دقيق لتمييز أهل الأهواء ومعرفتهم.

(١) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ص ٥٢

(٣) سورة الزخرف الآية ٢٢

(٥) مجموع الفتاوى ٤١٤/٣٥

(٢) انظر الاعتصام ١/ ١٦٢

(٤) انظر الاعتصام ١/ ١٦٣ وما بعدها.

ويعلل الشاطبي لتسمية أصحاب البدع أهل الأهواء مبينا أن السبب في ذلك أنهم لم يسلموا للنصوص الشرعية ابتداء، بل اعتقدوا أمورا من عند أنفسهم أو متبوعيهم، ثم حاولوا الاستدلال عليها بلي أعناق النصوص لها وضرب الأدلة وإخضاعها لتلك العقائد المبتدعة فقال: (ولذلك سمي أهل البدع أهل الأهواء؛ لأنهم اتبعوا أهواءهم، فلم يأخذوا الأدلة الشرعية مأخذ الافتقار إليها والتعويل عليها، حتى يصدرُوا عنها، بل قدموا أهواءهم واعتمدوا على آرائهم، ثم جعلوا الأدلة الشرعية منظورا فيها من وراء ذلك، وأكثر هؤلاء هم أهل التحسين والتقبيح ومن مال إلى الفلاسفة وغيرهم، ويدخل في غمارهم من كان (يغشى)^(١) السلاطين لنيل ما عندهم أو طلبا للرياسة، فلا بد أن يعيل مع الناس بهوهم ويتأول عليهم فيما أرادوا حسب ما ذكره العلماء ونقله الثقة من مصاحبي السلاطين^(٢). ومعظم أهل الأهواء يكون ضلالهم بسبب ففتتين: فتنه الشهوات، وفتنة الشبهات^(٣).

وذكر العلامة ابن القيم أن السلف كانوا يسمون أهل الآراء المخالفة للسنّة وما جاء به الرسول ﷺ في مسائل الأحكام العملية أهل الشبهات والأهواء؛ لأن الرأي المخالف للسنّة جهل لا علم، وهوى لا دين، وهذا يوضح قوله الإمام مالك بن أنس المشهورة (إذا قل العلم ظهر الجفاء، وإذا قلت الآثار ظهرت الأهواء)^(٤).

ويشمل مصطلح أهل الأهواء ثلاث فئات، يدخل تحتها كل صاحب هوى، خرج به هواء عن الالتزام بالكتاب والسنة وهذه الفئات هي:

الأولى: أصحاب السيف الخارجين على ولاة المسلمين وجماعتهم مثل: الخوارج، والبقاة، والمناوئين لحكام المسلمين.

الثانية: أهل الكلام، والبدع، والجدل، والخصومات في الدين مثل: الخوارج، والرافضة، والقدرية، والمرجئة، والمعتزلة، والجهمية، والمشبّهة، والمتصوفة، والباطنية، ومتكلمة الكلائية، والكرامية، والأشاعرة، والماتريدية.

الثالثة: يشمل مصطلح أهل الأهواء أيضا: كل من سار على نهج هذه الطوائف في

(١) في الاعتصام (بخشى) ولعله تحريف.

(٢) الاعتصام ٢ / ١٧٦

(٣) كشف الكربة لابن رجب ص ٤٧

(٤) انظر مجموع الفتاوى ١٧ / ٣٠٨، إغاثة اللهفان ٢ / ٥١٠

الأصول، أو أحدث منهجا مخالفا لمنهج أهل السنة والجماعة مثل: أصحاب التيارات المنحرفة المعاصرة، من شيوعيين، وعلمانيين، وقوميين^(١)، وحدائيين^(٢)... إلى غير ذلك من الاتجاهات المنحرفة التي تتباين في التسمية وتتحد في المقصد وهو الإلحاد وفصل الدين عن الحياة الاجتماعية وكره أهل السنة والجماعة والسخرية من الملتزمين بالإسلام عقيدة وشريعة^(٣).

ب- ولأهل الأهواء سمات بارزة، وعلامات واضحة تميزهم عن أهل السنة ويعرفون بها فمن تلك العلامات:

١- **اتباع الهوى^(٤)**، وهذه العلامة هي أبرز صفات أهل الأهواء وإليها ينتسبون، وقد وصفهم الله تعالى بهذه الصفة في قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾^(٥).

قال الإمام ابن كثير- رحمه الله تعالى- في تفسير الآية: (أي إنما يأتمر بهواه مهما رآه حسنا فعله، ومهما رآه قبيحا تركه، وهذا قد يستدل به على المعتزلة في قولهم بالتحسين والتقيح العقلين^(٦)).

ولهذا قيل: فبالقرآن ثبت ذم الهوى، وبالقرآن ثبت وجه اتباع الهوى وهو أصل الزيغ

(١) وقد تناول القوميون حتى قال شاعرهم وهو يخاطب أحد الحكام القوميين البعثيين:-

كَمْ تَمْتَكُ هَذِهِ الْأَرْضُ رَأْسًا وَقَدْ تَقْصُرُ الْمَعْنَى وَتَطُولُ

وحتى لا يتطرق إلى الأذهان أن معنى الرب هنا المنعم قال في شطر البيت الثاني:-

حسبنا البعث وهو نعم الوكيل

وقال الشاعر القومي الآخر رشيد الخوري:-

سَلامٌ عَلَى كُفْرٍ يُوَحِّدُ بَيْنَنَا وَأَهْلًا وَسَهْلًا بَعْدَهُ بِجَهَنَّمَ

فهذه القوميات تشكل خطرا على العقيدة الإسلامية بما تبثه في معتنقيها من عقائد فاسدة وانحرافات دنية ظاهرة جرهم إلى الإيمان بها والسقوط في مستنقعها هوى القوميات والنعرات الجاهلية. انظر القومية العربية على ضوء الإسلام والواقع لسماحة الشيخ ابن باز ص ١٤، والقومية في نظر الإسلام لمحمد أحمد باشميل ص ٣٠، وصراع مع الباطل له أيضا ص ٨ وما بعدها، وفكرة القومية العربية على ضوء الإسلام لشيخنا معالي الدكتور صالح العبود ص ٢٥٢

(٢) **الحدائنة:** مصطلح أدبي يرى أصحابه الخروج عن سنن الضوابط والشروط التي وضعها قدماء النقد للشعر والنثر والدعوة إلى مسيطرة الغرب ومحاكاته في هذا الجانب، ويصبح الحدائيون منتظمين في سلك أهل الأهواء إذا جرهم هوى الحودائنة إلى التناول على العقيدة الإسلامية وراموا بالحدائنة خدش الدين. انظر الحدائنة في منظور إيماني د/ عدنان علي رضا

النحوي ص ٢٥ (٣) انظر مقدمات في الأهواء والافتراق والبدع ص ٢٤

(٤) تقدم الحديث حول تعريف الهوى وبيان خطورته وإفساده لعقيدة صاحبه.

(٥) سورة الجاثية الآية ٢٣ (٦) تفسير ابن كثير ٥/ ١٥٠

عن الصراط المستقيم^(١).

٢- الفرقة والاختلاف: قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾^(٢).

قال الإمام البغوي رحمه الله تعالى: هم أهل البدع والأهواء^(٣).

وقال ابن كثير: (الآية عامة في كل من فارق دين الله وكان مخالفا له، فإن الله بعث رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وشرعه واحد لا اختلاف فيه، ولا افتراق، فمن اختلف فيه وكانوا شيعا أي فرقا كأهل الملل والنحل والأهواء والضلالات فإن الله تعالى قد برأ رسوله مما هم فيه^(٤)).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية مبينا أن علامة أهل الأهواء: التفرق والشذوذ (ولهذا وصفت الفرقة الناجية بأنها أهل السنة والجماعة وهم الجمهور الأكبر والسواد الأعظم، أما الفرق الباقية فإنهم أهل الشذوذ والتفرق والبدع والأهواء، ولا تبلغ الفرقة من هؤلاء قريبا من مبلغ الفرقة الناجية فضلا عن أن تكون بقدرها، بل قد تكون الفرقة منها في غاية القلة وشعار هذه الفرق مفارقة الكتاب والسنة والإجماع^(٥)).

٣- اتباع ما كان عليه الآباء، والأشياخ من العادات الفاسدة، والمعتقدات الباطلة، وأشباه ذلك، وهو التقليد المذموم الذي وصفه الله تعالى في قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾^(٦).

يقول الشيخ عبد الرحمن السعدي في تفسير الآية: ما وجدوا عليه آباءهم من الدين ولو كان غير سديد ولا ديناً ينجي من عذاب الله، ولو كان في آباءهم كفاية ومعرفة ودراية لهان الأمر، ولكن آباءهم لا يعقلون شيئا، فليس عندهم من المعقول شيء، ولا من العلم والهدى شيء، فتب لمن قلدهم من لا علم عنده صحيح، ولا عقل رجيح، وترك اتباع ما أنزل الله واتباع رسله، الذي يملأ القلوب علما، وإيمانا وهدى، ويقينا^(٧).

(١) انظر الاعتصام ١٧٩/٢، والعلم الشامخ ص ٢٩٤ (٢) سورة الأنعام الآية ١٥٩

(٣) انظر شرح السنة ١٨٤/١

(٤) تفسير ابن كثير ١٩٦/٢، وانظر الاعتصام ١٦٦/٢

(٥) مجموع الفتاوى ٣/٣٤٥، وانظر العلم الشامخ ص ١٩٤ (٦) سورة المائدة الآية ١٠٤

(٧) انظر تفسير السعدي ١٦٥/٢

وقال الشاطبي بعد استدلاله بالآية: فنبههم الله تعالى على وجه الدليل الواضح، فتمسكوا بمجرد تقليد الآباء (وهذا الوجه هو الذي مال بأكثر المتأخرين من عوام المبتدعة إذا اتفق أن ينضاف إلى شيخ جاهل، أو لم يبلغ مبلغ العلماء فيراه يعمل عملاً فيظنه عبادة فيقتدي به كائناً ما كان ذلك العمل موافقاً للشرع أو مخالفاً... فهو في الحقيقة راجع إلى تقليد من حسن ظنه فيه خطأ أو أصاب كالذين قلدوا آباءهم سواء^(١)).

٤- تكفيرهم مخالفهم بغير دليل: ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أن شعار أهل الأهواء تكفير كل من لا يرى رأيهم وإن لم يكفروه بدعوه، أو رموه بالتفسيق فقال: (والخوارج تكفر أهل الجماعة وكذلك المعتزلة يكفرون من خالفهم، وكذلك الرافضة، ومن لم يكفر يفسق، وكذلك أكثر أهل الأهواء يتدعون رأياً، ويكفرون من خالفهم فيه^(٢)).

ونقل عن الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ أنه سئل عن الذي يكفر مخالفه في الرأي فأجاب بقوله: (الجواب أنني لا أعلم مستنداً لهذا القول والتجاسر على تكفير من ظاهره الإسلام من غير مستند شرعي ولا برهان مرضي يخالف ما عليه أئمة العلم من أهل السنة والجماعة، وهذه الطريقة هي طريقة أهل البدع والضلال^(٣)).

٥- الدلة بسبب طاعتهم لأهوائهم: وضَّح العلامة ابن القيم أنه ينبغي للمرء أن يحفظ نفسه من ذل طاعة الهوى، فإنه ما أطاع أحد هواء ولا استرسل فيما يلقاه قط إلا وجد في نفسه ذلاً، ولا يغتر بصولة أهل الأهواء وكبرهم وغطرستهم فهم أذل الناس بواطن، قد جمعوا بين صفتي الكبر والذل^(٤).

٦- اتباع المتشابه: لقول الله تعالى: ﴿... فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾^(٥).

قال ابن كثير: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ أي ضلال وخروج عن الحق إلى الباطل: ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ﴾ أي إنما يأخذون منه المتشابه الذي يمكنهم أن يحرفوه إلى مقاصدهم الفاسدة وينزلوه على تأويلاتهم الباطلة؛ لاحتمال لفظه لما يصرفونه، ولهذا

(١) الاعتصام ١٨٢/٢، وانظر العلم الشامخ ص ٤٠٧، وتنبهه أولي الأبصار إلى كمال الدين وما في البدع من الأخطار

(٢) منهاج السنة النبوية ١٨١/٥

لشيخنا الدكتور صالح السحيمي ص ١٤٢

(٣) انظر روضة المحبين ونزهة المشتاقين ص ٤٧٣

(٤) مجموعة الرسائل والمسائل النجدية ٢٠/٣

(٥) سورة آل عمران الآية ٧

قال: ﴿ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ﴾ أي الإضلال لأتباعهم، إيهاما لهم أنهم يحتجون على بدعتهم بالقرآن، وهذا حجة عليهم لا لهم^(١).

وقال البغوي: قيل المراد به: ﴿الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ هم جمع أهل الأهواء والبدع^(٢)؛ لأنهم جميعا يشتركون في هذه الصفة وهي اتباع المتشابه.

٧- معارضة السنة بالقرآن، ودعوى الاكتفاء بالقرآن عن السنة في التشريع:

وقد أخبر بذلك الصادق المصدوق (في قوله: (ليوشك الرجل متكئا على أريكته^(٣)، يحدث بحديثي فيقول: بيننا وبينكم كتاب الله، ما وجدنا فيه من حلال استحللناه، وما وجدنا فيه من حرام حرمتنا، ألا وإن ما حرم رسول الله فهو مثل ما حرم الله^(٤)).

قال الإمام البربهاري^(٥) يرحمه الله تعالى: (إذا سمعت الرجل يطعن على الآثار أو يرد أو يريد غير الآثار فاتهمه على الإسلام، ولا شك أنه صاحب هوى مبتدع^(٦)).

٨- بغض أهل السنة والآثر، وإطلاق الألقاب الشنيعة عليهم^(٧). يقول أبو حاتم الرازي: (وعلمة الجهمية تسميتهم أهل السنة مشبهة، وعلامة القدرية تسميتهم أهل الآثار مجبرة، وعلامة المرجئة تسميتهم أهل السنة مخالفة ونقصانية^(٨))، وعلامة الرافضة تسميتهم أهل السنة ناصبة، ولا يلحق أهل السنة إلا اسم واحد، ويستحيل أن تجمعهم هذه الأسماء^(٩)).

ويقول الشيخ إسماعيل الصابوني: (وعلامات أهل البدع على أهلها بادية ظاهرة،

(١) انظر تفسير ابن كثير ٥/٢

(٢) انظر تفسير البغوي ٢٧٩/١

(٣) الأريكة: السرير المزخرف الذي له مجال، وقبل هو كل ما اتكى عليه من سرير أو فراش أو منصة. انظر مختار الصحاح ص ١٤ مادة (أرك) والنهاية ٤٠/١ مادة (أرك).

(٤) رواه الإمام أحمد في المسند ١٣٢/٤، والحاكم في المستدرک ١٠٩/١، وصححه، ووافقه الذهبي، وقال بتصحيحه أيضا الشيخ الألباني. انظر صحيح سنن ابن ماجه ٧/١ رقم الحديث ١٢

(٥) هو أبو محمد الحسن بن علي بن خلف البربهاري نسبة إلى الأديبة المجلوبة من الهند، الإمام القدوة، الحافظ، الثقة، شيخ الحنابلة في عصره، أخذ عن بعض الأكابر من أصحاب الإمام أحمد، كانت وفاته سنة ٣٢٩هـ. انظر ترجمته في طبقات

الحنابلة ١٨/٢، والمتنظم لابن الجوزي ٦/٣٢٣ (٦) كتاب شرح السنة للبريهان ص ٥١

(٧) تقدم الكلام على الألقاب الشنيعة التي يطلقها أهل الأهواء على أهل السنة ظلما وشتانا.

(٨) يقصدون بذلك أن أهل السنة يرون زيادة الإيمان ونقصانه، أما المرجئة فيرون أن الإيمان لا ينجز ولا يزيد ولا ينقص، فأطلقوا على أهل السنة لقب (نقصانية) لذلك. انظر شرح أصول اعتقاد أهل السنة لللالكائي ١/١٧٩، ووسطية أهل

السنة بين الفرق للذكور محمد بن عبد الله باكر ص ١٣٤

(٩) شرح أصول اعتقاد أهل السنة لللالكائي ١/١٧٩

وأظهر آياتهم وعلاماتهم شدة معاداتهم لحملة أخبار النبي ﷺ واحتقارهم لهم وتسميتهم إياهم حشوية، وجهلة، وظاهرية، ومشبهة، اعتقاداً منهم في أخبار رسول الله ﷺ أنها بمعزل عن العلم، وأن العلم ما يلقيه الشيطان إليهم من نتائج عقولهم الفاسدة، ووساوس صدورهم المظلمة^(١).

٩- ومن علامات أهل الأهواء أن مصادر التلقي عندهم غير مضبوطة بضابط شرعي، كما هو الحال عند أهل السنة وأراؤهم في هذا التلقي لا تستقر على منهج محدد لاعتمادهم على عقولهم، وأهوائهم، فلذلك نجد مصادر الدين عند أهل الأهواء متعددة: فمن أخذ بالعقل لا يحيد عنه، ومن أخذ بالأوهام والظنون والذوق والكشف، وإيحاء الشياطين، ومن أخذ بالرأي، وظنون الرجال، والفلسفات المتناقضة، ومن أخذ بالروايات الضعيفة والمكذوبة وما لا أصل له كدعوى الكشف والعلم اللدني، والتلقي عن مصادر وهمية ومجهولة، والأخذ عن الأم الضالة^(٢).

ومما يبين خطر أهل الأهواء أنهم يعملون على تشتيت الأمة وتفريق كلمتها حيث إن كل طائفة من أهل الأهواء يذهب بها هواها إلى حيث شاء من العقائد الفاسدة والآراء الباطلة، فتوالي عليها وتعادي، وبذلك يشيع الخلاف والتنافر والشحناء والبغضاء، حتى بين أبناء الأسرة الواحدة.

نقل ابن القيم عن علي بن المديني رحمه الله^(٣) أنه قال: (كان أبو الجعد إذا تغدى جمع بنيه فكانوا ستة: اثنان مرجئان، واثنان شيعيان، واثنان خارجيان، فكان أبو الجعد يقول: لقد جمع الله بين أيديكم وفرق بين أهوائكم)^(٤).

ونقل البربهاري عن عبد الله بن المبارك أنه قال: (أصل ثنتين وسبعين هوى: أربعة أهواء فمن هذه الأربعة الأهواء تشعبت الاثنان وسبعون هوى)^(٥).

(١) عقيدة السلف وأصحاب الحديث مطبوع ضمن مجموعة الرسائل المنيرة ١/ ١٣١، وانظر مجموع فتاوى ورسائل الشيخ

ابن عثيمين ٥/ ٩٠ (٢) انظر مقدمات في الأهواء والافتراق والبدع ص ٨٩

(٣) هو: علي بن عبد الله بن جعفر بن تميم بن بكر بن سعد السعدي مولاهم البصري المعروف بابن المديني مولى عروة بن عطية السعدي. قال عنه أبو حاتم الرازي: كان ابن المديني عالماً في الناس في معرفة الحديث والعلل، وكان الإمام أحمد لا يسميه وإنما يكنيه بجبلاله، توفي رحمه الله سنة ١٧٨ هـ انظر ترجمته في تاريخ بغداد ١/ ٤٥٨، وسير أعلام النبلاء ١١/ ٤١، وشذرات الذهب ٢/ ٨١،

(٤) بدائع الفوائد ٣/ ١٩٥

(٥) كتاب شرح السنة للبرهاري ص ٥٧

ويحسن بي أن أختم الكلام عن أهل الأهواء وبيان علاماتهم بكلمة رائعة للإمام الشوكاني أوردها في معرض تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَلَيْنِ اتَّبَعَتْ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾^(١) حيث قال: (فيه من التهديد العظيم والزجر البليغ ما تقشعر له الجلود وترجف منه الأفئدة، وإذا كان الميل إلى أهوية المخالفين لهذه الشريعة الغراء والملة الشريفة من الرسول ﷺ الذي هو سيد ولد آدم يوجب عليه أن يكون -وحاشاه- من الظالمين فما ظنك بغيره من أمته؟ وقد صان الله هذه الفرقة الإسلامية بعد ثبوت قدم الإسلام، وارتفاع مناره عن أن يحيلوا إلى شيء من هوى أهل الكتاب، ولم يبق إلا دسيسة شيطانية، ووسيلة طاغوتية وهي ميل بعض من يحمل حجج الله إلى هوى بعض طوائف المبتدعة، لما يروجوه من الخطام العاجل من أيديهم أو الجاه لديهم إن كان لهم في الناس دولة أو كانوا من ذوي الصولة، وهذا الميل ليس بدون ذلك الميل، بل اتباع أهوية المبتدعة يشبه اتباع أهوية أهل الكتاب كما يشبه الماء الماء، والبيضة البيضة، والتمر التمرة، وقد تكون مفسدة اتباع أهوية المبتدعة أشد على هذه الملة من مفسدة اتباع أهوية أهل الملل، فإن المبتدعة ينتمون إلى الإسلام ويظهرون للناس أنهم ينصرون الدين، ويتبعون أحسنه، وهم على العكس من ذلك، والضد لما هنالك، فلا يزالون ينقلون من ميل إلى أهويتهم من بدعة إلى بدعة، ويدفعونه من شناعة إلى شناعة حتى يسلخوه من الدين، ويخرجوه منه، وهو يظن أنه منه في الصميم، وأن الصراط الذي عليه هو الصراط المستقيم)^(٢).

وبعد أن عرّفت بأهل الأهواء، ووضحت المراد بهم، وبينت بعض السمات والعلامات المميزة لهم بين الفرق، وذكرت بعض النقول عن أهل العلم في التحذير من أهل الأهواء، وتلييساتهم، يجدر بي أن أشير هنا إلى تعريف موجز للطوائف التي كان لكل منها مفهوم خاطئ للواسطة، ودافعت كل منها عن مفهومها للواسطة، وشذت به عن مفهوم الواسطة عند أهل السنة والجماعة، هذه الطوائف هي:-

أ - الفلاسفة

ب - الرافضة

ج - الصوفية .

المطلب الثاني: التعريف بالفلاسفة:

الفلسفة: باليونانية: محبة الحكمة، والفيلسوف عندهم هو: فيلا سوفاء، مركب من كلمتين: (فيلا) أي: المحب، و(سوفاء) أي: الحكمة، فمعناه: محب الحكمة^(١).

والفلاسفة - كما ذكر الغزالي - ثلاثة أقسام:

أ- الدهريون: وهم طائفة حجدوا الصانع، وزعموا أن العالم قديم، موجود بنفسه.

ب- والطبيعون: وهم قوم أكثروا بحثهم عن عالم الطبيعة، وعن عجائب الحيوان، وعلم التشريح، فاضطرهم ذلك إلى الاعتراف بوجود الله.

ج- والإلهيون: وهم متأخروا الفلاسفة كسقراط^(٢)، وتلامذته.

وعلم الفلسفة ستة أقسام:

١- علم الرياضة.

٢- وعلم الطبيعة.

٣- وعلم السياسة.

٤- وعلم الإلهيات.

٥- وعلم الأخلاق.

٦- وعلم المنطق، وقد ترجمت معظم هذه العلوم في عهد الخليفة المأمون^(٣)،

ولتاريخ الفلسفة عصور مصطلح عليها عند الفلاسفة، وهذه العصور هي:

الفلسفة الشرقية القديمة، ثم الفلسفة اليونانية، التي تهتم بالأخلاق الإنسانية، فالفلسفة الوسيطة التي تؤيد الدين بالعقل، ثم الفلسفة الحديثة التي تسير العلوم وتحللها^(٤).

المطلب الثالث: التعريف بالرافضة:

تعريف الرفض لغة: الرفض في اللغة: الترك، والمنع، يقال: رفضه إذا تركه فهو رفيض، ومرفوض، ومن معانيه: التفرق فيقال: رفضت الإبل من باب ضرب إذا تفرقت

(١) انظر الملل والنحل ٥٨/٢

(٢) هو سقراط بن سفرونيسقوس فيلسوف يوناني من أثينا، أبو نحات، وأمه قابلة، ولد سنة ٤٦٩، وتوفي سنة ٣٩٩ قبل الميلاد، لم يترك أثراً مكتوباً؛ لكن سجل حياته، وتعاليمه تلميذه أفلاطون في محاوراته. انظر الموسوعة العربية الميسرة بإشراف محمد شفيق غريال ٩٨٥/١

(٣) انظر الملل والنحل ٥٨/٢، والمنقذ من الضلال للغزالي ص ١٣

(٤) انظر الموسوعة العربية الميسرة ١٣١٠/٢

في المرعى فهي إبل رافضة، ويقال: رجل رُفْضَة كهُمزة: إذا كان يتمسك بالشيء ثم بدعه، وترَفَضَ العود: إذا تكسر^(١).

ويلاحظ هنا أن هذه المعاني اللغوية التي استفيدت من مادة (رفض) تتجاذب اسم الرافضة، وأن هذه المعاني تدور كما هو واضح حول الأمر المكروه والمذموم.

تعريف الرفض اصطلاحاً: الرافضة في الاصطلاح: هم الغلاة من الشيعة في حب علي رضي الله عنه ونبيه من بعده وبغض الشيخين أبي بكر وعمر - رضي الله عنهما - على الخصوص، ومعظم الصحابة رضي الله عنهم أجمعين.

يقول المقرئ في تعداده للفرق: (الفرقة التاسعة: الروافض: الغلاة في حب علي بن أبي طالب، وبغض أبي بكر وعمر وعثمان وعائشة ومعاوية في آخرين من الصحابة رضي الله عنهم أجمعين)^(٢).

وقد كانت كتب الفرق تطلق اسم الرافضة على الإمامية الاثني عشري^(٣) الذين يُقرطون في موالاة أهل البيت، ويُقرطون في حق الصحابة رضي الله عنهم فيسبونهم ويقولون بكفرهم سوى ستة رجال^(٤)، وبما أن فرق الشيعة كلها من غلاتها القدماء والمحدثين انصبت في قالب الإمامية كما صرح الإمامية أنفسهم بذلك^(٥)، وبما أن الإمامية تزعمت طوائف الشيعة في العصر الحاضر وحملت رايها، وكونت لها دولة وأصبح لها علماءها ومؤلفوها يدافعون عن عقائد الشيعة، وهي -أيضا- عقائد الرافضة، بما أن الأمر كذلك فإنه يتبادر إلى الذهن عند إطلاق لفظ (الرافضة) أنه يعم الشيعة الغلاة سوى فرقة الزيدية^(٦).

(١) انظر مختار الصحاح ص ٢٥٠ مادة (رفض) ولسان العرب ٧/ ١٥٦، والمصباح المنير ١/ ٢٣٢ مادة (رفضه) والقاموس المحيط ٢/ ٣٤٤، مادة (رفضه)

(٢) خطط المقرئ ٢/ ٣٥١

(٣) انظر في شأن الإمامية فرق الشيعة للنوبختي ص ١٠٨، والأنوار النعمانية ٢/ ٢٤٤، والغيبة ص ٥١، والمقالات والفرق للقمي ص ١٠٢، ومقالات الإسلاميين ١/ ٨٨، والملل والنحل ١/ ١٦٢، ومختصر التحفة الاثني عشرية ص ٢١

(٤) هؤلاء الستة عندهم هم: أبو الدرداء، وحذيفة بن اليمان، والمقداد بن الأسود، وعمار بن ياسر، وسلمان الفارسي، وصهيب الرومي رضي الله عنهم جميعاً. انظر اليمانيات المسلوقة على الرافضة المخدولة ص ٢٤٤

(٥) صرح بهذا الرأي محمد حسين الزين حيث قال: لا يحق لأحد أن يطلق اسم الشيعة على غير الاثني عشرية (الرافضة) وأكثر الزيدية والإسماعيلية وبعض الفطحية والواقفية، وبما أن الفطحية والواقفية لا وجود لهما في هذا العصر اختص اسم

الشيعة بالشيعة الإمامية الاثني عشرية. انظر الشيعة في التاريخ ص ٣٠، وأصل الشيعة وأصولها ص ١٠٩

(٦) انظر في شأن الزيدية المقالات والفرق ص ١٨، وفرق الشيعة للنوبختي ص ٥٧، والفهرست لابن النديم ص ٢٢٦، والملل

والنحل ١/ ١٥٤، واليمانيات المسلوقة ص ١٩١

يقول الدكتور ناصر القفاري - مؤكداً أنه لا يوجد الآن من طوائف الشيعة إلا الإمامية : إن طائفة الاثني عشرية استوعبت معظم مقالات فرق الشيعة وعقائدها : كالنص على الأئمة والقول بعصمتهم والتقية، والغيبة، والرجعة، والبداء، بالإضافة إلى أنها تمثل غالبية الشيعة، لذلك فإن مصطلح (الشيعة) إذا أطلق فلا ينصرف إلا إليهم^(١).

وقد لاحظ أحمد الفيومي^(٢) رحمه الله أن لفظ الشيعة يصدق بالإطلاق على متقدمي الشيعة الذين لم يكونوا يسبون الصحابة أو يكفرونهم، أما المتأخرون من الشيعة فإنهم رافضة؛ لأن هذا اللقب يستعمل في كل من غلا في هذا المذهب، وأجاز الطعن في الصحابة رضي الله عنهم^(٣). ومما يؤيد صحة إطلاق اسم الرافضة على عموم الشيعة المتأخرين أننا وجدنا كثيراً من مصنفين كتب الفرق تتناول الحديث عن الشيعة، وتعدد فرقها تحت اسم الرافضة من أمثال المقرئ كما سبقت الإشارة إلى ذلك، وابن الجوزي^(٤)، والبزدوي^(٥)، وأبي الحسين الملطي^(٦)، والأسفرايني^(٧)، وعبد القاهر البغدادي^(٨)، وأبي منصور السكسكي^(٩). هؤلاء العلماء أطلقوا على مجموع فرق الشيعة لقب الرافضة^(١٠).

وعموماً فإن التلازم، والتداخل بين الشيعي والرافضي قائم.

قال الشعبي^(١١) رحمه الله : (اثني بشيعي صغير أخرج لك منه رافضيا كبيراً، واثني

(١) انظر مسألة التقريب القسم الأول ص ١١

(٢) هو أبو العباس أحمد بن محمد بن علي المقرئ الفيومي الحموي . قال عنه الحافظ ابن حجر : كان فاضلاً عارفاً باللغة والفقه، ولد بالقنوج ورحل إلى حماة فقطعها، وولي الخطابة في جامع الدهشة أيام الملك المؤيد إسماعيل، توفي في حدود سنة ٧٧٠هـ. انظر الدرر الكامنة ١/ ٣١٤، وبغية الوعاة ١/ ٣٨٩، والأعلام للزركلي ١/ ٢٢٤

(٣) انظر المصباح المنير ١/ ٢٣٢ مادة (رفضه) .

(٤) انظر تلبيس إبليس ص ٢٢

(٥) انظر كتاب أصول الدين للبزدوي ص ٢٤٧

(٦) انظر التنبيه والرد ص ١٨

(٧) انظر التبرير في الدين ص ١٦

(٨) انظر الفرق بين الفرق ص ٤١

(٩) انظر البرهان في معرفة عقائد أهل الأديان ص ٦٥

(١٠) يرى الدكتور غالب العواجي حفظه الله أن إطلاق اسم الرافضة على عموم الشيعة أمر غير سديد؛ لأن زيد بن علي رحمه الله هو الذي سماهم رافضة؛ ولأن الشيعة كان لهم وجود قبل زيد تحت أسماء أخرى. انظر فرق معاصرة تنسب إلى الإسلام ١/ ١٣٨، والذي يظهر لي أن هذا يتجه إذا أدخلنا الزيدية في مسمى الرافضة، أما إذا أخرجنا الزيدية فإن بقية طوائف الشيعة يصدق عليهم هذا الاسم يصح أن يقال (الرافضة والزيدية) كما قيل (الشيعة والزيدية) والله أعلم.

وقد ذهب إلى هذا الرأي أيضاً الدكتور ناصر القفاري فقال : (والذي يلاحظ على إطلاق اسم الرافضة على كل فرق الشيعة هو أنه ينبغي استثناء الزيدية، أو بعبارة أدق استثناء الزيدية ما عدا فرقة الجارودية منها؛ لأن الجارودية سلكت مسلك الروافض) أصول مذهب الشيعة ١/ ٩٥

(١١) هو أبو عمرو عامر بن شراحيل بن عبد ذي كبار الشعبي، الحميري، محدث، راوية، فقيه، شاعر، ولد بالكوفة سنة ١٩هـ، ونشأ بها، كانت قاضياً في خلافة عمر بن عبدالعزيز - رحمه الله تعالى، كانت وفاته بالكوفة سنة ١٠٣هـ. انظر

إيضاح المكنون ٢/ ٣٧٣، والأعلام للزركلي ٤/ ١٨، ومعجم المؤلفين ٢/ ٢٧

برافضي صغير أخرج لك منه زنديقا كبيرا^(١).

سبب تسميتهم بالرافضة: تكاد المصادر تجمع على أن أول من أطلق هذا الاسم على غلاة الشيعة هو الإمام زيد بن علي^(٢) رحمه الله، وذلك أنه لما خرج إلى الكوفة^(٣) تبعه خلق كثير من الشيعة، وقالوا له: تبرأ من الشيخين: أبي بكر، وعمر، ونحن نبايعك^(٤) فامتنع من ذلك، وقال: إنهما وزيرا جدي، فقالوا: إنا نرفضك، فقال: اذهبوا أنتم الرافضة^(٥).

وهناك من يزعم أن المغيرة بن سعيد^(٦) هو الذي سماهم بهذا الاسم، وذلك أنه لما ادعى أن محمد ابن الحنفية^(٧) - رحمه الله تعالى - هو القائم المنتظر، وأنه حي لم يميت برئت منه الشيعة، ورفضته، فسماهم الرافضة^(٨).

ويرى أبو الحسن الأشعري^(٩) - رحمه الله تعالى - أنهم سموا رافضة لرفضهم إمامة أبي

(١) لسان الميزان لابن حجر ٤٢٧/٣، وانظر الفوائد المتقاة من فتح الباري وكتب أخرى للشيخ عبد المحسن العباد حفظه الله ص ٤٢

(٢) هو الإمام أبو الحسين زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب. رضي الله عنهما. العلوي، الهاشمي، القرشي، ويقال له: (زيد الشهيد) ولد سنة ٧٩هـ، وكان بينه وبين هشام بن عبد الملك نفرة، فضيق عليه هشام، ثم خرج عليه زيد في الكوفة سنة ١٢٠هـ، ولما قتله يوسف الثقفى خذله شيعته، حتى قتل سنة ١٢٢هـ. انظر مقاتل الطالبين ص ١٢٧، ووفيات الأعيان ٣٥/٢، والفتوح لابن أعمش الكوفي ٣١٤/٨، وانظر: الإمام زيد المقتدى عليه لشريف أحمد الخطيب ص ٣٤

(٣) الكوفة: المصر المشهور من أرض بابل من سواد العراق، سميت كوفة لاستدارتها، انظر معجم البلدان ٤٩٠/٤ (٤) وهذه هي قاعدة الولاء والبراء عند الرافضة فهم يقولون: (لا ولاء إلا لبراء) أي لا ولاء لعلي وآل البيت إلا لبراء من أبي بكر، وعمر، وعثمان، وسائر الصحابة رضي الله عنهم. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: ابتدعت الرافضة هذا الرأي وألزمت الناس به ووالدت وعادت عليه. انظر مجموع الفتاوى ١٤/٥، والتحففة المهدية شرح التدمرية ١٧/٢، وهجر المبتدع ليكر أبي زيد ص ١٨

(٥) انظر الفتوح لابن أعمش الكوفي ٣١٤/٨، والمتنظم لابن الجوزي ٢١٠/٧، والكامل لابن الأثير ٢٤٦/٤، والعبر ١١٨/١ (٦) هو أبو عبد الله المغيرة بن سعيد العجلي الرافضي الكذاب كان ساحرا مخمخرا، حكى عنه الشعبي أنه قال: لو أردت أن أفني عادا وثمود وقرونا بين ذلك كثيرا لفعلت، وبلغ أمره خالد بن عبد الله القسري فأمر بالقصب، والنفط ثم أجيح ناراً فأحرقه وذلك سنة ١١٩هـ انظر معرفة أخبار الرجال للكشي ص ١٤٦ والنجوم الزاهرة ٢٨٣/١، ولسان الميزان ٧٥/٦ (٧) هو أبو القاسم محمد بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه الهاشمي القرشي المعروف بابن الحنفية وهي أمه خولة بنت جعفر الحنفية، كان كثير الورع، والعلم شديد القوة، والبأس، ولد لستين خلنا من خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وتوفي رحمه الله بالمدينة، ودفن بالبقع سنة ٨١هـ وقيل غير ذلك. انظر وفيات الأعيان ١٦٩/٤، وتقريب التهذيب ترجمة (٥٤٩) وحلية الأولياء ١٧٤/٣

(٨) انظر فرق الشيعة للنويعتي ص ٦٢، واليمانيات ص ١٩٢

(٩) هو أبو الحسن علي بن إسماعيل بن أبي بشر إسحاق بن سالم ينتهي نسبه إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، ولد بالبصرة سنة ٢٦٠هـ وقيل غير ذلك، وإليه تنسب الطائفة الأشعرية، كان معتزليا ثم كلابيا، ثم رجع في آخر الأمر إلى مذهب السلف، وأعلن أنه على عقيدة أهل الأثر، وفي الأشعري رحمه الله سنة ٣٢٤هـ وقيل غير ذلك. انظر تاريخ بغداد ٣٤٦/١١، والبداية والنهاية ١٨٧/١١، وشذرات الذهب ٣٠٣/٢

بكر، وعمر رضي الله عنهما^(١).

وقال عبد الله بن الإمام أحمد - رحمهما الله تعالى : (سألت أبي من الرافضة؟ فقال : الذين يشتمون أو يسبون أبا بكر، وعمر)^(٢).

وقيل سموا رافضة لرفضهم دين الإسلام^(٣)، وقيل سموا رافضة لرفضهم وتركهم محبة الصحابة رضي الله عنهم^(٤).

ويلاحظ أن بعض كتب الرافضة تنص على أن هذا اللقب من ألقابها، وقد أورد شيخهم المجلسي^(٥) في كتابه بحار الأنوار عدة أحاديث من رواياتهم في مدح التسمية بالرافضة، فمن ذلك ما ذكره في باب سماه (باب فضل الرافضة ومدح التسمية بها) : (عن أبي بصير قال : قلت لأبي جعفر (رحمه الله) : جعلت فداك اسم سمينا به استحلت به الولاة دماءنا وأموالنا وعذابنا، قال : وما هو؟ قلت : الرافضة . فقال أبو جعفر : إن سبعين رجلا من عسكر موسى عليه السلام لم يكن في قوم موسى أشد اجتهدا وأشد حبا لهارون منهم، فسماهم قوم موسى الرافضة فأوحى الله إلى موسى أن أثبت لهم هذا الاسم في التوراة فإني نحلتهم، وذلك اسم قد نحلكموه الله)^(٦).

وصرح صاحب روضات الجنات بأن لقب الرافضة كان موجودا قبل حادثة زيد، ورفض الشيعة له، وروى في ذلك أن امرأة من الشيعة أتت عائشة رضي الله عنها فقالت لها : (يا أم المؤمنين : ما تقولين في أم قتلت ولدها عمدا؟ فقالت : جزاؤها الخلود في

(١) انظر مقالات الإسلاميين ٨٩/١، والبرهان في معرفة عقائد أهل الأديان ص ٦٥، وقد اعترض شيخ الإسلام ابن تيمية على هذا الرأي مناصرا القول بأنهم سموا رافضة لرفضهم زيد بن علي وتركهم له . انظر منهاج السنة النبوية ١٣٠/٢، وكان الخلاف لفظي؛ لأن ترك الشيعة لزيد ورفضهم لإمامة أبي بكر، وعمر رضي الله عنهما مؤداهما واحد . انظر أصول مذهب الشيعة ١٠٨/١

(٢) السنة لعبد الله بن الإمام أحمد ص ٢٢٢، وانظر السنة للخلال ٤٩٢/٣، والمسائل والرسائل المروية عن الإمام أحمد في العقيدة ٣٥٧/٢

(٣) تعليق محمد محي الدين عبد الحميد على مقالات الإسلاميين ٨٩/١، والفصل لابن حزم ١٦٥/١

(٤) انظر شمع المعارض في ذم الروافض ملأ على القاري مخطوط في مكتبة عارف حكمت بالمدينة المنورة برقم ١/١٣.

(٥) هو محمد باقر بن محمد تقي بن مقصود علي الأصفهاني من علماء الإمامية ولي المشيخة في أصفهان، وترجم إلى الفارسية كثيرا من العلوم . ولد سنة ١٠٣٧ هـ، وتوفي سنة ١١١١ هـ . انظر ترجمته في روضات الجنات ١/١١٨، والذريعة ١٦/٣، والأعلام للزركلي ٤٨/٦

(٦) بحار الأنوار ٢٢٣/١١، وانظر دائرة المعارف للأعلمي الرافضي ٢٠٠/١٨

النار؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا﴾ (١) فقالت المرأة: فكيف بأم قتل من أجلها عشرون ألفاً من أولادها يوم البصرة (٢) تعني وقعة الجمل. فقالت عائشة: نحوها عني فإنها رافضية خبيثة (٣).

ويصف أحد الروافض الشيعة بأنهم يمثلون في مقابل أهل السنة عموماً أقلية معارضة ضمن الإطار الإسلامي العام، عرفت هذه الأقلية المعارضة في تاريخ الإسلام بالشيعة (٤). ويفتخر الشارح - وهو رافضي أيضاً - باسم الرافضة فيقول: (في تقديره أن سماحة الشيخ يعني صاحب الكلام السابق يقصد بكلمة (معارضة) (رفض) الاعتراف بشرعية النظام القائم حيثئذ، باعتباره لا يتفق مع الصورة الحقيقية للقادة، ونظام الحكم الرشيد... ومن هنا نفهم أن إطلاق كلمة (رفض) أو (رافضة) في الماضي على شطر الأمة الذي حيل بينه وبين النهوض بأمانة الحكم الإسلامي كان هو التعبير الدقيق عن تكييف موقفهم، وتصويره تصويراً سليماً، ومن ثم تكون هذه الكلمة بالرغم من أنها كانت تطلق ذماً، وتشهيراً منطوية بمداولها الحقيقي على أشجع، وأجراً معاني المواجهة السياسية في ضوء المصطلحات الحديثة في عصرنا الحاضر) (٥).

وما يدل على أن لقب الرافضة مشهور عند الرافضة أنفسهم، وأنهم لا يجدون غضاضة في التسمي به أنهم أصبحوا يفتخرون به في معرض التورية، ومن ذلك ما نقله صاحب الكشكول أن رجلاً سنيا أرسل إلى رجل شيعي وقرأ (٦) من الحنطة وكانت عتيقة فردها عليه ثم لما أرسل له عوضها جديدة لكن فيها تراب كتب إليه بعد قبولها شعراً (٧) :-

بعثت لنا بديل البربراً رجاءً للجزيل من الثواب
رفضناه عتيقاً وارتضينا به إذ جاء وهو أبو تراب

فقد رفض البر في المرة الأولى؛ لأنه عتيق (أي قديم) كراهة منه للفظ عتيق (وهو لقب

(١) سورة النساء الآية ٩٣

(٢) البصرة: هي البصرة العظمى بالعراق، سميت بصرة لأن أرضها غليظة ذات حجار صلبة، ويقال البصريان للكوفة والبصرة. انظر معجم البلدان ١/ ٤٣٠

(٣) انظر روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات للخواتساري ٨٨/ ١

(٤) انظر التشيع ظاهرة طبيعية في إطار الدعوة الإسلامية تأليف محمد باقر الصدر تعليق طالب الحسيني ص ٧٧

(٥) التشيع ظاهرة طبيعية في إطار الدعوة الإسلامية تأليف محمد باقر الصدر تعليق طالب الحسيني ص ٧٧

(٦) الوقف: الحمل، وأكثر ما يستعمل الوقف في حمل البغل، والحمار. انظر مختار الصحاح ص ٧٣٢ مادة (وقر).

(٧) انظر الكشكول للعاملي ١/ ٤٠٩

أبي بكر رضي الله عنه) فهو يكرهه ، وقبل البر في المرة الثانية وإن كان مخلوطا بالتراب حبا منه لكلمة (أبي تراب) وهي كنية لعلي رضي الله عنه فهو يحبها ويفهم من هذين البيتين شيان :-

(أ) أن في هذه القصة تأييداً للقائلين بأن سبب تسميته الرافضة بهذا الاسم هو رفضهم لخلافة الشيخين أبي بكر ، وعمر رضي الله عنهما .

(ب) اعتراف الرافضة بهذا اللقب ، واعتباره لقب تشريف ، وتكريم لا لقب شتم وتذميم .

يقول الدكتور ناصر القفاري - معللا قبول الرافضة لهذا اللقب - فكانهم أرادوا تطيب نفوس أتباعهم بتحسين لقب (الرافضة) إلا أن الروايات التي ذكرت سبب هذا اللقب تفيد أنهم لقبوا بهذا الاسم من قبيل الذم لا من قبيل المدح^(١).

ذكر جملة من عقائدهم: بالإضافة إلى أن الرافضة جعلوا نصوص التوحيد في ولاية الأئمة ، وهدموا بذلك توحيد الألوهية ، واعتقادهم خلق القرآن وتحريفه ، ونقصانه ، ونفيهم للرؤية - تبعا للمعتزلة - ويقولون : إن المعاصي واقعة بإرادة إبليس ، وأن أفعال العباد مخلوقة لهم - بالإضافة إلى ذلك فإن لهم أصولا ، ومعتقدات أخرى خالفوا فيها أهل السنة والجماعة ، وانفردوا بها ، ومن تلك العقائد :

١- الإمامة . ٢- الوصية . ٣- العصمة . ٤ - التقية . ٥- المهديّة أو ((الغيبة)) .

٦- الرجعة . ٧- القول بالبداء ، وغيرها من المخالفات التي تزخر بها كتبهم ، وذكرها عنهم المصنفون في الفرق^(٢) .

المطلب الثالث: تعريف الصوفية:

الصوفية لغة: الصوفية لغة ، في معاجم اللغة تطلق كلمة (صوف) على عدة معان منها : الصوف المعروف ، وهو شعر الحيوانات ونحوها ، والصوفانة : بغلة زغباء قصيرة ، كما تستعمل كلمة (صوف) في بعض دلالاتها اللغوية بمعنى الليل ، والعدل فيقال : صاف السهم عن الهدف بمعنى مال عنه ، كما يقال : صاف الرجل عن الشر إذا عدل عنه .

(١) انظر أصول مذهب الشيعة ١/ ١٠٨

(٢) انظر - للنوع : مقالات الإسلاميين ١/ ٦٩ ، الملل والنحل ١/ ١٤٧ ، والفرق بين الفرق ص ٤١ ، والحجج الداحضة للدواني ص ٢٣٣ ، واليمانيات المسلوطة ص ١٥٥ ، وأصول مذهب الشيعة ٢/ ٧٩١

وقال الفيومي في مصباحه: يقال تصوف الرجل وهو صوفي من قوم صوفية، والصوفية كلمة مولدة^(١).

الصوفية اصطلاحاً: وأما الصوفية في الاصطلاح: فقد اختلفت عبارات العلماء في تعريف محدد للصوفية، وتفسير حقيقي لاشتقاق كلمة (صوفية) حتى ذكر بعض العلماء أن تلك التعريفات وصلت ألفي تعريف^(٢)، والذي يهمننا في هذه الإمامة السريعة هو الإشارة العجلى إلى بعض هذه التعريفات، ثم التنبيه على التعريف المرضي عند علماء الصوفية، والمختار الذي يصدق بالإطلاق على الصوفية عند أهل السنة والجماعة.

التعريف الأول: قيل إن الصوفية نسبة إلى لبس الصوف^(٣)، وهو صحيح من حيث اللغة، ولكن القشيري رحمه الله^(٤) اعترض عليه بأن القوم لم يختصوا بلبس الصوف^(٥)، ويجاب بأن لبس الصوف هو الغالب على من طلب خشونة العيش، والتقلل من الدنيا، ورام التقشف في الملبس، وترك الناعم من الثياب^(٦). ويلاحظ أن هذا هو الغالب على الصوفية ومن سلك طريقهم؛ ولذلك سأل بعض السلف: أي شيء أراد الصوفية بلباس الصوف؟ ف قيل: التواضع. قال: ما يتكبر أحدهم إلا إذا لبس الصوف.

وقال أبو سليمان الداراني^(٧) - رحمه الله تعالى - لرجل لبس الصوف: إنك قد أظهرت آلة الزاهدين، فماذا أورثك هذا الصوف؟ فسكت الرجل، فقال له: يكون ظاهرك قطنياً وباطنك صوفياً^(٨).

(١) انظر لسان العرب ٤٤٣/٧ مادة (صوف)، والمصباح المنير ٣٥٢/١ مادة (الصوف)، والقوموس المحيط ١٦٩/٣ مادة (الصوف).

(٢) صرح بذلك السهروردي، انظر عوارف المعارف ص ٤٤٠، ونقل الطوسي عن إبراهيم بن المولد الصوفي أنه أجاب عن سؤال: (ما هو التصوف؟) بأجوبة بلغت أكثر من مائة جواب. انظر اللمع ص ٤٧، وحققنا عن التصوف لعبد القادر عيسى ص ١٥.

(٣) انظر التعرف إلى مذهب التصوف للكلا بادي ص ٢٩، والرسالة القشيرية ص ٢٧٩، ومجموع الفتاوى ٦/١١، ومقدمة ابن خلدون ص ٤٣٢.

(٤) هو أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن عبد الملك بن طلحة النيسابوري القشيري من فقهاء الشافعية، كان شيخ الصوفية في عصره، توفي سنة ٦٤٥ هـ انظر تاريخ بغداد ٨٣/١١، وتبيين كذب المفتري لابن عساكر ص ٢٧١، وشذرات الذهب ٣١٩/٣.

(٥) انظر الرسالة القشيرية ص ٢٧٩ (٦) انظر الموفي بمعرفة التصوف والصوفي للأدفي ص ٤٠.

(٧) هو أبو سليمان عبد الرحمن بن عطية الداراني نسبة إلى قرية داران من قرى دمشق، من زهاد الصوفية المتقدمين، كان يقول: ربما تقع في قلبي النكته من نكت القوم أياماً فلا أقبل منه إلا بشاهدين عدلين: الكتاب والسنة، توفي سنة ٢١٥ هـ.

انظر ترجمته في الرسالة القشيرية ص ٤١١، وسير أعلام النبلاء ١٨٢/١٠، وشذرات الذهب ١٣/٢.

(٨) انظر تلبس إبليس ص ١٩٦.

الثاني: وقيل إنما هي مشتقة من الصفاء ، والمصافة^(١) ، قال الشاعر^(٢) :

تنازع الناس في الصوفي واختلفوا قدما وظنوه مشتقا من الصوف
ولست أمنح هذا الاسم غير فتى صافي فصوفي حتى سمي الصوفي

وذلك أنهم لما صفت قلوبهم وصافوا الخلق بترك ما في أيديهم من الدنيا وعدم الخوض معهم في الأغراض والأعراض ، صافوهم بحببتهم وإكرامهم . وهذا الاشتقاق أيضا لا تشهد له اللغة ؛ وإن كان يحلو للصوفية أن تكون النسبة إليه^(٣) .

الثالث: وقيل إن كلمة (صوفية) نسبة إلى (الصُّفَّة)^(٤) التي كان يجلس فيها فقراء الصحابة رضي الله عنهم في أخرة المسجد النبوي .

وبين شيخ الإسلام ابن تيمية : أنه غلط ؛ لأنه لو كان كذلك لقل في النسبة (صُفِّي) وقد لمح أيضا عدم سلامة هذا الاشتقاق أبو القاسم القشيري^(٥) .

الرابع: وقيل إنما هي نسبة إلى الصف الأول المقدم بين يدي الله ، قال القشيري : (فكانهم في الصف الأول بقلوبهم فالمعنى صحيح ، ولكن اللغة لا تقتضي هذه النسبة إلى الصف)^(٦) .

وقال شيخ الإسلام : وهذا غلط من حيث الاشتقاق اللغوي أيضا ؛ لأن النسبة الصحيحة إلى الصف إنما هي (صَفِّي)^(٧) .

الخامس: وقيل إنما سموا صوفية نسبة إلى صوفة بن بشر بن أد بن طابخة^(٨) قبيلة من العرب جاؤوا بمكة في الزمن القديم ، وهذا وإن كان يستقيم من ناحية الاشتقاق اللغوي إلا أنه ضعيف من ناحية أنه لو نسب النساك إلى هذه القبيلة لكانت هذه النسبة معروفة في عهد الصحابة رضوان الله عليهم ؛ ولأن معظم الصوفية لا يعرفون هذه القبيلة ولا يرضون

(١) انظر الرسالة القشيرية ص ٢٧٩ ، والموفي بمعرفه التصوف والصوفي ٤٠ ، والصوفية معتقدا ومسلكا د/ جابر طعيمة ص ٢١

(٢) انظر الموفي ص ٤٠

(٣) انظر اللمع للطوسي ص ٤٧ ، ودراسات في الفرق ص ٩٨ ، والتصوف منشأ ومصطلحاته د/ أسعد الحمراني ص ١٩

(٤) انظر عن أخبار الصفة وأحوال أهلها كتاب أهل الصفة وأحوالهم لشيخ الإسلام ابن تيمية ص ٢٤ وما بعدها .

(٥) انظر مجموع الفتاوى ٦/١١ ، والرسالة القشيرية ص ٢٧٩

(٦) الرسالة القشيرية ص ٢٧٩ (٧) انظر مجموع الفتاوى ٦/١١ ، والصوفية معتقدا ومسلكا ص ٢١

(٨) بنو صوفة بطن من مضر من العدنانية كانوا يخدمون الكعبة في الجاهلية ويفيضون بالحجاج من مزدلفة إلى منى وقد

انقرضوا . انظر جمهرة أنساب العرب لابن حزم ص ٢٠٦ ، ونهاية الأرب في معرفة أحوال العرب للقلقشندي ص ٢٩٤

الانتساب إلى قبيلة جاهلية لا وجود لها في الإسلام^(١).

السادس: وقيل هي نسبة إلى الصفة من خلق الله^(٢).

السابع: وقيل إنما هي نسبة إلى (صوفة القفا) وهي الشعيرات النابتة في مؤخر الرأس^(٣). وقيل غير ذلك.

ومن العجيب أن بعض الباحثين ذهب إلى أن لفظ الصوفية يصلح أن يكون مشتقا من الأصول اللغوية لكل هذه الكلمات التي مرت معنا؛ لأن لها من كل كلمة منها معنى يصح انصرافها إليه، وتأخذ منه بطرف!^(٤)

مع أن أستاذهم القشيري بعد ما ذكر اشتقاق الكلمة قال: (والرجل من الصوفية يقال له: متصوف، والجماعة متصوفة، وليس لهذا الاسم من جهة العربية قياس ولا اشتقاق، ولا ظهر فيه أثر فهو إذا لقب^(٥)، فلو كانت الاشتقاق السابقة مرادة بمجموعها عند القوم لأومأوا إليها ولو بطريق الرمز والإشارة، وإذا أردنا أن نخرج بتعريف واحد للصوفية أخذنا من هذه الاشتقاق السابقة فإننا لن نظفر بتعريف محدد؛ لأن تعريف هذه الكلمة لا ينفصل عن اشتقاقها فالأمران متداخلان^(٦) إلا أننا سوف نورد بعض تعريفات للصوفية أنفسهم محاولين تمييز التعريف المرضي عندهم.

قال سهل بن عبد الله التستري رحمه الله^(٧): (الصوفي من صفا من الكدر، وامتلا من الفكر، وانقطع إلى الله من البشر، واستوى عنده الذهب والمدر)^{(٨)(٩)}.

(١) انظر مجموع الفتاوى ٦/١١، والموفي ص ٤١، و فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام لفضيلة الدكتور العواجي ٥٨٠/٢

(٢) انظر الصوفية معتقدا ومسلكا ص ٢١، و فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام ٥٨٠/٢

(٣) انظر الصوفية معتقدا ومسلكا ص ٢١

(٤) انظر ما كتبه الدكتور أحمد بناني في كتابه موقف الإمام ابن تيمية من التصوف والصوفية ص ٦٧

(٥) الرسالة القشيرية ص ٢٧٩، وانظر مقدمة ابن خلدون ص ٤٣٢، ومن قضايا التصوف في الكتاب والسنة للدكتور محمد الجليلي ص ٣٥.

(٦) انظر التصوف منشأ ومصطلحاته ص ٢١

(٧) هو أبو محمد سهل بن عبد الله بن يونس التستري الزاهد العابد، له كلمات نافعة في اتباع السنة والأثر، كانت وفاته سنة ٢٨٣هـ.

انظر: سير أعلام النبلاء ١٣/٣٣٠، وطبقات الصوفية للسلمي ص ٢٠٦، وشذرات الذهب ١٨٢/٢

(٨) المدر بفتحيتين واحد (المدر) وهو التراب المتلبد وقيل الطين، والعرب تسمي القرية مدرة لأن بانيها غالبا يكون بالطين.

انظر مختار الصحاح ص ٦١٩ مادة (مدر) والمصباح المنير ٥٦٦/٢ مادة (المدر).

(٩) التعرف إلى لذهب التصوف للكلايادي ص ٩

وقال أبو القاسم الجنيد رحمه الله^(١): (التصوف ذكر مع اجتماع، ووجد مع استماع، وعمل مع اتباع)^(٢).

وقال أبو عثمان الحيري رحمه الله^(٣): (التصوف الصحبة مع الله بحسن الأدب ودوام الهيبة، والمراقبة والصحبة مع رسول الله ﷺ باتباع سنته، ولزوم ظاهر العلم)^(٤).

فهذه بعض أقوال أهل هذه الطائفة، ومدارها كلها على أن الصوفية هم الجماعة المتصفة بالصفات المحمودة في الشرع، والمتخلقة بالأخلاق الممدوحة في الطبع معرضة عن الدنيا، مقبلة على الأخرى، سالكة السبيل التي هي أولى بالمرء وأحرى^(٥).

وهذا التعريف للصوفية قد نعتبره صحيحاً إذا ما ارتبط بالصوفية في عهدها الأول عند ما كان التصوف مجرد نزعة سلوكية عند بعض المسلمين طلباً للزهد وانقطاعاً للعبادة، أما بعد هذه المرحلة فقد تأثرت الصوفية بمؤثرات فكرية خارجية من اليهودية والمسيحية والمجوسية، وتحولت من ظاهرة الزهد إلى حركات، وطقوس، ورسوم، وبدع، ومنكرات محدثة في الدين ما أنزل الله بها من سلطان^(٦)؛ ولهذا قال بعضهم وهو من الصوفية غير الغلاة-: (كان للقوم إشارات ثم سارت حركات ثم لم يبق إلا حشرات)^(٧).

وبالنظر إلى تعريف أهل السنة والجماعة للصوفية نجد أن ابن خلدون راعى في تعريفه للصوفية النسبة إلى الصوف، حيث يرى أنه لا توجد طائفة من الطوائف المنتسبة للامة يغلب على أفرادها لبس الصوف مثل ما يوجد عند الصوفية، ثم إن لبس هذه الطائفة للصوف كان الغرض منه إظهار الزهد، والتورع عن لبس فاخر الثياب، عكس سائر الناس فإنهم قد يلبسونه، ولكن من غير ملاحظة الغرض الذي تقصده الصوفية، فلبس الصوف إذا هو العلامة الفارقة التي تميزهم^(٨).

(١) هو أبو القاسم الجنيد بن محمد الخراز البغدادي سيد الطائفة الصوفية وإمامها في عصره، نشأ بالعراق وأصله من نهاوند، كانت وفاته سنة ٢٩٧هـ انظر حلية الأولياء لأبي تميم ١٠/٢٥٥، وطبقات الشعراني ٨٤/١

(٢) الرسالة القشيرية ص ٢٨١، وعوارف المعارف للسهروردي ص ٤٣، والموفي ص ٣٧

(٣) هو أبو عثمان سعيد بن إسماعيل بن سعيد بن منصور الحيري بالحاء المهملة من أهل الري، وأقام بنيسابور، فنشر التصوف في خراسان، كانت وفاته سنة ٢٩٨هـ انظر طبقات الصوفية للسلمي ١٧٠/١، وحلية الأولياء ١٠/٢٤٤، وطبقات

الشعراني ٨٦/١ (٤) الرسالة القشيرية ص ٤٠٧، والموفي ص ٣٥

(٥) انظر الموفي ص ٤٦، وعوارف المعارف ص ٤٤، والصوفية في نظر الإسلام لسميح الزين ص ٢٣

(٦) انظر الصوفية معتقداً ومسلِكاً ص ٢٠ وفرق معاصرة تتسب إلى الإسلام ٢/٥٧٨، والصوفية في نظر الإسلام ص ٢٥

(٧) هذا القول لأبي بكر الواسطي انظر طبقات الصوفية للسلمي ص ٣٠٢، وحلية الأولياء ١٠/٣٤٩

(٨) انظر مقدمة ابن خلدون ص ٤٣٢

ثم يبين ابن خلدون في تعريف الصوفية في طورها الأول: أن أصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى، والإعراض عن زخرف الدنيا، وزيتها، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة، ومال، وجاه، والانفراد في الخلوة للعبادة^(١).

ويقول الأذفوي المصري^(٢) رحمه الله في تعريفه للصوفية: أما الصوفية في العرف الخاص فإنها تطلق على من يلبس لباسا مخصوصا، مكونا من ثوب فضفاض تحت العباءة، ويكون الثوب عادة من صوف، وعمامة لطيفة تتدلى منها عذبة^(٣) على الجبهة ويحضر مكان الذكر لقراءة الأوراد غير متعاط للحرف الدنية، من الحياكة، والحجامة، وشبهها غير موصوف بالثراء المادي^(٤).

وتعرض شيخ الإسلام ابن تيمية لتعريف الصوفية فذكر أولا بعض تعريفات الصوفية أنفسهم، فنقل تعريف التستري المتقدم، ثم أشار شيخ الإسلام إلى المعنى الذي تريد الصوفية أن تصل إليه فقال: (وهم يسيرون بالصوفي إلى معنى الصديق^(٥))، ومعلوم أن الصديقين هم أفضل الخلق بعد الأنبياء كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾^(٦) فبينت الآية أنهم في المرتبة الثانية بعد الأنبياء؛ فلذلك اعترض شيخ الإسلام على هذا التعريف فقال: (لكن هو في الحقيقة نوع من الصديقين فهو رأي الصوفي الصديق الذي اختص بالزهد، والعبادة على الوجه الذي اجتهدوا فيه فكان الصديق من أهل هذه الطريقة كما يقال: صديقو العلماء وصديقو الأمراء، فهو أخص من الصديق المطلق ودون الصديق الكامل الصديقية من الصحابة والتابعين وتابعيهم^(٧)).

ولعل الأمر الذي يشرح تعريف شيخ الإسلام للصوفية هو ما قاله في بيان الحكم الوسط عليهم، وهو أمر في غاية العدل، لو علمه الصوفية لما طعنوا فيه وفي منزلته، يقول رحمه

(١) انظر المصدر السابق ص ٤٣٣

(٢) هو أبو الفضل جعفر بن ثعلب بن جعفر الأذفوي كمال الدين نسبة إلى بلدة (أذفو) بصعيد مصر، ولد بهذه البلدة سنة ٦٨٥ هـ ونشأ ببلدته ثم تحول إلى القاهرة، وقد وصف بأنه مؤرخ وعالم بالأدب والفقه والفرائض، كانت وفاته سنة ٧٤٨ هـ. انظر الدرر الكامنة ١/ ٥٣٦، وشذرات الذهب ٦/ ١٥٣ والبدر الطالع ١/ ١٨٢

(٣) العذبة - الطرف. انظر المصباح المنير ١/ ٣٩٨ مادة (عذب)

(٤) مجموع الفتاوى ١١/ ١٦

(٥) انظر الموفى ص ٤٦

(٦) سورة النساء الآية ٦٩

(٧) مجموع الفتاوى ١١/ ١٧

الله : (والصواب أنهم مجتهدون في طاعة الله كما اجتهد غيرهم من أهل طاعة الله ، ففيهم السابق المقرب بحسب اجتهاده وفيهم المقتصد الذي هو من أهل اليمين ، وفي كل من الصنفين من قد يجتهد ويخطئ وفيهم من يذنب فيتوب أو لا يتوب ، ومن المتسبين إليهم من هو ظالم لنفسه عاص لربه ، وقد انتسب إليهم طوائف من أهل البدع ، والزندقة ، ولكن عند المحققين من أهل التصوف ليسوا منهم كالحلاج^(١) مثلاً ؛ فإن أكثر مشايخ الطريق أنكروه وأخرجوه عن الطريق المستقيم مثل الجنيد بن محمد سيد الطائفة وغيره . . . فهذا أصل التصوف)^(٢) .

وعرف أحمد أمين المصري^(٣) رحمه الله الصوفية في زمنه فقال : (التصوف كان في الأصل معناه لبس الصوف زهادة في الدنيا ، ثم صار في أغلب الأحيان إلا في القليل النادر صناعة لكسب العيش وتتطلب هذه الصناعة عمامة خضراء وسبحة غليظة والتظاهر بذكر الله ، ودعوى مخاطبة الأولياء والاتصال بهم عن طريق الروح)^(٤) .

ويستخلص صاحب كتاب الصوفية في نظر الإسلام تعريفا للصوفية بعد نقله لجملة من التعريفات -قائلاً : (يمكن القول بكل بساطة وصراحة أن التصوف -برأينا- يقوم على ناحيتين : الناحية الفكرية التي تهدف إلى الاتصال بالله بأية طريقة من الطرق التي ابتدعها الإنسان ووسوس له بها الشيطان . والناحية العملية التي تقوم على المجاهدات ، والرياضات -حسب تعبير الصوفية- وما تنطوي عليه من أساليب ووسائل متنوعة يتهافت الصوفية على استعمالها حتى يصل بهم الحد إلى نوع من نوبات الصرع أو الغشيان الذي يسمونه الفناء ، بينما هو في الحقيقة إرهاب للجسم وتلف للأعصاب ، حتى لا يعود يقوى معها أحدهم على المتابعة فيخبر مغشياً عليه ، وهاتان الناحيتان : الفكرية والعملية ينكرهما الإسلام جملة وتفصيلاً)^(٥) .

(١) هو أبو مغيث الحسين بن منصور الحلاج البضاوي الفارسي إمام الزنادقة الاتحادية كان جده مجوسياً واسمه (محمي) ولد سنة ٢٤٤هـ قال عنه السلمي : والمشايع في أمره مختلفون رده أكثر المشايخ ونفوه وأبوا أن يكون له قدم في التصوف ، قتل مصلوباً ببغداد سنة ٣٠٩هـ . انظر طبقات الصوفية للسلمي ص ٣٠٧ ، وطبقات الشعرائي ١٢٦/١ ، والحلاج للدكتور جلال شرف ص ٣٠ وما بعدها .

(٢) مجموع الفتاوى ١٨/١١

(٣) هو أحمد أمين بن الشيخ إبراهيم الطباخ عالم بالأدب ، والتاريخ من كبار الكتاب ، ولد بالقاهرة سنة ١٢٩٥هـ ، فرأى مدة قصيرة بالأزهر وتخرج من مدرسة القضاء الشرعي وتولى القضاء ببعض المحاكم الشرعية ، له عدة مؤلفات ومقالات بالصحف ، توفي بالقاهرة سنة ١٣٧٣هـ . انظر ترجمته في الأعلام للزركلي ١/١٠١ ، ومعجم المؤلفين لكحالة ١٠٦/١

(٣) قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية لأحمد أمين ص ١٢٠

(٤) الصوفية في نظر الإسلام دراسة وتحليل لسميح عاطف الزين ص ٢٨



ويبدو من هذه التعريفات أن علماء أهل السنة نظر كل واحد منهم في تعريفه للصوفية إلى الصوفية في زمنه، فتعريف شيخ الإسلام ابن تيمية ينطبق على الصوفية الأوائل الذين كان فيهم السابق بالخيرات، والمقتصد، والظالم لنفسه من المنتسبين إليهم، والأدقوي نظر إلى الصوفية في عصره، وأحمد أمين عرف الصوفية بالنظر إلى معاشته للمتصوفة في العصر الحديث وهلم جرا.

ويؤيد صدق ما ذهب إليه قول المقرزي في نهاية كلامه على الصوفية في عصره: (ثم تلاشى الآن حال الصوفية، ومشايخها حتى صاروا من سقط المتاع لا ينسبون إلى علم، ولا ديانة، وإلى الله المشتكى)^(١)

المبحث الخامس

المراد بالآثر لغة واصطلاحاً

الآثر في اللغة: قال ابن فارس: الهمزة، والثاء، والراء لهذه الأحرف ثلاثة أصول: -

تقديم الشيء، وذكر الشيء، ورسم الشيء الباقي^(١).

وقال الأزهري: الأثر: بضم الهمزة من الجرح وغيره في الجسد يبرأ ويبقى أثره. وقال شمر: يقال في هذا أثر، وأثر، والجمع آثار، ويقال: أثرت في الأمر تأثيراً جعلت فيه أثراً: أي علامة، والآثار الأعلام. ويقال فيه أثر السيف وآثاره، قال الشاعر^(٢): -

أداعيك ما مستصحات على السرى حسان وما آثارها بحسان

وذو الآثار: لقب لشاعر جاهلي؛ لأنه كان إذا هجا قوماً ترك فيهم آثاراً^(٣).

وقال الراغب الأصفهاني: (أثر الشيء حصول ما يدل على وجوده، يقال أثر، وأثر، والجمع الآثار. قال الله تعالى: ﴿فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ﴾^(٤) ومن هذا يقال للطريق المستدل به على من تقدم آثار^(٥)).

والمراد بالآثر في الاصطلاح: قال الجرجاني: الأثر اسم جنس، وله عدة معان، منها أنه يطلق على النتيجة أو الأمر الحاصل من الشيء، والآثار: هي اللوازم المعللة بالشيء^(٦).

وقال التهانوي: الأثر يأتي لعدة معان، ومنها: ما يترتب على الشيء وهو المسمى بالحكم عند الفقهاء^(٧). وقد يطلق الأثر على الأمر الحاصل عن غيره، وهو بهذا مرادف للمعلول، أو المسبب عن الشيء^(٨).

وقال الحافظ ابن حجر - مبيناً أن الأثر هو الأمر المترتب على ما قبله - : والتحقيق أن التكاليف خاصة بالدنيا، وأما ما يقع في القبر، والموقف فهي آثار تلك التكاليف^(٩).

(١) انظر معجم مقاييس اللغة ١/ ٨٨ مادة (أثر).

(٢) انظر أساس البلاغة للزمخشري ص ٢ مادة (أثر) ومعجم اللغة لابن فارس ١/ ٨٦ مادة (أثر).

(٣) انظر تهذيب اللغة ١/ ١٢٠، مادة (أثر) ولسان العرب ٤/ ٥ مادة (أثر) والمصباح المنير ١/ ٤ مادة (أثر) والقاموس المحيط

(٤) سورة الروم الآية ٥٠ (٥) مادة (أثر).

(٦) المفردات ص ٩ مادة (أثر) (٧) انظر التعريفات ص ٩، والكليات للكفوي ١/ ٤٠

(٨) انظر كشف اصطلاحات الفنون ١/ ٩٥ (٩) انظر المعجم الفلسفي للدكتور جميل صليبا ١/ ٣٧

(٩) انظر فتح الباري ١١/ ٤٥١

وقال العلامة الشوكاني في تفسير قول الله تعالى: ﴿وَنُكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾^(١) أي ما قدموه من حسنات لا ينقطع نفعها بعد الموت، كمن سن سنة حسنة، أو نحو ذلك، أو ما تركوه من سيئات تبقى بعد موت فاعلها، كمن سن سنة سيئة أو نحو ذلك^(٢).

فالتأثير بقاء الأثر في الشيء كالصورة المطبوعة من جانب المؤثر في المتأثر^(٣) والأثر: ما يحدثه الفعل في الشيء، أو القول في النفس كالذي يحدثه الرجل بقدمه في الأرض، أو الشاعر بشعره في النفس^(٤).

فالأثر: اسم جنس وهو جملة من الأمور التي تنتج عن الشيء المسبب لها وهو المعنى المعتبر في العنو^(٥).

فالمراد بأثر الواسطة: هو الأمور التي تترتب على الاعتقاد الصحيح بمفهوم الواسطة من تجريد توحيد الله سبحانه وتعالى وإخلاص العبادة له وحده، وما يترتب على الاعتقاد بمفهوم الواسطة البدعية من الوقوع في التشبيه والشرك، ثم عبادة الوسائط من دون الله تعالى، فيبقى الأثر في معتقد أهل السنة والجماعة نوراً ناصعاً، ويقينا صادقا، ويبقى في عقائد أهل الأهواء شركاً مهلكاً، وظلاماً دامساً.

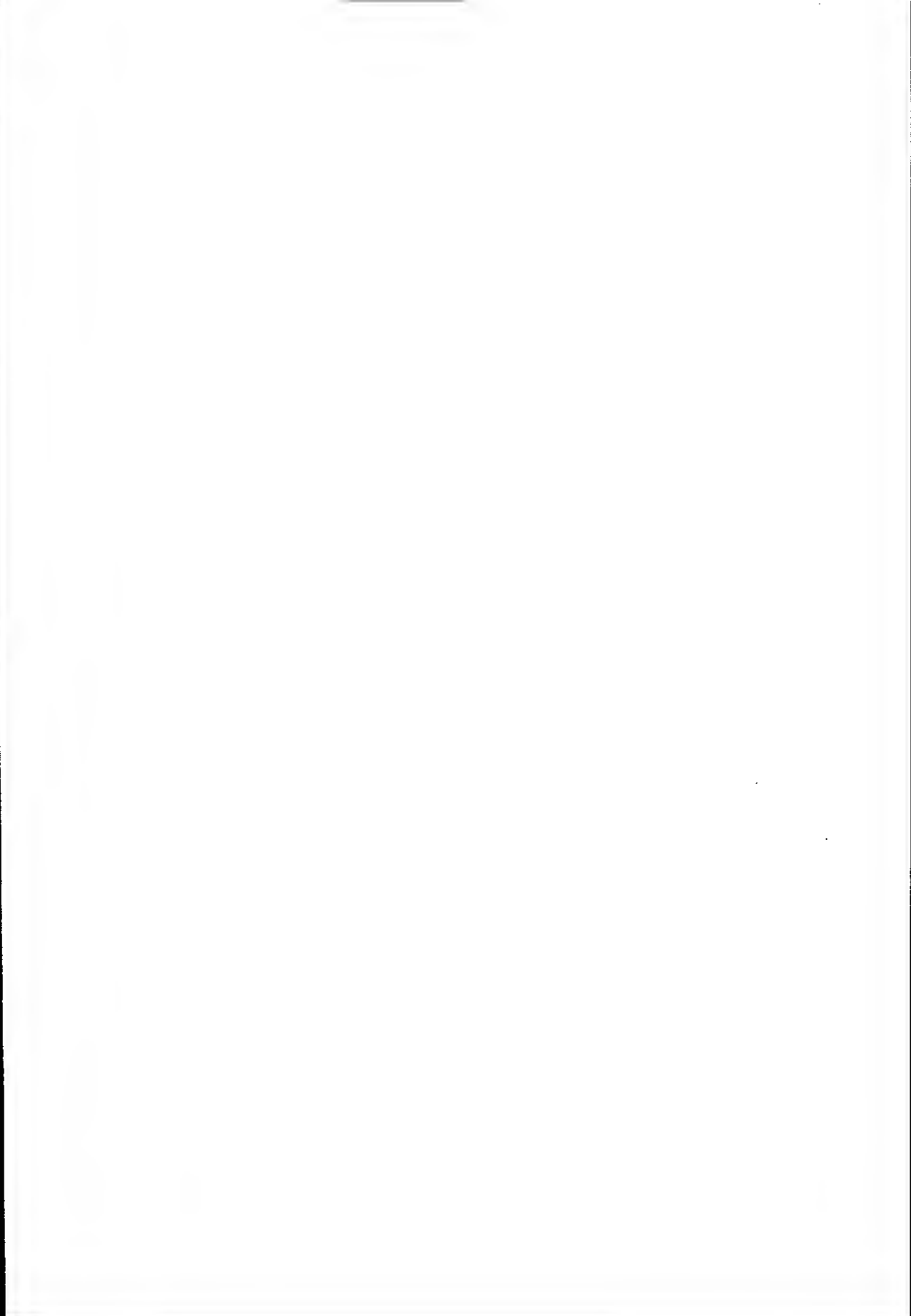
(١) سورة يس الآية ١٢

(٢) انظر تفسير الشوكاني ٣٦٢/٤

(٣) انظر الصحاح في اللغة والعلوم تحديد صحاح العلامة الجوهري تصنيف نديم مرعشلي وآخر ٧/١ مادة (أثر).

(٤) انظر المعجم الكبير وضعه مجمع اللغة العربية ٨٨/١، مادة (أثر)

(٥) انظر أنس الإيمان في تحصين الأمة الإسلامية ضد الأفكار الهدامة للدكتور عبد الله الجربوع رسالة ماجستير.



الباب الأول

الواسطة بين الله وخلقه عند أهل السنة والجماعة

وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول: مفهوم الواسطة عند أهل السنة والجماعة

وبيان أهمية فهم الواسطي على ضوء الكتاب

والسنة . ويحتوي على أربع مباحث .

الفصل الثاني: صورة الواسطة في التبليغ .

الفصل الثالث: صورة الواسطة في العبادة .

المبحث الأول

حاجة الناس إلى بعثة الرسل "الواسطة".

تنبع حاجة الإنسان إلى بعثة الرسل من طبيعته البشرية التي فطر عليها؛ لأن هذا الإنسان من أعظم المخلوقات شأنًا، فقد رزقه الله قوة عقلية ميزته عن سائر المخلوقات الأرضية، ومكنته من تسخير الحيوان، وتشكيل الجماد في معظم الأحيان حيث يشاء، إلا أن قدرات هذا الإنسان محدودة النطاق وتوجيهها نحو الاتجاه السليم الذي يرضاه رب السموات والأرض والآفاق، لا يتأتى إلا بتوجيه من الرسل الذين يبعثهم الله واسطة بينه وبين هذا الإنسان؛ لينقذوه من وحل الوثنيات التي سقط فيها كثير من الأمم قبل بزوغ شمس الرسالة الإلهية، وليأخذوا بيده إلى الصراط المستقيم ويعرفوه كيف يعبد خالقه العبادة الصحيحة فتصبح لقدراته التي وهبها الله تعالى مع توجيه الرسل نتائجها السليمة (لما أَرَادَهُ اللهُ مِنْ كَرَامَةِ الْعَاقِلِ، وَتَشْرِيفِ أَعْمَالِهِ، وَاسْتِقَامَةِ أَحْوَالِهِ، وَانْتِظَامِ مَصَالِحِهِ، حِينَ هِيَ آيَةٌ لِلْحِكْمَةِ، وَطَبْعِهِ عَلَى الْمَعْرِفَةِ؛ لِيَجْعَلَهُ حَكِيمًا، وَبِالْعَوَاقِبِ عَلِيمًا؛ لِأَنَّ النَّاسَ بِنَظَرِهِمْ لَا يَدْرِكُونَ مَصَالِحَهُمْ بِأَنْفُسِهِمْ، وَلَا يَشْعُرُونَ لِعَوَاقِبِ أَمْرِهِمْ بِغَزَائِرِهِمْ، وَلَا يَنْزَجِرُونَ مَعَ اخْتِلَافِ أَهْوَائِهِمْ دُونَ أَنْ يَرِدَ عَلَيْهِمْ آدَابُ الْمُرْسَلِينَ، وَأَخْبَارُ الْقُرُونِ الْمَاضِينَ فَتَكُونُ آدَابُ اللَّهِ فِيهِمْ مُسْتَعْمَلَةً، وَحُدُودُهُ فِيهِمْ مُتَبَعَةً، وَأَوَامِرُهُ فِيهِمْ مُمَثَّلَةً، وَوَعْدُهُ وَوَعِيدُهُ فِيهِمْ زَاجِرًا، وَقَصَصُ مَنْ غَبَرَ مِنَ الْأُمَمِ وَاعْظَا، فَإِنَّ الْأَخْبَارَ الْعَجِيبَةَ إِذَا طَرَقَتْ الْأَسْمَاعَ وَالْمَعَانِي الْغَرِيبَةَ إِذَا أَبْقَضَتْ الْأَذْهَانَ اسْتَمَدَّتْهَا الْعُقُولُ، فَزَادَ عِلْمُهَا، وَصَحَّ فَهْمُهَا، وَأَكْثَرَ النَّاسِ سَمَاعَا أَكْثَرَهُمْ خَوَاطِرَ، وَأَكْثَرَهُمْ خَوَاطِرَ أَكْثَرَهُمْ تَفَكُّرًا، وَأَكْثَرَهُمْ تَفَكُّرًا أَكْثَرَهُمْ عِلْمًا، وَأَكْثَرَهُمْ عِلْمًا أَكْثَرَهُمْ عَمَلًا، فَلَمْ يَوْجَدْ عَنِ بَعْثَةِ الرُّسُلِ مَعْدِلٌ وَلَا مِنْهُمْ فِي انْتِظَامِ الْحَقِّ بَدَلٌ^(١) .

ومن هنا يظهر بجلاء حاجة الناس إلى بعثة الرسل وإقامة الوسائط وتلخص تلك الحاجة في الأوجه الآتية^(٢) :-

(١) أعلام النبوة للماوردي ص ٣٣

(٢) انظر - للتوسع في هذا الموضوع - المراجع التالية : مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية ٩٣ / ١٩ ، وزاد المعاد لابن القيم ٦٩ / ١ ، وطريق الهجرتين له أيضا ص ١٧٠ ، ومجموع فتاوى ورسائل ابن عثيمين ٢٩٩ / ٥ ، والإرشاد إلى صحيح الاعتقاد للقرطبي ص ١٥٣ ، والوحي المحمدي لمحمد رشيد رضا ص ٤٨ ، والعقيدة الإسلامية وأسسها للميداني ص ٣٠٢ ، وفلسفة النبوة لأدم الألوري ص ١٣٧ ، ونبوة محمد صلى الله عليه وسلم في القرآن لحسن عتر ص ٢٩

أولاً: تحقيق عبادة الله تعالى وحده وإخلاص العمل له: لما كان الغرض من خلق الإنسان والجان وتسخير جنس الحيوان، وإبداع السموات والأرض والأكوان هو عبادة الله تعالى وحده ومعرفته بأسمائه وصفاته كما قال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(١)، والحذر من الوقوع في الشرك وتلبس البدع كما قال تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾^(٢)، ولما كان العقل البشري قاصراً في ماهيته وحقيقته؛ إذ لا يمكن بدون الوساطة من عبادة الله تعالى على الوجه الذي يحبه ويرضاه، لما كان الأمر كذلك فإن هذا الغرض النبيل وهذه الغاية السامية لا تتم ولا تحصل إلا بإرسال وسائط من الله تعالى إلى خلقه؛ فكان من حكمة الله ورحمته أن أنزل كتباً، وأرسل رسلاً مبشرين ومنذرين، واتفقت كلمتهم أجمعين على أمرهم بعبادة الله تعالى وحده، والكفر بعبادة ما سواه من مظاهر الكون التي وقع فيها الإنسان حينما غابت عنه شمس الرسالة، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾^(٣)، وقد حققت الرسالة المحمدية - وهي خاتمة الرسالات السماوية - هذه الغاية السامية حينما دعت إلى تحرير الإنسان من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن جور الأديان إلى سعة الإسلام ورحمته.

ثانياً: إقامة الحجة على الخلائق: فالله سبحانه وتعالى حكيم يضع الأمور في مواضعها، عليم بأحوال عباده، فلو لم يبعث الوساطة من الرسل، وينزل الشرائع في الكتب توضح المحجة، والصراط المستقيم، وتقيم الحجة، وتقطع الشبهة لحسب الأمم أن لها بين يدي حساب الله حجة سائغة ومعدرة مقبولة. قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾^(٤) لقد قطع الله هذه الشبهة من أساسها بإرسال الرسل وبعثة الأنبياء من أولهم آدم إلى خاتمهم محمد عليهم الصلاة والسلام، قال تعالى: ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾^(٥)؛ لذلك قضى الله - وهو أحكم الحاكمين - أن لا يعذب أمة لم تشرق عليها شمس الرسالة، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾^(٦)، فمن حكمة الله تعالى ورحمته وعدالته أن لا يعذب أحداً من خلقه إلا بعد الإعذار إليه، وإرسال الرسل إليه، وقيام الحجة

(١) سورة الذاريات الآية ٥٦

(٢) سورة النساء الآية ٣٦

(٣) سورة النحل الآية ٣٦

(٤) سورة طه الآية ١٣٤

(٥) سورة النساء الآية ١٦٥

(٦) سورة الإسراء الآية ١٥

عليه (١).

ثالثاً: تعريف الناس بالعالم الغيبي وما أعده الله للمؤمنين به من جنانه، وللكافرين به من نيرانه: تظل العقول والأفهام في درك القصور عن استطلاع ما وراء هذا الكون المادي المحسوس من عالم الغيب حتى تأتيها رسالة الله، تدعوها للإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وترسيخ عقيدة القضاء والقدر، والإيمان بحقيقة الجنة والنار، والوقوف بين يدي العزيز الجبار لتناقش على ما اكتسبت من خير أو شر في دار العمل، لتجزى على عمل الخير بالخير، والشر بالشر، دار الجزاء والمحاسبة (٢).

وقد مدح الله سبحانه وتعالى أتباع الرسل الذين يصدقون رسلهم فيما يخبرونهم به من أنباء الغيب، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥)﴾.

وقد بين شيخ الإسلام ابن تيمية: أن من حكمة الله في إرسال الرسل أن رسولنا وواسطتنا محمداً صلى الله عليه وسلم عرفنا أسماء الله تعالى، وصفاته، وما يستحقه من الأسماء الحسنى والصفات العلى، تارة بما يوضحه من ضرب الأمثال التي هي مقاييس عقلية، وتارة بما يخبرنا به من الأنبياء الصادقة النبوية، وتارة بما يقصه علينا من قصص الأنبياء الذين هم خير البرية، وبه عرفنا الملائكة، والنبين، والجنة، والنار، وأخبار الماضين، وأحداث الدنيا وملاحمها، وفتنها، وأشرار الساعة، وعلاماتها، وأخبار القيامة وتفصيلها إلى غير ذلك من الأمور الغيبية (٤). (فمن المحال أن تستقل العقول بمعرفة ذلك وإدراكه على التفصيل، فاقترضت رحمة العزيز الرحيم أن بعث الرسل به معرفين، وإليه داعين، ولن أجابهم مبشرين، ولن خالفهم منذرين، وجعل مفتاح دعوتهم وزبدة رسالتهم معرفة المعبود سبحانه بأسمائه وصفاته وأفعاله؛ إذ على هذه المعرفة تبنى مطالب الرسالة كلها من أولها إلى آخرها (٥)).

رابعاً: القدوة الصالحة والأسوة الحسنة. لقد اصطفى الله تعالى رسله عليهم السلام من بين أمهم، قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٦)﴾.

(٢) انظر شرح العقيدة الطحاوية ص ٣٦٢

(٤) انظر تلخيص كتاب الاستغاثة ١/ ٢٣٩

(٦) سورة الحج الآية ٧٥

(١) انظر تفسير ابن كثير ٣/ ٣١

(٣) سورة البقرة الآيات (٢-٥).

(٥) شرح العقيدة الطحاوية ص ٦٩.



وأدبهم تأديبا رائعا فسموا إلى ذرا الأخلاق، وترفعوا عن الأطماع الدنيئة، والشهوات المحرمة الرديئة، وتحلوا بأفضل الكمالات الخلقية بأعلى مستوياتها رغم بشرتهم، فكانوا بذلك قدوة حسنة للناس، يقتدون بهم، ويحذون حذوهم، كما قال تعالى: ﴿وَأُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَقْتَدِهِ﴾ (١).

ولا شك أن نبينا محمدا ﷺ د ضرب الله به أروع المثل للقدوة الحسنة بما أتاه من الأخلاق الحميدة، والصفات الكريمة (٢) حتى وصفه الله في القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (٣).

وقد شاء الله أن تكون الوساطة إلى البشر من البشر؛ لتناسب طبيعة الرسول طبيعة المرسل إليهم حتى تكون الوساطة مثالا واقعا للقدوة الصالحة التي يستطيعون مجالستها، ومعاينتها، والافتداء بها، قال تعالى في حق نبينا محمد ﷺ: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (٤) وعمل الرسول القدوة في قومه يشبه عمل الطبيب المعالج لمرضاه (فثبتت حجة الله على عباده ببعثة الرسل إنما هو بأن أكثر الناس خلقوا بحيث لا يمكن لهم تلقي ما لهم وما عليهم بلا واسطة، بل استعدادهم إما ضعيف يتقوى بأخبار الرسل، أو هنالك مفاصد لا تندفع إلا بالقسر على رغم أنفسهم، وكانوا بحيث يؤاخذون في الدنيا والآخرة، فأوجب لطف الله عند اجتماع بعض الأسباب العلوية، والسفلية أن يوحى إلى أركى قوم أن يهديهم إلى الحق، ويدعوهم إلى الصراط المستقيم، فمثله في ذلك كمثله سيد مرض عبيده، فأمر بعض خواصه أن يكلفهم شرب دواء شاذ أو أم أبوا، فلو أنه أكرههم على ذلك كان حقا، ولكن تمام اللطف يقتضي أن يعلمهم أولا أنهم مرضى، وأن الدواء نافع، وأن يعمل أمورا خارقة تطمئن نفوسهم بها على أنه صادق فيما قال، وأن يشوب الدواء بحلو، فحيث يفعلون ما يؤمرون به على بصيرة منه، وبرغبة فيه) (٥).

خامسا: جمع الأمة على دين واحد ورجل واحد. لأن انقياد النس لما يشاهدونه من الآيات المؤيدة للأنبياء أسرع وأقوى وأشد تماسكا؛ فإنهم يجتمعون عليه بقناعة من أنفسهم وعقيدة

(١) سورة الأنعام الآية ٩٠

(٢) وقد تحدث الشيخ ابن سعدي رحمه الله في هذا الموضوع حديثا رائعا. انظر التوضيح والبيان لشجرة الإيمان ص ٢٧ وما بعدها.

(٤) سورة الأحزاب الآية ٢١

(٣) سورة القلم الآية ٤

(٥) حجة الله البالغة ١/ ٢٤٩ وما بعدها، وانظر الرد على المنطقيين لشيخ الإسلام ابن تيمية ص ٥٠٧



راسخة وإيمان ثابت فيحصل بذلك الإصلاح والإصلاح، قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (١).

سادسا: توجيه الناس وإرشادهم لما فيه الخير والصالح لهم في دينهم ودنياهم. لأن البشر مهما أوتوا من الفهم، والعقل، والذكاء لا يتأتى لعقولهم أن تستقل بالتنظيم العام المصلح للأمة بأكملها كأمة متماسكة، متكافئة، وإنما الشريعة الإلهية بما اشتملت عليه من معاملات، وأخلاق، وعقوبات تستطيع أن تبين للناس الحق من الباطل، والخير من الشر؛ لأن هذا هو المنهج الرباني الذي وضعه خالق البشر العليم بمصالحهم، وتطبيق رسالة الله يهيء النفس الإنسانية أن تصفو من الكدر وفساد الأعمال، وأن تتوفر لها أسباب بناء المجتمع الأخوي القوي السليم، وتطمئن إلى صلاح أمورها الدينية والدنيوية.

فالرسالة الإلهية روح العالم ونوره وقوام حياته، وأي خير للعالم إذا عدم الروح والحياة والنور؟.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (الرسالة ضرورية للعباد، ولا بد لهم منها، وحاجتهم إليها فوق حاجتهم إلى كل شيء، والرسالة روح العالم ونوره وحياته فأى صلاح للعالم إذا عدم الروح والحياة والنور؟، والدنيا مظلمة ملعونة إلا ما طلعت عليه شمس الرسالة، وكذلك العبد ما لم تشرق في قلبه شمس الرسالة ويناله من حياتها وروحها فهو في ظلمة وهو من الأموات، قال الله تعالى: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ ميتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ (٢).

فهذا وصف المؤمن كان ميتا في ظلمة الجهل فأحياه الله بروح الرسالة ونور الإيمان وجعل له نورا يمشي به في الناس، وأما الكافر فميت القلب في ظلمات الكفر (٣).

وقد بين شيخ الإسلام ابن تيمية أن الإنسان في حاجة إلى الرسالة السماوية ليس فقط لإصلاح آخرته والتزود لها فحسب، وإنما هو محتاج لها أيضا لإصلاح معاشه، وجميع شؤونه في دنياه، وأن تمييز الإنسان بين النافع والضار بعقله لا يكفي لتسيير شؤونه في حياته كلها، فإن هذا القدر من التمييز تشترك فيه معه العجماوات.

يقول شيخ الإسلام: (الرسالة ضرورية في صلاح العبد في معاشه ومعاده، فكما أنه لا صلاح في آخرته إلا باتباع الرسالة فكذلك لا صلاح له في معاشه ودنياه إلا باتباع الرسالة،

(٢) سورة الأنعام الآية ١٢٢

(١) سورة التوبة الآية ١٢٨

(٣) مجموع الفتاوى ٩١/١٩ وما بعدها، وانظر النبوات له أيضا ص ١٩١



فالإنسان مضطر إلى الشرع، فإنه بين حركتين: حركة يجلب بها ما ينفعه، وحركة يدفع بها ما يضره، والشرع هو النور الذي يبين ما ينفعه وما يضره، فهو نور الله في أرضه، وعدله بين عباده وحسنه الذي من دخله كان آمناً، وليس المراد بالشرع التمييز بين النافع والضار بالحس، فإن ذلك يحصل للحيوانات العجم، فإن الحمار والجمل يفرق ويميز بين الشعير والتراب، بل التمييز بين الأفعال التي تضر فاعلها في معاشه ومعاده، والأفعال التي تنفعه في معاشه ومعاده، كتفيع الإيمان، والتوحيد، والعدل، والبر، والصدق، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر... وإخلاص العمل، والتوكل على الله، والاستعانة به، والرضا بمواقع أقداره، والتسليم لحكمه، وتصديق رسله في كل ما أخبروا به، وغير ذلك مما هو نفع، وصلاح للعبد في دنياه وآخرته، وفي ضد ذلك شقاوته ومضرته في دنياه وآخرته، ولولا الرسالة لم يهتد العقل إلى تفاصيل المنافع والمضار في المعاش والمعاد.

فمن أعظم نعم الله على عباده وأشرف منته عليهم أن أرسل إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه، وبين لهم الصراط المستقيم، ولولا ذلك لكانوا بمنزلة الأنعام وأشر حالاً منها، فمن قبل رسالة الله واستقام عليها فهو خير البرية، ومن ردها وخرج عنها فهو شر البرية، وأسوأ حالاً من الكلب والخنزير وأحق من كل حقير^(١).

وقال أيضاً مبيناً أنه لا سبيل إلى معرفة تفاصيل ذلك - أي شؤون معاشه ومعاده - إلا من جهة الرسل: فإن العقل لا يهتدي إلى تفاصيلها ومعرفة حقائقها وإن كان قد يدرك وجه الضرورة إليها من حيث الجملة، كالمريض الذي يدرك الحاجة إلى الطب، ومن يداويه ولا يهتدي إلى تفاصيل المرض وتنزيل الدواء عليه، وحاجة العبد إلى الرسالة أعظم بكثير من حاجة المريض إلى الطبيب، فإن آخر ما يعذب بعدم الطبيب موت الأبدان، وأما ما إذا لم يحصل للعبد نور الرسالة وحياتها مات قلبه موتاً لا ترجى الحياة معه أبداً، وشقي شقاوة لا سعادة معها أبداً^(٢).

وأكد العلامة ابن القيم هذا المعنى فعقد مقارنة بين فيها أن حاجة الناس إلى الشريعة أعظم من حاجتهم إلى علم الطب مع أن الناس في حاجة ماسة إلى الطب لإصلاح أبدانهم، فحاجتهم إلى الرسالة أعظم من حاجتهم إلى غيرها من المعارف والفنون^(٣).

(١) مجموع الفتاوى ٩٤/١٩، وانظر النبوات ص ٢٤٢، ولوامع الأنوار ٢/٢٦١

(٢) انظر مجموع الفتاوى ٩٣/١٩، والنبوات ص ١٩١

(٣) انظر مفتاح دار السعادة ٢/٢



فالرسالة الإلهية بعقيدتها وشريعته باب يدخل منه الإنسان إلى الحياة الطيبة الكريمة ورغد العيش والراحة النفسية وضمان سلوك الصراط السوي الذي يضمن لسالكه نعيم الجنة ورضوان الله، وحاجة الخلق إلى هذه الرسالة ضرورية لا ينتظم لهم حال، ولا يصلح لهم دين، ولا بال إلا بذلك، فهم أشد احتياجا إلى بعثة هذه الواسطة من حاجتهم إلى نزول الأمطار وغاء الزروع والأشجار، وتفجر الأرض بالعيون والأنهار، بل ومن الهواء الذي لا بقاء للعالم إلا به، بل ومن النَّفْسِ الذي به تتردد روح الإنسان في جسمه، وبفقدته يفقد الإنسان حياته.

يقول العلامة ابن القيم: (ومن هنا تعلم اضطرار العباد فوق كل ضرورة إلى معرفة الرسول وما جاء به وتصديقه فيما أخبر به، وطاعته فيما أمر، فإنه لا سبيل إلى السعادة، والفلاح، لا في الدنيا ولا في الآخرة إلا على أيدي الرسل، ولا سبيل إلى معرفة الطيب والخبث على التفصيل إلا من جهتهم، ولا ينال رضا الله ألبتة إلا على أيديهم، فالطيب من الأعمال، والأقوال، والأخلاق ليس إلا هديهم، وما جاءوا به، فهم الميزان الراجح الذي على أقوالهم، وأعمالهم، وأخلاقهم توزن الأقوال والأخلاق، والأعمال، وبمنابتهم يتميز أهل الهدى من أهل الضلال، فالضرورة إليهم أعظم من ضرورة البدن إلى روحه، والعين إلى نورها، والروح إلى حياتها، فأى ضرورة وحاجة فرضت، فضرورة العبد وحاجته إلى الرسل فوقها بكثير، وما ظنك بمن إذا غاب عنك هديه، وما جاء به طرفة عين فسد قلبك، وصار كالحوت إذا فارق الماء ووضع في المفلاة، فحال العبد عند مفارقة قلبه لما جاء به الرسل كهذه الحال، بل أعظم، ولكن لا يحسن بهذا إلا قلب حي (ما لجرح بميت إيلام^(١))^(٢)).

وقد جمع الله تلك الحكم والأغراض في بعثة خاتمة الوسائط نبينا محمد ﷺ بحكم أن رسالته خاتمة الرسالات السماوية، وكتابه العزيز حوى ما جاءت به الكتب السابقة فبعثه وسط تيه الجاهلية المتوغل في الوثنية، والعالم بحاجة ماسة إلى من يخرج الله به الناس من الظلمات إلى النور، وإلى كتاب من ربهم يقرأ عليهم رسولهم وواسطتهم؛ ليزيل عنهم أوهام تلك العقول البدائية ويهدم تلك الخرافات الوثنية الجاهلية، ويهيل التراب على تلك التصورات الخاطئة لعبادة الله، فيوصل المؤمنين بخالقهم، فيعبده وحده حق عبادته

(١) هذا تضمين لمعجز بيت للمتنبي، وصدره «من يهن يسهل الهوان عليه» انظر ديوان المتنبي بشرح البرقوقي

(٢) زاد المعاد ١/ ٦٩



مستسلمين لربهم في بواطنهم وظواهرهم . وعتت نعمة ربك ببعثة هذا النبي الخاتم صلوات الله وسلامه عليه في هذا الوسط الجاهلي ، وبين تلك الملل والنحل المتناقضة ، (بعثه الله رحمة للعالمين ومحجة للسالكين ، وحجة على الخلائق أجمعين ، وافترض على العباد طاعته ومحبته وتوقيره وتعزيره ، وسد إليه جميع الطرق ، فلم يفتح لأحد إلا من طريقه . . . أرسله بين يدي الساعة بشيرا ونذيرا ، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا ، ففتح به الرسالة ، وهدى به من الضلالة وعلم به من الجهالة ، وفتح برسالته أعينا عميا ، وأذانا صما ، وقلوبا غلفا)^(١) ، فأقام الحجة ، وأوضح المحجة ، وأيقظ العقول من سباتها العميق ، وأزال الغشاوة بالأسلوب الذي يليق فأمّنوا بالرسالة الخاتمة ، ودانوا للشرع الجديد ، فأظلت رسالته هذا الوسط وانتشر نور الإسلام يبدد ظلام الآفاق مشرقا ومغربا ، وتستتير الأمم بنوره في كل نطاق مأتيا ومذهبا ، وأضاءت الرسالة المكان والزمان ، فصور الشاعر هذا المعنى بقوله^(٢) :

ولد الهدى فالكائنات ضياء وفم الزمان تبسم وثناء

وها نحن نرفل في سعادة ، وأمن ، وإيمان ببركة بعثته ﷺ فجزاه الله عنا أفضل ما جزى أحدا من النبيين ، والمرسلين من قبله ، والحمد لله رب العالمين .
ولعل من المناسب -في ختام هذا المبحث- أن أشير إلى أن من زعم من الناس أنه يسعه الاستغناء عن الرسل ورسالاتهم بالعقول التي وهبهم الله تعالى فتجدهم يسنون القوانين الوضعية فيحلون بها ويحرمون مطالبين باطراح الشريعة ، ومستندهم في كل ذلك تحسين العقل وتقييحه ، من زعم ذلك فقد بان كذبه ، والتاريخ يشهد بذلك (قالبراهمة وهم طائفة من المجوس زعموا أن إرسال الرسل عبث لا يليق بالحكيم لإغناء العقل عن الرسل ؛ لأن ما جاء به الرسل إن كان موافقا للعقل حسنا عنده فهو يفعله ، وإن لم يأت به ، وإن كان مخالفا له قبيحا ، فإن احتاج إليه فعله وإلا تركه)^(٣) .

وقد جرتهم عقولهم هذه التي زعموا أنها تغني عن الواسطة من الرسل ورسالاتهم جرتهم إلى درجة أن أتباعهم في القرن العشرين عبدوا البقر^(٤) ، يقول

(١) مجموع الفتاوى ٩٦/١٩ وانظر لوامع الأنوار ٢/٢٦٢

(٢) هذا البيت للشاعر أحمد شوقي . انظر ديوانه الشوقيات ١/٣٤٢

(٣) أعلام النبوة للماوردي ص ٣٤ وانظر لوامع الأنوار ٢/٢٥٦

(٤) في تلاعب الشيطان بعبادة الحيوانات : انظر إغاثة اللفهان ٢/٥٩٦ ، والعقيدة الإسلامية وأسسها للميداني ص



أحدهم^(١): (عند ما أرى البقرة لا أجدني أرى حيوانا؛ لأنني أعبد البقرة وسأدافع عن عبادتها أمام العالم أجمع)^(٢).

(١) هو زعيم الهند غاندي: انظر أقواله في كتاب مقارنة الأديان للدكتور أحمد شلبي ص ٣٦ وما بعدها،
الرسائل والرسالات للأشقر ص ٣٧
(٢) مقارنة الأديان ص ٣٦



المبحث الثاني الواسطة بين الله ورسوله

التمهيد: تعريف الملائكة لغة، وشرعا، وبيان أصنافهم، ووظائفهم
الملائكة في اللغة: جمع ملك، وأصله (مألك)، وقيل (مألك) على وزن مفعّل،
فنقلت حركة الهمزة إلى اللام، وأسقطت، فوزن (ملك): فعل، وقيل: إنه مأخوذ من
(لأك) إذا أرسل (فمألك) مفعّل، ثم نقلت الحركة، وسقطت الهمزة فوزن (ملك) مفعّل،
وقيل غير ذلك^(١).

والهاء في (الملائكة) مزيدة لتأنيث الجمع أو للمبالغة^(٢). وقيل: مقلوب (مألك) من
الألوة، وهي الرسالة، قال الشاعر^(٣):-

فلمست لإنسي ولكن لمألك تنزل من جو السماء يصوب

وسموا بذلك؛ لأنهم الوساطة بين الله تعالى وخلقه^(٤).

وقال بعض المحققين: المَلَك من المَلَك، والمتولي من الملائكة شيئا من السياسات
يقال له: ملك ومن البشر مَلِك^(٥).

الملائكة شرعا: وأما في الشرع: فهم أجسام علوية قائمة بأنفسها، قادرة على التشكل
بالقدرة الإلهية، ذوو قدرات خارقة لا حصر لهم، لا يأكلون، ولا يشربون ولا ينكحون،
مقربون طائعون، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وليس لهم من خصائص
الربوبية، والألوهية شيء^(٦).

عددهم: الملائكة الكرام من مخلوقات الله تعالى العظام التي لا يحصى عددها ولا
يحيط بأوصافها إلا خالقها عز وجل، حيث قال تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾^(٧)

(١) انظر المصباح المنير ١ / ١٨ مادة (ألك) والقاموس المحيط ٣ / ٣٢٧ مادة (لأك)، ورسالة الملائكة لأبي العلاء

المعري ص ٥ (٢) انظر فتح الباري ٦ / ٣٠٧

(٣) انظر لسان العرب ١٠ / ٤٩٦ (٤) انظر الملل والنحل ١ / ٤٢، والكلبيات للنفوي ٤ / ٢٧١

(٥) انظر التعريفات ص ٢٩٦، وبصائر ذوي التمييز للفيروزآبادي ٤ / ٥٢٤، والكلبيات للنفوي ٤ / ٢٧١

(٦) انظر العقائد السنية ص ١٧٢، ومجموع الفتاوى ٤ / ٣٥٣، وفتح الباري ١ / ٢١، وشرح العقيدة الطحاوية

ص ٣٠٠، ولوامع الأنوار ١ / ٤٤، ومعارج القبول للحكمي ٢ / ٧٧، ومجموع فتاوى ورسائل الشيخ ابن

عثيمين ٥ / ١١٦، والعقيدة الإسلامية وأسسها للميداني ص ٢٧٩، وعالم الملائكة الأبرار للأشقر ص ٩،

ومعجم ألفاظ العقيدة ص ٣٨٦، وعالم الملائكة أسرار وخفايا لمصطفى عاشور ص ١٠

(٧) سورة المدثر الآية ٣١



وورد في الأثر عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال : (ليس شيء أكثر من الملائكة)^(١) .
أسماءهم: الذي وردنا من أسماء الملائكة : جبريل ، وميكائيل ، وإسرافيل ، وأما ملك
 الموت فلم يثبت في القرآن ، ولا في السنة الصحيحة تسميته ، وقد جاء في بعض الآثار
 تسميته بعزرائيل^(٢) ، وهاروت ، وماروت^(٣) ، ومنكر ، ونكير ، ورضوان ، ومالك عليهم
 السلام .

أصنافهم ووظائفهم: قد جاء في النصوص الشرعية أن الملائكة أصناف كما ثبت أن لكل
 منهم وظائف وأعمالا ، فوظيفة الملائكة الأولى التي تقوم بها في الجملة : تسبيح الله
 تعالى ، والتعبد له ليلا ونهارا من غير ملل ، ولا فتور ، وهناك أعمال ، ووظائف وكل الله
 بالقيام بها أنواعا مخصوصة من الملائكة :

فمنهم جبريل عليه السلام الأمين على وحي الله يرسله به إلى الأنبياء والرسل كما وكله
 بالهلكات إذا أراد الله أن يهلك قوما ، ووكله بالنصر عند القتال^(٤) .
 ومنهم ميكائيل (ميكال) عليه السلام الموكل بالمطر ونبات الأرض ، وأرزاق
 العباد^(٥) .

ومنهم إسرافيل عليه السلام الموكل بالنفخ في الصور .
 ومنهم ملك الموت الموكل بقبض الأرواح ، وله أعوان من الملائكة^(٦) .
 ومنهم الملائكة الموكلون بنفخ الأرواح في الأجنة وكتابة أعمالها المستقبلية وأجالها
 وأرزاقها وسعادتها أو شقاوتها^(٧) .
 ومنهم الملائكة الموكلون بحفظ بني آدم بأمر الله وآخرون يحصون أعمالهم
 ويكتبونها^(٨) .
 ومنهم الملكان الموكلان بسؤال الميت إذا وضع في قبره .

(١) انظر الحبانك في أخبار الملائك ص ١١

(٢) انظر البداية والنهاية ١ / ٥٠ ، والحبانك في أخبار الملائك ص ٣٧ ، وعالم الملائكة الأبرار للأشقر ص ١٨
 (٣) هذان الملكان أرسلهما الله فتنة لأهل بابل ، وذكر ابن كثير أن ما قيل في قصتهما مع المرأة التي علماها اسم الله
 الأعظم هو من قبيل الإسرائيليات . انظر البداية والنهاية ١ / ٤٨ ، وتفسير آيات القرآن عن علاقة الملائكة
 بالإنسان ص ١٤ (٤) انظر الحبانك ص ١٧

(٥) انظر البداية والنهاية ١ / ٥٠ ، والحبانك ص ١٧ ، ومجموع فتاوى ورسائل الشيخ ابن عثيمين ١١٧ / ٥

(٦) انظر الحبانك ص ٤٢ ، والعقيدة الإسلامية وأسسها ص ٢٧٥

(٧) انظر فتح الباري ٦ / ٣٠٣ ، والحبانك ص ١٢١

(٨) انظر تفسير ابن كثير ٧ / ٣٧٦ ، ولوامع الأنوار ١ / ٤٥٠



ومنهم خزنة الجنة الذين يسلمون على أهلها .

ومنهم خزنة جهنم الموكلون بها .

ومنهم حملة العرش ومن حوله . . . وغير ذلك ^(١) .

ومجمل القول : أن الملائكة المكرمين أصناف كثيرة ، ولهم وظائف عديدة في الأكوان حسب تقدير الملك الديان ، وإرسالهم بهذه الوظائف من الحكمة الإلهية بمكان ، وهو مشعر برحمة الخالق بهذا الإنسان (فهم رسل الله في خلقه وأمره ، أو سفراؤه بينه وبين عباده ، يُنزلون الأمر من عنده في أقطار العالم ، ويصعدون إليه بالأمر) ^(٢) .

المطلب الأول : جبريل واسطة بين الله والملائكة .

لقد وصف الله سبحانه وتعالى الملائكة بقوله : ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ ^(٣) ويقول تعالى : ﴿وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ ^(٤) ويقول جل شأنه : ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ ^(٥) ويقول عز وجل : ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ﴾ ^(٦) فالسماوات في غاية الخوف من الله تعالى ، والهيبة منه ، والإجلال له وكذلك سكانها من الملائكة ، فهم يسبحون بحمد ربهم أي : ينزهونه عن كل ما لا يليق بكماله ، وجلاله ، خوفاً منه ، وهيبة ، وإجلالا ، ولشدة خوفهم من ربهم ، وإجلالهم له لا يفترون يسبحون بحمده ويخافون على أهل الأرض ؛ ولهذا يستغفرون لهم خوفاً عليهم من سخط الله ، وغضبه ^(٧) .

فقد شرف الله تعالى الملائكة بهذه الوظيفة وهي الاستغراق في عباته ، وتسبيحه ، وتنزيهه ، وفضلهم على غيرهم من مخلوقاته ، وأسكنهم سماواته ، وجعل أفضلهم وأشرفهم وأقوامهم جبريل عليه السلام ^(٨) أمينا على وحيه ^(٩) .

قال العلامة ابن القيم : (جبريل موكل بالوحي الذي فيه حياة القلوب والأرواح) ^(١٠) .

(١) انظر - للتوسع - الحباثك في إخبار الملائك ص ١٠ وما بعدها ، ومجموع فتاوى ورسائل ابن عثيمين ١١٧/٥ ، والإرشاد إلى صحيح الاعتقاد للشيخ صالح الفوزان ص ١٤٦ ، وأصول الدين الإسلامي للشيخ محمد بن إبراهيم التويجري ص ٣٤ ، وعالم الملائكة الأبرار للأشقر ص ٣٨ ، والحياة في ظل العقيدة الإسلامية لزيد المدخلي ص ٢٢ (٢) شرح العقيدة الطحاوية ص ٣٠٠

(٣) سورة التحريم الآية ٦ (٤) سورة الأنبياء الآية ٢٧

(٥) سورة الأنبياء الآية ٢٠ (٦) سورة الشورى الآية ٥

(٧) انظر أضواء البيان ١٥٢/٧ (٨) انظر المبحث الآتي جبريل واسطة بين الله ورسله

(٩) نقل السيوطي أثرًا عن ابن مسباط أنه قال : (إن إسرافيل هو الذي ينزل بالأمر على بقية الملائكة) الحباثك ص

(١٠) إغاثة اللفهان ١٢٢/٢ ، وانظر شرح العقيدة الطحاوية ص ٣٠٠ ١٦

وقال الحافظ ابن حجر : (وجبريل موكل بالوحي الذي يحصل به الإصلاح العام)^(١).
كما جعله الله سبحانه وتعالى واسطة بينه وبين سائر الملائكة ، ويوضح ذلك الأحاديث الآتية :-

فقد روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله كأنه سلسلة على صفوان فإذا فرغ عن قلوبهم قالوا ما ذا قال ربكم قالوا للذي قال الحق وهو العلي الكبير فيسمعها مسترق السمع، ومسترق السمع هكذا - بعضه فوق بعض - ووصف مفيان^(٢) - رحمه الله تعالى - بكفه فحرفها ويدد بين أصابعه، فيسمع الكلمة فيلقياها إلى من تحته، ثم يلقياها الآخر إلى من تحته حتى يلقياها على لسان الساحر والكاهن، فرمما أدرك الشهاب قبل أن يلقياها، وربما ألقاها قبل أن يدركه الشهاب، فيكذب معها مائة كذبة، فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا، وكذا كذا وكذا؟ فيصدق بتلك الكلمة التي سمع من السماء)^(٣).

فعند ما يأمر الله عز وجل بالأمر ينزل به جبريل عليه السلام فيسأله أهل كل سماء : يا جبريل ماذا قال ربنا؟ فيجيبهم جبريل بقوله : قال الحق ، وهو العلي الكبير ، فيقولون مثل قول جبريل .

روى الإمام ابن جرير الطبري^(٤) - رحمه الله تعالى ، والبيهقي في تفسيريهما لقوله الله تعالى : ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾^(٥) أن الملائكة يفزعون حذرا من قيام الساعة ؛ وذلك أن الفترة التي كانت بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام خمسمائة وخمسين سنة ، وقيل ستمائة لم تسمع الملائكة فيها وحيا ، فلما بعث الله محمدا ﷺ كلم جبريل عليه السلام بالرسالة إلى محمد ﷺ فلما سمعت الملائكة ظنوا أنها الساعة ؛ لأن محمدا ﷺ عند أهل السماوات بعثته من أشراف

(١) فتح الباري ٦/ ٣٠٧

(٢) هو أبو محمد سفيان بن عيينة بن ميمون الهلالي الكوفي ثم المكي ، قال عنه الحافظ ابن حجر : حافظ ، إمام ، حجة ، توفي سنة ١٩٨ هـ . انظر سير أعلام النبلاء ٨/ ٤٥٤ ، وتقريب التهذيب ١/ ٣١٢ ، وشذرات الذهب ١/ ٣٥٤

(٣) صحيح البخاري مع الفتح كتاب التفسير ، حديث (رقم ٤٨٠٠) .

(٤) هو أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير الطبري ، ولد سنة ٢٢٤ هـ ، وتوفي سنة ٣١٠ هـ ، قال عنه الذهبي : هو الإمام ، العلم ، المجتهد ، عالم العصر ، صاحب التصانيف البدعة . انظر : سير أعلام النبلاء ١٤/ ٢٦٧ ، وشذرات الذهب ٢/ ٢٦٠

(٥) سورة سبأ الآية ٢٣



الساعة، فصعقوا مما سمعوا خوفاً من قيام الساعة، فلما انحدر جبريل جعل يمر بأهل كل سماء فيكشف عنهم فيرفعون رؤوسهم، ويقول بعضهم لبعض: ماذا قال ربكم؟ قالوا: الحق، يعني الوحي، وهو العلي الكبير^(١).

وقيل: إنما الموصوفون بهذا الفزع هم المشركون، وذلك حين يكشف الفزع عن قلوبهم عند نزول الموت بهم إقامة للحجة عليهم، تقول لهم الملائكة: ماذا قال ربكم في الدنيا؟ قالوا: الحق، فأقروا به حين لا ينفعهم الإقرار^(٢)، وذكر الفخر الرازي: أن لهذا الفزع وجوهاً -

أحدها: أنه الفزع الذي يحصل عند الوحي فتصعق الملائكة، فيكون جبريل أول من يرفع رأسه، ثم يمر بالملائكة في كل سماء فيبلغها الأمر، ويزيل عنها الغشي.

ثانيها: أنه الفزع الذي يكون عند قيام الساعة.

ثالثها: أن الله تعالى يزيل الفزع وقت الموت عن القلوب، فينفع المؤمن، ويعترف الكافر بالحق، فيضربه لفوات الأوان^(٣)، وقد رجح الإمام الطبري الوجه الأول^(٤).

قال ابن كثير: (وهذا هو الحق الذي لا مرية فيه؛ لصحة الأحاديث فيه والآثار)^(٥).

٢- وعن النواس بن سمعان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إذا أراد الله تعالى أن يوحى بالأمر تكلم بالوحي، أخذت السماوات منه رجفة، أو قال رعدة - شديدة خوفاً من الله عز وجل، فإذا سمع ذلك أهل السماوات صعقوا وخرروا سجداً، فيكون أول من يرفع رأسه جبريل، فيكلمه الله من وحيه بما أراد، ثم يمر جبريل على الملائكة، كلما مر بسماء يسأله ملائكتها: ماذا قال ربنا يا جبريل؟ فيقول جبريل: قال الحق، وهو العلي الكبير، قال: فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل، فينتهي جبريل بالوحي إلى حيث أمره الله عز وجل)^(٦).

وروى ابن جرير الطبري بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان يقول: (إن الله لما أراد أن يوحى إلى محمد دعا جبريل، فلما تكلم ربنا بالوحي كان صوته كصوت الحديد على

(١) انظر تفسير الطبري ٣٧٥/١٠، وتفسير البغوي للبغوي ٥٥٧/٣، وتفسير القرطبي ٢٩٧/١٤

(٢) انظر تفسير البغوي ٥٥٧/٣، وتفسير القرطبي ٢٩٧/١٤

(٣) انظر تفسير الفخر الرازي ٢٧٥/٢٥ (٤) انظر تفسير الطبري ٣٧٥/١٠

(٥) تفسير ابن كثير ٥٤٥/٣

(٦) رواه أبو داود ١٠٦/٥، والترمذي ٣٦٢/٥، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وابن ماجه في المقدمة ٧٠/١، وابن خزيمة في التوحيد ص ١٤٤، والبيهقي في الأسماء والصفات ص ٣٦٢، وأورده ابن القيم في مختصر الصواعق ص ٥٠٢، وقال عنه: (وهذا الإسناد كلهم أئمة ثقات) وصحح إسناده الشيخ الألباني.

انظر السلسلة الصحيحة ٣٧٥/١٠

الصفاء، فلما سمع أهل السماوات صوت الحديد خروا سجدا، فلما أتى عليهم جبرائيل بالرسالة رفعوا رؤوسهم، فقالوا: ﴿ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير﴾ وهذا قول الملائكة (١).

فثبت من هذا أن جبريل عليه السلام كان واسطة بين الله تعالى وسائر الملائكة لإبلاغهم أوامر الله تعالى، وأن جبريل هو الذي يزيل عنهم الغشي، ويخبرهم بما قاله عز وجل.

٣- وتفسهم وساطة جبريل أيضا من حديث الإسراء الطويل الذي يرويه مالك بن صعصعة رضي الله عنه عن النبي ﷺ وفيه: أن جبريل عليه السلام كلما مر بالنبي ﷺ على سماء سأله أهلها من الملائكة: من معك يا جبريل؟ فيقول: محمد ﷺ فيقولون: وقد أرسل إليه؟ فيقول جبريل: نعم، فيقولون: مرحبا به، ولنعم المجيء جاء (٢).

أقول: يفهم من هذا الحديث أن جبريل عليه السلام كان واسطة بين الله تعالى، والملائكة في تبليغهم بعثة خاتم النبيين، وإسرائه، ومعراجهم ﷺ.

٤- وروى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: (إذا أحب الله عبدا نادى جبريل: إن الله يحب فلانا، فأحبه، فيحبه جبريل، فينادي جبريل في أهل السماء: إن الله يحب فلانا فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في أهل الأرض) (٣).

فيؤخذ من هذا الحديث أن جبريل عليه السلام يكون واسطة بين الله تعالى وبقية الملائكة في تبليغهم محبة الله للعبد الذي يحبه الله؛ وذلك بعد أن يأمر الله عز وجل جبريل بمحبة هذا العبد، فيحبه جبريل، ثم ينزل جبريل بالأمر إلى ملائكة كل سماء، فيبلغهم محبة الله لعبده، فيحبونه، ثم يضع الله له المحبة، والقبول في أهل الأرض، فيحبونه.

فتبين من هذه النصوص أن جبريل عليه السلام هو المبلغ عن الله سبحانه وتعالى إلى بقية الملائكة، وقد تقتضي حكمة الله عز وجل أن يرسل إلى ملائكته عليهم السلام ملكا غير جبريل، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يُصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ

(١) تفسير الطبري ٣٧٥/١٠

(٢) انظر الحديث بطوله في صحيح البخاري مع الفتح ٣٠٢/٦، حديث رقم ٣٢٠٧

(٣) صحيح البخاري مع الفتح كتاب الأدب باب المقة من الله تعالى ١٠/٤٦١ حديث رقم ٦٠٤٠، وصحيح مسلم بزيادة: ((وإذا أبغض الله عبدا نادى جبريل:)) انظر صحيح مسلم بشرح النووي كتاب البر والصلة والآداب باب إذا أحب الله عبدا وضع له القبول في الأرض ١٨/١٨٣



اللَّهُ سَمِيعٌ بَصِيرٌ^(١)، فبين الله في هذه الآية أنه يختار من يشاء من الملائكة ليرسلهم حيث يريد سبحانه وتعالى، ويدخل في ذلك توسطهم بينه وبين بقية الملائكة، وبينه وبين الناس، كما بينت الآية أن الله يختار من يشاء من الناس للرسالة واسطة بينه وبين سائر البشر.

قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: الله يختار من الملائكة رسلاً كجبريل، وميكائيل اللذين كان يرسلهما إلى أنبيائه الذين أرسلهم إلى عباده من بني آدم، ومعنى الكلام: الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس -أيضاً- رسلاً)^(٢).

وبين الإمام البيهقي^(٣) رحمه الله تعالى: أن الإيمان بالملائكة يتطلب منا أن نوقن بأن منهم رسلاً يرسلهم الله إلى من يشاء من البشر، كما أنه يجوز أن يرسل بعضهم إلى بعض^(٤).

وصرح الإمام البغوي أن هؤلاء الرسل من الملائكة هم: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وعزرائيل عليهم السلام^(٥)، فعلى رأيه -رحمه الله- أن هؤلاء المذكورين من الملائكة قد يشاركون جبريل عليه السلام في تبليغ أوامر الله إلى سائر الملائكة؛ لكن واسطة جبريل بالأصالة، وواسطة هؤلاء الملائكة معه على سبيل المشاركة، والله أعلم.

المطلب الثاني: جبريل واسطة بين الله ورسله في إبلاغ الوحي.

من أهم الوظائف المنوطة بالملائكة هو قيامهم بتبليغ الوحي إلى أنبياء الله، ورسله، فالملائكة واسطة بين الله تعالى وبين الرسل في تبليغ الوحي، والشرائع^(٦)، (ويكون الملك واسطة بين الرسول وبين ربه والرسول واسطة بين الملك وبين قومه، وما يؤديه الملك إلى الرسول ليؤديه الرسول إلى قومه ضربان: قرآن، ووحي)^(٧)، والملك الموكل بهذه المهمة هو جبريل عليه السلام^(٨).

(١) سورة الحج الآية ٧٥ (٢) تفسير الطبري ١٩٠/٩، وانظر تفسير السعدي ١٦٢/٥

(٣) هو أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن عبد الله بن موسى البيهقي الخراساني الشافعي، ولد سنة ٣٨٤هـ، وتوفي سنة ٤٥٨هـ، وصفه الإمام الذهبي بقوله: هو الحافظ العلامة، الثبت، الفقيه، شيخ الإسلام. انظر سير أعلام النبلاء ١٦٣/١٨، شذرات الذهب ٣٠٤/٣

(٤) انظر شعب الإيمان ١/٤٠٥، والحياتك للسيوطي ص ١٦

(٥) انظر تفسيره ٢٩٩/٣، وصرح الفخر الرازي أن الآية أفادت أنه يمكن أن يكون المصطفون ههنا من الملائكة هم الواسطة بين الله تعالى ورسله، وهم أكابر الملائكة، وزاد الرازي ذكر الحفظة عليهم السلام، وأما جميع

الملائكة فيعصمهم واسطة ورسول إلى البعض. انظر تفسير الفخر الرازي ٦٩/٢٣

(٦) انظر فتح الباري ٦/٣٠٦ (٧) أعلام النبوة للماوردي ص ٤٧

(٨) انظر معارج القبول للحكمي ٧٨/٢، والرسل والرسالات للأشقر ص ٦٣

فقد أثبتت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية أن جبريل عليه السلام هو الذي ينزل بالوحي من الله تعالى إلى الأنبياء والرسل ، فكان واسطة بين الله تعالى ورسله^(١) ، وبيان ذلك في الآتي :

أولاً: الأدلة من الكتاب العزيز:

- ١- قال تعالى : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ^(٢) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ^(٣) ۝
- ٢- قال تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ^(٤) ۝

فهاتان الآيتان صريحتان في كون جبريل عليه السلام هو الذي كلفه الله بالنزول بالقرآن الكريم على النبي ﷺ ، فكان بذلك واسطة بين الله تعالى وخاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم .

ثانياً: الأدلة من السنة النبوية. وقد ثبت وساطة جبريل بين الله تعالى ورسله في الأحاديث الآتية :

- ١- ما رواه الإمام أبو داود رحمه الله تعالى - وغيره من حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : (إذا أراد الله تعالى أن يوحي بالأمر تكلم بالوحي أخذت السماوات منه رجفة - أو قال رعدة - شديدة خوفاً من الله عز وجل فإذا سمع ذلك أهل السماوات صعقوا وخروا سجداً ، فيكون أول من يرفع رأسه جبريل ، فيكلمه الله من وحيه بما أراد ثم يمر جبريل على الملائكة كلما مر بسماء يسأله ملائكتها : ماذا قال ربنا يا جبريل ؟ فيقول جبريل : قال الحق وهو العلي الكبير ، قال : فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل فينتهي جبريل بالوحي إلى حيث أمره الله عز وجل)^(٥) .
- ٢- ومنها حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه المشهور بحديث جبريل الذي أخرجه

(١) انظر الشرح والإبانة لابن بطة ص ٢٣١

(٢) المراد بالروح الأمين هو جبريل (قاله غير واحد من السلف ، وقال مجاهد : من كلمه الروح الأمين لا تأكله الأرض . وأخرج أبو الشيخ عن السدي في قول الله تعالى : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ۝ ﴾ أنه قال : (الروح الأمين هو جبريل عليه السلام كتاب العظمة ٧٧٦ / ٢ ، وسبب تسمية جبريل روحاً : أن من تظهر منه الأشياء العجيبة يسمى روحاً ، وكذلك كان جبريل عليه السلام ، ثم إن جبريل يأتي للرسول بالوحي الذي تحصل به حياة القلوب ، والأرواح التي هي الحياة الحقيقية . انظر تفسير الطبري ١٩ / ١١٢ ، واجتماع الجيوش الإسلامية لابن القيم ص ٨٨ ، وتفسير ابن كثير ٣ / ٣٦٠ ، وتفسير الشوكاني ٤ / ١٢٢ ، و ١ / ٥٤٠ ، وأضواء البيان ٦ / ٣٨٠

(٣) سورة الشعراء الآية ١٩٣ (٤) سورة البقرة الآية ٩٧

(٥) سبق تخريجه .



البخاري ومسلم، ومضمونه أن جبريل عليه السلام أتى النبي ﷺ على صورة أعرابي وسأله عن الإسلام، والإيمان، والإحسان، والساعة، فلما انصرف قال النبي ﷺ: (يا عمر أتدري من السائل؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم)^(١).

٣- ومنها ما أخرجه أبو الشيخ^(٢). رحمه الله تعالى. عن عكرمة بن خالد (أن رجلاً قال: يا رسول الله: أي الملائكة أكرم على الله؟ قال: لا أدري! فجاءه جبريل، فقال: يا جبريل أي الخلق أكرمهم على الله؟ قال: لا أدري! فعرج جبريل ثم هبط فقال: جبريل وميكائيل، وإسرافيل، وملك الموت، فأما جبريل فصاحب الحرب، وصاحب المرسلين، وأما ميكائيل فصاحب كل قطرة تسقط، وكل ورقة تنبت، وكل ورقة تسقط، وأما ملك الموت فهو موكل بقبض روح كل عبد في بر أو بحر، وأما إسرافيل فأمين الله بينه وبينهم^(٣)، فهذه الأحاديث تدل بعمومها على أن جبريل عليه السلام هو الواسطة بين الله تعالى ونبينا محمد ﷺ قال حسان رضي الله عنه^(٤):

وجبريل رسول الله فينا وروح القدس ليس له كفاء

ولهذا قال العلامة ابن القيم في شرحه لدعاء النبي ﷺ وتوسله بربوبية الله لجبريل، وميكائيل وإسرافيل، عليه السلام جبريل هو الواسطة الموكل بالوحي الذي فيه حياة القلوب والأرواح^(٥).

وتحدث الحافظ ابن كثير عن جبريل عليه السلام وصفه بأنه أفضل الملائكة، وأنه ملك كريم، أمين على الوحي، ذو مكانة عند الله تعالى، مطاع في الملأ الأعلى^(٦).

(١) انظر صحيح البخاري مع الفتح كتاب الإيمان باب سؤال جبريل عن الإيمان والإسلام ١١٤/١ حديث ٥٠،

وصحيح مسلم بشرح النووي كتاب الإيمان باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ٢٦٨/١

(٢) هو أبو محمد عبد الله بن محمد بن جعفر بن حبان أبو الشيخ الأصبهاني، صاحب كتاب العظمة، ولد سنة

٢٧٤هـ، وتوفي سنة ٣٦٨هـ، انظر سير أعلام النبلاء ١٦/٢٧٦، شذرات الذهب ٣/٦٩، ومعجم

المؤلفين ٢/٢٧٧

(٣) أخرجه أبو الشيخ في كتاب العظمة ٣/٨١١، وقال محققه إسناده مرسل، والسيوطي في الدر المنثور

٩٣/١ والحاك ١٨

(٤) انظر شرح ديوان حسان بن ثابت الأنصاري وضعه عبد الرحمن البرقوقي ص ٦، وفي بعض كتب التفسير

رواية البيت هكذا:-

وجبريل أمين الله فينا وروح القدس ليس به خفاء

انظر تفسير الشوكاني ١/١١٠

(٥) زاد المعاد ١/٤٣، وشرح العقيدة الطحاوية ص ٣٠٠

(٦) انظر تفسير ابن كثير ٣/٣٦٠

وقال الحافظ ابن حجر: (. . .) فأما جبريل فقد وصفه الله تعالى بأنه روح القدس، وبأنه الروح الأمين، وبأنه رسول كريم، ذو قوة، مكين، مطاع، أمين . . . موكل بالوحي الذي يحصل به الإصلاح العام^(١).

وقد أكرم الله سبحانه وتعالى جبريل بهذه المكرمة، وفضله بهذه الفضيلة، وخصه بهذه الخاصية، وهي توسطه بين الله تعالى ورسله في إبلاغ الوحي، وإنفاذ الأوامر يقول الشيخ محمد الأمين الشنقيطي - عند قول الله تعالى: ﴿فَأَنبِئَاتٍ ذِكْرًا﴾^(٢) (. . .) لأن الذكر الذي تتلوه الملائكة تلقية إلى الأنبياء، كما كان جبريل ينزل بالوحي على نبينا وغيره من الأنبياء صلوات وسلامه على الجميع^(٣).

ومما يدل على عظم مكانة جبريل عند الله تعالى دون سائر الملائكة عليهم السلام ما ذكره الإمام السيوطي^(٤) - رحمه الله تعالى - من أن اسم جبريل في الملائكة معناه: (خادم الله^(٥))، وإمام أهل السماء^(٦).

ونقل الحافظ ابن كثير عند تفسير قول الله تعالى: ﴿مُطَاعٌ ثُمَّ آمِينَ﴾^(٧) عن قتادة أنه قال: (مطاع ثم) أي: في السماوات يعني ليس من أفئدة^(٨) الملائكة؛ بل هو من السادة والأشراف معتنى به انتخب لهذه الرسالة العظيمة^(٩).

وقد تقتضي حكمة الله عز وجل أن يرسل مع جبريل غيره من الملائكة لتبليغ الوحي^(١٠)، وبيان أوامر الله في حوادث مخصوصة.

قال الحافظ ابن كثير: (يرسل الله جبريل عليه السلام إلى الأنبياء لتبليغ الوحي، وقد يرسل غيره من الملائكة إلى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام)^(١١).

(٢) سورة الصفات الآية ٣

(١) فتح الباري ٦/٣٠٧

(٣) أضواء البيان ٦/٤٣٤

(٤) هو أبو الفضل عبد الرحمن بن أبي بكر بن عثمان الخضيري، الطولوني، المصري، الشافعي جلال الدين، ولد سنة ٨٤٩ هـ، ونشأ في القاهرة، كتب في شتى فنون المعرفة، كان عالماً موسعياً، توفي بالقاهرة سنة ٩١١ هـ. انظر الضوء اللامع ٤/٦٥، وشذرات الذهب ١/٥١.

(٥) لعل المراد أنه عبد الله، وله مزيد عناية وقرب خاص من ربه تعالى؛ لأن الله سبحانه وتعالى غني عن الخادم والمعين.

(٦) انظر تنوير الحوالك ١/١٦، والجهانك ص ١٩

(٧) سورة التكويد الآية ٢١

(٨) الأفئدة معناه: الأفراد، وقيل: الجماعات. انظر القاموس المحيط ١/٣٣ مادة (الفند)

(٩) تفسير ابن كثير ٤/٥١٢ (١٠) انظر تفسير آيات القرآن عن علاقة الملائكة بالإنسان ص ٤٨

(١١) تفسير ابن كثير ٤/١٣١، وانظر تفسير الشوكاني ١/١١٠

وقد أورد الحافظ ابن حجر عن الشعبي أنه قال: (أنزلت على النبي ﷺ النبوة وهو ابن أربعين سنة، فقرن بنبوته إسرافيل عليه السلام ثلاث سنين، فكان يعلمه الكلمة، والشيء، ولم ينزل عليه القرآن على لسانه، فلما مضت ثلاث سنين قرن بنبوته جبريل عليه السلام، فنزل عليه القرآن على لسانه عشرين سنة^(١). ثم ذكر ابن حجر أن الواقدي^(٢) - رحمه الله تعالى - أنكر هذه الرواية المرسلة، وقرر أن النبي (لم يقرن بنبوته من الملائكة غير جبريل عليه السلام^(٣)).

وأما قيام غير جبريل من الملائكة عليهم السلام بتبليغ الوحي إلى الأنبياء فيعد من النادر^(٤)، وقد وجدنا أدلة على ذلك من الكتاب والسنة.

أولاً: فمن الكتاب الآيات التالية:-

١- قول الله تعالى: ﴿يُنْزِلُ الْمَلَائِكَةُ بِالرُّوحِ^(٥) مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾^(٦) فتبين من هذه الآية أن الله تعالى ينزل من يشاء من الملائكة بالوحي، واسطة بينه وبين من يشاء من عباده المرسلين^(٧).

وذكر البيهقي أن من متطلبات الإيمان بالملائكة أن تؤمن بأن منهم رسلاً يرسلهم الله إلى من يشاء من البشر، وقد يجوز أن يرسل بعضهم إلى بعض^(٨).

٢- وقول الله تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾^(٩) فدللت هذه الآية على أن الله عز وجل يختار من يشاء من الملائكة ليرسلهم حيث يريد

(١) فتح الباري ٢٧/١

(٢) هو أبو عبد الله محمد بن عمر بن واقد الأسلمي مولا هم الواقدي المدني القاضي صاحب التصانيف والمغازي العلامة الإمام، قال عنه الذهبي: أحد أوعية العلم - على ضعفه المتفق عليه - جمع فأوعى، وخط الغث بالثمين، والخرز بالدر الثمين فاطرحوه لذلك. ولد بعد العشرين ومائة، وتوفي سنة ٢٠٧ هـ. انظر ترجمته في

تاريخ بغداد ٣/٣، وسير أعلام النبلاء ٩/٤٥٧، والأعلام للزركلي ٦/٣١١

(٣) انظر تاريخ الرسل والملوك للطبري ٣/٢، وفتح الباري ٢٧/١

(٤) انظر الرسل والرسالات للأشقر ص ٦٣

(٥) المراد بالروح هنا الوحي، وقد وضحته الآية الأخرى ﴿يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده﴾ سورة غافر الآية ١٥، وسمي الوحي روحاً؛ لأنه يحيي قلوب المؤمنين، ويؤيد ذلك أن من جملة الوحي القرآن، وهو نازل من الدين منزلة الروح من الجسد. انظر المفردات ص ٢٠٥ مادة (روح) وتفسير الشوكاني ٣/١٤٧

(٦) سورة النحل الآية ٢

(٧) انظر شعب الإيمان ١/٤٠٥، ونقله السيوطي عنه في الحباثك ص ٩

(٨) انظر شعب الإيمان ١/٤٠٥، ونقله السيوطي عنه في الحباثك ص ٩

(٩) سورة الحج الآية ٧٥

سبحانه وتعالى، كما أنه يختار من يشاء من البشر للرسالة، وفي الآية إثبات تعدد الوساطة من الملائكة والواسطة من البشر، ونقل الحافظ ابن كثير عن الإمام ابن جرير - عند تفسير قول الحق تبارك وتعالى: ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾ (١٥) كَرَامٍ بَرَّةٍ ﴿١﴾: أن المراد بالسفيرة الملائكة، ثم قال ابن جرير: (والسفيرة يعني بين الله تعالى وبين خلقه ومنه يقال: السفير الذي يسعى بين الناس في الصلح، والخير كما قال الشاعر:-

وما أدع السفارة بين قومي وما أمشي بغش إن مشيت

وقال البخاري: (سفرة): الملائكة سفرت، أصلحت بينهم، وجعلت الملائكة إذا نزلت بوحى الله تعالى وتأديته كالسفير الذي يصلح بين القوم) (٢).
وقيل المراد السفيرة هنا: (الملائكة الذين يسفرون بالوحي بين الله ورسوله، من السفارة، وهو السعي بين القوم) (٣).

٣- قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّا أَهْلُهَا كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ (٣١) قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنَنْجِيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٢) وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجِيُكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٣) ﴿٤﴾ (٥).

فبين الله تعالى في هذه الآيات أنه أرسل ملائكة إلى إبراهيم ولوط عليهما السلام وأخبروهما بأنهم مكلفون من قبل الله بإهلاك قوميهما، بعد أن ينجياهما وأهلهم إلا امرأة لوط المتماثلة مع قومها، فهؤلاء الملائكة الذين ورد ذكرهم بصيغة الجمع (٦) ثبت أنهم واسطة بين الله تعالى وإبراهيم ولوط عليهما السلام في إهلاك قوميهما.

ثانياً: ومن السنة الأحاديث التالية:-

١- أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (بينما جبريل قاعد عند النبي ﷺ سمع نقيضاً) (٧) من فوقه فرفع رأسه فقال: هذا ملك نزل إلى الأرض لم

(١) سورة عبس الآيات (١٥-١٦). (٢) تفسير الطبري ٥٤/٣٠، وانظر تفسير ابن كثير ٥٠٢/٤.

(٣) تفسير الشوكاني ٣٨٣/٥.

(٤) الغابرين: أي الباقين في العذاب. انظر المفردات للراغب ص ٣٥٧ مادة (غبر) وتفسير الشوكاني ٢٠١/٤.

(٥) سورة العنكبوت الآيات (٣١-٣٢-٣٣).

(٦) وسيأتي عن بعض المفسرين أن هؤلاء الملائكة كان يرأسهم جبريل عليهم السلام.

(٧) النقيض: الصوت مثل صوت الباب إذا فتح. انظر النهاية لابن الأثير ١٠٧/٥ مادة (نقض) وشرح النووي

لصحيح مسلم ٩١/٦.

ينزل قط إلا اليوم، فسلم وقال: أبشر بنورين، أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك: فاتحة الكتاب، وخواتيم البقرة، لن تقرأ بحرف منهما إلا أعطيته^(١). ولا يعارض هذا الحديث كون جبريل عليه السلام هو الواسطة بين الله تعالى ونبينا محمد ﷺ في نزول القرآن، بل غاية ما في هذا الحديث أن هذا الملك إنما أنزله الله على النبي ﷺ لبيان فضل هاتين السورتين^(٢).

٢- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (جلس جبريل إلى النبي ﷺ فنظر إلى السماء فإذا ملك ينزل فقال جبريل: إن هذا الملك ما نزل من يوم خلق قبل الساعة^(٣))، فلما نزل قال: يا محمد أرسلني إليك ربك قال: أفملكنا نبيا يجعلك أو عبدا رسولا؟ فقال جبريل: تواضع لربك يا محمد. قال: بل عبدا رسولا^(٤). وهذا الحديث لا ينافي كون جبريل عليه السلام هو الواسطة بين الله تعالى والنبي ﷺ إذ أن هذا الملك^(٥) إنما نزل في هذه الحادثة المخصوصة، وهذا التخيير المعين، وفي جلوس جبريل عليه السلام مع النبي ﷺ أو أن نزول هذا الملك الكريم دلالة قوية على هذا المعنى.

٣- وروى مسلم في صحيحه عن عائشة زوج النبي ﷺ أنها قالت لرسول الله ﷺ: يا رسول الله: هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ فقال: (لقد لقيت من قومك، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي فلم أستفق إلا بقرن الثعالب^(٦)) فرفعت رأسي فإذا بسحابة قد أظلمتني، فنظرت فإذا فيها جبريل فناداني فقال: إن الله عز وجل قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، قال: فناداني ملك الجبال، وسلم علي، ثم قال: يا محمد: إن الله قد سمع قول قومك لك، وأنا ملك الجبال وقد بعثي ربي إليك لتأمرني بأمرك

(١) رواه مسلم. انظر صحيح مسلم بشرح النووي كتاب صلاة المسافر وقصرها باب فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة ٩١/٦

(٢) انظر تفسير القرطبي ١/١١٦، والحياتك للسيوطي ص ١٧، وتفسير آيات القرآن عن علاقة الملائكة بالإنسان ص ٥٠ (٣) أي لم ينزل قبل هذه الساعة.

(٤) رواه الإمام أحمد ٢/١٣١، واللفظ له، والبيهقي انظر كشف الأستار عن زوائد البزار ٣/١٥٥، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٩/٢١، رواه أحمد والبزار وأبو يعلى، ورجال الأولين رجال الصحيح، وقال ابن كثير: هذا حديث غريب من هذا الوجه. انظر البداية والنهاية ١/٤٥، وصححه الشيخ الألباني. انظر السلسلة الصحيحة ٣/٣ برقم (١٠٠٢).

(٥) ورد في بعض المصادر أن هذا الملك هو إسرافيل. انظر فتح الباري ٦/٣٠٨، والحياتك ص ١٧ (٦) قرن الثعالب: هو قرن المنازل، جبيل على مرحلتين من مكة، وهو ميسقات أهل نجد. انظر معجم البلدان ٥/٢٣٤

فما شئت؟ إن شئت أطبق عليهم الأخشبين^(١). فقال له رسول الله (: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا)^(٢).

٤- وعن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ : (أتاني ملك فسلم علي -نزل من السماء ولم ينزل قبلها- فبشرني أن الحسن، والحسين سيذا شباب أهل الجنة، وأن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة)^(٣).

فدللت هذه الأحاديث -بمجموعها على أن الله تعالى قد أرسل ملائكة إلى النبي ﷺ، ولا ينافي إرسالهم كون جبريل عليه السلام -هو الواسطة على الخصوص كما مر بيانه، وهناك من جعل الملائكة كلهم واسطة بين الله والرسول، فقال : (الملائكة عباد الله ليسوا بذكور ولا إناث، مكرمون عند الله، متوسطون بينه وبين أنبيائه)^(٤).

ويرى شيخ الإسلام ابن تيمية أن الملائكة كلهم رسل باعتبار، وأما المصطفون منهم فباعتبار إرسالهم بالوحي فقط^(٥). وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه ذكر الملائكة فقال : (منهم الأمانة على وحي الله، والحفظة لعباد الله)^(٦)؛ لكن الراجح أن الموكل بتبليغ الوحي إلى الأنبياء من بين سائر الملائكة هو جبريل عليه السلام وأن نزول غيره من الملائكة لهذا الغرض إنما كان في حالات نادرة، وحوادث مخصوصة ليست على سبيل الانفراد والاستقلال، وإنما كانت على سبيل التبعية، والمشاركة لجبريل عليه السلام، وفيما يلي بيان أن جبريل عليه السلام كان واسطة بين الله تعالى ورسوله عليهم الصلاة والسلام من الذين صرح القرآن بنزوله عليهم :

(أ) فمنهم إبراهيم عليه السلام: ذكر الحافظ ابن كثير وغيره من المفسرين عند تفسير قول الله تعالى في سورة الصافات : ﴿وَقَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ﴾^(٧) أن الله تعالى لما أمر إبراهيم بذبح ابنه -عليهما السلام- فصرعه على وجهه ليذبحه أرسل الله إليه جبريل عليه السلام وفداه الله بكبش أبيض أقرن، أعين، ولما ذبح إبراهيم الكبش قال جبريل : الله أكبر، الله

(١) هما جبلا مكة : أبو قبيس، والجبل الذي يقابله . انظر معجم البلدان ١/١٤٩

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي كتاب الجهاد والسير باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين ١٢/١٥٤

(٣) أخرجه الترمذي في سننه ٥/٦٦٠، وقال : هذا حديث حسن غريب، وصححه الشيخ الألباني . في صحيح سنن الترمذي ٣/٢٢٥ برقم ٢٩٧٥، والسلسلة الصحيحة ٢/٤٣٨ برقم (٧٩٦)، وصحيح الجامع الصغير ١/٧٧ برقم (٧٩).

(٤) تنوير الأذهان في تفسير روح البيان للبروسوي ١/١٣٣

(٥) فتح الباري ٦/٣٠٨

(٦) انظر النبوات ص ٢٨٣

(٧) الآية ١٠٧

أكبر، وقيل: إن الشيطان عرض لإبراهيم عليه السلام عند السعي فسابقه الشيطان، فسبق إبراهيم عليه السلام، ثم ذهب به جبريل عليه السلام إلى جمرة العقبة^(١). وأورد البيهقي في شعبه عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال: (نزل جبريل على إبراهيم عليه السلام فراح به وذكر الحديث بنحوه، وزاد: ثم أفاض به حتى أتى به الجمرة فرماها، ثم ذبح، وخلق، ثم أتى به البيت وطاف به)^(٢).

فيفهم من قصة الذبيح هذه وبيان المناسك أن جبريل عليه السلام كان واسطة بين الله تعالى ونبیه إبراهيم عليه السلام في فداء الله تعالى لابنه إسماعيل^(٣) بذبح عظيم وبيان مناسك الحج للخليل عليه السلام.

(ب) ومنهم لوط عليه السلام: ذكر الله تعالى في كتابه العزيز قصة لوط عليه السلام مع قومه الذين ابتلاهم الله بعمل الفاحشة، وهي إتيان الرجال شهوة من دون النساء، والعياذ بالله فقال تعالى:

١- ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا^(٤) وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ^(٥)﴾ (٧٧) وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ^(٦) إِلَيْهِ وَمَنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزَوْنَ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ^(٧) قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ^(٨) قَالَ لَوْ أَنِّي لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ^(٩) قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصْلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَاتُكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ^(١٠)﴾ (٨).

٢- قال تعالى: ﴿وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجُونَكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أَمْرَاتُكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ^(١١)﴾ (٣٣) إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ

(١) أورده البيهقي في الشعب ٣/ ٤٦٥، وانظر تفسير النسفي ٣/ ٢٦، وتفسير ابن كثير ٤/ ١٧.

(٢) الجامع لشعب الإيمان ٣/ ٤٦٤.

(٣) اختلف في الذبيح من هو؟ فقال قوم: إنه إسحاق بن إبراهيم. وقال آخرون: إنه إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام. وقد رجح هذا القول ابن كثير في تفسيره. انظر ٤/ ٢٠، وذكر الشوكاني أدلة كل من الفريقين؛ إلا أنه لم يرجح أحد القولين. انظر تفسير الشوكاني ٤/ ٤٠٣، وتفسير السعدي ٦/ ١٩١، وأضواء البيان ٦/ ٦٩١.

(٤) ضاق بهم ذرعا: أي ضاق صدره، أو وسعه، وطاقته بمجيئهم. انظر تفسير الشوكاني ٢/ ٥١٣.

(٥) عَصِيب: أي شديد. انظر المفردات ص ٣٣٦ مادة (عصب).

(٦) يهرعون: أي يسرعون إليه. انظر المفردات ص ٥٤٢ مادة (هرع).

(٧) أي بطائفة وجزء. انظر تفسير الشوكاني ج ٢/ ١٥٥ (٨) سورة هود الآيات (٧٧-٨١).

(٩) الغابرين: الباقيين في العذاب. انظر المفردات ص ٣٥٧ مادة (غبر) وتفسير الشوكاني ٤/ ٢٠١.

رَجْزًا ^(١) مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ^(٢).

في هاتين الآيتين يبين الله عز وجل أنه أرسل ملائكة مع جبريل عليهم السلام إلى نبي الله لوط (في صورة البشر وغاية في الجمال ، وأن قومه الضالين طمعوا في النيل منهم ، وهموا بعمل الفاحشة بهم ، فضاق صدر لوط عليه السلام بهذا المجيء خوفاً على ضيوفه ، ثم أخبروه أنهم ملائكة الله عز وجل ، أرسلهم الله لإنقاذ لوط ومن آمن معه وإهلاك قومه ، فطمس جبريل عليه لاسلام على أعين قوم لوط فخرجوا عمياً لا يبصرون ، وأمر الملائكة لوطاً بأن يخرج ليلاً من القرية هو وأهله ، ولا يلتفت منهم أحد إلا امرأته فإنه مصيبها ما أصاب القوم من العذاب الأليم ، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر ، وذلك أن جبريل عليه السلام رفع قريتهم إلى السماء حتى سمعت الملائكة صياح ديكتهم ثم قلبها عليهم ، وأرسل الله عليهم حجارة من السماء زيادة في عذابهم ^(٣) .
فيفهم من هذه القصة أن جبريل (كان واسطة بين الله تعالى ورسوله لوط عليه السلام وقد شاركة بعض الملائكة في هذه المهمة .

(جـ) ومنهم زكريا عليه السلام: ذكر الله في كتابه العزيز وحيه لنبيه زكريا بواسطة الملائكة : فقال تعالى : ﴿ هَئِلِكَ دَعَا زَكْرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ ^(٤) فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا ^(٥) وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ^(٥) .

وقد اختلف المفسرون في المراد بالملائكة هنا على قولين : -

القول الأول: أن المراد جبريل ، ومن قال بهذا القول السدي ^(٦) رحمه الله ^(٧) . واحتج أهل هذا القول بقراءة ابن مسعود رضي الله عنه : ﴿ فَنَادَاهُ جَبْرِيْلُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ ﴾ ^(٨) .

(١) الرجز : العذاب الشديد كالزلزلة . انظر المفردات ص ١٨٨ مادة (زجر) وتفسير الشوكاني ٢٠٢ / ٤

(٢) سورة العنكبوت الآيتان (٣٣-٣٤) .

(٣) انظر تفسير القرطبي ٢٤٧ / ٧ ، ومجموع الفتاوى ٣٧٦ / ٤ ، وتفسير الشوكاني ١٧ / ٢

(٤) حصورا : يمنع نفسه ويحبسها عن النساء ابتغاء مرضاة الله عز وجل . انظر تفسير الطبري ٣٧٦ / ٦

(٥) سورة آل عمران الآيتان (٣٨-٣٩) .

(٦) هو أبو محمد إسماعيل بن عبد الرحمن بن أبي كريمة الهاشمي السدي الكوفي روى عن ابن عباس ، وأنس

رضي الله عنهما توفي ١٣٧ هـ انظر طبقات المفسرين للدوادوي ١٠٩ / ١ ، ومعجم المؤلفين ٣٦٨ / ١

(٨) انظر تفسير الشوكاني ٣٣٩ / ١

(٧) انظر تفسير الطبري ٣٦٤ / ٦



القول الثاني: أن المنادي لزكريا جمع من الملائكة ذكر ذلك الطبري عن قتادة والربيع^(١) - رحمه الله تعالى - وغيرهما^(٢)، ثم قال الطبري: (والظاهر أنها جماعة من الملائكة أكثر من واحد، ولا يجوز أن يحمل تأويل القرآن إلا على الأظهر والأكثر المستعمل في ألسن العرب دون الأقل)^(٣).

وجمع بعضهم بين القولين فقال: إنه لا يبعد أن يكون المعنى: أن الله أرسل إلى زكريا جمعا من الملائكة، وتكلم أحدهم وهو جبريل عليه السلام^(٤)، وهذا مثل قول الله تعالى لموسى وهارون: ﴿فَاتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٥)، وقد تكلم أحدهما وهو موسى عليه لاسلام لقول الله تعالى: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾^(٦).

فيؤخذ من هذه الآية أن الله سبحانه وتعالى قد أرسل جبريل في جمع من الملائكة واسطة بينه وبين زكريا عليه السلام.

(د) ومنهم موسى عليه السلام: من المعلوم أن موسى عليه السلام قد أوحى الله تعالى إليه التوراة مباشرة من غير واسطة وكلمه ربه تكليما^(٧) فقال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾^(٨)، وقال في الآية الأخرى: ﴿قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي

(١) هو الربيع بن أنس البكري روى عن أنس وجابر وابن عمر رضي الله عنهم توفي عام ١٤٠ هـ وقيل غير ذلك.

انظر الطبقات الكبرى لابن السعد ٣٦٩/٧، وتهذيب التهذيب ٢٣٨/٣

(٢) انظر تفسير الطبري ٣٦٥/٦ (٣) تفسير الطبري ٣٦٥/٦

(٤) انظر تفسير الشوكاني ٣٣٧/١ (٥) سورة الشعراء الآية ١٦

(٦) سورة الشعراء الآية ١٨

(٧) ومنزلة التكليم الثابتة لموسى عليه السلام قد شاركه فيها نبينا محمد ﷺ كما ثبت ذلك في حديث الإسراء، وكذلك آدم عليه السلام قال شيخ الإسلام ابن تيمية في رده على قول ابن إسرائيل: (الأمر أمران أمر بواسطة وأمر بغير واسطة) أن مضمون هذا الكلام أن الأمر بواسطة هو الأمر الشرعي الديني والذي بلا واسطة هو الأمر القدر الكوني، وجعله أحد الأمرين بواسطة والآخر بغير واسطة كلام باطل فإن الأمر الديني يكون بواسطة وبغير واسطة، فإن الله كلم موسى وأمره بلا واسطة وكذلك كلم محمدا صلى الله عليه وسلم وأمره ليلة المعراج، وكذلك كلم آدم وأمره بلا واسطة وهي أوامر دينية شرعية)) مجموع الفتاوى ٣٢٠/٢ وذكر الشيخ محمد الأمين الشنقيطي: أن تكليم آدم قد بينه القرآن في قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ سورة البقرة الآية ٣٥، وأمثالها من الآيات فإنه ظاهر في أنه بغير واسطة من الملائكة. وقال ابن القيم في نونية:-

وهو المكلم عبده موسى بتكليم الخياط وقبلة الأوبان

انظر أعلام النبوة للماوردي ص ٤٦، والنبوات لشيخ الإسلام ابن تيمية ص ١٩١، ومجموع الفتاوى له ٣٢٠/٢، ومتن القصيدة النونية ص ٢٠٤، وشرح العقيدة الطحاوية ص ٢٩٥، وأضواء البيان ١٩٤/١

(٨) سورة النساء الآية ١٦٤

وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتَكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١﴾، إلا أنه ثبت أن جبريل (قد نزل على موسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام فقد روى البخاري في صحيحه في قصة بدء الوحي ونزول جبريل على نبينا محمد ﷺ أول ما نزل، وذهاب خديجة رضي الله عنها بالنبى ﷺ إلى ابن عمها ورقة بن نوفل أن ورقة قال للنبى ﷺ: (هذا الناموس ^(٢) الذي نزل الله على موسى) ^(٣) .

وقال الحافظ ابن حجر في شرحه للحديث: (لأن نزول جبريل على موسى متفق عليه بين أهل الكتاب) ^(٤) .

ولعل الجمع بين كلام الله تعالى لموسى عليه السلام من غير واسطة وإرسال جبريل عليه السلام إليه يكون من وجهين :-

الوجه الأول: أن الله تعالى قد أنزل التوراة على موسى مباشرة وكلمه بها تكليما من غير واسطة من الملائكة .

الوجه الثاني: أن الله تعالى أرسل جبريل واسطة بينه وبين موسى عليه السلام في شأن بعض الحوادث المخصوصة، وليس في تبليغ الوحي، كما كان ينزل على غيره من الرسل، والله تعالى أعلم .

كما صح أن الله تعالى أرسل ملك الموت واسطة بينه وبين موسى - عليه السلام - فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (أرسل ملك الموت إلى موسى - عليه السلام - فلما جاءه صكه، فرجع إلى ربه فقال: أرسلتني إلى عبد لا يريد الموت، فرد الله عليه عينه، وقال: ارجع فقل له: يضع يه على متن ثور، فله بكل ما غطت به يده بكل شعرة سنة، قال: أي رب، ثم ماذا؟ قال ثم الموت، قال: فالآن، فسأل الله أن يدينه من الأرض المقدسة برمية حجر، قال: قال رسول الله ﷺ: فلو كنت ثم لأريتكم قبره إلى جانب الطريق عند الكثيب الأحمر) ^(٥) .

(١) سورة الأعراف الآية ١٤٤

(٢) الناموس: صاحب السر والمراد به هنا جبريل (، قال الرازي في مختار الصحاح (وأهل الكتاب يسمون

جبريل (الناموس) ص ٦٨٠ مادة (ن م س) وانظر المصباح المنير ٢/٦٢٦ مادة (ن م س)

(٣) صحيح البخاري مع الفتح كتاب بدء الوحي ١/٢٢، حيث (٣) .

(٤) فتح الباري ١/٢٦، وانظر لوامع الأنوار ١/١٦٩

(٥) رواه البخاري انظر صحيح البخاري مع الفتح كتاب الجنائز باب ما أحذب الدفن في الأرض المقدسة، أو

نحوها ٣/٢٠٦، حديث ١٣٣٩، ومسلم انظر صحيح مسلم بشرح النووي كتاب الفضائل باب فضائل موسى

عليه السلام ١٥/١٢٧



(هـ) ومنهم عيسى عليه السلام: ذكر الله تعالى في كتابه العزيز أنه أرسل جبريل إلى عيسى عليهما السلام، وذلك في آيتين من القرآن الكريم:

١- الآية الأولى: قوله الله تعالى: ﴿وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾^(١).

٢- الآية الثانية: قول الله تعالى: ﴿اذْكُرْ نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾^(٢).

وروح القدس في الآيتين المراد به جبريل عليه السلام. قال الإمام الشوكاني: (قد يسمى من تظهر منه الأشياء العجيبة روحاً ويضاف إلى الله فيقال: هذا روح من الله أي من خلقه، كما يقال في النعمة إنها من الله)^(٣). فتبين بهاتين الآيتين أن الله تعالى أرسل جبريل عليه السلام واسطة بينه وبين كلمته عيسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام.

(و) ومنهم خاتم النبيين محمد ﷺ: ما من شك في أن جبريل عليه السلام واسطة بين الله تعالى وبيننا محمد ﷺ في نزول الوحي وتبليغ الرسالة، إلا في حالات نادرة وحوادث مخصوصة شاركه فيها غيره من الملائكة، كما سبقت الإشارة إلى ذلك. وسوف أبين في الصفحات التالية ما يدل على ذلك من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية. فمن ذلك: -

١- قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾^(٤).

فقد ثبت في بيان سبب نزول هذه الآية أن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (أقبلت يهود إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا أبا القاسم: إنا نسألك عن أشياء فإن أنبأنا بهن عرفنا أنك نبي واتبعناك، قال: فأخذ عليهم ما أخذ إسرائيل على بنيهِ أن قال: الله على ما نقول وكيل، قالوا: فأخبرنا من صاحبك الذي يأتيك من الملائكة؟ فإنه ليس من نبي إلا يأتيه ملك بالخبر فنحن نبأعك إن أخبرتنا قال: جبريل، قالوا: ذاك الذي ينزل بالحرب، والقتال، ذاك عدولنا، لو قلت ميكائيل الذي ينزل بالنبات، والقطر والرحمة. فأنزل الله عز وجل: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ

(٢) سورة المائدة الآية ١١٠

(١) سورة البقرة الآية ٨٧

(٣) تفسير الشوكاني ١/ ٥٤٠، وللتوسع في بيان معنى روح القدس.

(٤) سورة البقرة الآية ٩٧

قَلْبِكَ ﴿١﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ (٢).

ومن الآيات الدالة على نزول جبريل عليه السلام بالوحي على النبي ﷺ واسطة بينه وبين ربه عز وجل :-

٢- قول الله تعالى : ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ (٣).

٣- وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَنَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٦) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٧) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (١٩٨) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾ (٤).

٤- وقوله تعالى : ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (٤) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى (٥) ذُو مِرَّةٍ (٥) فَاسْتَوَى (٦) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى (٧) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ (٦) أَوْ أَدْنَى (٩) فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى ﴾ (٧).

وأخرج الشيخان عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : (كان رسول الله ﷺ إذا نزل جبريل عليه بالوحي يحرك لسانه وشفتيه فيشتد عليه ، فكان ذلك يعرف منه فأنزل الله تعالى : ﴿ لَا تَحْرِكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦) إِنْ عَلَيْنَا جَمْعُهُ وَقُرْآنُهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأَهُ فَأَتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴾ (٨) فكان إذا أتاه جبريل أطرق ، فإذا ذهب قرأه كما وعده الله (٩) .

٥- وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (١٠) ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠) مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ (٢١) وَمَا صَاحِبُكُمْ (١١) بِمَجْنُونٍ (٢٢) وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ ﴾ (١٢).

(١) سورة البقرة الآية ٩٧

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند ١/٣٧٤ ، والترمذي في سننه ٥/٢٩٤ وقال : هذا حديث حسن غريب ، والطبري في تفسيره ١/٣٧٧ ، والبيهقي في دلائل النبوة ٦/٣٦٦ ، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/٢٤٤ ، وقال : رواه أحمد ، والطبراني ، ورجالهما ثقات ، وصحح إسناده أحمد شاكر محقق تفسير الطبري . انظر ١/٣٧٨

(٣) سورة النحل الآية ١٠٢ (٤) سورة الشعراء الآيات (١٩٢-١٩٥) .

(٥) ذو مرة : أي قوة في الجسم والعقل ، كأنه محكم القتل من فرط قوته . انظر المفردات ص ٤٦٥ مادة (م ر ر) ومختار الصحاح ص ٦٢١ مادة (م ر ر)

(٦) قاب قوسين : أي يقدرهما إذا رمى ، وقيل القاب ما بين وتر القوس إلى مقبضها . انظر المفردات ص ٤١٤ مادة (قاب) وتفسير ابن كثير ٤/٢٦٦

(٧) سورة النجم الآيات (٣-١٠) . (٨) سورة القيامة الآيات (١٦-١٩) .

(٩) أخرجه البخاري ، كتاب بدء الوحي ١/٢٩ الباب الخامس حديث ، ومسلم واللفظ له ، ومسلم بشرح النووي كتاب الصلاة باب الاستماع للقراءة ٤/١٦٥

(١٠) أي جبريل عليه السلام انظر تفسير ابن كثير ٤/٤٨٠ (١١) أي نبينا محمد ﷺ انظر تفسير ابن كثير ٤/٤٨١

(١٢) سورة التكوين الآيات (١٩-٢٣) .

وقد كان نزول جبريل رضي الله عنه على النبي ﷺ على أشكال:-

أولاً: فمن تلك الأشكال أنه كان يأتيه على صورة غير مرئية، ويقع كلامه على قلب النبي (فيعي ما يقول، ولا يرى الصحابة جبريل عليه السلام والحالة هذه، ولكن تظهر لهم علامات تدل على أن النبي ﷺ يوحى إليه ومن هذه العلامات:-

(أ) خروج العرق من جسمه الشريف ﷺ في اليوم البارد، ففي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت: (إن كان يُنزلُ على رسول الله ﷺ في الغداة الباردة ثم تفيض جبهته عرقاً) (١).

(ب) تغير وجهه الشريف ﷺ ففي صحيح مسلم عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: (كان نبي الله إذا أنزل عليه الوحي كرب (٢) لذلك وتربد (٣) وجهه) (٤).

(ج) ثقل جسمه الشريف ﷺ فعن أسماء بنت يزيد رضي الله عنها قالت: (إني لأخذة بزمام العضباء ناقة رسول الله ﷺ إذ أنزلت عليه المائدة كلها، فكادت من ثقلها تدق عضد الناقة) (٥) وروى البخاري في صحيحه عن زيد بن ثابت رضي الله عنه أنه قال: (أنزل على رسول الله ﷺ وفخذه على فخذي فتقلت علي حتى خفت أن ترض (٦) فخذي) (٧).

ثانياً: وقد يراه على صورته التي خلق عليه.

فقد ثبت أنه ﷺ أي جبريل على صورته التي خلق عليها مرتين، فقد روى مسلم بسنده عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: (إن النبي ﷺ لم ير جبريل في صورته التي خلق عليها إلا مرتين: مرة عند سدره المنتهى، ومرة في جياذ (٨) له ستمائة جناح قد سد الأفق) (٩).

(١) رواه البخاري انظر صحيح البخاري مع الفتح كتاب بدء الوحي ١/١٨ الباب الثاني (حديث ٢) ومسلم واللفظ

له، انظر صحيح مسلم بشرح النووي كتاب الفضائل باب طيب عرقه ﷺ والترك به ١٥/٨٦

(٢) كرب: أي أصابه الكرب من شدة الوحي. انظر النهاية في غريب الحديث ٤/١٦١ مادة (كرب).

(٣) تربد وجهه: تغير إلى الغبرة، وقيل الربرة: لون بين السواد والغبرة. انظر النهاية في غريب الحديث ٢/١٨٣ مادة (ربد).

(٤) رواه مسلم، انظر صحيح مسلم بشرح النووي كتاب الفضائل باب طيب عرقه ﷺ ١٥/٨٨

(٥) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٤٥٥/٤، وأشار إليه ابن حجر في شرحه لصحيح البخاري، انظر فتح الباري ١/٢١، وتفسير ابن كثير ٢/١٢٦

(٦) الرض: الكسر. انظر مختار الصحاح ص ٢٤٥ مادة (رض ض).

(٧) رواه البخاري، كتاب الصلاة باب ما يذكر في الفخذ ٤٧٨/١ حديث (رقم ١٢).

(٨) جياذ: ويقال له أجياذ واد بمكة. انظر معجم البلدان ١/١٠٤

(٩) رواه مسلم، انظر صحيح مسلم بشرح النووي كتاب الإيمان باب معنى قوله عز وجل ﴿ولقد رآه نزلة أخرى﴾

وانظر فتح الباري ١/٢٣، وتفسير ابن كثير ٤/٢٦٥، والرسول والوحي لمحمد المسير ص ٢٨٧

ثالثا: وقد يتمثل جبريل للنبي ﷺ في صورة رجل فيكلمه بالوحي ومن ذلك:-

١- تمثل جبريل عليه السلام بصورة الصحابي دحية بن خليفة الكلبي رضي الله عنه ، وكان معروفا بجماله ، فقد روى الإمام أحمد عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : (كان جبريل عليه السلام يأتي النبي ﷺ في صورة دحية)^(١).

٢- وقد يأتيه على صورة رجل غير معروف ومن ذلك ما ثبت في صحيح مسلم من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : (بينما نحن جلوس عند النبي ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد حتى جلس إلى النبي ﷺ فأسد ركبته إلى ركبته ، ووضع كفيه على فخذيه) وساق عمر الحديث إلى أن قال في آخره : (ثم انطلق فلبث مليا)^(٢) ثم قال لي: يا عمر أتدري من السائل؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم)^(٣).

وقد جمع النبي ﷺ بين الشكلين: الأول، والثالث^(٤) في قوله: (أحيانا يأتيني مثل صلصلة^(٥) الجرس وهو أشده علي فيفصم^(٦) عني وقد وعيت ما قال، وأحيانا يتمثل لي الملك رجلا فيكلمني فأعي ما يقول)^(٧).

وبهذه الأشكال الثلاثة ثبت نزول جبريل عليه السلام على النبي ﷺ واسطة بينه وبين ربه عز وجل في إبلاغ الوحي .

المطلب الثالث: الملائكة واسطة بين الله تعالى وغير الأنبياء.

يخبرنا القرآن الكريم أن الله سبحانه وتعالى أرسل بعض الملائكة المقربين ، واسطة منه تعالى إلى أشخاص من البشر ليسوا بأنبياء ، تشريفا لهم وتكريما ، وأن أولئك الملائكة عليهم السلام جاءت وساطتهم بالبشارة ، والندارة ، والابتلاء لهؤلاء الأشخاص . ونريد أن نبين تلك الوساطات في النقاط التالية :-

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند ١٠٧/٢ ، وصححه إسناده الحافظ ابن حجر في الإصابة ٤٧٣/١ ، كما صححه

محقق المسند الشيخ أحمد شاكر . انظر المسند ١٣٢/٨

(٢) مليا : أي وقتا طويلا . انظر النهاية في غريب الحديث ٤/٣٦٣ مادة (ملا) .

(٣) سبق تخريجه .

(٤) وهما مجيء جبريل رضي الله عنه في صورة غير مرئية ومعينة في صورة رجل من بني آدم .

(٥) الصلصلة : الصوت . انظر النهاية في غريب الحديث ٤/٤٦ مادة (صلصل) .

(٦) الفصم : القطع . انظر النهاية في غريب الحديث ٣/٤٥٢ مادة (فصم) .

(٧) رواه البخاري . مع الفتح كتاب بدء الوحي ١/١٨ الباب الثاني حديث (رقم ٢) .

أولاً: وحي الله إلى سارة بنت هارون عم إبراهيم عليه السلام: لما ذكر الله تعالى قصة ملائكته الذين أرسلهم إلى إبراهيم عليه السلام ذكر في أثنائها أنهم خاطبوا زوجها سارة، وبشروها بولدها إسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب؛ وذلك في آيتين من كتاب الله العزيز.

الآية الأولى: قول الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ قَوْمَ لُوطٍ (٧٠) وَامْرَأَتَهُ قَائِمَةً فَضَحِكْتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (٧١) قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (٧٢) قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مُّجِيدٌ (٧٣) ﴾.

الآية الثانية: قوله تعالى: ﴿ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (٧٤) فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صُرَّةٍ (٧٥) فَصَكَّتْ (٧٦) وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ (٧٧) قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (٧٨) ﴾.

فتبين من هاتين الآيتين أن الله تعالى أوحى إلى سارة بواسطة هؤلاء الملائكة الذين بشروها بأنها ستلد إسحاق، رغم كبر سنّها، وشيخوخة بعلها، وأن إسحاق سيولد له ولد يسمى يعقوب.

ثانياً: وحي الله إلى مريم ابنة عمران عليها السلام. اقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى أن يولد عيسى بن مريم عليه السلام من أم دون أب؛ ليكون ذلك دليلاً مشاهداً على عظم قدرة الله عز وجل، ولما كانت مريم عليها السلام هي الأم التي قدر الله ولادتها لهذا النبي الوجيه أرسل الله إليها الملائكة مراراً، وقد بينت آيات القرآن الكريم ذلك في عدة مواضع، فمن تلك الآيات:-

- ١- قول الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (٤١) يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٢) ﴾.
- ٢- وقوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى

(١) سورة هود الآيات (٧٠-٧٣).

(٢) أي في صرخة عظيمة، وقيل في جماعة من الناس. انظر المفردات ص ٢٧٩ مادة (ص ر).

(٣) فصكت وجهها: أي ضربت يدها على وجهها تعجباً كما جرت بذلك عادة النساء. انظر تفسير الشوكاني

(٤) سورة الذاريات الآيات (٢٨-٣٠).

(٥) سورة آل عمران الآيتان (٤٢-٤٣).

ابن مريم وجيها في الدنيا والآخرة ومن المقربين (٤٥) ويكلم الناس في المهد وكهلاً ومن الصالحين (٤٦) قالت رب أنى يكون لى ولد ولم يمسنى بشر قال كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمراً فإنما يقول له كُن فيكون (١).

٣- وقوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (١٧) قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا (١٨) قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا (١٩) قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكْ بَغِيًّا (٢٠) قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا (٢١)﴾ (٢).

ثبت من هذه الآيات أن الملائكة أوحى إلى مريم، ثلاث مرات، واسطة بينها وبين الله تعالى، وفي بعض هذه المرات كانت الواسطة جمعاً من الملائكة بصيغة العموم، وفي المرة الثالثة في سورة مريم كان الواسطة هو جبريل عليه السلام، حيث تمثل لمريم على صورة رجل تام الخلقة، وأخبرها أنه رسول من عند الله تعالى؛ ليهب لها غلاماً زكياً (٤).

ولا يفهم من وحي الله إلى كل من سارة، ومريم، بواسطة الملائكة أنه توجد نبية من النساء؛ لأن النبوة لا تثبت لأحد من البشر إلا بدليل، ولا يوجد دليل على نبوة واحدة من النساء؛ بل القرآن قصر الرسالة على الرجال دون النساء، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِي إِلَيْهِمْ﴾ (٥)، وهذا هو قول جمهور أهل العلم وهو الراجح (٦).

وهناك من ذهب إلى أنه يوجد في النساء نبيات، وهذا رأي أبي الحسن الأشعري، وابن حزم، والقرطبي، واتفقوا على نبوة مريم ابنة عمران عليها السلام، وزاد ابن حزم القول بنبوة حواء، وسارة أم إسحاق، وهاجر، وآسية امرأة فرعون، وأم موسى (٧).

ثالثاً: الملك الذي أرسله الله إلى الرجل الذي أحب أخاه في الله. روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ (أن رجلاً زار أخاه في قرية أخرى

(١) سورة آل عمران الآيات (٤٥-٤٧).

(٢) بغيا: أي زانية وفاجرة. انظر المفردات ص ٥٥ مادة (بغيا).

(٣) سورة مريم الآيات (١٧-٢١).

(٤) انظر تفسير آيات القرآن عن علاقة الملائكة بالإنسان ص ١٠٠

(٥) سورة يوسف الآية ١٠٩

(٦) انظر شرح النووي لصحيح مسلم ١٥/١٩٨، والنبوات لشيخ الإسلام ابن تيمية ص ٣ وتفسير ابن كثير ٢/٤٩٢، ولوامع الأنوار ٢/٢٦٥

(٧) انظر -للتوسع- في معرفة أدلة هذا الفريق في الفصل لابن حزم ٥/١٧، وفتح الباري ٦/٤٧٣، وتفسير القرطبي ٤/٨٣، وفلسفة النبوة لأدم الألوري ص ١٤٦، وتفسير آيات القرآن عن علاقة الملائكة بالإنسان ص ١٠٢

فأرصد الله له على مدرجته^(١) ملكا فلما أتى عليه قال: أين تريد؟ قال: أريد أخا لي في هذه القرية، قال: هل لك عليه من نعمة تربُّها؟^(٢) قال: لا، غير أنني أحببته في الله عز وجل، قال: فلاني رسول الله إليك بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه^(٣).

فثبت بهذا الحديث أن الله تعالى قد أرسل ملكا من ملائكته، واسطة بينه، وبين هذا الرجل الصالح ليعلمه فضل الحب في الله تعالى، ومنزلة المتحابين فيه.

رابعا: الملك الذي بعثه الله إلى الأبرص، والأقرع، والأعمى في بني إسرائيل لابتلائهم: روى البخاري، ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هريرة (أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: (إن ثلاثة في بني إسرائيل أبرص، وأقرع، وأعمى بدا لله عز وجل أن يتليهم، فبعث إليهم ملكا فأتى الأبرص فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال لون حسن، وجلد حسن، قد قذرتني الناس، قال فمسحه، فذهب عنه، فأعطني لونا حسنا، وجلدا حسنا، فقال: أي المال أحب إليك؟ قال: الإبل -أو قال البقر- فأعطني ناقة عُسْرَاء^(٤)، فقال: يبارك لك فيها. وأتى الأقرع فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: شعر حسن، ويذهب عني هذا الذي قذرتني الناس، قال: فمسحه فذهب، وأعطني شعرا حسنا، وقال: أي المال أحب إليك؟ قال: البقر، قال فأعطاه بقرة حاملا، وقال: يبارك لك فيها. وأتى الأعمى فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: يرد الله إلي بصري، فأبصر به الناس، قال: فمسحه فرد الله إليه بصره، قال: فأني المال أحب إليك؟ قال: الغنم، فأعطاه شاة والدا. فأتى هذان، ووُكِّدَ هذا. فكان لهذا واد من الإبل، ولهذا واد من البقر، ولهذا واد من الغنم، ثم إنه أتى الأبرص في صورته، وهيئته فقال: رجل مسكين تقطعت به الحبال^(٥) في سفره، فلا بلاغ اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن، والجلد الحسن، والمال

(١) المدرجة: الطريق، انظر شرح النووي لصحيح مسلم ١٢٤/١٦، والذيل على النهاية في غريب الحديث لابن علوش ص ١٦٥

(٢) تربُّها: أي تقوم بإصلاحها وتهض إلى سبب ذلك؟ انظر النهاية في غريب الحديث ١٨٠/٢، مادة رب ي (٣) أخرجه مسلم، انظر صحيح مسلم بشرح النووي كتاب البر والصلة والآداب باب فضل الحب في الله تعالى ١٢٤/١٦

(٤) ناقة عُسْرَاء: هي التي مر على حملها عشرة أشهر من يوم طردها الفحل. انظر مختار الصحاح ص ٤٣٤ مادة (ع ش ر) والمصباح المنير ٤١١/٢ مادة (العشر).

(٥) الحبال: جمع حبل وهي الأسباب التي يقطعها في طلب الرزق، وقيل العقبات، وقيل الحبل ما طال من الرمل وامتد واجتمع وارتفع. قال الشاعر:

فراح بها من ذي المجاز عشية يبادر أولى السابقات إلى الحبل

انظر المصباح المنير ١١٩/١ مادة (الحبل) وفتح الباري ٥٠٢/٦

بعيرا أتبلغ به في سفري، فقال له: إن الحقوق كثيرة، فقال له: كأني أعرفك، ألم تكن أبرص يقذرک الناس، فقيرا، فأعطاك الله؟ فقال: لقد ورثت لكابر عن كابر، فقال: إن كنت كاذبا فصيرک الله إلى ما كنت. وأتى الأقرع في صورته وهيئته، فقال له مثل ما قال لهذا، فرد عليه هذا، فقال: إن كنت كاذبا فصيرک الله إلى ما كنت. وأتى الأعمى في صورته فقال: رجل مسكين وابن السبيل وتقطعت به الحبال في سفره، فلا بلاغ اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذي رد عليك بصرك شاة أتبلغ بها في سفري، قال له: قد كنت أعمى فرد الله بصري، وفقيرا فقد أغنانني، فخذ ما شئت فوالله لا أجهدك^(١) اليوم بشيء أخذته لله، فقال أمسك مالك، فلما ابتليتم، فقد رضي الله عنك وسخط على صاحبك^(٢).

فدل هذا الحديث على أن الله تعالى قد بعث ملكا من ملائكته واسطة بينه وبين هؤلاء الثلاثة نفر من بني إسرائيل لابتلائهم، وامتحانهم، وأنه أتاهم على صورة رجل من البشر.

خامسا: ملائكة الليل، وملائكة النهار الذين يتعاقبون في بني آدم: فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل، وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الفجر، وصلاة العصر، ثم يعرج الذين باتوا فيكم، فيسألهم -وهو أعلم بهم- كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم، وهم يصلون، وأتيناهم، وهم يصلون)^(٣).

وذكر الحسن البصري: الحفظة أربعة من الملائكة يعتقبون الإنسان، ملكان بالليل، وملكان بالنهار، وتجتمع هذه الأملاك الأربعة عند صلاة الفجر، وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾^{(٤)(٥)}.

فدل هذا الحديث على أن هناك واسطة من الملائكة، وهم أربعة يرسلهم الله إلى بني آدم، مرتين: مرة في صلاة الفجر، ومرة في صلاة العصر.

(١) أي لا أبلغ مشقتك. انظر المصباح المنير ١/ ١١٢، مادة (الجهد).

(٢) أخرجه البخاري واللفظ له، ٥٠٠/ ٦، رقم الحديث ٣٤٦٤، ومسلم، انظر صحيح مسلم شرح النووي كتاب الرهن ٩٧/ ١٨.

(٣) رواه البخاري، ٣٣/ ٢، حديث ٥٥٥، ومسلم انظر كتاب المساجد باب فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليهما ١٣٣/ ٥.

(٤) سورة الإسراء الآية ٧٨.

(٥) انظر الرسالة الوافية لمذهب أهل السنة في الاعتقاد لأبي عمرو الداني ص ٦٣.

فمما تقدم يتبين لنا أن الله تعالى قد أرسل جبريل عليه السلام واسطة إلى غير الأنبياء ليوحى إليهم بأمره تعالى ما يشاء . والله لا يسأل عما يفعل وله في خلقه شؤون .
المطلب الرابع: الوحي وأنواعه.

تقدم معنا في مباحث هذا الفصل بيان الواسطة بين الله تعالى ورسله عليهم الصلاة والسلام ، وهم الملائكة المكرمون ، وبيننا أن الملك الموكل بالوحي هو جبريل عليه السلام أمين الوحي ، وفي هذا المطلب نلقي الضوء على هذا الوحي الذي كان ينزل به الواسطة الملكي من عند الله تعالى على الواسطة البشري ؛ لبيان معانيه ، وأنواعه فنقول :-

الوحي لغة : الإعلام في خفاء ، تقول : أوحى إليه ، وأوحى عليه بمعنى ، والكتابة ، والإلهام ، والأمر ، والإيماء ، والإشارة ، والتصويت شيئاً بعد شيء^(١) . وقيل : الوحي : التفهيم ، وكل ما أفهمته غيرك ، سواء كان بكلام ، أو كتابة ، أو قول ، أو إشارة ، أو رسالة ، فهو وحي .

قال الراغب : (أصل الوحي الإشارة السريعة ، ولتضمن السرعة قيل : (أمر وحي) ، وذلك يكون بالكلام على سبيل الرمز ، والتعريض ، وقد يكون بصوت ، مجرد عن التركيب ، وبإشارة ببعض الجوارح ، وبالكتابة)^(٢) . ومن وحي الإيماء بالجوارح قول الشاعر^(٣) :-

نظرت إليها نظرة فتحيرت دقائق فكري في بديع صفاتها
فأوحى إليها الطرف أنني أحبها فأثر ذاك الوحي في وجناتها

فمادة كلمة (الوحي) تدل على معنيين أصليين هما : الخفاء ، والسرعة ؛ ولهذا اختار صاحب الوحي المحمدي تعريفه بقوله : (إنه الإعلام الخفي السريع الخاص بمن يوجه إليه ؛ بحيث يخفى على غيره)^(٤) .

هذا معنى المصدر (الوحي) ، ويطلق ، ويراد به أيضاً معنى اسم المفعول^(٥) .

(١) انظر تهذيب اللغة ٥/ ٢٩٦ مادة (وحي) وأساس البلاغة ص ٤٩٤ مادة (و - ح - ي) ، ومختار الصحاح ص ٧١٣ مادة (و - ح - ي) وترتيب القاموس المحيط على طريقة المصباح المنير للطاهر الزاوي ٤/ ٥٨٥ مادة (وحي) .
(٢) المفردات ص ٥١٥ مادة (وحي) .

(٣) انظر الوحي المحمدي ص ٤٣ (٤) الوحي المحمدي ص ٤٤

(٥) انظر المرجع نفسه ، والموضع بعينه .

الوحي بمعناه اللغوي يتناول المعاني التالية^(١):-

١- الإلهام للإنسان، كالوحي إلى أم موسى على نبينا، وعليه السلام، قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾^(٢).

٢- الإلهام الغريزي، والتسخير للحيوان، كالوحي إلى النحل، قال تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾^(٣).

٣- الإشارة السريعة على سبيل الرمز، والإيحاء، كإيحاء زكريا على نبينا وعليه السلام إلى قومه، قال تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾^(٤).

٤- وما يلقيه الله إلى ملائكته من أمر ليفعلوه، قال تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾^(٥).

٥- وسوسة الشيطان، وتزيينه الشر للإنسان، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾^(٦).

وحاصل المعاني للوحي اللغوي أنه: الإعلام في خفاء، وسرعة، وهذا أعم من أن يكون بإشارة، أو كتابة، أو رسالة، أو إلهام، والوحي بهذه المعاني لا يختص بالأنبياء، ولا بكونه من عند الله عز وجل^(٧).

الوحي في الشرع: يطلق الوحي على الإعلام بالشرع، فيطلق، ويراد به المعنى المصدري، كما يطلق، ويراد به الموحى به^(٨).

وتعريفه من الجهة الأولى: هو إعلام الله أنبياءه بما يريد أن يبلغه إليهم من شرع، أو

(١) انظر الوحي المحمدي ص ٤٤، ومباحث في علوم القرآن للقطان ص ٢٦، والرسول والوحي للدكتور محمد المسير ص ٢٠٥، وموارد الظمان في علوم القرآن للشيخ صابر أبي سليمان ص ٩، وهدي الفرقان في علوم القرآن للدكتور غازي عناية ص ٤٩، والأسس العقيدية التشريعية والأخلاقية كما تصورها سورة النجم لفضيلة

الدكتور محمد عمر حوية ص ٦٩ (٢) سورة القصص الآية ٧

(٣) سورة النحل الآية ٦٨ (٤) سورة مريم الآية ١١

(٥) سورة الأنفال الآية ١٢ (٦) سورة الأنعام الآية ١٢١

(٧) انظر الإقتان في علوم القرآن للسيوطي ١/ ١٢٨، والوحي المحمدي ص ٤٤، ومناهل العرفان في علوم القرآن لمحمد عبد العظيم الزرقاني ١/ ٥٦، ومباحث في علوم القرآن للقطان ص ٣٢

(٨) انظر الوحي المحمدي ص ٤٤، ومباحث في علوم القرآن للقطان ص ٢٦، وهدي الفرقان للدكتور غازي

كتاب بواسطة، أو بغير واسطة، فهو أخص من المعنى اللغوي؛ وذلك لخصوص مصدره، ومورده، فقد خص المصدر بالله تعالى، وخص المورد بالأنبياء عليهم السلام.

ويُعرف من الجهة الثانية بأنه: ما أنزل الله على أنبيائه، وعرفهم به من أنباء الغيب، والشرائع، والأحكام؛ فمنهم من أنزل عليه كتابا، ومنهم من لم ينزل عليه كتابا^(١).

وقيل في تعريف الوحي: إنه (صلة بين الرب سبحانه وتعالى، وبين من يصطفيه من خلقه؛ ليتحمل أمانة التبليغ عند الخالق إلى الخلق)^(٢).

وينقسم الوحي باعتبار المعنى المصدري إلى الأحوال التالية^(٣):-

(أ) تكليم الله نبيه بما يريد من وراء حجاب، كما حصل لموسى -على نبينا وعليه الصلاة والسلام- قال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾^(٤)، وكما حصل لخاتم النبيين ﷺ ليلة الإسراء، والمعراج.

(ب) الإلهام، والقذف في القلب؛ بأن يلقي الله، أو الملك الموكل بالوحي في قلب النبي ما يريد، مع تيقن النبي أن ما ألقى إليه من قبل الله تعالى، وذلك مثل ما ورد في الحديث أن النبي ﷺ قال: (إن روح القدس نفث في روعي^(٥) أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها، فاتقوا الله وأجملوا الطلب)^(٦).

(ج) الرؤيا في المنام، ورؤيا الأنبياء وحي، وذلك مثل رؤيا إبراهيم الخليل أنه يذبح ابنه عليهما السلام، ورؤيا نبينا صلى الله عليه وسلم أنه سيدخل المسجد الحرام مع المسلمين.

(د) تعليم الله أنبياءه بواسطة أمين الوحي جبريل عليه السلام، وهذا القسم يعرف بالوحي الجلي^(٧)، وقد بين الله سبحانه وتعالى كيفية التلقي عنه بهذه الأقسام^(٨) في قوله

(١) انظر الوحي المحمدي ص ٤٤، ومباحث في علوم القرآن للقطان ص ٢٧

(٢) الرسول والوحي ص ٢٣٧

(٣) انظر مناهل العرفان ١/ ٦٤، ومباحث في علوم القرآن للقطان ص ٣٠، وموارد الظمان ص ١٠، وهدي الفرقان

(٤) سورة النساء الآية ١٦٤ ص ٦١

(٥) الروح -بضم الراء-: القلب، والعقل، ويفتحها: الفزع، والمراد الأول. انظر لسان العرب ٥/ ٣٧٣ مادة (روح).

(٦) أخرجه الإمام الشافعي في مسنده ص ٢٣٣، والحاكم في المستدرک ٢/ ٥ وصححه، ووافقه الذهبي، وصححه الشيخ الألباني في مشكاة المصابيح برقم (٥٣٠٠)، وفقه السيرة ص ٩٥

(٧) انظر مناهل العرفان ١/ ٦٤، ومباحث في علوم القرآن للقطان ص ٣٢

(٨) وقد جعل شيخ الإسلام ابن تيمية تكليم الله لعباده على ثلاثة أوجه -حيث عد الإلهام، والرؤيا في المنام قسما واحدا- أخذنا من ظاهر الآية. انظر مجموع الفتاوى ٢/ ٢٢٨، ٤/ ٣٧٥

تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكْلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيُّ حَكِيمٌ﴾ (١).

إذ المراد بالوحي في الآية: الإلهام، أو المنام؛ لمقابلته للقسمين الأخيرين: التكلم من وراء حجاب، أو بواسطة الملك (٢).

وعليه فإن الوحي بجميع أنواعه يلازمه علم يقيني، وضروري من الموحى إليه، بأن ما ألقى إليه، وأوحى به إليه وحي من الله لا شك فيه، وهذا العلم ضروري لا يحتاج إلى مقدمات؛ لأنه من باب إدراك الأمور الوجدانية، كالظمأ، والجوع، وغير ذلك، فلا مجال لخطرات القلوب، ولا توهّمات النفس، ولا نزغات الشياطين (٣).

واعلم أن القرآن الكريم تلقفه الواسطة الملوكي جبريل عليه السلام سماعاً من الله تعالى بلفظه المخصوص، ثم نزل به على الواسطة البشري، نبينا محمد ﷺ يقظة، وليس من القرآن شيء منما، وهذا القول هو الصواب، وهو مذهب أهل السنة والجماعة، وله تشهد الشواهد، وعليه تتوافر الأدلة (٤).

(١) سورة الشورى الآية ٥١

(٢) انظر الأسس العقدية التشريعية والأخلاقية كما تصورها سورة النجم للدكتور محمد عمر حوية ص ٧٢

(٣) انظر الوحي المحمدي ص ٤٦، ومباحث في علوم القرآن لمناع القطان ص ٢٧، وهدي الفرقان ص ٥٣

(٤) انظر الإتيقان في علوم القرآن ١/ ١٢٦، ومباحث في علوم القرآن للقطان ص ٢٩، وهدي الفرقان ص ٥٥،

والأسس العقدية التشريعية للدكتور محمد عمر حوية ص ٧٤

المبحث الثالث

الحكمة في كون الواسطة من البشر

من سنة الله تعالى أن يختار للرسالة من يصطفيه من الملائكة، ومن البشر. قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾^(١) لذلك فإننا نجد أن الواسطة من الأنبياء والرسل بلغوا ذروة الكمال البشري في خلقهم وأخلاقهم، وفي أحسابهم، وأنسابهم، وقد اصطفاهم الله سبحانه وتعالى، وخصهم بهذه الصفات، وهياهم بها، لتحمل أعباء الرسائل السماوية، وكانوا جميعا على هذا المنوال من لدن أولهم آدم عليه السلام إلى خاتمهم محمد ﷺ^(٢) واقتضت حكمة الله تعالى في الأمم الماضية أن يبعث كل رسول إلى أمته خاصة، قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾^(٣)، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾^(٤)، وقال تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ﴾^(٥). ولم يبعث الله رسولا للبشرية كلها إلا خاتم النبيين محمدا ﷺ قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾^(٦).

وروى الإمام أحمد في المسند، وابن حبان في صحيحه وغيرهما من حديث أبي ذر رضي الله عنه مرفوعا: (أن عدد الأنبياء مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا الرسل منهم ثلاثمائة وثلاثة عشر)^(٧).

وهذا الجمل الغفير من الأنبياء والرسل يدلنا على أن الذين نعرف أسماءهم من الرسل والأنبياء قليل، وأن هناك أعدادا كثيرة لا نعرفها كانوا واسطة بين الله تعالى وأممهم، وقد صرح القرآن الكريم بذلك في مواضع شتى فقال تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾^(٨)، فكل نبي أو رسول كان واسطة بين الله تعالى وقومه،

(١) سورة الحج الآية ٧٥

(٢) انظر لوامع الأنوار ٢/ ٢٦٩، والحكمة من إرسال الرسل للشيخ عبد الرزاق عفيفي ص ١٣، ومنهج الرسل الكرام في الدعوة إلى الله في القرآن د/ أحمد عبيد رسالة دكتوراه غير منشورة ص ١٠٦

(٣) سورة فاطر الآية ٢٤

(٤) سورة هود الآية ٢٥

(٥) سورة الأحقاف الآية ٢١

(٦) سورة سبأ الآية ٢٨

(٧) المسند ٥/ ٢٦٥، وصحيح ابن حبان ٢/ ٧٦، وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٨/ ٢٥٨ وأورده الهيثمي في المجمع ١/ ١٥٩ ثم قال: ومداره على علي بن يزيد وهو ضعيف، وقال الحافظ ابن كثير في تفسيره ١/ ٥٨٦ معان بن رفاعة السلمي ضعيف وعلي بن يزيد ضعيف، والقاسم أبو عبد الرحمن ضعيف أيضا.

(٨) سورة النساء الآية ١٦٤

وأخبرنا الله باسمه في كتابه العزيز، أو عرفنا إياه رسوله ﷺ يجب الإيمان به على الخصوص، وعدم التكذيب به، وأما الوساطة من الرسل الذين لم يذكرهم القرآن ولم يسموا في السنة، فنؤمن بهم في الجملة^(١).

وقد شئت حكمة العليم الخبير أن تكون الوساطة من الرسل الذين يرسلهم الله إلى البشر من البشر أنفسهم، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾^(٢). وقال أيضا: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾^(٣). وقد تساءل أعداء الرسل وتعجبوا كيف يكون النبي بشرا له خصائص البشرية في المأكل والمشرب وكافة شؤون المعاش؟

وكانت هذه الشبهة من أعظم ما صد الناس عن الإيمان بالله وتصديق الأنبياء، قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾^(٤).

وهذه الشبهة الجاهلية سرت على لسان المكذبين أعداء الرسل في جميع الأمم فقد قالوها لنوح عليه السلام: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾^(٥).

وقالوها لموسى وهارون عليهما السلام: ﴿فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ بِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ﴾^(٦).

وقالها أصحاب القرية لرسولهم: ﴿قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾^(٧).

وقالها مشركو مكة لخاتم النبيين محمد ﷺ: ﴿وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾^{(٨)(٩)}.

ولما تشبعت أذهان المعاندين للرسل بهذه الشبهة عدوا أتباع هؤلاء الرسل فيما جاءوا به من عقائد وشرائع - بسبب بشريتهم - أمرا قبيحا واعتبروه خسرانا مبينا فقال تعالى على

(١) انظر فتح الباري ٦/ ٣٦١، وتفسير الشوكاني ١/ ٥٣٩، والرسل والرسالات للأشقر ص ١٧

(٢) سورة الكهف الآية ١١٠ (٣) سورة إبراهيم الآية ١١

(٤) سورة الإسراء الآية ٩٤ (٥) سورة المؤمنون الآية ٢٤

(٦) سورة المؤمنون الآية ٤٧ (٧) سورة يس الآية ١٥

(٨) سورة الأنبياء الآية ٣ (٩) انظر الرسول والوحي ص ٣٠٥

لسانهم: ﴿فَقَالُوا أَبَشَرًا مِمَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذَا لَفِئَ صُلَالٍ وَسُعُرٍ﴾^(١). وقال عنهم أيضا: ﴿وَلَقَدْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَاسِرُونَ﴾^(٢).

عند ذلك اقترح أعداء الرسل أن تكون الوساطة بين الله، وبين سائر البشر من الملائكة فيعانونهم ويشاهدونهم، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾^(٣). ثم قالوا: فإن لم يكن ذلك فعلى الأقل يبعث الله مع الوساطة من البشر واسطة من الملائكة، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا لِهَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا﴾^(٤).

وعندما نتأمل النصوص القرآنية التي جاءت في معرض الرد على هذا التساؤل ومعالجة هذه الشبهة نجد أن الحكمة في كون الوساطة من البشر تكمن في الوجوه الآتية:

أولاً: أن الله اصطفى رسله إلى البشر من البشر أنفسهم ولم يجعلهم ملائكة، بل يجوز عليهم ما يجوز على البشر مما لا يقدح في منازلهم العالية، فالواسطة من الأنبياء رجال من الناس يتمتعون بكافة خصائص الجسد البشري ومقوماته، وتتطلب منهم بشريتهم أن يتعاطوا مستلزمات الجسد، واحتياجاته من طعام، وشراب، ونوم، وتعب، ونصب، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾^(٥) (والحاصل أنهم عليم الصلاة والسلام من البشر، وأرسلوا إلى البشر، فظواهرهم خالصة للبشر، يجوز عليها من الآفات، والتغيرات، والآلام، والأسقام، وتجزع كأس الحمام^(٦) ما يجوز على البشر مما لا نقیصة عليه فيه، ولا يوجب الاتصاف به نوع نفرة عند كل نبيه^(٧))، وبما أنهم بشر، ولهم أجساد فمصيرهم إلى عالم آخر، إذ لا خلود للبشر في الحياة الدنيا^(٨) قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾^(٩)، وللطبيعة البشرية لهذا النوع من الوساطة فإنهم يتزوجون، ويتناسلون، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾^(١٠).

(٢) سورة المؤمنون الآية ٣٤

(١) سورة القمر الآية ٢٤

(٤) سورة الفرقان الآية ٧

(٣) سورة الفرقان الآية ٢١

(٥) سورة الفرقان الآية ٢٠

(٦) الحمام بكسر الحاء المهملة: قدر الموت. انظر مختار الصحاح ص ١٥٧ مادة (ح م م).

(٧) لواضع الأنوار ٢/ ٣١٠

(٨) انظر نبوة محمد (في القرآن ص ٦٨، والرسول والوحي ص ٣٠٦)

(١٠) سورة الرعد الآية ٣٨

(٩) سورة الأنبياء الآية ٨

ثانياً: أن النبوة سفارة بين الله تعالى وعباده يصطفي الله لها من يشاء من البشر فيكون أفضلهم وأحوزهم لصفات الكمال البشري، وأما التمايز بين الأنبياء وسائر البشر فإنما هو في الوحي وتلقي الشرائع، وذلك أمر لا اختيار للنبي فيه، وليس من تلقاء نفسه^(١). قال تعالى: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾^(٢).

فالنبوة إذاً تكريم، وتفضيل لهذا النوع من البشر الذين سبقت لهم من الله الحسنى واجتباهم الله، وهداهم، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَيْكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا﴾^(٣).

ثالثاً: أن إرسال واسطة بشرية إلى الناس أنسب لحصول القدوة والأسوة، يقول الإمام ابن كثير: (فمن رحمته تعالى بخلقه أنه يرسل إلى كل صنف من الخلائق رسلاً منهم؛ ليدعو بعضهم بعضاً؛ وليمكن بعضهم أن ينتفع ببعض في المخاطبة والسؤال، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ﴾^(٤) الآية)^(٥).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في رده على المنطقيين - مبيناً أن توسط البشر بالرسالة مثل توسط الملائكة بالرسالة: (فقوله: ﴿صَاحِبُكُمْ﴾^(٦) تنبيه على نعمته على البشر، وإحسانه إليهم؛ إذ بعث إليهم من يصحبهم ويصحبونه بشراً مثلهم فإنهم لا يطيقون الأخذ عن الملك)^(٧).

فالناس أحوج ما يكونون إلى الرسول القدوة من بني جنسهم يحس بإحساسهم، ويدرك آلامهم وآمالهم، ويعطف على ضعفاتهم، ويجبر كسيرهم، ويسير بهم خطوة خطوة، كما ينزل عليه الوحي، نحو تطبيق شرع الله فيهم فيشهدون بذلك شريعة الله على بساط الواقع، والتطبيق العملي، فهو المقصود الأكيد من الشرائع؛ فإنها لم تنزل لمجرد استماعها، والمعرفة النظرية لها، فيكون الرسول الواسطة بشخصه حينئذ ترجمة حية

(١) انظر أعلام النبوة ص ٢٥٤، والرسول والوحي ص ٣٠٧

(٢) سورة إبراهيم الآية ١١ (٣) سورة مريم الآية ٥٨

(٤) سورة آل عمران الآية ١٦٤ (٥) تفسير ابن كثير ٢/ ١٢٩

(٦) يشير رحمه الله إلى الآية الكريمة ﴿وَالنَّجْمُ إِذَا هَوَىٰ﴾ (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿ سورة النجم الآية ١٦٤

(٧) كتاب الرد على المنطقيين ص ٥٣٩ (٢-١).

للعقيدة التي يحملها إليهم، وتكون حياته، وجهاده، وأعماله كلها صفحة معروضة أمامهم ليتسنى لهم التأسي به، والعمل على منواله؛ لأنه إنسان مثلهم، ويوضح هذا أننا لو قلنا: إنه لا بد من واسطة بين الله وعباده في تبليغ رسالاته، فهل يصح أن تكون هذه الواسطة حجرا منصوبا، أو شجرة فارعة يخلق الله فيها صوتا يكلم الناس قائلا: (الله يأمركم بكذا، وينهاكم عن كذا...)؟! لا شك أن هذا لو حصل لجمع من الناس لتملك الفرع، والرعب قلوبهم، وأفئدتهم، ولعقدت الدهشة ألسنتهم، ولاذوا فيه بالفرار؛ لأن هذا الأمر مما لا يألّفونه بحال؛ بخلاف ما إذا كان المتكلم بهذا الأمر شخصا من الأشخاص أعدّه الله لحمل أعباء الرسالة الإلهية، وأحاطه بظروف خاصة، وهياه حتى جعله قابلا لتلقي الوحي، وتبليغ رسالة الله؛ وذلك لا يكون إلا بشرا رسولا^(١).

رابعا: أن الملك لا يصلح أن يكون رسولا للبشر لبعد الفجوة، وتباين الخصائص بين الملائكة والبشر، فلا يكون المثل الأعلى قريبا للمحاكاة؛ لأن كل جنس إنما يأنس بجنسه، وقوى الإنسان لا تتحمل رؤية الملك في صورته الحقيقية، فالاتصال بالملائكة ورؤيتهم أمر ليس بسهل^(٢)، فالرسول صلى الله عليه وسلم مع كونه أفضل الخلق، ورزقه الله قسطا عظيما من القوة الجسمية، والنفسية عندما رأى جبريل على صورته^(٣) أصابه هول عظيم ورجع إلى خديجة رضي الله عنها يرجف فؤاده.

يقول العلامة ابن القيم: (بين سبحانه أنه لو أنزل ملكا كما اقترحوا لما حصل به مقصودهم؛ لأنه إن أنزله في صورته لم يقدروا على التلقي عنه؛ إذ البشر لا يقدرون على مخاطبة الملك، ومباشرته، وقد كان النبي ﷺ - وهو أقوى الخلق - إذا نزل عليه الوحي كرب لذلك، وتحذر منه العرق^(٤) في اليوم الشاتي^(٥)).

وقد بين الله عز وجل - في الرد على طلب الكفار أن تكون الواسطة إليهم ملكا رسولا - أن سكان الأرض ليسوا ملائكة، فلو كانوا ملائكة لأرسل الله إليهم رسولا من جنسهم: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ (٩٤) قُلْ

(١) انظر نبوة محمد ﷺ في القرآن ص ٧٣ (بتصرف)، وتفسير الشوكاني ١٠١/٢، ودفاع عن العقيدة

والشريعة ضد مطاعن المستشرقين ص ٦٦، والرسائل والرسالات للأشقر ص ٧١

(٢) انظر تفسير الفخر الرازي ١٦١/١٢، وأضواء البيان ١٦٤/٢

(٣) قد رأى النبي صلى الله عليه وسلم جبريل على صورته مرتين.

(٤) سبق الحديث عن ذلك.

(٥) التفسير القيم ص ٢٣٣



لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴿١﴾. أما وإن الذين يسكنون الأرض ليسوا كذلك بل هم بشر فرحمة الله، وحمكته تقتضي أن تكون الواسطة إليهم من جنسهم، قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ (٢).

وقد تمادى الكفار في غيهم، وعنادهم، وطلبوا إنزال ملك مع رسول الله ﷺ يكون معاضداً له، وشاهداً معه على صدق رسالته، ولم يكن طلبهم هذا استهداء، واسترشاداً، وإنما كان معاجزة، وعناداً، ولو أجابهم الله إلى ما طلبوا على سبيل الفرض والاحتمال، فلن يؤمنوا بصدق الواسطة النبي، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا ﴿٣﴾ مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِن أَكْثَرُهُمْ يَعْجِلُونَ﴾ (٤).

ومن سنة الله أن الكفار لا يرون الملائكة إلا حين الموت، أو حين نزول العذاب، فلو قدر أنهم رأوا الملائكة لكان ذلك اليوم يوم هلاكهم، فأصبحوا بطلبهم إنزال ملك رسول يطلبون ما فيه عذابهم، وهلاكهم (٥)، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ﴾ (٦)، ثم بين سبحانه وتعالى ما جرت به سنته في خلقه أنه عند تلبية مطالب المعاندين، ثم عدم إيمانهم، واستجابتهم يستأصلهم الله، ويهلكهم بعذاب من عنده (٧)، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يَنْتَرُونَ﴾ (٨).

خامساً: لو أرسل الله إلى البشر واسطة من الملائكة لم تكن إلا على هيئة رجل من بني آدم، ولقيت الشبهة في بشرية الواسطة قائمة، قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ﴾ (٩). ففي هذه الآية يخبر الله تعالى أنه لو بعث رسولا ملكا إلى الناس لكان على هيئة رجل منهم ليتمكنهم مخاطبته، والقرب منه، والأنس به والانتفاع بالأخذ عنه، ولو كان كذلك لالتبس الأمر عليهم (١٠).

فلو بعث الله ملكا واسطة على صورة رجل ليبلغ الناس رسالة الله لكان محتاجا إلى

(١) سورة الإسراء الآيات (٩٤ - ٩٥).

(٢) سورة آل عمران الآية ١٦٤

(٣) قُبُلًا: أي معابنة، ومقابلة، وقال مجاهد: معناه أفواجا قبيلة، قبيلة، تعرض عليهم كل أمة بعد أمة فيخبرونهم بصدق الرسل. انظر المفردات ص ٣٩٢ مادة (قبل)، وتفسير ابن كثير ١٧١/٢

(٤) سورة الأنعام الآية ١١١

(٥) انظر التفسير القيم ص ٢٣٣

(٦) سورة الفرقان الآية ٢٢

(٧) انظر تفسير الفخر الرازي ١٦١/١٢، وتفسير ابن كثير ١٢٩/٢

(٨) سورة الأنعام الآية ٩

(٩) سورة الأنعام الآية ٨

(١٠) انظر تفسير ابن كثير ١٢٩/٢

التصديق في ادعاءين متلازمين :-

أولهما: أنه ملك صيره الله على هيئة رجل .

وثانيهما: أنه مرسل من عند الله ليبلغهم رسالة الله، وأن عليهم أن يسمعوا له ويطيعوه، ألا ترى أن الرسول البشري لما جاء بادعاء واحد كذبه الناس وعادوه، وآذوه، فإذا جاءهم بهذين الادعاءين المركبين لم يكونوا أقرب إلى التصديق؟! (١).

ثم إن إنزال الملك وإن كان يدفع شبهة البشرية على حد زعم المعاندين إلا أنه يقوي الشبهات من وجه آخر، وذلك لأن أي معجزة ظهرت على يديه عانده المرسل إليهم بقولهم: هذا فعلك فعلته باختيارك وقدرتك، ولو أن الله أقدرنا على ما أقدرك عليه من القوة والعلم لفعلنا مثل ما فعلت أنت! (٢).

وقول الله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ (٣) يدل على أن الواسطة ينبغي أن يكون من نوع المرسل إليهم، ومن جنسهم، ألا ترى أن كثيرا من الرسل عاينوا الملائكة في صورة البشر (٤) كأضياف إبراهيم، وأضياف لوط، وكالذين تسوروا المحراب ودخلوا على داود، وكجبريل حين تمثل لمريم بشرا سويا، ولنبينا محمد ﷺ مرارا، مقويا، ومسلما (٥).

ولعل من أظهر الحكم الإلهية في العدول عن إرسال الملائكة واسطة بين الله والناس: أن الملائكة من طبيعة مغايرة خالية من الغرائز، مصونة عن الشهوات، فلو طلبوا من الناس الاقتداء بهم في الامتناع عن الشهوات المحرمة، وعدم معصية الله لما استجابوا لهم، ولا عتذر الناس بمعاذير متنوعة، منها: اختلاف الطبيعتين، وأن الملائكة جبلوا على الطاعة دون البشر (٦).

ثم بين الله سبحانه وتعالى أنه لو أنزل واسطة من الملائكة إلى الناس - كما طلب المعاندون - وجاءتهم هذه الواسطة في صورة البشر فإن الشبهة ستظل قائمة في نفوسهم، ويلتبس عليهم الأمر كما يلبسون هم على أنفسهم في قبول رسالة الواسطة البشري، وسيقفون مشدوهين قائلين حيثئذ: هل هذا الرسول رجل أو ملك؟! قالتعالى: ﴿وَلَوْ

(١) انظر نبوة محمد صلى الله عليه وسلم في القرآن ص ٧٤

(٢) سورة الأنعام الآية ٩

(٣) انظر تفسير الرازي ١٦٢/١٢

(٤) وقد رأى غير الأنبياء الملائكة في صورة البشر. انظر المبحث السابق: الملائكة واسطة بين الله وغير الأنبياء.

(٥) انظر تفسير الرازي ١٦٢/١٢، وأصواء البيان ١٦٥/٢

(٦) انظر تفسير الرازي ١٦٢/١٢، ونبوة محمد (في القرآن ص ٧٧)

جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لِّجَعْلِنَاهُ رَجُلًا وَلَلْبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ ﴿١﴾

فأعلم الله عز وجل نبيه ﷺ أنه لو نَزَلَ ملكاً على هذه الحال لوجد المعاندون سبيلاً إلى اللبس، والتشكيك، كما كانوا هم يخلطون، ويلبسون على ضعفهم^(٢).

وإذا كان الأمر كذلك فما الفائدة من إرسال الرسل من الملائكة على هذا النحو؟ فمن حكمة الله ورحمته بالناس أنه لم يجعل أمر الواسطة مشتبهاً، ولا مشكلاً، بل أرسل إلى الناس واسطة من جنسهم، كانوا في الدنيا مصاييح هدى، وللناس قدوة تحتذى، رسلاً مبشرين ومنذرين، فسبحانه من حكيم خبير، وبالمؤمنين رؤوف رحيم. وقد ذكر الفخر الرازي في بيان الحكمة من بشرية الواسطة أموراً: -

أولها: أن الجنس إلى الجنس أميل.

وثانيها: أن البشر لا يطبقون رؤية الملك.

وثالثها: أن طاعات الملائكة قوية فيستحقرون طاعة البشر.

ورابعها: أن النبوة فضل من الله فيختص بها من يشاء من عباده، سواء كان ملكاً، أو بشراً^(٣).

(١) سورة الأنعام الآية ٩

(٢) انظر تفسير ابن كثير ١٢٩/٢، وتفسير الشوكاني ١٠١/٢، ومجموع فتاوى ورسائل الشيخ ابن عثيمين ١٢٥/٥

(٣) انظر تفسير الفخر الرازي ١٦٢/١٢

المبحث الرابع

تقيد أهل السنة والجماعة بالكتاب والسنة في فهم الواسطة.

التمسك بالكتاب والسنة والتقيد بهما في الورد والصدور والتحاكم إليهما في موارد النزاع وتحكيمهما في كل صغير وكبير، والرضا بذلك والانقياد له هو أصل الدين وأساسه وهو منهج أهل السنة والجماعة، بذلك جاءت النصوص وعليه توافرت الأدلة وقامت البراهين وكثرت الشواهد. قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾^(١) وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(٢) وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾^(٣). ولأنهما حق، والحق أحق أن يتبع: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾^(٤). وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: خطب رسول الله ﷺ في حجة الوداع فقال: (تركتم فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما: كتاب الله وسنة نبيه)^(٥).

وقد خصص الإمام البخاري كتاباً في صحيحه لهذا الموضوع وترجم له بـ (كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة)^(٦).

قال الإمام الكرماني^(٧) رحمه الله - في شرحه لترجمة كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة:

(٢) سورة النور الآية ٥١

(١) سورة النساء الآية ٥٩

(٤) سورة التوبة الآية ٦٢

(٣) سورة الحزاب الآية ٣٦

(٥) رواه الإمام مالك مرسلاً، والحاكم من حديث ابن عباس انظر تنوير الحوالك شرح على موطأ مالك ٩٢/٣، والمستدرک ١/ ٩٣ قال الحاكم: وهذا الحديث لخطبة النبي ﷺ متفق على إخراجه في الصحيح ووافقه الذهبي وقال: وله أصل في الصحيح. وقال الشيخ الألباني: إسناده حسن وله شاهد من حديث جابر خرجته في السلسلة الصحيحة. انظر السلسلة الصحيحة رقم الحديث (١٧٦١) والتوسل له أيضاً ص ١٤، ثم وجدته في مقدمة السلسلة يقول: ثم وقفت له على شاهد ثالث من حديث أنس في طبقات الأصفهانيين لأبي الشيخ ٤/١ مخطوطة الظاهرية فازداد الحديث قوة على قوة. مقدمة السلسلة الصحيحة ص ٢٧٩

(٦) انظر صحيح البخاري مع الفتح ١٣/ ٢٤٥

(٧) هو شمس الدين محمد بن يوسف بن علي بن سعيد الكرماني، ثم البغدادي، كان إماماً في الفقه، والحديث، والتفسير، والمعاني، والعربية، ولد بكرمان سنة ٧١٧هـ، ثم ارتحل إلى شيراز، ودخل مصر، والشام، ثم حج، واستوطن بغداد، ألف تصانيف كثيرة، منها: شرحه لصحيح البخاري. مات سنة ٧٨٦هـ. انظر ترجمته في الدرر الكامنة ٤/ ٣١٠، وبغية الوعاة للسيوطي ١/ ٢٧٩، والأعلام للزركلي ٧/ ١٥٣



(هذه الترجمة منتزعة من قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾^(١) لأن المراد بالحبل الكتاب والسنة على سبيل الاستعانة، والجامع كونها سببا للمقصود وهو الثواب، والنجاة من العذاب)^(٢).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: (والله سبحانه أمرنا باتباع الرسول وطاعته وموالاته ومحبته وأن يكون الله ورسوله أحب إلينا مما سواهما وضمن لنا بطاعته ومحبته محبة الله وكرامته فقال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾^(٣) وقال تعالى: ﴿وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾^(٤) وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَدْخُلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾^(٥) وأمثال ذلك في القرآن كثير، ولا ينبغي لأحد أن يخرج في هذا عما مضت به السنة وجاءت به الشريعة، ودل عليه الكتاب والسنة، وكان عليه سلف الأمة، وما علمه قال به، وما لم يعلمه أمسك عليه^(٦)، ولا يقفو ما ليس له به علم، ولا يقول على الله ما لم يعلم فإن الله تعالى قد حرم ذلك كله)^(٧).

وقال أيضا رحمه الله -بعد نقله للآيات التي تصرح بوجوب اتباع كتاب الله والآيات التي تأمر بطاعة رسوله ﷺ- (فهذه النصوص توجب اتباع الرسول وإن لم نجد ما قاله منصوصا بعينه في الكتاب كما أن تلك الآيات توجب اتباع الكتاب وإن لم نجد ما في الكتاب منصوصا بعينه في حديث عن الرسول غير الكتاب فعلينا أن نتبع الكتاب، وعلينا أن نتبع الرسول، واتباع أحدهما هو اتباع للآخر، فإن الرسول بلغ الكتاب، والكتاب أمر بطاعة الرسول ولا يختلف الكتاب والرسول ألبتة، كما لا يخالف الكتاب بعضه أيضا)^(٨). والتزام الكتاب والسنة والتقيد بهما هو منهج أهل السنة والجماعة.

ولا شك أن من يلتزم بهذا المنهج فسوف يكون على الصراط المستقيم، ويقوده إلى رضوان الله واللجنة، ويقيه المهالك والمهاوي التي سقط فيها كثير من طوائف أهل البدع عند ما نبذوا كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وراء ظهورهم.

يقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى: (وقد تبين أن الواجب طلب علم

(٢) فتح الباري ١٣/ ٢٤٥

(٤) سورة النور الآية ٥٤

(١) سورة آل عمران الآية ١٠٣

(٣) سورة آل عمران الآية ٣١

(٥) سورة النساء الآية ١٣

(٦) هكذا في النص المطبوع، والأنسب للسباق (أمسك عنه).

(٧) قاعدة جلية في التوسل والوسيلة ص ٢٧٠ وانظر معرفة علوم الحديث للحاكم ص ٢

(٨) مجموع الفتاوى ٨٤/ ١٩

ما أنزل الله على رسوله ﷺ من الكتاب، والحكمة، ومعرفة ما أراد بذلك، كما كان عليه الصحابة، والتابعون، ومن سلك سبيلهم، وكلما يحتاج إليه الناس فقد بينه الله ورسوله ﷺ بيانا شافيا كافيا، فكيف أصول التوحيد، والإيمان؟، ثم إذا عرف ما بينه ﷺ نظر في أقوال الناس، وما أرادوا بها فعرضت على الكتاب والسنة، والعقل الصريح الذي هو موافق للرسول ﷺ فإنه المنير مع الكتاب فهذا سبيل الهدى، وأما سبيل الضلال والبدع والجهل فعكسه أن تبتدع بدعة بأراء رجال، وتأويلاتهم ثم يجعل ما جاء به الرسول ﷺ تبعاً لها، وتحرف ألفاظه وتأول على وفق ما أصلوه وهؤلاء تجدهم في نفس الأمر لا يعتمدون على ما جاء به الرسول ﷺ تبعاً لها، وتحرف من الهدى، ولكن ما وافقهم منه قبلوه وجعلوه حجة لا عمدة، وما خالفهم منه تأولوه كالذين يحرفون الكلم عن مواضعه، أو فوضوه كالذين لا يعلمون الكتاب إلا أمانى^(١) قاله سبحانه جعل الكتاب والسنة أمراً خالداً على مر العصور ليتعلم منهما الجاهل ويسترشد بهما الضال، ويأمن الخائف ويتذكر المتذكر، ويعتبر المعتبر، ويستمد المؤمن، ويهتدي الباحث عن الحق، ويستتير الشاك، ويتقدم المتردد، ويطمئن الخيران، وليكون ملاذاً عند الاختلاف وفيصلاً عند اللبس، ورسماً متبعاً في الاعتقاد والتعبد، والتحكم والتحكيم، والإباحة والحظر، والتحليل والتحريم، وغير ذلك من أحكام العليم الحكيم، ومستتيراً يرجع إليه الأمر كله في التقديم والتأخير^(٢).

فأهل السنة والجماعة ملتزمون بالكتاب والسنة ومتقيدون بهما في جميع شؤونهم ما يقدمون عليه منها وما يذرونه، سواء في باب الاعتقاد والتعبد، والتشريع والمعاملات، أو السلوك، والأخلاق، ولما سلكوا هذا المنهج بلغ بهم أوسط السبل، وأقوم المناهج كما قال الإمام ابن كثير: (ولما جعل الله هذه الأمة وسطاً خصها بأكمل الشرائع وأقوم المناهج وأوضح المذاهب)^(٣).

فأهل السنة والجماعة يحكمون كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ في جميع أبواب الاعتقاد، ويعدونهما الأصل الذي يستدل به، ويرجع إليه عند النزاع؛ لأنهما مصدر التلقي؛ ولأن مسائل العقيدة من الأمور التوقيفية التي لا مجال للرأي فيها، بل يتوقف فيها

(١) الدرر السنية ٨ / ٢ وانظر عقيدة الشيخ محمد بن عبد الوهاب السلفية لشيخنا معالي الدكتور صالح العبود ص

(٢) انظر معارج الأبواب ص ٦٩ والفتوى الحموية لشيخ الإسلام ابن تيمية ص ٦٠

(٣) تفسير ابن كثير ٢٧٥ / ١، وانظر البهانيات المسلوطة ص ٢٥٥

نفيا أو إثباتا على الوحي من الكتاب والسنة مع إيقانهم بأن العقل الصريح لا يخالف النقل الصحيح^(١)، ولإيمانهم بأن الكتاب والسنة قد بينا جميع ما يحتاج المسلم إلى معرفته من مسائل الاعتقاد بيانا شافيا كافيا قاطعا للعدر، (وذلك أن أصول الدين إما أن تكون مسائل يجب اعتقادها ويجب أن تذكر قولاً أو تعمل عملاً، كمسائل التوحيد، والصفات، والقدر، والنبوة، والمعاد، أو دلائل هذه المسائل، فكل ما يحتاج الناس إلى معرفته واعتقاده والتصديق به من هذه المسائل فقد بينه الله ورسوله بيانا شافيا قاطعا للعدر، إذ هذا من أعظم ما بلغه الرسول البلاغ المبين، وبينه للناس، وهو من أعظم ما أقام الحجة على عباده فيه بالرسول الذين بينوه وبلغوه، وكتاب الله الذي نقل الصحابة، ثم التابعون عن الرسول لفظه ومعانيه والحكمة التي هي سنة رسول الله ﷺ التي نقلوها أيضا عن الرسول مشتملة من ذلك على غاية المراد، وتمام الواجب، والمستحب، والحمد لله الذي بعث فينا رسولا من أنفسنا يتلو علينا آياته ويزكيها ويعلمنا الكتاب والحكمة، الذي أكمل لنا الدين، وأتم علينا النعمة، ورضي لنا الإسلام دينا، الذي أنزل الكتاب تفصيلا لكل شيء، وهدى، ورحمة، وبشرى للمسلمين... وإثما يظن عدم اشتمال الكتاب والحكمة على بيان ذلك من كان ناقصا في عقله وسمعه، ومن له نصيب من قول أهل النار الذين قالوا: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾^(٢)، وإن كان ذلك كثيرا في كثير من المتفلسفة، والمتكلمة، وجهال أهل الحديث، والمتفقهة، والصوفية^(٣).

ففي كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ غنية لطالب الحق عما سواهما من الآراء التي تحسنا وتقبحها العقول البشرية الناقصة، والتشكفات، والمواجيد التي يسميها بعض المبتدعة أدواقا، وأحوالا، فلا أحد أعلم بمصالح الخلق ومنافعهم، وما فيه فصل النزاع بينهم من خالق الخلق، الحكيم العليم سبحانه وتعالى، ولا أحد أعلم بذلك بعد الله من رسول الله ﷺ من أجل ذلك كان (أهل الإيمان إذا تنازعوا في شيء من القرآن ردوه إلى الله ورسوله، كما رتب عليه الإيمان، فكل ما تنازع فيه المؤمنون من مسائل الدين دقه، وجله، جليه، وخفيه ردوه إليهما، فلو لم يكن في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ بيان ما تنازعوا فيه لم يأمر الله بالرد إليه؛ إذ من الممتنع أن يأمر تعالى بالرد عند النزاع إلى من لا يوجد عنده فصل النزاع، وقد أجمع الناس على أن الرد إلى الله هو الرد إلى كتابه، والرد إلى الرسول

(١) انظر درء تعارض العقل والنقل ١/ ٢٢ (٢) سورة الملك الآية ١٠

(٣) درء تعارض العقل والنقل ١/ ٢٧، ومجموع الفتاوى ٣/ ٢٩٥

ﷺ هو الرد إليه نفسه في حياته، وإلى سنته ﷺ بعد وفاته، وقد جعل الله هذا الرد من موجبات الإيمان، ولوازمه، فإذا انتفى انتفى الإيمان ضرورة^(١).

ومن تلك المسائل التي يتقيد أهل السنة والجماعة بالكتاب والسنة في فهمها مسألة الواسطة بين الله وخلقه^(٢)، فأهل السنة والجماعة بحكم سيرهم على هذا المنهج البين، والطريق الواضح، والصرائط المستقيم، نظروا إلى نصوص الكتاب والسنة فوجدوها تثبت نوعاً من الواسطة وتنفي أنواعاً أخرى من الوسائط ما أنزل الله بها من سلطان، يتشبه بها أهل الأهواء والبدع، دون أن يسعفهم في إثباتها شيء من الأدلة المنقولة الصحيحة، أو يوافقهم عليها أهل العقول السليمة الصريحة، فأثبت أهل السنة والجماعة ما أثبتته الكتاب والسنة، ونفوا ما عدا ذلك، سيرا مع الكتاب والسنة، ووقوفاً مع النص وجوداً وعدماً، ولذلك نجد التوافق التام والانسجام المتكامل بين كلام أهل السنة والجماعة في بيان مفهوم الواسطة وبين ما دلت عليه آيات القرآن الكريم، والأحاديث الصحيحة الثابتة عن النبي ﷺ وتلك ميزة امتاز بها أهل السنة والجماعة في كل عصر، ومصر عن غيرهم من أهل الأهواء، والبدع، وهي حصرهم لمصدر التلقي لدينهم في الكتاب والسنة، وهذا من الأصول التي اتفق عليها سلف هذه الأمة رحمهم الله، وهي أعظم نعمة أنعم الله بها عليهم، كما يوضحه شيخ الإسلام ابن تيمية بقوله: (وكان من أعظم ما أنعم الله به عليهم اعتصامهم بالكتاب والسنة، فكان من الأصول المتفق عليها بين الصحابة والتابعين لهم بإحسان أنه لا يقبل من أحد قط أن يعارض القرآن لا برأيه ولا ذوقه، ولا معقوله، ولا قياسه، ولا وجده، فإنهم ثبت عنهم بالبراهين القطعية والآيات البينات أن الرسول ﷺ جاء بالهدى ودين الحق، وأن القرآن يهدي للتي هي أقوم)^(٣). عند ما أطلق أهل الأهواء، والبدع العنان لأراء الرجال وفتحوا الباب لأقيسة المناطق، وأصغوا بأذانهم لسفسطات الفلاسفة، ولم يتقيدوا بالكتاب والسنة لتسلم عقيدتهم، وتصفوا آراؤهم، ويستقيم منهجهم، فاستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير، فكان جزاؤهم أن تخطبوا في دوامة من الخيرة، والشك، والبهتان.

يقول العلامة ابن القيم: (لقد استبان والله الصبح لمن له عينان ناظرتان، وتبين الرشيد

(١) لوامع الأنوار ٦/١، وانظر الرد على شبهات المستعنيين بغير الله ص ٢١

(٢) انظر الواسطة بين الحق والخلق ص ١٠ ومجموعة الرسائل الكبرى لشيخ الإسلام ابن تيمية رسالة (الوصية الكبرى) ٢٧٩/١

(٣) مجموع الفتاوى ٢٨/١٣، وانظر مجموع رسائل الشيخ ابن عثيمين ٥٨/٦، وتعريف الخلق بمذهب السلف ص ٩٧

من الغي لمن له أذنان واعيتان، لكن عصفت على القلوب أهوية البدع، والشبهات، والآراء المختلفة، فأطفت مصابيحها، وتحكمت فيها أيدي الشهوات فأغلقت أبواب رشدتها، وأضاعت مفاتيحها، وران عليها كسبها، وتقليدها لآراء الرجال، فلم تجد حقائق القرآن والسنة فيها منفذا، وتمكنت فيها أسقام الجهل، والتخليط، فلم تنتفع معها بمصالح الغذاء، واعجبا!! جعلت غذاءها من هذه الآراء التي لا تسمن ولا تغني من جوع، ولم تقبل الاغذاء بكلام الله تعالى ونص نبيه المرفوع^(١).

ومن المعلوم أنه تقرر في مقاصد الشريعة أن الوسائل لها أحكام المقاصد والغايات^(٢)، وما دام مقصود المتوصل إلى الله تعالى بالواسطة هو قبول أعماله، وتحقيق آماله، ونيل المنى، وكف الأذى، فينبغي أن يقصد الوسائل المشروعة، ويتخذ الوساطة الشرعية الثابتة في كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ من الإيمان بالله تعالى، وملائكته، وكتبه، ورسله، والتوسل بأسماء الله تعالى، وصفاته، وبأعمال المتوصل الصالحة، ودعاء الأخيار الصالحين أهل الورع، والتقى لقبول عمله، وتحقيق أمله؛ لأن (الأعمال الدينية لا يجوز أن يتخذ منها شيء سببا إلا أن تكون مشروعة؛ فإن العبادات مبناه على التوقيف فلا يجوز للإنسان أن يشرك بالله فيدعو غيره، وإن ظن أن ذلك سبب في حصول بعض أغراضه، ولذلك لا يعبد الله بالبدع المخالفة للشريعة، وإن ظن ذلك؛ فإن الشياطين قد تعين الإنسان على بعض مقاصده إذا أشرك، وقد يحصل بالكفر، والفسوق، والعصيان بعض أغراض الإنسان، فلا يحل له ذلك؛ إذ المفسدة الحاصلة بذلك أعظم من المصلحة الحاصلة به؛ إذ الرسول ﷺ بعث بتحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها، فما أمر الله به فمصلحة راجحة، وما نهى عنه فمفسدة راجحة^(٣).

ويقول العلامة ابن القيم^(٤) (الوجه التاسع أن العبد المخلوق لا يعلم مصلحته حتى يعرفه الله تعالى إياها، ولا يقدر على تحصيلها حتى يقدره الله تعالى عليها، ولا يريد ذلك حتى يخلق الله تعالى فيه إرادة ومشية، فعاد الأمر كله لمن ابتدأ منه وهو الذي بيده الخير

(١) اجتماع الجيوش الإسلامية ص ٩٠، وانظر موقف المتكلمين من الاستدلال بنصوص الكتاب والسنة سليمان الغصن ١/ ٣٤٠

(٢) انظر قواعد الأحكام للعلامة ابن عبد السلام ١/ ١٠٤ (٣) الوساطة بين الحق والخلق ص ٤٤

(٤) ذكر ابن القيم هذا الوجه من خلال ذكره للوجه التي يتضح بها أنه لا سعادة للقلب ولا لذة ولا نعيم ولا صلاح إلا بأن يكون الله هو إلهه، وفاطره وحده، وهو معبوده وغاية مطلوبه وأحب إليه من كل ما سواه. انظر إغاثة اللهفان ١/ ٤٧، ومجموع الفتاوى ١/ ٢٠

كله وإليه يرجع الأمر كله، فتعلق القلب بغيره رجاء وخوفاً وتوكلًا وعبودية ضرر محض لا منفعة فيه، وما يحصل بذلك من المنفعة فهو سبحانه وحده الذي قدرها ويسرها وأوصلها إليك^(١).

وقال الحافظ ابن حجر: (ينبغي للمرء أن يجعل تعلقه في جميع أموره بالله وحده، وأن كل من فرض أن فيه رحمة ما حتى يقصد لأجلها فالله سبحانه وتعالى أرحم منه فليقصد العاقل لحاجته من هو أشد له رحمة)^(٢).

فلا يجوز أن يعتقد أن الشيء سبب في تحصيل منفعة أو دفع مضرة إلا بدليل شرعي من الكتاب والسنة، فمن أثبت واسطة واعتقد أنها سبب لذلك بلا علم أو يخالف الشرع كان مبطلاً، مثل ما يظن أن النذر سبب في دفع البلاء وحصول النعماء، وقد ثبت في صحيح مسلم عن النبي ﷺ أنه نهى عن النذر وقال: (إنه لا يأتي بخير، وإنما يستخرج به من البخيل)^{(٣)(٤)}.

ثم إن الله سبحانه وتعالى (قد علمنا في نصوص أخرى كثيرة أن علينا إذا أردنا التقرب إليه أن نتقدم إليه بالأعمال الصالحة التي يحبها ويرضاها وهو لم يكل تلك الأعمال إلينا ولم يترك تحديدها إلى عقولنا وأذواقنا؛ لأنها حينذاك -تختلف وتباين، وستضطرب، وتتخاصم؛ بل أمرنا سبحانه أن نرجع إليه في ذلك ونتبع إرشاده وتعليمه فيه؛ لأنه لا يعلم ما يرضي الله عز وجل إلا الله وحده؛ فلماذا كان من الواجب علينا حتى نعرف الوسائل المقربة إلى الله -أن نرجع في كل مسألة إلى ما شرعه الله سبحانه، وبينه رسوله ﷺ، وهذا هو الذي وصانا به رسولنا صلوات الله عليه وسلامه؛ حيث قال: (تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما: كتاب الله وسنة نبيه)^{(٥)(٦)}.

ومن الأسباب الشرعية الموهومة اتخاذ بعض الناس أسباباً باطلة لم يرد في الكتاب ولا في السنة ما يؤيدها يظنونها تقربهم إلى الله سبحانه وتعالى، وهي تباعدهم منه في الحقيقة، وتجلب إليهم السخط والغضب؛ بل واللعنة، والعذاب، وتباعد بينهم وبين المصلحة والمنفعة والرباب، فمن ذلك استنجاد بعضهم بالموتى المقبورين من الأولياء

(١) إغاثة اللهفان ٤٧/١ (٢) فتح الباري ٣١/١٠

(٣) رواه مسلم، انظر صحيح مسلم بشرح النووي كتاب النذر ٩٨/١١

(٤) انظر الواسطة بين الحق والخلق ص ٤٤

(٥) سبق تخريجه، انظر ص (٦) التوسل للألباني ص ١٤

والصالحين، وجعلهم واسطة، والاستعانة بهم ليقضوا لهم حوائجهم التي لا يستطيع قضاءها إلا الله سبحانه وتعالى، كطلبهم ودعائهم دفع الضرر وشفاء السقيم وجلب الرزق وإزالة العقم والنصر على العدو، وأمثال ذلك، مما دلت النصوص الشرعية على خسران فاعله وضلاله البعيد، كما قال تعالى: ﴿يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا نُنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ (١٢) يَدْعُو لِمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَيْسَ الْمَوْلَى وَلَيْسَ الْعَشِيرُ (١)، فتراهم يتمسحون بحديد الأضرحة وحجارة القبور ويهزونها أو يلقون إليها أوراقا كتبوا فيها طلباتهم ورغباتهم، فهذه وسائل شرعية بزعمهم ولكنها في الحقيقة باطلة ومخالفة لأساس الإسلام الأكبر الذي هو العبودية لله تعالى وحده، وإفراده سبحانه بجميع أنواعها، وفروعها (٢).

وكذلك كل من سلك إلى الله عز وجل طريقا ليست مشروعة موافقة للكتاب والسنة بواسطة بدعية فإنه لا محالة سالك بنيات الطريق.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (ومعلوم أن كل من سلك إلى الله عز وجل علما وعملا بطريق ليست مشروعة موافقة للكتاب والسنة، وما كان عليه سلف الأمة وأئمتها فلا بد أن يقع في بدعة قولية أو عملية؛ فإن السائر إذا سار على غير الطريق المهيج (٣) فلا بد أن يسلك بنيات الطريق وإن كان ما يفعله الرجل من ذلك قد يكون مجتهدا فيه مخطئا مغفورا له خطؤه، وقد يكون ذنبا، وقد يكون فسقا، وقد يكون كفرا بخلاف الطريق المشروعة في العلم والعمل؛ فإنها أقوم الطرق، وليس فيها عوج، كما قال تعالى: {إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلتي هي أقوم} ﴿٤﴾ (٥).

ويؤكد العلامة ابن القيم أن التقيد بالوحي، والنبوة، ومتابعة واسطتنا ﷺ في التبليغ هو الطريق الموصلة، والواسطة الصحيحة إلى رضوان الله تعالى، وأن كل الطرق مسدودة إلا من أتى خلف رسول الله ﷺ قائلا: (فهذا العلم الصافي المتلقى من مشكاة الوحي والنبوة يهذب صاحبه لسلوك طريق العبودية، وحقيقتها: التأدب بأداب رسول الله ﷺ باطنا وظاهرا، وتحكيمه باطنا وظاهرا، والوقوف معه حيث وقف، بل والمسير معه حيث سار

(١) سورة الحج الآيتان ١٢-١٣

(٢) انظر التوسل للالباني ص ١٩ (بتصرف) وتحفة الطالب والجلس ص ٤٩

(٣) الطريق المهيج: الواضح الواسع. انظر القاموس المحيط ٨٩/٣ مادة (المهيج).

(٤) سورة الإسراء الآية ٩

(٥) شرح العقيدة الأصفهانية ص ١٢٩، وانظر مجموعة الرسائل الكبرى (رسالة الاستغاثة) ١/٤٨٢

بك . . . فلا تخالفه ألبتة، فتجعل رسول الله ﷺ شيخا، وإماما، وقدوة، وحاكما، وتعلق قلبك بقلبه الكريم، وروحانيتك بروحانيته . فتجيبه إذا دعاك، وتقف معه إذا استوقفك، وتسير إذا سار بك، وتقبل إذا قال، وتنزل إذا نزل، وتغضب لغضبه، وترضى لرضاه، وإذا أخبرك عن شيء أنزلته منزلة ما تراه بعينك، وإذا أخبرك عن الله بخبر أنزلته منزلة ما تسمعه من الله بأذنك . . . وبالجملة فالطريق مسدودة إلا على من اقتفى آثار الرسول ﷺ واقتدى به في ظاهره وباطنه (١).

ومن ثمرة هذا الاعتصام بالكتاب، والسنة، والتقييد بهما أن أهل السنة والجماعة خرجوا بمنهج واضح ودقيق أخذوا من آيات القرآن العظيمة، وأحاديث السنة القوية، وهو أن العمل لا يكون صالحا مقبولا يقترب به إلى الله تعالى حتى يتوفر فيه شرطان مهمان عظيمان:

أولهما: أن يكون خالصا بأن يقصد به وجه الله عز وجل .

وثانيهما: أن يكون صوابا أي موافقا لما شرعه الله تبارك وتعالى في كتابه، أو بينه رسوله ﷺ في سنته، فإذا اختل واحد من هذين الشرطين لم يكن العمل صالحا ولا مقبولا . والدليل على ذلك قول الله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ (٢).

قال الحافظ ابن كثير: (وهذان ركنا العمل المتقبل، لا بد أن يكون خالصا لله، صوابا على شريعة رسول الله ﷺ) (٣). وقوله تعالى في الآية الأخرى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (٤)، ولم يقل أكثر عملا؛ لأن العبرة ليست بكثرة الأعمال، وإنما بالأعمال الحسنة النافعة، والاعتقادات الصالحة التي تكون خالصة لله عز وجل، وعلى شريعة رسول الله ﷺ، فمتى فقد العمل واحدا من هذين الشرطين حبط وبطل (٥).

ولهذا قال الفضيل بن عياض رحمه الله (٦) في هذه الآية: (أخلصه، وأصوبه، قالوا:

(١) مدارج السالكين ٣/ ١٤٣، وانظر إغاثة اللهفان ١/ ٤٦، وتلخيص كتاب الاستغاثة لشيخ الإسلام ابن تيمية ١٦٧/ ١

(٢) سورة الكهف الآية ١١٠

(٣) تفسير ابن كثير ٣/ ١١٤، وانظر التوسل للألباني ص ١٥

(٤) سورة الملك الآية ٢

(٥) انظر تفسير ابن كثير ٢/ ٤١٦

(٦) هو أبو علي الفضيل بن عياض بن مسعود التميمي البصري من أكابر العباد الصالحاء، كان ثقة في الحديث، أخذ عنه الإمام الشافعي، كانت ولادته بسمرقند سنة ١٠٥ هـ، ووفاته بمكة حرسها الله سنة ١٧٨ هـ. انظر ترجمته في طبقات الصوفية ٦/ ١٤، وتذكرة الحفاظ ١/ ٢٢٥، ووفيات الأعيان ٣/ ٢١٥ وتهذيب التهذيب ٢٩٤/ ٨

يا أبا علي: ما أخلصه، وأصوبه؟ قال: إن العمل إذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل، وإذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل حتى يكون خالصا، صوابا، والخالص: أن يكون لله، والصواب: أن يكون على السنة^(١).

وبين شيخ الإسلام ابن تيمية أن هذين الركنين هما حقيقة الشهادتين بقوله: (ودين الإسلام مبني على أصلين: على أن يعبد الله وحده لا يشرك به شيء، وعلى أن يعبد بما شرعه على لسان نبيه ﷺ، وهذان هما حقيقة قولنا: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله)^(٢).

ويقول العلامة ابن القيم: (فلا يكون العبد متحققا بـ: ﴿إياك نعبد﴾ إلا بأصلين عظيمين: أحدهما: متابعة الرسول ﷺ. والثاني: الإخلاص للمعبود)^(٣).

وبناء على هذا المنهج قال الفقهاء: العبادات مبناها على التوقيف^(٤)، وما من شك في أن موضوع الوسطة من أجل أنواع العبادات؛ لأنه مبني على الدعاء والتوجه، والتذلل، والخضوع، والرغبة، والرغبة، والخوف، والرجاء، فيجب التوقف فيه على النص الشرعي، والتقييد بالكتاب والسنة، ففي ذلك اتباع للرسول صلى الله عليه وسلم وترك الابتداع في العبادة بعده، وقد صور لنا الفاورق عمر بن الخطاب رضي الله عنه كيف يكون الاتباع للشرع، والانقياد له، سواء علمت الحكمة في المأمور به، أو المنهي عنه، أم جهلت، فقد صح عنه رضي الله عنه أنه قبل الحجر الأسود، وقال: (إني أعلم أنك حجر لا تضر، ولا تنفع، ولولا أني رأيت النبي ﷺ يقبلك ما قبلتك)^(٥). واتباعا للكتاب، والسنة، وتطبيقا لهذا المنهج فقد اتفقت كلمات السلف في الآثار المروية عنهم رحمهم الله في الخضوع على الاعتصام بالكتاب، والسنة، والتقييد بهما في عامة شؤون الحياة، وخصوصا في مسائل الاعتقاد، ولا سيما مسألة الوسطة^(٦): فقد نقل الذهبي عن الإمام الزهري^(٧)

(١) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء ٨/ ٩٥، وابن عساكر في تاريخ دمشق ١٤/ ١٤٠ ب.

(٢) قاعدة جلية في التوسل والوسيلة ص ٣٠٥، وانظر مجموع الفتاوى ١/ ٣٣٣

(٣) مدارج السالكين ١/ ٨٣

(٤) انظر قاعدة جلية في التوسل والوسيلة ص ٢٧٠

(٥) رواه البخاري - واللفظ له - ٣/ ٤٦٢ حديث ١٥٩٧، ومسلم انظر صحيح مسلم بشرح النووي كتاب الحج باب استحباب تقبيل الحجر في الطواف ٩/ ١٧

(٦) انظر درة تعارض العقل والنقل ١/ ٢٤٤، وتعريف الخلف بمذهب السلف ص ٩٧

(٧) هو أبو بكر محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب الزهري، القرشي، الفقيه، الحافظ المتفق على جلالته وإمامته. توفي سنة ١٢٤ هـ. انظر تقريب التهذيب ٢/ ٢٠٧، والأعلام ٧/ ٣١٧

رحمه الله أنه قال: (كان من مضى من علمائنا يقولون الاعتصام بالسنة نجاة)^(١).

وروى عبد الله بن الإمام أحمد بسنده عن الإمام مالك بن أنس رحمهم الله جميعاً أن مالكا كان إذا ذكر عنده الزائغون في الدين يقول: قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله: (سن رسول الله ﷺ وولاة الأمر من بعده سننا الأخذ بها اتباع لكتاب الله تعالى واستكمال لطاعة الله تعالى، وقوة على دين الله، ليس لأحد من الخلق تغييرها، ولا تبديلها، ولا النظر في شيء خالفها، من اهتدى بها فهو مهتد، ومن استنصر بها فهو منصور، ومن تركها اتبع غير سبيل المؤمنين، وولاه الله ما تولى وأصلاه جهنم وساءت مصيراً)^(٢).

وقال الإمام الشافعي رحمه الله في ذم أهل الكلام، والبدع: (يقال: هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة)^(٣).

وقال الإمام أحمد رحمه الله: (لا يتجاوز القرآن، والحديث)^(٤).

وقال محمد بن الحسن الآجري رحمه الله^(٥) بعد نقله للآثار الواردة عن أئمة السلف في الحض على التمسك بالكتاب والسنة والتقيد بهما: (فيما ذكرت في هذا الجزء من التمسك بشريعة الحق، والاستقامة على ما ندب الله تعالى إليه أمة محمد ﷺ وندبهم إليه الرسول ﷺ ما إذا تدبره العاقل علم أنه لزمه التمسك بكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ وبسنة الخلفاء الراشدين، وجميع الصحابة رضي الله عنهم، وجميع من تبعهم بإحسان، وأئمة المسلمين، وترك الجدال، والمراء، والخصومة في الدين، ولزم مجانبة أهل البدع، والاتباع، وترك الابتداع)^(٦).

(١) إسناده صحيح أخرجه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ٩٤/١ رقمه ١٣٦، وقوام السنة في الحجة في بيان المحجة ٢٤٦/١، والآجري في كتاب الشريعة ١١٤٥/٣، وأورده الذهبي في سير أعلام النبلاء ٣٣٧/٥، وانظر الآثار الواردة عن أئمة السنة في أبواب الاعتقاد ١١٩/١.

(٢) كتاب السنة ٣٥٧/١ رقم الأثر ٧٦٦، وأخرجه الآجري في كتاب الشريعة ٤٠٧/١ رقم الأثر ٩٢ قال محقق الكتاب: إسناده صحيح، وأخرجه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ٩٤/١، وانظر الآثار الواردة عن أئمة السنة في أبواب الاعتقاد ١٢٠/١.

(٣) درء تعارض العقل والنقل ٢٤٤/١ (٤) المرجع نفسه والصفحة نفسها.

(٥) هو أبو بكر محمد بن الحسن بن عبد الله الآجري نسبة إلى (آجر) قرية من قرى بغداد من فقهاء الشافعية، ومحدثيها، ثم انتقل في آخر عمره إلى مكة للعبادة، فكانت وفاته بها سنة ٣٦٠ هـ، انظر ترجمته في تاريخ

بغداد ٢/٢٤٣، وسير أعلام النبلاء ١٦/١٣٣، وشذرات الذهب ٣/٣٥.

(٦) كتاب الشريعة ١/٤٢٤.

ونقل الإمام الذهبي عن محمد بن أبي حاتم^(١) - رحمه الله - (وسمعت^(٢)) يقول: لا أعلم شيئاً يحتاج إليه إلا وهو في الكتاب والسنة، فقلت له: يمكن معرفة ذلك؟ قال: نعم^(٣).

وقال الإمام الذهبي: (وإذا رأيت المتكلم المبتدع يقول: دعنا من الكتاب والأحاديث الأحاد، وهات العقل فاعلم أنه أبو جهل، وإذا رأيت السالك التوحيدي يقول: دعنا من النقل ومن العقل وهات الذوق، والوجد فاعلم أنه إبليس قد ظهر بصورة بشر، أو قد حل فيه، فإن جبت منه فاهرب، وإلا فاصرعه، وابرك على صدره واقراً آية الكرسي، واختقه)^(٤).

وأنشد ابن النجار^(٥) - رحمه الله - في الاعتصام بالكتاب والسنة والتقيد بهما^(٦):-

من كان يرغب في النجاة فماله	غير اتباع المصطفى فيما أتى
ذاك السبيل المستقيم وغيره	سبل الضلالة والغواية والردى
فاتبع كتاب الله والسنن التي	صحت فذاك إن اتبعت هو الهدى
ودع السؤال بلم وكيف فإنه	باب يجر ذوي البصيرة للعمى
الدين ما قال الرسول وصحبه	والتابعون ومن مناهجهم قفا

وقال العلامة بن القيم في نونية^(٧):-

حذق قلبك في النصوص كمثل ما	قد حذقوا في الرأي طول زمان
واكحل جفون القلب بالوحيين واحد	لذر كحلهم يا كثرة العميان

(١) هو أبو حاتم محمد بن إدريس بن المتذر بن مهران الإمام الناقد الحافظ شيخ المحدثين، ولد بالري سنة ٢٩٥ هـ من نظراء الإمام البخاري وطبقته توفي سنة ٢٧٧ هـ. انظر ترجمته في تاريخ بغداد ٧٣/٢، وسير أعلام النبلاء ١٣/٢٤٧، وشذرات الذهب ١٧١/٢.

(٢) يقصد الإمام البخاري رحمه الله.

(٣) أورده الذهبي في ترجمة الإمام البخاري. انظر سير أعلام النبلاء ١٢/٤١٢، والآثار الواردة عن أئمة السنة في أبواب الاعتقاد ١١٣/١.

(٤) سير أعلام النبلاء ٤/٤٧٢، وانظر الآثار الواردة عن أئمة السنة في أبواب الاعتقاد ١١٨/١.

(٥) هو أبو عبد الله محمد بن محمود بن حسن بن هبة الله محب الدين البغدادي المشهور بابن النجار، أحد الأئمة الحفاظ، قال عنه الإمام الذهبي هو محدث العراق، ومؤرخ العصر، ولد سنة ٥٧٨ هـ كانت وفاته سنة ٦٤٣ هـ.

انظر ترجمته في سير أعلام النبلاء ٢٣/١٣١، ووفيات الأعيان ٤/٣٦، وشذرات الذهب ٥/٢٢٦.

(٦) انظر سير أعلام النبلاء ٢٣/١١٤ (٧) انظر متن النونية ص ٢٦٥.



لم يحوج الله الخلائق معهما لخيال فلتان ورأي فلان
والجهل داء قاتل وشفاءه أمران في التركيب متفقان
نص من القرآن أو من سنة وطبيب ذاك العالم الرباني

وجملة القول: فأهل السنة والجماعة - بحكم هذا المنهج السليم وتقيدهم بكتاب ربهم الكريم، وسنة نبيهم الرؤوف الرحيم - نظروا إلى الوسطة فأثبتوا منها ما أثبتته الدليل، ونفوا ما عدا ذلك مما يتعلق به أهل البدع، والتضليل، فأثبتوا وسطة الملائكة، والأنبياء في تبليغ الشرائع، ونفوا توسطهم وتدخلهم في غير ذلك من الوقائع، وقالوا: أما التوسل بأسماء الله تعالى، وصفاته، فواسطة صحيحة صرحت بها الآيات الصريحة، والأحاديث النبوية الصحيحة، والشفاعة في الآخرة واسطة مقبولة بشرط الإذن، والرضا، وليست مجهولة، والعمل الصالح من المتوسل، واسطة بينه وبين ربه موافق للعقل، والنقل، والدعاء، والتذلل من الإنسان، واسطة بينه وبين ربه المنان، وكل عبادة خلصت للمعبود فهي واسطة شرعية لا يضيع فيها مجهود^(١).

ومن ثمرات التقيد بالكتاب والسنة في مسألة الوسطة إخلاص العبادة لله وحده دون أن يكون لغيره تعالى نصيب منها، فإذا دعوا الله دعوه مخلصين له الدين متوجهين إليه بكليتهم من غير أن تكون بينهم وبينه واسطة، وإذا أرادوا من الله قضاء حاجة لم ينزلوها إلا بساحة فضله العميم، ولم يظهروا الذلة والانكسار إلا للرحمن الرحيم، موقنين بأن القرب منه تعالى يكون في السجود: ﴿وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾^(٢) خاشعين، مخبتين لبارئ الوجود، ولم يتوجهوا إلى غير الله، من ملك مقرب، أو نبي مرسل، بله غيرهما من المخلوقين، سواء كانوا أحياء أو مقبورين، ولسان حالهم يقول^(٣): -

لا قبة ترجى ولا وثن ولا قبر له سبب من الأسباب
كلا ولا حجر ولا شجر ولا عين ولا نصب من الأنصاب
لرجاء نفع أو لدفع بلية الله ينفعني ويدفع ما بي

(١) انظر الحديث المفصل عن هذا النوع من الوسطة الشرعية .

(٢) سورة العلق الآية ١٩

(٣) من قصيدة للشاعر ملا عمران . انظرها في مجموعة الرسائل الكمالية ص ١٨٣

ويقول^(١):-

لا تدع في حاجة بازاً ولا أسداً الله ربك لا تشرك به أحداً
ويقول أيضاً في التوجه إلى الله عز وجل وقصده والشكوى إليه^(٢):
ولأكتمن عن البرية خلّتي^(٣) ولأشكون إليك جهد زماني
ولأقصّدك في جميع حوائجي من غير قصد فلانة وفلان

(١) هذا البيت لمفتي مدينة السلام (بغداد) والإشارة بلقب (الباز) إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني الذي تتعلق به قلوب الملايين من الناس في العراق، والهند، وغيرهما يدعونه ويستغيثون به واسطة بينهم وبين الله تعالى. انظر صيانة الإنسان ص ١٩٩

(٢) البيتان لعبد الله بن محمد القحطاني الأندلسي من نوابه. انظر مجموعة المناهل العذاب فيما على العبد لرب الأرباب لصالح السعوي ص ٢١٠

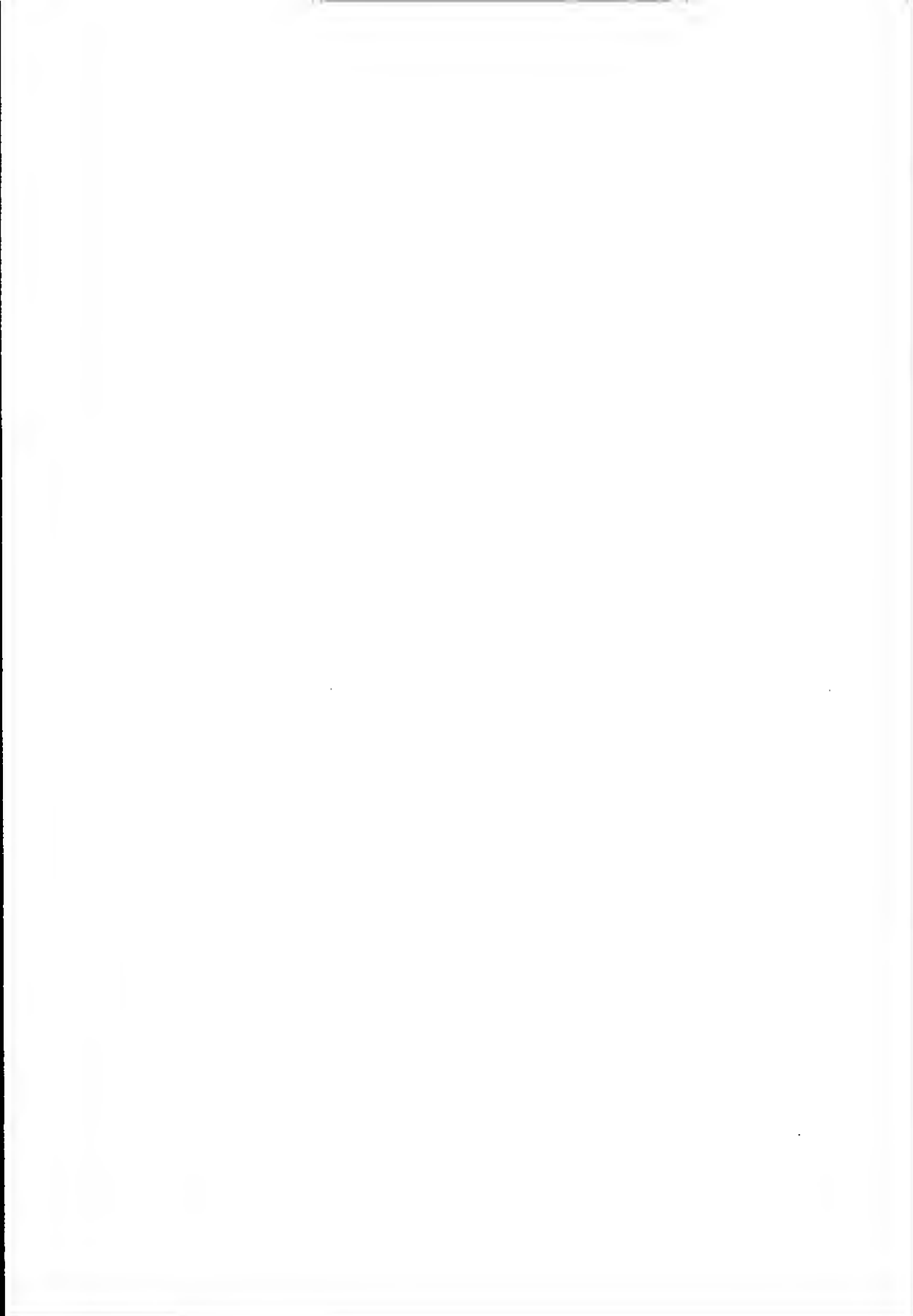
(٣) الخلة: بفتح الحاء: الحاجة والفقر. انظر مختار الصحاح ص ٨٧ مادة (خ ل ل).

الفصل الثاني

صورة الواسطة في التبليغ

وفيه ثمانية مباحث:-

- المبحث الأول: صورة الواسطة في التبليغ في الدنيا.
- المبحث الثاني: صورة الواسطة في التبليغ في الآخرة.
- المبحث الثالث: مقام الرسالة وخصائصها عند أهل السنة والجماعة.
- المبحث الرابع: حقوق الرسول ﷺ على أمة عند أهل السنة والجماعة.
- المبحث الخامس: وجوب الإيمان بعصمته صلى الله عليه وسلم.
- المبحث السادس: الهداية وأنواعها وبيان ما للرسول ﷺ منها.
- المبحث السابع: الرسول ﷺ واسطة في التبليغ والبيان لا في العبادة وجراء الإنسان.
- المبحث الثامن: وسطية أهل السنة والجماعة في باب تعظيم النبي ﷺ.



المبحث الأول

صورة الواسطة في التبليغ في الدنيا

تقدم معنا في المباحث السابقة أن الله سبحانه وتعالى يختار من الملائكة رسلا، ومن الناس رسلا، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾^(١) وأنه عز وجل قد اختار جبريل من بين سائر الملائكة عليهم السلام ليكون أمينا على وحيه إلى الواسطة من الأنبياء والرسل، قال تعالى: ﴿نَزَّلَ بِهِ الرُّوحَ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَيْنَا قَلْبَكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾^(٢)، وقد يرسل مع جبريل بعض الملائكة في حوادث مخصوصة فجبريل ومن معه واسطة في التبليغ من الملائكة.

ويختار الله من البشر إنسانا كاملا عاقلا شريفا سليما في الخلق كريم الأخلاق والنسب، فيوحي إليه بواسطة جبريل عليه السلام، وتتم بعثته إلى قومه رسولا يوحى إليه بواسطة بشرية بينهم وبين الله تعالى لتتم نعمة الله على الناس ببعثة هذا الرسول عند اتباعه ولتقوم الحجة عليهم ويتم الإعذار إليهم عند مخالفته وتكذيبه قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾^(٣).

وقد مرت قوافل البشرية، ومراحل التاريخ، وكان الله يبعث إلى كل أمة رسولا من أنفسهم يأمرهم بعبادة الله تعالى وحده، ويبلغهم شريعته، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾^(٤)، وتتابعت الرسائل السماوية على هذا المنوال، رسالة خاصة بأمة معينة وبزمان معين، من لدن آدم عليه السلام حتى جاءت خاتمة الرسائل على يد خاتمة الوسائط من المرسلين نبينا محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه، فكانت رسالته عالمية إلى الثقلين: الإنس والجن^(٥)، والعرب والعجم، كما قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾^(٦)، وقال تعالى في سورة سبأ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾^(٧).

(٢) سورة الشعراء الآية ١٩٣

(٤) سورة النحل الآية ٣٦

(٥) انظر الاقتصاد في الاعتقاد للغزالي ص ١٢٧، وشرح العقيدة الطحاوية ص ١٦٦، وتفسير ابن كثير ٤/ ١٨٣،

(٦) الآية ١٥٨

(١) سورة الحج الآية ٧٥

(٣) سورة الإسراء الآية ١٥

ولوامع الأنوار ٢/ ٢٢٣

(٧) الآية ٢٨

ويوضح صورة الوساطة في التبليغ في الدنيا كون الله سبحانه وتعالى إذا أراد أن يوحى بالأمر إلى الوساطة من الملائكة أمر جبريل بتبليغ ما يشاء من الوحي، ثم ينزل به جبريل على الوساطة من الرسل، ثم يقوم الرسول بالبلاغ المبين في قومه قائلا: إن الله يأمر بكذا، وكذا وينهى عن كذا، وكذا يقول الإمام الماوردي: (ويكون الملك واسطة بين الرسول وبين ربه، والرسول واسطة بين الملك وبين قومه، وما يؤديه الملك إلى الرسول ليؤديه الرسول إلى قومه ضربان: قرآن، ووحى) (١).

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (والله يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس) فاصطفى جبريل من الملائكة، واصطفى محمداً من الناس. فكلاهما رسول من الله بلغ ما أرسل به (٢).

فاتضح بذلك أن تبليغ الشريعة الذي كان يقوم به الملك إلى الرسول، ويقوم به الرسول إلى المبعوث إليهم واسطة شرعية صحيحة وسببها: كون الوساطة من الملائكة ملكا مقربا ومن البشر رجلا مرسلا يصطفيه الله ويختاره من بين سائر البشر، فلذلك حصل هذان النوعان من الوساطة على الزلفى، والعناية، والقرب، والرسالة من الله تعالى بسبب كونهما واسطة في التبليغ، ومن سوى الأنبياء والرسل من حواريتهم وأنصارهم وأصحابهم وكذلك مشايخ العلم والدين واسطة بين النبي وأمته في تبليغ الشريعة وبيان محاسن الدين في الدنيا؛ لأنهم ورثته كما قال نبينا ﷺ: (إن العلماء ورثة الأنبياء) (٣).

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (ومن سوى الأنبياء من مشايخ العلم والدين فمن أثبتهم وسائط بين الرسول وأمته يبلغونهم ويعلمونهم، ويؤدبونهم، ويقتدون بهم، فقد أصاب في ذلك، وهؤلاء إذا أجمعوا فإجماعهم حجة قاطعة لا يجتمعون على ضلالة، وإن تنازعوا في شيء رده إلى الله والرسول؛ إذ الواحد منهم ليس بمعصوم على الإطلاق، بل كل أحد من الناس يؤخذ من كلامه ويترك إلا رسول الله ﷺ) (٤).

(١) أعلام النبوة ص ٤٧

(٢) مجموع الفتاوى ٦٨/١٥

(٣) رواه أبو داود في سننه ٤/٧٥، وابن ماجه في المقدمة ١/٨١، والترمذي في سننه ٤٨/٥ وقال: * ولا تعرف هذا الحديث إلا عن عاصم بن رجاء بن حيوة وليس هو عندي بمتصل وإنما يروى عن عاصم عن الوليد بن جميل عن كثير بن قيس عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ وهذا أصح *، والدارمي في سننه ١/١٠٤، وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله ١/٤٠، والبخاري في شرح السنة ١/٢٧٥، وصححه الحاكم في المستدرک ١/٨٩، وابن حبان في صحيحه ١/٢٥٣ حديث ٨٨، وحسنه حمزة الكنعاني، وله شواهد يتقوى بها كما قال الحافظ ابن حجر في

(٤) مجموع الفتاوى ١/١٢٥، والواسطة بين الحق والخلق ص ٢٤



ويحدثنا العلامة ابن القيم عن الواسطة بين الرسول وأمة مبينا أهميتها في تبليغ الشريعة في الدنيا فيقول : (ورثة الرسل وخلفاؤهم في أمهم ، هم القائمون بما بعثوا به علما وعملا ودعوة للخلق إلى الله على طريقهم ومناهجهم ، وهذه أفضل مراتب الخلق بعد الرسالة والنبوة وهي مرتبة الصديقية ؛ ولهذا قرنهم الله في كتابه بالأنبياء ، فقال تعالى : ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴾ (١) فجعل درجة الصديقية معطوفة على درجة النبوة ، وهؤلاء هم الربانيون وهم الراسخون في العلم وهم الوسائط بين الرسول وأمة ، فهم خلفاؤه وأولياؤه وحزبه وخاصته وحملة دينه ، وهم المضمون لهم أنهم لا يزالون على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك (٢) .

وقد أمر النبي ﷺ التبليغ عنه ففي صحيح البخاري من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ (بلغوا عني ولو آية وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج ومن كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار) (٣) ، وقال عليه الصلاة والسلام أيضا (ليبلغ الشاهد الغائب) (٤) .

قال الحافظ ابن حجر : (المراد به تبليغ هذا القول المذكور أو تبليغ جميع أحكام الشريعة ، ويستفاد منه : الحث على تبليغ العلم) (٥) .

قال الإمام النووي فيما معناه : يؤخذ من هذا الحديث : وجوب تبليغ العلم بحيث ينتشر في الأمة (٦) .

يقول العلامة ابن القيم : (فأمر صلى الله عليه وسلم بالتبليغ عنه لما في ذلك من حصول الهدى بالتبليغ ، وله صلى الله عليه وسلم أجر من بلغ عنه ، وأجر من قبل ذلك البلاغ ، وكلما كثر التبليغ عنه تضاعف له الثواب ، فله من الأجر بعدد كل مبلغ ، وكل مهتد بذلك البلاغ ، سوى ماله من أجر عمله المختص ، فكل من هدي واهتدى بتبليغه فله الأجر لأنه هو الداعي إليه ولو لم يكن في تبليغ العلم عنه إلا حصول ما يحبه صلى الله عليه وسلم

(٢) طريق الهجرتين ص ٣٥١

(١) النساء الآية ٦٩

(٣) رواه البخاري ٤٩٦/٦ حديث ٣٤٦١

(٤) هذا جزء من خطبة الوداع رواها البخاري ١٥٧/١ حديث ٦٧ ورواها مسلم انظر صحيح مسلم بشرح النووي

كتاب القسامة باب تغليظ تحريم الدماء والأعراض ١١/١٦٧

(٦) انظر شرح النووي لصحيح مسلم ١١/١٦٩

(٥) فتح الباري ١/١٥٩

لكفى به فضلا وعلامة المحب الصادق أن يسعى في حصول محبوب محبوبه، ويذل جهده وطاقته فيه، ومعلوم أنه لا شيء أحب إلى رسول الله ﷺ من إيصاله الهدى إلى جميع الأمة فالمبلغ عنه ساع في حصول محابه فهو أقرب الناس منه وأحوجهم إليه، وهو نائبه وخليفته في أمته، وكفى بهذا فضلا وشرفا للعلم وأهله^(١). (فتبليغ رسالات الله من أفضل الوسائل لأدائه إلى جلب كل صلاح دعت إليه الرسل وإلى درء كل فاسد زجرت عنه الرسل، والإنذار وسيلة إلى درء مفاصد الكفر والعصيان، والتبشير وسيلة إلى جلب مصالح الطاعة والإيمان)^(٢).

وكان الصحابة رضي الله عنهم أجمعين واسطة في التبليغ في الدنيا بين النبي ﷺ وأمته ممن اتبعه من سائر الناس مأمورين أن يبلغ شاهدهم غائبهم كان ذلك في حياة النبي ﷺ وبعده، وكانوا حريصين على التبليغ يبلغ بعضهم بعضا، وكانوا يتناوبون على ذلك كما ثبت في صحيح البخاري من حديث عمر رضي الله عنه أنه قال: (كنت أنا وجار لي من الأنصار من عوالي المدينة)^(٣). . . . وكنا نتناوب النزول على رسول الله ﷺ ينزل يوما وأنزل يوما، فإذا نزلت جئته بخبر ذلك اليوم من الوحي وغيره وإذا نزل فعل مثل ذلك)^(٤). وقال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾^(٥)، وكان النبي ﷺ يبعث الرسل والأمراء والقواد ويأمرهم أن يبلغوا الرسالة إلى من أرسلوا إليهم فبعث رسله إلى كسرى، وقيصر، وسائر ملوك العجم^(٦) وقد يجيء أفراد من القبائل فيسلمون ويتعلمون ويسمعون من النبي ﷺ النصائح والتوجيه، ثم يرجعون إلى قبائلهم واسطة بينهم وبين النبي ﷺ في تبليغ شرع الله، وقد علموا أن النبي ﷺ رسول الله إلى الناس كافة إلى يوم القيامة^(٧).

فالصحابة رضوان الله عليهم، ومشائخ العلم من السلف رحمهم الله إلى أن يعود الإسلام غريبا كما بدأ واسطة بين الرسول ﷺ وأمته، يقتدون به ويبلغون شرعه الذي

(٢) قواعد الأحكام للعزيز بن عبد السلام ١٠٤/١

(١) مفتاح دار السعادة ٧٣/١

(٣) هي ضيعة بينها وبين المدينة أربعة أميال، وقيل ثلاثة، وهي حي العوالي الذي اتصل به عمران المدينة المنورة اليوم. انظر معجم البلدان ١٦٦/٤

(٤) هذا جزء من الحديث الذي رواه البخاري في قصة هجر النبي (لزوجاته رضي الله عنهن وظن بعض المسلمين أنه طلقهن. ١٨٥/١ حديث ٨٩)

(٥) سورة التوبة الآية ١٢٢

(٦) انظر سفراء النبي ﷺ لمحمود شيت خطاب ٢٤/١

(٧) انظر فتح الباري ٢٤١/١٣، والأنوار الكاشفة للمعلمي ص ٧١، وقواعد التحديث للقاسمي ص ٢١، والشفاعة لمقبل الوادعي ص ٥



أوحاه الله إليه وبلغه وورثه العلماء، فهم يبلغون شرع الله للأمة، وينيرون المحجة، ويقيمون عليهم الحجة؛ لذلك كانوا واسطة في الدنيا بين النبي ﷺ وسائر الأمة في تبليغ الشريعة، وبيان الدين للأمة؛ وذلك بما ورثوه من العلم الذي هو ميراث النبوة^(١).

يقول الإمام البيهقي فيما معناه: فالصحابة النجباء رضي الله عنهم هم الواسطة الذين اختارهم الله وزراء لنبيه وأصفياء وخلفاء، وجعلهم السفراء بيننا وبينه ﷺ في الحق الذي عدوه إلينا، والصدق الذي تجاوزه إلينا^(٢).

(١) انظر إشار الحق على الخلق لابن الوزير ص ٧٧، وصيانة الإنسان ص ١٧٩

(٢) انظر الأسماء والصفات للبيهقي ص ٤٦٠

المبحث الثاني

صورة الوساطة في التبليغ في الآخرة

قبل الخوض في غمار هذا المبحث، وبيان الوساطة التي يرسلها الله تعالى إلى أصحاب الأعدار في عرصات يوم القيامة، ينبغي أن نشير في يسير من القول إلى مسألة وقع النزاع فيها بين أهل العلم رحمهم الله، وهذه المسألة هي: هل الآخرة دار عمل، وتكليف وابتلاء أم، دار ثواب، وعقاب، وجزاء؟ أقول: اختلف أهل العلم في هذه المسألة على قولين:-

القول الأول: ذهب كل من الإمام ابن حزم^(١) وشيخ الإسلام ابن تيمية^(٢) والعلامة ابن القيم^(٣) والإمام ابن كثير^(٤) والحافظ ابن حجر^(٥) وغيرهم من العلماء رحمهم الله تعالى إلى إثبات التكليف في الآخرة، وقالوا: إن كون الآخرة دار جزاء لا ينافي حصول التكليف في عرصاتها.

القول الثاني: وذهب الإمام ابن عبد البر، وجماعة من علماء المالكية رحمهم الله تعالى إلى أنه ليس في الآخرة تكليف، وابتلاء وإنما هي دار جزاء^(٦).

وقد استدلل الفريق الأول بقول الله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ (٤٢) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ ﴿٧﴾.

وجه الدلالة من الآية: أنها أثبتت أن الله سبحانه وتعالى أخبر أنه يدعو أقواما إلى السجود يوم القيامة، وهذا الأمر من التكليف^(٨).

كما استدللوا أيضا بالأحاديث الآتية الواردة في إثبات الامتحان وإرسال الوساطة من الله تعالى إلى أصحاب الأعدار ليتم التبليغ إليهم وتقوم الحجة عليهم يوم القيامة، وقالوا: إن كون الدنيا دار عمل، والآخرة دار جزاء لا يلزم منه أن لا يقع في إحداهما ما يختص بالأخرى.

(١) انظر الفصل في الملل والأهواء والنحل ٤/ ٦٠ (٢) انظر مجموع الفتاوى ١٧/ ٣٠٨

(٣) انظر طريق الهجرتين ص ٤٠٠، وأحكام أهل الذمة ٢/ ١١٥٠ كلاهما لابن القيم.

(٤) انظر تفسير ابن كثير ٥/ ٥١ (٥) انظر فتح الباري ٣/ ٤٨٦

(٦) انظر تجريد التمهيد ص ٣٢٦، وأهل الفترة ومن في حكمهم لموفق شكري ص ٨٦

(٧) سورة القلم الآيتان ٤٢-٤٣

(٨) انظر تفسير ابن كثير ٤/ ٤٠٧، وطريق الهجرتين ص ٤٠١

يقول الطيبي رحمه الله^(١): (لا يلزم من أن الدنيا دار بلاء والآخرة دار جزاء أن لا يقع في إحداهما ما يختص بالأخرى، فإن القبر أول منازل الآخرة وفيه ابتلاء، وفنة بالسؤال، وغيره)^(٢). ونقل العلامة ابن القيم عن الإمام البيهقي: أن جماعة من الأئمة نصوا على وقوع الامتحان في الدار الآخرة، وقالوا: إن التكليف لا ينقطع إلا بدخول دار القرار في الجنة أو النار^(٣).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (وهذا أجود ما قيل في هذه المسألة وعليه تنزل جميع الأحاديث)^(٤).

فالتحقيق أنه ثبت بأحاديث صحيحة أن الله سبحانه وتعالى يكلف عباده يوم القيامة في العرصات، وأن التكليف في دار الدنيا، وأما ما يقع في القبر وفي الموقف فهي آثار ذلك التكليف^(٥).

ويقول الشيخ محمد الأمين الشنقيطي: (الجمع بين الأدلة واجب متى ما أمكن بلا خلاف؛ لأن إعمال الدليلين أولى من إلغاء أحدهما ولا وجه للجمع إلا بهذا وهو القول بالعدول والامتحان)^(٦).

واستدل أصحاب القول الثاني بالعقل وأنه ليس في وسع المكلف الدخول في النار؛ لأن ذلك من قبيل التكليف بالمحال^(٧).

والراجع: القول الأول؛ لورود النصوص الصحيحة الصريحة في إثبات وقوع التكليف في عرصات القيامة، وحصول الإرسال إلى من لم تبلغه الدعوة وهم المعذورون، وإنما ينقطع التكليف بدخول الجنة أو النار، والله أعلم.

صورة الواسطة:

من المعلوم بالنقل أن الله سبحانه وتعالى يحاسب العباد يوم القيامة بنفسه قال

(١) هو شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي من علماء الحديث، والتفسير، والبيان، حاز ثروة طائلة من المال فأنفقها في وجوه الخير حتى افتقر في آخر عمره، وكان شديد الرد على المبتدعة آية في استخراج الدقائق من الكتاب والسنة، كانت وفاته سنة ٧٤٣هـ. انظر الدرر الكامنة ٢/١٥٦، والبدر الطالع ١/٢٢٩، والأعلام ٨/٢٨٠

(٢) فتح الباري ١١/٤٥١

(٣) انظر الاعتقاد للبيهقي ص ١٠٧، وطريق الهجرتين ص ٤٠٠، وأحكام أهل الذمة ٢/١١٥٠ كلاهما لابن القيم، وانظر فتح الباري ١١/٤٥١

(٤) مجموع الفتاوى ٤/٢٤٧

(٥) انظر فتح الباري ١١/٤٥١

(٦) مراقي السعود ص ٨٨

(٧) انظر تجريد التمهيد لابن عبد البر ص ٣٢٦، وأهل الفترة ومن في حكمهم لموفق شكري ص ٨٦

تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾^(١) إلا أنه ورد في السنة أنواع من الوساطة في حالات معينة تقع في ذلك اليوم تكريماً للواسطة ولتقوم الحجة ويتم الإعذار بتقدير العزيز الغفار، فقد ورد أن النبي ﷺ يكون واسطة بين الأمم يوم القيامة وبين الرب جل وعلا، وكما كان جبريل عليه السلام واسطة من الملائكة بين الله تعالى وبين الوساطة من الأنبياء والرسل في تبليغ الرسالات في الدنيا، فقد ورد كذلك في بعض الأحاديث أن جبريل عليه السلام يكون واسطة بين الله تعالى وبين خاتم النبيين محمد ﷺ في الآخرة وذلك في الموقف عندما يشتد الكرب، ويفرق القلب، وتذهب الأمم إلى الأنبياء والرسل تطلب منهم الشفاعة^(٢)، ثم يعتذر الأنبياء واحداً بعد واحد حتى ينتهوا إلى خاتمة الوسائط من النبيين محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر إخوانه من المرسلين، فيقول: أنا لها، حتى يأذن الله لمن يشاء ويرضى، ثم ينطلق صلى الله عليه وسلم فيأتي تحت العرش ويقع ساجداً لربه ويحمده بحامد يفتح الله عليه بها في ذلك اليوم، عند ذلك يرسل الله عز وجل جبريل ويقول له: اذهب إلى محمد ﷺ وقل له: ارفع رأسك، سل تعطه، واشفع تشفع، فروى الإمام أحمد في مسنده من حديث أبي بكر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (إني لقائم أنتظر حتى يعبر الصراط إذ جاءني عيسى فقال: هذه الأنبياء جاءتك يا محمد يسألونك ويدعون الله أن يفرق جميع الأمم إلى حيث يشاء الله إلى غير ما هم فيه فاخلق ملجمون بالعرق فأما المؤمن فهو عليه كالزكمة^(٣)، وأما الكافر فيغشاه الموت فقال: انتظر، فذهب نبي الله صلى الله عليه وسلم فقام تحت العرش فلقي مالم يلق ملك مصطفى ولا نبي مرسل، فأوحى الله إلى جبريل: أن اذهب إلى محمد وقل له: ارفع رأسك، سل تعطه، واشفع تشفع^(٤).

(١) سورة الأنبياء الآية ٤٧

(٢) انظر تفصيل الكلام على الشفاعة في مبحث صورة الوساطة في الشفاعة.

(٣) الزكمة والزكام واحد، وهو مأخوذ من الزكم والزكب وهو الملء وحقيقته: تحلب فضول رطبة الدماغ إلى المنخرين. والمراد أن المؤمن لا يتضرر من العرق في ذلك الموقف العصيب وإنما يصيبه من العرق ما يصاب به المزكوم من زكامة، وأما الكافر فيؤذيه ويغشاه كانه الموت. انظر تهذيب اللغة ١٠٤/١، والذيل على النهاية في غريب الحديث لابن علوش ص ٢٢٤

(٤) هذا اللفظ لحديث الشفاعة العظمى رواه الإمام أحمد في المسند ٤/١، وابن خزيمة في التوحيد ص ٣١٠، وابن حبان في صحيحه كما في موارد الظمان ص ٦٤٢، وقال الهيثمي: رواه أحمد وأبو يعلى بنحوه والبيهقي ورجالهم ثقات. انظر مجمع الزوائد ١٠/٣٧٥، وأصل الحديث من غير ذكر توسط جبريل عليه السلام مخرج في الصحيحين. انظر صحيح البخاري مع الفتح كتاب الرقاق باب صفة الجنة والنار ١١/٤١٧ حديث ٦٥٦٥، وصحيح مسلم بشرح النووي كتاب الإيمان باب ما جاء في عصمة الأنبياء ٣/٥٣

وورد في السنة أن الله سبحانه وتعالى يرسل في عرصات يوم القيامة رسولا ليبلغ أوامر الله إلى من لم تبلغه في الدنيا وهم أصحاب الأعدار الذين لم يمكنهم الانتفاع بالرسالة في الدنيا ولم تشملهم هداية النبوة^(١)، وهم: رجل أصم لا يسمع شيئا وقت البعثة، ورجل أحمق مجنون لا يعقل شيئا، ورجل بلغ من الكبر عتيا وأصبح هرما لا يدرك شيئا، وصبي مات قبل الحلم، ورجل مات في الفترة^(٢) لم يدرك رسالة ولم يأته رسول، فهؤلاء يمتحنهم الله عز وجل في ذلك اليوم وجاء امتحانهم في السنة على ثلاث صور:-

الصورة الأولى: ورد أن الله سبحانه وتعالى يمتحنهم بنفسه من غير واسطة، فيأمرهم بدخول نار امتحانا واختباراً، فمن أطاعه دخل الجنة، ومن عصاه دخل النار، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (يؤتى بأربعة يوم القيامة: بالمولود، وبالمتعوه، وبمن مات في الفترة، وبالمعمر الفاني، قال: كلهم يتكلم بحجته، فيقول الرب تعالى لعنق^(٣) من النار: ابرز، فيقول لهم: إني كنت أبعث إلى عبادي رسلا من أنفسهم وإني رسول نفسي إليكم، فيقول لهم: ادخلوا هذه، فيقول من كتب عليهم الشقاء: يا رب أنى ندخلها، ومنها كنا نفر؟ قال: ومن كتب عليه السعادة يمضي فيقتحم فيها مسرعا، فيقول الرب تعالى: قد عاندقوني، وقد عصيتوني، فأنتم لرسلي أشد تكذبا ومعصية، فيدخل هؤلاء الجنة وهؤلاء النار^(٤)).

الصورة الثانية: في امتحانهم يوم القيامة: أنه ترفع لهم نار، ثم ينادون ويدعون إلى اقتحامها، فمن اقتحمها فهو من أهل السعادة والجنة، ومن أمسك عنها فهو من أهل الشقاوة والنار. عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (الهالك

(١) انظر مجموع الفتاوى ٣٠٨/١٧، والعاقبة في ذكر الموت والآخرة للأشيلي ص ٣١٧.

(٢) المراد بأهل الفترة: هم القوم الذين عاشوا في زمان متطاوّل بين نبين كانقطاع الرسالة بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام، وهذا رأي ابن كثير وجمهور المفسرين، وقال السبكي: هم من كانوا بين رسولين لم يرسل إليهم الأول ولم يدركوا الثاني. انظر تفسير ابن كثير ٦٥/٢، وتفسير القرطبي ١٢١/٦، وتفسير الألوسي ١٠٣/٦، وحاشية البتاني على شرح المحلي على متن جمع الجوامع للسبكي ٦٣/١، وأهل الفترة ومن في حكمهم ص ٥٨.

(٣) العنق: الجماعة الكثيرة من الناس، والقطعة من النار وهو المراد هنا. انظر النهاية لابن الأثير ٣١٠/٣ مادة (عنق) ولسان العرب ٢٧٣/١٠ مادة (ع ن ق).

(٤) أخرجه ابن عبد البر في التمهيد ١٢٨/١٨، وأبو يعلى في مسنده ٢٢٥/٧، والبخاري انظر كشف الأستار ٣٤/٣، قال الهيثمي في المجمع ٢١٩/٧: (رواه أبو يعلى، والبخاري بنحوه، وفيه ليث بن أبي سليم وهو مدلس، وبقيّة رجال أبي يعلى رجال الصحيح) وأورده البيهقي في الاعتقاد ص ٧٧، وابن القيم في أحكام أهل الذمة ١١٤٥/٢، وابن كثير في تفسيره ٥١/٥.

في الفترة، والمعنوه، والمولود، قال: يقول الهالك في الفترة: لم يأتي كتاب ولا رسول ثم تلا: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِغَدَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا رَّسُولًا فَتَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَنْ نُنْذِلَ وَنَخْزِي﴾^(١)، ويقول المعنوه: رب لم تجعل لي عقلا أعقل به خيرا ولا شرا، قال: ويقول المولود: رب لم أدرك العقل، قال: فترفع لهم نار فيقال لهم: ردوها أو ادخلوها، قال: فيردها أو يدخلها من كان في علم الله سعيدا لو أدرك العمل، ويمسك عنها من كان في علم الله شقيا لو أدرك العمل، فيقول: إياي عصيتم، فكيف رسلي؟^(٢).

أما الصورة الثالثة فهي: أن الله سبحانه وتعالى يرسل رسولا إلى هؤلاء المعذورين^(٣) واسطة بينه وبينهم يوم القيامة وكل من لم تبلغه الدعوة فمن أطاع هذه الواسطة^(٤) دخل الجنة ومن عصاها دخل النار^(٥)، فعن الأسود بن سريع رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (أربعة يتحنون يوم القيامة: رجل أصم لا يسمع شيئا، ورجل أحمق، ورجل هرم، ورجل مات في الفترة، أما الأصم فيقول: يا رب قد جاء الإسلام وما أسمع شيئا، وأما الأحمق فيقول: يا رب قد جاء الإسلام والصبيان يرمونني بالبر، وأما الهرم فيقول: يا رب قد جاء الإسلام وما أعقل شيئا، وأما الذي مات في الفترة فيقول: رب ما أتاني كتاب ولا رسول، فيأخذ مواليقهم ليطيعن، فيرسل إليهم: أن ادخلوا النار، فالذي نفس محمد بيده لو دخلوها لكانت عليهم بردا وسلاما)^(٦). وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله

(١) سورة طه الآية ١٣٤

(٢) أخرجه ابن عبد البر في التمهيد ١٨/١٢٧، والبعقوي في الجعديات ٢/٧٩٣، والبخاري. انظر كشف الأستار ٣/٣٤، قال الهيثمي في المجمع ٧/٢١٥: رواه البزار، وفيه عطية وهو ضعيف، وبقي رجاله رجال الصحيح، وأورده ابن القيم في أحكام أهل الذمة ٢/١١٤٣، وابن كثير في تفسيره ٥/٥٢، ويشهد له ما تقدم بنحوه من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٣) انظر الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص ٢٢

(٤) لم يرد في السنة تحديد هذه الواسطة، هل هي واسطة من الملائكة أم من البشر؟ إلا أن الحكمة تقتضي أن تكون من البشر للتناسب الحاصل بين الطبيعتين ولغير ذلك من الأغراض التي مرت معنا في مبحث الحكمة في كون الواسطة من البشر انظر ص، غير أنني وجدت ابن عربي الصوفي ذكر في فصوص الحكم ١/١٣٧ أن الله تعالى يرسل أفضلهم واسطة بينه وبينهم، وفيه نظره؛ لأن هذا الواسطة من أهل الأعداء، وهو محتاج إلى واسطة!!

(٥) انظر مجموع الفتاوى ٤/٢٤٦، وطريق الهجرتين ص ٣٩٦، وأحكام أهل الذمة ٢/١١٣٧، والإمام محمد نصر المروزي وجهوده في بيان عقيدة السلف والدفاع عنها للدكتور علي بن نفع العلياني ٢/٥٨٧

(٦) رواه الإمام أحمد في المسند ٤/٢٤، وابن حبان في صحيحه حديث ١٨٢٧، والبزار. انظر كشف الأستار ٤/١٥٦، وأورده الهيثمي في المجمع ٧/٢١٦، وقال: هذا لفظ أحمد ورجاله في طريق الأسود بن سريع وأبي هريرة رجال الصحيح وكذلك رجال البزار فيهما، وأخرجه الطبراني في الكبير ١/٢٦٤، والبيهقي في الاعتقاد وقال: هذا إسناده صحيح ص ٧٦، وابن كثير في تفسيره ٥/٥١ وصححه الشيخ الألباني. انظر

السلسلة الصحيحة ٣/٤١٨ حديث ١٤٣٤

ﷺ: (أربعة كلهم يوم القيامة يدلي على الله بحجة وعذر: رجل هلك في الفترة، ورجل أدرك الإسلام هرماً، ورجل أصم أبكم، ورجل محتوه، فيبعث الله إليهم رسولا فيقول: أطيعوه فيأتيهم الرسول فيؤجج لهم نارا فيقول: اقتحموها، فمن اقتحمها كانت عليه بردا وسلاما، ومن لا حقت عليه كلمة العذاب) (١).

ويتألف أجزاء هذه الصور الثلاث تتكامل صورة الواسطة في التبليغ في الآخرة، ولعل الحكمة من إرسال واسطة في التبليغ في عرصات يوم القيامة هو الإعذار إلى الخلق - ولا أحد أعذر من الله - وإقامة الحجة عليهم تحقيقا لقوله عز من قائل: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ (٢) سبحانه، له الحكمة البالغة وهو الحكيم الخبير.

(١) أخرجه بهذا اللفظ ابن أبي عاصم في السنة ١/١٧٦، وذكره العلامة ابن القيم نقلا عن الإمام أبي نصر المروزي. انظر أحكام أهل الذمة ١١٤٢/٢، ويشهد له ما تقدم من حديث أنس بن مالك، وأبي سعيد الخدري، والأسود بن سريع رضي الله عنهم جميعا، وقد تقدم تخريج أحاديثهم. انظر ص قال الحافظ ابن حجر: "وقد صحت مسألة الامتحان في حق المجنون، ومن مات في الفترة من طرق صحيحة" فتح الباري ٣/٢٤٦.

(٢) سورة الإسراء الآية ١٥

المبحث الثالث

مقام الرسالة وخصائصها عند أهل السنة والجماعة

الرسالة أو النبوة (خبر خاص يكرم الله عز وجل به أحدا من عباده فيميزه بإلقائه إليه ويوقفه به على شريعته بما فيها من أمر ونهي ووعظ وإرشاد ووعد، ووعد^(١)) وتحدث ابن حزم عن تعريف الرسالة فقال: (وتفسير الرسالة هو: أن يرسل الله من يشاء من عباده بما شاء إلى من شاء من خلقه)^(٢).

وقيل الرسالة: (سفارة العبد بين الله تعالى وبين ذوي الأبواب من خليقته ليزيح بها عنهم فيما قصرت عنه عقولهم من مصالح الدنيا والآخرة)^(٣).

قال بعض أهل العلم: (ولهذا توصف أبدا بالرسالة والبعثة)^(٤).

ويقول الإمام الماوردي في تعريفه للرسالة أو النبوة مبينا منزلتها العالية، ومقامها الرفيع: (لا منزلة في العالم أعلى من النبوة التي هي سفارة بين الله تعالى وعباده، تبعث على مصالح الخلق وطاعة الخالق، فكان أفضل الخلق بها أخص وأكملهم بشروطها أحق بها وأمس)^(٥).

ويقول مجد الدين الفيروزآبادي: (النبوة سفارة بين الله وبين ذوي العقول لإزاحة عنهم في أمر معادهم ومعاشهم)^(٦).

ومذهب أهل السنة والجماعة أن النبوة أو الرسالة اصطفاء من الله واختيار منه لعبده من بين سائر الناس يختصه برحمته ويصطفيه بفضلته ومنته، وليست مجرد صفة إضافية غير ثابتة، وقالوا: إن النبي أو الرسول ميزه الله بصفات وخصه بخصائص دون غيره من سائر الناس، وأن الله فضلته بفضائل ومقامات بعد البعثة لم تكن موجودة فيه قبلها^(٧).

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (والله سبحانه قد أخبر أنه يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس، والاصطفاء افتعال من التصفية كما أن الاختيار افتعال من الخيرة، فيختار من

(١) المنهاج في شعب الإيمان للحلي ص ٢٣٩ / ١، وانظر شعب الإيمان للبيهقي ١ / ١٥٠

(٢) كتاب الدرة فيما يجب اعتقاده ص ٣٨١

(٣) شرح العقائد النسفية ص ١٦٤، وانظر دلائل النبوة لقوام السنة تحقيق مساعد الحميد ١ / ١٩، ومعارج القول ٢ / ٤٩١

(٤) دلائل النبوة لأبي نعيم الأصبهاني ١ / ٣٣ (٥) أعلام النبوة ص ٢٥٤

(٦) بصائر ذوي التمييز ٥ / ١٥، وانظر الصلوات والبشر له أيضا ص ١٥

(٧) انظر مقدمة تحقيق النبوات لشيخ الإسلام ابن تيمية تحقيق د/ عبد العزيز الطويان ص ٢٨ رسالة دكتوراه.

يكون مصطفى، وقد قال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾^(١) (فهو أعلم بمن يجعله رسولا ممن لم يجعله رسولا، ولو كان كل الناس يصلح للرسالة لامتنع هذا، وهو عالم بتعيين الرسول وأنه أحق من غيره بالرسالة كما دل القرآن على ذلك) . . . إلى أن قال: (والله سبحانه اتخذ رسولا فضله بصفات أخرى لم تكن موجودة فيه من قبل إرساله كما كان يظهر لكل من رأى موسى، وعيسى، ومحمدا من أحوالهم، وصفاتهم بعد النبوة، وتلك الصفات غير الوحي الذي ينزل عليهم، فلا يقال: إن النبوة مجرد صفة إضافية كأحكام الأفعال كما تقوله الجهمية)^(٢).

وأما الأشاعرة فالرسالة عندهم هي مجرد أمر الرسول بالتبليغ وليست صفة ثبوتية؛ ولذلك جوزوا بعثة كل مكلف إلا أنهم قيدوا هذا الإطلاق بقولهم: إن النبي لا يكون فاجرا.

يقول الشهرستاني: (النبوة ليست صفة راجعة إلى نفس النبي ولا درجة يبلغ إليها أحد بعلمه وكسبه)^(٣).

وقال سيف الدين الآمدي^(٤) -رحمه الله- (وليست النبوة هي معنى يعود إلى ذات من ذاتيات النبي ولا إلى عرض من أعراضه استحقها بكسبه وعلمه)^(٥).

ويرد عليهم شيخ الإسلام ابن تيمية موضحا مذهبهم هذا في تحديد ماهية النبوة أو الرسالة قائلا: (فهؤلاء يجوزون بعثة كل مكلف والنبوة عندهم مجرد إعلامه بما أوحاه إليه، والرسالة مجرد أمره بتبليغ ما أوحاه إليه وليست النبوة عندهم صفة ثبوتية ولا مستلزمة لصفة يختص بها؛ بل هي من الصفات الإضافية كما يقولون مثل ذلك في الأحكام الشرعية)^(٦).

إذا تبين ذلك فالنبوة فضل من الله ورحمته وموهبته ونعمته يمن الله تعالى بها ويعطيها من يشاء من خلقه، ممن أكرمه بالنبوة فلا يبلغها مجتهد بعلمه ولا يستحقها عاقل بكسبه ولا

(٢) منهاج السنة النبوية ٥/٣٧

(١) سورة الأنعام الآية ١٢٤

(٣) نهاية الإقدام في علم الكلام ص ٤٦٢

(٤) هو أبو الحسن علي بن أبي علي بن محمد بن سالم الثعلبي سيف الدين الآمدي، ولد سنة ٥٥١ هـ بآمد بلدة بديار بكر، وتفقه في بداية أمره على مذهب الإمام أحمد، ثم صار شافعيًا، اشتغل بالعلوم العقلية حتى رمي بالتعطيل، توفي بجبل قاسيون سنة ٦٣١ هـ. انظر ميزان الاعتدال ٣/١٣٤، والبداية والنهاية ٥/١٤٤، ومعجم المؤلفين ٧/١٥٥

(٥) غاية المرام في علم الكلام ص ٣١٧

(٦) منهاج السنة النبوية ٢/٤١٤، وانظر مقدمة تحقيق النبوات لشيخ الإسلام ابن تيمية بتحقيق د/ عبد العزيز الطويان ص ٢٩

ينالها باستعداد ولايته؛ بل يخص المولى عز وجل بها من يشاء من عباده المصطفين (إن إرسال الرسل وإنزال الكتب وشرع الشرائع منة من الله تعالى وفضل لا واجب عليه ذلك وإنما هو على سبيل اللطف بالخلق والفضل عليهم فبعث الله تعالى جميع الرسل من آدم إلى محمد صلى الله عليه وسلم أجمعين إلى المكلفين لطف من الله بهم ليبلغوهم عنه سبحانه أمره ونهيه ووعده ووعيده، وبينوا لهم عنه سبحانه ما يحتاجون إليه من أمور المعاش والمعاد مما جاءوا به من شرائعهم وأحكامهم التي أنزلها الله تعالى في كتبه عليهم اختصاصا كالقرآن العظيم، واشتركا كالطهارة لموسى وهارون ويوشع ومن بعدهم إلى عيسى عليه وعليهم السلام حتى تقوم الحجة عليهم بالبينات وينقطع عنهم سائر التعللات كما قال تعالى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ (١) فلولا إعداده تعالى إليهم على السنة الرسل وإقامة الحجة عليهم ببعثه أهل خيرته من ذوي النبوة والفضل لتوهموا أن لهم حجة سائغة ومعدرة بالغة (٢)، ولقد كانت بعثة خاتم النبيين محمد ﷺ نورا أضاء الوجود وبدد الظلام، وسيفاً مصلتنا على الكفر، والظلم والأوثان، ولقد أحسن كعب بن زهير رضي الله عنه عندما قال (٣) :-

إن الرسول لسيف يستضاء به مهند من سيوف الله مسلول

فمذهب أهل السنة والجماعة أن النبوة لا تنال بمجرد الكسب جدا واجتهادا، ويتكلف أنواع العبادات، وتلبس أشق الطاعات، والدأب في تهذيب النفس، وتنقية الخواطر، وتطهير الأخلاق، ورياضة النفس والبدن، وتهذيب ذلك، وإنما هي فضل إلهي محض يؤتيه الله من يشاء من سبق في علمه وإرادته باصطفائه لها، واختياره لتحملها، فالله أعلم حيث يجعل رسالته (٤).

يقول السفاريني (٥) :-

ولا تنال رتبة النبوة بالكسب والتهذيب والفتوة (٦)

لكنها فضل من المولى الأجل لمن يشاء من خلقه إلى الأجل

وهذا بخلاف قول الفلاسفة المشائين الذين يجوزون اكتساب النبوة؛ لأنهم يزعمون أن

(١) سورة النساء الآية ١٦٥ (٢) لوامع الأنوار ٢/٢٥٨، وانظر النبوات ص ٨٨٨

(٣) انظر قصيدة البردة لكعب بن زهير شرح ابن الأنباري ص ٧٨

(٤) انظر لوامع الأنوار ٢/٢٦٠ (٥) لوامع الأنوار ٢/٢٦٠

(٦) الفتوة كرم النفس وتعاطي الأوصاف المحمودة والتخلق بها. انظر القاموس المحيط ٤/٣٧٥ مادة (الفتى).

من لازم الخلوة والعبادة وداوم المراقبة في الغيب والشهادة وتناول الحلال وأخلى نفسه من الشواغل العائقة عن المشاهدة بعد كمال ظاهره وباطنه بالتهذيب والرياضة انصقلت مرآة باطنه وفتحت بصيرة لبه وتهيأ لما لا يستطيع أن يتهيأ له غيره من التحلي بالنبوة؛ لأن النبوة عندهم عبارة عن اجتماع ثلاث خواص في الإنسان :-

الأولسى: الاطلاع على الأمور الغيبية لصفاء جوهر نفسه واتصاله بالروحانيات العالية^(١).

الثانية: ظهور خوارق العادات على يديه .

الثالثة: مشاهدة الملائكة على صورة متخيلة وسماع كلام الله تعالى^(٢) . وقد كذب الفلاسفة ومن نحا نحوهم في هذا التوهم فإن الرسائل السماوية لم تكن أمراً كسبياً ولم تكن الأنبياء والرسل قد تعلموا بطريق المجاهدة والرياضة حتى نالوا مرتبة النبوة والرسالة؛ بل كان أفضل الأنبياء محمد رسول الله ﷺ أمياً لا يحسن القراءة والكتابة وعاش في بيئة خالية من الدراسات الفلسفية والطبيعية المعقدة، كالتي عرفها اليونان والفرس والهنود، ومع ذلك فإن رسالته الخالدة رسمت طريق السعادة والفلاح والفوز والنجاح، وأثرت في الملايين من البشر الذين اعتنقوها فنظمت حياتهم الخاصة والعامة، وحكمت اجتماعهم واقتصادهم وسياساتهم وأخلاقهم وقيمهم، وأثمرت حضارة عالمية سامقة كان لها أثر كبير في الحضارة العالمية، وصدى مازال يدوي في المشرق والمغرب، ولا ريب أن هذا ما كان ليحدث لولا مقام هذه الرسالة ومكانتها لأنها وحي إلهي جاء خاتمة لرسالات الله^(٣).

ولما كمل الرسول صلى الله عليه وسلم مقام الافتقار إلى الله سبحانه وتعالى أكمل الله له رسالته وأحوج الخلائق كلهم إليها في الدنيا والآخرة، أما حاجتهم إليها في الدنيا فأشد من حاجتهم إلى الطعام والشراب والنفس الذي به حياة أبدانهم وأما حاجتهم إليها في الآخرة فإنهم يتشفعون بسائر الرسل إلى الله حتى يريحوهم من ضيق مقامهم في الموقف، فكل رسول يتأخر عن الشفاعة في تلك العرصات حتى يأتي صاحب الرسالة الخاتمة صلى الله عليه وسلم فيشفع لهم عند الله تعالى ليريحهم من أهوال ذلك الموقف وهو الذي يفتح لهم باب الجنة^(٤).

(١) راجع صورة الواسطة عند الفلاسفة .

(٢) انظر منهاج السنة النبوية ٢/٤١٥ ، وبغية المرتاد ص ٣٨٦ ، ولوامع الأنوار ٢/٢٦٨

(٣) انظر الرسالة والرسول لشيخنا الدكتور أكرم ضياء العمري ص ٢٣

(٤) انظر الاقتصاد في الاعتقاد للحافظ عبد الغني المقدسي ص ١٩٦ ، والفوائد لابن القيم ص ١٥٤ ، ونبوة

محمد ﷺ في القرآن ص ٢٧٩

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية - مبينا مقام الرسالة وأنها بمثابة الروح والنور للعالم :
(الرسالة ضرورية للعباد لا غنى لهم عنها وحاجتهم إليها فوق حاجتهم إلى كل شيء ؛ فإن
الرسالة روح العلم ونوره وحياته فأبي صلاح للعالم إذا عدم الروح والحياة والنور؟ ...
ولولا الرسالة لم يهتد العقل إلى تفاصيل المنافع والمضار في المعاش ، فمن أعظم نعم الله
على عباده وأشرف منته عليهم أن أرسل إليهم رسله وأنزل عليهم كتبه وبين لهم الصراط
المستقيم ولولا ذلك لكانوا بمنزلة الأنعام وأشرف حالا منها ^(١) .

ولشرف النبوة ومقامها الرفيع عند الله تعالى نجد أن الله سبحانه وتعالى وصف بها
أفضل أنبيائه ورسله محمد ﷺ في سياق الثناء عليه ، فقال عز من قائل : ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ
يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ ^(٢) ، (ولم يقل على محمد فاختار له أحب أسمائه وأشرف صفاته وهو
من المواضع الكثيرة التي عظم الله فيها نبيه ﷺ وشرفه على الخلق كلهم بها ، فلم يخاطبه
إلا باسم النبوة أو الرسالة فقال : ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ﴾ ^(٣) ، فهذه
فضيلة عظيمة قد نوه العلماء بذكرها وشرفها وجعلها من المراتب العلية وأجدرها ^(٤) .

ولا شك أن الرسالة لم تكتسب مقامها العالي ومكانتها الرفيعة إلا بكونها وحيا من الله
عز وجل يختار له رسولا مصطفى ، والرسول على قدر المرسل .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : (وقد سمي الله الشمس سراجا وهاجا وسماء سراجا
منيرا ونعمة الله بالسراج المنير أنعم من نعمته بالسراج الوهاج من وجوه : منها : أن السراج
الوهاج لصلاح بعض الأمور الدنيوية وهي فانية منقضية ، والسراج المنير لصلاح الدين
والآخرة مع صلاح الدنيا ؛ فإن وجود الشمس لا ينتفع به الآدميون في الدنيا إلا أن يكون
لهم اجتماع وتعاون في المصالح وذلك لا يتم إلا بشرعية تقيم بينهم قانون العدل ، ولم
يطرق الوجود شريعة أعظم من شريعته ﷺ فما يحصل بها صلاح الناس في المعاد وبعض
نعمه منها خير من الدنيا وما فيها ، وأما ما يحصل بها من صلاح القلوب ، والأرواح ،
والأبدان بالعلوم النافعة ، والأعمال الصالحة ، والهدى ، ودين الحق فهذا لا يحصل لا
بشمس ولا بنجومها ، وكذلك ما يحصل بها بعد الموت من السعادة الأبدية التي لا نسبة
لخير الدنيا إليها ^(٥) .

(١) مجموع الفتاوى ٩٣/١٩ ، وانظر لوامع الأنوار ٢/٢٥٩ وما بعدها .

(٢) سورة الأحزاب الآية ٥٦ (٣) سورة آل عمران الآية ٦٨

(٤) الصلوات والبشر ص ٢٥ ، وانظر نبوة محمد ﷺ في القرآن ص ٤٩

(٥) تلخيص كتاب الاستغاثة ٢٣٨/١ ، وانظر أعلام النبوة ص ٤٠ ، وطريق الهجرتين ص ٣٤٩

وقد حصل لمن آمن بالرسالة المحمدية سعادة الدنيا والآخرة؛ بل أعظم نعمة أنعم الله بها على المؤمنين أن أرسل إليهم خاتمة رسله المصطفى ﷺ وأنزل عليه الكتاب ومن عليهم باتباعه والانضواء تحت لوائه فاستنصوا بالرسالة واحتموا بها من هلاك الدنيا وعذاب الآخرة، فوجدوا النور والهدى والإيمان والرحمة والسلام، وليس في الدنيا خير أعظم من هذا، فبالرسالة عرفت أسماء الله وصفاته، وبها عرفت الملائكة والنبيون والجنة والنار وسير الرسل وأخبار الدنيا وملاحمها وفتنها وأشرط الساعة وعلاماتها وأخبار القيامة والموقف، العرصات والجسر والصراط... وغير ذلك. وإذا قيس ما عند أمة محمد ﷺ من العلم والدين والهدى والنور والبيان بفضل رسالة الإسلام إلى ما عند غيرهم من أهل الكتاب، مع أنه في الأصل دون ما عند المسلمين في الصفة والمقدار وبينهما تفاوت عظيم وجد عندهم من الجهل البسيط والمركب في المقال والفعال مالا يكاد يخطر ببال^(١).

ولما كانت الرسائل السماوية السابقة إنما أنزلت لأصلاح شئون أقوام بأعيانهم، والرسالة الخاتمة التي أنزلت على خاتمة الوسائط من الرسل رسالة عامة للبشرية كلها لما كان الأمر كذلك فإن هذا يقتضي أن تمتاز هذه الرسالة بحكم عالميتها عن غيرها من الرسائل بخصائص تجعلها صالحة لكل زمان ومكان، وتفي بمصالح جميع بني الإنسان وقد جعلها الله تعالى كذلك وأنزل على رسوله ﷺ قبيل وفاته: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾^(٢).

وبالنظر إلى ما خصص الله به هذه الرسالة الخالدة من خصائص وميزها به من كمالات نجد أن لرسالة الإسلام خصائص عديدة وميزات فريدة أفردت بالتأليف فجاءت في مجلدات، فكيف بالحديث البسير عنها في هذه الصفحات؟ فمن تلك الخصائص:-

أولاً: عالميتها: جاءت رسالة الإسلام عامة إلى الثقلين: الإنس، والجن، وإلى الأبيض، والأسود، وهذه من الخصائص الكبرى المميزة للإسلام فإن الرسائل السابقة كانت خاصة بأمة معينة وتتقضي بزمان محدد قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾^(٣) وقال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾^(٤) وأما خاتم النبيين محمد ﷺ فقد

(١) انظر تلخيص كتاب الاستغاثة ص ٢٣٧ بتصرف، واقتضاء الصراط المستقيم ١/ ٦٤، والرسالة والرسول

للعمرى ص ٣٤

(٢) سورة إبراهيم الآية ٤

(٣) سورة المائدة الآية ٣

(٤) سورة فاطر الآية ٢٤

خاطبه الله تعالى بقوله: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾^(١)، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(٢)، وقال أيضا: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾^(٣).

فنبينا صلى الله عليه وسلم مبعوث إلى الناس عامة كما قال صلى الله عليه وسلم (أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الناس . . . وذكر منها: وكان النبي يرسل إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة)^(٤) متفق عليه.

والدليل على كون رسالة الإسلام عامة إلى الإنس والجن قول الله تبارك وتعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾^(٥) حيث يدخل في العالمين عالم الجن مع عالم الإنس.

قال الإمام القرطبي^(٦) - رحمه الله تعالى: (والمراد بالعالمين هنا: الإنس والجن؛ لأن النبي ﷺ كان رسولا إليهما ونذيرا لهما)^(٧) فرسالة نبينا محمد ﷺ كانت عامة بالاتفاق بعكس الرسائل السابقة لها فإنها كانت خاصة بأمة معينة، وكتابه صلى الله عليه وسلم هيمن على ما بين يديه من كتب السماء بحكم أنه خاتم الكتب المنزلة وقد بين القرآن الكريم، والسنة المطهرة؛ ذلك أحسن بيان في أكثر من موضع قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ﴾^(٨)، ومع أنه إجماع المسلمين فهو أيضا معلوم بالاضطرار من الدين^(٩). وكما أن الرسالة الخاتمة امتدت بأفاقها الرحبية إلى الماضي فاعترفت برسالات الأنبياء السابقين في التاريخ فإنها اختصت بعمومها وعالميتها، فهي لسائر البشر صالحة لكل زمان ومكان، وليست رسالة أمة معينة ولا تنقضي بزمان محدد

(٢) سورة الأنبياء الآية ١٠٧

(١) سورة الأعراف الآية ١٥٨

(٣) سورة الفرقان الآية ١

(٤) رواه البخاري انظر صحيح البخاري مع الفتح كتاب التيمم ١/ ٤٣٦ حديث ٣٣٥ وصحيح مسلم بشرح النووي

كتاب المساجد ومواقيت الصلاة ٥/ ٤ (٥) سورة الفرقان الآية ١

(٦) هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الأندلسي القرطبي المالكي، الإمام المفسر الفقيه، له مصنفات جليلة النفع، توفي سنة ٦٧١ هـ. انظر شذرات الذهب ٥/ ٣٣٥، ومعجم المؤلفين ٨/ ٢٤٠

(٧) تفسير القرطبي ١٣/ ٤، وانظر شرح العقيدة الطحاوية ص ١٦٦، ولوامع الأنوار ٢/ ٢٧٩، ومعارج القول ٢/ ٤٩٦ (٨) سورة المائدة الآية ٤٨

(٩) انظر كتاب الرد على المنطقيين ص ٤٥٣، وخصائص الدعوة الإسلامية لمحمد أمين حسن ص ١٥٣، وخصائص الرسالة المحمدية للدكتور أحمد مرعي العمري رسالة ماجستير غير منشورة ص ٨٨، وعقيدة ختم النبوة بالنبوة المحمدية ص ٢١

وهي دين الحاضر والمستقبل^(١)، ورسالة الإسلام هي الرسالة العالمية التي ارتضاها الله للبشرية جمعاء حتى قيام الساعة، وقد أمر الله أتباع الديانات الأخرى بالدخول فيها مبينا لهم أنها نسخت الرسالات كلها^(٢) فلا يقبل الله بعد بعثة محمد ﷺ نبينا ولا بعد رسالته رسالة قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾^(٣) وقال أيضا: ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^(٤) (فالرسالة الخاتمة دعوة لوحدة الإنسانية تحت راية التوحيد لا تعترف بالطبقية ولا بالعنصرية ولا باختلاف اللون والعرق واللغة؛ بل هي تتجاوز كل ذلك تحقيقا للمساواة التامة بين البشر، وتوحيداً لموكب الإيمان في طريقه إلى الله)^(٥).

الثانية: كونها خاتمة الرسالات السماوية: بعث النبي ﷺ خاتماً للنبيين، وجاءت رسالته خاتمة للرسالات فختم الله بمحمد ﷺ المرسلين وختم برسالة الإسلام الرسالات السماوية، فلا نبي بعد محمد ﷺ ولا رسالة ولا شريعة بعد الإسلام، ومعنى ختم الرسالة: انتهاء إنباء الله للناس وانقطاع وحي السماء^(٦).

وقال السفاريني: (معناه أنه لا تبتدأ نبوة ولا تشرع شريعة بعد نبوته وشريعته)^(٧). والأدلة على ختم الرسالات الإلهية برسالة الإسلام كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾^(٨).

يقول الإمام ابن كثير: (فهذه الآية نص في أنه لا نبي بعده صلى الله عليه وسلم وإذا كان لا نبي بعده فلا رسول بطريق الأولى والأخرى؛ لأن مقام الرسالة أخص من مقام النبوة؛ فإن كل رسول نبي ولا ينعكس)^(٩).

وقال الإمام ابن جرير في تفسيره لهذه الآية: ... (ولكن رسول الله وخاتم النبيين الذي

(١) انظر عالمية الإسلام لأحمد علي الملا ص ١٠

(٢) انظر الحديث عن قضاء الإسلام على الديانات والممالك القديمة ونسخه الشرائع السابقة في تثبيت دلائل النبوة ٣١٤/٢

(٤) السورة نفسها الآية ٨٥

(٣) سورة آل عمران الآية ١٩

(٥) الرسالة والرسول ص ٣٩ وانظر غاية السؤل في خصائص الرسول لابن الملقن ص ٢٥٩، ولوامع الأنوار ٢٧٩/٢، وخصائص القرآن الكريم ص ٧٢

(٦) انظر عقيدة ختم النبوة بالنبوة المحمدية لشيخنا الدكتور أحمد سعد الغامدي ص ١٦

(٨) سورة الأحزاب الآية ٤٠

(٧) لوامع الأنوار ٢٧٧/٢

(٩) تفسير ابن كثير ٣/٥٠١، وانظر خصائص الرسالة المحمدية للدكتور أحمد مرعي العمري رسالة ماجستير غير منشورة ص ٢١٢

ختم النبوة فطبع عليها فلا تفتح لأحد بعده إلى قيام الساعة^(١). وقد أعلن النبي ﷺ أن رسالته خاتمة الرسالات وأنه عليه الصلاة والسلام خاتم النبيين في أحاديث نبوية كثيرة، منها حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (مثلي ومثل الأنبياء قبلي كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون ويعجبون ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة؟! قال: فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين)^(٢).

وإذا كانت رسالة الإسلام عامة، والقرآن الكريم يخاطب بني البشر جميعا من كان في زمنه صلى الله عليه وسلم ومن سيأتي بعده، فإنه يظهر بهذا العموم أنها خاتمة الرسالات، وأن البشرية ليست بحاجة إلى دين جديد مادامت الرسالة الخاتمة تشمل الجميع، والقرآن الكريم يخاطب الجميع، ولهذا قال الزمخشري في تفسير قول الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾^(٣): إلا رسالة عامة لهم محيطة بهم؛ لأنهم إذا شملتهم فقد كفتهم أن يخرج منها أحد منهم^(٤).

فلا مجال أبدا لمزاحمة هذه الرسالة برسالة أخرى ولا مجال أبدا لرحزحتها عن مكانها الذي خصها الله به، وما حفظ القرآن الكريم إلى يوم القيامة إلا بقاء لهذه الرسالة إلى يوم الدين، فالله سبحانه وتعالى متم نوره ولو كره الكافرون^(٥).

ومما يبين قيمة هذه الخصيصة أن الرسالة الخاتمة هي أعظم الرسالات وأكملها وأشملها حيث (جمع الله فيها محاسن ما قبلها من الرسالات وزادها من الكمالات ما ليس في غيرها، فلهذا جعلها الله شاهدة وأمينة وحاكمة على الرسالات كلها)^(٦).

الثالثة شمولها: تميزت رسالة الإسلام عن الرسالات السماوية السابقة بشمولها بكل ما ينطوي تحت هذه الكلمة من أبعاد ودلالات زمانية ومكانية ونظرة مستوعبة للإنسان ولهذا الكون الذي يعيش فيه، وللدنار الآخرة التي هو صائر إليها، فالرسالة الإسلامية هي الرسالة السماوية الوحيدة (التي امتدت طولا حتى شملت آباء الزمن وامتدت عرضا حتى

(١) تفسير الطبري ١٨/١٩

(٢) رواه البخاري واللفظ له، كتاب المناقب باب خاتم النبيين ٥٥٨/٦، حديث ٣٥٣٤، ومسلم، كتاب الفضائل

باب ذكر كونه صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين ٥١/١٥

(٣) سورة سبأ الآية ٢٨ (٤) الكشاف ٧/٢

(٥) انظر خصائص القرآن الكريم للدكتور فهد الرومي ص ١٩٠ وما بعدها، وخصائص الرسالة المحمدية للدكتور

أحمد مرعي ص ١٦٥

(٦) تفسير ابن كثير ٦٨/٢، وانظر الرسل والرسالات للأشقر ص ٢٥٥

انتظمت آفاق الأمم، وامتدت عمقا حتى استوعبت شئون الدنيا والآخرة^(١).

وقد أشار القرآن إلى معنى الشمول في رسالة الإسلام في غير ما موضع، قال تعالى: ﴿مَّا فُرِطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾^(٢)، وقال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾^(٣).

قال الإمام ابن كثير في تفسير هذه الآية: (أي فارضوه أنتم لأنفسكم؛ فإنه الدين الذي أحبه الله ورضيه وبعث به أفضل الرسل الكرام وأنزل به أشرف كتبه... وهو الإسلام، أخبر الله نبيه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين أنه أكمل لهم الإيمان فلا يحتاجون إلى زيادة أبدا، وقد أتمه الله فلا ينقصه وقد رضيه الله فلا يسخطه أبدا)^(٤)، وقال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾^(٥).

نقل الإمام ابن كثير في تفسيره لهذه الآية عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: (قد بين لنا في هذا القرآن كل علم وكل شيء)، وقال مجاهد: (كل حلال وكل حرام)^(٦)، ثم قال ابن كثير -معلقا على هذين القولين-: (وقول ابن مسعود أعم وأشمل؛ فإن القرآن اشتمل على كل علم نافع من خبر ما سبق وعلم ما سيأتي وكل حلال وحرام، وما الناس إليه محتاجون في أمر دنياهم ودينهم ومعاشهم ومعادهم)^(٧).

لقد جمعت الرسالة الخاتمة محاسن جميع الرسالات السابقة وزادت عليها وفاقتها كمالا وجمالا وجلالا.

يقول الحسن البصري: (أنزل الله مائة وأربعة كتب وأودع علومها أربعة: التوراة، والإنجيل، والزبور، والفرقان [القرآن] ثم أودع علوم الثلاثة الفرقان)^(٨).

ولله در العلامة ابن القيم، فقد بين معنى الشمول في رسالة الإسلام بيانا شافيا، فقال: (وعموم رسالته صلى الله عليه وسلم بالنسبة إلى كل ما يحتاج إليه العباد في معارفهم وعلومهم، وأعمالهم، وأنه لم يحوج أمته إلى أحد بعده وإنما حاجتهم إلى من

(١) خصائص الدعوة الإسلامية لمحمد أمين حسن ص ٢٣١

(٢) سورة الأنعام الآية ٣٨

(٣) سورة المائدة الآية ٣

(٤) تفسير ابن كثير ١٤/٢

(٥) سورة النحل الآية ٨٩

(٦) المرجع نفسه والموضع بعينه.

(٧) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان ٢/٤٥١، وأورده شيخ الإسلام ابن تيمية في التحفة العراقية في أعمال

القلوب ص ٢٦، والسيوطي في الإكليل في استنباط التنزيل ص ٥، والشيخ محمد الأمين في أضواء

البيان ٣/٣٣٦

يبلغهم عنه ما جاء به ، فلرسالته عمومان محفوظان لا يتطرق إليهما تخصيص : عموم بالنسبة إلى المرسل إليهم ، وعموم بالنسبة إلى كل ما يحتاج إليه من بعث إليه في أصول الدين وفروعه ، فرسالته كافية شافية عامة لا تحوج إلى سواها ولا يتم الإيمان به إلا بإثبات عموم رسالته في هذا ، وهذا . . . وقد توفي رسول الله ﷺ وما طائر يقلب جناحيه في السماء إلا ذكر للأمة منه علما وعلمهم كل شيء حتى آداب التخلي وآداب الجماع والنوم والقيام والقعود والأكل والشرب . . . وبالجملة فجاءهم بخير الدنيا والآخرة برمته ولم يحوجهم الله إلى أحد سواه^(١) .

وتتضح خصيصة الشمول في رسالة الإسلام ببيان أن الأنبياء أعلنوا من خلال دعواتهم أنهم مسلمون ، ودعوا إلى الإسلام ، فلقد قال نوح عليه السلام : ﴿وَأْمُرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾^(٢) ، وإبراهيم ، وإسماعيل قالا : ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾^(٣) ، ووصى إبراهيم بنيه ويعقوب فقالا : ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾^(٤) ، ويوسف عليه السلام دعا ربه فقال : ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾^(٥) . فجميع هؤلاء الرسل على نبينا وعليهم الصلاة والسلام دعوا إلى الإسلام ؛ لأنه الدين الخاتم الشامل الذي هيمن على كل الأديان السابقة ، ولا غرو في ذلك ؛ لأن رسالات الأنبياء دعوتها واحدة وهي توحيد الله سبحانه وتعالى وإخلاص العبادة له ، قال تعالى : ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾^(٦) .

وقد أوضح خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم شمول رسالته فبلغ البلاغ المبين وأدى الأمانة وصدع بالدعوة وأوصل الرسالة (فأحكم ما شرع من نص وتنبيه وعم بما أمر من حاضر وبعيد حتى صار لما تحمله من الشرع مؤديا ، ولما تقلده من حقوق الأمة موفيا ؛ لئلا يكون في حقوق الله زلل ولا في مصالح الأمة خلل ، وذلك في برهة من زمانه ، لم يستوف تطاول الاستيعاب ، حتى أوجز وأنجز ، وما ذاك إلا بديع معجز^(٧) . وعن أبي ذر رضي الله عنه قال : (لقد تركنا صلى الله عليه وسلم وما يحرك طائر جناحيه في السماء

(١) أعلام الموقعين ٤ / ٣٧٥ وما بعدها .

(٢) سورة البقرة الآية ١٢٨

(٣) سورة البقرة الآية ١٣٢

(٤) سورة يوسف الآية ١٠١

(٥) سورة آل عمران الآية ١٩

(٦) أعلام النبوة ص ٢٧٠ ، وانظر شرح العقيدة الطحاوية بتحقيق التركي ٢ / ٧٨٧ ، ومجموع الفتاوى ١٩ / ١٨ ،

وخصائص الرسالة المحمدية للدكتور أحمد مرعي ص ١٦٥

إلا أذكرنا منه علما^(١)؛ فلهذا شملت رسالة الإسلام بأنظمتها نواحي الحياة المختلفة ومتطلبات المجتمع الإنساني (فلم تقتصر تعاليمها على النواحي الاعتقادية والتعبدية فقط وإنما امتدت لتشمل النواحي السياسية والاجتماعية والاقتصادية، ونظم التربية والقضاء والأخلاق، وقد استهدفت تعاليمها إقامة حياة إنسانية سامية يتحرر فيها العقل البشري من الخرافات والأوهام، وجاءت هذه التعاليم موافقة لطبيعة الدعوة الإسلامية الخالدة الخاتمة، فلا بد لها والأمر هكذا أن تشمل تعاليمها جميع أنظمة الحياة إلى أن تقوم الساعة^(٢).

فالشمول من الخصائص التي تميزت بها رسالة الإسلام عن كل ما عرفه الناس من الأديان والفلسفات والمذاهب، وهذا الشمول يستوعب آباد الزمن كما يحنو بجناحيه على جميع أم الأرض ويتنظم جميع شئون الحياة في الدنيا والآخرة، وقد تأتى هذا لرسالة الإسلام بحكم كونها رسالة الخلود التي قدر الله بقاءها إلى أن تقوم الساعة، فليس بعد الإسلام رسالة ولا بعد القرآن كتاب ولا بعد النبي ﷺ نبي، فلا غرو أن تأتى خاتمة الرسالات بكل معاني الشمول، وأبعاد الكمالات.

الرابعة: الوسطية والتوازن. قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾^(٣)، فيفهم من هذه الآية تميز رسالة الإسلام بالوسطية في كل شيء: في الاعتقاد بين الإفراط والتفريط، وفي العمل لا تقول بالتبطل ولا تذوب في حمأة الشهوات الدنيوية، ووسط في المعاملات والأخلاق والبر والإنفاق... الخ، وكل ذلك يؤخذ من مفهوم الوسطية حيث جاءت نكرة في سياق الامتنان في الآية، فدللت على العموم.

قال الإمام ابن كثير (ولما جعل الله هذه الأمة وسطا خصها بأكمل الشرائع وأقوم المناهج وأوضح المذاهب)^(٤).

وبما أن التوازن والوسطية من خصائص الإسلام فإن الأمة الإسلامية أمة وسط بين اليهود والنصارى؛ لأن اليهود انحرفوا انحراف قصور، والنصارى انحرفوا انحراف غلو، فذم الله كلتا الطائفتين، وسم النصارى بالضلال، ووسم اليهود بالغضب، وجعل هذه الأمة أمة صراط مستقيم لا عوج فيه ولا أمتا، قال تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾^(٥)

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند/ ١٥٣

(٢) خصائص الدعوة الإسلامية لمحمد أمين حسن ص ١٦٩، وانظر عقيدة ختم النبوة بالنبوة المحمدية ص ١١٤

(٣) سورة البقرة الآية ١٤٣

(٤) تفسير ابن كثير ١/ ٢٧٥، وانظر اليمانيات المسلولة ص ٢٥٥

صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿١﴾.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : (وقد بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم بالحكمة التي هي سته وهي الشريعة والمنهاج الذي شرعه له ، فكان من هذه الحكمة أن شرع له من الأعمال والأقوال ما يبين سبيل المغضوب عليهم والضالين)^(٢).

وقال زين العابدين الكوراني : (ويلحق بذلك توسط شريعة هذه الأمة بين سائر الشرائع أيضا ؛ فإنهم مثلا مأمورون بغسل النجاسة بالماء وكانت اليهود على إفراط بقطع محلها والنصارى في تفريط بمخامرتهن^(٣) لها بلا إزالة ، وأيضا هم مأمورون بعدم موقعة الحائض وكانت اليهود على إفراط من حرمة البيتوتة^(٤) في بيت فيه الحائض والنصارى في تفريط بتجويزهم مواقععتها ، وأيضا جوز الله لهم في القتل العفو والقصاص وكانت النصارى مأمورين بالعفو واليهود مأمورين بالقصاص حتما^(٥) . والدليل على ما قاله الكوراني من أن رسالة اليهود تحتم عليهم القصاص ورسالة النصارى تحتم عليهم العفو قول الله تعالى عن أهل التوراة : ﴿ وَكُنْتُمْ عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ ﴾^(٦) وقال أيضا عن اليهود : ﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾^(٧).

قال المفسرون : (وكذلك الأغلال مثل لما كان في شرائعهم من الأشياء الشاقة نحوبت القضاء بالقصاص عمدا كان أو خطأ من غير شرع الدية)^(٨).

ومن القضايا الاجتماعية التي ظهرت فيها وسطية رسالة الإسلام قضية الطلاق فإن الإسلام أباحه عند الضرورة ، والنصارى يحرمونه على من تزوج ، واليهود لا مراجعة عندهم^(٩) ولو أردت أن أستقصي نواحي التوازن والوسطية في رسالة الإسلام لكتبت عن الإسلام كله ؛ لأن الإسلام ينظر بنظرة وسطية متوازنة إلى كل قضية من قضايا الإنسان والكون والحياة .

(١) سورة الفاتحة الآيات (٦-٧) .

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم ١ / ٨٠ ، وانظر الوسطية في ضوء القرآن الكريم للدكتور ناصر العمر ص ٨٩

(٣) المخامرة : المخالطة . انظر مختار الصحاح ص ١٨٩ مادة (خ م ر) .

(٤) قال الرازي : (يقال : بات الرجل في بيته بيت بيت وبيات بيتوتة) مختار الصحاح ص ٧٠ مادة (ب ي ت)

(٥) الإيمانيات المسلوطة على الرافضة المخدولة ص ٢٥٥

(٦) سورة المائدة الآية ٤٥ (٧) سورة الأعراف الآية ١٥٧

(٨) الكشف ٩٧ / ٢ ، وانظر تفسير البيضاوي ١ / ٣٧٢ ، وتفسير أبي السعود ٢ / ٤١٤

(٩) وقد يكون هذا من خصائص تلك الرسلتين ، وقد يكون من تحريف أهل الكتاب ، والله أعلم .

الخامسة: كون المؤمنين بهذه الرسالة يشهدون يوم القيامة على سائر الأمم من أصحاب الرسالات السابقة؛ لقول الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ (١).

قال بعض المفسرين في معنى: ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ أي (من معاصريكم ومن قبلكم ومن بعدكم من الشرار الذين عليهم تقوم الساعة) (٢).

وقال الإمام ابن كثير (يقول تعالى: إنما حولناكم إلى قبلة إبراهيم عليه السلام واخترناها لكم لنجعلكم خيار الأمم؛ لتكونوا يوم القيامة شهداء على الأمم؛ لأن الجميع معترفون لكم بالفضل) (٣).

وقال تعالى مؤكدا شهادة المؤمنين بهذه الرسالة على سائر أصحاب الشرائع السابقة: ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مَلَّةً أَيْبَكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ (٤).

قال الإمام ابن كثير في معنى الآية (أي إنما جعلناكم هكذا أمة وسطا عدولا خيارا مشهودا بعد التكم عند جميع الأمم لتكونوا يوم القيامة شهداء على الناس؛ لأن جميع الأمم معترفة يومئذ بسيادتها وفضلها على كل أمة سواها فلهذا تقبل شهادتهم عليهم يوم القيامة في أن الرسل بلغتهم رسالة ربهم والرسول يشهد على هذه الأمة أنه بلغها ذلك) (٥).

روى البخاري في صحيحه من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (يجاء بنوح فيقال له: هل بلغت؟ فيقول: نعم يارب، فتسأل أمته: هل بلغكم؟ فيقولون ما جاءنا من نذير! فيقول: من شهودك؟ فيقول: محمد وأمته، فيجاء بكم فتشهدون، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ (٦).

قال العز بن عبد السلام (٧) - رحمه الله تعالى: (نزل الله تعالى أمته (٨) منزلة العدول من

(١) سورة البقرة الآية ١٤٣ (٢) تفسير البيضاوي ١/ ٨٧، وانظر اليمانيات المسلولة ص ٢٥٨

(٣) تفسير ابن كثير ١/ ٢٧٥ (٤) سورة الحج الآية ٧٨

(٥) تفسير ابن كثير ٣/ ٢٤٧

(٦) صحيح البخاري باب ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ حديث ٧٣٤٩

(٧) هو أبو محمد عبدالعزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن بن محمد عز الدين السلمي الدمشقي الشافعي المعروف بابن عبد السلام، فقيه، من أهل الأصول والعربية والتفسير، ولد بدمشق سنة ٥٧٧هـ، وقيل غير ذلك، برع في المذهب الشافعي وبلغ رتبة الاجتهاد، توفي سنة ٦٦٠هـ انظر البداية والنهاية ١٣/ ٢٣٥، وشذرات الذهب ٥/ ٣٠١، ومعجم المؤلفين ٢/ ١٦٢

(٥٢٤) أي: أمة محمد ﷺ

الحكام؛ فإن الله تعالى إذا حكم بين العباد فجحدت الأم تبليغ الرسالة أحضر أمة محمد ﷺ فيشهدون على الناس بأن رسلهم أبلغتهم، وهذه الخصيصة لم تثبت لأحد من الأنبياء^(١).

ومن أهل العلم من يرى أن هذه الشهادة خاصة بأهل العدالة من هذه الأمة وهم أهل السنة والجماعة؛ لأنهم أهل العلم الشرعي ولا يدخل في ذلك من سواهم من أهل الجهل والأهواء والبدع؛ لقوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿لِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾^(٢)؛ ولهذا قال الحافظ ابن حجر: (وكانه من جهة الصفة المذكورة وهي العدالة لما كانت تعم الجميع لظاهر الخطاب أشار إلى أنها من العام الذي أريد به الخاص، أو من العام المخصوص؛ لأن أهل الجهل ليسوا عدولا وكذلك أهل البدع، فعرف أن المراد بالوصف المذكور أهل السنة والجماعة، وهم أهل العلم الشرعي ومن سواهم، ولو نسب إلى العلم فهي نسبة صورية لا حقيقية)^(٣).

ومن أهل العلم من يرى أن المراد مجموع الأمة لعدم اتصاف كل فرد منهم بالوصف المذكور^(٤)؛ ولأن المراد بالشهادة في آية سورة آل عمران الشهادة في الغزوات^(٥)؛ ولأن الحديث الصحيح صرح بعدالة مجموع الأمة وشهادتها على الأم قبلها^(٦)، والله أعلم.

ولا ريب أن شهادة هذه الأمة على الأم قبلها يوم القيامة ميزة عظيمة خص الله بها المؤمنين بهذه الرسالة الخالدة؛ إلا أنها تحمل في طياتها مسئولية عظيمة تتطلب من كل مسلم تطبيق ما جاءت به هذه الرسالة، ومعرفة أحوال أصحاب الرسالات السابقة، وأخذ العبرة مما جرى لهم، ودراسة سير الرسل الصحيحة الواردة في الكتاب والسنة، عند ذلك يتهيأ المسلم لهذه الشهادة العظيمة، ويحق له الافتخار بهذه النعمة الجسيمة في اختصاص

(١) بداية السؤل في تفضيل الرسول ﷺ للعز بن عبد السلام ص ٣٨، وخصائص المصطفى ﷺ بين الغلو والجفاء للصادق إبراهيم ص ٥٤ رسالة ماجستير غير منشورة.

(٢) الآية ١٤

(٣) فتح الباري ١٣/٣١٦، وهو رأي الزمخشري، والبيضاوي، انظر الكشاف ١/٢١٩، وتفسير البيضاوي ١/١٨٤

(٤) انظر تفسير أبي السعود ١/٢٧٦، واليமானيات المسلوطة ص ٢٥٤

(٥) انظر تفسير الطبري ٣/١٤١، وتفسير القرطبي ٤/٢١٨، وتفسير ابن كثير ٢/١٠٧، أما النسفي فقد جمع بين القولين وهما: طلب الاستشهاد في سبيل الله أو اتخاذهم شهداء على الأم يوم القيامة، انظر تفسير النسفي ١/٢٥٦

(٦) انظر اليமானيات المسلوطة ص ٢٥٦، وكشف الغمة ببيان خصائص رسول الله ﷺ والأمة لمصطفى بن إسماعيل ص ٥٠٢

أُمته بالشهادة على الأم القديمة .

السادسة: حفظ الله لها من التبديل: لقد تكفل الله تعالى بحفظ الرسالة الخاتمة ولم يكل حفظها إلى البشر كما وكل حفظ التوراة إلى الربانيين والأحبار قال تعالى: ﴿وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾^(١)، ولم يطق الربانيون والأحبار حفظ رسالتهم فخانوا الأمانة وغيروا وبدلوا وحرفوا وظهر التدخل البشري في التوراة والإنجيل اللذين في أيدي أهل الكتاب اليوم أما رسالة الإسلام فهي رسالة العالم أجمع وهي خاتمة الرسالات ومن خصائصها بقاءها ما بقيت حياة على وجه الأرض^(٢)؛ فلذلك تكفل الله تعالى بحفظها فقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾^(٣).

ومن أظهر صور حفظ هذه الرسالة من التبديل أنك لو نظرت (اليوم في هذا العالم شرقه وغربه لترى العدد الهائل الذي يحفظ القرآن عن ظهر قلب بحيث لو شاء ملحد أو يهودي أو صليبي تغيير حرف منه فإن صبيا صغيرا أو ربة بيت أو عجوز لا يبصر طريقه يستطيعون الرد عليه وبيان خطئه وافتراءه ناهيك عن العلماء الذين حفظوه وفقهوا معانيه وتشبعوا بعلومه، وانظر إلى تاريخ هذا الكتاب وكم نال من عناية ورعاية في تدوينه وتفسيره وإعرابه وقصصه وأخباره وأحكامه ما كان ذلك ليكون لولا ذلك الحفظ الرباني وسيبقى هذا الكتاب إلى أن يأذن الله بزال هذا الكون ودماره)^(٤).

ويكفي رسالة الإسلام هذه الخصيصة دليلا على أنها رسالة إلهية وأن قرأتها كتاب رباني أوحاه الله تعالى إلى خاتم النبيين ﷺ، وتأمل هذا القرآن فسيطول بك المقام وسيمتد بك الزمان لو ذهبت تستعرض الأحداث العظيمة والأحوال الجسيمة، والعوامل الخطيرة والأحوال المتماوجة التي اخترقها القرآن حتى وصل إلينا كما أنزله الله وسيخترق بإذن الله أحوال المجتمع الإسلامي المعاصر وظروفه وملابساته ويصل إلى من بعدنا ومن بعدهم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ما طالته الأفواه النافخة ولا نالته الأصوات اللاغية ليتم الله نوره ولو كره الكافرون)^(٥).

(١) سورة المائدة الآية ٤٤

(٢) انظر الرسل والرسالات للأشقر ص ٢٤١، وخصائص القرآن الكريم للدكتور الرومي ص ١٥٧

(٣) سورة الحجر الآية ٩

(٤) الرسل والرسالات ص ٢٤٢، وانظر الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ١/ ٣٦٢

(٥) خصائص القرآن للدكتور فهد الرومي ص ١٥٧

ويحسن بي أن أشير هنا - في نهاية الحديث عن هذه الخصائص - إلى أن الإمام البيهقي ذكر في آخر كتابه " دلائل النبوة " عدة خصائص بطريق الاختصار فقال : -

١- فمنها: أنه صلى الله عليه وسلم كان رسول الثقلين : الإنس والجن ، وأنه خاتم الأنبياء .

٢- ومنها: أن شرف الرسول بالرسالة ورسالته عليه السلام أشرف الرسالات ، لأنها نسخت ما تقدمها من الرسالات الإلهية ولا تأتي بعدها رسالة تنسخها .

٣- ومنها: أن الله عز وجل أقسم بحياته عليه الصلاة والسلام .

٤- ومنها: أنه جمع له بين إنزال الملك عليه وإصعاده إلى مقام الملائكة وبين إسماعه كلام الملك . ومشاهدته إياه في صورته التي خلق عليها وجمع له بين إخباره عن الجنة والنار وإطلاعه عليهما فصار العلم له واقعا بالعالمين : دار التكليف ، ودار الجزاء عيانا .

٥- ومنها: قتال الملائكة معه .

٦- ومنها: أن الله جل ثناؤه لم يخاطبه في القرآن إلا بالنبي أو الرسول ودعا سائر الأنبياء بأسمائهم .

٧- ومنها: أنه صلى الله عليه وسلم في الدنيا أكثر الأنبياء عليهم السلام أعلاما ، وقد ذكر بعض المصنفين أن أعلام نبينا محمد ﷺ تبلغ ألفا^(١) . والله تعالى أعلم .

(١) انظر دلائل النبوة / ٥ / ٤٩٩ ، والجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح / ١ / ١٤٠

المبحث الرابع

حقوق الرسول صلى الله عليه وسلم على أمته

توطئة: من الحكم الإلهية، والرحمة بالبشرية أن الله سبحانه وتعالى لم يخلق الخلق عبثاً، قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾^(١)، ولم يتركهم سدى؛ بل خلق الخلق لغاية ذكرها في كتابه العزيز وصرحت بها آياته الكريمة في مواضع شتى، منها: قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾^(٢)، وقوله عز وجل: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(٣).

فالحكمة من خلق الله سبحانه وتعالى للخلق أولاً، وبعثهم ثانياً هي اختبارهم وابتلاؤهم ليجزي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، فلذلك لم يتركهم هملاً من غير واسطة ترسم لهم منهجاً وعملاً؛ بل أرسل إليهم رسله تترى وسائط بينه وبينهم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾^(٤)، كلما انطفأت أنوار رسالة وبعد بالناس الأمد عن تعاليم تلك الواسطة بعث الله واسطة أخرى تبشر وتنذر للإعذار إلى الخلق وإقامة الحجة عليهم، قال تعالى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾^(٥)، فالرسل هم الواسطة بين الله تعالى وخلقته في تبليغ الشرائع وإرشاد الخلائق إلى ما فيه صلاح معاشهم ومعادهم^(٦).

ولقد اصطفى الله محمداً ﷺ ليكون خاتم النبيين وآخر الوسائط من المرسلين وجعله أمينه على وحيه وخيرته من خلقه وسفيره بينه وبين عباده وحقته على خلقه أرسله بالهدى ودين الحق بين يدي الساعة بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، وأرسله إلى الناس أجمعين وأكمل له ولأمة الدين، وبعثه على حين فترة من الرسل وظهور الكفر وطموس السبل فأحى به ما درس من معالم الإيمان وقمع به أهل الشرك من عبدة الأوثان والنيران والصلبان وأذل به مشركي أهل الكتاب وأهل الكفر والارتياح، وفلق به صبح الإيمان فأضاء حتى ملأ الآفاق نورا، وأطلع به شمس الرسالة في حنادس^(٧) الظلم سراجاً

(٢) سورة الملك الآية ٢

(٤) سورة النحل الآية ٣٦

(١) سورة المؤمنون الآية ١١٥

(٣) سورة الذاريات الآية ٥٦

(٥) سورة النساء الآية ١٦٥

(٦) انظر مجموع الفتاوى ١/ ٣٦٥، والواسطة بين الحق والخلق ص ١٦، ولوامع الأنوار ٢/ ٢٦٠

(٧) الحنادس: جمع حندس بكسر أوله وثانيه ومعناه: الليل الشديد الظلمة، انظر مختار الصحاح ص ١٢٦ مادة

(حندس) والقاموس المحيط ٢/ ٢١٦ مادة (الحندس).

منيرا، (فهدي الله به من الضلالة، وعلم به من الجهالة، وبصر به من العمى، وأرشد به من الغي، وكثر به بعد القلة، وأعز به بعد الذلة، وأغنى به بعد العيلة^(١))، واستنقذ به من الهلكة، وفتح به أعينا عميا، وآذانا صما، وقلوبا غلفا، فبلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة وكشف الغمة وجاهد في الله حق جهاده وعبد الله حتى أتاه اليقين من ربه وشرح الله له صدره ورفع له ذكره ووضع عنه وزره، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمره وأقسم بحياته في كتابه المبين^(٢).

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية (فهدي الله الناس ببركة نبوة محمد ﷺ وبما جاء به من البينات والهدى هداية جلّت عن وصف الواصفين وفاقّت معرفة العارفين حتى حصل لأمته المؤمنين عموما ولأولي العلم منهم خصوصا من العلم النافع والعمل الصالح والأخلاق العظيمة والسنن المستقيمة ما لو جمعت حكمه سائر الأمم علما وعملا -الخالصة من كل شوب إلى الحكمة التي بعث بها لتفاوتتا تفاوتاً يمنع معرفة قدر النسبة بينهما، فله الحمد كما يحب ربنا ويرضى^(٣)).

ولقد امتن الله سبحانه وتعالى على المؤمنين بهذه الرسالة الخالدة بهذه النعمة العظيمة وهي بعثة هذا النبي الخاتم صلوات الله وسلامه عليه، فقال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾^(٤).

ولما كان خاتم النبيين بهذه المنزلة عند ربه عز وجل وحاجة الناس إليه بهذه الدرجة، فقد أوجب الله لرسوله ﷺ على أمته جملة من الحقوق والواجبات، منها ما يتصل بجانب الرسالة التي بعث بها، ومنها ما يتعلق بشخصه الكريم ومقداره العظيم، صلى الله عليه وسلم، فضلا من الله وتكريما لرسوله وخيرته من خلقه صلى الله عليه وسلم^(٥).

(١) العيلة يفتح أوله: الفقر، انظر المصباح المنير ٢/ ٤٤٠ مادة (العيلة) والقاموس المحيط ٢٣/ ٤ مادة (عال).

(٢) توضيح المقاصد في شرح نونية ابن القيم للعلامة أحمد بن عيسى ص ١٩، وانظر الأم للشافعي ١/ ٤، وروضة المحيين لابن القيم ص ٤، وحقوق النبي صلى الله عليه وسلم على أمته في ضوء الكتاب والسنة لفضيلة الدكتور محمد بن خليفة التميمي ٩/ ٩.

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم ١/ ٦٤، وانظر تلخيص كتاب الاستغاثة ١/ ٢٣٧، ولوامع الأنوار ٢/ ٢٦٢.

(٤) سورة آل عمران الآية ١٦٤.

(٥) انظر حقوق النبي ﷺ على أمته ١/ ١٤، والأجوبة المفيدة لمهمات العقيدة للشيخ عبد الرحمن الدوسري ص ٦٩، وشخصية الرسول ﷺ في ضوء المقاييس الإنسانية للدكتور عبد الحليم عويس ص ٤٧.

وما من شك في أن بيان هذه الحقوق كاملة وتبعتها وتعدادها حقاً حقاً يتطلب مؤلفاً مستقلاً^(١)، وسيخرج بمنهج هذه الرسالة عن المنحى الذي سارت عليه وهو الحديث الموجز عن أهم هذه الحقوق والواجبات، وهذا ما سيكون في الحديث الآتي :-

حقوق الرسول ﷺ على أمته عند أهل السنة والجماعة. إذا تقرر بما قدمنا من مقام هذه الرسالة الخالدة ومكانتها السامية وخصائصه الفريدة دون سائر الرسائل السماوية، فقد أوجب الله عز وجل على الأمة لصاحب هذه الرسالة صلى الله عليه وسلم جملة من الحقوق والواجبات، تطبيقها واجب ومراعاتها أمر لازم^(٢)، ومن ذلك: الإيمان به صلى الله عليه وسلم ومحبته وطاعة أمره واتباع سنته وتعزيزه وتوقيره وتعظيمه والصلاة والسلام عليه، وسيكون الحديث في هذا المبحث عن هذه الحقوق تباعاً :-

أولاً: الإيمان به صلى الله عليه وسلم. الإيمان بالرسول ﷺ يكون به (تصديقه وطاعته واتباع شريعته)^(٣)، ومن ذلك: التصديق بأن المصطفى (نبي الله ورسوله إلى الذين بعث فيهم وإلى من يأتي من بعدهم من الإنس والجن إلى قيام الساعة)^(٤).

قال الإمام البيهقي (والإيمان برسول الله ﷺ يتضمن الإيمان له وهو قبول ما جاء به من عند الله عنه والعزم على العمل به؛ لأن تصديقه في أنه رسول الله إلزام لطاعته وهو راجع إلى الإيمان بالله والإيمان له؛ لأنه من تصديق الرسل وفي طاعة الرسول طاعة المرسل؛ لأنه بأمره أطاعه)^(٥).

وقال القاضي عياض في تعريف الإيمان بالرسول صلى الله عليه وسلم (الإيمان به صلى الله عليه وسلم هو تصديق نبوته ورسالة الله له وتصديقه في جميع ما جاء به وما قاله، ومطابقة تصديق القلب بذلك شهادة اللسان بأنه رسول الله)^(٦).

فتصديقه صلى الله عليه وسلم وطاعته واتباع سنته وتحكيم شرعه هي الأمور التي

(١) ومن أراد التوسع في بيان تلك الحقوق فليرجع إلى كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى صلى الله عليه وسلم للقاضي عياض رحمه الله، وكتاب حقوق النبي صلى الله عليه وسلم على أمته لفضيلة الدكتور محمد بن خليفة التميمي حفظه الله.

(٢) أمر لازم: أي ثابت، ولازم وكل مالا بد منه، انظر مختار الصحاح ص ٥٩٧ مادة (ل ز ب) والمصباح المنير ٢/٥٥٢ مادة (ل ز ب).

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم ١/٢٥٩

(٤) انظر كتاب المنهاج في شعب الإيمان للحليمي ١/٢٣٧، وشعب الإيمان للبيهقي ١/١٤٥

(٦) الشفا ٨/٢

(٥) شعب الإيمان ١/١٥٠

يرتكز عليها الإيمان بالنبي صلى الله عليه وسلم ، وهذا مقتضى الشهادة له بالرسالة كما قال الحافظ ابن حجر (الشهادة بالرسالة تتضمن التصديق بما جاء به)^(١) . ويمكن أن نقول: إن الإيمان بالنبي ﷺ يقوم على ركيزتين عظيمتين:-

الأولى: تصديقه صلى الله عليه وسلم ويترتب عليه أمران مهمان ، أحدهما : إثبات نبوته وصدقه فيما بلغه عن الله عز وجل وهذا مختص به صلى الله عليه وسلم^(٢) ، ويتعلق بإثبات نبوته وصدقه صلى الله عليه وسلم عدة أمور^(٣) منها :-

أ - الإيمان بعموم رسالته وعالميتها وأنها إلى كافة الناس عربهم وعجمهم ، وعامة إلى الشقلين^(٤) إنسهم وجنهم ، قال تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾^(٥) وقال أيضا : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾^(٦) ، وقال تعالى : ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ﴾^(٧) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (والذي نفسي بيده لا يسمع بي رجل من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار)^(٨) ، فمن الإيمان بالمصطفى صلى الله عليه وسلم الإيمان بجميع ما جاء به صلى الله عليه وسلم ومما جاء به ودعا الناس إلى الإيمان به الإخبار بعموم رسالته للإنس والجن بجميع أجناسهم وأشكالهم وألوانهم ونحلهم ومللهم ولغاتهم وبلدانهم^(٩) .

ب - الإيمان بكونه صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين ورسالته خاتمة الرسالات السماوية^(١٠) ، قال الله تعالى : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾^(١١) .

(٢) انظر مجموع الفتاوى ٩١/١٥

(١) فتح الباري ١١٩/١

(٣) سبق الحديث عن معظم هذه الأمور في المبحث السابق عن مقام الرسالة وخصائصها عند أهل السنة والجماعة .

(٤) عموم رسالة الإسلام وعالميتها من خصائص هذه الرسالة ، وقد سبق الحديث عنها في المبحث السابق .

(٥) سورة الأعراف الآية ١٥٨ (٦) سورة الفرقان الآية ١

(٧) سورة الأنعام الآية ١٩

(٨) رواه مسلم ، كتاب الإيمان باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم إلى جميع الناس ونسخ الملل كلها ١٨٦/٢

(٩) إيضاح الدلالة في عموم الرسالة لشيخ الإسلام ابن تيمية ضمن مجموعة الرسائل المنيرة ٩٩/٢ ، وحقوق النبي على أمته للتبليغ ٨٤/١

(١٠) انظر الحديث عن هذه الخصيصة في المبحث السابق .

(١١) سورة الأحزاب الآية ٤٠

وقد تقدم معنا حديث جابر رضي الله عنه، وفيه: أن النبي ﷺ قال: (وأنا خاتم النبيين).

فمن الإيمان بالنبي صلى الله عليه وسلم الإيمان بكونه خاتم النبيين وكون رسالته خاتمة الرسالات، وهذا من حقوقه صلى الله عليه وسلم الواجبة على الأمة.

جـ - الإيمان بكون شريعته ناسخة لما تقدمها من الشرائع.

د - الإيمان بأنه صلى الله عليه وسلم قد بلغ الرسالة وأكملها وأدى الأمانة على تمامها ونصح الأمة بأجمعها حتى تركهم على البيضاء ليلها كنهارها^(١)، قال الله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾^(٢).

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية - مبينا وجه الدلالة من هذه الآية - (إن الله أخبر في هذه الآية بأنه قد أكمل الدين، وإنما كمل بما بلغه؛ إذ الدين لم يعرف إلا بتبليغه فعلم من ذلك أنه صلى الله عليه وسلم قد بلغ جميع الدين الذي شرعه الله لعباده)^(٣).

فمن حقوق الرسول صلى الله عليه وسلم الثابتة له على أمته أن يقرؤا له بالفضل والصدق والأمانة والتبليغ (فلا يكون إيمان للمرء إذا لم يقر للرسول صلى الله عليه وسلم بأنه قد بلغ الرسالة أعظم ما يكون التبليغ وقام بأدائها أعظم ما يكون القيام، واحتمل في سبيلها أشق ما يحتمله البشر)^(٤).

هـ - الإيمان بعصمته صلى الله عليه وسلم^(٥).

و - الإيمان بماله من الحقوق على أمته كمحبته وطاعته وتعزيره وتوقيره وتعظيمه والصلاة والسلام عليه ﷺ.

قال الحلبي - بعد أن ذكر تعريف الإيمان بالرسول صلى الله عليه وسلم - (والإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم وإن كان في الجملة تصديقه في الرسالة على الوجه الذي يذكره ويصفه؛ فإنه يتفرع ويتشعب فروعاً وشعباً:-

(١) سبق الحديث عن هذه الخصيصة في المبحث السابق. (٢) سورة المائدة الآية ٣.

(٣) مجموع الفتاوى ١٥٥/٥ (بتصرف بسير). (٤) حقوق النبي ﷺ على أمته ١٢٥/١.

(٥) سيأتي الحديث عن العصمة في المبحث الآتي * وسطية أهل السنة والجماعة في باب تعظيم الرسول صلى الله عليه وسلم.

الأول: تصديقه في أن الله عز وجل ثناؤه أرسله فميزه برتبة الرسالة من سائر الناس .

والثاني: تصديقه في أنه عز اسمه أرسله بما يقول ، وإن الذي يؤديه هو رسالة الله التي أرسل بها .

والثالث: تصديقه في أنه أرسله إلى كل من يذكر أنه أرسله إليهم من خصوص أو عموم .

والرابع: تصديقه في أنه خاتم النبيين لا رسول ولا نبي بعده ، والشرعية المشروعة له آخر الشرعية وعليها تقوم الساعة .

والخامس: تصديقه في صفة إرساله ؛ إذ أثبتنا لقومه ؛ فإن قال : أوحى إلي على لسان ملك صدق في أن الذي يأتيه ملك (١) .

والثاني: (تصديقه فيما جاء به وأن ما جاء به من عند الله حق يجب اتباعه ، وهذا يجب عليه صلى الله عليه وسلم وعلى كل أحد) (٢) .

قال شارح الطحاوية (يجب على كل أحد أن يؤمن بما جاء به الرسول إيمانا مجملا ولا ريب أن معرفة ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم على التفصيل فرض على الكفاية) (٣) .

والركيزة الثانية: طاعته واتباع شريعته: إن الإيمان بالمصطفى صلى الله عليه وسلم كما تقرر أنه تصديقه في كل ما جاء به من ربه فهو يتضمن كذلك العزم على العمل بما جاء به ، وهذه هي الركيزة الثانية من ركائز الإيمان به صلى الله عليه وسلم ، وسيكون الحديث عن هذا الحق قريبا بعد الكلام عن محبته صلى الله عليه وسلم .

الأدلة من القرآن والسنة على وجوب الإيمان بالنبي ﷺ .

أولا: الأدلة من القرآن الكريم. لقد أكد الله سبحانه وتعالى وجوب الإيمان بنبيه صلى الله عليه وسلم بأن جعله مقتدرنا بالإيمان به عز وجل في مواضع كثيرة ، منها : قوله تعالى : ﴿ آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْقِضُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُتَخَلِّفِينَ فِيهِ ﴾ (٤) ، وقوله تعالى : ﴿ فَأَمِنُوا

(٢) مجموع الفتاوى ٩١ / ١٥

(٤) سورة الحديد الآية ٧

(١) كتاب المنهاج ٢٣٨ / ١

(٣) شرح العقيدة الطحاوية ص ٧٠

بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١﴾ ، وقد رتب الله على الإيمان بالمصطفى صلى الله عليه وسلم كفلين من الرحمة ونورا ومغفرة فقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٢) والإيمان بالرسول صلى الله عليه وسلم واحد من ثلاثة حقوق اقترن بها حقه صلى الله عليه وسلم مع حق الله تعالى في القرآن الكريم وأما الحقان الآخران فهما : طاعته صلى الله عليه وسلم ومحبته (٣) (فالإيمان بالنبي صلى الله عليه وسلم واجب متعين لا يتم إيمان إلا به ولا يصح إسلام إلا معه) (٤) قال تعالى في حق من لم يؤمن بالله ورسوله : ﴿ وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ﴾ (٥) .

ثانيا : الأدلة من السنة المطهرة . ورد في السنة النبوية أحاديث كثيرة تحض على وجوب الإيمان بالنبي صلى الله عليه وسلم منها : -

١ - حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله) (٦) .

٢ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : (والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار) (٧) .

٣ - وعن ابن عباس رضي الله عنهما لما قدم وفد عبد القيس على النبي ﷺ قال لهم : (أتدرون ما الإيمان بالله وحده؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وصيام رمضان ، وأن تعطوا المغمى من الخمس) (٨) . الحديث .

(١) سورة التغابن الآية ٨ (٢) سورة الحديد الآية ٢٨ وانظر أضواء البيان ٧/ ٥٣٥

(٣) حقوق النبي صلى الله عليه وسلم على أمته ١/ ٦٩

(٤) الشفا ٢/ ٤ (٥) سورة الفتح الآية ١٣

(٦) رواه البخاري ، ١/ ٧٥ ، حديث ٢٥ واللفظ له ، ومسلم انظر صحيح مسلم بشرح النووي كتاب الإيمان باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله محمد رسول الله ١/ ٢١٢

(٧) تقدم تخريجه . (٨) رواه البخاري ، ١/ ١٢٩ ، حديث ٥٣ ، ومسلم ١/ ٥٣

فيؤخذ من هذه الأحاديث وجوب الإيمان بالنبي صلى الله عليه وسلم على كل من بلغه إرساله، سواء في زمنه صلى الله عليه وسلم أو بعده إلى أن تقوم الساعة، سواء في ذلك الإنس والجن، والعرب والعجم، وأهل الكتاب، ومن ليسوا بأهل كتاب؛ لأن الله ختم به الأنبياء ونسخ بشريعته سائر الشرائع، وهذا من الحقوق الثابتة له صلى الله عليه وسلم على كل فرد من أفراد أمته.

ثانيا: محبته صلى الله عليه وسلم. عرف الحافظ ابن حجر المحبة بقوله: (وحقيقة المحبة عند أهل المعرفة من المعلومات التي لا تحد وإنما يعرفها من قامت به وجدانا لا يمكن التعبير عنه) ^(١). وقال العلامة ابن القيم: (لا تحد المحبة بحد أوضح منها فالحدود لا تزيدها إلا خفاء وجفاء، فحدها وجودها ولا توصف المحبة بوصف أظهر من المحبة وإنما يتكلم الناس في أسبابها وموجباتها، وعلاماتها، وشواهداها، وثمراتها، وأحكامها، فحدودهم ورسومهم دارت على هذه الستة، وتنوعت بهم العبارات وكثرت الإشارات بحسب إدراك الشخص ومقامه وحاله وملكه للعبارة) ^(٢).

ونقل القاضي عياض عن سفيان أنه عرف محبة النبي صلى الله عليه وسلم بقوله (المحبة: اتباع الرسول عليه الصلاة والسلام) ^(٣)، ثم علق القاضي عياض على هذا التعريف مبينا أن سفيان راعى في هذا التعريف قول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ ^(٤) فكانه التفت إلى علامة محبة الرسول صلى الله عليه وسلم ^(٥). وقيل (محبة الرسول صلى الله عليه وسلم اعتقاد نصرته والذب عن سنته والانقياد لها وهيبة مخالفته) ^(٦).

ومحبة نبينا صلى الله عليه وسلم روعي فداه حق زائد على وجوب مجرد التصديق بنبوته؛ بل يجب أن يكون أحب إلى المؤمن من نفسه، وولده، ووالده، والناس أجمعين (فحب النبي صلى الله عليه وسلم من أعظم واجبات الإيمان وأكبر أصوله وأجل قواعده؛

(١) فتح الباري ١٠/٤٦٣

(٢) مدارج السالكين ٣/٩، وانظر طريق الهجرتين ص ٢٩٠ (٣) الشفاء ٢٠/٢٥

(٤) سورة آل عمران الآية ٣١

(٥) انظر الشفاء ٢٠/٢٥، وشرح الشفاء ٥٣/٢ للملا علي القاري.

(٦) الشفاء ٢٠/٢٦ وانظر تفسير القرطبي ٤/٦٠

بل هي أصل كل عمل من أعمال الإيمان والدين^(١) .

ولما كانت محبة الله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وسلم هي أصل الإيمان وأساس الدين ، ولما كانت محبة نبينا صلى الله عليه وسلم هي إحدى الحقوق الواجبة له على الأمة فقد بينت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية هذا الواجب وركزت على توضيح هذا الحق ، فمن تلك الآيات : -

أ - قول الله تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾^(٢) ، فالآية دليل على وجوب محبة الله تعالى ورسوله ﷺ وأن محبتهم مقدمة على محبة غيرهما ، ولا يتصور خلاف في ذلك بين الأمة^(٣) .

قال القاضي عياض - بعد استشهاده بالآية (فكفى بهذا حضا وتنبها ودلالة وحجة على إلزام محبته ووجوب فرضها وعظم خطرها واستحقاقه لها صلى الله عليه وسلم ؛ إذ قرع تعالى من كان ماله وأهله وولده أحب إليه من الله ورسوله وأوعدهم بقوله تعالى : ﴿ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ﴾ ، ثم فسقهم بتمام الآية وأعلمهم أنهم ممن ضل ولم يهده الله)^(٤) .

وبتأمل هذه الآية نجد أن الأمر فيها لم يقتصر على وجود أصل المحبة لله ورسوله ؛ بل فيها أمر زائد على ذلك وهو أن يكون الله ورسوله أحب إلينا مما سواهما ، ومحبة الله تقتضي تحقيق العبودية الكاملة له عز وجل ؛ لأن العبادة هي الغاية التي خلق الله لها الخلق من جهة أمره ومحبه ورضاه ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾^(٥) ، كما أن محبة الرسول صلى الله عليه وسلم تقتضي تحقيق المتابعة له وموافقه في حب ما أحبه وبغض ما كرهه ومحبه صلى الله عليه وسلم متفرعة عن محبة الله تعالى وتابعة لها ، فمن أحب الله محبة صادقة من قلبه أوجب له ذلك أن يحب بقلبه ما يحبه الله ورسوله ويكره ما يكرهه الله ورسوله ويرضى ما يرضى الله ورسوله ويسخط ما يسخط الله

(١) التحفة العراقية ص ٥٧ ، وانظر الصارم المسلول ص ٤٢٠ ، وحقوق النبي صلى الله عليه وسلم للتميمي ١/ ٥٣

(٢) سورة التوبة الآية ٢٤

(٣) انظر تفسير القرطبي ٨/ ٩٥

(٤) الشفا ٢٣/ ٢٣

(٥) سورة الذاريات الآية ٥٦

ورسوله وأن يعمل بجوارحه بمقتضى هذا الحب والبغض؛ فإن عمل بجوارحه شيئاً يخالف ذلك بأن ارتكب بعض ما يكرهه الله ورسوله أو ترك بعض ما يحبه الله ورسوله مع وجوبه والقدرة عليه دل ذلك على نقص محبته (١).

فجميع المعاصي إنما تنشأ من تقديم هوى النفس على محبة الله ورسوله وكذلك البدع إنما تنشأ من تقديم الهوى على الشرع، فيجب على المؤمن محبة الله تعالى ومحبة من يحبه الله من الملائكة والأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين عموماً (٢).

ب - وقوله تعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ (٣) وهذه الآية دليل على أن من لم يكن الرسول صلى الله عليه وسلم أولى به من نفسه فليس من المؤمنين وهذه الأولوية تتضمن أموراً ينبغي التنبيه لها: -

منها: أن يكون النبي ﷺ أحب إلى العبد من نفسه التي بين جنبيه؛ لأن الأولوية أصلها الحب ونفس العبد أحب إليه من غيره ومع هذا يجب أن يكون الرسول أحب إليه منها، فبذلك يحصل له اسم الإيمان كما يلزم من هذه الأولوية والمحبة كمال الانقياد والطاعة والرضا والتسليم وسائر لوازم المحبة من الرضا بحكم النبي والتسليم لأمره وإثاره على ما سواه.

ومنها: أن لا يكون للعبد حكم على نفسه أصلاً؛ بل الحكم على نفسه للرسول صلى الله عليه وسلم يحكم عليها أعظم من حكم السيد على عبده، أو الوالد على ولده، فليس له - وحالة الحب هذه - في نفسه تصرف قط إلا ما تصرف فيه الرسول الذي هو أولى به منها (٤).

ج - وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٥)، وفي هذه الآية إشارة إلى التلازم بين محبة الله تعالى ومحبة رسوله صلى الله عليه وسلم؛ لأن الله تعالى قد جعل برهان محبته تعالى ودليل صدقها هو اتباع النبي صلى الله عليه وسلم ولا يتم اتباع النبي صلى الله عليه وسلم إلا بعد الإيمان به، والإيمان به صلى الله عليه وسلم لا بد فيه من تحقق شروطه التي منها محبته صلى الله عليه وسلم،

(١) حقوق النبي ﷺ على أمته للدكتور التميمي ١/ ٣٠٢ (٢) انظر جامع العلوم والحكم ص ٣٨٨

(٣) سورة الأحزاب الآية ٦ (٤) انظر الرسالة التبوكية لابن القيم ص ٣٩ (بتصرف).

(٥) سورة آل عمران الآية ٣١

فمن كان صادقاً في دعوى محبة الله اتبع رسوله لا محالة، وكان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما^(١).

وذكر الإمام القرطبي عن الحسن وابن جريج^(٢) - رحمهما الله تعالى - أنهما قالاً: نزلت هذه الآية في قوم من أهل الكتاب قالوا: نحن الذين نحب ربنا^(٣).

ونقل الإمام ابن كثير عن الحسن البصري وغيره من السلف أنهم قالوا: زعم قوم أنهم يحبون الله فابتلاهم الله بهذه الآية^(٤).

وقال بعض السلف: لما كثر المدعون للمحبة طولبوا بإقامة البينة على صحة الدعوى، فلو يعطى الناس بدعواهم لادعى الخلي حرقه الشجي فتتويع المدعون في الشهود، فقيل: لا تقبل هذه الدعوى إلا ببينة: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾^(٥).^(٦)

وقال القاضي عياض: (فالصادق في حب النبي ﷺ من تظهر علامة ذلك عليه وأولها الاقتداء به واستعمال سنته واتباع أقواله وأفعاله وامتنال أوامره واجتناب نواهيه والتأدب بأدابه في عسره ويسره ومنشطه ومكرهه، وشاهد هذا قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾^(٧)).

ومن الأحاديث التي جاءت في معرض لتأكيد وجوب محبة النبي صلى الله عليه وسلم:-

أولاً: ما جاء في حديث عمر رضي الله عنه أنه قال للنبي ﷺ (يا رسول الله لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي، فقال النبي ﷺ لا والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك، فقال له عمر فإنه الآن والله لأنت أحب إلي من نفسي، فقال النبي ﷺ الآن يا عمر)^(٨). فهذا الحديث نص على وجوب تقديم محبة الرسول صلى الله عليه وسلم على محبة النفس.

(١) انظر حقوق النبي صلى الله عليه وسلم على أمته للتميمي ٣٠٦/١

(٢) هو شيخ الحرم أبو خالد وأبو الوليد عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج الإمام الحافظ، الأموي المكي، أول من دون العلم بمكة كما قال الذهبي، توفي سنة ١٥٠ هـ. انظر تاريخ بغداد ٤٠٠/١، وسير أعلام النبلاء ٣٢٥/٦،

وتهذيب التهذيب ٢٤٩/٢ (٣) انظر تفسير القرطبي ٦٠/٤

(٤) انظر تفسير ابن كثير ٢٥/٢ (٥) سورة آل عمران الآية ٣١

(٦) انظر مجموع الفتاوى ٣١٥/١٨ (٧) الشفا ٢٢/٢٢

(٨) رواه البخاري، كتاب الأيمان باب كيف كانت عين النبي صلى الله عليه وسلم ٥٢٣/١١ رقم الحديث ٦٦٣٢

ثانيا: ومنها حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال (فوالذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده)^(١) . وهذا دليل على وجوب تقديم محبته صلى الله عليه وسلم على محبة الوالد والولد .

ثالثا: ومنها حديث أنس (قال : قال رسول الله ﷺ (لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين)^(٢) . وهذا دليل أيضا على وجوب تقديم محبته صلى الله عليه وسلم على محبة الوالد والولد والناس أجمعين .

رابعا: ومنها حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال (ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار)^(٣) ، والشاهد منه قوله ﷺ أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما .

خامسا: ومنها حديث أنس رضي الله عنه قال (جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله متى الساعة؟ قال: وما أعددت للساعة؟ قال: حب الله ورسوله، قال: فإنك مع من أحببت، قال أنس فما فرحتا بعد الإسلام فرحا أشد من قول النبي ﷺ: فإنك مع من أحببت، قال أنس: فأنا أحب الله ورسوله وأبا بكر وعمر، فأرجو أن أكون معهم وإن لم أعمل بأعمالهم)^(٤) .

سادسا: ومنها حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (من أشد أمتي لي حبا ناس يكونون بعدي يود أحدهم لو رآني بأهله وماله)^(٥) .

سابعا: ومنها حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر^(٦)

(١) رواه البخاري، كتاب الإيمان باب حب الرسول صلى الله عليه وسلم من الإيمان ٥٨ / ١ رقم الحديث ١٤

(٢) رواه البخاري، كتاب الأيمان والنذور باب حب الرسول صلى الله عليه وسلم من الإيمان واللفظ له ٥٨ / رقم الحديث ٥١ ، ورواه مسلم، كتاب الإيمان باب بيان خصال من اتصف بها وجد حلاوة الإيمان ١٥ / ٢

(٣) أخرجه البخاري، ١ / ٧٢ رقم الحديث ٢١ ، ومسلم، كتاب الإيمان باب خصال من اتصف بها وجد حلاوة الإيمان واللفظ له ٤٨ / ١

(٤) رواه البخاري، ١٠ / ٥٥٧ حديث ٦١٧١ ، ومسلم، كتاب البر والصلة باب المرء مع من أحب ١٦ / ١٨٦ ، واللفظ له .

(٥) رواه مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها باب فيمن يود رؤية النبي صلى الله عليه وسلم بأهله وماله ١٧ / ١٧٠

(٦) خيبر: بلدة تابعة لمنطقة المدينة المنورة في ناحية الشام تبعد عن المدينة ثمانية برد، فتحها النبي ﷺ سنة سبع من الهجرة وقيل غير ذلك، انظر معجم البلدان ٢ / ٤٠٩



(لأعطين هذه الراية رجلاً يحب الله ورسوله يفتح الله على يديه قال عمر بن الخطاب (ما أحببت الإمارة إلا يومئذ، قال: فتساورت لها^(١) رجاء أن أدعى لها، قال: فدعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب فأعطاه إياها... الحديث^(٢)).

فثبت من هذه الآيات القرآنية الكريمة، ومن هذه الآثار النبوية الشريفة وجوب تقديم محبته صلى الله عليه وسلم بعد محبة الله سبحانه وتعالى على النفس والولد والوالد والمال والناس أجمعين، وأنه لا يستكمل أحد الإيمان حتى يكون كذلك، وأن الصحابة رضوان الله عليهم كان حظهم من هذه المحبة أتم وأوفر وكان جهم له صلى الله عليه وسلم أشد وأكبر، ولقد سئل علي بن أبي طالب رضي الله عنه: (كيف كان حبكم لرسول الله ﷺ؟ قال: كان والله أحب إلينا من أموالنا وأولادنا وآبائنا وأمهاتنا، ومن الماء البارد على الظمأ)^(٣).

وقد جعل بعض أهل العلم محبة نبينا صلى الله عليه وسلم ومحبة أهل بيته وأصحابه رضي الله عنهم من خصائصه الكبرى^(٤).

وذكر ابن الملحق^(٥) -رحمه الله- في خصائصه أنه يجب على الأمة أن يحبوا النبي ﷺ محبة خاصة تفوق محبة النفس والمال والولد، وعد ذلك من خصائصه ﷺ التي لم يشاركه فيها أحد من المرسلين؛ وذلك لأن الصفات التي تستوجب المحبة موجودة في حقه صلى الله عليه وسلم فوجب له المحبة الكاملة كما نقل عن القاضي حسين^(٦) -رحمه الله قوله (يجب على المرء أن يكون جزعه وحزنه وقلقه على فراق النبي ﷺ من الدنيا أكثر من حزنه على فراق أبويه كما يجب عليه أن يكون عنده أحب إليه من نفسه وأهله وماله)^(٧).

(١) أي رفعت لها شخصي، انظر النهاية لابن الأثير ٢/ ٤٢٠ مادة (س ور).

(٢) رواه مسلم، كتاب فضائل الصحابة باب فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه ١٧٦/ ١٥

(٣) الشفا ٢/ ٢٠ (٤) انظر الخصائص الكبرى للسيوطي ٣/ ٣٢٩

(٥) هو أبو حفص عمر بن علي بن أحمد بن محمد بن عبد الله سراج الدين الأنصاري الوادياشي الأندلسي، التكروري الأصل، المصري، الشافعي، فقيه، أصولي، محدث، حافظ مؤرخ، له مشاركات في بعض العلوم، ولد بالقاهرة سنة ٧٢٣هـ، وتوفي بها سنة ٨٠٤هـ.

انظر الضوء اللامع ٦/ ١٠٠، وشذرات الذهب ٧/ ٤٤، والبدر الطالع ٥٠٨

(٦) هو أبو علي الحسين بن محمد بن أحمد المروزي القاضي من أجلة أصحاب الإمام الشافعي، ومتى أطلق القاضي عند الشافعية فهر المراد، توفي سنة ٤٦٢هـ انظر طبقات الشافعية الكبرى ٣/ ١٥٥، وشذرات

الذهب ٣/ ٣١٠ (٧) غاية السؤل في خصائص الرسول ص ١٧٦



فكل من آمن بالنبي صلى الله عليه وسلم لا يخلو من وجدان شيء من تلك المحبة الراجحة له صلى الله عليه وسلم غير أنهم متفاوتون في ذلك فمنهم من يأخذ من تلك الأرجحية بالحظ الأوفر، ولا ريب أن حظ الصحابة رضي الله عنهم من تلك المحبة أعظم؛ لأن معرفتهم لقدره أعظم؛ ولأن المحبة ثمرة المعرفة فتقوى وتضعف بحسبها، ومن المسلمين من يكون مستغرقا في الشهوات محجوبا بالغفلات عن ذلك المعنى في أكثر الأوقات، فهذا بأخس الأحوال^(١).

وقال الحافظ ابن حجر: (ومن علامة الحب المذكور أن يعرض على المرء أن لو خير بين فقد غرض من أغراضه أو فقد رؤية النبي ﷺ أن لو كانت ممكنة فإن كان فقدها أن لو كانت ممكنة أشد عليه من فقد شيء من أغراضه فقد اتصف بالأحبية المذكورة ومن لا فلا، وليس ذلك محصورا في الوجود والفقْد؛ بل يأتي مثله في نصرة سته والذب عن شريعته وقمع مخالفتيها)^(٢).

وتبدو علاقة حب النبي ﷺ في حياته ببذل المجهود في طاعته ونصرته ومعاونته وبذل المال إذا أَرَادَه والمسارة إلى ما يحبه، وأما بعد مماته صلى الله عليه وسلم فتكون بطلب سنته والبحث عن أخلاقه وآدابه وتعظيم أمره ولزوم القيام به وشدة الغضب والإعراض عن من يدين بخلاف سنته والغضب على من ضيعها لأثرة دنيا وحب من كان بسبيل من قرابة أو صهر أو هجرة أو نصرة أو صحبة ساعة من ليل أو نهار على الإسلام والتشبه به في زيهِ ولباسه صلى الله عليه وسلم^(٣). فمن حقه صلى الله عليه وسلم فداه أبي وأمي الذي أوجبه الله علينا أن نحبه محبة خاصة تفوق محبتنا لنفوسنا وأموالنا وأولادنا وأمهاتنا وآبائنا وجميع الخلق لئتم إيماننا ويرحمنا ربنا وذلك بفضل سفارته؛ لأنه صلى الله عليه وسلم الواسطة بيننا وبين ربنا في تبليغ الشريعة وأحكام الدين.

ثالثا: طاعة أمره واتباع سنته ﷺ: العبودية الحقّة هي الاستسلام لله والانقياد له وحده دون سواه واتباع رسوله صلى الله عليه وسلم في كل أقواله، وأفعاله، وأحواله؛ لأن الله تعالى قرن طاعة الرسول بطاعته فقال عز وجل: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ

(١) انظر المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم لأحمد بن عمر القرطبي ١/ ٢٢٦

(٢) فتح الباري ١/ ٥٩

(٣) انظر الصلاة لمحمد بن نصر المروزي ٢/ ٦٩٣

تَرْحَمُونَ^(١) ، وقال تعالى : ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾^(٢) ، وقال أيضا : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾^(٣) ، وجعل سبحانه وتعالى الجنة جزاء لمن آمن به وأطاع رسوله واتبع سنته والنار لمن عصاهما ، فقال عز من قائل : ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾^(٤) وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ^(٥) .

قال الإمام الشافعي رحمه الله (إن الله افترض طاعة رسوله وحتم على الناس اتباع أمره فلا يجوز أن يقال لقول : إنه فرض إلا لكتاب الله ثم لسنة رسوله وذلك لما وصفنا من أن الله تعالى جعل الإيمان برسوله مقرونا بالإيمان به وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم مبينة عن الله معنى ما أراد دليلا على خاصه وعامه ، ثم قرن الحكمة بكتابه فأتبعها إياه ، ولم يجعل هذا لأحد من خلقه غير رسول الله صلى الله عليه وسلم)^(٦) . ولا شك أن طاعة النبي ﷺ واتباع سنته أمر واجب ؛ لأنه من لوازم الإيمان به وتصديقه صلى الله عليه وسلم ، فإذا وجب الإيمان به وتصديقه في ما جاء به وجبت طاعته ؛ لأن ذلك مما أتى به^(٦) ، قال الله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾^(٧) وقال : ﴿وَأِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾^(٨) ، وقال : ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾^(٩) ، وقال : ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾^(١٠) .

قال القاضي عياض - بعد إيراده لهذه الآيات - (فجعل تعالى طاعة رسوله طاعته وقرن طاعته بطاعته ووعد على ذلك بجزيل الثواب ، وأوعد على مخالفته بسوء العقاب ، وأوجب امتثال أمره واجتناب نهيه ، قال المفسرون والأئمة : طاعة الرسول التزام سنته والتسليم لما جاء به)^(١١) .

(٢) سورة آل عمران الآية ٣٢

(١) سورة آل عمران الآية ١٣٢

(٤) سورة النساء الآيتان (١٣-١٤) .

(٣) سورة النساء الآية ٥٩

(٦) انظر الشفا/ ١١ ، وأدب العبودية لمحمد مصطفى عبد الرحمن ص ١١

(٥) الأم ١٤ / ١

(٨) سورة النور الآية ٥٤

(٧) سورة الأنفال الآية ٢٠

(١٠) سورة النساء الآية ٦٩

(٩) سورة الحشر الآية ٧ .

(١١) الشفا/ ١١

ويعلم بما تقدم من الآيات الكريمة أن الله سبحانه وتعالى أوجب على الخلق طاعة أمر الرسول صلى الله عليه وسلم واتباع سنته في مواضع شتى من القرآن الكريم^(١) حتى قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله (نظرت في المصحف فوجدت طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم في ثلاثة وثلاثين موضعاً)^(٢).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية (وقد أمر الله بطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم في أكثر من ثلاثين موضعاً من القرآن وقرن طاعته بطاعته، وقرن بين مخالفته ومخالفته كما قرن بين اسمه واسمه، فلا يذكر الله إلا ذكر معه)^(٣). قال الصرصري^(٤) رحمه الله^(٥) :-

لا يصح الأذان في الفرض إلا باسمه العذب في الفم المرضي

ونصوص الكتاب والسنة التي تحت الأمة على اتباع النبي صلى الله عليه وسلم وامثال أمره والتمسك بسنته لا تحصى كثرة، ومنها قوله تعالى: ﴿فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبَعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾^(٦)، فجعل في الإيمان بالله تعالى وبرسوله صلى الله عليه وسلم واتباع سنته وتطبيق شرعه الهداية التامة والفوز العظيم، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾^(٧).

وقد وضح بعض أهل العلم أن الأسوة في الرسول صلى الله عليه وسلم تعني الاقتداء به والاتباع لسنته وترك مخالفته في الأقوال والأفعال^(٨).

وقد بين الحسن البصري أن الإنسان ينبغي ألا يغتر بقول من يقول: (المرء مع من أحب)؛ لأن من أحب قوماً اتبع آثارهم ولن يلحق المرء بهذه الرتبة حتى يتبع النبي صلى الله عليه وسلم ويأخذ بهديه ويتبع سنته ويصبح ويمسي وهو على نهجه حريصاً على اتباع

(١) وقد تناول تفسير تلك الآيات بشيء من التفصيل فضيلة الدكتور محمد التميمي، انظر حقوق النبي صلى الله عليه وسلم على أمته ١٧٣/١

(٢) الصارم المسلول على شام الرسول ﷺ ص ٥٦ (٣) مجموع الفتاوى ١٩/١٠٣

(٤) هو أبو زكريا يحيى بن يوسف بن يحيى جمال الدين الأنصاري الصرصري نسبة إلى صرصر من أعمال بغداد الشاعر لقب بالمادح لكثرة شعره في مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولد سنة ٥٨٨ هـ، قتله التتار يوم دخلوا بغداد سنة ٦٥٦ هـ انظر ترجمته في البداية والنهاية ١٣/٢٣٤، والنجوم الزاهرة ٧/٦٦، والأعلام ٩/٢٢٥

(٥) انظر تفسير ابن كثير ٤/٥٦١

(٦) سورة الأعراف الآية ١٥٨ (٧) سورة الأحزاب الآية ٢١

(٨) انظر الشفا ٢٤/١٤ ومحبة الرسول صلى الله عليه وسلم بين الاتباع والابتداع لعبد الرؤوف محمد عثمان

طريقته، فإن ملاك الأمر هو الاستقامة والاتباع، أما رأيت اليهود والنصارى وأهل الأهواء والبدع؟ فإنهم يدعون محبة أنبيائهم وليسوا على منهاجهم! (١).

وقد تقدم في بداية هذا المبحث أن طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم هي الركيزة الثانية من ركائز الإيمان به وهي تعني (الانقياد له صلى الله عليه وسلم وذلك بفعل ما أمر به واجتناب ما نهى عنه وزجر امتثالاً لقوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ (٢)، فيجب على الخلق اتباع شريعته والالتزام بسنته مع الرضا بما قضاه والتسليم والاعتقاد الجازم أن طاعته هي طاعة لله وأن معصيته معصية لله؛ لأنه هو الواسطة بين الله وبين الثقلين في التبليغ (٣).

وقد جاءت الأحاديث متضافرة للتأكيد على وجوب طاعة المصطفى ﷺ واتباع سنته وتطبيق شريعته وفعل ما أمر به والترغيب في ذلك مع التأكيد على التحذير من مخالفته وتحريم معصيته والإحجام عن ما نهى عنه، والترهيب من ذلك، فمن تلك الأحاديث:-

١- حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (كل امتي يدخلون الجنة إلا من أبى، قالوا: يا رسول الله ومن أبى؟ قال: من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى) (٤).

٢- ومنها حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله... الحديث) (٥)، فطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم شرط لطاعة الله؛ لأن الله أمر بطاعته فطاعته صلى الله عليه وسلم امتثال لما أمر الله به، وطاعة له (٦).

٣- ومنها حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال (إغما مثلي ومثل

(١) انظر استنشاق نسيم الأنس من نفحات رياض القدس لابن رجب ص ١٢٠

(٢) سورة الحشر الآية ٧

(٣) حقوق النبي صلى الله عليه وسلم على أمته للتبليغ ١/٣٥

(٤) رواه البخاري، انظر صحيح البخاري مع الفتح كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة باب الاقتداء بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ١٣/٢٤٩ رقم الحديث ٧٢٨٠

(٥) رواه البخاري، ١٣/١١١ رقم الحديث ٧١٣٧، ومسلم، كتاب الإمارة باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية ١٢/٢٢٣

(٦) انظر الشفاة ٢/١٢، والرد على الأختائي مطبوع بحاشية تلخيص كتاب الاستغاثة ص ١٨٢

ما بعثني الله به كثر رجل أتى قوما فقال: يا قوم إني رأيته الجيش بعيني وإني أنا النذير العريان^(١)، فالتجاء^(٢) فأطاعه طائفة من قومه فأدجلوا^(٣) فانطلقوا على مهلهم فجوا وكذبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم فصباحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم^(٤) فذلك مثل من أطاعني فاتبع ما جئت به ومثل من عصاني وكذب بما جئت به من الحق^(٥).

٤- ومنها حديث جابر رضي الله عنه وفيه: أن الملائكة جاءت إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو نائم فقالوا: (مثله كمثل رجل بنى دارا وجعل فيها مائدة وبعث داعيا فمن أجاب الداعي دخل الدار وأكل من المائدة ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار ولم يأكل من المائدة.... فالدار الجنة والداعي محمد صلى الله عليه وسلم، فمن أطاع محمدا فقد أطاع الله ومن عصى محمدا فقد عصى الله ومحمد فرق^(٦) بين الناس)^(٧).

فهذه الأحاديث الأربعة وغيرها تؤكد وجوب طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم فيما جاء به، وامتثال أمره واجتناب نهيه، كما تؤكد على أن هذه الطاعة هي مفتاح الجنة، والطريق الموصلة إلى رضا الله ومحبه، وهي سبيل النجاة الوحيد التي متى سلكها المسلم وجاهد نفسه عليها وجد حلاوة الإيمان وفاز برضا الله ورحمته ونجا من سخطه وأليم عذابه^(٨).

وقد حكى الله عن الكفار -وهم في سقر- أنهم يقولون: ﴿يَا لَيْسَتْنَا أَطْعَمَنَا اللَّهُ وَأَطْعَمَنَا

(١) مبالغة في الإنذار وكان من عادة العرب أن رائد القوم إذا وقف على مكان عال فرأى العدو نزاع ثوبه ولوح به ينذر قومه فيبقى عربانا. انظر غريب الحديث لابن الجوزي ٩١/٢ مادة (العين مع الراء).

(٢) التجاء: السرعة أي انجأ بأنفسكم. انظر غريب الحديث لأبي عبيد القاسم بن سلام ٢٤٦/١ مادة (نجا)، والنهاية لابن الأثير ٢٥/٥ مادة (نجا).

(٣) الدجلة بفتح الدال وضمها: السير من أول الليل وقد يراد به الليل كله وأنشدوا له قول علي رضي الله عنه: -

اصبر على السير والإدلاج في السحر وفي الرواح على الحاجات والبكر

انظر النهاية لابن الأثير ١٢٩/٢ مادة (دلج).

(٤) أي: استأصلهم، ومنه الجائحة التي تصيب المال، انظر النهاية لابن الأثير ٢١١/١ مادة (جوح) والقاموس المحيط ١٢٩/١ مادة (الجوح).

(٥) رواه البخاري، ٢٥٠/١٣ رقم الحديث ٧٢٨٣، ومسلم، كتاب الفضائل باب شفقتة صلى الله عليه وسلم على أمته ومبالغته في تحذيرهم عما يضرهم ٤٨/١٥

(٦) أي أنه صلى الله عليه وسلم فرق بين المؤمنين والكافرين بالطاعة والعصيان. انظر النهاية لابن الأثير ٤٣٩/٣ مادة (فرق).

(٧) رواه البخاري، ٢٤٩/١٣ رقم الحديث ٧٢٨١

(٨) انظر فتح الباري ٦١/١، وحقوق النبي صلى الله عليه وسلم على أمته للتبليبي ١٨٨/١

الرُّسُولاً»^(١)، يتمنون العودة إلى الدنيا لتحقيق هذه الطاعة حتى يخلصوا من عذاب جهنم؛ لكنهم تمنوا طاعته حيث لا ينفعهم التمني^(٢).

وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم في غير ما موضع من أحاديثه الشريفة أن كل من ادعى الإيمان بالرسول صلى الله عليه وسلم وتطبيق الشريعة ثم لم يتبع طريقة النبي صلى الله عليه وسلم ورغب عن سته فليس منه كما جاء في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: (جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم يسألون عن عبادة النبي صلى الله عليه وسلم فلما أخبروا كأنهم تقالوها فقالوا: وأين نحن من النبي صلى الله عليه وسلم وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر؟ قال أحدهم: أما أنا فأصلي الليل أبداً، وقال آخر: أنا أصوم الدهر، ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: أنتم الذين قلتم كذا، وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله، وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني)^(٣).

وهذا الحديث يركز على قضيتين مهمتين في دين الإسلام، ألا وهما: -

(أ) الاتباع، (ب) ترك الابتداع، وقد تقدم معنا الأصلان العظيمان اللذان لا يقبل الله عملاً إلا بشرط وجودهما، وهما: -
١- إخلاص العمل لوجه الله تعالى.

٢- متابعة النبي صلى الله عليه وسلم؛ لأن الشريعة ما عرفت إلا بواسطته^(٤).

قال شارح الطحاوية: (فالواجب كمال التسليم للرسول صلى الله عليه وسلم والانقياد لأمره وتلقي خبره بالقبول والتصديق دون أن نعارضه بخيال باطل نسميه معقولا... أو نقدم عليه آراء الرجال وزبالة أذهانهم فنوحده بالتحكيم والتسليم والانقياد والإذعان كما نوحده المرسل بالعبادة والخضوع والذل والإنابة والتوكل، فهما توحيدان لا نجاة للعبد إلا

(٢) انظر الشفا ٢/١٢

(١) سورة الأحزاب الآية ٦٦

(٣) رواه البخاري ٩/١٠٤ رقم الحديث ٥٦٣ واللفظ له، ورواه مسلم، كتاب النكاح باب استحباب النكاح لمن

تاقت نفسه إليه ٩/١٧٥

(٤) تقدم بيان هذين الأصلين العظيمين.

بهما: توحيد المرسل، وتوحيد متابعة الرسول؛ فلا نحاكم إلى غيره ولا نرضى بحكم غيره^(١).

ويجب على كل من آمن بالنبي صلى الله عليه وسلم وصدق بما جاء به من ربه ودخل في الإسلام أن يطيع الرسول صلى الله عليه وسلم الواسطة الذي عرفه بربه؛ لأن الله سبحانه وتعالى لم يبعث واسطة من الرسل إلى أمهم إلا ليطيعوا تلك الواسطة بإذن الله تعالى، قال عز وجل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رُسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾^(٢)، وقد بين الإمام ابن كثير في تفسير هذه الآية أن الله تعالى لم يرسل رسولا واسطة إلى قومه إلا فرض طاعته على من أرسله إليهم ولا يطيع تلك الواسطة إلا من وفقه الله لذلك^(٣).

وتتحقق طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم في امتثال أمره واجتناب نهيه والبعد كل البعد عن أي مخالفة له في الظاهر أو الباطن من شأنها أن تجعل صاحبها مخالفا لللسنة ومشاقا للرسول؛ لقوله صلى الله عليه وسلم في حديث أبي هريرة رضي الله عنه (...). فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم^(٤). وإذا رأينا أمرا يدعي الإيمان بالنبي صلى الله عليه وسلم ومحبه، وتعظيمه، ثم وجدناه غير مطيع لأمر النبي صلى الله عليه وسلم وغير متبع لسته فإن هذا الادعاء افتراء، وتلك المحبة كذب واجترأ وصاحبها مبتدع واعتقاده فاسد وادعاؤه كاذب، كما قيل:-

والدعاوى مالم تقيموا عليها بينات أبنائها أدياء

ولأن علامة المحب الصادق طاعته لمحبهه فالطاعة عنوان المحبة^(٥).

ولقد أحسن القائل^(٦):-

(٢) سورة النساء الآية ٦٤

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص ٢٠٠

(٣) انظر تفسير ابن كثير ٣٠٥/٢

(٤) رواه البخاري، ٢٥١/١٣ رقم الحديث ٧٢٨٨ واللفظ له، ومسلم كتاب الحج باب فرض الحج مرة في العمر ١٠٠/٩

(٥) انظر روضة المحبين ص ٢٦٥، وطريق الهجرتين ص ٢٩٨، وأضواء البيان ٢١٧/١، ومحبة الرسول صلى الله عليه وسلم بين الاتباع والابتداع ص ١٢٥

(٦) اختلف في قائل هذين البيتين اختلافا كثيرا، ف قيل هما لعبد الله بن المبارك، وقيل لرابعة العدوية، وقيل لأبي العتاهية، ورجح مرتضى الزبيدي أنهما للحسن بن محمد بن الحنفية وهو رأي البيهقي في الشعب ٣٨٦/١، قال: فأصل الإنشاد للحسن والباقون ممثلون، انظر الشفا ١٥/٢، وإتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين ٦١٩/٩، وعبد الله بن المبارك الإمام القدوة لمحمد عثمان جمال ص ١٧٥

تعصي الإله وأنت تزعم حبه هذا محال في القياس بديع^(١)
لو كان حبك صادقا لأطعته إن المحب لمن يحب مطيع

وجملة القول: إن الإيمان بالرسول صلى الله عليه وسلم حق من حقوقه الثابتة على أمته ومحبيه صلى الله عليه وسلم حق من حقوقه، وطاعة أمره واتباع سنته حق من حقوقه الثابتة، وهذه الحقوق كلها واجبة وهي مترابطة ومتلازمة ولا يتفك بعضها عن بعض، حيث لا يتصور في شخص واحد وجود بعضها وتخلف حق منها.

رابعاً: تعزيره وتوقيره وتعظيمه صلى الله عليه وسلم.

أمر الله تعالى المؤمنين بتعزير النبي صلى الله عليه وسلم وتوقيره وتعظيم شأنه فقال تعالى: ﴿لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعَزَّوْهُ وَتُقِرُّوهُ﴾ الآية^(٢)، وقال أيضاً: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(٣).

نقل المفسرون عن ابن عباس رضي الله عنهما - في معنى التعزير - أنه قال: ﴿وَعَزَّوْهُ﴾ أي حموه ووقروه. وقال مجاهد: ﴿وَعَزَّوْهُ﴾ سدّدوا أمره وأعانوا رسوله ونصروه^(٤).

قال ابن جرير الطبري: ﴿وَعَزَّوْهُ﴾ معناه: وقروه وعظموه وحموه من الناس ثم قال - بعد أن نقل قول ابن عباس ومجاهد السابقين - (وهذه الأقوال متقاربات المعنى وإن اختلفت ألفاظ أهلها بها ومعنى التعزير في هذا الموضع: التقوية بالنصر والمعونة، ولا يكون ذلك إلا بالطاعة والتعظيم والإجلال)^(٥).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: (التعزير اسم جامع لنصره وتأنيده ومنعه من كل ما يؤذيه)^(٦). وعن معنى التوقير قال ابن عباس رضي الله عنهما: (: ﴿تُقِرُّوهُ﴾ بمعنى التعظيم، وقال قتادة: ﴿تُقِرُّوهُ﴾ أمر الله بتسويده وتفخيمه^(٧).

وقال ابن جرير الطبري: (فأما التوقير فهو التعظيم والإجلال والتفخيم)^(٨).

(١) في بعض المراجع رواية أخرى لهذا المعجز وهي: × هذا لعمرى في القياس شنيع ×

(٢) سورة الفتح الآية ٩ (٣) سورة الأعراف الآية ١٥٧

(٤) تفسير الطبري ٨٥/٩، وانظر تفسير القرطبي ٢٦٦/١٦، وتفسير ابن كثير ٤/١٩٩

(٥) تفسير الطبري ٢٦/٧٥ (٦) الصارم المسلول ص ٤٢٢

(٧) تفسير الطبري ٢٦/٧٤ (٨) المرجع نفسه ٢٦/٧٥

وقال القرطبي (: ﴿وَتَوْفِرُوهُ﴾ أي تدعوه بالرسالة والنبوة لا بالاسم والكنية)^(١) على جهة الإجلال والتعظيم .

وعرف شيخ الإسلام ابن تيمية التوقير بقوله : (التوقير اسم جامع لكل ما فيه سكينه وطمأنينة من الإجلال والإكرام ، وأن يعامل من التشريف والتكريم والتعظيم بما يصونه عن كل ما يخرج به عن حد الوقار)^(٢) .

فتعظيم النبي صلى الله عليه وسلم وإجلاله وتوقيره شعبة عظيمة من شعب الإيمان ، وهذه الشعبة غير شعبة المحبة ؛ بل هي أمر زائد على المحبة ؛ لأن منزلتها ورتبتها أعلى وأسمى من رتبة المحبة فليست كل محبة تورث تعظيماً ، ألا ترى أن الوالد يحب ولده محبة إشفاق لكنها تدعوه إلى تكريمه لا إلى تعظيمه ، أما الولد فإنه يحب والده محبة تجمع بين التكريم والتعظيم ، وكذلك شأن السيد مع مماليكه فإنه يحبهم ولكنه لا يعظمهم ، أما المماليك فإنهم يحبون سيدهم ويعظمونه ، فعلمنا من ذلك أن التعظيم منزلة ورتبة فوق منزلة ورتبة المحبة^(٣) .

ولما قرن الله عز وجل في الآيتين السابقتين بين الإيمان بالنبي صلى الله عليه وسلم وتعظيمه علمنا أن في ذلك تنبيها وإرشادا إلى أن القيام بحقوقه صلى الله عليه وسلم التي منها تعزيرو وتوقيره يعد من الإيمان الواجب الذي لا يتم إيمان المرء إلا به^(٤) .

وهذا التعزيز والتوقير والإجلال للنبي صلى الله عليه وسلم حق من حقوقه الثابتة له في حياته وبعد لحوقه بالرفيق الأعلى ؛ لأن حرمة صلى الله عليه وسلم في قبره كحرمة حيا ؛ ولذلك قال العلماء : يكره رفع الصوت عند قبر الرسول صلى الله عليه وسلم كما كان يكره في حياته عليه الصلاة والسلام ؛ لأنه يجب احترامه وتعظيمه حيا وفي قبره صلى الله عليه وسلم دائما^(٥) .

ويدخل في توقير النبي صلى الله عليه وسلم ورعاية جنابه وإجلاله وتعظيمه توقير آله وذريته وأزواجه وأصحابه رضي الله عن الجميع واحترامهم وإنزالهم المنزلة اللاتقة بهم كما

(١) تفسير القرطبي ١٦ / ٢٦٧ (٢) الصارم المسلول ص ٤٢٢

(٣) انظر المنهاج في شعب الإيمان للحلي ٢ / ١٢٤ ، وشعب الإيمان للبيهقي ١ / ١٩٣

(٤) انظر حقوق النبي صلى الله عليه وسلم على أمته للتيمي ٢ / ٤٢٤ ، والسيف المسلول في الذب عن الرسول للدكتور عويد المطرفي ص ١٠

(٥) انظر الشفا ٢ / ٣٥ ، وحقوق النبي صلى الله عليه وسلم على أمته للتيمي ٢ / ٤٣٢

ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم الأمر بذلك وسلوكه السلف الصالح رحمهم الله ،
فلأل النبي صلى الله عليه وسلم من الحقوق ما يجب رعايتها فالله سبحانه وتعالى جعل
لهم حقا في الخمس والفيء كما قال تعالى : ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ
وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ أَمْنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا
يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ اتَّفَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١) ، وقال تعالى : ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ
رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ (٢) .

كما أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بالصلاة عليهم مع الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم ،
وفي حديث كعب بن عجرة رضي الله عنه قال : (خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم
عليه وسلم فقلنا : قد عرفنا كيف نسلم عليك ، فكيف نصلي عليك ؟ قال : قولوا : اللهم
صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم إنك حميد مجيد ، اللهم بارك
على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم إنك حميد مجيد) (٣) .

قال الإمام ابن كثير (ولا ننكر الوصاة بأهل البيت والأمر بالإحسان إليهم واحترامهم
وإكرامهم ؛ فإنهم من ذرية طاهرة من أشرف بيت وجد على ظهر الأرض فخرا وحسبا
ونسبا ولا سيما إذا كانوا متبعين للسنة النبوية الصحيحة الواضحة الجليلة كما كان عليه
سلفهم كالعباس وبنه وعلي وأهل بيته وذريته رضي الله عنهم أجمعين) (٤) .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية : (ولا ريب أن لآل محمد صلى الله عليه وسلم حقا على
الأمة لا يشركهم فيه غيرهم ويستحقون من زيادة المحبة والمواالة ما لا يستحقه سائر بطون
قريش ، كما أن قريشا يستحقون من المحبة والمواالة ما لا يستحقه غير قريش من القبائل ،
كما أن جنس العرب يستحق من المحبة والمواالة ما لا يستحقه سائر أجناس بني آدم) (٥) .

فأهل السنة والجماعة يحبون أهلالبيت ويتولونهم ويجلونهم ؛ وذلك لحب رسول الله
صلى الله عليه وسلم لهم ويعدون ذلك من توقيره صلى الله عليه وسلم ويودونه حقا من
حقوقه عليه الصلاة والسلام لا كما تزعم الرافضة أنهم هم الذين يحبون أهل البيت

(١) سورة الأنفال الآية ٤١

(٢) سورة الحشر الآية ٧

(٣) رواه البخاري ، كتاب التفسير باب ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ ٨ / ٥٣٢ رقم الحديث ٤٧٩٧ ،

كتاب الصلاة ، باب الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم بعد التشهد ٤ / ١٢٤ .

(٤) تفسير ابن كثير ٤ / ١٢٢

(٥) منهاج السنة النبوية ٤ / ٥٩٩



ويتولونهم على الخصوص فإنهم كاذبون في هذا الادعاء ومفتضحون عند جميع العقلاء ؛ لأن معظم أئمة أهل البيت رحمهم الله تبرأوا من الرافضة ومن حماقاتهم وألفوا في الرد على ضلالاتهم^(١) .

ويدخل في توقير النبي صلى الله عليه وسلم وإجلاله احترام أزواجه وذريته ، فيجب على كل مسلم أن يحفظ لزوجات النبي ﷺ رضوان الله عليهن أجمعين حقهن في الحرمة والإجلال والتوقير والاحترام والإكرام والإعظام ، ويحفظ لهن المكانة التي جعل الله لهن من بين سائر نساء العالمين ، وينزلهن منزلة الأمومة التي هي حق من حقوقهن ؛ لأن الله تعالى جعلهن أمهات في التحريم والاحترام قال تعالى : ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ﴾^(٢) .

قال الإمام القرطبي عند تفسيره لهذه الآية (شرف الله تعالى أزواج نبيه صلى الله عليه وسلم بأن جعلهن أمهات المؤمنين أي في وجوب التعظيم والمبرة والإجلال وحرمة النكاح على الرجال ، وحجبهن رضي الله تعالى عنهن بخلاف الأمهات)^(٣) .

ولنساء النبي صلى الله عليه وسلم مكانة خاصة ومنزلة عظيمة بحكم صلتهم بالرسول صلى الله عليه وسلم وعشرتهم معه قال تعالى : ﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ ﴾^(٤) ، يعني في الفضل والشرف ؛ وذلك لما منحهن الله تعالى من صحبة الرسول صلى الله عليه وسلم وعظيم المحل منه ونزول القرآن في حقهن^(٥) . وكانت بيوتهن رضي الله عنهن عامرة بنزول الوحي والحكمة وهذه الفضيلة لم يشاركهن فيها بيت من بيوت المسلمين ؛ ولذلك أمرهن الله تعالى أن ينشرن في المسلمين تلك الآيات والحكمة التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتلوها في بيوتهن ، قال تعالى : ﴿ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ﴾^(٦) .

قال قتادة وغير واحد من السلف : (واذكرن هذه النعمة التي خصصن بها من بين الناس أن الوحي ينزل في بيوتكن دون سائر الناس)^(٧) ، وقد فعلن ونفع الله بعلومهن رضي الله

(١) انظر اليمانيات المسلوقة على الرافضة المخذولة ص ١٩٩ ، والعقيدة في أهل البيت بين الإفراط والتفريط

للدكتور سليمان السحيمي ص ١٧٢ (٢) سورة الأحزاب الآية ٦

(٣) تفسير القرطبي ١٢٣/١٤ ، غاية السؤل لابن الملقن ص ٢٤٨

(٤) سورة الأحزاب الآية ٣٢ (٥) انظر الشفاء ٣٢ ، وتفسير القرطبي ١٧٧/١٤

(٦) سورة الأحزاب الآية ٣٤ (٧) تفسير ابن كثير ٤٩٤/٣



عنهن وجزاهن عنا وعن الإسلام خير الجزاء .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : (ومن أصول أهل السنة والجماعة أنهم يتولون أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم أمهات المؤمنين ويؤمنون بأنهن أزواجه في الآخرة خصوصا خديجة رضي الله عنها أم أكثر أولاده وأول من آمن به وعاضده على أمره ، وكان له منها المنزلة العالية ، والصديقة بنت الصديق رضي الله عنهما) (١) .

ومن توقيره صلى الله عليه وسلم وبره توقير أصحابه رضي الله عنهم وإجلالهم ومعرفة حقهم والاعتداء بهم وحسن الثناء عليهم والاستغفار لهم والإمسك عما شجر بينهم ومعاداة من عاداهم والإضراب عن وقائع المؤرخين ، وجهلة الرواة الناقلين وضلالة الرافضة والمبتدعين القادحة في أحد منهم ، وأن نلتبس لهم فيما نقله الناقلون عنهم من مثل ذلك أحسن التأويلات ونخرجه لهم أصوب المخارج ؛ إذ هم أهل ذلك ولا نذكر أحدا منهم بسوء ولا ننكر عليه أمرا ؛ بل نذكر حسناتهم وفضائلهم وحميد سيرتهم ، ونسكت عما وراء ذلك ؛ لأن الخوض فيه خوض فيما نهينا عنه (٢) .

فالأصحاب رضي الله عنهم لهم فضل صحبة النبي صلى الله عليه وسلم ورؤيته ونصرته وحمايته والجهاد معه ، وقد اختارهم الله لذلك وجعلهم واسطة في تبليغ الشريعة بين النبي صلى الله عليه وسلم وأمتة . وقد أثنى الله عليهم في مواضع عديدة من القرآن الكريم (٣) . منها قوله تعالى في سورة التوبة : ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (٤) ، وأثنى عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ونهى عن النيل منهم في جملة من الأحاديث (٥) ، منها : حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (لا تسبوا أصحابي فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا ما بلغ مد

(٢) انظر الشفا ٢/ ٤٣

(١) مجموع الفتاوى ٣/ ١٥٤

(٣) خصص زين العابدين الكوراني مقصدا كاملا لتفسير الآيات التي وردت بعدالة الصحابة رضي الله عنهم

وتوسع في ذلك ، انظر اليمانيات المسلولة ص ٢٢١

(٤) سورة التوبة : الآية ١٠٠

(٥) مجموعة في مقصد واحد وبشروح وافية في اليمانيات المسلولة على الرافضة المخذولة ص ٢٧٨

أحدهم ولا نصيفه (١) (٢) .

فهذه هي عقيدة أهل السنة والجماعة : حب صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعدم التفريق بينهم ، ومعرفة حقهم ، والترضي عنهم ، ونشر محاسنهم ، والذب عن أعراضهم التي يتتهكها الروافض قبحهم الله تعالى ، وكلام علماء السلف وكتب أهل السنة مليئة ببيان هذه العقيدة الصافية النقية ؛ لأن حفظه صلى الله عليه وسلم في صحابته رضي الله عنهم من حقوقه الثابتة ، وحبهم وتوقيرهم وإجلالهم من حبه وتوقيره وتعظيمه صلى الله عليه وسلم (٣) .

وأكتفي بهذا القدر من الكلام حول تعزيز النبي صلى الله عليه وسلم وتوقيره وتعظيمه ؛ لأن المقصود بيان أن هذا من حقوقه صلى الله عليه وسلم الثابتة له على أمته ، أما تفصيل الكلام حول التعظيم الشرعي والبدعي في حقه صلى الله عليه وسلم وبيان وسطية أهل السنة في ذلك فسيكون في المبحث القادم بحول الله تعالى وعونه .

خامسا: الصلاة والسلام عليه صلى الله عليه وسلم.

ومن حقوق الرسول صلى الله عليه وسلم الثابتة التي تعد جانبا مهما من جوانب تعظيمه وتوقيره صلى الله عليه وسلم ألا وهو الصلاة والسلام عليه صلى الله عليه وسلم ، فقد أمرنا الله عز وجل بذلك فقال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (٤) ، فهذه الآية هي الأصل في بيان هذا الحق (٥) ، وأجمع أهل العلم على أن فيها من تعظيم الرسول صلى الله عليه وسلم وبيان منزلته والتنويه بمقداره ما ليس في غيرها (٦) .

(١) النصيف لغة في النصف ، قال الشاعر : لم يغدها مد ولا نصيف ×

وهو مكيال عند العرب ، انظر النهاية لابن الأثير ٥ / ٦٥ مادة (نصف) ومختار الصحاح ص ٦٦٣ مادة (ن ص ف) .

(٢) أخرجه البخاري ، كتاب فضائل الصحابة ٧ / ٢١ رقم الحديث ٣٦٧٣ ، ورواه مسلم ، كتاب فضائل الصحابة باب تحريم سب الصحابة رضي الله عنهم ١٦ / ٩٢

(٣) انظر الشفا ٢ / ٤٣ ، وحقوق النبي صلى الله عليه وسلم على أمته للتميمي ٢ / ٤٨٥

(٤) سورة الأحزاب الآية ٥٦ (٥) انظر المنهاج في شعب الإيمان للحلي ٢ / ١٤٣

(٦) انظر القول البديع في الصلاة على الحبيب الشفيع للسخاوي ص ٣٨ ، وحقوق النبي صلى الله عليه وسلم على أمته للتميمي ٢ / ٥١٤

قال الإمام ابن كثير في بيان معنى الآية (والمقصود من هذه الآية أن الله سبحانه وتعالى أخبر عباده بمنزلة عبده ونبيه عنده في الملأ الأعلى بأنه يثني عليه عند الملائكة المقربين وأن الملائكة تصلي عليه ، ثم أمر تعالى أهل العالم السفلي بالصلاة والتسليم عليه ليجتمع الشاء عليه من أهل العالمين : العلوي والسفلي جميعاً^(١)) كما قيل^(٢) : -

حلت بهذا حلة ثم حلة بهذا فطاب الواديان كلاهما

وبهذه الآية شرف الله نبيه صلى الله عليه وسلم في حياته وبعد موته وأظهر للعالمين منزلته عنده^(٣) .

قال الشيخ السعدي : (وهذا فيه تنبيه على كمال رسول الله صلى الله عليه وسلم ورفعة درجته وعلو منزلته عند الله وعند خلقه ورفع ذكره و : ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ﴾ أي يثني الله عليه بين الملائكة وفي الملأ الأعلى لمحبيته تعالى ، ويثني عليه الملائكة المقربون ويدعون له ويتضرعون : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ اقتداء بالله وملائكته وجزاء له على بعض حقوقه عليكم وتكميلاً لإيمانكم وتعظيمًا له صلى الله عليه وسلم ومحبة وإكرامًا وزيادة في حسناتكم وتكفيراً من سيئاتكم^(٤)) ، فالآية تبين أن الله سبحانه وتعالى يأمر المؤمنين بالصلاة والسلام على النبي جملة وقدم قبل أمرهم بذلك إخبارهم بأن ملائكته يصلون على النبي ليلفت أنظارهم إلى ما في الصلاة والسلام عليه من الفضل والأجر ؛ إذ كانت الملائكة مع عدم تكليفهم بشريعتهم تتقرب إلى الله بالصلاة والسلام عليه فيعلم المؤمنون أنهم بالصلاة والتسليم عليه أحرقى وأولى^(٥) ، ثم إنه تعالى (لما أرشد المؤمنين إلى تعظيمه صلى الله عليه وسلم بتعليم سلوك طريق الأدب معه في أشياء كثيرة تتعلق بحياته وموته إظهاراً لشرفه وتعظيمًا له عقبه بما يدل على أنه تعالى أيضاً معظم لشأنه أيضاً ، وكذلك ملائكته المقربون حملة العرش وحفظة العرش الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، وفيه بيان لمنقبة عظيمة ؛ فإن الملك قد يأمر بإكرام شخص ولا يكون عنده بمكان فأزيل هذا التوهم وبين أنه أكرم الخلق على ربه تعالى^(٦)) .

(٢) انظر القول البديع ص ٣٩

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ٥١٤

(٤) تفسير السعدي ٦/ ١٢٠

(٣) انظر الشفا ٢/ ٣٥ ، وتفسير القرطبي ١٤/ ٢٣٢

(٥) انظر المنهاج في شعب الإيمان للحليمي ٢/ ١٣١

(٦) الصلوات والبشر في الصلاة على خير البشر للفيروزآبادي ص ١٩

والدليل على مشروعية الصلاة والسلام على النبي صلى الله عليه وسلم من السنة كثيرة منها: حديث كعب بن عجرة رضي الله عنه قال (إن النبي صلى الله عليه وسلم خرج علينا فقلنا: يا رسول الله قد علمنا كيف نسلم عليك، فكيف نصلي عليك؟ قال: (قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم إنك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد)^(١). وقد تضافرت الأدلة النقلية الصحيحة على مشروعية الإكثار من الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم في سائر الأوقات وكثير من الأماكن، وتؤكد تلك المشروعية في مواطن، إما وجوباً وإما استحباباً مؤكداً^(٢).

ومن هذه المواطن^(٣) في الصلاة في التشهد الأول، وفي التشهد الأخير منها، وفي آخر القنوت، وبعد التكبيرة الثانية من صلاة الجنائزة، وفي الخطب، كخطبة الجمعة، والعيد، والاستسقاء، وغيرها، وبعد إجابة المؤذن، وعند الإقامة، وعند الدعاء، وعند دخول المسجد، وعند الخروج منه، وعلى الصفا والمروة، وعند اجتماع القوم قبل تفرقهم، وعند ذكره صلى الله عليه وسلم^(٤). ولصلاة العبد على النبي صلى الله عليه وسلم أجر عظيم وفضل عميم طالما حصله الذاكرون المصلون وضيعه التعساء الغافلون.

قال العلامة ابن القيم: (إن طلب الصلاة من الله على رسوله صلى الله عليه وسلم هو من أجل أدعية العبد وأنفعها له في دنياه وآخرته)^(٥).

والأحاديث التي جاءت في فضل الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم كثيرة منها:

١- حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا علي؛ فإنه من صلى علي صلاة صلى

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر الشفا/٥٤، وجلاء الأفهام ص ٢٥١، والقول البديع ص ٢٤٨، وحقوق النبي صلى الله عليه وسلم على أمته ٢/٥٢٣.

(٣) انظر بيان تلك المواضع مع ذكر أدلتها بالتفصيل في فضل الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم لإسماعيل القاضي ص ٧٢، والشفا/٥٤، وجلاء الأفهام ص ٢٥١، والقول البديع ص ٢٤٨، والصلاة والبشر ص ١١١، وحقوق النبي صلى الله عليه وسلم على أمته للتيمي ٢/٥٢٣.

(٤) وهناك مواطن أخرى - غير ما ذكر - بينها ابن القيم، والسخاوي، والفيروزآبادي، انظر على الترتيب: جلاء الأفهام ص ٢٥١، والقول البديع ص ٢٤٨، والصلاة والبشر ص ١١١.

(٥) بدائع الفوائد ٢/١٩٠.

الله عليه بها عشرا، ثم سلوا لي الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا هو؛ فمن سأل لي الوسيلة حلت له الشفاعة) (١).

٢- وعن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله إنني أكثر الصلاة عليك فكم أجعل لك من صلاتي؟ قال (ما شئت، قلت: الربع؟ قال ما شئت، وإن زدت فهو خير، قلت: النصف؟ قال: ما شئت، وإن زدت فهو خير، قلت: الثلثين؟ قال: ما شئت، وإن زدت فهو خير، قلت: أجعل لك صلاتي كلها؟ قال: إذن تكفي همك، ويغفر لك ذنبك) (٢).

٣- وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم علي صلاة) (٣).

وبوقفة يسيرة مع هذه الأحاديث وغيرها كثير يعرف المرء عظيم فضل الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم وأنه يجنى بامتثال هذا الأمر ثمرات نافعة ويحصل على فوائد جمة في الدنيا والآخرة؛ وذلك لأن صلاتنا على النبي صلى الله عليه وسلم امتثال لأمر الله تعالى أولا، وموافقة له سبحانه وتعالى في الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ثانيا، وكذلك موافقة ملائكته الكرام عليهم السلام وإن اختلفت تلك الصلوات، فصلاتنا عليه دعاء وسؤال، وصلاة الله تعالى عليه ثناء وتعظيم وتشريف، وصلاة الملائكة عليه رقة تبعث على استدعاء الرحمة (١).

وقد ذكر العلامة ابن القيم في الباب الرابع من كتابه الرائع "جلاء الأفهام" عددا من

(١) رواه مسلم، كتاب الصلاة باب القول مثل قول المؤذن لمن سمعه ثم يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم ثم يسأل له الوسيلة ٨٥/٤

(٢) رواه الإمام أحمد في المسند ١٣٦/٥، والترمذي في سننه ٦٤٦/٤، وقال: هذا حديث حسن صحيح، والحاكم في المستدرک ٤٢١/٢، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وأخرجه إسماعيل الفاضلي في فضائل الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ص ٨، والحديث في إسناده عبد الله بن محمد بن عقيل، قال عنه ابن القيم: احتج به الأئمة الكبار كالحميدي، وأحمد، وإسحاق، وعلي بن المديني، والترمذي، وغيرهم. انظر جلاء الأفهام ص ٦٦ وقال الألباني: إسناده حسن من أجل الخلاف المعروف في ابن عقيل. انظر مشكاة المصابيح برقم ٩٢٩

(٣) رواه الترمذي في سننه ٣٥٤/٢، وقال: حديث حسن غريب، وأخرجه ابن حبان في صحيحه. انظر موارد الظمان / حديث ٢٣٨٩، وأورده ابن القيم في جلاء الأفهام وعزاه إلى البزار، والبخاري، انظر جلاء الأفهام ص ٥٢، وذكر الحافظ ابن حجر أن له شاهدا عند البيهقي ثم قال: ولا بأس به، انظر فتح الباري ١٦٧/١

(٤) انظر الشفا ٥٠/٢، وجلاء الأفهام ص ٧٥، وفتح الباري ٥٣٢/٨



تلك الفوائد الجمّة والثمرات النافعة فليطالعها من أراد التوسع^(١).

وإذا كانت صلاتنا على النبي صلى الله عليه وسلم حقاً من حقوقه الثابتة له علينا صلى الله عليه وسلم فالحمد لله الحليم الذي جعل أداء هذا الحق العظيم منوطاً بحصول الأجر الجسيم والنوال العظيم فضلاً منه ونعمة ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم (فصلى الله على نبينا محمد كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون، وصلى الله تعالى عليه في الأولين والآخرين أفضل وأكثر وأزكى ما صلى على أحد من خلقه، وزكنا وإياكم بالصلاة عليه أفضل ما زكّى أحداً من أمته بصلاته عليه، والسلام عليه ورحمة الله وبركاته وجزاء الله سبحانه وتعالى عنا أفضل ما جزى مرسلًا عن أمرسل إليه)^(٢). ونسأله تعالى أن يزرع في قلوبنا محبته سبحانه وتعالى ومحبة نبيه صلى الله عليه وسلم وأن يعيننا على طاعة الله ورسوله وأداء الحقوق الثابتة لنبيه علينا وأن يجعل أعمالنا خالصة صالحة إنه ولي ذلك والقادر عليه.

(١) انظر جلاء الأفهام ص ٣٣٥، وذكر الإمام ابن الجوزي عشر كرامات تحصل بالصلاة على النبي ﷺ، انظر بستان

الواعظين لابن الجوزي ص ٢٩٧

(٢) الأم للإمام الشافعي ٤/١



المبحث الخامس

وجوب الإيمان بعصمته صلى الله عليه وسلم

سبق في المبحث الرابع الحديث عن وجوب الإيمان بالنبى ﷺ وأن ذلك من حقوقه الثابتة له على أمته، وأنه قد بلغ الرسالة وأكملها، وأن هذا التبليغ قد اقترن بعصمة الله لنبى ﷺ في كل ما يبلغه عن ربه عز وجل، فالإيمان بعصمته صلى الله عليه وسلم من الأمور التي تتعلق بها إثبات نبوته، وصدقه صلى الله عليه وسلم؛ فلهذا رأيت أن أفرد هذا المبحث في الحديث عن عصمة الله لنبى ﷺ صلى الله عليه وسلم باعتبار أن الإيمان بعصمة النبى ﷺ صلى الله عليه وسلم من الأمور الداخلة في جملة الحقوق الواجبة له صلى الله عليه وسلم على أمته.

العصمة في اللغة: ترجع اشتقاقات كلمة العصمة إلى معنى المنع^(١).

العصمة في الشرع: أما عصمة النبى ﷺ صلى الله عليه وسلم فقد عرفها علماء الشرع بعدة تعريفات أوضحها وأنسبها وأسلمها من الاعتراض ما ذكره صاحب كتاب نسيم الرياض من أنها (لطف من الله تعالى يحمل النبى ﷺ على فعل الخير ويزجره عن الشر مع بقاء الاختيار تحقيقاً للابتلاء)^(٢).

والحديث عن عصمة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم هو حديث عن عصمة سائر إخوانه من المرسلين لأننا -نحن المؤمنين بالله- لا نفرق بين أحد من رسله، ونؤمن بأن الله تعالى اصطفاهم وفضلهم على العالمين وجعل (تربتهم طيبة وأحسابهم أصلية ومعادتهم نقية، وأصلا بآبائهم وأرحام أمهاتهم طاهرة، وبواطنهم صافية، وظواهرهم صادقة، ونشأتهم قويمية، ومنهجهم في طفولتهم رشيد، وسلوكهم بعد أن بلغوا الرشيد حميد، وتصرفهم حكيم، وموقفهم فيما يأتون وما يذرون سليم، فهم في القمة من الفضائل، وفي الذروة من الكمال البشري... الذي يجعلهم فوق الدنيا والصغائر، وليس بعد امتداح الله تعالى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وثنائه عليهم وإشادته بأخلاقهم ورفع درجاتهم دلالة على أنهم كانوا أسرع الناس في الخيرات وأبعد الناس عن المعاصي

(١) انظر مختار الصحاح ص ٤٣٧ مادة (ع ص م) ولسان العرب ١٢/٤٠٣ مادة (عصم) والقاموس المحيط ٤/١٥٢ مادة (عصم).

(٢) نسيم الرياض في شرح الشفا للقاضي عياض للشهاب الخفاجي ٤/٣٩.

والموبقات (١).

الجوانب التي عصم فيها النبي صلى الله عليه وسلم (٢).

أولاً: العصمة في التبليغ ودعوى الرسالة: اتفقت الأمة على أن الرسول صلى الله عليه وسلم معصوم في تبليغ الرسالة (٣) وهذه العصمة هي التي عليها المناط؛ فيها يحصل المقصود من البعثة ومهمة الرسل من أولهم إلى خاتمهم عليهم الصلاة والسلام هي تبليغ شرع الله تعالى إلى عباد الله، فهم الواسطة بين الله تعالى وبين خلقه ليلبغوا هم وأمره ونواهيه، وبما أعطاهم الله تعالى من هداية البيان والإرشاد والتبليغ يهتدي البشر، وفي معرفة الله، وعبادته عبادة صحيحة كما حب ويرضى وعن طريقهم يتبين الصراط المستقيم، ولهذا أوجب الله تعالى العصمة لأنبيائه ورسله في جانب تحمل الرسالة وأدائها حتى تصل إلى العباد كاملة تامة غير منقوصة ولا محرفة، وبذلك تقوم الحجة على الخلائق أجمعين، ولقد دلت آيات الكتاب العزيز وأحاديث السنة المطهرة على عصمة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم في هذا الجانب، وانعقد إجماع الأمة على ذلك، فمن القرآن:

١- قول الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ (٤).

فهذه الآيات نصت على أن الله سبحانه وتعالى لا يؤيد من يكذب عليه فلا بد أن يظهر كذبه، وأن يتقم منه، ولو كان النبي صلى الله عليه وسلم من هذا الجنس، كما يزعم المكذبون له فيما حكاه الله عنهم: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ (٥) وحاشاه صلى الله عليه وسلم من ذلك - لأنزل الله به العقوبة كما ذكره في هذه الآيات، وحيث إن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يقع له شيء من ذلك فلم يهلكه الله ولم يعذبه فهو إذن لم يتقول على الله مالم يقله ولم يفتر في التبليغ شيئاً من عند نفسه، وبهذا ثبتت عصمته صلى الله عليه وسلم في كل ما بلغه عن ربه عز وجل (٦).

(١) عصمة الأنبياء والرد على شبه الموجهة إليهم للدكتور محمد الحديدي ص ١٤١

(٢) انظر تلك الجوانب بالتفصيل في كتاب حقوق النبي صلى الله عليه وسلم على أمته للدكتور محمد

التميمي ١/ ١٣٠ وما بعدها. (٣) انظر مجموع الفتاوى ١٠/ ٢٩٠، ولوامع الأنوار ٢/ ٣٠٤

(٤) سورة الحاقة الآيات (٤٤-٤٧). (٥) سورة الشورى الآية (٢٤).

(٦) انظر الشفا ١/ ١٠٩، وعصمة الأنبياء للحديدي ص ١٠٤، وحقوق النبي صلى الله عليه وسلم على

أمته ١/ ١٣١

قال الإمام ابن كثير بعد تفسيره لهذه الآيات: (والمعنى في هذا بل هو صادق راشد؛ لأن الله عز وجل مقرر له ما يبلغه عنه ومؤيد له بالمعجزات الباهرات والدلالات القاطعات)^(١).

٢- وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾^(٢) فالآية نص في عصمة لسان النبي صلى الله عليه وسلم من كل هوى وغرض فهو لا ينطق إلا بما يوحى إليه من ربه ولا يقول إلا ما أمر به فيبلغه إلى الناس عموماً، وقد بلغ صلى الله عليه وسلم ما أوحاه إليه ربه كاملاً موفوراً من غير زيادة ولا نقصان فهذه الآية شهادة وتزكية من الله لنبيه صلى الله عليه وسلم في كل ما بلغه للناس من أوامر الله ونواهيه^(٣).

٣- وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوحِيتَ إِلَيْكَ لَيَفْتَرِي عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لَا تَأْخُذُكَ خَلِيلًا (٧٣) وَلَوْ لَا أَنْ تُبْتَائِكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنْ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا (٧٤) إِذَا لَأَذْنُكَ ضِعْفُ الْحَيَاةِ وَضِعْفُ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾^(٤) وهذه الآيات - أيضاً - دالة على عصمة الله وتبتيته لنبيه صلى الله عليه وسلم في تبليغ الوحي ومعناها قريب من معنى الآيات السابقة.

يقول الإمام ابن كثير: (فقد أخبر تعالى عن تأييده لرسوله صلوات الله عليه وسلامه وتبتيته وعصمته وسلامته من شر الأشرار وكيد الفجار، وأنه تعالى هو المتولي أمره ونصره، وأنه لا يكله إلى أحد من خلقه، بل هو وليه وحافظه وناصره ومؤيده ومظفره ومظهر دينه على من عاداه وخالفه في مشارق الأرض ومغاربها)^(٥).

وأما الأدلة من السنة على عصمة النبي صلى الله عليه وسلم في جانب التبليغ فمنها:-

١- حديث طلحة بن عبيد الله عن أبيه رضي الله عنهما، وجاء فيه قوله صلى الله عليه وسلم (ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئاً فخذوا به فإنني لأكذب على الله عز وجل)^(٦).

٢- ومنها حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: (كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم أريد حفظه فنهتني قريش فقالوا: إنك تكتب

(٢) سورة النجم الآيات (٣-٤).

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ٤١٧.

(٣) انظر عصمة الأنبياء والرد على شبه الموجهة إليهم للدكتور محمد الحديدي ص ٩٢، وحقوق النبي صلى الله

(٤) سورة الإسراء الآيات (٧٣-٧٥).

عليه وسلم على أمته ١/ ١٣٠.

(٥) تفسير ابن كثير ٣/ ٥٣.

(٦) رواه مسلم انظر صحيح مسلم بشرح النووي في كتاب الفضائل باب وجوب امتثال ما قاله شرعاً ١٥/ ١١٦.



كل شيء تسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ورسول الله صلى الله عليه وسلم بشر يتكلم في الغضب الرضا فأمسكت عن الكتاب، فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: (اكتب فوالذي نفسي بيده ما خرج مني إلا حق) (١).

٣- ومنها حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال (إني لا أقول إلا حقاً)، قال بعض أصحابه فإنك تدعينا يا رسول الله، قال (إني لا أقول إلا حقاً) (٢).

دليل الإجماع على عصمة النبي صلى الله عليه وسلم في التبليغ: نقل الإجماع على هذا غير واحد من علماء الأمة، قال القاضي عياض: (وأجمعت الأمة فيما كان طريقه البلاغ أنه معصوم فيه من الإخبار عن شيء منها بخلاف ما هو به لا قصداً ولا عمداً ولا سهواً ولا غلطا) (٣).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (إن الأنبياء صلوات الله عليهم معصومون فيما يخبرون به عن الله سبحانه وفي تبليغ رسالاته باتفاق الأمة؛ ولهذا وجب الإيمان بكل ما أتوه) (٤).

ثانياً: العصمة من الكفر والشرك، وهذه العصمة ذات بعدين:-

أ - عصمته قبل بعثته صلى الله عليه وسلم.

ب - عصمته بعد البعثة صلى الله عليه وسلم.

أما البعد الأول وهو عصمته من الشرك والكفر قبل بعثته ونزول الوحي إليه صلى الله عليه وسلم فقد دلت النصوص الثابتة على أن النبي صلى الله عليه وسلم معصوم منذ نشأته من الكفر والشرك فلم يعهد أنه سجد لصنم، أو استلمه؛ بل فطره ربه على معرفته والاتجاه إليه وحده، واعتزال قریش وبغض أصنامها، ومن نظر في سيرته صلى الله عليه وسلم لم يجده إلا على هذا الوصف صلى الله عليه وسلم، والنصوص التي تدل على هذا كثيرة

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده ١٦٢/٢، وأبو داود في سننه ٦٠/٤ حديث ٣٦٤٦، والحاكم في المستدرک ١٠٤/١، وصححه ووافقه الذهبي.

(٢) رواه أحمد في المسند ٣٤٠/٢، والترمذي في سننه ٣٥٧/٤ حديث ١٩٩٠، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٣) الشفا ١٠٩/٢ (٤) مجموع الفتاوى ٢٨٩/١٠



جدا، وسأكتفي بالحديث الصحيح عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه جبريل وهو يلعب مع الغلمان فأخذه فصرعه فشق عن قلبه فاستخرج القلب فاستخرج منه علة^(١) فقال: هذا حظ الشيطان منك، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم لأمه، ثم أعاده في مكانه، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه -يعني ظئره-^(٢) فقالوا: إن محمدا قد قتل، فاستقبلوه وهو منتقع^(٣) اللون، قال أنس: وكنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره^(٤) صلى الله عليه وسلم.

فهذا الحديث يدل على إخراج جبريل عليه السلام لحظ الشيطان منه صلى الله عليه وسلم وتطهيره لقلبه فلا قدرة للشيطان على إغوائه ولا سبيل له عليه، ومنه يؤخذ عصمته صلى الله عليه وسلم من الشرك قبل البعثة، ولما كان الله لم يرسل إلى خلقه إلا من هو أعقل أهل زمانه وأقواهم فطرة وأحسنهم خلقا وخلقا كان نبينا صلى الله عليه وسلم معصوما قبل النبوة وبعدها ولم يقع ذلك منه أصلا، وإن اختلف في جوازه عقلا، فعلى منعه لا يبقى شيء، وعند من جوزه قبل البعثة لم يقل بوقوعه فرجع الأمر إلى العصمة، فالكل متفقون على أن الله تعالى لم يبعث فاسقا ولا معروفا بالظلم والفجور، ولم يبعث إلا إنسانا نقيًا ذكيًا تحبه القلوب وتهابه الأعين، ويرضى عنه كل أحد^(٥).

كما عصمه الله تعالى من الحلف بأسماء الأصنام التي كان يعبدونها قومه ويحلفون بها تعظيما لشأنها^(٦)، والنصوص الدالة على هذا كثيرة وقد عني بجمعها من ألف في الدلائل، والخصائص، مثل الحافظ أبي نعيم الأصبهاني^(٧)، والإمام البيهقي^(٨) والإمام السيوطي^(٩).

ونقل الشريف الجرجاني إجماع الأمة على عصمة الأنبياء من الكفر والشرك قبل النبوة وبعدها، فقال: "وأما الكفر فأجمعت الأمة على عصمتهم منه قبل النبوة وبعدها، ولا

(١) العلة: قطعة من الدم. انظر مختار الصحاح ص ٤٥٠ مادة (ع ل ق).

(٢) الظئر: الناقة تعطف على ولدها، ومنه قيل للمرأة الأجنبية تحضن ولد غيرها ظئرا أيضا. انظر المصباح المنير ٢/٣٨٨ مادة (الظئر).

(٣) قال أهل اللغة: يقال هو منتقع إذا تغير بسبب حزن أو فزع. انظر القاموس المحيط ٣/٨٨ مادة (النتع).

(٤) رواه مسلم كتاب الإيمان باب الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم ٢/٢١٦.

(٥) انظر نسيم الرياض ٤/١٤٨، وعصمة الأنبياء للحديدي ص ١٢١.

(٦) انظر حقوق النبي صلى الله عليه وسلم على أمته ١/١٣٦ (٧) انظر دلائل النبوة له ١/١٤٣.

(٨) انظر دلائل النبوة له ٢/٣٠ (٩) انظر الخصائص الكبرى له ١/١٤٨.



خلاف لأحد منهم في ذلك" (١) .

وبهذا تبين أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن على دين قومه ، ولم يعبد الأصنام كما عبدوها ، ولو حصل ذلك لنقل إلينا الرواة تعيير المشركين له بذلك عند صدعه صلى الله عليه وسلم بالدعوة ، ولكانوا أشد فرحا بذلك ، فلما لم يعيره أحد منهم بذلك علمنا أنه صلى الله عليه وسلم لم يشاركهم في تلك الطقوس التي كانوا عليها ، فلما عصمه الله من ذلك ولم يجعل لكفار قريش طريقا عليه لجأوا إلى تلفيق التهم الباطلة ، والأقاويل المتناقضة ، كاتهامه بالسحر تارة ، وبالجنون تارة ، وبالكهانة تارة أخرى (٢) .

ونعلم بذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم إذا كان ربه قد عصمه مما هو دون الشرك من الأمور المنكرة التي كان عليها أهل الجاهلية ففيه دليل على عصمته صلى الله عليه وسلم من الوقوع في الشرك من باب أولى وأحرى .

عصمته صلى الله عليه وسلم من الكفر، والشرك بعد النبوة: لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم الذي بعثه الله تعالى بالحنيفية السمحة والتوحيد الناصع ليقع منه الكفر ، أو يحوم حول الشرك ، بل قد كان صلى الله عليه وسلم قدوة حسنة للموحدين حزبا على المشركين ، وجاءت رسالته السامية لتنقذ الناس من أحوال الشرك وذنس الكفر إلى عبادة الله تعالى ، فهو صلى الله عليه وسلم منزّه عن كل ضلال وغواية كما أخبر الله بذلك في قوله تعالى : ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴾ (٣) فهذه شهادة من الله جل ثناؤه لخاتمة رسله صلى الله عليه وسلم بأنه راشد تابع للحق ليس بضال ولا غاو ، بل إنه صلوات الله وسلامه عليه في غاية من كمال الاستقامة والاعتدال والسداد والهداية والصلاح (٤) .

وعلى هذا أجمعت الأمة كما قال الفخر الرازي : (أجمعت الأمة على أن الأنبياء معصومون عن الكفر والبدعة) (٥) .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية : (ففي الجملة كل ما يقدح في نبوتهم وتبليغهم عن الله

(١) شرح المواقف ص ١٣٤

(٢) انظر الشفا ٩٧/٢ ، وحقوق النبي صلى الله عليه وسلم للتيمي ١/١٣٨

(٣) سورة النجم الآية ٣

(٤) انظر تفسير ابن كثير ٤/٢٦٤ ، وآيات الهداية والاستقامة في كتاب الله تعالى للشيخ عطية محمد

سالم ٢/١٥٩ ، وحقوق النبي صلى الله عليه وسلم للتيمي ١/١٤٥

(٥) عصمة الأنبياء ص ١ ، وانظر لوامع الأنوار ٢/٣٠٤



تعالى فهم متفقون على تنزيههم عنه (١).

وقال الأمدى: (فما كان منها) (٢) كفر فلا تعرف خلافا بين أرباب الشرائع في عصمتهم عنه (٣).

ومن نظر في سيرته صلى الله عليه وسلم علم أنه صلى الله عليه وسلم كان أحرص شيء على هداية قومه إلى التوحيد وأبعد شيء عن الشرك ووسائله وما ذلك إلا لأن الله تعالى قد عصمه من الشرك والكفر والفسوق والعصيان.

ثالثا: عصمته صلى الله عليه وسلم من الكذب في غير الوحي والتبليغ: لا ريب أنه صلى الله عليه وسلم عُرف قبل البعثة وبعدها بالصدق والأمانة وحسن الخلق والبر والإحسان وجميع محاسن الأخلاق التي جبله الله عليها منذ نشأته، وعُرف عنه التحلي بتملك الخلال في مجتمع الجاهلية حتى كانوا يدعونه الأمين، وقد عصمه الله جل ثناؤه وكرمه بهذه الخصال لتهيئته لحمل الأمانة العظمى، وتبليغ الرسالة للناس كافة. فعصمته صلى الله عليه وسلم من الكذب في سائر الأمور التي دون الوحي والتبليغ ممكنة عقلا وحاصلة شرعا، ومما يستدل به على ذلك :-

أ - قول خديجة بنت خويلد رضي الله عنها حينما جاءها النبي صلى الله عليه وسلم خائفا بعد لقياء جبريل في غار حراء (٤) وقال لها: (إني قد خشيت على نفسي) فقالت له: (كلا ابشر فوالله لا يخزيك الله أبدا، فوالله إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق) (٥).

ب - قول أبي جهل عليه من الله ما يستحق للنبي صلى الله عليه وسلم: إنا لا نكذبك، ولكن نكذب الذي جئت به (٦) فأنزل الله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ (٧) فهذا دليل على أن قريشا وإن اتهمت النبي صلى الله عليه وسلم بالكذب

(١) منهاج السنة النبوية ١/ ١٣٠ (٢) أي المعاصي.

(٣) الإحكام في أصول الأحكام ١/ ١٤٦

(٤) هو جبل على مقربة من مكة حرسها الله، بينهما ثلاثة أميال وهو معدود من جملة جبالها. انظر معجم البلدان ٢/ ٢٣٣

(٥) رواه البخاري كتاب التفسير سورة اقرأ ٨/ ٧١٥ حديث ٤٩٥٣

(٦) انظر تفسير الطبري ٧/ ١٨٢، وتفسير ابن كثير ٢/ ١٣٤

(٧) سورة الأنعام الآية ٣٣

في دعوى الرسالة إلا أنها معترفة له بالصدق في غير أمر النبوة .

ج - ومن ذلك جواب أبي سفيان رضي الله عنه لهرقل عظيم الروم عندما سأله عن النبي صلى الله عليه وسلم وذلك عندما أرسلت قريش أبا سفيان إلى الحبشة ليرد إليها من هاجر من المسلمين إلى الحبشة فكان مما سأله عنه : (فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ فقال أبو سفيان : لا ، فقال هرقل : ما كان ليدع الكذب على الناس ويكذب على الله)^(١) .

فهذه نماذج يسيرة من الأدلة على صدقه صلى الله عليه وسلم وعصمته من الكذب قبل النبوة وبعدها ، ومن أراد أن يقف على الكثير من ذلك مستوفى فليرجع إلى سيرته صلى الله عليه وسلم وشماله وسنته المدونة ، ولن يجد - على كثرة المنقول من ذلك عنه صلى الله عليه وسلم - كذبة أحصيت عليه ولا خُلُفاً في خبر أخبر به ، وهذا كله دلالة واضحة على عصمته صلى الله عليه وسلم من الكذب بأي حال من الأحوال .

قال القاضي عياض : (وأما أقواله الدنيوية من إخباره عن أحواله وأحوال غيره وما يفعله أو فعله فقد قدمنا أن الخُلُف فيها ممتنع عليه في كل حال وعلى أي وجه من عمد أو سهو أو صحة أو مرض أو رضا أو غضب ، وأنه معصوم منه صلى الله عليه وسلم ، هذا فيما طريقه الخبر المحض مما يدخله الصدق والكذب ، فأما المعارض الموهوم ظاهراً خلاف باطنها فجائز ورودها منه في الأمور الدنيوية لاسيما لقصد المصلحة كتوريطه عن وجه مغازيه لئلا يأخذ العدو حذره ، وكما روي من مازحته ودعابته لبسط أمته ، وتطبيب قلوب المؤمنين من صحابته وتأكيدها في تحبيهم ، ومسرة نفوسهم)^(٢) .

رابعاً : عصمته صلى الله عليه وسلم من الكبائر التي دون الشرك : لقد اصطفى الله محمداً صلى الله عليه وسلم ليكون واسطة بينه وبين خلقه ، وجعله خاتمة الرسل وميزه بصفات وجبله عليها لم تكن موجودة في غيره من البشر ، فكان على خلق عظيم ، وصفه الله تعالى به في قوله عز وجل : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾^(٣) ، وجمع الله في شخصه صلى الله عليه وسلم كل صفات الخير ، والأخلاق الحميدة كما قال حسان رضي الله عنه يخاطب النبي صلى الله عليه وسلم^(٤) : -

(١) رواه البخاري كتاب بدء الوحي ١ / ٣١ حديث ٧

(٢) الشفاء ٢ / ١٦٥

(٣) سورة القلم الآية ٤

(٤) انظر ديوانه طبعة دار صادر ص ١٠

وأجمل منك لم تر قط عيني وأفضل منك لم تلد النساء
خلقت مبرأ من كل عيب كأنك قد خلقت كما تشاء

ولتهيئته لرسالة الله فقد حفظه الله وعصمه من كل ما يحط من قدره الشريف ويخل بمكانه المنيف، قال تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى﴾^(١)، ومن ذلك صيانة الله له وحفظه من أقدار الجاهلية قبل مبعثه ونزول الوحي إليه^(٢)، ومما يدل على حفظ الله تعالى له وعصمته من كل ما يحط من قدره ويطعن في شخصه الكريم على هذا الوجه - :

أ - حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ينقل مع قريش الحجارة للكعبة وعليه إزاره، فقال له العباس عمه: يا ابن أخي لو حلت إزارك، فجعلته على منكبك دون الحجارة؟ قال: فحلته على منكبه فسقط مغشيا عليه فما رؤي بعد ذلك عريانا صلى الله عليه وسلم)^(٣).

ب - وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يهمون به من النساء إلا ليتين كلتاها عصمني الله منهما قلت ليلة لبعض فتيان مكة ونحن في رعاية غنم أهلنا فقلت لصاحبي: أبصر لي غنمي حتى أدخل مكة فأسمر بها كما يسمر الفتيان، فقال: بلى، فدخلت حتى إذا جئت أول دار من دور مكة سمعت عزفا بالغرايل^(٤) والمزامير قلت: ما هذا؟ فقلت تزوج فلان فلانة فجلست أنظر وضرب الله أذني فوالله ما أيقظني إلا مس الشمس فوجعت إلى صاحبي فقال: ما فعلت؟ قلت: ما فعلت شيئا، ثم أخبرته بالذي رأيت، ثم قلت له ليلة أخرى: أبصر لي غنمي حتى أسمر بمكة فدخلت فلما جئت مكة سمعت مثل الذي سمعت تلك الليلة فجلست أنظر وضرب الله على أذني، فوالله ما أيقظني إلا مس الشمس، فوجعت إلى صاحبي فقال: ما فعلت؟ قلت: لا شيء، ثم أخبرته الخبر، فوالله ما

(١) سورة النجم الآية ٢

(٢) انظر الشفا ٩٧/٢، وحقوق النبي صلى الله عليه وسلم على أمته للتميمي ١/١٥١، ولوامع الأنوار ٣٠٦/٢

(٣) رواه البخاري كتاب الصلاة باب كراهة التعري في الصلاة وغيرها ١/٤٧٤ حديث ٣٦٤، ومسلم كتاب الحيض باب الاعتناء بحفظ العورة ٤/٣٣، واللفظ للبخاري.

(٤) جمع غريال بكسر أوله: الدف وما تنخل به الحبوب. انظر مختار الصحاح ص ٤٧١ مادة (غريل) والقاموس المحيط ٤/٢٤ مادة (غريله).

هممت، ولا عدت بعدهما لشيء من ذلك حتى أكرمني الله بنبوته (١).

فهكذا عصمه الله تعالى عن الوقوع في الكبائر قبل إكرامه صلى الله عليه وسلم بالنبوة، فما بالك بحاله عليه الصلاة والسلام بعد الاجتناب والاصطفاء واختياره واسطة بين الناس وخالق السماء وتأيدته بالوحي ونزول جبريل إليه في الصباح والمساء؟ .
يقول الإمام السفاريني في منظومته -مبيناً ما يجب اعتقاده في حق الأنبياء من العصمة (٢)- :

وأن كل واحد منهم سلمٌ من ما نقص ومن كفر عصمٌ
كذلك من إفك ومن خيانه لوصفهم بالصدق والأمانة

مسألة وقوع الخطأ منه صلى الله عليه وسلم.

تقدم معنا ذكر الأمور التي عصم فيها نبي الرحمة صلى الله عليه وسلم، لكن قد يرد سؤال وهو: هل يقع منه صلى الله عليه وسلم الخطأ في غير تلك الأمور المتقدمة؟ .

والجواب على هذا السؤال: أن جمهور أهل العلم تؤيدهم نصوص القرآن والسنة يرون وقوع الخطأ منه -روحي فذاه- صلى الله عليه وسلم (٣) ولكنهم يعتقدون الأمور التالية: -

١ - أن الله جل ثناؤه لا يقره على الخطأ إن وقع منه، بل يوجهه الله للحق، وقد يحصل له عتاب على ذلك.

٢ - أن الخطأ يقع منه صلى الله عليه وسلم بطريق الاجتهاد دون تعمد منه عليه الصلاة والسلام، وعليه فلا يسمى هذا الخطأ معصية؛ لأن في هذه العبارة سوء أدب مع النبي صلى الله عليه وسلم ولا يصح استعمالها في حقه.

٣ - أن ما يقع منه صلى الله عليه وسلم من هذا القبيل ليس مما يقدح في حقه الشريف أو ينقص من منزلته وقدره المنيف بعكس الأمور التي عصم منها والتي سبق ذكرها فإن وقوعها يقدح في مقام النبوة وينقص من منزلة الرسالة.

(١) أخرجه أبو نعيم في دلائل النبوة ص ١٤٣، والبيهقي في دلائل النبوة ٢/ ٣٣، وأورده السيوطي في الخصائص الكبرى ١/ ١٤٩، وقال الحافظ ابن حجر: إسناده حسن متصل رجاله ثقات، وأورده ابن كثير في البداية والنهاية ٢/ ٢٨٧

(٢) انظر لوامع الأنوار ٢/ ٣٠٣

(٣) انظر مجموع الفتاوى ٤/ ٣١٩

٤ - أنه موفق للتوبة النصوح على الفور من الخطأ ، وهذا مما يرفع من قدره ، ويعلي من منزلته ، كما أن الله سبحانه وتعالى قد وعده بالمغفرة بقوله تعالى : ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ (١) (٢) .

ومن النصوص التي يستدل بها على ما قلنا :-

قوله تعالى : ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَكَّى (٣)﴾ ، فهذه الآيات نزلت من الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم (٤) .

يقول الإمام ابن كثير : (ذكر غير واحد من المفسرين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يوما يخاطب بعض عظماء قريش وقد طمع في إسلامه فبينما هو يخاطبه ويناجيه إذ أقبل ابن أم مكتوم وكان ممن أسلم قديما فجعل يسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم من شيء ويلح عليه ، وودَّ النبي صلى الله عليه وسلم أن لو كف ساعته ليتمكن من مخاطبة ذلك الرجل طمعا ورغبة في هدايته وعبس في وجه ابن أم مكتوم وأعرض عنه ، فأنزل الله تعالى : ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَكَّى (٣)﴾ (٥) .

وكذلك عتاب الله لنبيه صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى : ﴿مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يَتُخَنَّ فِي الْأَرْضِ﴾ (٦) .

وفي قوله تعالى : ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ (٧) .

قال قتادة رحمه الله : (ثنتان فعلهما النبي صلى الله عليه وسلم ولم يأمر بهما : إذنه لطائفة من المنافقين في التخلف عنه ولم يكن له أن يمضي شيئا إلا بوحى ، وأخذه من الأسارى الفدية ، فعاتبه الله كما تسمعون) (٨) .

(١) سورة الفتح الآية ٢

(٢) انظر حقوق النبي صلى الله عليه وسلم للشمسي ١/ ١٥٥ ، ومقدمة تحقيق دلائل النبوة لقوام السنة تحقيق مساعد

الحميد ٤٣ / ١ (٣) سورة عبس الآيات (١-٣) .

(٤) انظر تفسير القرطبي ١٩ / ٢١٢ (٥) تفسير ابن كثير ٤ / ٥٠١

(٦) سورة الأنفال الآيات (٦٧-٦٨) .

(٧) سورة التوبة الآية ٤٣ (٨) تفسير القرطبي ٨ / ١٥٤

وأما ما يقع من الخطأ منه صلى الله عليه وسلم في جانب الأمور الدنيوية فمن الأدلة عليه حديث رافع بن خديج رضي الله عنه قال: (قدم نبي الله صلى الله عليه وسلم المدينة وهم يؤثرون^(١)) النخل يقولون يلقحون النخل فقال: ما تصنعون؟ قالوا: كنا نصنعه قال: لعلكم لو لم تفعلوا كان خيرا فتركوه فنقصت، قال فذكروا ذلك له فقال: (إنما أنا بشر إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به، وإذا أمرتكم بشيء من رأيي فإنما أنا بشر)^(٢). وفي رواية (أنتم أعلم بأمر دنياكم)^(٣).

وكما حكى ابن إسحاق^(٤) رحمه الله أن النبي صلى الله عليه وسلم لما نزل بأدنى مياه بدر^(٥) قال له الحباب بن المنذر: (أهذا منزل أنزلك الله ليس لنا أن نتقدمه أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال: لا بل هو الرأي والحرب والمكيدة، قال: فإنه ليس بمنزل انهض حتى نأتي أدنى واد من القوم فننزله ثم نغور ما وراءه من القلب^(٦)) فنشرب ولا يشربون، فقال (أشرت بالرأي) وفعل ما قاله^(٧).

قال القاضي عياض: فمثل هذا وأشباهه من أمور الدنيا التي لا مدخل فيها بعلم ديانة ولا اعتقادها ولا تعليمها يجوز عليه فيما ذكرنا^(٨) إذ ليس في هذا كله نقيصة ولا محطه وإنما هي أمور اعتيادية يعرفها من تجربها، وجعلها همه، وشغل نفسه بها، والنبي صلى الله عليه وسلم مشحون القلب بمعرفة الربوبية ملآن الجوانح بعلوم الشريعة مقيد البال بمصالح الأمة الدينية والدنيوية، ولكن هذا^(٩) إنما يكون في بعض الأمور ويجوز في النادر فيما سبيله التدقيق في حراسة الدنيا واستثمارها، لا في الكثير المؤذن بالبله والغفلة^(١٠).

(١) تأبير النخل: تلقيحه وإصلاحه. انظر مختار الصحاح ص ٢ مادة (أ ب ر) والمصباح المنير ١/١ مادة (أ ب ر).

(٢) رواه مسلم ١١٦/١٥ (٣) رواه مسلم انظر صحيح مسلم بشرح النووي ١١٧/١٥

(٤) هو محمد بن إسحاق بن يسار المطلبى المدني مولا هم إمام المغازي نزيل العراق مات سنة ١٥٠ هـ انظر تهذيب التهذيب ٣٨/٩، وشذرات الذهب ٢٢٥/١

(٥) بدر: الماء المشهور بين مكة والمدينة أسفل وادي الصفراء الذي وقعت عنده غزوة بدر الكبرى الفاصلة بين الإسلام والكفر سنة ١ هـ انظر معجم البلدان ٣٥٧/١

(٦) جمع قلب وهو البئر القديمة قبل طيها. انظر مختار الصحاح ص ٥٤٧ مادة (ق ل ب) والمصباح المنير ٢/١٢٢ مادة (قلبه).

(٧) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة ٣/٣١، والسيوطي في مناهل الصفا ص ٨٠ وعزاه لابن إسحاق والبيهقي، والقاضي عياض في الشفا ٢/١٦٣ (٨) يقصد من وقوع الخطأ.

(٩) أي الخطأ. (١٠) الشفا ٢/١٦٣

وكذلك الأمور التي لها تعلق بأحكام البشر الجارية على يديه صلى الله عليه وسلم كمنازعاتهم ومعرفة الحق من المبطل وتمييز المصلح من المفسد، فهذه أمور اجتهادية له أن يجتهد فيها برأيه لقوله صلى الله عليه وسلم (إنكم تختصمون إليَّ ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له على نحو ما أسمع منه فمن قطعت له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذه، فإنما أقطع له به قطعة من النار) (١).

يقول القاضي عياض: (وتجري أحكامه على الظاهر وموجب غلبات الظن بشهادة الشاهد ويمين الحالف ومراعاة الأشبه ومعرفة العفاص (٢) والوكاء (٣) مع مقتضى حكمة الله في ذلك) (٤).

والحكمة في جواز الخطأ عليه في هذا النوع لكي تقتدي به الأمة من بعده في النظر في القضايا والأحكام على ما كان يقضي به بين الناس؛ لأنه قد استوى هو وغيره من أمتة في هذا الجانب (٥).

وهذا هو الحق والقول الوسط بين أهل الإفراط وأهل التفريط في مسألة وقوع الخطأ من النبي صلى الله عليه وسلم.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (واعلم أن المنحرفين في مسألة العصمة على طرفي نقيض كلاهما مخالف لكتاب الله من بعض الوجوه: قوم أفرطوا في دعوى امتناع الذنوب حتى حرفوا نصوص القرآن المخبرة بما وقع منهم من التوبة من الذنوب ومغفرة الله لهم ورفع درجاتهم بذلك. وقوم أفرطوا في أن ذكروا عنهم ما دل القرآن على براءتهم منه، وأضافوا إليهم ذنوباً وعيوباً نزههم الله عنها، وهؤلاء مخالفون للقرآن، وهؤلاء مخالفون للقرآن ومن اتبع القرآن على ما هو عليه من غير تحريف كان من الأمة الوسط مهتدياً إلى الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين) (٦).

(١) رواه البخاري كتاب الشهادات باب من أقام البينة مع اليمين ٢٨٨/٥، حديث ٢٦٨٠، ومسلم انظر صحيح مسلم بشرح النووي كتاب الأقضية باب بيان أن حكم الحاكم لا يغير الباطن ٤/١٢، واللفظ لمسلم.

(٢) العفاص بكسر أوله: جلد يوضع في رأس القارورة يحفظها. انظر مختار الصحاح ص ٤٤٢ مادة (عفس).

(٣) الوكاء: ما يشد به رأس القربة. انظر مختار الصحاح ص ٧٣٥ مادة (وك ي).

(٤) الشفا ٢/١٦٤

(٥) انظر حقوق النبي صلى الله عليه وسلم للتميمي ١/١٥٩

(٦) مجموع الفتاوى ١٥/١٥٠.

المبحث السادس

الهداية وأنواعها وبيان ما للرسول صلى الله عليه وسلم منها

الكلام حول الهداية والضلال هو لب أبواب القدر، وما يتعلق به من المسائل؛ فإن أعظم نعمة يقدرها الله تعالى للعبد هي نعمة الهداية، وأعظم مصيبة يصيب الله تعالى بها الإنسان هي مصيبة الضلال، وكل ما يعطيه الله الإنسان من نعمة فهي دون نعمة الهداية، وكل ما يصيبه به من مصائب فهي دون مصيبة الضلال، وقد اتفقت الرسل عليهم الصلاة والسلام من أولهم إلى خاتمهم، والكتب المنزلة عليهم أن الله سبحانه وتعالى يضل من يشاء ويهدي من يشاء وأن من هداه الله فلا مضل له، وأن من أضله فلا هادي له، فالهداية والإضلال بيده سبحانه وتعالى، وأما العبد فلا يملك من ذلك شيئاً، إلا أننا نقول عن العبد إذا أضله الله ضالاً، أو هداه الله مهتدياً؛ لأن الاهتداء، والضلال فعل العبد وكسبه^(١) باختياره ومشيئته.

وقبل الشروع في بيان أنواع الهداية، وتقرير الأدلة عليها من الكتاب العزيز أرى أنه من المناسب أن أذكر تعريف الهداية في اللغة، والاصطلاح فأقول :-

أولاً: الهداية في اللغة: قال ابن فارس: (الهاء، والذال، والحاء) الحرف المعتل أصلان: أحدهما: التقدم للإرشاد، والآخر بعثة لطف^(٢) فالأول قولهم هديته الطريق هداية أي تقدمته لأرشده.

قال الأعشى^(٣) (٤) :-

إذا كان هادي الفتى في البلا . . . صدر القناة أطاع الأمير
والأصل الآخر: الهدية^(٥).

(١) انظر شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ص ١٤١، وبدائع الفوائد ٢/ ٣٨ كلاهما لابن القيم. (٢) بعثة لطف: يقصد الهدية كما سيذكره في الأصل الثاني.

(٣) هو أبو بصير ميمون بن قيس بن جندل بن بني قيس بن ثعلبة الوائلي يعرف بأعشى قيس، والأعشى الكبير من شعراء الطبقة الأولى في الجاهلية وأحد أصحاب المعلقات، قيل إنه كان يغني بشعره فسمى (صنّاجة العرب) عمر طويلاً وأدرك الإسلام ولم يسلم - عياذاً بالله - لقب بالأعشى لضعف بصره، توفي في السنة السابعة من الهجرة. انظر الشعر والشعراء ١/ ١٧٨، والأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ٩/ ١٠٨، ومعجم الشعراء للدكتور عفيف عبد الرحمن ١/ ٢٢.

(٥) معجم مقاييس اللغة ٦/ ٤٢ مادة (هدي).

(٤) انظر ديوان الأعشى ص ٨٧.

والهدي: الرشاد، والدلالة، يؤنث، ويذكر، يقال: هدى الله فلانا للدين هدى، وهديا، وهداية، وهديته الطريق، والبيت هداية، أي: عرفته، هذه لغة أهل الحجاز، أما غيرهم فيعدون الفعل بإلى فيقولون: هديته إلى الطريق وإلى البيت. وفي مختار الصحاح: أن هذا الفعل (هدى) يتعدى بنفسه ويحرف اللام وبإلى^(١).

وقال الليث: (الهدى نقيض الضلالة، يقال: هدي فاهتدى، والهدى: البيان، والهدى: إخراج شيء إلى شيء، والهدى أيضا: الطاعة والورع)^(٢).
وقال الأزهري: (الطريق يسمى هدى، ومنه قول الشاعر^(٣)): -

قد وكُلتُ بالهدى إنسان^(٤) ساهمة كأنه من تمام الظم^(٥) مسمول^(٦)

وقال الأصمعي^(٧) - رحمه الله - : (هداه، يهديه في الدين هدى، وهده، يهديه هداية إذا دله على الطريق، فتقدمه، والهداية، والهداية: العصا؛ لأنها تتقدم ممسكها فكأنها تهديه وتدله على الطريق)^(٨).

ثانيا: الهداية في الاصطلاح أما الهداية اصطلاحا فهي من الهدى، وهو في الأصل مصدر كالسرى، ومعناه (الرشاد، والدلالة، ولو غير موصلة)^(٩).

وقال الإمام النووي: (الهداية: التوفيق، واللطف، ويقال: هدانا للإيمان، وهدانا

(١) انظر تهذيب اللغة/٦/٣٧٨ مادة (هدى) وصحاح اللغة للجوهري/٦/٢٥٣٣ مادة (هدى) ومختار الصحاح ص ٦٩٢ مادة (هدى).

(٢) تهذيب اللغة/٦/٣٧٨ مادة (هدى) وانظر لسان العرب/١٥/٥٨ مادة (هدى).

(٣) البيت للشماخ انظر ديوانه بشرح أحمد بن الأمين الشنقيطي ص ٨١

(٤) إنسان: أي حذقة العين. انظر المصباح المنير/١/٢٥، مادة (أنست).

(٥) الظم: ما بين الشربتين انظر المصباح المنير/١/٣٨٦، مادة (ظم).

(٦) مسمول أي مفقود، ومنه الإسمال وهو الإصلاح بين الناس، كأنه أزال ما بينهم من عداوة. انظر: معجم مقاييس اللغة/٣/١٠٢، مادة (سمل).

(٧) هو أبو سعيد عبد الملك بن قريب بن علي بن أصمع الباهلي الأصمعي راوية العرب، وأحد أئمة العلم باللغة، والشعر، والبلدان، ولد بالبصرة سنة ١٢٢هـ كان كثير التطواف في البوادي لجمع اللغة، توفي بالبصرة سنة ٢١٦هـ انظر ترجمته في مقدمة الأصمعيات ص ١١، ووفيات الأعيان/١/٢٨٨، وإنباء الرواة في أخبار النحاة/٢/١٩٧، والأعلام للزركلي/٤/٣٠٧

(٨) تهذيب اللغة/٦/٣٧٨ مادة (هدى) وصحاح اللغة/٦/٢٥٣٣ مادة (هدى) ولسان العرب/١٥/٥٨ مادة (هدى).

(٩) لوامع الأنوار/١/٥٠

الإيمان، وهدانا إلى الإيمان^(١).

وجاء في النهاية لابن الأثير: (ومن أسمائه تعالى الهادي، وهو الذي بصر عباده وعرفهم طرق معرفته حتى أقروا بربوبيته، وهدى كل مخلوق إلى مالا بد منه في بقائه ودوام وجوده)^(٢).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: (الهدى هو بيان ما ينتفع به الناس ويحتاجون إليه وهو ضد الضلالة فالضال يضل عن مقصوده وطريق مقصوده، وهو سبحانه بين في كتابه ما يهدي الناس... وعرفهم الطريق وهو ما يعبدونه به ففي الهدى بيان المعبود وما يعبد به)^(٣).

وقال العلامة ابن القيم: (الهداية هي العلم النافع والعمل الصالح)^(٤). وقال أيضا: (فالهدى والفضل، والنعمة متلازمان لا ينفك بعضها عن بعض كما أن الضلال والشقاء متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر)^(٥).

ثم بين ابن القيم أن هناك ثلاثة أركان تقوم عليها الهداية، ألا وهي: -

١- فاعل ٢- وقابل ٣- وآلة؛ أما الفاعل فهو الله سبحانه وتعالى، وأما القابل فهو قلب العبد، وأما الآلة فهي ما يحصل به الهدى وهو كتاب الله المنزل^(٦).

أنواع الهداية: إن للهداية التي هي أعظم نعمة يوفق الله عبده لنيلها أربعة أنواع:-

النوع الأول: الهداية العامة المشتركة بين الخلق أجمعين بأن هدى الله سبحانه وتعالى مخلوقاته إلى ما يصلح لها، ويناسبها من قدرها، ومعيشتها، وآجالها، وهي أعم أنواع الهداية، ومراتبها لا يحصيها إلا الله سبحانه وتعالى^(٧).

ودليل هذه الهداية قول المولى عز وجل: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (١) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (٨)﴾ فذكر سبحانه أربعة أمور عامة: الخلق، والتسوية والتقدير،

(٢) النهاية في غريب الحديث ٥/٢٥٣

(١) التبيان في أذاعة حملة القرآن للنووي ص ١٨٩

(٤) التفسير القيم لابن القيم ص ١٣

(٣) النبوات ص ١٥١

(٥) الفوائد ص ١٣٧، وانظر إغاثة اللهفان ٢/٥٣٨، كلاهما لابن القيم.

(٦) انظر إغاثة اللهفان ٢/٥٤٠

(٧) انظر شفاء العليل ص ١٤١، وبدائع الفوائد ٢/٣٥، ولوامع الأنوار ١/٣٣٤

(٨) سورة الأعلى الآيات (١-٢-٣).

والهداية، وجعل التسوية من تمام الخلق، والهداية من تمام التقدير^(١) فمعنى التقدير، والهداية هنا قيل: المراد أنه تعالى قدر خلق الذكر والأنثى، ثم هدى الذكر للأنثى، فلولا هدايته سبحانه التي جبل بها كل ذكر وعرفه كيف يأتي أنثاه من جنسه لحفظ النسل، وبقاء النوع لما اهتدى لذلك^(٢)، وهي المذكورة أيضا في قوله تعالى: ﴿الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾^(٣) أي: أعطى كل شيء صورته التي لا يشبه فيها غيره، وأعطى كل عضو شكله، وهياته، وأعطى كل موجود خلقة المختصة به، ثم هداه إلى ما خلقه له من الأعمال، وهذه الهداية يدخل تحتها هداية الحيوان المتحرك بإرادته إلى جلب ما ينفعه، ودفع ما يضره، كما تعم هداية الجماد المسخر لما خلق له، فلهذا الجماد هداية تليق به، كما أن لكل نوع من الحيوانات هداية تليق به، وإن اختلفت أنواعها، وضروبها، وكذلك كل عضو له هداية تليق به، فهداية الرجلين المشي، وهداية اليدين البطش والعمل، وهداية اللسان الكلام، وهداية الأذن الاستماع، وهداية العين كشف المبصرات، وكل عضو لما خلق له، وهداية الزوجين من كل حيوان الأزواج والتناسل، وتربية الأولاد، وتتجلى عطية الخالق سبحانه وتعالى في هذه الهداية حينما نراه هدى الطفل الرضيع إلى التقام ثدي أمه عند ولادته، وطلبه الرضاعة^(٤).

ومن صور هذه الهداية أنه سبحانه وتعالى هدى أمة النحل إلى الجبال والشجر تتخذ منها بيوتا وأبنية، وكذلك الشأن في هدايته لأمة الطير، والحيتان وغيرها من المخلوقات التي لا يعلم عددها إلا الله خالقها، فهو سبحانه وتعالى (لم يهمل أمر كل دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه، بل جعلها أما وهداها إلى غاياتها ومصالحها)^(٥).

ومراتب هذه الهداية لا يحصيها إلا هو فتبارك الله رب العالمين ومن تأمل بعض هدايته سبحانه وتعالى المبثوثة في العالم علم أنه لم يهمل هذه الحيوانات سدى ولم يتركها معطلة، بل هداها إلى هذه الهداية التي تعجز عقول العقلاء عن إدراكها والإحاطة بجزئياتها، وشهد له - لا محالة - بأنه الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم^(٦).

(١) شفاء العليل ص ١٤٢ (٢) انظر تفسير الطبري ٣/ ١٥٢، وتفسير ابن كثير ٣/ ١٦٣

(٣) سورة طه الآية ٥٠

(٤) انظر شفاء العليل ص ١٤٣، وبدائع الفوائد ٢/ ٣٥، وتفسير ابن كثير ٣/ ١٦٣

(٥) بدائع الفوائد ٢/ ٣٦

(٦) انظر بدائع الفوائد ٢/ ٣٥ يتصرف يسير، وشفاء العليل ص ١٤١ وقد أطال فيه ابن القيم رحمه الله النفس لبيان

هداية الله العامة لهذه المخلوقات. وانظر لوامع الأنوار ١/ ٣٣٤

وما أحسن قول الشاعر^(١) :-

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

النوع الثاني: هداية البيان والدلالة والتعريف لنجدي الخير والشر وطريقي الهلاك والنجاة، وهذا النوع من الهداية لا يستلزم الهدى التام؛ لأنها سبب وشرط، وذلك لا يستلزم حصول المشروط والسبب، بل قد يتخلف عنه المقتضي، وذلك راجع لوجود مانع، أو لعدم كمال السبب^(٢) ودليل هذه الهداية قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾^(٣).

قال قتادة في معنى الآية (أي: بينا لهم طريق الهدى وطريق الضلالة، فاستحبوا أي آثروا الضلالة على الهدى)^(٤)، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ﴾^(٥)، فهداهم الله هداية بيان، ودلالة، وإرشاد، فلم يقبلوها، فأضلهم عقوبة لهم على ترك الاهتداء أولاً بعد أن عرفوا الهدى، ثم أعرضوا عنه، فأعماهم عنه بعد أن أراهموه وهذه سنته سبحانه وتعالى في كل من أنعم عليه نعمته فكفرها؛ فإنه يسلبه إياها بعد أن كانت متاحة له، وبين يديه^(٦)، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾^(٧) ومن إطلاق الهدى على معنى البيان والدلالة قوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾^(٨) لأنه لو كان هدى توفيق لما قال: ﴿إِذَا مَكَفُورٌ﴾^(٩) وهذه الهداية هي المذكورة في وقوله تعالى في حق نبينا صلى الله عليه وسلم: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(١٠).

الثالثة: هداية التوفيق، والإلهام، والاصطفاء، وخلق المشيئة المستلزمة للفعال أي أن هذه الهداية مستلزمة للاهتداء لا يتخلف عنها، وهذه الهداية خاصة بالرب جل وعلا لا يملكها ملك مقرب ولا نبي مرسل، بله غيرهما ممن خلق الله تعالى، وهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾^(١١) وقوله تعالى: ﴿مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأِ

(١) هذا البيت لأبي العتاهية . انظر ديوانه ص ٣٩٤

(٢) انظر شفاء العليل ص ١٦٧ ، ولوامع الأنوار / ٢ / ٣٣٥

(٤) تفسير الطبري ٢٤ / ١٠٤ ، وانظر تفسير ابن كثير ٤ / ١٠٣

(٦) انظر شفاء العليل ص ١٦٧

(٨) سورة الإنسان الآية ٣

(١٠) سورة الشورى الآية ٥٢

(٣) سورة فصلت الآية ١٧

(٥) سورة التوبة الآية ١١٥

(٧) سورة الأنفال الآية ٥٣

(٩) انظر أضواء البيان ٧ / ٨٠

(١١) سورة فاطر الآية ٨

يَجْعَلُهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١﴾ وقوله تعالى أيضا: ﴿مَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ﴾ ﴿٢﴾ ، وهداية التوفيق والإلهام هذه تتضمن أمرين:-

أحدهما: فعل الرب تبارك وتعالى ، وهو الهدى . والثاني: فعل العبد ، وهو الاهتداء ، وهو الأثر المترتب على فعله سبحانه وتعالى ، فهو الهادي ، والعبد المهتدي ، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾ ﴿٣﴾ ولا سبيل إلى وجود هذا الأثر إلا بمؤثر تام صالح ؛ فإن لم يحصل فعله لم يوجد فعل العبد ، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾ ﴿٤﴾ (٥) وقد بين العلامة ابن القيم أن هذه الهداية أخص من هداية البيان ، والدلالة ، والإرشاد السابقة ، وأنها هي التي ضل بسبب إنكارها جهال القدرية ، وصاح عليهم سلف الأمة ، وأهل السنة من نواحي الأرض ، عصرا بعد عصر إلى وقتنا هذا (٦) .

زعمت القدرية النفاة بالتأويل الفاسد أن المراد من الهداية ، والضلال في كتاب الله تعالى هو تسمية العبد مهتديا ، وضالا ، فجعلوا هداية الله وإضلاله مجرد تسمية العبد بذلك (٧) ، وتأول بعضهم نصوص الهداية على أن المراد بها هداية البيان والإرشاد لا خلق الهدى في القلب بطريق التوفيق والإلهام ، فإنه سبحانه وتعالى لا يقدر على ذلك عند هذه الطائفة الزائغة (٨) ؛ ولذلك يقول السفاريني (تنبيه المشهور عند المعتزلة ومن مذهبهم أن الهداية هي الدلالة الموصلة إلى المطلوب فإن لم تكن موصلة إلى المطلوب فليست بهداية عندهم) (٩) .

أما الجبرية الغلاة فذهبوا في الطرف النقيض لمذهب القدرية النفاة فأنكروا الأسباب والقوى تبعا لإنكارهم فعل العبد وقدرته ، وأن يكون له تأثير في الفعل ألبيته فلم يوافقوا القدرية في ضلالهم ، بل ازدادوا ضلالا على ضلالهم وجمدوا على ما هم عليه من الباطل (١٠) .

(٢) سورة الأعراف الآية ١٨٦

(١) سورة الأنعام الآية ٣٩

(٤) سورة النحل الآية ٣٧

(٣) سورة الإسراء الآية ٩٨

(٦) المرجع نفسه والصفحة نفسها .

(٥) انظر شفاء العليل ص ١٦٩

(٧) انظر مقالات الإسلاميين ١/ ٣٢٤ ، وشفاء العليل ص ١٧٤

(٨) انظر شفاء العليل ص ١٧٥ ، ولوامع الأنوار ١/ ٣٣٥

(٩) لوامع الأنوار ١/ ٣٣٥

(١٠) انظر في بيان مذهب الطائفتين والرد عليهم الملل والنحل ١/ ٨٥ ، ومجموع الفتاوى ١٤/ ٢٧٠ ، وشفاء العليل

وكلا الطرفين من هاتين الطائفتين ذميم كما قال الشاعر^(١) :-

توسط إذا ما رمت شيئا فإنه كلا طرفي قصد الأمور ذميم

ولما احتج الجبرية بالقدر وقالوا: كيف يدخل الله العبد النار وقد حرمه الهدى؟ وترجم ذلك شاعرهم بقوله^(٢) :-

ما حيلة العبد والأقدار جارية عليه في كل حال أيها الرائي

ألقاه في اليم مكتوفا وقال له إياك إياك أن تبتل بالماء

تصدى له من أهل السنة من يرد عليه بقوله^(٣)

إن حفه اللطف لم يمسه من بلل ولم يبال بتكتيف وإلقاء

وإن يكن قدر المولى بغرقته فهو الغريق ولو ألقى بصحراء

ومن المناسب هنا أن أذكر كلمة رائعة للإمام جعفر الصادق^(٤) رحمه الله ذكرها في باب الهدى والضلال فقال: (إن الله تعالى أراد بنا شيئا وأراد منا شيئا، فما أرادنا بنا طواه عنا، وما أرادنا منا أظهره لنا، فما بالناس نشتغل بما أرادنا بنا عما أرادنا منا؟)^(٥).

ولأن هداية التوفيق، والإلهام هي أخص أنواع الهداية وأهمها فقد ركزت عليها آيات الكتاب العزيز، ومن ذلك مجيء سبع آيات في سورة واحدة هي سورة الزمر كلها توضح أن الهداية، والإضلال فعل الله سبحانه وتعالى، وأن الاهتداء، والضلال فعل العبد وكسبه^(٦).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (والعبد مضطر دائما إلى أن يهديه الله الصراط المستقيم؛ فإنه لا نجاة من العذاب، ولا وصول إلى السعادة إلا بهذه الهداية فمن فاته فهو إما من

(١) انظر العزلة للخطابي ص ٢٣٧

(٢) انظر مسألة القضاء والقدر وموقف المؤمن منها لمحمد متولي السداوي ص ٣٠

(٣) انظر المرجع السابق، والموضع بعينه.

(٤) هو أبو عبد الله جعفر الصادق بن محمد بن الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين السبط الهاشمي القرشي سادس الأئمة الاثني عشر عند الإمامية لقب بالصادق لأنه لم يعرف عنه الكذب قط، ولد بالمدينة سنة ٨٠ هـ وتوفي رحمه الله بها سنة ١٤٨ هـ انظر ترجمته في وفيات الأعيان ١/٣٢٧، وتاريخ يعقوبي ٢/٣٨١، وانظر المصايد والمطارد لكشاجم ص ٢٠٢

(٥) الملل والنحل ١/١٦٦، وانظر اليمانيات المسلوقة ص ٢٠٠، والإمام الصادق لمحمد أبي زهرة ص ٢٢٤

(٦) انظر تفسير الرازي ٢/٢٥، ومباحث العقيدة في سورة الزمر تأليف ناصر بن علي الشيخ ص ٥٣٣

المغضوب عليهم وإما من الضالين، وهذا الهدى لا يحصل إلا بهدى الله^(١).

الرابعة: هداية المؤمنين إلى الجنة، والكافرين إلى النار يوم القيامة، وهذه هي غاية الهداية، قال تعالى في حق المؤمنين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾^(٢) وقال أهل الجنة فيها: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾^(٣)، وقال تعالى عن أهل النار: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾^(٤)، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾^(٥).

فهذه الهداية بعد قتلهم، فقل إن المعنى: سيهديهم إلى طريق الجنة، ويصلح بالهم في الآخرة بخذلان خصومهم، وقبول أعمالهم^(٦).

مراتب الهداية الخاصة والعامة:

ذكر العلامة ابن القيم رحمه الله أن للهداية الخاصة والعامة عشر مراتب وسأوردها فيما يلي بإيجاز:-

المرتبة الأولى: مرتبة تكليم الله عز وجل لعبده بقظة بلا واسطة بينهما، بل من الله إلى العبد. وهذه أعلى مراتبها كما كلم موسى بن عمران^(٧) على نبينا وعليه الصلاة والسلام، وقال الله تعالى: ﴿كَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾^(٨)، فذكر في أول الآية وحيه إلى نوح والنبين من بعده ثم خص موسى من بينهم بمرتبة التكليم.

الثانية: مرتبة الوحي المختص بالأنبياء، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾^(٩)، وقال: ﴿وَمَا كَانَ لِنَشْرِ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾^(١٠) فجعل الله الوحي في آية الشورى قسما من أقسام التكليم بينما جعله

(١) التفسير الكبير للشيخ الإسلام ابن تيمية ٢/ ٣٣٥

(٢) سورة يونس الآية ٩

(٣) سورة الأعراف الآية ٤٣

(٤) سورة الصافات الآية (٢٢-٢٣).

(٥) سورة محمد صلى الله عليه وسلم الآية ٤

(٦) انظر شفاء العليل ص ١٧٩

(٧) تقدم معنا في مبحث (جبريل واسطة بين الله ورسله) أن هذه المرتبة يشترك فيها مع موسى بن عمران أول الأنبياء آدم، وخاتمهم محمد صلى الله عليه وسلم.

(٨) سورة النساء الآية ١٦٤

(٩) سورة النساء الآية ١٦٣

(١٠) سورة الشورى الآية ٥١

في آية النساء قسيما للتكليم، وذلك باعتبارين: الأول: لأنه قسيم التكليم الخاص الذي هو بلا واسطة. والثاني: أنه قسم من أقسام التكليم العام الذي هو إيصال المعنى بطرق متعددة.

الثالثة: إرسال واسطة من الملائكة إلى الواسطة من البشر فيوحي إليه ما أمره الله أن يوصله إليه^(١) وهذا الرسول الواسطة من الملائكة قد يتمثل للرسول الواسطة من البشر رجلا يراه معانية ويخطبه ويأخذ عنه، وقد يراه على صورته التي خلق عليها، وقد يدخل فيه الملك ويلبسه فيوحي إليه ما يوحيه ثم يسري عنه، وهذه الحالات الثلاث قد حصلت لنبينا صلى الله عليه وسلم^(٢) وهذه المراتب الثلاث خاصة بالأنبياء لا تكون لغيرهم.

الرابعة: مرتبة التحديث: وهذه دون مرتبة الوحي الخاص ودون مرتبة الصديقية كما كانت لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه حيث قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إنه كان في الأمم قبلكم محدثون فإن يكن في هذه الأمة فعمربن الخطاب)^(٣). وذكر العلامة ابن القيم أن شيخ الإسلام ابن تيمية بين معنى الحديث وأن السر في أن النبي صلى الله عليه وسلم جزم بأنهم كاثنون في الأمم قبلنا وعلق وجودهم في الأمة الإسلامية بـ"إن" الشرطية مع أن هذه الأمة هي أفضل الأمم لاحتياج الأمم قبلنا إليهم، واستغناء هذه الأمة عنهم بكمال نبينا ورسالته فلم يحوج الله الأمة بعد نبينا إلى محدث ولا ملهم ولا صاحب كشف ولا منام، فهذا التعليق لكمال الأمة لا لنقصها^(٤).

الخامسة: مرتبة الإفهام، قال تعالى: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفِثَتْ فِيهِ غَمُّ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحَكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ (٧٨) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴿٥﴾، فذكر الله في هذه الآية هذين النبيين وأثنى عليهما بالعلم والحكم؛ لكنه خص سليمان عليه السلام بالفهم في هذه الواقعة المعينة، وقال علي رضي الله عنه -وقد سئل- (هل خصكم رسول الله صلى الله عليه وسلم بشيء دون الناس)؟ فقال: (لا، والذي فلق الحبة، وبرأ النسمة، إلا فهما يؤتيه الله عبدا في كتابه، وما في هذه الصحيفة، وكان فيها العقل وهو

(١) انظر المبحث السابق (صورة الواسطة في التبليغ في الدنيا) ص

(٢) انظر المبحث السابق (الواسطة بين الله ورسله) ص

(٣) أخرجه البخاري كتاب فضائل الصحابة باب مناقب عمر بن الخطاب رضي الله عنه ٤٢/٧ حديث ٣٦٨٠

(٤) انظر مدارج السالكين ١/ ٣٩، (٥) سورة الأنبياء الآيتان (٧٨-٧٩).

الديات، وفكاك الأسير، وأن لا يقتل مسلم بكافر^(١).

فالفهم نعمة من الله على عبده، ونور يقذفه الله في قلبه، والفهم عن الله ورسوله صلى الله عليه وسلم عنوان الصديقية ومشور الولاية النبوية.

السادسة: مرتبة البيان العام، والإرشاد، والدلالة، وهذه المرتبة هي حجة الله على خلقه التي لا يعذب أحدا، ولا يضل إلا بعد وصوله إليها^(٢)، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ﴾^(٣).

السابعة: مرتبة البيان الخاص، وهذا البيان مستلزم للهداية الخاصة، وهي هداية التوفيق، والإلهام، والعناية، والاجتناب^(٤) قال تعالى في هذه المرتبة: ﴿إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾^(٥).

الثامنة: مرتبة الإسماع، قال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾^(٦) وقال أيضا: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾^(٧).

وهذا الإسماع أخص من إسماع الحجة، والتبليغ فإن ذلك حاصل لهم وبه قامت الحجة عليهم؛ لكن ذلك إسماع الأذن، وهذا إسماع القلوب، والفرق بين هذه المرتبة ومرتبة الإفهام: أن هذه المرتبة إنما تحصل بواسطة الأذن، ومرتبة الإفهام أعم، ومرتبة الإسماع ثلاث مراتب:-

١- سماع الأذن ٢- سماع القلب ٣- وسماع القبول والإجابة.

التاسعة: مرتبة الإلهام، قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾^(٨) وهذا الإلهام غير الفراسة؛ لأن الفراسة قد تتعلق بنوع كسب وتحصيل، أما الإلهام فموهبة خالصة لا تنال بكسب ولا تحصيل.

العاشرة: مرتبة الرؤيا الصالحة، وهي من أجزاء النبوة كما ثبت عن النبي صلى الله عليه

(١) أخرجه البخاري كتاب الديات باب العاقلة ١٢/ ٢٥٦ حديث ٦٩٠٣

(٢) وهي هداية البيان والإرشاد التي سبق إيضاها. (٣) سورة التوبة الآية ١١٥

(٤) هذه هي هداية التوفيق والإلهام، وقد سبق بيانها. (٥) سورة النحل الآية ٣٧

(٦) سورة الأنفال الآية ٢٣ (٧) سورة فاطر الآية ٢٢

(٨) سورة الشمس الآيتان (٧-٨).

وسلم أنه قال (الرؤيا الصادقة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة)^(١) .

وقد ذكر بعض أهل العلم أن سبب هذا التخصيص يعود إلى أن النبوة بدأت بالرؤيا الصادقة لمدة نصف سنة، ثم بدأ الوحي يقظة لمدة ثلاث وعشرين سنة من حين مبعث النبي صلى الله عليه وسلم إلى حين وفاته صلوات الله وسلامه عليه، فنسبة مدة الوحي في المنام من ذلك جزء من ستة وأربعين جزءاً، ثم قال العلامة ابن القيم (وهذا حسن لولا ما جاء في الرواية الأخرى الصحيحة (إنها جزء من سبعين جزءاً)^(٢) .

وقد قيل في الجمع بينهما: إن ذلك بحسب حال الرائي؛ فإن رؤيا الصديقين من ستة وأربعين، ورؤيا عموم المؤمنين الصادقة من سبعين والله أعلم^(٣) .

بيان ما للرسول صلى الله عليه وسلم من أنواع الهداية:

إذا تقرر بما قدمنا من أنواع الهداية الأربعة وهي: الهداية العامة، وهداية البيان، والدلالة والإرشاد والتبليغ، وهداية التوفيق والإلهام ثم هداية أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار، إذا تقرر ذلك واتضح، فنقول: إن النوع الثاني من أنواع الهداية وهي: هداية البيان، والدلالة، والإرشاد هي التي شرف الله تعالى بها نبيه صلى الله عليه وسلم وأعطاه إياها وكرم الله بها كل من آمن به وبرسوله صلى الله عليه وسلم وأطاعه واتبع النور الذي أنزل معه، وهذه الهداية أخص من الهداية العامة، وأعم من هداية التوفيق والإلهام، وهداية أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار، والدليل على إسنادها للرسول صلى الله عليه وسلم، وإثباتها له قوله تعالى: ﴿وَأَنْتَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(٤) .

قال العلامة ابن القيم (وهذه الهداية هي التي أثبتها لرسوله صلى الله عليه وسلم . . . ونفى عنه تلك الهداية الموجبة، وهي هداية التوفيق، والإلهام بقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾^(٥)، وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(٦)، فجمع سبحانه بين الهديتين: العامة والخاصة، فعم بالدعوة حجة، مشيئة، وعدلاً، وخص بالهداية، نعمة، مشيئة وفضلاً^(٧) .

(١) أخرجه البخاري ٣٩٠ / ١٢ حديث ٦٩٨٩، ومسلم كتاب الرؤيا ٢٤ / ١٥

(٢) أخرجه مسلم كتاب الرؤيا ٢٤ / ١٥

(٣) مدارج السالكين ١ / ٥٠، وقد لخصت هذه المراتب بتصرف يسير خشية الإطالة المملة.

(٤) سورة الشورى الآية ٥٢ (٥) سورة القصص الآية ٥٦

(٦) سورة يونس الآية ٢٥ (٧) شفاء العليل ص ١٦٨

فالرسول صلى الله عليه وسلم بعثه الله واسطة في التبليغ وبيان الحق والإرشاد إليه والإنذار بالوحي والدعوة إليه، ولا يملك شيئاً من هداية التوفيق والإلهام وخلق المشيئة، والمحل القابل للهدى، كما خلق الله سبحانه وتعالى إبليس للغواية وتزيين الشر للناس، وليس له القدرة على إضلال أحد من البشر.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (وأما قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾^(١) مع قوله: ﴿وَأَنَّكَ تَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(٢) فقد اتفق المسلمون على أن تلك المنفية ليست هي الهداية المثبتة له لا نزاع في هذا بين أهل السنة والقدرية، وأما الهداية المثبتة، فهي الدعوة، والبيان، وهذه يشترك فيها من يحبه ومن لا يحبه فإن عليه البلاغ وقد بلغ صلى الله عليه وسلم البلاغ المبين، وقال في آخر عمره في حجة الوداع (اللهم هل بلغت؟ قالوا: نعم، قال: اللهم اشهد)^(٣)، ونظير هذا قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا تُمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾^(٤)، وقوله: ﴿فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾^(٥)، وقال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾^(٦)، فإن الهداية هنا هي هداية الدلالة والإرشاد بكلامه، وبعلمه، وأمره، ونهييه، وترغيبه، وترهيبه، وأما حصول الهدى في القلب فهذا لا يقدر عليه أحد باتفاق المسلمين سنيهم وقدرتهم؛ لأن أحداً لا يستطيع أن يهدي القلوب ويخلق الهدى فيها غير الله.

أما أهل السنة فيقولون: إن الاهتداء الذي في القلب لا يقدر عليه إلا الله؛ ولكن العبد يقدر على أسبابه وهو المطلوب منه بقوله تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾^(٧)، وهو المنفي عن الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾^(٨)، وقوله: ﴿إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾^(٩)، وقوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾^(١٠).

وأما القدرية فيقولون: إن ذلك مقدور للعبد^(١١).

والتحقيق: أنه من جملة الأمور التي تسمى: المتولدات؛ الكشيع، والري، والرؤية في

(١) سورة القصص الآية ٥٦ (٢) سورة الشورى الآية ٥٢

(٣) أخرجه البخاري، ٥٧٣/٣ حديث (١٧٤١) ومسلم كتاب الحج باب حجة النبي صلى الله عليه

وسلم ١٧٠/٨ (٤) سورة فصلت الآية ١٧

(٥) سورة التغابن الآية ٦ (٦) سورة الرعد الآية ٧

(٧) سورة الفاتحة الآية ٦ (٨) سورة القصص الآية ٥٦

(٩) سورة النحل الآية ٣٧ (١٠) سورة البقرة الآية ٢٧٢

(١١) هذا رأي القدرية الثفاة للقدرة، وأما القدرية المجبرة فإنهم لا يشتون للعبد فعلا وقد سبق الرد عليهم.

العين، والسمع في الأذن، فهي حاصلة بفعل العبد المقدور له، بأسباب خارجة عن قدرته؛ ولهذا يثاب عليه لما له في حصوله من السبب، والاكتساب^(١).

وهذه الهداية كما أنها للرسول صلى الله عليه وسلم على الخصوص فهي أيضا لجميع إخوانه من المرسلين إلى أمهم قبله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾^(٢)، وحكى القرآن عن إبراهيم على نبينا وعليه الصلاة والسلام أنه قال لأبيه: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾^(٣)، وقال موسى لفرعون: ﴿وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى﴾^(٤)، وقال تعالى حكاية عن مؤمن آل فرعون: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾^(٥)، وقال تعالى أيضا عن قوم موسى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾^(٦).

وقد أثبت الله سبحانه وتعالى لكتبه التي أنزلها على رسله المصطفين هداية الدلالة والإرشاد أيضا، ولا شك أن هداية الرسل لا ينفك عن هداية الكتب التي أوحى الله إليهم؛ بل هما متلازمان؛ لأن كل رسول هدى الله به قومه للحق إنما كان ذلك بسبب هداية البيان، والإرشاد التي جعل الله للرسول الواسطة، وكتابته السماوي، ولهذا أمر الله خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم أن يقول لقومه: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ﴾^(٧).

إذا تبين ذلك فقد أثبت الله لكتبه المنزلة عموما هذه الهداية كما أثبتتها لخاتمة كتبه المنزل على خاتم أنبيائه ورسله صلى الله عليه وسلم على الخصوص، فقال تعالى عن القرآن الكريم: ﴿الَّذِي أَنْزَلَ فِيهِ الْقُرْآنَ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾^(٨)، وقال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾^(٩)، وقال أيضا: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(١٠)، وقال عز وجل -في شأن التوراة المنزلة على موسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام-: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾^(١١)، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مَرِيةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾^(١٢).

(١) تلخيص كتاب الاستغاثة ١/٤٣٥، وانظر شفاء العليل ص ١٦٨، ولوامع الأنوار ١/٣٣٥، وأضواء

البيان ٨٠/٧

(٢) سورة الرعد الآية ٧

(٤) سورة النازعات الآية ١٩

(٦) سورة السجدة الآية ٢٤

(٨) سورة البقرة الآيات (٢-١)

(١٠) سورة الإسراء الآية ٩

(١٢) سورة السجدة الآية ٢٣

(٣) سورة مريم الآية ٤٣

(٥) سورة غافر الآية ٣٨

(٧) سورة الأنبياء الآية ٤٥

(٩) سورة البقرة الآية ١٨٥

(١١) سورة المائدة الآية ٤٤

وقال تعالى - في شأن الإنجيل المنزل على عيسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام - : ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (١) ، وقال تعالى - في شأنهما معا - : ﴿وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ (٣) مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ (٢)

فهداية البيان، والدلالة، والإرشاد، والنصح، والتبليغ هي التي جعل الله للرسول والكتب المنزلة عليهم، وبما أن نبينا صلى الله عليه وسلم كان خاتم النبيين، وكتابه المنزل كان خاتمة الكتب السماوية المنزلة فقد حظيا بالنصيب الأوفر من هذه الهداية، وسيظل القرآن الكريم، والسنة المطهرة المرجع الوحيد لهذه الهداية حتى يأذن الله بزوال هذا الكون، وحتى يعود الإسلام غريبا كما بدأ.

فنسأله سبحانه وتعالى أن يجعلنا هداة مهتدين، وكما هدانا بهدائته العامة إلى ما يناسبنا ويصلح معاشنا، وكما هدانا بهداية البيان بالقرآن، والتبليغ، والإرشاد بالرسول صلى الله عليه وسلم أن يهدينا بهداية التوفيق لصراطه المستقيم، وأن يلهمنا الهداية إلى جنته ورضوانه على صراطه يوم الدين، فإننا محتاجون إلى هدايته في كل لحظة وطرفة (٣).

(١) سورة المائدة الآية ٤٦

(٢) سورة آل عمران الآية ٤

(٣) انظر التفسير الكبير لشيخ الإسلام ابن تيمية ٢/ ٣٣٧، وقاعدة في الرد على الغزالي في التوكل لشيخ الإسلام أيضا ص ١٧٠، وبدائع الفوائد ٢/ ٣٨، ومعارج القبول ٢/ ٩٦، وأصواء البيان ٦/ ٣٠٣

المبحث السابع

الرسول ﷺ واسطة في التبليغ والبيان لا في العبادة وجزاء الإنسان

الرسالة أو النبوة (خبر خاص يكرم الله عز وجل به أحدا من عباده فيميزه بإلقائه إليه ويوفقه به على شريعته بما فيها من أمر ونهي ووعظ وإرشاد ووعد ووعد) (١). فالرسالة اصطفاة من الله واختيار منه لعبده من بين سائر الناس يختصه برحمته ويصطفيه بفضله ومنته وليست مجرد صفة إضافية غير ثابتة، والنبي أو الرسول مميّز الله بصفات وخصه بخصائص دون غيره من سائر الناس، وفضله بفضائل ومقامات بعد البعثة لم تكن موجودة فيه قبلها.

يقول الإمام الماوردي: (لا منزلة في العالم أعلى من النبوة التي هي سفارة بين الله تعالى وعباده تبعث على مصالح الخلق وطاعة الخالق فكان أفضل الخلق بها أخص وأكملهم بشروطها أحق بها وأمس) (٢).

وعند أهل السنة أن الرسالة فضل من الله ورحمة وموهبة ونعمة يمن الله تعالى بها ويعطيها من يشاء من خلقه ممن أكرمه بالنبوة فلا يبلغها مجتهد بعمله ولا يستحقها عاقل بكسبه ولا ينالها باستعداد ولايته، بل يخص المولى عز وجل بها من يشاء من عباده المصطفين قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ (٣).

يقول العلامة السفاريني: (إن إرسال الرسل وإنزال الكتب وشرع الشرائع منة من الله تعالى وفضل لا واجب عليه ذلك، وإنما هو على سبيل اللطف بالخلق والفضل عليهم فبعثه تعالى جميع الرسل من آدم إلى محمد صلى الله عليه وسلم أجمعين إلى المكلفين لطف من الله بهم ليبلغوهم عنه سبحانه أمره ونهيهِ ووعدهِ ووعدهِ ويبينوا لهم عنه سبحانه ما يحتاجون إليه من أمور المعاش والمعاد مما جاءوا به من شرائعهم وأحكامهم التي أنزلها الله تعالى في كتبه عليهم... حتى تقوم الحجة عليهم بالبينات وينقطع عنهم سائر التعللات كما قال تعالى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ (٤) فلو لا

(١) المنهاج في شعب الإيمان للحليمي ١/٢٣٩، وانظر شعب الإيمان للبيهقي ١/١٥٠

(٢) أعلام النبوة ص ٢٥٤ (٣) سورة الحج الآية ٧٥

(٤) سورة النساء الآية ١٦٥

إعذاره تعالى إليهم على السنة الرسل وإقامة الحجة عليهم ببعثه أهل خبرته من ذوي النبوة والفضل لتوهموا أن لهم حجة سائغة ومعدرة بالغة (١).

وقد اصطفى الله سبحانه وتعالى جميع الرسل لهذه المهمة وهي تبليغ رسالات الله إلى أممهم حتى ختمهم بالنبي محمد ﷺ فكان مبلغاً عن الله إلى جميع الثققلين بحكم دعوته العامة ورسالته العالمية زماناً ومكاناً.

والنبوة وحي؛ لأن الرسول مبلغ عن الله وكلما يصدر عنه من أوامر ونواهي إنما يتبع فيه ما يأتيه من وحي الله عز وجل، ولهذا أمر الله نبينا صلى الله عليه وسلم أن يقول: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذِرُونَ﴾ (٢).

يقول ابن كثير في تفسير هذه الآية: (أي إنما أنا مبلغ عن الله ما أنذرتكم به من العذاب والنكال ليس ذلك إلا عما أوحاه الله تعالى إليّ، ولكن لا يجدي هذا عمن أعمى الله بصيرته وختم على سمعه وقلبه) (٣).

فسنة نبينا محمد ﷺ وحي لا مرأى في ذلك؛ لأنها مشتملة على فصل الخطاب وهي مفسرة للكتاب وقد أمر الله تعالى بالرد إليها - بعد كتابه - عند التحاكم، فقال تعالى: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرُّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ (٤)، وعند أهل السنة والجماعة أن الوحي بقسميه: القرآن والسنة هما الأصل الذي يرجع إليه في التشريع (٥) والإجماع والقياس فرع عنهما. قال تعالى: ﴿وَالنَّجْمُ إِذَا هَوَىٰ (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (٢) وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ (٦).

وقد بين ابن كثير في تفسيره إن هذه الآيات شهادة للرسول ﷺ بأنه راشد تابع للحق غير متصف بالضلال ولا بالغواية نزهة الله وشرعه عن مشابهة أهل الضلال كالنصارى وطرائق اليهود، بل إنه عليه الصلاة والسلام وما بعثه الله به من الشرع العظيم والوحي النافع في غاية الاستقامة والاعتدال والسداد، لا يقول قولاً عن هوى نفسه وغرضها، وإنما يقول الذي يؤمر به ليبلغه إلى الناس كلاماً موفوراً ومن غير زيادة ولا نقصان (٧)، ولهذا روى

(١) لوامع الأنوار ٢/ ٢٥٨، وانظر النبوات ص ٨٨ (٢) سورة الأنبياء الآية ٤٥

(٣) تفسير ابن كثير ٣/ ١٨٩، وانظر الكشف ٢/ ٣٦٣ (٤) سورة النساء الآية ٥٩

(٥) انظر أعلام الموقعين ١/ ١١، ومباحث في علوم القرآن لمناع القطان ص ٢٧، والسنة ومكانتها في التشريع

الإسلامي ص ٣٧٦ (٦) سورة النجم الآيات (١-٥).

(٧) انظر تفسير ابن كثير ٤/ ٢٦٤

الإمام أحمد بسنده عن عبد الله بن عمرو قال: (كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله (أريد حفظه فنهتني قريش فقالوا: إنك تكتب كل شيء تسمعه من رسول الله ﷺ ورسول الله (بشر يتكلم في الغضب فأمسكت عن الكتاب فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال: (اكتب فوالذي نفسي بيده ما خرج مني إلا الحق) ^(١) وقال عليه الصلاة والسلام: (ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه) ^(٢) ، وقال الإمام الأوزاعي: (إذا بلغك عن رسول الله ﷺ حديث فلا تظنن غيره ولا تقولن غيره فإن محمداً إنما كان مبلغاً عن ربه) ^(٣) .

إذا تبين أن النبوة اصطفاً محض واجتباء إلهي لمن يختاره الله عز وجل لهذا المنصب الشريف، وهذه الوظيفة السامية، وإذا تقرر أنها وحي من الله تعالى إلى الرسول الواسطة لا يخرج فيها عن أوامر الله ونواهيه ^(٤) وأن جميع الرسل جاءوا على هذا المنوال، وكانت رسالاتهم على هذا الوصف حتى ختمهم الله بخاتم رسله وأفضل أنبيائه محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه وعلى جميع إخوانه من النبيين والمرسلين .

إذا تقرر ذلك فأقول: إن هناك فرقاً بين ما هو حق لله وحده لا يشركه فيه غيره وبين ما هو للرسول الواسطة، فالله سبحانه وتعالى بعث جميع الرسل وأنزل عليهم كتبه السماوية بالدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له والنهي عن صرف شيء من أنواع العبادة لما سواه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ ^(٥) ، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ ^(٦) ، وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ

(١) رواه أبو داود ٦٠/٣، والدارمي في سننه المقدمة ١/١٢٥، والإمام أحمد في المسند ٢/١٦٢، والحاكم في المستدرک ١/١٠٥، وصححه ووافقه الذهبي، وصححه الشيخ الألباني، انظر السلسلة الصحيحة ٤/٤٥ برقم ١٥٣٢

(٢) رواه أحمد في المسند ٤/١٣١، وأبو داود في سننه ١٠/٥، وصححه الشيخ الألباني انظر صحيح سنن أبي داود ٣/١١٧ برقم ٤٦٠٤

(٣) أخرجه الخطيب البغدادي في الفقيه والمتفقه ١/١٤٩، وانظر الآثار المروية عن أئمة السنة في أبواب الاعتقاد من سير أعلام النبلاء ١/١٤٣

(٤) تقدم الكلام في المبحث السابق عن عصمة الرسول وما يجوز عليه من الخطأ عند أهل السنة والجماعة .

(٥) سورة الأنبياء الآية ٢٥

(٦) سورة النحل الآية ٣٦

اللَّهُ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ (٧٩) وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١﴾

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (فالعبادة والاستعانة وما يدخل في ذلك من الدعاء والاستغاثة والخشية والرجاء والإنابة والتوكل والتوبة والاستغفار كل هذا لله وحده، لا شريك له، فالعبادة متعلقة بالألوهيته، والاستعانة متعلقة بربوبيته، والله رب العالمين لا إله إلا هو، ولا رب لنا غيره، لا ملك ولا نبي ولا غيره، بل أكبر الكبائر الإشراك بالله وأن تجعل له ندا وهو خلقك والشرك أن تجعل لغيره شركا أي نصيبا في عبادتك وتوكلك واستعانتك كما قال تعالى: ﴿وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾ (٢) وأصناف العبادات: الصلاة بأجزائها مجتمعة، وكذلك أجزاؤها التي هي عبادة بنفسها من السجود، والركوع، والتسبيح، والدعاء، والقراءة، والقيام لا يصلح إلا لله، ولا يجوز أن يتنفل على طريق العبادة إلا لله وحده، لا لشمس، ولا لقمر، ولا لملك، ولا لنبي، ولا صالح، هذا في جميع ملل الأنبياء... وهذا كله تفصيل الشهادتين اللتين هما أصل الدين: شهادة أن لا إله إلا الله وشهادة أن محمدا عبده ورسوله، والإله من يستحق أن يألهه العباد، ويدخل فيه حبه وخوفه، فما كان من توابيع الألوهية فهو حق محض لله، وما كان من أمور الرسالة فهو حق الرسول (٣).

وقال العلامة ابن القيم: (وبالجمله فتجعل الرسول شيخك وأستاذك ومعلمك ومربيك ومؤدبك وتسقط الوسائط بينك وبينه إلا في التبليغ كما تسقط الوسائط بينك وبين المرسل في العبودية، ولا تثبت وساطة إلا في وصول أمره ونهيه ورسالته إليك، وهذان التجريدان هما حقيقة شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله، والله وحده هو المعبود المألوه الذي لا يستحق العبادة سواه، ورسوله المطاع المتبع المهتدى به الذي لا يستحق الطاعة سواه، ومن سواه فإنما يطاع إذا أمر الرسول بطاعته فيطاع تبعا للأصل (٤).

فدين الحق دين الإسلام هو عبادة الله وحده لا شريك له وتصديق رسله، وهذا هو معنى قولنا: (أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله) فهنا أصلان: -

(١) سورة آل عمران الآيتان (٧٩-٨٠).

(٢) سورة الأنعام الآية ٩٤

(٣) مجموع الفتاوى ١/ ٧٤ بتصرف، وانظر القول الفصل النفيس ص ١٠٦

(٤) مدارج السالكين ٣/ ١٤٤، وانظر الرد على شبهات المستعنيين بغير الله تعالى ص ٧٩

أ - توحيد الله بالعبادة

ب - الإيمان برسله وطاعتهم .

وبمعرفة هذين الأصلين يتحقق الشرطان العظيمان لقبول العمل وهما : إخلاص العمل لله تعالى ، ومتابعة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولهذا لا يدخل أحد في دين الإسلام حتى يؤمن بهذين الأصلين العظيمين ولا يكمل إيمانه ويتحقق إيقانه حتى يفرق بين حق الله تعالى وحق رسوله صلى الله عليه وسلم فيعتقد أن الله هو المنعم على الإطلاق في تقسيم الأرزاق والأخلاق ، وأنه المعطي والمانع ، والمهدي ، والمانع ، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم واسطة بيننا وبين ربنا في تبليغ شرعه وبيان ما يحبه ويرضاه وما يسخطه ويقلاه ، وأنه صلى الله عليه وسلم بلغ ما أنزل إليه ربه البلاغ المبين وبلغ في مقام التبليغ المرتبة العليا ، والمكانة الرفيعة ، وعليه فإن تصحيح محبته الله تعالى ورسوله وترجيح مودتهما لا تتم إلا بتحقيق هذين الحقين ، والإيمان بهما^(١) (ولله تعالى حق لا يشركه فيه مخلوق كالعبادات ، والإخلاص ، والتوكل ، والخوف ، والرجاء ، والحج ، والصلاة ، والزكاة ، والصيام ، والصدقة ، والرسول له حق كالإيمان به ، وطاعته ، واتباع سنته ، وموالاته من يواليه ، ومعاداة من يعاديه ، وتقديمه في المحبة على الأهل ، والمال والنفس ، كما قال صلى الله عليه وسلم : (والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين)^(٢) (٣) .

ولم يقل الرسول صلى الله عليه وسلم إنه واسطة في إجابة الدعاء ، وكشف البلاء والهداية ، والإغناء ، ونحو ذلك ، فالله تعالى هو المتفرد بذلك وهو جل وعلا يسمع دعاء خلقه ويرى مكانهم ، ويعلم سرهم ونجواهم ، وهو القادر على إنزال النعماء ، وإزالة الضراء من غير احتياج منه إلى أن يعرفه أحد أحوال عبادته أو يعينه على قضاء حوائجهم والأسباب التي يحصل بها ذلك هو خلقها ويسرها ، فهو مسبب الأسباب التي يحصل بها أي مطلوب ، ولهذا فرض سبحانه على المصلي أن يقول في صلاته : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾^(٤) فالله سبحانه وتعالى أجل وأعظم وأغنى وأعلى من أن يفتقر إلى شيء ، بل هو الأحد الصمد ، وكل ما سواه مفتقر إليه وهو مستغن عن كل ما سواه ، فعن أبي هريرة

(١) انظر شرح الشفا للملا علي الفاري ٣٥ / ٢ (٢) تقدم تخريجه .

(٣) مجموعة الرسائل الكبرى ٤١٦ / ٢ ، وانظر مجموع الفتاوى ١ / ١٣٦

(٤) سورة الفاتحة الآية ٥

رضي الله عنه قال : قام فينا النبي ﷺ فذكر الغلول^(١) فعظمه وعظم أمره قال : (لا ألفين أحذكم يوم القيامة على رقبته فرس له حمحة^(٢)) ، يقول يا رسول الله أغشي فأقول : لا أملك لك شيئا قد أبلغتكم وعلى رقبته بعير له رغاء^(٣) ، يقول يا رسول الله أغشي فأقول : لا أملك لك شيئا قد أبلغتكم^(٤) الحديث .

فهؤلاء الذين بلغهم أخبر أنهم استغاثوا به يوم القيامة وسألوه الشفاعة يقول لهم : لا أملك لكم من الله شيئا قد أبلغتكم^(٥) مع أنه صلى الله عليه وسلم صاحب الشفاعة العظمى يوم القيامة .

قال الحافظ ابن حجر في شرحه لهذا الحديث : (قوله ﷺ) (لا أملك لك شيئا) أي من المغفرة لأن الشفاعة أمرها إلى الله ، وقوله (قد أبلغتكم) أي فليس لك عذر بعد الإبلاغ وكأنه صلى الله عليه وسلم أبرز هذا الوعيد في مقام الزجر والتغليظ وإلا فهو في القيامة صاحب الشفاعة في مذنب الأمة^(٦) .

فالحنفاء لا يثبتون بين الله وبين مخلوقاته واسطة في عبادته وسؤاله وإنما يثبتون الوسائط في تبليغ رسالات الله ، فأصل دين الحنفاء شهادة أن لا إله إلا الله وشهادة أن محمداً وغيره من الرسل صلوات الله وسلامه عليهم رسل من الله إلى البشر^(٧) ، وليس في الحنفاء (من يقول بإثبات البشر وسائط في الخلق ، والتدبير ، والرزق ، والإحياء ، والإماتة ، وسماع الدعاء ، وإجابة الداعي ، بلى الرسل كلهم وأتباع الرسل متفقون على أنه

(١) الغلول : بضم المعجمة واللام : الخيانة في المغنم ، قال ابن قتيبة : سمي بذلك لأن آخذه يغله في متاعه أي يخفيه . انظر المصباح المنير ٢/ ٤٥٢ ، والقاموس المحيط ٤/ ٢٦ (مادة الغل) .

(٢) الحمحة : صوت الفرس إذا طلب العلف ، يقال فيه : حمحم وتحمحم . انظر مختار الصحاح ص ١٥٧ ، مادة (ح م م) والقاموس المحيط ٤/ ١٠٢ مادة حمم . قال عنترة : -

فأزور من وقع القنا بلبانه وشكا إلي بعيرة وتحمحم

انظر شرح ديوان عنترة طبعة دار الكتب ص ١٢٦

(٣) الرغاء : بضم الراء : صوت البعير وهو لجميع ذوات الخف . انظر مختار الصحاح ص ٢٤٩ مادة (رغا) والنهاية لابن الأثير ٢/ ٢٤٠

(٤) رواه البخاري . كتاب الجهاد باب الغلول ٦/ ١٨٥ حديث ٣٠٧٣ واللفظ له ، ورواه مسلم كتاب الإمارة باب غلظ تحريم الغلول ١٢/ ٢١٦

(٥) انظر تلخيص كتاب الاستغاثة ١/ ٥٣ ، وحقوق النبي صلى الله عليه وسلم على أمته للتميمي ٢/ ٦٦١

(٦) فتح الباري ٦/ ١٨٦

(٧) انظر الرد على المنطقيين ص ١٠٥ ، والفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص ١٠

لا يعبد إلا الله وحده، فهو الذي يسأل ويعبد وله يصلى ويسجد، وهو الذي يجيب دعاء المضطرين، ويكشف الضر عن المضرورين، ويغيث عباده المستغيثين: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾^(١) ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجَارُونَ﴾^(٢)، وليس عند الحنفاء أن أحدا غير الله يستقل بفعل شيء، بل غايته أن يكون سببا والأثر لا يحصل إلا به وبغيره من الأسباب، وبصرف الموانع، والله تعالى هو الذي يخلق بتأثير الأسباب وبدفع الموانع مع خلقه سبحانه أيضا لهذا السبب، لكن المقصود أنه ليس في الوجود ما يستقل بإحداث شيء، ولا ثم شيء يوجب كل أثر إلا مشيئة الله وحده، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، والرسول هم وسائط بين الله وبين خلقه في تبليغ رسالاته وأمره، ونهييه، ووعدته، ووعيدته، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾^(٣) وقال: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾^(٤) وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا^(٥) فأخبر أنه أرسله شاهدا كما قال: ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾^(٦) وقال: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾^(٧)، ولما دفن النبي ﷺ شهداء أحد قال (أنا شهيد على هؤلاء يوم القيامة)^(٨) وقوله^(٩): ﴿وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ بالوعد والوعيد: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ﴾ بالأمر والنهي... فتوسط البشر بالرسالة مثل توسط الملك بالرسالة، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾^(١٠)

فرسل الله وسائط في تبليغ رسالاته كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾^(١١) وقال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾^(١٢) ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم^(١٣) وقال تعالى عن نوح عليه السلام: ﴿وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(١٤) وكذلك قال هود عليه السلام^(١٥).

- | | |
|--|-------------------------------------|
| (١) سورة فاطر الآية ٢ | (٢) سورة النحل الآية ٥٣ |
| (٣) سورة الأنعام الآية ٤٨ | (٤) سورة الأحزاب الآيات (٤٥ - ٤٦) |
| (٥) سورة الحج الآية ٧٨ | (٦) سورة النساء الآية ٤١ |
| (٧) رواه البخاري، كتاب الجنائز باب الصلاة على الشهيد ٢٠٩/٣ حديث ١٣٤٣ | (٨) أي في آية الأحزاب السابقة. |
| (٩) سورة الحج الآية ٧٥ | (١٠) سورة المائدة الآية ٦٧ |
| (١١) سورة الجن الآيات (٢٧ - ٢٨) | (١٢) سورة الأعراف الآيات (٦١ - ٦٢). |

(١٣) وذلك في سورة الأعراف نفسها، قال تعالى على لسان هود عليه السلام ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(١٤) أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين ﴿الآيات (٦٧ - ٦٨).

فمن جعل ما يثبتته الخنفاء من توسط البشر أو توسط الملائكة من جنس ما يثبتته المشركون وأخذ يفاضل بين البشر والملائكة لم يكن عارفاً بدين الإسلام^(١) فمن اتخذ هؤلاء أو هؤلاء أرباباً كما يقول من يجعلهم وسائط في العبادة والدعاء ونحو ذلك فهو كافر^(٢).

فالإله هو الذي تأله القلوب بالعبادة، والاستعانة، والمحبة، والتعظيم، والخوف، والإجلال، والإكرام، وهو سبحانه وتعالى حق لا يشاركه فيه غيره، فلا يعبد إلا الله ولا يدعى إلا الله، ولا يخاف إلا الله، ولا يطاع إلا الله، والرسول صلى الله عليه وسلم هو المبلغ عن الله طاعته، وأمره، ونهيه، وتحليله، وتحريمه، وسائر ما بلغه، من كلام ربه، فهو الواسطة بين الله تعالى وبين خلقه في تبليغ الدين: من عقيدة، وشرعية، وأخلاق، وأما إجابة الدعاء، وكشف البلاء، والهداية، والإغناء، وسائر أنواع العبادة، جزاء ابن آدم، وما يصير إليه، ونحوه فالله جل وعلا هو المتفرد بذلك الذي يسمع ويرى، ويعلم السر والنجوى، وهو سبحانه القادر على إنزال النعم، وإزالة الضر والسقم من غير احتياج منه إلى أن يعرفه أحد من خلقه أحوال عبادته، أو يعينه على قضاء حوائجهم، والأسباب التي يحصل بها عادة ذلك هو الذي خلقها، ويسرها، وأهل السموات يسألونه وأهل الأرض يسألونه، كما قال تعالى: ﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾^(٣)، وهو سبحانه لا يشغله سمع كلام هذا عن سمع كلام هذا، ولا يغلطه اختلاف أصواتهم ولغاتهم، بل يسمع ضجيج الأصوات باختلاف اللغات على تفنن الحاجات، ولا يبرمه إلحاح الملحين، بل يحب الإلحاح في الدعاء^(٤).

فكل من كان للرسول صلى الله عليه وسلم أطوع وأتبع كان أولى به في الدنيا والآخرة. قال تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾^(٥)، وهو أولى بالمؤمنين من أنفسهم، وهو الواسطة بيننا وبين بارتنا في التبليغ، فالحلل ما حلله، والحرام ما حرمه، والدين ما شرعه، والله هو المعبود المسؤول المستعان به الذي يخاف

(١) يقصد شيخ الإسلام بذلك الرد على الشهرستاني وغيره من أهل الكلام الذين أجروا مناظرة بين الخنفاء والصائبة في مسألة الواسطة فكان ردهم ضعيفاً لعدم اعتمادهم على الوحي وتقيدهم بالدليل الشرعي.

(٢) الرد على المنطقيين ص ٥٣٧ وما بعدها (بتصرف). (٣) سورة الرحمن الآية ٢٩

(٤) انظر مجموع الفتاوى ١/ ٣٦٥، وتلخيص كتاب الاستغاثة ١/ ١٤١، والواسطة بين الحق والخلق ص ١٦

(٥) سورة يوسف الآية ١٠٨

ويرجى ويتوكل عليه، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشِ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾^(١)، فجعل الطاعة لله والرسول كما قال تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾^(٢) وجعل الخشية والتقوى لله وحده لا شريك له فقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾^(٣) فأضاف الإيتاء إلى الله والرسول كما قال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾^(٤)، فليس لأحد أن يأخذ إلا ما أباحه الرسول وإن كان الله آتاه ذلك من جهة القدرة والملك فالله يؤتي الملك من يشاء وينزعه من يشاء، ولهذا كان النبي ﷺ يقول في الاعتدال من الركوع وبعد السلام: (اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجند منك الجند)^(٥)، أي من آتيته جدا وهو: البَخت^(٦)، والمال والملك، فإنه لا ينجيهِ منك إلا الإيمان والتقوى، وأما التوكل فعلى الله وحده، والرغبة فإلى الله وحده، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ﴾ ولم يقل: ورسوله، وقالوا: ﴿إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ ولم يقولوا هنا: ورسوله، كما قال في صدر الآية: ﴿مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾، بل هذا نظير قوله تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾^(٧) وإلى ربك فارغب^(٨) وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾^(٩)، وفي صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ قالها إبراهيم حين ألقى في النار وقالها محمد ﷺ حين قيل له: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾^(١٠)

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(١١) أي: الله وحده حسبك وحسب المؤمنين الذين اتبعوك وصدقوك^(١٢) (فكل ما أمرهم به الرسول من

(٢) سورة النساء الآية ٨٠

(١) سورة النور الآية ٥٢

(٤) سورة الحشر الآية ٧

(٣) سورة التوبة الآية ٥٩

(٥) رواه البخاري، كتاب الأذان باب الذكر بعد الصلاة ٢/٣٢٥ حديث ٨٤٤، ومسلم، كتاب الصلاة باب ما يقول إذا رفع رأسه من الركوع ٤/١٩٤

(٦) البخت: الحظ وزنا ومعنى، انظر مختار الصحاح ص ٤٢ مادة (ب خ ت) والمصباح المنير ١/٣٧ مادة (البخت).

(٧) سورة الشرح الآيتان (٧-٨).

(٩) رواه البخاري، كتاب التفسير ٨/٢٢٩ حديث ٤٥٦٣

(٨) سورة آل عمران الآية ١٧٣

(١٠) سورة الأنفال الآية ٦٤

(١١) انظر مجموعة الرسائل الكبرى ٢/٤١٥

واجب ومستحب فالله أمرهم به ، وإذا أطاعوا الله ورسوله فأجرهم على الله ، وإذا عصوا الله ورسوله فحسابهم على الله قال تعالى : ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾ (١) وقال : ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴾ (٢) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ (٣) إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ (٤) فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ (٥) إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (٦) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (٧) ، وقال : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ (٨) ثم قال : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ (٩)

فأمر بطاعته وطاعة رسوله ؛ لأن طاعته طاعة لله ، وأمرهم بالتوكل عليه وحده ، وطاعة الرسول هي : عبادة الله وحده ، والأمر ، والمعنى المتقدم : من أن الرسول ليس عليه إلا ما أمر به من البلاغ والبيان والجهاد وليس عليه جزاء العباد ولا حسابهم ولا هدايتهم قد كرر في القرآن في مواضع (١٠) ، ومن تلك المواضع قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ (١١) قوله : ﴿ قَالَ إِنَّمَا أَعْلَمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ ﴾ (١٢) وقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعْدُهُمْ أَوْ تُتَوَقَّعَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾ (١٣) وقوله : ﴿ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ (١٤) وقوله عز من قائل : ﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبُ لَا سْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسْنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (١٥) .

قال العلامة السعدي : (وهذه الآيات الكريمات مبينة جهل من يقصد النبي ﷺ ويدعوه لحصول نفع أو دفع ضرر ؛ فإنه ليس بيده شيء من الأمر ، ولا ينفع من لم ينفعه الله ، ولا يدفع الضرر عمن لم يدفعه الله عنه ، ولا له من العلم إلا ما علمه الله وإنما ينفع من قبل ما أرسل به من البشارة والندارة وعمل بذلك ، فهذا نفعه عليه السلام الذي فاق نفع الآباء والأمهات والأخلاء والإخوان بما حث العباد على كل خير وحذرهم عن كل شر ، وفيه لهم غاية البيان والإيضاح) (١٦) .

- (١) سورة الرعد الآية ٤٠ (٢) سورة الغاشية الآيات (٢١-٢٦) .
 (٣) سورة التغابن الآية ١٢ (٤) سورة التغابن الآية ١٣
 (٥) تلخيص كتاب الاستغاثة ١/٢٣٥ ، وانظر إقامة البراهين على حكم من استغاث بغير الله أو صدق الكهنة والعرافين لابن باز ص ١٦ (٦) سورة الرعد الآية ٧
 (٧) سورة الأحقاف الآية ٢٣ (٨) سورة الرعد الآية ٤٠
 (٩) سورة الأنعام الآية ٥٢ (١٠) سورة الأعراف الآية ١٨٨
 (١١) تفسير السعدي ٣/١٢٧ ، وانظر تفسير ابن كثير ٢/٢٨٥ ، وأضواء البيان ٢/٢٥٤ ، وعقيدة الشيخ محمد بن عبد الوهاب السلفية لفضيلة شيخنا معالي الدكتور صالح العبود ص ٢٦٤

ولا ريب أن التفريق بين حق الله تعالى وحق رسوله ﷺ من المقاصد العقدية المهمة التي ركز عليها القرآن الكريم وبينتها آياته الكريمة ووضعها خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم في غير ما موضع من سنته المطهرة حماية منه صلى الله عليه وسلم لجناب التوحيد ولبيان ما يليق بالخالق وما هو من خصائص المخلوق؛ ولهذا لما أنزل على النبي ﷺ قول الله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾^(١) قال عليه الصلاة والسلام: (يا معشر قريش أو كلمة نحوها اشتروا أنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئا، يا بني عبد مناف لا أغني عنكم من الله شيئا، يا عباس بن عبد المطلب، لا أغني عنك من الله شيئا، يا صفية عمة رسول الله ﷺ، لا أغني عنك من الله شيئا يا فاطمة بنت محمد سليمان ما شئت من مالي لا أغني عنك من الله شيئا)^(٢).

قال الحافظ ابن حجر -مبيناً ما يستفاد من الحديث-: (وفيه إشارة إلى أن النفوس كلها ملك لله تعالى وأن من أطاعه حق طاعته في امثال أوامره واجتناب نواهيه وقى ما عليه من الثمن، وبالله التوفيق)^(٣).

فإذا صرح النبي ﷺ وهو سيد المرسلين -لأقاربه من المؤمنين والمشركون خصوصاً بضعته^(٤) صلى الله عليه وسلم وعمه العباس وعمته صفية رضي الله عنهم جميعاً بأنه لا يملك لهم من الله شيئا، واعترف عليه الصلاة والسلام -وهو سيد الموحدين- بأنه ليس إليه إنقاذ بشر من النار قد كتبها الله عليه كما خاطبه الله بقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مِنْ فِي النَّارِ﴾^(٥) فما بالناس ننسب إليه ما ليس من حقه صلى الله عليه وسلم؟! وإذا عرف الإنسان ذلك وآمن بأنه صلى الله عليه وسلم لا يقول إلا الحق والصدق ثم نظر إلى ما وقع في قلوب كثير من الناس من الاعتقاد فيه وفي غيره من الأنبياء والصالحين أنهم ينفعونهم أو يضررونهم أو يغنون عنهم من عذاب الله شيئا تبين له الفرق بين حال الموحدين والغلاة في حق المرسلين وعرف غربة الدين^(٦).

(١) سورة الشعراء الآية ٢١٥

(٢) رواه البخاري، كتاب التفسير باب ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ حديث ٤٧٧

(٣) فتح الباري ٨/ ٥٠٣

(٤) البضعة: بفتح الباء: القطعة من اللحم. انظر غريب الحديث لابن الجوزي ١/ ٧٥ (باب الباء مع الضاد).

(٥) سورة الزمر الآية ٢٠

(٦) انظر تيسير العزيز الحميد ص ٢٢٠ وما بعدها بتصرف، وحوار مع المالكي لابن منيع ص ٣٣

وهذا الأصل عظيم النفع جدا لمن عقله وتدبره وهو التفريق بين ما هو من حق الله وما هو من حق رسول الله ، فمن فهم ذلك واعتقده فإنه يسلم من تلبيسات أهل الأهواء الغالين في حق الأنبياء والمرسلين الذين ينسبون للأنبياء ما هو من خصائص رب العالمين ؛ ولهذا إذا قال قائل : (لا يجوز التوكل إلا على الله وحده ولا العبادة إلا لله وحده ولا يتقى ولا يخشى إلا الله وحده ؛ لا الملائكة ولا الأنبياء ولا غيرهم كان هذا تحقيقا للتوحيد ولم يكن هذا سببا لهم ولا تنقصا بهم ولا عيبا لهم ، وإن كان فيه بيان نقص درجتهم عن درجة الربوبية ، فنقص المخلوق عن الخالق من لوازم كل مخلوق ويمتنع أن يكون المخلوق مثل الخالق فكل عبادة ليست واجبة في شرع الرسول ولا مستحبة كانت من الشرك والبدع ، وكلما تدبر الإنسان ما أمر به وشرعه تبين له أنه جمع في شرعه بين كمال توحيد الرب وإخلاص الدين له وبين كمال طاعة الرسل وتعزيزهم ومحبتهم وموالاتهم ومتابعتهم ، فأسعد الناس في الدنيا والآخرة أتبعهم للرسول باطنا وظاهرا صلى الله عليه وسلم تسليما^(١) .

فالرسول صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين وخيرة خلق الله أجمعين وهو أفضل الرسل وأوجه الشافعين وقد اصطفاه الله تعالى ليكون واسطة بينه وبين عباده رحمة لهم ، كما قال تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(٢) ، وكل ما نحن فيه من نعمة الإسلام والإيمان والطمأنينة والأمان وغير ذلك من سائر النعم التي ترجع إلى ديننا ودنيانا فبفضل الله تعالى ثم بفضل سفارته صلى الله عليه وسلم وبواسطته عرفنا الله تعالى وما يجب له من الأسماء والصفات وطريق العبودية الموصل إليه سبحانه وتعالى وعرفنا الجنة والنار ، وقصص الأنبياء والمرسلين ، مع أنهم كل ذلك بطريق الوحي الذي أيده به ربه عز وجل ، وقد بلغ صلى الله عليه وسلم في النبوة المقام الأسمى وفي الرسالة المكانة الرفيعة ، وقد بلغ عن ربه البلاغ المبين حتى تركنا على المحجة البيضاء ، وتركنا في دنيانا في سناء فيجزاه الله عنا أفضل ما جزى نبياً عن من أرسل إليه . ولكنه صلى الله عليه وسلم (كان مبلغا محضاً ومخبراً لا منشئاً ومؤسساً)^(٣) ؛ بل إنه كان على منوال إخوانه المرسلين ، قال تعالى : ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا

(١) الرد على الأخنائي ص ٣٥٠ بتصرف ، وانظر حقوق النبي صلى الله عليه وسلم للتيمي ٢/٦٦٩

(٢) زاد المعاد ١/٣٨

(٣) سورة الأنبياء الآية ١٠٧

مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَيْتُمْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١﴾

ونحن إذا تكلمنا عن بشرية الرسول صلى الله عليه وسلم ينبغي ألا نغفل قضية مهمة وهي: أنه صلى الله عليه وسلم بشر ولكنه بشر مؤيد بالوحي ومعصوم من الغي فهو بشر رسول، أو بشر يوحى إليه، وهذا هو أسلوب القرآن الكريم، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ﴾ (٢)، وقال تعالى: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ (٣).

وبيان مقام الربوبية ومقام النبوة وأن الرسول صلى الله عليه وسلم واسطة في التبليغ والبيان لا في العبادة وجزاء الإنسان؛ -لأن التبليغ والبيان يرجع إلى مقام النبوة، والعبادة والجزاء يرجعان إلى مقام الربوبية- ليس فيه تنقيص للرسول صلى الله عليه وسلم ولا خدش لمقام النبوة؛ بل هذا هو عين الأدب معه صلى الله عليه وسلم الذي يؤيده القرآن والسنة (٤).

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (إن الكلام إذا كان في سياق توحيد الرب سبحانه ونفي خصائصه عما سواه لم يجوز أن يقال: هذا سوء عبارة في حق من دون الله تعالى من الأنبياء والملائكة؛ فإن المقام أجل من ذلك، وكل ما سوى الله تعالى يتلاشى عند تجريد توحيده، ونبي الله صلى الله عليه وسلم كان من أعظم الناس تقريراً لما يقال على هذا الوجه، وإن كان نفس المصلوب (٥).

ويؤيد هذا ما ثبت في الصحيحين من حديث الإفك (٦) لما نزلت براءة عائشة رضي الله عنها من السماء فأخبرها النبي صلى الله عليه وسلم بما نزل في شأنها من الوحي قالت لها أمها (قومي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت لها عائشة: (لا والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله عز وجل) (٧)، وفي رواية قالت: (بحمد الله لا بحمد أحد ولا

(٢) سورة الكهف الآية ١١٠

(١) سورة الأحقاف الآية ٩

(٣) سورة الإسراء الآية ٩٣

(٤) انظر هذه مفاهيمنا ص ١٠٦، والإرشاد للشيخ صالح الفوزان ص ١٥٣، والتأدب مع الرسول صلى الله عليه وسلم لحسن نور حسن ص ٣١، ومحبة الرسول صلى الله عليه وسلم بين الاتباع والابتداع ص ٢٠

(٥) تلخيص كتاب الاستغاثة ٢/٦٤٧

(٦) قد أورد حديث الإفك في جزء مستقل بعض الحفاظ منهم الحافظ عبد الغني المقدسي. انظره بتحقيق محمود الحداد.

(٧) رواه البخاري، كتاب المغازي باب حديث الإفك ٨/٤٣١ حديث ٤١٤١، ورواه مسلم، كتاب التوبة باب في حديث الإفك ١٧/١٠٢

بحمده^(١)، فأقرها النبي صلى الله عليه وسلم وأبوها الصديق رضي الله عنه على مثل هذا الكلام الذي نفت فيه أن تحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم أو أحدا من الخلق وإنما ولت الحمد أهله فقصرته على الله تعالى؛ لأنه هو الذي أنزل براءتها بغير فعل أحد ولم يقل أحد إن في ذلك سوء أدب مع النبي ﷺ أو خدشا لمقام النبوة.

ولله در العلامة ابن القيم فقد علق على هذا الموقف بقوله: (ومن تأمل قول الصديقة وقد نزلت براءتها فقال لها أبوها: قومي إلى رسول الله ﷺ فقالت: والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله، عَلم معرفتها وقوة إيمانها وتولييتها النعمة لربها وإفراده بالحمد في ذلك المقام، وتجريدها التوحيد، وثقتها بمحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم لها، ولله ذلك الثبات والرزانة منها، وقد تنكر قلب حبيبها لها شهرا، ثم صادفت الرضا منه والإقبال، فلم تبارد إلى القيام إليه والسرور برضاه، وقربه مع شدة محبتها له، وهذا غاية الثبات والقوة^(٢)).

وروى الإمام أحمد بسنده عن الأسود بن سريع رضي الله عنه أن النبي ﷺ أتى بأسير فقال: (اللهم إني أتوب إليك ولا أتوب إلى محمد، فقال النبي: (عرف الحق لأهله)^(٣)).

كل هذه الأدلة المتوافرة من الكتاب والسنة التي سقناها دليلا على حق الله تعالى في العبادة وجزاء الإنسان، وحق الرسول صلى الله عليه وسلم في التبليغ، والإرشاد والبيان لم تمنع الغلاة في حقه صلى الله عليه وسلم من التوجه إليه في الدعاء سواء بتوسل بدعي أو دعائه وسؤاله صلى الله عليه وسلم، وهذا شرك جلي ومن يأت قبر النبي ﷺ وير أهل الجهل من العوام، وأهل الغلو على هذه الحال يجد من ذلك العجب العجيب.

وهذا الصنيع الطائش من هؤلاء الغلاة لغو وجنون، فليس بين الله وبين خلقه في العبادة شفعاء، ولا وجهاء، ولكل بشر - في الأولين والآخرين - أن يتقدم بسؤاله إلى الله مباشرة، وإذا أذنب العبد فله الحق كله أن يتصل بربه معتذرا لا يحمل توبته ملك مقرب ولا

(١) رواه البخاري، كتاب المغازي باب حديث الإفك ٨/٤٣٥ حديث ٤١٤٣

(٢) زاد المعاد ٣/٢٦١، وانظر حديث الإفك للمحافظ عبد الغني المقدسي ص ٥٠

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٣/٤٣٥، والطبراني في الكبير ١/٢٨٦ حديث ٨٣٩، والحاكم في المستدرک ٤/٢٥٥، وقال (هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه) وتعقبه الذهبي بقوله: (ابن مصعب ضعيف) قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/١٩٩: (رواه أحمد، والطبراني، وفيه محمد بن مصعب وثقه أحمد وضعفه غيره، وبقي رجاله رجال الصحيح) وأورده أبو عبيد في الأموال ص ١٦٣ حديث ٣٦٦

نبي مرسل ولا غيرهما من الناس، الذي شرع لعباده الدين من بدء الخليقة وبين لهم على لسان رسله هذه الحقيقة، قالله وحده هو الضار النافع الخافض الرافع، وليس لأحد بعده تعقيب على حكمه، وليس من شأن ملك في السماء، أو نبي في الأرض التدخل في مشيئة الله، ولا التصرف في ملكه، فهو الذي يحكم الخلق أبداً، وإليه لا إلى غيره يحتكمون أولاً وآخر^(١).

قال الشيخ محمد رشيد رضا: (كرم الله الإنسان بجعل التشريع الديني من حقوقه^(٢)) وحده، وإنما النبيون والرسل مبلغون عنه وليسوا بمسيطرين على الأقوام، وطاعتهم تابعة لطاعته، فقد أبطل ما نحلهم الناس من ربوبية التشريع، كما أبطل عبادتهم وعبادة من دونهم من القديسين، وبذلك تحرر الإنسان من الرق الروحي والعقلي الذي منيت به الأمم المتدنية، ولا سيما البوذيين، والنصارى، ولضلال أهل الملل والنحل في ذلك كرر هذا الإصلاح في كثير من السور بالتصريح بأن الرسل بشر مثل سائر البشر يوحى إليهم، وبأنهم ليسوا إلا مبلغين لدين الله تعالى الموحى إليهم.

قال تعالى لخاتمهم المكمل لدينهم في خاتمة سورة الكهف: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾^(٣) وقال في جملتهم من وسطها: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مَبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾^(٤) وفي معناه آيات أخرى: بعثهم مبشرين ومنذرين بالقول والعمل، لا متصرفين في الكون بالنفع والضرر بأنفسهم، ولا بتأثيرهم في إرادته تعالى . . . وقد بين ذلك صلى الله عليه وسلم بأقواله وأعماله وأخلاقه في العبودية، والتواضع بما لا يدع لتأويل الآيات سبيلاً^(٥).

ومن المناسب في نهاية هذا البحث أن أورد سؤالاً وجهه لشيخ الإسلام ابن تيمية يتعلق بالموضوع، وهو: هل صحيح أن الله لا يسمع الدعاء إلا بواسطة محمد صلى الله عليه وسلم، فإنه الوسيلة والواسطة؟.

(١) انظر كتاب الله في العقيدة الإسلامية لأحمد بهجت ص ١٧١، ودعوة الرسل إلى الله تعالى لمحمد أحمد العدوي ص ٣٩٨، وعقيدة الشيخ محمد بن عبد الوهاب السلفية وأثرها في العالم الإسلامي ص ٣٣٥
(٢) يقصد من حقوق الله وحده .
(٣) سورة الكهف الآية ١١٠
(٤) سورة الكهف الآية ٥٦
(٥) الوحي المحمدي ص ١٩٩، وتفسير المنار ٨/ ٥٧١، وانظر معالم الدعوة في قصص القرآن الكريم لعبد الوهاب الدليمي ص ١٨٧

فأجاب - رحمه الله - بقوله : (الحمد لله ، إن أراد بذلك أن الإيمان بمحمد ، وطاعته ، والصلاة والسلام عليه وسيلة للعبد في قبول دعائه ، وثواب دعائه فهو صادق ، وإن أراد بذلك أن الله لا يجيب دعاء أحد حتى يرفعه إلى ^(١) مخلوق ، أو يقسم عليه ، أو أن نفس الأنبياء بدون الإيمان بهم ، وطاعتهم ، وبدون شفاعتهم وسيلة في إجابة الدعاء فقد كذب في ذلك ، والله أعلم) ^(٢) .

(١) كذا في مجموع الفتاوى ، ولعل الأنسب للسياق (إليه) والله أعلم .

(٢) مجموع الفتاوى ١/ ١٣٩



المبحث الثامن

وسطية أهل السنة والجماعة في باب تعظيم النبي ﷺ

لقد تقدم معنا في المبحث الرابع من هذا الفصل أن تعزيز النبي صلى الله عليه وسلم وتوقيره، وتعظيمه التعظيم الشرعي من الحقوق الثابتة له صلى الله عليه وسلم على أمته إذ إن محبته -بأبي هو وأمي صلى الله عليه وسلم- شرط من شروط الإيمان به عليه الصلاة والسلام، ولا يتم إيمان أحد من الناس إلا بتحققها، كما قال عليه الصلاة والسلام: (لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين)^(١).

أما هذا المبحث فيدور حول بيان منهج السلف في حق النبي صلى الله عليه وسلم وتوسطهم في باب تعظيمه عليه الصلاة والسلام؛ ذلك التعظيم الشرعي المأخوذ من الكتاب والسنة، وتطبيقات الصحابة رضي الله عنهم، فبمعرفة حدود هذا التعظيم الشرعي يقف المسلم في سياج منيع وحسن حصين يقيه التردى في إحدى حفرتين: ألا وهما: غلو الغالين، أو جفاء المتقصين.

اعلم أن الخيرية والوسطية ثابتة لأمة محمد ﷺ على سائر الأمم فهم وسط بين غلو النصارى وإفراطهم وتقصير اليهود وتفريطهم في حق الرسل عليهم السلام، وخيره الأمة وأوسطها وأعدلها هم أهل السنة والجماعة، فهم -كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (أهل السنة في الإسلام كأهل الإسلام في الملل)^(٢)، فكل خير، وفضل، وعدل ثبت لهذه الأمة فلاهل السنة والجماعة منه الحظ الأوفر، والقدر المعلى^(٣)، فأهل السنة والجماعة وسط في جميع أبواب الاعتقاد بين جميع الفرق:

فهم وسط بين الفرق في باب أسماء الله الحسنى وصفاته العلى، وهم وسط بين الفرق في باب الأسماء والأحكام، والوعد، والوعيد، وهم وسط بين الفرق في باب القدر، وهم وسط بين الفرق فيما يتعلق بالصحابة رضي الله عنهم، ثم هم أيضا وسط بين الفرق في باب تعظيم النبي صلى الله عليه وسلم^(٤).

(١) تقدم تخريجه.

(٢) مجموع الفتاوى ٤/ ١٤٠، ومجموعة الرسائل الكبرى ١/ ٢٧٤.

(٣) انظر وسطية أهل السنة بين الفرق ص ١٥٦، ومجموعة الرسائل الكبرى ١/ ٢٧٤.

(٤) انظر الكلام حول وسطية أهل السنة في تلك الأبواب بالتفصيل في كتاب وسطية أهل السنة بين الفرق ص ٣٠٣ وما بعدها.



إن مما امتازت به عقيدة أهل السنة والجماعة: التوسط، والتوازن في جميع المسائل من غير إفراط ولا تفريط، ولا ريب أن من سار على هذا المنهج سوف يكون داخلا في الوصف الذي وصف الله به الأمة في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾^(١)

قال ابن كثير: (والتوسط هنا المراد به الخيار والأجود، كما يقال: قريش أوسط العرب نسبا، أي: خيرها، ولما جعل الله هذه الأمة وسطا خصها بأكمل الشرائع، وأقوم المناهج، وأوضح المذاهب)^(٢).

والذي جعل هذا المنهج منطلقا واضحا وسمة بارزة لأهل السنة والجماعة في جميع أبواب الاعتقاد ومن ذلك: ما يتعلق بتعظيم الرسول صلى الله عليه وسلم هو تقيدهم بالكتاب والسنة الصحيحة، فالسلف من الصحابة، والتابعين، وتابعيهم بإحسان، ومن سار على منهاجهم من علماء الأمة وهداة الملة نظروا في آيات الكتاب العزيز، وأحاديث المصطفى صلى الله عليه وسلم الثابتة، فيما نصا عليه وأمر به، ودلا عليه دعوا الأمة إلى الأخذ به والاستماع إليه، والتمسك به، وما نهيا عنه، وحذرا منه واستنكفا عنه دعوا الأمة إلى تركه والحذر من ملاسته والابتعاد عنه، ومن لم يجعل هذا المنهج منطلقا في تناول مسائل العقيدة وخصوصا ما يتعلق بجانب نبينا صلى الله عليه وسلم فهو لا محالة مائل إلى أحد الشقين وواقع في إحدى الحفرتين: إما الإفراط، وإما التفريط، وهذا حال الطوائف الأخرى التي لم تتقيد بمنهج الكتاب والسنة في فهم العقيدة.

وتبين وسطية أهل السنة والجماعة في باب تعظيم الرسول صلى الله عليه وسلم في الأمور التالية:

١- مكانته الرفيعة، ومنزلته العالية صلى الله عليه وسلم^(٣):

يؤمن أهل السنة والجماعة بأن النبي ﷺ لغ من الرسالة المحل الأعلى، والمكانة الرفيعة، ومن النبوة المنزلة العليا، وأنه صلى الله عليه وسلم أبلغ الرسل بيانا وأعظمهم معجزة،

(١) سورة البقرة الآية ١٤٣

(٢) تفسير ابن كثير ١/ ٢٧٥

(٣) قارن بين هذا وبين ما سبق في المبحث الثالث من هذا الفصل بعنوان: مقام الرسالة وخصائصها عند أهل السنة والجماعة.

وأعمهم رسالة، وبه ختمهم الله تعالى، صلى الله عليه وسلم تسليماً. فنبينا صلى الله عليه وسلم أفضل الأنبياء والمرسلين وسيد الخلق أجمعين، كما أخبر صلى الله عليه وسلم بذلك في قوله: (أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع، وأول مشفع)^(١)، وفي قوله أيضاً: (أنا سيد ولد آدم ولا فخر)^(٢).

وهذا الخبر حين يخبر به نبينا المصطفى صلى الله عليه وسلم، ويتكلم به لا يقوله من باب التفاخر، والتعالي، وإنما قاله لوجهين:

أحدهما: أنه من النعمة التي أمره الله تعالى أن يتحدث بها في قوله عز من قائل: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾^(٣).

وثانيهما: أن هذا من البيان الذي يجب تبليغه لأمته ليعرفوه، ويعتقدوه، ويعملوا بمقتضاه ويوقروه، صلى الله عليه وسلم كما ينبغي، وبما تقتضيه مرتبته العالية، ومنزلته الشريفة، كما أمرهم الله تعالى^(٤).

ولكونه خاتم النبيين فلا نبي بعده يخبرنا بعظيم قدره عند الله تعالى، فلا يمكننا معرفة ذلك إلا بخبره، صلى الله عليه وسلم^(٥).

ولا شك أن مكانة النبي ﷺ، ومقداره العظيم يوجب على كل مؤمن تعظيمه صلى الله عليه وسلم، ومحبته، بعد اعتقاد عظمة الله سبحانه وتعالى، ومحبته فوق محبة أي محبوب، وتعظيم أي عظيم آخر، ولا أحد يشك في كفر من لا يعتقد ذلك، والمقصود هنا بهذا التعظيم هو أمر زائد على المحبة؛ إلا أنه تعظيم شرعي، يحفظ للنبي الكريم صلى الله عليه وسلم مكانته في قلب المؤمن، بعيداً عن الغلو في حقه، صلى الله عليه وسلم، أو إعطائه شيئاً من خصائص الألوهية، أو الربوبية، كما يفعل الغلاة من أهل البدع^(٦).

(١) رواه مسلم، كتاب الفضائل باب تفضيل نبينا صلى الله عليه وسلم على جميع الخلائق ٣٧/١٥

(٢) رواه الترمذي في سننه ٥٨٧/٥ حديث ٣٦١٥ وقال حسن صحيح، وراه ابن ماجه في سننه ١٤٤٠/٢ حديث

٤٣٠٨، وصححه الشيخ الألباني انظر صحيح ابن ماجه ٣٤٠/٢، وشرح العقيدة الطحاوية ص ١٦٠

(٣) سورة الضحى الآية ١١

(٤) انظر شرح صحيح مسلم للنووي ٣٧/١٥، وغاية السؤل لابن الملقن ص ٢٦٧

(٥) انظر شرح العقيدة الطحاوية ص ١٦٤، وأصول الدين للبغدادى ص ١٦٥

(٦) انظر المفهم بشرح صحيح مسلم للقرطبي ٢٢٦/١



ولا ريب في أن ما وصل إلينا من خير وبركة فبيمن سفارته، صلى الله عليه وسلم، ومكانته العظيمة عند الله تعالى، واصطفائه، وإرساله واسطة بيننا وبين ربنا تبارك وتعالى.

٢- التأكيد على بشريته^(١)، صلى الله عليه وسلم، وعبوديته لله عز وجل:

لقد أكدت آيات القرآن الكريم هذه الحقيقة أكثر من مرة، ووضحت هذه العقيدة أتم توضيح؛ لتبين للناس أن الرسل بشر مثلنا، وأجسامهم من لحم، ودم مثل أجسامنا، وأنهم ينامون، ويستيقظون، ويأكلون الطعام ويمشون في الأسواق، وتطراً عليهم الأمراض البشرية غير المنفرة، ثم يموتون؛ إلا أن الله سبحانه وتعالى فضل الرسل من البشر على سائر الجنس البشري بفضيلة الاصطفاء، والعصمة، والاختصاص بالنبوة، ونعمة الوحي، وكفى بذلك فضلاً من ربك ونعمة؛ ذلك هو الفضل العظيم قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾^(٢) وقال تعالى: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾^(٣).

وأما عبوديته صلى الله عليه وسلم لربه فقد أكدت آيات قرآنية عظيمة، وأحاديث نبوية شريفة؛ وذلك لأن كمال مرتبة العبد عند الله تعالى في تحقيق العبودية التامة لله عز وجل. يقول شارح الطحاوية: (واعلم أن كمال المخلوق في تحقيق عبوديته لله تعالى وكلما ازداد العبد تحقيقاً للعبودية ازداد كماله، وعلت درجته، ومن توهم أن المخلوق يخرج عن العبودية بوجه من الوجوه، وأن الخروج عنها أكمل فهو من أجهل الخلق وأضلهم)^(٤).

ولقد بلغ خاتم النبيين، صلى الله عليه وسلم في مقام العبودية، والرسالة أعلى المنازل، وأكمل المقامات، من أجل ذلك وصفه الله تعالى بالعبودية في أشرف المقامات، فقال تعالى - في ذكر الإسراء -: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾^(٥)، وقال تعالى - في ذكر مناجاة النبي ﷺ لربه -: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾^(٦)، وقال تعالى - في مقام الوحي -: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾^(٧)، وقال تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾^(٨).

(١) لمعرفة الحكمة من بشرية الرسل راجع المبحث السابق.

(٢) سورة الكهف الآية ١١٠

(٣) سورة الإسراء الآية ٩٣

(٤) شرح العقيدة الطحاوية ص ١٤٩

(٥) سورة الإسراء الآية ١

(٦) سورة الجن الآية ١٩

(٧) سورة الكهف الآية ١

(٨) سورة النجم الآية ١٠

كما جمع النبي ﷺ بين العبودية، والرسالة لنفسه في قوله: (من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله...) (١).

وروى إسماعيل القاضي (٢) - رحمه الله - بسنده عن قتادة مرفوعا في قول الله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ (٣) أن النبي ﷺ قال: (ابدأوا بالعبودية، وثنوا بالرسالة) (٤).

قال معمر (٥) - رحمه الله - : (أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا عبده : فهذه العبودية والرسالة أن يقول : عبده ورسوله) (٦).

وبهذا استحق نبينا صلى الله عليه وسلم التقديم على الناس في الدنيا والآخرة؛ ولذلك يقول المسيح على نبينا وعليه الصلاة والسلام - يوم القيامة إذا طلبوا منه الشفاعة بعد الأنبياء عليهم السلام - : (اذهبوا إلى محمد، عبد غفر له ما تقدم من ذنبه، وما تأخر) (٧). فحصلت لخاتم النبيين صلى الله عليه وسلم تلك المرتبة العظيمة، لتكميله عبوديته لله تعالى (٨).

وذكره، صلى الله عليه وسلم لهاتين الصفتين في حقه وهما: العبودية والرسالة دفع للإفراط، والتفريط، ورد على من أفرط من أمته بالغلو قولا، وفعلًا، أو فرط بترك متابعتة والبعد عن سنته عليه الصلاة والسلام (٩).

ولشرف مقام العبودية كان الصالحون يتلذذون بعبوديتهم، وذلتهم، وانكسارهم لله تعالى. وما أحسن فخر من قال (١٠):

(١) رواه مسلم، كتاب الإيمان باب الدليل على أن مات على التوحيد دخل الجنة ٢٢٦/١

(٢) هو أبو إسحاق إسماعيل بن إسحاق بن إسماعيل بن حماد بن زيد الأزدي، قاضي بغداد، وصاحب التصانيف، ولد سنة ١٩٩ هـ، وتوفي سنة ٢٨٢ هـ. انظر سير أعلام النبلاء ١٣/ ٣٣٩، وشذرات الذهب ٢/ ١٧٨

(٣) سورة الشرح الآية ٤

(٤) فضل الصلاة على النبي ﷺ ص ٨٦ رقم ١٠٤، وصححه المحقق الشيخ الألباني.

(٥) هو أبو عبيدة معمر بن المثنى التميمي بالولاء البصري النحوي، من أئمة اللغة والأدب، من مصنفاته معاني القرآن، وإعراب القرآن، والأمثال، توفي سنة ٢٠٧ هـ. انظر وفيات الأعيان ٥/ ٢٣٥، والأعلام ٧/ ٢٧٢

(٦) فضل الصلاة على النبي ﷺ ص ٨٦، رقم ١٠٤ قال محقق الشيخ الألباني: إسناده مرسل صحيح، ورجاله كلهم ثقات.

(٧) تقدم تخريجه.

(٨) انظر شرح العقيدة الطحاوية ص ١٤٩، والصارم المنكي ص ٣٣٥، والخشوع في الصلاة لابن رجب ص ٣٦

(٩) انظر فتح المجيد شرح كتاب التوحيد للشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ ص ٣٩

(١٠) البيتان للفضيل بن عياض.

ومما زادني فخراً وتيهاً وكدت بأخمصى أطأ الثريا
دخولي تحت قولك يا عبادي وأن صيرت أحمد لي نيا
وأنشد آخر^(١) :

مالي ولل فقر إلى عاجز مثلي لا يملك إغنائي
وإنما يحسن فقري إلى مالك إسعادي وإشقائي
يا عمرو ثأري عند زهرائي يعرفه السامع والرائي
لا تدعني إلا بيا عبدها فإنه أشرف أسمائي
وقال آخر^(٢) :

كفى بك عزا أنك له عبد وكفى بك فخراً أنه لك رب

٣- تعظيم الرسول ﷺ مع التأكيد على أن الرسل لا يملكون شيئاً من خصائص الألوهية، أو الربوبية: لا ريب أن تعظيم الرسول ﷺ واجب، بل هو من أعظم الواجبات؛ إذ لا يمكن أن يتم لشخص إيمانه ما لم يتم تعظيمه للرسول ﷺ، فمن لا يعظم النبي ﷺ فهو كافر خارج عن دائرة الإسلام بلا ريب، فلا خلاف على وجوب تعظيم النبي ﷺ، إنما الخلاف، والإنكار في وسائل التعظيم، وأساليبه، وصوره، فتعظيم الرسول ﷺ لا يستلزم السفر، والحج، وشد الرحال إلى قبره، عليه الصلاة والسلام، فذلك بدعة في الدين، بل تعظيمه، صلى الله عليه وسلم يكون في اتباع سنته، صلى الله عليه وسلم، والتمسك بهديه، والاعتصام بأوامره، واجتناب ما نهى عنه، وحذر منه^(٣).

(ولا شك أننا نحبه، صلى الله عليه وسلم في شخصه، وكم نتمنى أن نكون حظينا بصحبته، صلى الله عليه وسلم، والاشتراك مع أصحابه، والتزامهم معهم في تتبع آثاره، والاستمتاع بأحاديثه، ومجالسه، ومخالطته، ولكن هيهات، هيهات، فقد حيل بيننا وبينه، صلى الله عليه وسلم، فيبقى لنا كمردود إيجابي للقول بحبه، والدلالة على صدق

(١) انظر الرسالة القشيرية ص ٢٠٠، والخشوع في الصلاة لابن رجب ص ٣٨

(٢) انظر الفوائد لابن القيم ص ٤٤ ومن أهل العلم من يجعله من كلام علي رضي الله عنه. انظر المنفرجة لابن

النحوي بشرح البوصيري ص ٦٥

(٣) انظر المجموع المفيد في نقض القبورية ونصرة التوحيد للدكتور محمد الخميني ص ١٧٤

ذلك منا التمسك بسنته، صلى الله عليه وسلم، قولاً وعملاً، وتعلماً وتعليماً، وإيثاراً، وأمرابها، ونهياً عن تنكبها، والتأسي به، صلى الله عليه وسلم في أخلاقه، وآدابه، وشمائله، والدفاع عن سنته، صلى الله عليه وسلم، ورد كل ما لم يكن من سنته من بدع، ومحدثات، مهما كانت ظواهرها حسنة، ومقبولة^(١).

فتعظيم الرسول، صلى الله عليه وسلم عند أهل السنة منضبط بالكتاب والسنة وبهذا المنهج كانوا متوسطين بين غلو الغلاة وتنقص الجفافة، ويستدلون على التعظيم الشرعي للنبي الكريم، صلى الله عليه وسلم بقول الله تعالى: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾^(٢).

قال قتادة: (أمر الله تبارك وتعالى أن يهاب نبيه، وأن يعظم، وأن يجل، وأن يسود)^(٣).

وقال الضحاك بن مزاحم^(٤) - رحمه الله: (نهاهم الله أن ينادوه كما ينادي بعضهم بعضاً، وأمرهم أن يشرفوه، وأن يعظموه، ويدعوه إذا دعوه باسم النبوة)^(٥).

وقيل المعنى: (لا تجعلوا دعاء إياكم كدعاء بعضهم بعضاً؛ فتأخروا إجابته بالأعذار، والعلل التي يؤخر بها بعضهم إجابة بعض، ولكن عظموه بسرعة الإجابة، ومعالجة الطاعة، ولم يجعل الصلاة لهم عذراً في التخلف عن الإجابة إذا دعا أحدهم وهو يصلي، إعلاماً لهم بأن الصلاة إذا لم تكن عذراً يستباح به تأخير الإجابة، فما دونها من معاني الأعذار أبعد!)^(٦).

فقد روى البخاري في صحيحه من حديث أبي سعيد الملعلي رضي الله عنه أنه قال: (كنت أصلي فمر بي رسول الله ﷺ فدعاني فلم آته حتى صليت، ثم أتيت، فقال: ما منعك أن تأتي؟ ألم يقل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا

(١) حوار مع المالكي لابن منيع ص ٤٠ (٢) سورة النور الآية ٦٣

(٣) تعظيم قدر الصلاة للمروزي ٢/ ٦٦٤، وانظر تفسير ابن كثير ٣/ ٥٧٣

(٤) هو أبو محمد الضحاك بن مزاحم، صاحب التفسير، كان من أوعية العلم، وثقه الإمام أحمد، ويحيى بن معين، وغيرهما، وتوفي سنة ١٠٢ هـ، وقيل: غير ذلك. انظر: سير أعلام النبلاء ٤/ ٥٩٨، وشذرات الذهب

١٢٤/١

(٥) أخرجه الطبري في تفسيره ٢٦/ ٧٥، وانظر تعظيم قدر الصلاة للمروزي ٢/ ٦٦٥

(٦) المنهاج للحلي ٢/ ١٢٥، وانظر تفسير ابن كثير ٣/ ٥٧٤

يُحْيِيكُمْ»^(١)؟ ثم قال: لأعلمنك أعظم سورة في القرآن... الحديث بطوله^(٢).

وقد ذكر بعض أهل العلم أن هذا مما خص به صلى الله عليه وسلم من دون سائر الأنبياء عليهم السلام^(٣).

وقيل معنى الآية: (لا تجعلوا دعا الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا، وذلك أنهم كانوا ينادونه على رسم^(٤) أعداء نبيهم فيقولون له يا محمد، يا أبا القاسم، فنهوا عن ذلك، وأمروا أن يعظموه، فيقولوا: يا رسول الله، ويا نبي الله، وكل واحد من الأمرين إجلال، وتعظيم)^(٥).

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾^(٦).

نزلت هذه الآية في شأن ثابت بن قيس بن شماس الأنصاري رضي الله عنه حيث كان في أذنه وقر، وكان جمهوري الصوت، فكان إذا جلس إلى النبي ﷺ يرفع صوته إذا تكلم، فلما نزلت هذه الآية انطلق مهموما، حزينا لا يدري ما ذا يفعل، فمكث في بيته أياما يخاف أن يكون قد حبط عمله، وكان سعد بن عباد رضي الله عنه جاره، فانطلق حتى أتى النبي ﷺ فأخبره بذلك، فقال له النبي ﷺ: (أذهب إليه فقل له أنك لست من أهل النار؛ ولكن من أهل الجنة)^(٧)، فلما أخبر سعد ثابتا بذلك فرح فرحا شديدا ثم أتى سعد إلى النبي ﷺ، وأخبره بشأن ثابت فقال النبي ﷺ: (هو من أهل الجنة)^(٨)، فكان بعد ذلك ثابت إذا جلس إلى النبي ﷺ يخفض صوته، حتى ما يكاد يسمع الذي يليه^(٩)، فنزل فيه قول الحق تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾^{(١٠)(١١)}.

(١) سورة الأنفال الآية ٢٤ (٢) صحيح البخاري ٣٠٧/٨ حديث ٤٦٤٦.

(٣) انظر غاية السؤل لابن الملقن ص ٢٧٨ (٤) أي عادة.

(٥) شعب الإيمان للبيهقي ١٩٥/٢، وانظر لوامع الأنوار ١٩٤/٢، والشفاء ٣٠/٢.

(٦) سورة الحجرات الآية ٢.

(٧) رواه البخاري كتاب المناقب باب علامات النبوة ٧١٧/٦ حديث ٣٦١٣.

(٨) رواه مسلم، كتاب الإيمان باب مخافة المؤمن أن يحبط عمله ١٣٤/٢.

(٩) انظر أسباب النزول للواحد ص ٤٤٥، والشفاء ٣١/٢ (١٠) سورة الحجرات الآية ٣.

(١١) انظر الجامع لشعب الإيمان للبيهقي ١٩٦/٢، وقيل: إن الآية نزلت في شأن أبي بكر الصديق رضي الله عنه فبعد نزول قول الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ الآية السابقة إلى على نفسه أن لا يكلم رسول الله إلا كآخي السرار فنزلت فيه الآية ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ﴾ الآية رواه الحاكم في المستدرک ٤٦٢/٢، وانظر شعب الإيمان للبيهقي ١٩٧/٢، وأسباب النزول للواحد ص ٤٤٦.

فنهاهم الله عز وجل أن يرفعوا أصواتهم فوق صوت النبي، ويخرجوا عن مكالمته من طريق الاستماع إلى طريق الجهر؛ لأن ذلك في العادة غرض من المخاطب، واستخفاف بقدره، وضرب من الاستعلاء عليه، كما أن خفض الصوت تذلل، ورعاية لحقه، وإكبار لشأنه وتعظيم لحقه، ثم حذرهم أشد التحذير من مقارنة ما نهاهم عنه في قوله: ﴿أَنْ تَحِطَّ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾، وذلك بأن يستقر في نفس أحدهم أمر ما فيود الإعلان عما في نفسه، وهو بحضور رسول الله ﷺ فيختلط، ويرفع صوته إلى حد الإعلان، فيلزمه حكم الاستخفاف، والتهاون برسول الله ﷺ فيكفر، ويحبط عمله، وهو غافل عن خطورة هذا الأمر، ولا يشعر أنه كفر، وحبط لعمله، وهذا أبلغ ما يكون من الأمر بتعظيم رسول الله ﷺ، وإذا كان الأمر بجميع ما ذكرنا مقبحات فعلى المؤمنين أن يكونوا بضد هذه الصفات، دون ما يوافقها^(١).

ومن صور هذا التعظيم عدم رفع الأصوات عند قبره الشريف، ولا يتكلم عنده في لهو، ولا لغو، ولا باطل، ولا يناقش أمرا من أمور الدنيا مما لا يليق بجلال قدره، صلى الله عليه وسلم، وعظيم مكانته عند الله عز وجل^(٢).

وتعظيم الرسول ﷺ حله القلب، ويشترك معه اللسان، والجوارح. فالتعظيم الذي محله القلب: (ما يتبع اعتقاد كونه عبدا رسولا، من تقديم محبته على النفس، والولد، والوالد، والناس أجمعين، ويصدق هذه المحبة أمران:

أحدهما: تجريد التوحيد؛ فإنه صلى الله عليه وسلم كان أحرص الخلق على تجريده، حتى قطع أسباب الشرك ووسائله من جميع الجهات، . . . ونهى أن يحلف بغير الله، وأخبر أن ذلك شرك، ونهى أن يصلي إلى القبر، أو يتخذ مسجدا، أو عيدا، أو يوقد عليه سراج، بل مدار دينه على هذا الأصل الذي هو قطب رحا النجاة، ولم يقرر أحد ما قرره النبي بقوله، وفعله، وسد الذرائع المنافية له، فتعظيمه، صلى الله عليه وسلم بموافقة على ذلك، لا بمناقضته فيه.

الثاني: تجريد متابعتة، وتحكيمه وحده في الدقيق والجليل من أصول الدين وفروعه،

(١) انظر الجامع لشعب الإيمان للحليمي ١٢٨/٢

(٢) انظر شعب الإيمان للبيهقي ٢/٢٠٦، والشفاء ٢/٣٥



والرضى بحكمه والانقياد له، والتسليم، والإعراض عما خالفه، وعدم الالتفات إلى ما خالفه؛ حتى يكون وحده هو الحاكم المتبع المقبول قوله المردود ما خالفه، كما كان ربه تعالى وحده هو المعبود المألوه المخوف المرجو المستغاث به، المتوكل عليه الذي إليه الرغبة، الرهبة الذي يؤمل وحده لكشف الشدائد، ومغفرة الذنوب الذي من جوده الدنيا والآخرة، الذي خلق الخلق وحده، ورزقهم وحده، ويعيئهم وحده، ويغفر لهم، ويرحم، ويهدي، ويضل، ويسعد، ويشقي وحده، وليس لغيره من الأمر شيء كائنا من كان؛ لا للنبي، صلى الله عليه وسلم، ولا لجبريل عليه السلام، ولا غيرهما، فهذا هو التعظيم الحق، المطابق لحال المعظم النافع للمعظم في معاشه، ومعاده، والذي هو لازم إيمانه، وملزومه.

وأما التعظيم باللسان فهو الثناء عليه بما هو أهله، مما أثنى به عليه ربه، وأثنى على نفسه من غير غلو، ولا تقصير، كما فعل عباد القبور؛ فإنهم غلوا في مدحه إلى الغاية. وأما التعظيم بالجوارح فهو العمل بطاعته والسعي في إظهار دينه، ونصر ما جاء به، وجهاد ما خالفه.

وبالجملة: فالتعظيم النافع هو التصديق فيما أخبر، وطاعته فيما أمر، والانتفاء عما نهى وزجر، والموالة والمعادة، والحب، والبغض لأجله، وتحكيمه وحده، والرضى بحكمه، وأن لا يتخذ من دونه طاغوت يكون التحاكم إلى أقواله، فما وافقها من قوله صلى الله عليه وسلم قبله، وما خالفها رده، أو تأوله، أو أعرض عنه، والله سبحانه يشهد، - وكفى به شهيدا، وملائكته، ورسله، وأوليائه - أن عباد القبور وخصوم الموحدين ليسوا كذلك^(١).

فالتعظيم الشرعي الذي ينبغي للرسول صلى الله عليه وسلم قد بينه الله في كتابه، ووضحه على لسان رسوله ﷺ، وهو ما كان المقصود به التوقير، والإجلال، والمحبة، والنصرة، والتأييد، والتصديق، والإيمان، والطاعة، والمتابعة، وكذلك التعظيم المنهي عنه قد بينه الله ووضحه في كتابه العزيز، وعلى لسان رسوله الكريم، صلى الله عليه وسلم، وهو ما كان يطفح منه الغلو، والإطراء، وإخراج الرسول ﷺ عن حيز البشرية، والعبودية إلى حيز الألوهية، والتصرف المطلق الذي ليس فوقه شيء.

(١) الصارم المنكي ص ٣٣٧، وانظر تفسير العزيز الحميد ص ٣١٥

فالله سبحانه وتعالى يقول: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾^(١)، وأهل الغلو يجعلون الأمر كله إليه، والله يقول: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾^(٢)، وهم يطلبون منه المغفرة، والله تعالى يقول: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاستقيموا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوا لَهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ﴾^(٣)، وأهل الأهواء يجعلون له خصائص الألوهية، من جلب نفع، ودفع ضرر، وإغاثة الملهوفين، وتفريج عن المكروبين، وسماع الدعوات، وإجابة الداعين، والله عز وجل يقول: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبُ لَا سْتَكْتَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾^(٤)، وأولئك يقولون: إنه يعلم الغيب حتى بعد موته عليه الصلاة والسلام، ويعلم أعمال أمته كلها، ويسمع دعاءهم، ويرى مكانهم^(٥).

وحق الرسول ﷺ هو أعظم حقوق المخلوقين، فلا حق لمخلوق أعظم من حق المصطفى صلى الله عليه وسلم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾^(٦) لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ^(٦)، فتوقيره صلى الله عليه وسلم، واحترامه، وإجلاله، وتعظيمه التعظيم اللائق به من غير غلو ولا تقصير من حقوقه عليه الصلاة والسلام، فتوقيره في حياته محبة شخصه الكريم، وتوقير سته، وأما توقيره بعد مماته فيحصل بتوقير سته، وشرعه القويم، ومن علم توقير الصحابة رضي الله عنهم، وتعظيمهم للرسول ﷺ عرف كيف قام هؤلاء الأجلاء الفضلاء بما يجب عليهم لنبي الله ﷺ.

قال عروة بن مسعود لقريش حينما أرسلوه ليفاوض النبي ﷺ في صلح الحديبية^(٧): لقد دخلت على الملوك: كسرى، وقيصر، والنجاشي؛ فلم أر أحدا يعظمه أصحابه مثل ما يعظم محمدا أصحابه، كان إذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضع كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون إليه النظر تعظيما له، عليه الصلاة

(٢) سورة التوبة الآية ٨٠

(١) سورة آل عمران الآية ١٢٨

(٤) سورة الأعراف الآية ١٨٨

(٣) سورة فصلت الآية ٦

(٥) انظر أوضح الإشارة في الرد على من أجاز المنوع من الزيارة ص ١٨٢، وغاية الأمان ١/ ٢١٤

(٦) سورة الفتح الآيات (٨-٩).

(٧) هي قرية بينها وبين مكة مرحلة، وبينها وبين المدينة تسع مراحل، سميت ببشر هناك عند الموضع الذي فيه النبي ﷺ وأصحابه، وقيل سميت بشجرة حدياء كانت في ذلك الموقع، وقد أمر أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه بعد ذلك بقطعها لحماية لجناب التوحيد. انظر معجم البلدان ٢/ ٢٢٩

والسلام^(١)، هكذا كانوا يعظمونه رضي الله عنهم، مع ما جبله به عليه من الأخلاق الكريمة، ولين الجانب، وحلاوة النفس، ولو كان فظا غليظا لانفضوا من حوله^(٢).

واعلم أنه ليس من تعظيم النبي ﷺ هضم جناب الربوبية، كما أنه ليس من الجفاء في حق رسول الله ﷺ إثبات بشريته، ونبوته، ورسالته، ونقص رتبته عن رتبة الربوبية.

يقول العلامة ابن القيم: (والفرق بين تجريد التوحيد، وبين هضم أرباب المراتب أن تجريد التوحيد لا يعطي المخلوق شيئا من حق الخالق، وخصائصه، فلا يعبد ولا يصلى له، ولا يسجد، ولا يحلف باسمه، ولا ينذر له، ولا يتوكل عليه، ولا يؤله، ولا يقسم به على الله، ولا يعبد ليقرب إلى الله زلفى ولا يساوى برب العالمين في قول قائل: ما شاء الله وشئت، وهذا منك، ومن الله، وأنا بالله، وبك، وأنا متوكل على الله، وعليك، والله لي في السماء، وأنت في الأرض، وهذا من صدقاتك، وصدقات الله، وأنا تائب إلى الله، وإليك، وأنا في حسب الله، وحسبك، فيسجد للمخلوق كما يسجد المشركون لشييوخهم، يحلق رأسه له، ويحلف باسمه، وينذر له، ويسجد لقبره بعد موته، ويستغيث به في حوائجه، ومهماته، ويرضيه بسخط الله، ولا يسخطه في رضا الله، ويتقرب إليه أعظم مما يتقرب إلى الله، ويحبه، ويخافه، ويرجوه أكثر مما يحب الله، ويخافه، ويرجوه، أو يساويه، فإذا هضم المخلوق خصائص الربوبية، وأنزله منزلة العبد المحض الذي لا يملك لنفسه فضلا عن غيره ضرا، ولا نفعا، ولا موتا، ولا حياة، ولا نشورا لم يكن هذا تنقصا له، ولا حطا من مرتبته -ولو رغم المشركون- وقد صح عن سيد ولد آدم، صلوات الله وسلامه عليه أنه قال: (لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبده فقولوا: عبد الله ورسوله)^(٣) . . . وقال له رجل قد أذنب (اللهم إني أتوب إليك ولا أتوب إلى محمد ﷺ فقال: (عرف الحق لأهله)^(٤)، وقد قال الله له: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾^(٥)، وقال: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾^(٦) وقال: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا

(١) رواه البخاري، كتاب الشروط باب الشرط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب ٣٢٩/٥ حديث ٢٧٣١

(٢) انظر الصيد الثمين في رسائل ابن عثيمين ٢٨٩/١، والرسائل والرسالات للأشقر ص ١١٢

(٣) رواه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء باب قول الله ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّخَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا﴾ ٤٧٨/٦

حديث ٣٤٤٥ (٤) سبق تخريجه.

(٥) سورة آل عمران الآية ١٢٨ (٦) سورة آل عمران الآية ١٥٤

شَاءَ اللَّهُ^(١) ، وقال : ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ (٢١) قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا^(٢) ، أي : لن أجد من دونه من ألتجئ إليه ، وأعتمد عليه . . . فعظم ذلك على المشركين بشيوخهم ، وآلهتهم ، وأبوا ذلك كله ، وادعوا الشيوخهم ومعبوديهم خلاف هذا كله ، وزعموا أن من سلبهم ذلك فقد هضمهم مراتبهم ، وتنقصهم ، وقد هضموا جانب الإلهية غاية الهضم ، وتنقصوه ، فلم ينصب وافر من قوله تعالى : ﴿وَإِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذَكَرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (٣) (٤) .

وإذا نظرنا في الحقوق ، ما يختص منها بخالق الأرض ، والسموات ، وما هي حقوق للأنبياء وأصحاب الرسالات وجدناها ثلاثة بحكم هذه التقسيمات .

يقول الشيخ السعدي : (قد ميز الله في كتابه بين حقه الخاص ، وحق رسوله الخاص ، والحق المشترك ، وأعلم بذلك أن الحقوق ثلاثة : حق الله وحده ، لا يكون لغيره ، وهو عبادته وحده لا شريك له بجميع أنواع العبادات . وحق خاص لرسوله ﷺ ، وهو التعزير ، والتوقير ، والقيام بحقه اللائق ، واتباعه ، والافتداء به . وحق مشترك ، وهو الإيمان بالله ، ورسوله ، وطاعة الله وطاعة رسوله ، ومحبة الله ، ومحبة رسوله . وقد ذكر الله الحقوق الثلاثة في آيات كثيرة من القرآن) (٥) .

٤- التحذير من إطرائه صلى الله عليه وسلم ، أو الغلو في حقه ، أو التفريط في تعظيمه .

لقد حذر النبي ﷺ أمته من الغلو في حقه ، أو إطرائه ، ومجاوزة الحد في مدحه ، فالإطراء هو مجاوزة الحد في المدح بالباطل ، وهذا الإطراء يؤدي بالمطري إلى أن ينزل النبي ﷺ فوق منزلته التي أنزله الله إياها وهي منزلة العبودية ، والرسالة ، فيرفعه إلى مقام الألوهية ، ومنزلة الربوبية ، وهذا هو عين ما كان النبي ﷺ يخشاه ، ويحذر منه أمته ، فقال عليه الصلاة والسلام : (لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم ؛ فإنما أنا عبده فقولوا : عبد الله ورسوله ﷺ) (٦) ، أي : لا تمدحوني فتغلوا في مدحي كما غلت النصارى في عيسى

(٢) سورة الجن الآيتان (٢١-٢٢) .

(١) سورة يونس الآية ٤٩

(٣) سورة الزمر الآية ٤٥

(٤) الروح ٢/٧٦٦ ، وانظر تلخيص كتاب الاستغاثة ١/٢٣٢ لشيخ الإسلام ابن تيمية .

(٥) القواعد الحسان لتفسير القرآن ص ١٤٠ ، وانظر الصارم المسلول ص ٤١

(٦) سبق تخريجه .

بن مريم، فادعوا فيه الربوبية، وإنما أنا عبد لله، ورسول منه إليكم، فصفوني بالعبودية، والرسالة كما وصفني ربي، فقولوا: عبد الله ورسوله، إلا أن هذا التوازن، والتوسط في حقه صلى الله عليه وسلم لم يرق لعبدة القبور وجهلة أهل الأهواء فأبوا (إلا مخالفة لأمره، وارتكابا لنهييه، وناقضوه أعظم المناقضة، وظنوا أنهم إذا وصفوه بأنه عبد الله ورسوله، وأنه لا يدعى ولا يستغاث به، ولا ينذر له، ولا يطاف بحجرته، وأنه ليس له من الأمر شيء، ولا يعلم من الغيب إلا ما علمه الله، أن في ذلك هضمًا لجنابه، وغضا من قدره، فرفعوه فوق منزلته، وادعوا فيه ما ادعت النصارى في عيسى، أو قريبا منه، فسألوه مغفرة الذنوب، وتقريج الكروب)^(١).

والتعظيم الشرعي - وهو الواقع وسطا بين طرفي غلو وتقصير - مأمور به.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (وإذا كانت البهائم، والجمادات تعظم رسول الله صلى الله عليه وسلم فنحن أحق بتعظيمه كما قال الحسن البصري في حنين الجذع^(٢)): إذا كان الجذع يحن إليه فأنتم أولى بالحنين إليه. وهذا حسن، لكن تعظيمه إنما يكون بطاعته، ومتابعته، ومعاونته، وما فيه زيادة لثوابه، ورفع لمنزلته، وهو مراد الحسن وغيره، لا بأمور مبتدعة، لاسيما إذا كانت من باب الشرك، وفيها تكليف له؛ فإن سؤاله في حياته وإن كان جائزا في الجملة فليس من باب التعظيم له، ولا التوقير ولا من فعل خيار أصحابه، وإنما كان يفعل ذلك أهل الجفاء كالأعراب، ومن هو حديث عهد بالإسلام، دون أكابر المؤمنين، وإن وقع ذلك منهم وقع قليلا)^(٣).

ولا يزال الشيطان يظهر لأهل الأهواء والبدع التوحيد والإخلاص الذي بعث الله به رسله في قالب التنقيص للرسول صلى الله عليه وسلم، ويظهر لهم ما نهى عنه النبي ﷺ من الغلو، والإطراء في قالب محبته، وتعظيمه ﷺ ومن تأمل ما أمر به النبي ﷺ، وما نهى عنه علم يقينا أن هؤلاء هم المنتقصون الناقصون؛ لأنهم أفرطوا في تعظيمه بارتكاب ما نهى الله عنه في كتابه في مواضع لا يمكن حصرها من دعوة غيره، خصوصا، وعموما، ثم إن

(١) تيسير العزيز الحميد ص ٣١٤، وانظر التوسل للألباني ص ٨٥

(٢) قصة حنين الجذع صحيحة وثابتة رواها البخاري. انظر صحيح البخاري مع الفتح كتاب المناقب باب علامات

النبوة ٦٠١/٦ حديث ٣٥٨٣

(٣) تلخيص كتاب الاستغاثة ١/٢٨٥

هؤلاء فرطوا في متابعتهم صلى الله عليه وسلم؛ فلا أخذوا بقوله، ولا اتبعوه في فعله، بل ولا رضوا بحكمه، وأمره، ولا سلموا له، وهذا الذي تركوه هو الذي يحصل به تعظيم الرسول صلى الله عليه وسلم، فيعظم أمره، ويقبل، ويعظم نهيه ويترك، ويكون هو المتبع المطاع، ويدعو إلى دينه الذي دعا إليه من إخلاص العبادة لله وحده، وينصره بنصرة ما بعث به من الحق، ويواليه بالمتابعة، والاقتراء بهديه، ويعادي من خالفه بارتكاب ما نهى عنه، وأنت ترى ما وقع اليوم، وقبله من كثير من الجهال من الإفراط، والتفريط^(١).

فصورة النبي في الإسلام أنه أرفع البشر قدرا، له الحب، والتوقير، والإجلال، والتعظيم وأعظم، صفات التعظيم وصفه بالعبودية، والرسالة، كما مر سابقا، وله الدرجة الرفيعة؛ لكنه لا يتجاوز مقام العبودية، والطاعة لله، ولا يخلع على نفسه صفات الألوهية، أو يروم مقام الربوبية، ولا يدعو الناس إلى عبادته؛ بل يدعوهم إلى عبادة مرسله وحده، وشعاره في ذلك: ﴿كُونُوا رِبَّانِينَ﴾^(٢) وقد حرص النبي ﷺ على التمييز بين الألوهية والنبوة، خصوصا وأن الأمم الماضية قد ألهمت أنبياءها، فقالت اليهود: عزيز ابن الله، وقالت النصارى المسيح ابن الله.

ولا ريب أن تأليه الأنبياء لم يكن في حياتهم، بل بعد موتهم بقليل، أو كثير حين تدخل المبالغات، والأساطير إلى تاريخهم، وسيرتهم، ويبالغ أتباعهم في ذكر أخبارهم، ووقائعهم، حتى يوصلهم إلى مرحلة الألوهية، ثم يعبدونهم من دون الله، أو يشركونهم في عبادة الله تعالى، ومن هنا حذر رسولنا الكريم، صلى الله عليه وسلم من الغلو في حقه، وأكد على صفاته البشرية، فقد (أتى النبي ﷺ رجل فكلمه، فجعل ترعد فرائضه، فقال: هون عليك فلاني لست بملك، إنما أنا ابن امرأة تأكل القديد)^(٣)، فهل بعد هذا تواضع من خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم، وهو الذي اختاره الله من خيار خلقه، وعصمه في نسبه، وطهارة محتده^(٤)، ورغم علو مكانته، وسمو خلقه، وإشادة القرآن برفعته، وعظمته، فإننا لا نتخطى به خصائص البشرية، ومنازل النبوة^(٥).

(١) القول الفصل النفيس ص ١٣٥، وانظر التوسل حكمه وأقسامه للشيخين محمد بن صالح العثيمين وناصر

الدين الألباني رحمهم الله جمع أبي لوز ص ٧٩ (٢) سورة آل عمران الآية ٧٩

(٣) رواه ابن مساجه ١١٠١/٢ برقم ٣٣١٢، وانظر صحيح سنن ابن مساجه ٢/٢٣٢ برقم ٢٦٧٧، ورواه

الحاكم ٤٧/٣، وصححه الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة برقم ١٨٧٦

(٤) المحتد الأصل، يقال: فلان من محتد صدق، ومحتد صدق. انظر الصحاح للجوهري ٢/٤٦٢ مادة (حتد).

(٥) انظر الرسالة والرسول ص ٣٠

فأهل السنة والجماعة من أشد الناس تعظيماً للرسول ﷺ، واتباعاً لسنته، ﷺ ويدلك على هذا أنهم كانوا حريصين دائماً على اتباع سنة الرسول ﷺ، والتقيد بها، وإنكار ما خالفها من عقيدة، أو عمل قول، أو فعلي، ويدلك على هذا أيضاً أنهم جعلوا الصلاة على النبي ﷺ ركناً من أركان الصلاة، لا تصح الصلاة إلا بها؛ فهل بعد هذا من شك في تعظيمهم لرسول الله ﷺ، وهم أيضاً إنما قالوا بأنها ركن من أركان الصلاة؛ لأن ذلك هو مقتضى الدليل عندهم، فهم متبعون للدليل، معظمون للرسول، لا يغفلون بالنبي ﷺ في أمر لم يشرعه الله ورسوله، ثم إن حقيقة الأمر أن إنكارهم للمدائح النبوية المشتملة على الغلو في رسول الله ﷺ هو التعظيم الحقيقي لرسول الله ﷺ، وهو سلوك الأدب مع الله ورسوله؛ حيث لم يقدموا بين يدي الله ورسوله، فلم يغفلوا؛ لأن النبي ﷺ نهاهم عن ذلك^(١).

وكل من أراد أن يتحدث عن النبي ﷺ بإثبات ما يليق بمقامه الشريف من التعظيم الشرعي أو نفي ما لا يجوز في حقه، ومكانه المنيف من الغلو، والإطراء يجب أن يلتزم بما جاء في القرآن والسنة النبوية الثابتة دون أن يختلق من تلقاء نفسه أموراً لم تثبت عن الشارع بقصد حسن النية، واعتماداً على العواطف ليتقرب بها إلى الله عز وجل راجياً الثواب والمغفرة؛ لأن الأمور التي يتقرب بها إلى الله تعالى لا بد فيها من شروط: (أن تكون مشروعة بنص من الكتاب أو السنة الثابتة أو باجتهاد معتمد عليه، وأن تقع في الحدود المقررة لها من الزمان، والمكان، وأن تقع بالكيفية التي أمر بها الشارع والإخلاص بالقربى إلى الله تعالى).

وإذا انتفى شرط من هذه الشروط فلا تعتبر قرابة؛ بل تكون بدعة حيثئذ، ونحن نرى اليوم أناساً يغالون في شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم بالمدح، يرفعونه إلى مرتبة الألوهية، أو يصفونه بصفات لا تليق إلا بالله، أو يطلبون طلبات لا دخل له في حصولها أثناء حياته فضلاً عن بعد مماته صلى الله عليه وسلم،... وعند ما نرفض الغلو في شخصية الرسول، صلى الله عليه وسلم لا يعني بالضرورة أن نقصر في توقيره، وتعظيمه، وحبه، ولكن نعني أن نلتزم بما هو مشروع في حقه، صلى الله عليه وسلم دون إفراط، أو تفريط، بعيدين عن الغلو والتقصير لتتصف بالوسطية التي أشار إليها القرآن

(١) مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ محمد بن عثيمين - رحمه الله - ٦٠/٣، وانظر هذه مفاهيمنا ص ٢٣٥

الكريم في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (١) (٢).

فالتوازن خصيصة من خصائص دين الإسلام كما مر معنا، والتوسط في باب تعظيم نبينا صلى الله عليه وسلم سوط يمكن أن يضرب به كلا من الغلاة والجفاة في حق نبينا عليه الصلاة والسلام، سواء بسواء، حتى يعودوا إلى جادة الحق، وحتى يسلكوا السنن الواضح، والصراط المستقيم، وبهذا المنهج تبقى العقيدة صافية المعين، رقاقة الجداول، يشرب منها كل من أراد الحق شربه هنية، من غير تعكير من عقائد الغلاة، أو بتر، وتشويش من عقائد المنتقصين الجفاة.

يقول العلامة ابن القيم: (وما أمر الله بأمر إلا وللشيطان فيه نزعتان، إما إلى تفريط وإضافة، وإما إلى إفراط وغلو، ودين الله وسط بين الجافي عنه، والغالي فيه، كالوادي بين الجبلين، والهدى بين ضلالتين، والوسط بين طرفين دميمين؛ فكما أن الجافي عن الأمر مضيع له، فالغالي فيه مضيع له، هذا بتقصيره عن الحد، وهذا بتجاوزه الحد) (٣).

ومن مشاهداتي في المسجد النبوي الشريف أنني قابلت ذات يوم رجلا من المسلمين خارجا من باب البقيع -بعد أن سلم على النبي ﷺ وصاحبيه رضي الله عنهما، وكان رجوعه بطريق القهقري، فقلت له: لماذا تمشي هذه المشية والناس خلفك وقد تسقط على أحدهم فتؤذيه؟ فأجابني: إنني أخشى في حال خروجي -أن أولي الحجرة الشريفة ظهري تعظيما للرسول ﷺ، ثم نظرت في وجهه فإذا هو قد حلق لحيته، وإلى ثوبه فإذا هو قد أسبله، وأمارات جفاء سنة النبي (واطراح أوامره بادية عليه فعلمت أن سبب ذلك هو تلبس إبليس مع ظلمة الجهل بالشرية.

يقول الشيخ ابن عثيمين: (ومن العجائب أن هؤلاء المغالين يدعون أنهم معظمون لرسول الله (تجدهم معظمين له كما زعموا في مثل هذه الأمور؛ وهم في كثير من سننه فاترون معرضون، والعياذ بالله) (٤).

(١) سورة البقرة الآية ١٤٣

(٢) التأدب مع الرسول صلى الله عليه وسلم ص ٣٢، وانظر المشاهدات المعصومية عند قبر خير البرية لمحمد

سلطان المعصومي ص ٧٣ (٣) مدارج السالكين ٢/ ٤٩٦

(٤) مجموع فتاوى ورسائل الشيخ محمد بن عثيمين ٣/ ٦٢، وانظر الزيارة الشرعية والشركية لمحي الدين البركوي

ص ٢٦، وهذه مفاهيمنا ص ٢٣٥

ولعل من أشبه ما أختتم به هذا المبحث المهم قول العلامة ابن القيم في نونيته^(١) :-

الرب رب والرسول فعبيده	حقا وليس لنا إله ثان
فلذلك لم نعبد مثل عبادة الر	حمن فعل المشرك النصراني
كلا ولم نغل الغلو كما نهى	عنه الرسول مخافة الكفران
لله حق لا يكون لغيره	ولعبد حقه هما حقان
لا تجعلوا الحقين حقا واحدا	من غير تمييز ولا فرقان
فالحج للرحمن دون رسوله	وكذا الصلاة وذبح ذي القربان
وكذا السجود ونذرنا ويمينا	وكذا مثاب العبد من عصيان
وكذا العبادة واستعانتنا به	إياك نعبد ذاك توحيدان
وعليهما قام الوجود بأسره	دينا وأخرى حبذا الركبان
لكنما التعزير والتوقير حق	للسل رسول بمقتضى القرآن
والحب والإيمان والتصديق لا	يختص بل حقان مشتركان
هذي تفاصيل الحقوق ثلاثة	لا تجهلونها يا أولي العدوان
ونظير هذا قول أعداء المسيح	يح من النصرى عابدي الصلبان
أنا تنقصنا المسيح بقولنا	عبد وذلك غاية النقصان
لوقلنا ولد إله خالق	وفيتموه حقه بوزان
وكذلك أشباه النصرى قد غلوا	في دينهم بالجهل والطغيان
صاروا معادين الرسول ودينه	في صورة الأجباب والإخوان
والله ما عظمتموه طاعة	ومحبة يا فرقة العصيان
أنى وجهلكم به وبدينه	وخلافكم للوحي معلومان
والله أمركم عجيب معجب	ضدان فيكم ليس يتفقان
تقديم آراء الرجال عليه مع	هذا الغلو فكيف يجتمعان

(١) انظر متن القصيدة النونية ص ٢٤٩ ، بتصرف في انتقاء الأبيات من غير ترتيب .

والله لم نقصد سوى التجريد للت	ووحيد ذاك وصية الرحمن
ورضى رسول الله منا لا غلو	الشرك أصل عبادة الأوثان
والله لو يرضى الرسول دعاءنا	إياه بادرنا إلى الإذعان
والله لو يرضى الرسول سجودنا	كنا نخزله على الأذقان
والله ما يرضيه منا غير إخـ	لاص وتحكيم لذا القرآن
ولقد نهى ذا الخلق عن إطرائه	فعل النصارى عابدي الأوثان
ولقد نهانا أن نصير قبره	عيدا حذار الشرك بالرحمن

الفصل الثالث

صورة الواسطة في العبادة

وفيه خمسة مباحث:-

المبحث الأول: تعريف العبادة لغة وشرعا .

المبحث الثاني: وجه كون العبادة واسطة .

المبحث الثالث: صورة الواسطة في الدعاء .

المبحث الرابع: صورة الواسطة في التوسل المشروع .

المبحث الخامس: صورة الواسطة في العمل الصالح .



المبحث الأول

تعريف العبادة لغة وشرعا

تعريف العبادة لغة مادة العين، والباء، والذال تدل على أصلين كأنهما متضادان :-

أحدهما: اللين، والذل، والآخر: الغلظ، والشدة، فمن الأول: قول العرب: هذا عبد مملوك، وهذا بعير معبد، وهذا طريق معبد. ومن الثاني: قولهم: هذا ثوب له عبدة؛ إذا كان صفيقا، قويا، فالعبدة تعني: القوة، والصلابة^(١). واستعمال (عبد) بمعنى: أطاع، وإنقاد وارد في الكتاب العزيز، ومنه قوله تعالى: ﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾^(٢)، أي: لا تطيعوه، وقوله تعالى: ﴿فَقَالُوا أَنْزَلْنَاهُ مِنْ لَدُنْهُمْ وَمِنْ عِبَادِ اللَّهِ﴾^(٣)، أي مطيعون، متذللون لنا، يدينون لنا، على عادة العرب في تسمية من دان للملك عابدا له^(٤). ويقال: عبد الله يعبد عبادة، ومعبدا، ومعبدة، وعبودة، وعبودية: خضع له، وإنقاد له، وذل له، وأطاعه، وتآله له، وتنسك.

فالعبادة، والعبودة، والعبودية: الخضوع، والتذل، والطاعة، والانقياد، والتآله، والتنسك، يقال: طريق معبد: أي مذل وطئته الأقدام، وذلتته^(٥)، قال طرفة بن العبد^(٦):-

تباري عتاقا ناجيات وأنعت
وظيفا وظيفا فوق مورٍ معبد

والشاعر يعني بالمور: الطريق، والمعبد: المذل، الموطوء، ومن ذلك قيل للبعير المذل بالركوب في الخوائج: معبد، كما يقال للبعير المطلي بالقطران: معبد، قال طرفة أيضا^(٧):-

- (١) انظر معجم مقاييس اللغة ٤/ ٢٠٥ مادة (عبد). (٢) سورة يونس، الآية: ٦٠.
(٣) سورة المؤمنون الآية: ٤٧.
(٤) انظر تفسير الطبري ١٨/ ٢٥.
(٥) انظر تهذيب اللغة للأزهري ٢/ ٢٣٤ مادة (عبد)، وصحاح اللغة للجوهري ٢/ ٥٠٣ مادة (عبد)، والمخصص لابن سيده ١٣/ ٩٦ مادة (عبد)، والمصباح المنيد ٢/ ٣٨٩ مادة (عبدة)، ولسان العرب ٩/ ١٠ مادة (عبد)، وتاج العروس ٨/ ٣٣١ مادة (ع ب د).
(٦) انظر ديوان طرفة بشرح الأعلام الشتمدي ص ١٣، والمغني: أن هذه الناقة تباري بسيرها إبلا عتاقا، والعتاق الكرام البيض، والناجيات: السريعات، والوظيف: من الرسغ إلى الركبة، وفي الرجل من الرسغ إلى العرقوب، أي: أنعت هذه الناقة وظيف رجلها، ووظيف يدها، أو رصعت رجلها موضع وظيف يدها وهو ضرب من السير.
(٧) انظر ديوان طرفة بشرح الأعلام الشتمري ص ٣١

إلى أن تحامتي العشرة كلها وأفردت أفراد البعير المعبّد

وقولهم للبعير المطلي بالقطران : معبد ؛ لأنه يتذلل لشهوته القطران فلا يمتنع^(١) . فعلم مما سبق أن العبادة في اللغة تعني الخضوع ، والتذلل ، والطاعة ، والانقياد ؛ لكن هل يصح إطلاق العبادة على كل خضوع ، وتذلل ، وكل طاعة ، وانقياد ؟ أم هناك تقييد ؟ . يقول الزجاج رحمه الله^(٢) : (معنى العبادة في اللغة : الطاعة مع الخضوع)^(٣) . فقيّد الطاعة بالخضوع .

وقال ابن سيده رحمه الله^(٤) : (وكل خضوع ليس فوقه خضوع فهو عبادة ، طاعة كان للمعبود ، أو غير طاعة ، وكل طاعة لله على جهة الخضوع ، والتذلل فهي عبادة ، والعبادة نوع من الخضوع لا يستحقه إلا المنعم بأعلى أجناس النعم : كالحياة ، والفهم ، والسمع ، والبصر)^(٥) .

وقسم الراغب العبادة في اللغة إلى قسمين : عبادة بالتسخير ، وعبادة بالاختيار ، وهي لأصحاب النطق ، وهي التي جاءت الأوامر بها^(٦) .

العبادة في الشرع : كثرت عبارات العلماء في بيان المعنى الشرعي للعبادة ، ولكثرتها فإني سوف أشير إلى بعض تلك التعريفات : -

١ - عرفها الراغب الأصفهاني بقوله : (العبادة : فعل اختياري مناف للشهوات البدنية ، تصدر عن نية ، يراد بها التقرب إلى الله طاعة للشرعية)^(٧) .

٢ - وعرفها البيهقي بقوله : (العبادة : الطاعة مع التذلل ، والخضوع ، وسمي العبد عبداً

(١) انظر تهذيب اللغة ٢/ ٢٣٤ ، وأساس البلاغة للزمخشري ص ٢٩١ ، والقاموس المحيط ١/ ٣٢٢ مادة (العبد) .

(٢) هو أبو إسحاق إبراهيم بن السري بن سهل الزجاج ، من صدور أهل العلم في اللغة والنحو والتفسير ، يعد أقدم أصحاب المبرد الذين قرأ عليهم ، كانت وفاته سنة ٣١١ هـ ، وقيل غير ذلك . انظر الفهرست لابن النديم ١/ ٦٠ ، ومعجم الأدباء ١/ ١٣١ ، إنباء الرواة للقفطي ١/ ١٥٩ .

(٣) معاني القرآن ١/ ٤٨ ، وانظر تهذيب اللغة ٢/ ٢٣٤ .

(٤) هو أبو الحسن علي بن إسماعيل ، وقيل : أحمد ، وقيل : محمد المرسى الأندلسي ، الضرير المعروف بابن سيده ، عالم بالنحو واللغة وأشعار العرب وأيامهم ولد بمرسية سنة ٣٩٨ هـ ، وتوفي بدانة سنة ٤٥٨ هـ ، وقيل : غير ذلك . انظر وفيات الأعيان ١/ ٤٣١ ، والصلة لابن بشكوال ص ٤١٠ ، وشذرات الذهب ٣/ ٣٠٥ .

(٥) المخصص لابن سيده الجزء ٤ السفر ١٣ ص ٦٢ .

(٦) انظر المفردات ص ٣١٩ .

(٧) تفصيل النشاطين وتحصيل السعادتين ص ١٥٧ .

لذلته، وانقياده^(١).

٣- وعرفها الفخر الرازي بقوله: (فهو فعل، أو قول، أو ترك فعل، أو ترك قول، ويؤتى به لمجرد اعتقاد أن الأمر به عظيم يجب قبوله)^(٢).

٤- وعرفها شيخ الإسلام بن تيمية بقوله: (اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال، والأعمال الباطنة، والظاهرة)^(٣). وقال أيضا: (وهي اسم يجمع كمال الحب لله، ونهايته، وكمال الذل لله، ونهايته، فالحب الخلي عن ذل، والذل الخلي عن حب لا يكون عبادة، وإنما العبادة ما يجمع كمال الأمرين)^(٤).

ودلالة العبادة على المحبة ناتجة عن كون آخر مراتب الحب هو التتيم، يقال: تيم الله: أي عبد الله، فالتتيم المعبد لمحبوبه، ومن خضع لإنسان، وهو في الباطن يبغضه لا يسمى عابدا له، ومن أحب شيئا، ولم يخضع له لم يكن عابدا له، كما قد يحب ولده، وصديقه^(٥).

٥- وقال العلامة ابن القيم: (العبادة تجمع أصليين: غاية الحب بغاية الذل، والخضوع... فمن أحببته ولم تكن خاضعا له لم تكن عابدا له، ومن خضعت له بلا محبة لم تكن عابدا له حتى تكون محبا، خاضعا)^(٦). وقال في موضع آخر: (بنى الرب جل وعلا: ﴿إياك نعبد﴾ على أربع قواعد: التحقق بما يحبه الله ورسوله، ويرضاه، من قول اللسان، والقلب، وعمل القلب، والجوارح. والعبودية: اسم جامع لهذه المراتب الأربع، فأصحاب: ﴿إياك نعبد﴾ حقا هم أصحابها^(٧).

٦- وقريب منه تعريف الإمام ابن كثير حيث يقول: (وفي الشرع عبارة عما يجمع كمال المحبة، والخضوع، والخوف)^(٨).

٧- وقيل العبادة هي: (الاعتراف بما ينبغي بالقول، والفعل)^(٩).

(٢) تفسير الفخر الرازي ٢٦/٢٣٩

(١) شرح السنة ١/٥٣

(٣) العبودية ص ٣٨

(٤) مجموع الفتاوى ١٩/١٠، ومنهاج السنة النبوية ٣/٢٩٠، وانظر جهود شيخ الإسلام ابن تيمية في توضيح توحيد العبادة تأليف د. أحمد الغنيمان رسالة دكتوراه غير منشورة ص ٣٧٢

(٥) انظر العبودية ص ٤٤، ومدارج السالكين ١/٧٤، واستشاق نسيم رياض الأنس لابن رجب ص ١٨

(٦) مدارج السالكين ١/٧٤

(٧) مدارج السالكين ١/١٠٠، والتفسير القيم ص ٩١، ومفتاح دار السعادة ١/٢٩٣

(٩) العلم الشامخ ص ٤٨

(٨) تفسير ابن كثير ١/٢٥

- ٨- وقيل : (هي وقفك النفس على مطلوب حكم الله تركا، وعملا، واعتقادا، أو استعمال نفسك له وحده تركا، وعملا، واعتقادا على مقتضى حكمه الطلبي)^(١) .
- ٩- وقيل هي : (ما أمر به شرعا، من غير اقتضاء عقلي، ولا اطراد عرفي)^(٢) .
- ١٠- وعرفها بعضهم بأنها : (فعل ما أمر الله به، ورسوله، وترك ما نهى الله عنه، ورسوله ابتغاء وجه الله، والدار الآخرة)^(٣) .

١١- وقال الشيخ ابن عثيمين : (العبادة تطلق على معنيين : على التعبد، وعلى المتعبد به ؛ فعلى المعنى الأول يكون معنى العبادة أن يتذلل الإنسان لربه بامثال أمره، واجتناب نهيه محبة له، وتعظيما، فيكون هذا الوصف عائدا للإنسان العابد، أما على المعنى الثاني : أن العبادة تطلق على معنى المتعبد به، فقد حدها شيخ الإسلام رحمه الله - في تعريف من أحسن ما يكون من التعاريف^(٤) . . . فالصلاة إذن عبادة، والزكاة عبادة، والصوم عبادة، والحج عبادة)^(٥) .

وهناك تعريفات أخرى تدور حول هذه التعريفات التي ذكرنا^(٦) .

وأحسن هذه التعريفات، وأجلاها، وأعلاها، وأولاها هو تعريف شيخ الإسلام بن تيمية، والبعثوي، وابن كثير ؛ لأن تلك التعريفات تمثل حقيقة العبادة، وتوضحها بأدق تعبير، وأوجزه، وأشمله، وأحوطه، وجميع أنواع العبادات داخلة في دائرة تلك التعريفات، من أعمال تعبدية، عملية، أو اعتقادية .

فتبين من تعريف العبادة أن الدين كله داخل في مفهوم العبادة، بدون استثناء،

(١) معارج الألباب ص ١٨٨

(٢) تحفة الطالب والجلس ص ١٠٨، وانظر مجموعة التوحيد النجدية ص ٢١٢

(٣) تحفة الطالب والجلس ص ١٠٨، وانظر تطهير الاعتقاد ص ٣٧

(٤) ثم ذكر تعريف شيخ الإسلام ابن تيمية

(٥) مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ محمد ابن عثيمين ٣٣٠ / ٧، وانظر فقه العبادات له أيضا ص ١٦

(٦) من تلك التعريفات أ - تعريف السيد الجرجاني : (فعل المكلف على خلاف هوى نفسه تعظيما لربه) .

التعريفات ص ١٨٩ ب - وتعريف محمد صديق حسن خان : (ما أمر به الشارع من أفعال العباد، وأقوالهم

المختصة بجلال الله تعالى وعظمته) الدين الخالص ١ / ٢١٥ ج - وقال آخرون العبادة : عبارة عما نشترط فيه

النية . انظر الأمانة في إدراك النية للقرافي ص ٢٩ وغير ذلك من التعريفات التي لا تخرج عما ذكرنا .

فالأعمال الاعتقادية، واللفظية، والبدنية، والمالية كلها من أنواع العبادة، وأجل ذلك دعاء المسألة فهو مع كونه داخلاً في العبادة، وواحداً من أفرادها فهو من أجل تلك الأنواع، ودعاء العبادة مستلزم لدعاء المسألة؛ كما أن دعاء المسألة متضمن لدعاء العبادة، فهما متلازمان^(٧).

(١) انظر العبودية ص ٣٨، وتطهير الاعتقاد ص ٤٨، وتيسير العزيز الحميد ص ٢١٥، والقواعد الحسان ص ١٥٤، ومجموع فتاوي ورسائل الشيخ ابن عثيمين ٧/ ٣٣٠، وأدب العبودية ص ٨٠.

المبحث الثاني

وجه كون العبادة واسطة

تقدم معنا في تعريف العبادة الشرعي أنها (اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال ، والأعمال الباطنة ، والظاهرة) . وما دامت هذه الأقوال ، والأعمال مأمورا بها من قبل الشارع ، وما دام الله جل وعلا يحبها ، ويرضاها فهي - لا شك - تنفع صاحبها ؛ إذا استوفت شرطي قبول العمل ؛ وهما :

أ- الإخلاص لله تعالى . ب- ومتابعة الرسول ﷺ .

فهذين الشرطين يكون العمل صحيحا ومقبولا^(١) مصداقا لقوله تعالى : ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾^(٢)

والله سبحانه وتعالى لم يخلق الخلق عبثا ، ولم يتركهم سدى ، وإنما خلقهم لمهمة معلومة ، وغاية محدودة ، ألا وهي عبادته سبحانه وتعالى ، كما قال تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(٣)

قال ابن كثير : (أي : إنما خلقتهم لأمرهم بعبادتي لا لاحتياجي إليهم)^(٤) ، وقال الربيع بن أنس : (أي : إلا للعبادة)^(٥) .

وقيل المعنى : إلا ليعبدني السعداء منهم ، ويعصيني الأشقياء ، فأطلق المجموع وأراد البعض^(٦) .

فالعبادة لله هي الغاية المحبوبة له ، والمرضية عنده التي خلق الخلق لها ، وبها أرسل جميع الرسل كما قال نوح لقومه : ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾^(٧) ، وكذلك قال كل رسول لقومه : فقال تعالى مبينا تبليغهم جميعا لهذه المهمة : ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾^(٨)

وجعل العبادة لازمة لرسوله صلى الله عليه وسلم إلى الموت ، كما قال تعالى : ﴿وَأَعْبُدْ

(١) تقدم الكلام حول هذين الشرطين المهمين ، والأصلين العظيمين .

(٢) سورة الكهف الآية ١١٠ (٣) سورة الذاريات الآية ٥٦

(٤) تفسير ابن كثير ٢٥٥ / ٤ ، وانظر تفسير القرطبي ٥٥ / ١٧ (٥) المرجع نفسه والصفحة عينا .

(٦) انظر تفسير القرطبي ٥٥ / ١٧ ، وتفسير الألوسي ٢٧ / ٢٠ ، وأضواء البيان ٧ / ٦٧١

(٧) سورة الأعراف الآية ٥٩ (٨) سورة النحل الآية ٣٦

رَبِّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿١﴾ ، وبها وصف ملائكته ، وأنبياءه ، فقال تعالى : ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ 》 ، وذم المستكبرين عنها بقوله عز وجل : ﴿وقال ربك ادعوني أستجب لكم إن الذي يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين﴾ (٢١) وبما أن كمال المخلوق في تحقيق عبوديته لله عز وجل فإن العبد كلما ازداد في ترقى مراتب العبودية ازداد كماله ، وعلت درجته عند ربه ، ومن زعم أن أحدا من الخلق يسعه الخروج من دائرة العبودية بوجه من الوجوه ، أو أنه يكون بذلك الخروج عنها أكمل فهو من أجهل الخلق ، وأضلهم ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّ كُلَّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِيَ الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴿٢٢﴾ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٢٣﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿٢٤﴾﴾ (٢٥)

ولا ريب أن القلب كلما ازداد حبا لله ازداد له عبودية ، وكلما ازداد القلب عبودية ازداد لربه حبا وتعلقا به دون سواه (فالقلب فقير بالذات إلى الله من وجهين : من جهة العبادة ، وهي العلة الغائية ، ومن جهة الاستعانة ، والتوكل ، وهي العلة الفاعلة ، فالقلب لا يصلح ولا يفلح ، ولا ينعم ، ولا يسر ، ولا يلتذ ، ولا يطيب ، ولا يسكن ، ولا يطمئن إلا بعبادة ربه ، وحبه ، والإنابة إليه ، ولو حصل له كل ما يلتذ به من المخلوقات لم يطمئن ، ولم يسكن ؛ إذ فيه فقر ذاتي إلى ربه من حيث هو معبوده ، ومحبوه ، ومطلوبه ، وبذلك يحصل له الفرح ، والسرور ، واللذة ، والنعمة ، والسكون ، والطمأنينة ، وهذا لا يحصل له إلا بإعانة الله له ، فإنه لا يقدر على تحصيل ذلك إلا الله ، فهو دائما مفتقر إلى حقيقة : ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ ؛ فإنه لو أعين على حصول كل ما يحبه ، ويطلبه ، ويشتهي ، ويريده ، ولم يحصل على عبادة الله فلن يحصل إلا على الألم ، والحسرة ، والعذاب (٢٦) .

فالعبادة بأنواعها ، وطرقها ، ومراتبها هي الطريق الوحيد للوصول إلى مرضاة الله تعالى فإن الله سبحانه وتعالى يأمر عباده بذكره ، وشكره ، وحسن عبادته فإذا قام العبد وامتل

(٢) سورة الأنبياء الآية ١٩

(١) سورة الحجر الآية ٩٩

(٣) سورة الحجر الآية ١٩

(٤) انظر العبودية ص ٨ ، وأصل الدين عند الأئمة وسلف الأمة لعبد المحسن الشاذلي ص ٢٥

(٥) سورة مريم الآيات (٩٣-٩٥) .

(٦) العبودية ص ١٠٨ ، وانظر علل الشرائع للصدوق ص ١٢ ، والموافقات للشاطبي ١/ ٦٠

هذا الأمر، وأدى هذا الحق أقبل الله عليه، وسمع نجواه، وأجاب دعاءه، وقبل شكواه، يقول ابن رجب: (وهو سبحانه وتعالى جابر المنكسرة قلوبهم من أجله، وهو سبحانه وتعالى يتقرب ممن ينجيه في الصلاة، ويعفر وجهه في التراب بالسجود، كما يتقرب من عباده الداعين له، السائلين له، المستغفرين من ذنوبهم بالأسحار، ويجيب دعاءهم، ويعطيهم سؤالهم؛ ولا جبر لانكسار العبد أعظم من القرب، والإجابة) (١).

ولكي تكون عبادتنا واسطة بيننا وبين ربنا عز وجل في قبول أعمالنا، ولرحمته إيانا ينبغي أن نخلص له الدين، ونثوكل عليه، ونرغب في حوائجنا إليه، ولا نجعل له ندا، لا في محبته، ولا في خشيته، ولا في دعائه، ولا في الاستعانة به، كما ثبت في الصحيحين أن النبي ﷺ قال: (من مات وهو يدعو ندا من دون الله دخل النار) (٢).

فالتوسل بذلك إلى حصول ثواب الله ومحبه، ورضوانه نافع؛ فإن الأعمال الصالحة التي أمر بها الرسول ﷺ هي الوسيلة التامة إلى سعادة الدنيا والآخرة (٣)، وتحصيل المطلوب، ونيل المرام إنما يكون بواسطة العبادة؛ ولذا قال الألوسي: -وهو يبين السر الذي من أجله قدمت العبادة على الاستعانة في الذكر في الفاتحة- (الثالث: أن العبادة مما يتقرب بها العبد إلى الله تعالى. الرابع: أنها وسيلة فتقدم على طلب الحاجة؛ لأنه ادعى للإجابة) (٤). فقدم الغاية المقصودة على الوسيلة الموصلة (٥).

وبين الإمام ابن كثير أن البشر خلقوا لأجل العبادة، وهي واسطتهم لحصول الخيرات (٦).

ومن الأدلة على أن العبادة واسطة بين العابد وربّه، وأن الأعمال الصالحة مقربة إلى الله تعالى، وشافعة للعامل قوله تعالى: ﴿وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ (٧).

قيل المراد به: جنس الصلاة، أي صل واقترّب، وقيل المراد: نفس السجود في

(١) الخشوع في الصلاة لابن رجب ص ١٤

(٢) رواه البخاري، ١٧٦/٨، حديث ٤٤٩٧، ومسلم، كتاب الإيمان باب الدليل على أن من مات لا يشرك به شيئا دخل الجنة وأن من مات مشركا دخل النار ٩٢/٢ واللفظ له.

(٣) انظر قاعدة جلية في التوسل والوسيلة ص ٢٣٥ (بتصرف).

(٤) تفسير الألوسي ١/٨٨، وانظر تفسير الفخر ٢٨/٢٣١ (٥) انظر اقتضاء الصراط المستقيم ٢/٨٥٦

(٦) انظر تفسير ابن كثير ١/٢٦ (٧) سورة العلق الآية ١٩

الصلاة، فيكون المعنى: اتبع بسجودك قرب المنزل من ربك تعالى، فتقرب منه بالعبادة، وتحبب إليه بالطاعة^(١).

وروى الإمام مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فأكثروا من الدعاء)^(٢)؛ لأن السجود (أعظم ما يظهر فيه ذل العبد لربه عز وجل، حيث جعل أشرف أعضائه، وأعزها عليه، وأعلاها عليه حقيقة أوضع ما يمكنه فيضعه في التراب متعفرا، ويتبع ذلك انكسار القلب، وتواضعه، وخشوعه لله عز وجل، ولهذا كان جزاء المؤمن إذا فعل ذلك أن يقربه الله إليه)^(٣).

وقد منع الله النار أن تحرق أثر السجود من المؤمن، فهي لا تأتي على جميع أعضائه، إما إكراما من الله لموضع السجود، ولعظم مكانته من الخضوع لله تعالى، وإما لكرامة تلك الصورة التي خلق آدم والبشر عليها، وفضلوا بها على سائر الخلق^(٤)، كل ذلك يبين منزلة العبادة، وخصوصا عبادة السجود، ومكانتها عند الله تعالى حيث نفعت صاحبها فباعده الله بين موضع سجوده، وبين النار. قال الحافظ ابن حجر: وجدت بخط أبي - رحمه الله - نظم هذا المعنى في قوله^(٥): -

يا رب أعضاء السجود عتقتها من عبدك الجاني وأنت الواقى
والعتق يسري بالغنى يا ذا الغنى فامنن على الفاني بعثى الباقي

والتذلل لله تعالى، وإظهار الفاقة إليه، والإلحاح في الدعاء من أهم أنواع العبادة التي تنفع العبد، وتدنيه من رحمة الله. قال العلامة ابن القيم: (قال أبو حفص: أحسن ما يتوسل به العبد إلى الله دوام الافتقار إليه على جميع الأحوال، وملازمة السنة في جميع الأفعال، وطلب القوات من وجه حلال)^(٦).

وقال أبو عمران الجوني^(٧) رحمه الله: (أوحى الله عز وجل إلى موسى عليه السلام: إذا قمت بين يدي فقم مقام العبد الحقير الذليل، وذم نفسك؛ فهي أولى بالذم، وناجني

(١) انظر زاد المسير لابن الجوزي ١٧٩/٩، وتفسير الرازي ٢٦/٣٢، وتفسير ابن كثير ٥٦٦/٤، وتفسير القاسمي ٣٦١/٧ (٢) رواه مسلم، كتاب الصلاة باب ما يقال في الركوع والسجود ٢٠٠/٤

(٣) الخشوع في الصلاة لابن رجب ص ٢٧ (٤) انظر فتح الباري ٤٥٦/١١

(٥) المرجع نفسه ٤٥٧/١١ (٦) مدارج السالكين ٤٤١/٢

(٧) هو أبو عمران موسى بن سهل بن عبد الحميد الجوني البصري، نزيل بغداد، قال عنه الذهبي: وثقه الدارقطني، وكان من الحفاظ، توفي سنة ٣٠٧ هـ. انظر سير أعلام النبلاء ٢٦١/١٤، وشذرات الذهب

بقلب وجل، ولسان صادق^(١).

ومن الأدلة -أيضا كذلك- على أن العبادة واسطة بين العبد، وخالقه، وأن الطاعة محبوبة له، ومقربة إليه: ما رواه البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إن الله تعالى قال: «من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه») الحديث^(٢).

فالشاهد من هذا الحديث القدسي العظيم، قوله تعالى: (وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته . . . إلخ) قسم أولياءه المقربين إلى قسمين: أحدهما: من تقرب إليه بأداء الفرائض، ويشمل ذلك فعل الواجبات، وترك المحرمات. والثاني: من تقرب إليه بعد الفرائض بالنوافل، فظهر بذلك أنه لا يوجد طريق يوصل إلى التقرب إلى الله تعالى وولايته، ومحبته سوى طاعته التي شرعها على لسان رسوله ﷺ، فمن ادعى ولاية الله، والتقرب إليه، ومحبته بغير هذه الطريق فسوف يبدو كاذبا في دعواه، كما كان المشركون يتقربون إلى الله تعالى بعبادة من يعبدونه من دون الله، من الأصنام، والأوثان، كما حكى الله ذلك عنهم، فقال تعالى: ﴿ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾^(٣)

فأولياء الله على درجتين: إحداهما المتقربون إليه بأداء الفرائض وهذه درجة المقتصدین، أصحاب اليمين، وأداء الفرائض أقل الأعمال، كما قال عمر رضي الله عنه: (أفضل الأعمال أداء ما افترض الله، والورع عما حرم الله، وصدق النية فيما عند الله عز وجل)^(٤). **والدرجة الثانية:** درجة السابقين المقربين: (وهم الذين تقربوا إلى الله -بعد الفرائض- بالاجتهاد في نوافل الطاعات، والانكفاف عن دقائق المكروهات بالورع، وذلك يوجب للعبد محبة، كما قال: (ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه) فمن أحبه الله رزقه محبته، وطاعته، والانشغال بذكره، وخدمته، فأوجب له ذلك القرب منه،

(١) الخشوع في الصلاة لابن رجب ص ٢٦

(٢) صحيح البخاري مع الفتح كتاب الرقاق باب التواضع ١١/ ٣٤٠ حديث ٦٥٠٢

(٣) سورة الزمر الآية ١٠ (٤) جامع العلوم والحكم ص ٣٦٠

والزلفى لديه، والحظوة عنده^(١).

وقوله تعالى: (ولئن سألتني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه) يعني: (أن هذا المحبوب المقرب له عند الله منزلة خاصة تقتضي أنه إذا سأل الله شيئاً أعطاه إياه، وإن استعاذ به من شيء أعاده منه، وإن دعاه أجابه فيصير مجاب الدعوة لكرامته على ربه عز وجل)^(٢).

والقرآن كلام الله، ودوام قراءته، وتدبره، والانشغال به، وتطبيقه في كل صغيرة وكبيرة من حياة المسلم عبادة مقبولة، وواسطة شرعية تدني العبد من رحمة الله تعالى، وتقربه إليه، كما روى أبو أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: (اقرأوا القرآن؛ فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه)^(٣). وقال عليه الصلاة والسلام: (إن سورة في كتاب الله، ما هي إلا ثلاثون آية شفعت لرجل حتى غفر له: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾^{(٤)(٥)}، وفي رواية: (سورة في القرآن خاصمت عن صاحبها حتى أدخلته الجنة: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾^(٦)).

وعن أبي أمامة رضي الله عنه مرفوعاً: (ما تقرب العباد إلى الله بمثل ما خرج منه)^(٧). وقال خباب بن الارت رضي الله عنه لرجل: (تقرب إلى الله ما استطعت، واعلم أنك لن تقرب إليه بشيء هو أحب إليه من كلامه)^(٨) يريد بذلك القرآن الكريم؛ إذ لا شيء عند المحبين أحلى من كلام محبوبهم، فهو لذة قلوبهم، وغاية مطلوبهم^(٩).

(١) المرجع نفسه والموضع بذاته.

(٢) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين باب فضل قراءة القرآن وفضل سورة البقرة ٨٩/٦.

(٤) سورة الملك الآية ١.

(٥) رواه الإمام أحمد في المسند ٢/٢٩٩، وابن ماجه في سننه حديث ٣٧٨٦، وأبو داود في سننه حديث ١٤،

والترمذي في سننه ٥/١٦٤، وقال حديث حسن، والحاكم في المستدرک ٢/٤٩٧، وصححه، ووافقه الذهبي.

(٦) أورده الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/١٢٧، وقال: رواه الطبراني في الصغير، والأوسط ورجاله رجال

الصحيح، وصححه الشيخ الألباني، انظر صحيح الجامع برقم ٣٦٤٤.

(٧) رواه الترمذي ٥/١٧٦، وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وفي إسناده بكر بن خنيس وقد

تكلم فيه ابن المبارك، وتركه في آخر أمره، ووصله الحاكم في المستدرک ٢/٤٤١، وله شاهد آخر في المستدرک

أيضاً ١١/٥٥٥.

(٨) أخرجه الحاكم في المستدرک ٢/٤٤١، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وقال: صحيح.

(٩) انظر جامع العلوم والحكم ٣/٣٦٣.

وروى الإمام أحمد بسنده في كتاب الزهد عن فروة بن نوفل الأشجعي^(١) رحمه الله قال: (كنت جارا لخباب فخرجت يوما من المسجد، وهو أخذ بيدي فقال: يا هناه: تقرب إلى الله عز وجل بما استطعت؛ فإنك لن تقرب إليه بشيء أحب إليه من كلامه)^(٢).

وأعظم فرائض البدن التي تقرب إلى الله تعالى وتوجب الرضوان، والرحمة الصلاة؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾^(٣)، فهي: (معقل المسلم، وملجأه الذي يأوي إليه، والعروة الوثقى التي يعتصم بها، والحبل الممدود بينه وبين ربه الذي يتعلق به، وغذاء الروح ويلسم الجروح، ودواء النفوس، وإغاثة الملهوف، وأمان الخائف، وقوة الضعيف، وسلاح الأعزل)^(٤).

فالصلاة صورة من الصور التي يقوم بها المسلم لعبادة خالقه وهي صلة بين العبد وربّه وهي قرة العين وراحة الضمير، وطمأنينة النفس، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ (وجعل قرة عيني في الصلاة)^(٥).

فالصلاة من أفضل العبادات البدنية التي تقرب العبد من الله تعالى (حيث يقف المصلي في رحاب الله ليس بينه وبين الله واسطة، فيشعر بالقرب من الله، ويشعر بمعية الله له، فتمتلئ جوارحه بالأمن، والطمأنينة، والثقة، واليقين، فيخشع راکعاً، ويخشع ساجداً، يستمد العون، والتأييد، قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾^(٦) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ^(٧).

وقال الحافظ ابن حجر في معرض بيانه لعظيم قدر الصلاة وأهميتها في حياة المؤمن: (وفي الحديث عظم قدر الصلاة؛ فإنه ينشأ عنها محبة الله للعبد الذي يتقرب بها، وذلك لأنها محل المناجاة، والقربة، ولا واسطة فيها بين العبد وربّه، ولا شيء أقر لعين العبد

(١) هو فروة بن نوفل الأشجعي، من الثالثة، الكوفي، قيل: إن له صحبة، ورجح ابن عبد البر، والحافظ ابن حجر أن صحبته غير صحيحة، بل هو من الخوارج الذين خرجوا على المغيرة بن شعبة في خلافة معاوية، فقتله المغيرة مع بقية الخوارج سنة ٤٥ هـ. انظر: تهذيب الكمال ١٧٩/٢٣، تهذيب التهذيب ٢٣٢/٨، وتقريب التهذيب ص ٤٤٥ (٢) الزهد للإمام أحمد ص ٦٢

(٣) سورة العلق الآية ١٩ (٤) الأركان الأربعة للندوي ص ٣٠

(٥) رواه الإمام أحمد في المستند ١٢٨/٣، والنسائي في سننه ٦١/٧، وقال الحافظ ابن حجر في الفتح ٣٤٥/١١:

أخرجه النسائي وغيره بسند صحيح، وصححه الشيخ الألباني، انظر صحيح الجامع ٥٩٩/١ برقم ٣١٢٤

(٦) سورة المؤمنون الآيتان (١-٢).

(٧) الصلاة للطيار ص ١٨، وانظر حكمة التشريع وفلسفته ١١٣/١

(١) منها.

وكيف لا تكون عبادة هذا شأنها واسطة بين العبد وربّه ، وهي مشتملة على السجود الذي يخبر فيه المؤمن متذللًا لبارئته خاشعًا لخالقه ، ومعفرا لوجهه تاركا الدنيا وراء ظهره ، معرضا عن كل ما سوى الله تعالى ؟! ، وقد تقدم الحديث الصحيح الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد) (٢) ، وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : مر رسول الله ﷺ وأنا معه ، وأبو بكر على عبد الله بن مسعود ، وهو يقرأ ، قال ، فسمع قراءته ، ثم ركع عبد الله ، وسجد ، قال : فقال رسول الله ﷺ (سل تعطه ، سل تعطه...) الحديث (٣) .

فالعبد متى ما خلصت لله تعالى ، وكانت على منهاج سنة رسول الله ﷺ فإنها تكون مقبولة ، وتنفع صاحبها ، فقد ورد أن صلاة العبد إذا صلاها بقلب حاضر ، خاشع كانت قرة عينيه ، وصعدت إلى الخالق سبحانه وتعالى ، ولها نور ، وبرهان ، حتى يستقبل بها الرحمن عز وجل فتشفع لصاحبها (٤) .

وقد صور لنا بعض علماء السلف تصويرا مؤثرا للصلاة التامة التي تقرب العبد من ربه عز وجل ، وفيه دليل على أن العبادة متى خلصت للحق تبارك وتعالى نفعت وكانت واسطة شرعية صحيحة بين العبد وربّه تعالى ، فعند ما سئل حاتم الأصم (٥) رحمه الله عن صلاته قال : (إذا حانت الصلاة أسبغت الوضوء وأتيت الموضع الذي أريد الصلاة فيه ، فأقعد حتى تجتمع جوارحي ، ثم أقوم إلى صلاتي ، وأجعل الكعبة بين حاجبي ، والصراط تحت قدمي ، والجنة عن يميني ، والنار عن شمالي ، وملك الموت ورائي ، وأظنها آخر صلاتي ، ثم أقوم بين الرجاء والخوف ، وأكبر تكبيرا بتحقيق ، وأقرأ قراءة بترتيل ، وأركع ركوعا بتواضع ، وأسجد سجودا بتخشع ، وأقعد على الورك الأيسر ، وأفرش ظهر

(٢) سبق تخريجه .

(١) فتح الباري ١١ / ٣٤٥ .

(٣) رواه الإمام أحمد في المسند ١ / ٣٨ ، قال محققه أحمد شاكر : إسناده صحيح . انظر المسند بتحقيق أحمد شاكر ١ / ٢٧٠ .

(٤) انظر الصلاة ومقاصدها للحكيم الترمذي ص ٤١ ، والوابل الصيب ص ٢٥ ، والخشوع في الصلاة لسليم الهلالي ص ٤١ ، وردود على أباطيل محمد الحامد ١ / ٣٤٢ .

(٥) هو أبو عبد الرحمن حاتم بن علوان ، المعروف بالأصم ، من أكابر زهاد الصوفية ، كانت وفاته سنة ٢٣٧ هـ . انظر الرسالة القشيرية ص ٣٩٣ ، وثمرات الذهب ٢ / ٨٧ .

قدمها، وأنصب القدم اليمنى على الإبهام، وأتبعها الإخلاص، ثم لا أدري أقبلت مني أم لا؟^(١). ولقد أحسن القائل^(٢):-

ألا في الصلاة الخير والفضل أجمع لأن بها الآراب^(٣) لله تخضع
فمن قام للتكبير لاقتة رحمة وكان كعبد باب مولاه يقنع
وصار لرب العرش حين صلاته نجيا فطوباه لو كان يخشع

إذا فالعبادة بأنواعها، وطرقها، ومراتبها هي الطريق الوحيد للوصول إلى الله تعالى، واللاحق بالرسول ﷺ وصحبه الكرام رضوان الله عليهم^(٤).

ومن الأسباب التي تستجلب بها محبة رب العالمين، وتكون سببا في قبول أعمال المتقين، وهي داخلة في جملة العبادات التي أمر الله تعالى بها: معرفة الله، وتوحيده، ومحبته، وطاعته.

قال عتبة الغلام^(٥) رحمه الله قال: (من عرف الله تعالى أحبه، ومن أحب الله تعالى أطاعه، ومن أطاع الله تعالى أكرمه، ومن أكرمه الله تعالى أسكنه في جواره، ومن أسكنه في جواره فطوباه، وطوباه، وطوباه)^(٦).

فبالاعتصام بالله تعالى، وطاعته، ومراقبة أمره يقرب العبد من ربه تعالى، والرب يقرب من عبده، ويصير العبد محبوبا، وترتفع الوسائط الحائلة بين العبد وبين القرب المطلوب الذي لا تقر عيون عابديه وأوليائه إلا به^(٧)؛ ولهذا قال الإمام ابن كثير في تفسير قوله الله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى﴾^(٨) قيل معناه: من سلك طريق الهدى وصل إلى الله، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾^(٩) (١٠).

(١) إحياء علوم الدين للغزالي ١/١٣٨، والخشوع في الصلاة لابن رجب ص ٢٩

(٢) انظر معالم غائبة عن حياة المسلمين تأليف ربيع بن محمد السعودي ص ٦٤

(٣) الآراب: الأعضاء. انظر مختار الصحاح ص ١٢، مادة (أرب).

(٤) انظر تفسير الآلوسي ٢١/١٦٧، والأصل الجامع لعبادة الله للشيخ محمد بن عبد الوهاب ضمن مؤلفات الشيخ قسم العقيدة ص ٦٨، والعبادة والعباد ص ٤٥٧

(٥) هو عتبة بن أبان الغلام البصري الزاهد، الخاشع، كان يشبه في حزنه الحسن البصري، استشهد غازيا. انظر: حلية الأولياء ٦/٢٣٠، وسير أعلام النبلاء ٧/٦٢ (٦) استنشاق نسيم الأنس لابن رجب ص ٤٧

(٧) انظر مدارج السالكين ١/٤٦٦، وبحر الدموع لابن الجوزي ص ١٨، والخشوع وأثره في بناء الأمة ص ٨٥

(٨) سورة الليل الآية ١٢ (٩) سورة النحل الآية ٩

(١٠) انظر تفسير ابن كثير ٤/٥٥٦

فقلب الإنسان دائم الشعور بالحاجة إلى الله، وهذا الشعور الأصيل الصادق لا يملاً فراغه شيء في الوجود إلا حسن الصلة برب الوجود، وهذا ما تقوم به العبادة إذا أدت على وجهها، ولأن العبادة حق الله تعالى، فكيف يسوغ للمخلوق أن يطلب حاجته بتضييع حق الله تعالى.

أما فعل الطاعات، فهو موجب لاستجابة الدعاء، ولهذا لما توسل أصحاب الغار^(١) الذين انطبقت عليهم الصخرة بأعمالهم الصالحة وعبادتهم التي أخلصوا فيها لله تعالى، متعبدين لله تعالى داعين الله بها أجيب دعواتهم، قال وهب بن منبه^(٢) رحمه الله: (مثل الذي يدعو بغير عمل كمثل الذي يرمي بغير وتر)^(٣). وقال الربيع بن أنس: (في الحكمة: أن العمل الصالح يرفع ربه إذا عثر)^(٤).

وكان الحسن البصري يقول: (تَفَقَّدَ الحلاوة في ثلاثة أشياء: في الصلاة، والقراءة، والذكر، فإن وجدت ذلك فامض، وأبشر، وإلا فاعلم أن بابك مغلق فعالج فتحه)^(٥).

وأعمال العباد تناضل عن صاحبها، وتدافع عنه، فإذا جاءه العذاب من جهة رجلية جاءه قيام الليل يدفع عنه، وإذا جاءه من جهة يديه جاءته الصدقة تشفع له عند ربه، وتدفع عنه، وقل مثل ذلك في بقية أنواع العبادات، وأصناف القربات^(٦). فقد روي عن عبد الرحمن بن سمرة رضي الله عنه قال: خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: (إني رأيت البارحة عجباً، رأيت رجلاً من أمتي قد احتوشته^(٧) ملائكة العذاب فجاءه وضوء فاستقذته من ذلك^(٨)، ورأيت رجلاً من أمتي قد بسط عليه عذاب القبر فجاءه صلاته فاستقذته من ذلك، ورأيت رجلاً من أمتي احتوشته الشياطين، فجاءه ذكر الله فخلصه منهم، ورأيت رجلاً من أمتي يلهث عطشاً، فجاءه

(١) سيأتي الحديث عن أصحاب الغار في المبحث القادم (صورة الواسطة في العمل الصالح)

(٢) هو أبو عبد الله وهب بن منبه الصنعاني اليماني من أحبار التابعين، صاحب القصص، كثير النقل من الأسرانيات، كان ثقة صادقاً، توفي سنة ٢١٤ هـ. انظر ميزان الاعتدال ٤/٣٥٢، وتقريب التهذيب ٢/٣٣٩

(٣) الزهد لابن المبارك ص ١٠٩، وأورده الطرطوشي في كتاب الدعاء المأثور ص ٥٩، وانظر جامع العلوم والحكم ص ١٠٦، والداعي والمدعي في علم الدعاء لابن عبد الهادي تحقيق عبد الباسط إبراهيم رسالة ماجستير غير منشورة ص ٣١٨

(٤) الزهد للإمام أحمد ص ١٥٩

(٥) الزهد للحسن البصري ص ٧٩ (٦) انظر إتحاف السادة المتقين للزبيدي ٨/١١٩

(٧) أحاطوا به، يقال: احتوش القوم بالصيد إذا أحاطوا به من كل جانب. انظر مختار الصحاح ص ١٦٢ مادة (ح- و- ش).

(٨) قال المناوي: يحتمل أن هذه الأعمال قامت بهذه الأفعال على الحقيقة حيث يجسد الله تعالى الثواب ويخلق فيه حياة ونطقاً، والقدرة صالحة لذلك، ويحتمل أنه مضاف إلى الملك الموكل بكتابة الأعمال. انظر فيض

صيام رمضان، فسقاه، ورأيت رجلا من أمتي من بين يديه ظلمة، ومن خلفه ظلمة، وعن يمينه ظلمة، وعن شماله ظلمة، ومن فوقه ظلمة، ومن تحته ظلمة، فجاءته حجتة، وعمرته فاستخرجاه من الظلمة، ورأيت رجلا من أمتي جاء ملك الموت ليقبض روحه، فجاءه بره لوالديه، فرده عنه، ورأيت رجلا من أمتي يكلم المؤمنين، ولا يكلمونه، فجاءته صلة الرحم فقالت: إن هذا كان واصلا لرحمه فكلّمهم وكلّموه، وصار معهم، ورأيت رجلا من أمتي يأتي النبيين وهم حلق، كلما مر على حلقة طرد، فجاءه اغتساله من الجنابة فأخذ بيده فأجلسه إلى جنبي، ورأيت رجلا من أمتي يتقي وهج^(١) النار بيديه عن وجهه، فجاءته صدقته فصارت ظلا على رأسه، وسترا عن وجهه، ورأيت رجلا من أمتي جاءته زبانية العذاب فجاءه أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر، فاستقذه من ذلك، ورأيت رجلا من أمتي جاثيا على ركبتيه، وبينه وبين الله عز وجل حجاب، فجاءه حسن خلقه، فأخذ بيده، فأدخله على الله عز وجل، ورأيت رجلا من أمتي هوى في النار، فجاءته دموعه التي بكى بها في الدنيا من خشية الله، فأخرجته من النار، ورأيت رجلا من أمتي قد هوت صحيفته إلى شماله، فجاءه خوفه من الله تعالى، فأخذ صحيفته، فجعلها يمينه، ورأيت رجلا من أمتي قد خف ميزانه، فجاءه أفراده^(٢) فنقلوا ميزانه، ورأيت رجلا من أمتي على شفير^(٣) جهنم، فجاءه وجهه من الله عز وجل فاستقذه من ذلك، ورأيت رجلا من أمتي يرعد كما ترعد السّعة^(٤) فجاءه حسن ظنه بالله تعالى، فسكن رعدته، ورأيت رجلا من أمتي يزحف على الصراط مرة، ويحبو مرة، فجاءته صلاته علي فأخذت بيده، فأقامته على الصراط حتى جاز، ورأيت رجلا من أمتي انتهى إلى أبواب الجنة، فغلقت الأبواب دونه، فجاءته شهادة أن لا إله إلا الله، فأخذت بيده، فأدخلته الجنة^(٥).

(١) الوهج فتح الهاء: حر النار. انظر مختار الصحاح ص ٧٣٨ مادة (وهج).

(٢) الأفراد: جمع فرط بالتحريك، وهو الولد الذي مات صغيرا. انظر مختار الصحاح ص ٤٩٩ مادة (فرط).

(٣) الشفير: هو الحافة، والشاطئ، والوادي. انظر مختار الصحاح ص ٣٤١ مادة (ش - ف - ر).

(٤) السعة: غصن التخل. انظر مختار الصحاح ص ٣٠٠ مادة (سغ).

(٥) أورده الهشمي في مجمع الزوائد ١٧٩/٧، وقال: رواه الطبراني في الكبير بإسنادين: أحدهما فيه سليمان بن أحمد الواسطي. والثاني: فيه خالد بن عبد الرحمن المخزومي، وكلاهما ضعيف. وأورده السيوطي في الجامع الكبير ٣١٧/١، ورمز له بالضعف، كما ضعفه الشيخ الألباني. انظر ضعيف الجامع الصغير وزيادته ص ٣٠٠ برقم ٢٠٨٦.

ووجدت له طريقا ليس فيها هذان المتكلم فيهما، ذكرهما أسلم بن سهل الرزاز الواسطي المعروف ببششل. انظر تاريخ واسط لبششل ١٦٩/٢، وقد قال الإمام الذهبي عن بششل هذا: (هو الحافظ الصدوق المحدث، مؤرخ مدينة واسط، وصاحب التصانيف) سير أعلام النبلاء ٥٥٣/١٣، وتذكرة الحفاظ ٦٦٤/٢ =

لا ريب أن العبادات المشروعة الظاهرة، والباطنة، كلها صالحة لأن تكون واسطة بين العباد وربهم؛ بشرط أن تكون تلك العبادات صالحة، وخالصة، ومقبولة لدى المولى الكريم. يقول الإمام القرطبي: (هذا لمن أخلص في عمله، وصدق الله في قوله، وفعله،

= وقال ابن القيم: هذا حديث عظيم، شريف القدر ينبغي لكل مسلم أن يحفظه لعموم فائدته، وحاجة الخلق إليه، وقد رواه الحافظ أبو موسى المديني في كتاب الترغيب في الخصال المنجية، والترهيب من الخلال المردية) وبني كتابه عليه وجعله شرحا له، وقال: هذا حديث حسن جدا، وكان شيخ الإسلام ابن تيمية يعظم شأن هذا الحديث، ويلغني عنه أنه كان يقول: شواهد الصحة بادية عليه. انظر الوابل الصيب ص ١٦٩ وأورده السخاوي في القول البديع ص ١٢٤، وقال: أخرجه الطبراني في الكبير، والديلمي في مسند الفردوس، وابن شاذان في مشيخته، وفي سننه علي بن زيد بن جدعان وهو مختلف فيه، ورواه الطبراني من غير طريقه بسند ضعيف، وقال الرشيد العطار في رواية أبي موسى المديني هذه أحسن طرقه. وأخرجه التميمي وغيره مطولا، وكذا الباغيان في فوائده عن أبي عمرو بن منده بسنده إلى مجاهد عن عبد الرحمن بن سمرة، وقال: غريب. وأخرجه القاضي أبو يعلى في كتاب إبطال التأويلات لأخبار الصفات. وأخرجه الحافظ بن شاهين في الترغيب في فضائل الأعمال وثواب ذلك ٢/٤٠٣ برقم ٥٢٦، وسكت عنه. وقال القرطبي: هذا حديث عظيم ذكر فيه أعمالا خاصة تنجي من أهوال خاصة لكنه فيمن أخلص لله تعالى في عمله، وصدق الله في قوله، وفعله، وأحسن نيته. انظر التذكرة ص ٤٠٤

وقال المناوي: قال جمع من العلماء: هذا الحديث أصل من أصول الإسلام فينبغي حفظه، واستحضاره، والعمل عليه مع الإخلاص؛ فإنه الذي فيه الخلاص، وقال ابن القيم: كان شيخنا يعظم أمر هذا الحديث، ويفخم شأنه، ويعجب به، ويقول: أصول السنة تشهد له، وروني كلام النبوة يلوح عليه. ثم قال المناوي: وهو من أحسن الأحاديث الطوال، وليس من دأب المصنف إيرادها في هذا الكتاب، لكنه لكثرة فوائده، وتنوع فرائده، وأخذ بالقلوب، اقتحم مخالفة طريقه فأورده إعجابا بحسنه، وحرصا على النفع به؛ ولهذا لما أورده الديلمي في الفردوس استشعر الاعتراض على نفسه فاعتذر بنحو ذلك. انظر فيض القدير ٣/٢٥، ثم نقل المناوي عن ابن الجوزي أنه نقل الحديث من طريق الضعيف، وبعد أن حكم بضعفه علق عليه بقوله: (لكن قال ابن تيمية: أصول السنة تشهد له، وإذا اتبعت متفرقات شواهد رأيت منها كثيرا) فيض القدير ٣/٢٦

ووجدت لهذا الحديث شاهدا من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (إن الميت يسمع خفق نعالهم إذا ولوا مدبرين، فإن كان مؤمنا كانت الصلاة عند رأسه، وكان الصوم عن يمينه، وكانت الزكاة عن يساره، وكان فعل الخيرات من الصدقة، والصلاة، والصلة، والمعروف، والإحسان إلى الناس عند رجله، فيؤتى من قبل رأسه، فتقول الصلاة: ما قبلي مدخل، ويؤتى عن يمينه، فيقول الصوم: ما قبلي مدخل، فيؤتى عن يساره، فتقول الزكاة: ما قبلي مدخل، ويؤتى من قبل رجله، فيقول فعل الخيرات: ما قبلي مدخل. فيقال له: أقعد، فيقعد، وتمثل له الشمس قد دنت للغروب... الحديث أخرجه عبد الرزاق في المصنف برقم ٦٧٠٣، وابن أبي شيبه في المصنف ٣/٣٨٣، والحاكم في المستدرک ١/٣٧٩، وصححه، ووافقه الذهبي، وأورده البيهقي في الاعتقاد ص ١٠٨، والمنذري في الترغيب والترهيب ٦/١٦٨ قال العراقي: وصححه الإمام أحمد. انظر تخريج أحاديث إحياء علوم الدين ٤/١٨٧٤ برقم ٢٩٧٦

وأحسن نيته له في سره، وجهره، فهو الذي تكون أعماله حجة له، ودافعة عنه^(١). وإذا كان القصد من التوسط هو الوصول إلى مرضاة الله تعالى، ومغفرته، والقرب منه، وحصول صنوف الخيرات بسبب ذلك؛ فإن العبادة الصالحة، والعمل الحسن، والطاعة المقبولة تقرب العبد من الله تعالى، وتكون سببا في مرضاته، ومغفرته، وتحقيق كل سعادة، وخير، فلا حاجة إلى توسط غير العبادة، والحالة هذه؛ إذ العبادة صلة مؤكدة، والتوسط نوعير كما قيل^(٢).

إذا ما أتيت الأمر من غير بابه ضللت وإن تقصد إلى الباب تهتدي

فمن لم تكن عبادته خالصة، صالحة، أو دخلها ما يفسدها من المفسدات؛ كالرياء، أو العجب، أو مخالفة السنة؛ فإن هذه العبادة لا تصلح أن تكون واسطة بين العبد وربّه؛ لأنها غير مقبولة، فهي غير موصلة، وغير شافعة؛ لأن الله تعالى لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصا لوجهه الكريم. يقول العلامة ابن القيم: (والمقبول من العمل قسمان: أحدهما: أن يصلي العبد، ويعمل سائر الطاعات، وقلبه متعلق بالله عز وجل، ذاكرًا لله عز وجل على الدوام، فأعمال هذا العبد تعرض على الله عز وجل حتى تقف قبالة فينظر الله عز وجل إليها؛ فإذا نظر إليها رآها خالصة لوجهه مرضية، وقد صدرت عن قلب سليم، مخلص، محب لله عز وجل، متقرب إليه، أحبها، ورضيها، وقبلها)^(٣). ثم ذكر القسم الثاني: وهي الأعمال التي يعملها العبد على العادة، والغفلة^(٤).

(١) التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة ص ١٦١

(٢) هذا البيت أورده الماوردي في أدب الوزير المعروف بقوانين الوزارة ص ١٩ .

(٣) الوابل الصيب ص ٣٩، وانظر الصلاة ومقاصدها للحكيم الترمذي ص ٣٤

(٤) انظر المرجع نفسه، والموضع بعينه.

المبحث الثالث

صورة الواسطة في الدعاء

تقدم معنا في المبحث السابق أن العبادة الشرعية الصحيحة، والعمل الحسن المقبول واسطة بين العابد وربّه عز وجل، وأن جميع العبادات الظاهرة والباطنة التي ثبت بالشرع أن الله تعالى أمر بها في كتابه، أو على لسان رسوله ﷺ صالحة لأن تكون واسطة صحيحة، ولما كان الدعاء من جملة تلك العبادات؛ بل هو رأسها وأساسها، كما ثبت أنه هو العبادة، أو مخها، وسيأتي بيانه، لما كان الأمر كذلك والدعاء، بهذه المنزلة فإنني أردت أن يكون الحديث عنه في هذا المبحث.

فأقول: الدعاء في اللغة: يأتي لعدة معاني أشهرها: الطلب، والسؤال، والعبادة، والرغبة إلى الله تعالى^(١).

وأما في الشرع فهو: (الرغبة إلى الله تعالى، والتوجه إليه في تحقيق المطلوب، أو دفع المكروه، والابتغال إليه في ذلك، إما بالسؤال، أو بالتخضوع، والتذلل، والرجاء، والخوف، والطمع)^(٢).

والدعاء من أهم أنواع العبادة، بل هو العبادة نفسها، كما ثبت في حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (الدعاء: هو العبادة)^(٣)، وفي رواية (الدعاء مخ العبادة)^(٤).

ولأهمية الدعاء في دين الإسلام فقد أمر الله تعالى به، وندب عباده إليه في كثير من آيات الكتاب العزيز، فقال تعالى: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي

(١) انظر المخصص لابن سيده ١٣/٨٨، وتهذيب اللغة للأزهري ٣/١١٩ مادة (دعا)، والتعريفات ص ١٠٤، ولسان العرب ٤/٣٥٩ مادة (دعا).

(٢) الدعاء ومنزلته في العقيدة الإسلامية ١/٤٨، وانظر شأن الدعاء للخطابي ص ٤، ومجموع الفتاوى ١٥/١٠، وبدائع الفوائد ٢/٣، ومعارج الألباب ص ١٩٦.

(٣) رواه أبو داود ٢/٧٦، والبخاري في الأدب المفرد ص ٢٠١، والترمذي في سننه ٥/٣٧٤، وابن ماجه ٢/١٢٥٨، والإمام أحمد في المسند ٤/٢٦٧، وابن حبان في صحيحه ٣/١٧٢ حديث ٨٩٠، والحاكم في المستدرک ١/٤٩٠، وصححه، ووافقه الذهبي.

(٤) رواه الترمذي في سننه ٥/٤٥٦، وفي إسناده ابن لهيعة، وأخرجه الطبراني في الأوسط ١/١٨٢، وقال لم يرو هذا الحديث عن أبان إلا عبيد الله تفرد به ابن لهيعة، كما أخرجه أيضا الطبراني في كتابه الدعاء ٢/٧٨٩ حديث ٨.



سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿١﴾

قال الإمام ابن كثير في معنى الآية : (هذا من فضله تبارك وتعالى ، وكرمه أنه ندب عباده إلى دعائه ، وتكفل لهم بالإجابة) (٢). وقيل معنى الآية : اعبدوني أثبتكم على عبادتكم . وقيل : بل المعنى : اسألوني أعطكم ، ولا منافاة بين القولين ؛ لأن دعاء الله من أنواع العبادة (٣).

وقال تعالى : ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ (٤) ، وقال -أيضا- : ﴿فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربي قريب مجيب﴾ (٥) ، وقال تعالى : ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (٨٣) فاستَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذَكَرْنَاهُ لِلْعَالَمِينَ ﴿٦﴾ ، وقال تعالى : ﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾ (٧) ، وقال تعالى -أيضا- : ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ (٨)

قيل في سبب نزول هذه الآية : إن الحسن البصري قال : سببها أن قوما قالوا للنبي ﷺ : أقرب ربنا فتناجيه؟ أم بعيد فنناديه؟ فنزلت الآية ، وقيل : غير ذلك (٩) ، ومعنى الآية : وإذا سألك الناس عن المعبود فأخبرهم أنه قريب يثيب على الطاعات ، ويجيب الداعي ، ويعلم ما يفعله العبد من العبادات (١٠).

قال بعضهم : والسر في أن الله تعالى لم يقل : فقل إنني قريب في الآية ، كما هي عادة أساليب القرآن في الجواب عن الأسئلة الموجهة للرسول ﷺ السر فيه : الإشارة إلى نفي الواسطة في الدعاء ؛ لأن الدعاء نفسه واسطة مقبولة ، فلم يجعل الله واسطة في الجواب على السؤال ، فكيف بواسطة في الدعاء نفسه؟ (١١) ، وقيل لبعضهم : ادع لي ، فقال :

(١) سورة غافر الآية ٦٠

(٢) تفسير ابن كثير ٩٢/٤

(٣) انظر أضواء البيان ٦٢/٧

(٤) سورة غافر الآية ٦١

(٥) سورة الفرقان الآية ٧٧

(٦) سورة البقرة الآية ١٨٦

(٧) انظر تفسير القرطبي ٣٠٨/٢ ، وأضواء البيان ٩٨/١ (١٠) انظر تفسير القرطبي ٣٠٨/٢

(١١) انظر تفسير الفخر الرازي ٩٨/٥ ، وإتحاف السادة المتقين ٢٨/٥ ، والدعاء ومنزلته في العقيدة الإسلامية ٨٤٤/٢



(كفك من الأجنبية أن تجعل بينك وبينه^(١) واسطة^(٢)).

وكان خالد الربيعي^(٣) رحمه الله يقول: عجبت لهذه الأمة في: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ حيث أمرهم بالدعاء، وتكفل بالإجابة، ولم يشترط بين الأمرين شرطا، كما اشترط الإخلاص في قوله تعالى: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾^(٤)، وكانت الأم تفزع إلى أنبيائها في حوائجهم حتى تسأل الأنبياء لهم ذلك^(٥) إلى غير ذلك من الآيات القرآنية التي تحث المؤمنين على الدعاء، وتبين منزلته عند الله تعالى ومكانته من العقيدة الإسلامية.

وتطفح السنة بالأحاديث الصحيحة في شأن الدعاء وفيها بيان قرب العبد من ربه عز وجل حال الدعاء، وأنه لا يحتاج - والحالة تلك - إلى واسطة بينه وبين ربه تبارك وتعالى، فمن ذلك ما رواه مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فأكثروا من الدعاء)^(٦). وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر يقول: من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له؟)^(٧).

قال الحافظ ابن حجر في شرحه لهذا الحديث: اقتصر في هذا الحديث على هذه المطالب الثلاثة، وهي الدعاء، والسؤال، والاستغفار، والسرف في ذلك: أن المطلوب إما أن يكون لدفع المضار، أو جلب المسار، وذلك إما ديني، وإما دنيوي فيحصل الأول بالاستغفار، ويحصل الثاني بالسؤال، ويحصل الثالث بالدعاء^(٨).

وعن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل، أنه قال: (يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرما، فلا تظالموا، يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم، يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم، يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم، يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر

(١) أي بينك وبين الله تعالى. (٢) الرسالة القشيرية ص ٢٧٠

(٣) هو خالد بن تباب الربيعي الأحذب، ابن أخي صفوان بن محرز، بصري، روى عن شهر بن حوشب، قال الرازي: ترك أبو زرعة خالد الربيعي ولم يقرأ علينا حديثه، انظر: الجرح والتعديل ٣/ ٣٢٢، ولسان الميزان

(٤) سورة غافر الآية ١٤ ٤٣١/٢

(٥) انظر تفسير القرطبي ٢/ ٣٠٩، وتفسير ابن كثير ٤/ ٩٢ (٦) سبق تخريجه.

(٧) رواه البخاري، كتاب التهجد باب الدعاء والصلاة من آخر الليل ٣/ ٢٩ حديث ١١٤٥، ومسلم، كتاب صلاة

المسافرين وصلاة الليل ٦/ ٣٦ (٨) انظر فتح الباري ٣/ ٣١

الذنوب جميعا فاستغفروني أغفر لكم....) الحديث (١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا يدعوني، إن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم، وإن تقرب إلي شبرا تقربت إليه ذراعا، وإن تقرب إلي ذراعا تقربت إليه باعا، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة) (٢). وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (ليس شيء أكرم على الله من الدعاء) (٣). وعن سلمان الفارسي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إن ربكم حيي كريم يستحي من عبده إذا رفع إليه يديه يدعو أن يردهما صفرا ليس فيهما شيء) (٤).

فتبين من مجموع هذه الأحاديث أن الله سبحانه وتعالى أمر بالدعاء، وجعله واسطة الرجاء، فكل خلقه يفرعون في حوائجهم إليه، ويعولون عند الحوادث والكوارث عليه، وحقيقة الدعاء: إظهار افتقار العبد الضعيف إلى مولاه الغني الكريم والتبرؤ من الخول، والقوة، وفيه تتجلى سمة العبودية، ويستشعر العبد ذلته، وضعفه البشري، وهو مظهر الثناء على الله عز وجل، وإضافة الجود، والكرم إليه (٥).

والدعاء داخل في المقدورات العادية (٦)، وهو سلاح المؤمن الذي ينبغي أن لا يفارقه، وترسه الذي يتترس به، وجنته التي تحميه، والله سبحانه وتعالى قريب يسمع دعاء الداعين، ويرى أحوال عباده المقربين الخاضعين لعز ربوبيته، والمنكسرين لألوهيته، والمتلذذين بمقام عبوديته، وهو سبحانه وتعالى لا يحتاج إلى واسطة تبلغه، وترفع الأمر إليه، أو تؤثر في إرادته، أو تعينه، أو تنوب عنه؛ بل دعاء العبد ربه ينفع بنفسه، وإجابته ما

(١) رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب باب تحريم الظلم ١٣٢/١٦

(٢) رواه البخاري، واللفظ له، كتاب التوحيد باب قول الله: ﴿ويحذركم الله نفسه﴾ ٣٨٤/١٣، حديث ٧٤٠٥،

ومسلم، كتاب الذكر والدعاء باب فضل الذكر والدعاء والتقرب إلى الله تعالى ١٢/١٧

(٣) رواه الترمذي وقال: هذا حديث حسن غريب ٤٥٥/٥، وابن ماجه ٢٥٨/٢، وابن حبان انظر موارد الظلمآن

حديث ٢٣٩٧، والحاكم في المستدرک ٣٩٠/١، وصححه ووافقه الذهبي.

(٤) رواه الترمذي وقال: هذا حديث حسن غريب ٥٥٧/٥، وابن ماجه ١٢٧١/٢، وابن حبان انظر

الإحسان ١٦٠/٣، حديث ٨٧٦، وأبو داود حديث ١٤٨٨، والحاكم في المستدرک ٤٩٧/١، وصححه ووافقه

الذهبي، وقال الذهبي: هذا حديث مشهور رواه عن النبي (جمع من الصحابة). انظر العلو ص ٦٣، وأخرجه

الطبراني في الدعاء ص ٨٧٧ (٥) انظر شأن الدعاء ص ٤

(٦) انظر القائد إلى تصحيح العقائد ص ١٠٤

ضية، إن خلا من موانع الإجابة .

ولا يكون الدعاء واسطة صالحة بين العبد وربّه حتى يكون خالصاً لله تعالى كسائر العبادات، وذلك بأن يعلم الداعي علم يقين أن الله الذي يدعوه هو القادر وحده على قضاء حاجته .

وقد عبر الإمام القرطبي عن الإخلاص في الدعاء بقوله : (فمن شروط الداعي أن يكون عالماً بأن لا قادر على حاجته إلا الله، وأن الوسائط^(١) في قبضته ومسخرة بتسخيره، وأن يدعوه بنية صادقة)^(٢) .

وقال ابن أبي العز : (الذي عليه أكثر الخلق من المسلمين وسائر أهل الملل، وغيرهم أن الدعاء من أقوى الأسباب في جلب المنافع، ودفع المضار . . . وإجابة الله لدعاء العبد مسلماً كان أو كافراً، وإعطاؤه سؤاله من جنس رزقه لهم، ونصره لهم، وهو مما توجبه الربوبية للعبد مطلقاً)^(٣) .

وللدعاء أركان، وأجنحة، وأسباب، وأوقات (فإن وافق أركانه قوي، وإن وافق أجنحته طار في السماء، وإن وافق مواقيته فاز بالمطلوب، وإن وافق أسبابه نجحت الأمور، فأركانه : حضور القلب، والرافة، والاستكانة، والخشوع، وأجنحته : الصدق، ومواقيته : الأسحار، وأسبابه : الصلاة على محمد ﷺ)^(٤) .

ولا ريب أن المكثّر لدعاء الله تعالى محبوب عند ربّه تبارك وتعالى ؛ لأنه بالدعاء امثل أوامر الله عز وجل، واعترف بأنه هو الذي يقصد لقضاء الحوائج، ويتناط بدعائه لإنجاح الأمور . ولا ريب أن الاعتراف بذلك والإيمان به هو عين التوحيد الذي هو حق الله على العبيد، بخلاف من يعرض عن سؤال ربّه تعالى ؛ فإنه واقع - لا محالة - في سؤال المخلوقين، ويصبح عند الله ممقوتاً، وعند الناس مكروهاً^(٥)، ولقد أحسن القائل^(٦) :-

(١) لعله يقصد الوسائط غير الشرعية .

(٢) تفسير القرطبي ٢/ ٣١٠، وانظر لمعرفة المزيد من شروط الدعاء : شأن الدعاء ص ١٣، وإحياء علوم الدين ١/ ٣٦٥، والمنهاج في شعب الإيمان للحلي ١/ ٥٣، والجواب الكافي ص ٧

(٣) شرح العقيدة الطحاوية بتحقيق التركي ٢/ ٦٧٦

(٤) تفسير القرطبي ٢/ ٣١١، وانظر شأن الدعاء ص ١٣

(٥) انظر الدعاء في الإسلام وأثره في العقيدة والحياة ص ١٥

(٦) انظر تلخيص كتاب الاستغاثة ١/ ٢٢٣، وتفسير ابن كثير ٤/ ٩٢ ووجدت البيهقي ذكر البيت الثاني في كتابه شعب الإيمان حيث قال : سمعت الأستاذ أبا القاسم بن حبيب المفسر يقول : أخذ الشاعر معنى الحديث : (من لا

يسأل الله يغضب عليه)، ثم ذكره . انظر شعب الإيمان ٢/ ٣٥،

لا تسألن بني آدم حاجة وسل الذي أبوابه لا تحجب
الله يغضب إن تركت سؤاله وبني آدم حين يسأل يغضب

قال طاوس اليماني لعطاء رحمه الله^(١): (يا عطاء: إياك أن تطلب حوائجك إلى من أغلق دونك بابه، وجعل عليها حجاب، وعليك بمن بابه لك مفتوح إلى يوم القيامة، أمرك أن تسأله، ووعدك أن يجيبك)^(٢).

والدعاء من أجل صور الواسطة بين العابد وربّه، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (والدعاء من أجل العبادات، فينبغي للإنسان أن يلزم الأدعية المشروعة؛ فإنها معصومة، كما يتحرى في سائر عباداته الصورة المشروعة؛ فإن هذا هو الصراط المستقيم)^(٣).

وبما أن معتقد أهل السنة والجماعة مبني على الدليل من الكتاب والسنة، فإنهم يرفضون الأسباب غير الشرعية التي يتخذها أهل الأهواء والجهل واسطة بينهم وبين الله تعالى (أما السبب المباح المشروع فكالعبادات الشرعية في حصول الأجر، والثواب، وكالدعاء لله، والاستغاثة به، والتوكل عليه في حصول ما يقدره الله بذلك من المطالب)^(٤) فهو مطلوب وموغب فيه شرعا، وهذا الأمر مما يعلم بالضرورة من دين الإسلام؛ إذ لا يوجد في الإسلام واسطة بين الله وبين عباده من الأنبياء، أو الأولياء، والصالحين (في الخلق، والتدبير، والرزق، والإحياء، والإماتة، وسماع الدعاء، وإجابة الداعي، بل الرسل كلهم، وأتباع الرسل متفقون على أنه لا يعبد إلا الله وحده، فهو الذي يسأل ويعبد، وله يصلى، ويسجد، وهو الذي يجيب دعاء المضطرين، ويكشف الضر عن المضطرين، ويغيث عباده المستغيثين: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(٥) وبهذا يتبين أن المسلمين؛ بل الخنفاء جميعا ليس بينهم وبين الله تعالى واسطة في العبادة، والدعاء، والاستغاثة؛ بل يناجون ربهم، ويدعون، ويعبدونه بلا واسطة)^(٦).

(١) هو عطاء بن أبي رباح كان مولى لأبي ميسرة الفهري، نشأ بمكة، يقال: إنه حج سبعين حجة، وعاش مائة سنة، توفي سنة ١١٥ هـ بمكة المكرمة. انظر شذرات الذهب / ، وطبقات الشعرا ١/ ٣٩
(٢) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء ٨/ ١٤١، والبيهقي في شعب الإيمان ٢/ ٣٥
(٣) تلخيص كتاب الاستغاثة ١/ ١٧٠ (٤) المرجع نفسه ١/ ١٩٤
(٥) سورة فاطر الآية ٣ (٦) الرد على المنطقيين ص ٥٣٧
(٧) تلخيص كتاب الاستغاثة ٢/ ٥٧٢



وما استجلب عبد من الله تعالى ما يحب، واستدفع منه ما يكره، ونال المطلوب، وقربه من علام الغيوب بأعظم من الاشتغال بطاعة الله تعالى، وذكره، وشكره، وحسن عبادته، وهذا هو حقيقة الإيمان، ومظهر ذلك في عبادة الدعاء^(١).

فالدعاء رابطة قوية بين العبد وبارئه، وعبادة مرضية يتقرب بها المخلوق من خالقه جل شأنه، وهو وسيلة صحيحة، وواسطة شرعية^(٢)، يتم فيه اطراح العبد بباب ربه الكريم يسأله قبول طاعته، وقضاء حاجاته، ويتجلى فيه من مظاهر العبودية، والاستسلام للباري جل وعلا، والذل والانكسار له ما لا يظهر في كثير من صور العبادات الأخرى.

ومما يوضح صورة الوساطة في الدعاء: أنه مثل سائر العبادات في الإسلام إذا توافرت فيه شرطاً قبول العمل يصبح عبادة صحيحة، وعملاً صالحاً مقبلاً، وواسطة شرعية تدني الداعي، وتنيله المرام، (وهكذا الدعاء إذا كان صالحاً في نفسه، والداعي قد جمع بين قلبه ولسانه في الضراعة، والخشوع، وقوة التعلق بالله، وصدق اللجوء إليه، وحسن العلاقة مع الله بالإخلاص في المقاصد، وصلاح الأعمال، والتوبة النصوح، أو تقديم حسنة، أو صدقة، ولم يحصل مانع للقبول من الإصرار على ذنب، أو أكل حرام، أو تلبس بمظلمة، فإنه يكون نافعا، ناجحاً، وإن خلا من الضراعة الصحيحة، وصدق اللجوء، وحسن العلاقة، وصدق التوبة، أو حصلت موانع الإجابة تخلفت إجابة الدعاء)^(٣).

ويبين العلامة ابن القيم معنى كون الدعاء مخ العبادة والسر في هذا التشبيه، فيقول: (وحق الداعي أن يستشعر عند دعائه ما يجب عليه اعتقاده مما لا يتم الإيمان إلا به؛ إذ الدعاء مخ العبادة، والمخ لا يكون إلا في عظم، والعظم لا يكون إلا في لحم، فإذا وجب إحضار معتقدات الإيمان عند الدعاء وجب أن يكون الطلب ممزوجاً بالشأن، فمن ثم جاء لفظ الطلب للهداية، والرغبة فيها مشوباً بالخير تصريحاً من الداعي بمعتقدده، وتوسلاً منه بذلك الاعتقاد الصحيح إلى ربه، فكأنه متوسل إليه إيمانه واعتقاده أن صراط الحق هو الصراط المستقيم)^(٤).

(١) انظر فتح الباري لابن رجب ٢٠/١

(٢) انظر مقدمة تحقيق الترغيب في الدعاء للحافظ عبد الغني المقدسي تحقيق فالح الصغير ص ٧٣

(٣) صفوة الآثار والمفاهيم من تفسير القرآن العظيم للشيخ عبد الرحمن الدوسري ١٤٩/٣

(٤) بدائع الفوائد ١١/٢



ومن فوائد الدعاء أنه يستدعي حضور القلب مع الله عز وجل ، وذلك منتهى العبادة التي يحبها الله تعالى ، ويرضاها ، فالدعاء يرد القلب إلى خالقه بالتضرع ، والتذلل ، والاستكانة ؛ ولهذا كان البلاء مصاحبا للأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ثم الأولياء ، ثم الأئمة فالأئمة ؛ لأنه يرد القلب بالافتقار إلى الله عز وجل ، ويمنع نسيانه^(١) .

وقال الألوسي في رده على أهل الأهواء الذين يتخذون من ذوات الأنبياء عليهم السلام ، والأولياء وسائط بينهم وبين الله تعالى ، ومبيناً في الوقت نفسه أن الدعاء واسطة شرعية عند السلف الصالح يقول الألوسي : (وكيف يحسن طريق يؤدي إلى الإشرار ؟ وأنى يليق بالموحدين هذا الوجه المؤدي للارتباك ؟ وهذا طريق سلفنا الصالح ، وهو الاعتقاد الصحيح الراجح ، هذا وإن النبي ﷺ - وأرواحنا له فداء - لا يرضى بما يغضب الرب المتعال ، وكيف لا ، وقد بعث بحماية التوحيد من هذه الأقوال ، والأفعال ؟ وقد ... كان خلقه القرآن ، يرضى لرضاه ، ويسخط لسخطه ، فليس لنا وسيلة إلى الله إلا الدعاء المبني على أصول الذل ، والافتقار ، والثناء ، فهو الوسيلة التي أمرنا الله سبحانه بالتوسل به ، وجعله من أفضل الوسائل وأخبرنا أنه مخ عبادته ، تحقيقاً لعبديتنا ، فسد به عن غيره أبواب الذرائع^(٢) .

فإذا صلى الموحد لله تعالى ، ثم اتجه إلى القبلة^(٣) راغباً إلى الله تعالى وحده بقلب خاشع ونفس منكسرة ، نادماً على ما فرط منه في جنب الله تعالى آملاً من ربه عز وجل قبول توبته ، وتحقيق أمنيته ، ثم رفع يديه إلى مولاه ، مقبلاً عليه بكلية معرضاً عن كل ما سوى الله تعالى من ملك ، أو بشر ، أو حجر ، مستشعراً قرب مولاه ، وأنه في تلك الحالة يراه ، فطوباه ، وطوباه ، وهذه هي الواسطة التي تفيد ، وإلى رحابها ترحل قلوب الموحدين من بعيد ؛ لأن من انقطع إلى بيت الكريم وألقى نفسه عند الباب مسكيناً ذليلاً ، وتعرض لنفحاته في ذلك البيت ، وحوله بكرة وأصيلاً ، فسوف يتحفه الله تعالى وهو أكرم الأكرمين بمن وعطايا ، ولن يخيب سعيه .

(١) انظر إحياء علوم الدين ٤ / ٢٠٢ ، وسلاح المؤمن لابن الإمام ص ٤٢

(٢) غاية الأمان ٢ / ٢٤٥

(٣) ذكر الخليلي أن النبي ﷺ حين أراد الدعاء لأمة بقاء صلى ركعتين ، واستدل على مشروعية الصلاة قبل الدعاء بالآية ﴿فلذا فرغت فانصب وإلى ربك فارغب﴾ سورة الانشراح الآيتان (٧-٨) انظر المنهاج في شعب

الإيمان ١ / ٥٣٤ ، وتفسير ابن كثير ٤ / ٥٦٢

يقول العلامة ابن القيم : (فما خاب من أنزل به حوائجه ، وعلق به آماله ، وأصبح يبابه مقيما ، وبحماه نزيلا)^(١) .

ولاشتمال الدعاء على حضور قلبي لا يوجد في غيره ؛ فإن بعض العبادات مثل : الصلاة ، أو الصوم ، أو الحج ، أو غيرها يغلب على العبد فيها الغفلة ، والشرود ؛ فإذا اشتغل بالدعاء استدعى ذلك منه مزيدا من حضور القلب ؛ ولهذا ورد فيه أنه مخ العبادات دون غيره من العبادات الأخرى ؛ لأن المخ هو المغذي للأعضاء ، والمقوم لاستدامة بقائها ، فما شبه به إلا لأنه يعمل هذا العمل ، وبهذا يتضح أن الدعاء (يفتح بابا عظيما من المحاضرة ، ويجعل الانقياد التام ، والاحتياج إلى رب العالمين في جميع الحالات بين عينيه)^(٢) ، ولهذا ورد الحث على الدعاء ، والإلحاح فيه ، فعن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه كان يقول : **«جَدُوا فِي الدَّعَاءِ ؛ فَإِنَّهُ مِنْ يَكْثُرِ قَرَعَ الْبَابَ يَوْشِكُ أَنْ يَفْتَحَ لَهُ»**^(٣) .

ودعاء المظلوم حال مظلّمته واسطة مقبولة ، لا يحول بينها وبين الله عز وجل حائل ، فعن معاذ بن جبل رضي الله عنه أن النبي **«صَلَّى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»** قال : (... وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ)^(٤) .

وبما أن أشرف مقامات العبد هو إظهار عبوديته ، وطاعته ، ومسكته للباري عز وجل ؛ فإنه ورد أن ربنا تبارك وتعالى يدنو عشية يوم عرفة^(٥) من أهل الموقف ، وهم يدعون الله تعالى ، مخبتين ، منكسرين ، متضرعين ، ثم يباهي بهم الملائكة فيقول : (ما أراد هؤلاء ؟ أشهدكم أنني قد غفرت لهم)^(٦) .

ويقول العلامة ابن القيم : (ويحصل مع دنوه منهم تبارك وتعالى ساعة الإجابة التي لا يُردُّ فيها سائلا يسأل خيرا ، فيقربون منه بدعائه ، والتضرع إليه في تلك الساعة ، ويقرب

(١) مفتاح دار السعادة ٤٧/١

(٢) الدعاء ومزله من العقيدة الإسلامية ٢٩٦/١ ، وانظر بيان حقيقة التوحيد للشيخ صالح الفوزان ص ٣٩
(٣) ذكره ابن أبي شيبه في المصنف ٢٠٢/١٠ حديث ٩٢٢٤ ، وأورده ابن الإمام في سلاح المؤمن في الدعاء والذكر ص ٤١

(٤) رواه البخاري ، تاب الزكاة باب أخذ الصدقة من الأغنياء ٣٥٧/٣ حديث ١٤٩٦
(٥) المكان الذي فيه جبل الرحمة الذي يكون عنده الموقف ، وحدها من الجبل المشرف على بطن عرنة إلى جبال عرفة . انظر معجم البلدان ٤/١٠٤

(٦) رواه مسلم ، كتاب الحج باب فضل يوم عرفة ٩/١١١ بدون زيادة (أشهدكم أنني قد غفرت لهم) فقد رواها أصحاب السنن .

منهم تعالى نوعين من القرب، أحدهما: قرب الإجابة المحققة في تلك الساعة. والثاني: قرب الخصاص من أهل عرفة، ومباهاته بهم ملائكته، فتستشعر قلوب أهل الإيمان هذه الأمور، فتزداد قوة إلى قوتها، وفرحاً، سروراً، وابتهاجا، ورجاء لفضل ربها، وكرمها^(١). والتذلل لله تعالى، وإظهار المسكنة له، والتوبة إليه من موجبات قبول الدعاء، وقد كان النبي ﷺ يأمر به في الاستسقاء^(٢). ولقد أحسن الشاعر في تصوير الدعاء حالة استشعار الداعي بجرائمه، واعترافه بذنوبه حيث يقول^(٣):-

يا رب إن عظمت ذنوبي كثرة فلقد علمت بأن عفوك أعظم
إن كان لا يرجوك إلا محسن فبمن يلوذ ويستجير الجرم؟
أدعوك رب كما أمرت تضرعا فإذا رددت يدي فمن ذا يرحم؟
مالي إليك وسيلة إلا الرجا وجميل عفوك ثم أني مسلم

ويدخل في صورة الوساطة في الدعاء توسل المؤمن إلى الله تعالى بدعاء أخيه المؤمن الحي الحاضر، وقد صحت هذه الصورة من فعل الصحابة رضي الله عنهم؛ حيث كانوا يسألون النبي ﷺ أن يدعو الله لهم بدعاء عام، ودعاء خاص، ففي الصحيحين من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه (أن رجلاً دخل يوم الجمعة من باب كان وجاه المنبر، ورسول الله ﷺ قائم يخطب فاستقبل رسول الله ﷺ قائماً فقال: يا رسول الله هلكت المواشي، وانقطعت السبل فادع الله يغيثنا، قال: فرفع رسول الله ﷺ يديه فقال: (اللهم اسقنا، اللهم اسقنا، اللهم اسقنا) قال أنس: ولا والله ما نرى في السماء من سحابة ولا قرعة^(٤)، ولا شيئاً، وما بيننا وبين سلع^(٥) من بيت ولا دار، قال: فطلعت من ورائه سحابة مثل الترس^(٦)، فلما توسطت السماء انتشرت، ثم أمطرت، قال: والله ما رأينا الشمس

(١) زاد المعاد ١/ ٦٤

(٢) من ذلك تحويل رداءه صلى الله عليه وسلم ورفع يديه، وأمر أمته بذلك، وقيل السر في ذلك هو التفاؤل بتغيير الحال، وقيل هي: علامة بينه وبين ربه عز وجل. انظر فتح الباري ٢/ ٤٩٨

(٣) الأبيات لأبي نواس. انظر ديوانه ص ٦١٨

(٤) قطعة من السحب الخفيفة. انظر: مختار الصحاح ص ٥٣٣، مادة (ق-ز-ع).

(٥) هو جبل يقع وسط المدينة الآن في الناحية الغربية للمسجد النبوي. انظر معجم البلدان ٣/ ٢٣٦

(٦) أي مستديرة. انظر: مختار الصحاح ص ٧٦، مادة (ت ر س).

سبتاً^(١)، ثم دخل رجل من ذلك الباب في الجمعة المقبلة ورسول الله ﷺ قائم يخطب فاستقبله قائماً فقال: يا رسول الله هلكت الأموال، وانقطعت السبل فادع الله بمسكها، قال: فرفع رسول الله ﷺ يديه، ثم قال: اللهم حولينا ولا علينا، اللهم على الآكام، والطراب^(٢) والأودية، ومنابت الشجر، قال: فانقطعت، وخرجنا نمشي في الشمس^(٣). وقد بين الحافظ ابن حجر أن من فوائد هذا الحديث جواز سؤال الدعاء من أهل الخير، ومن يرجى منهم القبول، وإجابتهم لذلك^(٤).

وتحت هذا النوع من التوسل بدعاء الحي الحاضر صورتان: إحداهما: أن يطلب المرء من الحي الحاضر الدعاء، فيستجيب له، ويدعوه له، دون أن يدعو الطالب المتوسل، ومثال هذه الصورة ما حصل من النبي ﷺ من الدعاء للأعرابي في حديث الاستسقاء السابق. وثانيهما: أن يطلب الدعاء من حي حاضر، ثم يدعو هو بنفسه أن يتقبل الله دعاء المتوسِّل به، أو يؤمن على دعائه، وفي هذه الصورة يوجد دعاءان: أحدهما: من الحي الحاضر المطلوب منه الدعاء، والثاني: من المتوسِّل نفسه^(٥).

ويصح في صورة الوساطة في الدعاء أن يتوسل الأفضل بدعاء المفضل، فقد طلب النبي ﷺ من عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يدعو له لما أراد الخروج لأداء العمرة، وطلب عمر رضي الله عنه ومعه السابقون الأولون من العباس بن عبد المطلب الاستسقاء، ومثل ذلك فعل معاوية رضي الله عنه مع يزيد بن الأسود الجرشى^(٦) رحمه الله^(٧)، كما سيأتي تفصيل ذلك.

- (١) في بعض الروايات ستا وفي بعضها سبتا، والمراد به أسبوعا.
- (٢) جمع ظرب وهو الجليل الصغير. انظر: القاموس المحيط ١٠٣/١، مادة (الظرب).
- (٣) رواه البخاري، كتاب الاستسقاء باب الاستسقاء في المسجد الجامع ٥٠١/٢ حديث ١٠١٣، ومسلم، كتاب صلاة الاستسقاء باب رفع اليدين في الاستسقاء ١٩١/٦.
- (٤) انظر فتح الباري ٥٠٦/٢، وإقامة البراهين على حكم من استغاث بغير الله أو صدق الكهنة والعرافين لسماحة الشيخ ابن باز ص ١٥.
- (٥) انظر قاعدة جلية في التوسل والوسيلة ص ٨١، والتوصل إلى حقيقة التوسل ص ١٣٣، وصيانة الإنسان ص ٢٠٥، ومجموع فتاوى ورسائل الشيخ ابن عثيمين ٢٨٦/٥، والتوسل أنواعه وأحكامه للألباني ص ٤٠.
- (٦) هو يزيد بن الأسود الجرشى من سادة التابعين بالشام، كان يسكن الغوطة بدمشق، أسلم في حياة النبي ﷺ، كان من الزهاد العابدين الصالحين، استسقى به معاوية، والضحاك بن قيس رضي الله عنهما لما أصاب الناس القحط فسقوا، كانت وفاته سنة ٧١هـ. انظر المعرفة والتاريخ ٣٨٠/٢، وتهذيب الأسماء واللغات ١٦١/٢، وسير أعلام النبلاء ١٣٦/٤.
- (٧) انظر التوصل إلى حقيقة التوسل ص ١٦٥، والتوسل أنواعه وأحكامه للألباني ص ٤٣.



ولا ريب أن الوساطة في الدعاء لا يكون لها أثرها الإيجابي إلا بشرط أن يكون الدعاء جامعاً لشرائط الصحة، والقبول، خالصاً من موانع الإجابة؛ بخلاف الدعاء الذي يصدر من الساهين اللاهين الذين لا يعملون صالحاً؛ فإن هذا دعاء يحمل في طياته مانعاً من موانع الإجابة، ويصدق عليه - والحالة هذه - ما قاله وهب بن منبه: (مثل الذي يدعو بغير عمل كمثل الذي يرمي بغير وتر)^(١). والله أعلم.

(١) سبق تخريجه .



المبحث الرابع

صورة الوساطة في التوسل المشروع

المطلب الأول: التوسل في اللغة والشرع.

أولاً: التوسل في اللغة: التوسل مصدر لتوسل يقال: توسلت إلى فلان بكذا، أي: تقربت إليه بذلك الشيء، وتوسلت إلى الله وسيلة: أي: عملت عملاً أتقرب به إليه، فمعناه التقرب، ويأتي -أيضاً- بمعنى: الرغبة، والطلب، يقال: وسل فهو واسل أي: رغب فهو راغب إلى الله تعالى، ومنه قول الشاعر^(١):-

أرى الناس لا يدرون ما قدر أمرهم بلى كل ذي دين^(٢) إلى الله واسل

ويقال أيضاً: وسل فلان إلى ربه وسيلة، بمعنى أنه عمل عملاً تقرب به إليه، ومنه قول عنترة^(٣) الشاعر^(٤):-

إن الرجال لهم إليك وسيلة إن يأخذوك تكحلي وتخصني

يعني بالوسيلة: القرية، وفيها معنى الرغبة، والحاجة، قال الراغب الأصفهاني: (الوسيلة: التوصل إلى الشيء برغبة، وهي أخص من الوصلة لتضمنها معنى الرغبة)^(٥) قال الشاعر^(٦):-

إذا غفل الواشون عدنا لوصلنا وعاد التصافي بيننا والوسائل

وتطلق الوسيلة على المنزلة العلية عند الملك، ومنه الحديث: (اللهم رب هذه الدعوة التامة، والصلاة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة...)^(٧)، ثم فسرت في الحديث الآخر (...ثم سلوا الله لي الوسيلة؛ فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن

(١) البيت للبيد بن ربيعة العامري، انظر ديوانه طبعة دار صادر ص ١٣٢

(٢) رواية الديوان (بلى كل ذي لب) والمثبت هو رواية أصحاب المعاجم اللغوية.

(٣) هو عنترة بن شداد بن عمرو بن معاوية العبسي الشاعر، من أهل نجد، كان من فرسان العرب في الجاهلية، أمه حبشية اسمها زبيبة، وسرى إليه السواد منها، أحب ابنة عمه عبلة، شهد حرب داحس والغبراء، قتله الأسد الرهيب، وجبار بن عمرو الطائي، مات سنة ٢٢ قبل الهجرة، انظر: معجم الشعراء للمرزباني ص ١٥١، والأعلام ٥/ ٢٦٩

(٤) انظر ديوان عنترة طبعة دار صادر ص ٣٣

(٥) المفردات ص ٥٢٣، وانظر تفسير ابن كثير ٥/ ٥٥

(٦) انظر تهذيب اللغة ١٣/ ٦٧، وتاج العروس ٨/ ١٥٤

(٧) رواه البخاري، كتاب الأذان باب الدعاء عند النداء ٩٤/ ٢ حديث ٦١٤



سأل الله لي الوسيلة حلت له الشفاعة^(١).

وقد ذكر الحافظ ابن حجر أنه يمكن رد معنى المنزلة -هنا- إلى القرية؛ وذلك لأن (الواصل إلى المنزلة قريب من الله فتكون كالقرية التي يتوسل بها)^(٢).

وجمع التوسل: توسلات، وتجمع الوسيلة على وزن فعائل، وسائل، وعلى فُعْل بضميتين: وُسُل، وعلى فَعِيل: وسيل^(٣)، فتحصل من هذا أن التوسل يطلق في اللغة على الأمور التالية:-

- ١- القرية
- ٢- الحاجة.
- ٣- الرغبة.
- ٤- المنزلة.

وهذه المعاني اللغوية للوسيلة متداخلة، ومتلازمة، فالقرية، والرغبة، والحاجة، والمنزلة قرائب في المعنى، ويستلزم بعضها بعضاً، ونذكر من هذا أن التوسل في اللغة قريب المعنى من التوسل في الشرع؛ ولهذا قال الراغب الأصفهاني: (حقيقة الوسيلة إلى الله: مراعاة سبيله بالعلم، والعبادة، وتحري مكارم الشريعة، وهي كالقرية)^(٤).

فالتوسل في القرآن العظيم، وكلام النبي المعصوم^(٥)، وعند العلماء اللغويين، والمحدثين، والمفسرين إنما هو التقرب إلى الله رب العالمين بما شرعه على لسان خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم^(٥).

ثانياً: التوسل في الشرع.

وأما التوسل في الشرع فهو أيضاً مأخوذ من هذا المعنى اللغوي فهو: التقرب إلى الله تعالى بالإيمان بنبيه ﷺ وبطاعته، أو بدعائه، وشفاعته عليه الصلاة والسلام^(٦). ومعنى ذلك: (التقرب إلى الله بطاعته، وعبادته، واتباع أنبيائه، ورسله، وبكل عمل يحبه الله،

(١) رواه مسلم، كتاب الصلاة باب استحباب القول مثل قول المؤذن لمن سمعه ٨٥/٤

(٢) فتح الباري ٩٥/٢

(٣) انظر العين للخليل بن أحمد الفراهيدي ٢٩٨/٧، وتهذيب اللغة للأزهري ٦٧/١٣ مادة (وسل) ومعجم مقاييس اللغة ١١٠/٦ مادة (وسل)، ومجمل اللغة لابن فارس ٩٢٥/٤ مادة (وسل) ولسان العرب ٣٠١/١٥

مادة (وسل) والنهاية لابن الأثير ١٨٥/٥، والتعريفات ص ٢٥٢، والمفردات ص ٥٢٣

(٤) المفردات ص ٥٢٤ (٥) انظر القول الجلي في حكم التوسل بالنبي والولي ص ١٨

(٦) انظر قاعدة جلية في التوسل والوسيلة ص ٨١، والتوسل أنواعه وأحكامه للشيخ الألباني رحمه الله ص ١٤



ويرضاه^(١). فالتوسل المشروع الذي شرعه الله تعالى على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم (إنما هو التقرب إلى الله تعالى بما شرعه على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم من علم، أو عمل قلبي أو بدني، أو ترك، وكف عن عمل محظور، فيدخل فيه جميع الطاعات، وترك جميع المعاصي امتثالاً لأمر الشارع)^(٢).

يقول الشيخ ابن عثيمين: (التوسل المشروع: عبادة يراد بها التوصل إلى رضوان الله، والجنة، ولهذا نقول: جميع العبادات وسيلة إلى النجاة من النار، ودخول الجنة)^(٣).

فالتوسل الصحيح: هو الطلب من الله تعالى بواسطة مشروعة، كقولك مثلاً: اللهم بحبك، وحبنا لنبيك ﷺ وحبنا لأوليائك فرج كربنا، واشف مريضنا، والوسيلة المشروعة: هي فعل ما يتقرب به إلى الله تعالى من الطاعات، واجتناب المعاصي، والتوسل: هو ابتغاء الوسيلة الصالحة إلى الله، أي الاجتهاد في فعل ما يتقرب به إلى الله تعالى، وعلى هذا فتوحيد الله سبحانه وتعالى وسيلة، والشهادة للنبي ﷺ بالرسالة وسيلة، وإقام الصلاة وسيلة، وإيتاء الزكاة وسيلة، وأداء الفرائض وسيلة، واجتناب المحرمات وسيلة، وإمالة الأذى عن الطريق وسيلة، وجميع شعب الإيمان وسائل تقرب إلى الله تعالى، وتدني من رحمته^(٤).

المطلب الثاني: صورة الوساطة في التوسل المشروع، قسم المحققون من العلماء التوسل إلى قسمين: -

القسم الأول: توسل مشروع، وهو ما كان بوسيلة جاءت بها الشريعة.

القسم الثاني: توسل ممنوع، وهو التوسل إلى الله تعالى بما لم يثبت في الشرع أنه وسيلة صحيحة. وهذا النوع من التوسل سوف نتناوله بالحديث عند بياننا للوساطة بين الله وخلقه عند أهل الأهواء في الباب الثاني.

أما القسم الأول: وهو التوسل المشروع، فهو كل توسل شرعه الله تعالى في كتابه

(٢) القول الجلي ص ٢٨

(١) التوصل إلى حقيقة التوسل ص ٢٠

(٣) مجموع فتاوى ورسائل الشيخ ابن عثيمين ٢٧٩/٥، وانظر التوسل حكمه وأقسامه للشيخ ابن عثيمين والعلامة الألباني جمع أبي لوز ص ٩

(٤) انظر الوسيلة لأبي الوفاء ص ٢٨، ومجموع فتاوى ورسائل الشيخ ابن عثيمين ٢٧٩/٥

وحشنا عليه ، وبينه لنا رسوله الأمين ﷺ أي (ما كان موافقا لما شرع الله من التقرب إليه بالطاعات ، والأعمال الصالحة التي يحبها الله ويرضاها ، ولا يحب ولا يرضى إلا الذي أمر به)^(١) . أي : التوسل إلى الله تعالى بالوسيلة الصحيحة الموصلة إلى المطلوب ؛ ولا يكون ذلك إلا بوسيلة مقبولة جاءت بها الشريعة^(٢) .

والتوسل المشروع أنواع : فمن العلماء من أوصلها إلى سبعة^(٣) ، ومنهم من أوصلها إلى ستة^(٤) ، وعند التأمل ترجع تلك الأنواع المشروعة إلى ثلاثة :-

أولاً : التوسل بأسماء الله الحسنى وصفاته العليا .

ثانياً : التوسل إلى الله تعالى بدعاء الرجل الصالح الذي ترجى إجابة دعائه ، وهذا النوع سبقت الإشارة إليه في بيان صورة الوسطة في الدعاء في المبحث السابق .

ثالثاً : التوسل إلى الله تعالى بالعمل الصالح ، وهذا النوع سنأتي على توضيحه في بيان صورة الوسطة في العمل الصالح .

فالتوسل إلى الله تعالى باسم من أسمائه الحسنى ، أو صفة من صفاته العليا أمر مشروع ، وذلك مثل قول المسلم في دعائه : (اللهم إني أسألك بألك أنت الرحمن الرحيم أسألك أن ترحمني) . ومثله : (يا غفار اغفر لي ، يا رزاق ارزقني ، يا نصير انصرني ، يا حفيظ احفظني)^(٥) .

(١) التوصل إلى حقيقة التوسل ص ١٤

(٢) انظر التوسل حكمه وأقسامه للشيخين ابن عثيمين والألباني جمع أبي لوز ص ١٥

(٣) كالشيخ ابن عثيمين رحمه الله وهذه الأنواع السبعة هي :-

أ - التوسل إلى الله تعالى بأسمائه . ب - التوسل إلى الله تعالى بصفاته . ج - التوسل إلى الله تعالى بأفعاله .

د - التوسل إلى الله تعالى بالإيمان به . هـ - التوسل إلى الله تعالى بحال الداعي . و - التوسل بدعاء الرجل الصالح الذي ترجى إجابة دعائه . ز - التوسل إلى الله تعالى بالعمل الصالح . انظر مجموع فتاوى ورسائل ابن عثيمين ٢/ ٣٣٥ وما بعدها .

(٤) مثل الشيخ مبارك الملي ، والشيخ محمد بن بشير السهسواني رحمهما الله وهي عند الثاني كالتالي :-

١ - التوسل بأسماء الله تعالى وصفاته . ٢ - التوسل بالأعمال الصالحة . ٣ - التوسل بتصديق النبي ﷺ والإيمان به . ٤ - التوسل بدعاء النبي ﷺ في حال حياته ، وكذلك بدعاء الصالحين . ٥ - التوسل بإضافة الرب إلى عباده

الصالحين نحو : رب جبريل إلخ . ٦ - التوسل بالصلاة على النبي ﷺ . انظر صيانة الإنسان ص ٢٠٣ وما

بعدها ، ورسالة الشرك ومظاهره ص ٢٠٢

(٥) انظر تفسير القرطبي ٧/ ٣٢٧

والدليل على مشروعية هذا النوع من التوسل قوله عز وجل: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾^(١)، والمعنى: (ادعوا الله تعالى متوسلين إليه بأسمائه الحسنى، ولا شك أن صفاته العليا عز وجل داخلة في هذا الطلب؛ لأن أسمائه الحسنى سبحانه صفات له خصت به تبارك وتعالى)^(٢)، والتوسل إلى الله تعالى بأسمائه، وصفاته يأتي على وجهين: -

الوجه الأول: التوسل إلى الله تعالى بأسمائه، وصفاته على سبيل العموم: مثال الأسماء، ما ثبت في الحديث الصحيح عن ابن مسعود رضي الله عنه في دعاء الهم والغم (اللهم إني عبدك وابن عبدك، وابن أمتك ناصيتي بيدك، ماض في حكمك، عدل في قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو علمته أحدا من خلقك، أو أنزلته في كتابك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي)^(٣)، فالشاهد من الحديث قوله: (أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك).

ومثال الصفات على سبيل العموم أن يقول الداعي: (اللهم إني أسألك بأسمائك الحسنى وصفاتك العليا أن تشفيني، وتوفقي، وتسدد خطاي) فهذا توسل صحيح^(٤).

وأما الوجه الثاني: فهو التوسل إلى الله تعالى باسم خاص، أو صفة خاصة، مثال الاسم الخاص أن تقول: (يا غفور اغفرلي، يا رحيم ارحمني، اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني)، ومثاله أيضا ما جاء في حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه حيث طلب من النبي ﷺ دعاء يدعو به في صلاته فقال: (قل اللهم إني ظلمت نفسي ظلما كثيرا ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفرلي مغفرة من عندك، وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم)^(٥). ففي هذا الحديث التوسل إلى الله تعالى باسمين من أسمائه الحسنى مناسيين للمطلوب، أولا هما: الغفور، والرحيم^(٦).

(١) سورة الأعراف الآية ١٨٠ (٢) التوسل أنواعه وأحكامه للألباني ص ٣١

(٣) رواه أحمد في المسند ٣٩١/١ قال محققه أحمد شاكر: إسناده صحيح، ورواه الحاكم في المستدرک ١/٥٠٩، وصححه الشيخ الألباني. انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ١/٣٣٦ برقم ١٩٩

(٤) انظر مدارج السالكين ١/٢٤، والتوسل حكمه وأقسامه للشيخين ابن عثيمين والألباني جمع أبي لوز ص ١٧

(٥) رواه البخاري، كتاب الأذان باب الدعاء قبل السلام ٣١٧/٢ حديث ٨٣٤، ومسلم، كتاب الذكر والدعاء باب استحباب خفض الصوت بالذكر ١٧/٢٧

(٦) انظر فقه العبادات للشيخ ابن عثيمين ص ٨٩، والتوسل حكمه وأقسامه للشيخين ابن عثيمين والألباني جمع أبي لوز ص ١٧

ومن هذا النوع أيضا أن النبي ﷺ سمع رجلا يقول في شهادته (اللهم إني أسألك يا الله الواحد الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد أن تغفر لي ذنوبي، إنك أنت الغفور الرحيم) فقال صلى الله عليه وسلم : (قد غفر له، قد غفر له)^(١).

ومن هذه الأدلة : ما ذكره الله تعالى من دعاء سليمان على نبينا وعليه الصلاة والسلام حيث قال : ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾^(٢)، فتوسل برحمة الله تعالى التي هي صفة من صفاته تعالى .

ومن أدلة هذا النوع -أيضا- أن النبي ﷺ كان يكثر في دعائه من قوله : (يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث)^(٣).

وأما مثال التوسل إلى الله تعالى بصفة خاصة من صفاته جل وعلا فهو ما جاء في الحديث الآخر : (اللهم إني أعوذ بعزتك لا إله إلا أنت أن تضلني)^(٤)، ففي هذا الحديث توسل بصفة من صفات الله وهي (عزة الله) ومثل ذلك أيضا ما ورد في الحديث : (اللهم بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلق أحيني ما علمت الحياة خيرا لي، وتفني إذا علمت الوفاة خيرا لي)^(٥)، فهذا توسل إلى الله تعالى بصفتي : العلم، والقدرة) وهما مناسبتان للمطلوب^(٦).

يقول الشيخ الألباني : (فهذه الأحاديث وما شابهها تبين مشروعية التوسل إلى الله تعالى باسم من أسمائه، أو صفة من صفاته، وأن ذلك مما يحبه الله سبحانه، ويرضاه ؛ ولذلك استعمله رسول الله ﷺ، وقد قال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ ﴾

(١) رواه أبو داود في سننه ٦٠٢/١، والنسائي في سننه ٥٢/٣، وأحمد في المسند ٣٣٨/٤، وصححه الشيخ

الألباني، انظر التوسل للألباني ص ٣٢ (٢) سورة النمل الآية ١٩

(٣) أخرجه الترمذي في سننه ٥٣٨/٥، والحاكم في المستدرک ٥٠٩/١، وصححه الشيخ الألباني، انظر صحيح

سنن الترمذي برقم ٢٧٩٦، والتوسل للألباني ص ٣٣

(٤) رواه البخاري، كتاب التوحيد باب قول الله تعالى ﴿ وهو العزيز الحكيم ﴾ ٣٦٨/١٣ حديث ٧٣٨٣،

ومسلم، انظر صحيح مسلم بشرح النووي كتاب الذكر والدعاء باب في الأدعية ٣٩/١٧ - واللفظ لمسلم.

(٥) رواه البخاري، كتاب المرضى باب غني المريض الموت ١٢٧/١٠ حديث ٥٦٧١، ومسلم، كتاب الذكر والدعاء

باب كراهة غني الموت ٧/١٧ من غير زيادة (بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق) فيهما، والزيادة عند

النسائي ٥٤/٣، والحاكم ٥٢٤/١، ووافقه الذهبي، وصححها الألباني، انظر التوسل له ص ٣٢

(٦) انظر التوسل للألباني ص ٣٢، ومجموع فتاوى ورسائل الشيخ ابن عثيمين ٢٨١/٥

فَعَزُّوهُ^(١)، فكان من المشروع لنا أن ندعوه سبحانه بما دعاه به رسوله ﷺ، فذلك خير ألف مرة من الدعاء بأدعية ننشئها وصيغ نخترعها^(٢).

ويدخل تحت التوسل بأسماء الله تعالى وصفاته التوسل بإضافة اسم الرب جل وعلا إلى عباده الصالحين؛ كما جاء في حديث عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي ﷺ إذا قام من الليل افتتح صلاته بقوله: (اللهم رب جبرائيل، وميكائيل، وإسرافيل، فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم)^(٣).

فدل هذا الحديث على أن هذا الدعاء توسل بأسماء الله الحسنى وصفاته العليا: من ربوبيته للملائكة المقربين، وخلقه للسماوات والأرضين، وعلمه للغيب، والشهادة^(٤).

ومن التوسل بأسماء الله تعالى وصفاته ما ورد في سورة الفاتحة، فقد جمعت الفاتحة دعاء الله تعالى بوسيلتين، ألا وهما: التوسل بحمد الله، والثناء عليه، وتمجيده، والتوسل إليه بعبوديته، وتوحيده.

يقول العلامة ابن القيم: (ولما كان سؤال الله الهداية إلى الصراط المستقيم أجل المطالب، ونيله أشرف المواهب، علم عباده كيفية سؤاله، وأمرهم أن يقدموا بين يديه حمده، والثناء عليه، وتمجيده، ثم ذكر عبوديتهم وتوحيدهم، فهاتان وسيلتان إلى مطلوبهم: توسل إليه بأسمائه وصفاته، وتوسل إليه بعبوديته، وهاتان الوسيلتان لا يكاد يرد معهما الدعاء)^(٥).

فهذه التوسلات المشروعة، وما تلاها من الأدعية النافعة، بالإضافة إلى أنها تقرب إلى الرب تبارك وتعالى، ودعاء له، ورغبة إليه، فهي بلا شك تعليم من النبي ﷺ لأمته حتى تقتفي أثره، وحض لها حتى تقتدي بفعله، وتهتدي بهداه؛ فإن خير الهدى هدى النبي محمد ﷺ، وأنفع التوسل توسل النبي عليه الصلاة والسلام^(٦).

(١) سورة الحشر الآية ٨

(٢) التوسل للألباني ص ٣٤، وانظر الإنصاف في حقيقة الأولياء وما لهم من الكرمات والألطف للأمير الصنعاني ص ٤٨

(٣) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها باب صلاة النبي (ودعائه بالليل ٥٦/٦

(٤) انظر رسالة الشرك ومظاهره للميلي ص ٢٠٣، والدعاء ومنزلته في العقيدة الإسلامية ٧٣٥/٢

(٥) مدارج السالكين ١/٢٣، وانظر التفسير القيم له أيضا ص ٢٣

(٦) انظر التوصل إلى حقيقة التوسل ص ٣٧، والبدعة وأثرها السيء في الأمة لسليم الهلالي ص ١٧

ومن ذلك الأبيات المشهورة المنسوبة لأبي القاسم السهيلي^(١) رحمه الله التي يقول فيها^(٢):-

يا من يرى ما في الضمير ويسمع	أنت المعد لكل ما يتوقع
يا من يرجئ للشدائد كلها	يا من إليه المشتكى والمفزع
يا من خزائن رزقه في قول "كن"	امن فإن الخير عندك أجمع
مالي سوى فقري إليك وسيلة	فبالافتقار إليك فقري أدفع
مالي سوى قرعي لبابك حيلة	فلئن رددت فأني باب أقرع؟
ومن الذي أدعو وأهتف باسمه	إن كان فضلك عن فقيرك يمنع؟
حاشا لمجدك أن تقنط عاصيا	الفضل أجزل والمواهب أوسع

وقال آخر - متوسلا إلى الله تعالى بأسمائه الحسنى ، ومستغيثا بها^(٣) :-

بأسمائك الحسنى دعوتك سيدي	وجئت بها يا خالقي متوسلا
ومبتهلا ربي إليك بفضلها	وأرجو بها كل الأمور مسهلا
فقابل إلهي بالرضا منك واكفني	صروف زماني مكثرا ومقللا

فسؤال الله جل وعلا ، والتوسل إليه بأسمائه ، وصفاته واسطة شرعية مقبولة ، وهذا النوع من التوسل يدخل في باب التسبب المباح في الدين ، فكونه المحمود المنان يقتضي منه على عباده ، وإحسانه الذي يحمد عليه ، وكونه الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد يقتضي توحيده في صمديته ، فيكون هو السيد الكامل في سؤده المقصود بالخواارج المستغني عما سواه ، وكل ما سواه مفتقرون إليه لا غنى بهم عنه ، وهذا سبب لقضاء الحاجات ، وتحقيق الأمنيات^(٤) ، وقس على ذلك ما تضيء به بقية أسمائه ، وصفاته جل في علاه .

(١) هو أبو القاسم عبدالرحمن بن عبدالله بن أحمد بن أصبغ الخثعمي السهيلي الأندلسي المالكي الضرير ، محدث حافظ ، من أهل النحو والتاريخ ، ولد بسهيل بالأندلس سنة ٥٠٨ هـ ، وقيل : غير ذلك ، تتلمذ على ابن العربي فنبغ حتى اشتهر فطلبه والي مراکش وأقام عند حتى توفي بمراكش سنة ٥٨١ هـ ، انظر وفيات الأعيان ١/٣٥١ ، وتذكرة الحفاظ ٤/١٣٧ ، وشذرات الذهب ٤/٢٧١ (٢) انظر وفيات الأعيان ٣/٤٤٣ (٣) انظر غاية الأمان ٢/٣٢٦ (٤) انظر غاية الأمان ٢/٣٣٧

ويتضح من بيان هذه الصورة أن التوجه إلى الله تعالى، والتوسل إليه بأسمائه، وصفاته هو فعل الأنبياء، والمرسلين؛ كما أوضحته آيات كتاب رب العالمين، وهو سنة خاتمة الوسائط من النبيين ﷺ. فالاعتصار عليه واجب، والتمسك بالثابت من التوسل أنفع للمسلم من التوسلات المخترعة التي ما أنزل الله بها من سلطان؛ كما هو ديدن أهل الأهواء والبدع^(١)، وحتى لا ينفتح باب التوسل، فتنزاحم البدع، وتتصارع للدخول منه، فينخلع مصراعاه، ويتسلل إلى عقيدة المسلمين البدع، والخرفات، والأوهام، والجهل، وأمراض التعلق بغير الله تعالى؛ كما هو حال أهل الأهواء، والبدع. والله الهادي إلى صراطه المستقيم.

(١) انظر صيانة الإنسان ص ٢٠١، والإنصاف في حقيقة الأولياء للصنعاني ص ٥٠

المبحث الخامس

صورة الواسطة في العمل الصالح

لا ريب أن كل عبادة شرعية يؤديها المؤمن لله عز وجل ، واشتملت على شرطي قبول العمل ؛ وهما : أ - الإخلاص لله تعالى . ب - ومتابعة النبي صلى الله عليه وسلم ، لا ريب أنها عمل صالح ، وواسطة شرعية مقبولة عند الله تعالى ؛ لأنه سبحانه وتعالى أمر بها ، ولا يأمر ربنا عز وجل بعبادة إلا وهو يحبها ، ويرضاها . (فالعمل الصالح : هو الإحسان ، وهو فعل الحسنات ، والحسنات : هي ما أحبه الله ، ورسوله وهو ما أمر به أمر إيجاب ، أو استحباب) ^(١) .

والطريق الوحيدة ، الموصلة إلى رضى الله تعالى ، ونيل ما عنده من خيرى الدنيا ، والآخرة هي العمل الصالح المبني على وفق ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه لا وسيلة إلى الله تعالى إلا باتباع رسوله صلى الله عليه وسلم وهذا هو المراد بالوسيلة ^(٢) ، في قول الله عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ ﴾ ^(٣)

فكل عمل حسن ، ومشروع قام به المسلم ينفعه التوسل به ، وهو واسطة صحيحة بينه وبين ربه تبارك وتعالى ، سواء أكان ذلك العمل الصالح من أعمال القلب ، أو كان من أعمال الجوارح : كالتوسل إلى الله تعالى بالإيمان به ، وبمحبة ومحبة رسوله صلى الله عليه وسلم واتباع سنته ، وكالخوف من الله جل جلاله ورجاء رحمته ، وإيثار رضاه سبحانه وتعالى على رضا غيره وطاعته في امتثال أوامره ، والبعد عن نواهيه ، والله سبحانه وتعالى (كرم عباده المؤمنين الذين يعملون الصالحات بأنواع الإكرام ، ومدحهم ، وأثنى عليهم ، وأعلى مراتبهم ، ومنازلهم ، ورفع درجاتهم ، وشرفهم بأنواع مراتب الشرف بحيث يعجز الإنسان عن استقصائها . . . فلقد شرفهم سبحانه بالفادة عليه وبمناجاته ، والتوجه إليه ، وتقربه ، وبمحبه ، كما أكرمهم بأن يكونوا من أهل الله تعالى وخاصته ، وأكرمهم بذكره لهم ، وجعل قلوبهم زجاجات لمصابيح الإيمان) ^(٤) .

والأعمال الصالحة التي تنفع المؤمن وتقربه من مولاه متنوعة ؛ لكنها في الأساس تعود

(٢) انظر أضواء البيان ٢/ ٧٦

(٤) صعود الأقوال ورفع الأعمال ص ١٣٤

(١) العبودية ص ٧٥

(٣) سورة المائدة الآية ٣٥

إلى ثلاثة أضرب : (منها ما يختص بالقلب ، ومنها ما يختص بالبدن ، ومنها ما يشارك فيه البدن والقلب)^(١).

وقد دلت الآيات القرآنية على مشروعية التوسل بالعمل الصالح ، ومن ذلك :-

١ - قول الله تبارك تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾^(٢) أي فاجعل إيماننا بك وبشريعتك التي أنزلت علينا واسطة مرضية لغفران ذنوبنا ، وتقصيرنا في أمرنا بفضلك ورحمتك^(٣).

يقول الشيخ السعدي في تفسيره لهذه الآية : (أي هؤلاء الراسخون في العلم أهل العلم والإيمان ، يتوسلون إلى ربهم بإيمانهم لغفرة ذنوبهم ووقايتهم عذاب النار وهذا من الوسائل التي يحبها الله : أن يتوسل العبد إلى ربه بما من به عليه من الإيمان ، والأعمال الصالحة إلى تكميل نعم الله بحصول الثواب الكامل واندفاع العقاب)^(٤).

٢ - وقوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾^(٥) ففيه توسل الحواريون إلى الله تعالى بإيمانهم به واتباعهم لرسوله عيسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام^(٦).

٣ - وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴾^(٧) وهذه مثل آية آل عمران الأولى فيها توسل بالإيمان بالله تعالى وهو عمل صالح.

٤ - وقوله تعالى : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾^(٨) فعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال - في تفسير هذه الآية - : (الكلم الطيب ذكر الله تعالى يصعد به إلى الله عز وجل ، ومن ذكر الله تعالى ، ولم يؤد فرائضه رد كلامه على عمله ، فكان أولى به)^(٩). وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : (إذا حدثناكم بحديث أتيناكم بتصديق ذلك

(١) تفصيل الشأتين وتغصيل السعادتین ص ١٦٠ (٢) سورة آل عمران الآية ١٦

(٣) انظر تفسير ابن كثير ١ / ٣٠٤

(٤) تفسير السعدي ١ / ١٧٤ ، وانظر الكواكب النيرات في المنجيات والمهلكات لعبد الله الجار الله ص ٤٢

(٥) سورة آل عمران الآية ٥٣

(٦) انظر تفسير ابن كثير ١ / ٣١٥

(٨) سورة فاطر الآية ١٠

(٧) سورة المؤمنون الآية ١٠٩

(٩) تفسير ابن كثير ٣ / ٥٥٧

من كتاب الله تعالى : إن العبد المسلم إذا قال : سبحان الله وبحمده ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، تبارك الله ، أخذهن ملك ، فجعلهن تحت جناحه ثم صعد بهن إلى السماء الدنيا ، فلا يمر بهن على جمع من الملائكة إلا استغفروا لقائلهن حتى يجيء بهن وجه الله عز وجل ، ثم قرأ : ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾^(١) ، ومعنى صعود الكلم الطيب إلى الله تعالى : قبوله له ، أو صعود الكتبة وهم الواسطة من الملائكة بما يكتبونه في الصحف ، وتخصيص الكلم الطيب بالذكر لبيان الثواب عليه ، مع أنه يتناول كل كلام يصح وصفه بكونه طيباً ؛ مثل ذكر الله تعالى ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وتلاوة القرآن . . . إلى غير ذلك من الأقوال الطيبة ، والأعمال الصالحة^(٢) .

فالأعمال الصالحة التي تحصل من القلوب ، والجوارح ترفع مع كلام العبد الطيب ؛ فإذا لم يكن له عمل صالح لم يرفع له قول إلى الله تعالى ؛ لأن الأعمال الصالحة هي التي ترفع إلى الله جل وعلا ، ويرفع الله تعالى صاحبها ، ويعزه ، ويقربه^(٣) .

وتطفح السنة النبوية بصور عديدة للواسطة في العمل الصالح ؛ لأن التوسل بالعمل الصالح الذي قام به العبد من أنجح أنواع التوسل ، وأنفعها للمتوسل ، ومن ذلك :-

١- ما تضمنته قصة أصحاب الغار ، كما يرويها لنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (بينما ثلاثة نفر يتمشون أخذهم المطر ، فأووا إلى غار في جبل ، فانحطت على فم غارهم صخرة من الجبل ، فانطبقت عليهم ، فقال بعضهم لبعض : انظروا أعمالاً عملتموها صالحة لله ، فادعوا الله تعالى بها ؛ لعل الله يفرجها عنكم ، فقال أحدهم : اللهم إنه كان لي والدان شيخان كبيران ، وامرأتي ، ولي صبية صغار ، أرعى عليهم ، فإذا أرحمت^(٤) عليهم حلبت ، فبدأت بوالدي ، فسقيتهما قبل بني ، وإنه نأى بي ذات يوم الشجر^(٥) ، فلم آت حتى أمسيت ، فوجدتهما قد ناما ، فحلبت كما كنت أحلب ، فجئت بالحلاب^(٦) ، فقممت عند رؤوسهما أكره أن

(١) المرجع نفسه ٥٥٦/٣ ، وانظر الصلاة ومقاصدها للحكيم الترمذي ص ٣٤ ، والوابل الصيب ص ٣٩

(٢) انظر تفسير الشوكاني ٣٤١/٤ (٣) انظر تفسير السعدي ١٤٩/٦

(٤) أرحمت : أي رددت الماشية من الرعي إليهم ، وإلى موضع مبيتها ، وهو مراحها بضم الميم . انظر شرح النووي لصحيح مسلم ٥٦/١٧

(٥) نأى بي الشجر : أي بعدت في طلب الشجر . انظر مختار الصحاح ص ٦٤٢ مادة (ن أ ي)

(٦) الحلاب بكسر الحاء : الإناء الذي يحلب فيه ، وقد يريد بالحلاب هنا اللبن المحلوب . انظر شرح النووي لصحيح مسلم ٥٦/١٧ ، والنهاية ٤٢١/١ ، مادة (حلب) .

أوقفهما من نومهما، وأكره أن أسقي الصبية قبلهما، والصبية يتضاغون^(١) عند قدمي، فلم يزل ذلك دأبي ودأبهم حتى طلع الفجر، فإن كنت تعلم أنني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا منها فرجة نرى منها السماء، ففرج الله منها فرجة، فرأوا منها السماء، وقال الآخر: اللهم إنه كانت لي ابنة عم أحببتها كأشد ما يحب الرجال النساء، وطلبت إليها نفسها فأبت حتى آتيتها بمائة دينار، فتعبت حتى جمعت مائة دينار، فجئت بها، فلما وقعت بين رجلها، قالت: يا عبد الله اتق الله، ولا تفتح الخاتم إلا بحقه^(٢) فممت عنها، فإن كنت تعلم أنني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا فرجة، ففرج لهم، وقال الآخر: اللهم إني كنت استأجرت أجيرا بفرق^(٣) أرز، فلما قضى عمله قال: أعطني حقي فعرضت عليه فرقه، فرغب عنه، فلم أزل أزرقه حتى جمعت منه بقرا ورعاءها^(٤)، فجاءني، فقال: اتق الله، ولا تظلمني حقي، فقلت: اذهب إلى تلك البقر، ورعائها، فخذها، فقال: اتق الله، ولا تستهزئ بي، فقلت: إني لا أستهزئ بك، خذ ذلك البقر ورعاءها، فأخذه فذهب به؛ فإن كنت تعلم أنني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا ما بقي، ففرج الله ما بقي، وخرجوا يمشون^(٥).

وذكر الإمام النووي، والحافظ ابن حجر في شرحيهما للصحيحين أنه يستفاد من هذا الحديث: استحباب الدعاء في حال الكرب بصلح الأعمال، والتوسل إلى الله تعالى به؛ لأن هؤلاء النفر الثلاثة فعلوه فاستجاب الله لهم، وذكره النبي ﷺ في معرض الثناء عليهم، وبيان مناقبهم^(٦).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: (فهؤلاء الثلاثة سألوا الله وتوسلوا إليه بأعمال البر، فالأول: أخبر عن بره بوالديه برا عاليا تاما أكمل البر وأحسنه، والآخر: أخبر عن عفقه التامة الكاملة وعن همته العالية، والآخر: أخبر عن أداء الأمانة على الوجه الأكمل الأتم)^(٧).

(١) يتضاغون: أي يصبحون باكين من الجوع. انظر النهاية لابن الأثير ٩٢/٣ مادة (ضغا).

(٢) الخاتم: كناية عن بكارتها، وقوله (بحقه) أي: بنكاح، لا بزنا. انظر شرح النووي لصحيح مسلم ٥٧/١٧.

(٣) الفرق بفتح الراء وإسكانها: إنا يسع ثلاثة أصع. انظر النهاية لابن الأثير ٤٣٧/٣ مادة (فرق).

(٤) الرعاء جمع راعي، مثل رعاة، ورعيان. انظر مختار الصحاح ص ٢٤٨ مادة (رع ي).

(٥) رواه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء باب حديث الغار ٥٠٥/٦ حديث ٣٤٦٥، ومسلم، كتاب الذكر

والدعاء باب قصة أصحاب الغار الثلاثة والتوسل بصلح الأعمال ٥٥/١٧.

(٦) انظر شرح النووي لصحيح مسلم ٥٦/١٧، وفتح الباري ٥٠٩/٦.

(٧) تلخيص كتاب الاستغاثة ١٢٨/١.

وقال الشيخ الألباني : (دعا هؤلاء الثلاثة ربهم سبحانه متوسلين إليه بهذه الأعمال الصالحة، أي صلاح والمواقف الكريمة، أي كرم، معلنين أنهم إنما فعلوها ابتغاء رضوان الله تعالى وحده، لم يريدوا بها دنيا قريبة، أو مصلحة عاجلة، أو جاهاً، أو مالاً، ورجوا الله جل شأنه أن يفرج عنهم ضائقته ويخلصهم من محتهم، فاستجاب سبحانه دعاءهم، وكشف كربهم، وكان عند حسن ظنهم به، فخرق لهم العادات، وأكرمهم بتلك الكرامة الظاهرة ^(١)).

٢- وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (يتبع الميت ثلاثة، فيرجع اثنان، ويبقى معه واحد، يتبعه أهله، وماله، وعمله، فيرجع أهله وماله، ويبقى عمله) ^(٢).

٣- ومثله ما أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن مرزوق ^(٣) رحمه الله تعالى، قال : (روي أن المؤمن إذا خرج من قبره استقبله عمله في أحسن صورة وأطيب ريح، فيقول : هل تعرفني؟ فيقول : لا، إلا أن الله قد طيب ريحك، وحسن صورتك، فيقول : كذلك كنت أنا عملك الصالح، طالما ركبتك في الدنيا اركبني اليوم، وتلا : ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ ^{(٤)(٥)}.

٤- وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (الذين يذكرون الله من جلال الله من تسبيحه، وتكبيره، وتحميده، وتهليله يتعاطفن حول العرش، لهن دوي كدوي النحل يذكرن بصاحبهن، ألا يحب أحدكم أن لا يزال له عند الله شيء يذكر به؟) ^(٦).

٥- وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : (إن الميت يسمع خفق نعالهم إذا ولوا

(١) التوسل ص ٣٩، وانظر شرح العقيدة الطحاوية ص ٢٦٤

(٢) رواه البخاري، كتاب الرقاق باب سكرات الموت ١١/٣٦٢ حديث ٦٥١٤، ومسلم، كتاب الزهد ١٨/٩٥
(٣) هو أبو الخير عبد الله بن مرزوق الهروي مولى، شيخ أبي إسماعيل الأنصاري، ولد سنة ٤٤١ هـ، إمام محدث، رحالة، قال ابن النجار : كان موصوفاً بالحفظ، والمعرفة، وحسن السيرة، توفي سنة ٥٠٧ هـ، انظر : سير أعلام النبلاء ١٩/٣٠٠، وشذرات الذهب ٤/١٦ (٤) سورة مريم الآية ٨٥

(٥) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره ٨/٣٨٠، وابن كثير وأسنده إلى ابن أبي حاتم. انظر تفسير ابن كثير ٣/١٤٤، وأورده القرطبي في التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة ص ٢٣٢

(٦) أخرجه ابن أبي شبة في المصنف ١٠/٢٨٩، والإمام أحمد في المستند ٤/٢٦٨، وابن ماجه في سننه ٢/١٢٥٢، والحاكم في المستدرک ١/٥٠٠ وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي قال البصيري في الزوائد ٣/١٩٣ : إسناده صحيح، ورجاله ثقات، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه ٢/٣٢٠ برقم ٣٠٧١، وفي مختصر العلل للذهبي ص ٩٦

مدبرين، فإن كان مؤمناً كانت الصلاة عند رأسه، وكان الصوم عن يمينه، وكانت الزكاة عن يساره، وكان فعل الخيرات: من الصدقة، والصلاة، والصلة، والمعروف، والإحسان إلى الناس عند رجليه، فيؤتى من قبل رأسه، فتقول الصلاة، ما قبلي مدخل، ويؤتى عن يمينه فيقول الصوم: ما قبلي مدخل، ويؤتى من عن يساره فتقول الزكاة: ما قبلي مدخل، ويؤتى من قبل رجليه، فيقول فعل الخيرات: ما قبلي مدخل، فيقال له: اقم، فيقعد، وتمثل له الشمس قد دنت للغروب...^(١).

فتبين من هذه الأحاديث أن المسلم إذا وقع في ضيق، أو أصابته محنة فعليه أن يلتجئ إلى الله تعالى متوسلاً بأرجى عمل صالح قام به؛ فإنه ينفعه، ويستجيب الله له، كما قال تعالى: ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِّنْ فَضْلِهِ﴾^(٢).

ومن هذا ما يذكر عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه كان يقول في السحر: (اللهم أمرني فأطعتك، ودعوتني فأجبتك، وهذا سحر فاغفر لي)^(٣)، وكان عراك بن مالك^(٤) رحمه الله إذا صلى الجمعة انصرف، فوقف على باب المسجد فقال: (اللهم إني أجبت دعوتك، وصليت فريضتك، وانتشرت كما أمرتني، فارزقني من فضلك، وأنت خير الرازقين)^(٥).

وقال الحسن البصري -في قول الله تعالى-: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾^(٦) (إن العبد إذا قال قولاً حسناً، وعمل عملاً صالحاً رفع الله تعالى قوله بعمله)^(٧).

وقال وهب بن منبه: (مثل الذي يدعو بغير عمل كمثل الذي يرمي بغير وتر)^(٨).

وقال الربيع بن أنس: (في الحكمة أن العمل الصالح يرفع ربه إذا عثر)^(٩).

والحكمة في رفع الأعمال إلى الله تعالى: أن الأقوال الطيبة المشروعة، والأعمال

(١) تقدم تخريجه.

(٢) سورة الشورى الآية ٢٦.

(٣) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره ٢٠٨/٣، وأورده ابن كثير في تفسيره ٣٠٥/١.

(٤) هو عراك بن مالك الغفاري المدني النابغي، أحد العلماء العاملين، وثقه أبو حاتم وغيره، قال عنه عمر ابن عبدالعزيز: ما أعلم أحداً أكثر صلاة من عراك بن مالك، توفي سنة ١٠٤ هـ، انظر سير أعلام النبلاء ٦٣/٥، وشذرات الذهب ١٢٢/١.

(٥) أورده الماوردي في تفسيره ١٠/١٦، وابن كثير في تفسيره وأسنده إلى ابن أبي حاتم. انظر تفسير ابن كثير ٣٩٢/٤.

(٦) سورة فاطر الآية ١٠.

(٧) الزهد للحسن البصري ص ١٤٩.

(٨) الزهد لابن المبارك ص ١٠٩، وانظر جامع العلوم والحكم ص ١٠٦.

(٩) الزهد للإمام أحمد ص ١٥٩.

الصالحة المقبولة ترفع لتشفع لصاحبها، وتكون واسطة له عند الله تعالى^(١)؛ لأن الأعمال الصالحة تناضل عن صاحبها وتدافع عنه؛ فإذا جاءه العذاب من جهة رجله جاءه قيام الليل يدفع عنه، وإذا جاءه من جهة يديه جاءت الصدقة تشفع له عند ربه، وتدفع عنه، وقل مثل ذلك في بقية أنواع العبادات، وأصناف القربات؛ فإنها أعمال صالحة تنفع صاحبها وتكون واسطة بينه وبين ربه عز وجل، تقرب العابد من ربه، وتدنيه من رحمته^(٢).

وقد تقدم معنا حديث عبد الرحمن بن سمرة رضي الله عنه الطويل، وفيه بيان بعض الأعمال الصالحة التي أنقذت صاحبها من العذاب، مثل: وضوئه، وصلاته، وذكره لله تعالى، وصيامه، وحججه، وعمرته، وبره بوالديه، وصلته لرحمه، وغسله من الجنابة، وصدقته، وأمره بالمعروف، ونهيه عن المنكر، وحسن خلقه، وخشيته لله عز وجل، وخوفه منه، وحسن ظنه بربه تعالى، وصلاته على النبي المصطفى ﷺ وشهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ولا ريب أن العبادات المشروعة الظاهرة، والباطنة، كلها صالحة لأن تكون واسطة بين العباد وربهم؛ بشرط أن تكون تلك العبادات صالحة، وخالصة، ومقبولة لدى المولى الكريم. يقول الإمام القرطبي: (هذا لمن أخلص لله في عمله، وصدق الله في قوله، وفعله، وأحسن نيته له في سره، وجهره، فهو الذي تكون أعماله حجة له، ودافعة عنه)^(٣).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في معرض بيانه لصورة الواسطة في العمل الصالح: (وسؤال الله بمجرد ذوات الأنبياء، والصالحين غير مشروع؛ بخلاف الطلب من الله بدعاء الصالحين، وبالأعمال الصالحة؛ فإنه جائز؛ لأن دعاء الصالحين سبب مطلوبنا الذي دعوا به، وكذلك الأعمال الصالحة سبب لثواب الله لنا؛ فإذا توسلنا إلى الله بالأعمال الصالحة وبدعائهم كنا متوسلين إليه بوسيلة، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ

(١) انظر المتجر الرابع في ثواب العمل الصالح للدمياطي ص ٤٨٥، وصعود الأقوال ورفع الأعمال ص ٩٥، وثواب الأعمال الصالحة لحسين الجمل ص ١٣.

(٢) انظر إتحاف السادة المتقين للزبيدي ١١٩/٨، وغاية الأمان ٣٣٧/٢، ورسالة الشرك ومظاهره للمبلي ص ٢٠٤، ومجموع فتاوى ورسائل ابن عثيمين ٢٨٦/٥.

(٣) التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة ص ١٦١.

الْوَسِيلَةُ ﴿١﴾، فالوسيلة : هي الأعمال الصالحة ﴿٢﴾.

ولا ريب أن خير الناس هو من فهم هذا وتزود قبل رحيله بزيادة التقوى، والإيمان، والعمل الصالح، كما قيل :-

وخير الناس عبد قال صدقا وقدم صالحا قبل الذهاب

وقال آخر ﴿٣﴾ :-

قدم لنفسك قبل موتك صالحا واعمل فليس إلى الخلود سبيل

وما من شك في أن العمل الصالح واسطة بين العبد وربّه، ينفع العبد في دنياه وآخرته، وهو سفينة النجاة، وشاطئ الأمان، وما أحسن قول الشاعر في هذا المعنى ﴿٤﴾ :-

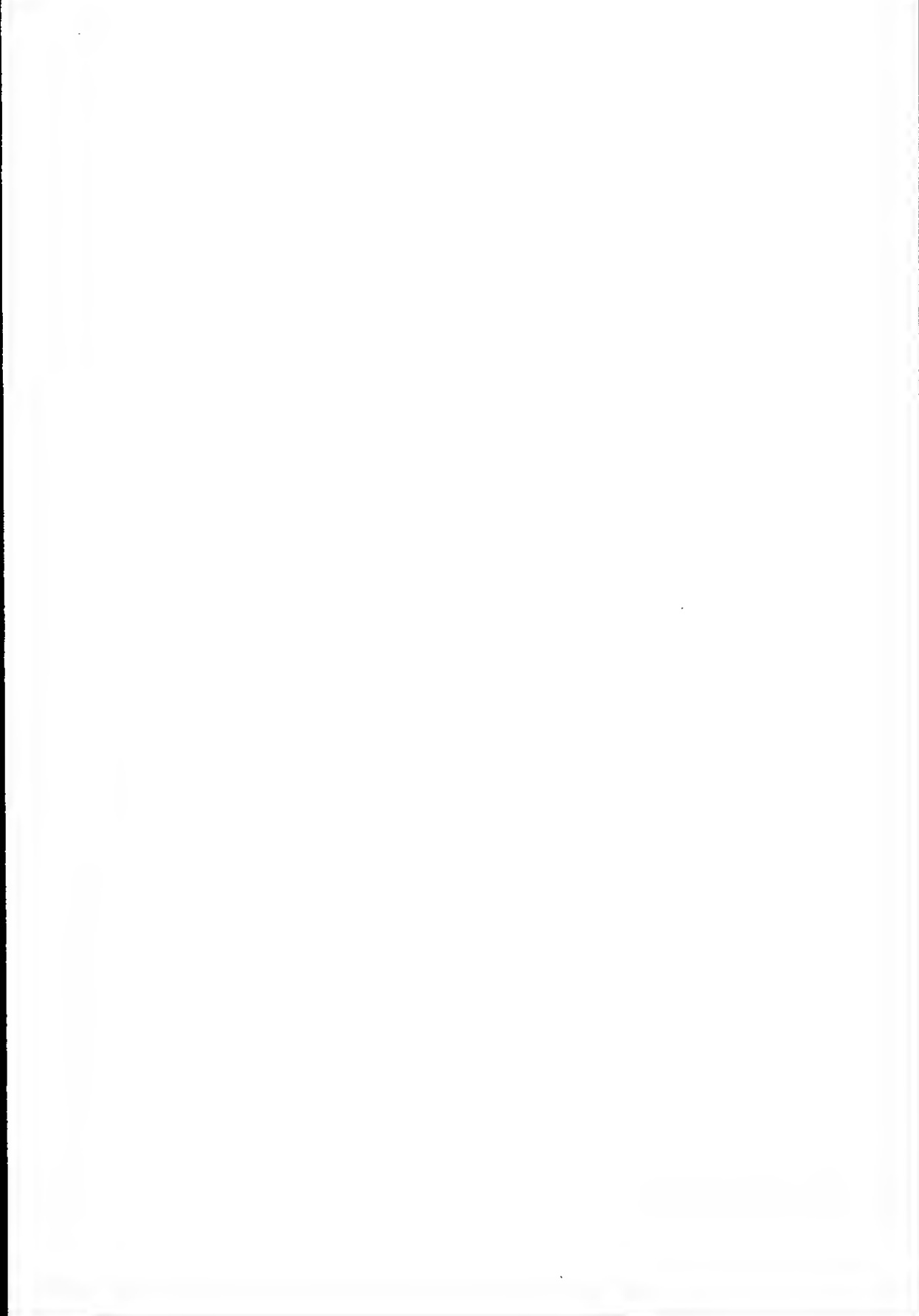
إن لله عبادا فُطِنَا طلقوا الدنيا وخافوا الفتنا
نظروا فيها فلما علموا أنها ليست لحي وطننا
جعلوها لجة واتخذوا صالح الأعمال فيها سفنا

(١) سورة المائدة الآية ٣٥

(٢) تلخيص كتاب الاستغاثة ١/١١٩

(٣) انظر تنوير الأذهان للبروسوي ١/٩٦

(٤) انظر رياض الصالحين ص ٢٧ ونحاف السادة المتقين للزبيدي ٨/١٠٥، والعبادة والعباد لمحمد بن عمر الخطيب



الفصل الرابع

صورة الواسطة في الشفاعة في الآخرة

وفيه أربعة مباحث:-

المبحث الأول: تعريف الشفاعة لغة، واصطلاحاً.

المبحث الثاني: صورة الواسطة في شفاعة النبي ﷺ.

المبحث الثالث: صورة الواسطة في شفاعة غير النبي ﷺ.

المبحث الرابع: صورة الواسطة في شفاعة القرآن، والصيام.

المبحث الأول

تعريف الشفاعة لغة، واصطلاحاً

أولاً: الشفاعة في اللغة قال ابن فارس: (الشين، والفاء، والعين أصل صحيح، يدل على مقارنة الشينين، من ذلك: الشفع خلاف الوتر)^(١).

والشفع: الزيادة، وعين شافعة تنظر نظرين لضعفها^(٢)، والشفاعة: الوسيلة، والطلب^(٣)، يقال: كان وترا فشفعه شفعا، وشفع الوتر من العدد صيره زوجا، ويقال أيضا: ناقة شفوع للتي يجمع منها محلبان في حلبة واحدة، وشاة شافع للتي معها ولدها^(٤)، ويقال: شفّع لي يشفع شفاعة، وتشفع، بمعنى طلب، ومعنى استشفعه: أي طلب منه الشفاعة، وقال له: كن لي شفيعا، والشفاعة كلام الشفيع للملك في حاجة يسألها لغيره^(٥).

والشافع: الطالب لغيره، فيشفع به إلى المطلوب، قال الأعشى^(٦): -

واستشفعت من سراة الحي ذا شرف فقد عصاها أبوها والذي شفعا

ويقال: تشفعت بفلان إلى فلان فشفعني فيه، واسم الطالب: شفيع، وشافع، والجمع: شفعاء^(٧)، قال الشاعر^(٨): -

مضى زمن والناس يستشفعون بي فهل لي إلى ليلي الغداة شفيع؟

وقال ابن الأثير: (يقال: شفّع يشفع شفاعة، فهو شافع، وشفيع، والمشفّع: الذي يقبل الشفاعة، والمشفّع: الذي تقبل شفاعته)^(٩).

وذكر الراغب الأصفهاني أن الشفاعة: انضمام الشافع إلى المشفوع له، ومعاونته فيصير شفعا له، أو شفيعا في فعل الخير، والشر، فيعاونه، ويقويه، ويشاركه في نفعه وضره، ثم

(١) معجم مقاييس اللغة ٣/ ٢٠١ مادة (شفّع). (٢) انظر تهذيب اللغة للأزهري ١/ ٤٣٦ مادة (شفّع).

(٣) انظر لوامع الأنوار ٢/ ٢٠٤.

(٤) انظر تهذيب اللغة ١/ ٤٣٨، ومعجم مقاييس اللغة ٣/ ٢٠١، وأساس البلاغة للزمخشري ص ٢٣٨ مادة (شفّع).

(٥) انظر كتاب العين للخليل بن أحمد ١/ ٢٦١، وتهذيب اللغة ١/ ٤٣٧ مادة (شفّع).

(٦) انظر ديوانه طبعة درأ صادر ص ١٠٥ (٧) انظر لسان العرب ٧/ ١٥١ مادة (شفّع).

(٨) انظر أساس البلاغة ص ٢٣٨ (٩) النهاية لابن الأثير ٢/ ٤٨٥ مادة (شفّع).



قال : (وأكثرما تستعمل في انضمام من هو أعلى حرمة ، ومرتبة إلى من هو أدنى ، ومنه الشفاعة في القيامة)^(١) .

وقال السفاريني - في توجيه ذلك - : (فكأن الشافع ضم سؤاله إلى سؤال المشفوع له)^(٢) .

ويتحصل مما تقدم أن الشفاعة في اللغة هي : الانضمام إلى آخر من أجل نصرته ، وأن الشفاعة تدل على ضم شيئين ، ومقارنتهما ، وأن اشتقاقها من الشفع الذي هو ضد الوتر ، وأنها تنقسم إلى عناصر ثلاثة : -

(أ) شافع : وهو صاحب الشفاعة التي يطلبها لغيره ، ويسمى شفيعاً أيضاً ، فإن قبلت شفاعته فهو مشفّع بفتح الفاء^(٣) .

(ب) ومشفوع له : وهو صاحب الطلب ، وهو المنتفع بالشفاعة .

(ج) ومشفوع إليه : وهو من تطلب منه الشفاعة ، فإن قبلها فهو مشفّع بكسر الفاء^(٤) .

ثانياً : الشفاعة في الاصطلاح : عرف ابن الأثير الشفاعة بقوله : (هي السؤال في التجاوز عن الذنوب ، والجرائم)^(٥) . وبمثل ذلك عرفها الشريف الجرجاني ، حيث قال : (هي السؤال في التجاوز عن الذنوب من الذي وقع الجنابة في حقه)^(٦) .

ونقل السفاريني في تعريفها أنها : (سؤال الخير للغير)^(٧) ، ويتأمل يسير لهذه التعريفات نجد أن التعريفين الأولين حصرا الشفاعة في جلب المنافع ، وأن التعريف الثالث حصرها في درء المفاسد ، وكل واحد منها ليس جامعاً ؛ بل الحقيقة أن طلب الشفاعة لا يقتصر على أحد الأمرين ؛ بل يتعلق بأحدهما تارة ، وبالأخر تارة أخرى^(٨) .

وقيل : (هي طلب الرسول محمد صلى الله عليه وسلم - أو غيره من الله في الدار الآخرة حصول منفعة لأحد من الخلق)^(٩) .

(١) المفردات ص ٢٦٣ (٢) لوامع الأنوار ٢/ ٢٠٤

(٣) انظر كتاب العين ١/ ٢٦١

(٤) انظر لسان العرب ٧/ ١٥٢ مادة (شفع) ، والشفاعة للدكتور ناصر الجديع ص ١٤

(٥) النهاية ٢/ ٤٨٥ مادة (شفع) . (٦) التعريفات ص ١٦٨

(٧) لوامع الأنوار ٢/ ٢٠٤ (٨) انظر الشفاعة للدكتور ناصر الجديع ص ١٥

(٩) الحياة الآخرة للدكتور غالب العواجي ١/ ٢٨٣



والتعريف المختار أن الشفاعة هي : (التوسط للغير بجلب منفعة أو دفع مضرة)^(١) .
وسبب اختيار هذا التعريف : هو أنه جامع شامل للأمرين معا ، ويصح إطلاق هذا
التعريف على الشفاعة ، سواء أكانت في أمور الدنيا ، أو في أمور الآخرة . والله أعلم .

(١) شرح لمعة الاعتقاد للشيخ محمد بن صالح العثيمين ص ١٢٨ ، وانظر الكليات للكفوي ٧٥ / ٣



المبحث الثاني

صورة الوساطة في شفاعة النبي ﷺ في الآخرة

يستنتج الباحث بعد استقراء الأحاديث النبوية الواردة في الشفاعة ومن مطالعة كلام أهل العلم حول الشفعاء في الآخرة، يستنتج أن الشفاعة تتنوع من حيث الشفعاء، ومن حيث نوع الشفاعة في اليوم الآخر: فأحياناً يكون الشفيع نبينا محمداً ﷺ ومرة يكون غيره من الشفعاء: كالملائكة، والنبين، والمؤمنين، وتارة يشفع القرآن، والصيام. ويتناول هذا المبحث صورة الوساطة في شفاعة النبي ﷺ، وسيتناول المبحثان التاليان شفاعة غير النبي ﷺ فأقول -وبالله التوفيق:-

للنبي ﷺ شفاعات في الآخرة، بعضها خاص به عليه الصلاة والسلام، ويشاركه الملائكة، والنبليون في بعضها الآخر، فيكون واسطة بين الله تعالى، وخلقه في تلك الشفاعات، وفيما يلي بيان لصورة الوساطة في تلك الشفاعات:-

١- الشفاعة العظمى: وهذه الشفاعة خاصة بخاتم النبیین ﷺ من بين سائر إخوانه من الأنبياء، والمرسلين، وذلك حين يجمع الله الخلائق في عرصات القيامة، ويشهد الموقف، فتفزع الأمم إلى الأنبياء تطلب منهم التوسل من أجل الشفاعة عند الله تعالى ليقضي بينهم، ويريحهم من مقامهم ذلك، وما هم فيه من شدة، وكرب، فتفزع إلى آدم، ونوح، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى عليهم الصلاة والسلام فيتدافع الشفاعة -بعد آدم- أولو العزم من الرسل -عليهم الصلاة والسلام- حتى ينتهي الأمر إلى نبينا محمد ﷺ فيقول: (أنا لها) ويشفع لأهل الموقف عند ربه عز وجل وهذه الشفاعة هي أعظم الشفاعات؛ ولهذا تسمى الشفاعة العظمى؛ لأنها شفاعة شاملة لجميع الأمم على اختلاف أديانهم، وهذه الشفاعة هي المقام المحمود على رأي جمهور العلماء^(١) الذي وعد الله عز وجل به خاتم النبیین ﷺ في قوله تعالى: ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَ رَبُّكَ مَقَامًا مُمُحَمَّدًا﴾^(٢)

والدليل على ذلك ما أخرجه البخاري في صحيحه من حديث عبد الله بن عمر رضي

(١) انظر تفصيل الكلام حول المراد بالمقام المحمود في المراجع التالية: التوحيد لابن خزيمة ٢/٧٢٤، وتفسير الطبري ١٦/١٤٣، وشرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للإلكاني ٦/١١٢، وتفسير ابن كثير ٣/٥٧، وفتح الباري ٨/٤٠٠ (٢) سورة الإسراء الآية ٧٩

الله عنهما أنه قال : (إن الناس يصيرون يوم القيامة جثا ^(١) كل أمة تتبع نبيها، يقولون: يا فلان: اشفع، حتى تنتهي الشفاعة إلى النبي ﷺ فذلك يوم يعثه الله المقام المحمود) ^(٢).

ومما يستدل به على الشفاعة العظمى ما جاء في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : أتني رسول الله ﷺ بلحم، فرفع إليه الذراع، وكانت تعجبه، فنهس ^(٣) منها نهسة فقال : (أنا سيد الناس يوم القيامة، وهل تدرون لم ذلك؟ يجمع الله يوم القيامة الأولين والآخرين في صعيد واحد، فيسمعهم الداعي، وينفذهم البصر، وتدنو الشمس، فيبلغ الناس من الغم، والكرب ما لا يطيقون، وما لا يحتملون، فيقول بعض الناس لبعض : ألا ترون ما أنتم فيه؟ ألا ترون ما قد بلغكم؟ ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم؟، فيقول بعض الناس لبعض : اتوا آدم، فيأتون آدم، فيقولون : يا آدم أنت أبو البشر خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى إلى ما قد بلغنا؟ فيقول آدم : إن ربي غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه نهاني عن الشجرة فعصيته، نفسي، نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى نوح، فيأتون نوحا، فيقولون : يا نوح : أنت أول الرسل إلى الأرض، وسماك الله عبدا شكورا، اشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم : إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه قد كانت لي دعوة دعوت بها على قومي، نفسي، نفسي، اذهبوا إلى إبراهيم ﷺ فيأتون إبراهيم، فيقولون : أنت نبي الله وخليفه من أهل الأرض، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم إبراهيم : إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وذكر كذباته ^(٤)، نفسي، نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى موسى، فيأتون موسى ﷺ فيقولون : يا موسى أنت رسول الله فضلك الله برسالاته وبتكليمه على الناس، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن

(١) أي : جماعات، والجثا : جمع جثوة : وهو الشيء المجموع . انظر النهاية لابن الأثير ١/ ٢٣٩ مادة (جثا) .

(٢) صحيح البخاري ، ٨/ ٣٩٩ ، حديث ٤٧١٨

(٣) النهس : أخذ اللحم بأطراف الأسنان . انظر النهاية لابن الأثير ٥/ ١٣٦ مادة (نهم) .

(٤) ورد ذكر هذه الكذبات في صحيح البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، كتاب الأنبياء باب قول الله تعالى : ﴿واتخذ الله إبراهيم خلیلاً﴾ سورة النساء الآية ١٦٥ حديث رقم ٣٣٥٨ ، ٦/ ٣٨٨ ، وقد وجه العلماء هذه الكذبات بتوجيهات منها : أنه أطلق عليها ذلك لكونها بصورة الكذب عند السامع، وقيل غير ذلك . انظر فتح الباري ٦/ ٣٩٢

فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم موسى ﷺ: إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنني قتلت نفسا لم أؤمر بقتلها، نفسي، نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى عيسى ﷺ، فيأتون عيسى، فيقولون: يا عيسى أنت رسول الله، وكَلَّمْتَ الناس في المهدي، وكلمة منه ألقاها إلى مريم، وروح منه، فاشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم عيسى ﷺ: إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله -ولم يذكر ذنبا- نفسي، نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى محمد ﷺ فيأتوني، فيقولون: يا محمد أنت رسول الله، وخاتم الأنبياء، وغفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فأنطلق فآتي تحت العرش، فأقع ساجدا لربي، ثم يفتح الله علي، ويلهمني من محامده، وحسن الشناء عليه شيئا لم يفتح لأحد قبلي، ثم يقال: يا محمد ارفع رأسك، سل تعطه، اشفع تشفع، فأرفع رأسي فأقول: يا رب أمتي، أمتي، فيقال: يا محمد أدخل الجنة من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب، والذي نفسي بيده إن ما بين المصراعين^(١) من مصاريع الجنة لكما بين مكة، وهجر^(٢)، أو كما بين مكة، وبصرى^(٣) (٤) (٥).

وليبيان وجه الاستدلال بهذا الحديث على ثبوت الشفاعة العظمى قال الإمام ابن خزيمة رحمه الله^(١): (هذه الشفاعة التي وصفنا أنها أول الشفاعات هي التي يشفع بها النبي ﷺ ليقضي الله بين الخلق، فعندها يأمره الله عز وجل أن يدخل من لا حساب عليه من أمتة الجنة من الباب الأيمن) (٧).

(١) المصراعان: بابان منصوبان يتضمnan جميعا، ويكون مدخلهما في الوسط منهما. انظر القاموس المحيط ٥٢/٣ مادة (الصرع).

(٢) هَجَر: قصبة بلاد البحرين. انظر معجم البلدان ٣٩٣/٥

(٣) بَصْرَى بضم الباء قصبة كورة حوران، من أعمال دمشق بالشام. انظر معجم البلدان ٤٤١/١

(٤) صحيح البخاري، ٨/٣٩٥، حديث ٤٧١٢، ومسلم، كتاب الإيمان ٢/٦٥

(٥) ذكر العلامة ابن القيم أن السبب في اعتذار سائر الأنبياء عليهم السلام لأمتهم، وامتناعهم من الشفاعة هو أنهم عوتبوا قبل الغفران، فأحجمهم ذلك عن الهجوم عليه، ونبينا صلى الله عليه وسلم غفر له قبل العتاب. انظر بدائع الفوائد ٢١٦/٤

(٦) هو أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة بن المغيرة بن صالح بن بكر السلمي النيسابوري، ولد بنيسابور سنة ٢٢٣هـ، وطاف البلاد لطلب العلم وسماع الحديث حتى أصبح محدثا، وشارك في كثير من العلوم، توفي سنة ٣١١هـ. انظر البداية والنهاية ١١/١٤٩، والوافي بالوفيات ٢/١٩٦، وشذرات الذهب ٢/٢٦٢

(٧) التوحيد لابن خزيمة ١/٥٩٣

كما استدل بهذا الحديث -أيضا- أبو عبد الله القرطبي، ثم قال مبينا وجه الاستدلال به على هذه الشفاعة: (وقوله: (فيقال: يا محمد أدخل الجنة من أمتك من لا حساب عليه) يدل على أنه شُفع فيما طلب من تعجيل حساب أهل الموقف؛ فإنه لما أمر بإدخال من لا حساب عليه من أمته فقد شرع في حساب من عليه حساب من أمته، وغيرهم)^(١).

٢- الشفاعة في استفتاح باب الجنة لأهلها: ورد في بعض الأحاديث أن النبي ﷺ هو أول من يشفع لأهل الجنة في دخولها من ذلك ما رواه أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: (أنا أول شفيع في الجنة لم يصدق نبي من الأنبياء ما صدقت، وإن من الأنبياء نبيا ما يصدق من أمته إلا رجل واحد)^(٢).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه -أيضا- أن النبي ﷺ قال: (آتي باب الجنة يوم القيامة فأستفتح فيقول الخازن: من أنت؟ فأقول: محمد، فيقول: بك أمرت لا أفتح لأحد قبلك)^(٣).

وعن أبي هريرة، وحذيفة رضي الله عنهما قالوا: قال رسول الله ﷺ: (بجمع الله تبارك وتعالى الناس فيقوم المؤمنون حتى تزلف^(٤) لهم الجنة فيأتون آدم فيقولون: يا أبانا استفتح لنا الجنة فيقول: وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم آدم! لست بصاحب ذلك، اذهبوا إلى ابني إبراهيم خليل الله، قال: فيقول إبراهيم لست بصاحب ذلك، إنما كنت خليلا من وراء وراء، اعمدوا إلى موسى ﷺ الذي كلمه الله تكليما، فيأتون موسى ﷺ فيقول: لست بصاحب ذلك، اذهبوا إلى عيسى كلمة الله وروحه، فيقول عيسى ﷺ: لست بصاحب ذلك، فيأتون محمدا ﷺ فيقوم فيؤذن له...) الحديث^(٥).

فيستدل بهذه الأحاديث ونحوها على أن النبي ﷺ أول الشفعاء، حيث يشفع لأهل الجنة في دخولها، وعليه فهذه الشفاعة -أيضا- خاصة به صلى الله عليه وسلم؛ ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية عن هذه الشفاعة والتي قبلها: (وهاتان الشفاعتان خاصتان له صلى الله عليه وسلم)^(٦).

(١) التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة ص ٢٤٥

(٢) أخرجه مسلم، انظر صحيح مسلم بشرح النووي كتاب الإيمان باب قول النبي (أنا أول الناس يشفع في الجنة)

٧٣/٢ (٣) رواه مسلم، انظر المرجع نفسه والموضع بعينه.

(٤) أي تقرب لهم، انظر مختار الصحاح ص ٢٧٣ مادة (ز ل ف).

(٥) أخرجه مسلم انظر صحيح مسلم بشرح النووي كتاب الإيمان باب الشفاعة ٧٠/٢

(٦) مجموع الفتاوى ١٤٧/٣

٣- الشفاعة في تخفيف العذاب عمن يستحقه: وهذه الشفاعة خاصة بالنبي ﷺ لعنه أبي طالب، ودليلها ما جاء في الصحيحين عن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه قال: يا رسول الله هل نفعت أبا طالب بشيء فإنه كان يحفظك، ويغضب لك؟ قال: (نعم هو في ضحضاح^(١) من نار، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار)^(٢).

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ ذكر عنده عمه أبو طالب فقال: (لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة، فيجعل في ضحضاح من نار يبلغ كعبيه، يغلي منه دماغه)^(٣).

ولعل السبب في شفاعته النبي ﷺ لعنه أبي طالب في تخفيف العذاب هو ما اشتهر عن أبي طالب من الدفاع عن الرسول ﷺ، ونصرته له، حتى ورد أنه أهون أهل النار عذابا يوم القيامة، فعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: (أهون أهل النار عذابا أبو طالب وهو متعل بنعلين يغلي منهما دماغه)^(٤).

وذكر بعض أهل العلم أن هذه الشفاعة التي نفعت أبا طالب مع كونه كافرا شفاعة تخفيف فقط لا شفاعة إخراج من النار^(٥).

٤- الشفاعة في رفع درجات أقوام من أهل الجنة: ودليل هذا النوع ما ثبت في الصحيحين من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه وفيه أن رسول الله ﷺ بعث أبا عامر عم أبي موسى الأشعري رضي الله عنهما على جيش إلى أوطاس^(٦) فرمي أبو عامر بسهم في ركبته، فقال لأبي موسى: يا ابن أختي انطلق إلى رسول الله ﷺ فأقرئه مني السلام، وقل له: يقول لك أبو عامر: استغفر لي، قال: واستعملني أبو عامر على الناس، ثم إنه مكث يسيرا ثم مات، فلما رجعت إلى النبي ﷺ دخلت عليه، فأخبرته بخبرنا وخبر

(١) الضحضاح: أصله يقال لما رق من الماء على وجه الأرض وهو ما يبلغ الكعبين، واستعير للنار. انظر النهاية لابن الأثير ٣/ ٧٥، مادة (ضحج).

(٢) صحيح البخاري ١٩٣/ ٧ حديث ٣٨٨٣، وصحيح مسلم بشرح النووي كتاب الإيمان باب شفاعته النبي لأبي طالب ٢/ ٨٤.

(٣) المرجعان السابقان، والموضعان نفساهما.

(٤) رواه مسلم، كتاب الإيمان باب التخفيف عن أبي طالب بسبب النبي ﷺ ٢/ ٨٥.

(٥) انظر كتاب البعث والشور للبيهقي ص ٣١، والتذكرة للقرطبي ١/ ٢٨٧، ومجموع الفتاوى ١/ ١٤٤، وإثبات الشفاعة للإمام الذهبي ص ٢١.

(٦) أوطاس: واد في ديار هوازن فيه كانت وقعة حنين للنبي ﷺ بيني هوازن. انظر معجم البلدان ١/ ٢٨١.

أبي عامر، وقلت له: قال قل له: يستغفر لي، فدعا رسول الله ﷺ بجاء فتوضاً منه، ثم رفع يديه، ثم قال: (اللهم اغفر لعبيد ابن عامر حتى رأيت بياض ابطنه ثم قال: اللهم اجعله يوم القيامة فوق كثير من خلقك أو من الناس) فقلت: ولي يا رسول الله فاستغفر، فقال النبي ﷺ: (اللهم اغفر لعبد الله بن قيس ذنبه وأدخله يوم القيامة مدخلا كريما)^(١). واستدل الذهبي، وابن كثير أيضا بهذا الحديث على هذا النوع من الشفاعة^(٢).

ومما يستدل به على هذا النوع من الشفاعة ما رواه مسلم في صحيحه من حديث أم سلمة رضي الله عنها أن النبي ﷺ دعا لأبي سلمة لما توفي فقال: (اللهم اغفر لأبي سلمة وارفع درجته في المهديين، واخلفه في عقبه في الغابرين)^(٣)، واغفر لنا وله يا رب العالمين، وافسح له في قبره، ونور له فيه^(٤).

وذهب بعض أهل العلم إلى أن هذه الشفاعة خاصة بالنبي صلى الله عليه وسلم^(٥). وقيل إنها ليست خاصة به؛ لكنه هو المقدم فيها^(٦).

٥- الشفاعة في دخول الجنة بلا حساب: ودليل هذا النوع من الشفاعة ما رواه البخاري ومسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ: (عرضت علي الأمم فأخذ النبي يمر معه الأمة، والنبي يمر معه النفر، والنبي يمر معه العشرة، والنبي يمر معه الخمسة، والنبي فيمر وحده، فنظرت فإذا سواد كثير، قلت: يا جبريل هؤلاء أممي! قال: لا، ولكن انظر إلى الأفق فنظرت فإذا سواد كثير قال: هؤلاء أمتك، وهؤلاء سبعون ألفا قدامهم لا حساب عليهم ولا عذاب، قلت: ولم؟ قال: كانوا لا يكتوون، ولا يسترقون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون) فقام إليه عكاشة من محصن فقال: ادع الله أن يجعلني منهم، فقال: (اللهم اجعله منهم، ثم قام إليه رجل آخر فقال: ادع الله أن يجعلني منهم، فقال: (سبقك بها عكاشة)^(٧).

(١) صحيح البخاري ٤١/٨ حديث ٤٣٢٣، وصحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة باب فضائل أبي موسى وأبي عامر الأشعريين ٥٩/١٦ (٢) انظر النهاية في الفتن والملاحم ٢٠٦/٢

(٣) الغابرين: أي الباقيين من عقبه. انظر شرح النووي لصحيح مسلم ٢٢٣/٦

(٤) صحيح مسلم بشرح النووي كتاب الجنائز باب في إغماض الميت والدعاء له إذا حضر ٢٢٣/٦

(٥) انظر مجموع الفتاوى ٣٩٩/١٤، ولوامع الأنوار ٢١١/٢

(٦) انظر أعلام السنة المنشورة للحكيمي ص ١٣٩

(٧) صحيح البخاري ٤٠٥/١١ حديث ٦٥٤١، وصحيح مسلم، كتاب الإيمان باب الدليل على دخول طوائف من

المسلمين الجنة بلا حساب ٨٨/٢

وجاء في بعض السنن عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه أنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (وعدني ربي عز وجل أن يُدخل الجنة من أمتي سبعين ألفاً لا حساب عليهم ولا عذاب مع كل ألف سبعون ألفاً وثلاث حثيات من حثيات ربي عز وجل)^(١).

٦- الشفاعة لأهل الكبائر: المراد بأهل الكبائر: العصاة من أهل التوحيد الذين يدخلون النار بسبب ذنوبهم، فيشفع فيهم الرسول ﷺ لإخراجهم من النار بعد دخولها، ودليل هذا النوع من الشفاعة ما رواه البخاري ومسلم من حديث معبد بن هلال العنزي رحمه الله^(٢) قال : اجتمعنا ناس من أهل البصرة^(٣) فذهبنا إلى أنس بن مالك وذهبنا معنا بثابت البناني إليه يسأله لنا عن حديث الشفاعة فإذا هو في قصره، فوافقتاه يصلي الضحى، فاستأذنا فأذن لنا -وهو قاعد على فراشه، فقلنا لثابت : لا تسأله عن شيء أول من حديث الشفاعة، فقال : يا أبا حمزة، هؤلاء إخوانك من أهل البصرة جاءوك يسألونك عن حديث الشفاعة، فقال : حدثنا محمد ﷺ قال : (إذا كان يوم القيامة ماج الناس بعضهم في بعض فيأتون آدم، فيقولون : اشفع لنا إلى ربك، فيقول : لست لها، ولكن عليكم بإبراهيم؛ فإنه خليل الرحمن فيأتون إبراهيم، فيقول : لست لها، ولكن عليكم بموسى فإنه كليم الله، فيأتون موسى، فيقول : لست لها، ولكن عليكم بـعيسى؛ فإنه روح الله وكلمته، فيأتون عيسى فيقول : لست لها، ولكن عليكم بمحمد (، فيأتوني، فأقول : أنا لها، فاستأذن على ربي، فيؤذن لي، ويلهمني محامد أحمد به، لا تحضرني الآن فأحمده بتلك المحامد، وأخرله ساجدا، فيقال : يا محمد : ارفع رأسك، وقل يسمع لك، وسل تعط، واشفع تشفع، فأقول : يا رب أمتي، أمتي، فيقال : انطلق فأخرج منها من كان في قلبه مثقال شعيرة من إيمان^(٤)، فأنطلق فأفعل، ثم أعود فأحمده بتلك المحامد، ثم أخرله ساجدا، فيقال : يا محمد : ارفع رأسك، وقل يسمع لك، وسل تعط، واشفع تُشَفِّع، فأقول : يا

(١) أخرجه الترمذي في سننه وقال : هذا حديث حسن غريب ٦٢٦/٤، وابن ماجه في سننه ٤٤٦/٢، والإمام أحمد في المستدرك ٢٦٨، وصححه الشيخ الألباني . انظر مشكاة المصابيح للتبريزي ٦٥/٣ هامش (٢) بتحقيق الشيخ الألباني .

(٢) هو معبد بن هلال العنزي البصري، ذكره ابن حبان في الثقات، وقال عنه ابن حجر : معبد بن هلال ثقة من الرابعة . انظر : تاريخ دمشق ٥٩/٣٣٣، وتهذيب التهذيب ١٠/٢٠٣، وتقريب التهذيب ص ٥٣٩

(٣) البصرة المصر المشهور بالعراق . انظر معجم البلدان ١/٤٣٠

(٤) ذكر الإمام ابن خزيمة أن المراد بعض من كان في قلبه قدر ذلك الوزن من الإيمان؛ لأنه ثبت أن غير النبي ﷺ يشفع أيضا . انظر كتاب التوحيد ٧٢٨/٢

رب أمتي أمتي، فيقال: انطلق فأخرج منها من كان في قلبه مثقال ذرة أو خردلة من إيمان، فأنطلق فأفعل، ثم أعود فأحمده بتلك المحامد، ثم أخر له ساجدا، فيقال: يا محمد: ارفع رأسك، وقل يسمع لك، وسل تعط، واشفع تشفع، فأقول: يا رب أمتي أمتي، فيقول: انطلق فأخرج منها من كان في قلبه أدنى أدنى مثقال حبة من خردل من إيمان، فأخرجه من النار، فأنطلق فأفعل (فلما خرجنا من عند أنس، قلت لبعض أصحابنا: لو مررنا بالحسن البصري؛ فإنه متوارخوفا من الحجاج بن يوسف^(١) - رحمه الله تعالى - فيحدثنا بما حدثنا أنس بن مالك، فأتيناه، فسلمنا عليه، فأذن لنا، فقلنا له: يا أبا سعيد جئناك من عند أخيك أنس بن مالك فلم نرم مثل ما حدثنا في الشفاعة، فقال هيه^(٢)، فحدثناه بالحديث فأنتهى إلى هذا الموضع، فقال: هيه، فقلنا: لم يزد على هذا، فقال: لقد حدثني - وهو جميع -^(٣) منذ عشرين سنة، فلا أدري أنسي أم كرهه أن تتكلوا، فقلنا: يا أبا سعيد، فحدثنا، فضحك، وقال: (خلق الإنسان عجولا) ما ذكرته إلا أنا أريد أن أحدثكم، حدثني كما حدثكم به، ثم قال: (ثم أعود الرابعة فأحمده بتلك المحامد، ثم أخر ساجدا، فيقال: يا محمد ارفع رأسك، وقل يسمع، وسل تعطه، واشفع تشفع، فأقول: يا رب ائذن لي فيمن قال: لا إله إلا الله، فيقول: وعزتي، وجلالي، وكبريائي، وعظمتي لأخرجن منها من قال: لا إله إلا الله)^(٤).

وروى البخاري في صحيحه من حديث عمران بن حصين رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (يخرج قوم من النار بشفاعة محمد ﷺ فيدخلون الجنة يسمون الجهنميين)^(٥).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (شفاعتي لأهل الكبائر من

(١) هو أبو محمد الحجاج بن يوسف بن أبي عقيل الثقفي الطائفي، كان ذا شجاعة وإقدام ودهاء وفصاحة، لكنه أخذ عليه قتله لعبدالله بن الزبير رضي الله عنه وحصاره لأهل الحرم ورميه للكعبة بالمنجنيق، قال عنه الذهبي: كان ظلوما جبارا، وله حسنات مغمورة في بحر ذنوبه، انظر سير أعلام النبلاء ٤/ ٣٤٣، وشذرات الذهب ١٠٦/١

(٢) بمعنى: زدني؛ وهو اسم فعل بمعنى الأمر. انظر شرح النووي لصحيح مسلم ٦٤/٢

(٣) أي مجتمع العقل، وهو إشارة إلى أنه كان وقتها لم يدخل في الكبر الذي هو مظنة تفرق الذهن، واختلاط الحفظ. انظر فتح الباري ١٣/ ٤٧١،

(٤) صحيح البخاري ١٣/ ٤٧٣ حديث ٧٥١٠، وصحيح مسلم، كتاب الإيمان باب الشفاعة ٦١/٢ واللفظ للبخاري.

(٥) صحيح البخاري مع الفتح كتاب الرقاق باب صفة الجنة والنار ١١/ ٤١٦ حديث ٦٥٥٩

أمتي^(١).

وذكر ابن أبي العز رحمه الله^(٢) نوعين آخرين من شفاعة النبي ﷺ وكأنه عددهما واحدا حيث قال: (النوع الثاني، والثالث من الشفاعة: شفاعته صلى الله عليه وسلم في أقوام تساوت حسناتهم، وسيئاتهم، فيشفع فيهم ليدخلوا الجنة، وفي أقوام آخرين قد أمر بهم إلى النار أن لا يدخلوها)^(٣).

ويتبين من هذه الأحاديث صحة شفاعة النبي ﷺ التي أنكر بعض أنواعها أهل البدع، كما يتضح من مجموع أحاديث هذا المبحث صورة الواسطة في شفاعة النبي ﷺ فسي الآخرة، يقول ابن أبي العز: (ثم إن الناس في الشفاعة على ثلاثة أقوال: أ - فالمشركون، والنصارى، والمبتدعون من الغلاة في المشايخ، وغيرهم يجعلون شفاعة من يعظمونه عند الله كالشفاعة المعروفة في الدنيا. ب - والمعتزلة، والخوارج أنكروا شفاعة نبينا صلى الله عليه وسلم وغيره في أهل الكبائر. ج - أما أهل السنة، والجماعة فيقرون بشفاعة نبينا صلى الله عليه وسلم في أهل الكبائر، وشفاعة غيره؛ لكن لا يشفع أحد حتى يأذن الله له، ويحد له حدا)^(٤).

وبعد أن ثبتت شفاعة نبينا، وحيينا محمد ﷺ ينبغي التنبيه هنا على أنه لا يجوز أن نتوجه إليه ﷺ الآن بطلبها منه في الدنيا، وإنما نتوجه إلى المولى عز وجل في طلبها فنقول: اللهم شفّع فينا نبيك وخاتمة رسلك محمدا صلى الله عليه وسلم، واجعلنا نرد حوضه، ونشرب منه شربة لا نظماً بعدها أبدا، واجزه اللهم عنا أفضل ما جزيت نبيا عن أمته، وصل اللهم عليه أفضل، وأكمل ما صليت على أحد من النبيين، والمرسلين من قبله، وسلم تسليما.

(١) أخرجه أبوداود في سننه ١٠٦/٥، والترمذي في سننه ٦٢٥/٤ برقم ٢٤٣٦، وقال هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه، والإمام أحمد في المسند ٢١٣/٣، والحاكم في المستدرک ٦٩/١، وابن حبان في صحيحه ١٣٢/٨ برقم ٦٤٣٤ بترتيب ابن بلبان، وقال ابن كثير: إسناده صحيح على شرط الشيخين. انظر تفسيره ٤٨٨/١، وقال الشيخ الألباني: الحديث صحيح بطرقه. انظر كتاب السنة لابن أبي عاصم ٣٩٩/٢، بتعليق الشيخ الألباني، وانظر للتوسع في تخريجه كتاب الشفاعة لمقبل الوداعي ص ٨٥.

(٢) هو صدر الدين محمد بن علاء الدين علي بن محمد بن أبي العز الحنفي الأذري دمشقي، ولد سنة ٧٣١هـ، اشتغل بالعلوم حتى كان ماهرا في الفتوى، وخطب بحبان، وولي قضاء دمشق، ثم قضاء مصر، ثم استعفى ورجع إلى دمشق، كانت وفاته بها سنة ٧٩٢هـ، انظر هدية العارفين للبغدادي ٧٢٦/١، والأعلام للزركلي ١٢٩/٥ (٣) شرح العقيدة الطحاوية ص ٢٣٢، وانظر إثبات الشفاعة للذهبي ص ٢١.

(٤) المرجع نفسه ص ٢٣٥، وانظر اليوم الآخر القيامة الكبرى للأشقر ص ١٨٩.

المبحث الثالث

صورة الواسطة في شفاعة غير النبي ﷺ من الملائكة والنبين والمؤمنين

تقدم معنا في المبحث السابق بيان صورة الواسطة في شفاعة النبي ﷺ يوم القيامة، وحيث إن الله تعالى يأذن في الشفاعة في هذا اليوم أيضا لغيره عليه الصلاة والسلام فإن الحديث في هذا المبحث سيكون عن صورة الواسطة في شفاعة هؤلاء الشفعاء^(١)، على ضوء الأدلة الشرعية، وذلك على النحو التالي:-

أولا: صورة الواسطة في شفاعة الملائكة لقد سبقت الإشارة في مباحث سابقة إلى التعريف بالملائكة الكرام عليهم السلام، وبيان كونهم واسطة في تبليغ أوامر الله ووحيه إلى أنبيائه ورسله، وبعض خلقه من غير الرسل.

ونبين هنا كونهم واسطة في الشفاعة في الآخرة، فالدليل على شفاعتهم قول الله تعالى: ﴿وَكَمْ مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِّنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ﴾^(٢) ونحوها من الآيات.

والدليل على هذه الشفاعة من السنة ما جاء في الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه الطويل مرفوعا، وفيه: (فيقول الله عز وجل: شفعت الملائكة... ولم يبق إلا أرحم الراحمين...)^(٣).

ثانيا: صورة الواسطة في شفاعة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. لقد ثبت في السنة أن غير النبي من إخوانه المرسلين عليهم الصلاة والسلام يشفع في اليوم الآخر، لكن شفاعتهم تكون فيما يشاركون فيه النبي ﷺ عدا شفاعاته ﷺ الخاصة به، أما هذه الشفاعة التي يشاركه فيها إخوانه من النبیین والمرسلين فهو ﷺ المقدم فيها، والدليل على شفاعتهم ما جاء في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه الآتي، وفيه: (فيقول الله تعالى: شفعت الملائكة، وشفع النبيون...)^(٤).

(١) ولهذا -والله أعلم- جاء ذكر الشفعاء في آيات الشفاعة بصيغة الجمع بالمنطوق أو المفهوم، كقوله تعالى ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ سورة المدثر الآية ٤٨، وقوله ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ سورة البقرة الآية ٢٥٥ انظر عقيدة المؤمن لأبي بكر الجزائري ص ١٣٥، والشفاعة في الإسلام للدكتور عائش الحبشي رسالة ماجستير غير منشورة ص ١٢٢

(٢) سورة النجم الآية ٢٦

(٣) يأتي تخريجه بعد أسطر.

(٤) انظر تخريجه الآتي بعد أسطر.

ثالثاً: صورة الوساطة في شفاعة المؤمنين: لقد ثبت في السنة النبوية أن الله سبحانه وتعالى يأذن للمؤمنين في الشفاعة لأهل النار، وهذا من كرامة المؤمن على الله عز وجل، وهي منقبة عظيمة لأهل الإيمان، حيث يتعدى النفع الإيماني صاحبه إلى أخيه الذي أدخلته ذنوبه النار، والعياذ بالله. فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعاً وهو حديث طويل، وفيه: (حتى إذا خلص المؤمنون من النار، فوالذي نفسي بيده ما منكم من أحد بأشد مناشدة لله في استقصاء الحق من المؤمنين لله يوم القيامة لإخوانهم الذين في النار، يقولون: ربنا كانوا يصومون معنا ويصلون، ويحجون، فيقال لهم: أخرجوا من عرفتم، فتحرم صورهم على النار فيخرجون خلقاً كثيراً قد أخذت النار إلى نصف ساقه، وإلى ركبتيه، ثم يقولون: ربنا ما بقي فيها أحد من أمرتنا به، فيقول: ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال دينار من خير فأخرجوه، فيخرجون خلقاً كثيراً، ثم يقولون: ربنا لم نذر فيها أحداً من أمرتنا، ثم يقول: ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال نصف دينار من خير فأخرجوه، فيخرجون خلقاً كثيراً، ثم يقولون: ربنا لم نذر فيها أحداً، ثم يقول: ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من خير فأخرجوه، فيخرجون خلقاً كثيراً، ثم يقولون: ربنا لم نذر فيها خيراً) وكان أبو سعيد الخدري يقول: (إن لم تصدقوني بهذا الحديث فاقروا وإن شئتم: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُّضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾^(١) فيقول الله عز وجل: شفعت الملائكة، وشفع النبيون، وشفع المؤمنون، ولم يبق إلا أرحم الراحمين...^(٢).

وعما يمكن الاستدلال به على هذه الشفاعة -أيضاً- ما جاء في بعض السنن عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (إن من أمتي من يشفع للفتام^(٣))، ومنهم من يشفع للقبيلة، ومنهم من يشفع للعصبة^(٤))، ومنهم من يشفع للرجل حتى يدخلوا الجنة^(٥).

(١) سورة النساء الآية ٤٠

(٢) رواه البخاري، كتاب التوحيد باب قول الله تعالى ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ﴾ ١٣/٤٢٠، حديث ٧٤٣٩، ومسلم، كتاب الإيمان باب إخراج العصاة من النار ٣٠/٢ واللفظ لمسلم.

(٣) الفتام: الجماعة الكثيرة. انظر النهاية لابن الأثير ٣/٤٠٦ مادة (ف.م)

(٤) العصبة بضم العين: ما بين العشرة إلى الأربعين. انظر القاموس المحيط ١/١٠٩، مادة (عصب).

(٥) أخرجه الترمذي في سننه ٤/٦٢٧، وقال: هذا حديث حسن، والإمام أحمد في المستند ٣/٢٠، وابن خزيمة في

وعن عبد الله بن أبي الجعداء رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ يقول : (ليدخلن الجنة بشفاعه رجل من أمتي أكثر من بني تميم، قالوا: سواك يا رسول الله؟ قال: سواي)^(١).

ونفهم من شفاعة المؤمنين يوم القيامة التي أعطوها بسبب إيمانهم أنه كلما كان المؤمن أكثر تقى، وأكمل إيمانا، كان أخرى بالشفاعة لإخوانه المسلمين؛ ولهذا جاء في الحديث الصحيح عن أبي الدرداء رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : (إن اللعائن لا يكونون شهداء، ولا شفعاء يوم القيامة)^(٢).

رابعا: صورة الوساطة في شفاعة الشهداء: قد جاء في بعض السنن أن الشهداء يشفعون يوم القيامة لأقاربهم؛ وذلك إكراما من الله لهم، لتضحيتهم بأرواحهم في سبيل الله تعالى. فعن المقدم بن معد يكرب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : (للشهيد عند الله مست خصال...) ثم قال في آخر الحديث : (ويشفع في سبعين إنسانا من أقاربه)^(٣). وعن أبي الدرداء رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : (يشفع الشهيد في سبعين من أهل بيته)^(٤).

خامسا: صورة الوساطة في شفاعة أولاد المؤمنين: أولاد المسلمين إذا ماتوا قبل الحلم شفعاء، وأفراط لوالديهم يوم القيامة، يشفعون في والديهم، ويكونون واسطة بينهم وبين الله تعالى لطلب المغفرة لهم، والتجاوز عنهم، وإدخالهم الجنة مع أولادهم. فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلا قال له: إنه قدم مات لي ابنان، فهل أنت محدثي عن رسول الله ﷺ بحديث تطيب له أنفسنا عن موتانا؟ قال: نعم: (صغارهم دعاميص^(٥) الجنة،

(١) أخرجه الترمذي في سننه ٦٢٦/٤، وقال: حديث حسن صحيح غريب، وابن ماجه في سننه ١٤٤٣/٢، والإمام أحمد في المسند ٦٣٦/٣، والحاكم في المستدرک ٧٠/١ وصححه ووافقه الذهبي، وقال الشيخ الألباني: سنده صحيح. انظر تحقيق مشكاة المصابيح للتبريزي ٨١/٣ برقم ٥٦٠١

(٢) أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب باب النهي عن لعن الدواب وغيرها ١٦/١٤٧

(٣) أخرجه الترمذي في سننه ١٨٨/٤، وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب، وابن ماجه في سننه ٩٣٦/٢، والإمام أحمد في المسند ١٣١/٤، وأورده الأجرى في كتاب الشريعة ص ٣٤٩، وصححه الشيه الألباني، انظر: صحيح سنن ابن ماجه ١٢٩/٢ برقم ٢٢٥٧

(٤) أخرجه أبو داود في سننه ٣٤/٣، وأورده الأجرى في الشريعة ص ٣٥٠، وصححه الشيخ الألباني في صحيح الجامع الصغير ١٣٤٤/٢ برقم ٨٠٩٣

(٥) الدعاميص جمع دعووس: أي صغار أهلها، وأصل الدعمووس دوية في الماء لا تغارقه، أي فهذا الصغير في الجنة لا يفارقها. انظر شرح النووي لصحيح مسلم ١٦/١٨٢، والقاموس المحيط ٢/٣١٤، وفيه: الدعمووس بالضم - دوية أو دودة تكون في الغدران.

يتلقى أحدهم أباه، أو قال: أبويه فيأخذ بثوبه أو قال بيده كما أخذ أنا بصنفة^(١) ثوبك هذا، فلا يتناهى أو قال فلا ينتهي حتى يدخله الله وأباه الجنة^(٢). وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (ما من مسلمين يموت لهما ثلاثة أولاد، لم يبلغوا الحنث إلا أدخله الله وإياهم بفضل رحمته الجنة، وقال: يقال لهم: ادخلوا الجنة، قال: فيقولون: حتى يجيء أبوانا، قال: ثلاث مرات، فيقولون مثل ذلك، فيقال لهم: ادخلوا الجنة أنتم وأبواكم)^(٣).

وبعد أن تبينت صورة الوسطة في شفاعة غير النبي ﷺ من الملائكة، والأنبياء، والمؤمنين، وأولادهم، والشهداء من هذه الأمة، فينبغي للمؤمن اعتقاد شفاعة هؤلاء الشفعاء الذين دلت الأدلة الشرعية على ثبوت شفاعتهم في الآخرة ويكونون واسطة مقبولة عند الله تعالى، يقول السفاريني: (يجب أن يعتقد أن غير النبي ﷺ من سائر الرسل، والأنبياء، والملائكة، والصحابة، والشهداء، والصديقين، والأولياء على اختلاف مراتبهم، ومقاماتهم عند ربهم يشفعون. ويقدر جاههم، ووجاهتهم يشفعون؛ لثبوت الأخبار بذلك، وترادف الآثار على ذلك، وهو أمر جائز غير مستحيل، فيجب تصديقه، والقول بموجبه؛ لثبوت الدليل)^(٤).

وقد ذكر بعض أهل العلم أن شفاعة غير النبي ﷺ ممن ذكرنا تكون مشتركة مع النبي ﷺ في ثلاث شفاعات وهي:-

(أ) الشفاعة فيمن استحق النار أن لا يدخلها. (ب) الشفاعة فيمن دخل النار أن يخرج منها. (ج) الشفاعة في رفع درجات المؤمنين في الجنة

مبينا أن هذه الشفاعات ليست خاصة بالنبي ﷺ، بل تكون للملائكة، والنبيين، والصديقين، وغيرهم من المؤمنين، والصالحين حتى يشفع الرجل في أهله، وفي جيرانه، وفيما أشبه ذلك^(٥).

(١) صفة الثوب: طرفه. انظر شرح النووي لصحيح مسلم ١٦/ ١٨٢

(٢) أخرجه مسلم، انظر صحيح النووي كتاب البر والصلة باب فضل من يموت له ولد فيحسبه ١٦/ ١٨٢

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٢/ ٥١٠، والنسائي في سننه ٤/ ٢٥، والبيهقي في الشعب ٧/ ١٣٣، قال الشيخ مقبل الوادعي: وهو على شرط الشيخين. انظر الشفاعة للوادعي ص ٢٠٢

(٤) لوامع الأنوار ٢/ ٢٠٩، وانظر اليوم الآخر القيامة الكبرى للأشقر ص ١٩٠، والشفاعة في الإسلام للدكتور عائش الحبيشي ص ١٤١ (٥) انظر مجموعة الرسائل والمسائل النجدية ٢/ ٦٥

المبحث الرابع

صورة الواسطة في شفاعة القرآن والصيام

لا ريب أن قراءة القرآن الكريم، وإقامة حروفه، وتطبيق حدوده، وصيام شهر رمضان مع النوافل، إيماناً واحتساباً - لا ريب أن هذا من أصلح أنواع العبادة التي تنفع صاحبها، وتكون واسطة شرعية مقبولة بينه وبين ربه عز وجل، وقد سبقت الإشارة إلى شيء من ذلك في المبحث الماضي (وجه كون العبادة واسطة)؛ ولكن لما ثبت أن للقرآن، والصيام شفاعة يوم القيامة أردت أن أبين صورة الواسطة في شفاعتهما في الآخرة؛ فأقول: -

أولاً: صورة الواسطة في شفاعة القرآن الكريم: ثبت في صحيح مسلم من حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (اقرأ القرآن؛ فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه، اقرأوا الزهراوين^(١) البقرة، وسورة آل عمران؛ فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان، أو كأنهما غيأتان^(٢)، أو كأنهما فوقان^(٣) من طير صواف تحاجان عن أصحابهما، اقرأوا سورة البقرة؛ فإن أخذها بركة، وتركها حسرة، ولا يستطيعها البطلة^(٤))^(٥).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (إن سورة من القرآن ثلاثون آية شفعت لرجل حتى غفر له، وهي: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾^(٦))

ثانياً: صورة الواسطة في شفاعة الصيام: وما يدل على شفاعة الصيام في الآخرة ما رواه عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: (الصيام، والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة، يقول الصيام أي رب منعتني الطعام، والشهوات بالنهار فشفعني فيه، ويقول القرآن منعتني النوم بالليل فشفعني فيه، قال: فيشفعان^(٧)).

فتبين من هاتين الصورتين للواسطة في شفاعة القرآن، والصيام في الآخرة أن الأعمال الصالحة، والعبادة الشرعية المقبولة واسطة بين الله تعالى وعباده العاملين الصالحين، وأن

(١) سميت سورة البقرة وآل عمران زهراوين لنورهما وهما يشعرا وعظيم أجرهما. انظر شرح النووي لصحيح مسلم ٩٠/٦.

(٢) الغيابة: كل شيء أظلم الإنسان فوق رأسه كالسحابة وغيرها. انظر النهاية لابن الأثير ٤٠٣/٣ مادة (غيا).

(٣) الفرق، والفرقة: الطائفة. انظر مختار الصحاح ص ٥٠١ مادة (فرق).

(٤) البطلة: أي السحرة. انظر شرح النووي لصحيح مسلم بشرح النووي ٩٠/٦.

(٥) صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة ٨٩/٦.

(٦) سبق تخريجه. أخرجه الإمام أحمد في المسند ١٧٤/٢، والحاكم في المستدرک ٥٤٤/١.

وقال حديث صحيح على شرطهما ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، ورمز له السيوطي بالصحة في الجامع

الصغير ٥٢/٢، وصححه الشيخ الألباني. انظر صحيح الترغيب والترهيب ٤١١/١.

من أنفع تلك العبادات الشرعية، وأرجى تلك الأعمال الصالحة قراءة القرآن، والاشتغال بالصيام، يقول السفاريني: (والحاصل أن للناس شفاعات بقدر أعمالهم، وعلو مراتبهم، وقربهم من الله تعالى، والقرآن يشفع لأهله، والإسلام يشفع لأهله)^(١).

وبعد أن بينا صورة الوسطة في الشفاعة في الآخرة، لا ننسى أن هذه الشفاعة خاصة بأهل التوحيد الخالص، وأنها لا تطلب من الشفعاء في الدنيا، وإنما نتوجه إلى الله تعالى نسأله أن يشفع فينا هؤلاء الشفعاء الذين ثبتت شفاعتهم.

وقد ذكر أهل العلم -استنباطاً من آيات الشفاعة، وأحاديثها- أن للشفاعة شروطاً ثلاثة^(٢) وهي:-

١- كون المشفوع له من أهل التوحيد.

٢- رضا الله عن المشفوع له، ولا يرضى الله إلا عن أهل التوحيد.

٣- إذن الله تعالى للشافع في الشفاعة^(٣).

وقد قرر العلامة ابن القيم هذه الشروط، وسماها أصولاً، فقال: (فهذه ثلاثة أصول... لا شفاعة إلا بإذنه، ولا يأذن إلا لمن رضي قوله، وعمله، ولا يرضى من القول، والعمل إلا توحيده، واتباع رسوله)^(٤) صلى الله عليه وسلم.

والدليل على هذه الشروط من الكتاب العزيز، قول الله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾^(٥)، وقوله تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾^(٦) وقد قرر أهل العلم هذه الشروط، وتوسعوا في إيراد الأدلة عليها من الكتاب والسنة^(٧).

(١) لوامع الأنوار ٢/ ٢١١، وانظر الشفيع لعمر باشميل ص ٦، ومجموع الفتاوى ٣/ ١٤٧

(٢) من أهل العلم من يزيد شرطاً رابعاً، وهو قدرة الشافع على الشفاعة. انظر الشفاعة للوادعي ص ١٢ ومن أهل العلم من يجمع هذه الشروط في شرطين، وهما: أ- رضا الله عن المشفوع له. ب- وإذنه تعالى للشافع في الشفاعة. انظر الحياة الآخرة للدكتور العواجي ١/ ٢٩٢

(٣) انظر الشفاعة للدكتور عائش الحبيشي رسالة ماجستير غير منشورة ص ١٥٥، والشفاعة للدكتور ناصر الجديع ص ٧١

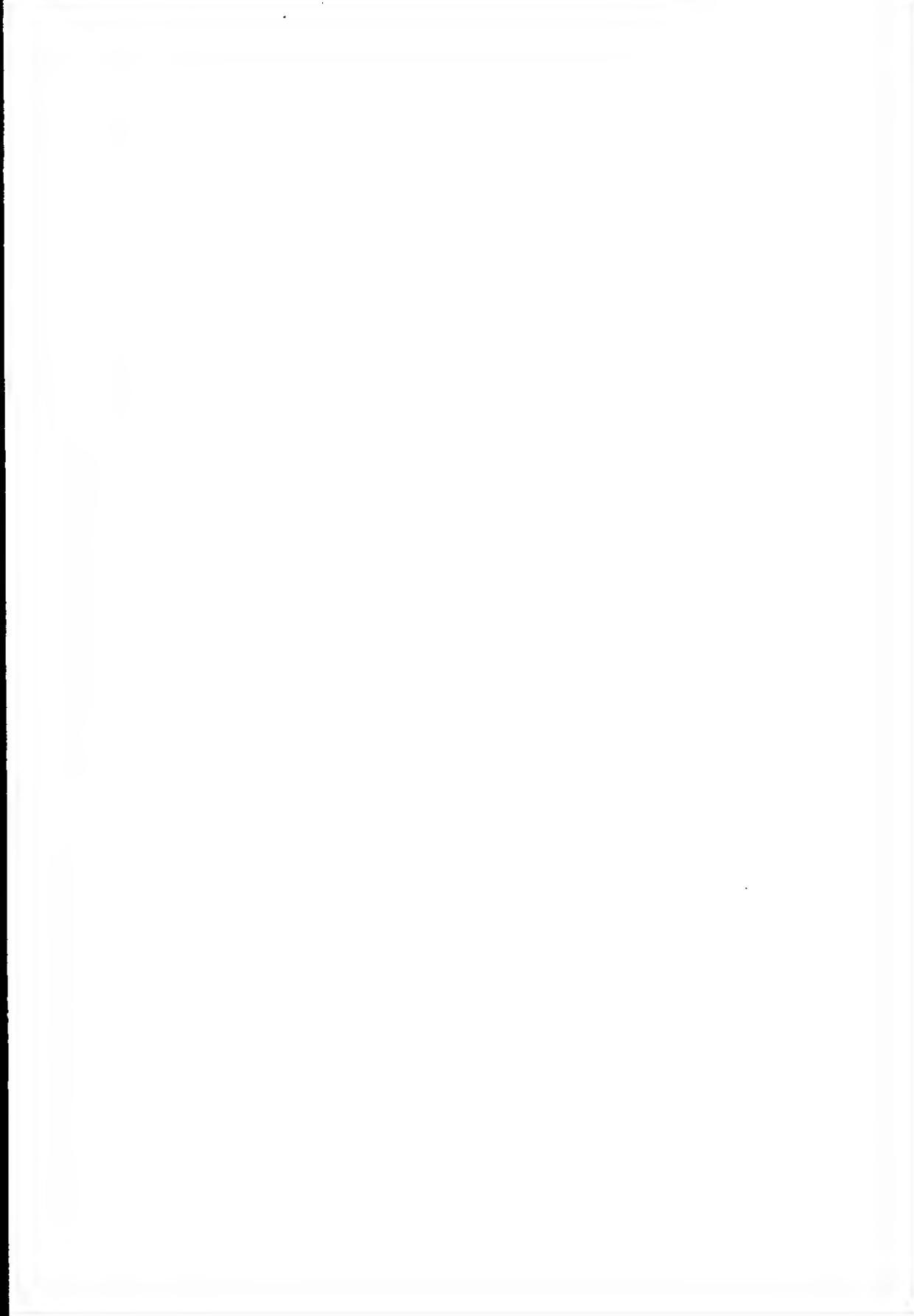
(٤) مدارج السالكين ١/ ٣٤١

(٥) سورة طه الآية ١٠٩

(٦) سورة النجم الآية ٢٦

(٧) لمعرفة الأدلة على تلك الشروط والتوسع في ذلك راجع الشفاعة للدكتور ناصر الجديع ص ٧١، والشفاعة في الإسلام للدكتور عائش الحبيشي ص ١٥٥، والشفاعة للشيخ مقبل الوادعي ص ١٢، والحياة الآخرة للدكتور

غالب العواجي ١/ ٢٩٢



الباب الثاني

الواسطة بين الله وخلقه عند أهل الأهواء

وفيه أربعة فصول:-

الفصل الأول: مفهوم الوساطة عند أهل الأهواء وبيان خروجهم
فيه عن دائرة الكتاب والسنة.

الفصل الثاني: الوساطة بين الله وخلقه عند الفلاسفة وبيان
شبهاتهم والرد عليهم.

الفصل الثالث: الوساطة بين الله وخلقه عند الرافضة وبيان
شبهاتهم والرد عليهم.

الفصل الرابع: الوساطة بين الله وخلقه عند الصوفية وبيان
شبهاتهم والرد عليهم.

1875

1875

الفصل الأول

مفهوم الواسطة عند أهل الأهواء

المبحث الأول : مذهب أهل الأهواء في فهم الواسطة وبيان فساد

سبقت الإشارة في التمهيد - عند تعريف الرافضة، والصوفية من أهل الأهواء والبدع - أن الرافضة قصرت مفهومها الخاص بالواسطة على الأئمة من آل البيت رحمهم الله، وجعلته الصوفية في الأولياء والشيوخ من أرباب الطرق وشيوخ الفرق، فكذبت الرافضة على الأئمة من آل البيت فادعت أنهم واسطة بينهم وبين الله تعالى، والأئمة بريئون من هذا الزعم الكاذب، بينما كذب غلاة أئمة الصوفية، ومشايخها الضالون على المريدين من أتباعهم فادعى كثير من مشايخهم أنهم واسطة بينهم وبين الله تعالى، فكذب التابع على المتبوع عند الطائفة الأولى، وكذب المتبعون على أتباعهم عند الطائفة الثانية (فكل من الإمام والولي كان يدعي لنفسه وينسب إليه أصحابه العلم اللدني، واعتبروا كلا منهما مطلعا على سر منحه الله له مباشرة وبلا واسطة)^(١).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : (والغلو في الأمة وقع في طائفتين : طائفة من ضلال الشيعة الذين يعتقدون في الأنبياء، والأئمة من أهل البيت الألوهية، وطائفة من جهال المتصوفة يعتقدون نحو ذلك في الأنبياء، والصالحين)^(٢).

كما أن الصوفية يظهر بجلاء تأثيرهم بالفلاسفة؛ وذلك في صورة الواسطة البدعية عند الصوفية في الأموات - كما سيأتي، ويجمع بين طائفتي الرافضة والصوفية الغلو، وتقديس الأشخاص^(٣)، كما يجمع بينهما الالتجاء إلى القبور، والتعلق بأصحابها، وهو ما يطلق عليه القبورية، وهي فرق كثيرة متفاوتة في دركات القبورية من حيث الغلو، والتقديس، ومن حيث الانتماء إلى الأشخاص، والمدارس، فبعضهم وثنية أفحاح، وبعضهم يقع في بعض الشوكيات، وبعضهم الآخر متأثر ببعض بدع القبورية، ويمثل القبورية في العالم

(١) من قضايا التصوف للدكتور محمد الجليلي ص ٢٢٣، وانظر إغاثة اللهفان ٥٩٨/٢، وكتاب البرهان الساطع في تبرؤ المتبوع من التابع لمحمد سلطان المعصومي ص ١٣

(٢) مجموع الفتاوى ١/ ٦٦

(٣) انظر دراسات في الأهواء والفرق والبدع للدكتور ناصر العقل ص ٣٧١

الإسلامي طائفتان: الأولى: الرافضة بجميع فرقها، والثانية: الصوفية بجميع طرقها^(١).

كل مذهب لا يقوم على منهج الله تعالى، ولا يستنير بنور الوحي: من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ الذي هو مصدر التلقي عند أهل السنة والجماعة^(٢) ففساده بين، وخلله ظاهر، وهذا الوصف هو الذي يصدق على مذهب أهل الأهواء في فهم الواسطة فإنهم لم يتقيدوا بالكتاب والسنة في إثبات ما يصح من الواسطة الشرعية، ونفي ما لا يصح من الوسائط البدعية، ولم يحكموها في أمور العقيدة، فسيروا معها حيث سارا ويقفوا معها حيث وقفوا؛ بل تركوا هذا المنهج الرباني، وعمدوا إلى تسويلات النفس ونزغات الشيطان، وبنوا مذهبهم في الواسطة على ركाम من الخرافات، والأوهام، ونسيج من الحكايات، والمنامات، والأقيسة الفاسدة، والأدلة المردودة الباطلة، ولعل مذهبهم في الواسطة يتبين لنا من خلال النقاط التالية:-

أولاً: تعلقهم بكل شيء ظنوه سبباً، وإن لم يكن سبباً. يظن أهل الأهواء أن كل شيء توسل به الإنسان إلى ربه عز وجل كان وسيلة صحيحة وواسطة موصلة، وهذا غلط فاحش، فقد تقدم معنا في تعريف الواسطة عند أهل الأهواء أنهم يروون في هذا المقام حديثاً مكذوباً وهو أن النبي ﷺ قال: (من حسن ظنه بحجر نفعه)^(٣)، فأطلقوا العنان لأهوائهم، وحسنوا بكل شيء ظنونهم، فتعلقت قلوبهم بالأحياء الموجودين ويموا نحو الأموات المقبورين، وأصبحوا يستمدون منهم، فقطعتهم عن الله القواطع، وشغلهم دون الله الشواغل وتعلقت بغير الله القلوب، فحرمت بسبب العوائق، والعلائق عن مناجاة علام الغيوب، واعتمدوا على الأسباب الشرعية، وغير الشرعية.

فمن تلك الأسباب الشرعية: الأنبياء، والمرسلون، وأولياء الله الصالحون المتقون، فالإيمان بهؤلاء، ومحبتهم، واتباعهم، وطلب الدعاء منهم في حال حياتهم، وعدم الغلو فيهم ينفع المسلم، ويزيده إيماناً، وأما الالتفات إليهم بالكلية، واعتماد القلب عليهم، ورجاؤهم دون الله، والاستناد إليهم، وسؤالهم إجابة الدعوات، أو التوجه بهم إلى الله

(١) انظر جهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبرورية لشمس الدين الأفغاني ٢٧/١، ودعوة على التوحيد حقيقة

القبرورية وآثارها في واقع الأمة من إصدارات المنتدى ص ١٧

(٢) راجع المبحث السابق (تقيد أهل السنة والجماعة بالكتاب والسنة في فهم الواسطة)

(٣) باطل لا يصح، ولمعرفة المزيد عنه.

لتفريج الكربات ، واعتقاد أنهم يعلمون ما غيبه الله تعالى من أقداره عن الخلق ، فتلك دعوى ساقطة ، وسفسطة هابطة ، لا تصلح أن تكون واسطة .

وأما الأسباب غير الشرعية أصلاً فكالعكوف على القبور ، والتمسح بها ، وتعفير الجباه ، والخدود بترابها ، واستمطار الرحمات ، وطلب حصول الخيرات بدعاء أصحابها ، والاستغاثة بهم ، والاستعانة برفاتهم ، فهذا النوع ليس من الأسباب الشرعية أصلاً حتى يلتفت إليه أهل الأهواء ، ويُعدَّ واسطة ، وسبباً موصلاً .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : (ولهذا قال بعضهم : الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد ، ومحو الأسباب أن تكون أسباباً نقص في العقل ، والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع) ^(١) .

وقال علي بن أبي العز : (ومعنى التوكل ، والرجاء يتألف من وجوب التوحيد والعقل ، والشرع ، وبيان ذلك : أن الالتفات إلى السبب هو اعتماد القلب عليه ، ورجاؤه والاستناد إليه ، وليس في المخلوقات ما يستحق هذا ؛ لأنه ليس بمستقل ، ولا بد له من شركاء وأضداد مع هذا كله ؛ فإن لم يسخره مسبب الأسباب لم يسخر) ^(٢) .

فمن قال : (أتوسل بأبي بكر فقد جمع بين ذاتين لا وسيلة ، ولا طريق توصل وتجمع إحدهما بالآخرى ، فكأنما هذا القائل قد لفظ لفظاً لا معنى له ، بمنزلة من سرد الأحرف الهجائية ؛ إذ لا اتصال بين ذات المتوسِّل ، والتوسَّل به حتى يجمع بينهما ، فلا بد من جامع يتوسل به ، وهو حب الصحابة مثلاً ، وهو من عمل المتوسل ، فإذا قال : أتوسل إليك رب بحبي لأبي بكر ، أو بحبي لصحابة نبيك ، كان هذا حسناً مشروعاً ، وكذا إن قال : أتوسل إليك بتوقيري ، وتعزيري ، وحبي ، واتباعي لنبيك نبي الرحمة ، كان هذا من الوسائل النافعة) ^(٣) .

فالخطورة تكمن في التعلق بالأسباب ، والأخذ بها وحدها دون النظر إلى مسببها ، وخالقها ، وهو الله سبحانه وتعالى ، وهذه الخطورة تعرض الكون للاختلال ، فالتعلق بالأسباب وحدها يؤدي إلى عبادتها ، وما من أمة عبدت الأسباب إلا انتشر فيها الجهل

(١) مجموع الفتاوى ٨ / ٧٠ ، وانظر صيانة الإنسان ص ٢٣٢

(٢) شرح العقيدة الطحاوية ص ٤٦٠ ، وانظر مجموعة الرسائل الكبرى ١ / ٣٧٤ ، والقول الفصل النفيس ص ٣٣

(٣) هذه مفاهيمنا ص ١٨ ، وانظر اقتضاء الصراط المستقيم ٢ / ٦٩٦ ، والتوسل للألبياني ص ٢٢

والفساد، ومن ترك المسبب وعبد الأسباب فقد ضل، ونسي الله تعالى؛ ولهذا ينبغي أن يعتبر في الأسباب ثلاثة أمور:-

أولها: أن السبب لا يستقل بالمطلوب.

وثانيها: أنه لا يجوز أن يعتقد أن الشيء سبب إلا بعلم.

وثالثها: أن الأعمال الدينية لا يجوز أن يتخذ منها شيء سببا إلا أن تكون مشروعة^(١).

فالعبادات التي يتقرب بها إلى الله تعالى، والأسباب الشرعية الموصلة إلى مرضاته لا يمكن أن تعرف إلا بوحى الله المنزل (فنحن نتقرب إلى الله تعالى، بالأفعال التي يحبها الله تعالى ويرضاها، ومحوبات الله ومرضياته غيب محجوب عنا، ولا نستطيع معرفته إلا إذا أعلمنا بذلك، من هنا كانت العبادات التي تقربنا إلى ربنا مبينة مفصلة، ولم يترك الله لأحد فيها قولا، ولم يدع فيها نقصا يحتاج إلى إكمال، ولو ترك شيء بغير إيضاح لكان مدعاة إلى الاختلاف، والتنازع^(٢).

وقال الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن آل الشيخ في رده على من زعم أن دعاء غير الله تعالى من الأحياء والمقبورين، واعتبارهم واسطة شرعية يعد من قبيل الجاه، والتسبب: (وهذا العراقي^(٣) صرح بأنه يجوز نداؤهم - أعني نداء الأنبياء، والصالحين؛ بل والجمادات - كما هو مشهور عنه، لكن يسميه توسلا، خالف المشركين في التسمية لا في الحقيقة، فيدعو الغير، ويرجوه في كل مطلوب على وجه الجاه، والتسبب، وهذا حقيقة الشرك، والتنديد^(٤).

ثم أخذ رحمه الله في الرد عليه فقال (واعلم أن دعاء الأموات والغائبين ليس بسبب لما يقصده المشرك، ويريده، بل هو سبب لنقيض قصده، وحرمانه، وهلاكه في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا نَفْعَ لَهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ (١٢) **يَدْعُو لِمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لِبَشَرٍ مَوْتٍ وَلِبَشَرٍ الْعَشِيرِ**^(٥)؛ لأنه في الحقيقة إنما عبد

(١) انظر الواسطة بين الحق والخلق ص ٤٤

(٢) مقاصد المكلفين فيما يتعبد به لرب العالمين لعمر الأشقر ص ٥٠٤

(٣) يقصد الشيخ رحمه الله داود بن جرجيس الذي ألف كتابه للرد عليه.

(٤) تحفة الطالب والجليس ص ٣٧، وانظر مجموعة الرسائل والمسائل النجدية ١ / ٧٢

(٥) سورة الحج الآيتان (١٢-١٣).

الشيطان، ودعاه، وأطاعه فيما يأمر به؛ ولذلك تتبرأ الملائكة، والصالحون ممن دعاهم، وصرف لهم شيئاً من العبادة، وأيضاً: فليس كل سبب يباح؛ بل من الأسباب ما هو محرم، وما هو كفر كالسحر، والتكهن، والغبي يظن أن الدليل يسلم له إذا أراد التسبب لا الاستقلال، وعباد الكواكب، وأصحاب النيرنجيات^(١)، ومخاطبات النجوم يرون أنها أسباب، ووسائل نافعة، ويظنونها كالأسباب العادية، وعباد القبور والأنفس المفارقة يرون أن تعلق قلب الزائر، وروحه بروح المزور سبب لنيل مقصوده، وتحصيل نصيب مما يفيض على روح ذلك المزور^(٢). . . . وقد قال بعض السلف^(٣): (ما عبدت الشمس، والقمر إلا بالمقاييس)^(٤).

وإذا أخبرنا الله تعالى أن المشركين الأولين إنما أشركوا شرك واسطة وتقريب لا شرك خلق، وإيجاد، وشرك تسبب، لا شرك استقلال، فلماذا لا نتبع قول الله جل وعلا، ونندع تأويلات أهل الأهواء، والبدع؟^(٥).

والغاية إذا كانت واضحة وصحيحة - وهي عبادة الله تعالى بما شرع - فلا بد أن تكون الوسيلة أيضاً كذلك واضحة وصحيحة؛ لأن الذي شرع الغاية لم ينس الوسيلة، والأعمال الصالحة لا تكون مقبولة إلا بالنية الصالحة، فالنية الحسنة لا تجعل الباطل حقاً؛ لأن حسن النية وحده لا يكفي لتصحيح الفعل، فلا بد أن ينضم إليها التقيد بالشرع^(٦).

والذين يقصدون التقرب إلى الله تعالى بأسباب غير مباحة ثلاث فرق :-

١- فرقة عدت بعض الذنوب والمعاصي قربات، كالتي تمكن نفسها من الشيخ صاحب الطريقة عن طريق الحرام، طلباً لوساطته وبركته.

٢- وفرقة جعلت الحرام وسيلة إلى الأمور التي يتقرب بها إلى الله تعالى كالذي يطلب

(١) النيرنجيات: إظهار خواص الامتزاجات، ونحوها بين القوى الفاعلة والمفعلة وهي ضرب من التتمويه والتخييل، وينرج فارسي معرب، وأصله تورنك أي: لون جديد، والنيرنجيات ألحقها بعضهم بالسحر. انظر مفتاح السعادة لطاش كبرى زاده ٣٣٩/١

(٢) راجع صورة الواسطة عند الفلاسفة في الفصل الأول من هذا الباب.

(٣) جاءت هذه العبارة عن ابن سيرين رحمه الله رواها عنه ابن جرير في تفسيره ١٣١/٨، وابن عبد البر في جامع

بيان العلم وفضله ٧٦/٢، قال الحافظ ابن كثير: إسناده صحيح. انظر تفسيره ٢٠٣/٢

(٤) تحفة الطالب والجلس ص ٤٥ (٥) انظر هذه مفاهيمنا ص ١١٩

(٦) انظر مدارج السالكين ٨٤/١، والبدعة لسليم الهلالي ص ١٨

المال والكسب بالربا .

٣- وفرقة ظنت أن من الحرام ما يصبح قربة في حق طائفة معينة أو فرد معين كالذين يزعمون أن المعصية الصغيرة مباحة للولي ، ويدعون أن الله أحل له ما حرمه على غيره ، فيزعمون أن ذلك الذنب قربة لصدوره عن ذلك الولي^(١) .

ويجمع بين أهل الأهواء ، وهذه الفرق الثلاث أن أهل الأهواء أيضا يزعمون أنهم يتقربون إلى الله تعالى بالشرك ، ووسائله كالغلو في الأشخاص ، والتوسل بهم إلى الله تعالى ، والالتجاء إلى القبور ، والعكوف عليها ، ولهذا خاطبهم أحد الشعراء بقوله^(٢) :-

يا داعيا غير الإله تقربا	في زعمه للواحد الديان
أنسيت أنك عبده وفقيره	ودعاؤه قد جاء في القرآن
الله أقرب من دعوت لكربة	وهو الحبيب بلا توسط ثان
ليس التوسل والتوسط بالهوى	بل بالتقى والبر والإحسان
هذا كتاب الله يفصل بيننا	هل جاء فيه توسلوا بفلان
إن التوسل في الكتاب لواضح	وإذا فطنت فإنه نوعان ^(٣)

ثانيا: دعوتهم الصريحة إلى التعلق بالواسطة، والالتفات إليها أكثر من الالتفات إلى المتوسط إليه.

بناء على ما سبق من تعلق أهل الأهواء بالأسباب الشرعية وغير الشرعية لتوسط لهم عند الله تعالى ، فإنهم يرون أن الإنسان العادي غير مهياً لمناجاة الله تعالى ورجائه ، ودعائه ، والاطراح بين يديه من غير واسطة نظيفة الظاهر ، مصقولة الباطن ، تفتح له أبواب ذلك الرجاء ، ونوافذ الدعاء ، وتمهد له الاطراح بين يدي خالق الأرض والسماء ، وعلى هذا الفهم بنوا مذهبهم الفاسد في الواسطة ، وقالوا: لا بد لنا من واسطة ، وليس كل من اتخذ بينه وبين الله واسطة يعد مشركا ؛ لأن أمور الناس جميعا تنبني على الواسطة^(٤) .

(١) انظر قواعد الأحكام للعلامة ابن عبد السلام ١/ ١٥٠ ، ومقاصد المكلفين للأشقر ص ٥٠١

(٢) هذه الأبيات لمحمد عبد الظاهر الفقيه . انظر كتابه حياة القلوب بدعاء علام الغيوب ص ٩٩

(٣) يشير بذلك إلى توسل المؤمنين بالإيمان والعمل الصالح وتوسل المشركين بالأصنام والأوثان .

(٤) لا يقصدون بذلك الواسطة الشرعية الصحيحة التي سبق بيانها في معتقد أهل السنة والجماعة وهي واسطة من الله إلى الناس في التبليغ وهي النبوة ، أو الرسالة ، واسطة من الخلق إلى الخالق وهي العبادة ، وإنما يقصدون بالواسطة توسيط ذوات الأنبياء ، والأولياء ، والصالحين ، وكل من زعموا أن فيه سرا إلهيا !! .

يقول محمد علوي المالكي : (يخطئ كثير من الناس في فهم حقيقة الوسطة فيطلقون الحكم هكذا جزافاً بأن الوسطة شرك ، وأن من اتخذ واسطة بأي كيفية كانت فقد أشرك بالله ، وأن شأنه في هذا شأن المشركين القائلين : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ (١) ، وهذا كلام مردود ، والاستدلال بالآية في غير محله ؛ وذلك لأن هذه الآية الكريمة صريحة في الإنكار على المشركين عبادتهم للأصنام واتخاذها آلهة من دونه تعالى ، وإشراكهم إياها في دعوى الربوبية على أن عبادتهم لها تقربهم إلى الله زلفى ، فكفرهم وإشراكهم من حيث عبادتهم لها ، ومن حيث اعتقادهم أنها أرباب من دون الله . . . فالواسطة لا بد منها ، وهي ليست شركاً ، وليس كل من اتخذ بينه وبين الله واسطة يعتبر مشركاً ، وإلا لكان البشر كلهم مشركين بالله ؛ لأن أمورهم جميعاً تنبني على الوسطة ، فالنبي صلى الله عليه وسلم تلقى القرآن بواسطة جبريل ، فجبريل واسطة للنبي ﷺ وهو صلى الله عليه وسلم الوسطة العظمى للصحابة رضي الله تعالى عنهم . . . ، وهو الذي يقول : (أنا قاسم والله معط) وبذلك يظهر أنه يجوز وصف أي بشر عادي بأنه فرج الكربة ، وقضى الحاجة ، أي كان واسطة فيها ، فكيف بالسيد الكريم ، والنبي العظيم صلى الله عليه وسلم ؟ (٢) .

وهذا هو مذهب أهل الأهواء في الوسطة ، وهو الخلط بين الوسطة في التبليغ ، والواسطة في العبادة ، ومن ثم يظنون من نفى الوسطة في العبادة فهو ينفي الوسطة في التبليغ ، وهذا فهم سقيم يصحح بصاحبه ، وبنوا على مذهبهم هذا أن كل واسطة في التبليغ يصح توسيطها في الدعاء ، والرجاء ، والتوجه ، والاستمداد ، وطلب الرزق ، والسداد ، وسيمر بنا أن من نتائج هذا الفهم الخطير أن أهل الأهواء تجاوزوا حافة الدعاء بالواسطة فسقطوا في حفرة دعاء الوسطة نفسها ، والتوجه إليها بطلب المغفرة ، والنجاة ، وسعة الرزق ، وشفاء المريض ، وحضور الغائب ، وإنجاح المطالب ، وإخصاب رحم العقيم ، والاستمداد من أصحاب القبور الفيوضات الدائمة ، والتوجه إليهم بطلب حسن الخاتمة ، وهذا من غير شك ظن الغافلين الجاهلين الذين حرموا التقوى ، والولاية ، وقست قلوبهم فعميت بصائرهم عن نور الهدى .

(١) سورة الزمر الآية ٣ ، ووقعت الآية في مفاهيم يجب أن تصحح هكذا ﴿ إِنَّمَا نَعْبُدُهُمْ ﴾ وهذا خطأ يجب أن يصحح !

(٢) مفاهيم يجب أن تصحح ص ٩٥ وما بعدها (بتصرف)

يقول أبو السمع الفقيه رحمه الله^(١) : (فيظنون أن الأولياء تقرب العباد من الله فيكونون وسطاء عنده لغيرهم ممن ليسوا بأولياء ، ولم يدروا أن اتخاذ الأولياء وسطاء وشفعاء من دون الله هو دين المشركين في كل زمان ، وأن دين الإسلام امتاز بأنه لا واسطة فيه بين العبد وربه^(٢) ، ولا زلفى إليه تعالى إلا بالإيمان ، والعمل الصالح ، والتقوى ، كما قال جل شأنه : ﴿ وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى (٧٥) جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى ﴾^(٣) ، : ﴿ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّذِي تَقْرَبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرَفَاتِ آمِنُونَ ﴾^(٤))

فإن لم يكن العبد وليا مطيعا لله فإن أولياء الله يتبرؤون منه ، ويكرهونه موالاة لله ، ولن يتوسطوا لعدو الله ، وهم أحباب الله ، فإن توسطوا له كانوا أعداء لله مثله ، وطردوا ، وكيف يتوسطون لمن يدعوهم من دون الله ؟ فيحولوا بينه وبين مناجاته لربه ، وتذلل له ، وهم لم يكونوا أولياء إلا بحبهم ما يحب الله وبغضهم ما يبغض الله تعالى ، والله يبغض من يدعو سواه ، ويحب من يسأله ، ويدعوه^(٥) .

واستمع إلى آخر وهو يدعو إلى الشرك علانية ، ويقول : إنه ينبغي أن يتعلق الخلائق بالواسطة أكثر من تعلقهم بالمتوسط إليه ، وهو الخالق سبحانه ذو القوة المتين ، فيقول : (. . .) فإنه صلى الله عليه وسلم هو الواسطة بيننا وبينه تعالى ، والدليل لنا عليه ، والمعرف لنا به عز وجل ، والتعلق بالواسطة متقدم على التعلق بالمتوسط إليه ؛ فإن الواسطة هو السبب في الدخول على الملك العظيم ، ووسيلة إلى منازل القرب ، فهو صلى الله عليه

(١) هو أبو السمع عبدالظاهر بن محمد نور الدين التليني ، إمام وخطيب المسجد الحرام ، ولد في بلدة (تلين) بمصر سنة ١٣٠٠ هـ ، حفظ القرآن على يد والده وهو في سن التاسعة من عمره ، ثم التحق بالأزهر ، وكان يحضر مجلس الشيخ محمد عبده وهو صغير السن ، ثم اتصل بالشيخ أمين الشنيطي رحمه الله فأثار له طريق العقيدة السلفية ، أسس في مصر جماعة أنصار السنة ، ثم طلبه الملك عبدالعزيز آل سعود . رحمه الله تعالى . ، وعينه إماما وخطيبا في المسجد الحرام ، أسس دار الحديث بمكة المكرمة ، توفي بمصر سنة ١٣٧٠ هـ . انظر :

الأعلام ١١ / ٤ ، وأئمة المسجد الحرام ومؤذنه في العهد السعودي لعبدالله الزهراني ص ٣٢

(٢) لعله رحمه الله يقصد نفي الواسطة في العبادة ، والدعاء ، أما في التبليغ فالواسطة ثابتة كما تقدم في الباب الأول من هذه الرسالة . (٣) سورة طه الآيتان (٧٥-٧٦) .

(٤) سورة سبأ الآية ٣٧ (٥) حياة القلوب بدعاء غلام الغيوب ص ٢٣ وما بعدها (بتصرف) .

وسلم الواسطة بين الخلق وبين ربهم تعالى^(١).

وإذا كان هذا الصوفي يدعو إلى التعلق بالواسطة، ويقصد بها النبي صلى الله عليه وسلم أكثر من التعلق بالله تعالى فإننا نجد صوفيا آخر يدعو أيضا إلى التعلق بالواسطة؛ لكنه يقصد بالواسطة الشيخ، فيقول: (فالتعلق بالشيخ واللياذ بجنابه، والانحياز إليه تعلق بجناب الله الكريم؛ لأن الشيخ باب رحمة الله دنيا وأخرى، وعلى يديه تنزل الرحمة من الرحمن إلى كل مرحوم، وهو الوسيلة والواسطة، ولولا هو لهلك الكل، كما قيل: لولا الواسطة لذهب المتوسط)^(٢).

ويقول آخر: (ولهذا يتبين لك وجوب التعلق بالوسائل، والأسباب، وتأكد لزوم التزام الوسائط، والأبواب، فَتَعَلَّقْ بالوسائل، والأسباب، والجأ، واستغث، واندِه لخواص الله، والأحباب، واطرق لدى الخطوب ما شئت من الأبواب تتل بذلك من فيض الوهاب ما لا يدخل في حساب)^(٣).

وهذا الاعتقاد السائد عند الصوفية في الواسطة هو ما مهد لظهور هذا المفهوم الخاطيء ونراه عندهم أيضا في الأوراد، والصلوات، فيقولون في الصلاة المشيشية^(٤) بعد وصف النبي ﷺ بصفات فيها غلو (.... ولا شيء إلا وهو به منوط إذ لولا الواسطة لذهب - كما قيل - المتوسط)^(٥).

ويقولون: (كل من كان متعلقا بنبي أو برسول، أو ولي فلا بد أن يحضره، ويأخذ بيده في الشدائد)^(٦).

فالعكوف على القبور والتعلق بالمقبورين (ناجم عن قلة الاعتقاد في الأحياء؛ وذلك من نقص الهمة، اللهم إلا أن يكون ذلك على سبيل التعرض لنفحات الرحمة بالزيارة لطلب الزيادة، فمدد الميت أقوى من مدد الحي؛ لأنه في بساط الحق؛ ولأن التعلق به عري عن

(١) نقله التبهاني عن محمد بن عمر الغمري الواسطي. انظر شواهد الحق في الاستغاثة بسيد الخلق ص ٢٧١

(٢) رماح حزب الرحيم بحاشية جواهر المعاني ١/ ٢٠ للفتوي.

(٣) من رسالة تحريض الأغبياء على الاستعانة بالأنبياء والأولياء لعبد الله المحجوب المبرغني، نقلًا عن دمعة على التوحيد ص ٤٥

(٤) نسبة إلى منشئها عبد السلام بن مشيش صوفي مغربي اشتهر برسالة له تدعى الصلاة المشيشية توفي عام

٦٢٢ هـ. (٥) الصلاة المشيشية مطبوعة بحاشية دلائل الخيرات للجزولي ص ٢٦٠

(٦) فتاوى إفريقية للبريلوي ص ١٣٥ نقلًا عن البريلوية لإحسان إلهي ظهير ص ٦٠، وانظر دمعة على التوحيد

الأعراض، والعوارض من الاستئناس ونحوه، وكرامة الله لأوليائه لا تنقطع بموتهم؛ بل ربما زادت، كما هو معلوم في كثير منهم^(١).

ونقل النبهاني^(٢) عن بعض مصنفي الصوفية أنه قال: (يحكى أن سيدي محمدا الحنفي^(٣) قدس الله سره فرش سجادته على البحر، وقال لمريده: قل يا حنفي، وامش، فمشى المريد خلفه، فخطر له: لم تقول: يا حنفي؟ هلا قلت: يا الله؟ فلما قالها: غرق، فأمسك الشيخ بيده، وقال له: أنت الحنفي تعرفه فكيف بالله؟ فإذا عرفت الله فقل: يا الله!! يشير إلى أن الوسائط لا بد منهم، وقد قيل: لو وصل واصل من غير واسطة لوصل رسول الله ﷺ، ولكن كان واسطته أولا جبريل، فالوسائط ينادون من مكان قريب فيجابون، والمريد من مكان بعيد فلا يجاب، فلهذا قيل: لولا الواسطة لذهب الموسوط، وقال آخر: لولا الوسائط لكنا من الوسائط^(٤).

ويقولون: (إن لله عبادا اختصهم بحوائج الناس يفزعون إليهم بحوائجهم)^(٥) ويدعون أيضا: (أن جميع العالم للأولياء ككف يد ينظرون إليها، وإن ناداهم أحد واستغاث بهم من أي بقعة كان يغيثونه، ويقضون حوائجه)^(٦).

فإذن ينبغي أن لا تستولي علينا الغرابة من أصحاب هذا المعتقد الفاسد والمفهوم الخاطئ للواسطة حينما يصرحون (بأن نظام الخلق قائم بوساطة الأولياء)^(٧). وهذا ما جرهم في نهاية المطاف إلى ظهور التوسل بالله عز وجل والعياذ بالله إلى الصالحين لقضاء الحوائج فيقول الزائر على هذا الوجه الكفري: (قدمت وجاء الله يا سيدي فلان إلا ما قضيت لي حاجتي)^(٨).

(١) نخبة المطلوب من شرح مطهرة القلوب لمحمد بن أحمد الخديم ص ١٩

(٢) هو أبو المحاسن يوسف بن إسماعيل بن يوسف النبهاني الشافعي الأديب الصوفي، من مصنفاته: ((جامع كرمات الأولياء)) و((شواهد الحق في الاستغاثة بسيد الخلق))، توفي سنة ١٣٥٠ هـ، انظر معجم المؤلفين ١٣/ ٢٧٥

(٣) هو شمس الدين محمد الحنفي الصوفي صاحب الأقوال الخطيرة في شأن الكرامة، ولأتباعه غلو زائد فيه، قال عنه الشعراني: هو أحد أركان الصوفية وصدور أوتادها، مات سنة ٨٤٧ هـ. انظر طبقات الشعراني ٢/ ٨٨

(٤) برء الأسقام في زيارة برزة والمقام لمصطفى البكري الخلوتي نقلا عن شواهد الحق في الاستغاثة بسيد الخلق ص ٤٤٧ (٥) الأمن العلى للبريلوي ص ٤٩ نقلا عن البريلوية ص ٥٦

(٦) جاء الحق لأحمد يار البريلوي ص ١٣٨ نقلا عن البريلوية ص ٦٣

(٧) الأمن والعلى للبريلوي ص ٢٤ نقلا عن البريلوية ص ٧٤ (٨) الإبريز ص ١٧٤



وفي الرد على هذا الادعاء، وقول أهل الأهواء: (لا بد للخلق من واسطة) وأن الأقطاب، والأبدال، والغوث يرزق الله بهم الخلاق يقول العز بن عبد السلام: (يلزم منه أن يرزق الله سبحانه الكفار، وينصرهم على عدوهم بالذات بلا واسطة، ويرزق المؤمنين وينصرهم بواسطة المخلوقات، والتعظيم في عدم الواسطة) (١).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: (وبالجمله فقد علم المسلمون كلهم أن ما ينزل بالمسلمين من النوازل في الرغبة، والرغبة مثل دعائهم عند الاستسقاء لنزول الرزق، ودعائهم عند الكسوف، والاعتداد لرفع البلاء، وأمثال ذلك إنما يدعون في ذلك الله وحده لا شريك له، لا يشركون به شيئاً، لم يكن للمسلمين قطعاً أن يرجعوا حوائجهم إلى غير الله عز وجل؛ بل كان المشركون في جاهليتهم يدعونه بلا واسطة فيجيبهم الله، أفتراهم بعد التوحيد والإسلام لا يجيب دعاءهم إلا بهذه الواسطة التي ما أنزل الله بها من سلطان؟) (٢).

ثالثاً: فلسفتهم الخاصة في منع العصاة والمذنبين من التوجه إلى الله تعالى مباشرة، والبحث عن واسطة مصقولة لتوسط لهم عند الله تعالى: يدافع أهل الأهواء عن مذهبهم في اتخاذ الواسطة البدعية بشبه متعددة، أهمها هذه الفلسفة التي سبقهم إليها الفلاسفة والمشركون في الجاهلية وهي أن الإنسان العادي غير مهياً لمناجاة الله والتوجه إليه، وخصوصاً إذا كان هذا الإنسان متلبساً ببعض الذنوب والمعاصي، فإنها تمنعه من هذه الأهلية فعليه إذن أن يبحث عن واسطة بينه وبين الله تعالى كي يسمع نداءه ويحقق رجاءه، وهذه الواسطة متوفرة فما عليه إلا أن يتوجه إلى قبر من قبور الأنبياء، أو ولي من الأولياء، أو إلى شيخ من مشايخ الطريقة مجرب في العلانية والسر، بسبب ما حل فيه من السر!! فإذا فعل ذلك فقد نجح في دنياه، وفاز في آخره، فالأولياء يتصرفون، ولكن الله هو الذي له التصرف في تلك الأمور العظيمة، حتى يتعجب المتعجب بينما الفاعل في الحقيقة هو الله تعالى.

وقد جعل الله الوسائط؛ لأن الإنسان لو شاهد أفعال الحق لذابت نفسه وسالت وإنما يطبق الخلق أن يشاهدوا أفعال الحق عن طريق الواسطة؛ ولذا خلق الله الوسائط، وجعل الملائكة ظروفاً تظهر فيها أفعاله لئلا تذوب المخلوقات، فلهذا كان للملائكة خصوصية في

(١) رسالة الأبدال، والغوث ضمن كتاب شجرة الإرشاد ص ٦

(٢) زيارة القبور والاستنجاد بالمقبور ص ٦٦

توسطهم في الفعل ليست لغيرهم؛ ولأجل النفع الحاصل بالملائكة في التوسط بين الحق والخلق وجب الإيمان بهم دون غيرهم من المخلوقات^(١).

ويصرح صوفي معاصر بهذا المذهب قائلاً: (فامتثالاً لأمر الله تعالى وتلبية لنداء القرآن سنذهب إلى البدوي^(٢)).

ونقول له: حسبة لوجه الله تعالى، وامتثالاً لأمر الله عاوناً في قضاء حوائجنا، وساعدنا على قضاء مصالحنا، واسأل الله تعالى أن يكشف عنا السوء، واطلب منه أن يمنحنا رضاه، واسأله أن يكشف عن المسلمين ما هم فيه من جهد، وعناء، وأن يزيل عنهم ما هم فيه من فاقة، وبلاء، سنقول له ذلك وأكثر من ذلك.

ونقول له: أنت أعرف منا بربك، وأدرى بما يجب له من أدب، وخضوع... ونحن عبيد قد أعمتنا الدنيا عن معرفة الله، وشغلتنا عن حضرته، وحالت بيننا وبينه، فأصبحنا نستحق الإبعاد، ونستوجب الطرد، والإعراض من حضرته، وليس لنا موئل، ولا سند، ولا معين إلا أن نطلب منك المعاونة، والمساعدة عنده، فإن لم تساعدنا لنكونن من الخاسرين، نعم سنقول له ذلك اعترافاً لله بعجزنا، واعترافاً بخطيئتنا، وإقراراً بتقصيرنا، وقصورنا عن طلب السؤال منه؛ لأننا أغضبناه، وخرجنا عن حدود الأدب في معاملته، وانصنعنا^(٣) لشهواتنا، وانقذنا لأهوائنا، وما بقي لنا وجه نسأله به، ولسان نذكره به، وما بقي لنا إلا الشفاعة عنده وبأخص أحبابه، وأخلص المقربين له، هذا هو تقديرنا لتعاليم القرآن، وتقديرنا لمقام ربنا، وتقديرنا لمقام أحبابه، وتقديرنا لأنفسنا^(٤).

ويقول رجل آخر من أهل الأهواء مدافعاً عن هذا المذهب في فهم الواسطة؛ لكنه هذه المرة من متأخري الرافضة: (فإذا كانت قداسة المكان وعراقة الزمان مؤثرين في استجابة الدعاء، وقبول التوبة، وقضاء الحاجة، وغفران الذنوب، فما المانع أن يقرن الداعي دعاءه

(١) انظر الإبريز ص ٢٠٣، والصوفية معتقداً ومسلِكاً ص ٣٧، ودعوة علي التوحيد ص ٩٧، والشرك في القديم والحديث لأبي بكر محمد زكريا ص ٧٩٠ رسالة ماجستير غير منشورة.

(٢) هو أبو الفتيان، وقيل: أبو العباس أحمد بن علي بن إبراهيم بن علي بن إبراهيم شهاب الدين الحسيني، البدوي، الصوفي، ولد بفاس سنة ٥٩٦هـ، طاف البلاد، وأقام بمكة والمدينة، ودخل العراق، والشام، ثم استقر في مصر، وعظم شأنه بها، وانتسب إلى طريقته جمهور كبير من المصريين، توفي بطنطا سنة ٦٧٥هـ.

انظر: الأعلام ١/ ١٧٠، ومعجم المؤلفين ١/ ١٩٥.

(٣) انصاع للأمر: انقاد له، ورجع إليه. انظر القاموس المحيط ٣/ ٥٥، مادة (الصاع).

(٤) العظة والاعتبار آراء في حياة السيد البدوي لأحمد محمد حجاب ص ١٧٠.



بذكر نبي الرحمة ، وأهل بيته الأطهار ، ويقدمهم بين يدي حوائجه ؟ فإذا لم نكن نستغرب وقوع المكان ، والزمان شفعا مؤثرا في استجابة الدعاء فماذا نستغربه من شفاعته نبي كريم ؟ ! وهكذا العقل الفطري لا يستبعد تأثير واسطة الفيض في بلوغ القاصر بهيمته المطلوبة نظرا لكمال الواسطة ، وصلاحيته لانعكاس الفيوض منه إلى القاصرين ، فإن للكاملين إشعاعات مفاضة تشمل القاصرين عن بلوغ الأهداف ؛ حيث مرادفة الكامل كمال ، ومصاحبة الجميل جمال ؛ ولأجل عين ألف عين تكرم^(١) .

ويرى بعض أهل الأهواء أن السبب في عدم التجاء الناس في الدعاء والتضرع إلى الله تعالى والتوجه إلى الواسطة من البشر ، أو الحجر هو أن أهل الديوان^(٢) ربطوا عقول الناس بالتوجه إلى الصالحين ، وقطعوا صلتها بالله عز وجل للظلمة الكامنة فيهم .

يقول صاحب الدباج : (وسألته رحمه الله لم كان الناس يستغيثون بذكر الصالحين دون الله عز وجل ، فترى الواحد إذا جهد في يمينه يقول : وحق سيدي فلان كسيدي عبد القادر الجيلاني وإذا أصابه ضر ، وأراد أن يسأل كالسعاة الذين يتكففون الناس صرح باسم سيدي فلان وهم في ذلك كله منقطعون عن الله عز وجل ، وإذا قيل لهم توسلوا بالله ، أو احلفوا به ، أو نحو ذلك لا يقع ذلك الكلام منهم موقعا ، فما السبب في ذلك ؟ فقال رحمه الله : أهل الديوان من أولياء الله فعلوا ذلك عمدا لقوة الظلام في الذوات ، وكثرة المنقطعين عن الله عز وجل ، فصارت ذواتهم خبيثة ، وأولياء الله تعالى يحبون الذين يذكرون سيدهم وخالقهم سبحانه أن تكون ذاته طاهرة وهذا لا يكون إلا للأولياء ، ولا يكون للبعدهاء المحجوبين ، فلو توجهت الذات الظلمانية إليه تعالى بجميع عروقها ، وبكل جواهرها وسألته أمرا ومنعها ، ولم يعطها على سر القدر في المنع لربما وقع لها وسواس في وجود الحق سبحانه ، فتقع فيما هو أدهى وأمر من عدم قضاء حاجتها ، فكان من المصلحة ما فعله أهل الديوان من ربط عقول الناس بعباد الله الصالحين ؛ لأنه إذا وقع لهم وسواس في كونهم أولياء فإن ذلك لا يضرهم^(٣) .

(١) مجلة الهادي الشيعية العدد الرابع مقالة بعنوان الشفاعات بين السلب والإيجاب لمحمد هادي معرفة ص ٢٤
(٢) أهل الديوان أو مملكة الديوان يقصد به الصوفية اجتماع أرواح الأولياء أحياء وأمواتا رجالا ونساء ويحضره الملائكة والكمل من الجن ويحضره النبي (ويكون ذلك ليلة القدر فيتفقون على التصرف في العوالم العلوية والسفلية . انظر الإبريز ص ١٩٩
(٣) الإبريز ص ١٧٣

وبالجملة فالمعاني التي لأجلها يكون الشفعاء والوسطاء في مذهب أهل الأهواء من دون الله لا تكون إناطتها به واتصالها به إلا عن جهل وقصور بالغ، ولا يعتبرها في حقه تعالى إلا من لم يدر أمره، أو حقيقة شأنه إذ لو علم عظمة الله جل وعلا لأيقن أن هذا غلط كبير، ونؤي عن الحق وعمل بنقيض الحكمة، والعدل، (وكيف لا، والتوسيط في هذا الباب وقع بجاهل إلى عالم، أو بمن لا نسبة بينه وبين المتوسّل إليه في جميع الوجوه؟ وخصوصا المعنى الذي يلاحظه المتوسّل، والجهة التي يؤمها، والأمر الذي يحاوله، وهو إنهاء مطالبه، فكيف مع هذا إذا كان المتوسّل إليه يقول: هلم، فأنا قريب منك لقضاء حاجتك، وإجابة دعائك؟ وقد تعرضت لك فلا تعرض عني، والتوسيط توعير، ومناقضة للمقاصد الصحيحة، والركون في الوصول إليّ على شفيع هو من محض إيجادي ساع في أن ينال قربا مني ودنوا من رحمتي، راج ما ترجون، خائف مما تخافون سفه بحث، وضلال مبين... فكيف يصلح توسيط من يجهل، وينسى، ويميل، ويضجر، ويشغله شيء عن شيء، ولم يحجر الله سبحانه وتعالى اتخاذ الشفعاء من دونه إلا لما هو خير لنا، حسن العائدة علينا، عدل، قسط فيما بيننا وبينه، جار على السنن القويم الصالح البرئ من كل فساد، ولما في اتخاذ من الفساد، والضرر، وعدم الانتفاع، فهذا خلاصة الأمر^(١). وما أصدق قول الشاعر في معنى أن التوسيط توعير^(٢):-

إذا ما أتيت الأمر من غير بابـه ضللت وإن تقصد إلى الباب تهتدي

رابعا: اعتمادهم على الأخبار الواهية والأحاديث المكذوبة لما كان أهل الأهواء لا يحكمون الكتاب والسنة في معتقداتهم الباطلة، ومن ذلك مذهبهم في الواسطة؛ فإنهم ضلوا ضلالا بعيدا وأصبحوا ينعمقون مع كل ناعق وينساقون مع كل سائق، ويستدلون بالأخبار الواهية، والأحاديث المكذوبة؛ لأنهم لا يميزون بين صحيح الأدلة من ضعيفها، ولا يعينهم هذا الأمر في شيء، فدخل في عقائدهم البدع، والخرافات، والأوهام، وكل ما يصادم الشرع والعقل بسبب هذا المنهج، ومن تلك الأحاديث والأخبار التي يستدلون بها:-

(١) معارج الألباب ص ٢٤٩، وانظر القول الفصل النفيس ص ٣٢
(٢) هذا البيت أورده الماوردي في أدب الوزير المعروف بقوانين الوزارة ص ١٩

أ - حديث (من حسن ظنه بحجر نفعه)^(١) . فاستنادا إلى هذا الحديث المكذوب على النبي (الذي بعث بقتل من حسن ظنه بالأحجار ورفضه الإيمان بالله تعالى والتعلق به يرون أن من الأولياء من يتولى التصرف في جميع من يزور الصالحين ويحسن ظنه بالموتى فهذا الشيخ الولي ينظر في حوائجهم ، ويقضي ما قضاه الله منها ، فقلوب أمة محمد صلى الله عليه وسلم لها شأن عظيم عند الله ، ولو أنها اجتمعت على موضع لم يدفن فيه أحد وظنت فيه وليا ، وجعلت ترغب إلى الله تعالى في ذلك الموضع فإن الله تعالى يسرع لها في الإجابة)^(٢) .

ب - ومثل : (إذا أعتكم الأمور فعليكم بأصحاب القبور)^(٣) .

ج - ومثل : (قبر معروف تريقا مجرب يستشفى به)^(٤) .

د - ومثل قولهم : (قبر موسى الكاظم التريق الأكبر)^(٥) .

هـ - ويرون أن أحد الأولياء (كان إذا ناداه مريده أجابه من مسيرة سنة أو أكثر)^(٦) .

و - وكان محمد بن الفرغل^(٧) يقول لأتباعه : (أنا من المتصرفين في قبورهم ، فمن كانت له حاجة فليأت إلى قبالة وجهي ، ويذكرها لي أقضها له)^(٨) .

ز - ويقولون : (ذكر بعض العارفين أن الولي بعد موته أشد كرامة منه في حال حياته ؛ لانقطاع تعلقه بالمخلوق ، وتجرد روحه للخالق ، فيكرمه الله تعالى بقضاء حاجة المتوسلين به)^(٩) .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : (وإنما يضع مثل هذه الحكايات من يقل علمه ودينه)^(١٠) .

(١) سيأتي تخريجه .

(٢) انظر الإبريز ص ٢٥٤ ، ومجموعة الرسائل والمسائل النجدية ١/ ٦٨

(٣) موضوع مكذوب باتفاق العلماء . انظر المزيد في تخريجه الآتي .

(٤) الرسالة القشيرية ص ٤٢٧ ، وانظر وفيات الأعيان ٥/ ٢٣٢ ، واقتضاء الصراط المستقيم ٢/ ٦٩٠

(٥) كشف فيوض محمد عثمان البريلوي ص ٥٧ نقلا عن البريلوية ص ٦٠

(٦) مجموعة رسائل رضوية للبريلوي ١/ ١٨٠ نقلا عن البريلوية لإحسان إلهي ظهير ص ٦٠

(٧) هو محمد بن أحمد الفرغل السمعاني الصعدي ينعتة الصوفية بالولي ، وينقلون عنه كثيرا من الحكايات والكرامات . مات سنة ٨٦٠ هـ بالصعيد في مصر ، ودفن بزاويته في أبي تيج . انظر جامع كرامات

الأولياء ١/ ٢٧٣ (٨) جامع كرامات الأولياء ١/ ٢٧٤

(٩) نقله النبهاني عن شيخه العدوي . انظر شواهد الحق في الاستغاثة بسيد الخلق ص ١٢٠

(١٠) اقتضاء الصراط المستقيم ٢/ ٦٩٣ ، وانظر صيانة الإنسان ص ٢٧٥

فمذهب أهل الأهواء التعويل على المنامات، والأحاديث الموضوعية، والحكايات المزعومة دون الاعتماد على الكتاب والسنة الصحيحة، واعتبار فهم السلف الصالح رحمهم الله.

ومن تلك الأحلام الشيطانية أن أبا المواهب الشاذلي^(١) كان يقول: (رأيت رسول الله ﷺ فقال لي: إذا كانت لك حاجة وأردت قضاءها فانذر لنفسية الطاهرة^(٢) ولو فلسا؛ فإن حاجتك تقضى^(٣)). فهذا الحلم الشيطاني دعوة صريحة للشرك بالله عز وجل وتخط لحدود التوحيد، وتنقص لمقام الرسول (الذي كان يدعو لحماية جناب التوحيد، وسد كل طريق يفضي إلى الشرك،) وعلى كل فالمنامات لا يمكن الاعتماد عليها، وصاحبها ليس نبيا معصوما، ومن ثم فلا يعتمد عليها، فكيف إذا كانت حلما شيطانيا، وخالفت الأحكام الشرعية؟ بل وخالفت الأصل الأصل وهو أفراد الله تعالى بجميع أنواع العبادة؟^(٤).

وذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أن من غرور أهل الأهواء وأشباهم أن يحسبوا أن استجابة الدعاء عند القبور كرامة من الله لصاحب القبر، وليس هو في الحقيقة كرامة، وإنما هو استدراج؛ لأن الكرامة في حقيقة الأمر هي التي تنفع صاحبها في الآخرة، أو تنفعه في الدنيا، ولا تضره في الآخرة، أما هذه الاستجابة فهي بمنزلة ما ينعم الله به على الكفار، والفساق من البسطة في الجسم، والسلطة في الحكم، والكثرة في المال والولد^(٥).

(ولا ريب أن اتخاذ الشفعاء، والتوجه إليهم بالقلب واللسان ينافي إسلام القلب والوجه لله وحده، وقد قال تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾^(٦) أخبر تعالى أن النذارة بالقرآن لا تنفع إلا من تخلص عن الشفعاء في

(١) هو أبو الحسن علي بن عبد الله بن عبد الجبار بن تميم بن هرم بن حاتم بن بطال نور الدين الضربير الصوفي المعروف بالشاذلي، نشأ بالمغرب الأقصى، ومبدأ ظهوره بشاذلة بتونس، ونزل بالأسكندرية، وإليه تنسب الطريقة الشاذلية، ولد بالمغرب سنة ٥٩١هـ، وتوفي بصحراء عذاب سنة ٦٥٦هـ، انظر لطائف المنن لابن عطاء السكندري ص ١٣٥، طبقات الشعراني ٥/٢، والأعلام ١٢٠/٥، ومعجم المؤلفين ٤٦٧/٢

(٢) هي نفيسة بنت الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، صاحبة المشهد المعروف بمسرة نفية، صالحة، عالمة بالحديث والتفسير، ولدت بمكة سنة ١٤٥هـ، ونشأت بالمدينة ثم انتقلت مع زوجها إلى مصر، ثم توفيت بالقاهرة سنة ٢٠٨هـ.

قال ابن خلكان: وكان للمصريين فيها اعتقاد عظيم، وهو إلى الآن باق كما كان، انظر: وفيات الأعيان

٤٢٣/٥، والأعلام للزركلي ٤/٨ (٣) طبقات الشعراني ٧٤/٢

(٤) دمنة على التوحيد ص ١٣٠ (٥) انظر اقتضاء الصراط المستقيم ٧٠٥/٥، والقول الفصل النفيس ص ٦٨

(٦) سورة الأنعام الآية ٥١

دار العمل ، وعلق رغبته ، ورهبته ، وسؤاله ، وطلبه بمن له الملك كله ، وله الحمد كله ، وييده الخير كله ، وإليه يرجع الأمر كله ، وهذا هو الذي دعا إليه رسول الله ﷺ وفي تحقيقه من الآيات ما لا يحصى^(١) .

ومن صور تعلقهم بالقبور ، والدعوة صراحة إلى الشرك قول شاعر القبورية^(٢) :-

يا خائفين من التمر لوذوا بقبر أبي عمر

ولو نطق هذا المقبور الذي واره الشرى بعيدا عن عالم الورى ، لحاطب هؤلاء الذين يتوجهون إليه بالدعاء ، والسؤال قائلا بلسان الحال^(٣) :-

ومن عجب أنى لغيرك شافع إليك وبى فقر إلى ألف شافع

وسبب ذلك أن المقبور قد انقطع عمله وهو في حاجة إلى من يدعو له ويشفع لأجله (ولهذا شرع في الصلاة عليه وجوبا أو ندبا ما لم يشرع مثله في الدعاء للحى ، فإنما لما كنا إذا قمنا إلى جنازته ندعو له ، ونشفع لأجله ، فبعد الدفن أولى أن ندعو له ونشفع ؛ لأنه في قبره أشد احتياجا إلى الدعاء منه على نعشه ؛ لأنه حينئذ معرض للسؤال وغيره . . . فبدل أهل البدع والضلال قولا غير الذي قيل لهم ؛ فإنهم قصدوا بالزيارة التي شرعها رسول الله ﷺ إحسانا إلى الميت ، وإلى الزائر سؤالهم الميت ، والاستغاثة به)^(٤) .

ومن نماذج الحكايات القبورية الصارخة بالكفر والمغلظة بالشرك في الرواية والألوهية ما ذكره أحد القبوريين وهو إمام وخطيب للنقشبندية في أحد المساجد المهمة ، حيث يقول : (دعوت الله ست سنوات أن يرزقني الولد فلم أرزق ، وذهبت إلى شيخى في أربيل^(٥) ، فما أن استغثت به ، وطلبت منه الولد حتى رزقت بطفلين توأمين!!)^(٦) تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا . وهذا بعينه ما ذكره الألوسي عن بعضهم أنه قال : (الولي أسرع إجابة من الله عز وجل)^(٧) .

(١) القول الفصل النفيس ص ٨٦ ، وانظر الدرر السنية في الأجوبة النجدية ١/ ١٦٥

(٢) انظر تلخيص كتاب الاستغاثة ٢/ ٧٣٢ (٣) انظر يتيمة الدهر للتحالي .

(٤) الرد على شبهات المستعنين بغير الله تعالى ص ٦٩ ، وانظر إقامة البراهين لسماحة الشيخ ابن باز ص ٤٦

(٥) الذي في معجم البلدان إربل على وزن إثمء فلعل الناس توسعوا في استعمالها فقالوا أربيل تقع بين الزابين وتعد من أعمال الموصل بينها وبين بغداد مسيرة سبعة أيام للقوافل . انظر معجم البلدان ١/ ١٣٧

(٦) دعة على التوحيد ص ٦٣ (٧) تفسير الألوسي ١١/ ٢٤

ومما رسخ مذهب أهل الأهواء في الواسطة المبني على الاعتقاد الفاسد في المقبورين وادعاء أنهم ينفعونهم إذا توجهوا إليهم، وتوسلوا بهم، وجعلوهم واسطة ما يحكيه بعضهم من أنواع الحكايات الباطلة العاطلة (كحكاية أن بعض المريدين استغاث بالله فلم يغثه، واستغاث بشيخه فأغاثه، وحكاية أن بعض المأسورين في بلاد العدو دعا الله فلم يخرجهم، ودعا بعض المشائخ الموتى فجاء فأخرجهم إلى بلاد الإسلام، وحكاية أن بعض الشيوخ قال لمريده: إذا كانت له حاجة إلى الله فتعال فقف إلى قبري وتوسل إلى الله بي، وآخر قال: قبر فلان هو الترياق المجرب، فهؤلاء وأشباههم يرجحون هذه الوثنية والعبادات، والقربات الشركية على الأدعية، والعبادات التي أحبها الله وشرعها لأحب عبادته إليه، ويكرهها هؤلاء مضاهاة لسائر المشركين^(١).

ويصرح التجانيون بأن أحمد التجاني هو خاتم الأولياء وهو الواسطة بين الأنبياء والأولياء، وأن فيوض الأنبياء لا تصل بالمدد إلى أي ولي كبر شأنه، أو صغر إلا بواسطته من نشأة العالم إلى النفخ في الصور^(٢).

ويحكون عنه أنه قال: (نهاني ﷺ عن التوجه بالأسماء^(٣) وأمرني بالتوجه بصلاة الفاتح لما أغلق^(٤)).

وأنه قال أيضا: (شفّعني الله في أهل عصري من يوم ولادتي إلى يوم حلول رمسي وزيادة عشرين سنة^(٥)).

ونقل النبهاني عن أحد شيوخه أنه قال: (من الأولياء من ينفع مريده الصادق بعد مماته أكثر مما ينفعه حال حياته، ومن العباد من تولى الله تعالى تربيته بغير واسطة، ومنهم من تولاه بواسطة بعض أوليائه، ولو ميتا في قبره، فيربي مريده وهو في قبره، ويسمع مريدُه صوتَه من القبر، ولله عباد يتولى تربيتهم النبي ﷺ بنفسه من غير واسطة لكثرة صلاتهم عليه ﷺ).

(١) القول الفصل النفيس ص ٩٧، وانظر شرح العقيدة الطحاوية ص ٤٦٣

(٢) انظر رماح حزب الرحيم بهامش جواهر المعاني ٢/ ٥ (٣) لعله يقصد أسماء الله الحسنى.

(٤) الإفادة الأحمدية ص ٥٧ بواسطة مخازي الولي الشيطاني الملقب بالتجاني الجاني لإبراهيم القطان المطبوع بآخر

مشتهى الخارف الجاني ص ٦٠٧ (٥) المرجع السابق ص ٦٩



ثم قال : (وعلى هذا الذي ذكره شيخنا قول صاحب الحقائق والدقائق حاشا الصوفي أن يموت)^(١).

وما دام مذهب أهل الأهواء في الواسطة يقوم على مجرد الظن بوجود السر على حد زعمهم في حي منظور أو ميت مقبور، واعتقاد صلاحه وقربه من الله تعالى، ووساطته عنده، ما دام الأمر كذلك فما الفرق بين كونه من تراب، أو حجارة، أو أخشاب، أو حديد، أو نحاس... أو أي شيء من المخلوقات؟ لا فرق عندهم في ذلك؛ بل المهم وجود السر والتوجه إلى صاحبه حتى وصل بهم الأمر إلى ما يسمى بـ«أضرحة دواب الأولياء».

(ففي اللاذقية^(٢) بسورية حضرة يقال : إنها مدفن الفرس التي كان يركبها الولي المغربي لا تزال حتى اليوم تزار وتبخر، وفي الإسكندرية^(٣) بمصر عازمت البلدية على نقل ضريح من أحد الطرق فثار الغوغاء هناك واستنكروا نقل الولي من قبره؛ ولكن البلدية أصرت على عزمها، وكانت المفاجأة أن القبر يضم عظام حمار، فالقبوريون عباد كل ضريح حتى لو ثبت عدم صحة نسبة الضريح إلى صاحبه أو كان الضريح لدابة، أو ثبت عدم وجود ضريح أصلا^(٤)).

ويوجد بالقرب من عمان^(٥) بالأردن مقام الشيخ (خنزير)^(٦). وفي مصر يتزاحم الناس في مولد السيد البدوي حول حمار يأتي به دراويش الطريقة الشاذلية إلى قبر السيد البدوي فيتسابقون إليه يتمسحون به ويعتقدون بركته، وينزعون شعرات من جسمه يصنعون منها الأحجية، والتعاويذ، وهذا الفعل بعينه كان قدماء المصريين يفعلونه بهذا الحيوان^(٧).

(١) شواهد الحق في الاستغاثة بسيد الخلق ص ١٥٠، وانظر مثله في الجواهر والدرر للشعراني المطبوع بحاشية الإبريز ص ٥٩.

(٢) اللاذقية مدينة بالشام من أعمال حلب غربي جيلة بينهما ستة فراسخ. انظر معجم البلدان ٥/٥.

(٣) وتسمى الإسكندرية العظمى؛ لأن الإسكندر الرومي بنى ثلاث عشرة مدينة وسمها باسمه، ولم يبق منها يحمل اسمه سوى هذه وهي مدينة مشهورة بمصر. انظر معجم البلدان ١/١٨٢.

(٤) دمة على التوحيد ص ١٢٤.

(٥) عمان، بتشديد الميم: عاصمة الأردن تقع على سيف البادية، ورستاقها البلقاء. انظر معجم البلدان ٤/١٥١.

(٦) انظر دمة على التوحيد ص ١٢٦.

(٧) انظر دمة على التوحيد ص ١٢٧.

كل هذه الطقوس الخرافية، والعبادات الشركية خيمنت في أذهان العوام من الناس بسبب تلبيسات أهل الأهواء والبدع بذكر هذه الحكايات، والمنامات عن قضاء الأولياء لحوائج الناس وتصرفهم في الكون، فتجاوزوا بهذه التصرفات، والممارسات الدعاء بالواسطة المزعومة إلى دعاء الواسطة نفسها، (وكذا قولهم: العارف لا يعرف، والشكوى لأهل البصير عيب، مددي سيدي فلان، نظرة إلينا بعين الرضا، راعني أنا محسوبك، وكذا قولهم: ملعون ابن ملعون من كان في شدة، أو في ضيق ولم يقل يا ست، أو يا سيد، وهذا هو عين الشرك الأكبر^(١)). وقال أحدهم وهو يؤصل مذهب أهل الأهواء فيالواسطة والتعلق بها بسبب النفع الحاصل في الالتجاء إلى المقبورين على حد زعمهم^(٢): -

ولا تسمعن من قاصر النفع فيهم على من يكن حيا فذاك من الطلـس^(٣)
فإن شهود النفع ينفي مقالـه ولا سيما والقوم نصوا على العكـس

وقد دفع الالتجاء إلى الأموات، ودعاء الغائبين لكثير من جهلة الفقهاء، والمفتين، وأقوام من أهل الزهد والعبادة والدين، فترى أحدهم يستغيث بمن يحسن به الظن حيا كان أو ميتا، ويحصل لكثير منهم أن تتمثل له صورة المستغاث به وتخاطبه وتقضي بعض حوائجه وتخبره ببعض الأمور الغائبة.

ومنهم من يقول للواسطة: سل لي ربك، ومنهم من يذكر ذلك في صورة منظومة، أو مثورة، ومنهم من يقول: يا سيدي الشيخ فلان، أو يا سيدي رسول الله ﷺ: نشكو إليك ما أصابنا من العدو، وما نزل بنا من المرض، وما حل بساحتنا من الجهد.

ومنهم من يظن أن الرسول ﷺ أو الشيخ يعلم ذنوبه، ويعرف حوائجه، وإن لم يذكرها، وأنه يقدر على غفران ذنوبه، وقضاء حوائجه، ويقدر على ما يقدر عليه الله، ويعلم ما يعلمه الله^(٤).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في رده على من زعم أن القطب، أو الغوث، والنجباء

(١) السنن والمبتدعات ض ١٦، وانظر الرسائل السلفية للشوكاني ص ١٧٢

(٢) انظر نخبة المطلوب من شرح مطهرة القلوب لمحمد بن أحمد الخديم ص ١٨٥

(٣) قال صاحب القاموس المحيط: يقال: رجل أطلس إذا رمي بقبيح، ويقال أنطلس الأمر بمعنى خفي، انظر

القاموس المحيط ٢/ ٢٣٤ مادة (طلـس). (٤) انظر تلخيص كتاب الاستغاثة ١/ ٩٣



بواسطةً يكون مدد الخلائق، ونصرهم، ورزقهم: (وأما القطب، " الغوث " " الفرد " الجامع " فهذا قد يقوله طوائف من الناس ويفسرونه بأمر باطلة في دين الإسلام، مثل تفسير بعضهم أن الغوث هو الذي يكون مدد الخلائق بواسطة في نصرهم، ورزقهم، حتى يقول: إن مدد الملائكة وحياتان البحر بواسطة، فهذا من جنس قول النصارى في المسيح عليه السلام والغالية في علي رضي الله عنه، وهذا كفر صريح يستتاب منه صاحبه؛ فإن تاب وإلا قتل؛ فإنه ليس من المخلوقات، لا ملك، ولا بشر يكون إمداد الخلائق بواسطة؛ ولهذا كان ما يقوله الفلاسفة في العقول العشرة، وكذلك أعني بالغوث ما يقوله بعضهم: من أن في الأرض ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً يسمونهم النجباء فينتقى منهم سبعون هم النقباء، ومنهم أربعون هم الأبدال، ومنهم سبعة هم الأقطاب، ومنهم أربعة هم الأوتاد، ومنهم واحد هو الغوث، وأنه مقيم بمكة، وأن أهل الأرض إذا نابهم نائبة في رزقهم، ونصرهم فزعوا إلى الثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً، وأولئك يفزعون إلى السبعين، والسبعون إلى الأربعين، والأربعون إلى السبعة، والسبعة إلى الأربعة، والأربعة إلى الواحد، وبعضهم قد يزيد في هذا وينقص في الأعداد، والأسماء، والمراتب؛ فإن لهم فيها مقالات متعددة، حتى يقول بعضهم إنه ينزل من السماء على الكعبة ورقة خضراء باسم غوث الوقت، واسم خضره...، وهذا كله باطل لا أصل له في كتاب الله، ولا سنة رسوله، ولا قاله أحد من سلف الأمة، ولا أئمتها، ولا من المشايخ الكبار المتقدمين الذين يصلحون للاقتداء بهم^(١).

خامساً: قياسهم الوساطة في العبادة على الوساطة في التبليغ: من أهم الأمور التي بنى عليها أهل الأهواء مذهبهم الفاسد في فهم الوساطة أنهم قاسوا توسيطهم للأنبياء، والأولياء، وشيوخ الطرق في دعائهم لله تعالى لقضاء حوائجهم، وتحقيق مطالبهم، قاسوا ذلك على إرسال الله تعالى لأنبيائه، ورسله واسطة بينه وبين خلقه لتبليغ شرائعه، وإقامة الحجة على خلقه، مبشرين من اتباع الوحي الذي جاءوا به بالفوز برضا الله تعالى وقربه، ومنذرين من أعرض عن ذكره والنور الذي جاءوا به بسخط الله تعالى، وعذابه، والبعث منه، ولقد عُلِمَ من طريق الوحي أن هؤلاء المرسلين أكدوا للخلق أن وساطتهم

(١) زيارة القبور والاستنجاد بالمقبور ص ٦٢، وانظر دراسات في الأهواء والفرق والبدع للدكتور ناصر العقل

ليست في عبادة الخلق لخالقهم ؛ لأن الله تعالى قريب مجيب يعلم حالهم ويرى مكانهم ، ويسمع سؤالهم ، فليس بينه وبين خلقه واسطة في حال الالتجاء ، والتضرع ، والدعاء ، وسائر أنواع العبادة التي بينها الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهذا هو سبيل الإخلاص الذي جاء به الإسلام ولا يقبل الله عز وجل عبادة بدونه^(١) ، قال تعالى : ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾^(٢) ، وقال أيضا : ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ (٢) أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾^(٣) ، ولتشبث أهل الأهواء بهذه الشبهة وبيان متمسكهم فيها والرد عليها فسوف نتناولها بتوسع في المبحث الرابع من هذا الفصل .

سادسا : زعمهم أن كل من عظمه الله عز وجل واسطة بذاته ، فيرون أن من تعظيمه اعتقاد واسطته وأن ذلك من تعظيم الله عز وجل . ومن تلبيسات إبليس على أهل الأهواء جعلهم كل من ورد تعظيمه في كتاب الله تعالى أو في سنة رسوله صلى الله عليه وسلم واسطة صحيحة توصل إلى المطلوب ، وتدني العبد من علام الغيوب ، وليتهم تقيدوا بمنهج الكتاب والسنة فعظموا ما ورد تعظيمه في الكتاب والسنة بما يستحقه من التعظيم ، والإكرام ، وقصروا الواسطة على ما ثبت في الكتاب والسنة أنه واسطة شرعية فيكونوا متقيدين بالكتاب والسنة في فهم الواسطة ، وهذا هو منهج أهل السنة والجماعة .

لكن أهل الأهواء خالفوا هذا المنهج الواضح والصراط المستقيم ، وبنوا على اعتقادهم الباطل في الميت المعظم مذهبهم في الواسطة وهو مأخوذ من مذهب عباد الكواكب والأصنام حيث قالوا : (الميت المعظم الذي لروحه قرب ومنزلة ومزية عند الله تعالى لا تزال تأتيه الألطاف من الله تعالى ، وتفيض على روحه الخيرات ؛ فإذا علق الزائر روحه به وأدناها منه فاض من روح المزور على روح الزائر من تلك الألطاف بواسطتها ، كما ينعكس الشعاع من المرأة الصافية ، والماء ، ونحوه على الجسم المقابل له ، قالوا : فتمام الزيارة أن يتوجه الزائر بروحه وقلبه إلى الميت ، ويعكف بهيمته عليه ويوجه قصده كله وإقباله عليه بحيث لا يبقى فيه التفات إلى غيره ، وكلما كان جمع الهمة ، والقلب عليه أعظم كان أقرب إلى انتفاعه به .

(١) راجع ما سبق بيانه في الفصل الثالث (صورة الواسطة في العبادة)

(٢) سورة الكهف الآية ١١٠

(٣) سورة الزمر الآيتان (٢-٣) .

وقالوا: فإن العبد إذا تعلقت روحه بروح الوحيه المقرب عند الله، وتوجه بهمته إليه وعكف بقلبه عليه صار بينه وبينه اتصال يفيض به عليه منه نصيب مما يحصل له من الله تعالى، وشبهوا ذلك بمن يخدم ذا جاه، وحظوة، وقرب من السلطان، فهو شديد التعلق به، فما يحصل لذلك من السلطان من الإنعام والإفضال ينال ذلك المتعلق به بحسب تعلقه به.

فهذا سر عبادة الأصنام وهو الذي بعث الله رسله وأنزل كتبه بإبطاله، وتكفير أصحابه، ولعنهم، وأباح دماءهم، وأموالهم، وسبي ذراريهم، وأوجب لهم النار، والقرآن من أوله إلى آخره مملوء من الرد على أهلهم، وإبطال مذهبهم^(١).

قالوا فالأنبياء عليهم السلام لهم الجاه العريض والمكانة العظيمة عند الله تعالى، فتعظيمهم من تعظيم الله تعالى فلا غرو - والحالة هذه - أن نجعلهم واسطة بيننا وبين ربنا جل وعلا؛ لأنه تعالى عظمهم بالإرسال، والإيحاء فنحن نعظمهم بالتعلق، والالتجاء.

يقول النبھاني: (من الجلي الواضح البين الذي لا يخفى على من وضع الله في قلبه أدنى نور أن مراعاة جانب الله تعالى والمحافظة على توحيدہ إنما تكون بتعظيم من عظمه الله تعالى، وتحقير من حقره الله تعالى، وقد عظم الله تعالى أنبياءه، وأصفیاءه، فعظمناهم لأجله، فالتعظيم في الحقيقة راجع إليه سبحانه وتعالى وقد جعلهم سبحانه وتعالى وسائط لنا في تبليغ شرائع دينه، فوسطناهم له عز وجل لقضاء حوائجنا تبعاً له في توسيطهم لنا في تبليغ شرائعہ، واحتقاراً لأنفسنا عن أن نكون أهلاً لطلب حوائجنا منه سبحانه وتعالى بلا واسطة لكثرة ذنوبنا، ووفرة عيوبنا...)^(٢).

ويقول آخر - مؤكداً هذا الزعم القاصر للتعظيم -: (... فإن للكاملين إشعاعات مفاضة تشمل القاصرين عن بلوغ الأهداف حيث مرادفة الكامل كمال، ومصاحبة الجميل جمال؛ ولأجل عين ألف عين تكرم)^(٣).

ويسبب هذا المنهج الفاسد الذي وضعه أهل الأهواء للمعظمين ونظرتهم الغالية للتعظيم

(١) إغائة اللھفان ١/ ٢٢٤، وانظر الرسائل السلفية للشوکاني ص ١٩٠، ودعوة على التوحيد ص ٩٣

(٢) شواهد الحق في الاستغاثۃ بسید الخلق ص ١٤٢، وانظر الأنوار المحمدية من المواهب اللدنية للنبھاني أيضاً ص ٦٠٤، ومفاهيم يجب أن تصحح ص ٩٤

(٣) تقدم في ص، وانظر ما نقله الشيخ عبد الله بن جبرین ورد عليه من قول أحد کتاب الصوفية المعاصرين: (لك أن تتوسل إلى الله بكل ما يحبه الله) في الجواب الفائق على مبدل الحقائق ص ٣٠

البدعي نشأ عندهم تقديس الأشخاص، والأماكن، والآثار، والتبرك بها، والتعلق بها، واعتبارها واسطة لجلب الحسنات، ومحو السيئات، ويظنون أن من فعل ذلك فهو دليل على سلامة قلبه وصفاء روحه ومحبة للأنبياء والمرسلين، وعباد الله الصالحين، ولا يضره بعد ذلك الإخلال بالواجبات، أو التلبس بشيء من المحرمات.

وقد بين أبو الوفاء بن عقيل رحمه الله^(١) السر في ذلك فقال: (لما صعبت التكليف على الجاهل، والطعام^(٢) عدلوا عن أوضاع الشرع إلى تعظيم أوضاع وضعوها لأنفسهم، فسهلت عليهم؛ إذ لم يدخلوا بها تحت أمر غيرهم، وهم عندي كفار بهذه الأوضاع: مثل تعظيم القبور، وإكرامها بما نهى عنه الشرع: من إيقاد النيران، وتقبيلا، وتخليقها^(٣)، وخطاب الموتى بالخواص، وكتب الرقاق فيها: يا مولاي افعل بنا كذا وكذا تبركا^(٤)). وقد صاغ أبو السمعان الفقيه هذا المعنى شعرا فقال^(٥): -

ثقلت على الناس الفعال فيمموا نصبا تقربهم بلا حبان

واستأنسوا بدعائها واستوحشوا مما يقربهم إلى الرحمن

وبسبب هذا الفهم الفاسد للواسطة ضل أهل الأهواء في هذا الباب العظيم، وهو توحيد الألوهية الذي هو أساس الإسلام، وروح العقيدة، وانقطعوا عن الله تعالى بتعلقهم بهذه الوسائط البدعية التي يثبتونها، فظهر عندهم تقديس الأشخاص والغلو فيهم وغرقوا في هذا الغلو حتى أذانهم، وهذا ما سنتحدث عنه في المبحث الآتي.

(١) هو أبو الوفاء علي بن عقيل بن محمد بن عقيل الفقيه الحنيلي البغدادي، أحد أذكى العالم، ولد سنة ٤٣١ هـ من مصنفاته ((الفنون)) و ((الواضح في أصول الفقه))، كانت وفاته سنة ٥١٣ هـ، انظر شذرات الذهب ٣٥ / ٤

(٢) الطعام والطعام: أوغاد الناس وأراذلهم، الواحد والجمع فيه سواء. انظر مختار الصحاح ص ٣٩٣ مادة (ط غ م).

(٣) تخليقها: أي تعطيها بنوع من الطيب يسمى الخلق، يقال: خلقه تخليقا إذا طلاه بالعط. انظر مختار الصحاح ص ١٨٧ مادة (خ ل ق).

(٤) إغاثة اللفظان ١/ ٢٠١، وانظر مفيد المستفيد في كفر تارك التوحيد للشيخ محمد بن عبد الوهاب ص ٣٣، والرسائل السلفية للشوكاني ص ١٨٠

(٥) انظر حياة القلوب بدعاء علام الغيوب ص ١٠٣

المبحث الثاني

غلو بعض أهل الأهواء في الواسطة الصحيحة

أولاً: الغلو في اللغة: يقال: غلا السعر غلاء بالمد فهو غال، وغَلِيٌّ، وأصل الغلاء الارتفاع ومجاوزة القدر في كل شيء، يقال: بعته بالغلاء، والغالي، والغلي، قال الشاعر^(١):-

ولو أنا نباع كلام سلمى لأعطينا به ثمننا غلياً

وغلا الرجل في الدين يغلو غلوا، وغلانية إذا جاوز فيه الحد، كغلو اليهود، والنصارى في دينهما^(٢).

وفي المصباح المنير: الغلو: التشدد، والتصلب، ومجاوزة الحد ومنه قوله تعالى: ﴿لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾^(٣)^(٤)، ويقال: غلا بالسهم يغلو غلوا وغلوة إذا رفع يده يريد به أقصى الغاية في الرمي، ويقال: تغالى النبت، واغلولى إذا ارتفع عن الأرض، وغما، وتمادى في الطول، ويقال: تغالى لحم الدابة إذا ارتفع وصار على رؤوس العظام، والغالية: نوع من الطيب، والغالي: اللحم السمين، وكل شيء ارتفع وسما وزاد فقد غلا، قال الشاعر^(٥):-

فما زال يغلو حب مية عندنا ويزداد حتى لم نجد ما نزيدها

والغلوان، والغلواء: الغلو وسرعة الشباب، وأوله. يقال: خفف من غلوائك^(٦). والتغلية: أن تسلم من يعد وتشير إشارة^(٧). ويقال: غالى في صداق المرأة وأغلاه إذا جاوز فيه العرف المعتاد.

وقال الراغب: (الغلو تجاوز الحد، يقال: ذلك إذا كان في السعر غلاء، وإذا كان في

(١) انظر لسان العرب ١٠/ ١١٢، مادة (غلا) والقاموس المحيط ٤/ ٣٧٣ مادة (غلا).

(٢) انظر كتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيدي ٤/ ٤٤٦ مادة (غلو، غلي).

(٣) جزء الآية هذا في سورة النساء الآية ١٧١ وفي سور: المائدة الآية ٧٧

(٤) انظر المصباح المنير ٢/ ٤٥٢ مادة (الغلو) وأساس اللغة للزمخشري ص ٣٢٧ مادة (غلو).

(٥) هذا البيت لذي الرمة. انظر ديوانه ص ١٦٥

(٦) انظر تهذيب اللغة للأزهري ٨/ ١٩٠ مادة (غلا) وصحاح اللغة للجوهري ٦/ ٢٤٤٩ مادة (غلا) ولسان

العرب ١٠/ ١٣٣ مادة (غلا).

(٧) انظر تاج العروس ١٠/ ٢٧٠ مادة (غلي).

القدر والمنزلة، وفي السهم غلو، وأفعالها جميعا غلا يغلو، وقال تعالى: ﴿لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾^(١)، والغليان يقال في القدر إذا طفحت، ومنه استعير قوله: ﴿طَعَامُ الْأُنْيَمِ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ﴾^(٤٥) كَغَلِي الْحَمِيمِ^(٢)، وبه شبه غليان الغضب والحرب^(٣).

فتبين من عرض علماء اللغة لمادة (الغلو) في معاجمهم أن أصل الغلو يطلق في اللغة على مجاوزة الشيء حده الذي وضع له سواء كان هذا الحد شرعياً أم عرفياً.

ثانياً: الغلو في الشرع: لما كانت المعاني الشرعية لبعض المصطلحات وثيقة الصلة بمدلولاتها اللغوية وتبين من تعريف الغلو في اللغة أنه يدور حول مجاوزة الحد أياً كان نوعه، لما كان الأمر كذلك فإننا وجدنا معنى الغلو في الشرع موافقاً للمدلول اللغوي؛ إذ يطلق الغلو في الشرع ويراد به: مجاوزة حدود الشريعة: اعتقاداً أو قولاً، أو عملاً.

وقد ورد النهي عن الغلو مرتين في القرآن الكريم. قال الله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾^(٤) وقال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَصْلَحُوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾^(٥)

قال القرطبي في تفسير الآية الأولى: (قوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ نهي عن الغلو، والغلو: التجاوز في الحد، ومنه غلا السعير يغلو غلاء، وغلا الرجل في الأمر غلوا، وغلا بالجارية لحمها وعظمها إذا أسرع الشباب فجاوزت لداها^(٦)، ويعني بذلك فيما ذكره المفسرون غلو اليهود في عيسى حتى قذفوا مريم، وغلو النصارى فيه حتى جعلوه رباً، فالإفراط، والتقصير كله سيئة وكفر^(٧).

كما ورد النهي عن الغلو في السنة أيضاً موافقاً في المعنى لما ورد في القرآن الكريم، فمن ذلك ما رواه أهل السنن من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: (قال لي رسول الله ﷺ غدا العقبة وهو على ناقته: (القط لي حصي فلقطت له سبع حصيات من حصي

(١) سبق في الحاشية رقم... من هذه الصفحة. (٢) سورة الدخان الآيات (٤٤-٤٥-٤٦).

(٣) المفردات ص ٣٦٤

(٤) سورة النساء الآية ١٧١

(٥) سورة المائدة الآية ٧٧

(٦) لداها: أي أثرابها ومثيلاتها، مفردة (لدة). انظر القاموس المحيط ٤/٣٨٨ مادة (لدى).

(٧) تفسير القرطبي ٦/٢١

الخذف^(١)، فجعل ينفضهن في كفه، ويقول: أمثال هؤلاء فارموا، ثم قال: (يا أيها الناس إياكم والغلو في الدين فإنما هلك من كان قبلكم بالغلو في الدين)^(٢).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في تعريفه للغلو من خلال شرحه لهذا الحديث... (وقوله: (إياكم والغلو في الدين) عام في جميع أنواع الغلو: في الاعتقادات، والأعمال، والغلو: مجاوزة الحد؛ بأن يزداد في حمد الشيء أو ذمه على ما يستحق، ونحو ذلك)^(٣).

وعرف الحافظ ابن حجر الغلو بأنه: (المبالغة في الشيء والتشديد فيه بتجاوز الحد)^(٤). وبمثل هذا التعريف عرفه الإمام الشاطبي^(٥). وقيل: (هو الإفراط في التعظيم بالقول والاعتقاد)^(٦).

(وضابطه [أي الغلو] تعدي ما أمر الله به، وهو الطغيان الذي نهى الله عنه في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي﴾^(٧)، وذلك لأن الحق واسطة بين الإفراط والتفريط).

يقول الشيخ محمد الأمين الشنقيطي: (وقد قرر العلماء أن الحق واسطة بين التفريط والإفراط وهو معنى قول مطرف بن عبد الله^(٩). رحمه الله تعالى: (الحسنة بين سيئتين)^(١٠)

(١) الخذف: رمي الحصاة بطرف الإبهام، والسبابة، وقولهم: (حصى الخذف) معناه: الرمي بصغار الحصى. انظر المصباح المثير ١/١٦٥، مادة (الخذف).

(٢) رواه النسائي في سننه ٢/٤٣٥، وابن ماجه في سننه ٢/١٨٣، وابن حبان في صحيحه ٩/١٨٣ بترتيب ابن بلبان، والحاكم في المستدرک ١/٤٦٦، وصححه، ووافقه الذهبي، والإمام أحمد في المسند ١/٢١٥، وصححه الإمام النووي في المجموع ٨/١٧١، وشيخ الإسلام ابن تيمية في اقتضاء الصراط المستقيم ١/٢٩٣، وبين أن إسناده على شرط مسلم، كما صححه الشيخ الألباني، انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ٣/٢٧٨ برقم ١٢٨٣.

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم ١/٢٩٣، ونحو هذا التعريف عرفه الشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب رحمهم الله. انظر تيسير العزيز الحميد ص ٣٠٥.

(٤) فتح الباري ١٣/٢٧٨ (٥) انظر الاعتصام ١/٣٠٤

(٦) فتح المجيد ص ٢١٨ (٧) سورة طه الآية ٨١

(٨) تيسير العزيز الحميد ص ٣٠٥

(٩) هو أبو عبد الله مطرف بن عبد الله بن الشَّخِير الحرشي العامري، زاهد من كبار التابعين، ولد في حياة النبي ﷺ أقام بالبصرة حتى توفي بها عام ٨٧هـ. انظر سير أعلام النبلاء ٤/١٨٧، وتهذيب التهذيب ١٠/١٧٢، والأعلام للزركلي ٧/٢٥٠

(١٠) انظر المحجة في سير الدجلة لابن رجب الحنبلي ص ١٨

وبه تعلم أن من جانب التفريط والإفراط فقد اهتدى^(١).

فـتـين من هذا كله أن الغلو في الشرع هو (مجازاة الحد بالزيادة على المشروع قدرا ووصفا، اعتقادا، وعملا)^(٢)، وحقيقته: أنه أعلى مراتب الإفراط في الجملة^(٣).

كما يلاحظ في مسألة الغلو أنها (تجاوز من مشروع إلى غير مشروع، فمثلا تعظيم الرسول ﷺ والإشادة بذكره، هذا أمر مشروع طالما كان ذلك في حدود بشريته، فإذا تجاوزنا بتعظيمه حدود بشريته صار هذا غلوا)^(٤).

يمثل الغلو ظاهرة انحراف خطيرة في تاريخ الأديان السماوية؛ إذ يعد من أكبر أسباب الانحراف بالدين عن الصراط المستقيم وعادة ما يبدأ هذا الانحراف يسيرا، ثم يتفاقم ويتعاضد على مر الأيام حتى يصبح كأنه الأصل، فالنصرانية التي كانت على عهد المسيح على نبينا وعليه السلام عقيدة خالصة من شوائب الشرك ودينا قويا أصبحت بسبب الغلو منحرفة عن التوحيد الخالص إلى الشرك المحض، ومن دين سماوي إلى دين وضعي ممزوج بوثنيات الهند، وترهات اليونان، وأباطيل اليهود^(٥)، فالغلو هو أول خطوات الانحراف عن الدين القويم، والوقوع في الشرك العظيم، كما حدث لقوم نوح عليه السلام، وكما فعل اليهود مع العزيز، والنصارى مع المسيح، وكما هو الواقع في حياة كثير من المسلمين، حيث دب فيهم هذا الوباء القاتل، والمرض المدمر من قرون، ولم يزل شره في ازدياد حتى جهل معنى التوحيد، والمراد بالعبادة، فوقع كثير من المسلمين في الشرك بسبب الغلو، ومجازاة الحد المشروع.

يقول العلامة ابن القيم: (ومن أسباب عبادة الأصنام الغلو في المخلوق، وإعطاؤه فوق منزلته، حتى جعل فيه حظ من الألوهية، وشبهوه بالله سبحانه، وهذا التشبيه الواقع في الأمم هو الذي أبطله الله سبحانه، وبعث رسله وأنزل كتبه بإنكاره، والرد على أهله)^(٦).

(١) أضواء البيان ١/ ٤٩٤

(٢) محبة النبي ﷺ بين الاتباع والابتداع ص ١٤٨، وانظر الغلو في الدين لعلي بن عبد العزيز الشبل ص ١٧

(٣) انظر الغلو لعلي بن عبد العزيز الشبل ص ٢٢

(٤) محبة الرسول ﷺ بين الاتباع والابتداع ص ١٤٨، وانظر التأدب مع الرسول صلى الله عليه وسلم ص ٣٥،

وانظر الغلو في الدين في حياة المسلمين المعاصرة لعبد الرحمن اللويحق ص ٥٩

(٥) انظر محبة الرسول ﷺ بين الاتباع والابتداع ص ١٥١

(٦) إغاثة اللهفان ٢/ ٢٢٢

ويسبب غلو النصارى في واسطتهم الصحيحة فإنهم انقسموا في القول فيها إلى عدة مقالات فقد أخرج ابن جرير وغيره عن قتادة أن أهل الكتاب انتخبوا أربعة من علمائهم للنظر في شأن عيسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام والقول فيه ، وذلك بعد أن رفعه الله إليه ، فقال الأول : هو الله هبط إلى الأرض ، فخلق ما خلق ، وأوحى ما أوحى ، ثم صعد إلى السماء ، فتابعه على ذلك جماعة فكانت اليعقوبية من النصارى . وقال الثاني : هو ابن الله فتابعه على ذلك جماعة فكانت النسطورية من النصارى . وقال الثالث : هو إله ، وأمه إله ، والله إله ، فتابعه على ذلك جماعة ، فكانت الإسرائيلية من النصارى . وقال الرابع : هو عبد الله ورسوله وكلمته ، فكان على الحق وتبعه فيه فرقة منهم ، ثم إنهم اقتتلوا فظهر الكافرون ، وغلب المؤمنون القائلون بأنه عبد الله ورسوله^(١) . وذكر الحافظ ابن كثير أن هذا الأثر مروي عن كثير من السلف ، والخلف^(٢) .

وأما اليهود فإنهم نسبوا هذا النبي الكريم إلى الزنا وحاشاه من ذلك ، وزعموا أنه لغير رشدة ، وأنه كان ساحرا كذابا^(٣) .

وقد رد الله سبحانه وتعالى على افتراءات هاتين الطائفتين ، وبين الحق في شأن عيسى عليه السلام ، وأنه عبد الله ورسوله ، مثل سائر أنبياء الله ورسله^(٤) .

فالغلو مطيعة الشرك بالله تعالى وهو أعظم صورة عصي الله بها ، وقد أهلك الله تعالى القرون الماضية والأمم السالفة ؛ كقوم نوح ، وغيرهم بسبب غلوهم في الصالحين منهم ، حتى وقعوا في الشرك (ويذكر التاريخ الإسلامي أن الغلو في هذه الأمة رغم وضوح المنهج وصراحة النصوص في التحذير منه قد وقع مبكرا في حياة هذه الأمة ، يشوه صفاء دينها ، وينخر في حنيفيتها ، ويصرفها عن اعتدالها ذات اليمين وذات الشمال ، وعن استقامتها على منهج الله ، وصراطه المستقيم . وإن أعظم ما حورب به المسلمون في دينهم

(١) انظر تفسير الطبري ١٦/٦٥ ، وتفسير ابن كثير ٣/١٢٧ ، والدر المنثور ٤/٢٧١

(٢) انظر تفسير ابن كثير ٣/١٢٧

(٣) انظر تفسير الطبري ١٦/٦٥ ، وقواعد الأديان لشيخ الإسلام ابن تيمية ص ٤٠ ، وتفسير ابن كثير ٣/١٢٧

(٤) انظر للتوسع في الرد على المغضوب عليهم والضالين في هذا الاعتقاد : الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ٢/٣٠٧ ، وبيان مباحث العقيدة في سورة مريم للدكتور محمد عبد الرحمن الشطي في رسالة ماجستير غير منشورة ص ٣٢٤ ، وموقف اليهود والنصارى من المسيح عليه السلام وإبطال شهادتهم حوله لسارة حامد العبادي رسالة دكتوراه غير منشورة ص ٣٧ وما بعدها .

أن فتح لهم باب الغلو في قيمه وآدابه حتى عقائده، وتبين كتب الفرق، والعقائد أن معظم انحرافات الفرق الإسلامية والمتنسبين إليه إنما كان بسبب الغلو^(١).

فإذن غلو الرافضة، والصوفية في واسطتنا الصحيحة بنينا محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه تابع لغلو اليهود في العزيز عليه السلام، حيث قالوا: (عزيز ابن الله)، ولغلو النصارى في المسيح عليه السلام حيث قالت النصارى: (المسيح ابن الله)؛ إلا أن نبينا صلى الله عليه وسلم لما حذر أمته من الغلو فيه وإطرائه كما فعلت النصارى للمسيح عليه السلام لم يجراً أهل الأهواء أن يقولوا فيه مقولة صريحة كمقولة اليهود والنصارى؛ لكنهم وصفوه صلى الله عليه وسلم بصفات لا تليق إلا بالخالق عز وجل، وادعوا فيه ادعاءات ترفعه فوق مقام النبوة وتسلبه صفات البشرية التي صرح القرآن أكثر من مرة بوصفه بها، والتحذير من وصفه بما يضادها^(٢) مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾^(٣)، وقوله تعالى: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾^(٤).

وهذا مصداق لقوله صلى الله عليه وسلم (لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع)^(٥).

وكما حذر الله تعالى هذه الأمة من الغلو في نبيها صلى الله عليه وسلم في القرآن الكريم فقد حذرهما أيضاً على لسان رسوله الصادق الأمين حيث قال صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح: (لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله)^(٦).

(وبالجملة فالغلو أصل شرك الأولين والآخرين إلى يوم القيامة، وقد أمرنا الله بمحبة أوليائه وإنزالهم منازلهم من العبودية، وسلب خصائص الإلهية عنهم، وهذا غاية تعظيمهم وطاعتهم، ونهانا عن الغلو فيهم، فلا نرفعهم فوق منزلتهم، ولا نحط منها لما

(١) انظر العلاقة بين التشيع والتصوف لفلاح أحمد رسالة دكتوراه غير منشورة ص ٨

(٢) راجع المبحث السابق (الحكمة في كون الواسطة من البشر)

(٣) سورة الكهف الآية ١١٠ (٤) سورة الإسراء الآية ٩٣

(٥) رواه البخاري انظر كتاب الاعتصام باب قول النبي صلى الله عليه وسلم لتتبعن سنن من كان قبلكم ٣٠٠ / ١٣

حديث ٧٣٢٠، ومسلم، كتاب العلم باب اتباع سنن اليهود والنصارى ٤٥٩ / ١٦

(٦) سبق تخريجه.

يعلم تعالى في ذلك من الفساد العظيم، فما وقع الشرك إلا بسبب الغلو فيهم^(١).

وأول من أظهر الغلو في الإسلام هي فرقة السبئية من الروافض^(٢)، ونجد أن الغلو الذي كان سمة من سمات فرق الغلاة من الشيعة في القديم أصبح الآن عند جميع الشيعة الإمامية من ضروريات المذهب^(٣)، وهذا شيعي معاصر يصرح بذلك قائلا: (إن المؤسف حقا هو أن الغلو النظري مثل العملي دخل إلى أعماق القلوب عن طريق فقهاء المذهب والمجتهدين، فالمسؤولية الأولى والأخيرة تقع على عاتقهم؛ لأنهم هم الذين قادوا العوام على الطريق، فهناك أمور نسبتها كتب الشيعة إلى الأئمة وتبناها فقهاء المذهب، وذكرتها كتب الروايات الموثوقة عندهم مثل: (أصول الكافي)، و(الوافي)، و(الاستبصار)، و(من لا يحضره الفقيه)، و(وسائل الشيعة) وغيرها من أهم الكتب، والمصادر الشيعية، وفي كثير منها الغلو)^(٤).

وقال البرسي الرافضي: (وهناك من فرق الغلاة من قالت: إن النبي، والأئمة يخلقون ويرزقون، وإليهم الموت والحياة)^(٥).

ومن مظاهر الغلو في حق الرسول صلى الله عليه وسلم اعتقاد بعض الناس أنه يعلم الغيب، ولا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وأنه يتصرف في الدنيا بعد موته، ويזור من يشاء في المشارق والمغارب، ويزعم بعضهم أن النبي ﷺ يحضر مجلسه؛ ولذلك ينشر ثوبا أبيض وسط الحلقة ليجلس عليه النبي ﷺ والخلفاء الراشدون على حد زعمهم! وبعضهم يدعي أن النبي ﷺ يزوره ويخصه بمعارف، وأحوال، ويشرع له مسائل من الدين تخالف شرع النبي ﷺ الذي أمته الله وأكمل له وأرتضاه قبل موته عليه الصلاة والسلام، ويزعم بعض أهل الأهواء أن النبي ﷺ كان لا يفارق شيخه طرفة عين، وصرح كثير من أرباب الطرق الصوفية أنهم قابلوا النبي ﷺ وأعطاهم بعض الأوراد التي تقوم على

(١) تيسير العزيز الحميد ص ٣٤٥، وانظر مصرع الشرك والخرافة ص، وتقديس الأشخاص في الفكر الصوفي ٢٥/٢

(٢) انظر فرق الشيعة للتوبختي ص ٤٣، والأصول من الكافي ١/١٤٦، والمقالات والفرق للقمي ص ٤٣، وتاريخ الإمامية وأسلافهم من الشيعة لعبد الله فياض ص ٨٧

(٣) انظر اليمانيات المسلوقة ص ١٤٨، والخطوط العريضة لمحج الدين الخطيب ص ٦٤، والشيعة والتشيع لإحسان إلهي ظهير ص ١٦٤ (٤) الشيعة والتصحيح لموسى الموسوي ص ١١٣

(٥) مشارق أنوار اليقين ص ٢١١، وانظر اليمانيات المسلوقة ص ١٤٨

أساسها تلك الطرق، ويعتقدون أن السماوات والأرض وما بينهما مملوءة بالنبي ﷺ ولو كشف عنا الحجاب لرأيناه عيانا إلى غير ذلك من الاعتقادات الفاسدة التي منشؤها الغلو في جناب الرسول صلى الله عليه وسلم^(١).

ومن غلو أهل الأهواء في النبي ﷺ أنهم ينسبون إليه أبناءهم في التسمية طمعا في رد البلاء، فيُعبدونهم له عليه الصلاة والسلام بدلا من تعبيدهم لله الذي خلقهم، فيسمونهم (عبد النبي) (و غلام الرسول)^(٢).

وعموما فإن الغلو في الأشخاص وخصوصا في خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم هو سبب قوي في فشو الشرك وانتشاره بين المسلمين في هذا العصر^(٣).

ومن ثم قامت الرافضة واقتطعت قطعة من هذا الغلو وفصلتها على قدر يليق بمقام الإمام (المعصوم) على رأيهم! ولما رأت الصوفية ما فعلته الرافضة واستحسنت منها هذا الفعل أرادت أن تحاكيها كما هي عاداتها فانتزعت رقعة وفصلتها على قدر يليق بمقام الولي (المحفوظ) على حد زعمهم!، فليس غلو الصوفية في حق نبينا صلى الله عليه وسلم إلا منحدرًا وعرا سلكته الصوفية رغم وضوح منهج أهل السنة في هذا الباب، فخرجت منه إلى واد سحيق وجدت فيه الرافضة تنبه فوافقتها في مسائل عديدة من الاعتقاد، وخصوصا ما يتعلق بالغلو، ومجاورة حدود الشريعة، ومصادمة الفطر السليمة، والعقول الصحيحة^(٤).

وبسبب غلو أهل الأهواء في نبينا صلى الله عليه وسلم الغلو الذي نهى الأمة عنه فقد انتشر بين عوام المسلمين وخصوصا من انحرف في سلك الرافضة، أو الصوفية بعض الأدعية البدعية والاستغاثات الشركية عند زياراتهم لقبر النبي ﷺ، مثل قول بعضهم: (يا بو إبراهيم فلان لطمني فخذلي حقي منه)، وقول الآخر: (يا بو القاسم احنا قصدناك من

(١) انظر فتح المجيد ص ٢٢٤ حاشية رقم (١) للمحقق محمد حامد الفقي، والصارم المنكي ص ٣٣٩، وأنوار

الحق في الصلاة على سيد الخلق لعبد المقصود سالم ص ٩٣

(٢) انظر بيان الشرك ووسائله عند أئمة الحنفية ص ٤٠، وجهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبورية ٢/ ٦٩٥

(٣) انظر العلاقة بين التشيع والتصوف لفلاح أحمد ص ٨

(٤) المرجع نفسه ص ٢٨٠، وانظر الغلو وأثره في عقائد الرافضة لشيخنا الدكتور جازي بخيت الجهني رسالة

دكتوراه غير منشورة ص ١٢، والصلة بين التصوف والتشيع للشيبي ١/ ٤١٤، ومظاهر الانحرافات العقدية عند

الصوفية لإدريس محمود رسالة ماجستير غير منشورة ص ١٤٢

مكان كذا، فلا تردنا خائنين) وآخر يقول : (يا بو فاطمة وجد الحسن والحسين إنا قصدنا بابك، والعارف ما يعرف، والشكوى لأهل البصيرة عيب)^(١).

ولهذا لا تستولي عليك الدهشة وتحوطك الغرابة -أيها المؤمن الموحد حينما تسمع أهل الغلو في الرسول صلى الله عليه وسلم ينشدون^(٢):-

يا سيدي يا رسول الله خذ بيدي في كل هول من الأهوال ألقاه
إن كان زارك قوم لم أزر معهم فإن عبدك عاقه خطاياهم
ويصيحون قائلين^(٣):-

يا رسول الإله إنني ضعيف فاشفني أنت مصدر للشفاء
يا رسول الإله إن لم تغشي فإلى من ترى يكون التجاني
وينشد التبهاني لنفسه^(٤):-

سيدي أبا البتول أغشي أنت أدري بما حواه الضمير

ولا ريب أن هذه النماذج من الغلو التي مرت معنا تمثل صورة حقيقية لغلو أهل الأهواء في حق نبينا صلى الله عليه وسلم، ولا ريب أنه صلى الله عليه وسلم حذر أمته من الدنو من الغلو؛ وذلك بالنهي عن إطراره صلى الله عليه وسلم؛ لأن الإطراء وسيلة وواسطة للغلو، والغلو يريد الشرك، وما ذلك إلا حماية منه عليه الصلاة والسلام لجناح التوحيد^(٥)، وصيانة للعقيدة، وسدا لوسائل الشرك، وحفاظا على مقام الربوبية من الخدش، ورعاية لمنزلة النبوة من النش، (فأبى عباد القبور إلا مخالفة لأمره، وارتكابا لنهي، وناقضوه أعظم المناقضة، وظنوا أنهم إذا وصفوه بأنه عبد الله ورسوله، وأنه لا يدعى ولا يستغاث به، ولا ينذر له، ولا يطاف بحجرته، وأنه ليس له من الأمر شيء، ولا

(١) انظر نماذج من هذا الغلو في النبي ﷺ في توحيد الألوهية أساس الإسلام ص ١٧٤، والبريلوية ص ٩١، وظاهرة الغلو في الدين لعبود علي درع ص ٢٥٧

(٢) انظر ديوان عبد الرحيم البرعي ص ١٤

(٣) هذان البيتان لشمس الدين التتوحي المصري. انظر شواهد الحق في الاستغاثة بسيد الخلق ص ٣٥٢

(٤) انظر شواهد الحق ص ٣٧٧

(٥) انظر حماية الرسول ﷺ حمى التوحيد للدكتور محمد بن زربان الغامدي رسالة ماجستير غير منشورة ص ٢٢٣، وفتاوى اللجنة الدائمة ١/ ٤٤٦

يعلم من الغيب إلا ما علمه الله أن في ذلك هضما لجنابه، وغضا من قدره، فرفعوه فوق منزلته، وادعوا فيه ما ادعت النصارى في عيسى أو قريبا منه، فسألوه مغفرة الذنوب، وتفريج الكروب . . . ومن العجب أن الشيطان أظهر لهم ذلك في صورة محبته عليه السلام، وتعظيمه ومتابعته، وهذا شأن اللعين لا بد وأن يمزج الحق بالباطل ليروج على أشباه الأنعام أتباع كل ناعق الذين لم يستضيئوا بنور العلم^(١).

ولعل سؤالا يرد على ذهن القارئ لهذه النماذج من الغلو، وهو: لماذا هذا الغلو الزائد، والاعتقاد الفاسد في حق الرسول ﷺ مع علمنا اليقين بنهيه الصريح بلسانه الفصيح صلى الله عليه وسلم عن إطرائه، والغلو في حقه؟.

وللإجابة على هذا السؤال نقول: إن أهل الأهواء (لما رأوا أن النبي ﷺ خليل الرحمن وصاحب الشفاعة العظمى يوم القيامة وبركاته صلى الله عليه وسلم على أصحابه في حياته، لما توسلوا به ليدعولهم، فحقق الله دعوتهم، وكذلك لما رأوا تعظيم النصارى لعيسى بن مريم وغلوهم فيه، قالوا: نحن أحق بهذا التعظيم منهم لمن هو أفضل منه: رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلخوا طريقتهم فاحتفلوا بميلاده، ومن ثم دعوه من دون الله توسلا، ودعاء، واستشفاء، واستصارا، ومددا)^(٢).

(١) تيسير العزيز الحميد ص ٣١٤، وانظر الوسطية في القرآن الكريم لعلي بن محمد الصلابي ص ٣٧٧
(٢) الغلو في الدين لعلي بن عبد العزيز الشبل ص ٧٨، وانظر التصوف بين الحق والخلق لمحمد شقفة ص ٨٠، ومحبة الرسول بين الاتباع والابتداع ص ١٥٢

المبحث الثالث

تنقيص بعض أهل الأهواء لمقام الواسطة الصحيحة

رأينا في المبحث السابق كيف أن بعض أهل الأهواء خالفوا النبي ﷺ في نهيه عن إطرائه، والغلو فيه، فجاوزوا الحد في مدحه، وإطرائه، والغلو في جنبه صلى الله عليه وسلم؟ ونجد في هذا المبحث أن بعضاً من أهل الأهواء وقفوا موقفاً آخر من نبينا وإمامنا، وقدوتنا محمد ﷺ، وكانوا في الطرف المقابل لأهل الغلو، فحطوا من رتبته عليه الصلاة والسلام، وتنقصوا مقام النبوة، وادعوا أن لبعض الشخصيات منزلة أعلى من منزلته، ومكانة أسمى من مكانته صلى الله عليه وسلم، وهذا تناقض من أهل الأهواء عجيب فتارة يغفلون في حقه صلى الله عليه وسلم ويرفعونه فوق مرتبة النبوة ومنزلة الرسالة وتارة يحطون من قدره الشريف ومقامه المنيف ويتنقصون مكانته الرفيعة صلى الله عليه وسلم، وهذان الطرفان مذمومان كما قيل^(١):-

ولا تغل في شيء من الأمر واقتصد كلا طرفي قصد الأمور ذميم
وكقول الآخر^(٢):

خير الأمور الوسط الوسيط وشرها الإفراط والتفريط

ومن هنا يلاحظ الباحث أن التناقض سمة من السمات البارزة في عقائد أهل الأهواء وهو نتيجة حتمية لكل مذهب مظلم لم يتخذ الوحي مشعلاً ونوراً، وكل منهج مضطرب لم يتقيد بالكتاب والسنة، ورودا وصدورا.

وبعد البحث لمعرفة القائلين بهذه المقالة الشنيعة في الواسطة الصحيحة وجدت أن الجفاة المتنقصين للرسول من أهل الأهواء ثلاث طوائف: الفلاسفة، والرافضة، والصوفية، وفيما يلي بيان مقالاتهم في تنقيص الرسل الكرام عليهم السلام:

أولاً: مقالة الفلاسفة: يزعم الفلاسفة أن النبوة أمر اكتسابي يستطيع الإنسان بطريق المجاهدة، والتصفية، والرياضة أن يكتسبها، وهذا قول الفلاسفة المشائين^(٣)؛ لأنهم

(١) انظر العزلة للخطابي ص ٢٣١، وبتيمة الدهر للشعالبي ٤/ ٣٣٦

(٢) انظر أدبيات الشاي والقهوة لمحمد طاهر الخطاط ص ١٦٦

(٣) سمووا بذلك لأن أستاذهم أرسطو كان يعلم تلاميذه الحكمة وهو يمشي. انظر الموسوعة العربية الميسرة بإشراف

محمد شفيق غربال ٢/ ١٧٠٤

يزعمون أن من لازم الخلوة، والعبادة، ودوام المراقبة في الغيب والشهادة، وتناول الحلال، وأخلى نفسه من الشواغل العائقة عن المشاهدة بعد كمال ظاهره وباطنه بالتهذيب، والرياضة انصقلت مرآة باطنه، وفتحت بصيرة لبه، وتهياً لما لا يستطيع أن يتهياً له غيره من التحلي بالنبوة؛ لأن النبوة عندهم عبارة عن اجتماع ثلاث خواص في الإنسان :-

الأولى: الاطلاع على الأمور الغيبية لصفاء جوهر نفسه واتصاله بالروحانيات العالية.

الثانية: ظهور خوارق العادات على يديه.

الثالثة: مشاهدة الملائكة على صور متخيلة، وسماع كلام الله تعالى^(١).

وهذا تكذيب للوحي وتنقيص للموحى إليهم من أصحاب الرسالات ممن سبق في علم الله تعالى وإرادته باصطفائه، واختياره لتحمل الرسالة، فالنبوة فضل إلهي محض يؤتيه الله من يشاء من صفوة خلقه للبعثة، والإرسال قال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾^(٢)

ولم يكتف الفلاسفة بهذا القول في النبوة، ولم يقفوا عند هذا الحد؛ بل قالوا إن الأنبياء كذبوا على الجمهور من الناس، ووضعوا الشرائع من عند أنفسهم للتخيل على العامة، فلم يتمكنوا من بيان الحقائق؛ لأن إظهارها يفسد الناس على حد قولهم^(٣)، ففضلوا بذلك الفلاسفة على الأنبياء في العلم، فقالوا: إن الفلاسفة يعلمون الحقائق العقلية العلمية أكثر من الأنبياء، وأن الأنبياء كانوا في القوة العملية أكمل، ولهذا وضعوا الشرائع العملية، وادعوا أن المعجزات ليست إلا قوى نفسانية، أو طبيعية أو فلكية من جنس السحر.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (ومن ملاحدة المتصوفة من يزعم أن أرسطو كان هو الخضر خضر موسى، وهؤلاء منهم من يفضل الفلاسفة على الأنبياء في العلم، ويقول: إن هارون كان أعلم من موسى، وإن علياً كان أعلم من النبي ﷺ كما يزعمون أن الخضر أعلم من موسى، وأن علياً، وهارون، والخضر كانوا فلاسفة يعلمون الحقائق العقلية العلمية أكثر من موسى، وعيسى، ومحمد؛ ولكن هؤلاء كانوا في القوة العملية أكمل؛

(١) انظر منهاج السنة النبوية ٢/٤١٥، وبغية المرتاد ص ٣٨٦، ولوامع الأنوار ٢/٢٦٨

(٣) انظر مجموع الفتاوى ٤/٩٠

(٢) سورة الأنعام الآية ١٢٤

ولهذا وضعوا الشرائع العملية، وهؤلاء يفضلون فرعون على موسى ويسمونه أفلاطون القبطي، وقد يقولون: إن صاحب مدين الذي تزوج موسى بنته هو أفلاطون اليوناني^(١) أستاذ أرسطو ويقولون: إن موسى كان أعلم من غيره بالسحر وإنه استفاد ذلك من حموه؛ إذ كان عندهم ليست المعجزات إلا قوى نفسانية، أو طبيعية، أو فلكية، من جنس السحر، ولكن موسى كان مبرزا على غيره في ذلك إلى أمثال ذلك من المقالات التي تقولها الملاحدة المتفلسفة المتمدنون إلى الإسلام في الظاهر من متشيع ومتصوف.... ولهم من هذا الجنس ما يطول حكايته، مما يدل على أنهم من أجهل الناس بالمعقول، والمنقول، ولم يفهم جهلهم بما جاءت به النبوات حتى ضموها إلى ذلك أخبار العالم، وأيام الناس^(٢).

ثانيا: مقالة الرافضة: بحكم الغلو الزائد في الأئمة من آل البيت الذي تقول به الرافضة فإنها واقعة لا محالة في تنقيص نبينا ورسولنا محمد ﷺ والخط من قدره، والطعن في رسالته، ومن ذلك قول طائفة الغرابية^(٣) من غلاتهم (إن عليا أشبه بمحمد من الغراب بالغراب، والذباب بالذباب فاشتبهها على جبرائيل فبلغ الرسالة إلى محمد، وكانت لعل^(٤)).

ويقول شاعرهم في ذلك^(٥): -

غلط الأمين فجازها عن حيدر تالله ما كان الأمين أمينا

وهناك طائفة يقال لها: الذمّية^(٦) سموا بذلك لذمهم محمدا صلى الله عليه وسلم بأن عليا (بعثه لدعوة الناس إليه بالعبودية فدعا الناس إلى نفسه، وقال بعضهم بإلهيتهما، واختلفوا في التقديم والتأخير، والذين يقدمون عليا يقال لهم: العينية، والذين يقولون

(١) هو فليسون يوناني ولد سنة ٤٢٧، وتوفي سنة ٣٤٧ قبل الميلاد، كان تلميذا لسقراط، من مؤلفاته ((جمهورية أفلاطون)) وغيرها من مجموعات فلسفية، وتتميز فلسفة أفلاطون بنظرية المثل العليا، انظر الموسوعة العربية الميسرة بإشراف محمد شفيق غربال ١٨١ / (٢) الرد على المتطهين ص ١٨٣

(٣) انظر في شأن هذه الفرقة التبصير في الدين ص ١١٢، والتعريفات ص ١٦٢، والبدء والتاريخ ١٣١ / ٥، وخطط المقرئ ٣٥٢ / ٢، والتحفة الاثني عشرية ص ١٢٠

(٤) اليمانيات المسلوقة ص ١٦٩

(٥) انظر الفرق بين الفرق ص ٢٥٠، والنواقض للروافض للبرزنجي ص ٢٩٠، ومختصر التحفة اثني عشرية ص ١٣

(٦) انظر في شأن هذه الطائفة المقالات والفرق للقمي ص ٥٩، والمل والنحل ١ / ١٧٥، وتلبس إبليس ص ٩٦، وخطط المقرئ ٣٥٣ / ٢

بتقديم محمد ﷺ يقال لهم : الميمية^(١).

وغلاة الرافضة يلعنون صاحب الريش ويعنون به جبريل عليه السلام ؛ لأنه بلغ الرسالة إلى محمد ﷺ ولم يبلغها لعلي بن أبي طالب^(٢)، وسماهم المقريري "مخطئة" لتخطئتهم جبريل عليه السلام^(٣)، وهذا غاية في التنقيص لهذه الوساطة من الملائكة.

ومن غلاتهم فرقة الإسحاقية^(٤)، وترغم أن عليا هو الله تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، وأنه هو الذي بعث محمدا صلى الله عليه وسلم بالرسالة^(٥). والهشامية^(٦) من فرق الغلاة تقول بعصمة الأئمة، وعدم عصمة الأنبياء^(٧). وهذا القول شبيهه بقول الخوارج بجواز وقوع الأنبياء في الكفر^(٨).

وقد فطن بعض المستشرقين لما في عقائد الرافضة من الطعن في نبينا صلى الله عليه وسلم، والخط من قدره فقال : (فطائفة من فرق الشيعة يطلق على مجموعها اسم "علي إلهي" أي الذين يرون الألوهية في علي، واسمهم وحده كاف في بيان حقيقة عقيدتهم يجمعون إلى تأليه علي رفضهم لبعض أركان الشريعة الإسلامية، وفي مثل هذه الزندقات ما لم تبسط صفة الألوهية على النبي كثيرا ما يؤدي الرفع من شأن علي إلى الغض من مقام النبي ؛ حتى يصل إلى درجة أقل من درجة علي المؤله، ويرى بعض هذه الفرق أن نزول جبريل بوحى الرسالة على محمد إنما جاء خطأ، وأن عليا هو الذي كان مقصودا بها، وتوجد فرقة أخرى وهي فرقة العلوية التي تسمى أيضا بالذمية لزمهم النبي ؛ إذ عندهم أن النبي قد اغتصب لنفسه المنزلة التي كانت لعلي وفي فرقة "النصيرية" أنزل النصيريون محمدا بجانب علي المؤله إلى منزلة أقل شأنًا من علي، وزعموا أنه كان حَجَّابًا له)^(٩).

(١) انظر المقالات والفرق ص ١٩١، والمل والنحل ١/ ١٧٥، والمواقف ص ٤٩٠.

(٢) انظر الرد عليهم في هذا الافتراء في اليمانيات المسلوقة ص ١٧٠.

(٣) انظر خطط المقريري ٢/ ٣٥.

(٤) نسبة إلى الضال إسحاق بن زيد بن الحرث. انظر فرق الشيعة للنوختي ص ٩٤، والمقالات والفرق ص ١٠٠، والأنوار النعمانية ٢/ ٢٤١، والمل والنحل ١/ ١٨٨.

(٥) انظر تليس إبليس ص ٩٥.

(٦) انظر في شأن هذه الفرقة فرق الشيعة ص ٧٨، والمل والنحل ١/ ١٨٤، والفرق بين الفرق ص ٦٥.

(٧) انظر الأنوار النعمانية ١/ ٢٠، والمواقف ص ٤٢١، وانظر رد الأمدى على هذا الاعتقاد في كتابه غاية المرام في علم الكلام ص ٣٨٤.

(٨) انظر جلاء العينين في محاكمة الأحمديين ص ٤٢٩.

(٩) العقيدة والشريعة في الإسلام لجولد تسهير ص ١٨٣، وانظر الرد الكافي على مغالطات الدكتور عبد الواحد وافي الإحسان إلهي ظهير ص ١٤١.

ومن صور التنقيص الذي تطفح به كتب الرافضة التأكيد على رفع رتبة علي رضي الله عنه فوق رتبة النبي ﷺ، ولا ندري أيهما الأصل في الفضل، هل هو النبي ﷺ أم علي رضي الله عنه؟ إلا أننا نرى أن الرافضة لا تجعل النبي أصلاً يعظم ويحترم علي لأجله؛ بل إنهم يحترمون النبي ﷺ ويعظمونه من أجل علي رضي الله عنه؛ لأنه أخذ ابنته، وجعله قريبه، وحبيبه، وعلى هذا اخترعوا تلك الرواية العجيبة الغريبة المكذوبة، وهي: أن النبي ﷺ قال: (أعطيت ثلاثاً، وعلي مشاركي فيها، وأعطي علي رضي الله عنه ثلاثاً ولم أشاركه فيها، فقيل: يا رسول الله، وما الثلاث التي شاركك علي فيها؟ قال: (لواء الحمد لي، وعلي حامله، والكوثر لي، وعلي ساقيه، والجنة، والنار لي وعلي قسيمهما، وأما الثلاث التي أعطي علي ولم أشاركه فيها؛ فإنه أعطي شجاعة ولم أعط مثله، وأعطي فاطمة الزهراء زوجة، ولم أعط مثلها، وأعطي ولديه: الحسن، والحسين، ولم أعط مثلهما)^(١).

وتحمل هذه الروايات في طياتها ولها أمثلة كثيرة حقيقة معتقدات الرافضة، وأنهم يعدون علياً الأصل والنبي ﷺ الفرع، كما أنهم يصرحون بأفضليته على سيد الخلق صلى الله عليه وسلم، وهذا أمر ظاهر لا لبس فيه، وغلو وإفراط في حق علي رضي الله عنه، وتنقيص وتفريط في جناب النبي صلى الله عليه وسلم^(٢).

نعم فالرافضة تريد إهانة هذا النبي العظيم الذي فضله الله على سائر الأنبياء والرسل بصفات لم يعطوها، وخصائص لم ينالوها، قالوا فيه: إن علياً وازن بينه وبين نفسه فقال: (أنا قسيم الله بين الجنة والنار، وأنا الفاروق الأكبر، وأنا صاحب العصا، والميسم، ولقد أقرت لي جميع الملائكة والرسل بمثل ما أقروا به لمحمد صلى الله عليه وآله ولقد حملت على مثل حمولة الرب، وإن رسول الله صلى الله عليه وآله يدعى فيكسى وأدعى فأكسى، ويستنطق، وأستنطق إلى هذا نحن سواء، وأما أنا فلقد أوتيت خصالاً ما سبقني إليها أحد قبلي علمت المنايا، والبلايا، والأنساب، وفصل الخطاب، فلم يفتني ما سبقني، ولم يعزب عني ما غاب عني)^(٣).

(١) أمالي الصدوق ص ٢١٩، وانظر بحار الأنوار ٣٩/٩٠، والأنوار النعمانية.

(٢) انظر الشيعة وأهل البيت ص ١٩١، وكسر الصم نقض كتاب أصول الكافي لآية الله أبي الفضل البرقي ص ٢٠١، والعقيدة في أهل البيت بين الإفراط والتفريط ص ٣٧٥.

(٣) الأصول من الكافي ١/١٩٦.

وهذا التنقيص ليس مستبعدا من القوم؛ لأنهم تعودوا عليه وتجروا على تصغير شأن نبي الله ﷺ مقابل علي رضي الله عنه، وهناك أشنع من هذا، وأقبح إساءة لسيد الخلائق أجمعين، ورسول الله إلى الثقلين صلى الله عليه وسلم، وهو ما رووه في الأمالي: (أن رسول الله قال لعلي: لو لم أبلغ ما أمرت به من ولايتك لحبط عملي)^(١).

ويرى بعض علمائهم أن النبي ﷺ إذا لم يوص فقد ضيع أمته، وأصبح ناقص النبوة، أو الرسالة^(٢).

وأراد البرسي الرافضي أن يفلسف فكرته القائلة بتفضيل علي على النبي ﷺ فقال: (فمثال النبي، والولي في علم الظاهر والباطن كمثال ملك اختار من عبده عبيدين فجعل أحدهما له سفيرا، والآخر نائبا ووزيرا، وخزن عندهما علم المملكة، وولاهما حكما، ثم أمر الملك سفيره أن لا يحكم بما وصل إليه، وفوض إليه إلا بالظاهر في حكم الأديان؛ لئلا يتهمه أهل المملكة بالأخذ عن الكهان، وأمره أن يوصل علم الظاهر والباطن إلى النائب الذي هو الوزير وجعل له الحكم المطلق؛ وذلك لأن حكم الملك والسلطان قد وصلا إليه على الإطلاق فهو مطلق العنان فيهما)^(٣).

ويؤكد مصنفو الرافضة أن الأئمة يأخذون من اللوح المحفوظ بلا واسطة، فهم أفضل من الأنبياء الذين لا ينطقون عن الهوى وإنما يخاطبون الناس بالوحي الذي يوحى.

يقول البرسي من علمائهم: (إن النبي والولي مطلعان على علم الغيب؛ لكن النبي لا ينطق به إلا مع الأمر؛ لأنه الرسول، أما الولي في النطق بالغيب فمطلق العنان... ومن علومهم ما يعلمه - هم - ولم يجز على لسان مخلوق غيرهم، وهو ما وصل إليهم بغير واسطة، وهو السر الذي ظهرت به آثار الربوبية عنهم)^(٤).

وفي الكافي عن أبي جعفر أنه قال: (إن الله عز وجل جمع لمحمد ﷺ سنن النبيين من آدم، وهلم جرا إلى محمد ﷺ قيل له: وما تلك السنن؟ قال: علم النبيين بأسره، وإن رسول الله ﷺ صير ذلك كله عند أمير المؤمنين رضي الله عنه فقال له رجل: يا ابن رسول

(١) تفسير نور الثقلين ١/ ٦٥٤ نقلا عن الشيعة وأهل البيت ص ٢٦٠

(٢) انظر عقائد الإمامية الاثني عشرية للزنجاني ص ١٧١، نقلا عن الرسل والرسالات للأشقر ص ١١٦

(٣) مشارق أنوار اليقين ص ١٧٨

(٤) المرجع السابق ص ١٩٨



الله فأمر المؤمنين أعلم أم بعض النبيين؟ فقال أبو جعفر رحمه الله اسمعوا ما يقول! إن الله يفتح مسامع من يشاء! إني حدثته أن الله جمع لمحمد ﷺ علم النبيين وأنه جمع ذلك كله عند أمير المؤمنين رضي الله عنه وهو يسألني: أهو أعلم أم بعض النبيين! (١).

فإذا كانت الرافضة تنقل مثل هذه الحكايات المكذوبة وتؤمن بهذه الخرافات المجلوبة من الديانات والعقائد القديمة المسلوقة التي قضى عليها الإسلام، ومحا ظلامها من الديار المفتوحة بنوره الضافي؛ فإن هذا من الأدلة الواضحة، والشهادة الفاضحة على التنقيص الصريح لحق هذه الوسطة التي حبانها الله بها وهي رسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ولم يقتصر التنقيص كما في هذه الرواية على خاتم النبيين صلوات الله وسلامه عليه؛ بل شمل أيضا القدح في سائر الأنبياء عليهم السلام، وقد بوب صاحب الفصول المهمة على هذه الروايات بقوله: باب أن النبي والأئمة الاثني عشر أفضل من سائر المخلوقات من الأنبياء، والأوصياء، والملائكة، وغيرهم (٢).

فالإمام علي رضي الله عنه نبي مرسل بعثه الله تعالى حسب زعمهم مع النبي ﷺ بتبليغ ما أمره الله أن يبلغ، وهذا تنقيص لمقام النبي ﷺ وغلوا زائد في حق الأئمة المعصومين المرعومين ووصفهم بمالم يوصف به النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا أبو طاهر الجنابي (٣) من غلاة الباطنية يقول:-

(ما أضل هذه الأمة إلا راع، وطبيب، وجمال؛ فأما الراعي، والطبيب فأتيا بأشياء تعلمهاها، وأما الجمال فلم يأت بشيء) (٤)، وهو يعني بالراعي موسى كليم الله، وبالطبيب عيسى روح الله، وبالجمال محمدا خير خلق الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. وقال شاعر القرامطة أعداء الرسل - وهو ينعت القوائم بالأمير في زمانه من بني يعرب بالنبي، ويحط من قدر خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم (٥):-

(١) الكافي ١/ ٢٢٢، وانظر بحار الأنوار ٢٦/ ١٦٥

(٢) انظر الفصول المهمة في أحوال الأئمة للحر العاملي ص ١٥١

(٣) هو عدو الله أبو طاهر سليمان بن الحسن بن بهرام الجنابي القرمطي الطاغية الفتاك، ملك البحرين لم يطلب للمسلمين بالعراق، والحجاز عيش في أيامه، ويكفيه من الخاوي هرويه بالحجر الأسود إلى هجر وتعزية الكعبة، مات عليه من الله ما يستحق في حجر، وهو كهل بالجدري سنة ٣٣٢ هـ انظر سير أعلام النبلاء ١٥/ ٣٢، وفوات الوفيات ٢/ ٥٩، والنجوم الزاهرة ٣/ ٢٢٥، والقرامطة لعارف تامر ص ١٤٢

(٤) قواعد عقائد آل محمد لمحمد بن الحسن الديلمي ص ٩٠

(٥) انظر قواعد عقائد آل محمد ص ٩٧

خذي الدف يا هذه والعي
تولى نبي بني هاشم
وغني هزاريك ثم اطربي
وهذا نبي بني يعرب
لكل نبي مضى شرعة
وهذي شرائع هذا النبي

وادعاء القرامطة أن القائم بالأمر على حد زعمهم نبي مرسل كفر صريح، يقول الإمام ابن حزم: (من ادعى إلهية إنسان، أو ادعى نبوة لأحد بعد رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم حاشا عيسى بن مريم فهو كافر، لا خلاف في ذلك من أحد من أهل الإسلام؛ وذلك لخلافه القرآن والثابت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم) (١).

وعقيدة تفضيل الأئمة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لم تكن تمثل حقبة تاريخية ثم انتهت كلا؛ بل إن حاكم إيران الكسروية المتأخر يردد ذلك الضلال فيقول: (فإن للإمام مقاما محمودا، ودرجة سامية وخلافة تكوينية تخضع لولايتها وسيطرتها جميع ذرات هذا الكون... وإن من ضروريات مذهبنا أن لأئمتنا مقاما لا يبلغه ملك مقرب ولا نبي مرسل) (٢).

وقال أيضا عن الأئمة (ورد عنهم إن لنا مع الله حالات لا يسعها ملك مقرب، ولا نبي مرسل، ومثل هذه المنزلة موجودة لفاطمة الزهراء) (٣).

وزعم هذا الضال أن الأنبياء، والرسل جميعا، وفيهم محمد صلى الله عليه وسلم لم ينجحوا في صلاح البشرية، وتنفيذ العدالة، وأن الذي سينجح في ذلك هو المهدي المنتظر، وأنه الشخص الوحيد في العالم الذي سيحقق ذلك! فيقول: (الأنبياء جميعا جاءوا من أجل إرساء قواعد العدالة في العالم كله؛ لكنهم لم ينجحوا وحتى أن النبي محمدا عليه الصلاة والسلام خاتم الأنبياء الذي جاء لإصلاح البشرية، وتنفيذ العدالة لم ينجح في ذلك في عهده...، وإن الشخص الذي سينجح في ذلك، ويرسي قواعد العدالة في جميع أنحاء العالم، ويُقَوِّم الانحرافات هو المهدي المنتظر إن الإمام المهدي سيعمل على نشر العدالة في جميع أنحاء العالم، وسينجح فيما فشل في تحقيقه الأنبياء، والأولياء بسبب العراقيل التي كانت في طريقهم، وإن السبب الذي أطال الله سبحانه

(٢) كتاب الحكومة الإسلامية ص ٥٢ للخميني.

(١) كتاب الدرة فيما يجب اعتقاده ص ٢٠٥

(٣) المرجع نفسه والصفحة نفسها.

وتعالى من أجله عمر الإمام المهدي هو أنه لم يكن بين البشرية من يستطيع القيام بمثل هذا العمل الكبير حتى الأنبياء والأولياء^(١).

ثم يصف المهدي -الخرافة- بأنه الرجل الأول، والمخلص الفريد، وأما الأنبياء، والمرسلون فهم في المرتبة الثانية بعده، وأن عيد ميلاد خرافة السرداب أكبر، وأعظم فائدة للبشرية من ميلاد خاتم الأنبياء^(٢)، وصفوة الرسل، وسيد ولد آدم صلى الله عليه وسلم فيقول: (إن هذا العيد الذي هو عيد كبير بالنسبة للمسلمين أكبر من ميلاد النبي عليه الصلاة والسلام)^(٣).

فأي تنقيص بعد هذا لهذا الرسول العظيم؟ وأي حط من قدر جناب هذا النبي الكريم الخاتم؟ صلى الله عليه وسلم، وشرف، وعظم.

ثالثاً: مقالة الصوفية: لم تكن الصوفية موفقة عندما أضفت كثيراً من هالات التقديس على من يعظمونهم من الأولياء، والشيخوخ، وطرحت عليهم لباس العصمة، ووشاح التعظيم، ولم تقف عند هذا الحد؛ بل ادعت مساواة هؤلاء المعظمين لأنبياء الله تعالى ورسله، ثم زادت في الخرافة والتنقيص فادعت أن مرتبة الولاية أعلى من مقام النبوة حتى قال ابن عربي^(٤):-

مقام النبوة في برزخ فوق الرسول ودون الولي!

يقول علي بن أبي العز: (وكثير من هؤلاء يظن أنه يصل برياسته، واجتهاده في العبادة، وتصفية نفسه إلى ما وصلت إليه الأنبياء من غير اتباع لطريقتهم! ومنهم من يظن أنه قد صار أفضل من الأنبياء!! ومنهم من يقول: إن الأنبياء، والرسل إنما يأخذون العلم بالله من مشكاة خاتم الأولياء!! ويدعي لنفسه أنه خاتم الأولياء!!)^(٥)

(١) من خطبة للخميني بمناسبة عيد مولد الغائب المزعوم بتاريخ ١٥/٨/١٤٠٠ هـ نشرتها صحيفة الرأي العام الكويتية. انظر الخميني وتفضيل الأئمة على الأنبياء لمحمد مال الله ص ٣٩

(٢) ومع أن الاحتفال بمولد الرسول صلى الله عليه وسلم واعتباره عبداً هو بدعة مستحدثة لم يفعلها أهل القرون المفضلة؛ إلا أن تفضيل هذا الراضي لعبد مولد المختفي في السرداب على مولد النبي ﷺ يعد قدحاً في النبوة، وتنقيصاً لخاتم النبيين صلى الله عليه وسلم.

(٣) من خطبة للخميني بمناسبة عيد مولد الغائب المزعوم بتاريخ ١٥/٨/١٤٠٠ هـ نشرتها صحيفة الرأي الكويتية.

انظر الخميني وتفضيل الأئمة على الأنبياء لمحمد مال الله ص ٣٩، وانظر الرسل والرسالات للأشقر ص ٢١٢

(٤) انظر بغية المراتد ص ٣٨، وشرح العقيدة الطحاوية ص ٤٩٣

(٥) شرح العقيدة الطحاوية ص ٤٩٢

وهذا هو ما صرح به ابن عربي الطائفي حيث قال : (وليس هذا العلم إلا خاتم الرسل ، وخاتم الأولياء ، وما يراه أحد من الأنبياء ، والرسل إلا من مشكاة الرسول الخاتم ، ولا يراه أحد من الأولياء إلا من مشكاة الولي الخاتم ؛ حتى إن الرسل لا يرونه متى رأوه إلا من مشكاة خاتم الأولياء ؛ فإن الرسالة ، والنبوة - أعني نبوة التشريع ورسالته - تنقطعان ، والولاية لا تنقطع أبدا .

فالمرسلون من [حيث]^(١) كونهم أولياء لا يرون ما ذكرناه إلا من مشكاة خاتم الأولياء ، فكيف من دونهم من الأولياء ؟ . . ولما مثل النبي ﷺ النبوة بالحائط من اللبّن^(٢) وقد كمل سوى موضع لبنة ، فكان صلى الله عليه وسلم تلك اللبنة غير أنه صلى الله عليه وسلم لا يراها كما قال لبنة واحدة ، وأما خاتم الأولياء فلا بد له من هذه الرؤيا ، فيرى ما مثل به رسول الله صلى الله عليه وسلم ويرى في الحائط موضع لبنتين ، واللبن من ذهب ، وفضة ، فيرى اللبتين اللتين تنقص الحائط عنهما ، وتكمل بهما لبنة ذهب ، ولبنة فضة ، فلا بد أن يرى نفسه تنطبع في موضع تينك اللبتين ، فيكون خاتم الأولياء تينك اللبتين ، فيكمل الحائط)^(٣) .

وقد رد شيخ الإسلام ابن تيمية على هذا الإلحاد ، والكفر وتنقيص الأنبياء ردا شافيا ، وافيا ، ومن كلامه في ذلك الرد قوله : (ففي هذا الكلام من أنواع الإلحاد ، والكفر ، وتنقيص الأنبياء ، والرسل ما لا نقوله لا اليهود ، ولا النصارى ، وما أشبهه في هذا الكلام بما ذكر في قول القائل : (فخر عليهم السقف من تحتهم) أن هذا لا عقل ، ولا قرآن ، وكذلك ما ذكره هنا من أن الأنبياء ، والرسل تستفيد من خاتم الأولياء الذي بعدهم هو مخالف للعقل ؛ فإن المتقدم لا يستفيد من المتأخر ، ومخالف للشرع ؛ فإنه معلوم بالاضطرار من دين الإسلام أن الأنبياء ، والرسل أفضل من الأولياء الذين ليسوا أنبياء ، ولا رسلا)^(٤) .

ثم بين شيخ الإسلام ابن تيمية السر في اختلاق ابن عربي لبدعة خاتم الأولياء ، فقال :

(١) في فصوص الحكم (من كونهم) ، والتصحيح من مجموع الفتاوى ٢٠٧/٢ .

(٢) اللبّن : واحده لبنة وهو الطوب المضروب على شكل المربعات . انظر تهذيب اللغة ١/٥ ٣٦٣ مادة (لبن) .

(٣) فصوص الحكم ص ٦٢ .

(٤) مجموع الفتاوى ٢/٢٢٠ ، وانظر قطر الولي على حديث الولي للشوكاني ص ٢٠٥ .

(وذلك أنه لم يمكنهم أن يجعلوا بعد النبي ﷺ نبيا، ورسولا؛ فإن هذا كفر ظاهر فزعموا أنه إنما تنقطع نبوة التشريع ورسالته يعني: وأما نبوة التحقيق ورسالة التحقيق وهي الولاية عندهم فلم تنقطع، وهذه الولاية عندهم هي أفضل من النبوة والرسالة)^(١).

ويحاول ابن عربي أن يدافع عن فكرته السخيفة، ومقولته الشنيعة في تفضيل خاتم الأولياء على الأنبياء بقوله: (واعلم أن الولاية هي الفلك المحيط العام؛ ولهذا لم تنقطع، ولها الإنبياء العام، وأما نبوة التشريع، والرسالة فمتقطعة، وفي محمد ﷺ قد انقطعت فلا نبي بعده؛ يعني مشرعا أو مشرعا له، ولا رسول وهو المشرع، وهذا الحديث قصم ظهور أولياء الله؛ لأنه يتضمن انقطاع ذوق العبودية الكاملة التامة^(٢) فإذا رأيت النبي يتكلم بكلام خارج عن التشريع فمن حيث هو ولي، وعارف، ولهذا مقامه من حيث هو عالم أتم وأكمل من حيث هو رسول، أو ذو تشريع وشرع، فإذا سمعت أحدا من أهل الله يقول: أو ينقل إليك عنه أنه قال: الولاية أعلى من النبوة فليس يريد ذلك القائل إلا ما ذكرناه، أو يقول: إن الولي فوق النبي والرسول؛ فإنه يعني بذلك في شخص واحد، وهو أن الرسول عليه السلام من حيث هو ولي أتم من حيث هو نبي رسول)^(٣).

ويقول أحدهم: (خضنا بحرا وقف الأنبياء بساحله)^(٤).

ونقل عن الجيلاني أنه قال: (أنتم معاشر الأنبياء أو يتيم اللقب، وأوتينا أي نحن الأولياء مالم تؤتوا)^(٥).

ولم ينقل أحد هذا الكفر الصريح قبل ابن عربي إلا ما ذكره الحكيم الترمذي^(٦) في كتابه: " ختم الولاية " لكنه أخطأ شبرا ففرع الصوفية على خطئه ما صار كفرا^(٧).

ثم تنقصوا النبي ﷺ من نجهة أخرى فقالوا: النبي يأخذ عن الله بواسطة الملك، والولي

(١) مجموع الفتاوى ٢/ ٢٢١

(٢) ثم كان ابن سبعين متأثرا بابن عربي إلا أنه كان أكثر صراحة في بيان هذه الفكرة عند ما قال بكل صلاحه وجرأة وزندقة وكفر: (لقد غالى ابن أمنة بقوله: لا نبي بعدي) انظر الصوفية في نظر الإسلام ص ١٧٩

(٣) فصوص الحكم ص ١٣٤ (٤) الصوفية في نظر الإسلام لسميح عاطف ص ١٧٨

(٥) المرجع نفسه والموضع بعينه، وانظر العلم الشامخ للمقبلي ص ٢٤٠

(٦) هو أبو عبد الله محمد بن علي بن الحسن بن بشير الحكيم الترمذي، محدث، حافظ، صوفي، قال عنه القشيري: من كبار الشيوخ، من مؤلفاته ((ختم الأولياء)) و ((الصلاة ومقاصدها))، توفي بعد ٣١٨ هـ.

انظر الرسالة القشيرية ص ٤٠٠، ومعجم المؤلفين ٣/ ٥٠٢

(٧) انظر مجموع الفتاوى ٢/ ٢٣١



يأخذ عن الله بغير واسطة فهو أفضل : (والله تعالى لا يفيض علمه على قلب من يتلمس منه العون والتوفيق من عباده فحسب ؛ بل هو سبحانه مصدر العلم كله ، وهو يفيض هذا العلم على قلوب الأنبياء بطريق الوحي المباشر وكثيرا ما يلقي سره في قلب صفوته من الخلق بدون وسيط ^(١) .

وقالوا : الملك ينزل على الولي بالوحي ، ولكنه لا يؤمر بالتبليغ ^(٢) ، والأولياء في درجة الصحابة رضي الله عنهم ؛ بل الولي مثل النبي ، فكما أن النبي تأخذه البرحاء ^(٣) وقت الوحي فكذلك الولي يأخذه الحال فهما سواء ؛ إلا أن النبي يشرع ، ويؤمر بالتبليغ ، والولي ليس له إلا الإخبار ^(٤) .

ويزعمون أن كل ما كان معجزة لنبي من الأنبياء صح أن يكون كرامة لولي من الأولياء ^(٥) .

ويصرح مصنفو الصوفية أن الولي يكون نبيا ورسولا إذا دعا الخلق إلى الله ، ويكون نبيا فقط نبوة ولاية إن لم يدع الخلق إلى الله فقسموا الولاية كما قسم علماء أهل السنة النبوة ، فقالوا : (نبوة الولاية ارتجاع الحق إلى الخلق ليقوم بأمرهم المصلحة لشئونهم في ذلك الزمان على شرط الحال ، فمن دعا الخلق منهم إلى الله تعالى قبل محمد صلى الله عليه وسلم كان رسولا ، ومن دعا بعد محمد صلى الله عليه وسلم كان خليفة لمحمد صلى الله عليه وسلم ؛ لكنه لا يستقر في دعواه بنفسه ؛ بل يكون تبعا لمحمد صلى الله عليه وسلم كمن مضى من الصوفية مثل : أبي يزيد ، والجنيد ^(٦) ، والشيخ عبد القادر ، ومحي الدين ابن عربي ، وأمثالهم ، ومن لم يدع إلى الله تعالى ؛ بل وقف مع تدبير أمور الخلق على

(١) روح الإسلام للسيد أمير علي ترجمة أمين الشريف ٣٤١/٢ ، وانظر الجواهر والدرر للشعراني بحاشية الإبريز ص ٨٧ ، والمعجم الصوفي الحكمة في حدود الكلمة ص ١١٨٦

(٢) انظر الإبريز ص ١٥١

(٣) البرحاء بالقسم والمذ : الحمى وغيرها وشدة الأذى والأمر المجهد . انظر مختار الصحاح ص ٤٦ مادة (برح) ، والقاموس المحيط ٢٢٣/١ مادة (البرح) .

(٤) انظر ميزاب الرحمة الربانية ص ١٨١

(٥) انظر الجواهر والدرر الشعراني بحاشية الإبريز ص ٢٣٠ ، والإبريز ص ٢٠٣

(٦) هو أبو القاسم الجنيد بن محمد إمام عند الصوفية قال القشيري : الجنيد سيد هذه الطائفة وإمامهم ، أصله من نهاوند ، ولد ونشأ في العراق ، وكان أبوه يبيع الزجاج ، فلذلك يقال له القواريري ، من أقوال الجنيد : الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على من اقتفى أثر الرسول ﷺ كانت وفاته سنة ٢٩٧ هـ . انظر الرسالة القشيرية

حسب ما ينبئه الله تعالى عن أحوالهم فهو نبي نبوة ولاية^(١).

فخاتم الأولياء يأخذ من المعدن الذي يأخذ منه الملك^(٢)؛ بل (خاتم الأولياء مثل خاتم الأنبياء، وقد يفضل؛ لأنه الولي الرسول النبي وخاتم الأولياء)^(٣)، وإذا كان ابن عربي يرى أنه كان خاتماً للأولياء فإن بعض الصوفية يرون أن علياً رضي الله عنه كان هو الخاتم للأولياء لا غيره^(٤)، ويدعيها التجانية لشيخهم التجاني^(٥)، فالعالم لا يخلو قط من الحكمة، ومن شخص قائم بها عنده الحجج، والبيانات (وهذا يدل على أن القطبانية هي صورة من صور النبوة؛ فالإمام أو الخليفة هو القطب أو الإنسان الكامل، والأقطاب أو الأئمة هم الدعائم التي يقوم عليها صرح الوجود، وهم الواسطة بين عالم الأمر وعالم الخلق)^(٦).

ويقول الدباغ: (ولو أن الناس الذين ألفوا في الكرامات قصدوا إلى شرح حال الولي الذي وقع التأليف فيه فيذكرون ما وقع له بعد الفتح من الأمور الباقية الصالحة، والأمور الفانية لعلم الناس الأولياء على الحقيقة، فيعلمون أن الولي يدعو تارة فيستجاب له، وتارة لا يستجاب له، ويريد الأمر، فتارة يقضى وتارة لا يقضى، كما وقع للأنبياء والرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام، ويزيد الولي بأنه تارة تظهر الطاعة على جوارحه، وتارة تظهر المخالفة عليها كسائر الناس، وإنما امتاز الولي عنهم بأمر واحد وهو ما خصه الله تعالى به من المعارف ومنحه من الفتوحات، ومع ذلك فالمخالفة إن ظهرت عليه فإنما هي بحسب ما يظهر لنا، لا في الحقيقة؛ لأن المشاهدة التي هو فيها تأبى المخالفة وتمنع من المعصية منعاً لا ينتهي إلى حد العصمة حتى تراحم الولاية النبوة؛ فإن المنع من المعصية ذاتي في الأنبياء عرضي في الأولياء، فيمكن زواله في الأولياء، ولا يمكن زواله في الأنبياء، وسره ما سبق أن خير الأنبياء من ذواتهم، وخير الأولياء من غير ذواتهم فعصمة الأنبياء

(٢) انظر فصوص الحكم ص ٣٦

(١) معجم مصطلحات الصوفية ص ٢٦٨

(٣) معجم مصطلحات الصوفية ص ٨٧

(٤) انظر معجم ألفاظ الصوفية لحسن الشرقاوي ص ١٢٧، ويرى بعض الصوفية متأثراً بعتايد بعض الرافضة أن الفيض انتقل منه إلى الأئمة الاثني عشر بعده إلى أن وصلت النبوة إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني فهو الواسطة في وصول الفيوض والبركات إلى سائر الأقطاب والنجباء على حد زعمهم، انظر المنتخبات من المكتوبات ص ٢٢٤

(٥) انظر رماح حزب الرحيم بحاشية جواهر المعاني ٢/ ٥، والرد عليهم في الهدية الهادية للهلال ص ٣١، والتجانية للدكتور علي دخيل الله ص ١٦٤ (٦) معجم ألفاظ الصوفية ص ٢٣٥

ذاتية وعصمة الأولياء عرضية^(١).

فإن الصوفية لا يستحيون من التصريح بأن الأولياء أنبياء، وعلمهم أعلى مرتبة من علوم الأنبياء والمرسلين.

يقول ابن عربي: (وكذلك الأولياء فهم أنبياء؛ إنما خصوا بعلم لا يحصل إلا لنبي من العلم الإلهي، ويكون حكمهم من الله فيما أخبرهم به حكم الملائكة)^(٢).

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية - رادا على هذا الزعم الكاذب: (ثم صاحب الفصوص وأمثاله بنوا الأمر على أن الولي يأخذ عن الله بلا واسطة، والنبي يأخذ بواسطة الملك؛ فلهذا صار خاتم الأولياء أفضل عندهم من هذه الجهة، وهذا باطل، وكذب؛ فإن الولي لا يأخذ عن الله إلا بواسطة الرسول إليه، وإذا كان محدثا قد ألقي إليه شيء وجب عليه أن يزنه بما جاء به الرسول من الكتاب والسنة... وقد كان عندنا شيخ من أجهل الناس، كان يعظمه طائفة من الأعاجم، ويقال إنه خاتم الأولياء يزعم أنه يفسر العلم بوجهين، وأن النبي صلى الله عليه وسلم إنما فسره بوجه واحد، وأنه هو أكمل من النبي ﷺ، وهذا تلقاه من صاحب الفصوص وأمثال هذا في هذه الأوقات كثيرون)^(٣).

ولهذا ترى بعض الصوفية يصرح بعصمة الولي مثل النبي، وبعضهم يعبر عن ذلك بالحفظ، فيقولون: النبي معصوم، والولي محفوظ^(٤)، ويقولون: قد ثبتت العصمة للنبيين، وفي ضمنهم الأقطاب، ولم يصرح النبي ﷺ بذلك؛ بل ستر القول بعصمة الأقطاب؛ لأن مراتبهم، وأحوالهم مستورة غير معلومة^(٥)، وقالوا: إن غير النبي قد يكون عنده علم أزيد من علم النبي^(٦).

ومن موازنتهم بين الرسالة، والنبوة، والولاية، أو القطبانية كما يسمونها وهي صورة واضحة للتنقيص قولهم: (فليس يظهر الكمال صورة، ومعنى، وحسا، بريثا من النقص

(١) الإبريز ص ٢٢٥

(٢) الفتوحات المكية ٢/٦٩، وانظر الصلة بين التشيع والتصوف للشيباني ١/٤٨٣

(٣) مجموع الفتاوى ٢/٢٢٨، وانظر شرح العقيدة الطحاوية ص ٤٩٢، وفضل علم السلف على الخلف لابن رجب ص ٤٥

(٤) انظر الرسالة القشيرية ص ٢٦٠، والجواهر والدرر بحاشية الإبريز ص ١٢٥، وانظر الرد عليهم في النبوات ص ١٦٧، ولوامع الأنوار ١/٣٣٨ (٥) انظر جواهر المعاني ١/٢٣٢

(٦) انظر مخازي الولي الشيطاني لإبراهيم القطان مطبوع بأخر مشتهى الخارف الجاني ص ٦٠٦، والفتح الرباني فيما يحتاج إليه المريد التجاني للطصفاوي ص ١٨

بكل وجه ويكل عاتبار إلا في ثلاث مراتب فقط لا ما عداها، وهي: الرسالة لمن دخل حضرته، والنبوة لمن دخل حضرته، والقطبانية لمن دخل حضرته؛ فإن هذه الثلاثة لا صورة للنقص فيها... فإذا عرفت هذا فليكن المريد مع شيخه كما هو مع نبيه صلى الله عليه وسلم في التعظيم، والمحبة، والاستمداد، والانقطاع إليه بالقلب، فلا يعادل به غيره في هذه الأمور، ولا يشرك معه غيره^(١). وهذا الاعتقاد في الأولياء، وتعظيمهم فوق تعظيم الأنبياء راسخ في أذهان الصوفية رسوخ الجبال في الأرض؛ ولهذا كان القشيري يعظم شيخه تعظيما لا يعتقد أن يبلغه أحد، فيقول: (كنت أفكر في نفسي كثيرا أنه لو بعث الله عز وجل في وقتي رسولا إلى الخلق^(٢))؛ هل يمكنني أن أزيد في حشمته على قلبي فوق ما كان منه رحمه الله تعالى، فكان لا يتصور لي أن ذلك ممكن!^(٣).

وهذه النماذج التي سقناها عن الصوفية، وأمثالها كثير تنقيص، وزندقة، وكفر. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (ومن فضل أحدا من المشايخ على النبي ﷺ أو اعتقد أن أحدا يستغني عن طاعة رسول الله ﷺ استتيب؛ فإن تاب وإلا ضربت عنقه، وكذلك من اعتقد أن أحدا من أولياء الله يكون مع محمد صلى الله عليه وسلم كما كان الخضر مع موسى عليه السلام فإنه يستتاب؛ فإن تاب وإلا ضربت عنقه... ومحمد ﷺ مبعوث إلى جميع الثقلين: إنسهم وجنهم، فمن اعتقد أنه يسوغ لأحد الخروج عن شريعته، وطاعته فهو كافر يجب قتله)^(٤).

والتنقيص لازم لأهل البدع سواء الذين رفعوا بعض الأشخاص فوق مرتبة النبي ﷺ أو الذين تركوا شيئا من السنة، واستعاضوا عنها بالبدعة.

يقول العلامة ابن القيم: (فلا تجد مشركا قط إلا وهو منتقص لله سبحانه، وإن زعم أنه يعظمه بذلك، كما أنك لا تجد مبتدعا إلا وهو منتقص للرسول ﷺ، وإن زعم أنه معظم له بتلك البدعة، فإنه يزعم أنها خير من السنة، وأولى بالصواب، أو يزعم أنها هي السنة، وإن كان جاهلا مقلدا، وإن كان مستبصرا في بدعته، فهو مشاق لله، ورسوله،

(١) ميزاب الرحمة الربانية في التربية بالطريقة التجانية ص ٣٣

(٢) وهذا تنقيص آخر لحاتم النبيين صلوات الله وسلامه عليه حيث دار في خلد القشيري أن الله يبعث رسولا بعده،

وهو القائل (لا نبي بعدي). (٣) الرسالة القشيرية ص ٢٩٧

(٤) مجموعة الرسائل الكبرى ١/ ٣١٥، وانظر الشفا للقاضي عياض ٢/ ٢٣٦، ومصروع التصوف ص ٢١٩،

والبريلوية ص ٦٨



فالمتقصون المتقصون عند الله تعالى، ورسوله، وأوليائه هم أهل الشرك والبدعة^(١).

وليت شعري كيف تجرؤ الصوفية بعد نماذج التنقيص السابقة على رمي أهل السنة، ومن قال بقول السلف في النهي عن الغلو في جناب الرسول ﷺ بالتنقيص؟ (وهؤلاء المشركون هم المتقصون الناقصون أفرطوا في تعظيمه بما نهاهم عنه أشد النهي، وفرطوا في متابعتهم فلم يعبأوا بأقواله، وأفعاله، ولا رضوا بحكمه، ولا سلموا له، وإنما يحصل تعظيم الرسول ﷺ بتعظيم أمره، ونهيه، والاهتداء بهديه، واتباع سنته، والدعوة إلى دينه الذي دعا إليه، ونصرته، وموالاة من عمل به، ومعاداة من خالفه، فعكس أولئك المشركون ما أراد الله ورسوله علما وعملا، وارتكبوا ما نهى الله عنه ورسوله^(٢)).

ومن صور التنقيص الطعن في السنة، وتحسين البدعة. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (وهذا القدر بعينه هو عين الطعن في نفس النبوة، وإن كان يقر بتعظيمهم، وكمالهم إقرار من لا يتلقى من جهتهم علما، فيكون الرسول عنده بمنزلة خليفة يعطي السكة^(٣) والخطبة رسما، ولفظا، كتابة، وقولا من غير أن يكون له أمر، أو نهى مطاع، فله صورة الإمامة بما جعل له من السكة، والخطبة، وليس له حقيقتها... ومن المعلوم أن المؤمن بالله، ورسوله لا يستجيز أن يقول في الرسالة: إنها عاجزة عن تحقيق العلم، وبيانه، حتى يكون الإقرار بها مع تحقيق العلم الإلهي من غيرها موجبا لصلاح الدين، ولا يستجيز أن يتعدى عليها بالتقديم بين يدي الله ورسوله، ويقدم علمه وقوله على علم الرسول وقوله، ولا يستجيز أن يسلط عليها التأويلات العقلية، ويدعي أن ذلك من كمال الدين، وأن الدين لا يكون كاملا إلا بذلك^(٤)).

ونتيجة لهذا التنقيص الذي تطفح به كتب الصوفية وخصوصا ما يتعلق بتفضيل خاتم الأولياء على جميع الأنبياء والرسل، وادعاء كثير من شيوخ الصوفية، ووسائطها أنه هو الخاتم الذي ختمت به الولاية أقول: نتيجة لذلك ظهرت في القرن الماضي حركة القاديانية

(١) إغاثة اللفهان ١/٦٩، وانظر تيسير العزيز الحميد ص ٢٦٢، والرسائل والأشقر ص ٢١٥

(٢) فتح المجيد ص ٢٢٦، وانظر غاية الأمان ٢/٣٦٥، والقول الفصل النفيس ص ١٩٩

(٣) السكة: حديدة قد كتب عليها يضرب بها الدراهم والدنانير، فلعله أراد بالسكة إعطاءه حق التصرف في الأموال. انظر تهذيب اللغة ٩/٤٣١ مادة (سكك) وتاج العروس ٧/١٤٣ مادة (سكك).

(٤) مجموع الفتاوى ٤/٨٩، وانظر لوامع الأنوار ٢/٣٠١، وهذه هي الصوفية لعبد الرحمن الوكيل ص ١٢٧

بزعامة المنتبئ غلام أحمد القادياني الكذاب^(١)، وزعم لأتباعه في جرأة لا مثيل لها وتنقيص ما دونه تنقيص أنه أفضل من الأنبياء، والأولياء من لدن آدم عليه السلام حتى خاتم النبيين وسيد المرسلين ﷺ فصرح لأتباعه أنه أفضل منه فقال: (إن النبي ﷺ له ثلاثة آلاف معجزة، ولكن معجزاتي زادت على مليون معجزة)^(٢). ويقول أيضا هذا المنتبئ الكذاب شعرا مفضلا نفسه الحبيشة على رسولنا الأمين صلوات الله وسلامه عليه^(٣):-

له خُسف البدر المثير وإن لي غسا القمران المشرقان أتكر؟

يعني: أن خاتم النبيين ﷺ خسف له القمر وحده، أما غلام أحمد القادياني فقد خسف له الشمس، والقمر كلاهما، وهل ينكر أحد فضل القادياني بعد هذه الخصلة؟^(٤).

ويقول ابن هذا الكذاب، وخليفته الثاني، -والحياة لا تلد إلا حياة- (إن الارتقاء الذهني لإمامنا كان أزيد، وأكثر من النبي الكريم ﷺ؛ لأن هذا الزمان أرقى من آنذاك من حيث التمدن، وهذه هي الفضيلة الجزئية التي حصلت لغلام أحمد على محمد صلى الله عليه وسلم)^(٥).

ومن صور التنقيص الموجهة لخاتمة الوسائط من الرسل نبينا وحيينا محمد ﷺ الاستهزاء بسترته، والسخرية من الملتزمين، كمن يستهزئ بعلماء الدين، وصلحاء الأمة، والدعاة إلى الله، أو يسخر من اللحية، أو يطعن في الحكمة من هيئة الإحرام، أو رمي الجمار، أو أي شعيرة من شعائر الدين؛ لأن الطعن في ذلك طعن في الرسالة وتنقيص لصاحبها عليه الصلاة والسلام.

وقد نقل الإمام النووي قصصا وحكايات حصلت لبعض المستهزئين بكلام النبوة، فيها عبرة للمعتبرين، ومن ذلك أن بعض طلبة العلم كانوا يختلفون إلى بعض المحدثين في أزقة البصرة، فيسرعون في المشي، وكان معهم رجل ماجن في دينه، فقال: ارفعوا أرجلكم عن أجنحة الملائكة لا تكسروها كالمستهزئ! فما زال ذلك الماجن في موضعه حتى جفت

(١) هو غلام أحمد بن مرتضى القادياني، مؤسس الطائفة القاديانية، ولد سنة ١٢٤٢هـ، وتوفي بلاهور، ودفن بقاديان سنة ١٣٢٦هـ. انظر: الأعلام ٢٥٦/١، ومعجم المؤلفين ٣٠٦/١

(٢) تذكرة الشهادتين لغلام أحمد القادياني ص ٤١، نقلا عن القاديانية لإحسان إلهي ظهير ص ١٩

(٣) انظر إعجاز أحمدي للقادياني ص ٧١ نقلا عن القاديانية لإحسان إلهي ظهير ص ٧٥

(٤) انظر القاديانية لإحسان إلهي ظهير ص ٧٥

(٥) القاديانية لإحسان إلهي ظهير ٦٩

رجلاه، وسقط على الأرض، ونقل عن خليع آخر أنه جعل في عقبه مسامير من حديد، وقال: أريد أن أطأ أجنحة الملائكة، فأصابه أكلة^(١) في رجليه. وقيل: شلت رجلاه، ويده، وسائر أعضائه.

ونقل عن بعض المبتدعة أنه حين سمع نهي النبي ﷺ أن يغمس الرجل يده في الإناء - إذا استيقظ من النوم حتى يغسلها - فإنه لا يدري أين باتت يده، قال ذلك المبتدع - على سبيل التهكم - أنا أدري أين باتت يدي! لقد باتت معي في الفراش، فأصبح وقد دخلت يده في دبره إلى ذراعه^(٢).

وقد بين ابن رجب الحنبلي أن السبب في طعن الطاعنين في السنة وسخرية المستهزئين بالملتزمين هو أن الطاعنين لم يمكنهم القدح في ألفاظ الكتاب، فقال: (والطعن في ألفاظ السنن حيث لم يمكنهم الطعن في ألفاظ الكتاب، ويذمون من تمسك بالنصوص وأجراها على ما يفهم منها، ويسمون جاهلا، أو حسودا، وهذا يوجد في المتكلمين في أصول الديانات، وفي فقهاء الرأي، وفي صوفية الفلاسفة، والمتكلمين)^(٣).

(١) الأكلة: كَفَرَحَة، داء يصيب العضو. انظر القاموس المحيط ٣/ ٣٤٠، مادة (أكله).

(٢) انظر تلك الحكايات في بستان العارفين للنووي ص ١٢٣ وما بعدها.

(٣) فضل علم السلف على الخلف ص ٦٤، وانظر الحد الفاصل بين الإيمان والكفر لعبد الرحمن عبد الخالق ص ٥٠.



المبحث الرابع

قياسهم الواسطة في العبادة على الواسطة في التبليغ

من أهم الأمور التي بنى عليها أهل الأهواء مذهبهم الفاسد في فهم الواسطة أنهم قاسوا توسيطهم للأنبياء، والأولياء، وشيوخ الطرق في دعائهم لله تعالى لقضاء حوائجهم، وتحقيق مطالبهم، قاسوا ذلك على إرسال الله تعالى لأنبيائه، ورسله واسطة بينه وبين خلقه لتبليغ شرائعه، وإقامة الحججة على خلقه، مبشرين من اتباع الوحي الذي جاءوا به بالفوز برضا الله تعالى، وقربه، ومنذرين من أعرض عن ذكره، والنور الذي جاءوا به بسخط الله تعالى، وعذابه، والبعد منه.

ولقد علم -من طريق الوحي- أن هؤلاء المرسلين أكدوا للخلق أن وساطتهم ليست في عبادة الخلق لخالقهم وإن كانت تلك العبادة وضحتا رسالات الله إلى هؤلاء الأنبياء؛ لأن الله تعالى قريب مجيب، يرى مكانهم، ويسمع سؤالهم، ويعرف حالهم، فليس بينه وبين خلقه واسطة في حال الالتجاء، والتضرع، والدعاء، وسائر أنواع العبادة التي بينها الرسول ﷺ، وهذا هو سبيل الإخلاص الذي جاء به الإسلام، ولا يقبل الله عز وجل عبادة بدونه^(١)، قال تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾^(٢) وقال أيضا: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ (٣) أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾^(٣)

وهذا القياس معارض لصحيح المنقول، وصريح المعقول، ويستدل به (بعض المتكلمين ولا سيما المتأخرين منهم لتقرير منهجهم الذي أدى بهم إلى الانحراف في توحيد الألوهية، كتقريرهم بعض مظاهر الشرك، ووسائله الذي اعتبروه قرينة وطاعة، تقربهم إلى الله زلفى، يستدلون ببعض الشبه، والأقيسة التي عارضوا بها صحيح المنقول.

ومن هذه الأقيسة قياس الواسطة في العبادة على الواسطة في الرسالة، فأخطأ كثير من المتكلمين في فهم الواسطة بين الله تعالى وبين خلقه حيث حملوها مالا تحتل فاتخذوا من ذات الرسول ﷺ وغيره من الأنبياء، والصالحين وسائط معتقدين أن الله سبحانه لا يقبل من

(١) راجع ما سبق بيانه في الفصل الثالث (صورة الواسطة في العبادة)
(٢) سورة الكهف الآية ١١٠ (٣) سورة الزمر الآيات (٢-٣).



عباده عملاً إلا إذا جاءوا إليه بهؤلاء الوسطاء؛ ليكونوا لهم وسيلة عنده تقربهم إليه زلفى، ومن أمثلة استدلال المتكلمين بهذا القياس استدلال الشهرستاني به في معرض رده على الصائبة المشركين عباد الكواكب والنجوم، والروحانيات الذين زعموا أنها تقربهم إلى الله زلفى، ولا يمكنهم عبادة الله مباشرة؛ لكثرة ذنوبهم، وكانوا لا يعترفون بالرسل الذين بعثهم الله واسطة بينه وبين خلقه لتبليغ رسالته، فأقام الشهرستاني مناظرة بين الأرواح العلوية التي كانت تعبد الفلاسفة الصائبة، وبين الأنبياء، وأثبت أن اتخاذ الأنبياء واسطة بين الله وبين خلقه أولى من اتخاذ الروحانيات واسطة^(١).

وهذا خطأ من الشهرستاني في فهم الواسطة بين الله وخلق جره إليه استدلاله بقياس الواسطة في العبادة على الواسطة في تبليغ الرسالة.

وقد رد عليه شيخ الإسلام ابن تيمية رداً وافياً، ومما ذكره في رده عليه: أن الحنفاء لا يثبتون بين الله وخلق واسطة في عبادته، ودعائه؛ وإنما يثبتون الواسطة في تبليغ الرسالة؛ لأن الأصل الذي يؤمن به الحنفاء شهادة أن لا إله إلا الله، وشهادة أن محمداً وغيره من المرسلين رسل الله.

ثم قال رحمه الله: (فمن جعل ما يثبت الحنفاء من توسط البشر، وتوسط الملائكة من جنس ما يثبت المشركون وأخذ يفاضل بين البشر، والملائكة لم يكن عارفاً بدين الإسلام...، فمن اتخذ هؤلاء، أو هؤلاء أرباباً كما يقول من يجعلهم وسائط في العبادة، والدعاء، ونحو ذلك فهو كافر)^(٢).

وهذا القياس الفاسد راسخ في أذهان أهل الأهواء رسوخ الجبال في الأرض، والشبهة عندهم في ذلك أن الله ما اختارهم واصطفاهم واسطة في تبليغ رسالاته، وكلامه إلا ليتخذهم الخلائق واسطة بينهم وبين الله تعالى في سائر أنواع العبادة، وهذا بلا شك مصادمة لما دعا إليه هؤلاء الرسل في رسالاتهم.

يقول ابن الحاج المالكي: (.. فإن كان الميت المزارع ممن ترجى بركته فيتوسل إلى الله تعالى به، وكذلك يتوسل الزائر بمن يراه ممن ترجى بركته إلى النبي ﷺ؛ بل يبدأ بالتوسل

(١) منهج السلف والمتكلمين في موافقة العقل للنقل لجابر إدريس ٢/ ٦٧٤، وانظر الملل والنحل ٦/ ٢

(٢) الرد على المنطقيين ص ١٠٥، وانظر ص ٥٤٤



إلى الله تعالى بالنبي ﷺ؛ إذ هو العمدة في التوسل والأصل في هذا كله، والمشرع له، فيستوسل به ﷺ ويؤمن تبعه بإحسان إلى يوم الدين... ثم يتوسل بأهل تلك المقابر أعني بالصالحين منهم في قضاء حوائجهم، ومغفرة ذنوبه، ثم يدعو لنفسه ويجأ إلى الله تعالى بالدعاء عندهم، ويكثر التوسل بهم إلى الله تعالى؛ لأنه سبحانه وتعالى اجتباهم وشرفهم وكرمهم، فكما نفع بهم في الدنيا ففي الآخرة أكثر، فمن أراد حاجة فليذهب إليهم، ويتوسل بهم؛ فإنهم الواسطة بين الله تعالى وخلقهم، وقد تقرر في الشرع، وعلم ما لله تعالى بهم من الاعتناء، وذلك كثير مشهور، وما زال الناس من العلماء والأكابر، كابرا عن كابر مشرقا، ومغربا يتبركون بزيارة قبورهم، ويجدون بركة ذلك حسا ومعنى^(١).

ويقول السبكي^(٢) في كلام خلط فيه بين الشفاعة المثبتة في الآخرة، وبين الواسطة في العبادة المنفية في الدنيا يقول: (وفي التجاء الناس إلى الأنبياء في ذلك اليوم أدل دليل على التوسل بهم في الدنيا، والآخرة، وأن كل مذهب يتوسل إلى الله عز وجل بمن هو أقرب إليه منه، وهذا لم ينكره أحد، ولا فرق بين أن يسمى ذلك تشفعا أو توسلا، أو استغاثة، وليس ذلك من باب تقرب المشركين إلى الله تعالى بعبادة غيره؛ فإن ذلك كفر، والمسلمون إذا توسلوا بالنبي ﷺ أو بغيره من الأنبياء، والصالحين لم يعبدوهم، ولا أخرجهم عن توحيد الله تعالى، وأنه هو المنفرد بالنفع، والضرر، وإذا جاز ذلك جاز قول القائل: أسأل الله تعالى برسوله؛ لأنه سائل لله تعالى لا لغيره^(٣)).

ويؤيده ابن حجر المكي^(٤) في اعتبار هذا القياس الفاسد، فيقول: (ولا فرق بين ذكر التوسل، والاستغاثة، والتشفع، والتوجه به ﷺ أو بغيره من الأنبياء، وكذا الأولياء؛ وذلك لأنه ورد جواز التوسل بالأعمال كما في حديث الغار الصحيح مع كونها أعراضا، فالذوات الفاضلة أولى)^(٥).

(١) المدخل ١/٢٤٩، وانظر شواهد الحق ص ٨٥

(٢) هو أبو الحسن علي بن عبد الكافي بن علي بن تمام السبكي الأنصاري الحنزرجي، ولد في سبك قرية في مصر سنة ٦٨٣هـ، ثم انتقل إلى الشام فولّي القضاء هناك، يعد مبرزا في التفسير والمناظرة، من مؤلفاته ((شفاء السقام في زيارة خير الأنام))، توفي بالقاهرة سنة ٧٥٦هـ، انظر: طبقات الشافعية لابنه السبكي ١٤٦/٦، والأعلام ٣٠٢/٤ (٣) شفاء السقام في زيارة خير الأنام للسبكي ص ١٦٠، وانظر شواهد الحق ص ١٤٠

(٤) هو أبو العباس أحمد بن محمد بن علي بن حجر الهيثمي السعدي الأنصاري شهاب الدين، ولد سنة ٩٠٩هـ، وتوفي بمكة سنة ٩٧٣هـ، شافعي المذهب، من مصنفاته «الصواعق المحرقة في الرد على أهل البدع والزندقة» و«الإعلام بقواطع الإسلام». انظر ترجمته في الفوائد البهية ص ٢٤٠، والبدر الطالع ١/١٠٩، وشذرات الذهب ٧/٣٩٩

(٥) الجوهر المنظم في زيارة القبر المعظم لابن حجر المكي نقلا عن شواهد الحق ص ١٣٧

ويقول صاحب جواهر المعاني: (ولا شك أنه صلى الله عليه وسلم في هذا الميدان تام في نفسه لا يطرأ عليه النقص بوجه من الوجوه، كامل ﷺ يفيض الكمالات على جميع الوجود من العلوم، والمعارف، والأسرار، والأنوار، والأحوال، والفروضات، والتجليات، والمواهب، والمنح، وجميع وجوه العطايا، فكل ما يفيضه الحق سبحانه وتعالى على الوجود مطلقاً، ومقيداً، أو كثيراً، أو قليلاً مما اشتهر أو شذ، إنما يفيضه بواسطة الرسول ﷺ فمن ظن أن يصل شيء إلى الوجود بغير واسطة رسول الله ﷺ فقد جهل أمر الله، وإن لم يتب خسر الدنيا والآخرة بهذا الاعتقاد^(١) .

ويقول صوفي آخر - مدعيًا أن من لم يؤمن بواسطة النبي ﷺ في العبادة أن الأولياء يستطيعون - على حد زعمه - أن يقطعوا ما بين نور إيمانهم، وبين نوره عليه الصلاة والسلام، فيقول: (قد اقتضت حكمته تعالى أن يجعل الواسطة في كل إحسان وصل، أو يصل إلينا محمداً ﷺ كما قال القطب مولانا عبد السلام^(٢)، ولا شيء إلا وهو به منوط؛ أي متعلق، استمداداً، أو استناداً؛ فإن الكل مستمد منه صلى الله عليه وسلم، ومستند إليه، ومن جملة ما هو واسطة فيه نور المعرفة، والإيمان، ووقع لبعضهم أنه قال: ليس لي من النبي ﷺ إلا الهداية، وأما نور الإيمان فمن الله تعالى بلا واسطة، فقال له الأولياء: أرايت لو قطعنا ما بين نور إيمانك وبين نوره ﷺ أترضى بذلك؟ فقال: نعم، فما تم كلامه حتى سجد للصليب، وكفر، والعياذ بالله!!^(٣) .

والشبهة في هذا القياس عند أهل الأهواء أنهم (لما رأوا أن النبي ﷺ خليل الرحمن، وصاحب الشفاعة العظمى يوم القيامة وبركاته صلى الله عليه وسلم على أصحابه في حياته، لما توسلوا به ليدعوا لهم، فحقق الله دعوتهم، وكذلك لما رأوا تعظيم النصارى لعيسى ابن مريم، وغلوهم فيه قالوا: نحن أحق بهذا التعظيم منهم لمن هو أفضل منه رسول الله (فسلكوا طريقته، فاحتفلوا بميلاده، ثم دعوه من دون الله، توسلاً، ودعاءً، واستشفاءً، واستنصاراً، ومدداً^(٤) .

وكونه عليه الصلاة والسلام خليل الرحمن وحبيبه، وكون الشفاعة العظمى إليه يوم

(١) جواهر المعاني لعلي حراز ٢/ ٢٣٣، وانظر رماح حزب الرحيم ٢/ ١٤٢، وبغية المستفيد لمحمد العربي السائح التجاني ص ٢٢٥

(٢) هو عبد السلام بن مشيش صاحب الصلاة المشيشية، سيأتي ترجمته .

(٣) نخبة المطلوب من شرح مطهرة القلوب ص ٨ (٤) الغلو في الدين لعلي الشبل ص ٧٨

القيامة، كل هذا حق لا مرية فيه؛ لكن هذا لا يسوغ لنا رفعه صلى الله عليه وسلم فوق منزلة النبوة، وطلب الشفاعة منه بعد أن التحق بالرفيق الأعلى -بأبي هو أمي صلى الله عليه وسلم؛ لأنه لا يجوز لنا أن نتوجه إليه بالدعاء، والطلب، والاستغاثة بعد التحاقه بالرفيق الأعلى صلى الله عليه وسلم؛ بل نتوجه إلى ربنا بالسؤال، وطلب النوال كما أرشدنا إلى ذلك رسولنا صلى الله عليه وسلم؛ كما أن منزلة النبي ﷺ العلية، ومكانته الرفيعة التي حباه الله بها ليكون واسطة بينه وبين خلقه في تبليغ خاتمة الرسالات لا يسوغ لنا جعله صلى الله عليه وسلم واسطة بيننا وبين ربنا في دعائنا إياه، وسؤالنا حاجاتنا منه، واستعانتنا به، واستغاثتنا إياه، واطراحنا بين يديه سبحانه وتعالى، وكذلك سائر العبادات، والأعمال التي يشترط لصحتها كونها خالصة من غير أن يشوبها شائبة من وسيط أو وجهيه؛ لأن رسولنا صلى الله عليه وسلم هو الذي علمنا ذلك، وأمرنا بإخلاص العبادة، واللجوء إلى الله تعالى بلا واسطة، ونهانا عن كل ما يخالف ذلك.

ورغم هذا كله فهم بعض أهل الأهواء من قوله تعالى: ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾^(١) أنه لا بد من توسيط ذوات الأنبياء، والصالحين، فقالوا: إن للأنبياء، والرسل عليهم الصلاة والسلام جاهها عظيما عند مرسلهم جل شأنه؛ ولأجل وجاهتهم تلك بعثهم إلى الناس واسطة في تبليغ شرائعه، رسلا مبشرين ومنذرين، ففهم أهل الأهواء من هذه المكانة العالية، والمنزلة الرفيعة للأنبياء، والرسل فهما خاطئنا فجعلوهم واسطة بينهم وبين الله تعالى في أداء العبادة لله تعالى التي طالما حذر رسل الله من جعل واسطة بين العبد وربه في توحيده، وعبادته، حماية لجناب التوحيد، وسدا لباب الشرك بالله تعالى في شيء من أنواع العبادة؛ ولهذا قالوا جميعا لأمرهم: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾^(٢) وقال تعالى: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾^(٣)، ففهم أهل الأهواء عكس ما دعت إليه الرسل، ففاسدوا وساطتهم في العبادة على وساطتهم في التبليغ.

وهذا الاعتقاد الفاسد في الرسل، والخلط بين ما يليق بهم الوصف به، وما لا يليق بهم سببه الغلو الزائد، والإفراط المنهي عنه في حقهم، وتلبيساتهم على العوام، والسذج من

الناس بدعوى محبة الرسل، وتعظيمهم، فهذا البكري^(١) من شعراء الصوفية يقول^(٢):-

ما أرسل الرحمن أو يرسل من رحمة تصعد أو تنزل
في ملكوت الله أو ملكه من كل ما يختص أو يشمل
إلا وطه المصطفى عبده نبيه مختاره المرسل
واسطة فيها وأصل لها يعلم هذا كل من يعقل
فلذ به في كل ما ترجي فإنه المقصد والمأمل
وناده إن أزمة أنشبت أظفارها واستحكم المعضل
عجل بإذهاب الذي اشتكى فإن توقفت فمن ذا أسأل؟!

ولو كان هذا الشاعر يقصد أن السعادة، والهدى في متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم وأن الضلال، والشقاء في مخالفته، لكان هذا حقاً، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (إن السعادة، والهدى في متابعة الرسول ﷺ وإن الضلال والشقاء في مخالفته، وإن كل خير في الوجود إما عام وإما خاص فمنشأه من جهة الرسول، وإن كل شر في العالم مختص بالعبد فسببه مخالفة الرسول، أو الجهل بما جاء به، وإن سعادة العباد في معاشهم، ومعادهم باتباع الرسالة)^(٣)؛ لكن البكري يقصد شيئاً آخر وهو تأصيل مذهب أهل الأهواء في قياسهم وساطة النبي ﷺ في العبادة على وساطته في تبليغ الرسالة، (فإن قلت: أنا لا أقصد بنسبة الإمداد إلى النبي ﷺ أنه هو المدد الحقيقي، وأنا مؤمن بقوله تعالى: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾^(٤)، وإنما أردت أن النبي ﷺ هو الواسطة في إيصال هذه النعم.

وقد زاد هذا المضل^(٥) على ادعاء الواسطة بين الله وبين خلقه في النعم كلها أن النبي ﷺ هو أصل هذه النعم على حد زعم من يزعم أن كل العالم بملائكته، وجته، وناره، وجنه،

(١) هو محمد بن علي بن محمد بن الشيخ شمس الدين بن أبي الحسن البكري الصديقي، المصري، الشافعي، الصوفي، الشاعر، حكى عنه النبهاني بعضاً من كراماته، مات سنة ٩٩٣ هـ، انظر: شذرات الذهب ٨/ ٤٣١، والكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة ٣/ ٦٠، وجامع كرامات الأولياء للنبهاني ١/ ٣١٢

(٢) انظر شواهد الحق ص ٣٨٩، ونخبة المطلوب ص ٨

(٣) مجموع الفتاوى ٩٣/ ١٩ (٤) سورة النحل الآية ٥٣

(٥) يقصد البكري صاحب الأبيات الشعرية السابقة.



وإنسه، مسلمهم، وكافرهم، وشياطينهم، كل ذلك مخلوق من نور النبي ﷺ، ويستدلون على ذلك بحديث باطل . . . فالجواب : وما دليلك على أن الله لا يمد الناس إلا بواسطة النبي ﷺ؟ فإن قلت : قد أسند الله إليه الهداية في قوله تعالى في سورة الشورى : ﴿وَأَنَّكَ لَتَهْدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(١)

فالجواب : أن الهداية في كتاب الله تعالى تحيء ويراد بها تارة الدلالة، والإرشاد، فالنبي ﷺ يهدي إلى صراط مستقيم أي يدل الناس عليه، يدعوهم إليه بأقواله، وأفعاله، وأخلاقه الكريمة، كما قال تعالى في سورة المؤمنون : ﴿وَأَنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(٢)، وأما التصرف في القلوب بالهداية، والإضلال فهو خاص بذي الجلال . . . وإذا ثبت أن المدد كله من الله وليس في قدرة المخلوق أن يمد مخلوقا برزق حسي أو معنوي بأن يخلق ذلك الرزق، ويهديه له فقد تهدم كل ما بناه صاحب الرماح^{(٣)(٤)}.

ويقول النبهاني -في حديثه عن الأنبياء، والرسل مصرحا بهذا القياس- : (وجعل رسله المكرمين وسائط بينه وبين خلقه لتبليغهم أحكام دينه المبين، فاتخذوهم وسائط إليه في قضاء المرام، كما جعلهم تعالى وسائط إليهم في تبليغ الأحكام، فلم يأتوا بتوسيطهم إياهم في قضاء حوائجهم لديه تعالى شيئا بدعا؛ ولكنهم وسطوا إليه من وسطهم إليهم فلم يخالفوا بذلك عادة، ولا شرعا)^(٥).

وقال أيضا : (من الجلي الواضح البين الذي لا يخفى على من وضع الله في قلبه أدنى نور أن مراعاة جانب الله تعالى، والمحافظة على توحيده إنما تكون بتعظيم من عظمه الله تعالى وتحقير من حقره الله تعالى، وقد عظم الله تعالى أنبياءه، وأصفياه، فعظمتهم لأجله؛ فالتعظيم في الحقيقة راجع إليه سبحانه وتعالى، وقد جعلهم سبحانه وتعالى وسائط لنا في تبليغ شرائع دينه، فوسطناهم له عز وجل لقضاء حوائجنا تبعاله في توسيطهم لنا في تبليغ شرائعه، واحتقاراً لأنفسنا عن أن نكون أهلاً لطلب حوائجنا منه سبحانه وتعالى بلا واسطة؛ لكثرة ذنوبنا، ووفرة عيوبنا . . .)^(٦).

(٢) الآية ٧٣

(١) الآية ٥٢

(٣) يقصد عمر الفوتي التجاني صاحب كتاب رماح حزب الرحيم.

(٥) شواهد الحق ص ٢٦

(٤) الهدية الهادية إلى الطائفة التجانية ص ٢٧

(٦) شواهد الحق ص ٦٦، وانظر الأنوار المحمدية من المواهب اللدنية للنبهاني أيضا ص ٦٠٤

وقد دافع النبهاني عن الشبهة التي من أجلها قاس أهل الأهواء وساطة الأنبياء، والأولياء في العبادة على الواسطة في التبليغ، فقال: معلقا على كلام العلامة ابن القيم؛ حين ذكر طبقات المكلفين في كتابه، "طريق الهجرتين"، ثم ذكر أهل الطبقة الأولى، وهم الأنبياء، والمرسلون.

يقول النبهاني: (وجميع الأوصاف الجميلة التي ذكرها في عبارته السابقة للأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام لا شك أنها تؤهلهم لمرتبة الاستغاثة بهم إلى الله تعالى؛ لقضاء حوائج المستغيثين، وهو مصرح فيها بأنهم وسيلة الناس ووسائطهم إلى الله تعالى، فكما جعلهم تعالى واسطة لخلقه في تبليغ دينه جعلوهم واسطة له في قضاء حوائجهم؛ وإلا فلم لم يبلغ الله تعالى شرائعه، وأحكام دينه إلى كل فرد من أفراد الناس بلا واسطة؟! بل أرسل سبحانه وتعالى إليهم رسلا، أوحى إليهم شرعهم، وهم بلغوه إلى الناس، فجعلهم وسائط بينه وبين خلقه، فالسبب الذي لأجله جعلهم الله تعالى وسائط بينه وبين خلقه هو السبب الذي دعا الناس يجعلونهم وسائط بينهم وبين ربهم في قضاء حوائجهم؛ فإن قلت: ما هو ذلك السبب؟ قلت: هو -والله أعلم- معرفتهم بالله تعالى بحسب درجاتهم، واستعدادهم، وقرب المناسبة بينهم وبين الحق تعالى، والنظر إلى كمال صفائهم وكثرة طاعتهم لله عز وجل، ومعرفتهم بأداب العبودية له تعالى بخلاف سائر الناس؛ ولذلك أجلهم الأنبياء، وهم درجات أعلاهم سيدنا محمد ﷺ، ومثلهم في ذلك الأولياء، والصالحون، ومع كونهم يكونون وسائط في ذلك لمن هو دونهم في الصفاء، والطاعة، ومعرفة آداب العبودية يتخذون من هو فوقهم في ذلك كالأنبياء وسائط لهم لدى الله تعالى؛ كما أن الأنبياء يتخذون سيدهم الأعظم سيدنا محمدا ﷺ واسطة لهم يوم القيامة، كما ورد في حديث الشفاعة... ولا شك أن ذلك منهم جميعا، ومن الناس أيضا هو من كمال الأدب مع الله تعالى، فهو من أحسن محسنات العبد، والتزامه حد الأدب مع ربه عز وجل، فالمنع من الاستغاثة إلى الله تعالى بأنبيائه، وأصفيائه مردود ممنوع، والقول به لا مقبول، ولا مسموع^(١).

فاتضح من هذا أن النبهاني يستدل بقياس الواسطة في العبادة على الواسطة في



التبليغ لتسويغ طلب الحوائج، ودفع المضار من الرسل، وعلل ذلك بأن الاتصال بالله مباشرة، وطلب الحوائج منه غير ممكن؛ لكثرة الذنوب، ووفرة العيوب، وهذا هو بعينه ما دافع به المشركون عن التعلق بأصنامهم^(١).

وقد تبعه في اعتبار هذا القياس الفاسد محمد علوي المالكي أيضاً^(٢)، ويرى المالكي أن المتوسل بأي واسطة ما يتوسل بها إلا لأجل محبته لها، واعتقاده بأن الله تعالى يحبها، ويرضاها، فمن أجل ذلك جعلها المتوسل واسطة بينه وبين الله في قبول دعائه، وتحقيق رجائه^(٣)، ثم يقول: (والخلاصة: أنه مما لا شك فيه أن النبي ﷺ له عند الله قدر علي، ومرتبة رفيعة، وجاء عظيم، فأبي مانع شرعي، أو عقلي يمنع التوسل به؟ فضلاً عن الأدلة التي تثبت في الدنيا والآخرة، ولسنا في ذلك سائلين غير الله تعالى، ولا داعين إلا إياه، فنحن ندعوه بما أحب أيا كان، تارة نسأله بأعمالنا الصالحة؛ لأنه يحبها، وتارة نسأله بمن يحبه من خلقه... وسر ذلك أن كل ما أحبه الله صح التوسل به، وكذا كل من أحبه من نبي، أو ولي، وهو واضح لدى كل ذي فطرة سليمة، ولا يمنع منه عقل، ولا نقل؛ بل تضافر العقل، والنقل على جوازه، والمسؤول في ذلك كله الله وحده لا شريك له؛ لا النبي، ولا الولي، ولا الحي، ولا الميت... وإذا جاز السؤال بالأعمال فبالنبي ﷺ أولى؛ لأنه أفضل المخلوقات، والأعمال منها -والله أعظم حبا له ﷺ من الأعمال، وغيرها^(٤).

هكذا يقرر المالكي ويُجَوِّزُ دعاء الأنبياء، والأولياء بقياس الواسطة في العبادة على الواسطة في التبليغ، ولو كان يفقه صحيح المنقول لما سلك هذا المسلك، ولعلم أن توسط جبريل عليه السلام رسولا بالوحي من الله إلى رسوله ﷺ إنما كان لتبليغ الرسالة لا للتوسط في العبادة، فكان جبريل واسطة بين الله تعالى وبين رسوله ﷺ في إبلاغ الوحي، وقد اصطفاه الله تعالى لذلك كما اصطفى رسوله محمداً ﷺ ليكون واسطة بين الله تعالى وبين خلقه في تبليغ خاتمة رسالاته، قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ (٥٠/٦)

(١) انظر منهج السلف والمتكلمين في موافقة العقل للنقل ٥٢١/٢

(٢) انظر مفاهيم يجب أن تصحح ص ٩٥ (٣) انظر مفاهيم يجب أن تصحح ص ١١٦

(٤) مفاهيم يجب أن تصحح ص ١٥٤ (٥) سورة الحج الآية ٧٥

(٦) انظر منهج السلف والمتكلمين في موافقة العقل للنقل ٥٢٢/٢

فعند أهل الأهواء أن الله سبحانه وتعالى لما وصف خاتم النبيين ﷺ بالسراج المنير بصفة المبالغة في قوله تعالى: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾^(١) قالوا: معنى ذلك (أن الله عز وجل يمد بواسطته كل من أراد هدايته بالأنوار، والأسرار، فمن اعتقد أن مدد الرسول انقطع، لانتقاله إلى الرفيق الأعلى فقد أساء الأدب مع الرسول، ويخشى عليه الموت على الكفر... وكلمة التوحيد لا تتم إلا بمحمد ﷺ فكيف يتهم بالشرك من توسل به إلى الله؟ لك أيها المسلم العاقل أن تتوسل إلى الله بكل ما يحبه الله، إن الله يحب المتقين ذاتا، وصفات، أحياء، وأمواتا، ويحب من أحبهم، ومن اقتدى بهم، ويحب من توسل بهم إليه)^(٢).

وأهل الأهواء جميعا متفقون على قياس الوسطة في العبادة على الوسطة في التبليغ؛ ولهذا لما وجه هذا السؤال لعالم الرافضة الخوئي^(٣) وهو: هل يجوز طلب الولد، أو الرزق، أو الحفظ والأمان... الخ من المعصومين -على حد زعمهم- مباشرة؟ لا لأنهم يخلقون، أو يرزقون، وإنما لأنهم الوسيلة إلى الله تعالى، والشفعاء إليه بقضاء الحاجات؛ ولأنهم لا يفعلون شيئا إلا بإذنه جل شأنه، فهم يسألونه فيخلق، ويسألونه فيرزق، ولا ترد لهم مسألة، أو دعاء لمنزلتهم منه جل شأنه، ولولايتهم علينا، وقد قال الله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾^(٤)؟ فأجاب الخوئي الرافضي على هذا السؤال الطويل العريض بقوله: لا بأس بذلك القصد!!^(٥)، ثم وجه إليه سؤال آخر، وصيغته: من المتعارف عليه في حال النهوض، أو القيام، أو أي عمل آخر الاستنجاد بالنبي ﷺ أو الإمام علي رضي الله عنه أو أحد من الأئمة رحمهم الله فهل يجوز ذلك عن قصد علما بأن الاعتقاد هو أنهم الباب إلى الله تعالى؟ فأجاب الخوئي بقوله: (لا بأس بتوسيطهم، والاستشفاع بهم إلى الله تعالى كوسيلة في قضائهم هو حوائج المتوسلين؛ لأنه تعالى رغب في التوسل بقوله

(١) سورة الأحزاب الآية ٤٦

(٢) نقل كلام هذا المبتدع ورد عليه الشيخ عبد الله الجبرين في كتابه الجواب الفائق في الرد على مبدل الحقائق ص ٢٥ وما بعدها (بتصرف).

(٣) هو أبو القاسم بن علي أكبر بن المير هاشم الموسوي الخوئي الرافضي، أحد مراجع العصر في النجف قال عنه جواد التبريزي: هو أستاذ الفقهاء والمجتهدين وآية الله في هذا العصر ولد في خوي سنة ١٣١٧ هـ. انظر: مقدمة صراط النجاة ص ٥، ونقاء البشر ١/ ٧١

(٤) سورة المائدة الآية ٣٥

(٥) انظر صراط النجاة في أجوبة الاستفتاءات للخوئي ص ٤٦٦

تعالى: ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾^(١)

ويقول الخميني^(٢) إمامهم مصرحا بهذه العقيدة الباطلة، وهذا القياس الفاسد: (فيتوسل بأولياء الأمراء، وخفراء الزمان، وشفعاء الإنس والجنان؛ يعني الرسول، والأئمة المعصومين، ويجعل تلك الذوات الشريفة شفيعا، وواسطة... ويسأل الحق تعالى رفع شر الشيطان، والنفس الأمارة بالسوء... ويجعلهم وسائط في الانتماء، وقبول العبادات الناقصة، والمناسك غير اللائقة، فالحق تعالى كما جعل محمدا، وأهل بيته وسائط الهداية... وعينهم الهداة لنا... فيرحم بشفاعتهم قصورنا، ويتمم نقصنا، ويقبل طاعتنا، وعباداتنا غير اللائقة)^(٣).

وهذه هي حال أهل الأهواء في أقيستهم الفاسدة، فقد يقيون أمرا على أمر أجنبي عنه من غير أن تكون هناك علة صحيحة تجمع بينهما، وهذا النوع من الأقيسة المنطقية مردود شرعا وطبعاً^(٤)، وهذا القياس في الحقيقة هو قياس المشركين الأولين الذين زعموا أنهم لا يصلون إلى مرادهم إلا بتوسيط الأكابر^(٥).

فعلم مما سبق مخالفة أهل الأهواء لصحيح المنقول في اتخاذهم وسائط بينهم وبين الله تعالى في العبادة واستدلالهم لهذا الباطل المؤدي بصاحبه إلى الكفر، والشرك بقياس الوساطة في العبادة على الوساطة في التبليغ، وكما خالفوا صحيح المنقول فقد خالفوا أيضا صريح المعقول، والفطرة السليمة؛ لأن العقل الصريح، والفطرة السليمة متفقان مع النقل الصحيح على أن الله جل وعلا متصف بصفات الكمال، ومن ذلك صفة الغنى، والعلم، والسمع، والرحمة، فالله تعالى غني عن العالمين، والخلاق كلهم فقراء

(١) المرجع نفسه ص ٤٦٨

(٢) هو عدو الله الملقب عند الرافضة بروح الله بن السيد مصطفى الخميني، إمام الرافضة في هذا العصر، يعدونه المرجع الخامس للمدرسة الشيعية الحديثة، ومثالا لعلي في الأرض، ومثالا للإمام الغائب، هلك سنة ١٤١٠هـ، انظر نقيب البشر ٧٨٩/٢

(٣) الآداب المعنوية للصلاة للخميني ص ٥٦٩ نقلا عن كتاب العلاقة بين التشيع والتصوف لفلاح بن أحمد رسالة دكتوراه غير منشورة ص ٣٦٣

(٤) انظر المجموع المفيد في نقض القبورية ونصرة التوحيد للدكتور محمد بن عبد الرحمن الخميس ص ١٧٤

(٥) انظر النبذة الشريفة في الرد على القبوريين والقياس الفاسد وأثره في الانحراف في العقيدة للدكتور أحمد بن شاكِر الحذيفي ص ٨١ رسالة دكتوراه غير منشورة، والشرك في القديم والحديث لأبي بكر محمد زكريا ص ٧٩٠ رسالة ماجستير غير منشورة.



إليه في جميع شؤونهم لا يستغنون عنه طرفة عين، ولو تركهم لأنفسهم لحظة لهلكوا، وإذا كان الأمر كذلك عند العقلاء فإنه يجب طلب النفع، ورفع الضر منه تعالى مباشرة؛ لأنه سبحانه وتعالى عليم بعباده يعلم حوائجهم فيقضيها، ويسمع دعاءهم فيستجيب لهم، رحيم بهم، له القدرة التامة، والمشيئة النافذة؛ فمن كان عنده أدنى مسكة من عقل فإنه سيرفض أي واسطة بينه وبين الله تعالى في عبادته؛ لأن هذا يلزم منه القدح في علمه تعالى، وقدرته، وسمعه، ورحمته، وإساءة ظن بالمولى جل وعلا، فيجب -إذن- إخلاص العبادة لله تعالى، وقطع النظر عما سواه حال أداء العبادة التي علمناها رسول الله (، والابتعاد عن الشرك، ووسائله، وأسبابه المؤدية إليه، وطلب الزلفى لديه، والتوسل إليه تعالى بما شرع من الأعمال الصالحة، وبأسمائه الحسنى، وصفاته العليا، وبدعوة أخ صالح في ظهر الغيب، فهذه هي الواسطة المقبولة، والوسيلة المشروعة التي يدل عليها صحيح المنقول الموافق لصريح المعقول^(١).

وبيان هذا القياس الفاسد، وما سبقه من مباحث هذا الفصل يتضح مفهوم الواسطة عند أهل الأهواء، ويبدو خروجهم فيها عن دائرة الكتاب والسنة قضية مسلمة، وأمرًا جليًا.

(١) انظر الواسطة بين الحق والخلق ص ٢٠، والرد على شبهات المستعنيين بغير الله تعالى ص ٧٩، ومنهج السلف والمتكلمين في موافقة العقل للنقل ٢/ ٥٢٦

الفصل الثاني

الواسطة بين الله وخلقه عند الفلاسفة ومن تبعهم وبيان هتهم
والرد عليهم.

وفيه ثلاثة مباحث:-

المبحث الأول: بيان مقالة الفلاسفة في الواسطة .

المبحث الثاني: صورة الواسطة البدعية عند الفلاسفة .

المبحث الثالث: بيان شبهة الفلاسفة والرد عليهم .

المبحث الأول

بيان مقالة الفلاسفة في الواسطة

اعلم أن كل من اتخذ شريكا مع الله تعالى فذلك الشريك إما أن يكون جسما وإما أن لا يكون كذلك، والذين اتخذوا شريكا جسمانيا فذلك الشريك إما أن يكون من الأجسام السفلية أو الأجسام العلوية، والذين اتخذوا الشركاء من الأجسام العلوية فهم الذين يعبدون الشمس والقمر، وسائر الكواكب، ويضيفون إليها السعادة، والنحوسة، وهم الفلاسفة، ومعظم المنجمين، والصابئة، ومن هؤلاء من يقول: إن الملائكة عبارة عن الأرواح الفلكية، التي هي واسطة عندهم بين الله والعالم، ولكل إقليم روح معين من الأرواح الفلكية يدبره، ويدير شؤونه، ولكل نوع من أنواع هذا العالم روح فلكي يدبره، ويتخذون لتلك الأرواح صورا، وتمائيل، ويعبدونها، وهؤلاء هم عبدة الملائكة، والكواكب^(١).

وقد نشأت عبادة الكواكب عند هؤلاء الفلاسفة من الصابئة^(٢)، ومن تبعهم من المنجمين، نشأت بسبب تعلقهم بالملائكة واعتقدوا أنهم واسطة بين الله وخلقه في العبادة والدعاء والتضرع والرجاء، وأن الله أوكّل إليهم تصريف شؤون هذا العالم، ثم اعتقدوا أن الأفلاك، والكواكب أقرب الأجسام المرئية إلى الخالق جل وعلا، واعتقدوا أنها حية ناطقة مدبرة للعالم، وزعموا أنها هياكل حلت فيها الملائكة «الأرواح»، فالكواكب بالنسبة للملائكة كالجسد للروح، وهي - عندهم - متصفة بصفات مخصوصة، ولوجود هذه الصفات استحقت أن تكون واسطة تعبد، كما تعبد الآلهة، فكانوا يتقربون إلى الكواكب (الهياكل) تقربا إلى الملائكة (الروحانيات) ويتقربهم إلى الروحانيات يزعمون أنهم يتقربون إلى الخالق تعالى، وهؤلاء يسمون أصحاب الهياكل^(٣).

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (لكن قالوا: لكن نحن إذا توجهنا إلى هؤلاء بالدعاء،

(١) انظر تفسير الفخر الرازي ١/ ٢٤٥، ورسائل إخوان الصفا ١/ ١٤٥، والتنجيم والمنجمون للمشعبي ص ٤٣

(٢) يقال: صبأ الرجل إذا خرج من دين إلى دين، والصبوة في مقابل الخيفية، والصابئة جنس من أهل الكتاب.

انظر مختار الصحاح ص ٣٥٤ مادة (ص ب أ)، والملل والنحل ٢/ ٥، والصابئون لرشدي عليان ص ٢٥

(٣) الملل والنحل ٢/ ٢٩، وانظر دمعة على التوحيد ص ٩٤، والتنجيم والمنجمون ص ٣٥، والصابئون حرانيين

ومندائين لرشدي عليان ص ٣٤

والسؤال منهم؛ بل والعبادة لهم، فاض علينا ما يفيض منهم، وقاض عليهم ما يفيض من جهة الله (١).

وقد بين الشهرستاني مقالتهم بقوله: (فقالوا: الروحانيات هم الأسباب المتوسطون في الاختراع، والإيجاد، وتصريف الأمور من حال إلى حال، وتوجيه المخلوقات من مبدأ إلى مبدأ كما يستمدون القوة من الحضرة الإلهية القدسية ويفيضون الفيض على الموجودات السفلية، فمنها مدبرات الكواكب السبع السيارة في أفلاكها، وهي هياكلها، ولكل روحاني هيكل، ولكل هيكل فلك، ونسبة الروحاني إلى ذلك الهيكل الذي اختص به نسبة الروح إلى الجسد، فهر ربه، ومدبره، ومديره، وكانوا يسمون الهياكل أربابا، وربما يسمونها آباء، والعناصر أمهات ففعل الروحانيات تحريكها على قدر مخصوص ليحصل من حركاتها انفعالات في الطبائع، والعناصر، فيحصل من ذلك تركيبات، وامتزاجات في المركبات، فيتبعها قوى جسمانية، ويركب عليها نفوس روحانية... ثم قد تكون التأثيرات كلية صادرة عن روحاني كلي، وقد تكون جزئية صادرة عن روحاني جزئي... ومنها مدبرات الآثار العلوية الظاهرة... ومنها متوسطات القوى السارية في جميع الموجودات) (٢).

ولما رأوا أن أكثر هذه الكواكب يختفي في النهار، وفي بعض الليل بسبب التقلبات الجوية من الغيوم والضباب، ونحو ذلك قالوا: ينبغي أن نصب لهذه الكواكب أصناما، وتمثيل على هيئة الكواكب السبعة: (الشمس، والقمر، والزهرة، والمشتري، وعطارد، والمريخ، وزحل)، حتى لا تغيب عن أذهاننا، ولكي نتقرب إليها بالعبادة، فكل تمثال يقابل هيكلًا، وزعموا أن التقرب إلهذه الأصنام هو الوسيلة إلى الهياكل (الكواكب) التي هي واسطة بيننا وبين الله تعالى، وهؤلاء يسمون أصحاب الأشخاص (٣).

وهذا من الأسباب التي دعت مشركي مكة إلى اتخاذ الأصنام، والأوثان، وعبادتها من دون الله، وادعائهم أنها واسطة تقربهم من الله تعالى زلقى.

(١) الرد على المنطقيين ص ١٠٥

(٢) الملل والنحل ٧/٢

(٣) انظر الملل والنحل ٢/٢٨، وتفسير الفخر الرازي ١/٢٤٥، والتنجيم والمنجمون للمشعبي ص ٤٣، ودبعة

على التوحيد ص ٩٥

المبحث الثاني

صورة الواسطة عند الفلاسفة

تتبن صورة الواسطة عند هؤلاء الفلاسفة ومن تبعهم بتصريحهم بأن المستشفع إذا وقف، وعكف بقلبه، وخاطره متوجها إلى بعض الكواكب العلوية التي يسمونها الروحانيات، وأحيانا العقول، والنفوس فإنه يتصل بذلك المعظم المستشفع به؛ فإذا فاض على ذلك ما يفيض من جهة الرب فاض على المستشفع من جهة شفيعه، هذا قول أصحاب الهياكل، وأصحاب الأشخاص^(١).

أما أصحاب الهياكل فقالوا: (إن طريقنا في التوصل إلى حضرة القدس ظاهر، وشرعنا معقول؛ فإن قدماءنا في الزمان الأول لما أرادوا الوسيلة عملوا أشخاصا في مقابلة الهياكل العلوية على نسب، وإضافات راعوا فيها جوهرها، وصورة، وعلى أوقات، وأحوال، وهيئات أوجبوا على من يتقرب بها إلى ما يقابلها من العلويات: تختما، ولباسا، وتبخرا، ودعاء، وتعزيمًا، فتقربوا إلى الروحانيات، فتقربوا إلى رب الأرباب، ومسبب الأسباب)^(٢).

وقال الشهرستاني: (اعلم أن أصحاب الروحانيات لما عرفوا أن لا بد للإنسان من متوسط، ولا بد للمتوسط من أن يرى، فيتوجه إليه، ويتقرب به، ويستفاد منه فزعوا إلى الهياكل التي هي السيارات السبع، فتعرفوا أولا: بيوتها، ومنازلها، وثانیا: مطالعها، ومغاربها، وثالثا: اتصالاتها على أشكال الموافقة، والمخالفة مرتبة على طبائعها، ورابعا: تقسيم الأيام والليالي، والساعات عليها، وخامسا: تقدير الصور والأشخاص، والأقاليم، والأمصار عليها، فعملوا الخواص، وتعلموا العزائم، والدعوات، وعينوا اليوم زجل - مثلا - يوم السبت، وراعوا فيه ساعته الأولى، وتختموا بخاتمه المعمول على صورته وهيئته، وصنعتة، ولبسوا اللباس الخاص به، وتبخروا ببخوره الخاص، ودعوا بدعواته الخاصة به، وسألوا حاجتهم منه: الحاجة التي تستدعي من زجل، من أفعاله، وآثاره الخاصة به، فكان يقضي حاجتهم، ويحصل - في الأكثر - مرامهم، وكذلك رفع الحاجة

(١) أصحاب الهياكل: هم عبدة الكواكب، وأصحاب الأشخاص: هم عبدة الأوثان.

(٢) الملل والنحل ٢/ ٣٢

التي تختص بالمشتري في يومه، وساعته، وجميع الإضافات التي ذكرنا إليه، وكذلك سائر الحاجات إلى الكواكب، وكانوا يسمونها أربابا آلهة، والله تعالى هو رب الأرباب، وإله الآلهة، ومنهم من جعل الشمس إله الآلهة، ورب الأرباب، وكانوا يتقربون إلى الهياكل تقربا إلى الروحانيات، تقربا إلى الباري تعالى^(١).

ثم إن أصحاب الأشخاص قالوا أيضا: (إذا كان لا بد من متوسط يتوسط به، وشفيع يتشفع إليه، والروحانيات - وإن كانت هي الوسائل - لكننا إذا لم نرها بالأبصار، ولم نخاطبها بالألسن لم يتحقق التقرب إليها إلا بهياكلها، ولكن الهياكل قد ترى في وقت، ولا ترى في وقت؛ لأن لها طلوعا وأفولا، وظهورا بالليل، وخفاء بالنهار، فلم يصف لنا التقرب بها، والتوجه إليها، فلا بد لنا من صور، وأشخاص موجودة قائمة منصوبة نصب أعيننا، نعكف عليها، ونتوسل بها إلى الهياكل، فتتقرب بها إلى الروحانيات، ونتقرب بالروحانيات إلى الله سبحانه وتعالى، فنعبدهم: ﴿لِيُقَرَّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾^(٢)، فاتخذوا أصناما، أشخاصا، على مثال الهياكل السبعة، كل شخص في مقابلة هيكل، وراعوا في ذلك جوهر الهيكل؛ أعني الجوهر الخاص به من الحديد، وغيره، وصوره بصورته على الهيئة التي تصور أفعاله عنه، وراعوا في ذلك الزمان، والوقت، والساعة، والدرجة، والدقيقة، وجميع الإضافات النجومية، من اتصال محمود، يؤثر في نجاح المطالب، التي تُستدعى منه، فتقربوا إليه في يومه، وساعته، وتبخروا بالبخور الخاص به، وتختتموا بخاتمه، ولبسوا لباسه، وتضرعوا بدعائه، وعزموا بعزائمه، وسألوا حاجتهم منه، فيقولون: إنه كان يقضي حوائجهم، بعد رعاية هذه الإضافات كلها، وذلك هو الذي أخبر التنزيل عنهم أنهم عبدة الكواكب، والأوثان.

فأصحاب الهياكل هم عبد الكواكب: إذا قالوا بالهيتها - كما شرحنا - وأصحاب الأشخاص هم عبدة الأوثان؛ إذ سموها آلهة في مقابلة الآلهة السماوية^(٣)، وقالوا: ﴿هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾^{(٤)(٥)}

(٢) سورة الزمر الآية ٣

(١) الملل والنحل ٤٩/٢

(٣) لعله يقصد بالآلهة السماوية - الكواكب العلوية عند هؤلاء الفلاسفة والصابئة - وأما في الاعتقاد الصحيح فليس في السماء، ولا في الأرض إله غير الله سبحانه وتعالى.

(٥) الملل والنحل ٥٠/٢

(٤) سورة يونس الآية ١٨

وقد عبر الفلاسفة عن الواسطة بوجه ذكره الفخر الرازي رحمه الله^(١) في تفسيره موضحاً أن الفلاسفة قالوا في بيان الواسطة: إن واجب الوجود تعالى عام الفيض، تام الوجود، وحيث لا يحصل فإنما هو لمانع القابل، وعدم استعداده للقبول، ومن الجائز أن لا يكون الشيء مستعداً لنيل الفيوض بنفسه، لكنه صالح لأن ينالها بوسيط. قالوا: ومثال ذلك في المحسوس أن الشمس الواجبة تشع بضياؤها بسخاء واسع، ولكن لمن عاينها، وتعرض لها، وجهاً لوجه، وهو شرط لقبول الضوء المباشر، أما الواقف تحت ظلال تحجبه عن الضياء بسبب كثافة السقف الحاجز؛ فإنه مع ذلك صالح للاستضاءة بضوء الشمس، لكن غير المباشر، وذلك بواسطة، مثل المرأة المجلوة تعكس عليها الشمس أشعتها، وكلما كانت الواسطة أجلى كان الانعكاس أشد وأبين. ثم قالوا: وأرواح الأنبياء لشدة صفائها كانت وسائط تعكس أشعة الفيوض الربانية إلى الخلائق في عموم البركات، وشمول الخيرات، كما كانوا وسائط في إيلاغ الشرائع، والأحكام^(٢).

وذكر شيخ الإسلام ابن تيمية في معرض بيانه للواسطة عند الفلاسفة والرد عليهم: أن الفلاسفة الذين يؤمنون بالنبوات يطلقون على الملائكة العقول العشرة، والنفوس، والجواهر العالية، ويقولون: إن العقل الفعال هو رب كل ما سوى الرب عندهم. فإذا توجه المستشفع عندهم إلى من يعظمه من الجواهر العالية كالعقول والنفوس، والكواكب، والشمس، والقمر؛ فإنه يتصل بذلك المعظم المستشفع به، فإذا فاض على ذلك ما يفيض من جهة الرب، فاض على المستشفع من جهة شفيعه. ثم يقولون نحن إذا توجهنا إلى هؤلاء بالدعاء لهم والسؤال منهم؛ بل والعبادة لهم فاض علينا ما يفيض منهم، وفاض عليهم ما يفيض من جهة الله تعالى^(٣).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: (فالمشركون من الفلاسفة القائلين بقدم العالم هم أعظم

(١) هو أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي البكري، فخر الدين الرازي الإمام المفسر، قال عنه الحافظ ابن حجر: (والفخر كان من أئمة الأصول، وكتبه في الأصلين شهيرة سائرة، وله ما يقبل، وما يرد... رأس في الذكاء، والعقليات، لكنه عربي من الآثار، ولد الرازي سنة ٥٤٤هـ وتوفي سنة ٦٠٦هـ. انظر ترجمته في لسان الميزان لابن حجر ٤/٤٢٦، وترجم له باسم (الفخر بن الخطيب)، وانظر العبر ٣/١٤٢، وعيون الأنباء في طبقات الأطباء للخزرجي ٢/٢٣، والأعلام للزركلي ٧/٢٠.

(٢) انظر تفسير الفخر الرازي ٣/٧٥ وما بعدها.

(٣) انظر الرد على المنطقيين ١٠٢ وما بعدها بتصرف.

شركا، وما يدعونه من الشفاعة لألّٰهتهم أعظم كفرا من مشركي العرب؛ فإنهم لا يقولون إن الشفيؑ يسأل الله، والله يجيب دعوته كما يقوله المشركون الذين يقولون إن الله خالق بقدرته، ومشيتته، فإن هؤلاء عندهم أنه لا يعلم الجزئيات، ولا يحدث شيئا بمشيئته، وقدرته، وإنما العالم فاض عنه، فيقولون: إذا توجه الداعي إلى من يدعوه - كتوجهه إلى الموتى عند قبورهم، وغير قبورهم، وتوجهه إلى الأرواح العالية - فإنه يفيض عليهم ما يفيض من ذلك المعظم الذي دعاه، واستغاث به، وخضع له، من غير فعل من ذلك الشفيؑ، ولا سؤال منه لله تعالى، كما يفيض شعاع الشمس على ما يقابلها من الأجسام الصقيلة، كالمرأة وغيرها، ثم ينعكس الشعاع من ذلك الجسم الصقيل إلى حائط أو ماء، وهذا قد ذكره غير واحد من هؤلاء، ويزورون القبور الزيارة المنهي عنها، فمقصودهم بها طلب الخوائج من الميت أو الغائب؛ إما أن يطلب الحاجة منه، أو يطلب منه أن يطلبها من الله، وإما أن يقسم على الله به، ثم كثير من هؤلاء يقولون: إن ذلك المدعو يطلب تلك الحاجة من الله، أو إن الله يقضيها بمشيئته، واختياره، للإقسام على الله بهذا المخلوق، وأما أولئك الفلاسفة فيقولون: بل نفس التوجه إلى هذه الروح يوجب أن يفيض منها على المتوجه ما يفيض، كما يفيض الشعاع من الشمس، من غير أن تقصُد هي قضاء حاجة أحد، ومن غير أن يكون الله يعلم بشيء من ذلك على أصلهم الفاسد، فتبين أن شرك هؤلاء وكفرهم أعظم من شرك مشركي العرب، وكفرهم، وأن اتخاذ هؤلاء الشفعاء الذين يشركون بهم من دون الله أعظم كفرا من اتخاذ أولئك^(١).

(١) الرد على المنطقيين ص ٥٣٥، وانظر ما قاله الغزالي في المصنوع به على غير أهله مطبوع ضمن رسائل القصور العوالي ١٥١/٢، وإغاثة اللهفان ١/٢٢٤

المبحث الثالث

بيان شبهة الفلاسفة والرد عليهم

يشير الفلاسفة ومن تبعهم من الصائبة والمنجمين ، والطبائعين شبهات يدافعون بها عن مذهبهم الفاسد في الواسطة ، وادعائهم أن الكواكب العلوية ، والسيارات الفلكية هي الواسطة بين الله تعالى وخلقهم .

ومن تلك الشبهات التي يتعلقون بها مناظرة إبراهيم الخليل على نبينا وعليه الصلاة والسلام للنمرود الواردة في التنزيل حيث قالوا : إن الخليل لما استدل على إثبات الصانع تعالى بقوله : ﴿ رَبِّي الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ ^(١) قال النمرود أتدعي أنه يحيي ويميت بواسطة الطبائع ، والعناصر ، أو بغير واسطة هذه الأشياء ؟ فإن زعمت الأول فذلك محال ؛ لأن كل ما يحدث في هذا العالم فلما يحدث بواسطة العناصر الأربعة ، وحركات السيارات الفلكية ، وإن ادعيت الأمر الثاني فمثل هذا الإحياء ، والإماتة حاصل في ، ومن كل أحد فإن الرجل قد يكون سببا في إيجاد الولد ؛ لكن بواسطة تمزيج الطبائع ، وتحريك الكواكب العلوية ، وقد يكون سببا في موت آخر بقتله في الحال ، فثبت أن الخليل اعتمد في معرفة ثبوت الصانع على الدلائل الفلكية ، وأنه لم ينازع الخصم في اعتبار أن الحوادث الأرضية مرتبطة بحركات الوسائط الفلكية من الكواكب أو السيارات العلوية ، أو «النفوس» أو «العقول المدبرة» ^(٢) .

وقد أبطل إبراهيم الخليل على نبينا وعليه الصلاة والسلام مذهب الفلاسفة في الواسطة ، وكسر شبهتهم بما قص الله تعالى علينا من خبره في التنزيل ^(٣) ففي إبطاله لمذهب أصحاب الهياكل ، قال الله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾ (٧٥) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أَحِبُّ الْآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ^(٤)

(١) سورة البقرة الآية ٢٥٨

(٢) انظر تفسير الفخر الرازي ٢٧/٧ ، ونقله عن الرازي ابن القيم في مفتاح دار السعادة ٢/ ١٨٧ ، وانظر التنجيم

والمنجمون ص ٢١٧

(٤) سورة الأنعام الآيات (٧٥-٧٨) .

(٣) انظر الملل والنحل ٥١/٢

وفي إبطاله لمذهب أصحاب الأشخاص قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (٥١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (٥٢) قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (٥٣) قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٥٤) قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِينَ (٥٥) قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٥٦) وَقَالَ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدِيرِينَ (٥٧) فَجَعَلَهُمْ جَذَازًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (١)﴾

وبهذا يتضح أن بين شرك قوم إبراهيم وشرك قوم نوح على نبينا وعليهما الصلاة والسلام تشابها، فكان شرك قوم نوح يرجع إلى مظاهر الصلاح في البشر، وشرك قوم إبراهيم ينحو منحى العقل، والفلسفة لأسرار الطبيعة، وسير الكواكب العلوية، فشرك قوم نوح شرك تقريب وشفاعة، وشرك قوم إبراهيم كان شرك أسباب، وإعانة، فإذا اتخذ قوم إبراهيم أصناما - كما هو فعل أصحاب الأشخاص - كان شرك تقريب، وشفاعة، ومن شرك هاتين الأمتين تفرعت أصناف الشرك في الناس بعد ذلك، فمقل من الشبهات ومستكثر، فبعث الله تعالى الرسل يدعون الناس إلى التوحيد، ويحذرونهم من عواقب الشرك بأصنافه ووسائله (٢).

وتتلخص شبهة الفلاسفة في اعتقادهم أن الكواكب، أو الروحانيات، أو العقول المدبرة هي الواسطة بين الله والناس في زعمهم أن الإنسان العادي مكبل بالذنوب، وملطخ بالمعاصي، فهو غير مهيا، ولا صالح لمناجاة الرب سبحانه وتعالى (٣)، قالوا: فالواجب علينا معرفة العجز عن الوصول إلى جلاله: والبحث عن متوسطات تقربنا إليه زلفى، وهؤلاء الوسائط هم الروحانيون، المطهرون، المقدسون جوهرًا، وحالة، وحتى لا تغيب هذه الوسائط عن أعيننا ينبغي أن نعمل لكل كوكب تمثالا ونشخصه على هيئته، وحالته، ونتوجه إليه بالعبادة، والالتجاء، والتضرع، والدعاء.

يقول الشهرستاني: (ومذهب هؤلاء أن للعالم صانعا، فاطرا، حكيما مقدسا عن سمات الحدثان، والواجب علينا معرفة العجز عن الوصول إلى جلاله، وإغما يتقرب إليه بالمتوسطات المقربين لديه، وهم الروحانيون، المطهرون، المقدسون، جوهرًا، وفعلا،

(١) سورة الأنبياء الآيات (٥١-٥٨).

(٢) انظر هذه مفاهيمنا ص ٩٧

(٣) ومن الملاحظ أن هذه الشبهة سرت إلى عقائد الرافضة والصوفية كما سيأتي.

وحالة، فهم المقدسون عن المواد الجسمانية المبرأون عن القوى الجسدانية، المنزهون عن الحركات المكانية، والتغيرات الزمانية، قد جبلوا على الطهارة، وفطروا على التقديس، والتسبيح: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾^(١) فنحن نتقرب إليهم، ونتوكل عليهم، وهم أربابنا، وآلهتنا، ووسائلنا، وشفعاؤنا عند الله، وهو رب الأرباب، وإله الآلهة رب كل شيء، ومليكه. فالواجب علينا أن نطهر نفوسنا عن دنس الشهوات الطبيعية، ونهذب أخلاقنا عن علائق القوى الشهوانية، والغضبية، حتى نحصل مناسبة ما بيننا وبين الروحانيات، فحينئذ نسأل حاجتنا منهم، ونعرض أحوالنا عليهم، ونصبو في جميع أمورنا إليهم، فيشفعون لنا إلى خالقنا، وخالقهم، ورازقنا ورازقهم. وهذا التطهير، والتهذيب ليس يحصل إلا باكتسابنا، ورياضتنا، رطامنا أنفسنا عن ذنبيات الشهوات باستمداد من جهة الروحانيات، والاستمداد هو التضرع، والابتهاال بالدعوات، وإقامة الصلوات، وبذل الزكوات، والصيام عن المطعومات، والمشروبات، وتقريب القرايين، والذبائح، وتبخير البخورات، وتعزيم العزائم، فيحصل لنفوسنا استعداد، واستمداد من غير واسطة؛ بل يكون حكماً، وحكم من يدعي الوحي على وتيرة واحدة^(٢).

الرد عليهم: لقد تبين أن تعلق الفلاسفة، ومن تبعهم بالعقل، ومعارضتهم للشرائع، والديانات قد جعلهم يسيهون في دروب مظلمة، ويتقلبون في تصورات خاطئة، واعتقادات باطلة؛ لأنهم لم يستضيئوا بنور الوحي، ولم يصدقوا الوسطة الصحيحة في التبليغ من الأنبياء، الذين كانوا يأتون بخبر السماء، صباحاً، ومساءً، من أجل ذلك كانت شبهتهم في الوسطة معارضة للوحي، والتنزيل، ومدعاة للزيغ والتضليل، أما أتباع الرسل، والمصدقون بالوحي فهم يؤمنون بأن الملائكة خلق من مخلوقات الله تعالى، ميزهم الله بأن جعلهم أجساماً نورانية، وجلبهم على طاعته، وأسكنهم سماواته؛ لكنهم لا يملكون شيئاً من القدرة، ولا يستطيعون شيئاً من التشكل بالقوة إلا بإذن الله تعالى، ومشيتته، وأنهم - مع ذلك - لا يملكون شيئاً من خصائص الربوبية والألوهية، قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَاباً أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾^(٣)

(٢) الملل والنحل ٦/٢

(١) سورة التحريم الآية: ٦

(٣) سورة آل عمران الآية ٧٩

وإذا كان الله عز وجل قد كلف بعض الملائكة بالقيام بأعمال مخصوصة في الكون كتبليغ الوحي إلى الأنبياء، وإنزال المطر، وتقسيم الأرزاق، وقبض الأرواح، وغير ذلك مما مضى بيانه في حديثنا عن الوسطة من الملائكة، وبيان الأعمال المنوطة بهم، -إذا كان الأمر كذلك - فليس معناه أن هؤلاء الملائكة واسطة في الدعاء، والتضرع، والعبادة، والالتجاء، كما هو تصور هؤلاء الفلاسفة، وأن هؤلاء الملائكة أرواح، وعقول، ونفوس، قد تحل في أجسام، وهياكل الكواكب السيارة، وأن المرء يعلق قلبه، ويربط نفسه بهذه العلويات الروحانية حتى تتوسط له عند ربه سبحانه وتعالى .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية في رده على الفلاسفة في هذا التصور الباطل : (فيين سبحانه أن من اتخذ الملائكة والنبيين أربابا فهو كافر - مع أن المشركين إنما كانوا - يتخذونهم شفعا، ويتقربون بهم إلى الله زلفى؛ فإذا كان هؤلاء الذين دعوا مخلوقا، ليشفع لهم عند الله، كما يشفع المخلوق عند المخلوق، فيسأله، ويرغب إليه بلا إذنه، وقد جعلهم الله مشركين، كفارا مأواهم جهنم؛ فكيف بشرك هؤلاء الفلاسفة، وما يثبتونه من الشفاعة؟؛ فإنهم يجوزون دعاء الجواهر العلوية - الشمس، والقمر، والكواكب - وكذلك الأرواح التي يسمونها «العقول»، و«النفوس»، ويسميها من انتسب إلى أهل الملل «الملائكة»، وهؤلاء المشركون قد تنزل عليهم أرواح تقضي بعض مطالبهم، وتخبرهم ببعض الأمور، وهم لا يميزون بين الملائكة، والجن، بل قد يسمون الجميع «ملائكة»، و«أرواحا»، ويقولون: روحانية الشمس، وروحانية عطارد، وروحانية الزهرة، وهي الشيطان، والشیطانة التي تضل من أشرك بها؛ كما أن لنفس الأصنام، وهي التماثيل المصنوعة على اسم الوثن من الأنبياء والصالحين، أو على اسم كوكب من الكواكب، أو روح من الأرواح، والأصنام أيضا لها شياطين تدخل فيها، وتكلم أحيانا بعض المشركين، وقد تراءى أحيانا، فيراها بعض الناس من السدنة وغيرهم، فالمشركون من الفلاسفة، القائلين بقدم العالم هم أعظم شركا، وما يدعونه من الشفاعة لآلهتهم أعظم كفرا من مشركي العرب؛ فإنهم لا يقولون: إن الشفيع يسأل الله، والله يجيب دعوته - كما يقوله المشركون الذين يقولون: إن الله خالق بقدرته، ومشيتته - فإن هؤلاء عندهم أنه لا يعلم الجزئيات، ولا يحدث شيئا بمشيته، وقدرته، وإنما العالم فاض عنه . . . ويقولون: بل نفس التوجه إلى هذه الروح يوجب أن يفيض منها على المتوجه ما يفيض، كما يفيض الشعاع من

الشمس فتبين أن شرك هؤلاء، وكفرهم أعظم من شرك مشركي العرب، وكفرهم، وأن اتخاذ هؤلاء الشفعاء، الذين يشركون بهم من دون الله أعظم كفرا من اتخاذ أولئك^(١).

وقرر العلامة ابن القيم أن الفلاسفة ومن تبعهم في اعتقادهم في الكواكب العلويات وقعوا في الشرك، حيث جعلوا هذه الوسائط أربابا مدبرة لأمر هذا العالم، فصارعوا بذلك عباد الشمس، وعباد النار، وغيرهم^(٢).

وجملة القول : إن هذه الكواكب العلوية ما هي إلا أجرام فضائية تسير بأمر الله عز وجل وتديره وتقديره، وأنها آيات كونية من آيات الله عز وجل، لا تضر ولا تنفع، وليس لها من خصائص الألوهية شيء، وإنما هي كواكب مثل كوكب الأرض الذي نعيش عليه، وقد أثبتت الدراسات الكونية المعاصرة أن هذه الكواكب تحمل خصائص كوكب الأرض، فمن زعم أنها تتوسط له عند الله عز وجل حال الدعاء، والتضرع، والرجاء، فقد كذب على الله عز وجل، وادعى ما لا دليل عليه، وبانت لأهل العقول منزلته، واتضح للناس سخافته، والله تعالى أعلم.

(١) الرد على المنطقيين ص ٥٣٥

(٢) انظر الجواب الكافي ص ١٩٥

الفصل الثالث

الواسطة بين الله وخلقه عند الرافضة وبيان شبهاتهم والرد عليهم.

وفيه أربعة مباحث: -

المبحث الأول: نظرة الرافضة للرسول صلى الله عليه وسلم.

المبحث الثاني: عقيدة الرافضة في الملائكة الكرام عليهم

السلام.

المبحث الثالث: نظرة الرافضة لأئمتهم «وسائطهم».

المبحث الرابع: بيان شبهات الرافضة والرد عليها.

المبحث الأول

نظرة الرافضة للرسول صلى الله عليه وسلم

تؤمن الرافضة - في الجملة - بالنبي ﷺ وبرسالته، وأنه خاتم النبيين^(١)، إلا أنه بحكم الغلو الزائد في الأئمة من آل البيت الذي تقول به الرافضة فسرعان ما ينقضون هذا الإيمان ويقعون في تنقيص هذا النبي الخاتم ﷺ والخط من قدره، والطعن في رسالته، ومن ذلك قول طائفة الغرابية من غلاتهم: (إن علياً أشبه بمحمد من الغراب بالغراب، والذباب بالذباب فاشتبهها على جبرائيل فبلغ الرسالة إلى محمد، وكانت لعلي) (٢). ويقول شاعرهم في ذلك: -

غلط الأمين فجازها عن حيدر تالله ما كان الأمين آميناً

وهناك طائفة يقال لها: الذمية سمووا بذلك لذمهم محمداً ﷺ بأن علياً رضي الله عنه بعثه لدعوة الناس إليه بالعبودية فدعا الناس إلى نفسه وقال بعضهم باليهيتما واختلفوا في التقديم، والتأخير، والذين يقدمون علياً يقالهم: العينية، والذين يقولون بتقديم محمد ﷺ يقال لهم: الميمية^(٣).

ومن غلاتهم: فرقة الإسماعيلية^(٤) تزعم أن علياً هو الله - تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً - وأن علياً هو الذي بعث محمداً صلى الله عليه وسلم بالرسالة^(٥).

ومما يستدل به على ما تقدم أن مؤلف كتاب وسائل الشيعة ومستدركاتهما أورد أول حديث في أركان الإسلام فقال: عن زرارة^(٦) عن أبي جعفر أنه قال: (بني الإسلام على خمسة أشياء: على الصلاة، والزكاة، والحج، والصوم، والولاية) قال زرارة: (فقلت:

(١) انظر الكافي للكليني كتاب الحجج ١/ ١٦٨، وإحياء الشريعة في مذهب الشيعة لمحمد مهدي الكاظمي ص ٥٢،

وعقائد الإمامية لمحمد رضا المظفر ص ٢٨، ودائرة المعارف للأعلمي ١٨/ ٢٤٢،

(٢) اليمانيات المسلوطة ص ١٦٩

(٣) انظر المقالات والفرق للقمي ص ١٩١، والملل والنحل ١/ ١٧٥، والمواقف ص ٤٩٠

(٤) هذه الطوائف سبق التعريف بها. (٥) انظر تلبس إبليس ص ٩٥

(٦) هو أبو علي وقيل أبو الحسن عبد ربه - وزرارة لقب له - بن أعين، وكان أعين بن سنين راهباً رومياً، ثم عبد لرجل من بني شيبان، كان زرارة أول أمره من خواص الصادق، ثم حال بينهما الغلو فطرده الصادق وتبرأ منه، ولعنه ثلاثاً، انظر الفهرست لابن النديم ص ٢٧٦، ومعرفة أخبار الرجال ص ٩٩، ورجال الشيعة في الميزان لعبد الرحمن الزرعي ص ٣٨،

وأي شيء من ذلك أفضل؟ قال: الولاية أفضل؛ لأنها مفتاحهن، والوالي هو الدليل عليهن^(١).

فحذفوا في هذه الرواية الركن الأول من أركان الإسلام وهو شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله ﷺ ووضعوا بدلا منه الركن السادس الذي ابتدعته الرافضة، وهو الولاية، مع العلم أنه ذكر بعد ذلك أحاديث في هذا الباب اشتملت على ذكر الشهادتين^(٢).

وبما أن عليا رضي الله عنه ابن عم الرسول ﷺ، وزوج ابنته رضي الله عنها، وصفيه، وخليفته من بعده - كما يزعمون - كان طبعيا أن يكون الغلو في الرسول ﷺ ابتداء وسيلة وواسطة للغلو في علي رضي الله عنه، والأئمة من بنيهِ؛ لذلك نجد غلاة الرافضة يدعون أزلية وجود الرسول ﷺ وأسبقيته على الكون، وأنه مخلوق من نور؛ ليتوصلوا بذلك إلى ادعاء وصول ذلك النور بطريق التسلسل إلى علي رضي الله عنه، والأئمة من ذريته رحمهم الله^(٣). ويرون أن النبي ﷺ حي في قبره بعد موته، وأنه يسمع الكلام، ويرد الجواب، كما كان في حياته الدنيوية؛ غير أن الله تعالى حبس الناس عن سماع كلامه إلا قليلا من خواصهم^(٤)، فتراهم يفصلون في نوع هذه الحياة التي أثبتها الشارع لخاتم النبيين ﷺ، وسكت عن كيفيةها، وسرى عند بيان شبهات الصوفية، والرد عليها - أن الصوفية وافقت الرافضة في هذا المعتقد.

ومن صور التنقيص الذي تطفح به كتب الرافضة التأكيد على رفع رتبة علي رضي الله عنه فوق رتبة النبي ﷺ ولا ندري أيهما الأصل في الفضل، هل هو النبي ﷺ أم علي رضي الله عنه؟ إلا أننا نرى أن الرافضة لا تجعل النبي ﷺ أصلا يعظم، ويحترم علي لأجله؛ بل إنهم يحترمون النبي ﷺ ويعظمونه من أجل علي رضي الله عنه؛ لأنه أخذ ابنته، وجعله قريبه، وحبيبه، وعلى هذا اخترعوا تلك الرواية العجيبة الغربية المكذوبة، وهي: أن النبي ﷺ قال: (أعطيت ثلاثا، وعلي مشاركي فيها، وأعطي علي رضي الله عنه ثلاثا ولم أشاركه فيها، فقيل: يا رسول الله، وما الثلاث التي يشاركك علي فيها؟ قال: لواء الحمد

(١) وسائل الشيعة ومستدركاتهما لمحمد آية الله الشيرازي ص ٥

(٢) انظر المرجع نفسه ص ١٠ (٣) انظر محبة الرسول ﷺ بين الاتباع والابتداع ص ١٦٢

(٤) انظر كشف الارتباب في اتباع محمد بن عبد الوهاب لمحمد الأمين العاملي ص ١٠٩

لي، وعلي حامله، والكوثر لي، وعلي ساقيه، والجنة، والنار لي، وعلي قسيمهما، وأما الثلاث التي أعطي علي، ولم أشاركه فيها، فإنه أعطي شجاعة، ولم أعط مثلها، وأعطي فاطمة الزهراء زوجة، ولم أعط مثلها، وأعطي ولديه الحسن، والحسين، ولم أعط مثليهما^(١).

وهذه الرواية تبين حقيقة معتقد الرافضة، ونظرتهم للرسول ﷺ حيث يعدون عليا هو الأصل والنبى ﷺ هو الفرع، وهذا ظاهر لا لبس فيه، وغلو، وإفراط في حق علي رضي الله عنه، وتنقيص، وتفريط في جناب النبى ﷺ^(٢).

وقد بينا في مبحث سابق مقالة الرافضة في تنقيص الوسطة الصحيحة، وذكرنا نماذج كثيرة توضح نظرة الرافضة للرسول ﷺ.

(١) أمالي الصدوق (٢١٩) نقلا عن الشيعة وأهل البيت ص ١٩١، وانظر بحار الأنوار ٣٩/٩٠، والأنوار النعمانية.

(٢) انظر الشيعة وأهل البيت ص ١٩١، وكسر الصنم نقض كتاب أصول الكافي للبرقي ص ٢٠١، والعقيدة في أهل البيت بين الإفراط والتفريط ص ٣٧٥، وأصول مذهب الشيعة عرض ونقد للدكتور ناصر الففاري ٧٤٣/٢.

المبحث الثاني

عقيدة الرافضة في الملائكة الكرام عليهم السلام

تقدم معنا - في الباب الأول - الحديث عن الملائكة، والتعريف بهم، والإشارة إلى الأعمال المنوطة بهم، وبيننا هنالك - كونهم واسطة بين الله تعالى، وخلقه في تبليغ أوامره إلى خلقه، على تفصيل أوردناه هنالك.

والذي يهمنا في هذا المبحث هو بيان معتقد الرافضة في واسطة التبليغ هذه من الملائكة، فنقول :-

لقد نال هذا الركن من أركان الإيمان نصيبه من التحريف عند الرافضة، فقد تناولوا على مقام الملائكة المقربين، وأنكروا وظائفهم، وخصائصهم التي شرفهم الله بها، ولعنوا بعضهم، ومن أجل إثبات ركن الولاية عندهم - فإن لهم روايات غريبة، ومبالغات محجونة تطفح بالكذب على الملائكة عليهم السلام، وهي في الحقيقة أقرب ما تكون إلى إنكارهم أصلاً^(١)، فإذا تحدثوا عن الأصل الذي خلق منه الملائكة قالوا: (خلق الله الملائكة من نور علي رضي الله عنه)^(٢)، وأحياناً تجدهم يقولون: (خلق الله من نور علي بن أبي طالب سبعين ألف ملك يستغفرون له، ولحبيه إلى يوم القيامة)^(٣).

ومن غلاتهم فرقة الغرابية يلعنون الواسطة من الملائكة بين الله ورسله في إبلاغ الوحي: جبريل عليه السلام الروح الأمين، وسيد الملائكة، ويدمونه ويدعون بأن علياً كان أشبه بالنبي ﷺ من الغراب بالغراب، والذباب بالذباب، وأنهما بسبب ذلك أشتبها على جبريل عليه السلام، فغلط في أداء الرسالة فبلغها إلى محمد ﷺ وكانت لعلي رضي الله عنه، ويلمزون هذا الملك الكريم ويلقبونه صاحب الريش^(٤) ويقول شاعرهم - مدعياً أن جبريل خان الأمانة :-

غلط الأمين فجازاها عن حيدر تالله ما كان الأمين أمينا

ووقف المستشرق جولد تسهير على قدح آخر وتنقيص لهذه الواسطة من الملائكة تزعمه

(١) انظر أصول مذهب الشيعة للدكتور ناصر الفخاري ٢/ ٧٠٥

(٢) المعالم الزلغى في بيان أحوال النشأة الأولى والأخرى لهاشم البحراني ص ٢٤٩ نقلاً عن أصول فرق

الشيعة ٢/ ٧٠٦ (٣) بحار الأنوار للمجلسي ٢٣/ ٣٢٠

(٤) انظر اعتقادات فرق المسلمين للرازي ص ٩٠، والتعريفات ص ١٦٢، وخطط المقرئ ٢/ ٣٥٣، ومختصر

التحفة الاثني عشرية ص ١٣

الرافضة، فقال: (وذهبوا في إحدى خرافاتهم إلى أن الحسن والحسين كانا يحملان تعويذتين حشوهما من زغب^(١) جناح الملك جبريل)^(٢).

ويصفونهم بالخصام، والشجار، وهم الذين لا يعصون الله ما أمرهم من أجل إثبات فضيلة لعلي رضي الله عنه فقد نقل البرسي عن كتاب المقامات: (عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله (في بيتي؛ إذ طرق الباب فقال لي: قومي، وافتحي الباب لأبيك يا عائشة، فقم، وفتحت له فجاء، فسلم، وجلس، فرد السلام، ولم يتحرك له، فجلس قليلا، ثم طرق الباب، فقال: قومي، وافتحي الباب لعمر، فقم، وفتحت الباب، فظننت أنه أفضل من أبي، فجاء فسلم، وجلس، فرد عليه، ولم يتحرك له، فجلس قليلا، ثم طرق الباب فقال: قومي، وافتحي الباب لعثمان، فقم، وفتحت له، فدخل، وسلم، فرد عليه، ولم يتحرك له فجلس، فطرق الباب فوثب النبي صلى الله عليه وآله وسلم وفتح الباب، فإذا علي بن أبي طالب قد دخل، وأخذ بيده، وأجلسه، وناجاه طويلا، ثم خرج فتبعه إلى الباب، فلما خرج، قلت: يا رسول الله دخل أبي فقم له، ثم جاء عمر، وعثمان، فلم توقرهما، ولم تقم لهما، ثم جاء علي، فوثبت إليه قائما، وفتحت له الباب، فقال: يا عائشة؛ لما جاء أبوك كان جبرائيل بالباب، فهممت أن أقوم، فمنعني، فلما جاء علي وثبت الملائكة تختصم على فتح الباب له فقم، وأصلحت بينهم، وفتحت له الباب، وأجلسته، وقربته عن أمر الله)^(٣).

ويزعمون أن من ملائكة الرحمن من لا وظيفة لهم إلا البكاء على قبر الحسين رضي الله عنه، والتردد على قبره؛ لزيارته، قالوا: (وكل الله بقبر الحسين أربعة آلاف ملك شعث غبر ييكونه إلى يوم القيامة)^(٤).

وقد روى الكليني في سبب ذلك قصة، وهي: أن الملائكة الكرام سألت الله عز وجل أن يأذن لها في نصره الحسين رضي الله عنه والقتال معه، فأذن الله لها، فمكثت تستعد للقتال، وتتأهب للدفاع عن سبط النبي ﷺ وفي أثناء تأهب الملائكة للنزول كان الحسين

(١) الزغب بفتح الحين والريش، وأصله الشعيرات الصفر على ريش الفرخ. انظر مختار الصحاح ص ٢٧٢ مادة (زغ ب).

(٢) العقيدة والشرعية في الإسلام ص ٢٢٠، وانظر أصول مذهب الشيعة ٧٠٨/٢.

(٣) مشارق أنوار اليقين ص ١٩٧.

(٤) فروع الكافي ١/٣٢٥، نقلا عن أصول مذهب الشيعة ٧٠٦/٢.



رضي الله عنه قد خرج للقتال، وقتل رضي الله عنه، فلما نزلت الملائكة ووجدت الأمر قد انتهى بقتل الحسين رضي الله عنه حزنت، وشكت ذلك إلى الله تعالى، فأوحى الله إليهم: أن الزموا قبره حتى يخرج من قبره في الرجعة في زمان القائم، فالملائكة حول قبره قائمة تبكي تعزياً، وحزناً على ما فاتها من نصرته وحمايته رضي الله عنه^(١).

فزيارة قبر الحسين رضي الله عنه هي أمنية أهل السماء، قالوا: (وليس شيء في السموات إلا وهم يسألون الله أن يأذن لهم في زيارة الحسين، ففوج ينزل، وفوج يعرج)^(٢).

وتزعم الرافضة أن أئمة أهل البيت قالوا: (إن الملائكة لخدامنا، وخدام محبينا. وفي رواية أخرى عنهم أنهم قالوا: (إن جبريل دعا أن يكون خادماً للأئمة، قالوا: فجبريل خادماً)^(٣).

ويروون عن علي بن الحسين رحمه الله (أنه رآه شخص يجمع شيئاً من الأرض فسأله ماذا تجمع؟ فقال: ريشة الملائكة نصنع منها منشقة لأولادنا)^(٤).

ويزعمون أن الأئمة كانوا أنواراً حول العرش، فهم الذين علموا الملائكة التسبيح، والتهليل، والتحميد، ويروون عن الحسين بن علي السبط رضي الله عنه أنه سئل: أي شيء كنتم قبل أن يخلق الله آدم عليه السلام؟ فقال: (كنا أشباح نور، ندور حول عرش الرحمن فنعلم الملائكة التسبيح، والتهليل، والتحميد)^(٥).

قد بين شيخ الإسلام ابن تيمية من خلال رده على الرافضة أن في تسميتهم لجبريل عليه السلام خادماً كثيراً من القدح، والتنقيص لهذا الملك الكريم، فقال: (فتسميته جبريل رسول الله إلى محمد ﷺ خادماً عبارة من لا يعرف قدر الملائكة، وقدر إرسال الله لهم إلى الأنبياء)^(٦).

ويقول ابن أبي العز: (إن بعض الجاهلين يسيئون الأدب بقولهم: كان الملك خادماً

(١) انظر أصول الكافي - كتاب الحجّة - ٢٨٣/١

(٢) بحار الأنوار ٣٣٥/٢٧، وانظر علل الشرائع للصدوق ص ١٣

(٣) علل الشرائع ص ٢٥، وبحار الأنوار ٣٤٤/٢٦، وانظر دائرة المعارف للأعلامي الشيعي ٣٤٧/١

(٤) كسر الصنم ص ٢٧٤ (٥) علل الشرائع للصدوق ص ٢٣

(٦) منهاج السنة النبوية ١٥٨/٢

للنبي ﷺ، أو أن بعض الملائكة خدام لبني آدم... ونحو ذلك من الألفاظ المخالفة للشرع المجانبة للأدب^(١).

ويزعمون أن الملائكة تضع أجنحتها تحت أقدام الأئمة، وتنزل عليهم في رحالهم، وتتقلب في فرشهم، وتحضر مواعدهم، وتأتيهم بخبر ما يحدث على وجه الأرض، فيروون عن بعض الأئمة أنه قال: (إن الملائكة لتنزل علينا في رحالنا، وتتقلب في فرشنا، وتحضر مواعيدنا، وتأتينا من كل نبات في زمانه، رطب، ويابس، وتقلب أجنحتها على صيانتنا، وتمنع الدواب أن تصل إلينا، وتأتينا في وقت كل صلاة لتصلينا معنا، وما من يوم يأتي علينا، ولا ليل إلا وأخبار أهل الأرض عندنا، وما يحدث فيها، وما من ملك يموت في الأرض، ويقوم غيره إلا تأتينا بخبره، وكيف كانت سيرته في الدنيا؟!)^(٢).

ويروى عن علي بن الحسين أنه شاجر رجلاً من أهل السوق، فقال له علي: يا هذا لو صرت إلى منازلنا لأريتك آثار جبريل في رحالنا^(٣).

والملائكة في التراث الرافضي مكلفة بمسألة الولاية؛ لكن الرافضة تزعم أنه لم يستجب لهذا الأمر إلا طائفة المقرئين^(٤).

ويزعمون أن أحد الملائكة عوقب بكسر جناحه بسبب رفضه ولاية أمير المؤمنين، ولم ينجبر كسره إلا حينما عفر جناحه بتراب قبر الحسين رضي الله عنه^(٥).

وقالوا: (إذا أمر الله ملكاً بأمر، فإن ذلك الملك يأتي إلى الإمام ويعرض عليه الأمر قبل أن يعمل به)^(٦). ويزعمون أن حياة الملائكة موقوفة على ذكر الأئمة، والصلاة عليهم، وإذا سئلوا لماذا؟ قالوا: لأنه (ليس لهم طعام، ولا شراب إلا الصلاة على علي بن أبي طالب، ومحبيه، والاستغفار لشيعة المذنبين)^(٧).

ومن حماقاتهم في هذا الباب: زعمهم أن الملائكة تعتزل الرافضي إذا ناجى رافضياً مثله فيقولون: (إذا التقى الشيعة يتساءلان، قالت الحفظة: اعتزلوا بنا فإن لهما سرا، وقد

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص ٣٠٢، وانظر مجموع الفتاوى ٤/ ٣٥٠
 (٢) بحار الأنوار ٢٦/ ٣٥٦، وانظر الحكومة الإسلامية للخميني ص ١٤١، والرد الكافي على مغالطات الدكتور وافي لإحسان إلهي ظهير ص ١٤٥
 (٣) انظر تبديد الظلام لإبراهيم الجبهان ص ٣٦٥ (٤) انظر بحار الأنوار ٢٦/ ٣٤٠
 (٥) انظر المرجع السابق ٢٦/ ٣٤١ (٦) كسر الصنم ص ٢٧٥
 (٧) بحار الأنوار ٢٦/ ٣٤٩

ستره الله عليهما^(١).

ويؤولون أسماء، وألقاب الملائكة في القرآن بالأئمة، وبهذا الاعتقاد عقد المجلسي في كتابه بابا بعنوان: (باب أنهم رحمهم الله الصافون، والمسيحون، وصاحب المقام المعلوم، وحملة عرش الرحمن، وأنهم السفرة الكرام البررة)^(٢).

وجملة القول: إن دعاوى الرافضة في الملائكة الكرام -عليهم السلام- كثيرة تطفح بالظعن، والتنقيص لهذه الواسطة الملكية الكريمة، بدعوى إثبات منقبة للأئمة، وكأن وظيفة الملائكة مقصورة على شئون الأئمة، أو كأنهم ملائكة الأئمة، لا ملائكة الله!^(٣).

(١) وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة لمحمد بن الحسن العاملي ٨/ ٥٦٣، نقلا عن أصول مذهب

الشيعة ٧٠٨/٢

(٢) بحار الأنوار ٨٧/٢٤

(٣) انظر أصول مذهب الشيعة ٧٠٩/٢

المبحث الثالث

نظر الرافضة لأئمتهم ووسائطهم

تقدم معنا في تعريف الرافضة للواسطة أنهم يعتقدون أن الأئمة من آل البيت رحمهم الله هم الواسطة بين الله، والناس في تبليغ الشريعة، وواسطة بين الخلق والخالق حال الاضطراب، وهجوم الحوادث، والأخطار، وأن الدعاء لا يثمر إلا إذا كان بواسطة، والاستغاثة والاستعانة لا تصح إلا إذا كانت بهم، فإليهم يفرغ الملهوف، ونحوهم يمم المضطر، فلا فيض إلا من جهتهم، ولا مدد إلا بواسطة، كما نقلنا عنهم في مبحث التنقيص أنهم حينما يتحدثون عن الأئمة المعصومين^(١) -بزعمهم- فإنهم ينسون أو يتناسون مقام النبي ﷺ ومرتبة الرسالة؛ وذلك بالغلو الزائد في الأئمة، ومساواتهم لمقام النبي ﷺ، بل ورفع درجاتهم فوق درجته صلى الله عليه وسلم مما أوقعهم في التنقيص الفاضح والظعن المشين في خاتمة الوسائط من النبيين محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه.

والذي يهمنا في هذا المبحث هو بيان نظرهم -عموما- لهؤلاء الأئمة، والوسائط عندهم تلك النظرة التي ميزت الرافضة بين الطوائف والفرق بالغلو الزائد، والتقدّيس المرفوض شرعا للمخلوقين، وفيما يلي إجمال لنظرتهم لأئمتهم ووسائطهم.

١- زعمهم أن الأئمة خلقوا من نور: قول الخميني -مدعيا أن النبي ﷺ والأئمة خلقوا من نور، وأنهم سبقوا الكون في الوجود: (. . . فإن الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم، والأئمة رحمهم الله كانوا قبل هذا العالم أنوارا فجعلهم الله بعرشه محدقين، وجعل لهم من المنزلة، والزلفى ما لا يعلمه إلا الله)^(٢).

ووردت روايات كثيرة في الكافي تثبت أن الأئمة خلقوا من نور^(٣). وروى الكليني عن أبي عبد الله رحمه الله أنه خطب يوما فقال: (إن الله تبارك وتعالى نصب الإمام علما لخلق، وجعله حجة على أهل مواده، وعالمه، وألبسه الله تاج الوقار، وغشاه من نور الجبار بسبب إلى السماء لا ينقطع عنه مواده، ولا ينال ما عند الله إلا بجهة أسبابه، ولا

(١) وهؤلاء الأئمة عند الاثني عشرية هم: المرتضى، والمجتبى، والشهيد، والسجاد، والباقر، والصادق، والكاظم، والرضا، والتقي، والنقي، والزكي، والحجة القائم المنتظر -بزعمهم- انظر الملل والنحل ١/ ١٧٣،

والأئمة الاثنا عشر لابن طولون ص ٤١ (٢) الحكومة الإسلامية ص ٥٢

(٣) انظر تلك الروايات، والرد على المؤمنين بها في كسر الصنم لأية الله البرقي ص ٢٧١

يقبل الله أعمال العباد إلا بمعرفته ، فلم يزل الله تبارك وتعالى يختارهم لخلقه من ولد الحسين رضي الله عنه من عقب كل إمام ، يصطفاهم لذلك ويعتبيهم ، ويرضى بهم لخلقه ، ويرتضيهم ، كل ما مضى منهم إمام نصب لخلقه من عقبه إماما ، علما بينا ، وهاديا نيرا ، وإماما قيما ، وحجة عالما ، أئمة من الله يهدون بالحق وبه يعدلون ، حجج الله ، ودعائه ، ورعائه على خلقه ، يدين بهديهم العباد ، وتستهل بنورهم البلاد . . . فالإمام هو المنتخب المرتضى ، والهادي المنتجى^(١) ، والقائم المرتضى ، اصطفاه الله بذلك ، واصطعنه على عينه في الذر حين ذراه ، وفي البرية حين برأه^(٢) .

والأئمة سبقوا آدم في الوجود ؛ لأنهم كانوا يدورون حول العرش قبل خلق آدم يعلمون الملائكة التسبيح ، والتهليل . رووا عن الحسين بن علي السبط رضي الله عنهما أنه سئل : أي شيء كنتم قبل أن يخلق الله آدم عليه السلام ؟ فقال : (كنا أشباح نور ندور حول عرش الرحمن ، فنعلم الملائكة التسبيح ، والتهليل ، والتحميد)^(٣) .

٢- زعمهم أن الجزء الإلهي حل في الأئمة: تدعي الرافضة لإثبات غلوها في الأئمة أن جزءا من النور الإلهي حل في علي رضي الله عنه والأئمة من بنيه رحمهم الله ، فمن رواياتهم في ذلك أن أبا عبد الله قال : (ثم مسحنا بيمينه فأفضى نوره فينا)^(٤) ، وفي رواية أخرى عنه قال : (. . . ولكن الله خلطنا بنفسه)^(٥) .

وورد عن غلاتهم أن الله خلق روح علي ، وأولاده وفوض العالم إليهم فخلقوا هم الأرضين والسموات ، قالوا : من أجل ذلك نقول في الركوع : سبحان ربي العظيم ، وفي السجود : سبحان ربي الأعلى ؛ لأن الإله الأعلى هو علي وأولاده ، وأما الإله الأعظم فهو الذي فوض إليهم العالم^(٦) .

وبين الشهرستاني أن غلاة الشيعة غلوا في حق أئمتهم حتى أخرجوهم من حدود المخلوقية وحكموا فيهم بأحكام الإلهية ، وربما شبهوا واحدا من الأئمة بالإله ، وربما شبهوا الإله بالخلق ، وأنهم على طرفي الغلو ، والتقصير^(٧) .

(١) في حاشية الكافي ٢٠٤ / ١ أي صاحب السر .

(٢) الكافي ٢٠٤ / ١

(٣) علل الشرائع للصدوق ص ٢٣

(٤) أصول الكافي ١ / ٤٤٠

(٥) المرجع نفسه ١ / ٤٤١

(٦) انظر اعتقادات فرق المسلمين والمشركين للرازي ص ٥٧ ، والصلة بين التصوف والتشيع للشيبي ١ / ٤٠١

(٧) انظر الملل والنحل ١ / ١٧٣ ، واليمانيات المسلوقة ص ١٦٠ ، والغلو في الدين لعلي الشبل ص ٧٦ ، ومقالة

التشيه وموقف أهل السنة منها لجابر بن إدريس رسالة دكتوراه غير منشورة ص ١٥٢

وتلتقي نظرة الرافضة لعلي رضي الله عنه والأئمة من ذريته مع أقوال النصاري في عيسى بن مريم على نبينا وعليه الصلاة والسلام حيث جعلوه ابناً لله تعالى، وادعوا فيه الإلهية^(١).

وقد فطن لهذا الغلو بعض المستشرقين، فقال: (إن الشيعة إنما يخلعون على الأئمة صفات الله تعالى)^(٢).

وقال آخر: (إن نبي الإسلام كان قد جعل الوحي -أي القرآن- واسطة بين الله، والإنسان؛ ولكن الشيعة حولوا هذه الواسطة إلى شكل الإنسان، يعني الإمام، ولقد زاد الشيعة في كلمة الإيمان... كلمة أخرى، وهي: إنني آمنت بالإمام الذي اختاره الله تعالى، وهو يشاركه صفات الألوهية، وهو منقذ للإنسانية)^(٣).

وفرقة السبئية^(٤) التي تفرع عنها باقي الغلاة من الرافضة تؤمن بألوهية علي رضي الله عنه وتزعم أنه لم يميت، وسيرجع، وإنما قتل ابن ملجم^(٥) شيطاناً تصور بصورته، وأنه في السحاب، والرعد صوته، والبرق سوطه، وعند سماع الرعد يقولون: عليك السلام يا أمير المؤمنين^(٦).

(١) انظر الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة ص ٣٠٤، ومختصر التحفة الاثني عشرية ص ١٠٠
(٢) صورتان متضادتان عند أهل السنة والشيعة لأبي الحسن الندوي ص ٧٨، وانظر الشيعة في الميزان للدكتور محمد يوسف النجرامى ص ٥٥

(٣) صورتان متضادتان عند أهل السنة والشيعة لأبي الحسن الندوي ص ٧٨، وانظر العقيدة والشريعة في الإسلام لجولد تسيهر ص ١٨٢

(٤) نسبة إلى مؤسسها اليهودي عبد الله بن سبأ، ويقال له: ابن السوداء من غلاة الزنادقة كان يهودياً فتظاهر بالإسلام ليخرق صفوف المسلمين فاندس في الشيعة وسرت سمومه بين الرافضة هلك عام ٤٠ هـ انظر عنه وعن السبئية فرق الشيعة للنوبختي ص ٢٢، والمقالات والفرق للمقمي ص ١٩، والشيعة في التاريخ ص ٣٨، والبدء والتاريخ ١٢٩/٥، ومعرفة أخبار الرجال للكشي ص ٧٠، وتهذيب تاريخ ابن عساكر ٤٢٨/٧، ومقالات الإسلاميين ٨٦/١، والملل والنحل ١٧٤/١، ومنهاج السنة النبوية ٥٤/١. وانظر محاضرة بعنوان: (عبد الله بن سبأ حقيقته لا خيال) للدكتور سعدي الهاشمي ضمن كتاب محاضرات الجامعة الإسلامية في موسمها الثقافي عام ٩٨-١٣٩٩ هـ ص ٢٠١

(٥) هو عبد الرحمن بن ملجم بفتح الجيم المرادي التدولي الحميري أدرك خلافة عمر رضي الله عنه قرأ على معاذ بن جبل، وكان من شيعة علي قد شهد معه صفين ثم خرج عليه، قتل في اليوم الثالث للمقتل علي رضي الله عنه سنة ٤٠ هـ وانظر ترجمته في الكامل في التاريخ لابن الأثير ١٩٥/٣، ومروج الذهب للمسعودي ٤٥٧/٢، وتاريخ ابن خلدون ٦٤٥/٢، و فرق الشيعة ص ٢٠

(٦) انظر الملل والنحل ١٧٤/١، والبرهان في عقائد أهل الأديان للسكسكي ص ٦٥، واليمانيات المسلوطة ص ١٦٧

وقد سخر منهم أحد الشعراء بقوله^(١) :-

برئت من الخوارج لست منهم من الغزّال منهم وابن باب
ومن قوم إذا ذكروا عليا يردون السلام على السحاب

٣- ادعائهم عصمة الأئمة: ويرون أن أئمتهم معصومون من الكبائر، والصغائر مثل الأنبياء -عليهم السلام- تماماً، حتى ما يقع منهم الخطأ على سبيل النسيان، والسهو، والتأويل من سن الطفولة إلى حين انتهاء الأجل^(٢).

يقول محمد رضا المظفر^(٣) : (ونعتقد أن الإمام كالنبي يجب أن يكون معصوماً من جميع الرذائل والفواحش ما ظهر منها وما بطن من سن الطفولة إلى الموت عمداً وسهواً كما يجب أن يكون معصوماً من السهو، والخطأ، والنسيان)^(٤).

ولعلنا نلمس أن أول رافضي قال بعصمة الأئمة هو هشام بن الحكم الكوفي^(٥)؛ حيث رأى بوصفه متكلماً أن الإمام أحوج إلى العصمة من النبي؛ لأن الثاني يوحى إليه فيسده الله، وأما الأول فلا يوحى إليه؛ ولذلك احتاج إلى العصمة^(٦)!!

وأدى القول بعصمة الأئمة -عند الرافضة- أن ظهرت طريقة صوفية قريبة الصلة بالتشيع، ألا وهي الطريقة البكتاشية وهي تطرد القول بعصمة جميع الأطفال، فبالإضافة إلى أن أصحاب هذه الطريقة يعتقدون عصمة الأئمة الاثني عشر عند الإمامية -مع النبي

(١) البيتان لإسحاق بن سويد العدوي انظر الفرق بين الفرق ص ١١٩، والبيان والتبيين للجاحظ ٢٣/١، والكامل للمبرد ١٤٢/٢

(٢) انظر بحار الأنوار ١٠٢/٢٥، والحكومة الإسلامية ص ١٩، والعقيدة في أهل البيت بين الإفراط والتفريط ص ٣٦٩

(٣) هو محمد رضا بن محمد بن عبد الله آل مظفر النجفي المتوفى سنة ١٣٨٣ هـ قال عنه أغا بزك الطهراني: كان عالماً جليلاً، وأديباً معروفاً وهو من أفاضل أهل العلم وأشرف أهل الفضل، والأدب ساهم في الحركة الفكرية في النجف، انظر نقيب البشر في القرن الرابع عشر ٧٧٢/٢

(٤) عقائد الإمامية ص ١٠٤، وانظر الرد عليه في بطلان عقائد الشيعة للترنسوي ص ٢٣

(٥) هو أبو محمد هشام بن الحكم مولى كندة أصله من الكوفة، ومولده ومنشأه بواسط، كانت تجارته ببغداد في الكرخ، هلك أيام نكبة البرامكة مستتراً بالكوفة عام ١٩٠ هـ وقيل غير ذلك. وذكر الكشي أنه كان على مذهب الجهمية، ثم رجع عنه إلى مذهب غلاة الرافضة، وصار من متكلميهم، أعادنا الله من حاله. انظر الفهرست ص ٢٢٣، ومعرفة أخبار الرجال ص ١٦٥، وسمط اللآلي في شرح أمالي القاضي للوزير البكري ٨٥٥/٢، والبده والتاريخ ١٣٢/٥

(٦) انظر مقالات الإسلاميين ١٢١/١، والصلة بين التصوف والتشيع للشبيبي ٤١٤/١



ﷺ- وفاطمة، وخديجة رضي الله عنهما فإنهم يعتقدون عصمة أربعة عشر آخرين تنفرد بهم هذه الطريقة ويعتبرون الإقرار لهم بهذه الصفة شرطاً لا يتم تخرج الدرويش إلا به؛ بل زعموا أن كل الأطفال -عندهم- معصومون؛ لأن ما يرتكبونه لا يعتبر كذلك لقصورهم عن الإدراك^(١).

٤- زعمهم أن الوحي ينزل على الأئمة^(٢) يزعمون أن الأئمة يرون الملائكة وأنها تأتيهم بالوحي، وهناك ملك اسمه الروح أعظم خلقاً من الملائكة مختص بالنزول على الأئمة^(٣) ويتأولون عليه قوله تعالى: ﴿تَنْزِيلُ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾^(٤) وهناك ملك كان ينزل بالوحي بعد رسول الله ﷺ على فاطمة الزهراء رضي الله عنها وكاتب هذا الوحي هو علي رضي الله عنه، ولم يزل هذا الملك يأتيها بالوحي حتى اكتمل مصحف فاطمة رضي الله عنها^(٥). ومع اعتقاد نزول الملائكة على الأئمة فإن مصنفهم وعلمائهم المعتبرين من قال: (إن من يدعي الوحي للإمام قد خرج عن الإسلام)^(٦).

وتتحدث بعض رواياتهم عن أنواع الوحي الذي يحصل للأئمة، فتقول: قال جعفر الصادق رحمه الله: (إن منا لمن ينكت في أذنه، وإن منا لمن يؤتى في منامه، وإن منا لمن يسمع صوت السلسلة تقع على الطشت^(٧))، وإن منا لمن تأتيه صورة أعظم من جبريل وميكائيل^(٨).

والمقصود أن ادعاءهم نزول الوحي على الأئمة، ونزول مصحف فاطمة رضي الله عنها أن ذلك كله (أداة -عندهم- لاستطلاع ما يحدث في هذا الكون، ولو كان شيء من ذلك لنغير وجه التاريخ، ولما حصل للأئمة ما حصل مما تصوره كتب الشيعة من المحن، ولما

(١) انظر الصلة بين التصوف والشيعة ٢/ ٣٤٣

(٢) راجع البحث السابق (عقيدة الرافضة في الملائكة الكرام -عليهم السلام-).

(٣) انظر الكافي ١/ ٢٨٣، ومقالات الإسلاميين ١/ ١٢٣ (٤) سورة القدر الآية ٤

(٥) انظر الكافي ١/ ١٣٨، ومسألة التقريب ١/ ٢٤٦، والشيعة وتحريف القرآن لحمد مال الله ص ١٧، وموقف

الرافضة من القرآن الكريم لمأادو كارامبيري رسالة ماجستير غير منشورة ص ٣٠

(٦) كسر الصنم ص ١٧٥، وهذا قول شيخهم المفيد.

(٧) هكذا في رواياتهم (الطشت) بالشين المعجمة، ووجدت بعض الباحثين يخطئهم فيها بينما وجدت في

القاموس المحيط ١/ ١٥٨ مادة (الطشت) أنه بالسين المهملة، وحكي بالشين المعجمة أيضاً.

(٨) بحار الأنوار ٢/ ٣٥٨، وانظر بصائر الدرجات الكبرى للصفار ص ٦٣، وكشف الأسرار وبهرة الأئمة

الأطهار للسيد حسين الموسوي ص ٧٦



غاب منتظرهم، واختفى خوفا من القتل، ولما كان للتقية أدنى حاجة؛ إذ بمعرفة أسباب وقوع المكروه يتقون المكروه، وبمعرفة أسباب المرغوب، والمرغوب يفوزون بالمحسوب^(١).

٥- توسل الأنبياء بالأئمة: لما كان غلو الرافضة في الأئمة غلوا لا حدود له كما تقدم فإن من اليسير عليهم أن يفضلوهم على أنبياء الله تعالى ورسله^(٢)، وعلى الملائكة المقربين^(٣)، ومن صور ذلك التفضيل، والغلو الفاحش زعمهم أن الأنبياء عليهم السلام كانوا يتوسلون بالأئمة رغم تأخر الأئمة عن زمان الأنبياء، فمن رواياتهم في ذلك: أن أبا عبد الله قال: (والله ما استوجب آدم أن يخلقه الله بيده، وينفخ فيه من روحه إلا بولاية علي رضي الله عنه وما كلم الله موسى تكليما إلا بولاية علي رضي الله عنه ولا أقام الله عيسى ابن مريم آية للعالمين إلا بالخضوع لعلي ثم قال: أجمل الأمر: ما استأهل خلق من خلق الله النظر إليه إلا بالعبودية لنا، وقال أمير المؤمنين: إن الله عرض ولايتي على أهل السموات، وعلى أهل الأرض أقر بها من أقر بها وأنكرها من أنكرها، أنكرها يونس فحبسه الله في بطن الحوت حتى أقر بها، وكذلك أيوب لما شك في ملك علي قال له الله: فوعزتي لأذوقنك من عذابي، أو تتوب إلي بالطاعة لأمير المؤمنين)^(٤).

وروا عن الرضا رحمه الله أنه قال: (لما أشرف نوح عليه السلام على الغرق دعا الله بحقنا فمنع الله عنه الغرق، ولما رمي إبراهيم في النار دعا الله بحقنا فجعل الله النار عليه بردا، وسلاما، وإن موسى لما ضرب طريقا في البحر دعا الله بحقنا، فجعله ييسا، وإن عيسى عليه السلام لما أراد اليهود قتله دعا الله بحقنا فنجي من القتل، فرفعه إليه)^(٥).

٦- جعل الأئمة نصب العين عند الصلاة: ومن صور الغلو الذي تطفح به كتب القوم دعوتهم الصريحة إلى التعلق بهؤلاء الوسائط بزعمهم وربط القلوب بهم أكثر من التعلق بالله سبحانه وتعالى حتى عند القيام بشعيرة الصلاة لله عز وجل، وفي هذا المقام ينسبون إلى الرضا رحمه الله أنه كان يأمر الشيعي عند تكبيرة الإحرام بقوله: (تذكر رسول الله ﷺ

(١) أصول مذهب الشيعة ٢/٧١٦

(٢) وذكروا في كتب تراجمهم أن المدعو هاشم البحراني صنف كتاب تفضيل الأئمة على الأنبياء..

انظر روضات الجنات ص ١٨١

(٣) انظر مقالات الإسلاميين ١/ ١٢٠، والعقيدة في أهل البيت بين الإفراط والتفريط ص ٣٧٥

(٤) بحار الأنوار ٢٦/ ٣٢٥

(٥) بحار الأنوار ٢٦/ ٢٩٣

واجعل واحدا من الأئمة نصب عينيك (١)(٢).

ويقول الحافظ البرسي - وهو يخاطب الأئمة - (٣) :-

وأتم عند الصلاة قبلي إذا وقفت نحوكم أيّم
يا سادتي وسادتي أعتابكم بجفن عيني لثراها لثم
منوا على الحافظ عند فضلكم واستنقذوه في غد فأنتم

٧- وللمختفي في السرداب نظرة خاصة: فكلما ورد ذكره يضعون أيديهم على رؤوسهم تعظيما له (٤)، ويزعمون أن الطفل إذا بكى من غير ألم، وإذا ضحك من غير عجب؛ فذلك بسبب الغائب المنتظر؛ لأن الطفل إذا رأى الإمام المنتظر فإنه يضحك معه ويناجيه؛ وإذا اختفى عنه وغاب بكى الطفل لتلك الغيبة (٥).

ورأيت بعض متأخري الرافضة يؤقت لخروج الغائب المنتظر، وذلك حسب زعمه إذا تطابق عيد النيروز مع يوم عاشوراء، ويتم ذلك كل ٣٦ سنة، ومن المتوقع أن يتفقا عام ٢٠٠٢م - بزعمهم - فيكون خروج المهدي (٦) الخرافة، والخيال.

ومن أدعيتهم: (يا محمد، يا علي، يا علي، يا محمد اكفياني فإنكما كافيان، وانصراني فإنكما ناصران، يا مولانا، يا صاحب الزمان الغوث، الغوث أدركني، أدركني، أدركني، الساعة، الساعة، الساعة، العجل، العجل، العجل، يا أرحم الراحمين، بحق محمد وآله الطاهرين) (٧).

وعموما فإن المهدي الواسطة يتعلقون به أكثر من غيره، والرافضي مشغول به دائما في سفره، وفي حضره، كما أنشدوا (٨) :-

نزيلك ما حططت من الركاب وضيفك حيث كنت من البلاد

(١) وسنرى فيما بعد أن هذا الاعتقاد ظهر أيضا عند الصوفية في صورة الواسطة البدعية عندهم في الأموات.

(٢) الصلة بين التصوف والتشيع للشيباني ١/ ٤٦٥، وانظر الفكر الشيعي والتزعات الصوفية حتى مطلع القرن الثاني

عشر الهجري للشيباني ص ٣٥ (٣) انظر مشارق أنوار اليقين ص ٢٢٩

(٤) انظر صراط النجاة للخوئي ص ٤٦٥ (٥) انظر علل الشرائع لابن بابويه الصدوق ص ٥٨٤

(٦) انظر صراط النجاة ص ٤٦٤، والشيعية وأهل البيت لإحسان إلهي ظهير ص ٢٤٤

(٧) كليات مفاتيح الجنان ص ١١٦ لعباس القمي.

(٨) انظر المرجع نفسه ص ٩٧

٨- الحج إلى مشاهد الأئمة: ويرون أن الحج إلى قبور الأئمة، ومشاهدتهم، والصلاة عندها، والتوسل، والاستشفاع بهم ذلك عندهم أفضل من الحج إلى بيت الله الحرام^(١) حتى ألف بعض شيوخهم في ذلك كتابا وسماه: "مناسك حج المشاهد"^(٢)، ويزعمون أن كربلاء^(٣) التي بها مراقد الأئمة أصبحت بتلك المشاهد أعلى رتبة؛ حتى من الكعبة المشرفة، ومن كلامهم في ذلك قول شاعرهم^(٤): -

ومن حديث كربلاء والكعبة لكربلا بان علو الرتبة
وغيرها من سائر المشاهد أمثالها بالنقل ذي الشواهد

ونقل أبو المعالي الألويسي عن والده أن الرافضة عند زيارتهم للأئمة في قبورهم ينادي أحدهم عند الباب إذا وصل المشهد: أَدْخِلْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟ أَوْ يَا ابْنَ بِنْتِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ وَآلَهُ وَسَلَّمَ؟ أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ، ويزعمون أن علامة الإذن التي يعرفها الزائر أن يشعر بركة في قلبه، ويرى دمة تسيل من عينه، وهذه الصفة في الزيارة انتقلت بهيئتها وشرائطها إلى الصوفية^(٥).

ويرون أن زيارة قبر الحسين رضي الله عنه أفضل ما يكون من الأعمال، وأن الملائكة تقابل زواره، وتناجيهم، وتبلغهم سلام الله عليهم^(٦)، ولم يكتفوا بهذا القدر من الكذب، ومجاوزة الحد في الغلو، بل زعموا أن الله تعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا يزور قبر علي رضي الله عنه.

تقول أخبارهم: إن أحد الروافض قال: (دخلت المدينة فأتيت الصادق رحمه الله فقلت: جعلت فداك أتيتك، ولم أزر قبر أمير المؤمنين، قال: بش ما صنعت؟ لولا أنك من شيعتنا ما نظرت إليك؛ ألا تزور من يزوره الله تعالى مع الملائكة، ويزوره الأنبياء مع المؤمنين!!)^(٧).

وكل هذه الخرافات تستسيغها عقول الرافضة التي تعيش في تيه مظلم من الجهل، وحالة

(١) انظر كشف الأسرار للخميني ص ١١، ومسألة التقريب ١/٣٠٢

(٢) انظر تلخيص كتاب الاستغاثة ١/١٦٦

(٣) كربلاء: الموضع الذي قتل فيه الحسين بن علي رضي الله عنهما - في طرف البيرة عند الكوفة. انظر معجم البلدان ٤/٤٤٤

(٤) انظر كليات مفاتيح الجنان ص ٣٠٩

(٥) انظر كليات مفاتيح الجنان ص ٣١١، وغاية الأمان ٢/٣١٤

(٦) انظر بحار الأنوار ١٠١/٤٩ (٧) دائرة المعارف للأعلوي الشيعي ١/١٨٩



مزرية من الضياع^(١)، ويدعون أن إجابة الدعاء عند قبور الأئمة متحققة .

وفي ذلك قال شاعرهم - وهو يوصي بالالتصاق بالقبور والصلاة خلف المقبورين^(٢) :-

وراع فيهن اقتراب الرمس وأثر الصلاة عند الرأس
وصل خلف القبر فالصحيح كغيره في نديها صريح
والفرق بين هذه القبور وغيرها كالتور فوق الطور
فالسعي للصلاة عندها ندب وقربها بل اللصوق قد طلب

وقال آخر في مشهد أحد الأئمة^(٣) :-

وما بدا من بركات مشهده في كل يوم أمسه مثل غده
وكشفا العمى والمرضى به إجابة الدعاء في أعتابه

وذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أن الرافضة تتخذ قبور أئمتهم أو ثانا تعبد فجرهم ذلك إلى الاستهزاء بما هو من توحيد الله تعالى وعبادته وتراهم يعظمون هؤلاء الذين اتخذوهم وسائط وشفعاء من دون الله (حتى إن طوائف منهم يستخفون بحج البيت وبمن يحج البيت، ويرون أن زيارة أئمتهم، وشيوخهم أفضل من حج البيت، وهذا موجود في الشيعة المنتسبين إلى السنة، وآخرون يستخفون بالمساجد، وبالصلوات الخمس فيها، ويرون أن دعاء شيخهم أفضل من هذا، وهذا موجود في الشيعة . . . حتى ينشدون :-

تعالوا نخرب الجامع ونجعل فيه خماره
ونكسر خشب المنبر ونجعل منه طنباره^(٤)

ويحلف أحدهم اليمين الغموس كاذبا، ولا يجترئ أن يحلف بشيخه اليمين الغموس كاذبا، ومنهم من يقول : كل رزق لا يرزقه إياه شيخه لا يريده، ومنهم من يذبح الشاة، ويقول : باسم سيدي، ومنهم من يقول : إن شيخه أفضل من الأنبياء، والمرسلين، ومنهم من يعتقد فيه الإلهية كما تعتقده النصارى في المسيح . . . ويقولون : نحن غلمان الملك،

(١) انظر بروتوكولات آيات قم للدكتور عبد الله الغفاري ص ١٣٠

(٢) انظر كليات مفاتيح الجنان ص ٣٠٩ (٣) انظر المرجع نفسه ص ١٥٠

(٤) الطنباره لعلها آلة العود، قال صاحب القاموس المحيط : الطنبار بالكسر معرب شبه بإلية الجمل، انظر ٨١ / ٢ مادة (الطنبور) .

ومسمون المسجد اصطبل البطالين، ويقرءون: وما أرسلناك إلا رحمة للمدمنين، وألوان من هذا الجنس الذي فيه استهزاء بالله، وآياته، ورسوله مع تعظيمهم شيخهم، وغلوهم فيه، وكذلك النصيرية^(١)، والإسماعيلية، ونحوهم وكثير من طوائف متعددة يرى أحدهم أن استغاثته بالشيخ الميت إما عند قبره وإما عند قبر غيره أنفع له من أن يدعو الله تعالى في المسجد عند السحر، ويستهزئ بمن يعدل عن طريقته إلى التوحيد^(٢).

٩- (من عرف الإمام فليصنع ما يشاء)^(٣) هذه قاعدة من قواعد الغلو في أئمتهم، وصورة من صور الزندقة التي تطفح بها كتبهم، وقال بعض غلاتهم أيضا: (الرسالة لا تنقطع أبدا)^(٤)، وإن الجنة رجل أمرنا بمولاته، والفرائض أيضا رجال كذلك، والنار رجل أمرنا بمعاداته، والمحرمات أيضا رجال كذلك^(٥).

قال الشهرستاني: (وإنما مقصودهم من حمل الفرائض، والمحرمات، والجنة، والنار على أسماء رجال هو أن من ظفر بذلك الرجل، وعرفه فقد سقط عنه التكليف؛ إذ قد وصل إلى الجنة، وبلغ الكمال)^(٦).

وقال بعض الغلاة من فرقهم أيضا: (الدين طاعة رجل)^(٧).

وقد علق الشهرستاني على هذه القاعدة الخطيرة التي تحصر الدين في طاعة الواسطة بقوله: (ومن اعتقد أن الدين طاعة رجل، ولا رجل له، فلا دين له نعوذ بالله من الحيرة، والخور بعد الكور)^{(٨)(٩)}.

(١) نسبة إلى المبتدع محمد بن نصير النميري، ولذلك قد يطلق عليها أيضا النميرية. انظر في شأنها: فرق الشيعة ص ٩٤، والمقالات والفرق ص ١٠٠، والأنوار النعمانية لنعمة الله الجزائري ٢/ ٢٤١، والملل والنحل ١/ ١٨٨، ومختصر التحفة الاثني عشرية ص ١٤، وفي حاشية هذه الصفحة علق محب الدين الخطيب رحمه الله بقوله: (ولهذه الطائفة بقية في ديار الشام بين حمص واللاذقية، وحلب، ويتسمون الآن "العلوين") انظر البيهقيات المسلوطة ص ١٨٩، والشيعة والتشيع لإحسان إلهي ظهير ص ٢٢٥

(٢) تلخيص كتاب الاستغاثات ٢/ ٦٧٠

(٣) فرق الشيعة للتوبختي ص ٣٢، والأنوار النعمانية ٢/ ٣٤، ومقالات الإسلاميين ١/ ١٢٢

(٤) وسنرى أن هذا الاعتقاد تسرب إلى الصوفية.

(٥) الملل والنحل ١/ ١٤٧، وانظر البيهقيات المسلوطة ص ١٧٣ (٦) الملل والنحل ١/ ١٤٧

(٧) الملل والنحل ١/ ١٤٧ وانظر الصلة بين التصوف والتشيع للشيبي ١/ ٣٩٣

(٨) الحور: النقص، والرجوع، والكور: الزيادة من كار العمامة: أي لانها، وكل (دور كور)، انظر مختار الصحاح ص ١٦١، ولسان العرب ٥/ ١٥٥

والمعنى: نعوذ بالله من النقصان بعد الزيادة والاستقامة، وقد روي عن النبي ﷺ أنه كان يتعوذ من الخور بعد

الكور. انظر لسان العرب ٥/ ١٥٥ (٩) الملل والنحل ١/ ١٤٧



١٠- يزعمون أن الميت يعاين الأئمة عند الاحتضار^(١): ومن ادعاءاتهم في هذا الباب أن المحتضر يعاين الأئمة عند الموت، فيروون عن أبي عبد الله رحمه الله أنه قال: (لا يموت موال لنا مبعض لأعدائنا إلا ويحضره رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأمير المؤمنين، والحسن، والحسين رضي الله عنهم فيروونه، ويشرونه، وإن كان غير موال لنا يراهم بحيث يسوءه، والدليل على ذلك قول أمير المؤمنين رضي الله عنه :

يا حارهمدان من ميت يرني من مؤمن أو منافق قبل^(٢)

ويزعمون أن رؤيا الأئمة المنامية وحي في الحقيقة؛ كما هو الحال في رؤيا الأنبياء عليهم السلام؛ لأن منامات الأئمة جارية مجرى الوحي، ولا تكون إلا حقا، وصدقا^(٣)، ويشرون من رأى الأئمة في منامه بالبشرى؛ لأنه قد رآهم على الحقيقة مساواة بمن رأى خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم^(٤).

١١- شفاعة الأئمة يوم القيامة: يرى بعض الروافض أن رسول الله ﷺ يشفع يوم القيامة لجماعة من مرتكبي الكبائر من أمته، وأن عليا رضي الله عنه يشفع في أصحاب الذنوب من شيعته، وأن الأئمة من آل محمد ﷺ يشفعون كذلك وينجي الله بشفاعتهم كثيرا من الخاطئين^(٥).

ويروون أيضا عن علي رضي الله عنه أنه قال: إن للجنة ثمانية أبواب: باب يدخل منه النبيون، وباب يدخل منه الصديقون، وباب يدخل منه الشهداء، والصالحون، وأما الخمسة الباقية فيدخل منها شيعتنا، ومحبونا، فلا أزال واقفا على الصراط، أدعو، فأقول: رب سلم شيعتي، ومحبي، وأنصاري، ومن تولاني في الدنيا، حتى يأتي النداء من قبل العرش: قد أجبت دعوتك، وشفعت في شيعتك^(٦).

ويعلل الدكتور الشيعي الادعاء الرافضة أن الأئمة يشفعون شفاعة تضارع وتضاهي شفاعة خاتم النبيين ﷺ بقوله: (وذلك آت من أن عليا وأولاده من الأئمة ما هم

(١) وسرى في الفصل الآتي أن الصوفية تزعم أن المريد يعاين شيخه ساعة الاحتضار.

(٢) حياة الأرواح للاسترايادي نقلا عن دائرة المعارف للأعلمي الشيعي ٩٤/٧

(٣) انظر دائرة المعارف للأعلمي الشيعي ١٤٢/٦

(٤) انظر صراط النجاة للبخوني ص ٤٦٨

(٥) انظر أوائل المقالات للمفيد ص ٤٧، نقلا عن الصلة بين التصوف والتشيع للشيعي / ٤٠١

(٦) انظر دائرة المعارف ١٢٤/٧، والحياة الآخرة للدكتور علي العواجي ٣٥٩/١

إلا استمرار للنبي، وأن عصمتهم وسموهم الورحي هما اللذان بوأهم هذا المقام، ومن هنا يروى عن محمد الباقر وجعفر الصادق قولهما: والله لنشفعن، والله لنشفعن، والله لنشفعن في المذنبين من شيعتنا حتى يقول أعداؤنا إذا رأوا ذلك فمالنا من شافعين! (١).

وهذا ما شجع أحد المستشرقين أن يقول: (إن الوساطة والشفاعة تتجاوز حدودها وعلى الأخص بالنسبة إلى الحسين) (٢).

وعموماً فإن هذه الأقوال التي مر ذكرها في بيان نظرة الرافضة لأئمتهم يجمعها أمر واحد، ألا وهو الغلو الزائد في حق الأئمة، ذلك الغلو الذي تطرف كثيراً حتى خرج عن دائرة المدح، ودخل في دائرة القدح، والتنقيص لهؤلاء الأجلة رحمهم الله، ولنستمع إلى قول الحافظ البرسي وهو يخاطب علياً رضي الله عنه (٣) :-

أنت المعاد لدى المعاد وأنت لي إن ضاق بي رحب البلاد الفاسح
والى قوله (٤) :-

أنت الصراط المستقيم م قسيم جنات الأرائك
والنار مفزعها إلي ك وأنت مالك أمر مالك

ويقول آخر - واصفاً علياً رضي الله عنه بالربوبية والعباد بالله (٥) :-

تقبلت أفعال الربوبية التي عذرت بها من شك أنك مربوب

وقال آخر وهو من المتأخرين يخاطب علياً رضي الله عنه (٦) :-

أبا حسن أنت عين الإله وعنوان قدرته الساميه
وأنت المحيط بعلم الغيوب فهل تعزب عنك من خافيه
وأنت مدير رحي الكائنات ولك أبصارها الساميه
لك الأمر إن شئت تحي غداً وإن شئت تسفع بالناصيه

(١) الصلة بين التصوف والتشيع ١/ ٤٢٨

(٢) عقيدة الشيعة لهجرونيه ص ٥٣٥ نقلاً عن الصلة بين التصوف والتشيع ١/ ٤٢٨

(٣) انظر مشارق أنوار اليقين ص ٢٢٩ (٤) انظر المرجع نفسه ص ٢٣٩

(٥) انظر المرجع بعينه ص ٤٠ ، وانظر نماذج من تلك الأشعار الغالية في نبديد الظلام للجهان ص ٣٧

(٦) هذه الأبيات لشيخهم المتأخر إبراهيم العاملي . انظر كتاب " من عقائد الشيعة " لعبد الله بن محمد السلفي

وجملة القول : في نظرة الرافضة لأئمتهم ، ووسائطهم أقول : إن كل رافضي سواء كان عالماً ، أو عامياً فإنه سوف يعصب عينيه بعصاة سوداء ، ثم يقول في الوسطة من الأئمة ما يشاء ؛ لأن مذهبهم أسس بنيانه على الغلو الزائد في الإمام ، والنظرة الخرافية البعيدة عن الحقيقة والواقع لمسألة الإمامة .

ولعلنا ندرك بعد هذه النقول سبب ادعاء الرافضة أن الأئمة هم الوسطة بين الله والناس ، وأنه لا خير إلا خيرهم ، ولا فيض يصل إلى أحد من الناس إلا بواسطتهم . ويكفي لتأييد ما قدمناه من مناحي الغلو ، والخرفات التي نسجتها الرافضة حول الأئمة ؛ لادعاء وسائطهم يكفي أن نشير إلى بعض العناوين التي بوب بها الكليني بعض أبواب كتابه " الكافي " ^(١) حيث يقول : (كتاب الحجة - باب أن الأئمة يعلمون جميع العلوم التي خرجت إلى الملائكة ، والأنبياء ، والرسل صلوات الله وسلامه عليهم) ^(٢) ، (باب أن الأئمة يعلمون متى يموتون ، وأنهم لا يموتون إلا باختيارهم) ^(٣) ، (باب أن الأئمة يعلمون علم ما كان وما يكون وأنه لا يخفى عليهم الشيء) ^(٤) ، (باب أن الأرض كلها للإمام) ^(٥) .

ويستخلص المستشرق جولد تسيهر الحكم على تصور الرافضة لأئمتهم بأنه يبدو أن هذه المبالغات الشيعية في تجسيد الجوهر الإلهي في أئمة أهل البيت قد أفسح المجال في هذه البيئات إلى ظهور عقائد ، وتصورات موهلة في التشبيه ، والتجسيم ، فالشيعة كانت على وجه الدقة ، البيئة التي نبئت فيها جرائم السخافات التي حاولت القضاء على نظرية الألوهية في الإسلام ^(٦) .

ولعل من نافلة القول أن نذكر أن أئمة أهل البيت رحمهم الله بريئون من هذا الغلو الفاحش ، والتنقيص المشين الذي تدعيه الرافضة فيهم ، وأن أقوالهم في التبرؤ من هذه الادعاءات ، والرد على أقوال الغلاة فيهم كثيرة ، سنأتي على بعضها في بيان شبهات الرافضة ، والرد عليها ، وذلك في المبحث الآتي .

(١) واعلم أن هذا الكتاب مقدس عندهم وهو بمنزلة صحيح البخاري عند أهل السنة والجماعة .

(٢) الكافي ١/ ٢٥٥ (٣) المرجع نفسه ١/ ٢٥٨

(٤) الكافي ١/ ٢٦٠ (٥) المرجع نفسه ١/ ٤٠٧

(٦) انظر العقيدة والشرعة في الإسلام ص ١٨٥



المبحث الرابع

بيان شبهات الرافضة والرد عليها

إذا تقرر أن الوساطة بين الله وخلقه عند الرافضة هم الأئمة من أهل البيت رحمهم الله تعالى كما مر معنا ورأينا كيف يجيزون التعلق بالأئمة، والتوسل بهم ودعاء الله تعالى بهم تارة، وتارة أخرى يدعون بكل صراحة إلى الاستغناء بالأئمة والاستغاثة بهم، والاستمداد منهم؟

إذا تقرر ذلك، فإن هذا المسلك المنحرف، والاعتقاد الفاسد في الأئمة رحمة الله عليهم سببه ركाम من الشبهات الواهية التي تتمثل في روايات باطلة، وأخبار مختلفة ملا بها مصنفو الرافضة كتبهم وتلقاها خلفهم عن سلفهم، وصغيرهم عن كبيرهم بالقبول، والتسليم، وتراهم يدافعون عنها دفاع المستميت وهي أوهى من بيت العنكبوت رغم أنها خالفت جميع الشرائع، والعادات، وأنكرتها عقول جميع المخلوقات، والذي يهمننا في هذا المبحث هو بيان الشبهات التي تتعلق بالأئمة، واعتبارهم واسطة عند الرافضة.

١- شبهة العصمة^(١): إذا كان مذهب الشيعة عموماً، والرافضة على الخصوص يقوم على قضية الإمامة، فإن مسألة عصمة الإمام من أكبر الشبهات، وأهم المسائل التي يقوم عليها دين الرافضة، وكيانهم العقدي^(٢).

يقول محمد باقر المجلسي: (إن أصحابنا الإمامية أجمعوا على عصمة الأئمة رحمهم الله من الذنوب الصغيرة، والكبيرة، عمداً، وخطأً، ونسياناً من وقت ولادتهم إلى أن يلقوا الله عز وجل)^(٣). وقد تقدم معنا قول محمد رضا المظفر في العصمة.

ويستدلون على العصمة بقول الله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾^(٤) حيث استدل بها صاحب بحار الأنوار^(٥)، وأصل الشيعة وأصولها^(٦) بأن المراد بالعهد في الآية الإمامة، ولا يناله إلا

(١) راجع أقوالهم في العصمة في المبحث السابق (نظرة الرافضة لأئمتهم ووسطائهم).

(٢) انظر أصول مذهب الشيعة ٢/ ٩٤١، والإمامة عند الشيعة الاثني عشرية لجلال الدين صالح رسالة ماجستير غير منشورة ص ٢٤٠

(٤) سورة البقرة الآية ١٢٤

(٦) انظر ص ٥٩

(٣) بحار الأنوار ٢٥/ ٣٥٠

(٥) انظر ٢٥/ ١٩١

من كان معصوماً من القبائح ؛ لأن الله سبحانه وتعالى نفى أن ينال الإمامة ظالم ، ومن ليس بمعصوم فهو لا محالة ظالم لنفسه ، أو ظالم لغيره^(١) .

الرد عليهم: إن تفسير السلف للعهد في الآية قيل المراد به النبوة ، وقيل الإمامة ، وقيل الأمان ، وقيل المراد بالعهد الدين^(٢) فالآية ليست في مسألة الإمامة أصلاً ، كما هو قول أكثر أهل العلم ، ومن فسر العهد بالإمامة قصد إمامة العلم ، والصلاح ، والقُدوة الحسنة ، لا الإمامة ، والعصمة بالمفهوم الرافضي ، ولو سلمنا -جدلاً- بأن الآية في الإمامة فلا استدلال بها على القول بالعصمة أمر باطل ؛ إذ لا يسلم أن غير الظالم معصوم ، لا يخطئ ، ولا يسهو^(٣) .

واستدلوا أيضاً بقول الله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾^(٤) حيث يروون عن جابر الجعفي أنه قال : (لما نزلت هذه الآية قلت : يا رسول الله ، عرفنا الله ورسوله ، فمن أولي الأمر الذين قرن الله طاعتهم بطاعتك ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : خلفائي يا جابر ، وأئمة ثبتت إمامتهم ، وعصمتهم ، واتفقت الأمة على علو مرتبتهم ، ومنزلتهم)^(٥) .

واستدلوا أيضاً بقول الله تعالى : ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾^(٦) قالوا : هذه الآية نزلت في أهل الكساء وهم : (النبي صلى الله عليه وسلم ، وفاطمة ، وعلي ، والحسن ، والحسين) ويؤخذ منها عصمتهم ، وكون إجماع الأئمة بعدهم حجة^(٧) .

الرد عليهم: إن زوجات النبي ﷺ أهات المؤمنين داخلات في الآية ؛ لأنهن من أهل

(١) مجمع البيان للطبرسي ٢٠١/١ نقلاً عن أصول مذهب الشيعة ٩٥٢/٢ ، وانظر بحار الأنوار ١٩١/٢٥

(٢) انظر تفسير الطبري ٢/٢٠ ، وتفسير البغوي ١/١١٢ ، وتفسير ابن كثير ١/١٤٧ ، وتفسير السعدي ١/٦٥ ، وأضواء البيان ١/٦٩

(٣) انظر أصول مذهب الشيعة ٩٥٣/٢ (٤) سورة النساء الآية ٥٩

(٥) نقله السويدي عن يوسف الأوالي الرافضي في رده عليه . انظر الصارم الحديد في عتق صاحب سلاسل الحديد ، تحقيق الدكتور فهد بن ضويان السحيمي رسالة دكتوراه غير منشورة ص ٥١٩ ، وانظر الصواعق المحرقة للهيتمي ص ٧٥

(٦) سورة الأحزاب الآية ٣٣

(٧) انظر حديث الكساء بطوله وزيادات الرافضة فيه في كليات مفاتيح الجنان للقمي ص ٦١٢ ، والصارم الحديد للسويدي ص ٥١٨

البيت، ولسن بمعصومات - اتفاقاً - فكذلك بقية أهل البيت ليسوا معصومين^(١). (فالأمة معصومة بكتاب ربها، وسنة نبيها صلى الله عليه وسلم، ولا تجمع الأمة على ضلالة، وعصمة الأمة مغنية عن عصمة الإمام، وهذا مما ذكره العلماء في حكمة عصمة الأمة. قالوا: لأن من كان من الأم قبلنا كانوا إذا بدلوا دينهم بعث الله نبيا بين الحق، وهذه الأمة لا نبي بعد نبيها، فكانت عصمتها تقوم مقام النبوة، فلا يمكن أحد منهم أن يبدل شيئا من الدين إلا أقام الله من يبين خطأه فيما بدله)^(٢).

وكل من غلا في طائفة من الناس، أو شخصا من الأشخاص فطريقة الرد عليه: أن تذكر له من هو أعلى منه منزلة، وتبين له أن الأعلى منزلة لا يجوز الغلو فيه، فكيف يجوز الغلو في الأدنى؟! كما قال بعض الرافضة لشيخ من شيوخ أهل السنة: تقول مولانا أمير المؤمنين علي ما كان معصوما؟ فقال له السني: أبوبكر، وعمر - عندنا - أفضل منه، وما كانا معصومين، وهذا باب مطرد في الرد على أهل الغلو^(٣).

وذكر الشيخ صالح المقبلي^(٤) أنه جادل أحد علماء الرافضة في إيجابه العصمة للواسطة من الأئمة، فقال: (قلت لبعضهم: فهل المعصوم حاضر أبدا عند المكلف لكلما عرض عليه، كي يصونه عن الخطأ؟ قال: لا؛ بل لا بد من واسطة غير معصوم، قلت: فإذا ذلك مسلم، والمعصوم موجود هو النبي ﷺ ولم يدل هذا الدليل مع تسليمه إلا على معصوم واحد؛ لا على ثلاثة عشر معصوما!! فانقطع)^(٥).

وقد ذهب طوائف من غلاة الرافضة إلى وجوب القول بعصمة كل من يتعلق طرف من مصالح الإمامة به حتى طردوا ذلك في سياسة الدواب، والمستخدمين في الأمور المستحقة، من الخدام، والعبيد، (ومن انتهى تجرؤه إلى هذا فقد كشف جلاباب الحياء عن وجهه، وتعلق بما هو حري بأن يعد من السخرية، والهزء، والتلاعب بالدين

(١) انظر الصواعق المحرقة للهيتمي ص ٥٧

(٢) أصول مذهب الشيعة ٩٥٩/٢، وانظر هذه نصيحتي إلى كل شيعي للشيخ أبي بكر الجزائري ص ٢٩

(٣) انظر تلخيص كتاب الاستغاثة ٤٦٦/٢

(٤) هو صالح بن المهدي بن علي بن عبدالله بن سليمان بن محمد بن عبدالله بن سليمان بن أسعد المقبلي اليمني الزيدي، ولد بقرية المقبل باليمن سنة ١٠٤٧ هـ، وقيل: غير ذلك، وانتقل إلى صنعاء، ثم سكن مكة المكرمة، اشتغل بالتفسير وعلوم الحديث، واللغة، والفقه، توفي بمكة سنة ١١٠٨ هـ، انظر: البدر الطالع ٢٨٨/١، والأعلام ٢٨٣/٣

(٥) العلم الشامخ في إيثار الحق على الآباء والمشايخ ص ٢٢٧

وأقدار هؤلاء تقل عن الازدياد على هذا المبلغ في ذكر قبائحهم، وبث فضائحهم^(١).

والحق أن إيجاب العصمة للأئمة من أكاذيب الرافضة على أهل البيت، وافتراءاتهم حيث لم يدل عليها دليل من كتاب، ولا سنة، ولا إجماع، ولا يوافقها عقل سليم، ولعل الذي دعاهم إلى القول بإيجاب العصمة للأئمة أنهم لما ادعوا فيهم ادعاءات باطلة، ولفقوا على ألسنتهم إجابات باطلة، وقعدوا قواعد فاسدة، وأسندوها إليهم، لما فعلوا ذلك - ولا قبل لهم بالدليل - بادروا إلى القول بعصمتهم، حتى يكتموا الأفواه عن السؤال، ويعصبوا العيون عن رؤية الحق.

يقول محب الدين الخطيب: (إن الشيعة يدعون لأئمتهم الاثني عشر ما لا يدعيه هؤلاء لأنفسهم من علم الغيب، وأنهم فوق البشرية، وأيضا قد سجل الكليني نعوتا، وأوصافا للأئمة الاثني عشر رفعهم من منزلة البشر إلى منازل معبودات اليونان^(٢) في العصور الوثنية^(٣)).

ولعل ادعاء الرافضة العصمة للأئمة كان درجة صعدوا منها إلى القول بعد ذلك بكون الجزء الإلهي حل فيهم^(٤).

يقول ابن خلدون: وقد تجاوزا حد العقل، والإيمان في القول بألوهية هؤلاء الأئمة، إما على أنهم بشر اتصفوا بصفات الألوهية، أو أن الإله حل في ذاته البشرية، وهو قول بالحللول يوافق مذهب النصارى في عيسى - صلوات الله عليه^(٥).

وبالجملة فلا عصمة لغير الأنبياء عليهم السلام.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (وإنما يخالف في ذلك الغالية من الرافضة وأشباه الرافضة من الغالية في بعض المشايخ، ومن يعتقدون أنه من الأولياء، فالرافضة تزعم أن الاثني عشر معصومون من الخطأ، والذنب، ويرون هذا من أصول دينهم، والغلية في المشايخ قد يقولون: إن الولي محفوظ، والنبي معصوم، وكثير منهم إن لم يقل ذلك بلسانه

(١) الغياثي لأبي المعالي الجويني ص ٩٥

(٢) هذا في اعتقاد اليونان، وإلا فهذه المعبودات ليس لها منازل؛ لأنها لا تملك نفعا ولا ضرا، ولا موتا ولا حياة

ولا نشورا. (٣) الخطوط العريضة ص ١٥

(٤) راجع نظرة الرافضة لأئمتهم ووسائلهم من هذه الرسالة، وانظر العصمة عند الشيعة الإمامية الاثني عشرية

لعلي البار ماجستير غير منشورة ص ٢٩٦

(٥) مقدمة ابن خلدون ص ١٩٢

فحاله حال من يرى أن الشيخ، والولي لا يخطئ، ولا يذنب، وقد بلغ بالطائفتين إلى أن يجعلوا بعض من غلوا فيه بمنزلة النبي، وأفضل منه، وإن زاد الأمر جعلوا له نوعاً من الإلهية، وكل هذا من الضلالات الجاهلية المضاهية لضلالات النصرانية، فإن في النصارى من الغلو في المسيح، والأحبار، والرهبان ما ذمهم الله عليه في القرآن، وجعل ذلك عبرة لنا؛ لئلا نسلك سبيلهم^(١).

٢- شبهة الوحي تقدم معنا -سابقاً- في بيان نظرة الرافضة لأئمتهم وسائطهم أنهم يدعون أن الوحي لم يتقطع عنهم بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن هناك كتباً إلهية اكتملت عن طريق هذا الوحي -المزعوم- فكانت خاصة بهم، وهذه الدعوى شبهة بادعاءات المتنبئين على مر العصور بأن الوحي يأتيهم، ويهذون بكلمات يعارضون بها القرآن الكريم، ولنأخذ هذه الرواية -مثالاً لروايات الوحي الكثيرة عندهم- التي ينقلها الكليني عن مصحف فاطمة الزهراء رضي الله عنها -كما يزعمون- تقول الرواية: (إن الله تعالى لما قبض نبيه صلى الله عليه وآله وسلم -دخل على فاطمة من وفاته من الحزن ما لا يعلمه إلا الله عز وجل، فأرسل الله إليها ملكاً يسلي غمها، ويحدثها فشكت ذلك إلى أمير المؤمنين رضي الله عنه، فقال: إذا أحسست بذلك وسمعت الصوت قولي لي، فأعلمته بذلك، فجعل أمير المؤمنين رضي الله عنه يكتب كل ما سمع حتى أثبت من ذلك مصحفاً... أما إنه ليس فيه شيء من الحلال، والحرام؛ ولكن فيه علم ما يكون)^(٢).

وهذه الشبهة قد تضمنت أموراً في غاية الخطورة -كما يقول الدكتور ناصر القفاري- (منها: أن الوحي لم ينقطع، والنبوة لم تختم، وأن الأئمة بمنزلة الأنبياء، أو أعظم، فهم تنزل عليهم الكتب المتعددة من السماء، وهذا ما لم يتحقق للرسول صلى الله عليه وسلم ومنها: تضليل الصحابة، والأئمة جميعاً بأنها ردت الكتب المنزلة، وهذه الدعوى إحدى المعالم الواضحة على أن هذا المذهب قد ابتلي بشرذمة من الكذابين الذين لا يتورعون عن أي كذب، فهم كذبوا على رسول الله ﷺ بوضع الأحاديث -وكذبوا على الله سبحانه بوضع هذه الكتب!!)^(٣).

(٢) أصول الكافي ١/ ٢٤٠، وانظر بحار الأنوار ٢٦/ ٤٤

(١) مجموع الفتاوى ١١/ ٦٧

(٣) أصول مذهب الشيعة ٢/ ٧٣

٣- شبهة النص على الأئمة: ويدعون أن هؤلاء الوسائط من الأئمة -رحمهم الله- نزلت صحيفة من السماء فيها ذكر عددهم، وأسمائهم، وأوصافهم، ثم يؤكدون النص بقولهم: نص الرسول صلى الله عليه وسلم على علي رضي الله عنه ونص علي على الإمام من بعده، وهكذا كان كل إمام ينص على الذي بعده.

يقول أحد أئمتهم: (نعتقد أن الإمامة كالنبوة لا تكون إلا بالنص من الله تعالى على لسان رسوله، أو لسان الإمام المنصوب بالنص إذا أراد أن ينص على الإمام من بعده، وحكمها في ذلك حكم النبوة بلا فراق)^(١)، ولهذا جعل مصنف كتاب " المعارف الحسينية " فصلاً عنوانه بقوله: (فصل في بيان ما ورد عن النبي ﷺ من تعيين عدد الأئمة، وذكره صلى الله عليه وسلم لأسمائهم، وأن المهدي هو الثاني عشر ابن الحسن العسكري)^(٢).

وهذه الشبهة امتداد لشبهة العصمة، فلما كانوا يعتقدون عصمة الأئمة، وتفضيلهم على الأنبياء، والملائكة عليهم السلام جرهم ذلك إلى القول بأنه لا يعقل أن يكون من هذه منزلته مجهولاً لا يعرف بالوصف، والنص؛ لأن الإمامة -عندهم- صنو النبوة، أو أعظم، فمن لم يؤمن بهؤلاء الأئمة فهو أشد كفراً من اليهود، والنصارى^(٣)، وبلغ بهم الأمر في تكفير الأمة أن أعلنوا انفصالهم عن أمة الإسلام بسبب مسألة الإمامة، فقالوا: (لم نجتمع معهم على إله ولا نبي، ولا على إمام، وذلك أنهم يقولون: إن ربهم هو الذي كان محمد صلى الله عليه وسلم نبيه، وخليفته بعده أبوبكر، ونحن لا نقول بهذا الرب، ولا بذلك النبي؛ بل نقول: إن الرب الذي خليفة نبيه أبوبكر ليس ربنا، ولا ذلك النبي نبينا!!)^(٤).

٤- قياسهم الإمامة على النبوة^(٥): تعتقد الرافضة العصمة في الأئمة بناء على أنهم خلفاء المعصوم، ويدعون أنهم أفضل من الأنبياء، والرسول بناء على أنهم أوصياء، ونواب لأفضل الأنبياء، والمرسلين، وبسبب هذه المعتقدات الغالية، والتصورات البعيدة عن

(١) عقائد الإمامية لمحمد رضا المظفر ص ٦٠ (٢) المعارف الحسينية ص ١٧٩

(٣) انظر الشيعة في التاريخ ص ١٨، والفصول المهمة في معرفة أحوال الأئمة ص ٤٣، وانظر الرد القوي الذي رد به عليهم الشيخ محمد بن عبد الوهاب في رسالة في الرد على الرافضة ص ٦، وأصول مذهب الشيعة ٢/ ٨٦٦

(٤) الأنوار التعمانية ٢/ ٢٧٩

(٥) انظر الصارم الحديد بتحقيق الدكتور فهد السحيمي ص ٥٦٨



الحق، والموغلة في الخرافة التي تصور بها الرافضة أئمة أهل البيت تضيفها على الإمامة نجد أنها لا تعارض الإعجاب، والحب للنبي ﷺ فحسب؛ بل إنها تضاده، وتتصادم معه، فبسبب الصبغة النفسية، والعواطف المعلنة من ناحية الرافضة لحب أهل البيت -بزعمهم- وتعظيم الأئمة شغلوا بتلك العواطف كل فراغ في نفوسهم، وعواطفهم، وعقولهم؛ حتى رأيناهم يهدمون كثيرا من حقوق النبوة التي هي مصدر كل خير، وسعادة، وينالون من شخصية الرسول الأعظم ﷺ الذي نال به أهل البيت الشرف، واستحقوا الحب، والإجلال حتى جعلوا الإمامة منافسة للنبوة، أو مشاركة لها في كثير من الصفات^(١).

ومن أقوالهم في هذا القياس الفاسد: (من مات، ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية)^(٢).

وقال عالمهم محمد رضا المظفر: (نعتقد أنها [أي الإمامة] كالنبوة لطف من الله تعالى، فلا بد أن يكون في كل عصر إمام هاد، يخلف النبي في وظائفه من هداية البشر وإرشادهم إلى ما فيه الصلاح، والسعادة، في النشاطين، وله ما للنبي من الولاية العامة على الناس لتدبير شئونهم، ومصالحهم... فالإمامة استمرار النبوة، والدليل الذي يوجب إرسال الرسل، وبعث الأنبياء هو نفسه يوجب أيضا نصب الإمام بعد الرسول... ولا يجوز أن يخلو عصر من العصور من إمام مفروض الطاعة منصوب من الله تعالى)^(٣).

وقال آخر: (الإمامة منصب إلهي كالنبوة، فكما أن الله يختار للنبوة من يشاء، فكذلك يختار للإمامة من يشاء، ويأمر نبيه بالنص عليه)^(٤).

واعلم أن بطلان هذا القياس يعرف من لفظ الإمام " (فالإمام -عندهم- هو المعصوم المفترض الطاعة الموحى إليه، وحيا باطنيا، وهذا هو معنى النبي، فمذهبهم يستلزم إنكار النبوة)^(٥).

٥- شبهة الروايات المختلفة، والأخبار المكذوبة: اعلم أن للرافضة روايتها، وأخباريها الذين تنقطع بالرواية عنهم عن باقي رواة المسلمين على مر العصور الإسلامية، ولا تقبل

(١) انظر صورتان متضادتان عند أهل السنة والشيعة الإمامية ص ٨٣

(٢) الكافي ١/ ١٨١، وانظر عقائد الإمامية لمحمد رضا المظفر ص ٥٦

(٣) عقائد الإمامية ص ٤٩

(٤) أصل الشيعة وأصولها لمحمد الحسين آل كاشف الغطاء ص ٩٨

(٥) صورتان متضادتان ص ٨٢

إلا ما يروى على ألسنة أهل البيت رحمهم الله فأصبحت لهم مكتباتهم التي يقبع داخلها كل تلك الروايات المختلفة، والأخبار المكذوبة، والأسانيد الغريبة.

يقول ابن خلدون: (يرون أن علياً رضي الله عنه هو الذي عينه -صلوات الله وسلامه عليه بنصوص ينقلونها، ويؤولونها على مقتضى مذهبهم، لا يعرفها جهابذة السنة، ولا نقلة الشريعة؛ بل أكثرها موضوع، أو مطعون في طريقه، أو بعيد عن تأويلاتهم الفاسدة^(١)).

وقال بعض أئمة أهل البيت النبوي، والعترة^(١) الطاهرة في الرد على الغلاة فيهم: (وقد تأملت كلماتهم فرأيت قوماً أعمى الهوى بصائرهم، فلم يبالوا بما ترتب على مقالاتهم من المفاسد^(٢)).

وتعد الروايات المكذوبة، والأخبار الملفقة دين الرافضة؛ لأنه لا قبل لهم بالدليل الشرعي على مسألة الإمامة، واعتبار الإمام واسطة بين الله تعالى، وخلقه، وما يترتب على ذلك من القول بعصمته، والغلو الذي لا ينتهي، حتى التفاسير التي تنقلها الرافضة عن أهل البيت أكثرها مكذوبة؛ لأنهم نقلوها عن أئمة أهل البيت بواسطة كذابين مفترين أمثال هشام بن الحكم، وزرارة بن أعين، وأمثالهما ممن ثبت نفاقهم، وزندقتهم بشهادة الأئمة أنفسهم^(٣) .

ولقد حرق علي (بالنار من ادعى فيه الألوهية، وسخط محمد بن الحنفية^(٤)) على المختار ابن أبي عبيد لما بلغه مثل ذلك عنه فصرح بلعته، والبراءة منه، وكذلك فعل جعفر الصادق رحمه الله بمن بلغه مثل ذلك عنه^(٥) .

(١) مقدمة ابن خلدون ص ١٩٦

(٢) عترة الرجل: نسله، ورهطه الأدنون. انظر مختار الصحاح ص ٤١٠ مادة (ع ت ر)، والمراد بالعترة: قرابة النبي ﷺ.

(٣) الصواعق المحرقة في الرد على أهل البدع والزندقة ص ٧٧، وانظر رسالة الشرك ومظاهره للمبلي ص ٣٠٠

(٣) انظر الصواعق المحرقة للهيثي ص ٧٥، والصارم الحديد في عنق صاحب سلاسل الحديد ص ٥٧٠

(٤) هو أبو إسحاق المختار بن أبي عبيد بن مسعود الثقفي، ولد عام الهجرة، وليست له صحبة، كان من زعماء الثائرين على بني أمية، أظهر الاهتمام بتتبع قتلة الحسين رضي الله عنه، وادعى النبوة ونزول الوحي، قتله مصعب بن الزبير سنة ٦٧ هـ. انظر معرفة أخبار الرجال ص ٨٤، وتاريخ الطبري ٩٣/٦، والرجال الشيعة في الميزان ص ١٣

(٥) انظر الملل والنحل ١/ ١٧٤، ومقدمة ابن خلدون ص ١٩٢، والبهانيات المسلوقة ص ١٦٦

وروى الكليني عن سدير^(١) أنه قال : (قلت لأبي عبد الله رحمه الله إن قوما يزعمون أنكم آلهة يتلون بذلك علينا قرآنا : ﴿هُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ ﴾^(٢) ، فقال : يا سدير : سمعي ، وبصري ، ولحمي ، ودمي ، وشعري ، من هؤلاء براء ، وبرئ الله عنهم ، ما هؤلاء على ديني ، ولا على دين آبائي ، والله لا يجمعني الله وإياهم يوم القيامة إلا وهو ساخط عليهم ، قال : قلت وعندنا قوم يزعمون أنكم رسل يقرءون علينا بذلك قرآنا : ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾^(٣) ، فقال : يا سدير سمعي ، وبصري ، وشعري ، وبشري ، ولحمي ، ودمي من هؤلاء براء وبرئ الله منهم ، ورسوله ، ما هؤلاء على ديني ، ولا على دين آبائي ، والله لا يجمعني الله وإياهم يوم القيامة إلا وهو ساخط عليهم)^(٤) .

ومن الأدعية التي تنقلها الرافضة عن الأئمة رحمهم الله وفيها التوحيد الخالص ، والاعتراف بالعبودية والتنصل من الذنوب أدعية السجاد رحمه الله^(٥) .

ومن ذلك قول الباقر رحمه الله : (والله ما نتقرب إلى الله تبارك وتعالى إلا بالطاعة ، وما معنا براءة من النار من كان لله مطيعا فهو لنا ولي ، ومن كان لله عاصيا فهو لنا عدو ، وما تنال ولا يتنا إلا بالعمل والورع)^(٦) .

وهذا الكلام الرائع يوافق معتقد أهل السنة والجماعة الذي هو معتقد أئمة أهل البيت رحمهم الله ، وهذا هو المظنون بأن يخرج من أفواه هؤلاء الأئمة ، الأجلة ، كما قال الشاعر :

وهذا هو الظن المفيد بكم وما سواه فعنكم غير مظنون

فليت الرافضة يعطون مجالا لعقولهم المغلقة بالغفلة حتى يفهموا هذا الكلام الذي ينقلونه عن الأئمة ، فيعقلونه ، ويعتقدونه !!

وإذا كانوا يزعمون أنهم يتبعون عليا رضي الله عنه فلماذا يخالفونه في قوله : (إن استطعت أن لا يكون بينك وبين الله ذو نعمة فافعل)^(٧) ، فيجعلون بينهم وبين الله تعالى -

(١) لم أقف على ترجمته . (٢) سورة الزخرف الآية ٨٣

(٣) سورة المؤمنون الآية ٥١ (٤) الكافي ١/ ٢٦٩

(٥) انظر الصحيفة السجادية ص ٦٩ (٦) مجلة الهادي الشيعية العدد الرابع ص ٣١

(٧) سبع الحمام في حكم الإمام لعل الجندي ، وآخرين ص ١٠٣

حال الدعاء والتضرع، والالتجاء - واسطة من ذوات الأئمة المعصومين - بزعمهم -؟! .

ولا أجد شيئا أقوى في الرد على الرافضة في ادعائهم العصمة للأئمة رحمهم الله من أقوال الأئمة أنفسهم، فهذا أبو عبد الله يقول: (إنا لنذنب، ونسيء، ثم نتوب إلى الله متابا) (١). ورووا عنه - أيضا - أنه قال: (فوالله ما نحن إلا عبيد الذي خلقنا، واصطفانا ما نقدر على ضرر، ولا نفع، وإن رحمتنا فبرحمته، وإن عذبتنا فبذنوبنا، والله مائنا على الله حجة، ولا معنا من الله براءة، وإنا لميتون، ومقبورون، ومشورون، ومبعوثون، وموقوفون، ومستولون، ويلهم! مالهم لعنهم الله، فقد آذوا الله، وآذوا رسوله ﷺ في قبره، وأمير المؤمنين، وفاطمة، والحسن، والحسين، وعلي بن الحسين، ومحمد بن علي رضوان الله عليهم... . أشهدكم أنني أمرؤ ولدي رسول الله ﷺ وما معي براءة من الله! إن أطعته رحمني، وإن عصيته عذبتني عذابا شديدا) (٢).

وأدعية الأئمة في التبري من الحول، والقوة، والاعتراف بالذنوب أمر يصعب حصره (٣)؛ ولهذا نعلم من طريق العقل، والنقل - أن عليا رضي الله عنه - والأئمة من ذريته - رحمهم الله - ما كانوا يدعون لأنفسهم العصمة، والتبري من الذنوب؛ بل كانوا يعترفون بها سرا وعلانية، ويتضرعون إلى الله مستغفرين خاضعين منيبين إليه؛ ليقيلهم من تلك المعاصي، والعثرات؛ فإن وافق الرافضة على هذا وصدقوا تلك الأقوال فذلك الحق، وإن تكن الأخرى فقد اعترفوا بوقوع الكذب من الأئمة، وهذا في غاية المعارضة للعصمة (٤).

على أننا نجد من مصنفي الرافضة من يجادل بغير الحق، ويحاول تأويل ما يصدر عن هؤلاء الأئمة تأويلا باطلا (٥)، وما من شك في أن الذي تستدل به الرافضة على جواز الغلو في الأئمة، واعتبارهم واسطة تارة، والاستغناء بهم، ودعائهم، والانقطاع إليهم تارة

(١) بحار الأنوار ٢٥/٢٠٧

(٢) معرفة أخبار الرجال للكشي ص ٢٢٥، وانظر كسر الصم ص ١٧٤

(٣) انظر الصحيفة السجادية ص، وكليات مفاتيح الجنان ص ٢٧١، ومسألة التقريب بين أهل السنة والشيعة ١/٣٢٩

(٤) انظر الغياني ص ٩٣، والشيعة والتصحيح للموسوي ص ١١٣

(٥) انظر الأنوار النعمانية لنعمة الله الجزائري ١/٢٥٩، وبحار الأنوار للمجلسي ٢٥/٣٥١، وأصول مذهب الشيعة ٢/٦٣٠

أخرى^(١) معظمه يقوم على دعوى عصمة الأئمة، وهذا النوع من الأدلة أدلة غير شرعية فاسدة الأصل، والدلالة، وكذلك أدلة سائر أهل الأهواء، واستدلالهم هذا داخل في البدع الحقيقية^(٢).

والمقصود أن هذه الروايات المختلفة، والأخبار المكذوبة مدارها على أخباري الرافضة المجروحين والمعروفين بالكذب، وهذا جعفر الصادق رحمه الله يقول: (إن الناس أولعوا بالكذب علينا، وذلك أنهم لا يطلبون بحديثنا، ويحبنا ما عند الله، وإنما يطلبون الدنيا، وكل يحب أن يدعي رأساً)^(٣).

وقد سئل الإمام مالك عن الرواية عن أخباري الرافضة فقال: (لا تكلمهم، ولا ترو عنهم، فإنهم يكذبون)^(٤).

وقال الإمام الشافعي: (ما من أهل الأهواء أشد بالزور من الرافضة وكان إذا ذكرهم عابهم أشد العيب)^(٥).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: (وقد اتفق أهل العلم بالنقل والرواية والإسناد على أن الرافضة أكذب الطوائف، والكذب فيهم قديم؛ ولهذا كان أئمة الإسلام يعلمون امتيازهم بكثرة الكذب)^(٦).

وكان المغيرة بن سعيد العجلي^(٧) قد اشتهر في عصره، وعند علماء الرافضة بالكذب فقد رووا عن أبي الحسن الرضا رحمه الله^(٨) أنه قال: (كان المغيرة بن سعد يكذب على أبي

(١) انظر الغدير لعبد الحسين الأميني ٧/ ٧٠، والعقيدة في أهل البيت بين الإفراط والتفريط ص ٣٦٩

(٢) انظر حقيقة البدعة وأحكامها لسعيد بن ناصر الغامدي ٨/ ٢، وتبديد الظلام ص ٣٢

(٣) معرفة أخبار الرجال ص ٩٠، وانظر كسر الصنم ص ١٧٦

(٤) رواه أبو حاتم الرازي، انظر منهاج السنة النبوية ١/ ٦٠، ولمعرفة موقف الإمام مالك من الرافضة، انظر منهاج

الإمام مالك في العقيدة للدكتور سعود بن عبد العزيز الدعيجان ص ٤٩٠

(٥) الصواعق المحرقة للمهتدي ص ٦٩، وانظر رسالة الرد على الرافضة لأبي حامد المقدسي ص ٢٠٠

(٦) منهاج السنة النبوية ١/ ٥٨

(٧) هو أبو عبد الله المغيرة بن سعيد العجلي الرافضي الكذاب، كان يتنقص أبابكر وعمر رضي الله عنهما، وكان ساحرا منحرفا، حكى عنه الشعبي أنه كان يقول: لو أردت أن أفني عادا وثمودا وفرونا بين ذلك كثيرا لفعلت، وبلغ أمره خالد بن عبد الله القسري فأمر بالقصب والنفط، ثم أوجج نارا فأحرقه، ومن معه؛ وذلك في سنة ١١٩ هـ انظر معرفة أخبار الرجال للكشي ص ١٤٦، والمتنظم لابن الجوزي ٧/ ١٩٣، والكامل لابن

الأثير ٤/ ٢٣٠، والنجوم الزاهرة ١/ ٢٨٣، ولسان الميزان ٦/ ٧٥

(٨) هو أبو الحسن علي بن موسى بن جعفر الملقب بالرضا ثامن الأئمة عند الرافضة، ولد بالمدينة سنة ١٥٣ هـ =

جعفر رحمه الله تعالى فأذاقه الله حر الحديد^(١).

كما لعن الصادق زعيم المعمرية^(٢) معمر بن خيثم الشعيري^(٣)، وقال: (إنه شيطان ابن شيطان، خرج من البحر، فأوى أصحابي)^(٤).

كما لعن الصادق أيضا زرارة بن أعين - فيمن لعن من الغلاة - وذلك لما أظهر غلوه في الصادق، فتبرأ منه الصادق، ولعنه، ودعا عليه بقوله: (لا يموت زرارة إلا تائها)^(٥). فكيف يستقيم لهؤلاء الضالين مذهب، ويثبت لهم اعتقاد؟ ما داموا يروون في كتبهم المعتبرة - عندهم - أشياء تناقض اعتقاداتهم، مصرحين بها في مقالاتهم، وما أسرع ما ينتقض مذهب يقوم في أساسه على الروايات المختلفة التي يرويها هؤلاء الكذابون المجروحون؟ وما أحسن ما قيل^(٦): -

ما مشكل أن القيود تكون غل الأرجل

إن القيود على العقول لفذاك كسل المشكل

والله تعالى أعلم.

= أحبه المأمون، وزوجه ابنته، وعهد إليه بالخلافة من بعده، وضرب اسمه على الدينار، والدرهم؛ لكنه مات في حياة المأمون بطوس سنة ٢٠٣هـ انظر ميزان الاعتدال ٣/١٥٨، وتهذيب التهذيب ٧/٣٨٦، والأعلام للزركلي ٥/٢٦

(١) معرفة أخبار الرجال للكشي ص ١٤٦

(٢) فرقة من غلاة الرافضة، انظر في شأنها فرق الشيعة للنوختي ص ٤٤، والمقالات والفرق للقمي ص ٥٤، والملل والنحل ١/١٨٠، ومختصر التحفة الاثني عشرية ص ١٣

(٣) هو أبو بشار معمر بن خيثم الشعيري، وفي المقالات والفرق معمر بن الأحمر يباع الشعير، كان من جملة الغلاة الذين لعنهم الصادق فيمن لعن، انظر معرفة أخبار الرجال ص ٢٥٢، ومقالات الإسلاميين ١/٧٨، والمقالات والفرق ص ٥٣

(٤) معرفة أخبار الرجال ص ٢٥٢

(٥) معرفة أخبار الرجال ص ٩٩، وانظر كسر الصنم ص ١٩٣، والحجج الباهرة في إفحام الطائفة الكافرة الفاجرة للدواني ص ٣٤٢

(٦) انظر الوشيعة في نقد عقائد الشيعة ص ٢٣٢

الفصل الرابع

الواسطة بين الله وخلقه عند الصوفية وبيان شبهاتهم والرد عليهم

وفيه ستة مباحث:-

المبحث الأول: نظرة الصوفية للرسول صلى الله عليه وسلم.

المبحث الثاني: مقام النبوة والولاية عند الصوفية .

المبحث الثالث: صورة الواسطة البدعية عندهم في الأحياء .

المبحث الرابع: صورة الواسطة البدعية عندهم في الأموات .

المبحث الخامس: نظرة الصوفية لشيوخهم «وسائطهم» .

المبحث السادس: بيان شبهات الصوفية والرد عليها .

المبحث الأول

نظرة الصوفية للرسول صلى الله عليه وسلم

لقد حصل الغلو الزائد في الرسول ﷺ عند الصوفية بسبب كونهم نظروا إلى جانب التعظيم للنبي ﷺ وأهملوا جانب التوحيد وسد الذرائع المفضية إلى الشرك، فنظروا نظرة جزئية قاصرة لنصوص الشرع دون جمع النصوص بعضها إلى بعض حتى تكتمل الصورة، وتتم النظرة، ومن ثم يصح الحكم؛ لكن الصوفية بحكم جهلهم بمقاصد الشريعة في هذا الباب وعدم التقيد بالكتاب والسنة في الورود، والصدور مع غلبة الهوى، والبعد عن نور الوحي وقعوا في هذا الغلو المنهي عنه، وهذا هو السبب الذي أوقعهم وأوقع أهل الأهواء غموما فيما وقعوا فيه^(١)، فجعلوه واسطة في الدعاء والالتجاء، ثم تفاقم عندهم الغلو حتى دعوهم من دون الله تعالى فجعلوه واسطة في الدعاء والالتجاء.

يقول الإمام الشاطبي: (ومدار الغلط في هذا الفصل إنما هو على حرف واحد، وهو الجهل بمقاصد الشرع، وعدم ضم أطرافه بعضها لبعض؛ فإن مأخذ الأدلة عند الأئمة الراسخين إنما هو على أن تؤخذ الشريعة كالصورة الواحدة بحسب ما ثبت من كلياتها، وجزئياتها المترتبة عليها، وعامها المترتب على خاصها، ومطلقها المحمول على مقيدها، ومجمعلها المفسر بينها إلى ما سوى ذلك من مناحيها... فشأن الراسخين تصور الشريعة صورة واحدة يخدم بعضها بعضاً كأعضاء الإنسان، وشأن متبعي التشابهات أخذ دليل ما، أي دليل كان عفواً، وأخذاً أولياً، وإن كان ثم ما يعارضه من كلي، أو جزئي، فكان العضو الواحد لا يعطي في مفهوم الشريعة حكماً حقيقياً، فمتبعه متبع متشابه، ولا يتبعه إلا من في قلبه زيغ كما شهد الله به: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾^{(٢)(٣)}).

وبما أن نظرة الصوفية للرسول ﷺ خرجت بها عن حدود الشريعة وذهبت بها مذاهب شتى من الغلو الزائد الذي يفتح بعبارات الكفر، ومعاني الزندقة؛ إلا أننا سنجمل تلك النظرة في النقاط التالية:-

أولاً: ما يسمى بالحقيقة المحمدية: وهي أكاذيب الصوفية تصادم الشرع، والعقل معاً، وقالوا بها لتبرير ما زعموه من وساطة النبي في الدعاء والعبادة، ومؤداها:

(١) انظر محبة الرسول ﷺ بين الاتباع والابتداع ص ١٥٢

(٢) سورة النساء الآية ١٢٢

(٣) الاعتصام ١/ ٢٤٤

(أن الله سبحانه وتعالى عما يصفون عند ما أراد أن يجعل قسما من ذاته متعينا بشكل مخلوقات ، كان أول شيء فعله هو أنه قبض قبضة من نور وجهه ، وقال لها : كوني محمدا ، فكان محمد هو أول التعينات ، وهذه القبضة من النور هي التي يطلقون عليها اسم (الذات المحمدية) ومن هذه الذات المحمدية انبثقت السماوات والأرض والدنيا والآخرة التي يسمونها فيما يسمونها (تعينات) فهي كلها تصدر عن الذات المحمدية ، ثم تعود إليها ، وهذا هو ما يسمونه (الحقيقة المحمدية)^(١) .

يقول قائل منهم عن هذه الأكذوبة : (اعلم أنه لما تعلق إرادة الحق تعالى بإيجاد خلقه أبرز الحقيقة المحمدية من أنواره ثم سلخ منها العوالم كلها ، علوها ، وسفلها ، ثم أعلمه نبوته . . . ثم انبجست منه صلى الله عليه وسلم عيون الأرواح ، فهو الجنس العالي على جميع الأجناس ، والأب الأكبر لجميع الموجودات ، ولما انتهى الزمان بالاسم الباطن في حقه ﷺ إلى وجود جسمه ، وارتباط الروح به انتقل حكم الزمان إلى الاسم الظاهر ، وظهر محمد ﷺ بكليته جسما وروحا)^(٢) .

ويصرح الحلّاج بالمراد بالحقيقة المحمدية في قوله : (طس ، سراج من نور الغيب بدا ، وعاد ، وجاوز السراج ، وساد . . . ما أخبر إلا عن بصيرته ، ولا أمر بسنته إلا عن حق سيرته ، حضر فأحضر ، وأبصر فخبّر أسرار النبوة من نوره برزت ، وأنوارهم من نوره ظهرت ، وليس في الأنوار نور أنور ، وأظهر ، وأقدم من القدم سوى نور صاحب الكرم . . . همته سبقت الهمم ، ووجوده سبق العدم ، واسمه سبق القلم ؛ لأنه كان قبل الأتم ، ما كان في الآفاق ، وراء الآفاق ، ودون الآفاق أظرف وأشرف ، وأعرف ، وأنصف ، وأرأف ، وأخوف ، وأعطف من صاحب هذه القضية ، وهو سيد البرية الذي اسمه أحمد ، ونعته أوجد ، وأمره أوكد ، وذاته أوجد ، وصفته أمجد ، وهمته أفرد . . . يا عجب ما أظهره ، وأنظره ، وأكبره ، وأشهره ، وأنوره ، وأقدره ، وأبصره ، لم يزل كان مشهورا قبل الحوادث ، والكوائن ، والأكوان ، ولم يزل كان مذكورا قبل القبل ، وبعد البعد ، والجواهر ، والألوان . . . هو الدليل ، وهو المدلول . . . بالحق موصول غير مفصول ، ولا

(١) الكشف عن حقيقة الصوفية لمحمود القاسم ص ٢٨٠ ، وانظر هذه هي الصوفية لعبد الرحمن الوكيل ص ٧٤ ،

والفكر الصوفي لعبد الرحمن عبد الخالق ص ١١٦

(٢) الأنوار المحمدية من المواهب اللدنية ليوسف النبهاني ص ٩



خارج عن المعقول . . العلوم كلها قطرة من بحره . . . والأزمان كلها ساعة من دهره ، الحق ، وبه الحقيقة ، هو الأول في الوصلة ، وهو الآخر في النبوة ، والباطن بالحقيقة ، والظاهر بالمعرفة . . . الحق ما أسلمه إلى خلقه ؛ لأنه هو ، وإني هو ، وهو هو . . . (١) .

فهذا النص يدور حول النور المحمدي ، وأنه هو المصدر الأول للمخلوقات العلوية ، والسفلية ، وأن كل نبي ، أو رسول قبل النبي ﷺ ، وكل ولي من الأولياء بعده قد استمد من هذا النور المحمدي ، ويؤكد الحلاج كما هو واضح من هذا النص قدم وجود النبي ﷺ وأنه سبق وجود جميع ما في هذا الكون ، وبناء على نظرة الحلاج هذه للرسول ﷺ فإننا نجد في كلامه ما يفهم منه إنكار الوحي ؛ حيث زعم أن الرسول ﷺ جاء بالرسالة من ذاته ، وأخبر بها عن بصيرته (فهو الدليل وهو المدلول) (٢) .

(فالحلاج ومن تابعه من الحلوليين يرون أن محمداً ﷺ هو المظهر الذي حل فيه الإله أو الناسوت الذي حل فيه اللاهوت ، ولم يكن هذا الحلول خاصاً بالرسول ؛ بل تعدى إلى الأولياء من بعده ، وهذا كفر أشنع من كفر النصاري ؛ لأن النصاري خصوا الحلول بعيسى ، أما الحلاج فقد عممه في الأنبياء ، والأولياء على السواء) (٣) .

ويعتبر الحلاج أول صوفي غلا في الرسول ﷺ بما يخرج عن حقيقة البشرية ، وذلك انطلاقاً من مذهبه في الحلول ، وتبعه في هذا الغلو وهذه الخرافة ابن عربي الطائفي الذي بنى للصوفية من بعده مذهبهم الصوفي الفلسفي المصادم لكثير مما جاء به الرسول ﷺ فسي رسالته السماوية الخالدة . فقال بأزلية محمد ﷺ أو بعبارة أخرى بأزلية النور المحمدي (فالحقيقة المحمدية) أو (النور المحمدي) أو (الكلمة المحمدية) وهذا هو تعبير ابن عربي الصوفي عنها في فصوص الحكم (٤) فهو لا يقصد بذلك محمداً الرسول عليه الصلاة والسلام وإنما يقصد الحقيقة المحمدية التي يعدها أكبر مجلى خلقي ظهر فيه الحق ؛ بل يعده الإنسان الكامل ، والخلقة الكامل بأخص معانيه ، ويرى أنه قد انفرد بأنه مجلى للأسماء ، والصفات ، وهو الاسم الأعظم الذي هو الله) (٥) .

(١) أخبار الحلاج ص ٨٢ نقلاً عن الكشف عن حقيقة الصوفية ص ٢٦٣

(٢) انظر محبة الرسول ﷺ بين الاتباع والابتداع ص ١٧٣

(٣) محبة الرسول ﷺ بين الاتباع والابتداع ص ١٧٤ ، وانظر التصوف بين الحق والخلق لمحمد شفقة ص ٧٧

(٤) ص ٢١٤ (٥) انظر التعليقات على فصوص الحكم لأبي العلا عفيفي ص ٣١٩

ويبدو أن في هذا الوصف الإجمالي لما يسميه ابن عربي (الكلمة المحمدية) أو (الحقيقة المحمدية) عناصر مختلفة مستمدة من الفلسفة الأفلاطونية الحديثة ، والفلسفة المسيحية ، واليهودية ، مضافا إلى ذلك بعض أفكار من مذهب الإسماعيلية الباطنية ، والقرامطة ، فمزج جميع تلك العناصر على طريقته الخاصة ، فضيع بذلك معالم الأصول التي أخذ عنها ، وخرج على العالم بنظرية في طبيعة الحقيقة المحمدية ، لا تقل في خطرها ، وأهميتها في تاريخ الأديان عن النظريات التي وضعها المسيحيون في طبيعة المسيح ، أو النظريات اليهودية ، أو الرواقية ، أو اليونانية ^(١) .

ولهذا نجد غلاة الصوفية يعرفون الحقيقة المحمدية بأنها (هي الذات مع التعين الأول ، وهو الاسم الأعظم) ^(٢) .

ويرى بعض التجانية أن الحقيقة المحمدية في حقيقة أمرها لا تدرك ، ولا تعقل ^(٣) . ويقول صوفي آخر : (اعلم أن أنوار المكونات كلها من عرش ، وفرش ، وسماوات ، وأرضين ، وجنان ، وحجب ، وما فوقها ، وما تحتها ، إذا جمعت كلها وجدت بعضا من نور النبي ، وأن مجموع نوره لو وضع على العرش لذاب ، ولو وضع على الحجب السبعين التي فوق العرش لتهافتت ، ولو جمعت المخلوقات كلها ، ووضع ذلك النور العظيم عليها لتهافتت ، وتساقطت) ^(٤) .

ويقول صوفي آخر من الطريقة التجانية : (لما خلق النور المحمدي جمع في هذا النور المحمدي جميع أرواح الأنبياء ، والأولياء جميعا جمعا أحديا ، قبل التفصيل في الوجود العيني ؛ وذلك في مرتبة العقل الأول) ^(٥) .

فنظرة الصوفية للرسول ﷺ من هذا الجانب تتمثل في كونه (عين الوجود وواسطة عقده ، أخذ من أنوار الحق تعالى بقدر صفوه ، فالأخذ من الله تعالى بواسطة صلى الله عليه وسلم ولله المثل الأعلى ولرسوله في القوى كأخذ الضوء من الشمس بواسطة

(١) المرجع السابق ص ٣٢١

(٢) التعريفات للجرجاني ص ١٢٢ ، وانظر المراد بلفظ النور في معجم ألفاظ الصوفية لحسن الشراقوي ص ٢٧٦

(٣) انظر ميزاب الرحمة الربانية ص ١٠٨

(٤) الإبريز للديباغ ص ٢٧٢ ، وانظر جواهر المعاني ٢/ ٢٣٣

(٥) رماح حزب الرجيم ١/ ١٤ ، وانظر بغية المستفيد ص ٢٢٥ ، وانظر الرد عليهم في التجانية للدكتور علي بن محمد آل دخيل الله ص ١٦٤



الزجاجة، وهذا تشريف لهذه الأمة، وأي تشريف؛ لأنهم الآخذون بواسطته، والآخذ من الله تعالى من غير واسطته صلى الله عليه وسلم كأخذ الشيء من الشمس من دون واسطة الزجاج، وذلك لأن الرسول ﷺ هو النور الذي قبضه الله من قبضة نوره والحق تعالى هو سمعه، وبصره، وقلبه إلى آخره، فكله ﷺ نور مع أنه متحيز في بشريته، وفي عبوديته، والحق تعالى مطلق في كبريائه، وفي ملكوته، فلرسول الله ﷺ وجهتان وجهة إلى الحق تعالى، وهو المقام الذي قال تعالى فيه: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ﴾ (١) فأعاد الضمير بصيغة الإفراد . . . فهو ﷺ أقرب الكون إلى الله؛ بل فوق العرش الحجب سبعون حجاباً ما بين كل حجاب وحجاب مسافة سبعين ألف سنة، وغلظ كل حجاب سبعون ألف سنة، وفوق ذلك فضاء لا يعلم قدر مسافته إلا الله سبحانه وتعالى، وهو الذي يقال له عالم الرقا، وهو مظاهر أسماء الله، وهو فوق العرش، والكرسي، ووراء هذا كله نور سيد الكونين، والثقلين . . . وله ﷺ وجهة إلى الخلق . . . وجعله المرسل، والمرسل إليه . . . فهو ﷺ حقيقة الكون، كما أن الشجرة لها ورق، وغصون، وفروع، وعروق، وجذوع، وزهر، وثمر، وحقيقة الكل شجرة . . . فمن صفا قلبه من أمته ﷺ وتوجه به إلى الله بواسطة رسول الله (تفجر من قلبه ينابيع الحكمة، وأخذ قلبه أنوار العلم الإلهي، فقوي بقوة قابلية الواسطة ﷺ) (٢)

ويقول شاعرهم - مدعياً أن النبي ﷺ خلق من نور رب العالمين، وأنه وجد قبل خلق آدم عليه السلام، وأن الأشياء خلقت منه (٣) :-

أنشاك نورا ساطعا قبل الورى	فردا لفرد والبرية في عدم
ثم استمد جميع مخلوقاته	من نورك السامي فيا عظم الكرم
فلذا إليك الخلق تفزع كلهم	في هذه الدنيا وفي اليوم الأهم
وإذا دهتهم كربة فرجتها	حتى سوى العقلاء في ذاك انتظم

ومن صلواتهم المشهورة ما ذكره صاحب دلائل الخيرات من قوله: (اللهم صل على

(١) سورة التوبة الآية ٦٢

(٢) العقد النفيس في نظم جواهر التدريس لأحمد بن إدريس المغربي ص ١٨٦ وما بعدها (بتصرف).

(٣) دلائل الخيرات ص ٨٧

سيدنا محمد بحر أنوارك . . إنسان عين الوجود، والسبب في كل موجود، عين أعيان
خلقت المتقدم من نور ضيائك . . .^(١)، وقوله : (اللهم صل على سيدنا محمد نور الذات
وسره الساري في جميع الأسماء والصفات)^(٢) .
ويقولون أيضا شعرا^(٣) :-

محمد رويت بالنور طيبته محمد لم يزل نورا من القدم

ويقول عبدالسلام ابن مشيش^(٤) - في صلاته المعروفة عند الطريقة الشاذلية (بالصلاة
المشيشية) (اللهم صل على من منه انشقت الأسرار، وانفلقت الأنوار، وفيه ارتقت
الحقائق وتنزلت علوم آدم فأعجز الخلائق، وله تضائلت الفهوم، فلم يدركه منا سابق، ولا
لاحق، فرياض الملكوت بزهر جماله مونة، وحياض الجبروت بفيض أنواره متدفقة، ولا
شيء إلا وهو به منوط؛ إذ لولا الواسطة لذهب - كما قيل الموسط . . . اللهم إنه سر
الجامع الدال عليك، وحجابك الأعظم القائم لك بين يديك . . .)^(٥) .

ويقولون في صلاة أخرى : (اللهم إني أسألك بنير هدايتك الأعظم، وسر إرادتك
المكنون من نورك المطلسم، مختارك منك لك، قبل كل شيء، نورك المجرد بين مسالك
اللقى، كنزك الذي لم يحط به سواك، وأشرف خلقتك الذي بحكم إرادتك كونت من نوره
أجرام الأفلاك، وهياكل الأملاك فطافت به الصافون حول عرشك تعظيما وتكريما)^(٦) .

ونتج عن ادعاء الصوفية هذا أن أصل مادة النبي ﷺ التي خلق منها نور نتج عن هذا
الغلو زعمهم أنه ﷺ لم يكن له ظل في شمس، ولا قمر، وعلل كثير منهم - متقدمون

(١) دلائل الخيرات ص ٩٩ (٢) المرجع نفسه ص ٢١٤

(٣) انظر أنوار الحق في الصلاة على سيد الخلق لعبد المقصود سالم ص ٨٢

(٤) هو أبو محمد عبدالسلام بن مشيش - قيل في ضبط اسم أبيه بشيش بالوحدة، ثم اشتهر بمشيش بالميم انظر
الأعلام للزركلي ٩/٤ - بن أبي بكر بن منصور بن علي الإدريسي الحسني، تخرج على يده أبو الحسن الشاذلي
مؤسس الطريقة الشاذلية، صوفي مغربي اشتهر برسائله ((الصلاة المشيشية)) وفيها غلو زائد في حق الرسول
ﷺ، وقد احتفت بها الصوفية، وشرحها كثير منهم، ولد بشعر تطوان، وقتل فيه على يد أحد السحرة سنة
٦٢٢ هـ. انظر جامع كرامات الأولياء ٦٩/٢، والنبوغ المغربي لعبد الله كنون ١/١٦٠، والأعلام للزركلي ٩/٤
(٥) دلائل الخيرات ص ٢٥٩، وانظر شرحها بإعظام وإكرام وتزويق وتنميق في الإبريز ص ٢٦٨ وما بعدها، وانظر
الرد عليها في الكشف عن حقيقة الصوفية ص ٢٦٥، والتصوف في ميزان البحث والتحقيق لعبد القادر السندي
ص ٤١٠

(٦) نقل هذه الصلاة النبهاني عن سيدي محمد البكري في شواهد الحق ص ٣٤٦

ومتأخرون- ذلك بأن الأنوار الشفافة لا يكون لها ظل، ونجد التصريح بهذا المعتقد الباطل جليا عند طائفة البريلوية التي صنف إمامها عدة كتب أصل فيها هذه النظرة الغالية في حق الرسول ﷺ وأنه نور لا بشر، ولا ظليل، وأنه جسم شفاف، ومن تلك الكتب (١) :-

١- قمر التمام في نفي الظل عن سيد الأنام ﷺ.

٢- وصلاة الصفا في نور المصطفى ﷺ الذي يقول فيه: (اللهم لك الحمد يا نور، يا نور النور، يا نور قبل كل نور، ونور بعد كل نور، يا من له النور، وبه النور، ومنه النور، وإليه النور، وهو النور، صل وسلم، وبارك على نورك المنير الذي خلقت منه نورك، وخلقت من نوره الخلق جميعا) (٢).

فالنبي ﷺ في نظر البريلوية نور كله وجميع أعضائه نور، وليس له ظل؛ لأن النور لا يوجد له ظل (٣).

ولغلاة الصوفية المدافعين عن هذه النظرة الغالية في حق نبينا محمد ﷺ روايات لأحاديث يستدلون بها على تقدمه على الكون في الخلق، وكونه مخلوقا من نور إلى غير ذلك من الخرافات التي مرت الإشارة إليها، وكل تلك الروايات كذب واضح على صاحب الرسالة ﷺ، فمن الغلاة من ينسب إلى النبي ﷺ أنه قال: (من قال إني كلي بشر فقد كفر، ومن قال: (لست ببشر فقد كفر)، وهذا الحديث كذب باتفاق أهل العلم بالحديث (٤).

وكذلك قولهم إنه عليه الصلاة والسلام قال: (كنت نبيا، ولا آدم، ولا ماء ولا طين) (٥).

وهذا الحديث أيضا لا أصل له كما بين ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله (٦)، ومما قاله في رده: (هذا مما لا أصل له، لا من نقل، ولا من عقل؛ فإن أحدا من المحدثين لم

(١) انظر جهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبورية ٧١٩/٢

(٢) صلاة الصفا ص ٣ نقلا عن جهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبورية ٧٢٠/٢

(٣) انظر نفي الفيلسوف للبريلوي ص ٦ نقلا عن جهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبورية ٧٢١/٢

(٤) انظر الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ٢٠١/٢

(٥) فصوص الحكم لابن عربي الصوفي ص ٦٤

(٦) انظر الرد على البكري ص ٩، ومجموع الفتاوى ٢٣٨/٢

يذكره، ومعناه باطل؛ فإن آدم لم يكن بين الماء والطين قط؛ فإن الطين ماء، وتراب، وإغما كان بين الروح، والجسد، ثم هؤلاء الضلال يتوهمون أن النبي ﷺ كان حيثنذ موجودا، وأن ذاته خلقت قبل الذوات، ويستشهدون على ذلك بأحاديث مفتراة مثل حديث فيه (أنه كان نورا حول العرش فقال: يا جبريل، أنا كنت ذلك النور)^(١).

ومن تلك الروايات حديث: (كنت أول النبيين في الخلق، وآخرهم في البعث، فبدني قبلهم)^(٢).

ومنها حديث النور المنسوب إلى مصنف عبد الرزاق عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: (قلت يا رسول الله بأبي أنت وأمي أخبرني عن أول شيء خلقه الله قبل الأشياء؟ قال: (يا جابر إن الله تعالى خلق قبل الأشياء نور نبيك من نوره، فجعل ذلك النور يدور بالقدرة حيث شاء الله تعالى، ولم يكن في ذلك الوقت لوح، ولا قلم، ولا جنة، ولا نار، ولا ملك، ولا سماء، ولا أرض، ولا شمس، ولا قمر، ولا جني، ولا إنسي، فلما أراد أن يخلق الخلق قسم ذلك النور أربعة أجزاء:-

- ١- فخلق من الجزء الأول: القلم.
- ٢- ومن الثاني: اللوح.
- ٣- ومن الثالث: العرش.
- ٤- ثم قسم الجزء الرابع أربعة أجزاء.
- (أ) فخلق من الجزء الأول: حملة العرش. (ب) ومن الثاني: الكرسي.
- (ج) ومن الثالث: باقي الملائكة. (د) ثم قسم الجزء الرابع أربعة أجزاء:
- ١- فخلق من الأول: السماوات. ٢- ومن الثاني: الأرضين.
- ٣- ومن الثالث: الجنة والنار. ٤- ثم قسم الرابع أربعة أجزاء:-
- (أ) فخلق من الأول: أبصار المؤمنين.
- (ب) ومن الثاني نور قلوبهم، وهي المعرفة بالله تعالى.
- (ج) ومن الثالث: نور أنفسهم، وهو التوحيد، لا إله إلا الله محمد رسول الله)^(٣).

(١) الرد على البكري ص ٩، ومجموع الفتاوى ٢/ ٢٣٨٨

(٢) وهذا الحديث منكر الإسناد والمتن معا أيضا. انظر السلسلة الضعيفة ٢/ ١١٥

(٣) الأنوار المحمدية من المواهب اللدنية ص ١٣، وهذا الحديث مكذوب لا أصل له، وينسب كذبا إلى مصنف عبد الرزاق كما أنه لا يوجد في كتب السنة المعتمدة. انظر رسالة تنبيه الخذاق على بطلان ما شاع بين الأنام من حديث النور المنسوب لمصنف عبد الرزاق لمحمد أحمد عبد القادر الشنقيطي، وانظر كشف الخفاء للعجلوني ١/ ١١٣

وتفرع عن هذه النظرة الغالية للرسول ﷺ وأنه خلق من نور أن بعض الصوفية يرى أنه مرسل إلى الملائكة النورانيين واسطة من الله تعالى إليهم .

يقول علي الخواص : (وهل الأمر للملائكة بواسطة رسول أم من الله بلا واسطة؟ الذي أعطاه الكشف أن ذلك بواسطة رسول الله ﷺ لعموم رسالته في عالم الأرواح، وعالم الأجسام، فأرسل إلى ملائكة السماوات بالأمر فقط، وإلى ملائكة الأرض بالأمر والنهي كالثقلين^(١) .

وبعد أن رأينا ما يحتج به الصوفية لبيان (الحقيقة المحمدية) والتأكيد على أزلية النور المحمدي يتبدى لنا أن هذه الروايات كلها ساقطة، وأنه لا زمام لهذا المذهب، ولا خطام لهذه النظرة الغالية في حق خاتم النبيين ﷺ والمخالفة لنصوص الكتاب والسنة التي بينت بوضوح الأصل الذي خلق منه الإنسان والجان، فقال تعالى : ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ (١٤) وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ ﴾^(٢)، كما أنها أكدت بأساليب لم تدع مجالاً لسريان الغلو في العقيدة على أن النبي ﷺ بشر خلق مما خلق منه باقي البشر، قال تعالى : ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴾^(٣) إلى غير ذلك من الآيات المحكمة، والأحاديث الثابتة^(٤) .

ونحن حين ننفي ما تدعيه الصوفية من أن محمداً ﷺ نور ليس معنى ذلك أننا نعارض ما جاء في القرآن الكريم من وصفه ﷺ بأنه نور، كما قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴾^(٥)، وقال تعالى في الآية الأخرى مخاطباً أهل الكتاب : ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴾^(٦)

قال الإمام ابن جرير في تفسير هذه الآية : (يقول جل شأنه لهؤلاء الذين خاطبهم من أهل الكتاب : قد جاءكم يا أهل التوراة، والإنجيل من الله نور؛ يعني بالنور محمداً ﷺ الذي أثار الله به الحق، وأظهر به الإسلام، ومحق به الشرك، فهو نور لمن استنار به، يبين الحق)^(٧) .

(١) الجواهر والدرر مطبوع بهامش الإبريز ص ١٩٢

(٢) سورة الرحمن الآيتان (١٤ - ١٥) .

(٣) سورة الإسراء الآية ٩٣

(٤) راجع ما سبقت مناقشته في مبحث الحكمة في كون الواسطة من البشر .

(٥) سورة الأحزاب الآيتان (٤٥ - ٤٦) .

(٦) سورة المائدة الآية ١٥

(٧) تفسير الطبري ٤/ ١٠٤ على أن هناك من العلماء من يرى أن قوله تعالى ﴿ نور ﴾ في هذه الآية هو وصف للقرآن الكريم . انظر تفسير ابن كثير ٢/ ٣٥، وتفسير السعدي ٢/ ١٢٦

فبينما صلى الله عليه وسلم نور كما وصفه القرآن بذلك ، ورسالته التي بعثه الله بها نور يبدد ظلام المعمورة ، فهو صلى الله عليه وسلم هاد لمن اتبعه منير له طريق الهداية ومضيء له سبيل الرشاد يأذن ربه ^(١) ، وهذا المعنى هو الذي قصده الشاعر كعب بن زهير رضي الله عنه في قوله بحضور النبي صلى الله عليه وسلم ^(٢) :-

إن الرسول لسيف يستضاء به مهتد من سيوف الله مسلول

فالنبي ﷺ نور بالمعنى القرآني ؛ لا كما تزعم الصوفية بالنور الخرافي المصادم لحقيقته البشرية .

ثانياً: اعتقادهم أن الكون خلق من أجل النبي ﷺ وهذا الاعتقاد حصل نتيجة لنظرتهم السابقة للرسول ﷺ فكما أنه صلى الله عليه وسلم -في نظرهم- قبضة من نور الله ، وأنه أسبق الكون وجوداً ، وأن مظاهر هذا الكون بأجمعها انبجست من نوره عليه الصلاة والسلام بعد التعيين ، فالنتيجة أن الله سبحانه وتعالى خلق هذا الكون من أجل محمد ﷺ ، ولولا محمد ﷺ ما خلقت الدنيا ، ولا دحيت أرض ، ولا رفعت سماء ، ولا أضاءت شمس ، ولا قمر ، ولا خلق الله بشراً ، ولا بعث إليهم رسلاً ، ولا أنزل وحياً ^(٣) ، فإذاً يجب طلب المدد من النبي ﷺ ؛ لأنه الواسطة والأصل الذي يستمد منه ، واسمع إلى شاعرهم يقول ^(٤) :-

لولاه ما خلقت شمس ولا قمر ولا نجوم ولا لوح ولا قلم

ويقول آخر من فصيلته وعلى شاكلته ^(٥) :-

وكيف تدعو إلى الدنيا ضرورة من لولاه لم تخرج الدنيا من العدم؟

ويقول أيضاً ^(٦) :-

فإن من جودك الدنيا وضرتها ومن علومك علم اللوح والقلم

ويستدل هؤلاء الغلاة على معتقدتهم الفاسد في النبي ﷺ بأحاديث موضوعة ، وأخبار

(١) انظر محبة الرسول ﷺ بين الاتباع والابتداع ص ١٩١

(٢) انظر قصيدة البردة لكعب بن زهير رضي الله عنه شرح ابن الأنباري ص ٧٨

(٣) انظر جواهر البحار في فضائل النبي المختار للنبيهاني ٣/ ٣٠٤

(٤) ذكره عنهم صاحب تنبيه الخذاق ص ٢٧

(٥) انظر ديوان البوصيري ص ٢٤٠

(٦) انظر قصيدة البردة في آخر كتاب دلائل الخيرات ص ٢٦١

مكذوبة منها حديث : (لولاك لولاك ما خلقت الأفلاك) وهو حديث موضوع ^(١).

وأمثال هذا الحديث من الأحاديث الموضوعية لا يعول عليها ، ولا يستند عاقل في معتقده عليها مع العلم أنها مصادمة للشرع ، ومخالفة للعقل ؛ لأن الذي تدل عليه النصوص الشرعية من الكتاب والسنة أن الله عز وجل إنما خلق خلقه إنسه وجنه لغاية ذكرها في القرآن الكريم ، وهي العبادة ، فقال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ ^(٢).

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية : (معنى الآية أنه تبارك وتعالى خلق العباد ليعبدوه وحده لا شريك له ، فمن أطاعه جازاه أتم الجزاء ، ومن عصاه عذبه أشد العذاب) ^(٣). وقال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ ^(٤) ، فصرح الله جل وعلا في هذه الآية الكريمة بالحكمة من خلق الخليقة أولاً ، وبعثهم ثانياً ، وهي امتحانهم ، وابتلاؤهم ليميز المحسن فيجازى بإحسانه ، ويتبين المسيء فيؤاخذ بإساءته ^(٥).

ومن غلوهم الزائد في الرسول ﷺ ادعائهم أنه كان لا ينام كقول بعضهم ^(٦) : -

قم قم يا حبيبي كم تام خالق الخلق لا ينام

قم قم يا حبيبي كم تام محمد رسول الله لا ينام

ثالثاً: دعواهم جواز صرف شيء من أنواع العبادة له ﷺ ^(٧). وقد تفنن الغلاة في هذه النظرة ، فمن قائل إنه يستغاث به في كل ما يستغاث فيه بالخالق جل وعلا ؛ بمعنى أنه يطلب منه كما يطلب من الخالق (ومن جعل الرسول ﷺ يطلب منه الناس ما يطلبونه من الله تعالى فقد آذى الرسول ﷺ وأساء في حقه ، وسلط عليه العامة على اختلاف أغراضهم ؛ هذا يطلب منه إنزال المطر ، وهذا يطلب منه غفران الذنوب ، وهذا يطلب منه النصر على

(١) انظر الأحاديث الموضوعية للصنعاني ص ٧ ، وكشف الخفاء ٢/ ٢٢٢ ، والفوائد المجموعة في الأحاديث

الموضوعة للشوكانى ص ٣٢٦ ، وسلسلة الأحاديث الضعيفة للالباني برقم ٢٨٢

(٢) سورة الذاريات الآية ٥٦

(٣) تفسير ابن كثير ٤/ ٢٥٥ ، وانظر تفسير الشيخ السعدي ٨/ ٣٠

(٤) سورة هود الآية ٧ (٥) انظر أضواء البيان ٣/ ١٠

(٦) انظر الوظائف كتاب أدعية وسور قرآنية لمحمدي أبييري البنجلاديشي ص ٩٦

(٧) وهذا الاعتقاد نتيجة لما سبق من ادعائهم أنه ﷺ نور قبضه الله من نوره ، وأن الموجودات خلقت من نوره ﷺ ، وأن هذا الكون بمظهره خلق من أجله ، فهو الواسطة الذي يجب التعلق به ، والاستنجاد به ، والاستمداد منه .

الأعداء، وهذا يطلب منه أن يتزوج، وهذا يطلب منه الولد، وهذا يطلب منه المعيشة، وهذا يطلب منه الملك، وهذا يطلب منه الولاية... وهذا يطلب منه قضاء دينه... فتزولوا المخلوق منزلة الإله، وطلبوا منه من جلب المنافع، ودفع المضار ما لا يقدر عليه إلا الله تعالى^(١).

يقول البوصيري^(٢) في البردة التي يترجم بها الملايين في العالم الإسلامي^(٣) :-

يا أكرم الخلق مالي من ألوذ به سواك عند حلول الحادث العمم
ولن يضيق رسول الله جاهك بي إذا الكريم تجلى باسم منتقم
فلن لي ذمة منه بتسميتي محمدا وهو أوفى الخلق بالذم
إن لم يكن في معادي آخذا بيدي فضلا وإلا فقل يا زلة القدم

نفى أن يكون له ملاذ إذا حلت به مصيبة إلا النبي ﷺ وليس ذلك إلا لله وحده لا شريك له، فهو الذي ليس للعباد ملاذ إلا إياه، وهذا في حقيقة الأمر شرك في الألوهية^(٤).

ومن شعر بعضهم قوله^(٥) :-

ما ذا تعامل يا شمس النبوة من أضحى إليك من الأشواق في كبد
فامنع جناب صريع لا صريح له ناء المزار غريب الدار مبتعد
حليف ودك واه الصبر منتظر لغارة منك يا ركني ويا عضدي
أسير ذنبي وزلاتي ولا عمل أرجو النجاة به إن أنت لم تجدد

ثم تراكم الغلو في قلبه حتى طفح على لسانه فقال :-

وحل عقدة كربى يا محمد من هم على خطرات القلب مطرد

(١) تلخيص كتاب الاستغاثة ٢/٦٤٦

(٢) هو أبو عبد الله محمد بن سعيد بن حماد بن محسن الصنهاجي البوصيري، صوفي ناظم من مصنفاته ((قصيدة الكواكب الدرية في مدح خير البرية)) المعروفة بالبردة، توفي سنة ٦٩٤ هـ، انظر شذرات الذهب ٥/٤٢٨، ومعجم المؤلفين ١٠/٢٨

(٣) انظر قصيدة البردة مطبوعة في آخر كتاب دلائل الخيرات ٢٦١

(٤) انظر تيسير العزيز الحميد ص ٢٢٢، وصيانة الإنسان ص ٨٥، وتقديس الأشخاص في الفكر الصوفي ٢/١٥

(٥) انظر ديوان البرعي ص ١٤٦.

أرجوك في سكرات الموت تشهدني
وإن نزلت ضريحا لا أنيس به
وارحم مؤلفها عبد الرحيم ومن
وإن دعا فأجبه واحم جانبه
وقال من قصيدة أخرى^(١) :-

يا سيدي يا رسول الله يا أملّي
هبنى بجاهك ما قدمت من زلل
واسمع دعائي واكشف ما يساورني
فأنت أقرب من ترجى عواطفه
إني دعوتك من ينا بتي برع
فامنع جنابي وأكرمني وصل نسبي
ويقول البكري من قصيدة له^(٢) :-

ما أرسل الرحمن أو يرسل
في ملكوت الله أو ملكه
إلا وطه المصطفى عبده
واسطة فيها وأصل لها
ولذ به في كل ما ترتجي
وناده إن أزمة أنشبت
يا أكرم الخلق على ربه
قد مسني الكرب وكم مرة
فبالذي خصك بين الوري

من رحمة تصعد أو تنزل
من كل ما يختص أو يشمل
نبيه مختاره المرسل
يعلم هذا كل من يعقل
فإنه المأمّن والمعقل
أظفارها واستحكم المعضل
وخير من فيهم به يسأل
فرجت كربا بعضه يعضل
برتبة عنها العلا تنزل

(١) انظر ديوان البرعي

(٢) انظر شواهد الحق ص ٣٨٩، وأورد هذه القصيدة محمد بن علوي المالكي في الذخائر المحمدية ١/١٥٨ وقال
إنها مجربة لقضاء الحوائج وتقرأ آخر الليل مكررا للبيت الأخير ثلاثا وسبعين مرة، نقلنا عن محبة الرسول بين
الاتباع والابتداع ص ١٩٩

عجل بإذهاب الذي أشتكي فإن توقفت فمن أسأل

وهذه النظرة الغالية غالبا ما توجد في أشعار المادحين لسيد المرسلين صلى الله عليه وسلم^(١) الذين جاوزوا الحد في مدحه عليه الصلاة والسلام وعصوه في نهيه من الغلو فيه، وإطرائه كما أطرت النصارى المسيح ابن مريم، وصار حظهم منه صلى الله عليه وسلم هو مدحه بالأشعار والتغني بالقصائد الغالية، والإطراء الزائد مع عصيانهم له في أمره، ونهيه^(٢)، وهذا بعينه هو الذي ادعته النصارى في عيسى عليه السلام؛ إلا أن أولئك أطلقوا عليه اسم الإله، وهؤلاء لم يطلقوه عليه؛ لكنهم أتوا بلباب نظرتهم، وخلاصتها، وتركوا الاسم؛ إذ في الاسم نوع تمييز، فرأى الشيطان أن الإتيان بالمعنى دون الاسم أقرب إلى ترويح الباطل، وقبوله عند ذوي العقول السخيفة؛ إذ كان متقدرا عند أمة محمد ﷺ أن دعوى النصارى في عيسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام كفر، فلو أتاهم بدعوى النصارى اسما ومعنى لردوه، وأنكروه، فأخذ المعنى، وأعطاه هؤلاء الشعراء، وترك الاسم للنصارى، وإلا فما ندري ماذا أبقى هؤلاء الشعراء بهذا الغلو الزائد للخالق تعالى وتقدس من سؤال مطلب، أو تحصيل مأرب، فالله المستعان^(٣).

وينقل النبهاني عن أحد شيوخه أنه سئل عن الاستغاثة بالأنبياء، والأولياء فقال: (ربما جعل الله تبارك وتعالى لهم التصريف في قبورهم بحسب صدق من توجه إليهم... وقد استدارت أبواب جميع الأولياء رضي الله تعالى عنهم لتغلق، وما بقي مفتوحا إلا باب سيد المرسلين ﷺ وزاده فضلا، وشرفا لديه، فمن كان له حاجة فليصل على النبي ﷺ ألف مرة بتوجه تام يسأله في قضاء حاجة؛ فإنها تقضى إن شاء الله تعالى)^(٤).

ويقول صاحب المواهب اللدنية: (وينبغي للزائر أن يكثر من الدعاء، والتضرع، والاستغاثة، والتشفع، والتوسل، والتوجه به صلى الله عليه وسلم فجدير بمن استشفع به أن يشفعه الله تعالى فيه؛ فإن كلا من الاستغاثة، والتوسل، والتشفع، والتوجه للنبي (...). واقع في كل حال قبل خلقه، وبعده، في مدة حياته في الدنيا، وبعد موته في مدة

(١) ومن أراد أن يقف على كومة من هذا الغلو المرفوض شرعا فلينظر في كتاب شواهد الحق للنبهاني فإنه جمع عدة قصائد من هذا النوع، انظر ص ٣٥٠

(٢) وقد اعتبر الشوكاني...

(٣) انظر تيسير العزيز الحميد ص ٢٢٥، وحقوق النبي (على أمته للدكتور التميمي) ٢/ ٧١٨

(٤) شواهد الحق ص ١٤٩

البرزخ، وبعد البعث في عرصات القيامة^(١).

ثم استمع إلى النهاني - وهو يقرر ويوجه مسألة الاستغاثة بالنبي ﷺ فيقول: (فقد ظهر من هذا أن استغاثة المستغيثين به صلى الله عليه وسلم تحيى على معنيين: أحدهما: أن يسأل المستغيث الله تعالى بالنبي ﷺ، أو بجاهه، أو بحقه، أو ببركته أن يقضي حاجته، فالمستغيث على هذا هو الذي يدعو الله تعالى ويجعل واسطة القبول عنده عز وجل نبيه الأعظم، وحبيبه الأكرم صلى الله عليه وسلم، والمعنى الثاني: أن يسأل المستغيث النبي ﷺ ليدعو الله تعالى وليسأله قضاء حاجته؛ لأنه حي في قبره كما يسأله الناس الشفاعة يوم القيامة فيشفع لهم، وكما سأله الناس في حياته الدنيوية الدعاء بالاستسقاء، وغيره فدعا لهم بالسقيا، وغيرها فاستجاب الله له، وجميع الاستغاثات الواقعة في كتابي هذا لا تخلو عن هذين المعنيين^(٢).

ويقول محمد بن علوي المالكي: (فإن قالوا: إن الممنوع إنما هو سؤال الأنبياء، والصالحين من أهل القبور في برازخهم؛ لأنهم غير قادرين، وقد سبق رد هذا الوهم مبسوطا وإجمالا: إنهم أحياء قادرون على الشفاعة، والدعاء، وحياتهم حياة برزخية لا ثقة بمقامهم يصح بها نفعهم بالدعاء، والاستغفار، والمنكر لذلك أخف أحواله أنه جاهل بما كاد يلحق بالمتواتر من سنته عليه الصلاة والسلام الدال على أن موتى المؤمنين لهم في حياتهم البرزخية العلم، والسماع، والقدرة على الدعاء، وما شاء الله من التصرفات، فما الظن بأكابر أهل البرزخ من النبيين، وسائر الصالحين؟^(٣).

ومن غلاة الصوفية من يرى أن زيارة قبر النبي ﷺ أفضل من الحج إلى بيت الله الحرام، وأن الاستغاثة به أنجح، وأنفع من الاستغاثة بالله تعالى، ودعائه^(٤).
ومنهم من يقول: (إن النبي ﷺ لا يخلو منه زمان ولا مكان) ومرادهم بذلك أنه ما من زمان إلا وهو فيه موجود، ولا من مكان إلا وهو فيه موجود^(٥).

ويدعون أنه صلى الله عليه وسلم يحضر كل مجلس، أو مكان أراد بجسده، وروحه،

(١) الأنوار المحمدية من المواهب اللدنية ص ٦٠٤

(٢) شواهد الحق ص ١٤١، وانظر الرد عليه في غاية الأمانى ٣٨/٢، ٢٧٣، ٣٤١

(٣) مفاهيم يجب أن تصحح ص ١٨٠، وراجع ص ١٦٨، وانظر الرد عليه في هذه مفاهيمنا ص ١٢٣، وحوار مع

المالكي ص ٨٠ (٤) انظر تلخيص كتاب الاستغاثة ٦٧٣/٢

(٥) انظر غاية الأمانى ٤٨/١

وأنة يتصرف ويسير حيث شاء في أقطار الأرض ، وفي الملكوت ، وهو بهيئته التي كان عليها قبل وفاته لم يتبدل منه شيء ، فإذا أراد الله أن تراه عين رفع عنه الحجاب فيراه على هيئته التي كان عليها^(١).

ويقول زعيم البريلوية : (إن كل مفاتيح الكون في يد رسول الله ﷺ وهو مالك الكل ، والنائب الأكبر للقادر وهو الذي يملك كلمة كن . . وهو المبرئ من السقم ، والآلام ، والكاشف عن الأمة كل خطب ، وهو المحيي ، وهو الدافع عن^(٢) المعضلات ، والنافع للخلق ، والرافع للمراتب ، وهو الحافظ ، والناصر ، وهو دافع البلاء ، أيضا وهو الذي أبرد على الخليل النار ، وهو الذي يهب ، ويعطي ، وحكمه نافذ ، وأمره جار في الكونين)^(٣) .
ومن شعره في النبي صلى الله عليه وسلم قوله^(٤) : -

منه الرجا منه العطا منه المدد في الدين والدنيا والاخرى للأبد

ويزعم أيضا أن النبي ﷺ متصرف في الكون ، وأنه يوجد في كل مكان ، وأن اسمه مكتوب على العرش ؛ ليعلم أن العرش ملكه^(٥) . . . إلى غير ذلك من الكفر الواضح ، والاعتقاد الفاضح .

ومن الغلاة من يقول في قول الله تعالى : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾^(٦) لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعَزَّوْهُ وَتُقِرُّوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا^(٧) ، يقول إن الرسول ﷺ هو الذي يسبح بكرة وأصيلًا . ومنهم من يقول : اسقط الربوبية ، وقل في الرسول ما شئت ، كما قال قائلهم^(٧) : -

دع ما ادعته النصارى في نبيهم واحكم بما شئت مدحا فيه واحكم

ومنهم من يقول : نحن نعبد الله ورسوله ، فيجعلون الرسول ﷺ معبودا^(٨) ، ولم يقف

(١) انظر رماح حزب الرحيم للفرقي ٢١٩/١ مطبوع بهامش جواهر المعاني لعلي حرازم ، وانظر الرد عليه في

مشتهى الخارف الجاني لمحمد الخضر الجكني الشنيطي ص ٩١

(٢) هكذا في النص ، ولعل الأنسب للسياق (الدافع للمعضلات) .

(٣) الاستمداد على أجيال الارتداد للبريلوي ص ٢٩ ، وما بعدها نقلا عن البريلوية لإحسان إلهي ظهير ص ٦٨

(٤) انظر الأمن والعلى للبريلوي ص ١٠٥ نقلا عن البريلوية لإحسان إلهي ظهير ص ٦٨

(٥) انظر مواعظ نعيمية ص ٢٧ نقلا عن البريلوية لإحسان إلهي ظهير ص ٦٩ ، وانظر المهند على المغند لخليل أحمد

إلياس ص ١٤ (٦) سورة الفتح الآيتان (٨-٩) .

(٧) انظر قصيدة البردة للبوصيري مطبوعة في آخر كتاب دلائل الخيرات ص ٢٤٢

(٨) انظر تلخيص كتاب الاستغاثة ١/٤٢٨

الغلاة عند هذا الحد حتى اعتقدوا أنه الله ذاتا وصفة^(١).

واسمع إلى أحدهم يقول: (شأن محمد في جميع تصرفاته شأن الله، فما في الوجود إلا محمد، لا يدري لحقيقته غاية، ولا يعلم لها نهاية، فهو من الغيب الذي نؤمن به، ولما كانت بشرته صلى الله عليه وسلم نورا محضا كانت فضلاته مقدسة طاهرة، ولم يكن لجسمه ظل كالأجسام الكثيفة، وهذا النور المحمدي هو المعني بروح الله المنفوخ في آدم، فروح الله نور محمد)^(٢).

وهكذا يفعل الغلو بصاحبه؛ فإنه ما يزال ينحدر به حتى يوقعه في مستنقع الشرك وجحيم الكفران، وهذا بعينه هو ما حصل لغلاة الصوفية في نظرهم لرسول الله ﷺ فإنهم تجاوزوا تعظيمه صلى الله عليه وسلم التعظيم الشرعي إلى التوسل به توسلا بدعيا، ثم لم يكتف منهم إبليس بهذا القدر حتى زين لهم دعاءه في الملمات، وطلبوا منه قضاء الحاجات، فلم يكتفوا بالدعاء بالواسطة مع ما فيه حتى دعوا الواسطة نفسها؛ من أجل ذلك بالغوا (في تعظيمه صلى الله عليه وسلم حتى رأوا أن الطواف بقبره، والتمسح بترابه، والسجود له من القربات التي يتقرب بها إلى الله عز وجل، واعتقدوا أنه ينفع، ويضر، ويعطي، ويمنع، وأنه يفرج الكربات، وأنه يشفع فيمن يشاء، ويدخل الجنة من يشاء، وهذا غلو منهم، ومبالغة ممقوتة تؤدي بصاحبها إلى الشرك، والانسلاخ الكامل من الدين إن لم يتب منها)^(٣).

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (والله تعالى لم يأذن لنا أن نسأل ميتا حاجة؛ لا نبيا، ولا غيره، ولا نطلب منه جلب منفعة، ولا دفع مضرة، ولا أن نقصد بزيارة قبره إجابة دعائنا، بل شرع لنا الإيمان بهم، وبما جاءوا به، والسلام عليهم، فالذي شرع لنا في حق الرسل فيه تحقيق توحيد الله وحده، وتحقيق طاعتهم، وفيه مزيد الرحمة لهم، ورفع الدرجة، والرضوان لنا ولهم، والأنبياء لا ينقص عند الله جاههم بموتهم، بل هم في مزيد كرامة الله، وإحسانه إليهم، ورفع الدرجات لهم عند الله، وليس في هذا ما يوجب أن نطلب منهم الحاجات بعد الموت كما كانت تطلب منهم في الحياة، ولا أن يؤمروا، وينهوا،

(١) انظر هذه هي الصوفية ص ٧٥

(٢) النفحات الأقدسية للبيطار ص ٩ نقلا عن هذه هي الصوفية ص ٧٧

(٣) مظاهر الانحرافات العقدية عند الصوفية ص ١٤٧

ونحو ذلك؛ إذ قد علم بالاضطرار انقطاع هذا الحكم عن جميع الأموات، فيظن هؤلاء الجهال الضلال أن مسألتهم، والطلب منهم هو من باب رفع قدرهم، وكذبوا، ليس الأمر كذلك، وإنما ذلك من باب التكليف لهم، وهم يشابون على ذلك، والمكلف لهم المؤذي يتضرر بذلك، ويعذب به، وإذا طلب سائلهم منهم حاجته لم يكن ذلك سببه جاههم؛ فإن ذلك يطلب ممن لا جاه له عند الله^(١).

وبعد أن بينا نظرة الصوفية للرسول ﷺ ونقلنا من كتبهم المعتمدة عندهم هذه المقولات التي تطفح بالغلو، وترشح بالشرك، والعياذ بالله نقول: إن العوام في زماننا هذا قد تأثروا بما سطرته الصوفية في كتبهم، ومن يأت قبر النبي ﷺ وينصت للواقفين حوله يسمع من ذلك الكلام أقوالاً، وير من أولئك الواقفين أحوالاً تذكرنا بالنصوص المنقولة عن غلاة الصوفية آنفاً، والتي توضح بجلاء نظرتهم الغالية لخاتم النبيين صلى الله عليه وسلم^(٢)، وزعمهم أنه واسطة في الدعاء، والرجاء، وسائر أنواع العبادات.

(١) تلخيص كتاب الاستغاثة ٢٢٩/١

(٢) وقد لاحظ ذلك وشاهده محمد بن سلطان المعصومي الحنفي فألف رسالته "المشاهدات المعصومية عند قبر خير البرية" انظر ص ٧٣

المبحث الثاني

مقام النبوة والولاية عند الصوفية

توطئة:

النبوة: خبر خاص يكرم الله به من يصطفيه من عباده ليطلعه على شريعته بما فيها من الأوامر، والنواهي، والوعظ، والإرشاد، والوعد، والوعيد^(١).

وهذه الرسالة سفارة العبد بين الله تعالى وبين ذوي الأبواب من خلقه ليصلح بها مناحي حياتهم، ومصالحهم الدنيوية، والأخروية^(٢).

أما الولاية فهي: (مرتبة في الدين عظيمة، لا يبلغها إلا من قام بالدين ظاهرا وباطنا)^(٣).

وقيل: الولاية في الشرع هي: الإيمان والتقوى^(٤)، وللولاية الصحيحة جانبان:

أ - جانب يتعلق بالعبد، وهو قيامه بأوامر الله تعالى، واجتناب نواهيه، ثم التدرج في مراقبي العبودية بالنوافل، وشتى صور العبادات.

ب - وجانب يتعلق بالله سبحانه وتعالى، وهو محبة هذا العبد، ونصرته، وهدايته، وتثبيته على الهداية.

قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(٥)، هذه من جانب الرب سبحانه وتعالى،: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾^(٦)، وهذه من جانب العبد^(٦).

وذكر الإمام ابن كثير أن الأولياء هم الذين جمعوا بين الإيمان، والتقوى، كما فسرهم ربهم، فكل من كان تقيا كان لله وليا^(٧)؛ ولهذا قال الإمام الشافعي: (إذا لم يكن العلماء أولياء فليس لله تعالى ولي)^(٨).

(١) انظر المنهاج في شعب الإيمان للحليمي ١/٢٣٩، وشعب الإيمان للبيهقي ١/١٥٠

(٢) انظر بصائر ذوي التمييز للفيروز آبادي ٥/١٥، ومقدمة تحقيق دلائل النبوة لقوام السنة تحقيق مساعد الحميد ١٩/١٩ / ومعارج القبول ٢/٤٩١

(٣) مقدمة تحقيق كرامات أولياء الله عز وجل لللكاني تحقيق فضيلة شيخنا الدكتور أحمد سعد حمدان الغامدي ص ٧

(٤) انظر إلى التصوف يا عباد الله للشيخ أبي بكر الجزائري ص ٣٦، والإنصاف في حقيقة الأولياء للصنعاني ص ٩

(٥) سورة يونس الآية ٦٢

(٦) انظر مقدمة تحقيق كرامات أولياء الله عز وجل ص ٨ (٧) انظر تفسير ابن كثير ٢/٤٣٨

(٨) مشتهى الخارف الجاني ص ٤٨٩

وقد نظم هذا المعنى المختار بن بونة الجكني رحمه الله^(١) في كتابه الوسيلة، فقال^(٢):-

والأولياء المؤمنون الأتقياء فالعلماء العاملون أولياء

فكل من اتقى الله تعالى مؤمناً فهو من أولياء الله تعالى، وقد دخل في الآية، وهذا هو الذي تقتضيه الشريعة في الولي^(٣). فالولي الذي يوالي عبادته، وطاعته تجري من غير أن يتخللها عصيان مقصود من شروطه:

- ١- أن يكون عالماً بأصول الدين حتى يفرق بين الخالق والمخلوق، وبين النبي، والمتنبي.
- ٢- وأن يتصف بالأخلاق الحميدة التي دل عليها الشرع، والنظر من الورع عن المحرمات؛ بل والمكروهات، وامثال الأوامر الشرعية، وإخلاص العمل لله تعالى.
- ٣- وأن لا يتعلق قلبه بما سوى الله تعالى.

- ٤- وأن يكون حسن المتابعة للنبي ﷺ والاقتداء بسنته في كل صغيرة، وكبيرة.
- ٥- وأن يلازمه الخوف أبداً، ويحتقر نفسه سرمداً، وأن ينظر إلى الخلق بعين الرحمة، والنصيحة، وأن يبذل جهده في مراقبة محاسن الشريعة وتطبيقها، ومطالعة عيوب النفس وأفاتها، والوجل من سوء الخاتمة^(٤).

يقول العلامة شهاب الدين الألوسي: (وأحسن ما يعتمد عليه في معرفة الولاية اتباع الشريعة الغراء، وسلوك المحجة البيضاء، فمن خرج عنها قيد شبر بعد عن الولاية بمراحل، فلا ينبغي أن يطلق عليه اسم الولي، ولو أتى بألف ألف خارق، فالولي الشرعي اليوم أعز من الكبريت الأحمر، ولا حول ولا قوة إلا بالله:

أما الخيام فإنها كخيامهم وأرى نساء الحي غير نساها)^(٥)

ومهما بلغ الولي -الولاية الشرعية- من الصلاح، والفلاح، ومهما ترقى في منازل الولاية حتى يبلغ ذروتها فإنه لا يبلغ منزلة النبوة، ولا يقاربها، ولا يزاحمها.

(١) هو المختار بن بونة الجكني تاج العلماء في عصره في بلاد شنقيط، لا يوجد عالم بعده إلا وله الفضل عليه، كان لا يجارى في النحو والكلام، من أنفع ما ألف نظمته الذي سمّاه ((الاحمرء على الألفية))، كان حياً في أوائل القرن الثالث عشر الهجري. انظر الوسيط في تراجم أدباء شنقيط لأحمد بن الأمين الشنقيطي ص ٢٧٧

(٢) انظر: الفوائد الكفيلة بمعرفة الوسيلة لمحمد بن الحسن الخديم ص ٣١

(٣) انظر مشتهى الخارف الجاني ص ٤٦٥

(٤) انظر لوامع الأنوار ٣٩٧/٢، ومشتهى الخارف الجاني ص ٤٨٢، وولاية الله والطريق إليها ص ١٠٩

(٥) روح المعاني ١٤٩/١١

وإذا كان الصوفية يؤمنون بالنبوة حسب تعريفنا السابق في الجملة؛ فإنهم نظروا إلى الولاية نظرة مخالفة للشرع، ومصادمة للنص، فجعلوها دائرة يدخل فيها التقي، وغير التقي، فكل من ظهر على يديه أمر خارق للعادة، أو زعموا أن فيه سرا إلهيا أو انتسب إلى سلسلة المشايخ، أو أرباب الطرق فهو الولي عندهم الذي تولى الله تعالى أمره وجعل فيه سره، فهو مطلع على ملكوت السموات، مشاهد للأفعال، والصفات؛ ولهذا عرفوا الولاية بأنها (قيام العبد بالحق عند الفناء عن نفسه، والولي: هو من توالى طاعته من غير أن يتخللها عصيان، أو من يتوالى عليه إحسان الله، وإفضاله، وهو العارف بالله، وصفاته، بحسب ما يمكن المواظب على الطاعات، المجتنب عن المعاصي، المعرض عن الانهماك في اللذات، والشهوات)^(١).

وقد سئل شيخ الطريقة التجانية عن الولي فقال: (الولي: من تولى الله أمره بالخصوصية، مع مشاهدة الأفعال، والصفات)^(٢).

وهذا التعريف الغامض للولي ما هو سره؟ (السِر في غموض تعريف القوم للولي هو احتكارهم للفضائل كي لا تكون لغيرهم من سائر المؤمنين، والمسلمين، وبذلك تختص الولاية بمشايخ الطرق، المأذون لهم في إعطاء الورد، والتربية الخلوية، ومن هنا كان الولي عند الصوفية لا يعرفه إلا الخواص، أما عامة المسلمين فلا سبيل لهم إلى معرفة الولي، يشهد لهذه الحقيقة ويقررها ما يلي: سئل التجاني عن الله تعالى، وعن الولي أيهما معرفته أصعب؟ فقال: معرفة الولي أصعب من معرفة الله تعالى.

وأبعد المرسي^(٣) -وهو من أئمة الصوفية- في تعريف الولي حتى قال: إن الولي لو كشف للناس لعبده؛ لأن حقيقة الولي أنه يسلب من جميع البشرية ويتخلّى بالأخلاق الإلهية ظاهرا وباطنا، ولذا لو كشف الولي للعبد لعبده، وقالوا: إن دائرة الولي أوسع من دائرة النبي، وهذا تفضيل منهم للولي على النبي بأسلوب خفي^(٤).

(١) التعريفات للجرجاني ص ٣٢٩، وانظر الرسالة القشيرية ص ٣٥٩، ومعجم مصطلحات الصوفية لعبد المنعم حنفي ص ٢٦٩

(٢) إلى التصوف يا عباد الله ص ٣٦

(٣) هو أبو العباس أحمد بن عمر شهاب الدين المرسي الصوفي، تلميذ شيخه الشاذلي الصوفي، أصله من مرسية في الأندلس، وعاش في الإسكندرية، وللمصريين فيه اعتقاد عظيم، ومن أقواله الشنيعة قوله: ((لو كان الحق سبحانه وتعالى يرضيه خلاف السنة لكان التوجه في الصلاة إلى القطب الغوث الواسطة أولى من التوجه إلى الكعبة. مات سنة ٦٨٦ هـ. انظر طبقات الشعراني ١٢/٢، والأعلام ١٨٦/١

(٤) إلى التصوف يا عباد الله ص ٣٧

وتراهم يعظمون من شأن الولاية ويهولون من أمر الولي حتى قالوا: (من ادعى أنه ولي يموت كافرا - والعياذ بالله - والحكاية التالية تكشف لنا عن مدى بعد الولاية في اعتقاد القوم واحتكارهم لمنصبها ومقامها).

قال الشيخ أحمد التجاني في رجل لا يمشي إلا ساترا وجهه - قال: ولعله بلغ مرتبة الولاية؛ فإن من بلغها يصير كل من رأى وجهه لا يقدر على مفارقتها طرفة عين، وإن فارقه، وانحجب عنه مات لحينه، وحسبك - أخي المسلم - بهذا التعريف للولي من تعريف إنه سخرية وهزء بعقول المؤمنين^(١).

ويروون عن الشيخ البدوي أنه كان يلقب بذي اللثامين؛ لأنه كان يتلثم بلثامين، فقال له رجل من المريديه: أرني وجهك، فقال له البدوي: كل نظرة برجل! فقال: أرنيه، ولو مت، فكشف البدوي وجهه فمات الرجل لحينه^(٢).

ويقول السرهندي مبينا مقام النبوة والولاية عندهم، وأنه يصح أن يشارك الولي النبي فيصبح لابسا للوشاحين، ومتربعا فوق المقامين فيقول: (ينبغي أن يعلم أنه يصح أن يصل شخص من طريق قرب الولاية إلى قرب النبوة، ويكون شريكا في كلتا العاملتين، ويعطى محلا هناك - أيضا - يتطفل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ويجعل معاملة كلا الطرفين مربوطة به).

ليس على الله بمستكر أن يجمع العالم في واحد

ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم^(٣). إذن لم يقف الصوفية عند تعظيم الأولياء، وادعاء الحفظ لهم، والعصمة، بل زادوا في الخرافة، وتنقيص الأنبياء، فادعوا أن مرتبة الولاية أعلى من مرتبة النبوة. وفي هذا يقول ابن عربي^(٤):

مقام النبوة في برزخ فوق الرسول ودون الولي

وقال أيضا^(٥):

بين الولاية والرسالة برزخ فيه النبوة حكمها لا يجهل

(١) إلى التصوف يا عباد الله ص ٣٧ (٢) انظر شذرات الذهب ٥/ ٣٤٦

(٣) المنتخبات من المکتوبات ص ٢٢٦

(٤) انظر مجموع الفتاوى ٢/ ٢٢١، وشرح العقيدة الطحاوية ص ٤٩٣

(٥) انظر الفتوحات المكية ٢/ ٢٥٢، وانظر الرد عليه في شرح العقيدة الطحاوية ص ٤٩٢، وفي رسائل وفتاوى في

ذم ابن عربي تحقيق د. موسى الدويش ص ٦١

ويصرح ابن عربي بهذا المعتقد - وهو اعتقاد غلاة الصوفية - فيقول : (ولما مثل النبي صلى الله عليه وسلم النبوة بالحائط من اللبن ، وقد كمل سوى موضع لبنة ، فكان صلى الله عليه وسلم تلك اللبنة غير أنه صلى الله عليه وسلم لا يراها كما قال - لبنة واحدة ، وأما خاتم الأولياء فلا بد له من هذه الرؤيا ، فيرى ما مثل به رسول الله صلى الله عليه وسلم ويرى في الحائط موضع لبنتين ، واللبن من ذهب ، وفضة ، فيرى اللبنتين اللتين تنقص الحائط عنهما ، وتكمل بهما لبنة ذهب ، ولبنة فضة ، فلا بد أن يرى نفسه تنقطع في موضع تينك اللبنتين ، فيكون خاتم الأولياء تينك اللبنتين ، فيكمل الحائط !)^(١).

ويقول التجاني : (إن لنا منزلة عند الله تناهت في العلو عند الله تعالى إلى حد يحرم ذكره)^(٢).

فالولاية - عند الصوفية - أعظم قدرا ، وأعلى شأنًا من النبوة ، وخاتم الأولياء هو الذي يستمد منه سائر الأولياء ، وحتى الأنبياء ، والرسول إنما يأخذون العلم بالله من مشكاة خاتم الأولياء ؛ لأن ولاية الرسول أعلى من نبوته ، فالرسول من حيث هو ولي أتم من حيث هو نبي رسول ؛ لأن النبوة ، والرسالة منقطعة ، وأما الولاية فلا تنقطع أبداً .

يقول ابن عربي : (واعلم أن الولاية هي الفلك المحيط العام ؛ ولهذا لم تنقطع ولها الإنشاء العام ، وأما نبوة التشريع ، والرسالة فمنقطعة . . . ، والرسول عليه السلام من حيث هو ولي أتم من حيث هو نبي رسول)^(٣).

ويرى بعض بعض غلاة الصوفية أن كلمة (الولاية) قد تعني الربوبية ، ويستدل على هذا الرأي بقول الله تعالى : ﴿ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ ﴾^(٤).

فخاتم الأولياء يأخذ من المعدن الذي يأخذ منه الملك^(٥) ؛ بل (خاتم الأولياء مثل خاتم الأنبياء ، وقد يفضل ؛ لأنه الولي الرسول ، النبي ، وخاتم الأولياء)^(٦).

(١) فصوص الحكم ص ٦٣ ، وقد بين شيخ الإسلام ابن تيمية أن ابن عربي متأثر - فيما ذهب إليه - بالفلاسفة . انظر الرد على المنطقيين ص ٣٠٢

(٢) جواهر المعاني ٢/ ٩٣ ، وانظر الرد عليه في مخازي الولي الشيطاني مطبوع في نهاية مشتهى الخارف الجاني ص ٦١١ ، وهذه هي الصوفية لعبد الرحمن الوكيل ص ١١١

(٣) فصوص الحكم ص ١٣٤ ، وانظر جلاء العينين ص ١٣٦ ، والصوفية في نظر الإسلام ص ١٧٦

(٤) سورة الكهف الآية ٤٤ (٥) انظر الحركة الصوفية في الإسلام للدكتور محمد أبي ريان ص ٣٠٩

(٦) انظر فصوص الحكم ص ٣٦ ، وانظر الرد عليه في الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص ٣٩ ، ومجموع الفتاوى ٢/ ٢٢٠

(٧) معجم مصطلحات الصوفية ص ٨٧ ، وانظر العلم الشامخ للمقبلي ص ٢٤٠

وتبدو الولاية كاملة في نظر الصوفية -عند ما تصبح قوى الكون مسخرة للولي بقوة روحانية فيصبح قادرا على إتيان المعجزات، والخوارق، والإخبار بالمغيبات، والتلقي من الهواتف، والنطق بالسريانية دون تعلم، ويرى الولي نفسه في منزلة، أو مقام لا يمتنع فيه عليه عسير، ولا يستحيل أمام إرادته أمر؛ حتى إنه يقول للشيء: (كن فيكون!) . وطريق الوصول إلى مقام الولاية هو العلم اللدني الذي يزعمون أن الولي يتلقاه عن الله تعالى بلا واسطة^(١). يزعمون أن من الكرامة أن تفاض على الولي جميع الأسرار، والعلوم فيضا^(٢).

ومن موازاناتهم بين الرسالة، والنبوة، والولاية، أو القطبانية -كما يسمونها- قول بعضهم: (فليس يظهر الكمال صورة، ومعنى، وحسا، بريثا من النقص بكل وجه، وبكل اعتبار إلا في ثلاث مراتب فقط، لا ما عداها، وهي: الرسالة لمن دخل حضرتها، والنبوة لمن دخل حضرتها، والقطبانية لمن دخل حضرتها، فإن هذه الثلاثة لا صورة للنقص فيها... فإذا عرفت هذا فليكن المريد مع شيخه كما هو مع نبيه صلى الله عليه وسلم في التعظيم، والمحبة، والاستمداد، والانقطاع إليه بالقلب، فلا يعادل به غيره في هذه الأمور، ولا يشرك معه غيره)^(٣).

ولعل السبب في هذه النظرة الخرافية لمقام الولاية، والغلو الزائد في الولي هو تهيئة الشيخ الصوفي لمنصب الخلافة الربانية، وتجويز جعله واسطة بينهم، وبين الله تعالى؛ لأن من سمت منزلته وعلا مقامه فوق منزلة النبوة، ومقام الرسالة -من كان هذا شأنه- كيف لا يكون واسطة؟ وكيف لا يتوجه إليه المذنبون، والخطاثون، والمحتاجون، يستمدون منه الفيوضات، ويسترفدون منه الهدايا، والأعطيات؟! من أجل ذلك كله جعلوا هؤلاء الأولياء واسطة بينهم، وبين الله تعالى.

يقول أحمد التجاني -شيخ الطريقة التجانية-: (اعلم أن حقيقة القطبانية هي الخلافة العظمى عن الحق مطلقا في جميع الوجود وجملة، وتفصيلا، جيثما كان الرب إلها كان هو خليفة في تصريف الحكم، وتنفيذه في كل من عليه ألوهية الله تعالى، ثم قيامه بالبرزخية العظمى بين الحق والخلق، فلا يصل إلى الخلق شيء كائنا من كان من الحق إلا

(١) انظر الصوفية في نظر الإسلام ص ١٦٨

(٢) انظر مجلة المنار ٤/ ٦٨٠

(٣) ميزاب الرحمة الربانية ص ٣٣

بحكم القطب، وتولييه، ونيابته عن الحق في ذلك، وتوصيله كل قسمة إلى محلها، ثم قيامه في الوجود بروحانيته في كل ذرة من ذرات الوجود جملة وتفصيلا، فترى الكون كله أشباحا لا حركة لها، وإنما هو الروح القائم فيها جملة وتفصيلا^(١).

وهذا القطب -الخرافة- له (ثلاثمائة وست وستون ذاتا إحداها^(٢)) بمكة المشرفة لا يخرج منها ما دام حيا، والذات الترابية حيث أراد الله تعالى من البلاد وفرق في هذه الذوات باعتبار ما يختص به كل منها، وأي ذات اختصت بشيء من الترقيات، والتجليات، والفتوحات، والأسرار وغيرها في بلد، فذلك الاختصاص سار لجميعها^(٣).

والأولياء -عموما- ترد عليهم أحوال يشاهدون فيها ملكوت السموات والأرض، وينظرون الأنبياء أحياء غير أموات^(٤).

والأولياء عند الصوفية بعضهم أعلى من بعض، وفي صراع دائم على القطبية، والبرزخية، والخلافة العظمى، والختمية، فشيخ التجانية لما سمع المقالة الشهيرة عن الشيخ عبد القادر الجيلاني، وهي أنه قال: (قدمي هذه على رقبة كل ولي لله تعالى) نهض وكان متكئا، فاستوى جالسا، ومد رجليه، وقبض عليهما بيديه.

وقال: الشيخ عبد القادر قال ذلك في أولياء زمانه، وأنا أقول: (قدماي هاتان على رقبة كل ولي لله تعالى من لدن آدم عليه السلام إلى النفخ في الصور).

وسبب ذلك كما يقول أحد مريديه وأتباعه: أن جميع الكمالات، والكرامات، والخصائص التي نالها أحد من العارفين المقربين فقد أعطاها الله تعالى لهذا الولي التجاني، ومنه تفيض على سائر أولياء الله تعالى من أجل ذلك خضعت له من جميع الأولياء الأعناق، وأذعنوا لمقامه في عوالم الغيب بالإطباق، فهو القطب المكتوم، وهو الواسطة بين الأنبياء، والأولياء، فكل ولي لله تعالى من لدن آدم إلى النفخ في الصور لا يتلقى فيضا، ولا يجد مددا من حضرات الأنبياء إلا بواسطته من حيث لا يشعرون، ومدده الخاص يتلقاه من خاتم النبيين ﷺ، ولا اطلاع لأحد على فيضه الخاص^(٥).

(١) جواهر المعاني ٨١/٢، وانظر معجم ألفاظ الصوفية ص ٢٣٥، والرد عليهم في تقديس الأشخاص في الفكر

الصوفي ٩٤/١ (٢) في بغية المستفيد (أحداها) -على التذكير- والذات مؤنثة.

(٣) بغية المستفيد ص ١٨٦ (٤) انظر المرجع السابق ص ٢١٢

(٥) انظر بغية المستفيد ص ٢٢٤

وعند مقارنة قول الجيلاني، والتجاني في قيادة الأولياء نجد أن الجيلاني قيد الحكم بأولياء زمانه ومع ذلك قيل إنه ندم عند وفاته على هذا القول، ووضع خده على الأرض^(١)، أما التجاني فقد أطلق الحكم، وادعى ما لا دليل عليه من الشرع أو الطبع^(٢). وبيان حقيقة النبوة، والولاية عند الصوفية نجد أنهم لم يجعلوا إدراك حقيقة النبوة مقصوراً على الأنبياء وحدهم؛ بل يرون أن أي إنسان يملك أعموداً من خاصية النبوة، وهو ما يدرك أثناء النوم.

يقول الغزالي^(٣): (وأما ما عدا هذا من خواص النبوة فإنما يدرك بالذوق من سلوك طريق التصوف)^(٤).

ويذهب الغزالي إلى أن الأولياء يدركون خاصية النبوة في تلقي الوحي والإلهام مثل سائر الأنبياء، حيث يقول: (بل قد تتمثل للأنبياء، والأولياء في اليقظة والصحة صورة جميلة محاكية لجوهر الملائكة وينتهي إليهم الوحي والإلهام فيتلقون من أمر الغيب في اليقظة ما يتلقاه غيرهم في النوم، وذلك لشدة صفاء باطنهم)^(٥).

هكذا يرى الغزالي -وهو الإمام الحجة عند الصوفية- أن مقام الولاية مزاحم لمقام النبوة؛ ولذلك نجده كثيراً ما يقرن اسم الأولياء مع الأنبياء فيما يتعلق بالوحي والإلهام والكشوفات^(٦).

(ولعلك تلاحظ -بعد كل ما ذكرته لك- أن ما يدعيه الغزالي من الكشوفات الصوفية إنما هو انتقاص من مرتبة النبوة، ودعوة عامة للجميع إلى تسلفها، وارتقائها، وهذا الرأي له خطورته التي تفوق خطورة الرأي الباطني القائل بفيضان العلوم الموحة إلى الإمام المعصوم؛ حيث إن عدد الأئمة الموحى إليهم -عند الباطنية- لا يتعدى اثني عشر إماماً؛ أما عدد الأولياء الذين يتلقون العلوم الكشفية فإنه لا حصر له ألبتة؛ إذ باب الوحي مفتوح

(١) انظر الجواهر والدرر للشعراني مطبوع بهامش الإبريز ص ١٤٢

(٢) انظر الرد عليه في مشتهى الخراف الجاني ص ٥٣٥

(٣) هو أبو حامد محمد بن محمد بن أحمد الطوسي الغزالي، قال عنه ابن كثير: كان من أذكى العالم في كل ما يتكلم فيه، له مصنفات منتشرة في فنون عديدة منها: ((فضائح الباطنية)) و((إحياء علوم الدين))، كانت وفاته سنة ٥٠٥ هـ. انظر البداية والنهاية ١٢/١٧٣، وسير أعلام النبلاء ١٩/٣٢٢

(٤) المنقذ من الضلال للغزالي ص ٧٢ (٥) فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة ص ١٣

(٦) انظر أبو حامد الغزالي والتصوف لعبد الرحمن دمشقية ص ١٦٩

على مصراعيه، وما عليك إلا أن تصفي قلبك من الكدورات، وتنقيه من المعاصي، ثم تخلو بنفسك في زاوية، وتفتح عين الباطن جاعلا قلبك في عين الملكوت حتى تنفتح لك تلك الطاقة، وتظهر لك أرواح الملائكة، والأنبياء، والصور الحسنة الجميلة الجلييلة، فينكشف لك ملكوت السموات والأرض، وترى ما لا يمكن وصفه ولا شرحه^(١).

ومع ذلك فإن الصوفية لا يسمحون بفتح باب الولاية لكل أحد؛ بل يجعلون الدخول من هذا الباب لصفوة خاصة من الناس مختارة.

يقول المستشرق نيكولسون^(٢): (ولكن ليس معنى هذا أن جميع الصوفية أولياء؛ فإن الأولياء ليسوا في الحقيقة إلا طائفة قليلة من خواص أهل الله من الرجال، والنساء الذين وصلوا إلى أعلى مراتب الأحوال الصوفية، وهم من حيث صلتهم بالله بمثابة المرايا التي تنعكس عليها صورة الذات الإلهية، أو المجالي التي يتجلى الله فيها للخلق)^(٣).

وللأولياء عند الصوفية حكومة باطنة تنصرف في الكون وتحفظ عليه نظامه، ويتزعمها القطب، وتحت: النقباء، والأوتاد، والأبرار، والأبدال، أو البدلاء، ويزداد كل صنف من هذه الأصناف بحسب درجة بعدهم من القطب، وهذا التصرف لمقام الأولياء ربما أخذته الصوفية عن الشيعة، أو الإسماعيلية^(٤).

ويرى المستشرق نيكولسون أن المعتدلين من الصوفية يعتقدون أن النبي محمدا ﷺ فوق كل ولي مهما سمت درجته، وعلت مكانته، أما غلاتهم القائلون بوحدة الوجود، والصوفية الذين ينكرون الوحي، ويكفرون بالآديان السماوية فيرون أن مقام الولاية أرفع قدرا، وأعلى شأنًا من مقام النبوة^(٥).

وما ذكره هذا المستشرق وجدنا من الصوفية من يصرح به، فالسرهندي من علماء

(١) المرجع السابق ص ١٧٣، انظر الصوفية في نظر الإسلام لسميح عاطف ص ١٧٣

(٢) هو ريتولد ألين نيكولسون، مستشرق إنجليزي، ولد سنة ١٨٦٨م، تعلم العربية والفارسية في إنجلترا وألمانيا، وقام بالتدريس في جامعة كيمبردج، وتخصص في اللغات الشرقية وآدابها، وفي عام ١٩٢٦م صار كبير المحاضري للغة العربية والفارسية وآدابها، وكان اعتناؤه منصباً على الجانب التصوفي عند المسلمين، من مؤلفاته: ((الصوفية في الإسلام)) و((فكرة الشخصية في التصوف)) و((في التصوف الإسلامي)) وغيرها، مات سنة ١٩٤٥م. انظر الموسوعة العربية الميسرة بإشراف محمد شفيق غريال ١٨٦٨/٢

(٣) في التصوف الإسلامي لنيكولسون ص ١٥٧

(٤) انظر المرجع السابق ص ٨١، والإنصاف في حفيقة الأولياء للصنعاني ص ١٣

(٥) انظر في التصوف الإسلامي ص ١٥٨

الصوفية - صرح بالمقام الصحيح للولاية حيث ذكر أنه ينبغي أن يعلم أنه ما من مسألة اختلف فيها العلماء، والصوفية، ولوحظ فيها حق الملاحظة إلا وجد الحق فيها في جانب العلماء، وسر ذلك: أن نظر العلماء بواسطة متابعة الأنبياء عليهم السلام نافذ إلى كمالات النبوة، وعلومها، ونظر الصوفية مقصور على كمالات الولاية ومعانيها؛ فلا جرم إذن أن يكون العلم المأخوذ من مشكاة النبوة أصوب، وأصفى، وأصح من العلم المأخوذ من مرتبة الولاية، والمجاهدة، ثم أعلن قائلا: (فلاح من هذا التحقيق أنه لا يبلغ ولي قط درجة نبي من الأنبياء عليهم السلام بل يكون رأس الولي تحت قدم نبي على الدوام) (١).

ويقول الدبّاغ: (وقد غلط بعض الأولياء من أهل الفتح فظن أن الولي العارف الكبير قد يبلغ مقام النبي في المعرفة، وإن كان في الدرجة لا يصله، وهذا الذي ظنوه غلط مخالف لما في نفس الأمر، والصواب أن الولي، ولو بلغ في المعرفة ما بلغ لا يصل إلى ما ذكره، ولا يقرب منه أصلا) (٢).

وهذا من الحق الذي نطق به هذان الصوفيان وبمقارنته مع ما سبق نقله عن الصوفية وبيان رفعهم لمقام الولاية وتنقيصهم للأنبياء عليهم السلام وخدشهم لمقام النبوة نستخلص أن مناهجهم مضطربة، وأقوالهم متناقضة بسبب بعدهم عن الكتاب والسنة وعدم التقيد بهما، وكل منهج لا يستمد قواعده من الوحي فالاضطراب صفة ذاتية من صفاته، والتناقض سمة بارزة من سماته، والتخبط نتيجة حتمية من نتائجه؛ إذ كيف يعد كل من ظهرت منه مكاشفات أو تصرفات شيطانية يعد بمجرد ذلك وليا من أولياء الله تعالى؟ (فكيف إذا علم منه ما يناقض ولاية الله؛ مثل أن يعلم أنه لا يعتقد وجوب اتباع النبي ﷺ باطنا وظاهرا؛ بل يعتقد أنه يتبع الشرع الظاهر دون الحقيقة الباطنة، أو يعتقد أن لأولياء الله طريقا إلى الله غير طريق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، أو يقول: إن الأنبياء ضيقوا الطريق، أو هم على قدوة العامة دون الخاصة، ونحو ذلك مما يقوله بعض من يدعي الولاية، فهؤلاء فيهم من الكفر ما يناقض الإيمان، فضلا عن ولاية الله عز وجل، فمن احتج بما يصدر عن أحدهم من خرق عادة على ولايتهم كان أضل من اليهود والنصارى) (٣).

(١) المنتخبات من المكتوبات ص ٨٢ (٢) الإبريز ص ٢٧٧
(٣) الفرقان لشيخ الإسلام ابن تيمية ص ٢٢، وانظر مشتهى الخارف الجاني ص ٤٨٣

فالصوفية عند ما نظروا إلى الأولياء نظرة غالية، وادعوا أنهم واسطة بينهم وبين الله تعالى لزم هذا الادعاء أمران: أحدهما: رفع مقام الولاية فوق مقام النبوة، والغلو في الولي، واعتباره محفوظا، أو معصوما إلى غير ذلك. وثانيهما: خدش مقام النبوة، والخط من منزلة الرسالة، وتنقيص الأنبياء، وجعل الأولياء في رتبة الأنبياء، وربما فضلوا خاتم الأولياء على جميع الأنبياء، والرسول عليهم الصلاة والسلام^(١).

ولعل السبب في شيوع هذا المفهوم الخاطئ لمقام الولاية بين الصوفية على تعدد طرقها هو أن (مقالة الزنادقة هذه كثيرا ما يسعى في ترويجها الفساق من المدعين للولاية، حتى يجدوا مسرح الشهوات واسع المجال بعيد ما بين الجوانب، وانسحبت على ذلك الأغبياء فلم يزنوا سيرة المدعي للولاية بميزان الشريعة، كمسألة التجاني التي تركت الشريعة البيضاء غير محصورة يمكن كل من أراد الإحداث فيها من المنتسبين إلى الطريقة الصوفية إحداث ما شاء إلى يوم القيامة، أن المنتسبين للعلم يهابون التعرض لكل من ادعى الولاية بحالة أو مقالة، وما ذلك إلا من ضعف البصيرة، وقلة الرسوخ في العلم، وعدم التحقق بحقائق الدين التي يضمحل أمامها كل باطل، وتسقط تجاهها كل دعوى كاذبة كما كان عليه سلف هذه الأمة، وخلفها من الإنكار على كل من أدخل في دين الله تعالى ما ليس منه؛ فإنا لله وإنا إليه راجعون)^(٢).

ولانتشار الطرق الصوفية في ربوع العالم الإسلامي -إلا ما رحم ربي- أصبح مفهوم الولي عند عامة الناس اليوم (هو إما من انتصب للإذن بالأوراد الطرقية ولو كان في جهله بدينه مساويا لحماره، وإما من اشتهر بالكهانة وسموه -حسب اصطلاحهم- مرابطا ولو تجاهر بترك الصلاة، وأعلن شرب المسكرات، وإما من انتفى إلى مشهور بالولاية، ولو كان إباحيا لا يحرم حراما، وحق هؤلاء الأولياء الجزم بولايتهم، وعدم التوقف في دخولهم الجنة، ثم الطاعة العمياء، ولو في معصية الله، وبذل المال لهم، ولو أخل بحق زوجته، وصبيته، والثقة بهم، ولو خلوا بالخرد العين، بعد فهم المطلوبون في كل شدة، ولكل محتتم بهم عدة، وهم حماة للأشخاص، والقرى، والمدن، كبرها، وصغيرها، حاضرها، وباديها، فما من قرية بلغت ما بلغت في البداوة، أو الحضارة إلا ولها ولي

(١) راجع المبحث السابق (تنقيص بعض أهل الأهواء لمقام الواسطة الصحيحة) لتقف على نموذج من تلك التنقيصات الفاضحة، والزندقة الواضحة.

(٢) مشتهى الخارف الجاني ص ١٢٨

تنسب إليه فيقال : سيدي فلان هو مولى البلد الفلاني ، ويجب عند هؤلاء الناس - أن يكون علماء الدين خدمة لهؤلاء الأولياء ، مقرين لأعمالهم ، وأحوالهم ، غير منكرين لشيء منها ، وإلا أوذوا بضروب السباب ، ومستبجح الألقاب ^(١) .

ومظاهر الولاية - عند الصوفية - تعتمد على قذارة الثياب ، واختيار لون خاص من الألوان ، وإطالة شعر الرأس ، ولباس الخرقعة ، والمرقعة ، والتشرد في الأرض ، وذهول الولي عن نفسه ، وفساد نفسه ، ونكران وجوده ^(٢) .

فتبين - من هذا التحقيق - أن الصوفية نظروا إلى الولاية نظرة ذوقية ، غالية ، بعيدة عن نظرة الشرع ، فرفعوا من مقامها إلى حد لا يعتقده العاقل ، ثم تناهوا في الرفع من شأنها ، ومقامها حتى جعلوها فوق مقام النبوة ، ومنزلة الرسالة ؛ لينبأوا على ذلك معتقدهم الفاسد في الأولياء ، وجعلهم واسطة في دعاء الله تعالى ، وندائه ، ورجائه ، وربما انقطعوا عن الله تعالى إلى هؤلاء الوسائط من الأولياء ، استمدادا ، واسترفادا ، واستغاثة ، واستعانة . وإذا ما وزنا نظرة الصوفية هذه بميزان الشرع وجدناها باطلة ؛ لأنها بنيت على باطل . والله تعالى أعلم .

(١) رسالة الشرك ومظاهره للميلي ص ١٢٢ ، وتقديس الأشخاص في الفكر الصوفي ١/ ٥٦

(٢) انظر الصوفية في نظر الإسلام ص ١٧٢ ، والسنن والمبتدعات للشقيري ص ٣٣٧

المبحث الثالث

صورة الواسطة البدعية عندهم في الأحياء

يأمر الصوفية الأتباع المريدين بالتعلق الشديد بأوليائهم من المشايخ، وأرباب الطرق المتبوعين؛ وذلك عن طريق العقد الذي يكون بين المريد، والشيخ، ويلتزم بموجبه المريد اتصاله بالشيخ الواسطة والانقطاع إليه، والاستمداد منه، والارتباط به حيا وميتا، وهذا العقد يعرف بـ "العهد" و "الميثاق"، وصورته: (أن يتعهد الطرف الأول: وهو الشيخ بأن يخلص المريد من كل شدة، ويخرجه من كل محنة متى ناداه، مستغيثا به، كما يشفع له يوم القيامة في دخول الجنة، ويتعهد الطرف الثاني: وهو المريد بأن يلتزم بالورد وآدابه، فلا يتركه مدى الحياة، كما يلتزم بلزوم الطريقة، وعدم استبدالها بغيرها من سائر الطرق) (١).

ولنستمع إلى أحدهم وهو يبين فلسفتهم في ربط قلب المريد بالشيخ - الواسطة - فيقول: يشترط (ربط القلب بالشيخ بالاعتقاد، والاستمداد على وصف التسليم، والمحبة، والتحكيم، فيكون اعتقاده أن هذا المظهر هو الذي عينه الحق سبحانه للإفاضة عليه، وأنه لا يحصل له الفيض إلا بواسطته دون غيره، ولو كانت الدنيا مملوءة بالمشايخ، ومتى ما يكون في باطن المريد تطلع إلى غير شيخه لم يفتح باطنه إلى الحضرة الواحدة؛ فالإنسان في الجهة، وله بدن، وروح، والله تعالى منزّه عن الجهة، فحكمته اقتضت الاستفاضة ممن في الجهة عن الفيض الحق الذي ليس في الجهة . . . ومن هنا يعرف أن المناسبة بين المفيض، والمستفيض فيما يتعلق بالاستفاضة شرط، وقد ورد في بعض الأحاديث على ما أثبت المشايخ في كتبهم أن الشيخ في قومه كالنبي في أمته، فلا بد للمريد أن يتوجه إلى شيخه بربط قلبه معه، ويتحقق أن الفيض لا يجيء إلا بواسطته، وإن كان الأولياء كلهم هادين مهتدين يعتقد كلهم، ويدعو لهم؛ لكن استمداده الخاص، واستفاضته تكون من روحانية شيخه وحده، ويعلم أن استمداده من شيخه استمداده من النبي ﷺ فإن شيخه متعلق، مستمد من شيخه، وشيخه من شيخه أيضا، وهكذا إلى رسول الله ﷺ فهو مستمد بالحقيقة من رسول الله ﷺ، وهو من الحق جل وعلا . . . فربط القلب بالشيخ أصل كبير في الاستفاضة؛ بل هو أصل الأصول) (٢).

(١) إلى التصوف يا عباد الله ص ١١، وانظر هذه هي الصوفية للوكيل ص ٩٩

(٢) بغية المستفيد لمحمد العربي السائح التجاني ص ٢٩٩



وقد بين الغزالي صورة الواسطة البدعية في الأحياء بوجه ذكره في بعض كتبه ؛ حيث يرى أن المتأله الذي صفا قلبه يشرق عليه النور من الحضرة الإلهية بغير واسطة ، وأما المتبع للرسول المقتدي بالوحي فهذا يحتاج إلى واسطة .

يقول الغزالي : (من استولى عليه التوحيد فقد تأكدت مناسبته مع الحضرة الإلهية ، فأشرق عليه النور من غير واسطة ، ومن استولت عليه السنن ، والاقتداء بالرسول ، ومحبة اتباعه ، ولم ترسخ قدمه في ملاحظة الوجدانية لم تستحكم مناسبته إلا مع الواسطة ، فافتقر إلى واسطة في اقتباس النار)^(١) .

ثم ضرب لذلك مثالا محسوسا ، وهو أن الحائط الذي ليس مكشوبا للشمس يحتاج إلى واسطة الماء المكشوف للشمس حتى يقتبس من أشعتها وضئائها ، وهذه حقيقة الشفاعة في الدنيا ، فالوزير صاحب الخطوة الممكن في قلب السلطان المخصوص بالعناية قد يغضي السلطان عن حقوات أصحاب هذا الوزير الذي يعفو عن زلاتهم ، لا لمناسبة بين السلطان ، وأصحاب وزيره ، وإنما لمناسبتهم للوزير الذي يناسب السلطان ، ففاضت العناية عليهم بواسطة الوزير ؛ لا بأنفسهم ، ولو ارتفعت الواسطة وحجب الوزير لم تشملهم العناية أصلا^(٢) .

ولعل الغزالي - في بيانه لصورة الواسطة هذه متأثر بالفلاسفة الذين مثلوا لمفهوم الواسطة عندهم بالمرأة المجلوة التي تنعكس عليها أشعة الشمس^(٣) . ويرى بعض الصوفية أن المشايخ على علم دائم بالأحوال الباطنية لمريديهم ، مما يجعل العلاقة حميمة بين الشفيع والمشفوع له .

يقول المستشرق نيكو لسون : (ولكن أولياء الصوفية يدعونها أي [الشفاعة] لأنفسهم باعتبارها جزءا مما ورثوه عن النبي عليه السلام ؛ ولذا ترونهم يتنافسون في الدعوة التي يقطعونها أمام كل من أحببهم ، أو أسدوا إليهم معروفا ؛ بل وكل من رآهم ، بأن الله تعالى سيسغفر لهؤلاء جميعا من أجلهم ، وفي هذا على أقل تقدير لعلاقة شخصية بين الشفيع والمشفوع له)^(٤) .

(١) المضمون به على غير أهله مطبوع ضمن رسائل القصور العوالي ١٥١ / ٢

(٢) انظر المرجع السابق والصفحة نفسها . (٣) راجع صورة الواسطة عند الفلاسفة .

(٤) في التصوف الإسلامي ض ١٦٤

ولعل أجلي ما تتضح به معالم تعلق المريد بالواسطة البدعية في حال الحياة أن يصرح المتبوعون من المشايخ، والأولياء لأتباعهم ومريديهم أن بيدهم الخلاص، والفلاح لمن توجه إلى الله تعالى بواسطتهم، وتعلق بهم، وآوى إلى جنابهم، ودخل في ساحتهم، ومن تلك النماذج: قول بعضهم لمريده متبجحا، ومصرحا بأنه الواسطة في هذا الكون لحصول المدد، والغياث، والخلاص من الضيق^(١):

نحن الغياث لمن ضاقت مذاهبه فاهتف بنا إن تضق أو إن تكن تضم
نحن الذين لهذا الكون ذو مدد يناله من رآنا أو نأى فعمي
وقال الجيلي^(٢):

وأمرني بأمر الله إن قلت كن يكن وكل بأمر الله فاحكم بقدرتي
وكقول ولي آخر: (يا رياح اسكني عليهم يا ذني)^(٣).

ومثل ذلك المقالة المشهورة عن معروف الكرخي أنه قال لتلامذته: (إن كانت لكم إلى الله حاجة فأقسموا عليه بي، فإني الواسطة بينكم وبينه الآن)^(٤).

وذكر الآلوسي ما يروى عن أبي الحسن الشاذلي أنه قال لأحد أتباعه: (إذا عرضت لك إلى الله تعالى حاجة فاقسم عليه بي)^(٥).

ومما يروى عن أبي يزيد البسطامي^(٦) أنه قال لأحد مريديه: (وقع في خاطري أنني أشفع لك إلى ربي عز وجل فأجابه المريد: يا أبا يزيد لو شفعتك الله في جميع المخلوقين لم يكن ذلك كثيرا؛ إنما هم قطعة من طين!!)^(٧).

وذكر الشعراني^(٨) في ترجمة الشيخ مدين الأشموني^(٩) أن امرأة جاءت فقالت: هذه

(١) انظر السنن والمبتدعات للشقيري ص ٢٦٤ (٢) انظر جواهر المعاني ٢/ ٨٠

(٣) المرجع نفسه والموضع بعينه. (٤) انظر جلاء العينين ص ٦٧ (٥) جلاء العينين ص ٦٧

(٦) هو أبو يزيد طيفور بن عيسى البسطامي الصوفي، كان جده مجوسيا ثم أسلم، له أقوال متناقضة بعضها مقبول وبعضها فيه زندقة، لأتباعه فيه غلو فاحش في تعظيمه، ولد سنة ١٨٨ هـ، وتوفي سنة ٢٦١ هـ. انظر ترجمته في الرسالة القشيرية ص ٣٩٥، وسير أعلام النبلاء ١٣/ ٨٦، وطبقات الشعراني ١/ ٧٦، وشذرات الذهب ٢/ ١٤٣ (٧) الطبقات الكبرى للشعراني ٢/ ١٠٢

(٨) هو: عبد الوهاب بن أحمد بن علي بن أحمد الشعراني الشاذلي، الصوفي، الشافعي، من مصنفاته ((الطبقات الكبرى في تراجم الأولياء)) و((الجواهر المصونة والسر المرقوم فيما تنتجها الخلوة من الأسرار والعلوم، توفي سنة ٩٧٣ هـ. انظر: شذرات الذهب ٨/ ٣٧٢، ومعجم المؤلفين ٦/ ٢١٨

(٩) هو مدين بن أحمد الأشموني، عده الشعراني من شيوخه المعظمين، وصوره بصورة خرافية، ونسب إليه كثيرا من الكرامات، والأعاجيب على عادة الصوفية، مات سنة ٨٦٢ هـ، انظر طبقات الشعراني ٢/ ١٠١، وجامع كرامات الأولياء للنهاني ٢/ ٤٦٢

ثلاثون دينارا بشرط أن تضمن لي على الله الجنة، فقال لها الشيخ مدين -مبাসطا- هذه الدنانير ما تكفي، فقالت: لا أملك غيرها، فضمن لها على الله دخول الجنة، ثم ماتت المرأة فبلغ ورثتها ذلك فجاءوا يطلبون من الشيخ الدنانير، وقالوا: هذا الضمان لا يصح، فجاءتهم في المنام، وقالت لهم: اشكروا لي الشيخ على تفضله، فقد دخلت الجنة، فتركوا مطالبة الشيخ بالدنانير^(١).

وينقلون عن السيد البدوي أنه كان يأتيه الرجل في حياته فينظر إليه نظرة واحدة فيمتلئ قلب الرجل هداية، وتقوى، ومعرفة (فكان يصنع الرجال، ويصوغ الأبطال بنظرة واحدة من نظراته الثاقبة، فيحولهم بقدرته الربانية، وقوته الروحانية من أشباح آلية إلى أرواح نورانية، ومن صور آدمية إلى حقائق إنسانية، فيصبح الواحد منهم بعد أن كان فرداً آلياً، وشبحاً آدمياً يزن أمة برأسها^(٢)) ويملاً البلاد بحذافيرها علماً، وهدياً، ونوراً مبيناً، هكذا كان يصنع الرجال، ويصوغ الأبطال، يأتي إليه خليفته بالرجل العادي، وهو قائم على السطوح فينظر إليه نظرة واحدة فيمتلئ بها هداية وتقوى، ومعرفة، ويأمره بالانصراف... ويعرف هؤلاء المصاييح بالسطوحية^(٣).

ويذكرون عنه أنه قال: (إن الفقراء كالزيتون وفيهم الصغير والكبير، ومن لم يكن له زيت فأنا زيتي! أساعده في جميع أموره، وقضاء حوائجه، لا بحولي، ولا بقوتي، ولكن ببركة النبي صلى الله عليه وسلم)^(٤).

وذكروا أن من عادات السيد البدوي حب التوسل في حياته؛ أي أنه يحب أن يسأله الناس، ويتوسلوا به، وفي تحليل هذه العادة يقول أحدهم: (أي: أنه يحب أن يسأله الناس وهذه سنة من سنن الله تعالى، فالله يحب أن يسأله الناس، ويغضب إذا تركوا سؤاله، وكل متخلق بأخلاق الله تعالى يحب -لكرم طبعه وخلوص نفسه، وعلو همته- أن يسأله الناس، ويحب أن يسعى لهم في قضاء مصالحهم)^(٥).

فإذا كان المقصود بهذه العادة أن السيد البدوي يحب أن يشفع للمخلق، ويسعى في قضاء

(٢) هكذا المطبوع، ولعله يقصد (بأسرها).

(١) انظر الطبقات الكبرى للشعراني ١٠٢/٢

(٣) العظة والاعتبار آراء في حياة السيد البدوي لأحمد حجاب ص ١٠٣، وانظر شذرات الذهب لابن

(٤) العظة والاعتبار ص ٩٦

العماد ٣٤٦/٥

(٥) المصدر السابق ١٥٧

مصالحتهم الدنيوية، ويبدل لهم ما في وسعه، ووجهاته، ويدعو الله لهم، فهذا أمر مطلوب شرعاً؛ لقول الله تعالى: ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا﴾ (١) ولقول نبيه ﷺ: (اشفعوا توجروا) (٢)، وأما إن كان المراد أنه يحب أن يجعله المريدون واسطة بينهم وبين الله تعالى في دعائهم، وندائهم واستعانتهم، واستغاثتهم بالله تعالى لجلب محبوب، أو دفع مكروه، فهذا هو الضلال بعينه الذي نحن بصدد الرد على القائلين به.

وإذا كان الشيخ -الواسطة- يستطيع أن يدخل من يشاء الجنة بغير حساب ولا عقاب -بزعمة- ويحيط عن الخاطئين جبال الذنوب كما يقول الشيخ التجاني: (ليس لأحد من الرجال أن يدخل كافة أصحابه الجنة بغير حساب ولا عقاب، ولو عملوا من الذنوب ما عملوا وبلغوا من المعاصي ما بلغوا إلا أنا وحدي) (٣)، إذا كان الشيخ يصرح بهذا الادعاء وهو حي يرزق فلا نستبعد من المريدين الجاهلين المنغمسين في المعاصي الذين لم يستضيئوا بنور الوحي، ولم ينقادوا لعلماء الشرع أن يتهافتوا -كالفراش- على أذعياء الولاية، والواسطة ظانين بربهم ظن السوء وأن بيد هؤلاء الأولياء من شيوخ الزوايا خلاصهم، وفي سوحهم، وحماهم مناصهم.

ومن الدعاية لهذا الاعتقاد في الشيخ الحي، وأنه واسطة بين الله، والناس قول بعضهم: (لأنهم يعني الشيوخ أبواب رحمة الله تعالى دنيا وأخرى، وعلى أيديهم تنزل الرحمة من الرحمن إلى كل مرحوم، وهم الوسائل، ولولاهم لهلك الكل، كما قيل: لولا الوسطة لذهب المتوسط، وعن قول الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ (٤) يقول: هو طاعة الأكابر من السادات والمشايخ) (٥).

فهذه دعوة إلى وجوب الاستمداد من المشايخ، وتوسيطهم في كل ما يتتاب الإنسان؛ لكن بأسلوب غير مباشر؛ لأنهم إذا كانوا هم أبواب رحمة الله وكانوا هم المقصودين من قول الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ فيتحتم أن تكون النتيجة المترتبة على هذا الادعاء وجوب استمطار الرحمات منهم، والدعاء لرفع البلاءات بتوسيطهم، ووجوب

(١) سورة النساء الآية ٨٥

(٢) رواه البخاري، كتاب الزكاة باب التحريض على الصدقة والشفاعة فيها ٢٩٩/٣ حديث ١٤٣٢، ومسلم،

كتاب البر والصلة والآداب باب استحباب الشفاعة فيما ليس بحرام ١٤٦/١٦

(٣) جواهر المعاني ١٧٦/٢

(٤) سورة المائدة الآية ٢

(٥) رماح حزب الرحيم مطبوع مع جواهر المعاني ١٧/١

الطاعة لهذا الأمر الرباني الذي لم يصرفه صارف عن الوجوب، وهو ما أشارت إليه الآية السابقة^(١).

ويقول أحد أتباع الطريقة الرفاعية - بعد أن ذكر مقدورات شيخه الخارقة من قطع مسافة في مدة مائة عام بخطوة واحدة، وأنه يعرف السنة الطيور إلى غير ذلك من الخرافات - يقول مبينا صورة جعله واسطة في حال الحياة (تعلق بأذياله وكن من أهل مجلسه، ولا تفارق محياه، وتشفع به إلى الله تعالى؛ فإن الله لا يرد شفاعتك به؛ لأنه من أكرم أهل البيت . . . إلى أن قال: إن أكابر الرجال، وفحول الأبطال . . . علموا أن طريقته طريق النجاح، والأمان، وأن محبته من أعظم الأسباب المقربة إلى الرحمن؛ ولذلك أئلموا أنفسهم، وأهلهم الأخذ بعهدده، والتمسك ببيعة طريقته)^(٢).

وذكروا عن شيخهم الرفاعي أنه كان ينشد لنفسه^(٣):-

أنا الرفاعي طبولي في السما ضربت والأرض في قبضتي والأوليا خدمي
كل المشايخ يأتسوا باب زاويتي وفوق هاماتهم حاز العلا علمي
فالجا بأعتاب عزي والتمس مددي وطف بيابي وقف مستمطرا نعمي

وإن تعجب لجرأة هؤلاء الشيوخ الأولياء من الصوفية في التصريح بكونهم واسطة بين الله تعالى وبين مريديهم في الدنيا فعجب جرأة الدباغ في تسليته لمريده بأنه سيدفع عنه كل ضرر في الدين والدنيا نزل به في الحياة، وأنه سيتكفل عنه سؤال الله تعالى، ومحاسبته بعد الممات.

يقول عنه أحد مريديه: (وشكوت إليه (رحمه الله) ذات يوم أمرا نزل بي فيه ضرر في الدين، والدنيا لا تؤمن غائلته، فقال لي: أما في الدنيا فلا تخش منه أبدا، ولا يقع لك منه شرا أصلا، وأما في الآخرة فأنا أتكفل لك على الله تعالى أنك لا تسأل عن هذا الأمر، ولا تحاسب عليه، فكان الأمر في الدنيا كما قال، ونرجو من الله سبحانه أن يكون الأمر في الآخرة كما قال! وما كان (رحمه الله) لأصحابه إلا رحمة محضة يشفع لهم في زلاتهم،

(١) انظر تقديس الأشخاص في الفكر الصوفي ١/ ٣٤٧

(٢) قلادة الجوهر ص ٤٤٠ بواسطة تقديس الأشخاص ١/ ٣٥٠

(٣) انظر قلادة الجوهر، نقلا عن الكشف عن حقيقة الصوفية ص ٥١٢

ويتكفل لهم بنوائبهم ، ويتحمل لهم كلما يخشون عاقبته ، ويهتم لأمرهم أكثر ما يهتم لأمره^(١).

ويحدثنا الدباغ عن أحد شيوخه ، وأنه بقي يطلب من يدلّه على الله عز وجل أربعة عشر عاما تنقل خلالها في كثير من البلدان فذكر أنه وجد في العراق رجلا يجتمع حوله خلائق لا يحصون ، وله طقوس معينة ، وهم يتخذونه واسطة لهم ، فقال مبينا صورة هذه الواسطة (قد اجتمع عليه من الخلائق ما لا يحصى عدده ، وكانت له زاوية للوارد ، والصادر ، يطعم فيها كل يوم ما يقرب من مائتي مد من الطعام من كثرة الواردين ، واتخذ في زاويته خلوة للعبادة ، والركوع ، والسجود ، بحيث أنه لا يخرج منها إلا في الثلاثة الأيام الأخيرة من الشهر ، وأما في السبعة والعشرين يوما فليس إلا الركوع ، والسجود ، وفي الخلوة طاقة يمد له منها النقيب الطعام الذي يأكله ، وجعلوا في الخلوة موضعا للخلاء ، والطهارة ، وأقاموا له أمرا للخلوة في كل ما يحتاجه حتى لا يحوجه إلى الخروج^(٢) فيلزم خلوته المدة المذكورة ؛ فإذا تمت خرج في الأيام الثلاثة المذكورة ، فيتكلم مع الواردين في حوائجهم الأسبق ، فالأسبق حتى يفرغ منهم جميعا ، فإذا تمت الثلاثة الأيام ، واستهل الشهر رجع لخلوته فأقام فيها سبعة وعشرين يوما ، هذه عادته في دهره^(٣) .

ويصور لنا الشيخ رشيد رضا حال أحد هؤلاء الأولياء المدعين من المتأخرين - مبينا طريقة التجاء الأغنياء من المريدين إليه في حياته واعتباره واسطة لهم - فيقول : (في الجزيرة^(٤) شيخ من الذين يعتقد الناس فيهم الولاية وينسبون لهم الكرامات ، وهذا الشيخ متهتك مدمن خمر يجلس في الحانات التي في الشوارع العمومية ، ويشرب في مجلس واحد أكثر من ثلاثين كأسا ، ونقل إلينا أن بعض الأغنياء الموصوفين بالصلاح يتقربون إلى الله تعالى وتنزه عن تقربهم - بدفع ثمن الخمرة التي يشربها ، ويزعمون أن مؤثره من الخمرة فيه شفاء وبركة ، فيشربونه بهذه النية . . . وحزب ولي الجزيرة يعتقدون أنه يشرب الخمر فينزول في جوفه جمرا ، ولكنه من أحباب الله (حاشا لله) الذين لا يؤاخذهم ، ولا يؤاخذ من ينتمي إليهم ، ويتصل بهم ، وهذا الاعتقاد كفر ، وخروج عن ملة الإسلام ، بلا خلاف

(١) الإبريز ص ٢٥٠

(٢) فأين الخروج إلى الجمعة والجماعة ، وصلة الرحم ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والكد على العيال ؟!

(٤) مدينة غربي القاهرة قبالتها . انظر معجم البلدان ٢/ ٢٠٠

(٣) الإبريز ص ٣١١

بين الأئمة، وما أوقع الناس فيه إلا الغلو في اعتقاد الكرامات وجعلها صناعة من الصناعات^(١).

ويحكى أن شيخاً من شيوخ الطرق الصوفية المعروف عند مردييه بالولاية (كان مع مردييه في سفينة فهاج بهم البحر، وعلت أمواجه، فلجأوا جميعاً إلى الله يسألون الفرج، والسلامة، وكان الشيخ منفرداً في غرفة يدعو، فلم تنفرج الأزمة، وعادته أن لا يبطأ عليه بالإجابة! فوقع في روعه أنه أتى من قبل أتباعه، لا لنقص فيه يوجب هذا الإعراض عنه، فخرج على أتباعه مغضباً يقول: ما ذا صنعتم في هذه الشدة؟ فقالوا " دعونا الله مخلصين له الدين بلسان المضطرين... فنكر عليهم اللجوء إلى الله مباشرة، ووبخهم عليه، وعرفهم أن ذلك هو الحائل دون استجابة دعائه، وأنذرهم عاقبة استمرارهم على التوجه إلى ربهم، وأنه الغرق، وعلمهم أن واجبهم هو التوجه إليه، وسؤاله، ثم هو وحده يتوجه إلى الله، فتابوا من دعاء الموحدين، وامتلوا تعليم الشيخ المخالف لتعليم رب العالمين، وعاد الشيخ إلى غرفته، يدعو متوسطاً بين الله ومردييه، فأنكشت الغمة، وسلمت السفينة، وحمد الشيخ ثقته بنفسه، وفقه سر البطء عن استجابة دعائه، وتفقيته لأتباعه سر النجاة، وصرفهم إلى الثقة به عن الثقة بالله!!^(٢).

ويذكرون أن الشيخ محمد الحنفي الذي عاش بمصر كان يذهب كل يوم بعد العصر، ينشر سجاده على الماء فيجتاز النيل من الشاطئ الشرقي إلى الغربي مشياً على الماء هو، وتلاميذه، ويقول لهم: قولوا: يا حنفي!! فقال واحد منهم: يا الله، فغرق، فأخرجه الحنفي، ووبخه، وأمسك بيده، وقال له: أنت الحنفي تعرفه فكيف بالله؟! فإذا عرفت الله فقل: يا الله يشير إلى أن الوسائط لا بد منهم، ولولا الوسائط لكنا من الوسائط^(٣).

ويذكرون أن زوجة هذا الولي مرضت، وأشرفت على الموت، فكانت تدعو وتقول: (يا سيدي أحمد يا بدوي خاطرك معي، فرأت سيدي أحمد (رحمه الله) في المنام، وهو ضارب لثامين، وعليه جبة واسعة الأكمام عريض الصدر، أحمر الوجه والعينين وقال

(١) مجلة المنار ٦٧٩/٤، وانظر الانحرافات العقدية والعلمية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين لعلي

بخيت الزهراني ٣٦٥/١ (٢) رسالة الشرك للميلي ص ١٩٦

(٣) انظر شواهد الحق ص ٤٤٧، ومعارج الألباب للنعمي ص ٢١٧، ويحكى مثل هذه القصة عن الجنيد مع أحد

أتباعه. انظر جهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبور ص ١٠٥٦/٣



لها: لم تنادينني، وتستغيثين بي وأنت لا تعلمين^(١) أنك في حماية رجل من الكبار المتمكنين، ونحن لا نجيب من دعانا وهو في موضع أحد من الرجال، قولي: يا سيدي محمد يا حنفي يعافيك الله تعالى، فقالت ذلك فأصبحت كأن لم يكن بها مرض!^(٢)

ففي هذا النص صورة واضحة للواسطة البدعية في الحياة؛ حيث أن زوجة هذا الولي لما استغاثت بالواسطة من الأولياء الميتين لم يجب دعاءها، ولم يخلصها؛ وإنما أحالها على زوجها الولي الواسطة الحي!! وليس في ربط قلب المريد بالشيخ -الواسطة- في حال الحياة أكثر من هذا؛ ولذلك يقول بعضهم: (من اعتقد شيئا ولم يره كسيدي أحمد البدوي، وغيره، لا يصير بذلك مريدا له؛ إنما هو محب له؛ فإن شيخ الإنسان هو الذي يأخذ عنه، ويقتدي به)^(٣).

ويقول شيخ التجانية: (فمن فزع إلى أهل عصره الأحياء من ذوي الخاصة العليا، وصحبهم، واقتدى بهم، واستمد منهم، فاز بنيل المدد الفائض من الله، ومن أعرض عن أهل عصره مستغنيا بكلام من تقدمه من الأولياء الأموات طبع عليه بطابع الحرمان، وكان مثله كمن أعرض عن نبي زمانه)^(٤).

إذا تقرر هذه التصريحات السابقة، والادعاءات السامقة^(٥) من الشيخ الولي الواسطة، في حياته، وأن بيده فلاح المريد وخسرانه، وبواسطته تنزل على المريد من الله الرحمات الواسعة، والفيوضات الدافقة، إذا تقرر ذلك في ذهن المريد، وربط قلبه بشيخه، وشد الوثائق، واستولى الشيخ على قلب مريده، وبصره، وبصيرته، لا نستبعد بعد هذا كله - أن نرى المريدين حول الشيخ -الواسطة- طائعين مخبتين متذللين، ومنهم من ينظر إليه خوفا وطمعا، ومنهم من لا يستطيع أن يملأ عينيه من صورة الشيخ إجلالا وتعظيما وتواضعا، فمن الأصول المتبعة عند الطرق الصوفية: أن يضع المريد يده في يد الشيخ ويشبك أصابعه في أصابع الشيخ ويغمض عينيه، ويقول له الشيخ: عاهدني على التزام الورد بشروطه، ويلقنه الورد، ومن هذه العملية التقليدية وضعوا كلمات العهد،

(١) وردت هذه الأفعال المضارعة الثلاثة (نادين تستغيثين تعلمين) في طبقات الشعراني بحذف النون وهذا الحذف؛

لأن هذه الأفعال في حالة الرفع. (٢) الطبقات الكبرى ٩٦/٢

(٣) المصدر السابق ٩٢/٢ (٤) جواهر المعاني ٩٢/٢

(٥) أي: المرتفعة العالية. انظر القاموس المحيط ٣/٢٥٥ مادة (سقى).

والبيعة، والتشبيك، والتلقين^(١).

ويتنقل السر عند التجانيين من الشيخ الواسطة إلى المريد عن طريق فتح الشيخ قم المريد، ونفته السرفيه^(٢).

وهذه الطقوس التي يتبعها الشيخ مع المريد من التلقين وتغميض العين، والنفت، والتشبيك بدعة ظاهرة، والغرض منها - كما يقول الشيخ أبو بكر الجزائري هو (إيجاد ناموس وطقوس خاصة يتم بها التأثير على نفسية العوام لإيقاعهم في شبكة الصيد، وهذه الطريقة لتسخيرهم، والتسلط عليهم باسم الشيخ، والعهد، والطريقة؛ كما أن الورد الذي اشترطت له هذه الشروط من الشيخ المأذون له لعارف بالله، والعهد، والتلقين، وتغميض العين، والتشبيك ما هو إلا بدعة في شكله، لم يرد عن الشارع، كأكثر أورد المتصوفة^(٣).

ثم ينتقل الأتباع من المريدين بعد ذلك إلى درجة الاستمداد من الشيخ، وانتقال البركة المزعومة عن طريق تقبيل يده، والتمسح بها، أو التبرك بما انفصل منه كالشعر، والريق، والعرق، وشرب ماء وضوئه، أو إفاضته على الجسم، أو الاحتفاظ بملابسه، وأدواته للتبرك بها، ونحو ذلك^(٤).

ونقل الشعراني في طبقاته أن شيخا من شيوخ الصوفية كان إذا دخل الحمام وحلق رأسه تقاتل الناس على شعره، يتبركون به، ويجعلونه ذخيرة عندهم وبعضهم يأخذ من تراب زاويته، ويجعله في ورق المصاحف للاستشفاء، والبركة^(٥).

ومن الغرائب في هذا الباب ما يحدث في بعض احتفالات موالد الصالحين عند تغيير عمامة الشيخ لشرائها بأي مبلغ يطلب منهم لاقتنائها، والفوز بها^(٦).

ثم ينتقل الأتباع من المريدين بعد ذلك إلى درجة الركوع، والسجود للشيخ الواسطة، - والعياذ بالله - وهو ما يسمونه وضع الرأس قدام الشيخ احتراماً، وتوضعا، وهذا نوع من الشرك المحرم.

(١) إلى التصوف يا عباد الله ص ١٨ (٢) انظر كشف الحجاب ص ٣٨١

(٣) إلى التصوف يا عباد الله ص ٢٠، وانظر معارج الآليات ص ٢٠١

(٤) انظر التبرك أنواعه وأحكامه للدكتور ناصر الجديع ص ٣٨٢، وتوحيد الألوهية أساس الإسلام ص ٣٤٠

(٥) انظر الطبقات الكبرى للشعراني ٩٤/٢، والمنتخبات من المكتوبات ص ٩٨

(٦) انظر التبرك أنواعه وأحكامه ص ٣٨٣، وجهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبرية ١٥٧٩/٣

يقول العلامة ابن القيم: (ومن أنواع الشرك: سجود المريد للشيخ؛ فإنه شرك من الساجد، والمسجود له، والعجب أنهم يقولون: ليس هذا سجوداً؛ وإنما هو وضع الرأس قدام الشيخ احتراماً، وتوضعا، فيقال لهؤلاء: ولو سميتوه ما سميتوه فحقيقة السجود وضع الرأس لمن يسجد له، وكذلك السجود للصنم، وللشمس، وللنجم، وللحجر، كله وضع الرأس قدامه... ومن أنواعه حلق الرأس للشيخ؛ فإنه تعبد لغير الله... ومن أنواعه: التوبة للشيخ؛ فإنها شرك عظيم فإن التوبة لا تكون إلا لله^(١)).

وبما أن السجود من الشعائر التعبدية التي لا تجوز إلا لله عز وجل وهذا مما يعلم بالاضطرار من دين الإسلام إلا أن سجود المريد للشيخ عند الصوفية لعله انتقل إليهم عن طريق الرفض، والقرامطة، فالرفض أجازت السجود للشاه إسماعيل الصفوي^(٢).

وقد ألف بعض علمائهم رسالة في تجويز السجود للعباد مسaire لهذا الغلو في الشاه إسماعيل^(٣)، وأما القرامطة فإن المريد الجديد إذا أراد الدخول في دعوتهم فإن أكبر النقباء عندهم يقوم بتعليمه البسملة، ثم يقرأ ذكراً على الحاضرين، فإذا مر على ذكر إمام الزمان خروا جميعاً له سجداً^(٤) ولشاعة هذا المسلك فإن بعضاً من عقلاء الصوفية نهي إليه أن بعض الشيوخ يسجد له مريده، فأرسل إليه رسالة، ووبخه على هذا الفعل^(٥).

فالمبالغة في تعظيم الشيوخ (وتزليلهم منزلة الأنبياء هو ما ينهى عنه، وقد كان عمر، وغيره من الصحابة، والتابعين رضي الله عنهم يكرهون أن يطلب منهم الدعاء، ويقولون: أنبياء نحن؟ فدل على أن هذه المنزلة لا تنبغي إلا للأنبياء عليهم الصلاة والسلام وكذلك التبرك بالآثار؛ وإنما كان يفعلها الصحابة رضي الله عنهم مع النبي ﷺ ولم يكونوا يفعلونه مع بعضهم بعضاً ولا يفعلها التابعون مع الصحابة مع علو قدرهم، فدل على أن هذا لا يفعل إلا مع الرسول (مثل التبرك بوضوئه، وفضلاته، وشعره، وشرب فضل شرايه،

(١) مدارج السالكين ١/ ٣٤٤، وانظر العلم الشامخ للمقبلي ص ٢٥١

(٢) هو إسماعيل بن عباس بن إسماعيل الأول بن حيدر بن جنيد ابن الشيخ صفى الدين الأردبيلي الصفوي، ملك المعجم في فارس، جعل التشيع دين الدولة الفارسية في عهده، كان مبدأ سلطته سنة ٩٠٦هـ، وهلاكه سنة ٩٣٠هـ. انظر الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة للغزي ٣/ ٥٣، والكنى والألقاب للقمي ٢/ ٤٢٤، وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ص ٤٩٦

(٣) انظر الصلة بين التصوف والتشيع للشيبي ٢/ ٣٧٠

(٤) انظر أربع رسائل إسماعيلية تحقيق عارف تامر ص ٧٩

(٥) انظر المنتخبات من المکتوبات للسرهندي ص ٤

وطعامه .

وفي الجملة فهذه الأشياء فتنة للمعظم، والمعظم، لما يخشى عليه من الغلو المدخل في البدعة، وربما يترقى إلى نوع من الشرك^(١).

فالتبرك بالذوات لا يكون إلا لمن نص الله تعالى على إعطائه البركة كأنبياؤه، ورسله عليهم السلام؛ وأما غيرهم من عباد الله الصالحين من العلماء، والأولياء فبركتهم بركة عمل؛ بمعنى: أنها ناشئة عن علمهم، وعملهم، وعبادتهم، لا عن ذواتهم، فبركة الصالحين تكمن في دعائهم الناس إلى الخير، ودعاء الله لهم، ونفعهم الخلق بالإحسان إليهم بنية صالحة، وبسبب صلاحهم، وإصلاحهم لغيرهم تظهر آثار بركتهم في مجتمعهم، وأما أن يعتقد الناس أن ذواتهم مباركة فيتمسحون بهم، ويشربون سؤرهم ويقبلون أيديهم، فهذا ممنوع في غير الأنبياء^(٢).

وقد رد الأمير الصنعاني^(٣) - رحمه الله - على ما استنبطه بعضهم من تقبيل الحجر الأسود فجوز تقبيل كل من يستحق التعظيم^(٤).

فاتخاذ الشيخ واسطة بين المرید وربّه في كل ما ينتابه ويحتاج إليه من أمور دينه ودنياه، والانتفاع بسببه عن دعاء الله تعالى، والتوجه إليه والتلذذ بمناجاته من الاعتقاد الفاسد المنتشر بين أوساط الصوفية - كما مر معنا - أما اتخاذ شيخ عارف بالله تعالى، وبالصراط المستقيم المؤدي إلى رضوان الله تعالى من أجل التعلم عنه والاقتداء به في كمالاته الروحية، والأخذ بتربيته الإسلامية، وتطبيق سنن الهدى الثابتة عن المصطفى ﷺ التي يرويها الشيخ عن تقدمه من أهل العلم المشهود لهم بالإمامة في الدين (فهذا أمر محمود، ومأمور به؛ إذ لا يمكن لأحد أن يعرف الله تعالى، ويعرف محابه، ومساخطه، ويعرف كيف يعبد، ويتقرب إليه إلا إذا تتلمذ لمشايخ العلم، وتعلم منهم، وتربى تحت رعايتهم، وكامل عنايتهم)^(٥).

(١) الحكم الجديرة لابن رجب ص ٤٦ (٢) انظر هذه مفاهيمنا ص ٢٠٨

(٣) هو: محمد بن إسماعيل بن صلاح بن محمد بن الحسين الأمير الصنعاني، إمام عالم، فقيه، من تصانيفه «سبل السلام شرح بلوغ المرام» و«تطهير الاعتقاد عن أدران الإلحاد»، توفي سنة ١١٨٢ هـ، انظر: البدر الطالع ١٣٣/٢، والأعلام ٣٨/٦

(٤) انظر الإنصاف في حقيقة الأولياء للصنعاني ص ٥٦

(٥) إلى التصوف يا عباد الله ص ١٣، وانظر جلاء العينين ص ٥٦٥



وهذا الاعتقاد الفاسد في الشيخ واعتباره واسطة بين الله والناس كما تبين من صورة
الواسطة البدعية عندهم في الأحياء لا ينتهي بموت الشيخ وانتقاله إلى عالم البرزخ؛ بل
سينسحب عليه الحكم بوساطته بعد موته، ويزداد الحكم توكيدا، وتصبح العلاقة بين المريد
وشيخه الميت أكثر حماسة وتوطيدا، بينما الشيخ رفات تحت الثرى بعيدا عن أعين الورى،
وهذا ما ستوضحه صورة الواسطة البدعية عندهم في الأموات في المبحث الآتي.



المبحث الرابع

صورة الواسطة البدعية عندهم في الأموات

رأينا في المبحث السابق كيف أن الصوفية يأملون الأتباع المريدين بالتعلق الشديد بالشيخ -الواسطة- في حال حياته ، فإذا مات هذا الشيخ وأصبح في عالم البرزخ فإن التعلق به يزداد ، واعتقاد وساطته يتمكن من شغاف القلوب ؛ حيث يرون أنه أصبح في عالم الأرواح ، وأن روحه قد تحررت ، وتخلصت من أغلالها الجسمية ، وقيودها البشرية ، فهي تطوف في الآفاق ، وتحوم حول المريدين وتحوطهم بالعناية دون افتراق ، فالشيخ المقبور يتصرف في الكون حيث يشاء ؛ من أجل هذا كله اشتهرت دعوة الصوفية إلى التعلق بغير الله تعالى من المقبورين ، وغيرهم ، والعكوف على المقابر ، وهذه السنة أخذتها الصوفية من الرافضة فيما أخذت من العقائد الفاسدة ، فالرافضة -كما تقدم معنا- تدعو بكل صراحة ، ووقاحة إلى الالتصاق بالقبر ، والصلاة خلفه ، وأحيانا يستحبون أن تكون عند رأس المقبور .

فانتقلت عدوى القبورية من الرافضة إلى الصوفية ، وأصبح التعلق بالمقبرين والعكوف على القبور ديدن الصوفية وشعيرة من أغلى الشعائر التعبدية عندهم ، ومن ثم نقل النبهاني عن بعض الصوفية قوله : (ومعلوم أن الأولياء أحياء في قبورهم إنما ينقلون من دار إلى دار . . . ، ومن الأولياء من ينفع مريده الصادق بعد موته أكثر مما ينفعه حال حياته ، ومن العباد من تولى الله تربيته بنفسه بغير واسطة ، ومنهم من تولاه بواسطة بعض أوليائه ، ولو ميتا في قبره ، فيربي مريده ، وهو في قبره ، ويسمع صوته من القبر)^(١) .

وقالوا بصراحة : (الولي في الدنيا كالسيف في غمده فإذا مات تجرد منه فيكون أقوى في التصرف)^(٢) .

وأكد الكوثري^(٣) هذه العقيدة القبورية قائلا : (لا بد لأهل السلوك والرشاد من

(١) شواهد الحق ص ١٥٠

(٢) إرغام المريد للكوثري ص ٢٨ ، نقلا عن جهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبورية ١٠٧٩/٢

(٣) هو محمد بن زاهد الحسن الكوثري الجركسي الحنفي ، كان فقيها جديلا متكلم ، وله اشتغال بالأدب ، والسير ، ويؤخذ عليه تعصبه وعداؤه للدعوة السلفية ، من مصنفاته : ((مقالات الكوثري)) ، توفي سنة ١٣٧١ هـ . انظر

الأعلام ١٢٩/٦ ، ومعجم المؤلفين ١٠/٤

التوسل، والاستغاثة، والاستمداد بأرواح الأجلة، والسادة الأمجاد؛ إذ هم المالك لأزمة الأمور في نيل ذلك المراد^(١).

ويقول الدباغ: (ومن آداب زائر القبور إذا أراد أن يدعو لصاحب قبر، ويتوسل إلى الله تعالى بولي من أوليائه في إجابة دعوته أن يتوسل إليه تعالى بولي ميت؛ فإنه أنجح لمقصوده، وأقرب لإجابة دعوته)^(٢).

ونجد أن صورة الواسطة في هذا النص ميت يتوسط ميت!! فالولي -بعد موته- تتعلق روحه بمريده، فيحصل له ببركته أنوار، وفيوضات، ومعارف، وفتوحات.

قال بعض العارفين: (الولي يكون اعتناؤه بقرباته، واللائذين به بعد موته أكثر من اعتناؤه بهم في حياته؛ لأنه في حياته كان مشغولاً بالتكليف، وبعد موته طرح عنه الأعباء، وتجرد، والحي فيه خصوصية، وبشرية، وربما غلبت إحداهما الأخرى، وخصوصاً في هذا الزمان، فإنها تغلب البشرية، والميت ما فيه إلا الخصوصية فقط... إن الأخير إذا ماتوا لم تفقد منهم إلا أعيانهم، وصورهم، وأما حقائقهم فموجودة، فهم أحياء في قبورهم، وإذا كان الولي حياً في قبره فإنه لم يفقد شيئاً من علمه وعقله، وقواه الروحانية؛ بل تزداد أرواحهم -بعد الموت- بصيرة، وعلماً، وحياء، وروحانية، وتوجهها إلى الله تعالى، فإذا توجهت أرواحهم إلى الله تعالى في شيء قضاه سبحانه وتعالى، وأجراه إكراماً لهم، وهذا معنى قول بعضهم: إن لهم التصرف)^(٣).

وقال ابن الحاج: (فإن كان الميت المزار ممن ترجى بركته فيتوسل إلى الله تعالى به، وكذلك يتوسل الزائر بمن يراه ممن ترجى بركته إلى النبي ﷺ؛ بل يبدأ بالتوسل إلى الله تعالى بالنبي ﷺ إذ هو العمدة في التوسل، والأصل في هذا كله، والمشرع له، فيتوسل به ﷺ ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين... ثم يتوسل بأهل تلك المقابر، أعني بالصلحين منهم في قضاء حوائجهم، ومغفرة ذنوبهم، ثم يدعو لنفسه، ولوالديه، ولشايعه، ولأقاربه، ولأهل تلك المقابر، ولأموات المسلمين، وأحيائهم... ويجأر إلى الله تعالى بالدعاء عندهم، ويكثر التوسل بهم إلى الله تعالى؛ لأنه سبحانه وتعالى اجتباهم، وشرفهم،

(١) إرغام المريد ص ٥ نقلاً عن جهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبرية ٢/ ١٠٦٥، وانظر الروحية عند محي

الدين ابن عربي للدكتور علي راضي ٩٠/ ١ (٢) الإبريز ص ١٩٤

(٣) تقريب الأصول لتسهيل الوصول لأحمد دحلان نقلاً عن شواهد الحق ص ١٤٩

وكرمهم فكما نفع بهم في الدنيا ففي الآخرة أكثر، فمن أراد حاجة فليذهب إليهم، ويتوسل بهم فإنهم الوسطة بين الله تعالى وخلقه . . . وأما عظيم جناب الأنبياء، والرسل -صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين: فيأتي إليهم الزائر ويتعين عليه قصدهم من الأماكن البعيدة فإذا جاء إليهم فليتصف بالذل، والانكسار، والمسكنة، والفقر، والحاجة، والاضطرار، والخضوع، ويحضر قلبه، وخاطره إليهم وإلى مشاهدتهم بعين قلبه، لا بعين بصره؛ لأنهم لا يبلون ولا يتغيرون، ثم يثني على الله تعالى بما هو أهله، ثم يصلي عليهم، ويترضى عن أصحابهم، ثم يترحم على التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، ثم يتوسل إلى الله تعالى بهم في قضاء مآربه، ومغفرة ذنوبه، ويستغيث بهم، ويطلب حوائجه منهم، ويجزم بالإجابة ببركتهم، ويقوي حسن ظنه في ذلك؛ فإنهم باب الله المفتوح، وجرت سنته سبحانه وتعالى في قضاء الحوائج على أيديهم، وبسببهم^(١).

فالاستعانة بروحانية المشايخ الأجلة، ووصول الفيوض الباطنية من صورهم، وقبورهم أمر مطلوب، وصحيح على الطريقة المعروفة عند أهلها، وخواصها، وليس أمراً خاصاً بما هو شائع عند العوام^(٢).

وإذا كان الشيخ -الواسطة- يوصي مريديه بالتعلق به في حياته -كما مر معنا في بيان صورة الوسطة البدعية عندهم في الأحياء فلأننا وجدنا بعض هؤلاء المتبوعين يأمر أتباعه بالتعلق به، والتوسل به إلى الله تعالى، وإنزال المريدين حوائجهم به بعد موته، ويؤكد لهم أن روحه حاضرة معهم، وعنايته شاملة لهم، وأنه لا يغيب عنهم طرفة عين، ومن ذلك قول الشيخ محمد الحنفي^(٣) في مرض موته: (من كانت له حاجة فليأت إلى قبري، ويطلب حاجته أقضها له؛ فإن ما بيني وبينكم غير ذراع من تراب، وكل رجل يحجبه عن أصحابه ذراع من تراب فليس برجل)^(٤).

وكان هذا الشيخ يقرر لأتباعه عقيدة التعلق بالقبور، والاستنجاد بالمقبور، فيقول: (إذا مات الولي انقطع تصرفه في الكون من الإمداد وإن حصل مدد للزائر بعد الموت، أو قضاء حاجة فهو من الله تعالى على يد القطب، صاحب الوقت، يعطي الزائر من المدد على قدر مقام المزور)^(٥).

(٢) انظر المهندس على المفند ص ٤٥

(٤) الطبقات الكبرى للشعراني ٩٦/٢

(١) المدخل ١/ ٢٤٨

(٣) تقدمت ترجمته .

(٥) المرجع السابق ١٠٠/٢

وذكروا عن الشيخ زروق^(١) أنه قال^(٢):-

أنا لمريدي جامع لشتاته إذا ما سطا جور الزمان بتكبة
وإن كنت في ضيق وكرب ووحشة فناد بيا زروق آت بسرعة

ويؤكد الدباغ لمريده وساطته، وعنايته به حتى بعد دفنه في التراب، فيقول له موصيا ومسلما (إن ذاتي ليست بمحجوبة في القبر؛ بل هي في العالم كله، عامرة له، ومالئة، وفي أي موضع تطلبني تجدني؛ حتى إنك لو قمت إلى سارية في المسجد، وتوسلت بي إلى الله عز وجل فإني أكون معك حينئذ، ثم أشار إلى العالم كله فقال: وأنا فيه بأجمعه، فحيثما طلبتني وجدتني!)^(٣).

فهذه التصريحات من المشايخ والأولياء أنفسهم هي التي مهدت لرسوخ هذا الاعتقاد الفاسد في أذهان المريدين.

وأصل صورة الواسطة البدعية عند الصوفية في الأموات مأخوذة عن عباد الأصنام والفلاسفة والصابئة^(٤).

وقد بين لنا العلامة ابن القيم صورة الواسطة البدعية عند الصوفية في الأموات، والقبورية عموما فقال: (فلو رأيت غلاة المتخذين لها عيدا، وقد نزلوا عن الأكوار^(٥)، والدواب إذا رأوها من مكان بعيد، فوضعوا لها الجباه، وقبلوا الأرض، وكشفوا الرؤوس، وارتفعت أصواتهم بالضجيج، وتباكوا حتى تسمع لهم النشيج، ورأوا أنهم قد أربوا في الريح على الحجيج، فاستغاثوا بمن لا ييدي، ولا يعيد، ونادوا؛ ولكن من مكان بعيد حتى إذا دبوا منها صلوا عند القبر ركعتين، ورأوا أنهم قد أحرزوا من الأجر، ولا أجر من صلى إلى القبيلتين، فتراهم حول القبر ركعا سجدا يبتغون فضلا من الميت ورضوانا، وقد ملأوا أكفهم خيبة، وخسرانا، فلغير الله؛ بل للشيطان ما يراق هناك من العبرات،

(١) هو أبو الفضل أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى شهاب الدين البرلسي الفاسي الصوفي الشهير بزروق، ولد بفاس سنة ٨٦٤هـ، له مقالات شنيعة في دعوة المريدين للتعلق به والاستمداد منه، توفي بطرابلس الغرب سنة ٨٩٩هـ. انظر شذرات الذهب (باسم إسماعيل المعروف بزروق) ٣٦٣/٧، ومعجم المؤلفين ٩٨/١

(٢) انظر روض الرياحين لعبد السميع الديوبندي ص ٢٠٦ نقلا عن جهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبورية ٢/ ١٠٨٧ (٣) الإبريز ص ٢٤٢

(٤) راجع صورة الواسطة عند الفلاسفة مما تقدم.

(٥) الأكوار: جمع كور -بضم الكاف- وهو الرحل بأدواته ويجمع أيضا على كيران، انظر مختار الصحاح ص ٥٨٢ مادة (ك و ر).

ويرتفع من الأصوات، ويطلب من الميت من الحاجات، ويسأل من تفريج الكربات، وإغناء ذوي الفاقات، ومعافة أولي العاهات، والبليات، ثم اتشوا بعد ذلك حول القبر طائفين تشبيها له بالبيت الحرام الذي جعله الله مباركا وهدى للعالمين، ثم أخذوا في التقبيل، والاستلام، أرأيت الحجر الأسود، وما يفعل به وفد البيت الحرام؟ ثم عفروا لديه تلك الجباه، والخدود التي يعلم الله أنها لم تعفر كذلك بين يديه بالسجود، ثم كملوا مناسك حج القبر بالتقصير هناك والحلاق، واستمتعوا بخلاقهم من ذلك الوثن إذا لم يكن لهم عند الله من خلاق، وقربوا لذلك الوثن القرابين، وكانت صلاتهم، ونسكهم، وقرباتهم لغير الله رب العالمين، فلورأيتهم يهني بعضهم بعضا، ويقول: أجزل الله لنا ولكم أجرا وافرا، وحظا، فإذا رجعوا سألهم غلاة المتخلفين أن يبيع أحدهم ثواب حجة القبر بحج المتخلف إلى البيت الحرام فيقول: لا، ولو بحجك كل عام! هذا ولم نتجاوز فيما حكيناه عنهم، ولا استقصينا جميع بدعهم، وضلالهم؛ إذ هي فوق ما يخطر بالبال، أو يدور في الخيال^(١).

ونقل الشيخ محمد رشيد رضا صورة للواسطة البدعية عند صوفية زمانه في الشيخ عبد القادر الجيلاني، وهي أن من يتوجه إلى بغداد المدفون بها الشيخ عبد القادر الجيلاني - (القطب) كما يزعمون - بعد أن يصلي ركعتين بالليل، ويتوجه إلى الشيخ الواسطة، ويستغيث بهذين البيتين:-

أيدركني ضيم وأنت ذخيرتسي وأظلم في الدنيا وأنت نصيري؟

وعار على راعي الحمى وهو في الحمى إذا ضاع في اليدا عقال بعيرا

ثم يناديه باسمه، ويذكر حاجته فإنها تقضى^(٢)، وتسمى هذه الصلاة عند البريلوية الصلاة الغوثية، وصورتها: أن يصلي أحدهم ركعتين، ثم يخطو في اتجاه بغداد إحدى عشرة خطوة، وكلما وضع قدمه استغاث بالشيخ الجيلاني^(٣).

وقالوا - أيضا - في بيان صورة الواسطة البدعية عندهم في زيارة قبر الشيخ الجيلاني: (أول ما يجب على الزائر أن يتوضأ وضوءا سايغا، ثم يصلي ركعتين بخشوع، واستحضار

(١) إغاثة اللهفان ١/ ٢٠٠

(٢) ذكر هذه الصورة الشيخ رشيد رضا في تعليقه على صيانة الإنسان، انظر ص ١٩٩

(٣) انظر جاء الحق لأحمد البريلوي ص ١٨٦ نقلا عن البريلوية لإحسان إلهي ظهير ص ٥٨



ثم يتوجه إلى تلك (الكعبة) المشرفة، وبعد السلام على صاحب الضريح المعظم يقول: يا صاحب الثقلين أغثني، وأمدني بقضاء حاجتي، وتفريج كربتي، أغثني يا محي الدين عبد القادر، أغثني يا ولي عبد القادر، أغثني يا سلطان عبد القادر، أغثني يا بادشاه عبد القادر، أغثني يا خوجه عبد القادر، يا حضرة الغوث الصمداني، يا سيدي عبد القادر الجيلاني عبدك، ومريدك مظلوم عاجز، محتاج إليك في جميع الأمور في الدين والدنيا والآخرة^(١).

وقد صور لنا أحدهم -وهو من المتأخرين- صورة الواسطة البدعية في زيارة السيد أحمد البدوي فقال: (الذي يجلب لفاعله الرضا، والمحبة هو أن يقف الزائر خارج الباب، فيستغفر ربه إحدى عشرة مرة من خطيئاته، وفرط لسانه التي ارتكبها قبل قدومه للزيارة؛ فإذا تطهر من خطيئاته دخل في أدب، واحترام، وقال: (لا إله إلا الله) إحدى عشرة مرة أيضاً، ويختتم الحادية عشرة بقوله (محمد رسول الله) فإنه إذا كانت روح الولي غائبة، مشغولة بأمر حضرت عند ذكر لا إله إلا الله؛ لأنه لا شيء أشهى للولي من ذكر الله، فإذا ذكر عندها حضرت على عجل، وبعد ذلك يبدأ بالسلام، فإذا سلم رد عليه السلام، ورده للسلام منحة للزائر لا يستهان بها، ثم يقرأ سورة الإخلاص إحدى عشرة مرة، ثم يقول: اللهم تقبل مني هذه القراءة، واجعل ثوابها في صحيفة سيد المرسلين، وثواب مثل ذلك لأرواح أبنائنا سيدنا آدم، وأمننا سيدتنا حواء، ومن ولدا من الأنبياء والمرسلين، والشهداء والصالحين -صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين- وثواب مثل ذلك لآل بيت النبي وأصحابه، وأزواجه، وذريته، وأهل بيته -صلى الله عليه وسلم ورضي الله عنهم وعنا، ونفعنا بهم في الدنيا والآخرة، وألحقنا بهم في الدارين آمين، وثواب مثل ذلك في صحيفة هذا الولي، ثم من يحب بعد ذلك، فإذا قدم لهم هذه الهدية طالبه بهدية مماثلة، فقال: شيء لله من المددي سيدي فلان، إحدى عشرة مرة، وبعد ذلك ييسط يديه إلى السماء، ويطلب حاجاته الدنيوية، ثم الأخروية، وعندئذ يؤمن الولي على دعائه الدنيوي، ثم الأخروي، وتأمينه قد يكون سببا في قبول دعائه، وقد يكون سببا في قبول ما هو منه مصلحة للداعي، فهذه هي صفة الزيارة التي تجلب لفاعله الرضا، والمحبة من سيدي أحمد البدوي^(٢).

(١) النظرات للمنفلوطي ٤٥/١، وانظر دعة على التوحيد ص ٢١١

(٢) العظة والاعتبار آراء في حياة السيد البدوي لأحمد محمد حجاب ص ١٥٨

وينفق القبوريون على هذه المشاهد الأموال الطائلة، ويعملون النذور لها، ويحسبون الأموال عليها، كل ذلك تعظيماً للمقبورين، واعتقاداً لوساطتهم، وقد صور الشاعر المصري حافظ إبراهيم^(١) بسخرية هذا الواقع المؤلم بقوله^(٢):-

أحيأونا لا يرزقون بدرهم وبألف ألف ترزق الأموات
من لي بحظ النائمين بحفرة قامت على أحجارها الصلوات
يسعى الأنام لها ويجري حولها بحر النذور وتقرأ الآيات
ويقال هذا القطب باب المصطفى ووسيلة تقضى بها الحاجات

وأما كيفية زيارة قبر الشيخ أحمد التجاني - وهي صورة للواسطة البدعية في الأموات عند التجانية - فهي: أن يقابل الواحد منهم الضريح وهو يقرأ (التحيات لله) إلى: (ورحمة الله) سبع مرات وفي الشامنة إلى (رسوله) صلى الله عليه وسلم، ثم يقول السلام عليك يا خليفة الله، السلام عليك يا خليفة رسول الله، السلام عليك يا أيها القطب المكتوم، السلام عليك يا سيدنا، وشيخنا مولانا أحمد التجاني، ثم يقرأ الفاتحة أربع مرات، صلاة الفاتح أزيد من إحدى عشرة ويهدي ثواب ذلك للشيخ أحمد التجاني، ثم يقول: اللهم بحق عبادك الذين إذا نظرت إليهم سكن غضبك، وبحق الخافين من حول العرش، وبحق سيدنا محمد ﷺ، وبحق سيدنا، وشيخنا، ومولانا أحمد التجاني افعل لي كذا، وكذا، ويسمي حاجته؛ فإنها تقضى إن شاء الله^(٣).

وفي صورة أخرى للواسطة البدعية في الأموات عند التجانية يذكرون أن من أتى ضريح الشيخ أحمد التجاني، وقرأ عنده سورة يس وأهدى ثوابها لشيخه التجاني، ثم أنشد هذه الأبيات:-

أيضام عبد في حماكم قد نزل يا سادة لهم السيادة في الأزل
إني أتيت لباكم مستصرحاً يا من لهم كل الأمانى والأمل
أنتم ولاة الأمر يا غيث الورى عونا لنا نصرا عيانا عن عجل

(١) هو محمد حافظ بن إبراهيم فهمي، المهندس الشهير يحافظ إبراهيم، ويلقب بشاعر النيل، ولد في ذهية بالنيل عام ١٢٨٧هـ، ونشأ يتيماً في القاهرة، واشتغل بالمحاماة، ثم التحق بالمدرسة الحربية وتخرج منها برتبة ملازم ثاني، عين في آخر عمره رئيساً للقسم الأدبي بدار الكتب المصرية، له ديوان شعر، كانت وفاته سنة ١٣٥١هـ.

انظر الأعلام ٣٠٤/٦، ومعجم المؤلفين ٢٠٤/٣ (٢) انظر ديوان حافظ إبراهيم ٣١٨/١

(٣) انظر كشف الحجاب عن تلافى مع الشيخ التجاني من الأصحاب لسيد أحمد سكيرج ص ٥٠

ثم دعا بما أراد فإن الإجابة تقع له بحول الله وقوته^(١).

ونقل النبهاني عن الشيخ علي القاري^(٢) أنه ذكر فائدة عظيمة يستحب فعلها عند قبور الأنبياء، والأولياء، والعلماء، ومن دونهم، فقال: (إذا زرت قبر نبي، أو ولي، أو عالم، أو من دونهم -مثلاً- وكنت في كرب عظيم، وأردت أن صاحب ذلك القبر تحضر روحه إليك وتشكو إليه ظلامتك؛ أي بلسان حالك، أو قالك؛ ليشفع فيك عند المليك، فيكفيك ما أهلكك ومن دالك يشفيك، فاقرأ: ﴿قل هو الله أحد﴾ عشر مرات، وإن قدمت قبل القرآن؛ أعني يس كان أجود، وأسرع، والمعوذتين، ثلاثاً، ثلاثاً، فاتحة الكتاب، والأسماء الحسنى بعد أو البقرة وآخرها، وتغمض عينيك، وتستحضر جميع قلبك، ثم تقول: (لا إله إلا الله) ثلاثاً (الله) ثلاثاً بالمد، ثم تسكت سكة لطيفة، وتقول: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته يا سيدي فلان، أو يا شيخ، أو يا أستاذي، أو يا رسول الله ﷺ أي: وتعرض على المزار ما أصابك من أقدار، يجليها بمنة الستار، بشفاة صاحب المزار، وهذه الفائدة من أكبر الفوائد)^(٣).

ويعتقد بعض الصوفية أن الميت تعود إليه الحياة بعد أربعين يوماً من دفنه، وفي هذا اليوم يعملون للميت عيداً يسمونه عيد الميت الأربعين، وقد صور لنا أحد شعرائهم الواسطة البدعية عندهم في الأموات بعد الأربعين فقال -يخاطب المقبور:-

لم لا تجيب وقد دعوت مراراً؟ يكفيك صمتاً أربعون نهارة
الليل أقبل وازدهى بنجومه ما بال نجمي في التراب توارى

ويقدم لنا الأستاذ عبد الرحمن الوكيل تجربة في القبورية والتي تعتبر صورة واضحة لما يحدث حول الأضرحة في العالم الإسلامي فيقول: (كنت أطوف حول صنم البدوي حتى إذا مثلت أمام الكوة الصغيرة في وثنه النحاسي البراق أنفذ منها يدي في رعدة التقديس حتى ألمس ستر القبر، ثم أخرجها رويداً رويداً في حرص، وحذر بالغين، وقد ضمنت قبضتيهما على... على ماذا؟ كنت أوقن حين ذاك أنني أضمتها على بركات سماوية، تفيض من روح الله على القبر، ثم أبسط يدي في جيبي، ثم أمسح بها وجهي

(٢) تقدمت ترجمته.

(١) انظر المرجع نفسه.

(٣) ذكر هذه الفائدة القبورية لعلي القاري في شرحه للحصن الحصين ونقلها عنه النبهاني، انظر شواهد الحق

رجاء أن أكون ميسر الرزق، داني قطوف النجاح، مشرق الوجه بنور الله^(١).

ويصور لنا كاتب آخر ما شاهده من أحوال الناس عند أحد المقابر، فيقول: (منهم من يتشبث بالضريح معانقا، ومقبلا، ومن لم يستطع الوصول إليه يقف ملوحا بيديه، متمتما بالدعاء، وقراءة الفاتحة، ومنهم من يخرم مقبلا عتبات الضريح، ومن الرجال من يخلع شاله^(٢) ويربطه في المقصورة، ثم يمسح يديه على وجهه، وصدره، والجميع في حاله من النشوة، والوجد)^(٣).

وإذا أردنا أن نرصد أحوال الغلاة في المقبورين وأفعال العاكفين على الأضرحة وجدنا بعضهم يصلي إلى الميت المقبور، ويدعوه، فيقول: يا سيدي فلان اغفر لي، وارحمني، وطائفة منهم يستقبلون القبر ويصلون إليه مستدبرين الكعبة، ويقولون: القبر قبلة الخاصة، والكعبة قبلة العامة، وهذا يقوله من هو أكثر الناس تظاهرا بالعبادة والزهد، وهو شيخ متبوع، فما ظنك بمريده العامي؟ فلعل أمثل أصحاب شيوخه يقوله عن شيخه وآخر من أعيان الشيوخ المتبوعين أصحاب الصدق والاجتهاد في العبادة، والورع يأمر المريد إذا أراد التوبة أن يذهب إلى قبر الشيخ فيعكف عليه عكوف أهل الأصنام على أصنامهم وجمهور هؤلاء الغلاة في المقبورين يجدون عند عبادة الأضرحة من الرقة، والخشوع، والرجاء، والخوف من المقبور ما لا يجدونه في المساجد، والمشاعر المقدسة، ومنهم من يقول: من طاف بقبر الشيخ سبعا كان كحجة، وكان بعض الشيوخ الذين عاصروا شيخ الإسلام ابن تيمية، ولهم فضل، وعلم، وزهد إذا نزلت بهم نازلة خطوا إلى جهة قبر الشيخ عبد القادر الجيلاني خطوات، واستغاثوا به.

ومن الغلاة من يقول: هذا وقتك يا شيخ فلان، أو يقول: إن لم تحضر يا شيخ فلان؛ وإلا فعل بنا، وصنع!!، وقد يقول قائلهم: إن كان لك جاء عند الله تعالى فهذا وقت جاهك، وقد يستغيث أحدهم بعدة مشايخ مقبورين، فيقول: يا سيدي فلان، وسيدي فلان، وسيدي فلان^(٤).

(١) هذه هي الصوفية ص ٤

(٢) الشال: هو المخيط خياطة خفيفة، يقال: (ثللت الثوب شلا أي خطته خياطة خفيفة) انظر المصباح المنير ١/ ٣٢٢ مادة (شَلَّت).

(٣) موالد مصر المحروسة لعرفة عبده علي ص ٦٠ نفلا عن دمعة على التوحيد ص ٦٥

(٤) انظر تلخيص كتاب الاستغاثة ٢/ ٥٦٠، وغاية الأمان ٢/ ٣٤٦، ودمعة على التوحيد ص ٥٥

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : (وآخرون قد جعلوا الميت بمنزلة الإله ، والشيخ الحي المتعلق به كالنبي ؛ فمن الميت يطلب قضاء الحاجات ، وكشف الكربات ، وأما الحي فالحلل ما حلله ، والحرام ما حرمه ، وكانوا في أنفسهم قد عزلوا الله عن أن يتخذوه إلها ، وعزلوا محمدا ﷺ عن أن يتخذوه رسولا ، وقد يجيء الحديث العهد بالإسلام ، أو التابع لهم لحسن الظن بهم ، أو غيره يطلب من الشيخ الميت : إما دفع ظلم ملك يريد أن يظلمه ، أو غير ذلك ، فيدخل ذلك السادن فيقول : قد قلت للشيخ ، والشيخ يقول للنبي ، والنبي يقول لله ، والله قد بعث رسولا إلى السلطان فلان ! فهل هذا إلا محض دين المشركين ، والنصارى ، وفيه من الكذب ، والجهل ما لا يستجيزه كل مشرك ، ونصراني ، ولا يروج عليه ؟)^(١) .

وتبلغ القبورية ذروتها في الخرافة حينما تعتمد إلى خصخصة الأضرحة ، والمشاهد ، وتقسيم تخصصات المشايخ في الفوائد ، فلكل ضريح دوره في حياة الناس : فضريح السيدة فلانة يزار لزوج العوانس ، وضريح الشيخ فلان يزوره المعدمون لبسطة الرزق ، والقادرة الشاطرة صاحبة الضريح الفلاني يحج إليها في مشاكل الحب ، والهجر ، والفراق ، والطلاق ، ومقبورة أخرى متخصصة في أمراض الأطفال ، والعيون ، وعسر الهضم ، وهكذا . . . فالقائمة لا تنتهي ، وهي مؤامرة محكمة الحلقات تلف خيوطها حول السذج ، والبسطاء من المسلمين^(٢) .

وذكر الأمير الصنعاني : أن الوسائط البدعية انتشرت في جميع النواحي ، وأصبح لكل قوم واسطة ينادونه ، فأهل العراق لهم واسطة ، وأهل الهند يتعلقون بواسطتهم ، وأهل مكة والطائف لهم واسطة ، وفي كل بلد ميت يهتف الناس باسمه ، وأهل مصر لهم واسطة ، وأهل اليمن لهم واسطة ، وفي كل قرية أموات يهتفون بهم ، وينادونهم ، ويرجونهم لجلب الخير ، ودفع الضر ، وهذا بعينه فعل المشركين في الأصنام^(٣) .

ثم قال - شعرا - من قصيدة يمدح بها الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، ويشيد بدعوته السلفية رحمهما الله تعالى^(٤) : -

(١) تلخيص كتاب الاستغاثة ٢/ ٥٦٤

(٢) انظر : كنت قبوريا ص ٣٦

(٣) انظر تطهير الاعتقاد ص ٥٨ ، ومدارج السالكين ١/ ٣٣٩ ، والدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد ضمن

الرسائل السلفية للشوكانى ص ١٦٥ ، وتوحيد الألوهية أساس الإسلام ص ٣٢١

(٤) انظر تطهير الاعتقاد ص ٥٩

أعادوا بها معنى سواع ومثله يغوث وود ليس ذلك من ودي
وقد هتفوا عند الشائد باسمها كما يهتف المضطر بالصمد الفرد
وكم نحروا في سوحها من نحيرة أهلت لغير الله جهلا على عمد
وكم طائف حول القبور مقبلا ويلتمس الأركان منهن بالأيدي

ويرى بعض المستشرقين أن ظاهرة العكوف على القبور، والاستنجاد بالمقبورين، وطلب الخوائج منهم - عند بعض المسلمين - لم تظهر إلا في القرن الثالث الهجري متأثرة بالعقيدة الكاثوليكية عند النصارى.

يقول بوته : (وفي القرن الثالث من الهجرة ظهرت في الإسلام العقيدة بالأولياء، وابتدعت زيارة قبورهم، وصاروا يعتبرون لهم خصائص، ويعزون إليهم الكرامات، والخوارق، وأشبهت القضية العقيدة الكاثوليكية من هذا الوجه، فالولي الفلاني يشفي من الريح^(١) كما كان القديس " فياكر " يشفي من مرض الباسور، والشيخ الفلاني يقصده الناس لأجل لقيا الخوائج الضائعة؛ كما كانوا في النصرانية يقصدون القديس " أنطوان بادو ". والإمام الشافعي يستغيث به طلاب الأزهر للنجاح في دروسهم؛ مثل القديس " أيف " الخ)^(٢).

وهكذا، بهذه العقيدة الكاثوليكية النصرانية دخل الشرك إلى عقائد الصوفية، من عدة منافذ، وجاءت الخرافة تجر أذيالها، كل ذلك بسبب التقليد، والمحاكاة، والتشبه، وعدم التقيد بمصدر التشريع : الكتاب، والسنة، واتباع سنن اليهود، والنصارى، كما أخبر بذلك الصادق المصدوق ﷺ، فصار ديدنهم عند الأموات، ومصارع الرفات دعاؤهم، والاستعانة بهم، والعكوف حول أجداثهم، ورفع الأصوات بالخوار^(٣)، وإظهار الفاقة، والاضطرار.

يقول الشيخ حسين النعمي (ترى هنالك ربع المشهد مأهولا، وقد قطعت إليه المهامة^(٤)، وعورا، وسهولا، والنداء لساكنه : أن يمنح، أو يريح، والتأدب، والخضوع،

(١) هكذا في النص، ولعله يقصد الريح الخارجة من البطن بسبب اضطرابات في الجهاز الهضمي.

(٢) من كتاب الإسلام والنصرانية في إفريقيا لمسيو بوته مري نقلا عن دعة على التوحيد ص ١١٧

(٣) الخوار : صياح الثور، انظر مختار الصحاح ص ١٩٢، مادة (خ، و، ر).

(٤) المهامة : جمع مهمه، وهي الصحراء البعيدة، انظر مختار الصحاح ص ٦٣٩، مادة م، هـ، هـ.

والتوقير، والرغبة، ومشاعر الرهبة، وينضاف إلى ذلك، خصوصا في الزيارات في الأعياد، والموالد- نحر الأنعام، وترك الصلاة، وصنوف الملاحية، وأنواع المعاصي للمليك العلام، وكثيرون لا طمع في حصرهم، ولعلمهم العموم- إلا من شاء الله- إن لم تلد زوجة أحدهم، أو طال مرض مريض منهم أو أصاب امرأة التوق إلى النكاح، أو قحطت الأرض، أو دهمهم نازل من عدو، أو جراد، أو غيرهما، أو راموا أمرا عناهم تحصيله فالولي في كل ذلك نصيب العين.

ومن عجيب ما أتته العامة من طرائف هذا الباب، وغرائبه الفاحشة ما شاهدناه بالمعينة مكتوبا على راية مشهد من المشاهد (هذه راية البحر التيار فلان بن فلان به أشتغيت، وأستجير، وبه أعوذ من النار).

ومنهم أقوام يخاطبون المقبور من مسافة أربعة برد، وأكثر من ذلك وينادونه، يسألونه المطر... ومن ذلك أن امرأة كف بصرها، ومات ولدها فنادت وليها: أما الله فقد صنع ما ترى، ولم يبق إلا حسبك في، ومن ذلك، وهو أشهر عجائبهم المعلومة في نواح من البلدان، شراؤهم الأولاد- بزعمهم- من الولي بشيء معين، فيبقى ثمنه رسما جاريا يؤدي كل عام لصندوق الولي، وإن كانت امرأة فمهرها له أو نصف مهرها؛ إذ هي مشترة منه... ومن ذلك- وهو أيضا من طرائف ما يحكى- أن رجلا سأل من فيه مسكة من عقل، فقال: كيف رأيت الجمع لزيارة الشيخ؟ فأجابه: لم أر أكثر منه إلا في جبال عرفات؛ إلا أنني لم أرهم سجدوا لله سجدة قط، ولا صلوا مدة الثلاثة الأيام فريضة، فقال السائل: قد تحملها عنهم الشيخ!!^(١).

وبناء على هذا الاعتقاد الفاسد في المقبورين نشأ شرك الألوهية؛ حيث توجه القبوريون إلى الأضرحة، وأصحابها بالعبادات، والتقربات التي لا يصح صرفها إلا لله عز وجل بدعوى نيل البركة ظانين أنهم بزيارتهم لهذه الأضرحة ستأتيهم البركة، ويشفون من مرضهم، أو يفكون عقم نسلهم، وكانوا يمسحون عمامة صاحب الضريح- بعد الولائم- أملا في شفاء أوجاع الرأس، ويمسحون قفطانة للعلاج من الحمى، لحسن الحجر لفق عسر اللسان، وتقديم العرائض طلبا لرفع الظلم، وتمسح النساء في الضريح أملا في إنجاب

(١) معارج الأبواب ص ٢٠٢ وما بعدها (بتصرف).

الذكور، ولم يستح القبوريون في طلبهم المنهوم للبركة المزعومة أن يستسيغوا المعاشرة الزوجية في هذه الأضرحة، فهذا الشعراني صاحب أكبر سجل لخرافات القبوريين يذكر من كرامات البدوي أنه دعاه إلى فض بكارة زوجته فوق قبة قبره فكان الأمر، وفي السودان وصل الأمر في العصر الحاضر عند بعض الرجال المخرفين إلى مجامعة زوجاتهم عند أضرحة الأولياء، بدعوى نيل البركة!)^(١).

وهذه الأمور التي ابتدعها القبوريون عند الأضرحة مراتب - كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية:

المرتبة الأولى: (أبعدها عن الشرع أن يسأل الميت حاجة، أو يستغيث به فيها، كما يفعله كثير من الناس بكثير من الأموات، وهو من جنس عبادة الأصنام؛ ولهذا تتمثل لهم الشياطين على صورة الميت، أو الغائب كما كانت تتمثل لعباد الأصنام؛ بل أصل عبادة الأصنام إنما كانت من القبور... وقد يرى أحدهم القبر قد انشق وخرج منه الميت، فعانقه، أو صافحه، أو كلمه، ويكون ذلك شيطاناً تمثل على صورته ليضله، وهذا يوجد كثيراً عند قبور الصالحين، وأما السجود للميت، أو للقبر فهو أعظم، وكذلك تقبيله.

المرتبة الثانية: أن يظن أن الدعاء عند قبره مستجاب، أو أنه أفضل من الدعاء في المساجد، والبيوت، فيقصد زيارته لذلك، أو للصلاة عنده، أو لأجل طلب حوائجه منه، فهذا أيضاً من المنكرات المبتدعة باتفاق أئمة المسلمين.

المرتبة الثالثة: أن يسأل صاحب القبر أن يسأل الله له، وهذا بدعة باتفاق أئمة المسلمين)^(١).

ويدعي بعض الصوفية أن الولي المقبور يجيب الفقير الصوفي إذا ناداه من قبره، ولا يجيب الفقيه السني، والسبب - عنده - هو أن الفقير الصوفي يعتقد في المقبور النفع، والضرر، وأما الفقيه السني، فلا يعتقد ذلك؛ ولهذا لما سأل الشعراني شيخه علياً الخواص: ما السبب الذي أجاب به مشايخ الطرق مريديهم، وهم في قبورهم، وحرّم ذلك الفقهاء مع أئمتهم؟ أجابه بأن السبب هو اعتقاد الصوفي الصحيح، فالصوفي يعتقد في شيخه أنه حي

(١) دمعة على التوحيد ص ٦١، وانظر التبرك أنواعه، وأحكامه للجديع ص ٤٧٣

(٢) تلخيص كتاب الاستغاثة ١/١٤٦، وانظر اقتضاء الصراط المستقيم ٢/٦٥٧، وزيارة القبور والاستنجاد بالمقبور

ص ١٧، وإغاثة اللهفان ١/٢٢٢، وفتاوى اللجنة الدائمة ٢/٢٨٠

في قبره، والحي يجيب من ناداه، والفقيه يعتقد أن إمامه قد مات، والميت لا يجيب من ناداه، فلو صح اعتقاد الفقيه وصدق في تعلقه بهؤلاء الوسائط المقبورين لأجابوه من قبورهم، كما أجابوا من ناداهم من فقراء الصوفية الذين يعتقدون حياة هؤلاء الأئمة في قبورهم، فالأمر تابع لاعتقاد المريد، لا للمشايخ، والله أعلم! (١).

فليت غلاة الصوفية الذين ابتلوا بالعكوف على القبور، والتعلق بالمقبورين علموا أن صاحب القبر الذي يدعونه صباحا، ومساء، قد غيَّب في الثرى، بعيدا عن أعين الورى، وأنه يتمنى من الحي أن يتصدق عليه بدعوة خالصة، أو يهبه صدقة جارية، وأنه يقول بلسان الحال (٢): -

ومن عجب أني لغيرك شافع إليك وبى فقر إلى ألف شافع!!

لَيْتَهُمْ علموا ذلك، يقول العلامة ابن القيم: (فبدل أهل البدع، والشرك قولا غير الذي قيل لهم، بدلوا الدعاء له بدعاء نفسه، والشفاعة بالاستشفاع به، وقصدوا بالزيارة التي شرعها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم - إحسانا إلى الميت وإحسانا إلى الزائر، وتذكيرا بالآخرة: سؤال الميت، والإقسام به على الله، وتخصيص تلك البقعة بالدعاء الذي هو مخ العبادة، وحضور القلب، عندها وخشوعه أعظم منه في المساجد، وأوقات الأسحار، ومن المحال أن يكون دعاء الموتى، أو الدعاء بهم، أو الدعاء عندهم مشروعا، وعملا صالحا، ويصرف عنه القرون الثلاثة المفضلة، وبنص رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ثم يزرقه الخلف الذين يقولون مالا يفعلون، ويفعلون مالا يؤمرون، فهذه سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في أهل القبور بضعا وعشرين سنة حتى توفاه الله تعالى؛ هل يمكن بشر على وجه الأرض أن يأتي عن أحد منهم بنقل صحيح، أو حسن، أو ضعيف، أو منقطع أنهم كانوا إذا كان لهم حاجة قصدوا القبور، فدعوا عندها، وتمسحوا بها؛ فضلا عن أن يصلوا عندها، أو يسألوا الله بأصحابها، أو يسألوهم حوائجهم؟) (٣).

(١) انظر الجواهر والدرر للشعراني مطبوع بهامش الإبريز ص ٥٩

(٢) انظر يتيمة الدهر للثعالبي.

(٣) إغاثة اللفهان ٢٠٨/١، وانظر الدر النضيد ضمن الرسائل السلفية للشوكاني ص ١٧٢، وزيارة القبور الشرعية، والشركية للبركوي ص ١٨، وغاية الأمانى ٣٠/٢، وجهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبرية ١١٣٨/٢

فينبغي للمسلم أن يعلق قلبه بالحي الذي لا يموت لتحقيق آماله، وقضاء حوائجه، وبلوغ عزه؛ لأن من علق آماله بمقبور ميت فأماله ميتة، قال الله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا﴾^(١) وقال تعالى: ﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٢)

(١) سورة الفرقان الآية ٥٨

(٢) سورة غافر الآية ٦٤

المبحث الخامس

نظرة الصوفية لشيخوهم "وسائطهم"

توطئة: لقد مر معنا في المبحث الثالث من هذا الفصل صورة الواسطة البدعية عند الصوفية في الأحياء من شيخوهم، وتناولت في المبحث الرابع -أيضا- صورة الواسطة البدعية عندهم في الأموات، وسأتناول في هذا المبحث نظرة الصوفية لشيخوهم، ووسائطهم، عموماً؛ الأحياء منهم، والأموات، وهذا التقسيم إنما هو من مقتضيات منهج البحث العلمي الذي يعني بترتيب الأفكار المتقاربة، وتقسيم الفكرة إلى أجزاء متعددة؛ لتكون أسهل تناولا، وأشد رسوخا في ذهن القارئ، ومع أنني معترف بأن الكلام في هذا المبحث يمكن أن يتجاذب أطرافه المبحثان السابقان، من بعض الجوانب؛ إلا أنني قصدت بهذا المبحث بيان نظرة الصوفية لشيخوهم ووسائطهم عموماً، دون الاختصار على بيان صورة الواسطة البدعية عندهم في الأحياء، أو المقبورين، ومظاهر التوسيط التي ابتلي بها أولئك المجانين؛ محاولا تجنب التكرار في النقول، مع بيان نظرتهم باختصار يوحى بالشمول.

تعتني الصوفية بالزهد، والمجاهدة النفسية، وعصيان الهوى، والصبر على المداومة على الطاعة، والمرابطة في المساجد، إلا أن هناك أمرا عقديا خطيرا أخطأت فيه الصوفية ينسف كل ما قلنا عنهم سلفا، ويوقعهم في بؤرة الشرك، ومستنقع الخرافة، إنه الغلو في الشيوخ، ورفع منزلتهم إلى مقام الأنبياء، وادعاء وساطتهم، وقدراتهم الخارقة، وتصرفهم في الإنسان، والكون، وإضفاء كثير من الأوصاف عليهم، لا تليق إلا بالباري سبحانه وتعالى، حتى أصبح الشيخ عالما خرافيا يبني على ادعاء وساطته كثير من التصورات الخاطئة، والدعاوى الكاذبة.

يقول الأستاذ عبد الرحمن الوكيل: (ما ألحفت^(١) الصوفية في شيء إلحافها في الدعوة إلى اتخاذ شيخوها أربابا من دون الله، وفرضت على الدرويش أن يكون وطاء ذليلا لشيخه مستعبد الفكر سليب الإرادة كجثة الميت في يد الغاسل، وجعلت هذه العبودية الممتثلة أولى الدلائل على طاعة المريد لشيخه وعلى حبه له، وعلى أنه يرقى معارج الوصول إلى

(١) ألحفت بالشيء: أضربه. انظر القاموس المحيط ٣/ ٢٠١ مادة (لحفه).

حظائر القدس^(١) .

ويقول أيضا : (فالصوفية يعتقدون أن أولياءهم ليسوا بشرا وإنما هم آلهة تخلق ما تشاء وتختار ، أو هم - كما نقلنا من قبل - ذات الله سبحانه وتعالى تجسدت مرة فكانت تجانية ، وأخرى فكانت نقشبندية ، وأخرى فكانت رفاعية ، أو شاذلية ، أو برهامية^(٢) (١١) (٣) .

فالشيخ عند غلاة الصوفية إله يعطونه كل صفات الألوهية ، وهذا هو الأساس في كل طريقة ، والاعتقاد السائد عند معتنقيها ، وما تفرقت الطرق إلا اتباعا لتعدد الشيوخ ، وتسمى كل طريقة باسم شيخها ، ومؤسسها ، وكلهم يعبدون الشيوخ ، وأقوالهم شاهدة عليهم بذلك كال تبرك بذواتهم ، والركوع أمام قبورهم ، ولثم حجارتها ، والاستغاثه بما فيها من رم^(٤) ، وأمثلهم طريقة في ذلك من يعتقد أنهم واسطة بينه وبين الله تعالى ، وأنهم يقربونه إلى الله زلفى ، وحسن مآب ، وأفعالهم ، وأقوالهم شاهدة عليهم بوضوح كوضوح الشمس على أنهم يؤلهون شيوخهم ، ويعبدونهم ، ولو طفقنا نجمع أقوال عارفيهم ، وأقطابهم في تأليه الشيوخ لملأنا ألوف الصفحات ، وضيعنا نفيسا من الأوقات^(٥) . لكن الذي يتمشى مع الرسالة ، ويسمح به منهج البحث هو إجمال نظرتهم لشيوخهم في النقاط التالية : -

أولا : حقيقة الشيخ الذي لا يصح إيمان ، ولا هدى ، ولا صلاح ، ولا فلاح إلا باتباعه .

إذا طرحنا السؤال التالي : وهو ما هي حقيقة الشيخ الذي يكون بهذه المنزلة؟ يجيبنا عليه شيخ التجانية أحمد التجاني بقوله : (أما ما هي حقيقة الشيخ الواصل؟ فهو الذي رفعت له جميع الحجب عن كمال النظر إلى الحضرة الإلهية نظرا عينيا ، وتحقيقا يقينيا؛ فإن الأمر أوله محاضرة ، وهو مطالعة الحقائق من وراء ستر كثيف ، ثم مكاشفة ، وهو مطالعة الحقائق من وراء ستر رقيق ، ثم مشاهدة ، وهو تجلي الحقائق بلا حجاب ، لكن مع خصوصية . . فهذا هو الشيخ الذي يستحق أن يطلب ، ومتى عشر المريد على من هذه صفته فاللازم في حقه أن يلقي بنفسه بين يديه كالميت بين يدي غاسله ، لا اختيار له ، ولا إرادة ، ولا إعطاء

(٢) هكذا في النص المطبوع ، ولعله يقصد الطريقة البرهانية .

(١) هذه هي الصوفية ص ٩٩

(٣) هذه هي الصوفية ص ١٠٢

(٤) الرم : جمع رمة بكسر الراء : وهي العظام البالية . انظر مختار الصحاح ص ٢٥٧ مادة (ر ، م ، م) .

(٥) انظر الكشف عن حقيقة الصوفية ص ٣١٧ وما بعدها (بتصرف) .

له، ولا إفادة، ومتى أشار عليه بعمل، أو أمر فليحذر من سؤاله بلم؟ وكيف؟ وعلام؟ ولأي شيء؟ فإنه باب المقت، والطرْد^(١).

ويقول القشيري: (ثم يجب على المريد أن يتأدب بشيخ؛ فإن لم يكن له أستاذ لا يفلح أبداً، هذا أبو يزيد يقول: من لم يكن له أستاذ فإمامه الشيطان، وسمعت الأستاذ أبا علي الدقاق^(٢) يقول: (الشجرة إذا نبتت بنفسها من غير غارس فإنها تورق؛ لكن لا تثمر، كذلك المريد إذا لم يكن له أستاذ يأخذ منه طريقته نَفَسًا فَنَفَسًا فهو عابد هواه)^(٣).

ويقول ابن عربي في فتوحاته - شعرا-^(٤) :-

ما حرمة الشيخ إلا حرمة الله	فقم بها أدبا لله بالله
هو الأدلاء والقربى يؤيدهم	على الدلالة تأييدا على الله
كالأنبياء تراهم في محاربهم	لا يسألون من الله سوى الله
فإن بدا منهم حال تولهم	عن الشريعة فاتركهم مع الله

ويقول أبو حامد الغزالي: (فكذلك المريد يحتاج إلى شيخ وأستاذ يقتدي به لا محالة؛ ليهديه إلى سواء السبيل، فإن سبيل الدين غامض، وسبيل الشيطان كثيرة ظاهرة، فمن لم يكن له شيخ يهديه قاده الشيطان إلى طرقه لا محالة... فمعتصم المريد - بعد تقديم الشروط المذكورة - شيخه، فليتمسك به تمسك الأعمى على شاطئ النهر بالقائد؛ بحيث يفوض أمره إليه بالكلية، ولا يخالفه في ورده، ولا صدره، ولا يبقى في متابعته شيئا، ولا يذر؛ ليعلم أن نفعه في خطأ شيخه - لو أخطأ - أكثر من نفعه في صواب نفسه - لو أصاب - فإذا وجد مثل هذا المعتصم وجب على معتصمه (أي شيخه) أن يحجبه، ويعصمه بحصن حصين)^(٥).

ويطلبون من المريد الصادق أن يكون مع شيخه كالميت مع مغسله، ولا يتكلم، ولا

(١) جواهر المعاني ١/ ١٢٥، وانظر مجموع رحلات الشيخ إبراهيم إنياس ص ١٠، والشيخ إبراهيم إنياس السنغالي حياته وأراؤه وتعاليمه لمحمد الطاهر ميغري ص ٢٤٩

(٢) هو أبو علي الحسن بن علي بن محمد النيسابوري الشافعي المعروف بالدقاق، شيخ القشيري الصوفي، وكان يثني عليه، من آثاره كتاب الفسحاي. مات سنة ٤٠٥ هـ، انظر شذرات الذهب ٣/ ١٨٠، ومعجم المؤلفين ١/ ٥٧٢

(٣) الرسالة القشيرية ص ٣٨٠

(٤) انظر الفتوحات المكية الباب الحادي والثمانون بعد المائة.

(٥) إحياء علوم الدين ٣/ ٦٥،

يتحرك، ولا يشتغل بشيء؛ حتى بالقرآن، والذكر إلا بإذنه^(١)، وفي هذا المعنى يقول شاعرهم^(٢):-

وكن عنده كالميت عند مغسل يقلبه ما شاء وهو مطاع

ثم بعد وصول المريد إلى شيخ كامل مكمل، (لا شيء عليه سوى تفويض جميع مراداته إليه، وكونه كالميت بين يدي الغسال لديه، والفناء الأول: هو الفناء في الشيخ، ويكون هذا الفناء وسيلة الفناء في الله:-

من أجل كونك في البداية أحولاً لا بد من شيخ يقودك أولاً

فإن طريق الإفادة، والاستفادة مبني على وجود المناسبة بين الطرفين، والطلب لا بد له أولاً من برزخ ذي جهتين؛ لكونه في الابتداء في غاية الدناءة، ونهاية الخساسة، وعدم مناسبته أصلاً لجناب قدسه، جل سلطانه من هذه الحيثية، وذلك البرزخ هو الشيخ الكامل المكمل^(٣).

ومن شأن المريد الصادق -إذا أراد أن يذكر الله تعالى، أو يفعل عبادة من العبادات- أن يستحضر نظر شيخه إليه؛ ليزداد أدبه، ويضم شتات قلبه^(٤).

وهذا شيخ الرفاعية الذي تروى عنه الكرامات، والأعاجيب يقول: (من لم يكن له شيخ فشيخه الشيطان . . . وينبغي للمريد أن يعرف لشيخه الحق بعد وفاته، كما كان يعرف له الحق في حال حياته، وقال: من يذكر الله تعالى بلا شيخ، لا الله له حصل!، ولا نبيه!، ولا شيخه!)^(٥).

ولا ريب في أن من يتفوه بهذا الكلام، ويدعو المسلمين إلى هذا الاعتقاد الفاسد لا ريب أنه خطأ بالتصوف خطوات جاوز بها مستنقع البدعة حتى سقط في بحر الشرك، والعياذ بالله، واستمع إلى صوفي آخر من هذا القبيل، يقول الدبّاغ: (. . . فإن المريد لا يجيء بشيء حتى لا يكون في قلبه غير الشيخ!، والله!، والرسول!)^(٦). وانظر إلى هذه المحبة

(١) انظر الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية للشعراني ١/ ١٨٩ نقلا عن الكشف عن حقيقة الصوفية ص ٣١٩

(٢) هذا البيت للجليلي نقله عنه الأستاذ عبد الرحمن الوكيل . انظر هذه هي الصوفية ص ١٠٠

(٣) المتخبات من المكتوبات للسهرندي ص ٢١

(٤) انظر الأنوار القدسية ٢/ ٩٨ نقلا عن الكشف عن حقيقة الصوفية ص ٣٢١

(٥) قلادة الجواهر في ذكر الغوث الرفاعي وأتباعه الأكابر لأبي الهدى الصيادي ص ١٧٧ نقلا عن الكشف عن

(٦) الإبريز ص ٣١

حقيقة الصوفية ص ٣٢١

الثلاثية، ولاحظ تقديم الشيخ في الذكر على رب العزة، والجلال، وعلى نبيه المصطفى ﷺ، وقالوا: (من يطع الشيخ فقد أطاع الرسول) ^(١). وهذا الاعتقاد الفاسد في الشيخ هو الرابطة عند النقشبندية؛ لأن الرابطة -عندهم- (عبارة عن ربط القلب بالشيخ الكامل وحفظ صورته بالخيال، ولو عند غيبته، أو بعد وفاته، ولها صور، أهونها أن يتصور المريد صورة شيخه الكامل بين عينيه، ثم يتوجه إلى روحانيته في تلك الصورة، ولا يزال متوجها إليها بكليته حتى يحصل له الغيبة، أو أثر الجذب . . . وهكذا يداوم على الرابطة حتى يفنى عن ذاته، وصفاته في صورة الشيخ . . . فتربيه روحانية الشيخ بعد ذلك إلى أن توصله إلى الله تعالى، ولو كان أحدهما في المشرق، والآخر في المغرب، فبالرابطة يستفيض الأحياء من الأموات المتصرفين) ^(٢).

فحقيقة الحب التام للشيخ أن يحب المريد الأشياء من أجله، ويكرهها من أجله، كما هو الشأن في محبة الله عز وجل ^(٣) -تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، واسمع إلى صوفي آخر يقول: (قال بعض المشايخ: من لم يتأدب بأوامر الشيوخ وتأديبهم فلا يتأدب بكتاب، ولا سنة) ^(٤)، فتراهم يوجبون على كل صوفي طلب الشيخ المرشد، الواسطة؛ ليخلص نفسه من الرذائل النفسانية، والشیطانية، عاجلا وأجلا، وهذا الوجوب النظري أمر وضعي طبيعي، وهذا الأصل في طلب القرب من الله غاية مطلوبة؛ لأن من تحقق بحالة لم يخل حاضره منها؛ فلذلك أمر المريد بصحبة الشيخ الكامل، والتعلق به ^(٥)، ويحرمون عليه التعلق بشيخ آخر، أو حتى زيارته حيا، أو ميتا ^(٦)، فلا يصح إيمان أحد -عندهم- ولا هدايته، ولا توفيقه، ولا صلاحه، ولا فلاحه إلا عن طريق الشيخ ذي القدرات الخيالية، وإذا رد عليهم أهل العلم بأن هذه الأمور بيد الله تعالى يهبها لمن يشاء؛ ولو لم يسلك طريقة من الطرق، ولا ربط قلبه بشيخ من الشيوخ قالوا: (والذي يقضي منه العجب أن من طلب سعدى، وسلمى، لا يصل إليهما -مع وجود الجنسية، والقرب القريب- إلا بواسطة، يهديه، ويوصله، وهذا الغافل يطمع أن يصل إلى الحضرة الإلهية -مع ذلك

(١) جواهر البحار في فضائل النبي المختار للنبهاني ٣/ ٣٠٤

(٢) السعادة الأبدية فيما جاء به النقشبندية لعبد المجيد الخاني ص ٢٢ نقلا عن الكشف عن حقيقة الصوفية ص ٣٢٤

(٣) انظر الأنوار القدسية ١/ ١٦٩ نقلا عن الكشف عن حقيقة الصوفية ص ٣٢٢

(٤) رماح حزب الرحيم ١/ ١١٦ (٥) انظر المصدر السابق ١/ ١١٢

(٦) انظر نخبة المطلوب لمحمد بن الخديم ص ١٤٢

البعد البعيد- من غير واسطة، ودليل ما أهون عليك أمر ربك يا غافل! (١).

ثانياً: عصمة الشيخ، وحفظه (٢): تدعي الصوفية أن هذا الشيخ الذي مرت حقيقته، وقدراته، وأهميته في التوسط للمريدين عند الله تعالى - تدعي أنه معصوم من الخطأ، والزلات، وبعضهم يدعي أنه يأخذ عن الله بلا واسطة، وأنه يأتيه الوحي، والإلهام، وحتى صرح بعضهم بنزول الملك على الشيخ.

يقول الشعراني: (اعلم أن بعض العلماء أنكروا نزول الملك على قلب غير النبي ﷺ لعدم ذوقه له، والحق أنه ينزل؛ ولكن بشريعة نبيه - عليه الصلاة والسلام، فالخلاف إنما ينبغي أن يكون فيما ينزل به الملك لا في نزول الملك، وإذا نزل على غير نبي لا يظهر له حال الكلام أبداً؛ إنما يسمع كلامه، ولا يرى شخصه، أو يرى شخصه من غير كلام، فلا يجمع بين الكلام، والرؤية إلا نبي، والسلام) (٣)، فكل من قال: إن الولي لا يشاهد الملك، ولا يكلمه فذلك دليل على أنه غير مفتوح عليه (٤).

وبعض الحذاق من الصوفية يخشى التصريح بالقول بالعصمة فيقول: الأنبياء معصومون، والأولياء محفوظون (٥).

وهذا الأمر مشهور عند الصوفية (فطائفة من النساك، والعباد يزعمون في بعض المشايخ أو في من يقولون إنه ولي الله إنه لا يذنب، وربما عينوا بعض المشايخ زعموا أنه لم يكن لأحدهم ذنب، وربما قال بعضهم: النبي معصوم، والولي محفوظ، ومن عالية هؤلاء من يعتقد في بعض المشايخ من الإلهية والنبوة ما اعتقدته الغالية في علي، ويزعم أن الشيخ يخلق، ويرزق، ويدخل من يشاء الجنة، ومن يشاء النار، ويعبده، ويدعوه كما يعبد الله، ويقول: كل رزق لا يرزقنيه الشيخ فلان فإني لا أريده، ويذبح الذبائح باسمه، ويصلي، ويسجد إلى جهة قبره، ويستغيث به في الحاجات كما يستغاث بالله تعالى، فأما ضلال هذه الغالية فشرک واضح) (٦).

(١) رماح حزب الرحيم ١١٦/١

(٢) راجع البحث السابق تنقيض بعض أهل الأهواء لمقام الواسطة الصحيحة.

(٣) رسالة الفتح في تأويل ما صدر عن الكمل من الشطح للشعراني نقلاً عن جلاء العينين في محاكمة الأحمدين

ص ١٣٧ (٤) انظر الإبريز ص ١٥١ ورماع حزب الرحيم ١٦٧/١

(٥) انظر الجواهر والدرر مطبوع بهامش الإبريز ص ١٢٥، والرد عليهم في بغية المرتاد ص ٤٩٦، والنبوات

ص ١٦٧، ولوامع الأنوار ٣٣٨/١ (٦) جامع الرسائل المجموعة الأولى ص ٢٦٤

وإذا كان إمام المحدثين عمر رضي الله عنه يجوز عليه الخطأ والنسيان، فليس في شيوخ الصوفية معصوم؛ بل الخطأ يجوز عليهم كلهم، كما قال أبو الحسن الشاذلي: (قد ضمنت لنا العصمة فيما جاء به الكتاب والسنة، ولم تضمن لنا العصمة في الكشف، والإلهام)^(١).

ويقول الإمام الشاطبي: (رأى قوم التغالي في تعظيم شيوخهم حتى أحقوهم بما لا يستحقونه؛ فالمتصد منهم يزعم أنه لا ولي لله أعظم من فلان، وربما أغلقوا باب الولاية دون سائر الأمة، إلا هذا المذكور، وهو باطل محض، وبدعة فاحشة... والمتوسط يزعم أنه مساو للنبي ﷺ إلا أنه لا يأتيه الوحي، بلغني هذا عن طائفة من الغالين في شيخهم إلى الحاملين لطريقتهم في زعمهم نظير ما ادعاه بعض تلامذة الحلاج في شيخهم على الاقتصاد منهم فيه، والغالي يزعم فيه أشنع من هذا، كما ادعى أصحاب الحلاج في الحجاج وهذا نمط الشيعة الإمامية، ولولا الغلو في الدين، والتكالب على نصر المذهب، والتهالك في محبة المبتدع لما وسع ذلك عقل أحد.

ومن تأمل هذه الأصناف وجدلها من البدع في فروع الشريعة كثيرا؛ لأن البدعة إذا دخلت في الأصل سهلت مداخلها الفروع)^(٢).

ويقول شيخنا صالح السحيمي -حفظه الله-: (من أعظم العوامل، والأسباب التي أدت إلى ذبوع البدعة، وانتشارها بين الناس التقليد الأعمى للشيوخ في الأصول، والفروع، فقول الشيخ مقدم -عند المبتدعة- على قول الله ورسوله، وأكثر ما يوجد ذلك عند الرافضة، وأصحاب الطرق الصوفية، كما يوجد -أيضا- عند متعصبة الفقهاء، فأتباع الشيوخ يتلقون الأصول التي يسمعونها ويشاهدونها من شيوخهم، ويأخذونها مسلمة على أنها الطريق الوحيد الذي يقربهم إلى الله؛ حتى وإن خالفت هدي الكتاب، والسنة، فيعتقدون أنها من التشريع الذي خص الله به أصفياه، وأوليائه، وعباده المقربين، بالغوا في ذلك حتى اعتقد كثير منهم في الشيوخ العصمة، وأنهم لا يفعلون إلا حقا؛ لأنهم معصومون من الخطأ، فيتبعونهم في كل ما يؤثر عنهم، من قول، أو فعل؛ على أنه الطريق المقرب إلى الله الموصل إلى رضاه)^(٣).

(٢) الاعتصام ١/٢٥٨

(١) مجموع الفتاوى ٢/٢٢٦

(٣) تنبيه أولي الأبصار إلى كمال الدين وما في البدع من الأخطار ص ١٤٢

ثالثاً: تقديس الشيخ والتهويل من قدراته، وطاقاته: لا تفتأ الصوفية تضع على شيوخ الطرق هالات من التقديس، وتحوطهم بوشاح من التعظيم، يخرج بهم - في كثير من الأحيان - عن حدود المخلوقية مما يجعلهم أضحوكة في أعين العقلاء، فالشيخ مطلع على خاطر مريده، فإذا أراد المريد من شيخه قضاء حاجة ما، فما عليه سوى أن يذكرها لشيخه، فإن الشيخ يسرع له في الإجابة ويقضيها في الباطن.

يقول الدباغ لتلميذه: (إذا أردت قضاء حاجة لك أو لغيرك فاذكرها لي، ولا تزدد أي لا تحرص في قضائها، ولا تهتم بها، فإن ذلك سبب عدم قضائها، فكان الأمر كذلك، فكنا إذا عرضت حاجة، وذكرناها له، وسكتنا، جاء فيها الفرج سريعاً، وإذا وقع لنا بها اهتمام، وعناية انغلق بابها^(١)). وذكر الشعراني أن أحد شيوخه ووسائطه كان إذا ناداه مريده من مسيرة سنة أو أكثر أجابه بسرعة^(٢).

فالأولياء، وشيوخ الطرق مستولون على مريديهم، وأتباعهم، فهذا الدسوقي^(٣) نقلوا عنه أنه قال - يخاطب تلميذه - (يا ولدي: إن صح عهدك معي فأنا معك قريب غير بعيد، وأنا في ذهنك، وأنا في سمعك، وأنا في طرفك، وأنا في جميع حواسك الظاهرة، والباطنة، وإن لم يصح عهدك لا تشهد مني إلا البعد^(٤)).

وبعد استيلاء الشيخ على ظاهر المريد وباطنه، واستعمارها، والتصرف فيه حيث يشاء الشيخ يصبح المريد حاملاً بالشيخ، كما يقول الدباغ: (إن المريد إذا أحب الشيخ المحبة الكاملة سكن الشيخ معه في ذاته، ويكون بمنزلة الحبلى التي تحمل بولدها؛ فإن حملها تارة يتم صلاحه، فيبقى على حالة مستقيمة إلى أن تضعه، وتارة يسقط، ولا يجيء منه شيء، فهكذا حالة المريد إذا حمل بشيخه، فتارة تكون محبته خالصة تامة دائمة، فلا يزال أمر الشيخ يظهر في ذاته إلى أن يفتح الله عليه، وتارة تكون محبته منقطعة^(٥)).

فإذا تعذر على المريد الوصول إلى الشيخ، والاستمتاع بالنظر إلى جنبه؛ لعروض مرض أو أمر قاهر فليشخص شيخه بين عينيه بصفته، وهياته، وملامحه، ويشكو له ما ألم

(٢) انظر الطبقات الكبرى ١٩/٢

(١) الإبريز ص ١٩٠

(٣) هو إبراهيم بن محمد بن عبد الرحمن الدسوقي الصوفي، له مقالات بصادم الشرع، ولأتباعه غلو فيه، مات سنة ٩١٩ هـ. انظر طبقات الشعراني ١/١٦٥، وشذرات الذهب ٨/٩٠، ومعجم المؤلفين ١/٦٤

(٥) الإبريز ص ٢١٧

(٤) الطبقات الكبرى للشعراني ١/١٥٠

به ؛ فإنه يبرأ بإذن الله ، وإن كان المريد في جماعة من الناس ، واستحى منهم فليشتك إلى شيخه بقلبه عن طريق الخواطر^(١) . ويقول أحدهم -ولعله قد جمع بين بدعتي الرفض والتصوف^(٢) - (والشيخ فضلا عن أن تأثيره ثابت ؛ فإن نوره ينتشر في كل مكان ، ومع أنه شخصية روحية ، واضحة المعالم ؛ لكنه مقترن -داخليا- بالنور الذي يشرق على البر ، والبحر ، ويضيء كل شيء للمريد المرتبط به)^(٣) .

وما دام الشيخ يدعي هذه الدعاوى لنفسه ، ويهول من قدراته ، وأنه مع مريده أينما كان بهذا الاعتقاد ، فلا نستبعد أن ينتج عن هذا التصور الخاطئ توجه المريد إلى شيخه بالدعاء ، والرجاء بقصد قضاء الحاجات ، وتحقيق الرغبات ، ومنهم من يرفع شيخه فوق منزلته ، ويصفه بأوصاف الربوبية التي لا يستحقها إلا من يأتي بالشمس من المشرق حتى وصلت الوقاحة بأحدهم متتهى الغاية فقال : (لو رأيت أبا يزيد^(٤) مرة واحدة كان أنفع لك من رؤية الله سبعين مرة!!)^(٥) والعياذ بالله تعالى ، ويدعون أن أمور الغيب التي استأثر الله تعالى بعلمها ، ولم يطلع عليها أحدا من خلقه إلا من ارتضى من رسول ، يدعون أنها ليست غيبا عند الأولياء . يقول الشعراني عن شيخه علي الخواص : (وسمعتة يقول : ليس الغيب الذي للعارفين غيبا عندهم ؛ إنما هو من قسم عالم الشهادات ، فيخرجون عما يشاهدونه ؛ فما سماه غيبا إلا من كان محجوبا عن ذلك من العامة)^(٦) . إذن : فما دام الشيخ بهذه الصفات ، وبقدرته محيطا بجميع المخلوقات فما على المريد إلا أن يسلم له زمام أمره ، ولا يعترض عليه ، ولو في خاطره ، كما قالوا : (سلم تسلم ، ولا تعترض فتتطرد)! يقول البكري^(٧) :-

وسلم الأمر له لا تعترض ولو بعصيان أتى أذى فرض
وكن لديه مثل ميت فاني لدى مغسل لتمسي داني
ويقول آخر^(٨) :-

(١) انظر الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية لابن عجيبة ص ٣٣٩ نقلا عن الكشف عن حقيقة الصوفية ص ٣٢٣
(٢) هو الدكتور سيد حسين نصر الإيراني .
(٣) الصوفية بين الأمس واليوم لسيد نصر حسين ص ٧٣ نقلا عن الكشف عن حقيقة الصوفية ص ٣٢٧
(٤) هو أبو يزيد البسطامي ، تقدمت ترجمته .
(٥) إحياء علوم الدين ٤ / ٣٥٦
(٦) الجواهر والدرر مطبوع بهامش الإبريز ص ١٨٠ (٧) انظر هذه هي الصوفية ص ١٠٠
(٨) انظر الإبريز ص ٢٥١

وفرا إليه في المهمات كلها فإنك تلقى النصر في ذلك الفر

ويدعون إلى تقوية همة المريد بقول بعضهم^(١) :-

إن الفتى حسب اعتقاده نفع وكل من لم يعتقد لم يتنفع

وبالجملة فإن (الصوفية رفعوا أولياءهم فوق كل مخلوق، وجعلوا قدراتهم، وطاقاتهم تفوق طاقة البشر، واعتقدوا فيهم اعتقادات فيها الكثير من الغلو، والتجاوز، فاعتقدوا أن لهم القدرة على التصرف في الكون، والحياة، تصرفا كاملا شاملا، كإحياء الموتى، وشفاء المرضى، وإنزال المطر، وهداية الضالين هداية التوفيق، وإضلال المهتدين بالسر، والباطن، وحفظ العالم من الدمار، واعتقدوا أنهم يعلمون الغيب على وجه الإطلاق، فلا يخفى عليهم شيء، وأنهم معصومون من الخطأ، والخطايا، يقولون للشيء كن فيكون، وغير ذلك، فلما اعتقدوا ذلك كله في أوليائهم كان من الطبيعي أن لا ينحرفوا عن هذا الخط الذي رسموه، وساروا عليه، منذ ظهور التصوف، وأوليائه، فجعلوا من أوليائهم لقدراتهم المزعومة صواعق مرعبة، ورعودا مرهبة، لتخويف الآخرين، وصدهم عن بيان الحق في وقت الحاجة إليه)^(٢).

رابعا: الشيخ يطرح عن المريد الخطايا، والمعاصي: نجد في كثير من التراث الصوفي أن هؤلاء الشيوخ يقدمون عروضاً مغرية لاصطياد السذج من الناس، فيقدمون لهم وعوداً خيالية، خالية من الضوابط الشرعية تجعل المريد يعيش في عالم ذهني من المثالية بعيداً عن الحقيقة، والواقع، فمن تلك الوعود المزعومة أن المريد لا يقع في مأزق، ولا يتكدر خاطره إلا ويجد شيخه وواسطته منقذاً له في الحال، وأنه بفضل شيخه يعيش حياة سعيدة، ويموت على الإيمان، ويخاصم عنه يوم القيامة، ويدخل معه الجنة بلا حساب ولا عقاب. والمطلوب من المريد أن لا يكتف عن شيخه ما صدر منه سواء حسنة تسر، أو معصية تضر؛ لأنه (لا عورة بين المريد، والشيخ)^(٣).

ويذكرون عن الدباغ أنه شكاً إليه تلميذه ذات يوم أمراً نزل به فيه ضرر في الدين، والدنيا، لا تؤمن غائلته، فأخبره الشيخ الدباغ قائلاً : (أما في الدنيا فلا تخش منه أبداً،

(١) انظر ردود علي أباطيل للشيخ محمد الحامد ص ٤٢٧

(٢) تقديس الأشخاص في الفكر الصوفي ١٩٢/٢

(٣) الجواهر والدرر مطبوع بهامش الإبريز ص ٦٠

ولا يقع لك منه شر أصلاً، وأما في الآخرة فأنا أتكفل لك على الله تعالى أنك لا تسأل عن هذا الأمر، ولا تحاسب عليه، فكان الأمر في الدنيا كما قال رحمه الله، ونرجو من الله سبحانه أن يكون الأمر في الآخرة كما قال! وكان رحمه الله يقول لنا: لا تكتموا عني شيئاً من الأمور التي تنزل بكم في الدين والدنيا، وأخبروني حتى بالمعاصي التي تقع لكم، وإن لم تخبروني أخبرتكم؛ فإنه لا خير في صحبة يستر معها شيء من أحوال المتصاحبين، وكان رحمه الله يقول: أما أنا فلا أكتم عنكم شيئاً من أموري ثم يشرح لنا حاله... ويذكر لنا جميع ما وقع له من العاديات، غيرها، ويقول لنا: إن لم أخبركم، ولم أطلعكم على أحوالي فإن الله يعاقبني ويحاسبني؛ لأنكم تظنون بي الخير، فاصبروا حتى أذكر لكم الأمور الباطنية التي لم تطلعوا عليها، فمن شاء منكم أن يذهب فليذهب؛ فإن سكوتي عن ذكر تلك الأمور غش لكم، وما كان رحمه الله لأصحابه إلا رحمة محضة، يشفع لهم في زلاتهم، ويتكفل لهم بنوائبهم، ويتحمل لهم كلما يخشون عاقبته، ويهتم لأموالهم أكثر مما يهتم لأمواله، وقال لي ذات يوم: الرجل الذي لا يشاطر صاحبه في سيئاته ما هو بصاحب له، وقال: إن لم تكن الصحبة إلا على الحسنات فما هي بصحبة... فظهر بهذا قوله في العوارف: وبالقول مع الشيخ تنحل العقدة، والله أعلم^(١).

وتزعم التجانية أن كل من رأى شيخهم أحمد التجاني في يومي الاثنين، والجمعة أنه يدخل الجنة بلا حساب، ولا عقاب^(٢)، ونصه عن التجاني: (قال لي سيد الوجود: بعزة ربي يوم الاثنين، والجمعة، لا أفارقك فيهما من الفجر إلى الغروب، ومعى سبعة أملاك، وكل من رآك في اليومين يكتبون - يعني الأملاك السبعة - اسمه في رقعة من ذهب، ويكتبونه من أهل الجنة، وأنا شاهد على ذلك)^(٣)، وقد نظمهم بعضهم فقال^(٤): -

في يوم الاثنين أو الجمعة رائيه يدخل غداً في الجنة

بلا حساب ولا عقاب بل هو آمن من العذاب

والملفت للنظر - هنا - أن بعض هؤلاء الشيوخ كثيراً ما ينتحل كلام بعض الشيوخ

(١) الإبريز ص ٢٥٠

(٢) في كشف الحجاب عن من تلاقى مع الشيخ التجاني من الأصحاب ص ٢٨٨ أن من رآه في هذين اليومين يشمل كل من رآه، ولو كافراً!!!

(٣) بغية المستفيد ص ٢١٦، وانظر كشف الحجاب ص ٢٨٨، والرد عليه في مشتهى الخارف الجاني ص ١٦١

(٤) بغية المستفيد ص ٢٠٩

المتقدمين ، أو يحاكيه ؛ كما مر معنا - في ادعاء كثير منهم أن الله ختم به الأولياء ، وأن قدميه على رقبة كل ولي ، فكذلك الأمر بخصوص الرؤية ، فلعل التجاني حاكي بهذا الادعاء ما يروى عن الشيخ عبد القادر الجيلاني أنه قال : (طوبى لمن رآني ، أو رأى من رآني ، أو رأى من رأى من رآني ، وأنا حسرة على من لم يرني)^(١) . والفرق بين الادعاءين واضح كما ترى .

وهذه النصوص لا تحتاج إلى تعليق ؛ لأن مصادمتها لنصوص الشريعة وخروجها عن دائرة الدين الخفيف الذي هو سمة خاتمة الرسالات يعرف ببداهة العقل ، وقد تنبه بعض المستشرقين لوعود مشايخ الطرق لمريديهم الخارجة عن تعاليم الإسلام ، يقول نيكولسون - معلقا على نظرة الصوفية لوسائطهم ووعود المشايخ لمريديهم : (ولذا ترونهم يتنافسون في الوعود التي يقطعونها أمام كل من أحبوهم ، أو أسدوا إليهم معروفا ؛ بل وكل من رأوهم بأن الله تعالى سيغفر لهؤلاء جميعا من أجلهم ، وفي هذا على أقل تقدير تصوير لعلاقة شخصية بين الشفيع والمشفوع له)^(٢) .

خامسا : الحلف بالشيخ : ونتيجة للغلو الزائد في الشيخ ، والتصورات الخاطئة التي يهمس بها الشيخ في أذان مريديه ، ويشيعها الأتباع بين الناس ، يصبح الخوف من الشيخ مستوليا على قلوب الجميع ، وخصوصا على المريدين الذين يخافون من شيخهم في حياته ، وبعد دفنه أكثر من خوفهم من الله تعالى ، فإذا بالغ الصوفي الغالي في يمينه ، وأراد التأكيد أقسم بالولي الواسطة ، وإذا حلف بالله تعالى ، أو بأسمائه ، وصفاته فإنه لا يطمئن باله ، ولا يرتاح قلبه ، ولا يصدق الحالف حتى يحلف له بشيخه ، كما أن الحالف لا يتورع أن يحلف أغلظ الأيمان باسم الله تعالى كاذبا ، فاجرا ، وأما أن يحلف باسم وليه كاذبا فهذا لا يتجاسر عليه ، وقد يلزم بعض من انتصب للقضاء من هذه الطائفة الخصم بالحلف باسم الشيخ أو على قبره^(٣) .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : (حتى إن طائفة من أصحاب الكبراء الذين لا يتحاشون فيما يفعلونه من القبائح ، كان إذا رأى قبة الميت ، أو الهلال الذي على رأس القبة خشي من

(١) بهجة الأسرار ومعدن الأنوار لنور الدين الطنوفي ص ٢٣ نقلا عن الكشف عن حقيقة الصوفية ص ٤٨٤

(٢) في التصوف الإسلامي ص ١٦٤

(٣) انظر قاعدة جلييلة في التوسل والوسيلة ص ٢٧٢ ، وتجريد التوحيد للمقرئ ص ٢٨ ، والدين الخالص لمحمد

صديق حسن خان ٧١ / ٤

فعل الفواحش، ويقول أحدهم لصاحبه . ويحك هذا هلال القبة، فيخشون المدفون تحت الهلال، ولا يخشون الذي خلق السموات والأرض^(١) .

ويقول الشيخ حسين النعمي : (وكثيرون لا يدخلون تحت حد الإحصاء إذا كان الحلف باسم الله أقدم عليه الحالف ؛ بلا مبالاة حتى إذا طلب منه الحلف بصاحب القبر، وبالأخص إذا ألزمه محلفه بإمساك حلقة باب النصب، فلا يتجاسر -قط- إن كانت يمينا فاجرة، وقد لا يرضى المحلوف له إلا بذلك دون الرسم الشرعي، ويعتقد أنه إن أقدم الحالف فإن كان باراً، وإلا بادره الولي بالعقوبة العاجلة، والبطشة الكبرى^(٢) .

ويقول المستشرق جولدتسيهر^(٣) : (الولي المحلى الذي أصبح موضع الثقة ومحط الآمال، فإليه يؤتى بالقرايين، وفي مرضاته تنذر النذور؛ لكسب نياته الحسنة، ولكي ترحى شفاعته عند الله تعالى، كما أن أتباعه، ومريديه يعدونه عماد الحق، والصدق، وأنه الحارس لهما، الكفيل بهما، ويخشى الواحد منهم أن يحدث في يمين حلف فيها باسم الولي، أو أن ينكث بعهده في مكان يراه الولي، ذا طهارة، وقداسة أكثر مما يحمر خجلاً عندما يحلف بالله باطلاً^(٤) .

سادساً: القصص، والحكايات التي تروى عن الشيخ : بناء على نظرة الصوفية الغالية للشيخ الذي مرت معنا حقيقته، والقول بعصمته، وحفظه، وتقديسه، والتهويل من قدراته، والحلف باسمه وكونه يطرح عن المريد الخطايا، والمعاصي بناء على ذلك فإن للصوفية حكايات موهلة في الخرافة، يذكرون فيها نماذج من قدرات الشيوخ، وتصرفاتهم في الكون، وهي صورة واضحة للخروج عن شريعة الإسلام، ومخالفة صريحة للشرع،

(١) تلخيص كتاب الاستغاثة ٥٦٣/٢، ورسالة الشرك ومظاهره للميلي ص ٢٧٧

(٢) معارج الألباب ص ٢٠٦، وانظر تيسير العزيز الحميد ص ٤٨٥، ومجلة المنار ٥٨/١، وتقديس الأشخاص في الفكر الصوفي ١٩٦/٢

(٣) هو جولدتسيهر اجنتس مستشرق مجري، ولد سنة ١٨٥٠م، ودرس في بودابست، وعمل أستاذا بجامعة، ثم في بلاد العالم الإسلامي دارساً، وباحثاً، حيث صحب في سورية الشيخ طاهر الجزائري، وأقام بالقاهرة، ودرس على شيوخ الأزهر، يعد من أوسع المستشرقين دراسة للإسلام وتاريخه، وعقائده، وفرقه الدينية، صنف عدة مؤلفات عن الإسلام منها : ((العقيدة والشريعة في الإسلام)) و((الظاهرية ومذهبهم وتاريخهم))، و((مذاهب المسلمين في تفسير القرآن)) وغيرها، مات سنة ١٩٢١م. انظر الموسوعة العربية الميسرة بإشراف محمد شفيق غربال ١/٦٦٨

(٤) العقيدة والشريعة في الإسلام ص ٢٣٢

والطبع، فهم يزعمون أن من هؤلاء الأولياء، والشيوخ من يخرج من قبره، ويمشي على الأرض عيانا لقضاء حاجات مريده، وتوجيهاته، ومن تلك الحكايات :-

(أ) القصة المضحكة التالية التي نقلها الشعراني عن أحد شيوخه^(١) فقال: (ولقد قصده في حاجة، وأنا فوق سطوح مدرسة أم خوند بمصر، فرأيت خرج من قبره يمشي من دمياط^(٢)، وأنا أنظره إلى أن صار بيني وبينه نحو خمسة أذرع، فقال: (عليك بالصبر، ثم اختفى)^(٣).

ونرد على هذه الخرافة القبورية بقول الأمير الصنعاني: (وبالجملة فالقول بخروج الميت من قبره، وبرزخه بشخصه لقضاء أغراض الأحياء قول مخالف للعقل، والنقل؛ لأن من واره القبر لا يخرج منه إلا في المحشر)^(٤).

وإذا وقع الشيخ الصوفي في معصية التمسوا له الأعذار، ومن تلك الأعذار أن الشيخ يستتر عن أعين العامة، ويظهر أعمالا كالزنى، والكذب الفاحش، وشرب الخمر، وقتل النفس، وغير ذلك من الدواهي، وأن تلك الأفعال صور من الغيب، لا وجود لها في الخارج؛ بل هي تصورات يراها غيرهم حقيقة، وهي خيالية يفعلها الشيخ الواسطة استتارا عن العوام، وحفظا لمقامه، وتحريرا لأدبه!^(٥).

(ب) واستمع لما يحكونه عن الشيخ علي وحيش^(٦) وكراماته: فقد كان هذا الشيخ الولي المزعوم يقيم في خان بنات الخطا، وكان كل من خرج يقول له: قف حتى أشفع فيك عند الله قبل أن تخرج، فيشفع فيه، وكان يحبس بعضهم اليوم، واليومين، ولا يمكنه أن يخرج حتى يجاب في شفاعته، وكانت له أحوال غريبة، فإذا حكيت لبعض مقدميهم يقول: هؤلاء يخيلون للناس هذه الأفعال، وليس لها حقيقة^(٧).

(١) شيخ الشعراني هذا اسمه أبو العباس الحريشي.

(٢) المدينة المشهورة بمصر بين تنيس والقاهرة على زاوية بين بحر الروم والنيل. انظر معجم البلدان ٢/ ٤٧٢.

(٣) الطبقات الكبرى للشعراني ٢/ ١٤٧، وانظر مثل هذه الحكايات في الجواهر والدرر ص ٤٦.

(٤) الإنصاف في حقيقة الأولياء وما لهم من الألطاف ص ٥١ (٥) انظر الإبريز ص ٢٣٢.

(٦) هو علي وحيش الصوفي من مجاذيب النجارية عده الشعراني من جملة شيوخه، وحكى عنه أمورا خرافية

مصادمة للشرع، وعدها من كراماته، مات سنة ٩١٧ انظر طبقات الشعراني ٢/ ١٤٩.

(٧) انظر الطبقات الكبرى للشعراني ٢/ ١٥٠.

(ج) ومن كرامات الشيخ محمد الخضري^(١) أنه كان يقوى عليه الحال فيتكلم بالفاظ لا يستطيع أحد سماعها في حق الأنبياء، وكان يرى في كثير من البلدان في ساعة واحدة، وحصل مرة في يوم الجمعة أن سأله الناس الخطبة فقال: باسم الله فطلع المنبر، فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: وأشهد أن لا إله لكم إلا إيليس - عليه الصلاة والسلام - فقال الناس: كفر، فسل السيف، ونزل، فهرب الناس كلهم من الجامع، فجلس عند المنبر إلى أذان العصر وما تجرأ أحد أن يدخل الجامع، ثم جاء بعض أهل البلاد المجاورة، فأخبر أهل كل بلد أنه خطب عندهم، وصلى بهم، فعددوا له ذلك اليوم ثلاثين خطبة، وكان يقول: لا يكمل الرجل حتى يكون مقامه تحت العرش عليل الدوام، وكان يقول: الأرض بين يدي كالإناء الذي أكل فيه، وأجساد الخلائق كالقواري أرى ما في بواطنهم^(٢).

(د) ومن الأولياء من يضع قدمه في المشرق، والأخرى بالمغرب في خطوة واحدة حسب زعمهم^(٣).

(هـ) ويحكون أن الحجر، والماء كان يخاطب الشيخ الدباغ فيرجع من الخلاء بغير تبرز؛ لأن هذه المخلوقات سمعها تذكّر الله تعالى؛ لأنه يحفظ الكتب السماوية جميعها، ويعرف لغات بني الإنسان، والسريانية، ولغة الجن، ولغة الملائكة، ولغات الحيوان، ويرى أن القط لا يأكل الفأرة إلا بإذنه. فلذلك كان قادراً على رد الضال، ومنع المقتول من قاتله أن ينفذ فيه القتل^(٤).

(و) ومن هؤلاء الشيوخ من يحكى أنه نزل في حلقة شيخ من الجو لا يدري الحاضرون ما هو فأطرق الشيخ ساعة، ثم ارتفع الشيخ إلى السماء فسأله؟ فقال: هذا ملك وقعت منه هفوة فسقط علينا يستشفع بنا، فقبل الله شفاعتنا فيه فارتفع، وكان إذا شاوره أحد في أمر يقول له أمهلني حتى أشتشير فيه جبريل عليه السلام، ثم يقول له: افعل، أو لا تفعل^(٥).

(ز) ومن هؤلاء الشيوخ من يحكى عنه أنه توضأ يوماً قبل أذان العصر، واضطجع

(١) هو محمد الخضري الصوفي، له أقوال مصادمة للشريعة كقوله: لا يكمل الرجل حتى يكون مقامه تحت العرش على الدوام، وكقوله: أجساد الخلائق كالقواري أرى ما في بواطنهم، مات سنة ٨٩٧هـ، انظر طبقات

الشعراني ١٠٦/٢ (٢) انظر الطبقات الكبرى للشعراني ١٠٧/٢

(٣) انظر الإبريز ص ٤٨ (٤) انظر المرجع السابق ص ١٠٩ وما بعدها.

(٥) انظر الطبقات الكبرى للشعراني ١٥٧/١

على سريرته، ومكث سبع عشرة سنة، ثم قام وعيناه كالدم الأحمر فصلى بذلك الوضوء^(١) (ح) ومن هؤلاء الواصلين شيخ يدعو فيه السر والولاية، يحكون عنه أنه وهب أحد محبيه عشر سنين من عمره لما رآه مريضاً، ثم مات المريض، في غيبة الشيخ، فجاء والميت عليالنعش، فقال: كيف مت؟ وعزة ربي لو كنت حاضراً ما تركتك تموت^(٢).

(ط) وأنت امرأة أحد هؤلاء الشيوخ وقالت له: ادع الله أن يرزقني ولداً ذكراً، فقال سترزقين ذلك، فوضعت أنثى، فراجعت، فقال لها: والله ما قلت لك ذلك إلا بعد ما مسست ذكره بيدي هذه؛ ولكن أراد أن يكذب هذه اللحية!!^(٣).

(ي) ويحكون عن رجل من شيوخ اليمن أنه قال يوماً لخادمه وهما في سفر: قل للشمس تقف حتى أصل إلى منزلي، وكان في مكان بعيد، وقد قرب وقت غروبها، فقال لها الخادم: قال لك الفقيه قفي له فوقفت حتى بلغ مكانه، ثم قال للخادم: أطلق ذلك المحبوس، فأمرها الخادم بالغروب فغربت، ودخل الناس في الظلام^(٤).

(ك) ويحكون عن أحد الشيوخ أنه في الرضاع لم يكن يرضع في رمضان أمه إلا ليلاً، ولما بلغ تسع سنين أرادت أمه يوماً أن تمسح له رجله بدهن، فوجدت بإحدى رجله ماء، وطينا، والأخرى يابسة، فسألت أمه عن ذلك فقال لها: خالي التماري غرقت به المركب في الجزيرة فأنقذته برجلي حين طلب الإغاثة^(٥).

(ل) ومن غلو الرفاعية في شيخهم أحمد الرفاعي ادعائهم أنه كان يتكلم وهو في المهد صبيّاً، وأنه قد كلم الناس يوم ولادته^(٦)، ولما كبر (كان قطب الأقطاب في الأرض، ثم انتقل إلى قطبية السموات، ثم صارت السموات السبع في رجله كالخلخال، وختم الله به النبوة كما ختم به الولاية)^(٧)، ويزعمون أنه قال: (صحبت ثلاثمائة ألف أمة ممن يأكل، ويشرب وينكح، ولا يكمل الرجل -عندنا- حتى يصحب هذا العدد، ويعرف كلامهم؛ وصفاتهم، وأسماءهم، وأرزاقهم، وأجالهم)^(٨).

(١) انظر المرجع السابق ١٠٧/١ (٢) انظر الطبقات الكبرى للشعراني ١٠٣/٢

(٣) انظر جامع الكرامات للنبهاني ٥٢٣/١

(٤) انظر نشر المحاسن الغالية للياضي ص ٣٣ نقلاً عن الكشف عن حقيقة الصوفية ٤٧٣

(٥) انظر طبقات ابن خفيف الله ص ١١٤ نقلاً عن تقديس الأشخاص في الفكر الصوفي ٢٦٦/٢

(٦) انظر قلادة الجواهر ص ٣٠ نقلاً عن دراسات في التصوف لإحسان إلهي ظهير ص ٢٢٠

(٧) الطبقات الكبرى للشعراني ١٤١/١

(٨) قلادة الجواهر ص ٦٧ نقلاً عن دراسات في التصوف لإحسان إلهي ظهير ص ٢٢٢

وقد حصل لهؤلاء الشيوخ مرادهم من ذكر هذه الحكايات ، فقد رسخت في أذهان المريدين وآمنوا بقدرات الشيخ إيمانا تزول الجبال الراسيات ، ولا يزول ، فإذا قال الشيخ لمريده : (يتعين ربط القلب بالشيخ من طريق الإرادة ، والمحبة ، فتعلم أنك في حمايته ، وولايته ، وظل رعايته في جميع الأوقات فتمسك بهذه الطريقة بأمره ، وإرشاده ، والله تعالى يحفظ أوقاتك ، وأحوالك بواسطة ، ويكون باطنك متوجها إليه ، فالأصل اتصال الباطن ، وقوة الرابطة)^(١) صدقه المريد ، ومن تعاليمهم أن المريد عليه أن يسلم نفسه إلى الشيخ ، ويتبرأ منها ، ويطلق اختياره ثلاثا ؛ لكي يستعد لتصرف الشيخ ، وعلى المريد أن لا ينكر على الشيخ وإن رآه يرتكب المخالفات ، وإن طلق الشيخ امرأته فعلى المريد أن لا يتزوجها ، وليعلم أن شيخه معه ، ويراه حيثما كان^(٢) .

وبالجملة فقد وصل بهم الغلو في الشيوخ حد النهاية ، حتى ادعى بعض الصوفية أن المريدين يُدعون يوم القيامة على رؤوس الأشهاد بأسماء مشايخهم ، وليس بأسماء آبائهم . فتتج عن هذا الاعتقاد تعلق المريد بالشيخ حتى أصبح مألوفاً أن تسمع المريد يلهج بذكر شيخه في الشدة المسرة ، وإذا مشى ، وإذا عثر ، كما يلهج الصبي بذكر أمه^(٣) .

وهذا مما يؤخذ على الطرق الصوفية أن الشيخ يُري مريديه وأتباعه على أنه يستطيع أن يخلصهم من الشدائد ، وينقذهم من المهالك ، متى استعانوا به ، أو نادوه ، ولو من بعيد كما يأتيهم ساعة الاحتضار فيلقنهم الشهاداتتين ، ويخاصم عنهم في قبورهم الملكين ، وأخيرا يشفع لهم يوم القيامة ، فيجوزون على الصراط بمعية الشيخ ، ويدخلون الجنة بشفاعته ، فيزداد تعلق المريدين بشيخهم ، ويتفاقم غلوهم في شخصه ، فينقطعون به عن دعاء الله تعالى ، واللجوء إليه ، وهذا من الشيخ افتراء ، وكذب ، وتغريب ، وتضليل^(٤) ، (وهكذا قصد بالشيخ أن يهدي الحيارى لشعائر الطريق فانحرف بهم عن جادة القصد ؛ ليزدادوا حيرة ، وضلالا ، والتمست لديه الحقيقة الضائعة فزادت الحقيقة على يديه بعدا ، وضياعا ، واتخذ وسيلة ضرورية لتصحيح العقيدة ، والشريعة ، فهدمت على يديه العقيدة ، والشريعة في قلوب مريديه)^(٥) .

(١) رماح حزب الرحيم / ١٦٤ (٢) انظر رماح حزب الرحيم / ١٤٤

(٣) انظر تلخيص كتاب الاستغاثة / ٢٧٨ ، ومدارج السالكين / ١ / ٣٣٩

(٤) انظر إلیالتصوف یا عباد الله ص ١١ ، والفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة لعبد الرحمن عبد الخالق

(٥) نظرية الاتصال عند الصوفية ص ٢٨٩ ص ٣١٦

ولعلنا - بهذه الإمامة - نكون قد بينا نظرة الصوفية للشيخ الواسطة، تلك النظرة الغالية البعيدة عن الحق، المجانبة للصواب، والمصادمة للسنة، والكتاب، ولعل في سردنا لتلك الطائفة من الحكايات، والأساطير السابقة غنية عن الاشتغال بالرد عليها، وتفنيدها؛ لوضوح زيفها، وخرافتها، وضلال القائلين بها.

المبحث السادس

بيان شبهات الصوفية والرد عليها

لما كان خطأ الصوفية في باب الواسطة من حيث أنهم قاسوا واسطة الأنبياء عليهم السلام في دعاء الله تعالى والطلب منه على وساطتهم في تبليغ الشرائع، فتوجهوا إليهم - وهم في قبورهم - بالطلبات، وجعلوهم واسطة بينهم وبين الله تعالى في قضاء الحاجات، وفعلوا الشيء نفسه مع الأولياء، والصالحين، وشيوخ الطرق المتبوعين، فزعموا أنهم واسطة في العون، والمدد، والإغاثة بين الله تعالى وبين المكرويين المضطرين، وادعوا أنه لا يصل مدد، ولا يفيض فيض، ولا يحصل صلاح، ولا فلاح، ولا إيمان، ولا هدى لأحد من الناس إلا عن طريقهم، وبواسطتهم؛ لما كان الأمر كذلك فإننا وجدناهم متعلقين للدفاع عن هذا الاعتقاد الفاسد بكم هائل من الشبهات الواهية، والأدلة الباطلة، وأن تلك الشبهات أنواع:-

- فمنها ما هو عام .
 - ومنها ما يتعلق بالأنبياء عليهم السلام .
 - ومنها ما يتعلق بالأولياء، والشيوخ .
 - وفيما يلي بيان تلك لشبهات والرد عليها بطريق الاختصار :
- أولاً: الشبهات العامة.

أ - من أكبر الشبهات التي يتعلق بها الصوفية، والقبورية - عموماً - ويستدلون بها على جواز دعاء غير الله تعالى في الشدائد، والاستغاثة به هو زعمهم أنهم إذا توجهوا إلى الأنبياء، والصالحين بالدعاء، والاستغاثة، والتوسل بهم، وتوسيطهم في العبادات أنهم لا يعبدونهم بذلك وإنما يعبدون الله تعالى، ويتوجهون بهؤلاء المحبوبين ليقربوهم إلى الله تعالى زلفى، ولهذه الشبهة صورتان عند الصوفية، قديماً وحديثاً^(١) :-

١ - صورة فلسفية منطقية كلامية .

٢ - صورة أمية عامية .

أما الصورة الأولى؛ فتقريها عندهم أن النفوس التي فارقت أبدانها أقوى من النفوس

(١) انظر جهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبورية ٣/ ١٢٨٢

المتعلقة بالأبدان من بعض الوجوه؛ لأنها حين فارقت تلك الأبدان زال عنها الغطاء، والوطاء^(١)، وانكشف لها عالم الغيب، فالزائر إذا ذهب إلى قبر إنسان قوي النفس كامل الجوهر شديد التأثير، ووقف عند قبره ساعة، وتأثرت نفسه من تلك التربة حصل لنفس الزائر تعلق بتلك التربة التي عرفنا أن نفس الميت المزور تعلق بها أيضا فحيث يحصل لنفس الحي، ولنفس الميت ملاقة بسبب اجتماعهما على تلك التربة، فصارت هاتان النفسان شبيهتين بمرأتين صقيلتين وضعنا بحيث ينعكس الشعاع من كل واحدة منهما إلى الأخرى، وبهذا السبب ينعكس النور من نفس الميت المزور إلى نفس هذا الحي الزائر، وبهذه السبيل الفلسفية تصبح تلك الزيارة سببا لحصول المنفعة الكبرى، فهذا هو السبب الأصلي في شرعية الزيارة، ولهذا ينتفع بزيارة القبور، والاستعانة بنفوس الأخيار من الأموات في استمطار الرحمات، ودفع المضرات^(٢). هذه سفسطة المتفلسفة منهم^(٣).

وأما الصورة الثانية للواسطة؛ فتقريبها - عند العامة - على جواز الاستغاثة بالأموات، واستمداد الفيوضات منهم؛ بل وجوبها - عندهم - أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والأولياء كما يزعمون - واسطة في العون، والمدد، والإغاثة بين الله تعالى وبين المكروبين المضطرين لعلو شأنهم، ورفيع منزلتهم عند الله تعالى، وأن المكروب المستغيث يرى نفسه ملطخا بالذنوب، فهو بعيد عن الله تعالى لا يصل إليه إلا بواسطة أحبائه من الأولياء المقربين الذين يشفعون له عند الله تعالى، فكما أنه لا يمكن للعامة الوصول إلى الملوك إلا بواسطة الأمراء، والوزراء، والمقربين كذلك لا يمكن الوصول إلى الله تعالى لقضاء الحوائج، وتحقيق الآمال إلا بواسطة المعظمين المقربين من الأنبياء، والأولياء^(٤).

(١) الوطاء بكسر الواو وفتحها: ضد الغطاء. انظر مختار الصحاح ص ٧٢٧ مادة (و-ط-أ)، والقاموس المحيط ١/ ٣٤ مادة (وطئه).

(٢) توجد هذه الصورة عند أغلب الصوفية المتفلسفة منهم. انظر شرح المقاصد للتفتازاني ٧٢/ ٢، وشواهد الحق ص ١٥١، ومقالات الكوثري ص ٣٨٣، وقد نقل هذه الصورة شيخ الإسلام ابن تيمية عن بعض الصوفية، انظر مجموع الفتاوى ١/ ١٦٧، والرد على المنطقيين ص ٥٣٥، ونقلها أيضا العلامة ابن القيم، انظر إغاثة اللهفان ١/ ٢٢٤، كما نقلها محي الدين البركوي، انظر زيارة القبور الشرعية والشركية ص ٤٨.

(٣) انظر جهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبورية ٣/ ١٢٨٢.

(٤) انظر التصريح بهذه الصورة من الشبهة في شواهد الحق ص ٦٦، وص ١٤٢، ومفاهيم يجب أن تصحح ص ٤٣، وذكرها الإمام محمد بن عبد الوهاب ورد عليها في كشف الشبهات في التوحيد ص ١١، وانظر الصواعق المرسلة الشهابية ص ١٤٤، ومجلة المنار ١١/ ٣٤٩، والمجموع المفيد للخميس ص ١١٧.

الرد على هذه الشبهة:

١- أما الصورة الأولى فنقول للرد عليها : إن هذه الوسطة هي بعينها عقيدة المشركين الأولين عباد الأصنام السابقين في تعلقهم بالمخلوقين من دون الله تعالى ، كما قال تعالى عنهم : ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ (١) وقال تعالى : ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ (٢) والشفاعة حق ، ولكنها ملك لله تعالى وحده : ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (٣) ، فلا يجوز طلبها من الأموات سواء كانوا أنبياء ، أو أولياء ، ولا من غيرهم ، وإنما تطلب ممن بيده الأمر كله ، وقد أخبرنا الله تعالى أنها لا تحصل إلا بشرطين :-

الأول : إذن الله للشافع أن يشفع ، كما قال تعالى : ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ (٤)

والثاني : أن يكون المشفوع فيه عن رضي الله قوله ، وعمله ، وهو المؤمن الموحد ، كما قال تعالى : ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ (٥) ، وقال أيضا : ﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ (٦) ، (فالله لم يرخص في طلب الشفاعة من الملائكة ، والأنبياء ، ولا الأصنام ؛ لأنها ملكه وحده ، منه تطلب ، فهو الذي يأذن للشافع أن يشفع ، وإن لم يأذن له لم يتقدم في الشفاعة بين يديه ، وليس الأمر كما يحصل عند المخلوقين من تقدم الشفعاء إليهم ، وإن لم يأذنوا لهم ، ويقبلون شفاعتهم ، ولو لم يرضوا بها ؛ فإن المشفوع عنده من المخلوقين يحتاج إلى الشافع ، ومعاونته ، فيضطر لقبول شفاعته ، وإن لم يأذن له فيها ، وأما الله سبحانه فهو الغني عما سواه ، فليس بحاجة إلى أحد ؛ بل كل أحد محتاج إليه ، وأيضا المخلوق لا يدري عن كل أحوال رعيته حتى يبلغه عنها الشفعاء لديه ، والله سبحانه بكل شيء عليم ، لا يخفى عليه شيء من أحوال خلقه ، فليس بحاجة إلى من يبلغه ، وحقيقة الشفاعة عند الله سبحانه أن الله سبحانه هو الذي يتفضل على أهل الإخلاص فيعفو عنهم ، ويغفر بواسطة دعاء من أذن له أن يشفع ليكرمه بذلك) (٧) .

وشبهة الصوفية هذه هي شبهة الكفار قديما ، فقد بين الفخر الرازي أن الأشياء التي عبدها الكفار من دون الله في القديم شيثان :-

(٢) سورة يونس الآية ١٨

(١) سورة الزمر الآية ٣

(٤) سورة البقرة الآية ٢٥٥

(٣) سورة الزمر الآية ٤٤

(٦) سورة طه الآية ١٠٩

(٥) سورة الأنبياء الآية ٢٨

(٦) بيان حقيقة التوحيد للشيخ صالح الفوزان ص ٣٣

أ - عقلاء . ب - وغير عقلاء .

أما العقلاء، فكالمسيح، وعزير، والملائكة، فإن قوما منهم عبدوا هؤلاء، وكثير من الناس كانوا يعبدون الشمس، والقمر، والنجوم، ويعتقدون فيها أنها أحياء عاقلة ناطقة، وأما الأشياء التي عبدت مع أنها ليست موصوفة بالحياة، ولا بالعقل فهي الأصنام، ومراد الكفار من عبادتها أنها تقربهم إلى الله زلفى، فالعاقِل لا يعبد الصنم، والوثن من حيث إنه خشب، أو حجر، وإنما يعبد لاعتقاده أن هذه الأصنام تماثيل الكواكب، أو تماثيل الأرواح السماوية، أو تماثيل الأنبياء، والصالحين الذين سلفوا، ومقصودهم من عبادتها توجيه تلك القربات إلى تلك الأشياء التي جعلوا هذه التماثيل صوراً لها^(١).

ثم قال الرازي: (وحاصل ما لعباد الأصنام أن قالوا: إن الإله الأعظم أجل من أن يعبد البشري؛ لكن اللائق بالبشر أن يشتغلوا بعبادة الأكابر من عباد الله، مثل الكواكب، ومثل الأرواح السماوية، ثم إنها تشتغل بعبادة الإله الأكبر، فهذا هو المراد من قولهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾^(٢) إلى أن قال: (واعلم أن الكفار أوردوا على هذا الكلام سؤالاً فقالوا: نحن لا نعبد هذه الأصنام لاعتقاد أنها آلهة تضر، وتنفع، وإنما نعبدها لأجل أنها تماثيل لأشخاص كانوا عند الله من المقربين، فنحن نعبدها لأجل أن يصير أولئك الأكابر شفعاء لنا عند الله فأجاب الله تعالى بأن قال: ﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوْ لَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾^(٣)

وتقرير الجواب أن هؤلاء الكفار إما أن يطمعوا بتلك الشفاعة من هذه الأصنام، أو من أولئك العلماء، والزهاد الذين جعلت هذه الأصنام تماثيل لها، والأول باطل؛ لأن هذه الجمادات، وهي الأصنام لا تملك شيئاً، ولا تعقل شيئاً، فكيف يعقل صدور الشفاعة عنها؟ والثاني باطل؛ لأن في يوم القيامة لا يملك أحد شيئاً، ولا يقدر أحد على الشفاعة إلا بإذن الله، فيكون الشفيع في الحقيقة هو الله الذي يأذن في تلك الشفاعة، فكان الاشتغال بعبادته أولى من الاشتغال بعبادة غيره^(٤).

وقد بين العلامة نعمان الألوسي أن عقيدة القبورية من الصوفية في اتخاذ الوسطة هي

(٢) سورة الزمر الآية ٣

(١) انظر تفسير الفخر الرازي ٢٦/٢٤١

(٣) سورة الزمر الآية ٤٣

(٤) تفسير الفخر الرازي ٢٦/٢٨٥، وانظر بلوغ الأرب للألوسي ٢/١٩٢

أصل دين المشركين الأولين، فقال: (إذا تبين هذا فالمشركون قد كانت عبادتهم لألهتهم هذا الالتجاء، والرجاء، والدعاء؛ لأجل الشفاعة، معتقدين أنها المقربة لهم، فبسبب هذا الاعتقاد، والالتجاء أريق دمائهم، واستبيحت أموالهم... فهذا الالتجاء بطلب الشفاعة، ورجائها عبادة لا تصلح إلا له عز وجل، وأنها من صرف حقوقه تعالى ومن الشرك) (١).

وقال العلامة شكري الآلوسي في رده على غلاة القبورية: (وسمعت من بعض أغبياء الغلاة، وجهلتهم من أهل الثياب المعلمة، والأقفاء المورمة، والألقاب المفخمة قال... فإذا قال القائل مستغيثاً بأحد من الأموات: يا فلان افعل كذا وكذا فالمقصود الطلب من الله أن يقضي حاجته وبعد أن فرغ من هذا الهذيان وسكت قلت له: وينبغي على قولك هذا أن يطلب من المخلوق كل شيء يطلب من الخالق، وينبغي أن لا يعترض على عبدة الأصنام، وطلبهم ما يطلب من الله؛ فإنهم أيضاً كانوا يعتقدون أن أصنامهم وسائط، ووسائل، وشفعاء، وكانوا: ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ (٢) ويقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ (٣) ونحو ذلك من الكلام، وإذا سئلوا: ﴿مَنْ يَرْزُقُكُمْ﴾ (٤) ﴿مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لِيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ (٥)، وقد سبق في هذا الكتاب في عدة مواضع بيان ذلك، وأن كلام الغلاة هذا، وكلام عبدة الأصنام من واد واحد، وقد تشابهت قلوبهم، وأوردت عدة آيات ونصوص) (٦).

وفلسفة غلاة القبورية الموروثة عن الأسلاف في الجاهلية لا بد منها لتبرير هذه العقيدة؛ إذ (ليس من الطبيعي أن يتوجه إنسان إلى حجر، أو شجر، أو قبر، أو أي مخلوق آخر بأشكال التقديس، والتقرب، ولذا فإن الصورة الساذجة المباشرة لهذه الأعمال لا يتصور أنها تنطلي من أول وهلة وبصورتها الساذجة على المخلوق المكرم بعقله المميز بفطرته؛ إذ لا بد من وجود حجج، وحيثيات تزين هذا الانحراف، وتسوغ له، أي لا بد من فلسفة لهذا الأمر حتى ولو لم تظهر مصاحبة له، فهي في كثير من الأحيان تظهر في صورة أشبه ما تكون بالاتجاه النفسي لدى المبطلين بهذا الداء) (٧).

(١) جلاء العينين ص ٤٤٥، وانظر هذه مفاهيمنا ص ١٠٤، وتوحيد الألوهية أساس الإسلام ص ٣٠٠

(٢) سورة يونس الآية ١٨

(٣) سورة الزمر الآية ٣

(٤) سورة يونس الآية ٣١

(٥) سورة لقمان الآية ٢٥

(٦) غاية الأمان ٢/ ٣٥٢، وانظر الصراع بين الإسلام والوثنية لعبده الله القصيمي ص ١٣٦

(٧) دمة على التوحيد ص ٩٣

والمبتلون بالتعلق بالوسائط، والذين يحتجون بهذه الشبهة الفلسفية أنواع: (فمنهم من نسي جلال الله بالكلية، فجعل لا يعبد إلا الشركاء، ولا يرفع حاجته إلا إليهم، لا يلتفت إلى الله أصلا، وإن كان يعلم بالنظر البرهاني أن سلسلة الوجود تنصرم إلى الله. ومنهم من اعتقد أن الله هو السيد، وهو المدبر، لكنه قد يخلع على بعض عبيده لباس الشر، والتأله، ويجعله متصرفا في بعض الأمور الخاصة، ويقبل شفاعته في عباده بمنزلة ملك الملوك^(١) يبعث على كل قطر ملكا، وقلده تدبير تلك المملكة فيما عدا الأمور العظام... وهذا مرض جمهور اليهود، والنصارى، والمشركون، وبعض الغلاة من منافقي دين محمد ﷺ يومنا هذا)^(٢).

وقد حقق العلامة ابن أبي العز أن هذا النوع من الشفاعة، والتوسل، والتوسيط هو أصل شرك العرب، وغيرهم من مشركي الهند، والترك، والبربر^(٣).

وبين العلامة الأمير الصنعاني أن التوسل بالمخلوقين، وجعلهم واسطة بين الناس ورب العالمين هي طريقة الصابئة المذكورة في القرآن مضمونه إلى أهل الكتاب^(٤).

ويرى بعض الباحثين أن هذه الشبهة الفلسفية في اتخاذ الواسطة ظهرت قديما في المشركين من قوم إبراهيم على نبينا وعليه الصلاة والسلام - حيث (نشأ عبادة الكواكب عندهم من التعلق بالملائكة واعتقاد أنهم وسطاء بين الله وخلقه، وأنهم موكول إليهم تصريف هذا العالم، ثم اعتقدوا أن الأفلاك، والكواكب أقرب الأجسام المرئية إلى الله تعالى، وزعموا أنها أحياء ناطقة مدبرة للعالم، وأنها بالنسبة للملائكة كالجسد للروح، فهي الهياكل، والملائكة الأرواح، وأنها متصفة بصفات مخصوصة، ولوجود هذه الصفات استحقت أن تكون آلهة تعبد، فكانوا يتقربون إلى الهياكل (الكواكب) تقربا إلى الروحانيات (الملائكة)، ويتقربون إلى الروحانيات تقربا إلى الباري تعالى، وهؤلاء يسمون (أصحاب الهياكل)... واعتقدوا أن التقرب إلى هذه الأصنام هو الوسيلة إلى الهياكل (الكواكب) التي هي وسيلة إلى الروحانيات (الملائكة) التي هي وسيلة إلى الله تعالى، وهؤلاء يسمون (أصحاب الأشخاص) ولكن يظهر هنا جلليا دور قدسية

(١) لا يجوز إطلاق مثل (ملك الملوك) (وقاضي القضاة) (شاهنشاه) ونحو ذلك على غير الله تعالى.

(٢) حجة الله البالغة للدهلوي ١/ ١٨٢

(٣) انظر شرح العقيدة الطحاوية ص ٧٩

(٤) انظر الإنصاف في حقيقة الأولياء، وما لهم من الكرامات، والألطف ص ٤٨

(الأرواح) التي نسبوها إلى الملائكة، وعقيدة الوساطة والوسيلة^(١).

وهذه الشبهة حصلت نتيجة لتصوير أهل الأهواء البدائي للواسطة، حيث حارت أفئدة كثيرين منهم في تصور إله لا تدركه الأبصار، فالتمسوا الخلاص من هذه الحيرة في حل وسط، وشبهة فلسفية تتمثل في وجود شخصية بشرية ينسبون إليها الألوهية، وتكون برزخا بين الطرفين فكانت هذه الحاجة لوجود إله قريب من الأبصار هي التي ألجأت النصارى إلى تصور مثل أعلى، أطلقت عليه اسما، وكسته لحما، ودما، وعبدته بوصفه إلها بشريا^(٢).

وبالجملة فقد أبطل الله تعالى هذه الشبهة التي تتعلق بها الصوفية، وهي بعينها شبهة المشركين الأولين، وذلك ببرهانين عقليين:-

أولهما: أنه ليس في آلهة المشركين التي اتخذوها شيء من خصائص الألوهية؛ لأنها مخلوقة فهي لا تخلق، ولا تجلب لعباديتها نفعا، ولا تدفع عنهم ضرا، ولا تملك لهم حياة، ولا موتا، ولا نشورا، ولا تملك شيئا من ملكوت السماوات والأرض، قال الله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نَشُورًا﴾^(٣)، وقال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾^(٢٢) ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له^(٤)، وقال تعالى: ﴿أَيُسْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾^(١٩١) ولا يستطيعون لهم نصرا ولا أنفسهم ينصرون^(٥) وإذا كانت هذه حال آلهتهم فإن ادعاء وساطتها من أسفه السفه، وأبطل الباطل.

والثاني: أن المشركين كانوا يقولون بتوحيد الربوبية، وهو أن الله تعالى هو الرب الخالق المالك المتصرف الذي بيده ملكوت كل شيء، وهو الذي يجير ولا يجار عليه، وهذا يستلزم منهم أن يوحده بالألوهية كما وحده بالربوبية، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾^(٦) الذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء

(١) التنجيم والمنجمون وحكمهم في الإسلام للدكتور عبد المجيد المشعبي ص ٤٣، وأصل الكلام في الملل والنحل ٤٩/٢، وانظر دمعة عليا لتوحيد ص ٩٤

(٢) انظر روح الإسلام للسيد أمير على ترجمة أمين الشريف وآخر ١٢/٢

(٣) سورة الفرقان الآية ٣ (٤) سورة سبأ الآيتان (٢٢-٢٣).

(٥) سورة الأعراف الآيتان (١٩١-١٩٢).

وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١﴾ ، وقال تعالى : ﴿وَلَقَدْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ (٢) ، وقال أيضا : ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمِنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ (٣) فذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصَرِّفُونَ﴾ (٤)(٣)

ولما وجه السؤال الآتي للشيخ عبد الرحمن الدوسري رحمه الله (٥) - وصيغته : إذا قال القبوري : أنا لم أشرك ، وإنما جعلت النبي ، أو الولي المقبور واسطة ، وشفيعا يقربني إلى الله زلفى !! فما جوابه ؟

أجاب بقوله (جوابه هو أن الله أخبر عن المشركين أنهم لم يعتقدوا في أحجارهم ، وأشجارهم ، ونحوها الربوبية ؛ بل قالوا : ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ (٦) ، وأنهم يقولون : ﴿هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ (٧) ، فلم يقبل الله ذلك منهم ؛ بل شدد النكير عليهم ، وتوعدهم ، وأمر رسله بقتالهم ، واستباحة سبيهم ، وأموالهم ، وتعلق القبوريين (٨) في هذه الأزمنة بالمقدسین عندهم أعظم من تعلق أولئك المشركين ؛ لأن الأوائل يشركون في الرخاء ، ويخلصون في الشدة ، كما أخبر الله عنهم بقوله : ﴿إِذَا رَكبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَاوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ (٩) ، أما القبوريون ،

(١) سورة البقرة الآيتان (٢١-٢٢) .

(٣) سورة يونس الآيتان (٣١-٣٢) .

(٤) انظر مجموع فتاوى ورسائل الشيخ ابن عثيمين رحمه الله ١١٢/٥ ، ومظاهر الانحرافات العقدية عند الصوفية لإدريس محمود ص ٤٤١

(٥) هو الشيخ عبد الرحمن بن محمد بن خلف بن عبدالله الفهد آل نادر الدوسري نسبة إلى بطن من قبيلة الدواسر ، ولد في بريدة سنة ١٣٣٢ هـ ، تخرج من المدرسة المباركية في الكويت حيث كان والده يسافر به إلى الكويت بقصد التجارة ، يقال : إنه حفظ القرآن في أقل من شهر ، ثم انتقل من الكويت إلى الرياض ، وقد فسر القرآن الكريم وأذاع جزءا منه في الإذاعة بصوته ، من مؤلفاته ((صفوة الآثار والمفاهيم من تفسير القرآن الكريم)) ، توفي بلندن عام ١٣٩٩ هـ ، انظر : علماء آل سليم وتلامذتهم ص ١٢٢ ، إنحاف النبلاء بسير العلماء ص ١٥١

(٦) سورة الزمر الآية ٣

(٧) سورة يونس الآية ١٨

(٨) في النص المطبوع (القبوريون) وهو في محل جر .

(٩) في النص المطبوع رسمت الآية هكذا ﴿إِذَا مَسَّهُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ دَعَاوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ وليس في القرآن آية بهذا التركيب - حسب علمي - فلعلها مركبة من آيتين : وهما صدر آية الإسراء وهي قوله تعالى ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلُّوْا مِنْ تَدْعُوْنَ إِلَّا إِلَهُهُ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ اَعْرَضْتُمْ﴾ الآية ، وعجز آية العنكبوت التي وضعتها مكان الخطأ في النص .

والمفتونون بتقديس الأشياء في هذا الزمان فهم يشركون في الرخاء، والشدة؛ بل تزداد ضراعتهم إلى القبورين حال الشدة أعظم مما يضرعون إلى الله، أو يلتفتون^(١) إليه، فهم عدلوا بربهم غيره؛ إذ ساووه بملوك الدنيا الذين يجهلون أحوال رعاياهم، ونواياهم، فيحتاجون دائما إلى وسيط يعرفهم بالناس، ويشفع عندهم للمذنبين، والله لا يخفى عليه خافية، ولا دونه، ودون توبة عباده حجاب، وما لهم من دونه من ولي ولا شفيع، قال تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾^(٢)، : ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾^(٣) ﴿أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾^(٤) ﴿مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾^(٥)، فإن القبوري الذي يجعل القبور واسطة، وشفيعا، قد انتقص الله انتقاصا عظيما؛ حيث قاسه بال مخلوق الذي يحابي في فضله، وحكمه، وعدله، فيعطي من له وسيط، وشفيع أكثر مما يعطي غيره، أو يحرم من ليس له واسطة لجهله بحاله، ويعفو عن المذنب الذي له شفيع، ويطرح الآخر في السجن، والعذاب، وذنبيهما واحد (تقدس الله عن ذلك) فهذا القبوري اتهم الله بالمحاباة من حيث لا يشعر، وانهج خطة المشركين الذين هم بربهم يعدلون، زاعما أنه موحد، وهو مخالف للتوحيد (عافاه الله من ذلك) فعليه التوبة، وإخلاص الدين لله من جديد^(٦).

وكل هذه الممارسات البدعية بدعوى الواسطة (مخالفة للإسلام الصحيح يجب أن تزال، ويجب أن نعود إلى الإسلام في بساطته الأولى، وطهارته، ونقاؤه، ووحدته، واتصال العبد بربه، من غير واسطة، ولا شريك)^(٧).

٢- وأما في الرد على الصورة الثانية العامة فنقول: إن هذه الشبهة من أعظم براهين الصوفية القبورية العقلية، وجمهور القبوريين يتشبثون بها قديما وحديثا، ولا بأس أن أسوق بعض نصوص أئمتهم في تقرير هذه الصورة، يقول اليافعي^(٨): (قد جرت العادة

(١) في النص المطبوع (يلتفتوا) وهو في محل رفع. (٢) سورة البقرة الآية ٢٥٥

(٣) سورة الأنعام الآية ١ (٤) سورة يونس الآية ١٨

(٥) سورة السجدة الآية ٤ (٦) الأجوبة المفيدة لمهمات العقيدة ص ٦٥

(٧) زعماء الإصلاح في العصر الحديث لأحمد أمين ص ١٦

(٨) هو عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان بنفلاح عفيف الدين اليافعي اليمني، ثم المكي، الشافعي، الصوفي، الشاعر، ولد قبل السبعائة بقليل، ورحل إلى عدن، ثم جاور بمكة المكرمة حتى توفي بها سنة ٧٦٨ هـ. انظر

الدرر الكامنة ٢/ ٢٤٧، وشذرات الذهب ٦/ ٢١٠

أن من له حاجة قد يتوسل ذلك الوجيه بأوجه إلى من يراد منه قضاء الحاجة، كما يتوسل الإنسان من الرعية بالأمير، والأمير يتوسل بالوزير، والوزير يشفع عند السلطان في قضاء حاجة ذلك الإنسان، فكذلك نحن نتوسل إلى الله الكريم بنبينا عليه أفضل الصلاة والتسليم، وقد نتوسل بالأولياء في نادر من الأوقات في قضاء بعض الحاجات، والأولياء يتوسلون بالنبي الكريم فيشفع عند الله عز وجل فيسمع سبحانه شفاعته، ويقبل^(١).

ويقول النبھاني: (وهو سبحانه قد اتخذهم - ولا سيما المرسلين منهم - وسائط بينه وبين خلقه في تبليغ دينه وشرائعه فاتخذوهم خلقه المجيئون لدعوتهم المصدقون بنبوتهم، وصفوتهم وسائط إليه في غفران زلاتهم وقضاء حاجاتهم؛ لعلمهم بأن المناسبة بينهم وبينه تعالى أقوى بكثير من المناسبة بين غيرهم وبينه عز وجل، وإن كانوا كلهم عبيده تعالى، فإذا علم ذلك يعلم يقيناً أن تعظيمهم، وتوقيرهم، والتوسل بهم إليه تعالى - فضلاً عن كونه لا يخل بتوحيده سبحانه وتعالى - هو من لباب توحيده، وخالص دينه، وأحسن عباداته عز وجل. . ولا يشك عاقل بأن تعظيم خواص عبيد الملك، وأصفياه من الأنبياء، والأولياء في حياتهم، وبعد مماتهم هو في الحقيقة تعظيم لله تعالى، ولا يفهم موفق أن في ذلك شركاً مع الربوبية؛ لأنهم عبيده الطائعون، وخدامه الصادقون الذين قضوا أعمارهم في خدمته كما يحب ويرضى سبحانه وتعالى، وكانوا الوسائط بينه وبين خلقه في إرشادهم، وهدايتهم، وتبليغهم شرائعه وتعريفهم دينه، وكيفية عبادته، وبذلك امتازوا عن سائر عبيده عز وجل، وصاروا أقربهم، وأحبهم إليه فاستحقوا بذلك أن يعظمهم الناس، لا لذاتهم، بل لعلمهم أن تعظيمهم إياهم هو من أجل تعظيم الله لهم، فهو تعظيم له سبحانه وتعالى. . . وتعظيمهم من أحسن وجوه التقرب إليه لقضاء حوائجهم عنده، وكلما كان ذلك العبد، أو التابع أقرب له، وأحب إليه كان إكرامه، وتعظيمه، والتوسل به إليه أقرب في نجاح الحاجة، وحصول المقصود. . . فإذا عظمناهم، وتقربنا، وتشفعنا، وتوسلنا بهم إليه لقضاء حوائجنا الدنيوية، والأخروية، مع اعتقادنا الجازم أنهم عبيده، وليس لهم معه من الأمر شيء، وأنه تعالى يشفع من شاء منهم، ويرد شفاعته من شاء. . فعظمناهم لذلك، واتخذناهم وسائط لقضاء حوائجنا عنده، لكونهم - وإن شاركونا في أصل العبودية له تعالى - فقد امتازوا عنا بما تفضل الله عليهم به من

(١) انظر نشر المحاسن الغالية نقلاً عن جهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبرورية ٣/ ١٢٨٥

الرسالة، والنبوة، والولاية، وكثرة العلم، والعمل، والمعرفة، والطاعات، وسائر الخدمات التي تليق به تعالى، أنكون بذلك قد أشركنا بعبادته تعالى؟ أو نكون قد أظعننا سبحانه وتعالى بتعظيم من عظم الله؟ واحتقار أنفسنا عن أن نكون أهلا لطلب حوائجنا منه تعالى - بلا واسطة - لكثرة ذنوبنا، وتقصيرنا في طاعة مولانا عز وجل، ولذلك اتخذنا أفضل عبيده وسائل إليه لنوال فضله (١).

وقال آخر، وهو على شاكلة النبهاني في تقرير هذه الشبهة العامة في الواسطة: (وكل ما في الأمر أن المتوسل يرى نفسه ملطخا بقاذورات المعاصي، أبعده الغفلات عنه تعالى أيما إبعاد، فيفهم من هذا أنه جدير بالحرمان من تحقيق مطالبه، وقضاء حاجاته إن دعا الله مباشرة؛ لأجل هذا يتقدم المتوسل إليه تعالى بأحبابه الذين لا يعرفون إلا طاعته مبتهلا إليه بجاههم عنده، وحرمتهم لديه أن يقضي له حاجته لأجل هؤلاء الأحباب الذين عودهم تعالى (٢)، إذا كان هذا هو السر في التوسل فلا أثر إذن فيه لحياة المتوسل بهم أو موتهم، فإنهم أحباب ربنا تعالى على أي حال كانوا... أحياء كانوا أم أمواتا) (٣)، وأجاب العلماء على هذه الشبهة بعدة أجوبة:

الجواب الأول: أن الصوفية في تشبهم بكلمة "الواسطة" ملبسون، ومدلسون؛ حيث إنهم خلطوا حقا بباطل، وعبروا بمباح وأرادوا محرما، فإن كون الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - واسطة بين الله وخلقه يحتمل معنى حقا ومعنى باطلا، فمن أراد أنهم واسطة في تبليغ أوامر الله ونواهيه، وبيان دينه، وشرعه، وهداية الناس إلى الصراط المستقيم، وتوضيح محاب الله، ومساخطه فهذا معنى حق، وصواب، فإن الخلق لا يعلمون ما يحبه الله وما يكرهه، وما يأمر به، وما ينهى عنه إلا بواسطة الرسل - عليهم السلام -؛ لأن الله تعالى اصطفاهم ليلغوا عنه رسالاته إلى سائر الخلق، وأما من أرادوا بالواسطة أن الأنبياء - عليهم السلام - والأولياء، واسطة بين العباد، وخالقهم في جلب المنافع، ودفع المضار، والرزق، والنصر، وسائر الإغاثات، وكشف الكربات، وأن الناس

(١) شواهد الحق ص ١٤٢ وما بعدها (بتصرف) وانظر مفاهيم يجب أن تصحح لمحمد علوي مالكي ص ٩٥
(٢) في النص المطبوع سقط المفعول الثاني (لعودهم) وأصبح في الكلام بتر، ولعل تقديره (عودهم تعالى أن لا يردهم).

(٣) فصل الخطاب للحمامي المصري ص ٦٠ تقلا عن جهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبورية ٣/ ١٢٨٦، وعن استشهاد بهذه الشبهة أيضا مواطن مصري بعث برسالة إلى الشيخ الغزالي جاء فيها: (جمهور الناس عصاة والله إنما يتقبل من المتقين، فلو ذهب إنسان إلى ربه وهو موقر بالسيئات لم يجب له سؤال) عقيدة المسلم للغزالي ص ٨٢ كما حكاهما القريري ورد على القائلين بها، انظر تحرير التوحيد ص ٢٣

يتوجهون إلى الأنبياء، والأولياء، لتحصيل ذلك، ويستغيثون بهم عند نزول النوازل، وإلزام الملهمات، وينادونهم من دون الله تعالى في غيابهم في الحياة، وبعد الممات فهذا من الشرك^(١) الذي كفر الله به المشركين في الجاهلية الأولى.

وقد بين شيخ الإسلام ابن تيمية أن الأنبياء، والرسل واسطة بين الله، وخلقه في تبليغ الرسالة^(٢) بكل ما تحمل هذه الكلمة من العقائد النافعة، والأحكام العادلة، والعبادات الصالحة، والدلائل الشرعية، ثم رد على الذين يزعمون أن الأنبياء، والأولياء، والصالحين وسائط بين الله، وبين خلقه في جلب المنافع، ودفع المضار فقال: (وإن أراد بالواسطة أنه لا بد من واسطة في جلب المنافع، ودفع المضار مثل أن يكون واسطة في رزق العباد، ونصرهم، وهداهم، يسألونه ذلك، ويرجعون إليه فيه فهذا من أعظم الشرك الذي كفر الله به المشركين؛ حيث اتخذوا من دون الله أولياء، وشفعاء يجتلبون بهم المنافع ويدفعون بهم المضار؛ لكن الشفاعة لمن يأذن الله له فيها حق، قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾^(٣)، وقال تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ ﴾^(٤)، وقال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴾^(٥) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾^(٥)، وقال: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ ﴾^(٦)

وقالت طائفة من السلف: كان أقوام يدعون المسيح، والعزير، والملائكة، فبين الله أن الملائكة، والأنبياء لا يملكون كشف الضر عنهم، ولا تحويلا، وأنهم يتقربون إلى الله، ويرجون رحمته، ويخافون عذابه، وقال الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ

(١) وهذا النوع من الشرك يسمى شرك التقريب، وهو عبادة غير الله بقصد التقرب إلى الله. انظر مجالس الأبرار على خزانة الأسرار لأحمد الرومي ص ١٥٠ نقلا عن بيان الشرك ووسائله عند أئمة الحنفية للدكتور محمد

الحلميس ص ١٧

(٢) راجع الفصل السابق (صورة الواسطة في التبليغ)

(٤) سورة الأنعام الآية ٥١

(٣) سورة السجدة الآية ٤

(٦) سورة سبأ الآيتان (٢٢-٢٣).

(٥) سورة الإسراء الآيتان (٥٦-٥٧).



الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾

فبين سبحانه أن اتخاذ الملائكة، والنبيين أربابا كفر، فمن جعل الملائكة، والأنبياء، وسائط يدعوهم ويتوكل عليهم ويسألهم جلب المنافع ودفع المضار مثل أن يسألهم غفران الذنب، وهداية القلوب، وتفريج الكرب، وسد الفاقات، فهو كافر بإجماع المسلمين . . . ومن أثبتهم وسائط بين الله وبين خلقه كالحجاب الذين يكونون بين الملك ورعيته بحيث يكونون هم يرفعون إلى الله حوائج خلقه - فإله إنما يهدي عباده ويرزقهم بتوسطهم - فالخلق يسألونهم وهم يسألون الله، كما أن الوسائط عند الملوك يسألون الملوك الحوائج للناس لقربهم منهم، والناس يسألونهم أدبا منهم أن يباشروا سؤال الملك أو لأن طلبهم من الوسائط أنفع لهم من طلبهم من الملك لكونهم أقرب إلى الملك من الطالب للحوائج، فمن أثبتهم وسائط على هذا الوجه فهو كافر، مشرك يجب أن يستتاب، فإن تاب، وإلا قتل، وهؤلاء مشبهون لله، شبهوا المخلوق بالخالق، وجعلوا لله أندادا . . . والمقصود هنا أن من أثبت وسائط بين الله وبين خلقه كالوسائط التي تكون بين الملوك، والرعية فهو مشرك، بل هذا دين المشركين عباد الأوثان، كانوا يقولون: إنها تماثيل الأنبياء، والصالحين، وإنها وسائل يتقربون بها إلى الله، هو من الشرك الذي أنكره الله على النصارى؛ حيث قال: ﴿اتَّخِذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٢)(٣)

ويقول الشيخ عبد اللطيف آل الشيخ في رده على من أجاز دعاء غير الله تعالى بدعوى أنه واسطة بين الله تعالى والداعي: (فالقول بجواز الاستغاثة بغير الله، ودعاء الأنبياء، والصالحين، وجعلهم وسائط بين العبد، وبين الله، والتقرب إليهم بالنذر، والنحر، والتعظيم بالجلف وما أشبهه مناقضة ومنافاة لهذه الحكمة التي هي المقصودة بخلق السماوات والأرض، وإنزال الكتب، وإرسال الرسل، وفتح لباب الشرك في المحبة، والخضوع، والتعظيم، ومشاققة ظاهرة لله، ورسوله، ولكل نبي كريم، والنفوس مجبولة على صرف ذلك المذكور من العبادات إلى من هو أهل لكشف الشدائد، وسد

(١) سورة آل عمران الآية (٧٩-٨٠).

(٢) سورة التوبة الآية ٣١

(٣) الواسطة بين الحق والخلق ص ٢٠ وما بعدها (بتصرف يسير) وانظر مجموع الفتاوى ١/ ١٢١



الفاقات، وقضاء الحاجات من الأمور العامة التي لا يقدر عليها إلا فاطر الأرض، والسموات) إلى أن قال: (الوجه الثاني: أن هذا بعينه قول عباد الأنبياء، والصالحين من عهد قوم نوح إلى أن بعث إليهم خاتم النبيين، ولم يزدوا على ما ذكره هؤلاء الغلاة فيما انتحلوه من الشرك الوخيم، والقول الذميم، كما حكى الله عنهم ذلك في كتابه الكريم قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ (١)، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ (٢).

فهذه النصوص المحكمة صريحة في أن المشركين لم يقصدوا إلا الجاه والشفاعة، والتوسل بمعنى جعلهم وسائط تقربهم إلى الله، وتقضي حوائجهم منه تعالى، وقد أنكر القرآن هذا أشد الإنكار، وأخبر أن أهله هم أصحاب النار، وأن الله تعالى حرم عليهم الجنة دار أوليائه الأبرار، وجمهور هؤلاء المشركين لم يدعوا الاستقلال، ولا الشركة في توحيد الربوبية؛ بل أقروا، واعترفوا بأن ذلك لله وحده، كما حكى سبحانه إقرارهم، واعترافهم بذلك في غير موضع من كتابه، فحاصل ما ذكر من جواز الاستغاثة، والدعاء، والتعظيم بالندر، والحلف مع نفي الاستقلال، وأن الله يفعل لأجله هو عين دعوى المشركين، وتعليلهم، وشبههم، لم يزدوا عليه حرفاً واحداً؛ إلا أنهم قالوا: قربان، وشفعاء، والغلاة سمو ذلك توسلاً، فالعلة واحدة، والحقيقة متحدة).

ثم ذكر الشيخ الوجه الثالث الذي أثبت فيه أن الله سبحانه وتعالى أمر عباده بإفراده بالدعاء، والاستغاثة، وإنزال الحاجات، وجميع العبادات دون غيره كائناً من كان، واستدل بآيات وأحاديث كثيرة تؤيد ما ذكره، ثم قال: (وعلى القول بجعل الوسائط بين العباد وبين الله تقطع أصول هذا الأصل العظيم الذي هو قطب رحي الإيمان، وينهدم أساسه الذي ركب عليه البنيان، فأني فرج، وأي نعيم، وأي فاقة سدت، وأي ضرورة دفعت، وأي سعادة حصلت، وأي أنس، واطمئنان إذا كان التوجه، والدعاء، والاستغاثة، والذبح، والنذر لغير الملك الختان المتان؟! فصلاح السماوات والأرض بأن يكون الله سبحانه هو إلهها دون ما سواه، ومستغاثها الذي تفرع إليه وتلجأ إليه في مطالبها وحاجاتها. وأن الشرع الذي جاء به محمد ﷺ والسنة التي سنّها في قبور

الأنبياء، والصالحين، وعامة المؤمنين تنافي هذا القول الشنيع . . . ومن شم رائحة العلم، وعرف شيئاً مما جاءت به الرسل عرف أن هذا الذي قاله الغلاة من جنس عبادة الأصنام، والأوثان، مناقض لما دلت عليه السنة، والقرآن، ولا يستريب في ذلك عاقل من نوع الإنسان . . . وأن من أعرض عن الله، وقصد غيره، وأعد ذلك الغير لحاجته، وفاقته، واستغاث به، ونذر له، ولاذ به؛ فقد أساء الظن بربه، وأعظم الذنوب - عند الله - إساءة الظن به فإن المسيء به الظن قد ظن خلاف كماله المقدس . . . قال تعالى - عن خليله إبراهيم عليه السلام - : ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ (٨٥) أَفَلَا آلِهَةٌ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ (٨٦)﴾ فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ^(١) أي فما ظنكم أن يجازيكم إذا لقيتموه قد عبدتم غيره . . . وهذا بخلاف الملوك وغيرهم من الرؤساء فإنهم محتاجون إلى من يعرفهم أحوال الرعية، وحوائجهم من الوسطاء الذين يعينونهم على قضاء حوائجهم، وإلى من يسترحمهم، ويستعطفهم بالشفاعة، فاحتاجوا إلى الوسطاء ضرورة لحاجتهم، وعجزهم، وضعفهم وقصور علمهم، فأما القادر على كل شيء العالم بكل شيء الرحمن الرحيم الذي وسعت رحمته كل شيء، فإدخال الوسطاء بينه وبين خلقه تنقص بحق ربوبيته، وإلهيته، وتوحيده، وظن به ظن السوء، وهذا يستحيل أن يشرعه لعباده، ويمتنع في العقول، والفطر، وقبحه مستقر في العقول السليمة فوق كل قبيح^(٢)

الجواب الثاني: أن هذه الشبهة هي اتخاذ الأنبياء، والأولياء واسطة بين العباد وخالقهم في جلب المنافع، ودفع المضار من أجل أن الله تعالى يحبهم، وأن توسيطهم تعظيم له سبحانه وتعالى هذه الشبهة باطلة من أصلها؛ إذ فيها قياس الله تعالى على ملوك الدنيا، وهذا من أفسد القياس في العالم، ومع أنه قياس مع الفارق^(٣)؛ فإنه فاسد من عدة أوجه^(٤) :-

(١) سورة الصفات الآيات (٨٥-٨٧).

(٢) انظر منهاج التأسس للشيخ عبد اللطيف آل الشيخ نقلاً عن غاية الأمان ١/ ٢٦٣ وما بعدها، وأصل الكلام للعلامة ابن القيم، انظر الجواب الكافي ص ٣٣٠

(٣) انظر القياس الفاسد وأثره في الانحراف في العقيدة رسالة دكتوراه غير منشورة للدكتور أحمد بن شاكر الحذيفي ص ٨١

(٤) انظر الواسطة بين الحق والخلق ٢٦، وإغائة اللفهان ١/ ٣٣٩، وتجريد التوحيد المفيد ص ٣١، والصواعق المرسله الشهادية لابن سحمان ص ١٤٩، والتوسل للألباني ص ١٤٤، وجهود علماء الخنفيه في إبطال عقائد القبورية ٣/ ١٣٠٦، وتقديس الأشخاص في الفكر الصوفي ٢/ ٢٥٦

أولاً: أن الملوك لأجل جهلهم بحقائق الأمور، وعدم علمهم بأصول الرعية - يحتاجون إلى الوسائط من الأمراء، والوزراء، والندماء، والوجهاء، والأصدقاء؛ ليلغواهم أحوال الرعية، ويرفعوا إليهم حوائجهم بخلاف من يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، فمن ساوى الله تعالى بملوك البشر، فقد كفر.

ثانياً: أن ملوك الدنيا عاجزون عن تدبير أمورهم، والقيام بحقوق رعاياهم، وصد أعدائهم إلا بأعوان، وأنصار من الوزراء ليعينونهم على أداء مهماتهم، وتدبير شئون ممالكهم، وسياسة رعيّتهم، وحفظ بلدانهم، وأوطانهم بخلاف رب البرية، الخالق الحي، القيوم، القادر، المالك، الغني، القاهر، القوي، العزيز، المعطي المانع، فمن ظن أن الله تعالى يحتاج لواسطة مثل ملوك البشر فقد كفر.

ثالثاً: أن ملوك البشر ليسوا يريدون لنفع الرعية، والإحسان إليهم، ورحمتهم إلا بمحرك يحركهم من الخارج، فهم محتاجون من أجل ذلك إلى وسائط، وشفعاء، ونصحاء ينصحون، ويشفعون عندهم للمظلومين، والمحتاجين من الرعية، ليقوموا بقضاء حوائج هؤلاء بالترغيب، والنصيحة، والشفاعة بخلاف رب العالمين الرؤوف الرحيم الذي وسعت رحمته كل شيء، فمن ظن أن الله تعالى يحتاج مثل هؤلاء الوسطاء فقد كفر، والعياذ بالله.

رابعاً: أن الملوك مضطرون إلى قبول وساطة أمرائهم، ووزرائهم، ووجهاء ممالكهم؛ لحاجتهم إليهم في حفظ البلاد، وسياسة العباد، وكثيراً ما يقبل الملوك شفاعة أولئك الوسطاء بإذنهم، وبدون إذنهم لمن يرضون عنه، ولمن يسخطون عليه بخلاف مالك الملوك الغني عما سواه الحي القيوم الذي لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، ولم يكن له شريك في الملك، قال تعالى: ﴿قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ۚ﴾ (٢٢) وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ^(١)، فبين الله تعالى (أن كل من دعى من دونه ليس له ملك، ولا شريك في الملك، ولا ظهير، وأن شفاعتهم لا تنفع إلا لمن أذن له، وهذا بخلاف الملوك فإن الشافع عندهم قد يكون له ملك، وقد يكون شريكاً لهم في الملك، وقد يكون مظاهراً معاوناً لهم على ملكهم، وهؤلاء يشفعون عند الملوك بغير إذن الملوك - هم وغيرهم - والملك يقبل شفاعتهم

(١) سورة سبأ الآيتان (٢٢-٢٣).

تارة لحاجته إليهم، وتارة لخوف منهم، وتارة لجزاء إحسانهم إليه، ومكافأتهم، ولإنعامهم عليه، حتى إنه يقبل شفاعته ولده، وزوجته؛ لذلك فإنه محتاج إلى الزوجة، وإلى الولد، حتى لو أعرض عنه ولده، وزوجته لتضرر بذلك، ويقبل شفاعته مملوكه، فإذا لم يقبل شفاعته يخاف أن لا يطيعه، أو أن يسعى في ضرره، وشفاعة العباد، بعضهم عند بعض كلها من هذا الجنس، فلا يقبل أحد شفاعته أحد إلا لرغبة، أو رهبة، والله تعالى لا يرجو أحدا، ولا يخافه، ولا يحتاج إلى أحد^(١)، قتين بهذا أن قياس الخالق على الملك المخلوق قياس مع الفارق، وقياس تمثيل، يتضمن تشبيه الخالق بالمخلوق^(٢).

الجواب الثالث: أن قياس أحكام الدين على أمور الدنيا، وواقع الحياة العملية دليل على جهل صاحب هذا القياس، والمتفوه به، والمعتقد له؛ إذ ليست هناك قاعدة أصولية شرعية يبنى عليها هذا القياس، ويخرج عليها أفعال هؤلاء الغلاة من الناس^(٣).

الجواب الرابع: أن شبهة الصوفية في الواسطة من أجل طلب القرب من الله تعالى والزلفى لديه بالتوجه إلى المقربين من الوسطاء، كما يفعل أبناء الدنيا مع ملوكهم بتوسيط وزرائهم، وخواصهم، والمحبيين لديهم هي عقيدة القرامطة الباطنية^(٤)، كما أثبت ذلك إخوان الصفا في رسائلهم^(٥)، حيث قالوا: (إن الحكماء لما عرفوا أن للعالم صانعا طلبوا القربة إليه، والتوسل بصفوة خلقه، وطلبوا الزلفى لديه بتعظيمهم لهم كما يفعل أبناء الدنيا من القربة إلى ملوكهم بالتوسل إليهم بأقاربهم وندمائهم، ووزرائهم، وكتائبهم، وخواصهم، وقوادهم؛ فهكذا؛ وعلى هذا المثال فعل الحكماء).

اعلم يا أخي أن أهل المعارف الذين يعرفون الله حق معرفته، وهم أولياء الله فهم لا يتوسلون إليه بأحد غيره، وأما من قصر فهمه، ومعرفته فليس له طريق إلى الله تعالى إلا

(١) الواسطة بين الحق والخلق ص ٢٨، وانظر معارج الألباب ص ١٣٠

(٢) انظر تجريد التوحيد ص ٣٠، وتقديس الأشخاص في الفكر الصوفي ٢/ ٢٥٤

(٣) انظر تقديس الأشخاص في الفكر الصوفي ٢/ ٢٥٥

(٤) هم أتباع حمدان قرط أحد دعاة الباطنية وأئمتهم كوفي مات سنة ٢٩٣ هـ سموا بالباطنية لقولهم بأن الشريعة لها ظاهر وباطن، والإسماعيلية، والبابكية، والخرمية وغير ذلك من الأسماء. انظر فضائح الباطنية للغزالي ص ١١، والفرق بين الفرق ص ٢٨٢، وإتعاظ الحنفاء للمقرئزي ١/ ١٥١، وتاريخ أخبار القرامطة لثابت بن

سنان وابن العديم ص ٧، واليمانيات المسلوكة ص ٢٠٩

(٥) هم جماعة سرية من الباطنية تحالفوا فيما بينهم لبث الكفر في المسلمين بطرق سرية، وتسموا بهذا الاسم، وكان ظهورهم في دولة بني بويه الشيعية. انظر الحركات الباطنية للدكتور محمد الخطيب ص ١٦٩



بأنبيائه، ورسله، والأئمة، وأوصيائهم، وأولياء الله؛ فبههم يتقرب إلى الله، وبتعظيمهم، والذهاب إلى مساجدهم، ومشاهدتهم، والدعاء، والصلاة، والصيام عند قبورهم، طلباً للقربة إلى الله، والزلفى لديه^(١).

الجواب الخامس: أن غلاة الصوفية - في جعلهم الأنبياء، والصالحين واسطة بين الله تعالى وخلقه في استئزال الخير، واستدفاع الشر مشبهة مرتين بتشبيهين من جهتين التين: فمرة شبهوا المخلوق الناقص بالخالق في صفات الكمال، فصاروا مشبهة بذلك؛ حيث رفعوا المخلوق الواسطة فوق منزلته، ووصفوه بصفات لا تليق إلا بالخالق سبحانه وتعالى، من العلم، والإرادة، والقدرة المطلقة، والسمع، والإحاطة والإغاثة ونحوها؛ حتى عبدت الواسطة من دون الله تعالى^(٢)، ومرة شبهوا الخالق بالمخلوق في صفات النقص؛ وذلك في قياسهم الفاسد؛ حيث قاسوا رب العالمين خالق السماوات والأرضين بالملوك، والسلاطين الذين لا يتوصل إليهم عادة إلا بواسطة الوزراء، والوجهاء^(٣)، وهذه الشبهة من أصول أهل الشرك، فإن أصل الشرك هو التشبيه، والتشبيه^(٤).

الجواب السادس: أن يقال لأصحاب هذه الشبهة: قد تحقق أن المسلمين؛ بل الكافرين - أيضاً - يدعون الله تعالى مباشرة، بلا واسطة، والله تعالى - يجيبهم - فهل يعقل أن الله تعالى يجيب دعاء الكافرين المشركين بالذات من غير واسطة، ولا يجيب دعاء المسلمين الموحدين المتبعين للرسول إلا بهذه الواسطة^(٥)؟

يقول محمود شكري الألو سي: (وبالجملة فقد علم المسلمون كلهم أن ما ينزل بالمسلمين من النوازل في الرغبة، والرغبة، ومثل دعائهم عند الكسوف والاعتداد لرفع البلاء، وأمثال ذلك إنما يدعون في مثل ذلك الله وحده لا يشركون به شيئاً لم يكن للمسلمين أن يرجعوا حوائجهم إلى غير الله؛ بل كان المشركون في جاهليتهم يدعونه

(١) رسائل إخوان الصفاء ٢٠ / ٤

(٢) انظر شرح العقيدة الطحاوية ص ٢٣٧، وتجريد التوحيد المفيد للمقرئ ص ٢٦، ومقالة التشبيه وموقف أهل

السنة منها لجابر إدريس رسالة دكتوراه غير منشورة ص ١٥٠

(٣) انظر جهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبرية ١٣٠٤ / ٣

(٤) المراد بالتشبيه هو تشبيه الخالق بالمخلوق، وأما التشبيه فالمراد به أن يشبه المخلوق نفسه إله من بعض الوجوه.

انظر تجريد التوحيد ص ٣٠، والشرك في القديم والحديث لأبي بكر زكريا ١٢٠٨ / ٢

(٥) انظر مجموع الفتاوى ٤٣٧ / ١١، ومعارض الألباب ص ٢٤٩

- بلا واسطة - فيجيبهم الله ، أفتراه بعد التوحيد ، والإسلام لا يجيب دعاءهم إلا بهذه الوسطة التي ما أنزل بها من سلطان؟ ^(١) .

الجواب السابع: أنه ثبت بالأدلة السمعية ، والعقلية بطلان هذه الشبهة ، وذلك من وجوه :-

الأول: أن المقبورين لا يعلمون بحال المضطرين المكروبين المستغيثين المستشفعين كما سبق بيانه فكيف يطلبون شفاعتهم؟ وكيف يكونون - والحالة هذه - واسطة بينهم وبين الله تعالى؟ .

الثاني: لقد تحقق أن الأموات لا تصرف لهم في شأن من شؤون الكون ، فكيف يطلب منهم أن يتصرفوا تصرف الوسطاء من الوزراء والوجهاء؟ .

الثالث: أن الأموات لا يسمعون دعاء المستغيثين بهم ، ولا يطلعون على أحوالهم كما صرح بذلك علماء الحنفية ^(٢) فكيف يتصور وساطتهم ، وشفاعتهم للناس بدون أن يسمعو نداءهم؟ .

الرابع: أنه لم يثبت شرعا أن الميت يشفع لمن جاء مستغيثا به ؛ بل الأدلة من الكتاب والسنة وإجماع العقلاء متوافرة على أن الميت في لحده رهين كسبه ، قد انقطع عمله ^(٣) .

الجواب الثامن: أن ما زعمه غلاة الصوفية من أن العاصي نظرا لكثرة ذنوبه ووفرة عيوبه ليس له اللجوء إلى الله تعالى مباشرة وأن عليه أن يستصحب واسطة مقربة قبل مناجاة رب العالمين أن ذلك كلام لا أصل له في الإسلام قط ؛ بل إن رسالة الإسلام جاءت لتخلص عقول البشر وتحررها من ذل هذا الاعتقاد الفاسد ، وحتى إبليس رمز العصاة ، وإمام الملعونين لما دعا ربه مباشرة أجيبته دعوته ، قال الله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يَجْعَلُونَ ﴾ ^(٤) **﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴾** ^(٥) **﴿ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴾** ^(٦) أف يكون الملعون يدعو فيستجيب الله له رأسا من غير واسطة ، ولا يدعو المؤمن المطيع إلا بواسطة؟! .

(١) غاية الأمان ١/ ٤١٣

(٢) انظر الآيات البيئات في عدم سماع الأموات لنعمان الآلوسي ص ٥٣ ، وجهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبورية ٣/ ١٣٠٩

(٣) انظر للتوسع غاية الأمان ١/ ٣٠٠ ، وصيانة الإنسان ص ١٨٧ ، وجهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبورية ٣/ ١٢٣٢ ، والدعاء ومترلته من العقيدة الإسلامية ٢/ ٨٣٨

(٤) سورة الحجر الآية ٣٨

الجواب التاسع: أن ادعاء الوساطة على هذا الوجه من الحماقة بمكان؛ فإن مثل من يدعو الله بوساطة الأنبياء، والصالحين كممثل من يذهب إلى رئيس من الرؤساء، أو وزير من الوزراء -مثلا- ويقول له: يا سيادة الرئيس أطلب منك بجاه الوزير الفلاني أن تجعلني في الوظيفة الفلانية، أو كمن يطلب من وزير الأوقاف وظيفة الوعظ، أو الخطابة، ويقول له: أسألك بحق الإمام أبي حنيفة، أو بجاه الإمام الشافعي أن توكل إلى تلك الوظيفة، ولا يشك عاقل في حماقة من يتصرف هذا التصرف، ولا ريب أن الرئيس، أو الوزير سوف ينظر إلى هذا الشخص بعين الازدراء، ويحكم عليه بالحماقة، وعدم الرزانة^(١).

الجواب العاشر: أن في التوسيط نوعين، ولن تجلب الوساطة للسائل من الخير نقيرا؛ بل فيه معارضة، ومناقضة للمقاصد الصحيحة بالركون في الوصول إلى الله تعالى عن طريق الوسطاء، والشفعاء؛ بل فيه إساءة الظن برب العالمين؛ بل التعظيم في عدم الوساطة.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (ويلزم منه أن يرزق الله سبحانه وتعالى الكفار وينصرهم على عدوهم بالذات -بلا واسطة، ويرزق المؤمنين وينصرهم بوساطة المخلوقات، والتعظيم في عدم الوساطة... تدبر، ولا تتحير^(٢)).

فكما أن من أحب شيئا دون الله، لغير الله فمضرته أكثر من منفعته، فاعتماد الإنسان على الوسائط المخلوقة، وتوكله عليهم يوجب الضرر من جهتهم، وما علق عبد رجاء بغير الله إلا خاب من تلك الجهة، ولا استنصر بغير الله إلا كسر^(٣).

ومصدق ذلك أن السائل يتوجه إلى ربه عز وجل في حاجة مهمة فيتوسل إليه بحق الشفعاء، أو بجاه الوسطاء، فيبعد عن حاجته بمراحل، بسبب هذا التوسيط المنهي عنه، والمحذور الذي وقع فيه، ولو أنه توجه إلى ربه -مباشرة- مستشعرا عظمة الباري ورحمته بخلقه، متذللا، منكسرا، معترفا بذنوبه التي سلفت، محققا لتوحيد ربه لأتاه الغيث مدرارا، وحالقه التوفيق مرارا، ولقد أحسن القائل^(٤):-

إذا ما أتيت الأمر من غير بابه ضللت وإن تقصد إلى الباب تهتدي

الجواب الحادي عشر: أن من تتبع الأدعية الواردة في القرآن الكريم على لسان أنبياء الله ورسله عليهم السلام وغيرهم من عباد الله الصالحين فلن يجد دعاء واحدا دخلته واسطة

(٢) مجموع الفتاوى ١١/٤٣٧

(٤) تقدم تخريجه.

(١) الدين الخالص لصديق حسن خان ٢/١٨٧

(٣) انظر المرجع السابق ١/٢٩

من الوسائط؛ بل هي خطابات موجهة للباري عز وجل فيها اطراح بين يديه، واعتراف بالطبيعة البشرية، وتلذذ بعبوديتهم له سبحانه وتعالى، ولا شك أن من عارض خطاب الله تعالى الصريح في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾^(١)، وقال إنه لا بد لنا من واسطة، وليس في اتخاذ الواسطة شرك^(٢)، فقد خالف الأمر الوارد في هذه الآية، وسوف يحكم على عقله بالخرق، والحمق.

ب - ومن الشبهات العامة : استدلال الصوفية بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾^(٣) حيث يرون أن المراد بالوسيلة هنا ذوات الأنبياء، والصالحين^(٤) وجاههم، وحقوقهم عند الله تعالى، فيقصدونهم بالدعاء، والالتجاء، والاستعانة، والاستغاثة، سواء كانوا أحياء، أم أمواتا، حاضرين، أم غائبين^(٥). كما يستدلون بقوله تعالى: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾^(٦)، حيث قالوا: (أمرنا الله بالاستعانة بالأعراض، ولم يقل استعينوا بالله)^(٧).

وقال آخر: (في هذه الآية رد على من يقول: إنه لا تنبغي الاستعانة بغير الله؛ بل من قال هذا فقد كفر لمخالفته نص الكتاب، وإذا كانت الصلاة والصبر اللذان هما من أفعال العبد ندب الحق إلى الاستعانة بهما فالاستعانة بأولياء الله تعالى في قضاء الجوانح، والمصالح بالطريق الأولى جائزة)^(٨)، الرد على هذه الشبهة:

أما الآية الأولى : فقد تقدم معنا أن المراد بالوسيلة فيها، وكذلك الوسيلة في السنة،

(١) سورة البقرة الآية ١٨٦

(٢) كما صرح بذلك محمد بن علوي مالكي في مفاهيم يجب أن تصحح ص ٩٦

(٣) سورة المائدة الآية ٣٥

(٤) في معجم ألفاظ الصوفية للدكتور حسن الشرفاوي: أنه بمقتضى هذه الآية يكون النبي، والولي وسيلة مبتغاة، ويكون سؤالهما مطلوباً شرعاً حتى ينال العبد المقصود. انظر ص ١٠١

(٥) انظر لمع برق المقامات العوال في زيارة سيدي حسن الراعي وولده عبد العال لمصطفى البكري مطبوع بأخر شواهد الحق ص ٤٤٥، وشواهد الحق ص ٢٨٢، ومفاهيم يجب أن تصحح ص ١١٨، والرد عليه في هذه مفاهيمنا ص ١٤ وما بعدها.

(٦) سورة البقرة الآية ٤٥

(٧) صلح الإخوان لابن جرجيس ص ١٣٨ نقلاً عن جهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبور ص ١٢٦١/٣، وانظر الرد عليه في تحفة الطالب والجليس ص ١٣٨

(٨) لمع برق المقامات العوال مطبوع بأخر شواهد الحق ص ٤٤٥

وفهم السلف إنما هو العمل الصالح^(١)، وبذلك فسر أهل العلم المراد بالوسيلة في الآية، ولم يرد عن أحد من أهل العلم المعتمدين أن المراد بالوسيلة في الآية توسيط ذوات الشيوخ ونداؤهم، والاستغاثة بهم، كما فعل غلاة الصوفية.

قال الآلوسي: (واستدل بعض الناس بهذه الآية على مشروعية الاستغاثة بالصالحين، وجعلهم وسيلة بين الله تعالى وبين العباد، والقسم على الله تعالى بهم بأن يقال: اللهم إنا نقسم عليك بفلان أن تعطينا كذا، ومنهم من يقول للغائب، أو الميت من عباد الله الصالحين: يا فلان ادع الله تعالى ليرزقني كذا وكذا ويزعمون أن ذلك من باب ابتغاء الوسيلة وكل ذلك بعيد عن الحق بمراحل)^(٢). وقال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي: (... وبهذا التحقيق تعلم أن ما يزعمه كثير من ملاحدة أتباع الجهال المدعين للتصوف من أن المراد بالوسيلة في الآية الشيخ الذي يكون له واسطة بينه وبين ربه أنه تخبط في الجهل والعمى، وضلال مبین، وتلاعب بكتاب الله تعالى، واتخاذ الوسائط من دون الله من أصول كفر الكفار)^(٣).

وأما الآية الثانية: فليس فيها دليل على جواز الاستغاثة بالأموات عند الشدائد، والانقطاع بذوات المخلوقين عن التلذذ بمناجاة رب العالمين؛ بل إنها من أقوى الأدلة على وجوب الالتجاء إلى الله تعالى عند نزول الخطب، واشتداد الكرب، والتوسل إليه بعمل المتوسل الصالح، وقد تقدم معنا أن الصلاة، وغيرها من الطاعات كالصبر من أعظم الأعمال الصالحة التي تنفع صاحبها في حياته، وبعد مماته، وأن العمل الصالح واسطة بنفسه^(٤).

وبهذا يبطل محاولة غلاة الصوفية الاستدلال على جواز الوسطة البدعية بالآيات القرآنية.

ج - ومن الشبهات العامة: استدلال الصوفية بأحاديث موضوعية، وأخبار واهية إذا طوّل الغلاة بالدليل على ما يعتقدونه من جواز التوجه إلى الله تعالى بذوات المخلوقين في الدعاء، والرجاء، والانقطاع بهم عن الخلاق العليم بالتدلل والاستمداد والاستغاثة

(١) انظر من هذه الرسالة.

(٢) تفسير الآلوسي ١٢٤/٦

(٣) أضواء البيان ٧٧/٢، وانظر الدعاء ومنزلته من العقيدة الإسلامية ٧٠٣/٢

(٤) انظر صورة الوسطة في العمل الصالح.



فإنهم سوف يوردون كمًا هائلًا من الأحاديث الضعيفة، أو الموضوعية، وسلة مليئة بالأخبار الواهية، والأقاصيص المختلفة، وفيما يلي عرض لبعض ما يستدلون به من السنة مع بيان فسادها:-

١- توسل آدم بالنبي ﷺ فقد روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه مرفوعا: (لما اقترف آدم الخطيئة قال: يا رب أسألك بحق محمد لما غفرت لي، فقال: يا آدم فكيف عرفت محمدا ولم أخلقه؟ قال: يا رب لما خلقتني بيدك ونفخت في من روحك، رفعت رأسي فرأيت على قوائم العرش مكتوبا: لا إله إلا الله محمد رسول الله فعلمت أنك لم تضيف إلى اسمك إلا أحب الخلق إليك، فقال: غفرت لك ولولا محمد ما خلقتك^(١).

رواه الحاكم، وقال: (هذا حديث صحيح الإسناد، وهو أول حديث ذكرته لعبد الرحمن بن زيد بن أسلم في هذا الكتاب)^(٢).

وتعقبه الذهبي^(٣) رحمه الله بقوله: بل هو موضوع، وعبد الرحمن واه^(٤).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: (وأما تصحيح الحاكم لمثل هذا الحديث فهذا مما أنكره عليه أئمة العلم بالحديث، وقالوا: إن الحاكم يصحح أحاديث، وهي موضوعة مكذوبة)^(٥). كما أخرجه من طريق الحاكم أيضا البيهقي، وحكم بضعفه^(٦). وبهذا يكون رد الاستدلال بهذا الحديث من ناحيتين اثنتين:-

الأولى: من ناحية السند، فقد تكلم كبار نقاد الحديث على هذا الحديث فحكموا بوضعه، وبطلانه، فمن الحفاظ الذين حكموا عليه بالوضع.

١- الإمام الذهبي^(٧)، ٢- والحافظ ابن حجر^(٨)، وشيخ الإسلام ابن

(١) استدلل بهذا الحديث البكري كما في تلخيص كتاب الاستعانة ١/٥٢، والسبكي في شفاء السقام ص ١٧٢، ودحلان في الدرر السنية ص ٩، والنبهاني في شواهد الحق ص ١٣٧، وعلوي مالكي في مفاهيم يجب أن تصحح ص ١١٩

(٢) رواه الحاكم في المستدرک ٢/٦١٥، وأخرجه الطبراني في المعجم الصغير ٢/٨٢، والبيهقي في دلائل النبوة ٥/٤٨٩

(٣) هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز التركماني الذهبي، قال عنه السبكي: إمام الأئمة، وذهب العصر معنى ولفظا، وشيخ الجرح والتعديل، ورجل الرجال في كل سبيل، توفي سنة ٧٤٨هـ، انظر شذرات الذهب ٦/١٥٣

(٤) تلخيص المستدرک ٢/٦١٥

(٥) قاعدة جلية في التوسل والوسيلة ص ١٦٥

(٦) انظر دلائل النبوة ٥/٤٨٩

(٧) انظر تلخيص المستدرک ٢/٦١٥

(٨) انظر لسان الميزان ٣/٣٥٩

تيمية^(١)، وابن عبد الهادي^(٢)، والألباني^(٣) رحمهم الله .

والثانية: من ناحية المتن : أن هذا الخبر معارض للقرآن في موضعين : -

أ - فيه التصريح بأن الله تعالى ما غفر لآدم عليه السلام إلا بسبب جعله محمدا ﷺ واسطة في توبته ، والذي صرح به القرآن الكريم هو أن الله تعالى غفر لآدم بكلمات تلقاها منه ، قال الله تعالى : ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾^(٤) ، والراجح أن تفسير هذه الكلمات هو بقوله تعالى : ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^(٥) ، وهذا هو الأصل المعتمد في التفسير حيث يفسر القرآن بالقرآن^(٦) .

ب - أن فيه (ولولا محمد ما خلقتك) ، ومعلوم مناقضة هذا القول للحكمة من خلق الله تعالى للبشر ، وهم آدم ، وذريته ، وكذلك الجن ؛ إذ أن الحكمة من خلقهم جميعا إنما هي العبادة^(٧) ، كما قال تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(٨) . فثبت بهذا القول الباطل معارضة صريح القرآن الكريم^(٩) .

٢ - حديث : (توسلوا بجاهي فإن جاهي عند الله عظيم) ويرويه بعضهم بلفظ (إذا سألتكم الله فسلوه بجاهي) وهو خبر باطل لا أصل له ، وإن احتج به الصوفية^(١٠) .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية (حديث باطل لم يروه أحد من أهل العلم ، ولا هو في شيء من كتب الحديث)^(١١) . كما حكم بوضعه الآلوسي المفسر^(١٢) . وقال الشيخ الألباني : (لا أصل له في شيء من كتب الحديث ألبتة ، وإنما يرويه بعض الجهال بالسنة)^(١٣) .

(١) انظر قاعدة جلية ص ١٦٨ ، وتلخيص كتاب الاستغاثة ٥٦ / ١ ، ومجموع الفتاوى ٢٥٤ / ١

(٢) انظر الصارم المنكي ص ٣٦

(٣) انظر سلسلة الأحاديث الضعيفة ٣٨ / ١ برقم ٢٥ ، والتوسل أنواعه وأحكامه ص ١١٣

(٤) سورة البقرة الآية ٣٧

(٥) سورة الأعراف الآية ٢٣ ، وانظر تفسير الطبري ٢٤٥ / ١ ، وتفسير ابن كثير ٢ / ٢١٥

(٦) انظر أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ١ / ٦٠ (٧) راجع الفصل السابق صورة الوسطة في العبادة .

(٨) سورة الذاريات الآية ٥٦ (٩) انظر التوسل للألباني ص ١٢٤

(١٠) انظر بغية المستفيد لابن السائح التجاني ص ١٦٩ ، وحكاة عنهم شيخ الإسلام ابن تيمية ورده في قاعدة جلية

ص ٢٥٢ ، واقتضاء الصراط المستقيم ٢ / ٧٩٢ ، ومجموع الفتاوى ١ / ٣٤٦

(١١) قاعدة جلية ص ٢٥٢ ، وانظر مجموع الفتاوى ١ / ٣٤٦ ، واقتضاء الصراط المستقيم ٢ / ٧٩٢

(١٢) انظر تفسير الآلوسي ٦ / ١٣٧

(١٣) التوسل للألباني ص ١٢٧ ، وانظر سلسلة الأحاديث الضعيفة ١ / ٣٠ برقم ٢٢

وما ينبغي أن يعلم أن الحكم على هذا الحديث بالبطلان، والوضع لا يستلزم نفي جاه النبي ﷺ العظيم؛ فإن جاهه عند الله تعالى عظيم، ومقامه كريم، وإذا كان الله تعالى وصف موسى بقوله: ﴿وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾^(١) وقال في عيسى: ﴿وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾^(٢)؛ فكيف بسيد ولد آدم صاحب المقام المحمود الذي يغبطه به الأولون والآخرين؟ وصاحب الكوثر، والحوض المورود، وهو إمام الأنبياء إذا اجتمعوا، وخطيبهم إذا وفدوا ذي الجاه العظيم ﷺ؟ إلا أن جاه المخلوق عند الله تعالى ليس كجاه المخلوق عند المخلوق؛ لأنه لا يشفع أحد عند الله إلا بإذنه^(٣).

٣- ومن تلك الأحاديث الموضوعة: حديث: (إذا أعيتكم الأمور، أو إذا تحيرتم في الأمور فعليكم بأصحاب القبور، أو فاستعينوا بأهل القبور)^(٤)؛ حيث اجتج به الغلاة في القبور على جواز الاستغاثة، والاستعانة بالواسطة من المقبورين عند الشدائد، والكروب، ونزول النوازل والخطوب^(٥)، وهو موضوع لا أصل له باتفاق أهل الحديث. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (فهذا الحديث كذب مفترى على النبي ﷺ بإجماع العارفين بحديثه، لم يروه أحد من العلماء بذلك ولا يوجد في شيء من كتب الحديث المعتمدة)^(٦). وبين العلامة ابن القيم أن هذا الخبر من الأحاديث المكذوبة التي وضعها أشباه عباد الأصنام من المقابرية على رسول الله ﷺ وهي تناقض دينه وما جاء به^(٧).

٤- ومن الأحاديث الموضوعة التي يحتج بها غلاة الصوفية على جواز دعاء الواسطة البدعية حديث: (لو أحسن أحدكم ظنه بحجر لنفعه)، وفي لفظ (لو اعتقد أحدكم بحجر لنفعه) ولشهرة هذا الحديث على الألسنة للاستدلال به على جواز دعاء الله تعالى بأي واسطة كانت أورده السخاوي رحمه الله^(٨) في المقاصد الحسنة^(٩). وقد حكم عليه

(١) سورة الأحزاب الآية ٦٩ (٢) سورة آل عمران الآية ٤٥

(٣) انظر قاعدة جلية في التوسل والوسيلة ٢٥٢

(٤) قال العجلوني: كذا في الأربعين لابن كمال باشا. انظر كشف الخفاء ١/ ٨٨

(٥) انظر الأمن والعلى للبريلوي ص ٤٢ نقلا عن البريلوية لإحسان إلهي ظهير ص ٦٠

(٦) قاعدة جلية ص ٢٩٧ (٧) انظر إغاثة اللهفان ١/ ٢٢٠

(٨) هو أبو الخير، وقيل: أبو عبدالله محمد بن عبدالرحمن بن أبي بكر بن عثمان بن محمد شمس الله السخاوي،

نسبة إلى قرية (سخا) بمصر، ولد بالقاهرة سنة ٨٣١هـ، اشتهر بالحديث والفقه، وله مشاركات في الفرائض،

والتفسير، وأصول الفقه، توفي بالمدينة سنة ٩٠٧هـ، انظر: الضوء اللامع ٨/ ٢، والبدر الطالع ٢/ ١٨٤،

وشذرات الذهب ٨/ ١٥

(٩) انظر ص ٣٤١ برقم ٨٨٣

الحفاظ من العلماء بالوضع، فممن حكم بوضعه شيخ الإسلام ابن تيمية^(١). وكذلك العلامة ابن القيم، وذكر أنه من جملة الأحاديث التي بسببها انتشر الشرك في الأمة، وأنه من وضع عباد الأصنام^(٢). وقال الحافظ ابن حجر: لا أصل له^(٣). ونقل كلامه علي القاري فأقره^(٤). كما حكم عليه بالوضع أيضا الشيخ الألباني^(٥).

وبهذا القدر من الأحاديث الموضوعية، والأخبار الواهية نكتفي في مناقشة أدلتهم، وشبهاتهم؛ لأن هذا من أشهر ما يستدلون به، وفي الرد عليه رد على ما يشبهه من أدلتهم، وشبهاتهم الأخرى التي لا تخرج عن شاكلة هذه النماذج؛ ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (وأما أولئك الضلال أشباه المشركين فعمدتهم؛ إما أحاديث ضعيفة أو موضوعة، أو منقولات عمن لا يحتج بقوله؛ إما أن يكون كذبا عليه، وإما أن يكون غلطا منه؛ إذ هي نقل غير مصدق عن قائل غير معصوم)^(٦).

د - ومن الشبهات العامة: شبهة التسبب، والكسب: ما زلنا أمام اعتذارات الصوفية لتبريرهم التوجه بالدعاء، والاستغاثة، والنداء إلى الأنبياء، والصالحين سواء كانوا أحياء غائبين أم في حياتهم البرزخية مقبورين، ومن تلك المعاذير: أن الاستغاثة بالأنبياء، والأولياء، والصالحين، وطلب المدد منهم هو من قبيل الأخذ بالأسباب، وليس ذلك من باب الشرك بالله، ولا يعد عبادة لغير الله تعالى؛ بل إن طلب الغوث منهم على سبيل الكسب، والتسبب، ومن الله تعالى على سبيل الخلق، والإيجاد، والله تعالى جعل الأولياء أبوابا للخير منها يدلّف^(٧) إليه الداخلون، وسحبا يطر منها أنواع الخيرات على المتعلقين بهم، والمستغيثين، وغاية ما يعتقد الناس في الأموات أنهم أسباب ووسائل كالأحياء، لا أنهم خالقون، وموجدون، والتسبب، والكسب أمران مقدوران للميت، وفي إمكانه كالحي، وليس في ذلك نوع من أنواع الشرك^(٨).

(١) انظر منهاج السنة النبوية ١/٤٨٣، ونقل هذا الحكم عنه مرعى بن يوسف الكرمي انظر الفوائد الموضوعية في

الأحاديث الموضوعية ص ١٠٧ برقم ١٨٨

(٢) انظر المنار المنيف ص ١٣٩ برقم ٣١٩

(٣) انظر المقاصد الحسنة للسخاوي ص ٣٤١

(٤) انظر المصنوع من معرفة الحديث الموضوع للقاري ص ١٤٧ برقم ٢٤٨

(٥) انظر سلسلة الأحاديث الضعيفة ١/٤٥٢ برقم ٤٥٠ (٦) تلخيص كتاب الاستغاثة ٢/٢٨٠

(٧) يدلّف: أي يمضي إليه، ويدخل عليه. انظر القاموس المحيط ٣/١٤٥ مادة (دلف).

(٨) انظر تقرير هذه الشبهة في شفاء السقام للسبكي ص ١٧٦، والدرر السنية لدحلان ص ١٧، وشواهد الحق

ص ١٣٨، ومفاهيم يجب أن تصحح ص ٨٦

يقول المالكي : (فنسبة الأفعال إلى العباد من نسبة المسبب إلى السبب أو الواسطة ، وهذا لا منافاة فيه ؛ لأن مسبب الأسباب هو الذي خلق الواسطة وخلق فيها معنى الواسطة ، ولولا ذلك الذي أودع الله تعالى فيها لم تصلح أن تكون واسطة^(١) .

ويقال للرد على هذه الشبهة : (نعم هذا معتقد من يعبد الأنبياء ، والصالحين ، ويستغيث بهم ، يقول : هم سببي وواسطتي ، يحصلون لي بكسبهم ، والله هو الخالق ، ولا أدعي غير ذلك ، ولا نازع في الخلق ، والربوبية إلا فرعون ، والذي حاج إبراهيم في ربه ، وجمهور المشركين كما تقدم تقريره ، فبطل تعليله^(٢) .

ويقول محمود شكري الألوسي : (فإن قلت : إن للمستغاث بهم قدرة كسبية ، وتسببية ، فتسبب الإغاثة إليهم بهذا المعنى ، قلنا له : إن كلا منا فيمن يستغاث به عند المأم ما لا يقدر عليه إلا الله ، أو السؤال ما لا يعطيه ، ويمنعه إلا الله ، وأما فيما عدا ذلك مما يجري فيه التعاون ، والتعاقد بين الناس ، واستغاثة بعضهم ببعض فهذا شيء نقول به^(٣) ، ونعد منعه جنونا ؛ كما نعد إباحة ما قبله شركا ، وضلالا ، وكون العبد له قدرة كسبية لا يخرج بها عن مشيئة رب البرية ، لا يستغاث به فيما لا يقدر عليه إلا الله ، ولا يستغاث به ، ولا يتوكل عليه ، ولا يلتجئ في ذلك إليه ، فلا يقال لأحد حي ، أو ميت ، قريب ، أو بعيد : ارزقني ، أو أمتني ، أو أحي ميتي ، أو اشف مريضني إلى غير ذلك مما هو من الأفعال الخاصة بالواحد الأحد ، الفرد الصمد ، بل يقال لمن له قدرة كسبية قد جرت العادة بحصولها ممن أهله الله لها : أعني في حمل متاعي ، أو غير ذلك ، والقرآن ناطق بحظر الدعاء عن كل أحد ، لا من الأحياء ، ولا من الأموات ، سواء كانوا أنبياء ، أو صالحين ، أو غيرهم ، وسواء كان الدعاء بلفظ الاستغاثة ، أو بغيرها ؛ فإن الأمور الغي رمقدورة للعباد لا تطلب إلا من خالق القدر ، ومنشئ البشر ، كيف والدعاء عبادة وهي مختصة به سبحانه ، أسبل الله علينا بفضلله عفو ، ورضوانه ، فالقصر على ما تعبدنا فيه من محض الإيمان والعدول عنه عين المقت ، والخذلان ، وهذا خلاصة ما ذكره من جعل الاستغاثة ، والاستشفاع بغير الله شركا ظاهرا لا يغفر ، ومتعاطيه جاعل لله ندا ، فيذبح بأمر الله تعالى ، وشرع رسوله

(١) مفاهيم يجب أن تصحح ص ٨٦

(٢) منهاج التأسيس للشيخ عبد اللطيف آل الشيخ نقلا عن غاية الأمان ٢٧٩/١

(٣) في النص المطبوع (لا نقول به) ومعناه غير مراد بلا شك .

ﷺ إن لم يتب . وبالجمله فالاستغاثه ، والاستعانه ، والتوكل أغصان دوحه التوحيد المطلوب من العبيد^(١) .

ثم إن الدعاء الرجاء والتوكل والاستعانه ، والاستغاثه من جمله العبادات ؛ بل هي أسس للعبادة ، والتأله لله تعالى ، وصرفها لغيره من خلقه محض الشرك المنهي عنه ، وأما جعل ذوات الأنبياء ، والصالحين واسطه ، وسببا لحصول الخير ، ودفع الشر ، ونسبة هداية التوفيق إليهم ، وأن هذا داخل في جمله الأسباب المشروعة ، فهذا لا يجوز بحال ، وإن ظن المبتدع ذلك كل الظن .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : (إن الأعمال الدينية لا يجوز أن يتخذ منها شيء سببا إلا أن تكون مشروعة ؛ فإن العبادات مبنها على التوفيق ، فلا يجوز للإنسان أن يشرك بالله فيدعو غيره ، وإن ظن أن ذلك سبب في حصول بعض أغراضه ؛ ولذلك لا يعبد الله بالبدع المخالفة للشريعة ، وإن ظن ذلك^(٢) .

وقد تقدم الكلام عن هذه الشبهة في بيان الأسس التي بنى عليها أهل الأهواء مذهبهم في الواسطة^(٣) ، فلا نطيل الكلام عنها بأكثر من هذا .

هـ - ومن الشبهات العامة: شبهة المجاز العقلي^(٤) : تقرر الصوفية ، والغلاة - عموما - أن تصرف الأولياء في الكون ، والإنسان - بزعمهم - وشفاء الأمراض ، ومعرفة النيات ، والخواطر ، وهداية القلوب هداية التوفيق ، وإغاثة المستغيثين ، ونصرة المكروبين ، وتدمير الأعداء ، وتمكين الأولياء إنما يقصد بذلك كله المجاز العقلي ، فالفاعل لذلك كله في الحقيقة هو الله عز وجل ، وأما نسبة تلك الأفعال إلى الوسائط من الخلق فمن باب المجاز العقلي ، لا على وجه الحقيقة^(٥) . يقول أحمد دحلان : (فإذا قال العامي من المسلمين نفعني النبي ﷺ أو أغاثني ، أو نحو ذلك فلإنما يريد الإسناد المجازي ، والقرينة على ذلك أنه

(١) غاية الأمان ١/ ٢٥٢ ، وانظر صيانة الإنسان ص ١٨٦ ، وجهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبورية ٣/ ١٠٣١

(٢) الواسطة بين الحق والخلق ص ٤٤

(٣) انظر

(٤) المجاز العقلي هو (إسناد الفعل أو معناه إلى ملابس له غير ما هو له) انظر التعريفات للنجرجاني ص ٢٥٩ ، ومفتاح العلوم للسكاكي ص ١٧٠

(٥) انظر تقرير هذه الشبهة في شفاء السقام للسبكي ص ١٤٤ ، والدرر السنية لدحلان ص ٢٠ ، ومفاهيم يجب أن تصحح ص ٨٥

مسلم، موحد، لا يعتقد التأثير إلا لله، فجعلهم ذلك، وأمثاله من الشرك جهل محض، وتلبس على عوام الموحدين^(١). ويقول محمد علوي مالكي: (إن من نسب الفعل إلى الواسطة لا يكفر؛ إلا إذا اعتقد أنها هي الفاعلة المدبرة المخترعة، وإذا لم تكن ملاحظة الواسطة بهذا الاعتبار؛ بحيث أن الواسطة علامة، أو ظرف الخلق المقدرو فيها فلا كفر؛ بل تارة يندب الشرع إلى ملاحظة الواسطة)^(٢).

الرد على هذه الشبهة:-

١- إن الألفاظ الشركية، والخطابات الغالية التي تصدر من الغلاة، نحو الوسائط من الأموات المقبورين- وقد مر معنا كثير منها- لا ينطبق عليها حد المجاز العقلي إذا اعتبرنا حال هؤلاء الداعين المستغيثين، واعتقادهم؛ لأن الإسناد الواقع في كلامهم إسناد حقيقي، ولا ينطبق عليه حد المجاز العقلي، ومن المرجحات لذلك اعتقادهم التأثير، والتصرف المطلق في الكون، وغير ذلك لمن يدعونهم من الوسائط، كما تقدم معناه.

٢- أننا لو أولنا كلام هؤلاء الغلاة في الواسطة باحتمال المجاز العقلي، فماذا نعمل بأعمالهم الشركية؟ فهل يمكن تأويلها هي الأخرى؟ وإذا أولت فبماذا نؤول سجودهم للمقبورين، وتعفير جباههم بتراب الأرض، والطواف بالمشاهد، والقباب، وذبحهم للقرابين، وتقديهم للنذور؟ (فهل هذه الأعمال أيضا مؤولة لوقوعها عن لا يعتقد التأثير مع أن هذه العبادات من خالص حق الله تعالى، وصرفها لغيره شرك)^(٣).

بل إن من سمع أقوال المستغيثين بالوسائط المقبورين على علم أنهم يعتقدون أن لهم شيئا من التصرف، والاستقلالية، والتمكن، وهذا كفر فوق كفر الكسب، والتسبب، والواسطة^(٤).

يقول الشهاب الألوسي: (ولا أرى أحدا ممن يقول ذلك إلا وهو يعتقد أن المدعو الحي الغائب، أو الميت المغيب يعلم الغيب، ويسمع النداء، ويقدر بالذات، أو بالغير على جلب الخير، أو دفع الأذى، وإلا لما ادعاه، ولما فتح فاه، وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم)^(٥).

(٢) مفاهيم يجب أن تصحح ص ٨٩

(٤) انظر هذه مفاهيمنا ص ١٢٢

(١) الدرر السنية ص ٢١

(٣) صيانة الإنسان ص ٢٢٠

(٥) تفسير الألوسي ١١٥/٦

٣- ثم إن قول الغلاة هذا يدل على أن الشرك لا يكون إلا اعتقاديا، وأن التفوه بالكفر لا يعتبر إلا إذا طابق الاعتقاد، و (هذا يقتضي سد أبواب الشرائع، ومحو الأبواب التي ذكرها الفقهاء في الردة... ولو قلنا: إن الألفاظ لا عبرة بها، إنما العبرة للاعتقاد لأمكن لكل من يتكلم بكلام يحكم على قائله بالردة اتفاقا أن يقول: لم تحكمون بردتي؟ فيذكر احتمالا، ولو بعيدا يخرج به عما كفر فيه، ولما احتاج إلى توبة، ولا توجه عليه لوم أبدا، وهذا ظاهر البطلان)^(١).

ولو فتحنا هذا الباب لكل متأول بكلام ظاهره الكفر لم يكن في الأرض كافر. قال الإمام الذهبي: (وإن فتحنا باب الاعتذار عن المقالات، وسلكنا طريق التأويلات المستحيالات لم يبق في العالم كفر، ولا ضلال، وبطلت كتب الملل والنحل واختلاف الفرق)^(٢).

وهذا خلاف ما قرره العلماء المعبرون من أن (المدار في الحكم بالكفر على الظواهر، ولا نظر للمقصود، والنيات، ولا نظر لقرائن حاله)^(٣).

٤- أن من يستدل بالمجاز العقلي على إباحة دعاء غير الله تعالى فقد احتج بحجة المشركين الأوائل الذين نزل فيهم القرآن الكريم، وحكم بكفرهم رغم ادعائهم أنهم يقرون بتوحيد الربوبية، ويعبدون مع الله تعالى غيره من الأصنام لاعتقاد وساطتها، وشفاعتها، فكما أو هذه الحجة لم تنفع المشركين فهي لا تنفع أيضا الغلاة في المقبورين.

٥- أن عوام المسلمين الذين جرفهم تيار التصوف حين يتوجهون إلى وسائطهم المقبورين بهذه الاستغاثات، والنذورات الشركية لا يخطر ببالهم، ولا يرد بأذهانهم، ولا يستحضرون هذه المجازات العقلية، والتلبيسات الفلسفية، والتأويلات البلاغية، وإنما يفهم ذلك حماة البدعة، ودعاة الضلالة لتصحيح هذه الأقوال الشركية، وتصويب أفعال العوام ليدفعوا بهم إلى مستنقع الشرك، وهاوية الخرافة.

ثانيا شبهات تتعلق بالأنبياء عليهم السلام:

أ - التوسل بهم: لقد قسم المحققون من العلماء التوسل إلى قسمين:

(١) جلاء العينين ص ٥١٥

(٢) تاريخ الإسلام... نقلا عن الدعاء ومنزلته من العقيدة الإسلامية ٩٢٧/٢

(٣) الإعلام بقواطع الإسلام لابن حجر الهيتمي ص ٨٢

- توسل مشروع، وتوسل ممنوع، وقد تقدم معنا تعريف التوسل، وبيان أقسامه، وتكلمنا عن القسم الأول منه، وهو التوسل المشروع، وأوضحنا هناك صورة الوساطة الشرعية في هذا النوع من التوسل الذي هو مذهب أهل السنة والجماعة.

ونأتي الآن على القسم الثاني من التوسل، وهو التوسل الممنوع، وهو التوسل إلى الله تعالى بوسيلة لا تثمر أي بوسيلة لم يثبت في الشرع أنها وسيلة^(١)، وهو نوعان:-

النوع الأول: أن يكون بوسيلة سكت عنها الشرع، وهذا من التوسل المحرم، بل إنه قد يجر إلى الشرك، ومثاله أن يتوسل إنسان بجاه شخص ذي جاه عند الله تعالى كالتوسل بجاه الأنبياء (لأنه إثبات لسبب لم يعتبره الشرع؛ ولأن جاه ذي الجاه ليس له أثر في قبول الدعاء؛ لأنه لا يتعلق بالداعي، ولا بالمدعو، وإنما هو من شأن ذي الجاه وحده، فليس بنافع لك في حصول مطلوبك، أو دفع مكروبك، ووسيلة الشيء ما كان موصلاً إليه، والتوسل بالشيء إلى ما لا يوصل إليه نوع من العبث، فلا يليق أن تتخذ فيما بينك وبين ربك^(٢).

ومثال آخر على التوسل بوسيلة سكت عنها الشرع، وهو التوسل بذات الشخص، وهذا توسل بدعي من وجه وشركي من وجه آخر، فكونه من البدع؛ لأنه لم يكن معروفاً عند النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم، وكونه من الشرك؛ لأن كل من اعتقد في أمر من الأمور أنه سبب، وواسطة في جلب الخير، ودفع الشر، فقد أتى نوعاً من أنواع الشرك؛ من أجل هذا فإنه يحظر التوسل بذات النبي ﷺ مثل أن يقول الشخص (أسألك بنبيك محمد ﷺ) إلا على تقدير أن هذا الشخص يتوسل بالإيمان بالرسول ﷺ ومحبه، فإن ذلك عمل صالح، وواسطة شرعية ينتفع بها العبد، وعلى هذا المعنى يحمل كلام من توسل بالنبي ﷺ بعد مماته من السلف كما نقل عن بعض الصحابة، والتابعين، والإمام أحمد في رواية عنه، وحيث لا يكون في المسألة نزاع، لكن كثيراً من العوام، وكثيراً من الناس في هذا الزمان يطلقون هذا اللفظ ولا يريدون هذا المعنى^(٣).

النوع الثاني: من التوسل الممنوع، هو توسل المشركين بأصنامهم، وأوثانهم، وتوسل

(١) انظر مجموع فتاوى ورسائل الشيخ ابن عثيمين ٣/ ٣٤٣

(٢) المرجع نفسه، والموضع بعينه، وانظر قاعدة جلية في التوسل والوسيلة ص ٩٩

(٣) انظر قاعدة جلية ص ١١١

أهل الأهواء الجاهلين بالأولياء، والصالحين .

فالتوسل الممنوع هو (الواقع من بعض العوام بسؤاله تعالى بأشخاص الأنبياء، والأولياء، والصالحين مما لا يعد قربة، ولا وسيلة لهم إلى الله؛ لأنه لا عمل لهم فيه، فإنه بدع من القول، وزور، وضلال من اللعين، وغرور، وهو قطعاً غير مشروع، بل هو من عمل المشركين الذي سرى إلى بعض المسلمين من أهل الكتاب كما سرى إليهم من الوثنيين، وذلك كقولهم :-

أسألك بحق النبي عليك، بحق قبره المعظم، أو قبته عليك، أو بجاهه، أو ببركته عليك يا نبي الله سقتك على ربك ^(١)، ولفظ التوسل يراد به ثلاثة أمور

الأول: التوسل بالإيمان بالنبي ﷺ وهذا أصل الإيمان، والإسلام .

والثاني: دعاؤه، وشفاعته، وهذا النوع أيضاً يتنفع المتوسل الذي يدعو له النبي ﷺ ويشفع فيه .

والثالث: التوسل به، بمعنى الإقسام على الله بذات النبي، والسؤال بذاته، وهذا النوع من التوسل الممنوع هو المشتهر عند كثير من المتأخرين، وقد يوسعون دائرته فيدخلون فيها غير النبي ﷺ من سائر إخوانه من المرسلين، والصالحين، وكل من يعتقدون فيه الولاية، والصلاح، وهذا النوع لم يكن الصحابة يفعلونه في الاستسقاء ونحوه، لا في حياة النبي ﷺ ولا بعد مماته، لا عند قبره، ولا قبر غيره، ولا يعرف في شيء من الأدعية المشهورة المروية عنهم ^(٢) .

إذن فهذا النوع من التوسل غير مشروع؛ لأنه لا ينبغي على أساس شرعي تقوم به الحجة، وقد أنكره المحققون من العلماء، ولم ينقل عن أحد منهم القول بجواز شيء من ذلك إلا ما ذكر عن الإمام أحمد أنه قال بجواز التوسل بالنبي ﷺ دون غيره كأن يقول المتوسل: (اللهم إني أتوسل إليك به) وهو مقتضى إحدى روايتين عنه، والرواية الأخرى هي الموافقة لقول سائر الأئمة: أبي حنيفة، ومالك، والشافعي وغيرهم من السلف رحمهم الله؛ ولهذا أفتى العز بن عبد السلام أنه لا يقسم على الله بأحد من خلقه سواء من الملائكة، أو الأنبياء، أو غيرهم، لكن ذكر له حديث في الإقسام بالنبي ﷺ فقال: إن صح الحديث كان خاصاً به ^(٣) .

(٢) انظر قاعدة جلية ص ٨٢

(١) القول الجلي في حكم التوسل بالنبي والولي ص ٣٢

(٣) انظر فتاوى العز بن عبد السلام ص ١٢٦

ومعلوم أن الحديث المذكور لا يدل على الإقسام به عليه الصلاة والسلام^(١).

وقد لخص العلامة نعمان الألوسي الخلاف في هذه المسألة بقوله: (وقد اختلف العلماء بعد أن اتفقوا على استحباب سؤاله عز وجل به، وبأسمائه وبصفاته وأفعاله، في جواز التوسل بالذوات المنيفة، والأماكن والأوقات الشريفة؛ فعن العز بن عبد السلام ومن تابعه عدم الجواز إلا بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم، وعن الحنابلة في أصح القولين أنه مكروه كراهة تحريم، وهذا إذا كان الداعي متوجهاً إلى ربه متوسلاً إليه بغيره؛ مثل أن يقول: أسألك بجاء فلان عبدك، أو بحرمة أو بحقه. وأما إذا توجه إلى ذلك الغير فطلب منه كما يفعله كثير من الجهلة فهو شرك كما تقدم^(٢).

فالصحيح حظر التوسل بمخلوق مطلقاً، سواء كان التوسل بذاته، أو بجاءه، أو بحقه؛ لترك الصحابة رضي الله عنهم ذلك كله، والاقتصار على الثابت من صور التوسل المشروع التي سبق توضيحها، ولهذا قال الإمام أبو حنيفة رحمه الله: (لا ينبغي لأحد أن يدعو الله إلا به، وأكره أن يقول: أسألك بمعاهد العز من عرشك)، وكذا قال أبو يوسف^(٣) رحمه الله: (وأكره أن يقول: بحق فلان، أو بحق أنبيائك، ورسلك، وبحق البيت الحرام، والمشعر الحرام)^(٤).

وسئل شيخ الإسلام ابن تيمية: هل صحيح أن الله سبحانه وتعالى لا يسمع الدعاء إلا بواسطة محمد ﷺ فإنه الوسيلة والواسطة؟ فأجاب بقوله: (الحمد لله، إن أراد بذلك أن الإيمان بمحمد، وطاعته، والصلاة والسلام عليه وسيلة للعبد في قبول دعائه، وثواب دعائه فهو صادق، وإن أراد أن الله لا يجيب دعاء أحد حتى يرفعه إلى^(٥) مخلوق، أو يقسم عليه به، أو أن نفس الأنبياء بدون الإيمان بهم وطاعتهم، وبدون شفاعتهم وسيلة في إجابة الدعاء، فقد كذب في ذلك والله أعلم)^(٦).

(١) انظر مجموع الفتاوى ١/ ١٤٠ (٢) جلاء العينين ص ٥١٦

(٣) هو أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم بن حبيب بن خبيش الأنصاري الكوفي، الإمام المجتهد، العلامة، المحدث، قاض القضاة، صاحب الإمام أبي حنيفة، ولد سنة ١١٣ هـ، وتوفي سنة ١٨٢ هـ.

انظر سير أعلام النبلاء ٨/ ٥٣٥، وشذرات الذهب ١/ ٢٩٨

(٤) الدر المختار في الفقه الحنفي للحصكفي ٢/ ٦٣٠، والفتاوى الهندية لجماعة من علماء الهند ٥/ ٢٨٠

(٥) هكذا في المطبوع، ولعل المناسب للسياق (إليه).

(٦) مجموع الفتاوى ١/ ١٣٩

وعلى هذا أفتت اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء بالرياض؛ حيث ورد إليها تساؤل من بعض الأشخاص هل يجوز التوسل بحياة بعض الصحابة رضي الله عنهم أثناء الدعاء؟ فأجابت قائلة: (الدعاء بجاء رسول الله، أو بجاء فلان من الصحابة، أو غيرهم، أو بحياته لا يجوز؛ لأن العبادات توقيفية، ولم يشرع الله ذلك، وإنما شرع لعباده التوسل إليه سبحانه بأسمائه، وصفاته، وبتوحيده، والإيمان به، وبالأعمال الصالحات، وليس جأه فلان، وفلان، وحياته من ذلك، فوجب على المكلفين الاقتصار على ما شرع الله سبحانه، وبذلك يعلم أن التوسل بجاء فلان، وحياته، وحقه من البدع المحدثه في الدين، وقد صح عن رسول الله ﷺ أنه قال (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد) (١) . . . وبالله التوفيق) (٢).

وأهل السنة وإن قالوا بالمنع من التوسل بذاته ﷺ إلا أنهم لا يكفرون من يذهب إليه، مستدلاً بحديث الضرير، كما ينسبه إليهم بعض العوام، وأهل الأهواء، ومن لا يعرف حقيقة مذهبهم (٣).

لكن أهل الأهواء عموماً والصوفية خصوصاً يستدلون على جواز التوسل بذوات المخلوقين من الأحياء، والميتين، وبجأهم، وحقهم، والاستغاثة بهم حال الاضطرار، ودعاء الله تعالى بهم يستدلون ببعض الأدلة التي هي عند التحقيق شبهات، وهي كثيرة، لكننا نختار أكثرها شبهاً بالدليل للرد عليها، وبيان الحق فيها، وليُقاس عليها باقي الشبهات.

الشبهة الأولى: حديث الضرير عن عثمان بن حنيف رضي الله عنه أن رجلاً ضريراً البصر أتى النبي ﷺ فقال: (ادع الله أن يعافيني، فقال: إن شئت دعوت لك، وإن شئت صبرت فهو خير لك، فقال: ادعه فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه، ويدعو بهذا الدعاء: اللهم إني أسألك، وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة، يا محمد إني توجهت بك إلى

(١) رواه البخاري، انظر صحيح البخاري مع الفتح كتاب الاعتصام باب إذا اجتهد الحاكم فأخطأ خلاف الرسول ٣١٧/١٣ حديث ٧٣٥٠، ومسلم، انظر صحيح مسلم بشرح النووي كتاب الأفضية باب نقض الأحكام الباطلة ١٦/١٢ (٢) فتاوى اللجنة الدائمة ١٥٣/١ الفتوى رقم ٨٨١٨

(٣) انظر المجموع المفيد من رسائل وفتاوى للشيخ سعد بن حمد بن عتيق. جمع وترتيب: إسماعيل بن سعد بن عتيق ص ٤٤

ربي في حاجتي هذه لتقضى لي، اللهم فشفعه في، وشفعني فيه، قال: ففعل الرجل، فبراً^(١). فذهب القوم إلى أن هذا الحديث يدل على جواز التوسل في الدعاء بجاء النبي ﷺ أو غيره من الأنبياء، والأولياء، والصالحين، في الحياة وبعد الممات.

الرد عليهم، أولاً: أن هذا الحديث ليس فيه دليل على جواز التوسل الممنوع، وأن كل من سأل الله بنبي أو برجل صالح، سواء بذاته، أو بحقه، أو بجاءه، أن معنى ذلك الإقسام به على الله، وأن ذلك كله واسطة شرعية، ووسيلة صحيحة، كما فعل هذا الأعمى، بل فهمهم هذا باطل؛ ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (وقول هؤلاء باطل شرعاً، وقدرًا، فلاهم موافقون لشرع الله، ولا ما يقولونه مطابق لخلق الله)^(٢).

ثانياً: أن الأعمى إنما جاء إلى النبي ﷺ ليدعوه؛ إذ لو قصد هذا الصحابي الضرير التوسل بذات النبي ﷺ أو بجاءه، أو بحقه لكفاه عن المجيء المتعذر على مثله، أن يجلس في بيته، ويدعوه ربه بقوله: اللهم إني أسألك بجاء نبيك، وبحقه، ومنزله عندك أن تشفيني، فلما لم يفعل ذلك علم بدهاءه أنه إنما قصد بهذا التوسل النوع الجائز من التوسل وهو دعاء الرجل الصالح.

ثالثاً: أن قوله: (ادع الله أن يعافيني) عبارة صريحة في أن هذا التوسل إنما هو طلب للدعاء من التوسل به.

رابعاً: أن النبي ﷺ وعده بالدعاء مع نصحه بسلوك ما هو الأفضل له في الآخرة، وذلك في قوله: (إن شئت دعوت، وإن شئت صبرت) ومعلوم أن النبي ﷺ خير من وفي بوعدة -وقد وعده بالدعاء، وتصريح الصحابي بطلب الدعاء بقوله (فادعه) يرجح ذلك، فعلم أن النبي ﷺ قد قام بالدعاء، كما طلب الصحابي على وجه إلا أن النبي ﷺ وجه الصحابي بدافع الشفقة إلى النوع المشروع من التوسل، وهو التوسل بالعمل الصالح حيث ورد في بعض الروايات أنه أمره أن يتوضأ، ويصلي ركعتين^(٣)، ثم يدعو لنفسه.

خامساً: أن قوله في الدعاء الذي علمه رسول الله ﷺ وهو (اللهم فشفعه في) دليل على التوسل بالدعاء، لا بالذات، والجاء، قال الشيخ الألباني (وهذا يستحيل حمله على

(١) أخرجه الترمذي في سننه ٥٦٩/٥، وابن ماجه في سننه ٤٤١/١، وهو في المسند ١٣٨/٤، وعمل اليوم والليلة للنسائي ص ٤١٧، والمعجم الصغير للطبراني ١/١٨٣، والمستدرک للحاكم ١/٣١٣، وصححه الشيخ الألباني في صحيح الجامع ١/٢٧٤ برقم ١٢٧٩، والتوسل له أيضاً ص ٧٤

(٢) مجموع الفتاوى ١/٣٢٤ (٣) كما في رواية ابن ماجه، وأحمد، والحاكم، والبيهقي.



التوسل بذاته ﷺ، أو جاهه، أو حقه إذ المعنى: اللهم اقبل شفاعته ﷺ في أي اقبل دعاءه في أن ترد علي بصري، والشفاعة لغة: الدعاء^(١)، وهذه الزيادة (فشفعه في) من الكنوز كما قال الشيخ الألباني من عرفها جعل منها معولا لهدم شبهات المخالفين^(٢).

وقد بين شيخ الإسلام ابن تيمية أن توسل هذا الضرب إنما كان بدعاء النبي ﷺ لا بذاته، وجاهه، كما فعل عمر في التوسل بدعاء العباس رضي الله عنهما الآتي، ولم يتوسل بذات النبي ﷺ، ثم قال شيخ الإسلام: (فالحديثان معناهما واحد فهو صلى الله عليه وسلم رجلا يتوسل به في حياته، كما ذكر عمر أنهم كانوا يتوسلون به إذا أجدبوا، ثم إنهم بعد موته إنما كانوا يتوسلون بغيره لا عنه، فلو كان التوسل به حيا وميتا سواء، والتوسل به الذي دعا له الرسول، كمن لم يدع له الرسول، لم يعدلوا عن التوسل به - وهو أفضل الخلق، وأكرمهم على ربه، وأقربهم إليه وسيلة - إلى أن يتوسلوا بغيره ممن ليس مثله^(٣)).

سادسا: أن هذا الحديث ذكره العلماء في معرض بيان معجزات النبي ﷺ ودعائه المستجاب، وما أظهره الله ببركة دعائه من الخوارق، وإظهار المعجزات، فإنه بدعائه ﷺ لهذا الأعمى رد الله عليه بصره من أجل ذلك أخرج المصنفون هذا الحديث في دلائل النبوة، كالبيهقي، وغيره، وهذا يدل على أن السر في شفاء الأعمى إنما كان بدعاء النبي ﷺ، ويؤيد هذا التوجه أنه لو كان السر في دعائه الأعمى وحده، وتوسله بذات النبي ﷺ وجاهه، دون دعاء المصطفى ﷺ لكان كل من دعا به من عميان الأمة مخلصا يعافى من علته، ولو كان الأمر كذلك لتقل إلينا أن عادة العميان من عهد الصحابة، والتابعين، ومن بعدهم جارية على هذا النوع من التوسل، وهو أمر يتعذر نقله^(٤).

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (وكذلك لو كان كل أعمى توسل به، ولم يدع له الرسول بمنزلة ذلك الأعمى لكان عميان الصحابة، أو بعضهم يفعلون مثل ما فعل الأعمى فعدولهم عن هذا إلى هذا مع أنهم السابقون الأولون المهاجرون والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان؛ فإنهم أعلم منا بالله ورسوله، وبحقوق الله ورسوله، وما يشرع من الدعاء،

(١) التوسل أنواعه وأحكامه ص ٧٨

(٢) انظر صحيح الجامع ٢٧٤ / ١ في التعليق على الحديث رقم ١٢٧٩

(٣) قاعدة جلية ص ٢٥٩، ومجموع الفتاوى ١ / ٣٢٥

(٤) انظر التوسل للألباني ص ٨٠

وينفع، ومالم يشرع، ولا ينفع، وما يكون أنفع من غيره، وهم في وقت ضرورة، ومخصصة، وجذب، يطلبون نفريج الكربات، وتيسير العسير، وإنزال الغيث بكل طريق ممكن دليل على أن المشروع ما سألوه دون ما تركوه^(١).

الشبهة الثانية: استدلالهم بأثر استسقاء عمر بالعباس رضي الله عنهما.

فمن أنس بن مالك رضي الله عنه أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان إذا أقحطوا استسقى بالعباس ابن عبد المطلب، فقال: (اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقيننا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا، قال: فيسقون)^(٢).

يحتج المخالفون بهذا الأثر على جواز التوسل بذات الشخص، وجاهه، وحقه، ويرون أن عمر رضي الله عنه ما توسل بالعباس رضي الله عنه إلا تعظيماً لرسول الله ﷺ وتفخيماً لأهله وتقديماً لعم النبي ﷺ وذلك مبالغة من عمر في التوسل بالنبي ﷺ ما استطاع، فيكون بذلك عمر رضي الله عنه قد توسل برسول الله ﷺ على أبلغ وجه وأحسنه، ثم إن هذا الفضل من عمر رضي الله عنه هو من باب بيان جواز التوسل بالمفضول مع وجود الفاضل^(٣). ومع هذا فإن الإجابة (منوط وقتها بعلم الله عز وجل، فقد تتأخر فيضطرب ضعاف القلوب إن كان التوسل بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم في ذلك المقام، وقد لا يحصل هذا الاضطراب إذا كان بالعباس رضي الله عنه)^(٤).

الرد عليهم: إن هذا الأثر ليس فيه دليل على جواز التوسل الممنوع بذات الشخص وجاهه وإنما هو من التوسل المشروع، وهو طلب الدعاء من الحي الحاضر؛ وذلك من وجوه: -

١- أن توسل عمر بدعاء العباس لا بذاته؛ إذ لو كان الأمر كذلك لما كان ثمة حاجة في أن يقوم العباس فيدعو بدعائه متوجهاً إلى الله، متذلاً خاشعاً، بعد كلام عمر، فهذا صريح على أنه دعا بدعاء ثان^(٥).

(١) قاعدة جلييلة ص ٢٦٠، ومجموع الفتاوى ٣٢٦/١

(٢) رواه البخاري، كتاب الاستسقاء باب سؤال الناس الإمام الاستسقاء إذا قحطوا ٤٩٤/٢ حديث رقم ١٠١٠

(٣) انظر مفاهيم يجب أن تصحح ص ١٥٠

(٤) ردود على أباطيل لمحمد الحامد القسم الثاني ص ٤٦، وانظر الرد عليهم في أوضح الإشارة للشيخ أحمد النجدي ص ٢٧٧

(٥) انظر التوسل للألباني ص ٦٧، ومجموع فتاوى ورسائل الشيخ ابن عثيمين ٣٥١/٢

٢- تصريح عمر رضي الله عنه أنهم كانوا يتوسلون بالنبي ﷺ في حياته وأنهم في هذه الحادثة توسلوا بالعباس رضي الله عنه فيه دليل على أن التوسلين من نوع واحد، وهو دعاء الرسول ﷺ لهم كما كان توسلهم بالعباس رضي الله عنه أيضا بدعائه^(١).

٣- لو كان التوسل بالذات جائزا كما يدعيه المخالفون لما عدل عمر رضي الله عنه عن التوسل بذات النبي ﷺ إلى العباس؛ لأنه ممكن لو كان مشروعاً، وأما ادعاؤهم أنه لبيان جواز التوسل بالمفضول مع وجود الفاضل فدعوى عجيبة، وتعليل واه^(٢).

يقول الشيخ الألباني: (فهذه الأحاديث وأمثالها مما وقع زمن النبي ﷺ وزمن أصحابه الكرام رضوان الله عليهم وتبين بما لا يقبل الجدل أو المارة أن التوسل بالنبي ﷺ أو بالصالحين الذي كان عليه السلف الصالح هو مجيء المتوسل إلى المتوسل به، وعرضه حاله له، وطلبه منه أن يدعو له الله سبحانه؛ ليحقق طلبه فيستجيب هذا له، ويستجيب من ثم الله سبحانه وتعالى)^(٣).

الشبهة الثالثة: استدلالهم بتوسل آدم بالنبي عليهما الصلاة والسلام، وقد بان بطلانه من ناحية السند، والمتن في بياننا للشبهات العامة، والرد عليها في الصفحات السابقة.

الشبهة الرابعة: استدلالهم بالحكاية التي تروى عن الإمام مالك مع الخليفة أبي جعفر المنصور رحمهما الله تعالى، بناء على استدلالهم بتوسل آدم السابق، وقد أخرجها القاضي عياض بسنده إلى محمد بن حميد الرازي رحمهما الله تعالى^(٤)، فقال: (ناظر أبو جعفر أمير المؤمنين مالكا في مسجد رسول الله ﷺ فقال له مالك: يا أمير المؤمنين! لا ترفع صوتك في هذا المسجد فإن الله تعالى أدب قوما فقال: ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾^(٥)، ومدح قوما فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ

(١) انظر شرح العقيدة الطحاوية ص ٢٣٨، وجلاء العينين ص ٥٢٢، والتوسل للألباني ص ٦٧

(٢) انظر قاعدة جلية ص ٨٢، والتوسل للألباني ص ٦٥، والدعاء ومترلته من العقيدة الإسلامية ٧٢٦/٢

(٣) التوسل أنواعه وأحكامه ص ٥٨، وانظر الشرك وأنواعه لجفري وهاب رسالة ماجستير غير منشورة ص ٣٠٤،

وجهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبرورية ١٥٠٧/٢

(٤) هو أبو عبد الله محمد بن حميد بن حبان الرازي، العلامة الحافظ الكبير، ولد سنة ١٦٠هـ، قال الذهبي: وهو

مع إمامته منكر الحديث، صاحب عجائب، توفي سنة ٢٤٨هـ، انظر تاريخ بغداد ٢/٢٥٩، وسير أعلام

النبلاء ١١/٥٠٣، وشذرات الذهب ٢/١١٨

(٥) سورة الحجرات الآية ٢

امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾، وذم قوما فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ينادُونَكَ مِنَ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ﴿٢﴾، وإن حرمة كحرمة حيا، فاستكان لها أبو جعفر، وقال: يا أبا عبد الله، أأستقبل القبلة، وأدعو، أم أستقبل رسول الله ﷺ؟ فقال: ولم تصرف وجهك عنه، وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم عليه السلام إلى الله تعالى يوم القيامة؟ بل استقبله، واستشفع به، فيشفعك الله، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ ﴿٣﴾ (٤)

مناقشة هذه الحكاية: قدر دأهل العلم الخبيريون بمنهج الإمام مالك رحمه الله هذه الحكاية بالأوجه التالية:-

أولاً: جهة الإسناد.

١- مدار هذه الحكاية على محمد بن حميد الرازي، وهو متهم بالكذب، فقد قال البخاري: في حديثه نظر، وقال النسائي: ليس بثقة، وقال أبو زرعة: صح عندنا أنه يكذب، وقال الذهبي في المغني: ضعيف لا من قبل حفظه، وقد وثقه الإمام أحمد، وابن معين، والراجح عدم توثيقه، وأما الذين وثقوه فعذرهم في ذلك أنهم لم يعرفوه؛ لأنه خراساني، وأهل بلده يعرفون حاله، ولعله عند ما اجتمع بالذين وثقوه في بغداد اختار لهم أحاديثه الصحيحة (٥).

٢- الانقطاع الحاصل بين ابن حميد، والإمام مالك بن أنس؛ فإن ابن حميد الرازي لم يلق الإمام مالكا، ولا سيما في زمن أبي جعفر المنصور؛ حيث ولادة ابن حميد كانت سنة ١٦٠ هـ ووفاته سنة ٢٤٨ هـ وكانت وفاة الإمام مالك سنة ١٧٩ هـ، وتوفي أبو جعفر المنصور بمكة سنة ١٥٨ هـ، ثم إن ابن حميد لم يخرج من بلده إلا وهو كبير مع أبيه (٦). فهذه المناظرة

(٢) سورة الحجرات الآية ٤

(١) سورة الحجرات الآية ٣

(٣) سورة النساء الآية ٦٤

(٤) الشفاء ٣٥/٢، ومن احتج بهذه الحكاية على جواز التوسل بالذات: البكري كما في تلخيص كتاب الاستغاثة ١/٨٥، والسبكي في شفاء السقام ص ٨٤، والسمهودي في وفاة الفاء ٤/١٣٧٦، ودحلان في الدرر السنية ص ١٠

(٥) انظر تهذيب الكمال في الرجال ٨/١٠٢، والكمال لابن عدي ٦/٢٢٧٧، والمجروحين لابن حبان ٢/٣٠٣، وتاريخ بغداد للخطيب ٢/٢٥٩، وميزان الاعتدال ٣/٥٣٠، والمغني ٢/٥٧٣، وسير أعلام النبلاء

للذهبي ١١/٥٠٣، وتهذيب التهذيب لابن حجر ٩/١٢٧

(٦) انظر قاعدة جليلة ص ١٢٢، والصارم المنكي ص ٢٦٠

على فرض صحتها حصلت قبل ولادة ابن حميد الرازي^(١).

٣- وإذا كانت هذه الحكاية منقطعة، وابن حميد ضعيفا عند أهل الحديث إذا أسند، فكيف إذا أرسل حكاية لا تعرف إلا من جهته؟ ولم يروها أحد من أصحاب الإمام مالك المعروفين بالأخذ عنه مع العلم أن في إسناد هذه الحكاية مجهولين إذا كان الأمر كذلك فقد بان بطلان الاستدلال بهذه الحكاية من جهة السند^(٢).

ثانيا: مناقشة هذه الحكاية من جهة المتن:

١- هذه الحكاية تخالف منهج الإمام مالك في زيارة القبور وكرامته للوقوف عند قبر النبي ﷺ للدعاء له، أو الدعاء عنده^(٣)، كما ذكر أصحابه المعتمدون أنه سئل عن أقوام يطلبون القيام مستقبلتي الحجرة النبوية يدعون لأنفسهم، فأنكر مالك فعلهم^(٤)، كما كره لأهل المدينة التردد للسلام، وكره أن يقال: زرت قبر النبي صلى الله عليه وسلم^(٥).

٢- أن هذه الحكاية تخالف ما ثبت عن السلف وخصوصا عند الإمام مالك من التحذير من البدع محافظة على السنة وسدا لذرائع الشرك، وصيانة للعقيدة، وحماية لجناب التوحيد، والآثار الواردة عنهم كلهم رحمهم الله تدل على أن هذا هو عملهم؛ بل هي مخالفة لمنهجهم، ومعارضة لطريقتهم.

٣- أن لفظ هذه الرواية فيه ركافة لغوية، وذلك في قوله (استشفع به فيشفعك الله) وإذا كان المراد طلب شفاعته فإنما يقال: استشفع به فيشفعه الله فيك^(٦).

٤- ولو صحت هذه الحكاية فيمكن أن يكون الإمام مالك نهى عن رفع الصوت في مسجد النبي ﷺ لكن وقع تحريف في ألفاظ الرواية^(٧).

٥- وقد يقال: إن إيراد هذه القصة على جواز التوسل بالذات ليس في محله؛ لأن القصة تدور حول مسألة الدعاء، هل يجوز حال استقبال القبر، أم لا يكون إلا في اتجاه

(١) انظر الدعاء ومنزلته من العقيدة الإسلامية ٨٣١/٢

(٢) انظر قاعدة جلية ص ١٢٤، والدعاء ومنزلته من العقيدة الإسلامية ٨٣٢/٢

(٣) انظر الشفا ٧٣/٢، نفلا عن المبسوط لإسماعيل القاضي، والمتقى للباحي ٢٩٦/١، والجواب الباهر ص ٦٦، والصارم المنكي ص ٢٥٩

(٤) انظر العتبية في مسائل مذهب الإمام مالك لمحمد بن أحمد العتبي مطبوعة مع البيان والتحصيل لابن

رشد ١٨٤٤/١، والشفا ٧٣/٢ (٥) انظر الشفا ٧١/٢، وقاعدة جلية ص ١٣٩

(٦) انظر قاعدة جلية ص ١٤٨ (٧) انظر المرجع السابق ص ١٥٢

القبلة؟ والله أعلم .

٦- وعلى فرض صحة هذه الحكاية فإن التوسل الوارد فيها هو التوسل بشفاعة النبي ﷺ يوم القيامة ، وهذه الشفاعة ثابتة ، لا يستطيع أحد إنكارها ، وليس المراد بالتوسل فيها التوسل البدعي في الدنيا^(١) .

٧- فالنتيجة أن هذه الحكاية على هذا الوجه - إما أن تكون في غاية الضعف ، مكذوبة على الإمام مالك ، وإما أن تكون دخلها التغيير ، والتحريف ، وإما أن تفسر بما يوافق مذهب الإمام مالك في الزيارة ، والتوسل المعروف عنه^(٢) .

فإذن الموافق لمذهب الإمام مالك هو خلاف هذه الحكاية ؛ لأن سد الذرائع أصل من أصول مذهب المالكية . وحمل رواية الشفا على السقوط أولى لكون المبسوط أصح ، وأوفق لمذهب الإمام مالك غاية ما هنالك أن تكون الروايتان متعارضتين .

يقول نعمان الألوسي : (وإذا تعارضت الروايتان ، ولم يمكن الجمع بينهما فنسقطهما ، ونرجع إلى الأصل المرجوع إليه في الأقياس ، والأصل ما ذكرناه ؛ لدلالة الكتاب والسنة ، فالعمل به هو الواجب ، سيما في مثل هذه المطالب)^(٣) .

ولعلنا نكتفي بهذا القدر من إيراد شبهات المجيزين للتوسل الممنوع ؛ لأن باقي أدلتهم لا تخرج عن هذه الشبهات^(٤) .

ب- ومن الشبهات التي تتعلق بالأنبياء عليهم السلام - قياس وساطتهم في العبادة على وساطتهم في التبليغ :

هذه الشبهة من أهم الشبهات التي بنى عليها أهل الأهواء عموماً وخصوصاً الصوفية مذهبهم الفاسد في فهم الواسطة ، ذلك أنهم قاسوا توسيطهم للأنبياء ، والأولياء ، وشيوخ الطرق في دعائهم لله تعالى لقضاء حوائجهم ، وتحقيق مطالبهم ، قاسوا ذلك على إرسال الله تعالى لأنبيائه ، ورسله واسطة بينه وبين خلقه لتبليغ شرائعه ، وإقامة الحجج على خلقه ، مبشرين من اتباع الوحي الذي جاءوا به بالفوز برضا الله تعالى ، وقربه ، ومنذرين من

(١) انظر قاعدة جلية ص ١٤٧ ، والتوصل إلى حقيقة التوسل ص ٢٢٢

(٢) انظر اقتضاء الصراط المستقيم ٢ / ٧٦٤ ، والصارم المتكي ص ٢٦٤

(٣) جلاء العينين ص ٥٢٦

(٤) ومن أراد التوسع في ذلك فليُنظر قاعدة جلية ص ٨٢ ، وجلاء العينين ص ٥٠٥ ، والتوسل للألباني ص ٥٤

أعرض عن ذكره والنور الذي جاءوا به بسخط الله تعالى وعذابه، والبعد منه .

ولقد علم من طريق الوحي أن هؤلاء المرسلين أكدوا للخلق أن وساطتهم ليست في عبادة الخلق لخالقهم، وإن كانت تلك العبادة وضحت رسالات الله إلى هؤلاء الأنبياء؛ لأن الله تعالى قريب، مجيب، يرى مكانهم، ويسمع سؤالهم، ويعرف أحوالهم، فليس بينه وبين خلقه واسطة في حال الالتجاء، والتضرع، والدعاء وسائر أنواع العبادة التي بينها الرسول ﷺ للناس، وهذا هو سبيل الإخلاص الذي جاب به الإسلام، ولا يقبل الله عز وجل عبادة بدونه^(١).

وقد مر معنا هذا القياس الفاسد ورددنا على القائلين به في بياننا لمذهب أهل الأهواء في فهم الوسطة، فنكتفي بما ذكرناه هنالك خشية التكرار .

جـ- ومن الشبهات المتعلقة بالأنبياء -عليهم السلام- تجويز دعائهم والاستعانة بهم، وطلب المدد منهم بعد موتهم بناء على ما ثبت من حياتهم البرزخية .

قال بعضهم : (يرى أئمة الصوفية أنه لا مانع من التوسل بالموتى، وطلب الدعاء منهم؛ لأن أرواحهم ليست ميتة، ولا متلاشية، كما تتلاشى قوى الأبدان، فالموت إنما هو مفارقة الأبدان فحسب، أو انتقال الأرواح إلى دار غير دارها، فلا تزال حية في عالم البرزخ، فلا سبيل لإنكار الحياة، والعمل بعد الموت، وقد صح أن كثيرا^(٢) من الأولياء يصلي في قبره، ويقرأ القرآن . . . فأرواح الموتى لا تزال حية باقية تسمع، وتعلم، وتعمل . . . بل هي أسمع من أرواح الأحياء؛ ولأنها سميعة بالذات، وأرواح الأحياء سميعة بالأدوات . . . وخلاصة القول أن التوسل بأرواح الأنبياء، والأولياء، والصالحين بعد مماتهم -كالتوسل بهم، وطلب الدعاء منهم حال حياتهم، والذي يؤمن بذلك عليه أن يؤمن بذلك أيضا، فالدليل هو الدليل^(٣) .

وبهذا الاعتقاد صرح محمد علوي المالكي فقال : (ولو لم يكن للفقهاء من الدليل على صحة التوسل، والاستغاثة به ﷺ بعد وفاته إلا قياسه على التوسل، والاستغاثة به في حياته الدنيا لكفى؛ فإنه حي الدارين، دائم العناية بأمته، متصرف -ياذن الله- في

(١) راجع ما سبق بيانه في الفصل السابق (صورة الوسطة في العبادة)

(٢) في النص المطبوع (كثير) بالرفع، وهو خطأ.

(٣) معجم ألفاظ الصوفية لحسن الشرقاوي ص ١٠١ وما بعدها (بتصرف).

شئونها، خبير بأحوالها) (١).

ويدعون أن الاستغاثة بالأنبياء في قبورهم، ودعاءهم، وقضاء الحوائج بالتوسل بهم هو من باب معجزاتهم، ومعجزات الأنبياء، وكرامات الأولياء لا تنقطع بعد موتهم، فهم أحياء في قبورهم يصلون، ويحجون، فتكون الإغاثة منهم معجزة لهم (٢).

وينقل النبهاني عن بعض الصوفية قوله: (وإذا كانت زيارة قبر الوالدين تحصل بسببها المغفرة، فكيف بزيارة قبور الأنبياء الذين هم أحياء في قبورهم، يأكلون، ويشربون، وينكحون!! يصلون تلذذا لا تعبدا؟) (٣).

ويقرون هذه الشبهة بقول بعضهم: (وإذ قد ثبت تعظيمه وإجلاله ميتا ﷺ كما كان حيا وثبت أنه حي في قبره، فطلب الشفاعة منه دخول في توقيره ﷺ ويكون طالب الشفاعة كمن طلب شيئا ممن له قدرة عليه، وهو عليه الصلاة والسلام قادر على ذلك بوجه التسبب في الدعاء، كما كان حيا، وكما كان وسيلة في التبليغ فهو (الوسيلة في دعائه لأمته، ويكون طلب ذلك منه أدعى للإجابة) (٤).

الرد عليهم: ما من شك في أن القول بحياة الأنبياء حياة برزخية حق ثابت بالأحاديث الصحيحة.

يقول السيد نعمان الآلوسي: (فنعتقد حياتهم عليهم الصلاة والسلام حياة برزخية فوق حياة الشهداء، وأن نبينا ﷺ قد جعل عند قبره الشريف ملك يبلغه سلام المسلمين الذين عند ضريحه المكرم، والنائبين عنه، ونعتقد أن الأنبياء عليهم السلام جميعهم طريون لا تأكل الأرض أجسادهم الشريفة؛ للأحاديث الواردة في ذلك... ولكننا نمنع أن يطلب منهم شيء فلا يسألون شيئا بعد وفاتهم، كما تقدم، سواء كان بلفظ استغاثة، أو توجه، أو استشفاع، أو غير ذلك، فجميع ذلك من وظائف الألوهية، فلا يليق جعله لمن يتصف بالعبودية، فإن ادعى أحد أن حياتهم صلى الله عليهم وسلم... حياة حقيقية، كما هو الأصل في حمل الألفاظ على حقائقها، ولم تثبت قرينة على التجوز بها، فتبقى الحياة على حقيقتها، أجبنه قائلين: لا شك أنه لا يراد بهذه الحياة الحقيقية، ولو أريدت لا قتضت

(١) مفاهيم يجب أن تصحح ص ١٧٢، وانظر الرد عليه في هذه مقامينا ص ١٢٣

(٢) انظر شواهد الحق ص ١٤١ (٣) المرجع نفسه ص ٤٤٩

(٤) نقله السيد نعمان الآلوسي عن بعضهم في جلاء العينين ص ٥٠٢

جميع لوازمها من أعمال، وتكليف، وعبادة، ونطق، وغير ذلك، وحيث انتفت حقيقة هذه الحياة بانتفاء لوازمها وبحصول الانتقال من هذه الحياة الدنيوية الحقيقية إلى تلك الحياة البرزخية المعبر عن هذا الانتقال بالموت الحال به صلى الله عليه وسلم، وأرواحنا له الفداء- كما قال تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾^(١) وحلول الموت به صلى الله تعالى عليه وسلم لا يمكن أحدا إنكاره... وحيث انتفت الحياة الحقيقية بما ذكر، وبغيره ثبتت الحياة البرزخية، وهي متفاوتة، فحياة الشهداء فوق حياة المؤمنين، وحياة الأنبياء عليهم السلام أعلى من حياة الشهداء، وقد شرف سبحانه هؤلاء الأحياء بالشرقيات العندية، فقال عز من قائل -في حق الشهداء الذين تتقاصر مرتبتهم عن الأنبياء -: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾^(٢)(٣)

ومما يرد به على هؤلاء الغلاة في ادعائهم تجويز التوجه إلى الرسول ﷺ بالدعاء، والاستغاثة الآن؛ لبثت حياة الأنبياء في قبورهم، يرد عليهم بأن النبي ﷺ، وكذلك الأنبياء، والصالحون عند ما كانوا في الحياة الدنيوية لا يمكن أن يشرك بهم من دون الله تعالى، وأما بعد انتقالهم إلى الحياة البرزخية، فيمكن أن يشرك بهم، فيمتنع القياس من هذه الجهة^(٤).

بهذا أفتت اللجنة الدائمة للبحوث العلمية، والإفتاء بالرياض -حيث ورد إليها سؤال بهذا الخصوص فأفتت قائلة: (النبي صلى الله عليه وسلم حي في قبره الحياة البرزخية التي يتهيأ له معها أن يتنعم بما يفيض الله تعالى عليه من أنواع النعيم، والكرامة، وليس حيا الحياة التي كانت له في الدنيا؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾^(٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ^(٦) وقد صلى عليه الصحابة رضي الله عنهم صلاة الجنائز، ووضعوه في لحده عليه الصلاة والسلام - ولا يكون ذلك وهو حي الحياة الدنيوية، وقد نزلت بهم أحداث، ومشكلات، ولم يستفتوه في أحداثهم، ولا استشاروه في حل مشكلاتهم، وهم في أشد الحاجة إلى ذلك، فدل على أن أجله قد انتهى، وأن الموت قد نزل به كغيره من البشر، وقد علم الصحابة رضي الله عنهم ذلك فأقاموا الخلفاء عنه تباعا، واجتهدوا في

(٢) سورة آل عمران الآية ١٦٩

(١) سورة الزمر الآية ٣٠

(٣) جلاء العينين ص ٥٢٨، وانظر الدعاء ومنزلته من العقيدة الإسلامية ٢/ ٨٥٠

(٤) انظر تلخيص كتاب الاستغاثة ١/ ٤٥٤، والقائد إلى تصحيح العقائد ص ١٠٤، وجهود علماء الحنفية في إبطال

(٥) سورة الزمر الآيتان (٣٠-٣١).

عقائد القبور ٢/ ٨٧٥

شئون دينهم، ودينهم على ضوء كتاب الله وسنة نبيهم صلى الله عليه وسلم دون رجوع إليه، واستشارة له، وهو في قبره^(١) صلى الله عليه وسلم. ولهذا قال العلامة ابن القيم في الرد على أصحاب هذا القياس الفاسد^(٢):-

قد كان فوق الأرض والرجمان	فإن الرسول بقبره حي كما
قبل الممات بغير ما فرقان	لو كان حيا في الضريح حياته
والله هذي سنة الرحمان	ما كان تحت الأرض بل من فوقها
يفتيهم بشرائع الإيمان	أتراه تحت الأرض حيا ثم لا
تنا عليكم وهي ذات بيان	فيقال أصل دليلكم في ذاك حجج
لا بالقياس القائم الأركان	إن الشهيد حياته منصوصة
ندعوه ميتا ذاك في القرآن	هذا مع النهي المؤكد أننا

فالمراد بحياة الأنبياء في قبورهم هو (نوع من الحياة غير معقول لنا، وهي فوق حياة الشهداء بكثير، وحياة نبينا - صلى الله عليه وسلم أكمل وأتم من حياة سائرهم - عليهم الصلاة والسلام - ثم إن تلك الحياة في القبر، وإن كانت يترتب عليها بعض ما يترتب على الحياة في الدنيا المعروفة لنا من الأذان، والصلاة، والإقامة، ورد السلام المسموع، ونحو ذلك، إلا أنها لا يترتب عليها كل ما يمكن أن يترتب على الحياة المعروفة، ولا يحسن بها، ولا يدركها كل أحد، فلو فرض انكشاف قبر نبي من الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - لا يرى الناس النبي فيه إلا كما يرون سائر الأموات الذين لم تأكل الأرض أجسامهم، وربما يكشف الله تعالى لبعض عباده فيرى ما لا يرى الناس، ولولا هذا لأشكل الجمع بين الأخبار الناطقة بحياتهم في قبورهم، وخبر... أن موسى نقل يوسف من قبره بمصر^(٣).

ثم إن قياس الميت على الحي، وقياس أحوال الممات على أحوال الحياة، وقياس أمور البرزخ على أمور الدنيا من أوضح الأقيسة فسادا، وبطلانا؛ لأن هذا القياس من قبيل الجمع بين المتخالفين، وقياس الضد على الضد، كقياس الضلال على الهدى، وقياس

(١) فتاوى اللجنة الدائمة ١/ ٤٨٠، الفتوى رقم ٢٦٤١، وانظر التيجانية لعلي محمد دجيل الله ص ١٢٣،

والصواعق المرسلات الشهادية ص ٨١ (٢) انظر متن القصيدة التونية ص ١٧٨

(٣) مشتهى الخارف الجاني ص ٤٣٧، وانظر الضياء الشارق ص ٥٢٠

العدم عليا لوجود، إلى غير ذلك من الأمور المتضادة التي لا تجمع أبدا^(١).

وجملة القول أن حياة الأنبياء في قبورهم من الأمور الغيبية، وأمور الغيب في العقيدة الإسلامية توقيفية، فما وضحته النصوص الشرعية تكلمنا فيه في حدود النص، وما سكنت عن تفاصيله أمسكنا عن الخوض فيه؛ لأنه لا مجال للعقول، ولا دخل للأقيسة في الأمور الغيبية.

د- ومن الشبهات المتعلقة بالأنبياء عليهم السلام ادعاؤهم جواز دعاء النبي ﷺ، والاستغاثة به، وهو في قبره عليه الصلاة والسلام، وطلب شفاعته، والممد منه.

ادعاؤهم جواز كل ذلك بناء على ما ثبت من شفاعته يوم القيامة، يقول السبكي: (وفي التجاء الناس إلى الأنبياء في ذلك اليوم أدل دليل على التوسل بهم في الدنيا والآخرة، وأن كل مذنب يتوسل إلى الله عز وجل بمن هو أقرب إليه منه، وهذا لم ينكره أحد، ولا فرق بين أن يسمى ذلك تشفعا، أو توسلا، أو استغاثة، وليس ذلك من باب تقرب المشركين إلى الله تعالى بعبادة غيره)^(٢).

وبهذا الاعتقاد صرح كل من النبهاني^(٣)، ومحمد علوي مالكي^(٤).

والرد عليهم: إن استدلال الغلاة بشفاعة النبي ﷺ الثابتة يوم القيامة على إباحة طلبها منه، والاستغاثة به في قبره ﷺ استدلال في غير محله، فكونه عليه الصلاة والسلام يشفع يوم القيامة الشفاعة العظمى للمخلاتق، وغيرها من شفاعاته الخاصة به^(٥) هذا أمر مسلم؛ لكن الاستدلال به على جواز طلب تلك الشفاعة من النبي ﷺ وهو في قبره، ثم يقاس عليها دعاؤه، والاستغاثة به، بأبي هو وأمي صلى الله عليه وسلم، هذا هو المنهي عنه ولا دليل عليه.

يقول السيد نعمان الألوسي: (فإن قلت: إن النبي ﷺ مأذون له بالشفاعة، ونحن نطلبها ممن هو مأذون فيها!! فالجواب أنه عليه الصلاة والسلام الآن موعود بالشفاعة في اليوم الآخر، ووعد الله حق؛ لكنها مشروطة ببعد الإذن، ورضاه عن المشفوع فيه، فينبغي

(١) انظر المنخل لفريضة خرافات ابن الحاج في المدخل للدكتور محمد بن عبد الرحمن الخميس ضمن المجموع المفيد

(٢) شفا السقام ص ١٩٠

ص ١٣٠

(٣) انظر شواهد الحق ص ١٢٦، وص ١٤٢ (٤) انظر مفاهيم يجب أن تصحح ص ١٣٠، وص ١٥٩

(٥) راجع المبحث السابق (صورة الواسطة في شفاعته النبي ﷺ)

لمن أراد أن يدعو بطلب الشفاعة أن يقول : اللهم لا تحرمني شفاعته عليه الصلاة والسلام ، اللهم شفعه فيّ وأمّثال ذلك ، ولو كانت تطلب منه صلى الله عليه وسلم الآن لجاز لنا أن نطلبها أيضاً ممن وردت الشفاعة لهم كالقرآن ، والملائكة ، والأفراط^(١) ، وهم أطفال المؤمنين ، والحجر الأسود ، إذ قد ورد أنه يشفع لمثل ربيعة ومضر ، وبالصالحين ، ولجاز أن ندعوهم ، ونلتجئ إليهم ، ونرجوهم بهذه الشفاعة ، إذ لا فرق بين الجميع بثبوت أصل الشفاعة لهم ، والإذن فيها ، فتصير إذن والمشاركين الأولين في طريق واحد ، ولم نفترق إلا بالأعمال الظاهرة ، كالصوم ، والصلاة ، وقول كلمة التوحيد من غير عمل بما فيها ، ومن غير اعتقاد لحقيقتها .

ولا يقدم على ذلك من له أدنى مسكه من عقل ، أو فكرة فيما صح من النقل^(٢) . ولا أطيل في الرد هلى هذه الشبهة الواهية المتعلقة بشفاعة خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم يوم القيامة ، فقد تقدم معنا في مبحث سابق بيان صورة الوسطة الصحيحة في شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم ، وغيره من الشفعاء يوم القيامة ، وذكرت هنالك أنه لا يجوز أن يتوجه أحد إلى النبي ﷺ الآن طالبا منه الشفاعة ، وإنما الذي يصح ، ويشهد له النقل ، والعقل أن نطلب هذه الشفاعة من الله سبحانه وتعالى الذي يأذن يوم القيامة لنبه ، وحببه صلى الله عليه وسلم في هذه الشفاعة ، فنقول : اللهم شفّع فينا نبيك وحبيبك محمدا صلى الله عليه وسلم ، واجعلنا نرد حوضه ، ونشرب منه شربة لا نظما بعدها أبدا .

ثالثا : شبهات تتعلق بالأولياء ، والصالحين :

أ - شبهة الولاية ، والكرامة : يدافع غلاة الصوفية عن دعاء الصالحين ، وتوسيطهم ، والاستشفاع بهم ، وطلب ما لا يقدر عليه إلا الله منهم ، يدافعون عن ذلك قائلين : إن هذا من جنس الكرامة ، والولاية المثبتة التي لا ينكرها أهل السنة^(٣) ، (وهذه طامة عظيمة ، وغاية في الجهالة ، والسفاهة ، بل هي من جنس احتجاج النصارى على دعاء المسيح وأمه ، وعبادتهما ظنوا أن ما حصل للمسيح ، ولأمه عليهما السلام من المعجزات ، والكرامات يسبح لهم دعاءهما وعبادتهما ، وإذا خاطبت النصاري سرود عليك من المعجزات ،

(١) راجع المبحث السابق (صورة الوسطة في شفاعة غير النبي صلى الله عليه وسلم يوم القيامة)

(٢) جلاء العينين ص ٥١٠ ، وانظر التوضيح عن توحيد الخلاق للشيخ سليمان بن عبد الله آل الشيخ ص ٣٥١

(٣) ومن استدل بهذه الشبهة ابن جريجس كما نقلها عنه الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن آل الشيخ ورد عليها ،

انظر جهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبرورية ٢ / ٩٧٨

والكرامات التي أعطيها المسيح، واحتج بها على دعواه، وعباد القبور يحتجون في هذا الباب بما لم يثبت، وما ثبت فأكثره دون ما أعطيته المسيح، ومع ذلك فالاحتجاج به على دعائهم من جنس حجج النصارى، لا يدل على المدعى؛ بل غايته أن يدل على علو الدرجة، وصدق الرسالة، أو ثبوت الولاية؛ إذا اقترن بع عمل صالح، وأما الاستدلال بذلك على أنه يدعى، ويرجى، ويشفع، وينفع، فهذا من دين النصارى، الصائبة، وعباد الأصنام، وهذه الشبهة هي التي أوقعت في الشرك جمهور المشركين؛ فإن أصل عبادة الأصنام هو التعلق على^(١) الصالحين، وتصوير صورهم، وتمثيلهم، بل عباد الكواكب دعاهم إلى عبادتها ما أودع الله فيها من الحكم، والمنافع التي ظهرت آثارها في هذا العالم، كما يعرفه من عرف مذاهب القوم^(٢).

وأصل هذه الشبهة التي تعلق بها القبوريون أن قالوا: أليس للأولياء، والصالحين جاء عند الله وكرامة؟ قلنا: بلى، قالوا: أليسوا أحياء عند ربهم؟ قلنا: بلى، قالوا: أليس الله يحبهم ويكرمهم؟ قلنا: بلى، قالوا: إذن فلماذا لا نتخذهم واسطة بيننا وبين الله تعالى، وندعوهم، ونطلب منهم، ونستغيث بهم؟
والجواب عن هذه الشبهة من وجوه:-

الأول: لماذا تشبثون بولاية هؤلاء المخلوقين وتنسون أن الله تعالى طلب منكم أنتم أن تكونوا أولياء له، وذلك بالتقوى والعمل الصالح، كما قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(٣)، وإذا كان المرء وليا لله لم يحتج إلى غيره من الوسائط، وإن كانوا أعظم منه ولاية وأكثر كرامة وأعلى درجة.

الثاني: إن لم يكن المرء وليا لله مطيعا لم تنفعه وساطة أولياء الله تعالى؛ لأنهم يتبرءون منه حيثئذ ويكرهونه موالاة لله، ولا يعقل أن يتوسط أحباب الله عند الله لأعداء الله، فإن توسطوا لهم كانوا أعداء لله مثلهم، وطردها، وكيف يتوسطون لمن يدعوهم من دون الله فيحولوا بينه وبين مناجاته لربه، وتذلل له، والأولياء لم يكونوا أولياء إلا بحبهم ما يحب الله وبغضهم ما يبغض الله تعال، والله يبغض من يدعو سواه، ويحب المتجهين إليه في

(١) لعل الأنسب للسياق (التعلق بالصالحين).

(٢) تحفة الطالب والجليس ص ٥٦، وانظر قاعدة جلية في التوسل والوسيلة ص ٤٧

(٣) سورة يونس الآيتان (٦٢-٦٣).

الدعاء والملمحين في السؤال .

الثالث: أنه لا يلزم من أن لأولياء الله تعالى جهاها عند الله ومحبة وزلفى أن يدعوا من دون الله ويترك وهو الحي القيوم الرحمن الرحيم الذي يجيب الداعين ويعطي السائلين ولو جاز هذا التوسل لما أهمله خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم ولعلمه للصحابة رضوان الله عليهم لكن الذي بعث به صلى الله عليه وسلم هو أفراد الله تعالى بالعبادة ، وإخلاص التوحيد له ، وهذا الإخلاص لا يتم إلا بهدم هذه الوساطة الخاطئة والشفاعة الباطلة ، وهل كان شرك الجاهلية إلا التقرب بالأولياء وتوسيطهم ودعائهم في الرخاء من دون الله بدعوى التقرب بهم إلى الله تعالى كما قال جل شأنه : ﴿ فَاعْبُدْ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴾ (٢) أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴿ (١)

الرابع: أن الله تعالى أنكر في آيات كثيرة اتخاذ الأولياء ، والشفعاء واسطة من دونه فقال : ﴿ أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَإِنَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٢) وقال تعالى : ﴿ أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوْ لَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴾ (٣) قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿ (٤) وقال تعالى أيضا : ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِظَ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴾ (٥)

الخامس: أن الأولياء وإن كانوا أحياء عند ربهم فإنهم قد ماتوا عندنا وانقطعت صلتهم بالدنيا ورفع عنهم التكليف ولا يصح خطابهم بما كانوا يخاطبون به في الدنيا .

السادس: يقال لمن يعتقد وساطة الأولياء والصالحين في الدعاء من دون الله باسم التوسل والتقرب والتشفع أذلك مشروع أم غير مشروع؟ فإن كان مشروعاً يثاب عليه الفاعل ويعاقب عليه التارك فهاتوا أدلتكم ولن تستطيعوا وبرهانكم إن كنتم صادقين! وإن كان غير مشروع فلماذا العناد بالباطل؟

السابع: أننا نطالب الذين يدعون الوسائط من دون الله بآيات صريحة من الكتاب وأحاديث صحيحة من السنة ولا قبل لهم بذلك ، أما أهل السنة والجماعة فيقولون : قال الله تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ

(١) سورة الزمر الآيتان (٢-٣) .

(٢) سورة الشورى الآية ٩

(٣) سورة الزمر الآيتان (٤٣-٤٤) .

(٤) سورة الشورى الآية ٦

الكبير»^(١) ويقولون أيضا قال الله تعالى: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطٌ كَفِّهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾^(٢) إلى غير ذلك من الآيات الصريحة.

الثامن: أن من علامات المشركين النفرة من الحق عند سماعه كما حكى الله عنهم في محكم التنزيل في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾^(٣) وقوله تعالى أيضا: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾^(٤)

وكثير ممن يدعون الإسلام من جمهور القبورين فيهم هذه العلامة، ومن أراد أن يجرب ذلك بنفسه فليذهب إلى أحد المساجد التي فيها مشهد أو مقصورة لمقبور أو مقبورة وليقل لهم: يا قوم ادعوا الله وحده بأسمائه الحسنى وصفاته العلى فإنه قريب مجيب، ودعوا هؤلاء الموتى وأريحوهم مما تصنعون بهم، وإن رأيهم رافعي أيديهم باتجاه القبر داعين متضرعين فليقل لهم: يا قوم اتقوا الله واتجهوا إلى القبلة في الدعاء، فسيناله من ألسنتهم وأيديهم ما يؤكد له تأصل هذه العقيدة في قلوبهم، وذلك مصداقا لقول الله تعالى: " ﴿وَإِذَا ذُكِّرْتُ بِرَبِّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوْ أَنِّي أَذْبَارُهُمْ نَفُورًا﴾^(٥)

قال الشيخ صنع الله الحلبي^(٦) رحمه الله في الرد على من ادعى أن للأولياء تصرفات في الحياة بعد الممات على سبيل الكرامة: (هذا وإنه قد ظهر الآن فيما بين المسلمين جماعات يدعون أن للأولياء تصرفات في حياتهم وبعد الممات، ويستغاث بهم في الشدائد والبلبات وبهممهم تنكشف المهمات فيأتون قبورهم وينادونهم في قضاء الحاجات مستدلين على أن ذلك منهم كرامات وقالوا: منهم أبدال، ونقباء، وأوتاد، ونجباء وسبعون وسبعة وأربعون وأربعة والقطب هو الغوث للناس، وعليه المدار بلا التباس . . وهذا كلام فيه تفريط وإفراط بل فيه الهلاك الأبدي والعذاب السرمدي لما فيه من روائح

(٢) سورة الرعد الآية ١٤

(٤) سورة ص الآية ٥

(١) سورة الحج الآية ٦٢

(٣) سورة الزمر الآية ٤٥

(٥) سورة الإسراء الآية ٤٦

(٦) هو صنع الله بن صنع الله الحلبي، المكي، الحنفي، واعظ، فقيه، محدث، من مؤلفاته ((سيف الله على من كذب على أولياء الله))، و((إكسير التقى في شرح الملتقى))، توفي سنة ١١٢٠ هـ، انظر: إيضاح المكنون

للبيгдаدي ١/ ١١٥، ومعجم المؤلفين ١/ ٨٤٣

الشرك المحقق ومصادمة الكتاب العزيز المصدق، ومخالفة لعقائد الأئمة وما اجتمعت عليه الأمة^(١).

وقال الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن آل الشيخ - في الرد على قول الغلاة: إن من أقر بالكرامة لا بد أن يعرف بجواز الاستغاثة بصاحبها - : (بل البد، والسعة، واليسر في القول بأنه لا يستغاث بالمخلوق فيما يختص بالخالق ولو كان المخلوق في ثبت له من الكرامة ما ثبت، فالكرامة فعل الله لا فعل غيره، والمستغاث هو الله لا غيره ولم يكن الصحابة يستغيثون، ويسألون من ظهرت له كرامة، أو حصلت له خارقة من الخوارق، فهذا الكلام الذي قاله الغلاة جهل مركب يليق بقائله: وكل إناء بالذي فيه ينضح)^{(٢)(٣)}.

ثم إن خرق العادة ليس دليلاً على الولاية أو الكرامة^(٤) فما الذي يدرينا أن صاحب هذا الخارق ولي من أولياء الله تعالى؟ ولو صحت ولايته جدلاً لم تصح استغاثته بعد موته ولا وساطته؛ ولهذا كان بعض السلف يقول: كن طالباً للاستقامة لا طالباً للكرامة؛ فإن نفسك منجبة على حب الكرامة وربك يطلب منك الاستقامة^(٥).

ب - شبهة البركة: وهذه شبهة فرعها الغلاة عن شبهة السابقة، فالأولياء، والصالحون لما اختارهم الله سبحانه وتعالى، وأيدهم بنصره وأمدهم بعونه وقربهم بالولاية، وأظهر شأنهم للناس بالكرامة، لما كانوا بهذه المنزلة - حسب زعمهم - حلت فيهم البركة، وصارت قاصدهم لا يخيب، فجوزوا توسيطهم في دعاء الله تعالى وطلب المدد منهم، والاستغاثة بهم - أحياء وأمواتا - بدعوى وجود البركة فيهم، وفي أشياءهم في الدنيا، وحلولها في مراقدهم وأجدانهم بعد مماتهم، (وإنما دهي الغلاة ما ألقاه الشيطان إليهم - بكيد - أن قال: إن هؤلاء قوم صالحون، وعند الله مقربون، ولهم ما يشاءون، ولهم الجاه الأعلى، والمقام الرفيع الأسنى، فمن قصدهم لا يخيب سعيه، ولا يطيش رأيه، وإن بركتهم تدفع البليات، وتقضي الحاجات، وبشفاعتهم يتقرب زوارهم إلى الله

(١) سيف الله على من كذب على أولياء الله ص ١٥

(٢) هذا تضمين لعجز بيت وصدره (فحسبكم هذا التفاوت بيننا).

(٣) منهاج التأسيس نقلاً عن غاية الأمانى ٢٨٢ / ١

(٤) انظر الشرح الميسر للفقهاء الأكبر للدكتور محمد بن عبد الرحمن الخميس ص ٧٧، والفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص ٧١

(٥) انظر المعجزة وكرامات الأولياء لشيخ الإسلام ابن تيمية

الغفار، فتحط عنهم بشفاعتهم عند الله الأوزار إلى غير ذلك من الدلائل التي يملأ بها قلوب أهل الأمانى بمثل هذه الأمانى فيتلاعب بعقولهم السخيفة وآرائهم الضعيفة ويحسن لهم البدع والمنكرات بما يلقى إليه من الحكايات والخرافات... فتراهم يقولون: قد علقنا أولادنا عليهم ومنهم من يطلب منهم النسل إن كان عقيماً، والشفاء إذا كان سقيماً وكثيراً ما يطلب منهم منصباً فيه أخذ أموال العباد والسعي في الأرض بكل فساد، فيجيء إليهم ويلازمهم معتقداً أن من لازمهم قضيت حاجته ونجحت سعائته واقرنت سعادته^(١).

ثم يقال في الرد على هذه الشبهة إن التبرك: هو طلب كثرة الخير ودوامه^(٢) (ولا أحد أحق بذلك وصفاً وفعلاً منه تبارك وتعالى وتفسير السلف يدور على هذين المعنيين وهما متلازمان)^(٣). فطلب البركة يكون من الله تعالى وأما طلبها من غيره فغير مشروع لأن: التبرك بالأموات من الأنبياء والصالحين وغيرهم في دعائهم لقضاء الحاجات الدينية أو الدنيوية، وتفريج الكربات والاستغاثة بهم والتقرب إليهم بالذبح، أو النذر لهم، والطواف على قبورهم، فهذا ونحوه من الشرك الأكبر؛ لأنهم قد اعتقدوا فيهم ما لا يجوز أن يعتقد إلا في الله فأنزلوهم منزلة الربوبية، أو صرفوا لهم من العبادات ما لا يجوز أن يصرف إلا لله تبارك وتعالى، وهذا بسبب المبالغة في تعظيمهم والافتتان فيهم والتعلق بهم^(٤)، ثم إن كون الأولياء والصالحين لهم كرامة وبركة ومنزلة عند الله تعالى فهذا حق لكنها كلمة حق أريد بها باطل، فبركة النبي أو الولي وعلو درجته معناه أن الله تعالى: يشبهه ويعطيه أكثر مما يعطيك ليس معناه أنك إذا دعوته كان الله يقضي حاجتك أعظم مما يقضيها إذا دعوت أنت الله تعالى، فإنك وإن كنت مستحقاً للعقاب ورد الدعاء مثلاً لما فيه من العدوان فالنبي والصالح لا يعين على ما يكره الله، ولا يسعى فيما يبغضه الله، وإن لم يكن كذلك فالله أولى بالرحمة والقبول^(٥).

ومن النتائج السيئة لشبهة البركة عند الغلاة ما حكي عن الحلاج من أن أتباعه بالغوا في التبرك به حتى صاروا يتمسحون ببوله، ويتبخرون بعذرتة، ووصل الأمر دروته في العصر

(١) الصواعق المرسلة الشهائية ص ١٤١، وانظر معارج الألباب ص ٢١٦

(٢) انظر لسان العرب مادة (برك) والمفردات للراغب ص ٤٤ مادة (برك) وبدائع الفوائد لابن القيم ٢/ ١٨٦

(٣) بدائع الفوائد ٢/ ١٨٦

(٤) التبرك أنواعه وأحكامه للدكتور ناصر الجديع ص ٤٨٤، وانظر الشرك في القديم والحديث ١/ ٤٧٦

(٥) زيارة القبور والاستنجاد بالمقبور لشيخ الإسلام ابن تيمية ص ٢٣، وانظر هذه مفاهيمنا ص ٢٠٨

الحاضر حتى دعا بعض الرجال المنحرفين إلى مجامعة زوجاتهم عند ضريح الولي، بدعوى نيل البركة، وأن يكون الموهوب ولدا صالحا!!^(١).

ج - شبهة الحكايات والمنامات: تعد الحكايات، والمنامات مصدرا مهما من مصادر التلقي عند الصوفية، وهي دليل قوي عندهم لإثبات القضايا والاحتجاج لها^(٢)، وكثيرا ما يصدق العوام تلك الحكايات وتنظلي على السذج من الناس، وقد شحن الغلاة كتبهم بتلك الحكايات وتناقلوها كابرا عن كابر لإثبات جواز الاستغاث بالأموات ومشروعية العكوف على القبور، والتعلق بأصحابها واعتبارهم واسطة شرعية بينهم وبين الله تعالى، فتجدهم يحكون أن رجلا استغاث بالولي الفلاني فأغاثه، وأن مريضا بات بقبر الشيخ فشفي من مرضه وأن امرأة نادت من مسافة بعيدة القطب المجرب عندها فقضي حاجتها في الحال.

والرد على هذه الشبهة من وجوه:-

أ - أن بناء الأحكام على مثل هذه الحكايات أمر باطل، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (وأما ما يروى عن بعضهم أنه قال: قبر معروف الترياق المجرب، أو قول بعضهم: فلان يدعى عند قبره، أو قول بعض الشيوخ لمريده إذا كانت لك إلى الله حاجة فاستغث بي، أو قال: فاستغث عند قبري، ونحو ذلك فإن هذا قد وقع فيه كثير من المتأخرين وأتباعهم وكثير من هؤلاء إذا استغاث بالشيخ رأى صورته وربما قضى بعض حاجته فيظن أنه الشيخ نفسه، أو أنه ملك تصور على صورته وأن هذا من كراماته فيزداد به شركا، وفيه مغالاة، ولا يعلم أن هذا من جنس ما تفعله الشياطين بعباد الأوثان حيث تترأى أحيانا لمن يعبدونها وتخاطبهم ببعض الأمور الغائبة وتقضي لهم بعض الطلبات ولكن هذه الأمور كلها بدع محدثة في الإسلام بعد القرون الثلاثة المفضلة)^(٣).

ب - أن الحكايات والمنامات ليست من الأدلة الشرعية عند أهل العلم وليست من الأمور التي يعول عليها عند العقلاء، ثم إن أغلب تلك الحكايات كذب، لا يصح عمن نقلت عنه، وإنما هي من اختلاق الدجالين سدنة المعابد والقبور، يقول شيخ الإسلام ابن

(١) انظر التبرك أنواعه وأحكامه ص ٤٧٣، ودمعة على التوحيد ص ٨٥، وظاهرة الغلو في الدين في العصر

الحديث لمحمد عبد الكريم حامد رسالة ماجستير غير منشورة ص ١٨٨

(٢) انظر حقيقة البدعية وأحكامها لسعيد بن ناصر الغامدي ٨/٢

(٣) تلخيص كتاب الاستغاث ١/٤٤٩، وانظر قاعدة جلييلة ص ٤٥

تيمية : (المنقول من ذلك إما أن يكون كذبا على صاحبه . . . وإما أن يكون المنقول من هذه الحكايات عن مجهول لا يعرف)^(١).

ومعلوم أننا لا نقبل مثل هذه الحكايات المجهولة الإسناد في الحديث المرفوع إلى الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم ، فكيف بالمنقول عن غيره؟^(٢).

ويقول العلامة ابن القيم -معددا الأمور التي أوقعت الغلاة في الافتتان بالمقبورين :-
(ومنها حكايات لهم عن تلك القبور : إن فلانا استغاث بالقبير الفلاني في شدة فخلص منها ، وفلانادعاه ، أو دعا به في حاجة فقضيت له ، وفلانا نزل به ضر فاسترجى صاحب ذلك القبر فكشف ضره وعند السدنة والمقابرية^(٣) من ذلك شيء يطول في ذكره ، وهم من أكذب خلق الله تعالى على الأحياء والأموات)^(٤).

ج - أن تلك الحكايات التي فيها قضاء المقبورين لبعض حوائج الناس يحتمل أنها من تخيل الشيطان لهم فإنه كثيرا ما يلبس على بعض الصالحين بتخييل المنامات والكرامات لهم وقد يقضى بعض حوائج من استغاث بالأموات ، وقد يتقمص بعض الشخصيات فيراه بعض الناس على هيئتها وقد تقدم نقل ذلك عن شيخ الإسلام ابن تيمية .

وعلى احتمال صحتها وصدورها عن أصحابها فلا يستقيم الاحتجاج بها ، بل ينبغي الرد عليهم وبيان الحق في ذلك بدون محاباة كما قال ابن الجوزي رحمه الله^(٥) (وإذا قد ثبت هذا من أقوال شيوخهم وقعت من بعض أشياخهم غلطات لبعدهم عن العلم فإن كان ذلك صحيحا عنهم توجه الرد عليهم بدون محاباة في الحق)^(٦).

د - أن مثل هذه الحكايات لو صحت عن أصحابها ولو بلغت ألف حكاية فإنها معارضة للقطعيات من الكتاب والسنة فتكون مردودة .

هـ - أن قضاء الحوائج عند الاستغاثة بالمقبور ليس لأجل الاستغاثة بالمقبور ، بل ذلك

(١) اقتضاء الصراط المستقيم ١/ ٣٤٤ ، ومنهاج السنة النبوية ٢/ ٤٥١ ، وغاية الأمان ٢/ ٢٧٣

(٢) انظر اقتضاء الصراط المستقيم ١/ ٣٤٤ ، وجلاء العينين ص ٥٥٩

(٣) في إغاثة اللهفان (المقابلة) .

(٤) إغاثة اللهفان ١/ ٢٢٠ ، وانظر تلخيص كتاب الاستغاثة ٢/ ٤٦٨ ، والصواعق المرسلة الشهابية ص ٢٧٤

(٥) هو أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي بن عبيد الله بن عبد الله بن حمادي القرشي التيمي البكري ، البغدادي الحنبلي ، الواعظ ، صاحب التصانيف الكثيرة ، ولد سنة ٥١٠ هـ ، وقيل : غير ذلك ، وتوفي

سنة ٥٩٧ هـ . انظر سير أعلام النبلاء ٢١٤/ ٤٦٥ ، وشذرات الذهب ٤/ ٣٢٨

(٦) تلبس إبليس ص ١٦٨

بمحض قدرة الله وإرادته فيصادف ذلك عند الاستغاثة المقبور فيظن المستغيث أن الوسطة المقبور هو الذي قضى حاجته، فيعد ذلك من كرامته ويجعله دليلاً على صحة الاستغاثة به، وطلب المدد منه؛ لأنه واسطة مجربة في قضاء الحوائج، وله تصرفات في الكون^(١).

و- أن قضاء حاجة الداعي عند القبور ليس لأجل الاستغاثة بأصحابها المقبورين، بل لأجل أن المستغيث بها يكون في حالة من الاضطراب والكرب فيدعو بحرقه وذلة وانكسار فيستجيب الله تعالى له ويقضي حاجته لصدق توجهه وتضرعه، واضطراره وانكساره، وذلته، فيظن الجاهل أن الوسطة المقبور هو الذي قضى حاجته^(٢).

ز- أن الله تعالى قد يجيب الكفار، والمشركين في أدعيتهم عند أصنامهم، لاضطرارهم وإظهار انكسارهم، فدعاء المضطرين قد يجيبه الله تعالى، ولو دعا في الخانة والخمارة، والحمام، كما يجيب من دعاه عند الأوثان، فليس للواسطة المقبور تأثير في قضاء الحاجة، وإجابة الدعوة^(٣).

ح - أنه قد يكون سبب كوني معقول لقضاء حوائج بعض الغلاة عند القبور، فقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أن بعض الغلاة في عصره كان له فرس مريض بمرض الإمساك الشديد في البطن والقبض المؤلم بحيث لا يستطيع أن يتروث فإذا ذهب به إلى بعض القبور فإنه يشفى ويمشي بطنه عند القبور فسأله شيخ الإسلام ابن تيمية: هل تذهب به إلى قبر الإمام الشافعي أو غيره من العلماء الصالحين، فقال لا، بل أذهب به إلى دير للنصارى، أو قبور بعض الكفار، والعبيدين، فأخبره شيخ الإسلام ابن تيمية أن سبب شفاء الفرس هو سماعه لعذاب صاحب القبر؛ لأنه يعذب في قبره، والبهاائم تسمع صوته فبسبب الرعب الذي يحصل لها والفرع المصاحب لذلك تنحل بطونها فتروث وتشفى من مرضها؛ لأن الفرع يقضي الإسهال فكان الناس يتعجبون من تعليل شيخ الإسلام ابن تيمية هذا^(٤).

وجملة القول في الرد على شبهات الغلاة المتعلقة بالأنبياء والأولياء جميعاً، أن تقول

(١) انظر اقتضاء الصراط المستقيم ٢/٦٥٨، وسيف الله على من كذب على أولياء الله للشيخ صنع الله الخليفي ص ٤٧

(٢) انظر تلخيص كتاب الاستغاثة ١/١٦٩، وإغاثة اللهفان ١/٢٢٠، والدر النضيد للشوكاني ضمن الرسائل السلفية ص ١٧٢، وتطهير الاعتقاد ص ٧٥

(٣) انظر اقتضاء الصراط المستقيم ٢/٦٥٨، وإغاثة اللهفان ١/٢٢٠، وغاية الأمان ٢/٢٨٠

(٤) انظر تلخيص كتاب الاستغاثة ٢/٥٨٨

لهم : إن سؤال المخلوق فيه ثلاث مفاصد :-

- أ - مفسدة الافتقار إلى غير الله تعالى وهي نوع من الشرك .
 ب - ومفسدة إيذاء المسئول وهي ظلم للواسطة .
 ج - ومفسدة التذلل ، والانكسار لغير الله ، وهي ظلم للنفس^(١) .
 ولقد أحسن القائل^(٢) :-

يا سائلا غير إله السما بشراك بالخيبة والرد
 إن الذي سواك من نطفة يغنيك عن مسألة العبد

ولهذا ثبت في صحيح مسلم أن نفرا من أصحاب رسول الله ﷺ بايعوه على أن لا يسألوا الناس شيئا، فكان يسقط سوط أحدهم فما يسأل أحدا يناوله إياه^(٣)؛ من أجل ذلك قيل : (استغاثه المخلوق بالمخلوق كاستغاثه الغريق بالغريق ، وقيل كاستغاثه المسجون بالمسجون)^(٤)، ومن كلام السجاد رحمه الله^(٥) طلب المحتاج من المحتاج سفه في الرأي، وضلة في العقل^(٦) .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية : (استغاثه المخلوق بالمخلوق كاستغاثه العدم بالعدم)^(٧) . وبين العلامة ابن القيم أن المخلوق الذي يسأل مخلوقا فقير يسأل فقيرا، وشحاذ يسأل شحاذ^(٨)، وسمى الشوكاني نداء الوسائط البدعية من الأموات، والاستغاث بهم، وتقديم الذبائح، والنذور لهم عند الحاجة أن ذلك رشوة مقدمة للميت المتوسل به، والواسطة لا

(١) انظر قاعدة جلية في التوسل والوسيلة ص ٦٦ ، والضوابط الشرعية لسؤال المخلوق بحث للدكتور عبد الله بن حمد نشرته مجلة البحوث الفقهية المعاصرة السنة ٧ العدد ٢٨ لعام ١٤١٦ هـ .

(٢) هذان البيتان للشيخ صالح كما نقلهما عنه محمود شكري الألوسي ، انظر غاية الأمانى ٣١٦/٢

(٣) انظر صحيح مسلم بشرح النووي كتاب الزكاة باب النهي عن المسألة ١٣٢/٧ ، والتعليق عليه في تلخيص كتاب الاستغاث ٤٠١/١

(٤) هذه المقولة لأبي يزيد البسطامي ، انظر تلخيص كتاب الاستغاث ٤٠١/١ ، وجلاء العينين ص ٥٧٢ ، وصيانة الإنسان ص ١٩٤

(٥) هو أبو محمد علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب ، الإمام السيد الهاشمي السجاد ، كان عالما عاملا وسيما مهيبا ، ولد عام مقتل علي رضي الله عنه ، وتوفي سنة ١١٨ هـ . انظر سير أعلام النبلاء ٥/٢٨٤ ، وتهذيب التهذيب ٣٥٧/٧ ، وشذرات الذهب ١٤٨/١

(٦) انظر الصحيفة الجاوية ص ١٣٤ ، وجلاء العينين ص ٥٧٢ ، وغاية الأمانى ٣١١/٢

(٧) كتاب التوحيد ص ١٢٦

(٨) انظر مدارج السالكين ١٣١/٢ ، وحاشية كتاب التوحيد لعبد الرحمن بن قاسم ص ١١٧ ، والقول الفصل النفيس ص ٢٠٤

تحتاج إلى تلك الرشوة^(١)، وشبهه الألوسي بضعيف عاذ بقرملة^(٢)(٣).

وأنا أقول: إن استغاثه الحي بالميت المقبور لقضاء حوائجه كاستغاثه حوت في قاع البحر بباز في جو السماء، هذا لا يستطيع مفارقتها، وهذا لا يستطيع ملاسته، وما أحسن ما قيل^(٤): -

بالله أبلغ ما أسمى وأدركه لا ببي ولا بشفيع لي من الناس

ثم إن الدعوة للتشبث بالوسائط البدعية يصادم دعوة القرآن إلى الإيمان بالأمور الغيبية، ومن ذلك: أن الله سبحانه وتعالى قريب، مجيب، يرانا، ويسمع كلامنا، ويعلم حالنا، فربنا أخبر في القرآن أنه قريب منا فندعوه ليستجيب لنا، وكذلك أدبنا رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم، فإذا اتجهنا لبارئنا، ومصورنا داعين، راغبين، وأنزلنا به حوائجنا، وأظهرنا إليه فاقتنا، وعلقنا به آمالنا، وربطنا به قلوبنا حصل لنا بذلك فوائد عظيمة، منها: -

أ- امتثالنا لأوامر ربنا وتطبيقنا لشرعه عز وجل، وطاعتنا لنبيه صلى الله عليه وسلم واتباعنا لسنة.

ب - إيماننا بالغيب الذي يميز المؤمنين عن الكافرين، والمنافقين، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾^(٥)

ج - يقيننا بأن هذه هي الوسيلة الصحيحة والواسطة النافعة لقضاء حوائجنا، وتحقيق مطالبنا، فليبلغنا الله بذلك أمانينا، ويذهب عنا ما يعيننا.

بعكس الذين يقولون: إنك لا بد أن تبحث عن الوساطة من ذوات الأنبياء عليهم السلام، أو واسطة من شخصيات الأولياء رحمهم الله فتعلق بها قلبك، ويلهج بذكرها لسانك ليقضي الله حاجتك، فإن في هذا دعوة للتعلق بالمحسوسات، ونوع إنكار لأمور الغيبيات.

وهذا التصور الخاطيء لمفهوم الوساطة قريب من تصور الكافرين قديما وحديثا الذين رفضوا الإيمان بالله بحجة أنه لم تدركه حواسهم، والله أعلم.

(١) انظر كتاب الدر النضيد ضمن الرسائل السلفية ص ١٦٤

(٢) القرملة: شجرة ضعيفة بلا شوك تنفضخ إذا وطئت. انظر القاموس المحيط ٣٧/٤ مادة (القرمل).

(٣) انظر جلاء العينين ص ٥٦٠ (٤) انظر الفوائد لابن القيم ص ٤٢

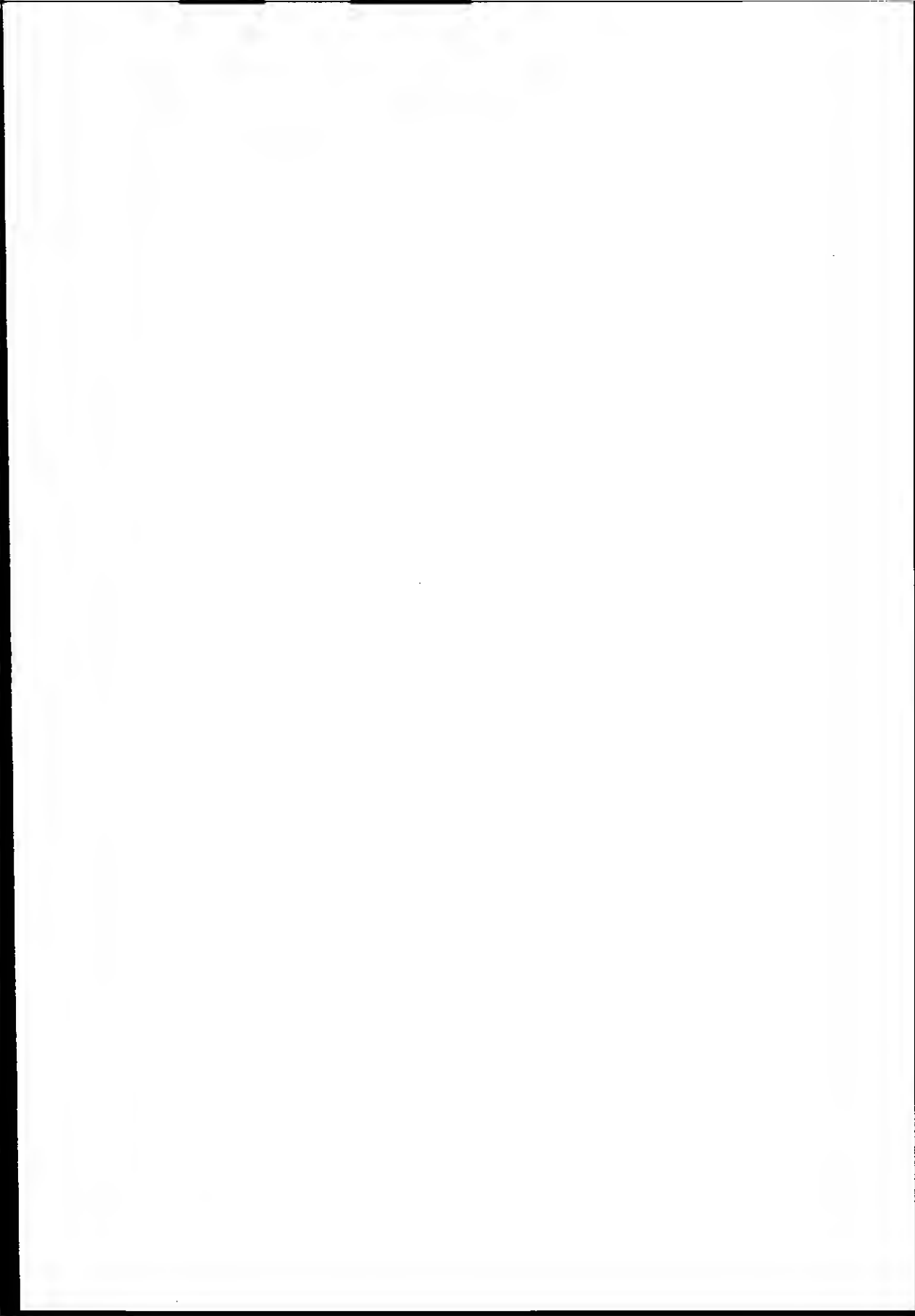
(٥) سورة البقرة الآيتان (٢-٣).

الباب الثالث

أثر الوساطة الشرعية والبدعية في العقيدة

الفصل الأول: أثر الوساطة الشرعية في معتقد أهل السنة
والجماعة.

الفصل الثاني: أثر الوساطة البدعية في عقائد أهل الأهواء.



الفصل الأول

أثر الواسطة الشرعية في معتقد أهل السنة

المبحث الأول: نيل رضوان الله والجنة

لما كان مفهوم الواسطة عند أهل السنة والجماعة منضبطاً بالكتاب والسنة - كما هو شأنهم في جميع مسائل الاعتقاد - وقد بينا منهجهم فيما مضى - لما كان الأمر كذلك؛ فإن هذا المنهج الرباني أورثهم آثاراً مباركة، وثماراً يانعة، ذاقوا حلاوتها، ودعوا الناس إلى مشاركتهم فيها ومن تلك الآثار: نيل رضوان الله ودخول جنته.

إن أعظم أثر للواسطة الشرعية، يفرح به المؤمن، ويزيده نشاطاً، ويبعث في النفس المؤمنة الشعور بالراحة، والاطمئنان، ويزيد في الإيمان هو ذلك الوعد الذي وعد الله به عباده المؤمنين العاملين، ألا وهو نيل رضوانه سبحانه وتعالى، ودخول جنته، وفي سبيل هذا المطلب الغالي، والأثر النفيس شمر المشمرون، وتنافس المتنافسون، وجاهد المجاهدون.

ولقد أكد الحق سبحانه وتعالى هذا الوعد في كتابه العزيز، وذلك في كثير من آيات الذكر الحكيم^(١)؛ لكننا نكتفي من ذلك بعشر آيات كريمات وهي:

١ - قوله تعالى ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِينَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾^(٢).

يقول الإمام ابن كثير في تفسير هذه الآية: (بخبر تعالى بما أعدّه للمؤمنين به والمؤمنات من الخيرات، والنعيم المقيم في: ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي ما كثر فيها أبداً: ﴿وَمَسَاكِينَ طَيِّبَةً﴾ أي حسنة البناء، طيبة القرار... ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أي رضوان الله عنهم أكبر وأجل، وأعظم ما هم فيه من النعيم^(٣). وإنما كان رضوان الله أكبر عند المؤمنين؛ لأنه مباحل دار الإقامة، ووصول كل سعادة، وكرامة، وهو غاية أرب المحيين، ومنتهى أمنية الراغبين^(٤).

(١) انظر صفة الجنة في القرآن الكريم لعبد الحليم السلفي رسالة ماجستير غير منشورة ص ٢١، فقد سرد المؤلف جميع الآيات التي ورد فيها دخول المؤمنين الجنة.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٧٢. (٣) تفسير ابن كثير ٢/ ٣٨٣، وانظر تفسير الطبري ٦/ ٤١٥.

(٤) تفسير الألوسي ١٠/ ١٣٧، وانظر تفسير السعدي ٣/ ١٢٥.

٢ - وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ (٢١) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (١).

٣ - وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ (٧) جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ (٢).

يقول الإمام ابن كثير في تفسير هذه الآية عند قوله الله تعالى: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾: (ومقام رضاه عنهم أعلى مما أوتوه من النعيم المقيم: ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ فيما منحهم من الفضل العظيم) (٣).

٤ - وقال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُفِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رِزَقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٤).

يقول الشيخ عبدالرحمن السعدي - عند تفسير هذه الآية - : (ففي هذه الآية الكريمة ذكر المبشر، والمبشَّر، والمبشِّر به، والسبب الموصل لهذه البشارة، فالمبشر هو الرسول ﷺ، ومن قام مقامه من أمته، والمبشر هم المؤمنون العاملون الصالحات، والمبشِّر به هي الجنات الموصوفات بتلك الصفات، والسبب الموصل لذلك هو الإيمان، والعمل الصالح، فلا سبيل إلى الوصول إلى هذه البشارة إلا بهما، وهذا أعظم بشارة حاصلة على يد أفضل الخلق بأفضل الأسباب) (٥).

٥ - وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٩) دَعَاؤُهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٦).

يقول الشيخ عبدالرحمن السعدي - في تفسير هذه الآية مبيِّناً المراد بالذين آمنوا وعملوا الصالحات - أي جمعوا بين الإيمان، والقيام بموجبه، ومقتضاه، من الأعمال الصالحة،

(١) سورة التوبة، الآيات (٢٠-٢١-٢٢). (٢) سورة البينة، الآيات (٧-٨).

(٣) تفسير ابن كثير ٤/ ٥٧٥. (٤) سورة البقرة، الآية: ٢٥.

(٥) تفسير السعدي ١/ ٢٩. (٦) سورة يونس الآيات (٩-١٠).

المشتملة على أعمال القلوب، وأعمال الجوارح على وجه الإخلاص، والمتابعة: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ أي بسبب ما معهم من الإيمان يشي بهم الله أعظم الثواب، وهو الهداية، فيعلمهم ما ينفعهم ويمن عليهم بالأعمال الناشئة عن الهداية، ويهديهم للنظر في آياته، ويهديهم في هذه الدار إلى الصراط المستقيم، وفي دار الجزاء إلى الصراط الموصل إلى جنات النعيم؛ ولهذا قال: ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ الجارية على الوام: ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ أضافها الله إلى النعيم لاشتغالها على النعيم التام، نعيم القلب بالفرح، والسرور، والبهجة، والحبور، ورؤية الرحمن، وسماع كلامه، والاغتباط برضاه، وقربه، ولقاء الأحبة، والإخوان، والتمتع بالاجتماع بهم، وسماع الأصوات المطربات، والنفحات المشجيات، والمناظر المفرحات^(١).

٦- وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعَمَ أَجْرَ الْعَامِلِينَ﴾^(٢).

٧- وقال تعالى: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾^(٣).

٨- وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾^(٤).

يقول الشيخ عبدالرحمن السعدي - في تفسير هذه الآية: (أي آمنوا بالله وملائكته، وكتبه ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، على الوجه الذي أمروا به علماً وتصديقاً، وإقراراً: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ الناشئة عن الإيمان... ولهذا ذكر الثواب المرتب على ذلك بقوله: ﴿سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر من أنواع المأكول، والمشرب اللذيذة، والمناظر العجيبة، والأزواج الحسنة، والقصور، والغرف المزخرفة، والأشجار المتدلية، والفواكه المستغربة، والأصوات الشجية، والنعم السابغة... وأعلى من ذلك، وأجل رضوان الله عليهم، وتمتع الأرواح بقربه، والعيون برؤيته، والأسماع بخطابه الذي ينسيهم كل نعيم، وسرور، ولولا الثبات من الله لهم لطاروا، وماتوا من الفرح، والحبور، فلله ما أحلى

(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٥٨.

(٤) سورة النساء، الآية: ١٢٢.

(١) تفسير السعدي ٣/ ١٥٤.

(٣) سورة الحديد، الآية: ٢١.



ذلك النعيم ، وما أعلى ما أنالهم الرب الكريم (١) .

ويقول العلامة ابن القيم - في وصف الجنة (٢) -

هي جنة طابت وطاب نعيمها فنعيمها باق وليس يفان
دار السلام وجنة المأموى ومنه زل عسكر الإيمان والقرآن
فالدار دار سلامة وخطا بهم فيها سلام واسم ذي الغفران

٩ - وقال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا (١٠٧) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ (٣) . وأي ضيافة أجل ، وأعظم من ضيافة الرب الكريم ، في جئات النعيم؟ وقد نالها هؤلاء الضيوف بسبب تحقيقهم للتوحيد ، وتكميلهم للإيمان ، وتعلق قلوبهم بالكرم الرحمن (٤) .

١٠ - ولما ذكر تعالى أصناف أهل الجنة في سورة الفرقان ذكر من ضمنهم : ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ (٥) . ثم أخبر جل شأنه عن الجميع بقوله : ﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلْقَوْنَ فِيهَا زَوْجَةً وَاسْلَامًا (٧٥) خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ (٦) .

وثبت في السنة المطهرة الوعد بحصول هذا الأثر ، وهو نيل رضوان الله تعالى ، ودخول الجنة للمؤمنين الموحدين بسبب إيمانهم بالله تعالى ، ونفيهم للوسائل الشريكة ، والوسائل البدعية ، وذلك في أحاديث عديدة ، نكتفي بذكر ثلاثة منها وهي :

١ - ثبت في صحيح البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : (من آمن بالله ورسوله ، وأقام الصلاة ، وصام رمضان فإن حقاً على الله أن يدخله الجنة جاهد في سبيل الله ، أو حبس في أرضه التي ولد فيها) (٧) .

٢ - وثبت في الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة ، فيقولون : لبيك ربنا وسعديك ، والخير في يدك ، فيقول : هل رضيتم؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى ، وقد أعطينا ما لم تعط أحداً من خلقك؟

(١) تفسير السعدي ٨٢/٢ . (٢) انظر متن القصيدة التوتية ص ٣٠٩ .

(٣) سورة الكهف ، الآيتان (١٠٧-١٠٨) . (٤) انظر : تفسير السعدي ٤٢/٥ .

(٥) الآية : ٦٨ . (٦) سورة الفرقان ، الآيتان (٧٥-٧٦) .

(٧) انظر صحيح البخاري ، ١١/٦ ، حديث ٢٧٩ .



فيقول: ألا أعطيك أفضل من ذلك؟ فيقولون: يا رب، وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني، فلا أسخط عليكم بعده أبدا^(١).

٣ - وروى الإمام مسلم في صحيحه من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (يا أيها سعيد من رضي بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبياً وجبت له الجنة)^(٢).

فنحن نرى في هذه الأحاديث أن شرط دخول الجنة هو الإيمان، وفي بعضها الإسلام، ونفهم من ذلك أن المراد بهذا الإيمان، والإسلام هو الإيمان الجازم بأن الله تعالى هو الذي يستحق أن تصرف له جميع أنواع العبادات القلبية، والمعنوية، والحسية، والكفر بما يعبد من دون الله من الطواغيت، والوسائط، وتعليق القلوب ببارئها، وإنزال الحوائج، وقضاء الحاجات بالغني الكريم وقطع النظر عما سواه من المخلوقات كائناً من كان.

وهذا الأثر وهو هداية المؤمنين إلى الجنة هو أخص أنواع الهداية التي يطلبه المؤمنون من ربهم، بل هو غاية الهداية، كما مر معنا في مبحث أنواع الهداية، وبيان ما للرسول ﷺ منها.

نسأل الله الكريم رب العرش العظيم أن يجعلنا من عباده المخلصين، ويهدينا صراطه المستقيم، ويثبتنا عليه في الحياة الدنيا، وفي الآخرة، وأن يجعلنا ممن يحل عليه رضوانه الأكبر في هذه الحياة، وبعد الممات في تلك الغرفات، إنه ولي ذلك والقادر عليه . . .

(١) انظر صحيح البخاري ٤١٤/١١ حديث ٦٥٤٩، وصحيح مسلم، كتاب صفة الجنة ونعيمها باب إحلال الرضوان على أهل الجنة ١٦٨/١٧.

(٢) انظر صحيح مسلم، كتاب الإمامة باب بيان ما أعده الله تعالى للمجاهد في سبيل الله ٢٨/١٣.

المبحث الثاني

تحقيق التوحيد الخالص

يأمر أهل السنة والجماعة بالتعلق بالله سبحانه وتعالى والاطراح بين يديه وينفون أن يكون بين العبد، وربه واسطة في حال الدعاء، والتضرع، والرجاء، هذا هو سبيل الإخلاص الذي جاء به الإسلام؛ لأن الإخلاص هو (قصد المعبود وحده بالتعبد)^(١)، وهو من أهم الخصائص التي يقوم عليها منهج السلف في الاعتقاد^(٢)؛ ولأن (العمل لأجل الناس وابتغاء الجاه، والمنزلة عندهم ورجائهم للضر والنفع منهم لا يكون من عارف بهم ألبتة؛ بل من جاهل بشأنهم، وجاهل بربه، فمن عرف الناس أنزلهم منازلهم، ومن عرف الله أخلص له أعماله، وأقواله، وعطاءه، ومنعه، وحبه، وبغضه، ولا يعامل أحد الخلق دون الله إلا بجهله بالله، وجهله بالخلق، وإلا فإذا عرف الله وعرف الناس أثر معاملة الله على معاملتهم)^(٣).

فالإخلاص لله تعالى في جميع العبادات هو أساس الدين، وقوامه، وروح العبادة الذي ينبض فإذا خدش هذا الإخلاص، أو فقد حبط العامل، والعمل^(٤). قال تعالى: ﴿وَقَدْ مَنَّا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْثُورًا﴾^(٥)، وقد تقدم معنا بيان الشرطين العظيمين لقبول العمل، وهما:

أ - الإخلاص لله تعالى، وقصده بذلك العمل.

ب - التقيد بالسنة، ومتابعة الرسول ﷺ في ذلك العمل.

قال تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾^(٦)، وقال أيضاً: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾^(٧)، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا

(١) مدارج السالكين ٥٢٧/١.

(٢) انظر تعريف الخلف بمنهج السلف ص ٧٧، ومنهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد عند أهل السنة والجماعة لعثمان بن علي حسن ٧٣٠/٢.

(٣) مدارج السالكين ٨٣/١، وانظر تجريد التوحيد للمقرئ ص ٤٢.

(٤) انظر العقيدة الإسلامية وأثرها في بناء المجتمع لعزام سلهب رسالة ماجستير غير منشورة ص ١٧٠.

(٥) سورة الفرقان، الآية: ٢٣.

(٦) سورة الزمر، الآية: ٣.

(٧) سورة البينة، الآية: ٥.



أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ^(١)، ونظائر هذه الآيات في القرآن كثير، فالتعلق بالله سبحانه وتعالى، والإذعان لرؤيته، والترقي في منازل العبودية يورث التوحيد الخالص، والإيمان الجازم، فلا واسطة بين المخلوق، والخالق في العبادة؛ لأن هذه العبادة الشرعية بحد ذاتها عمل صالح، وواسطة مقبولة بنفسها^(٢)، فلا ينبغي أن يقصد بها مخلوق، ولا أن تدخلها واسطة من الوسائط سواء كان ملكاً مقرباً، أو نبياً مرسلًا، أو إماماً من الأئمة، أو ولياً من الأولياء.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (فليس في الكائنات ما يسكن العبد إليه، ويطمئن به، ويتنعم بالتوجه إليه إلا الله سبحانه، ومن عبد غيد الله وإن أحبه وحصل به مودة في الحياة الدنيا، ونوع من اللذة فهو مفسدة لصاحبه أعظم من مفسدة التذاذ أكل الطعام المسموم... الوجه الثالث: أن المخلوق ليس عنده للعبد نفع، ولا ضرر، ولا عطاء، ولا منع، ولا هدى، ولا ضلال، ولا نصر، ولا خذلان، ولا خفض، ولا رفع، ولا عز، ولا ذل؛ بل ربه هو الذي خلقه، ورزقه، وبصره، وهده، وأسبغ عليه نعمه، فإذا مسه الله بضر فلا يكشفه عنه غيره، وإذا أصابه بنعمة لم يرفعها عنه سواه، وأما العبد فلا ينفعه، ولا يضره إلا بإذن الله، وهذا الوجه أظهر للعامة من الأول؛ ولهذا خاطبوا في القرآن أكثر من الأول... فهذا الوجه يقتضي التوكل على الله، والاستعانة به، ودعائه، ومسأله دون ما سواه... فإذا لم تكن القلوب مخصصة لله الدين عبدت غيره من الآلة التي يعبدونها أكثر الناس مما رضوه لأنفسهم فأشركت بالله بعبادة غيره، واستعانت به، فتعبد غيره، وتستعين به لجهلها بسعادتها التي تنالها بعبادة خالقها، والاستعانة به، فبالعبادة له تستغني عن معبود آخر، وبالأستعانة به تستغني عن الاستعانة بالخلق)^(٣).

وذكر العلامة ابن القيم أن هناك تجريدان، لا بد منهما لتحقيق شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمد رسول الله ﷺ وهما: أن تسقط الوسائط، والوسائل بينك وبين الله تعالى، ولا تثبت وساطة إلا في وصول أمره، ونهيه، ورسالته إليك، كما تسقط الوسائط بينك وبين الرسول ﷺ في الطاعة، والاتباع، ثم قال: (وهذان التجريدان هما حقيقة شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، والله وحده هو المعبود المألوه الذي لا يستحق

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٦٣. (٢) راجع المبحث السابق (وجه كون العبادة واسطة).

(٣) مجموع الفتاوى ١/ ٢٤ وما بعدها (بتصرف).

العبادة سواء، ورسوله المطاع، المتبع المهتدى به الذي لا يستحق الطاعة سواء، ومن سواه فإنما يطاع إذا أمر الرسول بطاعته، فيطاع تبعاً للأصل، وبالجملة فالطريق مسدودة رلاً على ما اقتضى آثار الرسول ﷺ واقتدى به في ظاهره وباطنه^(١).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: (والمقصود هنا أن الشيء إذا انقسم، ووقعت فيه الشركة نقص ما يحصل لكل واحد؛ فإذا كان جميعه لواحد كان أكمل؛ فلهذا كان حب المؤمنين الموحدين المخلصين لله أكمل، وكذلك سائر ما نهوا عنه من كبائر الإثم، والفواحش يوجب كمال الأمور الوجودية في عبادتهم، وطاعتهم، ومعرفتهم، وذلك من زكاهم؛ كما أن الزرع كلما نقي عنه الدغل^(٢) كان أزكى له، وأكمل لصفات المال الوجودية فيه، وأصل الزكاة التوحيد، والإلخاض كما فسرنا بذلك أكابر السلف^(٣)).

وليس للعبد حظ أشرف، ولا أنفع من أن يكون الله وحده إله، ومعبوده، ومحبوه، ومراده، فهذا هو الحظ الأوفر، والسعادة العظمى، وليس فوق هذا كمال فيطلبه العبد^(٤).

إن من يعبد إلهاً واحداً لا شريك له في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، فيتعامل معه، ويدين له في الاعتقاد، والشعور تحده لا ينشئت، ويتوزع في اعتقاده بألهة متعددة، أو أفعال متضاربة، وأوامر متناقضة لا تراعي فطرته، وما يناسب طاقته؛ بل إن الموحّد يتعامل مع إله واحد في العبادة، والاتجاه، والتشريع، ونظام الحياة كل ذلك يتلقاه من جهة واحدة، ومن مصدر واحد، لا من مصادر شتى، أو من آلهة أخرى. قال الله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٥).

وهذا التجمع واتحاد الوجهة، والقصد، والتلقي ينشئ طاقة هائلة من الشعور بالسكينة، والراحة النفسية، لا يقف في وجهها شيء، وهذا سر من أسرار العقيدة الإسلامية التي تظهر في جانب الإخلاص لله تعالى^(٦).

(١) مدارج السالكين ١/ ١٤٤.

(٢) الدغل بفتح الدال: الفساد. انظر مختار الصحاح ص ٢٠٦ مادة (دغ ل).

(٣) مجموع الفتاوى ١٧/ ١٤٥. (٤) انظر طريق الهجرتين ص ٢٢٣.

(٥) سورة الزمر، الآية: ٢٩. (٦) انظر العقيدة الإسلامية وأثرها في بناء المجتمع ص ٢٦٩.



فتوحيد الخالق، والتعلق به مفزع أعدائه، وأوليائه، فأما الأعداء فينجيهم من كرب الدنيا وشدائدها، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكَ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾^(١)، وأما الأولياء فينجيهم من نكبات الدنيا وشدائد الآخرة؛ (ولذلك فزع إليه يونس فنجاه الله من تلك الظلمات، وفزع إليه أتباع الرسل فنجوا به مما عذب به المشركون في الدنيا، وما أعد لهم في الآخرة... فما دفعت شدائد الدنيا بمثل التوحيد؛ ولذلك كان دعاء الكرب بالتوحيد، ودعوة ذي النون التي ما دعا بها مكروب إلا فرج الله كربته بالتوحيد، فلا يلقي في الكرب العظام إلا الشرك، ولا ينجي منها إلا التوحيد، فهو مفزع الخليقة، وملجأها، وحصنها، وغيائها)^(٢).

وهذا الأثر الناتج عن التوجه إلى الله تعالى، والتعلق به، وقطع النظر عما سواه من الوسائط البدعية هو من مقتضيات العبودية لله سبحانه وتعالى، وإخلاص العبادة له عز وجل، وذلك بأن يكون العبد عارفاً بربه، (مخلصاً له جميع عبادته، محققاً ذلك بترك الشرك، صغيره وكبيرة، وباتباع النبي ﷺ ظاهراً وباطناً، والبراءة من كل بدعة وضلالة)^(٣).

يقول العلامة ابن القيم: (وما نجا من شرك هذا الشرك الأكبر إلا من جرد توحيده لله، وعادى المشركين في الله، وتقرب بمقتهم إلى الله، واتخذ الله وحده وليه، وإلهه، ومعبوده، فجرد حبه لله، وخوفه لله، ورجاءه لله، وذله لله، وتوكله على الله، واستعانته بالله، والتجاء إلى الله، واستغاثته بالله، وأخلص قصده لله، متبعاً لأمره، متطلباً لمرضاته، إذا سأل سأل الله، وإذا استعان استعان بالله، وإذا عمل عمل لله، فهو لله، وبالله، ومع الله)^(٤).

فالاعتماد على الله سبحانه وتعالى عند فعل الأسباب وترك الاعتماد على الأسباب من ثمرات الإيمان بالله تعالى التي تتحقق بإثبات الوساطة الشرعية، ونفي الوسائط البدعية، كما هو منهج أهل السنة والجماعة^(٥).

ولقد قطع الله جل شأنه كل الذرائع، والأسباب والوسائل، والوسائط التي يتعلق بها المشركون قديماً وحديثاً، والتي تفوت تحقيق هذا الأثر المبارك، وذلك في قوله تعالى: ﴿قُلْ

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٦٥.

(٢) الفوائد لابن القيم ص ٥٨.

(٣) القواعد الحسان للسعدي ص ١٩٢.

(٤) مدارج السالكين ١/ ٤٤٦.

(٥) انظر مجموع فتاوى ورسائل الشيخ ابن عثيمين ٥/ ١٤٢، والصيد الثمين في رسائل ابن عثيمين له أيضاً ١/ ٦٦.



ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ (٢٢) وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴿١﴾

يقول العلامة ابن القيم: (فالمشرك إنما يتخذ معبوده لما يعتقد أنه يصح له به من النفع، والنفع لا يكون إلا ممن فيه خصلة من هذه الأربع: إما مالك لما يريده عابده منه، فإن لم يكن مالكا كان شريكا للمالك، فإن لم يكن شريكا له كان معينا له، وظهيراً، فإن لم يكن معيناً، ولا ظهيراً كان شفيعاً عنده، فنفي سبحانه المراتب الأربع نفيًا مترتبًا متنقلًا من الأعلى إلى ما دونه، فنفي الملك، والشركة، والمظاهرة، والشفاعة التي يظنها المشرك، وأثبت شفاعة لا نصيب فيها لمشرك، وهي الشفاعة؛ بإذنه، فكفى بهذه الآية نوراً، وبرهاناً، ونجاة، وتجريداً للتوحيد، وقطعاً لأصول الشرك، ومواده لمن عقلها، والقرآن مملوء من أمثالها، ونظائرها) (٢).

فإثبات ما ورد في الشرع من الواسطة الشرعية، ونفي ما عداها من الوسائط البدعية التي يتشبث بها أهل الأهواء يورث الإيمان بالله وحده، وإخلاص الدين له، وقطع النظر عما سواه، وهذا الأثر هو روح الدين، وأساس الإيمان، والهدف الأسمى للعقيدة الإسلامية؛ بل هو الدين كله (٣) (فمتى آمن العبد بأنه أثر للباري الأعظم كان بينه وبين خالقه ما بين الصانع، والمصنوع من الصلة، وكان بينه وبين المصنوعات جميعاً ما بين الآثار المتعددة للمنشيء الواحد، وكان هذا الارتباط المعترف به اعتراف إيمان بين الخلق والخالق رباطاً لا ينقسم، يستمر به العمران، والإصلاح، والخير على وتيرة واحدة، مصدرها الإذعان لإرادة واحدة، وكان بذلك وجودنا جميعاً في هذا الكون، متصل المبدأ، متحد الغاية) (٤).

ولله در شيخ الإسلام ابن تيمية في قوله - من نظمه - (٥):

لا أستطيع لنفسي جلب منفعة ولا عن النفس لي دفع المضرات

(١) سورة سبأ الآيات (٢٢-٢٣).

(٢) مدارج السالكين ١/ ٣٤٣، وذكر الشيخ محمد بن عبد الوهاب أن الله قطع بهاتين الآيتين هروق الشرك من القلب. انظر عقيدة الشيخ محمد بن عبد الوهاب السلفية لشيخنا الدكتور صالح العبود ص ٣٧٤، وحاشية كتاب التوحيد لعبد الرحمن بن قاسم ص ١٣٦، وتفسير السعدي ٦/ ١٣٥.

(٣) انظر عقيدة الشيخ محمد بن عبد الوهاب السلفية ص ٣٥٠، وغاية الأمان ١/ ٢٠.

(٤) الرسالة الخالدة لعبد الوهاب عزام ص ٢٦.

(٥) نقل عنه هذه الآيات ابن القيم. انظر مدارج السالكين ١/ ٥٢٥.



ولا شفع إذا حاطت خطيئاتي	وليس لي دونه مولى يدبرني
إلى الشفيع كما قد جاء في الآيات	إلا بإذن من الرحمن خالقنا
ولا شريك أنا في بعض ذرات	ولست أملك شيئاً دونه أبداً
كما يكون لأرباب الولايات	ولا ظهير له كي يستعين به
كما الفنى أبداً وصف له ذاتي	والفقر لي وصف ذات لازم أبداً
وكلهم عنده عبد له آتي	وهذه الحال حال الخلق أجمعهم
فهو الجهول الظلوم المشرك العاتي	فمن بغى مطلباً من غير خالقه

واعلم أن من ذاق حلاوة هذا الأثر لم تضره مرارة أي مأساة؛ لأنه استغنى بالخالق عن المخلوق، واكتفى بالغني النافع من كل وجه عن اللجوء إلى الفقير المحتاج في كل شأنه، وهذا هو لباب التوحيد؛ كما قال المقرئزي: (ولباب التوحيد أن يرى الأمور كلها لله تعالى، ثم يقطع الالتفات إلى الوسائط، وأن يعبد سبحانه عبادة يفردة بها، ولا يعبد غيره)^(١). والله تعالى أعلم.

(١) تجريد التوحيد المقيد ص ٧.

المبحث الثالث

الطمأنينة والثبات

تنير عقيدة التوحيد السبيل أمام المؤمنين ، وتغرس في قلبه نشوة ، تنبعث منها السعادة ؛ لأنها تربطه بخالقه ، صاحب الكمال المطلق ، والقدرة التامة ، فيعيش في كنف الله آمناً مطمئناً ، يحدوه شعور نفسي يغمره بالفرحة ؛ لأنه في كلاءة ربه ، ومن كان مع الله كان الله معه .

يقول العلامة ابن القيم : (ومن علامات صحة القلب أنه لا يزال يضرب صاحبه حتى ينب إلى الله ، ويخبت إليه ، يوتعلق به تعلق المحب المضطر إلى محبوبه الذي لا حياة له ، ولا فح ، ولا نعيم ، ولا سرور إلا برضاه ، وقربه ، والأنس به ، فبه يطمئن ، وإليه يسكن ، وإليه يأوي ، وبه يفرح ، وعليه يتوكل ، وبه يثق ، وإياه يرجو ، وله يخاف ، فذكره قوته ، وغذاؤه ، ومحبه ، والشوق إليه حياته ، ونعيمه ، ولذته ، وسروره ، والالتفات إلى غيره ، والتعلق بسواه داؤه ، والرجوع إليه داؤه ، فإذا حصل له ربه سكن إليه ، واطمأن به ، وزال ذلك الاضطراب ، والقلب ، وانسدت تلك الفاقة ؛ فإن في القلب فاقة لا يسدها شيء سوء الله تعالى أبداً ، وفيه شعث لا يلمه غير الإقبال عليه ، وفيه مرض لا يشفيه غير الإخلاص له ، وعبادته وحده ، فهو دائماً يضرب على صاحبه حتى يسكن ، ويطمئن إلى إلهه ، ومعبوده ، فحينئذ يباشر روح الحياة ، ويدوق طعمها . . . وبالجمل ف القلب الصحيح هو الذي همه كله في الله ، وحبه كله له ، وقصده له . . . وطمأنينته ، وسكونه إليه ، فهو كلما وجد من نفسه التفاتاً إلى غيره تلا عليها : ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾ (١) . . . فينطرح بمجموعه بين يديه ، ويعتمد بكليته عليه) (٢) .

فالراحة النفسية ، والطمأنينة القلبية التي يشعر بها المؤمن الموحد لا توازيها لذة في الوجود ؛ لأنه علق قلبه بخالقه ، وأنزل به حوائجه ، وعلم أن لا قاضي للحاجات إلا الله ، ولا محقق للأمنيات إلا إياه ، وحرر قلبه من قيد الالتجاء إلى الواسطة ، واكتفى بعبادة المعبود عن التعلق بغيره من الكائنات في الوجود ، موقناً أن هذا هو عين الواسطة ، فقلب هذا الموحد يرقص فرحاً أبداً ، ونفسه مطمئنة ، مسرورة سرمداً ، (فليس عند القلوب

(١) سورة الفجر ، الآيتان (٢٧-٢٨) .

(٢) إغاثة اللفهان ١/ ٨٠ ، وانظر الجواب الكافي ص ٢٧٢ .



السليمة، والأرواح الطيبة، والعقول الزاكية أحلى، ولا أذى، ولا أظلم، ولا أسوأ، ولا أنعم من محبة الله، والأنس به، والشوق إلى لقائه، والحلاوة التي يجدها المؤمن في قلبه بذلك فوق كل حلاوة، والنعيم الذي يحصل له بذلك أتم من كل نعيم، واللذة التي تناله أعلى من كل لذة؛ كما أخبر بعض الواصلين عن حاله بقوله: إنه ليمر بالقلب أوقات، أقول فيها: إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي يش طيب، وقال آخر: إنه ليمر بالقلب أوقات يهتز فيها طرباً بأنسه بالله، وحبه له . . . وما من مؤمن إلا وفي قلبه محبة الله تعالى، وطمأنينة بذكره، وتنعم بمعرفته، ولذة، وسرور بذكره، وشوق إلى لقائه، وأنس بقربه، وإن لم يحس به^(١).

فطمأنينة المؤمن، وثبات قلبه بالتوحيد، هذا الشعور هو جتته في الدنيا، كما قال العلامة بن القيم: (فمحبة الله تعالى، ومعرفته، ودوام ذكره، والسكون إليه، والطمأنينة إليه، وإفراذه بالحب، والخوف، والرجاء، والتوكل، والمعاملة؛ بحيث يكون هو وحده المست، لي على هموم العبد، وعزماته، وإراداته هو جنة الدنيا، والنعيم الذي لا يشبهه نعيم، وهو قرة عين الحبيب، وحياة العارفين)^(٢).

وكيف لا يشعر بالطمأنينة، والثبات من يقرأ قول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَوَجَّهَ اللَّهُ إِنْ أَرَادَ اللَّهُ بِشَيْءٍ عِلْمًا﴾^(٣)؟ وكيف لا يشعر بالراحة النفسية من يؤمن بقول الله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾^(٤)؟ بل إنه سوف يشعر بما شعر به نبي الله موسى - على نبينا وعليه السلام - حين قال لبني إسرائيل: ﴿كَلَّا إِنَّ رَبِّي سَنَهْدِيكُمْ فِي الْبَارِ﴾^(٥)، وما شعر به خاتم النبيين ﷺ في الغار حين قال لصاحبه الصديق رضي الله عنه: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾^(٦)، ورذا بحثنا عن هذا الأثر في القرآن فإننا نجد أن القرآن وضحه وضوحاً كافياً، وبينه بياناً شافياً، وذلك في كثير من الآيات، كل آية يقف عندها المؤمن، تسليه تسلية، وعملاً طمأنينة، وتزيده ثباتاً: ومن تلك الآيات:

أ - قول الله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(٧) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ^(٨) لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ^(٩).

(١) إغاثة اللهفان ٥٦٧/٢، وانظر الجواب الكافي ص ٢٩٠.

(٢) الوابل الصيب من الكلم الطيب ص ٨٣. (٣) سورة البقرة، الآية: ١٠٥.

(٤) سورة الحديد، الآية: ٤. (٥) سورة الشعراء، الآية: ٦٢.

(٦) سورة التوبة، الآية: ٤٠. (٧) سورة يونس، الآيات (٦٢ - ٦٣ - ٦٤).

يقول الشيخ عبدالرحمن السعدي في تفسير هذه الآية: (يخبر تعالى عن أوليائه، وأحبابه، ويذكر أعمالهم، وأوصافهم، وثوابهم، فقال: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ فيما يستقبلونه مما أمامهم من المخاوف، والأهوال: ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما أسلفوا؛ لأنهم لم يسلفوا إلا صالح الأعمال، وإذا كانوا لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ثبت لهم الأمن، والسعادة، والخير الكثير الذي لا يعلمه إلا الله تعالى، ثم ذكر وصفهم فقال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾.. لذلك كانت: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾.

والحاصل أن البشـرى شاملة لكل خير، وثواب ربه الله في الدنيا والآخرة على الإيمان والتقوى^(١).

ب - وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾^(٢)، يقول الشيخ عبدالرحمن السعدي: (أي يزول قلقها، واضطرابها، وتحضرها أفراحها، ولذاتها)^(٣).

ج - وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾^(٤).

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: (أي هؤلاء الذين أخلصوا العبادة لله وحده، لا شريك له ولم يشركوا به شيئاً هم الآمنون يوم القيامة، المهتدون في الدنيا والآخرة)^(٥). فأهل السنة والجماعة ذاقوا حلاوة هذا الأثر بسبب إيمانهم بالله وتجريد التوحيد له، وتعلقهم به دون سواه.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (والمقصود أن ما عند عوام المؤمنين، وعلمائهم أهل السنة والجماعة من المعرفة واليقين، والطمأنينة، والجزم الحق، والقول الثابت، والقطع بما هم عليه أمر لا ينازع به إلا من سلبه الله العقل، والدين)^(٦).

(١) تفسير السعدي ١٧٢/٣، وانظر الجواب الكافي ص ٢٩٠، وتفسير ابن كثير ٤٣٨/٢.

(٢) سورة الرعد، الآية: ٢٨.

(٣) تفسير السعدي ٥٣/٤، وانظر تفسير ابن كثير ٥٣٠/٢.

(٤) سورة الأنعام، الآية: ٨٢.

(٥) تفسير ابن كثير ١٥٨/٢، وانظر أضواء البيان ١٥٣/٢.

(٦) مجموع الفتاوى ٤٩/٤.



د- وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ (١).
 روى الإمام ابن كثير في تفسير هذه الآية - عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ أنا أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال: (هم الذي لم يشركوا بالله شيئاً، وفي رواية أخرى أنه قال: هم الذي لم يلتفتوا إلى إله غير الله جل وعلا) (٢).
 ولما حقق الصحابة رضي الله عنهم التوحيد أنزل الله عليهم السكينة، والطمأنينة، وثبت أقدامهم، ولهذا ثبت عنهم أنهم كانوا ينشدون أثناء حفر الخندق ويرتجزون - والنبي صلى الله عليه وسلم - يردد معهم قافية كل بيت - أبيات عبدالله بن رواحة رضي الله عنه المشهورة (٣):

لَا هِمَّ لَوْلَا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا
 فَأَنْزَلَنَّا سَكِينَةً عَلَيْنَا وَثَبَّتَ الْأَقْدَامَ إِنْ لَا قَيْنَا

وقد استجاب الله دعاءهم - رضي الله عنهم - فأنزل عليهم السكينة، والطمأنينة، والثبات.

إن تعلق الموحد بربه قد منحه يقيناً بأن لا رب إلا الله تخافه القلوب، وترجوه، وتجتنب سخطه، وتلتزم رضاه، وبهذه العقيدة الراسخة تتساقط الأرباب، والوسائط الزائفة من حياته، وتتحطم كل الأصنام المادية، والمعنوية من قلبه، فيصبح راضياً بالله وحده رباً، وعليه متوكلاً، وإليه منيباً، ويطمع في فضله، ويستمد من قوته، ويعتصم به، ويعتمد عليه، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٤)، فأين هذا من المشرك بالله الذي تعددت أربابه، وتنوعت وسائطه، وتضاربت وجهاته، وأهدت طاقاته؟ (٥).

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية فمن ذاق (حلاوة الإخلاص لله، والعبادة له، وحلاوة ذكره، ومناجاته، وفهم كتابه، وأسلم وجهه لله، وهو محسن بحيث يكون عمله صالحاً، ويكون لوجه الله خالصاً، فإنه يجد من السرور، واللذة، والفرح ما هو أعظم من الداعي

(١) سورة فصلت، الآية: ٣٠. (٢) انظر تفسير ابن كثير ١٠٦/٤.

(٣) صحيح البخاري ٣٩٩/٧، حديث ٤١٠٤، والرحيق المختوم لصفي الرحمن المباركفوري ص ٣٤١.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٠١. (٥) انظر الرسالة الخالدة لعبد الوهاب عزام ص ٢٩.

المتوكل الذي نال بدعائه، وتوكله ما ينفعه من الدنيا، أو اندفع عنه ما يضره^(١).

فالمحتمي بالله، والمتعلق به أوى إلى ركن شديد، لا يحتاج إلى وسائط، ولا مقربين، فهو يمتاز عن غيره بأنه (مطمئن البال، مستريح الفكر، غير قلق على المستقبل، ولا تمزق الأوهام نفسه مهما واجهه من أخطار . . . هذه الطمأنينة، والثقة يفقدها غير المؤمن، ولا يعوضها الغنى والترف؛ لما نرى من كثرة حوادث الانتحار، والتمزق النفسي في أكثر الدول غنى ورفاهية)^(٢).

ولا شك أن من قطع طمعه في المخلوقين، من الأحياء، والميتين، وعلق قلبه برب الخلق أجمعين، موقناً بأنه لا خير إلا خيره، ولا نفع إلا نفعه، ولا شر إلا بقدره، ولا ضر يرفع إلا من جهته، لا شك أن من هذا وصفه فهو الموحد الذي أضاعت كلمة التوحيد جوانب قلبه، وسرت الطمأنينة في جنبات نفسه، فهو ثابت على الحق، لا تزعزعه عواصف الخرافة، وزوايج الأوهام التي اقتلعت قلوب المشركين، فأصبحت معلقة بالوسائل الوهمية، والوسائط البدعية، فمثل هذا الموحد كمثل الشجرة الطيبة اليت ضرب الله في القرآن، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾^(٣).

يقول العلامة ابن القيم (فإنه سبحانه شبه شجرة التوحيد في القلب بالشجرة الطيبة الثابتة الأصل، الباسقة الفرع في السماء علواً التي لا تزال تؤتي ثمرتها كل حين، وإذا تأملت هذا التشبيه رأيت مطابقاً لشجرة التوحيد الثابتة الراسخة في القلب التي فروعها من الأعمال الصالحة صاعدة إلى السماء ولا تزال هذه الشجرة تثمر الأعمال الصالحة في كل وقت بحسب ثباتها في القلب، ومحبة القلب لها، وإخلاصه فيها)^(٤). فلا بد في الإسلام من الاستسلام لله وحده، وترك الاستسلام لغيره من الوسائط، وهذا هو حقيقة قولنا (لا إله إلا الله)^(٥).

(١) مجموعة الرسائل الكبرى لشيخ الإسلام ابن تيمية ١٦٤/٢، وانظر مجموع الفتاوى ٢١٦/١٠.

(٢) عقيدة التوحيد في القرآن الكريم للدكتور محمد ملكاوي ص ٤١، وانظر العقيدة والأخلاق وأثرهما في حياة الفرد والمجتمع للدكتور محمد بيصار ص ٧١، والثمرات الزكية في العقائد السلفية جمع أحمد فريد ص ٢٥١.

(٣) سورة إبراهيم، الآيتان (٢٤-٢٥).

(٤) أعلام الموقعين عن رب العالمين ١٧٢/١. (٥) انظر اقتضاء الصراط المستقيم ٨٤٦/٢.



ومن أراد أن يذوق طعم هذا الأثر فسييله واحدة، وطريقه محددة، ألا وهي تجريد التوحيد لربه تعالى الذي بيده أزمّة الأمور كلها، وإليه تفزع الخليقة بأجمعها فيتوجه إليه بالقلب، واللسان، والروح، والوجدان، معرضاً عما سواه، فيعيش آمناً، مطمئناً يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، إن أصابته سراء شكر، وإن مسته ضراء صبر، فهو شكور، صبور، وفي كلا الحالين مأجور^(١).

وهذا هو اللطف الخي الذي عرفه العلامة ابن القيم بقوله: (هو ما يحصل للقلب عند النوازل من السكينة، والطمأنينة، وزوال القلب، والاضطراب، والجزع، فيستخذي بين يدي سيده ذليلاً، مستكيناً، ناظراً إليه بقلبه ساكناً إليه بروحه، وسره، قد شغله مشاهدته لطفه عن شدة ما هو فيه من الألم، وقد غيبه عن شهود ذلك معرفته بحسن اختياره له، وأنه عبد محض، يجرى عليه سيده أحكامه، رضي، أو سخط؛ فإن رضي نال الرضا، وإن سخط سخط فحظه السخط)^(٢).

(١) انظر توحيد الألوهية أساس الإسلام ص ١٠٤، وأثر الإيمان في تحصين الأمة الإسلامية ضد الأفكار الهدامة للدكتور عبد الله الجربوع رسالة ماجستير غير منشورة ص ٣١٦، وأعمال القلوب وأثرها في الإيمان لمحمد دو كوري محمد رسالة دكتوراة غير منشورة ص ٢٧٩.

(٢) الفوائد ص ١٩٥.

المبحث الرابع

الشعور بالعزة والقوة والنصر

إن المؤمن الموحد الذي امتلأ قلبه بحب الله تعالى، وحب رسوله ﷺ ولم يبق فيه متسع لمحبة غير الله من الوسائط، والوسائل المزعومة - نجده - قد كسر كل القيود، والأغلال التي تحول بينه، وبين ربه تعالى، فهو يشعر براحة نفسية لا يشعر بها إلا الموحدون، وعزة، وإباء لا توازيها عزة عزيز من الخلق، وقوة إيمانية تسمو به عن الخضوع، والخنوع للمخلوق، فعزته من الله، وقوته بالله، ونصره من عند الله، قال تعالى: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾^(١)، وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾^(٢).

يقول العلامة ابن القيم مبيّناً حال هذا الموحد مع ربه: (وكلما ازداد له حباً ازداد له عبودية، وذلاً، وخضوعاً، ورقاً له، وحرية عن رق غيره).

فأصبح حُرّاً عِزَّةً وَصِيَانَةً على وجه أنواره وضيآؤه^(٣).

فرسالة الإسلام جاءت بتوحيد الألوهية؛ لتحرر الإنسان من رق العبودية، والخضوع لغير الله تعالى ولتغرس في قلوب المؤمنين الشعور بالعزة، والقوة، والشجاعة، وتثبت في النفوس قوة العزيمة، وسمو المقصد؛ وذلك بسبب ما تميزت به رسالة الإسلام من عقيدة التوحيد الخالص، ونبد الوسائط التي كانت سائدة في الجاهلية، ومسيطرة على مناحي الحياة، وجميع تحركات المشركين، فتحرر المسلم الذي كتب الله هدايته بانضوائه تحت لواء الرسول ﷺ وانضمامه لحزبه، وأصبح عزيزاً بعد ما كان ذليلاً وقوياً بعد ما كان ضعيفاً، ومنتصراً على الخرافة بعد ما كان أسيراً لها^(٤).

إذن (جاء الإسلام بعقيدة التوحيد؛ ليرفع نفوس المسلمين ويغرس في قلوبهم الشرف، والعزة، والأنفة، والحمية، وليعق رقابهم من رق العبودية، فلا يذل صغيرهم لكبيرهم، ولا يهاب ضعيفهم قويهم، ولا يكون لذي سلطان بينهم سلطان إلا بالحق، والعدل، وقد ترك الإسلام بفضل عقيدة التوحيد ذلك الأثر الصالح في نفوس المسلمين

(١) سورة الحج، الآية: ٤٠ (٢) سورة غافر، الآية: ٥١.

(٢) إغائة اللهفان ٢/ ٥٦٧، وانظر الآداب الشرعية لابن مفلح ٣/ ٦١١.

(٤) انظر رسالة الإسلام نور بدد الظلام للسيد عبدالحليم الخطيب ص ٣٥١، وحرية الاعتقاد في ظل الإسلام للدكتور تيسد العمر ص ١٣٧.

في العصور الأولى فكانوا ذوي أنفه وإباء وغيره^(١)، فبالتوحيد يقوى العبد، ويستغني، ويتعزز، ويحتمي، ومن سره أن يكون أقوى الناس قليتوكل على رب الناس^(٢).

فلشهادة التوحيد آثار، ومن تلك الآثار: تحرير القلب، والنفس من الرق للمخلوقين، والخضوع، والاتباع لغير المرسلين^(٣)، قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾^(٤).

قال الإمام ابن كثير في تفسير هذه الآية: (أي من كان يحب أن يكون عزيزاً في الدنيا والآخرة فليلزم طاعة الله تعالى؛ فإنه يحصل له مقصوده؛ لأن الله تعالى مالك الدنيا والآخرة وله العزة جميعاً)^(٥)، وكما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿أَيَّتَعُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾^(٦)، وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٧)، فمن ابتغى العزة من الوسائط أذله الله، قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (٨) كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾^(٨)، وكثيراً ما يقرن الله سبحانه وتعالى بين ذكر العزة، والقوة، والنصر، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾^(٩)، فنفهم من ذلك أن العزة هي العزية الحقيقية، وأنها هي التي تستلزم القوة والنصر، والغلبة^(١٠)، فمن آمن بالله تعالى، وأيقن بعظيم قدرته، وقوته، وحكمته تعالى، وشاهد ببصره، وبصيرته مظاهر العزة، والعظمة الربانية في كل فرد من أفراد هذا الكون، واستحضر ما يمكن تصوره من آثار العزة لاسمه «العزیز»، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(١١).

(فحينئذ تشمخ نفسه، وتعلو على كل أسباب الضعف، والذل فتصبح نفسه عزيزة بالله تعالى، لا تذلل لأي مخلوق، مهما كان ضعيفاً فقيراً؛ فإنه دائماً عزيز بالله تعالى لا

(١) النظرات للمنفلوطي ٤٨/٢، وانظر دمعة على التوحيد ص ٢١٣.

(٢) انظر مجموع الفتاوى ٥٥/١، والعقل والغيب للدكتور محمد حسن هيتو ص ٤٧.

(٣) انظر مجموع فتاوى ورسائل الشيخ ابن عثيمين ١٠٣/٥، وأثر العقيدة في بناء الفرد والمجتمع للدكتور

عبدالمعالي مكرم ص ٧٥. (٤) سورة فاطر، الآية: ١٠.

(٥) تفسير ابن كثير ٥٥٦/٣، وانظر القواعد الحسان للسعدي ص ١١٧، وأضواء البايين ٤١٥/٦.

(٦) سورة النساء، الآية: ١٣٩. (٧) سورة المنافقون، الآية: ٨.

(٨) سورة مريم، الآيتان (٨١-٨٢). (٩) سورة الحج، الآية: ٤٠.

(١٠) انظر صعود الأقال ورفع الأعمال لعبد الله سراج الدين ص ٣٥.

(١١) سورة المنافقون، الآية: ٨.

يذل لغيره^(١).

وقال العلامة ابن القيم: (فالمؤمن عزيز غالب، مؤيد، منصور، مكفي عنه بالذات، ولو اجتمع عليه من بأقطارها، إذا قام بتحقيق الإيمان، وواجباته، ظاهراً وباطناً)^(٢).

وذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أنه وجد المسلمين في ناحيته يتعلقون بالوسائط البعية ويلوذون بقبر رجل يقال له أبو عمر، ويأملون من الله النصر على التتار، يقول قائمهم^(٣):

يا خائفين من التتر لوذوا بقبر أبي عمر

فبين لهم شيخ الإسلام أن السبب في هزيمتهم هو تعلقهم بهؤلاء الوسائط المقبورين، والاستغاثة بهم من دون الله تعالى، وذكرهم بأن العزة، والقوة، والنصر لا يجيء بالشرك، والتعلق بالمقبر، وإنما يجيء من جهة الاستغاثة بالعزيز الغفور.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (حتى إن العدو الخارج عن شريعة الإسلام لما قدم دمشق خرجوا يستغيثون بالموتى عند القبور التي يرجون عندها كشف ضرهم... فقلت لهم: هؤلاء الذين تستغيثون بهم لو كانوا معكم في القتال لانهزموا كما انهزم من انهزم من المسلمين يوم أحد... فلما كان بعد ذلك جعلنا نأمر الناس بإخلاص الدين لله عز وجل، والاستغاثة به، وأنهم لا يستغيثون إلا إياه لا يستغيثون بملك مقرب، ولا نبي مرسل... فلما أصلح الناس أمورهم، وصدقوا في الاستغاثة بربهم نصرهم على عدوهم نصراً عزيزاً، ولم تهزم التتار مثل هذه الهزيمة قبل ذلك أصلاً لما صح من تحقيق توحيد الله تعالى وطاعة رسوله؛ فإن الله تعالى ينصر رسوله والذين آمنوا في الحياة الدنيا، ويوم يقوم الأشهاد)^(٤).

وحينما تشع كلمة التوحيد في قلب المؤمن، وتثبت فيه ثبات الجبال الراسيات فإنه سيرفض كل مظاهر الشرك، ودواعيه، ووسائله بكل شموخ، وأنفة، فلا خضوع لغير الله، ولا توجه لمخلوق من مخلوقات الله، وعندما يصل العبد إلى هذه المنزل من منازل الإيمان سوف يشعر بأن حرية في عبوديته لله تعالى، وأن تلك السجدة التي يخفض فيها

(١) العقيدة الإسلامية الميسرة وأثرها في حياة المسلم لعبد العزيز ندا ص ٤٣، وانظر عقيدة التوحيد في القرآن الكريم ص ٣٨.

(٢) إغاثة اللهفان ٢/ ٢٦٣، وانظر الرسالة الخالدة لعبد الوهاب عزام ص ٦٣، والرسالة والرسول للدكتور أكرم العمري ص ١٢.

(٣) انظر تلخيص كتاب الاستغاثة ٢/ ٧٣٢. (٤) المرجع نفسه والموضع بعينه.



جبهته بكل تذلل، وتواضع، وخضوع للعزیز الجبار هي عنوان العلو، وشارة الحرية، وسر العزة، وسبيل القوة، والنصر، كما قيل^(١):

سجدة تخفض الجباه ولكن عز فيها مسيح وتعالى
ظنها الجاهلون غلا على العبد ولكن تحطم الأغلالا
ثبتت الوجه والجوارح في الأر ض ولكن تقلقل الجبالا

وبهذه العقيدة الراسخة، وهذه القوة المستمدة من الله جل جلاله يصرع التوحيد الشرك، وتطرح حقيقة الإيمان الخرافة أرضاً، فيعيش التوحيد قوياً في قلوب المؤمنين، ويتوارى الشرك عن الأنظار، وتهرب الخرافة، وهي تجر أذيال الهزيمة خوفاً من سياط الحق، وأنواره الساطعة، عند ذلك يحق للموحد أن يصرخ في وجه الوسائط البدعية قائلا^(٢):

بالله أبلغ ما أسمى وأدركه لا بي ولا بشفيع لي من الناس

(١) من قصيدة لعبد الوهاب عزام. انظر: مجلة المسلمون السنة الأولى ٩٦١.

(٢) انظر الفوائد، ص ٤٢.

المبحث الخامس

حصول السيادة والاستخلاف في الأرض

من آمن بالله تعالى محققاً شهادة التوحيد، وصدق رسله، واتبع النور الذي جاءوا به لا شك أن هذه الفئة من الناس هي التي يحبها الله تعالى، ويزكيها، ويستخلفها في الأرض بسبب إيمانها، وهدايتها، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾^(١).

فتحقيق التوحيد، ورفض الوسائط البدعية بين المخلوق، وخالقه من أهم الشروط لحصول السيادة، والاستخلاف في الأرض؛ لأن الله سبحانه وتعالى أرسل رسله، وأنزل كتبه لإخلاص العباد لله تعالى وحده، والكفر بغيره من الوسائط، والطواغيت التي تعبد من دون الله، ولقد بشر رسل الله - عن طريق وحي الله - بحصول هذا الأثر للمؤمنين بالله المتبعين لرسل الله، وعدا من الله، والله لا يخلف الميعاد.

ولقد بين القرآن في كثير من الآيات الكريمة هذا الأثر، وتثبيتاً لأوليائه المؤمنين الموحدين، وتبكيته، وتقريعاً لأعدائه المشركين الظالمين، وتأكيذاً للنتيجة الحتمية للمصراع بين الحق، والباطل في أن العاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾^(١٠٥) إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ^(٢) ومن تلك الآيات:

أ - قول الله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾^(٣).

وهذا ما حصل لسلف هذه الأمة - رضي الله عنهم - حيث نزلت هذه الآية في غزوة الخندق، وهم بين مطرقة الخوف، وسندان الموت، وما كان بأيديهم إلا المدينة يهودها، ومنافقيها فأظهر الله أهل التوحيد، ونصر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٤)، واستخلفهم، ومكن لهم في الأرض، وبدل خوفهم أمناً، وقلقهم طمأنينة، وعبدوه وحده، عبادة خالصة، وأطاعوه، وأطاعوا رسوله - صلى الله عليه وسلم -.

(١) سورة البينة، الآية: ٧.

(٢) سورة الأنبياء، الآية (١٠٥-١٠٦).

(٣) سورة النور، الآية: ٥٥.

(٤) انظر السيرة النبوية لابن هشام ١٦٩/٣.

قال الإمام ابن كثير : (هذا وعد من الله تعالى لرسوله صلوات الله وسلامه عليه بأنه سيجعل أمته خلفاء الأرض: أي أئمة الناس، والولاة عليهم، وبهم تصلح البلاد، ويخضع لهم العباد، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً، وحكما، وقد فعله تبارك وتعالى، وله الحمد، والمنة^(١)).

وقد جمع الشيخ محمد الأمين الشنقيطي هذه الآية من نظائرها، ثم قال : (والآيات تدل على أن طاعة الله، والإيمان به، والعمل الصالح سبب للقوه، والاستخلاف في الأرض، ونفوذ الكلمة^(٢)). وهذا الوعد في الآية يشمل أصحاب رسول الله ﷺ وكل من آمن بالله تعالى وقام بنصرة دينه على الوجه الأكمل^(٣).

وهذه الولاية الموعود بها في هذه الآية للجماعة المؤمنة بين الله مظاهرها، وأنها الاستخلاف في الأرض، والتمكين فيها، وحصول السيادة والشرف، فتكون لهم العزة، والقوة، والغلبة، ويحصل لهم الأمن بدلاً من الخوف، وقد بين الله حصول هذه السيادة، والولاية ألا وهو الإيمان الصادق، والأعمال الصالحة، المذكورة في صدر الآية، ثم ذكر في آخرة الآية أنه يجب أن تكون خالصة لله تعالى^(٤).

ب - وقال موسى في جواب قومه : ﴿ قَالُوا أَوْذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَهْلِكَ عَدُوُّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾^(٥).

ج - ولما ألقى سحرة فرعون ساجدين وآمنوا بالله رب موسى وهارون توعدهم فرعون وهددهم، فلم يبالوا بوعيده وتهديده، وكان جوابهم له : ﴿ قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴾^(٦) وَمَا نَنفَعُ مِنْهُ إِلَّا أَنْ أَمَّا بآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَقَّنا مُسْلِمِينَ^(٦).

فثبتوا على إيمانهم بالله تعالى، وتصديقهم بنبيه موسى - على نبينا وعليه الصلاة والسلام - وكفروا بفرعون، وربوبيته المزعومة، فكانت النتيجة : ﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴾^(٧).

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ٣١١.

(٢) أضواء البيان ٦/ ١٦٧، وانظر الورثة الصالحة للحضارة المعاصرة للدكتور فاروق حمادة ص ١٥.

(٣) انظر أضواء البيان ٥/ ٤٨٢.

(٤) انظر أثر الإيمان في تحصين الأمة الإسلامية ضد الأفكار الهدامة ص ١٥٠ والعقائد الإسلام لسيد سابق ص ٣٠٧.

(٥) سورة الأعراف، الآية : ١٢٩. (٦) سورة الأعراف، الأيتان (١٢٥ - ١٢٦).

(٧) سورة الأعراف، الآية : ١٣٧.

د - وقال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۝﴾ وَنُمْكِّنْ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُزِّيْ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿١﴾ .

هـ - وذكر الله تعالى في كتابه العزيز قصة الفتية الذين آمنوا بربهم، أصحاب الكهف، وما نالوا من الرحمة، والتمكين، وتهيئة الأمور، وبين أن سبب ذلك كله توحيدهم لله تعالى، وتعلقهم به، والتبرؤ من الشرك، وهجران أهله، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يُعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَبِ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرَفَقًا ۝﴾ (٢) .

فتبين من هذه الآيات السابقة للإيمان الصادق، والطاعة التامة لله تعالى، وطاعة رسوله ﷺ ثمرات يانعة، ومن تلك الثمرات حصول السيادة، والاستخلاف في الأرض، فضلاً من الله ونعمة، والله ذو الفضل العظيم، ولهذا قال النبي ﷺ: (لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم) (٣) .

ولا ريب أن المقصود بهذه الطائفة هي طائفة المؤمنين الموحدين المتقين . وقال - عليه الصلاة والسلام - في الحديث الآخر: (بشر هذه الأمة بالسنا، والرفعة، والدين، والنصر، والتمكين في الأرض، فمن عمل عمل الآخرة للدنای لم يكن له في الآخرة نصيب) (٤) .

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يمكن لنا ديننا الذي ارتضى لنا، ويحفظ لنا أمننا، وإيماننا، ويثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا، وفي الآخرة .

(١) سورة القصص، الآيتان (٥ - ٦) . (٢) سورة الكهف، الآية ١٥ .

(٣) سبق تخريجه .

(٤) رواه الإمام أحمد في المسند ١٣٤/٥، وابن حبان في صحيحه، انظر الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان لابن بليان ١٣٢/٢، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي، انظر المستدرک ٣١١/٤، والبيهقي في شعب الإيمان ٣٣٥/٥، وصححه الشيخ الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته ٥٤٥/١، برقم ٢٨٢٥ .



المبحث السادس

تحقيق الوحدة بين المسلمين

جاءت رسالات الله إلى أهل الأرض لتحقيق التوحيد، وإخلاص العبودية التامة لله تعالى، ولقد حذر المرسلون بهذه الرسالات أهل الأرض من مغبة الشرك، ومسالك الزلل، وبنيات الطريق، وأخذوا بأيديهم إلى صراط الله المستقيم، وبينوا لهم أن عبادة الله تعالى وحده، وإخلاص الدين له هو سر قوتهم، وطريق وحدتهم، وسبيل خلاصهم، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١).

ولما كان دين الله واحداً وهو عبادة الله وحده؛ وإن تنوعت الشرائع أمر الله الرسل أن يقيموا الدين ولا يتفرقوا فيه، قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ (٢). وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ (٣) وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ (٤).

ولقد عصم الله الفرقة الناجية، والطائفة المنصورة إلى قيام الساعة من الأهواء، والاختلاف بسبب تجريدهم لتوحيد الله، ومتابعتهم لرسوله صلى الله عليه وسلم وسييرهم على نهج سلفهم الصالح إيماناً وتصديقاً، علماً، وعملاً، عقيدة، وسلوكاً، عبادة، ومعاملة، منهجاً، وأخلاقاً، فاتسمت عقيدتهم بالصفاء، والنقاء، من الدغل، والخلل، فامتازوا بوحدة العقيدة، والمنهج في كل زمان، ومكان، والنقاء من الدغل، والخلل، فامتزوا بوحدة العقيدة، والمنهج في كل زمان، ومكان؛ لذلك تجد التوافق العجيب بينهم، وإن تفرقت أبدانهم، وتباعدت ديارهم، ولعل من أهل أسباب ذلك هو تعلقهم بالله تعالى دون سواه من الوسائط المخلوقة، واتباعهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم دون الانقياد لغيره من المشروعين، والمبتدعين.

روى الإمام ابن كثير عند تفسير قول الله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ (١١٨) إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ (٤) عن قتادة أنه قال: (أهل رحمة الله أهل الجماعة، وإن تفرقت ديارهم،

(٢) سورة الشورى، الآية: ١٣.

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٥٣.

(٤) سورة هود، الآية (١١٨-١١٩).

(٣) سورة المؤمنون، الآية (٥١-٥٢).

وأبدانهم، وأهل معصيته أهل فرقة وإن اجتمعت ديارهم، وأبدانهم^(١).

وهذا الذي قاله قتادة رحمه الله أمر مطرد، وحقيقة مشاهدة؛ فإنك لو بحثت عن أهل السنة والجماعة، (على اختلاف بلدانهم، وزمانهم، وتباعد ما بينهم من الديار، وسكون كل واحد منهم قطراً من الأقطار وجدتهم في بيان الاعتقاد على وتيرة واحدة، وخط واحد، يجرون على طريقة لا يحدون عنها، ولا يميلون فيها، قولهم في ذلك واحد، لا ترى فيهم اختلافًا، ولا تفرقًا في شيء ما، وإن قل؛ بل لو جمعت ما جرى على ألسنتهم، ونقلوه عن سلفهم، وجدته كأنه جاء عن قلب واحد، وجرى على لسان واحد، وهل على الحق دليل أبين من هذا؟ . . . وكان السبب في اتفاق أهل الحديث أنهم أخذوا الدين من الكتاب، والسنة، وطريقة النقل، فأورثهم الاتفاق، والاتلاف، وأهل البدعة أخذوا الدين من المعقولات، والآراء، فأورثهم الافتراق والاختلاف^(٢).

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (فأهل الإشراك متفرون، وأهل الإخلاص متفقون، وقد قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ (١١٨) إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ^(٣))، فأهل الرحمة متفقون، مجتمعون، والمشركون فرقوا دينهم، وكانوا شيعاً . . . بخلاف أهل التوحيد فإنهم يعبدون الله لا يشركون به في بيوته التي أذن الله أن ترفع، ويذكر فيها اسمه . . . وإن حصل بينهم تنازع في شيء مماي سوغ فيه الاجتهاد لم يوجب ذلك تفرقًا، ولا اختلافًا، والله هو معبودهم، إياه يعبدون، وعليه يتوكلون، وله يخشون، ويرجون، وبه يستعينون، ويستغيثون، وله يدعون، ويسألون؛ فإن خرجوا إلى الصلاة في المساجد كانوا مبتغين فضلاً منه، ورضوانًا، كما قال تعالى في نعتهم: ﴿تَرَاهُمْ رُكْعًا سَجْدًا يَتَّغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾^(٤)، وكذلك إذا سافروا إلى أحد المساجد الثلاثة، لا سيما المسجد الحرام الذي أمروا بالحج إليه، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْلُوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَتَّغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا﴾^(٥)، فهم يؤمون بيته ويتغنون فضلاً من ربهم ورضوانًا، لا يرغبون إلى غيره، ولا يرجون سواه، ولا يخافون إلا إياه^(٦).

(٢) الحجة في بيان المحجة لقوام السنة ٢/ ٢٢٦.

(١) تفسير ابن كثير.

(٣) سورة هود، الآيتان (١١٨-١١٩).

(٤) سورة الفتح، الآية: ٢٩.

(٥) سورة المائدة، الآية: ٢.

(٦) اقتضاء الصراط المستقيم ٢/ ٨٤٩، وانظر مجموع الفتاوى ٤/ ٥٢.



ففي خضوع المسلمين لرب واحد، وعبادتهم له وحده، وتعلقهم به دون من سواه من الوسائط والأرباب، والإخلاص في ذلك مع الانقياد لأوامر الشرع، والطاعة التامة للرسول صلى الله عليه وسلم هذا الأصل من أقوى الروابط في جميع كلمة المسلمين، وتوحيد صفوفهم^(١). قال الله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٠) مُبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٣١) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾^(٢)، ففي هذه الآيات الكريمات بيان سبيل الوحدة بين المسلمين، وهي تحقيق التوحيد الخالص والإنابة إلى الله تعالى، وتعلُّ القلوب به دون غيره من الطواغيت، والوسائط، وأداء شعائر الله، والبراءة من الشرك، ووسائله، وسد الطرق المؤدية إليه، وهجران أهله.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُون﴾^(٣)، وقال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُون﴾^(٤)، وقال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾^(٥).

فمجتمع العقيدة مجتمع متماسك، مترابط يشد أفرادَه على أيدي بعضهم البعض كأنهم بنيان مرصوص، وأمالهم، وإلامهم واحدة، واتجاهاتهم كلها واحدة؛ لأنها نابعة من عقيدتهم، وإيمانهم بالله تعالى وحده، ليحققوا العدل، والمحبة، والأخوة الإيمانية، وليعيش كل فرد في هذا المجتمع أماناً على دينه، وروحه، وعقله، وماله، وعرضه^(٦)، ولن تنشق عن الإنسانية غيوم البلاء، وويلات الحروب، وظلام الفرقة التي نشاهدها بين

(١) انظر وجوب لزوم الجماعة وترك التفرق للدكتور جمال بادي ص ٦، وحكم الانتماء إلى الفرق للشيخ بكر أبو زيد ص ١٢٤.

(٢) سورة الروم، الآيات (٣٠ - ٣١ - ٣٢).

(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٩٢.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٠٣.

(٥) سورة المؤمنون، الآية: ٥٢.

(٦) انظر عقيدة التوحيد في القرآن الكريم ص ٤٧، وتعريف الخلف بمنهج السلف ص ٤١٩.

الأمم، والطبقات ما لم تهب عليهم رياح العقيدة الصافية، وتملاً كلمة التوحيد قلوب الناس^(١).

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (وهذا الأصل العظيم، وهو الاعتصام بحبل الله جميعاً، وأن لا يتفرقوا هو من أعظم أصول الإسلام، ومما عظمت وصية الله تعالى به في كتابه، ومما عظم ذمه لمن تركه من أهل الكتاب، وغيرهم، ومما عظمت به وصية النبي صلى الله عليه وسلم في مواطن عامة، وخاصة)^(٢).

ولا ريب أن الأساس الذي يقوم عليه بناء وحدة الأمة وتماسكها، وهو الركن العظيم، والحصن الحصين، والمنطلق المتين لجمع كلمة المسلمين هو (عقيدة التوحيد الذي جمعنا الله به بعد الفرقة، وألف بين قلوبنا بعد التمزق، حتى أصبحنا أمة واحدة ذات هدف واحد، ومنطلق واحد، وعقيدة واحدة هي مصدر عزتنا، وعنوان سعادتنا، ومناط وجودنا في هذه الحياة، إنها عبادة الله الذي لا إله غيره، ولا رب سواه)^(٣).

ولقد ذاق سلفنا الصالح حلاوة هذا الأثر بسبب تحقيقهم للتوحيد، وسيرهم في ظلال العقيدة الصافية، فكانوا (يستلهمون سر وحدتهم من صفاء العقيدة الخالصة التي لم تشبها شائبة، فأصبحوا بذلك سادة الدنيا، وفتح الله لهم أبواب الخير من كل مكان، ورفعوا راية التوحيد في مشارق الأرض ومغاربها، وكل عاقل يدرك أن هذا النصر المؤزر الذي حققه الله على أيديهم لم يكن وليد الصدفة . . . وإنما تحقق بسبب اعتمادهم على الله، والتوكل عليه، مع الأخذ بالأسباب المشروعة . . . وانطلاقهم في دعوتهم من تحقيق كلمتي التوحيد (لا إله إلا الله محمد رسول الله)^(٤).

وليس معنى ذلك أنه لا يقع بين أهل السنة اختلاف ألبتة؛ بل يقع، وقد وقع في كثير من مراحل التاريخ؛ لأنهم بشر غير معصومين، إلا أن اختلافهم محمود، غير مذموم؛ لأنه لا يؤدي إلى تفرق، وتحزب، وتباين، وإنما يكثر الخلاف بينهم في الأحكام الدينية، والمسائل الفرعية، ولا يؤدي اختلافهم إلى تناحر، وتبغاض، وتكفير، كما هو حال أهل البدع؛ بل يقع الخلاف، وتبقى المودة، والنصح، والألفة، الأخوة، كما قال الإمام ابن

(١) انظر الرسالة الخالدة ص ٣٩، والوحدة الإسلامية والأخوة الدينية لمحمد رشيد رضا ص ١٣٧.

(٢) مجموع الفتاوى ٣٥٩/٢٢.

(٣) منهج السلف في العقيدة وأثره في وحدة المسلمين لشيخنا الدكتور صالح السحيمي ص ٥.

(٤) المرجع السابق ص ٢٢.

قتيبة رحمه الله^(١): (ولو أردنا - رحمك الله - أن نتقل عن أصحاب الحديث^(٢)) ونرغب عنهم إلى أصحاب الكلام، ونرغب فيهم لخرجنا من اجتماع إلى تشتت، وعن نظام إلى تفرق، وعن أنس إلى وحشة، وعن اتفاق إلى اختلاف^(٣)).

وإذا كان مذهب أهل السنة والجماعة في فهم الوسطة يقوم على التقيد بالكتاب، والسنة، ونفي الوسائط المخلوقة، والوسائل المبتدعة، ويقوم - بدلاً من ذلك - على ربط القلوب بخالفها، وتجريد التوحيد له، وإخلاص العبادة له، مع تمام المتابعة لرسوله صلى الله عليه وسلم، إذا كان الأمر كذلك، فكيف لا يشمر هذا المنهج وحدة الأمة، وتماسكها، وترباطها؛ بعيداً عن نزعات الافتراق، والتصدع، والشقاق؟ فالمؤمنون قلوبهم متجهة نحو قبلة واحدة، ومعلقة برب واحد، ومطبعة لنبي واحد، ومتبعة لدليل واحد وهو الكتاب والسنة، إذا خرجوا إلى الصلاة خرجوا بنية واحدة، وشعور واحد، وإذا صاموا وجدتهم كذلك، وإذا حجوا بيت ربهم وجدتهم كذلك أيضاً؛ بل يزيدون على ذلك في مناسك الحج بأن يكون مظهرهم دالاً على هذه الوحدة، وذلك الاتفاق^(٤).

فدعائهم لله تعالى، وتوجههم إليه، وخوفهم منه، وطمعهم فيه، لا في زيد ولا عمرو من الوسائط البدعية، والوسائل الوهمية، وهذا هو التوحيد الذي جاءت به رسالة الإسلام (فبالتوحيد، والسنة تصفو القلوب، وتتألف، وبالتوحيد تتحقق الوحدة، وبدون التوحيد لا تتحد)^(٥).

فالإيمان سبب للاجتماع، والاتفاق، قال بعض السلف: (ثلاث لا تنفع اثنتان دون الثالثة: الإيمان، والصلاة، والجماعة)^(٦). فالاختلاف مرفوض في الشريعة مطلقاً، والصراط واحد، والواحدانية لا تقتضي الافتراق، ولا التشيع، والانقسام^(٧).

ثم نقول للسارحين في الوهم القائلين بأن الدعوة إلى التوحيد تورث الفرقة: (من هو

(١) هو أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، الإمام العالم الكاتب الأديب اللغوي، قال الخطيب البغدادي: كان ابن قتيبة ثقة، ديناً فاضلاً، من مصنفاته: «تأويل مختلف الحديث» و«الشعر والشعراء»، توفي سنة ٢٧٦ هـ. انظر تاريخ بغداد ١٠/ ١٧٠، وسير أعلام النبلاء ١٣/ ٢٩٦.

(٢) أصحاب الحديث لقب من ألقاب أهل السنة، كما مر معنا في تعريف أهل السنة.

(٣) تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص ٤٤.

(٤) انظر دروس في العقيدة مستفادة من الحج لشيخنا الدكتور عبدالرزاق بن عبدالحسن البدر ص ٤٢.

(٥) موسوعة أهل السنة لعبد الرحمن دمشقية ١٣/ ١. (٦) الإبانة لابن بطة ١/ ٢٢٣.

(٧) انظر حكم الانتماء إلى الفرق للشيخ أبو بكر أبي زيد ص ١٢٥.

الذي يفرق الجماعة؟ أهو الذي يدعو إلى عقيدة التوحيد، وإفراد الله بالعبادة واتباع الرسول صلى الله عليه وسلم والاعتصام بالكتاب، والسنة، حتى تكون الأمة جماعة واحدة، معبودها واحد، وهو الله، وقدوتها واحد، وهو محمد صلى الله عليه وسلم، ودليلها واحد، وهو الكتاب، والسنة، وتحت راية واحدة، هي راية التوحيد؟ أم الذي يدعو إلى التعلق بغير الله من الأولياء، والصالحين، وإلى اتباع الطرق الصوفية المبتدعة، وإلى الاستدلال بالأحاديث الموضوعة، والحكايات المكذوبة، والمنمات الشيطانية، مما تزرخ به كتب القوم: ﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (١) (٢٢٩).

ومما يستبدل به على هذا الأثر المبارك من الواقع المشهود ما أثمرته دعوة الشيخ محمد ابن عبد الوهاب السلفية في هذه البلاد؛ حيث قامت على الدعوة إلى تحقيق التوحيد، وإخلاص العبادة لله تعالى، وتصفية العقيدة من شوائب الشرك، ووسائله البدعية، وظهرت دعوته - رحمه الله - في بيئة متنافرة، وقبائل شتى متناحرة، تغير القوية منها على الضعيفة، وفي أعراق متعددة، ومذاهب مختلفة فتطهرت البيئة من الشرك والبدع، واجتمعت القلوب على التوحيد، وتوحدت القبائل تحت راية (لا إله إلا الله محمد رسول الله) فاجتمعت الكلمة، وتحققت الوحدة بفضل الله تعالى، ثم ببركة دعوة التوحيد السلفية.

فكان قيام دولة التوحيد على يد الأمير محمد بن سعود، والشيخ محممة بن عبد الوهاب رحمهما الله اللذين حصلت البيعة بينهما على نصرة الإسلام، وإقامة السنة، والتوحيد (٣)، فكان سيف العدل في يد الأمير، ومشعل التوحيد في يد الشيخ:

وتناصر السيف الصقيل ومشعل التوحيد حتى أينعا بثمار
لله درك دعوة سلفية للدين والدنيا بكل فخار

واعلم أن المؤمنين في أي بقعة من بقاع الأرض يجمعهم ويصل بينهم جسران عظيمان: جسر يربط بين القلوب، وهو التوحيد، وجسر يربط بين الأفواه، وهو لغة

(١) سورة الأنعام، الآية: ٨١.

(٢) هذه مفاهيمنا ص ٢٢٥، وانظر دعوة الإمام محممة بن عبد الوهاب سلفية لا وهابية ص ٤٦٧.

(٣) انظر عقيدة الشيخ محمد بن عبد الوهاب السلفية وأثرها في العالم الإسلامي ص ١٤.



القرآن، كما قال الشاعر^(١):

بين الجوانح جسر من عقيدتنا وبين أفواهنا جسر من الضاد

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (فظهر أن سبب الاجتماع، والألفة جمع الدين، والعمل به كله، وهو عبادة الله وحده، لا شريك له، كما أمر به، باطنًا، وظاهرًا . . . ونتيجة الجماعة رحمة الله، ورضوانه، وصلواته، وسعادة الدنيا، والآخرة، وبياض الوجوه)^(٢).

ونستطيع أن نقرر باختصار أن نبي الإسلام - صلى الله عليه وسلم - بعث بأمرين اثنين، وعليهما مدار الرسالة: بعث بكلمتين: بعث بكلمة التوحيد، وتوحيد الكلمة عليها. والله تعالى أعلم.

(١) للشاعر عبدالرحمن العشماوي. انظر ديوانه.

(٢) مجموع الفتاوى ١٧/١.

الفصل الثاني

أثر الواسطة البدعية في عقائد أهل الأهواء

وفيه خمسة مباحث:

المبحث الأول: الوقوع في التشبيه والشرك .

المبحث الثاني: الحيرة والشك والضياع .

المبحث الثالث: الذلة والانكسار لغير الله تعالى .

المبحث الرابع: ضياع العمل لتوزعه بين الوسائط .

المبحث الخامس: انتشار الضعف بين المسلمين وانشطار

شملهم .

المبحث الأول

الوقوع في التشبيه والشرك

لما كان الخروج عن دائرة الكتاب ، والسنة ، وعدم التزام منهج السلف في العقيدة هو السمة الغالبة لأهل الأهواء ؛ فإن معارضتهم لمذهب أهل السنة والجماعة في فهم الوساطة بمفهومهم الخاطئ للوساطة ، وتشبّهم بالوسائط البدعية نجم عنده آثار سيئة ، أوقعت أهل الأهواء في وحلٍ من الاعتقادات الفاسدة ، والتصورات الخاطئة ، والممارسات الممنوعة شرعاً ، ومن ذلك وقوعهم في التشبيه ، والشرك .

فبسبب غلو أهل الأهواء في التوجه إلى الوسائط البدعية من دون الله تعالى ينجم عن ذلك توجه القلب إلى تلك الوسائط بالتذلل ، والتزلف ، والخضوع ، والخنوع ، والاستصغار ، والانكسار لغير الله تعالى ، وهكذا يصرف صاحب البدعة هذا النوع من العبادة لغير الله تعالى ، فيقع في التشبيه ، والشرك .

أما وقوعه في التشبيه فمن جهة أنه جعل الله - تعالى عن ذلك - بمثابة ملوك الدنيا الذين لا يستغنون عن الوسائط من الوزراء ، والمعينين ، فيلبون الطالبات ، ويقضون الحاجات بسببهم ، وبواسطتهم ؛ لحاجة هؤلاء الملوك إلى تلك الوسائط ، والأعوان ، وأما وقوعه في الشرك ، فمن جهة اعتقاده أن الوساطة الحي المنظور أو الميت المقبور يستطيع أن يجلب له منفعة ، أو يدفع عنه مضرة ، فتراه يتوجه إليه بالدعوات ، ويظهر الانكسار ، والتذلل له في جميع الحالات ، ويعلق به قلبه ، ويرمي بنفسه بين يديه لقضاء الحاجات ، وتحقيق الأمنيات (فكل مشرك فهو مشبه لإلهه ، ومعبوده بالله سبحانه ، وإن لم يشبهه به من كل وجه)^(١) .

يقول المقرئزي : (اعلم أن حقيقة الشرك : تشبيه الخالق بالخلق ، وتشبيه المخلوق بالخالق في خصائص الإلهية ، وهي التفرد بملك الضر ، والنفع ، والعطاء ، والمنع ، فمن علق ذلك بمخلوق فقد شبهه بالخالق تعالى ، وسوّى بين التراب ، ورب الأرباب)^(٢) .

إن أعظم مسألة خالف فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم المشركين هي مسألة

(٢) تجريد التوحيد المفيد ص ٢٧ .

(١) بلوغ الأرب ٢/ ٢١٨ .

الواسطة، فقد وجد المشركين يتعبدون الله بإشراك الصالحين في دعاء الله تعالى، وعبادته، ويرون ذلك نافعا لهم، ويعدونه من تعظيم الصالحين، رجاء وساطتهم، وشفاعتهم عند الله تعالى، كما قال الله عنهم: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ (١)، فجاء الرسول ﷺ بإخلاص العبادة لله تعالى، وخالف المشركين في إشراكهم الوسائط مع الله تعالى في دعائه، ورجائه، وهذه أعظم مسألة خالف فيها رسول الله ﷺ المشركين، وهي التي تفرق الناس من أجلها إلى مسلم موحد، وكافر مشرك (٢).

وقد كان قصي بن كلاب ينهى عن عبادة غير الله تعالى من الأصنام، وينقض ما يعتقد المشركون من الوسائط الشريكة، وهو القائل (٣):

أربأ واحدا أم ألف رب أدين إذا تقسمت الأمور؟
تركت اللات والعزى جميعاً كذلك يفعل الرجل البصير
فلا العزى أدين ولا ابتيها ولا صنمي بني غنم أزور

فطوائف أهل الأهواء التي أخطأت في فهم الوساطة، وابتدعت القول بالوسائط البدعية قد وقعت في الشرك، والعياذ بالله تعالى.

وهذه الطوائف: هي: الفلاسفة، والرافضة، والصوفية:

أما الفلاسفة: فلقولهم: إن العقول العشرة هي المدبرة للعالم، وإن الكواكب والهيكل، والروحانيات هي الوساطة بين الله تعالى، وخلق (٤).

وأما الرافضة: فتزعم أن الوسائط من أئمة أهل البيت خلقوا من نور قبل العالم، فهم محدقون بعرض الرحمن، ويزعمون أن الجزء الإلهي حل في علي رضي الله عنه والأئمة من بنيه، حتى رووا عنهم أنهم قالوا: (.. ولكن الله خلطنا بنفسه) (٥).

وفرقة السبئية من غلاة الرافضة تعتقد ألوهية علي رضي الله عنه وتزعم أنه لم يميت، وسيرجع، وإنما قتل ابن ملجم شيطانا تصور بصورته، وإنه في السحاب، والرعد صوته،

(١) سورة يونس الآية: ١٨.

(٢) انظر المسائل التي خالف فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم الجاهلية ٩٠/١، والحياة الدينية عند العرب بين الجاهلية والإسلام لمحمد حامد الناصر وأخرى ص ٤٥.

(٣) انظر الملل والنحل ٢/٢٤٨، والأصنام لابن الكلبي/ وبلوغ الأرب للألوسي ٢/٢٠٤.

(٤) راجع تعريف الفلاسفة للواسطة. (٥) أصول الكافي ١/٤٤١.

والبرق سوطه ، وعند سماع الرعد يقولون : عليك السلام يا أمير المؤمنين ، إلى غير ذلك مما سبق بيانه من الغلو الفاضح ، والشرك الواضح^(١) .

ومن أعظم صور التشبيه ، والكفر الذي تزعمه الرافضة - والعياذ بالله - ادعاؤهم أن الله - تعالى عما يقولون الظالمون علواً كبيراً - يزور قبر الحسين رضي الله عنه مع الملائكة ، والنبين ، والمؤمنين^(٢) .

ومن صور الشرك الذي يطفح به تراث الرافضة قول الحافظ البرسي - يخاطب علياً رضي الله عنه^(٣) - :

أنت الصراط المستقيم هم قسيم جنات الأرائك
والنار مفزعها إلي لك وأنت مالك أمر مالك
وقال آخر من الغلاة أيضاً^(٤) :

أبا حسن أنت عين الإله وعنوان قدرته السامية
وأنت مدير رحى الكائنات ولك أبجارها السامية
لك الأمر إن شئت تحي غدا وإن شئت تسفع بالناصية

واسمع إلى قول ابن هانئ الأندلسي^(٥) يمدح الخليفة الفاطمي المعز لدين الله^(٦) مصرحاً بالشرك والعياذ بالله^(٧) :

ما شئت لا ما شاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار
شرفت بك الآفاق وانقسمت بك الأ رزاق والأجال والأعمار

وأما غلاة الصوفية : فبدأوا بالغلو الزائد ، والإطراء المنهي عنه للنبي ﷺ فزعموا أن

(١) راجع المبحث المتقدم (نظرة الرافضة لأنتمهم ووسائطهم).

(٢) انظر دائرة المعارف للأعلمي الشيعي ١/ ١٨٩ . (٣) انظر مشارق أنوار اليقين للبرسي ص ٢٣٩ .

(٤) راجع بقية الأبيات في هذه الرسالة .

(٥) هو أبو الحسن محمد بن هانئ الأزدي المهلب الأندلسي شاعر عصره ، ولد بإشبيلية ، قال عنه الذهبي : وله ديوان كبير في مدائح تفضي به إلى الكفر ، مات سنة ٣٦٢ هـ . انظر سير أعلام النبلاء ١٦ / ١٣١ ، ونفح الطيب ٢٩٣ / ١ .

(٦) هو أبو غنيم معد بن المنصور إسماعيل بن القائم العبيدي المهدي المغربي الفاطمي المعز لدين الله ، كان عنده تشيع زائد ، مات بالقاهرة سنة ٣٦٥ هـ . انظر سير أعلام النبلاء ١٥ / ١٥٩ ، وشذرات الذهب ٣ / ٥٢ .

(٧) انظر ابن هانئ الأندلسي متنبئ المغرب لأبي القاسم كرو ص ٧٣ .

الله سبحانه وتعالى عن ذلك قبض قبضة من نوره فخلق منه ، وأنه سبق الكون في الوجود ، وأن مظاهر هذا الكون - على تنوعها - انبجست من نور النبي ﷺ وخلقت من أجله إلى غير ذلك من الغلو الزائد ، والاعتقاد الفاسد الذي مرمعنا في بيان نظرة الصوفية للرسول ﷺ .

يقول زعيم البريلوية : (إن كل مفاتيح الكون في يد رسول الله ﷺ وهو مالك الكل ، والنائب الأكبر للقادر ، وهو الذي يملك كلمة (كن) ، وهو المبرئ من السقم ، والآلام ، والكاشف عن الأمة كل خطب ، وهو المحيي ، وهو الدافع عنهم المعضلات ، والنافع للخلق ، والرافع للمراتب ، وهو الحافظ ، والناصر ، وهو الذي أبرد على الخليل النار ، وهو الذي يهب ، ويعطي) (١) .

ومن نماذج الغلو في الرسول صلى الله عليه وسلم الواقعة في الشرك - والعياذ بالله - قول البرعي (٢) :

يا سيدي يا رسول الله خذ بيدي في كل هول من الأحوال ألقاه
إن كان زارك قوم لم أر معهم فإن عبدك عاقبه خطاياها
وقول الآخر (٣) :

يا رسول الإله إني ضعيف فاشفني أنت مصدر للشفاء
يا رسول الإله إن لم تغثني فألني من ترى يكون التجائي؟

ثم انتقل الصوفية ثانيا من الغلو في الرسول ﷺ إلى الغلو في الوسائط من الأولياء ، والشيوخ الذين يعتقدون فيهم القدرة على التصرف في الكون ، وإجابة دعاء المستغيثين ، وكشف الضر عن البائسين المضطرين .

ونلاحظ اتفاق الاتباع مع المتبوعين في هذه الاعتقادات الفاسدة ، والأقوال الشركية الكاسدة ، ومن نماذج الحكايات الصوفية الصارخة بالشرك - والعياذ بالله - ما يحكى عن أحدهم أنه قال : (دعوت الله ست سنوات أن يرزقني الولد ، فلم أرزق ، وذهبت إلى

(١) الاستمداد على أجياد الارتداد للبريلوي ص ٢٩ ، نقلاً عن البريلوية لإحسان إلهي ظهير ص ٦٨ ، وانظر محبة الرسول صلى الله عليه وسلم بين الاتباع والابتداع ص ٢٠٤ .

(٢) انظر ديوانه ص ١٤ .

(٣) هذان البيتان لشمس الدين التنوحي المصري . انظر شواهد الحق ص ٣٥٢ .

شيخى مصطفى النقشبندى فى أربيل، فما أن استغثت به، وطلبت منه الولد حتى رزقت بطفلين توأمين!!^(١). ونقل الألوسى عن بعضهم أنه كان يقول: (الولى أسرع إجابة من الله عز وجل!!)^(٢)، وهل بعد هذا شرك، أو كفر؟.

وذكر الشعرانى أن سيدي محممة الحنفى فرش سجادته على البحر، وقال لم يريده: قل يا حنفى، وامش، فمشى المريد خلفه، ثم خطر للمريد لم يقول: يا حنفى، هلا قال: يا الله؟ فلما قالها غرق فأمسك الشيخ بيده، وقال له - معاتباً: أنت الحنفى تعرفه، فكيف بالله؟ فإذا عرفت الله، فقل: يا الله!!!^(٣).

وحكى الشيخ الميلى أن أحد هؤلاء الوسائط المعروفين بالولاية عند أتباعه كان مرة مع مريديه فى سفينة، فهاج بهم البحر، وعلت أمواجه، فلجأوا جميعاً إلى الله يسألونه الفرج، والسلامة، وكان الشيخ - الواسطة - منفرداً كالعادة فى غرفة يدعو، فلم تنفرج الأزمنة، فوقع فى رُوعه أنه أتى من قبل أتباعه فخرج عليهم مغضباً، وهو يقول: ماذا صنعتم فى هذه الشدة؟ فقالوا: دعونا الله مخلصين له الدين بلسان المضطرين، فأنكر عليهم اللجوء إلى الله مباشرة، ووبخهم على فعلهم، وعرفهم أن ذلك هو الحائل دون استجابة دعائه، وأنذرهم عاقبة استمدادهم فى التوجه إلى ربهم، وأنه الغرق، وعلمهم أن واجبهم هو التوجه إليه هو، وسؤاله؛ لأنه واسطتهم، ثم هو وحده يتوجه رلى الله تعالى، فتابوا من دعاء الله عز وجل، وتوجهوا إلى الشيخ الواسطة بالدعاء، وعاد الشيخ إلى غرفته يدعو - متوسطاً بين الله، ومريديه - فانكشفت الغمة وسلمت السفينة، وحمد الشيخ ثقته بنفسه، وتأكد عند مريديه صحة وساطته فى الرخاء، والشدة!!!^(٤).

وقال أحد الوسائط: (يا رياح اسكنى عليهم بقدرتى)^(٥).

وقال أحد كبرائهم يخاطب أتباعه فى مرض موته: (من كانت له حاجة فليأت إلي قبري، ويطلب حاجته أقضها له؛ فإن ما بيني وبينكم غير ذراع من تراب، وكل رجل يحجبه عن أصحابه ذراع من تراب فليس برجل)^(٦).

وقال شيخ التجانية لأتباعه: (ليس لأحد من الرجال أن يُدخل كافة أصحابه الجنة بغير

(١) دعة على التوحيد ص ٦٣.

(٢) تفسير الألوسى ١١/٢٤.

(٣) انظر شواهد الحق ص ٤٤٧.

(٤) انظر رسالة الشرك للميلى ص ١٩٦.

(٥) جواهر المعاني ٨٠/٢.

(٦) الطبقات الكبرى للشعرانى ٩٦/٢.

حساب، ولا عقاب، ولو عملوا من الذنوب ما عملوا، ولو بلغوا من المعاصي ما بلغوا إلا أنا وحدي^(١).

وذكروا أن الشيخ رزوق كان يقول لمريديه^(٢):

أنا لمريدي جامع لثباته إذا ما سطا جَوْرُ الزمان بِنَكْبَةٍ
وإن كنتَ في ضيقٍ وكربٍ ووَخْشَةٍ فنادِ بِيا زُرُوقُ آتِ بِسرعةٍ

وقتل الشعبراني في طبقاته عن الشاذلي أنه قال: (رأيت رسول الله ﷺ في المنام فقال لي: إذا كانت لك حاجة، وأردت قضاءها، فانذر لنفسية الطاهرة فلساً؛ فإن حاجتك تقضى)^(٣). وحتى في حالة الخوف الشديد من العدو يقول قائلهم^(٤):

يا ختفين من التمر لوذوا بقبر أبي عمر

ويقول الدباغ: (إن المريد لا يأتي بشيء، حتى لا يكون في قلبه غير الشيخ! والله! والرسول!)^(٥).

وانظر إلى هذه المحبة الثلاثية، ولاحظ تقديم الشيخ الواسطة في الذكر على رب العزة، والجلال، وعلى نبيه المصطفى ﷺ !!!

وهكذا انتشر - بسبب الاعتقاد في الوسائط البدعية - الشرك في أوساط الناس، وخصوصاً العوام منهم، حتى أصبح مألوفاً أن تسمع في نواح كثيرة من العالم الإسلامي من يخاطب المقبورين قائلاً: (مدد يا سيدي فلان، نظرة إلينا بعين الرضا، راعني، أنا محسوبك، ويقول: ملعون ابن ملعون من كان في شدة، أو في ضيق، ولم يقل: يا ست، أو يا سيدي، وهذا هو عين الشرك الأكبر)^(٦) إلى غير ذلك من الأقوال الشركية، والدعوات البدعية إلى التعلق بالوسائط، والانقطاع بهم عن الله تعالى - كما بيناه مستوفى في صورة الواسطة البدعية عندهم في الأحياء، وصورة الواسطة البدعية عندهم في الأموات.

(١) جواهر المعاني ١٧٦٢.

(٢) انظر روض الرياحين لعبد السميح الديوبندي ص ٢٠٦، نقلاً عن جهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبورية

(٣) الطبقات الكبرى ٢/ ٧٤.

(٤) انظر تلخيص كتاب الاستغاثة ٢/ ٧٣٢. (٥) الإبريز ص ٣١.

(٦) السنن والمبتدعات ص ١٦، وانظر الرسائل السلفية للشركاني ص ١٧٢، والرسالة الخالدة ص ٢٤، والديانات والعقائد في مختلف العصور لأحمد عبدالغفور عطار ١/ ٧٤.



وانتشر شرك التقريب بهذه الوسائط المزعومة ، وضرب الشرك الأكبر بجراحه^(١) على السواد الأعظم من المسلمين ، حتى إن الباحث في العقيدة في هذه الحقبة يخيّل إليه أن عقيدة التوحيد قد قضى عليها تماماً^(٢) .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : (فكل من غلا في حي ، أوف ي رجل صالح ، كمثّل علي رضي الله عنه أو عُدّي^(٣) . . أو نحوه ، أو في من يعتقد فيه الصلاح كالحلاج . . . وجعل فيه نوعاً من الإلهية ، مثل أن يقول : كل رزق لا يرزقنيه الشيخ فلان ما أريده ، أو يقول إذا ذبح شاة : باسم سيدي أو يعبد بالسجود له ، أو لغيره ، أو يدعوه من دون الله تعالى : مثل أن يقول : يا سيدي فلان اغفر لي ، أو ارحمني ، أو انصرنني ، أو ارزقني ، أو أغثنني ، أو أجرنني ، أو توكلت عليك ، أو أنت حسبي ، أو أنا في حسبك ، أو نح ، هذه الأقوال ، والأفعال التي هي من خصائص الربوبية التي لا تصلح إلا لله تعالى ، فكل هذا شرك ، وضلال ، يستتاب صاحبه ؛ فإن تاب ، وإلا قتل ، فإن الله إنما أرسل الرسل ، وأنزل الكتب لنعبد الله وحده ، لا شريك له ، ولا نجعل مع الله إلهاً آخر)^(٤) .

ونجد أنواعاً كثيرة من صور الشرك يذكرها بعض العلماء هي نتيجة حتمية ، وأثر سيء للاعتقاد في الوسطة البدعية ، يقول العلامة ابن القيم : (ومن أنواع الشرك سجود المريد للشيخ ، فإنه شرك من الساجد ، والمسجود له . . . ومن أنواعه ركوع المتعممين بعضهم لبعض عند الملاقاة . . . ومن أنواعه خلق الرأس للشيخ ؛ فإنه تعبد لغير الله . . . ومن أنواعه التوبة للشيخ ؛ فإنه شرك عظيم ؛ فإن التوبة لا تكون إلا لله . . . ومن أنواعه طلب الخوائج من الموتى ، والاستغاثة بهم ، والتوجه إليهم ، وهذا أصل شرك العالم)^(٥) .

فاتخاذ الوسطة البدعية شرك بالله تعالى ؛ لأن التابع يسأل الوسطة نفسه ، ويطلب منه ويرجوه ، ومتخذ الشفيع ، والواسطة على هذا الوجه مشرك لا تنفعه شفاعته ، ولا

(١) الجران - في الأصل - مقدم عنق البعير ، فإذا برك من عنقه على الأرض . انظر المصباح المنير ٩٧ / ١ مادة الجرن .

(٢) انظر الانحدافات العقدية والعلمية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين لعلبي بخيت الزهراني ٢٧١ / ١ .

(٣) هو أبو محمد عُدّي بن مسافر بن إسماعيل بن موسى الشامي ثم الهكاري ، كان معلماً للخير ناصحاً منشعاً ، قال عنه الذهبي : الشيخ الإمام الصالح القدون زاهد وقته ، توفي سنة ٥٥٥ هـ ، انظر سير أعلام النبلاء ٣٤٢ / ٢٠ ، وجامع كرامات الأولياء ١٤٧ / ٢ .

(٤) مجموع الفتاوى ٣ / ٣٩٥ . (٥) مدارج السالكين ١ / ٣٤٤ .

وساطته^(١).

وفي هذا التوجيه بالدعاء إلى الواسطة تشبيهه للمخلوق بالخالق: (لأن الدعاء من خصائص الإلهية فمن صرفه لغير الله تعالى فقد أعطى خصيصة من أهم خصائص الإلهية لغير الله تعالى، فيكون قد شبه الغير بمن لا شبه له)^(٢).
يقول الشيخ حافظ الحكمي^(٣) رحمه الله^(٤):

وإن دعا المقبور نفسه فقد أشرك بالله العظيم وجحد
لن يقبل الله تعالى منه صرفاً ولا عدلاً فيعفو عنه
إذ كل ذنب موشك الغفران إلا اتخاذ الند للرحمن

وقد بين العلامة ابن القيم الترج الذي يسلكه الشيطان مع عباد القبور، والمتعلقين بالواسطة المقبور، حتى يوقعهم في مستنقع الشرك - والعياذ بالله - فقال: (والمقصود أن الشيطان بلطف كيده - يحسن الدعاء عند القبر، وأنه أرجح منه في بيته، ومسجده، وأوقات الأسحار، فإذا تقرر ذلك عنده نقله درجة أخرى من الدعاء عنده إلى الدعاء به، والإقسام على الله به، وهذا أعظم من الذي قبله، فإن شأن الله أعظم من أن يقسم عليه أو يسأل بأحد من خلقه... . فإذا قرر الشيطان عنده أن الإقسام على الله به، والدعاء به أبلغ في تعظيمه واحترامه، وأنجح في قضاء حاجته نقله درجته أخرى إلى دعائه نفسه من دون الله، ثم ينقله بعد ذلك درجة إلى أن يتخذ قبره وثناً يعكف عليه، ويوقد عليه القنديل، ويعلق عليه الستور، ويبني عليه المسجد، ويعبده بالسجود له، والطواف به، وتقبيله، واستلامه، والحج إليه، والذبح عنده، ثم ينقله درجة أخرى إلى دعاء الناس إلى عبادته، واتخاذة عيداً، ومنسكاً، وأن ذلك أنفع لهم في دنياهم وآخرتهم)^(٥).

(١) انظر تلخيص كتاب الاستغاثة ١/١٤٦، وإغاثة اللهفان ١/٢٢١، ومعارج القبول للحكمي ٢/٦٧٧، وفتح المجيد ص ٢٢٢، وأصول الدين عند أي حنيفة للدكتور محمد بن عبدالرحمن الحميس ص ٢٥٦.

(٢) الدعاء ومزله من العقيدة الإسلامية ١/٤٣٤.

(٣) هو: الشيخ العلامة حافظ بن أحمد بن علي الحكمي، ولد بقرية السلام بجنوب جازان سنة ١٣٤٢، وطلب العلم على يدي الشيخ عبدالله القرعاري، وكان مبرزاً في كبر من الفنون، أديباً يقول الشعر، توفي سنة ١٣٧٧ هـ. بمكة المكرمة، انظر ترجمته بقلم ابنه د/ أحمد بن حافظ الحكمي في مقدمة تحقيق أعلام النسة المنشورة ص ١٥.
(٤) انظر معارج القبول ٢/٦٥٦.

(٥) إغاثة اللهفان ١/٢٢١، وانظر تلخيص كتاب الاستغاثة ١/١٤٦، ومعارج القبول للحكمي ٢/٦٧٧.

وإذا لم يكن هذا الذي يعتقده غلاة الصوفية في الوسائط من الشيوخ شركاً فماذا نسميه إذن؟ (إنهم يتخذون الشيوخ آلهة، يعتقدون أنهم يتفعون، ويضرون، وأن بيدهم النجاة... كما رأينا من أقوال عارفيهم، وأقطابهم، وعلمائهم البراهين الكافية الوافية على أنهم يتخذون الشيخ إلهاً من دون الله، أو شريكاً معه، يسبغون عليه كل صفات الألوهية)^(١).

يقول الأستاذ عبدالرحمن الوكيل: (فالصوفية يعتقدون أن أولياءهم ليسوا بشراً، وإنما هم آلهة تخلق ما تشاء، وتختار، أو هم - كما نقلنا لك من قبل - ذات الله سبحانه وتعالى تجسدت مرة فكانت تجانية، وأخرى فكانت نقشبندية، وأخرى فكانت رفاعية، وأخرى فكانت برهانية)^(٢).

وننتيجة للواسطة البدعية فإن أهل الأهواء يقعون في شرك يفوق شرك أهل الجاهلية الأولى؛ ذلك أنهم يقعون في الشرك في حالي الرخاء، والشدة، أما الأقدمون فإنما كان شركهم في حال الرخاء، فإذا أصابتهم شدة إذا هم يخلصون. قال الله تعالى عنهم: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾^(٣)، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوَاجٌ كَازِلَةٌ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾^(٤).

يقول الشيخ محمد الأمين الشنقيطي: (إن الله ذم الكفار، وعابهم بأنهم في وقت الشدائد والأحوال خاصة يخلصون العبادة له وحده، ولا يصرفون شيئاً من حقه لمخلوق، وفي وقت الأمن، والعافية يشركون به غيره في حقوقه الواجبة له وحده التي هي عبادته وحده في جميع أنواع العبادة، ويعلم من ذلك أن بعض جهلة المتسمين باسم الإسلام أسوأ حالاً من عبدة الأوثان؛ فإنهم إذا دهمتهم الشدائد، وغشيتهم الأحوال، والكروب التجأوا إلى غير الله ممن يعتقدون فيه الصلاح في الوقت الذي يخلص في الكفار العبادة لله مع أن الله الله جل وعلا أوضح في غير موضع أن إجابة المضطر، وإنجائه من الكروب من حقوقه التي لا يشاركه فيها غيره)^(٥).

(١) الكشف عن حقيقة الصوفية ص ٦٠٣.

(٢) هذه هي الصوفية ص ١٠٢، وانظر تقديس الأشخاص في الفكر الصوفي ١/ ١٧٩.

(٣) سورة العنكبوت، الآية: ٦٥. (٤) سورة لقمان، الآية: ٣٢.

(٥) أضواء البيان ٣/ ٤٤٧، وانظر تفسير ابن كثير ٣/ ٥٤، وتفسير الألوسي ٢٣/ ٢٤٤، وتفسير السعدي ٦/ ٣،

ورسالة الشرك للميلي ص ١٩٦.

ولا ريب أن التوحيد، والشرك لا يجتمعان في قلب واحد أبداً، فالمرء إما أن يكون موحداً لله تعالى معلقاً به قلبه، لا ينظر إلى واسطة بدعية، ولا يلتفت إلى وسيلة وهمية، قلبه خالص، مصفى لله تعالى، وأما إن شابه تعلق بالوسائط البدعية، فقد انتقض إخلاصه، ووقع في الشرك؛ لأن (كل شيء يتصور أن يشوبه غيره، فإذا صفا عما يشوبه، وخلص منه كان خالصاً، ويسمى الفعل المخلص المصفى إخلاصاً . . . والإخلاص يضاد الإشراف، فمن ليس مخلصاً فهو مشرك)^(١).

والحقيقة المرة أن الشرك قد انتشر بسبب الاعتقاد في الواسطة البدعية، وعمت به البلوى، وأصبح في كل بلد - إلا ما رحم ربي - مقبور يتوجه إليه الناس بالدعاء، والرجاء، وصنوف القربات، والعبادات^(٢).

يقول أحد الدعاة متبرماً من هذا الواقع المر: (اعلم أن الشرك قد شاع في الناس في هذا الزمان، وانتشر، وأصبح التوحيد الخالص غريباً، ولكن معظم الناس لا يعرفون معنى الشرك، ويدعون الإيمان، مع أنهم قد تورطوا في الشرك وتلوثوا به)^(٣).

واعلم أن الشرك الذي وقع فيه أهل الأهواء والبدع، بسبب الاعتقاد الفاسد في الوسائط الوهمية نوعان:

أ - شرك الأسباب : وهو اعتقاد النفع، والضرر في الأسباب العادية، وهذا الشرك وقع فيه الفلاسفة، والطبائعيون ومن شاكلهم، فمن قال: إن الأسباب العادية تؤثر بنفسها، فقد حكى الإجماع على كفره، ومن قال: إنها تؤثر بقوة أودعها الله فيها فهو فاسق.

ب - وشرك التقريب: وهو عبادة غير الله للتقرب إلى الله، وهذا الشرك وقع فيه غلاة الرافضة، والصوفية، وحكمه الكفر بإجماع^(٤).

(١) تصفية القلوب للإمام يحيى بن حمزة اليماني ص ٣٤٣.

(٢) انظر الدين الخالص لصديق حسن خان ١/ ١٩١، وقرة عيون الموحدين للشيخ عبدالرحمن بن حسن آل الشيخ ص ١٠٦، والقول الجلي في حكم التوسل بالنبي والولي ص ٣٢، والسيد صديق حسن خان القنوجي وأراؤه الاعتقادية للدكتور اختر لقمان ص ٢٣٦، ودعوة على التوحيد ص ٥٩.

(٣) رسالة التوحيد للندوي نقلاً عن بيان الشرك ووسائله عند الحنفية للدكتور محمد الخميس ص ٣٩.

(٤) انظر الكليات للكفوي ٣/ ٧١، ومجالس الأبرار لأحمد الرومي ص ١٥٠، نقلاً عن بيان الشرك ووسائله عند الحنفية ص ١٧، ورسالة الشرك ومظاهره للميلي ص ٦٦.



(اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك ، وأنا أعلم ، وأستغفرك لما لا أعلم) .
وبعد أن رأينا كيف لبس إبليس اللعين على أهل الأهواء في فهم الواسطة حتى أوقعهم
في وحلٍ من الشرك ، لا يسعنا إلا نتمثل قول الشاعر^(١) :
إذا عدّد الناس أربابهم فنحن لنا ربنا الواحد

(١) هذا البيت للشاعر عبدالرحمن العشماوي ، انظر ديوانه .



المبحث الثاني

الحيرة والشك والضياع

من آثار مهج أهل الأهواء في تقريرهم للواسطة الوقوع في الحيرة، والشك، والضياع، وهذا الأثر نتيجة حتمية لكل من أعرض عن الوحيين في إثبات المسائل الاعتقادية، وخصوصاً فيما يتعلق بالواسطة، من وجهين:

أولهما: أنه في حكم التارك لكلام الله وراءه ظهرياً، والمعرض عن ذكر ربه سويّاً: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾^(١)؛ لأنه صرح بالنهي عن التعلق بالوسائط البدعية في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾^(٢) وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾^(٣)، ثم هو في حكم المطرَح لسنة المصطفى صلى الله عليه وسلم وهي القسم الثاني من الوحي: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيِي يُوحَى﴾^(٤).

وثانيهما: أنه تعلق بفقر ليغتيه، وأمسك بحبل مقطوع ليوصله. فبسبب إعراضه عن الوحيين، وتعلقه بوسائط الوهم، والمين^(٥) يعاقبه الله تعالى بالحيرة، والشك، والضياع، فتجتاله الشياطين كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِيضٌ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾^(٦).

فمنهج أهل السنة القائم على التقيد بالكتاب والسنة ينفي كل شبهة، وغرض^(٧) حول مفهوم الواسطة، واقتصارهم على الثابت من الواسطة في القرآن، والسنة، وتفريقهم بين ما هو حق للخالق جل وعلا وما هو حق للمخلوق أورتهم الطمأنينة، والثبات في العقيدة؛ بينما نجد أن طريقة أهل الأهواء في إثبات الواسطة كانت فاسدة بسبب خروجهم عن دائرة الكتاب والسنة في فهم الواسطة مما أورتهم الحيرة التي تحمل في طياتها كثيراً من

(١) سورة فصلت، الآية: ٤٢. (٢) سورة يونس، الآيتان (١٠٦ - ١٠٧).

(٣) سورة النجم، الآية: ٤.

(٤) المين: الكذب، وجمعه: مَيُون. انظر مختار الصحاح ص ٦٤١، مادة (م ي ن).

(٥) سورة الزخرف، الآية: ٣٦.

(٦) الغيث، فتحتين «ظلمة الليل، والمراد بن الشوائب، والمكدرات. انظر مختار الصحاح ص ٤٦٨، مادة (غ ب ش).

الشبهات، كما أورثتهم القلق، والشك في أمر هذه الوسائط البدعية: هل هي نافعتهم حقًا، أم أن الأمر بيد الله الذي يؤمنون بأنه هو الخالق لتلك الوسائط التي يشتونها؟ ونتيجة لهذه الحيرة، والشك، والقلق ورثوا التمزق النفسي، والضيق في نهاية الأمر.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَدْعُوْا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانٌ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُوْنَهُ إِلَى الْهُدَىٰ ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَىٰ اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَأْمُرْنَا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١).

قال الإمام ابن كثير: (هذا مثل من أجاب الآلة التي تعبد من دون الله عز وجل) (٢).

وقال الشيخ السعدي: (وهذا حال الناس كلهم إلا من عصمه الله تعالى فإنهم يجدون فيهم جواذب، ودواعي متعارضة، ودواعي الرسالة والعقل الصحيح، والفتنة المستقيمة: ﴿يَدْعُوْنَهُ إِلَى الْهُدَىٰ﴾، والصعود إلى أعلى عليين، ودواعي الشيطان، ومن سلك مسلكه، والنفس الأمارة بالسوء يدعونه إلى الضلال، والنزول إلى أسفل سافلين، فمن الناس من يكون مع دواعي الهدى في أموره كلها، أو أغلبها، ومنهم من بالعكس من ذلك، ومنهم من يتساوى لديه الداعيات، ويتعارض عندهم الجاذبان، وفي هذا الموضع تعرف أهل السعادة من أهل الشقاوة) (٣).

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (٣٦) وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّوهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ (٣٧) حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدُ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾ (٤).

يقول الشيخ السعدي في تفسير هذه الآيات: (فهذه حالة المعرض عن ذكر الله في الدنيا مع قرينه، وهو الضلال، والغى، وانقلاب الحقائق، وأما حاله إذا جاء ربه في الآخرة فهو شر الأحوال، وهو الندم، والتحسر، والحزن الذي لا يجبر مصابه، والتبري من قرينه) (٥).

وقال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (١٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كُنَّا نَسْتَنبِغُ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَلِكَ يَرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ

(٢) تفسير ابن كثير ١٥٠ / ٢.

(٤) سورة الزخرف، الآيات (٣٦ - ٣٧ - ٣٨).

(١) سورة الأنعام، الآية: ٧١.

(٣) تفسير السعدي ١٩٦ / ٢.

(٥) تفسير السعدي ١٢١ / ٧.

عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ»^(١). وقال الشيخ السعدي - عند تفسير قول الله تعالى : «وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ»^(٢) - قال : (فلذلك أشركوا به غيره، ورضوا بتناقض ما ذهبوا إليه على وجه الحيرة، والشك، لا على وجه البصيرة)^(٣).

ولا يوقع في الحيرة، والتمزق النفسي، والضياع أعظم من التجاء الإنسان إلى ضعيف ليس بيده النفع فينفعه، ولا بيده الضر فيضره؛ بل إن ضرره أقرب إلى الإنسان من النفع، فيدور المبتدع مع هذه الوساطة البدعية في حلقة مفرغة، نهايتها تبدد الآمال، وتلاشي الأمنيات، قال الله عز وجل : «يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا نَفْعَ لَهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ»^(٤) يَدْعُو لِمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَيْسَ الْمَوْلَى وَلَيْسَ الْعَشِيرُ»^(٥)، وأما أحسن قول الشاعر^(٥):

ومُثَّت العزمات ينفق عُمره حيران لا ظَفَرٌ ولا إخفاق

فليس فوق إخفاق المشرك إخفاق، ولا مثل ضياع عمله ضياع. قال تعالى : «وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ»^(٥) وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ»^(٦).

يستفاد من هذه الآية أن دعاء الوساطة البدعية تترتب عليه أمور خمسة:

- ١ - أنه لا أضل ممن يدعو غير الله تعالى .
- ٢ - أن هذا المدعو - الوساطة - غافل عن دعاء الداعي غير عالم به .
- ٣ - أن هذا التوسيط سبب لبغض المدعو للداعي، وعداوته له .
- ٤ - أن تلك الدعوة عبادة للوساطة ، وإن لم تكن مقصودة .
- ٥ - كفر الوساطة بتلك العبادة .

فهذه الأمور الخمسة هي السبب في ضلال، وضياع من يدعو الوساطة البدعية من دون الله تعالى^(٧).

(١) سورة البقرة، الآيات (١٦٦ - ١٦٧).
 (٢) سورة لقمان، الآية: ٢٥.
 (٣) تفسير السعدي ٨٢/٦.
 (٤) سورة الحج، الآيات (١٢ - ١٣).
 (٥) انظر الفوائد ص ٥٥.
 (٦) سورة الأحقاف، الآيات (٥ - ٦).
 (٧) انظر حاشية كتاب التوحيد للشيخ عبدالرحمن قاسم النجدي ص ١١٥.

ومما يدل على الحيرة ، والاضطراب ، والتمزق النفسي ، والصراع الداخلي الذي يعيشه جهلة المسلمين الذي انخدعوا بزهد الصوفية ، وانخرطوا في نظام الزوايا الطرقية أنك تجد الواحد منهم يجمع بين المتناقضات ، ويؤلف بين المتضادات ، فتسمعه يشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقرأ : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾^(١) ، ويقرأ : ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾^(٢) ، وإذا قيل له : إن فلاناً من الناس وقع في الشرك ، يتغير لونه ، ويحتد صوته ، فيوحده ربه ، ويخلص دينه ، ثم تراه يدخل الزاوية ، فيكسر قلبه لشيخها إن كان حياً ، ويتذلل له ، وينحني أمامه طلباً من الشيخ أن يباركه ، ورجاء لكل خير أن يدركه ، وإن كان الشيخ مقبوراً تحت الثرى ، فالأمر أدهى مما ترى ، (فتجتمع في ذات واحدة دواعي الضعف ، والقوة ، وتظهر على نفس واحدة أعراض التفرق والوحدة ، ويجري من لسان واحد أجاج الجهل ، وعذب الحكمة ، ثم تجد الناحية الفاسدة من يتعاهدها بالفساد ، حتى تطفئ ، وتفقد الجهة الصالحة من يغذيها فتفنى)^(٣) .

فانظر إلى مجتمع تكون فيه هذه الفوضى العقدية ، وتنتشر فيه تلك المظاهر الشركية كيف يكون وصفه ؟ فضلاً عما يحصل من المتبوعين لأولئك الأتباع من المصادمات ، وما يستلزمه واقعهم من الحيرة ، والتمزق ، والضياع ، وحسبك أن تدير رأسك ناحية بلاد المسلمين التي ابتلي أهلها بالخضوع لهذه الوسائط البدعية ، وهي كثيرة لتعرف الأثر السيئ ، والصراع النفسي ، والحيرة ، والضياع الذي يعيشونه نتيجة الاعتقاد في الوسطة البدعية^(٤) .

(والمقصود أن الدعاوى كثيرة عندهم في هذا الباب ، ولا ريب أن من أعد نفسه للاعتقاد ، والإيمان بكل ما ينشر في هذا الفكر فسوف يجد نفسه محاطاً بعدد كبير من الأرباب ، والآلهة كل يدعو إلى نفسه ، وفي ذلك من أسباب الحيرة ، والدهشة ، والشقاوة ما لا يزول إلا بالعودة الصادقة إلى كتاب الله ، وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم والتمسك بهما عقيدة راسخة وعملاً بالصالحات ، وسلوكاً إلى طريق الخيرات ، وبذلك فقط ينزاح الشك ، وينجلي الريب ، وتنحسر الحيرة ، والمرية ، وتضمحل الدهشة ، والشقاوة)^(٥) .

(١) سورة الفاتحة ، الآية : ٥ .

(٢) سورة الجن ، الآية : ١٨ .

(٣) رسالة الشرك للمبلي ص ٥٣ .

(٤) انظر الغلو في الدين للدكتور علي الشبل ص ١١٥ .

(٥) تقديس الأشخاص في الفكر الصوفي ١ / ١٨٢ .



واعلم أن الشك، والضياع، والخيرة يشترك فيها أهل الأهواء من الرافضة، والصوفية مع أهل الكلام بسبب بعدهم عن الوحي، وخروجهم عن منهاج السلف في العقيدة يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (وتجد عامة هؤلاء الخارجين عن منهاج السلف من المتكلمين، والمتصوفة يعترفون بذلك، إما عند الموت، وإما قبل الموت، والحكايات في هذا كثيرة مشهورة)^(١).

وقد وصف الإمام الطحاوي - رحمه الله -^(٢) المتكلم الذي قدم العقل على الوحي - ويدخل في حكمه من خرج عن منهج الكتاب والسنة في فهم الواسطة - وصفه بقوله: (فيتذبذب بين الكفر، والإيمان، والتصديق، والتكذيب، والإقرار، والإنكار، مُوسَّساً، تائهاً، شاكاً، لا مؤمناً مصداقاً، ولا جاحداً مكذباً)^(٣). وهذه هي الخيرة الضارة؛ لأنه لا خيرة مثل الخيرة في الدين^(٤).

فالخيرة هي نهاية مطاف المتكلمين، وغلاة الصوفية؛ لأن غاية المتكلمين الشك، وغاية الصوفية الشطح^(٥)، وقد قال شاعرهم^(٦):

قد تحيرتُ فيكَ خذ بيد يا دليلاً لمن تحير فيه

ولبيان خيرة المتكلمين، وحكم أساطينهم على أنفسهم بالشك في نهاية أمرهم أورد أمثلة على ذلك ليتضح اشتراكهم مع أهل الأهواء المتعلقين بالواسطة البدعية في الخيرة. يقول أحدهم: (أستلقي على قفائي، وأضع الملحفة على نصف وجهي، ثم أذكر المقالات، وحجج هؤلاء، وهؤلاء، واعتراض هؤلاء، وهؤلاء، حتى يطلع الفجر، ولم يترجح عندي شيء)^(٧).

وقال العلامة ابن القيم: (وقال آخر - وقد نزلت به نازلة من سلطانه فاستغاث برب الفلاسفة فلم يغث - قال: ثم استغثت برب الجهمية فلم يغني، ثم استغثت برب القدرية

(١) مجموع الفتاوى ٧٢/٤.

(٢) هو أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة بن سلمة بن عبد الملك الأزدي المصري الطحاوي الحنفي، الإمام العلامة، الحافظ، محدث الديار المصرية، ولد سنة ٢٣٩هـ، قال عنه الذهبي: كان ثقة، ثبتاً، فقيهاً، عاقلاً، لم يخلف مثله، توفي سنة ٣٢١هـ. انظر وفيات الأعيان ٧١/١، وسير أعلام النبلاء ٢٧/١٥، وشذرات الذهب ٢٨٨/٢.

(٣) شرح العقيدة الطحاوية ص ٢٠٩. (٤) انظر تفسير الفخر الرازي.

(٥) انظر درء تعارض العقل والنقل ٦٦/٨. (٦) نقله شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ٣٨٣/١١.

(٧) انظر مجموع الفتاوى ٢٠٩/٤، وشرح العقيدة الطحاوية ص ٢٠٩.

فلم يغثني ، ثم استغثت برب المعتزلة فلم يغثني ، قال : فاستغثت برب العامة فأغاثني^(١) .
وهذا أبو الفتح الشهرستاني من كبار متكلمي الأشاعرة يقول^(٢) :

لقد طفت المعاهد كلها وسيرت طرفي بين تلك المعالم
فلم أر إلا واضعاً كفو حائر على ذقن أو قارعاً سن لادم
وهذا أبو عبدالله الفخر الرازي ينشد قائلاً^(٣) :

نهاية إقدام العقول عقال وأكثر سعي العالمين ضلال
وأرواحنا في وحشة من جسمنا وحاصل دنيانا أذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمعنا فيه قيل وقال

ثم قال : (لقد تأملت الطرق الكلامية ، والمناهج الفلسفية ، فما رأيتها تشفي عليلًا ، ولا تروي غليلًا ، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن . . . ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي)^(٤) .

والمقصود أن الحيارى من أهل الأهواء والبدع طلبوا من الوسائط أني يهدوهم لشعائر الطريق ، ويصلوا بهم إلى بر الطمأنينة ، والأمان ، فانحرفوا بهم عن جادة القصد ليزدادوا حيرة ، وضياعًا ، والتمسوا لديهم الحقيقة الضائعة ، فزادت الحقيقة على أيديهم بعدًا ، وضياعًا ، واتخذوهم وسيلة لتصحيح العقيدة ، والشرعية فهدموا العقيدة ، والشرعية في قلوب المريدين^(٥) . نعوذ بالله من الشك ، والضياع ، والحيرة ، والخور بعد الكور .

(١) الصواعق المنزلة ١ / ٧١ .

(٢) انظر نهاية الإقدام في علم الكلام للشهرستاني ص ٤ .

(٣) انظر مجموع الفتاوى ٤ / ٧٢ ، وشرح العقيدة الطحاوية ص ٢٠٨ .

(٤) درء تعارض العقل والنقل ١ / ١٦٠ ، وانظر شرح العقيدة الطحاوية ص ٢٠٩ .

(٥) انظر نظرية الاتصال عند الصوفية ص ٢٨٩ ، والبرهان الساطع في تبرؤ المتبوع من التابع ص ١٦ .



المبحث الثالث

الذلة والانكسار لغير الله تعالى

من آثار الواسطة البدعية الذلة، والانكسار لهذه الواسطة، وذلك نتيجة لتعلق المريد بشيخه في الاستمداد منه، والاعتماد عليه.

يقول الأستاذ علي الرحمن الوكيل: (ما ألحقت الصوفية في شيء إلحافها في الدعوة إلى اتخاذ شيوخها أرباباً من دون الله، وفرضت على الدرويش أن يكون وطاء ذليلاً لشيخه، مستعبد الفكر، سليب الإرادة كجثة الميت في يد الغاسل، وجعلت هذه العبودية الممتحنة أولى الدلائل على طاعة المريد لشيخه، وعلى حبه له، وعلى أنه يرقى معارج الوصول إلى حظائر القدس وتحتم الصوفية على المريد أن لا يعصي شيخه في أمر، أو نهى، وإن رآه يخالف السنة المحمدية، ولكي يظل الدرويش تحت قبضة الشيخ يستذل كামته ويغصبه ماله، وعرضه، قررت الصوفية على لسان الشعرائي - أن من أشرك بشيخه شيخاً آخر وقع في الشرك بالله، وأن من أخذ الطريقة على غير شيخه كان على غير دين، وكتب الصوفية طافحة بمثل تلك المنكرات التي تهدر الكرامة، والقيم الإنسانية النبيلة، وتجعل من الإنسان لقي^(١) طريح الذل، والهوان، والصغار، موطئاً، مستعبدًا لكل نعل نجسة، باغية الوطء . . . وهذا سر ما ترى عليه الصوفية من انشطارها شطرين: شطر معبود، وآخر عابد^(٢)).

وقد قررت الصوفية على لسان النبهاني، وغيره في صفة زيارة الأنبياء، والأولياء، والعلماء، والصلحاء، وكل من يتبرك بهم على زعمهم أن الزائر يأتي إليهم، ويتعين عليه قصد الأنبياء من الأماكن البعيدة، (فإذا جاء إليهم فليتصف بالذل، والانكسار، والمسكنة، والفقر، والحاجة، والاضطرار، والخضوع، ويحضر قلبه، وخاطره إليهم، وإلى مشاهدتهم بعين قلبه لا بعين بصره^(٣)).

ومن آداب المريد مع شيخه - حسب قواعد الصوفية - : أن المريد يجب عليه أن لا يدخل على الشيخ الواسطة من غير إذن، ولا يقعد بين يديه رلاً على طهارة، ظاهراً

(١) اللقي: الشيء الملقى المطروح على الأرض. انظر المصباح المنير ٥٥٨/٢ مادة «لقيته».

(٢) شواهد الحق، ص ٨٧.

(٣) هذه هي الصوفية ص ٩٩.

وباطناً، مسلماً، مستسلماً، متذللاً، كجلوس العبد بين يدي سيده، وإن رأى شيخه يخالف الشريعة فلا يعترض عليه، ولو في خاطره^(١).

فالتأليف، والمحبة بين المريد، والشيخ هي الوسطة، وعلى قدر هذه الوسطة يكون سراية الحال من الشيخ إلى المريد^(٢).

وهذا من القواعد العامة التي وضعها الصوفية لتربية المريدين، (وكلها تحوم حول الخضوع التام من المريد للشيخ، بحيث يتحول التلميذ المسكين إلى آلة جوفاء، تردد ما يقال لها بلا تفكير، ولا شخصية مستقلة؛ بل انقياد أعمى، وحتى تتم هذه التربية الذليلة ألزموهم بلبس معين، ومشية معينة، وشيخ معين، وطريقة معينة)^(٣).

ومن صور الذلة، والانكسار للواسطة التي كان الشيوخ يطلبونها من أتباعهم المريدين، أن شيخاً غضب على أحد المريدين؛ لأنه جمع مالا، وجالس بعض الكبراء، فطرده من طريقته، ولم يسمح له بالعودة إلا بعد أن يحلق لحيته، ويسود وجهه، ويركب حماراً منكوساً، ويُعرف نفسه في الأزقة، والأسواق، كسراً لنفسه^(٤).

وقد جرت عادة الصوفية أن الشيخ إذا أراد من الحاضرين الانصراف أنه: (يقف قبل الجميع قرب الباب، ويمد يده، فيشرع الحاضرون بالخروج مارين أمام الشيخ، واحداً بعد واحد يقبلون يده المقدسة، وقد يمرغون جباههم عليها، وقد يقبل بعضهم رجله؛ حيث يدها الشيخ إلى الأمام، تكرماً، ومنة، وعطفاً منه، وتفضلاً؛ ليتمكن المريد من تقبيلها، وتمريغ وجهه، وجبهته عليها)^(٥).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: (وأعرف منهم شخصاً كان معظماً، وكان له حاجة إلى نصراني فذهب إليه، وخضع له، وقبل يده، ورجله، وربما قبل نعله حتى قضى حاجته، ثم جعل يقول: ما رأيت إلا الله، وما كان ذلك الخضوع، والتقبيل إلا لله عز وجل)^(٦).

(١) انظر رماح حزب الرحيم مطبوع بهامش جواهر العاني ١٤٤/١.

(٢) انظر المرجع نفسه ١٦٥/١.

(٣) دراسات في الفرق الصوفية لمحمد العبدية وآخر ص ٧٨، نقلاً عن الانحرافات العقيدية والعلمية في القرنين الرابع عشر والخامس عشر الهجريين لعلي بخيت الزهراني ٥٣٠/١.

(٤) انظر حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر لبعده الرزاق البيطان ٣/١٥٩٠، نقلاً عن الانحرافات العقيدية والعلمية لعلي بخيت الزهراني ٥٣٥/١.

(٥) الكشف عن حقيقة الصوفية ص ٣٤٦، وانظر مجلة المنار ٥٦١/١.

(٦) تلخيص كتاب الاستغاثة ٣٧٧/١.



ثم إن طلب البركة المنهوم الذي أصيب به أهل الأهواء بسبب بعدهم عن منهج الكتاب والسنة هو الذي تدرج بهم من التبرك بالوسائط المقدسين إلى التذلل أمامهم، والانكسار تعظيماً لهم، وقد يصل الأمر ببعضهم إلى الركوع، والسجود لهؤلاء المعظمين، (وكل من تبرك بقبر، أو ضريح، أو مشهد، أو أي شيء له صلة بشخص مقدس عند المتبرك سواء كان ذلك التبرك بالتقيل، أو الاستسلام، أو تمرغ الخد، والوجه، والجسم، فهو سالك مسلك عبدة الأصنام، مشرك بالله مبتدع في الدين ما لم ينزل الله به سلطاناً)^(١).

ونتيجة لهذا الاعتقاد الفاسد في الوساطة، ولممارسات الشاذة من الاتباع للمتبعين ظهرت هذه الشريحة الضعيفة في المجتمع التي تذلل للحجر، والشجر، والأرواح، والأشباح، بكل خضوع، ومسكنة، فأصبحت (لا تستطيع أن تقف أمام الولاة والحكام الظالمين، تأمرهم بمعروف، أو تنهاهم عن منكر، فذلوا للحاكم الأغنياء، كما ذلوا للخشب، والأحجار، وما زال كل قرن يمر تزداد معه الآلهة عدداً، وتزداد النفوس ذلك حتى وصلت الحال بالامة الإسلامية إلى فقد سيادتها، وانهيار عزتها، ولا يصلح آخر الإسلام إلا بما صلح به أوله، فلا بد من العودة إلى الحياة الإسلامية الأولى؛ حيث التوحيد الصحيح، والعزة الحقة، ولا بد من هدم هذه البدع، والخرافات باللين؛ إن نجح، وبالقوة إن لم ينجح، والله المستعان)^(٢).

وبهذه التعاليم يشل الصوفية إرادة التابع، بحيث لا يبقى له من هذا الاسم إلا بمقدار توجه إرادته إلى متبوعه الوساطة، وتعظيمه، وتقديسه، والتذلل بين يديه، وفي هذا أعلى صورة لتعطيل الفكر، وتخدير الإرادة، وشل العقل، حيث يصبح المريد بين يدي الوساطة كالميت بين يدي غاسله^(٣) كما قالوا:

وكن عنده كالميت عند مغسّل يقلبه ما شاء وهو مطّاع

والذي تولى كبر هذه الأفعال، والأباطيل هم شيوخ الصوفية، فأشاعوا بذلك روح الذل والخنوع بين المريدين، وقتلوا فيهم الأنفة، والإباء، والعزة، والكرامة، والرجولة، فخرجت في الأمة جماهير ذليلة قد استناخت للضيم، واستمرأت الهوان^(٤).

(١) تقديس الأشخاص في الفكر الصوفي ١٧٩/٢.

(٢) زعماء الإصلاح في العصر الحديث لأحمد أمين ص ١٧.

(٣) انظر نظرية الاتصال عند الصوفية ص ٢٨٥.

(٤) انظر الانحرافات العقدية والعلمية لعلي بخيت الزهراني ٥٣٧/١.

وإظهار المذلة، والافتقار، والانكسار لغير الله اعتراف له بقدرته على قضاء الحوائج، وتحقيق الأمناني، وهذا صرف لحق من حقوق الله تعالى لغيره من خلقه، وهو وسيلة للشرك، ومهواة عظيمة^(١).

ولقبح هذا الصنيع فقد كان الإمام أحمد يقول في دعائه: (اللهم كما صنت وجهي عن السجود لغيرك، فصنه عن المسألة لغيرك)^(٢).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: (والعبد كلما كان أذل لله، وأعظم افتقاراً إليه، وخضوعاً له كان أقرب إليه، وأعزله، وأعظم لقدره، فأسعد الخلق أعظمهم عبودية لله، وأما المخلوق فكما قيل: احتج إلى من شئت تكن أسيره، واستغن عن من شئت تكن نظيره، وأحسن إلى من شئت تكن أميره)^(٣).

وبين العلامة ابن القيم أن تذلل المبتدع عند القبر، وانكسار قلبه للمقبر، وإظهار مسكنته واضطراره من أقوى الشبهات التي أوقعت القبور في الافتتان بالقبور، والتعلق بالمقبرين؛ وذلك أن الله قد يقضي حاجته، ويجب دعوته لما قام بقلبه من الاضطرار، لا لوقوفه على القبر، ولا لأجل المقبر كما يعتقد أهل الأهواء^(٤).

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (وأين التوحيد للخالق بالرغبة إليه، والرجاء له، والتوكل عليه، والحب له، من الإشراك به بالرغبة إلى المخلوق، والرجاء له، والتوكل عليه، وأن يحب كما يحب الله؟ وأين صلاح العبد في عبودية الله، والذي له، والافتقار إليه، من فساده في عبودية المخلوق، والذل له، والافتقار إليه؟)^(٥) فالتذلل للمخلوق، والاستعباد له مناقض لمقاصد رسالة الإسلام التي جاءت بعزة العبودية لله تعالى، وتحرير العقول، والأبدان من الاستعباد لغير الله تعالى من أشكال الوسائط البدعية، والطواغيت الشركية، وكل ما فيه مدعاة للوثنية^(٦). فمعنى كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) أنه ليس في هذا الكون واسطة، ولا معبود (جدير بأن يعبده الناس، ويسجدوا له بالطاعة، ويطأطأوا له رؤوسهم في العبادة، ويركنوا إليه عند الشدة، ويستعينوا به عند الحاجة إلا الله تعالى، فهي إذن يتلخص فيها الإيمان الكامل، والخضوع التام، والإقرار الصريح بأن العبودية لا تكون إلا لإله واحد دون سائر الآلهة الباطلة، فيتحقق بها التوحيد الحقيقي بشقيه: توحيد

(١) انظر نور الاقتباس في مشكاة وصية النبي لابن عباس لابن رجب ص ٦٣.

(٢) المرجع نفسه والموضع بعينه. (٣) مجموع الفتاوى ١/ ٣٩، وانظر جلاء العينين ص ٥٥٧.

(٤) راجع ما تقدمت مناقشته من الشبهات. (٥) فادعة جلية ص ٧٤.

(٦) انظر التفسير القيم ص ١٩ هامش (١).

الألوهية، وتوحيد الربوبية^(١).

والمقصود أن الذلة من العبد، والانكسار من القلب هو روح العبودية، ومعناها، فلا يجوز صرفها إلا لله تعالى، يقول العلامة ابن القيم: (إن عبودية التوبة فيها من الذل، والانكسار، والخضوع، والتعلق لله، والتذلل له ما هو أحب إليه من كثير من الأعمال الظاهرة؛ وإن زادت في القدر، والكمية على عبودية التوبة، فإن الذل، والانكسار روح العبودية، ومخصها، ولها)^(٢).

ولا نجد مظهراً لألوهية المعبود أكبر من أن نجد عابديه واقفين بين يديه، متذللين، منكسرين، ضارعين، خاضعين، خاشعين يلتزمون منه المدد، والمعونة، وهذا هو في الحقيقة ما نلاحظه عند الصوفية في زياراتهم للمقبرين^(٣)، وما أحسن قول الشاعر^(٤):

نَرُهُ فَوَادِكَ مِنْ سَوَانَا تَلَقَّانَا فَجِئْنَا بِنَا حِلًّا لِكُلِّ مُنْزَرٍ

وقال العلامة ابن القيم في نونيته - مبيناً حال المتذللين، والمنكسرين لغير الله تعالى^(٥):

هَرَبُوا مِنَ الرِّقِ الَّذِي خَلَقُوا لَهُ قَبِلُوا بَرَقَ النَّفْسِ وَالشَّيْطَانِ
لَا تَرْضَى مَا اخْتَارُوا هُمْ لِنَفْسِهِمْ فَقَدْ ارْتَضَوْا بِالذَّلِّ وَالْحَرَمَانِ

فمتى كان المسلم بحاجة إلى من يأخذ بيده ليتوسط له عند ربه؟ ومتى كان ربنا محتجباً عن الضعفاء، والزمني، والغارقين في بحور المعصية؟ فهل في كتاب الله تعالى أو في سنة نبيه صلى الله عليه وسلم ما يدل على ذلك؟ كلا! بل إن الآيات الكريمة، والأحاديث الشريفة طالما وضحت هذا الجانب، وأضاءت هذا الطريق، ومهدت هذا المنحنى الخطر الذي ضل بسببه كثير من أهل الجهل، والأهواء، والبدع؛ حيث ظنوا أن صاحب المعصية غير مؤهل لناجاة الله، وطلب المغفرة منه، والرحمة، حتى يبحث عن وساطة مصقولة الباطن، نظيفة الظاهر، فيتشبث بها، ويتعلق بأذيالها، خاضعاً، متذللاً، منكسراً، كل ذلك لتأخذ بيده، حتى يغفر الله حوبته، ويقبل توبته!!

اللهم اجعل عزتنا في التذلل لك وحدك، وراحة قلوبنا في انكسارها لك لا لغيرك، ولا تجعل لسواك فينا نصيباً، يا رب العالمين.

(١) مقدمة تحقيق معنى لا إله إلا الله للزركني تحقيق علي القرعة داغي ص ٤٤.

(٢) مدارج السالكين ١/ ٢٩٨، وانظر تيسير العزيز الحميد ص ٦٦، والرد على شبهات المستعنيين بغير الله تعالى ص ٤٧.

(٣) انظر دمعة على التوحيد ص ٢١٣.

(٤) انظر الفوائد ص ٤٠.

(٥) انظر متن القصيدة النونية، ص ٣٠٨.

المبحث الرابع

ضياح العمل لتوزعه بين الوسائط

يتوجه أهل الأهواء إلى الوسائط البدعية، طلباً لإنجاح الأمور، واستدفاعاً لوقوع محذور، فينجم عن ذلك أن النية تتجزأ إلى نيات، والعمل يتوزع بين تلك الوسائط، ويصير إلى شتات، ورذا أردت أن تعرف كيف يضيع عمل المبتدع، وما ووجه توزعه بين الوسائط فاسمع إلى ماي قوله إمام الرفضة الخميني، مصرحاً بهذه العقيدة الفاسدة: (فيتوسل بأولياء الأمراء، وخفراء الزمان، وشفعاء الإنس، والجان، يعني الرسول، والأئمة المعصومين، ويجعل تلك الذوات الشريفة شفيعاً، وواسطو؛ وحيث أن لكل يوم خفيراً^(١))، ومجيراً، فيتعلق يوم السبت بالوجود المبارك الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، ويوم الأحد لأمير المؤمنين رضي الله عنه، ويوم الإثنين للإمامين الهمامين السبطين رضي الله عنهما، ويوم الثلاثاء للخضرات: السجاد، والباقر، والصادق رحمهم الله، ويوم الأربعاء للحضرات: الكاظم، والرضا، والتقي، والنقي رحمهم الله، ويوم الخميس للعسكري رحمه الله، ويوم الجمعة لولي الأمر - عجل الله فرجه الشريف - ويسأل الحق تعالى رفع شر الشيطان، والنفس الأمارة بالسوء، بشفاعتهم؛ فإنهم مقربون لجناب القدس، المحارم لخلوة الأنس ويجعلهم وسائط في الائتمام، وقبول العبادات الناقصة، والمناسك غير اللائقة، فالحق تعالى كما جعل محمداً، وأهل بيته وسائط الهداية... وعينهم الهداة لنا... فيرحم بشفاعتهم قصورنا، ويتمم نقصنا، ويقبل طاعتنا، وعباداتنا غير اللائقة^(٢)).

واسمع إلى تعليل أحد الصوفية لتوزيع العمل بين الوسائط؛ حيث يقول: (فلكل شيخ من أهل الله حضرة لا يشترك فيها معه غيره؛ لإذا ورد منها نور بأمر من الأمور التي ذكرناها، ونسب إلى غير تلك الحضرة من الحضرة الإلهية اغتاز ذلك النور، وطار، ورجع رلى محله... فمن نسب نوراً إلى غير محله من الحضرة الإلهية فقد أساء الأدب في حضرة الحق، وكذب على الله، والحضرة لا تحتمل الكذب؛ فلذا يطرد، ويسلب،

(١) الخفير: المجير، والمناع، والاسم الخفرة: وهي الذمة انظر مختار الصحاح ص ١٨٢ مادة (خ ف ر).

(٢) الآداب المعنوية للصلاة للخميني ص ٥٦٩، نقلاً عن كتاب العلاقة بين التشيع والتصوف لفلاح بن أحمد ص

والعياذ بالله تعالى^(١).

ويقول الشيخ الواسطة الدباغ - عن نفسه عندما كان مريداً في بداية سلم الولاية : (ألقى الله في قلبي التشوف إلى العبودية الخاصة، فجعلت أبحث عنها غاية البحث، فما سمعت بأحد يشيخه الناس، ويشيرون إليه بالولاية إذا ذهبت إليه وشيخته؛ فإذا شيخته ودمت على أواذه مدة، يضيق صدري، ولا أرى زيادة، فأتركه، ثم أذهب إلى غيره فأشيخه، فيقع لي معه مثل ما وقع ما الأول، فأتركه، ثم أذهب إلى غيرهما فوق لي ثمل ذلك، فبقيت متحيراً في أمري من سنة تسع إلى سنة إحدى وعشرين، وكنت أبيت كل ليلة جمعة في ضريح الولي الصالح سيدي بن حرزهم، وكنت أقرأ البردة مع من يبين به حتى نختمها كل ليلة جمعة)^(٢).

وقد يستغيب بعضهم بعدة وسائط فيقول: يا سيدي فلان، وفلان، وفلان، فمنهم من يخيل إليه أنه رأى وسائطه في صورة إنسان، فيكلمه، ومنهم من يرى صورة لطائر، ومنهم من يرى صورة حيوان، وتكون الشياطين هي التي تتصور بتلك الصور؛ لأولئك المشركين الذي يدعون من دون الله آلهة أخرى، ويطلبون من هذه الوسائط ما لا يطلب إلا من الله تعالى^(٣)، (ومنهم من يزعم أن معبوده الأدنى يقربه إلى الأعلى الفوقاني، والفوقاني يقربه إلى من هو فوقه، حتى تقربه تلك الآلهة إلى الله سبحانه وتعالى، فتارة تكثر الوسائط، وتارة تقل)^(٤). وهذا التصور للوسائط البدعية هو نفسه تصور أهل الجاهلية لمعبوداتهم، ولكلك شيخ من هذه الوسائط المزعومة يوم معروف في شهر معلوم، يؤتى إليه من جميع النواحي لقضاء الحاجات، وتقديم العرائض والخطابات^(٥).

ولا ريب أن توجه أهل الأهواء، والطريقين كل إلى شيخه أو إمامه، وواسطته، سواء توجه إليه طالباً منه التوسيط، أو انقطع إليه بالعبادة، والدعاء، والاستمداد؛ فإنه يشبه بهذا التوجه الشعوب البدائية التي كانت تتيه في ظلام الجهل؛ حيث توجهت هذه الشعوب - ليعدها عن ضياء الوحي، وأنوار الرسالات السماوية - بالعبادة إلى بعض مظاهر الكون فبعدت الشمس، والقمر، وعبدت الإنسان، والبقرة، والفيل، وسجد كل شعب لما يظن

(١) ميزاب الرحمة الربانية ص ٣٣. (٢) الإبريز ص ٨.

(٣) انظر تلخيص كتاب الاستغاثة ٢/٦٢٦، ودعوة على التوحيد ص ١٠٩.

(٤) تجريد التوحيد المفيد ص ٢٦.

(٥) نقله عن بعضهم الشيخ حمد بن ناصر آل معمر. انظر النبذة الشريفة في الرد على المقبورين ص ١٤٩.

أنه الممثل الأكبر لخالق هذا العالم^(١). وهكذا كانت قدماء اليونان الوثنية لتعدد الآلهة، (فنسبوا لمظاهر الطبيعة صفات الألوهية، وعبدوها من دون الله، فللبحر إله، وللخشب إله، وللرعد، والعواصف إله، وللحب إله، وللجمال إله، حتى إن الآلهة العديدة التي اعتقدوها سلبت الإنسان كل سلطان فما هو إلا ذرة في مهب الرياح الهوجاء لا قدرة له على الثبات، والمواجهة؛ بل هو خاضع للحتميات القاهرة التي تفرضها إرادات الآلهة المتعارضة)^(٢).

من أجل هاتين النظرتين: نظرة أهل الأهواء البدعية لتعدد الوسائط، ونظرة الوثنيين الشريكة لتعدد الآلهة كان العمل الناشيء عن تلك النظرتين هباء منثورا.

وإذا كنا نطعن في دين النصارى؛ لأنهم يدينون بآلهة ثلاثة، ويشعرون في الوقت نفسه بغرابة هذا التعدد وبعده عن الحقيقة، والعقل، ويحاولون تأويله بكل سبيل، ويقولون إن الثلاثة في حكم الواحد، فيما ذا نحكم على من ينتسبون إلى الإسلام وهم يدينون بآلاف من الآلهة معظمها جذوع أشجار، ورفات أموات، وقطع أحجار، وهم لا يشعرون؟^(٣).

ومن عجيب أمر الصوفية، وتناقضهم البين أن بعض شيوخهم، وهو تجاني تنبه لشتات العمل، وضياعه؛ بسبب توزيعه بين الوسائط، فكان هذا الشيخ ينصح مريده قائلا: (يا فلان: رددوكم لجهة واحدة، خوقا عليه من الشتات، وجمعا له عن الالتفات)^(٤). وغني عن القول أنه ي قصد بالجهة الواحدة شيخه الواسطة!!

وإذا أصبح لكل واسطة من المقبورين دوره في حياة الناس، وتخصصه الذي يزار من أجله ويستغاث به طلبا لحصوله؛ فإن البدع تتمكن من القلوب، ويزداد العمل تشتتا، وضياعا، فضريح السيدة فلانة يزار لزواج العوانس، وضريح الشيخ فلان يزوره المعدمون لبسطة الرزق، والقادرة الشاطرة صاحبة الضريح الفلاني يحج إليها في مشاكل الحب، والهجر، والفراق، والطلاق، ومقبورة أخرى متخصصة في أمراض الأطفال، والعيون، وعسر الهضم...^(٥) وهكذا، فكل قوم لهم واسطة ينادونه عند الشدائد، فلاهل العراق

(١) انظر مجلة المنار ١/ ٢٦٧، ومشكلة الألوهية للدكتور محمد غلاب ص ٢٢.

(٢) الرسالة والرسول لشيخنا الدكتور أكرم ضياء العمري ص ٨، وانظر دمعة على التوحيد ص ٨٢.

(٣) انظر النظرات للمنفلوطي ٢/ ٤٧، وهذه هي الصوفية ص ١٠٢.

(٤) بغية المستفيد ص ٣٠٢.

(٥) انظر كنت قبوريا ص ٣٦، ودمعة على التوحيد ص ١١٧.

واسطة، وأهل الهند لهم واسطة، ولأهل تهامة واسطة، وهل مكة، والطائف لهم واسطة، وأهل مصر له واسطة، وأهل اليمن لهم واسطة، وهلم جرا... فلكل قرية أموات يهتفون باسمهم، وينادونهم، وهذا بعينه صنيع المشركين مع أصنامهم^(١).

وقد تنبه المستشرق هجروني لما أصبح يعانيه المسلمون من تشتت، وضياح بسبب تعدد هذه الوسائط البدعية فقال: (إن شفاعة الصالحين أصبحت من الأمور التي لا يمكن فصلها عن أمة محمد الذي لعن اليهود، والنصارى - حسب ما جاء في الحديث - لعبادتهم قبور أنبيائهم، ويكاد يكون لكل قرية مسلمة إمامها الخاص، ولكل شعب مسلم مام القوي، ولكل ناحية في الحياة الإنسانية أمراؤها الإنسانيون، وهم الوسطاء بين الخالق والمخلوق)^(٢).

فنتيجة عمل المبتدع الضياح، ولاخسران؛ بسبب البدعة، كما ضيع المشرك عمله بسبب الشرك. قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ نَبْأً مُّثْوَرًا﴾^(٣)، وقال تعالى أيضا: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾^(٤) الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا^(٥)، لأن أي عمل ديني لم يكن خالصاً لله تعالى، ولم يكن صواباً على سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فحبوطه مؤكد، وهو مردود على صاحبه، يقول العلامة ابن القيم: (وليس المراد المحبوب لذاته إلا واحد^(٦) إليه المنتهى، ويستحيل أن يكون المنتهى إلى اثنين، كما يستحيل أن يكون ابتداء المخلوقات من اثنين، فمن كان انتهاء محبته، ورغبته، وإرادته، وطاعته إلى غيره بطل عليه ذلك، وزال عنه، وفارقه أحوج ما كان إليه، ومن كان انتهاء محبته، ورغبته، ورهبته، وطلبه هو سبحانه ظفر بنعيمه ولذته، وبهجته، وسعادته أبداً الآباد)^(٧).

إن المبتدع الذي تتوزع طاقاته، وتتبدد جهوده ومشاعره، وتتوزع نياته، ويضمحل عمله لتوجهه لوسائط متعددة، مثله كمثل المشرك الذي يشعر بتمزق داخلي، وعدم

(١) انظر الدر النفيد ضمن الرسائل السلفية للشوكاني ص ١٦٥، وتطهير الاعتقاد ص ٥٨، وتوحيد الألوهية أساس الإسلام ص ٣٢١.

(٢) عقيدة الشيعة لهجروني ص ٣٣٧، نقلاً عن الصلة بين التصوف والتشيع للشيباني ١/ ٤٣٠، وانظر العقيدة والشرعية لجولد تسيد ص ٢٣٢.

(٣) سورة الفرقان، الآية: ٢٣. (٤) سورة الكهف، الأيتان (١٠٣ - ١٠٤).

(٥) هكذا في النص بالرفع، ولعل الصحيح (واحدًا) بالنصب لأنه واقع خبر ليس.

(٦) الفوائد ص ١٩٥.

استقرار، وطمأنينة لدينوته، لآلهة متعددة، فهو لا يستطيع إرضاءهم جميعاً، و(وبين الله حالة المشرك هذا بقوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ (١).

فمثله كمثل العبد المملوك لعدة أشخاص لا يمكنه أن يبلغ رضاهم كلهم فهو في شقاء دائم؛ لتصارع رغباتهم عليه، ومطالبهم منه . . . لذا نجد المشرك دائماً مصادماً لفطرته، مضطرباً في وجهته، وغايته، ودوافع عمله، وسلوكه (٢).

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (والمقصود هنا أن الشيء إذا انقسم ووقعت فيه الشركة نقص ما يحصل لكل واحد؛ فإذا كن جميعه لواحد كان أكمل . . . كما أن الزرع كلما نقي عن الدغل كان أزكى له، وأكمل؛ لصفات الكمال الوجودية فيه) (٣).

وبالجملة؛ فإن من يتوجه إلي وسائط الأئمة من الرافضة، أو وسائط الشيوخ والأولياء من الصوفية، سوف يصاب بالحيرة، والدهشة، ويضيع عمله سدى؛ لأنه لا يدري يرضي من على حساب من؟ فطابور الأئمة طويل، وسلسلة الأولياء لا تنتهي، وسوف يصبح - والحالة هذه - كما قيل:

تكاثرت الطلباء على خراش فما يدري خراش ما يصيد

اللهم اجعل أعمالنا كلها صالحة، واجعلها لك خالصة، ولا تجعل لأحد فيها نصيباً،
بمنك يا أكرم الأكرمين.

(١) سورة الزمر، الآية: ٢٩.

(٢) عقيدة التوحيد في القرآن الكريم ص ١٣٢، وانظر معارج الألباب ص ٢٣٠.

(٣) مجموع الفتاوى ١٧/١٤٥، وانظر ١/٢٤، واقتضاء الصراط المستقيم ٢/٦٩٤، وقرة عيون الموحدين شرح كتاب التوحيد للشيخ عبدالرحمن بن حسن آل الشيخ ص ٨٤، وتفسير السعدي ٦/٤٤.

المبحث الخامس

انتشار الضعف بين المسلمين وانتشار شملهم

تقدم منها في بيان آثار الوساطة الشرعية أن التوحيد سبب للألفة، والاجتماع وهنا أث مقابل يحصل نتيجة للاعتقاد الفاسد في الوسائط البدعية المنتشرة في أنحاء العالم الإسلامي يوالي عليهم، ويعادي بسببهم، ألا وهو انتشار الضعف بين أبناء الأمة الإسلامية، وانتشار شملهم، وانفطار عقدهم؛ لأن الجنوح إلى البدع، والأهواء سبب للفرقة، والانفطار، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (والبدعة مقرونة بالفرقة كما أن السنة مقرونة بالجماعة، فيقال: أهل السنة والجماعة كما يقال: أهل البدعة والفرقة)^(١)، وقال الإمام الشاطبي: (التعدد داعية الفرقة والفرقة سبب للمنازعة المورثة للفشل، والضعف، والوهن، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾^(٢))^(٣).

وقد تفرق أهل الأهواء، وصاروا شيعاً وأحزاباً، كل طائفة تكفر الأخرى وتبذعها حتى صدق فيهم قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِعْياً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾^(٤).

والغريب في مسألة وساطة الشيخ للمريد أن أبناء كل طريقة يتعصبون تعصباً مشيناً لشيخهم على حساب الطرق الأخرى، فتراهم يلمزون مشايخ الطرق الأخرى، ويجرحونهم، وينتقصونهم؛ بينما تجدهم في الجانب الآخر يطرحون على شيخهم، وواسطتهم وشاحاً من التعظيم، وهالات من التقديس ويدعون اختصاصه بحلول البركة، وصلاحه وحده للوساطة، (فانتهى الأمر بنوع من التعصب الطائفي يذكرنا بالحزبية السياسية أو التعصب القروي، وإن كان أخطر كثيراً من كلا التعصبين؛ لأنه تعصب باسم الدين، وهو في الوقت ذاته خروج آثم على مبادئ الدين)^(٥).

واسمع إلى بعضهم - وهو تجاني - كيف يزرع في نفوس المريدين من أتباعه بذور العداوة، والفرقة، والانفطار بقوله: (ويجب على الشيخ أن لا يترك أصحابه يزورون شيخاً آخر، ولا يجالسون أصحابه؛ فإن المضرة سريعة للمريدين؛ لأن لكل شيخ طريقة،

(١) الاستقامة ٤٢/١. (٢) سورة الأنفال، الآية: ٤٦.

(٣) الاعتصام ٨٧/١، وانظر الوحدة الإسلامية والأخوة الدينية لمحمد رشيد رضا ص هـ.

(٤) سورة الأنعام، الآية: ١٥٩.

(٥) نظرية الاتصال عند الصوفية ص ٢٨٩، وانظر دعة على التوحيد ص ٢١٣.

تخصه، لا يتعدها، ولا يخلطها بغيرها، فيسمع المزيد أصحاب ذلك الشيخ يذكرون عن شيخهم خلاف ما أمره بن شيوخه فيختلف عليه الأمر فيوقعه، فوجب على الشيخ سد هذا الباب على المريدين^(١).

وقديماً نقل أبو القاسم القشيري عن بعض الصوفية - في تعريف التصوف - قوله : (ما تزال الصوفية بخير ما تنافروا فإذا اصطلحوا فلا خير فيهم)^(٢).

والاعتقاد في هذه الوسائط البدعية الذي فرق أهل الأهواء من هذه الأمة، هو نفسه الذي فرق أمة العرب في جاهليتهم، وذلك أن كل قبيلة كانت تزعم أن صنمها هو الوسطة بينها وبين الله تعالى، فتواليه، وتعادي غيره من الأصنام، والآلهة، وكان بعض عقلائهم في الجاهلية ينهى عن عبادة هذه الأصنام ويقول العرب : إنما تفرقتم بسبب هذه الآلهة المتعددة، والوسائط الوهمية، ولا سبيل إلى جمع كلمتكم إلا بعبادة إله واحد، فأطيعوني ترشدوا، واعبدوا الله وحده^(٣). وكان بعض شعرائهم في الجاهلية يقول - في صنعم له اسمه سعد -^(٤):

أتينا إلى سعد ليجمع شلمنا فشتتتنا سعداً فلا نحن من سعد
وهل سعد رلا صخرة بتؤفة^(٥) من الأرض لا يدعو لغى ولا رشد

وهكذا تعدد الطوائف في هذه أمة بسبب هذه الوسائط البدعية، وتعصبت كل طائفة لواسطتها، وتفرقوا، وخطأ كل فريق الفريق الآخر.

يقول محمود شكري الألوسي : (وهكذا تجدد الغلاة من أهل الطوائف المبتدعة، فالرفاعي يقول : ليس القادري على شيء، والقadari يقول : ليس الرفاعي على شيء، وهذا يقول : شيخني أخذ زنبيل^(٦) الأرواح من عزرائيل، وأعاد كل روح إلى جسدها، وهذا يقول مر شيخني على جهنم فأراد أن يطفئها بيزاقه فحالت الملائكة بينها وبينه !! ومن

(١) رماح حزب الرحيم مطبوع بهامش جواهر المعاني ١٤٧/١.

(٢) الرسالة القشيرية ص ٢٨٢. (٣) انظر الملل والنحل ٢/٢٤٨.

(٤) انظر بلوغ الأرب للألوسي ٢/٢٠٨، والمسائل التي خالف فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل الجاهلية ١٢٤/١.

(٥) التنوفاً : المفاضة، والصحراء. انظر مختار الصحاح ص ٧٩، مادة (ت ن ف).

(٦) الزنبيل : الفقة، أو الجراب، والوعاء. انظر القاموس المحيط ٣/٣٩٩ مادة (ال. بل).

اتبع العيدروسي^(١) يقول:

العيدروسي كان يُحيي من الأموات من ماتَ دَهْرًا

وهكذا تجدهم يتضاربون بالأقوال، ولم يزالوا قائمين على ساق المخاصمة والجدال^(٢).

فالاختلاف مع العداوة، والفرقة عادة أهل الأهواء، والاختلاف مع التوالي، والتصويب عادة أهل السنة والجماعة^(٣).

فأهل الأهواء في شقاق دائم ونفرة، ونزاع، هذه حالهم وإن تقاربت ديارهم، واجتمعت أبدانهم (يكفر الابن أباه والرجل أخاه، والجار جاره، تراهم أباءً في تنازع، وتباغض، واختلاف، تنقضي أعمارهم، ولا تتفق كلمتهم: ﴿تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى﴾ ذلك بأنهم قوم لا يعقلون^(٤)، أو ما سمعت أن المعتزلة مع اجتماعهم على هذا اللقب يكفر البغداديون منهم البصريين، والبصريون منهم البغداديين؟ ... إذا تدبرت أقوالهم رأيتهم متفرقين ... يتبرأ بعضهم من بعض ... وهل على الباطل دليل أظهر من هذا؟^(٥).

وهذا الفرق، والطوائف التي تنتشر في طول العالم الإسلامي، وعرضه ما سبب تفرقها وانشطارها عن جماعة أهل السنة؟ إن السبب في ذلك هو تلك النظرة البدعية للوسائط، وترك منهج أهل السنة في طلب الحق، فكل طائفة تزعم أن الواسطة بينها، وبين الله عز وجل هو شيخها الذي تنتسب إليه؛ ولهذا كثرت الطرق الصوفية كثرة فاحشة، حتى إن عدها، وحصرها بأسمائها، دون ذكر مقالاتها يعد من قبيل المستحيل فاتباع أحمد البدوي واسطتهم البدوي، والقارية واسطتهم عبدالقادر الجيلاني، والرفاعية واسطتهم الرفاعي، والشاذلية واسطتهم الشاذلي، والنقشبندية واسطتهم النقشبندي،

(١) في كتب التراجم كثيرون بهذا اللقب، ولعل المراد صاحب الترجمة؛ لأنه كان معظماً عند الناس، وهو محمد بن عبدالله بن شيخ العيدروس، صوفي من أهل تريم باليمن، ولد سنة ٩٣٥ هـ، وتوفي سنة ١٠٠٥ هـ، كان معظماً عند الملوك، والأمراء، له كتاب «إيضاح أسرار علوم المقربين». انظر: الأعلام ١١٧/٧، ومعظم المؤلفين ٤٤٢/٣. (٢) غاية الأمان ٢٦/١.

(٣) انظر مجموع الفتاوى ١٧٢/٢٤، وإيثار الحق على الخلق لابن الوزير ص ١٦٠.

(٤) سورة الحشر، الآية: ١٤.

(٥) الحجة في بيان المحجة ٢/٢٢٦، وانظر مجموع الفتاوى ٥١/٤، ومعارج الألباب ص ٢٧٠.



والتجانية واسطتهم أحمد التجاني، والبريلوية واسطتهم أحمد البريلوي . . . وهلم جرا، فالقائمة لا تنتهي، والوسائط في تزايد، ونتج عن تعدد هذه الطرق بعدد الوسائط البدعية، (تقسيم أمة الإسلام بين مشايخ ضلال جهال، يستغلونهم، ويتحكمون فيهم ويحرمونهم من نعمة الوحدة الإيمانية، والأخوة؛ إذا المعروف أن العداوة متأصلة بين طوائف الطرق إلى حد أن بعضهم لا يجالس البعض، ولا يؤاكله، ولا يشاربه؛ بل ولا يزوجه، ولا يتعاون معه، ويقول: هذا ليس بأخي من الشيخ، وكفى بهذه التفرقة بين المسلمين باطلاً، وشراً، وفساداً، وتفریق أمة الإسلام، وتمزيق وحدتها؛ إذ ما قامت الطرق إلا على أساس تفرقة المسلمين، وتجزئتهم، وتفكيك عرى وحدتهم الروحية، والسياسية ليسهل قهرهم، والتسلط عليهم، كما حصل لهم في عهود الاستعمار البائدة، وها هي ذي آثار ذلك باقية إلى اليوم فأمة الإسلام أم ودولتهم دول، بهذا مضت فترة غير قصيرة على أمة الإسلام، وهي جماعات متباينة، لا يعطف بعضها على بعض، هذا قادري، وهذا شاذلي، وهذا نقشبندي، وهذا رفاعي، وهذا درقاوي، وذاك هبري، وعليوي، وتمسك كل فريق بشيخ، وورد، وطريقة، وجماعة، ومن هنا سهل على أعداء الإسلام الاستيلاء على ديار الإسلام، فوضعوا المسلمين قاطبة تحت حكم، واستعمرهم، واستغلوهم، وهم الذين وضعوا الطرق، والتصوف لتفرقتهم، وإذهاب ريحهم^(١).

وهكذا كثرت الفرق، والجماعات التي تنتسب إلى الإسلام بشكل متزايد، وكل طائفة تتميز عن الطوائف الأخرى بلبس معين، أوشارة معينة، أو لقب معين، كل ذلك بسبب انتساب كل طائفة إلى واسطة من الوسائط البدعية فحجرت واسعاً، وضيق على نفسها بالتحزب، وتركت شرف الانتساب لجماعة المسلمين الرحبة أهل السنة، والاجتماع، فانتشر بسبب الواسطة البدعية - الضعف في أوساط المسلمين، وانشطر شملهم إلى فرق وجماعات متناحرة، متباغضة، متحاسدة، يجمع بينها التعصب، كل فرقة تتعصب لشيخها، وواسطتها، ويدعون أنه هو القطب الغوث، الواسطة، ولا أحد يدانيه، فيرد عليهم أتباع شيخ آخر بالمنطق نفسه، فيصبح كل حزب بما لديهم فرحين، فينتج عن هذا التعصب الفرقة وانتشار الحقد بين طوائف أهل الأهواء^(٢).

(١) إلى التصوف يا عباد الله للشيخ أبي بكر الجزائري ص ١١، وانظر مجموعة الرسائل الكبرى ١/ ٣٠٩.

(٢) انظر حكم الانتماء إلى الفرق ص ١١٥، وانظر هذه مفاهيمنا ص ٢٢٥.



يقول الشيخ بكر أبو زيد: (وهذه الجماعات متعددة؛ بل الجماعة في نفسها متعددة إلى جماعات غالباً، والتعدد دليل على الاختلاف، وتعدد التعدد دليل على ضراوة الخلاف، والاختلاف نتيجة حتمية لاضطراب الأصول التي تنفرد بها كل جماعة، وتدعو إليها، وتقيم جماعتها عليها، وهذا يناقض قاعدة الشرع المطردة من أن الحق واحد، لا يتعدد، وكل واحدة تقيم حزب التشكيك بما لدى الأخرى مدعية أن ما لديها هو الحق، وما لدى الأخرى هو الباطل كلا، أو بعضاً، وعليه فلا يَقْضِي على هذا السبب العظيم للفرق، وتمزيق الجماعة، بله الأمة إلا الالتزام بمنهاج النبوة، كما درج عليه الصدر الأول، ومن تبعهم بإحسان، فدع أيها المسلم بُنَيَاتِ الطريق)^(١).

وللأسف الشديد فإن تفرق الأمة الإسلامية إلى جماعات وأحزاب، وطوائف معناه أنه هذه الأمة جهلت حقيقة دينها الذي يدعو إلى الوحدة، والائتلاف، وجمع الكلمة^(٢). ولقد صدق فيهم قول الشاعر^(٣):

يا أمة جهلت حقيقة دينها تفرقت فيها إلى أشياع

ولا ريب أن عقابة هذا التفرق وخيمة رغم كونه واقعاً في الأمة، وحقيقة أليمة. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (ونتيجة الفرقة عذاب الله، ولعنته، وسواد الوجوه، وبراءة الرسول منهم)^(٤).

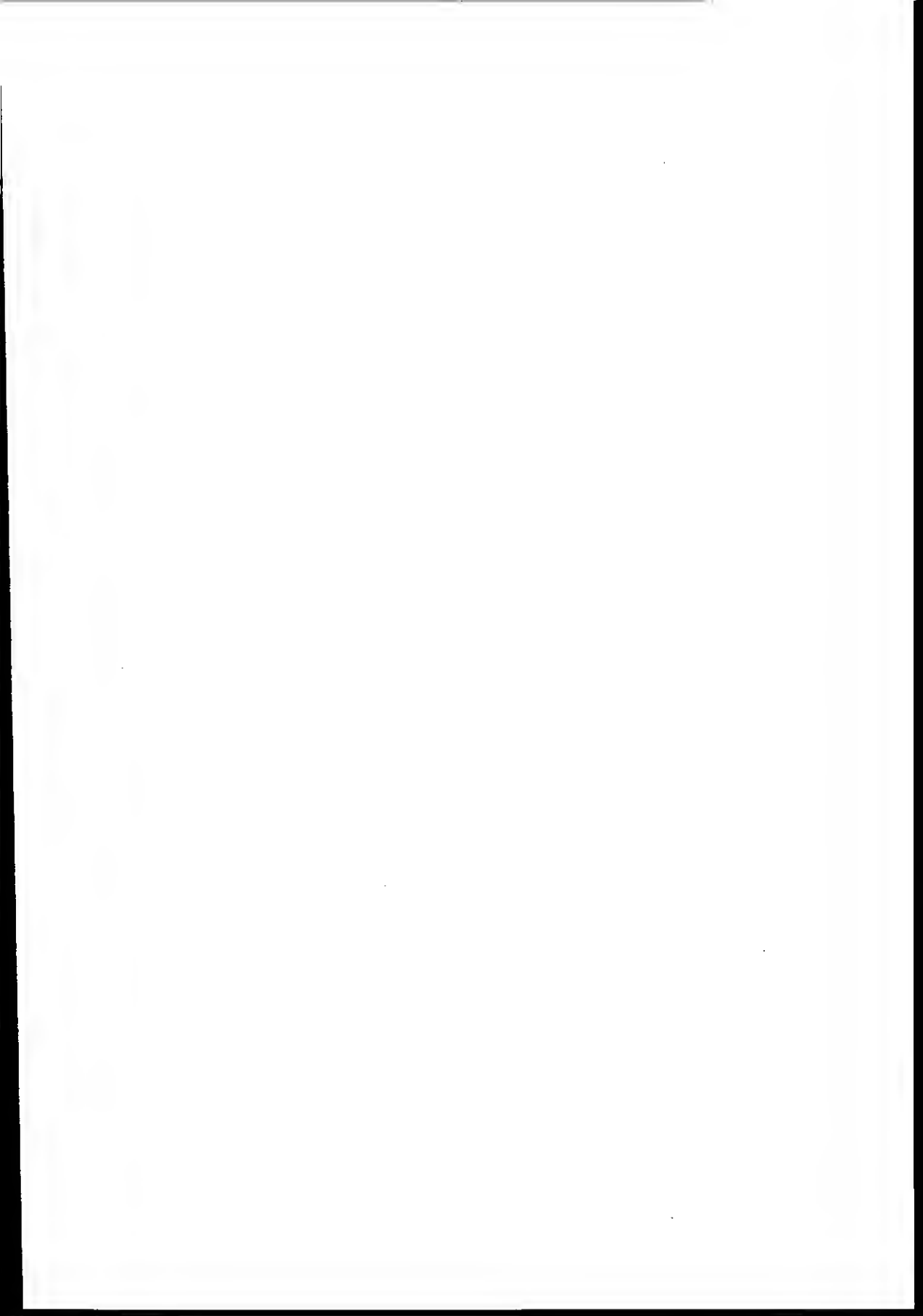
وكفى بهذا زاجراً عن التفرق، والاختلاف، ودافعاً إلى التجمع، والائتلاف والله تعالى أعلم.

(١) حكم الانتماء إلى الفرق ص ١١٥.

(٢) راجع أثر الواسطة الشرعية في معتقد أهل السنة والجماعة.

(٣) للشاعر الجزائري محمد العيد آل خليفة. انظر رسالة الشرك للميل ص ١٠.

(٤) مجموع الفتاوى ١٧/١.





الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته، وتوفيقه تتم الصالحات، والصلاة والسلام على خاتمة
الوسائط في التبليغ نبينا محمد وعلى آله وصحبه، وبعد:

فأحمد الله عز وجل، وأشكره على أن وفقني إلى كتابة هذه الرسالة، وأعاني على
إنجازها، وإنجازها، وفي نهايتها يسعدني أن أشير إلى بعض الجوانب من معالمها، وأعرض
لأهم النتائج، والثمرات التي توصلت إليها على النحو الآتي: -

١- إن المعنى اللغوي للواسطة: هو الشيء الذي يقع بين أمرين، ولذلك سميت واسطة
القلادة واسطة؛ لأنها الجوهرة التي تكون وسط العقد المنظوم، وأن الواسطة في لغة هذا
العصر أصبحت شائعة من حيث الإطلاق على الجاه، والمنزلة، والمكانة.

٢- إن الواسطة في اصطلاح أهل السنة والجماعة ترادف الوسيلة، والشفاعة،
والتعريف المختار للواسطة هو أن الواسطة: هي الوسائل، والأسباب الشرعية، المقربة إلى
الله، الواردة في الكتاب، والسنة، بمعرفتها، والإيمان بها، والعمل بمقتضاها يتقرب العبد
إلى الله تعالى لقبول أعماله، وأن الواسطة عند أهل السنة تطلق على أمرين:

أ - واسطة من الحق إلى الخلق، وهي الرسالة.

ب - وواسطة من الخلق إلى الخالق، وهي العبادة.

٣- إن الواسطة عند أهل الأهواء، والبدع ليست مضبوطة بضابط معين، وليس لها
مصطلح محدد، فهي عالم خيالي، وباب مفتوح جلبوا إليه كل شيء ظنوه سبباً وواسطة،
فالواسطة عند الفلاسفة: هي الكواكب، والروحانيات، والعقول المدبرة، وهي عند
الرافضة تختص بالأئمة من آل البيت -رحمهم الله-، وهي عند الصوفية شيخ الحقيقة،
وإمام الطريقة، والإنسان الكامل.

٤- إن المراد بأهل السنة: هم المتبعون للسنة، المتمسكون بها، وهم الصحابة -رضي
الله عنهم- ومن تبعهم بإحسان من هذه الأمة إلى يوم الدين، وإنهم يلقبون بأهل السنة
والجماعة، والفرقة الناجية، والسلفية، أو أتباع السلف، وأهل الحديث، وأهل الأثر،
والطائفة المنصورة.

٥- إن أهل الأهواء ينيزون أهل السنة بالقباب شنيعة، وأسماء مبتدعة، ومن ذلك

تسميتهم لهم: حشوية، ونابتة، وناصبة، وجبرية، ومشبهة، وعامة، ووهابية.

٦- إن الهوى تدور معانيه اللغوية حول السقوط، والميل عن الحق، والموت، والحيرة، وأنه في الاصطلاح: خلاف الهدى، وهو ميل الإنسان إلى رغبات نفسه، ومحاب قلبه، وأنه لص وخطره على ابن آدم كبير، وهو السبب في ضلال أهل الأهواء، وفساد عقائدهم.

٧- إن الضابط لمعرفة أهل الأهواء: أن كل من خرج عن موجب الكتاب والسنة يعد من أهل الأهواء؛ وإن كان منسوباً إلى العلم، والعبادة.

٨- إن العلامات التي تميز أهل الأهواء هي:-

أ- اتباع الهوى. ب- الفرقة، والاختلاف.

ج- التقليد المذموم للأباء، والمشايخ في العادات الفاسدة، والمعتقدات الباطلة.

د- تكفيرهم لمخالفينهم بغير دليل.

هـ- الذلة؛ بسبب طاعتهم لأهوائهم، وانكسارهم لوسائطهم،

و- اتباعهم للمتشابه المنهي عنه. ز- معارضة السنة، وبغض أهلها.

ح- التعصب لأرائهم.

ط- مصادر التلقي عندهم غير مضبوطة بضوابط الشريعة.

٩- تعريف الفلاسفة، وأن الفيلسوف مأخوذ من (فيل) وهو محب، و(سوف) وهي

الحكمة، وأنهم ثلاثة أقسام:-

أ- دهيون. ب- وطبيعيون. ج- وإلهيون.

وعلمهم ستة:

- علم رياضة. - وعلم طبيعة. - وعلم سياسة.

- وعلم إلهيات. - وعلم أخلاق. - وعلم منطق.

١٠- تعريف الرافضة: وأن الرفض في اللغة: يعني الترك، والمنع، وأن الرافضة في

الاصطلاح: هم الغلاة من الشيعة في حب علي رضي الله عنه وبنيه من بعده، وبغض أبي

بكر، وعمر رضي الله عنهما على الخصوص، ومعظم الصحابة رضي الله عنهم أجمعين،

وأن طائفة الإمامية الاثني عشرية رافضة، وقد انصبت فيها جميع عقائد الغلاة، وأن هذا

اللقب محمود عندهم؛ فهو لقب تشريف، وتكريم، وليس لقب شتم، وتذميم كما هو المشهور عند الناس .

١١- تعريف الصوفية: وأن كلمة (صوف) تطلق في اللغة على عدة معان: منها الصوف المعروف، كما تطلق على الميل، والعدل، ومن أصحاب المعاجم من يرى أنها كلمة مولدة .

وأن الصوفية في الاصطلاح: كثرت التعريفات لها حتى بلغت ألفي تعريف عند الصوفية أنفسهم، ومدارها على أن الصوفية هم الجماعة المتصفة بالصفات المحمودة في الشرع، والمتخلقة بالأخلاق الممدوحة في الطبع، معرضة عن الدنيا، ومقبلة على الأخرى .

وهذا يصدق على الصوفية في طورها الأول، أما التصوف في عرف المتأخرين فقد صار في أغلب الأحيان صناعة لكسب العيش، وتتطلب هذه الصناعة عمامة خضراء، وسبحة غليظة، وتظاهرا بالذكر، ودعوى مخاطبة الأولياء، والاتصال بهم عن طريق الروح، إلى غير ذلك من وسائل وأحكام هذه الصناعة .

١٢- إن الحكمة من بعثة الرسل (الواسطة)، وحاجة الناس إلى بعثهم تلخص في الآتي:-

أولاً: تحقيق عبادة الله تعالى وحده، وإخلاص العمل له .

ثانياً: إقامة الحججة على الخلائق .

ثالثاً: تعريف الناس بالعالم الغيبي، وما أعدّه الله للمؤمنين به من جنانه، وللكافرين به من نيرانه .

رابعاً: القدوة الصالحة، والأسوة الحسنة .

خامساً: جمع الأمة على دين واحد، ورجل واحد .

سادساً: توجيه الناس، وإرشادهم لما فيه الخير، والصلاح في دينهم، ودنياهم .

١٣- إن الملائكة في اللغة جمع ملك: وأصله مألك من الألوكة، وهي الرسالة. وفي الاصطلاح: هم أجسام علوية، قائمة بأنفسها، قادرة على التشكل بقدرته الله، لا حصر لهم، لا يأكلون، ولا يشربون، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وليس لهم

من خصائص الربوبية والألوهية شيء . وإنهم أصناف كثيرة، ولهم وظائف عديدة، وهم سفراء الله بينه وبين عباده، ينزلون بالأمر من عنده في أقطار العالم، ويصعدون إليه بالأمر.

١٤- إن الواسطة بين الله تعالى، والملائكة هو جبريل عليه السلام.

١٥- إن الواسطة بين الله ورسله في إبلاغ الوحي هو جبريل عليه السلام أمين الوحي، وأما نزول غيره من الملائكة لهذا الغرض، إنما كان في حالات نادرة، وحوادث مخصوصة، ليست على سبيل الاستقلال، وإنما كانت على سبيل التبعية، والمشاركة لجبريل عليه السلام.

١٦- إن النبي ﷺ رأى الواسطة الملكي على صورته التي خلق عليها مرتين: مرة عند سدرة المنتهى، ومرة في أجساد بمكة له ستمائة جناح، وإن نزول الواسطة الملكي على الواسطة البشري بالوحي يأتي على عدة أشكال: فمرة يأتيه على صورة غير مرئية، ومرة يراه على صورته، ومرة يتمثل له في صورة رجل إنسي، فيكلمه.

١٧- إنه ثبت -بطريق الوحي- أن جبريل، وبعض الملائكة عليهم السلام كانوا واسطة بين الله تعالى وبعض الأشخاص من غير الأنبياء، تشریفاً لهؤلاء الأشخاص، وتكريماً لهم.

١٨- الوحي في اللغة: الإعلام في خفاء. وفي الشرع: إعلام الله أنبياءه بما يريد أن يبلغه إليهم من شرع، بواسطة، أو بغير واسطة. وإن الوحي يأتي على الأحوال التالية:-

أ- تكليم الله نبيه من وراء حجاب. ب- الإلهام، والقذف في القلب.

ج- رؤيا الأنبياء في المنام. د- تكليم الله أنبياءه بواسطة الملك.

١٩- إن الحكمة في كون الواسطة بين الناس من البشر أنفسهم تكمن في الآتي:-

١- للتناسب بين الطبيعتين؛ لأن الجنس إلى الجنس أميل.

٢- أن البشر لا يطيقون رؤية الملك. ٣- لأجل تمام القدوة، والأسوة.

٤- أن الملك لا يصلح أن يكون رسولا بين الناس؛ لبعد الفجوة، وتباين

الخصائص بين الملائكة، والبشر.

٥- أن النبوة فضل من الله يختص بها من يشاء من عباده، سواء كان ملكاً، أو

بشراً.

٢٠- يتميز منهج أهل السنة والجماعة في فهم الواسطة بالتقيد بالكتاب والسنة، فبحكم سيرهم على هذا المنهج البين، والصرط المستقيم نظروا إلى نصوص الكتاب والسنة، فوجدوها تثبت نوعاً من الواسطة: وهو الواسطة من الملائكة، والأنبياء عليهم السلام في التبليغ، وواسطة العبادة؛ مثل الدعاء، والتوسل المشروع، والعمل الصالح، والشفاعة، وغير ذلك من أنواع العبادات الشرعية، والأعمال الصالحة، ثم وجدوها تنفي أنواعاً أخرى من الوسائط ما أنزل الله بها من سلطان، يتشبث بها أهل الأهواء، والبدع، دون أن يسعفهم في إثباتها شيء من الأدلة المنقولة الصحيحة، أو يوافقهم عليها أهل العقول السليمة، الصريحة، فأثبت أهل السنة والجماعة ما أثبتته الكتاب والسنة، ونفوا ما عدا ذلك؛ سيرا مع الكتاب، والسنة، ووقفاً مع النص، وجوداً، وعدماً.

٢١- مما يوضح صورة الواسطة في التبليغ في الدنيا أن الله تعالى يوحي بالأمر إلى الواسطة من الملائكة وهو جبريل أمين الوحي، فينزل به جبريل على الواسطة من الرسل، ثم يقوم الرسول بالبلاغ المبين في قومه، مبيناً لهم العقيدة، والشرعة، والحلال، والحرام، ثم يقوم من سوى الأنبياء، والرسل، من حواريتهم، وأنصارهم، وصحابتهم، وكذلك مشايخ العلم، والدين بالبلاغ لما جاءت به الرسل، ونشر محاسن الرسالات السماوية، فيكونون وسائط بين الأنبياء، وأممهم في تبليغ الرسالات في الدنيا.

٢٢- إن الله تعالى يرسل جبريل عليه السلام في عرصات يوم القيامة واسطة بينه، وبين خاتم النبيين -صلوات الله وسلامه عليه-؛ وذلك حين يقوم نبينا ﷺ مقامه في الشفاعة العظمى، حينما يعتذر عنها جميع الأنبياء، والرسل، فيقول صلى الله عليه وسلم: (أنا لها) كما ورد في السنة أن أصحاب الأعدار الأربعة، وهم: رجل أصم، لا يسمع شيئاً وقت البعثة، ورجل أحمق، مجنون لا يعقل شيئاً، ورجل هرم، لا يدري شيئاً، ورجل مات في الفترة، لم يدرك رسالة، ولم يأت رسول، هؤلاء المعذورون يرسل الله إليهم رسولا، واسطة بينه وبينهم في التبليغ في الآخرة، لإقامة الحججة عليهم، والإعذار إليهم.

٢٣- إن الرسالة، أو النبوة سفارة بين الله، وبين الناس؛ لإرشادهم، ووعدهم، ووعيدهم، وهي اصطفاء محض من الله، واختيار؛ لأن الله يصطفى من الملائكة رسلاً، ومن الناس رسلاً، فمقام هذه الرسالة عند أهل السنة والجماعة في ذروة الاهتمام، ومن الأهمية بكان؛ لأنها روح العالم، ونوره، وحياته، ولا صلاح للعالم إذا عدم الروح،

والنور، والحياة.

٢٤- من الخصائص التي تميزت بها رسالة نبينا صلى الله عليه وسلم :-

أ - كونها رسالة عالمية، وليست خاصة، كما هو حال الرسائل السماوية السابقة.

ب - كونها خاتمة للرسالات السماوية.

ج - شمولها، واستيعابها لشئون الإنسان، والكون الذي يعيش فيه، والدار الآخرة، التي هو صائر إليها.

د - الوسطية، والتوازن.

هـ - كون المؤمنين بها يشهدون يوم القيامة على سائر الأمم أصحاب الرسائل السابقة.

و - حفظ الله لها من التبديل.

٢٥- من الحقوق التي أوجب الله على الأمة لصاحب هذه الرسالة صلى الله عليه

وسلم: الإيمان به، ومحبته، وطاعة أمره، واتباع سنته، وتعزيره، وتوقيره، وتعظيمه، والصلاة والسلام عليه، والإيمان بعصمته صلى الله عليه وسلم في التبليغ، وفي الأمور التي تتعلق بها إثبات نبوته. وهذه الحقوق كلها واجبة، وهي مترابطة، ومتلازمة، ولا ينفك بعضها عن بعض، حيث لا يتصور في شخص واحد وجود بعضها، وتخلف حق منها.

٢٦- الهداية للحق، وإلى الطريق المستقيم هي أعظم نعمة يوفق الله عبده لنيلها، وهي

أنواع:-

أ - الهداية العامة المشتركة بين الخلق.

ب - هداية البيان، والدلالة، والإرشاد، والتبليغ، وهذه الهداية هي التي شرف الله بها نبيه صلى الله عليه وسلم، وأعطاه إياها، وكرم الله بها كل من آمن به، وبرسوله، وأطاعه، واتباع النور الذي أنزل معه.

ج - هداية التوفيق والإلهام. د - هداية المؤمنين إلى الجنة، والكافرين إلى النار.

٢٧- إن الرسول صلى الله عليه وسلم واسطة في التبليغ، والبيان، لا في العبادة



وجزاء الإنسان؛ لأن التبليغ، والإرشاد من عمل الرسول ﷺ وواجباته، وأما العبادة، وما يتعلق بها كجزاء الإنسان، والحكم على مصيره هل هو إلى الجنة، أم إلى النار؟ فهذا من حقوق الله تعالى، فليس بين الله تعالى وبين خلقه واسطة حال الدعاء، والتضرع، والرجاء، من الملائكة، والأنبياء، بله غيرهم.

٢٨- إن الواسطية سمة بارزة في منهج أهل السنة والجماعة؛ وذلك في جميع مسائل الاعتقاد، ومن تلك المسائل وسطيته في باب تعظيم النبي ﷺ؛ حيث يرون أن تعظيمه ﷺ أمر زائد على المحبة؛ لكنه تعظيم شرعي، يحفظ للنبي ﷺ مكانته في قلب المؤمن بعيداً عن الغلو في حقه، أو إعطائه شيئاً من خصائص الألوهية، أو الربوبية، كما يفعل الغلاة من أهل البدع، وبمعرفة حدود هذا التعظيم الشرعي يقف المسلم في سياج منيع، وحصن حصين، يقيه التردي في إحدى حفرتين: ألا وهما: غلو الغالين، أو جفاء المتنقصين.

٢٩- العبادة: هي اسم جامع لكل ما يحبه الله، ويرضاه من الأقوال، والأعمال، الباطنة، والظاهرة، وكل عبادة استوفت شرطي قبول العمل، وهما: -

أ - الإخلاص لله تعالى.

ب - ومتابعة النبي صلى الله عليه وسلم، فهي عبادة صحيحة، وعمل صالح، وواسطة شرعية لحصول ثواب الله تعالى، ومحبته، ورضوانه، فالعبادات الصالحة هي الوسيلة التامة إلى سعادة الدنيا، والآخرة، فالصلاة واسطة، والصيام واسطة، والصدقة واسطة، والحج واسطة، وقل مثل ذلك في سائر أنواع العبادات، وأصناف القربات.

٣٠- الدعاء هو العبادة، وهو رابطة قوية بين العبد، وربّه، فيتقرب به المخلوق من خالقه جل شأنه، وهو وسيلة صحيحة، وواسطة شرعية، يتم فيه اطراح العبد بباب ربه الكريم، يتجلى فيه من مظاهر العبودية، والتذلل، والانكسار لله تعالى ما لا يظهر في كثير من صور العبادات الأخرى.

٣١- إن صورة الواسطة في التوسل المشروع تتضح بمعرفة أنواعه الثلاثة: وهي: -

أ - التوسل بأسماء الله الحسنى، وصفاته العلى.

ب - التوسل إلى الله تعالى بدعاء الرجل الصالح الذي ترجى إجابة دعائه.

ج - التوسل إلى الله تعالى بالعمل الصالح، فالإقتصار على هذه الأنواع هو

الواجب على المسلم من التوسلات البدعية المخترعة، التي شغل بها أهل الأهواء أنفسهم عن الثابت من التوسل .

٣٢- العمل الصالح واسطة صحيحة بين العبد وخالقه، والأعمال الصالحة التي تنفع المؤمن وتقربه من مولاه متنوعة؛ لكنها ترجع في الأساس إلى ثلاثة أضرب : منها : ما يختص بالقلب، ومنها ما يختص بالبدن، ومنها ما يشترك فيه البدن، والقلب .

٣٣- الشفاعة في الاصطلاح هي : التوسط للغير بجلب منفعة، أو دفع مضرة، وهي ثابتة للنبي ﷺ يوم القيامة، وللنبي ﷺ شفاعات في الآخرة، بعضها خاص به صلى الله عليه وسلم، ويشاركه الملائكة، والنبيون في بعضها الآخر، وهذه الشفاعات هي : -
أ - الشفاعة العظمى .

ب - الشفاعة في استفتاح باب الجنة لأهلها .

ج - الشفاعة في تخفيف العذاب عمن يستحقه .

د - الشفاعة في رفع درجات أقوام من أهل الجنة .

هـ - الشفاعة في دخول الجنة بلا حساب .

و - الشفاعة لأهل الكبائر .

٣٤- ومع ثبوت الشفاعة لنبينا ﷺ إلا أنه لا يجوز أن نتوجه إليه الآن بطلبها منه، وإنما نتوجه إلى المولى عز وجل بطلبها، فنقول : اللهم شفّع فينا نبيك، وخاتمة رسلك محمداً صلى الله عليه وسلم، واجعلنا نرد حوضه، ونشرب منه شربة، لا نظماً بعدها أبداً .

٣٥- وأما الشفعاء الذين دلت الأدلة على شفاعتهم، غير النبي ﷺ فهم : الملائكة، والنبيون، وأفراط المسلمين، والشهداء من هذه الأمة، فيجب على المسلم أن يعتقد شفاعتهم .

٣٦- ينبغي في الرد على أهل الأهواء بنفي الواسطة البدعية، والتوسل البدعي بذوات الأنبياء، والأئمة، والأولياء، أن نركز على مسألة مهمة، وهي أن العبادة الشرعية واسطة مقبولة بنفسها، وهذه المسألة يتفق عليها الجميع، فينبغي بيانها وتوضيحها للعوام، وأهل الأهواء والبدع، الذين جرفهم تيار التوسل البدعي وشغلهم التعلق بذوات المخلوقين، عن الاستغناء بالثابت من التوسل واعتبار العبادة الشرعية واسطة مقبولة عند الله تعالى .

٣٧- يتميز مذهب أهل الأهواء في فهم الوساطة بخروجه عن دائرة الكتاب والسنة، ومن ثم بنوه على الأمور التالية :-

أولاً: تعلقهم بكل شيء ظنوه سبباً، وإن لم يكن سبباً.

ثانياً: دعوتهم الصريحة إلى التعلق بالوساطة، والالتفات إليها أكثر من المتوسط إليه.

ثالثاً: فلسفتهم الخاصة في منع العصاة، والمذنبين من التوجه إلى الله مباشرة، والبحث عن واسطة مصقولة الباطن، نظيفة الظاهر.

رابعاً: اعتمادهم على الأخبار الواهية، والأحاديث المكذوبة.

خامساً: قياسهم الوساطة في العبادة على الوساطة في التبليغ.

سادساً: زعمهم أن كل من عظمه الله تعالى واسطة بذاته، فيرون أن من تعظيمه اعتقاد وساطته، وأن ذلك من تعظيم الله تعالى.

٣٨- تبين لي من خلال دراسة هذا الموضوع وقوع أهل الأهواء في تناقض عجيب؛ وذلك أنهم وقعوا في الغلو الفاحش في الوساطة الصحيحة نبينا محمد ﷺ فرفعوه فوق مرتبة النبوة، ومنزلة الرسالة، ثم جمعوا مع ذلك تنقيصه صلى الله عليه وسلم، والخط من رتبته، والطمع في مقام النبوة، فزعموا أن لبعض الشخصيات منزلة أعلى من منزلته، ومكانة أسمى من مكانته صلى الله عليه وسلم، وأن هذا التنقيص موجود في مقالات الفلاسفة، والرافضة، والصوفية.

٣٩- إن نظرة الرافضة للرسول ﷺ تتميز بالغلو حيناً، والتنقيص أحياناً أخرى، فحينما يتحدثون عن النبي ﷺ يقولون إنه خلق من نور، فإذا ما تحدثوا عن علي رضي الله عنه، والأئمة من بنيه رحمهم الله وقعوا في تنقيص النبي ﷺ، والخط من قدره، والرفع من شأن الإمام.

٤٠- إن عقيدة الرافضة في الملائكة الكرام الطعن فيهم، والتطاول على مقامهم المقرب، وإنكار وظائفهم، وخصائصهم التي شرفهم الله بها، وكأنهم ملائكة الأئمة، لا ملائكة الله.

٤١- تتميز نظرة الرافضة لأئمتهم "وسائطهم" بالغلو الفاحش، والتقديس المرفوض مع التنقيص الفاضح لمقام النبوة، ومنزلة الرسول صلى الله عليه وسلم.

٤٢- إن الشبهات التي تدافع بها الرافضة عن عقيدتهم في ادعاء وساطة الأئمة شبهات واهية تتمثل في روايات باطلة، وأخبار مختلفة، وأن هذه الشبهات مخالفة للطبع، والعادة، والشرعية.

٤٣- لقد وقع الصوفية في الإطار المنهي عنه؛ بل وقعوا في الغلو الزائد في الرسول صلى الله عليه وسلم حتى طفحت عباراتهم بالشرك، ومعاني الزندقة، فزعموا أنه خلق من نور، وأنه أصل مادة الوجود، وأن الكون انبجس من نوره، وأن الكائنات خلقت من أجله، وأنه لا ظل له، ومن ثم ادعوا جواز صرف شيء من أنواع العبادة له صلى الله عليه وسلم.

٤٤- وجدت أن مقام الولاية عند الصوفية مزاحم لمقام النبوة؛ بل هو أعلى منها كما يصرحون بذلك، ويسبب ادعائهم وساطة الأولياء لازمهم أمران:-

أحدهما: رفع مقام الولاية فوق مقام النبوة، والغلو في الولي.

وثانيهما: خدش مقام النبوة، والخط من منزلة الرسالة، وتنقيص الأنبياء، وربما فضلوا خاتم الأولياء على جميع الأنبياء.

٤٥- إن أجلى ما تتضح به صورة الوساطة البدعية عند الصوفية في الأحياء هو دعوتهم الصريحة إلى تعلق المريدين بوسائطهم حال الحياة؛ حيث يصرح المتبوعون من الشيوخ لأتباعهم أن يبدعهم الخلاص، والفلاح لمن توجه إلى الله تعالى بواسطتهم، وتعلق بهم، وآوى إلى جنابهم، ودخل ساحتهم.

٤٦- ثم تتأكد هذه العلاقة، وتتوطد بين الشيخ، والمريد بعد وفاة الشيخ، وبعد أن يصبح في عالم البرزخ، واتضح أن الصوفية في صورة الوساطة البدعية في الأموات اتبعوا سنن الرافضة في التعلق بالمقبورين، والعكوف على قبورهم.

٤٧- اتضح أن نظرة الصوفية لشييوخهم "وسائطهم" عموماً تتميز بالغلو الزائد، والتقديس المشين، فادعوا عصمتهم، وهولوا من قدراتهم، وطاقاتهم، وادعوا أن الشيخ يطرح عن المريد الخطايا، والمعاصي، فأصبحوا يحلفون بهم، ويحكون عنهم حكايات، وقصص خرافية بعيدة عن الحقيقة والواقع، وأصبح الشيخ عند الصوفية عالماً خرافياً تنسج حوله الأساطير، والتصورات الخاطئة.

٤٨- إن الشبهات التي تشبث بها الصوفية لتبرير التعلق بالوسائط البدعية أنواع: -
فمنها شبهات عامة، بعضها آيات ليس فيها دليل لهم، وأحاديث ضعيفة أو موضوعة لا حجة فيها، أو أحاديث صحيحة ليس فيها مستند لهم.
ومنها شبهة التسبب، والكسب، وشبهة المجاز العقلي.
ومنها شبهات تتعلق بالأنبياء عليهم السلام: كالتوسل بهم، وقياس وساطتهم في العبادة على وساطتهم في التبليغ، وقياس حياتهم البرزخية على حياتهم الدنيوية، وقياس جواز التوجه إلى النبي ﷺ بالطلب قياساً على شفاعته يوم القيامة.
ومنها شبهات تتعلق بالأولياء، والصالحين: مثل شبهة الولاية، والكرامة، وشبهة البركة.

ومنها حكايات، ومنامات يروونها عن شيوخهم، ووسائطهم.
٤٩- ومن النتائج التي توصلت إليها من خلال هذا البحث اكتشاف أن رسالة الواسطة التي تنسب للعز بن عبد السلام رحمه الله هي نفسها رسالة شيخ الإسلام ابن تيمية " الواسطة بين الحق والخلق " كما سبقت الإشارة إلى ذلك في المقدمة.
٥٠- وجدت أن السبب في تعلق الصوفية بالمقبورين، والتماس المدد منهم سببه هو تلك التصريحات التي كانت تصدر من الوسائط المزعومة للمريدين في حياتهم، كتخليص المريد من المأزق، وتشبثه عند القلق، ونفقه، أو ضره - كما وضحته صورة الواسطة البدعية عندهم في الأحياء - مما مهد للكثير من الممارسات البدعية عند قبور هؤلاء الوسائط - كما وضحته صورة الواسطة البدعية عندهم في الأموات -.

٥١- تحاول هذه الرسالة أن تأخذ بيد المسلم كي يصفى العلاقة بينه وبين ربه عز وجل من الشوائب، والمكدرات، ولكي يتخلى عن العلائق، والعوائق، والشواغل، والحوائل التي تحول بين العبد وربّه؛ لإخلاص العبادة لله تعالى، وعدم صرف شيء منها لغيره تعالى، لا لنبي مرسل، ولا لملك مقرب، ولا لإمام منصوب، ولا لولي محبوب.

٥٢- إن التناقض عند أهل الأهواء في باب الواسطة أمر عجيب فبينما نجد كثيراً منهم يدعون المريدين إلى التعلق بالله تعالى، ونكران الخلق، وعدم الالتفات إلى الأسباب، ويدعون إلى التوحيد الخالص، كقول أبي يزيد البسطامي: (استغاثة المخلوق

بالمخلوق كاستغاثة الغريق بالغريق) نجدهم في الجانب الآخر يصفون أنفسهم بما لا يوصف به إلا رب العزة، والجلال، كقول أبي يزيد نفسه (سبحاني ما أعظم شأنني)، ويتطاولون على مقام النبوة، كقول أبي يزيد نفسه: (وقع في خاطري أنني أشفع لك إلى ربي)... إلى غير ذلك من التناقضات .

٥٣- اتضح لي من خلال هذا البحث وقوع الرافضة، والصوفية في الكذب؛ حيث كذبت الرافضة على الأئمة من آل البيت -رحمهم الله- فادعت أنهم واسطة بينهم، وبين الله تعالى، والأئمة بريئون من هذا الزعم الكاذب، بينما كذب غلاة أئمة الصوفية، ومشايخها الضالون على المريدين من أتباعهم، فادعى كثير من مشايخهم أنهم واسطة بينهم، وبين الله تعالى، فكذب التابع على المتبوع عند الطائفة الأولى، وكذب المتبوعون على أتباعهم عند الطائفة الثانية، وفي الصوفية قد يكذب التابع على المتبوع فيجتمع فيهم النوعان .

٥٤- أن المرء الموحّد الذي أنقذه الله من مهاوي البدع، وخصوصا التعلّق بغير الله تعالى من العبيد المخلوقين، والوسائط المزعمين، والتذلّل لهم، والانكسار أمامهم هذه النعمة توجب عليه الفرح بالتوحيد، والخوف من سلبه .

٥٥- أثمرت الواسطة الشرعية لأهل السنة آثارا مباركة ذاقوا حلاوتها: ومن تلك الآثار: طلب نيل رضوان الله تعالى، ودخول جنته، وتحقيق التوحيد الخالص، وحازوا الطمأنينة، والثبات، وشعروا بالعزة، والقوة، والنصر، وعلموا أن حصول السيادة، والاستخلاف في الأرض سببه التوحيد، وأن الالتزام بالواسطة الشرعية يحقق الوحدة بين المسلمين .

٥٦- كما نجم عن القول بالواسطة البدعية آثار سيئة في عقائد أهل الأهواء: مثل وقوعهم في التشبيه، والشرك، والحيرة، والشك، والضياع، كما نتج عن القول بالواسطة البدعية الذلة، والانكسار لغير الله تعالى، وضياع عمل المبتدع لتوزعه بين الوسائط، كما سببت الواسطة البدعية انتشار الضعف بين المسلمين، وانشطار شملهم .

التوصيات المقترحة:

أوصي نفسي، وإخواني المسلمين بالتمسك بالإسلام روحا، ومظهرا، فهي وصية

إبراهيم ، ويعقوب على نبينا وعليهما السلام : ﴿يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (١).

ثم أرى أن هناك مسألة جدية بالتحقيق ، والتتبع في بحث مستقل ألا وهي : أن معظم شيوخ الطرق ، والوسائط المزعومين - إن لم يكونوا كلهم - يسطو المتأخر منهم على دعاوى المتقدم ، فدعوى أن من نظر إليه الولي الفلاني يموت في الحال ، وأن من نظر إليه الكامل الفلاني يدخل الجنة ، وكون الواسطة الفلاني ختمت به الولاية ، وأن القطب الفلاني هو واسطة الفيض إلى غيره من الأولياء ، والصالحين كل هذه الدعاوى ، وغيرها كثير يوجد عند بعض المتأخرين ، ويوجد من سبقهم إلى القول به من أقطاب التصوف المتقدمين .

كما أرى أنه ينبغي أن تفرد رسالة علمية في بيان شبهات أهل الأهواء ، فهي كثيرة ومتنثرة .

وأخيراً: أرى أن الأسلوب الأمثل لمعالجة مسألة الواسطة البدعية عند أهل الأهواء ، وغيرها من الأخطاء العقدية ينبغي أن يكون بالحكمة ، واختيار الأسلوب النافع المؤثر .

ومن جميل ما وقفت عليه في هذا المجال ما ذكره الشيخ عطية محمد سالم عن منهج الشيخ محمد الأمين الشنقيطي - رحمهما الله تعالى - في الدعوة إلى الله ، وأنه ألقى محاضرة في نيجيريا حول الغلو في الأشخاص ، فكان من حكمته ، وبصره بالدعوة أن أخذ يحث على العمل الصالح ، ويبين للناس أن يوم القيامة لا ينفع مال ، ولا بنون ، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ، ثم أخذ يمثل بالرسول ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطَ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاهِلِينَ﴾ (٢) .

(فهذان نبيان كريمان لم يغنيا عن زوجتيهما شيئا ، وولد نوح يبتلعه الطوفان ، وهو ينظر إليه ، ولم يملك له شيئا ، وهذا نبي الله إبراهيم عليه السلام لم يغن عن أبيه من الله شيئا ، فقد ألح في دعوته إلى الله ، ولكن أصر وعاند ، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ، وهذا سيد الخلق صاحب الشفاعة العظمى حين يقول كل نبي (نفسي نفسي) ويتقدم هؤلاء قائلا : (أنا لها) يقول لابنته التي هي بضعة منه : (يا فاطمة اعلمي فإني لا أغني عنك من

(١) سورة البقرة ، الآية : ١٣٢

(٢) سورة التحريم ، الآية : ١٠ .

(الله شيئاً) .

وهكذا كانت محاضراته رحمه الله، ولم يتعرض لشخص بعينه، ولا إلى عمل معين، ولما انصرفنا جاء رجل يتوكأ على عصا، فسلم على الشيخ، وقال له: لقد حطمت الأصنام التي كانت هنا، فقال له: متجاهلاً: أي أصنام في بلد مسلم؟ فقال: إذا كان الرسل: نوح، ولوط، وإبراهيم، ومحمد صلوات الله، وسلامه عليهم لم يستطيعوا مساعدة أقرب الناس إليهم من أب، أو ابن، أو زوجة، فهل هؤلاء الذين يدعون أنهم شيوخ يستطيعون نفع أتباعهم يوم يقول كل نبي: نفسي، نفسي، ولا شك أن هذا المفهوم وجد عند الكثيرين^(١).

اللهم رب جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، فاطر السموات، والأرض، عالم الغيب، والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق، بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم.

رجاء: أوجه رجائي لكل من يتصفح هذا العمل البشري، ويقرأ هذه الرسالة إن وجد صواباً أن يدعو لي، وإن وجد خطأ أن يصلحه، ويلتمس لي العذر فيه، وأقول له: -

يا من يراها منصفاً	يقرأها مغتبطاً
أهديكم صوابها	فاهدي إلينا الغلطاً
وادع لنا عقبها	وأولاً ووسطاً

وبذكر هذه التوصيات وبعد هذا الرجاء أكون قد انتهيت من هذه الرسالة المباركة إن شاء الله، فالحمد لله أولاً وآخراً، وظاهراً، وباطناً، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله، وصحبه، وسلم تسليماً كثيراً، وجزاه الله عنا أفضل ما جزى نبياً عن أمته.

(١) ضرورة الدعوة إلى الله وأثرها، تأليف الشيخ عطية محممة سالم ص ٥٤.

فهرس المصادر والمراجع

- ١- القرآن الكريم
- ٢- الآثار الواردة عن أئمة السنة في أبواب الاعتقاد من كتاب سير أعلام النبلاء
- ٣- للذهبي، د/ جمال بشير بادي - دار الوطن - الرياض - ١٤١٦ هـ.
- ٤- الآداب الشرعية والمنح المرعية، لابن مفلح - مكتبة الرياض - الرياض - ١٣٩١ هـ.
- ٥- الآيات البينات في عدم سماع الأموات عند الخفية السادات، نعمان الألوسي - تحقيق: الشيخ الألباني - المكتب الإسلامي - بيروت - ط ٤ - ١٣٩١ هـ.
- ٦- آيات الهداية والاستقامة في كتاب الله تعالى، الشيخ عطية محمد سالم - مكتبة دار التراث - المدينة المنورة - ط ١ - ١٤١٤ هـ.
- ٧- الأئمة الاثنا عشر، لابن طولون - تحقيق: صلاح الدين المنجد - دار صادر - ١٩٥٨ م.
- ٨- أئمة المسجد الحرام ومؤذنه في العهد السعودي، عبدالله سعيد الزهراني - ط ١ - الرياض - ١٤١٩ هـ.
- ٩- أبو حامد الغزالي والتصوف، عبدالرحمن دمشقية - دار طيبة - الرياض - ١٤٠٦ هـ.
- ١٠- أثر الإيمان في تحصين الأمة الإسلامية ضد الأفكار الهدامة، د/ عبدالله الجربوع - رسالة ماجستير غير منشورة - بالجامعة الإسلامية.
- ١١- أثر العقيدة في بناء الفرد والمجتمع، د/ عبدالعال مكرم - مؤسسة الرسالة - بيروت - ١٤٠٨ هـ.
- ١٢- أثر علامة القصيم الشيخ عبدالرحمن بن سعدي على الحركة العلمية المعاصرة، د/ عبدالله الطيار - دار العاصمة - الرياض - ١٤١٦ هـ.
- ١٣- الأجوبة المفيدة لمهمات العقيدة، للشيخ عبدالرحمن الدوسري - مكتبة الرشد - الرياض - ط ٢ - ١٤٠٣ هـ.
- ١٤- الأحاديث الموضوعة، للصنعاني
- ١٥- الأحاديث الواردة في فضائل المدينة جمعاً ودراسة د/ صالح الرفاعي - مركز خدمة السنة بالجامعة الإسلامية - ط ١ - ١٤١٣ هـ.
- ١٦- أحكام أهل الذمة، لابن قيم الجوزية - تحقيق: صبحي الصالح - دار العلم للملايين - بيروت - ١٤٠١ هـ.
- ١٧- أخبار القرامطة، د/ سهيل ركار - طبعة دار الكوثر.
- ١٨- أخبار القضاة، وكيع بن حيان - تحقيق: عبدالعزيز المراغي - عالم الكتب - بيروت - ١٣٩٩ هـ.
- ١٩- أدب العبودية، محمد مصطفى عبدالرحمن - مكتبة الكليات الأزهرية - القاهرة - ١٤٠٤ هـ.
- ٢٠- الأدب المفرد، للإمام البخاري - دار الكتب العلمية - بيروت - ١٣٩٨ هـ.
- ٢١- أدب الوزير، للماوردي - مكتبة الخانجي - مصر - ١٣٩٨ هـ.

- ٢٢- أدبيات الشاي والقهوة، محمد طاهر الخطاط الكردي.
- ٢٣- الأركان الأربعة: الصلاة، الزكاة، الصوم، الحج، لأبي الحسن الندوي - دار القلم - الكويت - ١٣٩٨هـ.
- ٢٤- أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، أحمد المقري - تحقيق: مصطفى السقا، وآخرين - مطبعة لجنة التأليف والترجمة ١٩٣٩م.
- ٢٥- أساس البلاغة، للزمخشري - تحقيق: الكوثري - دار إحياء التراث - بيروت - ١٣٥٨هـ.
- ٢٦- أسباب النزول، للواحدي - مطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر - ١٣٧٩هـ.
- ٢٧- الأسس العقيدية التشريعية والأخلاقية كما تصورها سورة النجم، د/ محمد عمر حوية الشنقيطي - دار القبلة - جدة ١٤١٢هـ.
- ٢٨- الأسماء والصفات، للبيهقي - تحقيق: الكوثري - دار إحياء التراث - بيروت - ١٣٥٨هـ.
- ٢٩- الأصل الجامع لعبادة الله، للشيخ محمد بن عبد الوهاب - ضمن مؤلفات الشيخ قسم العقيدة - طبعة جامعة الإمام بالرياض - ١٤١٣هـ.
- ٣٠- أصل الدين عند الأئمة وسلف الأمة، عبد المحسن الشاذلي - دار طيبة - الرياض - ١٤١١هـ.
- ٣١- أصل الشيعة وأصولها، محمد الحسيني الكاشف الغطاء - مكتبة النجاح - القاهرة - ط ١٠ - ١٣٧٧هـ.
- ٣٢- الأصمعيات، للأصمعي - تحقيق: أحمد محمد شاكر، وآخر - دار المعارف - القاهرة - ط ٤ - ١٩٧٦م.
- ٣٣- الأصنام، لابن الكلبي - تحقيق: أحمد زكي - المطبعة الأميرية.
- ٣٤- أصول الحديث: علومه ومصطلحه، محمد عجاج الخطيب - دار المعارف - دمشق - ١٤٠٨هـ.
- ٣٥- أصول الدين، عبد القاهر البغدادي - طبعة مدار الفنون - استنبول - ١٣٤٦هـ.
- ٣٦- أصول الدين، للبزدوي - تحقيق: هانز بيتر لتس - ط دار إحياء الكتب العربية - مصر - ١٣٨٣هـ.
- ٣٧- أصول الدين الإسلامي، محمد إبراهيم التويجري.
- ٣٨- أصول الدين عند الإمام أبي حنيفة، د/ محمد بن عبد الرحمن الخميس - دار الصمعي - ط ١ - ١٤١٦هـ.
- ٣٩- أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية عرض ونقد، د/ ناصر بن عبدالله الففاري - دار الرضا - مصر - ط ٣ - ١٤١٨هـ.
- ٤٠- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، الشيخ محمد الأمين الشنقيطي - دار الكتب العلمية - بيروت - ط ١ - ١٤١٧هـ.



- ٤١- أعلام السنة المنشورة ، للحكمي - تعليق : مصطفى الشلي - مكتبة السوادي - جدة - ط ٢ - ١٤٠٨ هـ
- ٤٢- أعلام العراق في تراجم نوابغ الألويسين ، محمد بهجة الأثري - ط السلفية ١٣٤٥ هـ .
- ٤٣- أعلام الفكر الإسلامي في العصر الحديث ، أحمد تيمور باشا - تقديم : السيد محمد يوسف - لجنة نشر المؤلفات التيموية - القاهرة - ١٣٨٧ هـ .
- ٤٤- أعلام الموقعين عن رب العالمين ، لابن قيم الجوزية - تعليق : طه عبدالرؤف سعد - دار الجليل - بيروت
- ٤٥- أعلام النبوة ، للماوردي - مراجعة : طه عبدالرؤف سعد - مكتبة الكليات الأزهرية - القاهرة - ١٣٩١ هـ .
- ٤٦- الأعلام قاموس تراجم ، خير الدين الزركلي - ط ٣ + ط ٥ ١٩٨٠ م دار العلم للملايين - بيروت .
- ٤٧- أعمال القلوب وأثرها في الإيمان ، محمد دوكوري - رسالة دكتوراه - غير منشورة بالجامعة الإسلامية .
- ٤٨- الأغاني ، لأبي فرج الأصفهاني - ط دار الكتب المصرية .
- الأم ، للإمام الشافعي المطلبي - تصحيح : محمد النجار - مكتبات الكليات الأزهرية - القاهرة .
- ٤٩- الأمر بالاتباع والنهي عن الابتداع ، للسيوطي - تحقيق : مشهور حسن سلمان - دار ابن القيم - الدمام ١٤١٠ هـ .
- ٥٠- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، لشيخ الإسلام ابن تيمية - تعليق : محم دبن رسلان - دار العلوم الإسلامية - القاهرة - ١٤٠٩ هـ .
- ٥٢- الأمنية في إدراك النيسة ، أحمد بن إدريس الصنهاجي - دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤٠٤ هـ .
- ٥٣- الأنساب ، للسمعاني - مصور بالأوفست
- ٥٤- أنوار التنزيل وأسرار التأويل (تفسير البضاوي)، لليضاوي - دار الطباعة المعمورة - القاهرة - ١٣٨٥ هـ .
- ٥٥- أنوار الحق في الصلاة على سيد الخلق ، عبدالمقصود سالم ، مكتبة شركة الشمرلي بالقاهرة ط ١٨ ، سنة ٤٠٦ هـ .
- ٥٦- الأنوار الكاشفة لما في كتاب أضواء على السنة من الزلل والتضليل واخجازفة ، للمعلمي - المطبعة السلفية - القاهرة - ١٣٧٨ هـ .
- ٥٧- الأنوار احمديّة من المواهب اللدنيّة ، يوسف النبهاني - طبعة ١٣١٢ هـ .

- ٥٨- الأنوار النعمانية ، نعمة الله الجزائري الرافضي - مطبعة شركة جاب - إيران .
- ٥٩- أنيس الفقهاء ، للقانوني - تحقيق : د/ أحمد بن عبد الله الكبيسي - دار الوفاء - جدة - ١٤٠٦ هـ .
- ٦٠- أهل الصفة وأحوالهم ، شيخ الإسلام ابن تيمية - تحقيق : مجدي فتحي السيد - دار الصحابة - مصر - ١٤١٠ هـ .
- ٦١- أهل الفترة ومن في حكمهم ، موفق شكري - مؤسسة علوم القرآن بعجمان - ١٤٠٩ هـ .
- ٦٢- أوضح الإشارة في الرد على من أجاء المنوع من الزيارة ، أحمد بن يحيى النجفي - ط الرئاسة العامة للبحوث العلمية والدعوة والإرشاد - الرياض - ١ - ١٤٠٥ هـ .
- ٦٣- الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة ، لابن بطة العكبري - تحقيق : رضا بن نعان معطي - ط دار الراية - الرياض - ١٤٠٩ هـ .
- ٦٤- الإبريز من كلام سيدي عبدالعزيز ، أحمد بن مبارك اللطمي - مطبعة عبد الحميد حنفي - مصر .
- ٦٥- إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين ، للزبيدي - دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤٠٩ هـ .
- ٦٦- إتحاف النبلاء بسير العلماء ، راشد عثمان الزهراني - دار الصيمعي - الرياض - ١ - ١٤١٦ هـ .
- ٦٧- الإتيان في علوم القرآن ، للسيوطي - تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم - الهيئة المصرية - للكتاب - القاهرة - ١٩٧٤ م .
- ٦٨- إثبات الشفاعة ، للذهبي - تحقيق : إبراهيم باجس - أضواء السلف - ط ١ - ١٤٢٠ هـ .
- ٦٩- الإحاطة في أخبار غرناطة ، للسان الدين بن الخطيب - تحقيق : محمد عنان - مكتبة الخانجي - ط ١ - ١٩٧٤ م .
- ٧٠- الإحكام في أصول الأحكام ، للآمدي - مطبعة دار المعارف - القاهرة - ١٣٣٢ هـ .
- ٧١- إحياء الشريعة في مذهب الشيعة ، محمد بن مهدي الكاظمي - الخالصي - مطبعة المعارف - بغداد ط ١ - ١٣٧٠ هـ .
- ٧٢- إحياء علوم الدين ، الغزالي - المطبعة العثمانية - مصر - ١٣٥٢ هـ .
- ٧٣- الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد والرد على أهل الشرك والإلحاد ، د/ صالح الفوزان - مكتبة ابن تيمية - القاهرة - ١٤١١ هـ .
- ٧٤- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم (تفسير أبي السعود) ، لأبي السعود - دار إحياء التراث العربي
- ٧٥- إرشاد الفحول إلى معرفة الحق من علم الأصول ، محمد بن علي الشوكاني - مكتبة محمد علي صبح



- ٧٦- إشارة الصين في تراجم النحاة واللغويين، عبد الباقي اليماني - تحقيق: عبد المجيد دياب - مركز الملك - فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية - الرياض - ١٤٠٦ هـ .
- ٧٧- الإعلام بقواطع الإسلام ، لابن حجر الهيتمي - مطبعة منصور محمد - ١٢٩٣ هـ .
- ٧٨- الإعلام بوفيات الأعلام، للذهبي - تحقيق: رياض مراد، وآخر - ط دار الفكر المعاصر - بيروت .
- ٧٩- إغالة اللهفان من مصائد الشيطان، لابن قيم الجوزية - تحقيق: مجدي فتحي السيد - ط دار الحديث - القاهرة .
- ٨٠- إقامة البراهين على حكم من استغاث بغير الله أو صدق الكذبة والعرافين، لسماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز - طبعة الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء - الرياض - ١٤٠٤ هـ .
- ٨١- الإكليل في استباط التنزيل ، للسيوطي - تصحيح: الغماري - دار الكتاب العربي - القاهرة .
- ٨٢- إلى التصوف يا عباد الله ، للشيخ أبي بكر الجزائري - مطبعة المدني - مصر - ط ١ - ١٤٠٨ هـ .
- ٨٣- الإمام الصادق حياته وعصره، محمد أبو زهرة - دار الفكر العربي - القاهرة - بدون تاريخ .
- ٨٤- الإمام محمد بن نصر المروزي وجهوده في بيان عقيدة السلف والدفاع عنها ، لموسم النفيعي دار الوطن بالرياض .
- ٨٥- الإمامة عند الشيعة الاثني عشرية، جلال الدين صالح - رسالة ماجستير - غير منشورة ، بالجامعة الإسلامية .
- ٨٦- إنباء الرواة على أئمة النحاة، جمال الدين القفطي - تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم دار الفكر العربي - ط ١ - ١٩٨٦ م .
- ٨٧- الإنصاف في حقيقة الأولياء ومآلهم من الكرامات والألطاف، للصنعاني - تحقيق: مجموع من طلبية العلم بإشراف د/ حسن بن علي العواجي - ط ١ - ١٤١٧ هـ .
- ٨٨- إنباء الحق على الخلق في رد الخلافات إلى المذهب الحق من أصول التوحيد، محمد بن المرتضى اليماني المشهور بابن الوزير - دار الكتب العلمية - بيروت - ط ٢ - ١٤٠٧ هـ .
- ٨٩- إيضاح الدلالة في عموم الرسالة، لشيخ الإسلام ابن تيمية - ضمن مجموعة الرسائل المنيرية - إدارة الطباعة المنيرية - القاهرة - ١٣٤٣ هـ .
- ٩٠- إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون، للبغدادى تصحيح محمد شرف الدين ، المكتبة الإسلامية بطهران ، ط ثلاثة ١٣٧٨ .
- ٩١- ابن هاني الأندلسي متبني المغرب، أبو القاسم كرد - الدار العربية للكتاب ١٩٨٤ م .
- ٩٢- اتعاظ الخلفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، للمقرئ - تحقيق: د/ جمال الدين الشيال - ط القاهرة - ١٩٦٧ م .

- ٩٣- اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية ، لابن قيم الجوزية - مكتبة ابن تيمية - ١٩٨٨ م.
- ٩٤- الاستقامة ، لشيخ الإسلام ابن تيمية - تحقيق : د/ محمد رشاد سالم - ط جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - ط ١ - ١٤٠٣ هـ.
- ٩٥- استشاق نسيم الأنس من نفحات رياض القدس ، لابن رجب الحنبلي - تحقيق : أحمد عبدالرحمن الشريف - دار الخاني - الرياض - ١٤١١ هـ.
- ٩٦- الاعتقاد على مذهب أهل السنة والجماعة ، للبيهقي - تصحيح : أحمد موسى - ١٩٦١ م.
- ٩٧- اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ، للفخر الرازي - تحقيق : عبدالرؤوف ، وآخر - مكتبة الكليات الأزهرية ١٩٧٨ م.
- ٩٨- الاقتصاد في الاعتقاد ، للغزالي - دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤٠٣ هـ.
- ٩٩- الاقتصاد في الاعتقاد ، للحافظ عبدالغني المقدسي - تحقيق : د/ أحمد عطية الغامدي - مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة - ١٤١٤ هـ.
- ١٠٠- اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم ، لشيخ الإسلام ابن تيمية - تحقيق : د/ ناصر العقل - مكتبة الرشد - ط ٤ - ١٤١٤ هـ.
- ١٠١- الانتصار والرد على ابن الواوندي الملحد ، عبدالرحيم الحياط المعتزلي - المطبعة الكاثوليكية - بيروت - ١٩٧٥ م.
- ١٠٢- الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء ، لابن عبدالبر - مكتبة القدس - القاهرة - ١٣٥٠ هـ.
- ١٠٣- الانحرافات العقيدية والعلمية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين ، علي بخيت الزهراني - تقديم : محمد قطب - مكتبة دار طيبة - مكة المكرمة - ط ٢ - ١٤١٨ هـ.
- ١٠٤- الباعث على إنكار البدع والحوادث ، لأبي شامة المقدسي - تحقيق : عثمان أحمد عنبر - ط دار الهدى - القاهرة ١٣٩٨ هـ.
- ١٠٥- بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار ، محمد باقر المجلسي - دار إحياء التراث العربي - بيروت
- ١٠٦- بحر الدموع ، لابن الجوزي - تحقيق : إبراهيم عبدالمجيد - مؤسسة الرسالة - بيروت - ١٤١٤ هـ.
- ١٠٧- بد العارف ، لابن سبعين - تحقيق : د/ جورج كتورة - دار الأندلس - بيروت - ط ١ - ١٩٧٨ م.
- ١٠٨- البدء والتاريخ ، للبلخي - وينسب للمقدسي - مكتبة المثنى - بغداد
- ١٠٩- بدائع الفوائد ، لابن قيم الجوزية - ط دار الفكر .
- ١١٠- البداية والنهاية ، لابن كثير - تحقيق : د/ أحمد أبو ملحم ، وآخرين - دار الكتب العلمية - بيروت - ١٩٨٥ م.
- ١١١- البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ، الشوكاني - مكتبة ابن تيمية - القاهرة .

- ١١٢- البدعة وأثرها السيء في الأمة، سليم الهلالي- المكتبة الإسلامية- الأردن- ١٤٠٤هـ.
- ١١٣- الدور السافرة في أمور الآخرة، جلال الدين السيوطي- خرج أحاديثه: أبو محمد المصري- مؤسسة الكتب الثقافية- بيروت- ط١- ١٤١١هـ.
- ١١٤- البرهان الساطع في تبرؤ المتبوع من التابع، محمد سلطان المعصومي- دار الراية- ط١- ١٤١٢هـ.
- ١١٥- البرهان في معرفة عقائد أهل الأديان، للسكسكي- تحقيق: بسام العموش- مكتبة المنار- الأردن- ١٤٠٨هـ.
- ١١٦- بروتوكولات آيات قم حول الحرمين المقدسين، د/ عبدالله القفاري- ١٤١١هـ.
- ١١٧- البريلوية عقائدية وتاريخ، إحسان إلهي ظهير- الناشر إدارة ترجمان السنة- لاهور- ط١- ١٤٠٣هـ.
- ١١٨- بستان الواعظين ورياض السامعين، لابن الجوزي- مراجعة: السيد الجميلي- دار الكتاب العربي- بيروت- ١٤١٠هـ.
- ١١٩- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، للفيروزآبادي- تحقيق: محمد النجار، وآخر- ط المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ١٣٩٣هـ.
- ١٢٠- بطلان عقائد الشيعة، للتونسوي- دار العلوم للطباعة- ١٤٠٨هـ.
- ١٢١- البغوي ومنهجه في التفسير، عفاف عبدالغفور- دار الفرقان- عمان- ١٤٠٢هـ.
- ١٢٢- بغية المرتاد في الرد على التفلسفة والقرامطة والباطنية أهل الإلحاد من القائلين بالحلل والائحاد، لشيخ الإسلام ابن تيمية- تحقيق: د/ موسى الدويش- مكتبة العلوم والحكم- ط١- ١٤٠٨هـ.
- ١٢٣- بغية المستفيد لشرح منية المريد، محمد العربي السائح التجاني- دار الجبل- بيروت
- ١٢٤- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، للسيوطي- تحقيق: محمد أبي الفضل إبراهيم دار الفكر- ط٢- ١٩٧٩م.
- ١٢٥- بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، محمود شكري الألوسي- تحقيق: محمد بهجت الأثري- دار الكتب الحديثة- القاهرة- ط٣
- ١٢٦- بيان الشرك ووسائله عند أئمة الحنفية، د/ محمد الخميس- دار الفتح- الشارقة- ط١- ١٤١٤هـ.
- ١٢٧- بيان حقيقة التوحيد الذي جاءت به الرسل و دحض الشبهات التي أثرت حوله، الشيخ صالح الفوزان- ط مركز شؤون الدعوة بالجامعة الإسلامية- المدينة المنورة- ط١- ١٤١٣هـ.
- ١٢٨- التأدب مع الرسول ﷺ في ضوء الكتاب والسنة، حسن نور حسن- دار المجتمع- جدة- ١٤١٢هـ.
- ١٢٩- تأويل مختلف الحديث، لابن قتيبة- تحقيق: عبدالقادر عطا- دار الكتب الإسلامية- القاهرة-

ط ١-١٤٠٢ هـ.

- ١٣٠- تاج العروس، للزبيدي- تحقيق: عبدالكريم العزباوي- ط حكومة الكويت.
- ١٣١- تاريخ ابن خلدون (المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر)، لابن خلدون- تصحيح: خليل شحادة، وآخر- دار الفكر- بيروت- ط ١-١٩٨١ م.
- ١٣٢- تاريخ الأمم والملوك، الطبري- تحقيق: محم دأب الفضل إبراهيم- دار السويدان- بيروت.
- ١٣٣- تاريخ الشعوب الإسلامية، كارل بروكلمان- تعريب: نبيه فارس، وآخر- دار العلم للملايين- بيروت- ١٩٦٨ م.
- ١٣٤- تاريخ يعقوبي، طبعة دار صادر
- ١٣٥- تاريخ بغداد أو دار السلام، للخطيب البغدادي- ط دار الكتاب العربي- بيروت.
- ١٣٦- تاريخ حكماء الإسلام، ظهير الدين البيهقي- تحقيق: محمد كرد علي- مطبعة الترقى- دمشق- ط ٢-١٩٧٧ م.
- ١٣٧- تاريخ دمشق، لابن عساكر- مصور بالأوفست من نسخة المكتبة الظاهرية- دمشق- نشر مكتبة الدار المدينة المنورة.
- ١٣٨- تبديد الظلام وتبنيه النيام إلى خطر التشيع على المسلمين والإسلام، إبراهيم الجبهان- ط ٣-١٤٠٨ هـ.
- ١٣٩- التبرك أنواعه وأحكامه، د: ناصر بن عبدالرحمن الجديع- مكتبة الرشد- الرياض- ط ٣-١٤١٥ هـ.
- ١٤٠- التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكة، أبو المظفر الأسفراييني- تعليق: الكوثري- مطبعة الأنوار- ط ١-١٩٤٠ م.
- ١٤١- التبيان في آداب حملة القرآن، للنووي- تحقيق: تشير محمد عيون- مكتبة المؤيد- الطائف- ط ١٤١٢ هـ.
- ١٤٢- ثبت دلائل النبوة، للقاضي عبدالجبار الهمداني- تحقيق: د/ عبدالكريم عثمان- دار العرب- بيروت- ١٣٨٦ هـ.
- ١٤٣- التجانية دراسة لأهم عقائدها على ضوء الكتاب والسنة، د: علي بن محمد آل دخيل الله- دار العاصمة- الرياض- ط ٢-١٤١٩ هـ.
- ١٤٤- تجريد التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، لابن عبد البر القرطبي- دار الكتب العلمية- بيروت.
- ١٤٥- تجريد التوحيد المفيد، للمقرئ- تصحيح: طه الزيني- مركز شؤون الدعوة بالجامعة الإسلامية- ط ٣-١٤٠٩ هـ.
- ١٤٦- تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذي، المباركفوري- مراجعة: عبداللطيف عبدالوهاب-

- المكتبة السلفية بالمدينة المنورة - ١٣٨٣ هـ.
- ١٤٧ - التحفة السنية بتوضيح الطريقة التجانية، محمد البرناوي - مركز شؤون الدعوة بالجامعة الإسلامية - ط ١
- ١٤٨ - تحفة الطالب والجلس في الرد على المفتري داود بن جرجيس، الشيخ عبداللطيف بن عبدالرحمن آل الشيخ.
- ١٤٩ - التحفة العراقية في أعمال القلوب، لشيخ الإسلام ابن تيمية - تحقيق: سليمان الحرشي - دار الهدى - الرياض - ١٤٠٧ هـ.
- ١٥٠ - تخريج أحاديث إحياء علوم الدين، للعراقي - دار العاصمة - الرياض - ١٤٠٨ هـ.
- ١٥١ - تذكرة الحفاظ، للذهبي - دار إحياء التراث العربي - بيروت - ط ٧
- ١٥٢ - التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة، لأبي عبدالله محمد بن أحمد القرطبي - دار الريان للتراث - القاهرة - ط ٢ - ١٤٠٧ هـ.
- ١٥٣ - ترتيب القاموس المحيط على طريقة المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، للطاهر الزاوي - مطبعة عيسى البابي الحلبي - مصر - ط ٢ - ١٣٩٠ هـ.
- ١٥٤ - ترجمة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي، د/ عبدالرحمن السديس، دار الهجرة بالرياض، ط أولى ١٤١٢ هـ.
- ١٥٥ - الترغيب في الدعاء، للحافظ عبدالغني المقدسي - تحقيق: فالح الصغير - دار العاصمة - الرياض - ١٤١٧ هـ.
- ١٥٦ - الترغيب في فضائل الأعمال وثواب ذلك، لابن شاهين - تحقيق: صالح الوكيل - دار ابن الجوزي - الدمام - ١٤١٥ هـ.
- ١٥٧ - الترغيب والترهيب، للمنذري - إدارة الطباعة المنيرية - القاهرة - بدون تاريخ.
- ١٥٨ - التشيع ظاهرة طبيعية في إطار الدعوة الإسلامية، محمد باقر الصدر - تعليق: طالب الحسيني.
- ١٥٩ - التصوف بين الحق والخلق، محمد شقفة - الدار السلفية - ط ٣ - ١٤٠٣ هـ.
- ١٦٠ - التصوف في ميزان البحث والتحقيق، عبدالقادر السندي - مكتبة ابن القيم - المدينة المنورة - ١٤١٠ هـ.
- ١٦١ - التصوف منشأه ومصطلحاته، د/ أسعد السحمراني - دار النفائس - بيروت - ١٤٠٧ هـ.
- ١٦٢ - تطهير الاعتقاد عن أدران الإلحاد، محمد بن إسماعيل الأمير الصنعاني - بتعليق: علي بن محمد بن سنان - مكتبة دار الكتاب الإسلامي - المدينة المنورة - ١٤١٠ هـ.
- ١٦٣ - التعرف إلى مذهب التصوف، للكلاباذي
- ١٦٤ - تعريف الخلف بمنهج السلف، إبراهيم بن محمد البريكاني - دار ابن الجوزي - الدمام - ١٤١٨ هـ.

- ١٦٥- تعظيم قدر الصلاة، محمد بن نصر المروزي - تحقيق: عبدالرحمن عبدالجبار الفيرواني - مكتبة الدار بالمدينة المنورة - ١٤٠٦هـ.
- ١٦٦- تفسير آيات القرآن عن علاقة الملائكة بالإنسان، عبدالعزيز بن صالح السلمي - رسالة دكتوراه غير منشورة - بالجامعة الإسلامية .
- ١٦٧- تفسير البغوي معالم التنزيل، للحسين بن مسعود البغوي - تحقيق: عثمان جمعة، وآخرين - دار طيبة - الرياض - ١٤٠٩هـ.
- ١٦٨- تفسير القرآن العظيم، لابن كثير - دار المعرفة - بيروت - ط ١ - ١٤٠٧هـ.
- ١٦٩- التفسير القيم، لابن قيم الجوزية - جمع: محمد أويس الندوي - تحقيق: حامد محمد - لجنة التراث العربي - بيروت - ١٣٦٧هـ.
- ١٧٠- التفسير الكبير، الفخر الرازي - دار إحياء التراث العربي - بيروت - ط ٣
- ١٧١- التفسير الكبير، لشيخ الإسلام ابن تيمية - تحقيق: د/ عبدالرحمن عميرة - دار الكتب العلمية - بيروت .
- ١٧٢- تفسير الماوردي النكت والعيون، للماوردي - مراجعة - عبدالرحيم عبدالمقصود - دار الكتب العلمية .
- ١٧٣- تفسير النسفي، عبدالله بن أحمد النسفي - ط دار الفكر
- ١٧٤- التفسير والمفسرون، د/ محمد حسين الذهبي - ط ١ - ١٣٩٦هـ.
- ١٧٥- تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين، لابن الفضل - تحقيق: د/ عبدالمجيد النجار - دار الغرب الإسلامي - ط ١ - ١٤٠٨هـ.
- ١٧٦- تقديس الأشخاص في الفكر الصوفي، د/ محمد لوح - دار الهجرة - الرياض - ١٤١٦هـ.
- ١٧٧- تقريب التهذيب، لابن حجر العسقلاني - تحقيق: محمد عوامة - دار الرشيد - حلب .
- ١٧٨- تليس إبليس، لابن الجوزي - تحقيق: لجنة من كبار العلماء - ط دار إحياء الكتب العربية .
- ١٧٩- تلخيص كتاب الاستغاثة (المعروف بالرد على البكري)، شيخ الإسلام ابن تيمية - تحقيق: محمد بن علي عجال - مكتبة الغرباء الأثرية - المدينة المنورة - ط ١ - ١٤١٧هـ.
- ١٨٠- التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، لابن عبدالب - طبعة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب - ١٤١١هـ.
- ١٨١- تنبيه أولى الأبصار إلى كمال الدين وما في البدع من الأخطار، الشيخ صالح السحيمي - دار ابن حزم - الرياض - ١٤١٠هـ.
- ١٨٢- تنبيه الحذاق على بطلان ما شاع بين الأنام من حديث النور المنسوب لمصنف عبدالرزاق، محمد أحمد عبدالقادر الشنقيطي - مركز شؤون الدعوة بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة - ط ٢
- ١٨٣- التمجيد والمنجمون وحكمهم في الإسلام، د: عبدالمجيد سالم المشعبي - مكتبة الصديق -



- الطائف - ط ١ - ١٤١٤ هـ.
- ١٨٤ - تنقيح المقال في علم الرجال، للمامقاني، عبدالله - المطبعة المرتضوية، النجف ١٣٤٨ هـ.
- ١٨٥ - إتيور الأذهان من تفسير روح البيان، سماعيل حقي البروسوي - اختصار وتحقيق: محمد علي الصابوني - دار القلم - دمشق - ط ١ - ١٤٠٨ هـ.
- ١٨٦ - تنوير الحوائك شرح على موطأ مالك، للسيوطي - دار الندوة الجديدة - بيروت
- ١٨٧ - تهذيب الأسماء واللغات، للنووي - ط دار الكتب العلمية
- ١٨٨ - تهذيب الكمال في أسماء الرجال، للمزي - تحقيق: د/ بشار عواد معروف - مؤسسة الرسالة - ط ١ - ١٤١٣ هـ.
- ١٨٩ - تهذيب اللغة، للأزهري - تحقيق: عبدالسلام هارون - الدار المصرية - ١٩٦٤ م.
- ١٩٠ - التوحيد، لابن خزيمة - تصحيح: عزت العطار - مطبعة إناوز - مصر - ١٣٥٦ هـ.
- ١٩١ - توحيد الألوهية أساس الإسلام، حامد عبدالقادر الأحمد - رسالة ماجستير غير منشورة - بالجامعة الإسلامية.
- ١٩٢ - توحيد الألوهية أساس الإسلام، رسالة ماجستير غير منشورة
- ١٩٣ - التوسل أنواعه وأحكامه، للشيخ الألباني - جمع: محمد عيد عباسي - الدار السلفية - الكويت - ط ٣ - ١٤٠٥ هـ.
- ١٩٤ - التوسل حكمه وأقسامه، للشيخين محمد ناصر الدين الألباني، ومحمد بن صالح العثيمين - جمع: علي ابن حسين أبي لوز - دار ابن خزيمة - الرياض - ط ١ - ١٤١٨ هـ.
- ١٩٥ - التوصل إلى حقيقة التوسل المشروع والمنع، محمد نسيب الرفاعي - طبع في بيروت - ط ١ - ١٣٩٤ هـ.
- ١٩٦ - التوضيح عن توحيد الخلاق في جواب أهل العراق، للشيخ سليمان بن عبدالله آل الشيخ - دار طيبة - ط ١ - ١٤٠٤ هـ.
- ١٩٧ - التوضيح والبيان لشجرة الإيمان، الشيخ السعدي - مكتبة دار الأقصى - الكويت - ١٤٠٦ هـ.
- ١٩٨ - تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد، الشيخ سليمان بن عبدالله آل الشيخ - المكتب الإسلامي - بيروت - ط ٧ - ١٤٠٨ هـ.
- ١٩٩ - تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، الشيخ عبدالرحمن السعدي - مطابع الجامعة الإسلامية - ١٣٩٨ هـ.
- ٢٠٠ - ثلاثون سنة بين الموتى، كارل ويكلاند - ترجمة: د/ علي راضي - دار النهضة العربية - ط ٢
- ٢٠١ - الثمرات الزكية في العقائد السلفية، جمع: أحمد فريد - مكتبة التوعية الإسلامية - مصر - ١٤٠٩ هـ.
- ٢٠٢ - فواب الأعمال الصالحة، حسين الجمل - دار المعراج - الرياض - ١٤١٥ هـ.
- ٢٠٣ - جامع الرسائل، لشيخ الإسلام ابن تيمية - تحقيق: د/ محمد رشاد سالم - مطبعة المدني -

- القاهرة - ط ١ - ١٣٨٩ هـ .
- ٢٠٤ - جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم ، لابن رجب الحنبلي - مكتبة طيبة - المدينة المنورة - ط ٢ - ١٤١٠ هـ .
- ٢٠٥ - جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله ، لابن عبد البر - دار الكتب العلمية - بيروت - ١٣٩٨ هـ .
- ٢٠٦ - جامع كرامات الأولياء ، يوسف النبهاني - تحقيق : إبراهيم عطوة - دار الفكر - بيروت - ١٤١٢ هـ .
- ٢٠٧ - جامعة الجامعة من تراث إخوان الصفا ، تحقيق : عارف تامر
- ٢٠٨ - الجرح والتعديل ، للرازي - طبعة مجلس دائرة المعارف بحيدآباد الدكن - ١٣٧١ هـ .
- ٢٠٩ - الجعديات (حديث علي بن الجعد الجوهري) ، لأبي القاسم البغوي - تحقيق : رفعت فوزي - مكتبة الخانجي - مصر - ١٤١٥ هـ .
- ٢١٠ - جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على محمد خير الأنام ، لابن قيم الجوزية - تحقيق : محي الدين مستو - مكتبة دار التراث بالمدينة المنورة - ط ٣ - ١٤١٣ هـ .
- ٢١١ - جلاء العينين في محاكمة الأحمدين ، للسيد نعمان خير الدين الألوسي - مطبعة المديني - القاهرة - ودار المدني بجدة .
- ٢١٢ - جمهرة أنساب العرب ، لابن حزم - تحقيق : عبدالسلام هارون - دار المعارف - مصر - ط ٤ - ١٩٧٧ م .
- ٢١٣ - جهود شيخ الإسلام ابن تيمية في توضيح توحيد العبادة ، د/ أحمد الغنيمان - رسالة دكتوراه غير منشورة - بالجامعة الإسلامية .
- ٢١٤ - جهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبرية ، د/ شمس الدين الأفغاني - دار الصميعي - الرياض - ط ١ - ١٤١٦ هـ .
- ٢١٥ - الجواب الباهر في زوار المقابر ، لشيخ الإسلام ابن تيمية - شرح : د/ محمود مطرجي - دار القلم - بيروت - ط ١ - ١٤٠٦ هـ .
- ٢١٦ - الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ، لشيخ الإسلام ابن تيمية - مطابع المجد التجارية .
- ٢١٧ - الجواب الفائق في الرد على مبدل الحقائق ، الشيخ عبدالله الجبرين - مطبعة سفير - الرياض - ١٤١٠ هـ .
- ٢١٨ - الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي ، لابن القيم - تحقيق : سعيد اللحام - دار إحياء العلوم - بيروت - ط ٣ - ١٤١١ هـ .
- ٢١٩ - جواهر البحار في فضائل النبي المختار ، للنبهاني - مطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر - ١٣٧٩ هـ .
- ٢٢٠ - جواهر المعاني وبلغ الأماني في فيض سيدي أبي العباس التجاني ، علي حرازم بن العربي

- الفاشي - دار الكتاب العربي - بيروت - ط ٢ - ١٩٧٣ م.
- ٢٢١ - الجواهر والدرر مما استفاده الشعراني من شيخه على الخواص ، مطبوع بهامش الإبريز لأحمد بن المبارك اللمطي - مطبعة عبد الحميد حنفي - مصر .
- ٢٢٢ - حاشية البناني على شرح المحلى لمثن جمع الجوامع للسبكي ، مطبعة عيسى البابي الحلبي .
- ٢٢٣ - حاشية القوشجي على شرح التجريد ، للطوسي - مطبوعة بهامش المواقف
- ٢٢٤ - حاشية كتاب التوحيد ، عبد الرحمن بن قاسم - ط ٣ - بدون تاريخ
- ٢٢٥ - الحبايك في أخبار الملائك ، للسيوطي - تحقيق : محمد بسيوني زغلول - دار الكتب العلمية - بيروت - ١٩٨٥ م .
- ٢٢٦ - حجة الله البالغة ، شاه دهلوي - مراجعة : محمد شريف - نشر دار إحياء العلوم - بيروت - ١٤١٠ هـ .
- ٢٢٧ - الحجة في بيان المحجة ، لأبي القاسم الأصبهاني المعروف بقوام السنة - تحقيق : د/ محمد ربيع المدخلي ، وآخر - دار الراية - الرياض - ط ١ - ١٤١١ هـ .
- ٢٢٨ - الحجج الباهرة في إفحام الطائفة الكافرة الفاجرة في الرد على الرافضة ، جلال الدين الدواني - تحقيق : د/ عبدالله حاج علي منيب - مكتبة الإمام البخاري - القاهرة - ط ١ - ١٤٢٠ هـ .
- ٢٢٩ - الحد الفاصل بين الإيمان والكفر ، عبد الرحمن عبد الخالق - الدار السلفية - الكويت - ١٤٠٨ هـ .
- ٢٣٠ - الحداثة في منظور إيماني ، د/ عدنان على رضا النحوي ، دار النحوي ، بالرياض ، ط الثالثة ، ١٤١٠ هـ .
- ٢٣١ - حديث الإفك ، للحافظ عبد الغني المقدسي - تحقيق : هشام السقا - دار عالم الكتب - الرياض - ١٩٨٥ م .
- ٢٣٢ - الحركات الباطنية في الإسلام ، د/ مصطفى غالب - دار الكتاب العربي
- ٢٣٣ - الحركة الصوفية في الإسلام ، د/ محمد أبو ريان - دار المعرفة الجامعية بالإسكندرية - ١٩٩٤ م
- ٢٣٤ - حرية الاعتقاد في ظل الإسلام ، د/ تيسير العمر - دار الفكر - دمشق - ١٤١٩ هـ .
- ٢٣٥ - حقائق عن التصوف ، عبد القادر عيسى - مطبعة البلاغة - بحلب - ط ٢ - ١٣٩٠ هـ .
- ٢٣٦ - حقوق النبي ﷺ على أمته في ضوء الكتاب والسنة ، د/ محمد خليفة التميمي - مكتبة أضواء السلف - الرياض - ١٤١٨ هـ .
- ٢٣٧ - حقيقة البدعة وأحكامها ، سعيد بن ناصر الغامدي - مكتبة الرشد - الرياض - ط ١ - ١٤١٢ هـ .
- ٢٣٨ - حكم الانتماء إلى الفرق والأحزاب والجماعات الإسلامية ، بكر عبدالله أبي زيد - دار ابن الجوزي - الإحساء - ط ٢ - ١٤١٠ هـ .

- ٢٣٩- حكمة التشريع وفلسفة ، لعلي الجرجاوي ، ط خامسة بدون ناشر ١٣٨١هـ .
- ٢٤٠- الحكمة من إرسال الرسل ، للشيخ عبدالرزاق عفيفي ، دار الصميعي بالرياض ، ط ثالثة ، ١٤٢٠هـ .
- ٢٤١- الحكومة الإسلامية (ولاية الفقيه) ، للخميني - ط ١٣٨٩هـ .
- ٢٤٢- الحلاج ، د/ جلال شرف - مؤسسة الثقافة الجامعية بالإسكندرية ١٩٧٠م .
- ٢٤٣- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، لأبي نعيم الأصفهاني - دار الكتاب العربي - بيروت - ط ٣ - ١٩٨٠م .
- ٢٤٤- حماية الرسول ﷺ حمى التوحيد ، د/ محمد بن زيان الغامدي - رسالة ماجستير - غير منشورة بالجامعة الإسلامية .
- ٢٤٥- الحوادث والبدع ، للطرطوشي - تحقيق : علي بن حسن الأثري - دار الأصفهاني - جدة .
- ٢٤٦- حوار مع المالكي ، عبدالله بن منيع - ط الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية - ط ١ - ١٤٠٣هـ .
- ٢٤٧- الحياة الآخرة ما بين البعث إلى دخول الجنة أو النار ، د/ غالب بن علي العواجي - دار لينة - مصر - ط ١ - ١٤١٧هـ .
- ٢٤٨- الحياة الدينية عند العرب بين الجاهلية والإسلام ، محمد حامد الناصر ، وآخري دار عالم الكتب - الرياض - ١٤١٧هـ .
- ٢٤٩- حياة القلوب بدعاء علام الغيوب ، لأبي السمع الفقيه ، مطبعة دار نشر الثقافة ، ط ثالثة ١٣٨٠هـ .
- ٢٤٩- الحياة في ظل العقيدة الإسلامية ، زيد المدخلي - دار العلم - جدة - ١٤٠٥هـ .
- ٢٥٠- الخشوع في الصلاة ، لابن رجب الحنبلي - خرّج أحاديث : علي حسن عبدالحميد - دار عمّار - الأردن - ١٩٨٨م .
- ٢٥١- الخشوع وأثره في بناء الأمة ، سليم عيد الهلالي - دار ابن الجوزي - الدمام ط ٢ - ١٤١٢هـ .
- ٢٥٢- خصائص الدعوة الإسلامية ، محمد أمين حسن - مكتبة المنار - الأردن - ط ١ - ١٤٠٣هـ .
- ٢٥٣- خصائص الرسالة المحمدية ، د/ أحمد مرعي العمري - رسالة ماجستير غير منشورة - بالجامعة الإسلامية .
- ٢٥٤- خصائص القرآن الكريم ، د/ فهد الرومي - ط ٣ - ١٤٠٩هـ .
- ٢٥٥- الخصائص الكبرى أو كفاية الطالب اللبيب في خصائص الحبيب ، للسيوطي - تحقيق : محمد خليل هراس - دار الكتب الحديثة - القاهرة - ١٣٨٧هـ .
- ٢٥٦- خصائص المصطفى بن الغلو والجفاء ، الصادق بن إبراهيم - رسالة ماجستير غير منشورة - بالجامعة الإسلامية .
- ٢٥٧- خطط المقرئزي (المواظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار) ، تقي الدين المقرئزي - مكتبة



الثقافة الدينية - القاهرة .

٢٥٩- الخطوط العريضة للأسس التي قام عليها دين الشيعة الإمامية الاثني عشرية، محب الدين الخطيب - المطابع الأهلية للأوفست - الرياض - ط ٣ - ١٤٠٣ هـ .

٢٦٠- خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، محمد أمين المحبي - المطبعة الوهبية - القاهرة - ١٣٨٤ هـ .

٢٦١- الخميني وتفضيل الأئمة على الأنبياء ، محمد مال الله - مكتبة ابن تيمية - ط ٤ - ١٣٠٩ هـ .

٢٦٢- دائرة المعارف المسماة بمقتبس الأثر ومجده ما دثر، الأعلمي الشيعي - طبعة دار المعارف .

٢٦٣- دائرة معارف القرن الرابع عشر، محمد فريد وجدي - دار المعرفة - بيروت - ط ٣ - ١٩٧١ م .

٢٦٤- دارسات في الفرق ، د/ صابر طعيمة - مكتبة المعارف - الرياض - ١٤٠١ هـ .

٢٦٥- الداعي والمدعي في الدعاء، لابن عبد الهادي - تحقيق : عبد الباسط إبراهيم - رسالة ماجستير غير منشورة ، بالجامعة الإسلامية .

٢٦٦- الدر الثمين في معالم دار الرسول الأمين ﷺ ، للشيخ غالي محم دالأمين الشنقيطي - دار القبلة الإسلامية - جدة - ط ٣ - ١٤١١ هـ .

٢٦٧- الدر المختار في الفقه الحنفي شرحه ، للحصكفي مكتبة صبيح وأولاده بمصر بدون تاريخ .

٢٦٨- الدر المنثور في التفسير بالمأثور، للسيوطي - مطبعة محمد دمج - مصر .

٢٦٩- درء تعارض العقل والنقل، شيخ الإسلام ابن تيمية - تحقيق : د/ محمد رشاد سالم - مطابع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - الرياض - ط ١ - ١٤٠٠ هـ .

٢٧٠- دراسات الأهواء والفرق والبدع ومواقف السلف منها ، د/ ناصر بن عبد الكريم العقل - مركز الدراسات والإعلام - دار إشبيلية - الرياض - ط ١ - ١٤١٨ هـ .

٢٧١- دراسات في التصوف ، إحسان إلهي ظهير - تقديم الشيخ صالح اللحيدان - إدارة ترجمان السنة - باكستان ١٤٠٩ هـ .

٢٧٢- الدرر السنية في الرد على الوهابية ، أحمد زيني دحلان - مطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر - ط ٥ - ١٤٠٥ هـ .

٢٧٣- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، لابن حجر العسقلاني - تحقيق : محمد جاد الحق - دار الكتب الحديثة - مصر - ط ٢ - ١٩٦٦ م .

٢٧٤- دروس في العقيدة مستفادة من الحج ، د/ عبدالرزاق بن عبد المحسن البدر - ط جمية دار البر - دبي .

٢٧٥- الدعاء ، للطبراني - تحقيق : سعيد محمد البخاري - دار البشائر الإسلامية - بيروت - ١٤٠٧ هـ .

٢٧٦- الدعاء في الإسلام وأثره في العقيدة والحياة، سعيد البستاني - دار المعرفة - دمشق - ١٤١٤ هـ .

٢٧٧- الدعاء ومنزله من العقيدة الإسلامية ، جيلان بن خضر العروسي - مكتبة الرشد - الرياض -

- ط ١-١٤١١هـ.
- ٢٧٨- دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب سلفية لا وهابية، أحمد بن عبدالعزيز الحصين- دار عالم الكتب- الرياض- ط ١-١٤٢٠هـ.
- ٢٧٩- دعوة الرسل إلى الله تعالى، محمد أحمد العدوي- مطبعة مصطفى البابي الحلبي- مصر- ١٣٥٤هـ.
- ٢٨٠- دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين، محمد الغزالي المصري- دار الكتب الحديثة- القاهرة- ط ٢-١٣٨٣هـ.
- ٢٨١- دلائل الخبرات، محمد بن سليمان الجزولي- مؤسسة الأعلمي- بيروت.
- ٢٨٢- دلائل النبوة، لقوام السنة- تحقيق: مساعد الحميد- دار العاصمة- الرياض- ١٤١٢هـ.
- ٢٨٣- دلائل النبوة، لأبي نعيم الأصبهاني- مطبعة مجلس دائرة المعارف بحيدر آباد- الهند.
- ٢٨٤- دعمة على التوحيد حقيقة القبورية وآثارها في واقع الأمة، من منشورات المنتدى الإسلامي- ط ١-١٤٢٠هـ.
- ٢٨٥- الديانات والعقائد في مختلف العصور، أحمد عبدالغفور عطار- مكة المكرمة- ١٤٠١هـ.
- ٢٨٦- الديباج المذهب في ذكر أعيان المذهب، لابن فرحون المالكي- دار الكتب العلمية- بيروت.
- ٢٨٧- الدين الخالص، للسيد محمد صديق حسن القنوجي- دار التراث- القاهرة.
- ٢٨٨- ديوان شموخ في زمن الانكسار، د/ عبدالرحمن صالح العشماوي، مكتبة العبيكان بالرياض، ط ٢، ١٤١٢هـ.
- ٢٨٩- ديوان أبي العتاهية، لأبي العتاهية- ط دار صادر- بيروت- ١٣٨٤هـ.
- ٢٩٠- ديوان أبي نواس، لأبي نواس- بشرح وتحقيق: أحمد الغزالي- دار الكتاب العربي- بيروت- ١٤٠٤هـ.
- ٢٩١- ديوان الأعشى، للأعشى- ط دار صادر- بيروت.
- ٢٩٢- ديوان الإمام الشافعي، جمع وتعليق: محمد عفيف الزغبى- درا المطبوعات الحديثة- جدة- ط ٥-١٩٨٨م.
- ٢٩٣- ديوان البرعي، شرح محممة سعيد كمال، مكتبة المعارف بالطائف، ط أولى ١٤٠٤هـ.
- ٢٩٤- ديوان البوصيري، تحقيق: محمد سيد كيلاني- مطبعة مصطفى البابي الحلبي- مصر- ١٣٩٣هـ.
- ٢٩٥- ديوان الشماخ، شرح أحمد بن الأمين الشنقيطي- مطبعة السعادة- القاهرة- ١٣٢٧هـ.
- ٢٩٦- ديوان المتنبي، بشرح العكبري- تصحيح: مصطفى السقا، وآخرين.
- ٢٩٧- ديوان المتنبي، للمتنبي- بشرح عبدالرحمن البرقوقي- دار الكتاب العربي- بيروت- ١٣٩٩هـ.
- ٢٩٨- ديوان حافظ إبراهيم، تصحيح: أحمد أمين، وآخرين- الناشر: محمد أمين دمج- بيروت.

- ١٩٦٩ م.
- ٢٩٩- ديوان ذي الرمة بشرح أبي النصر الباهلي، تحقيق: عبدالقدوس أبي صالح- مجمع اللغة العربية بدمشق- ١٣٩٢ هـ.
- ٣٠٠- ديوان طرفة بشرح الأعلام الشنمري، تحقيق: درية الخطيب، ولطفي الصقال- طبعة مجمع اللغة العربية بدمشق- ١٣٩٥ هـ.
- ٣٠١- ديوان عنتره العبيسي، طبعة دار الكتب العلمية- بيروت- ١٤١٦ هـ.
- ٣٠٢- ديوان عنتره العبيسي، ط دار صادر- بيروت
- ٣٠٣- ديوان ليبد بن ربيعة العامري، ط دار صادر- بيروت
- ٣٠٤- ذكريات مشاهير رجال المغرب، عبدالله كنون الحسني- مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني- بيروت- بدون تاريخ
- ٣٠٥- ذم الهوى، لابن الجوزي- تحقيق: مصطفى عبدالواحد- دار الكتب الحديثة- القاهرة- ١٣٨١ هـ.
- ٣٠٦- الذيل على النهاية في غريب الحديث، لابن علوش- دار ابن حزم- بيروت- ط١- ١٤١٧ هـ.
- ٣٠٧- رجال الشيعة في الميزان، عبدالرحمن الزرعي- ط١- ١٩٨٣ م.
- ٣٠٨- رحلة الحج إلى بيت الله الحرام، الشيخ محمد الأمين الشنقيطي- دار ابن تيمية- مصر.
- ٣٠٩- الرد الكافي على مغالطات د/ عبدالواحد وافي، إحسان إلهي ظهير- إدارة ترجمان السنة- بدون تاريخ
- ٣١٠- الرد على الأختائي، مطبوع بهامش كتاب الاستغاثة لشيخ الإسلام.
- ٣١١- الرد على الرافضة، لأبي حامد المقدسي- تحقيق: عبدالوهاب خليل الرحمن- الدار السلفية بالهند- ط١- ١٩٨٣ م.
- ٣١٢- الرد على شبهات المستعنيين بغير الله تعالى، أحمد بن عيسى النجمي- تصحيح: عبدالسلام بن برجس آل عبدالكريم- مطابع دار طيبة- الرياض- ١٤٠٩ هـ.
- ٣١٣- رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا، تصحيح: خير الدين الزركلي- المطبعة العربية- مصر- ١٣٧٤ هـ.
- ٣١٤- الرسائل السلفية في إحياء سنة خير البرية، محمد بن علي الشوكاني- بتعليق: خالد عبداللطيف العلمي- دار الكتاب العربي- بيروت- ط١- ١٤١١ هـ.
- ٣١٥- رسائل وفتاوى ذم ابن عربي الصوفي، تحقيق: د/ موسى الدويش- ط١- ١٤١٠ هـ.
- ٣١٦- رسالة الأبدال والفتوح، للعز بن عبدالسلام- ضمن كتاب شجرة الإرشاد- جمع: وفاء حسن- مطبعة الصحف- ١٤٠٣ هـ.
- ٣١٧- رسالة الإسلام نور بدر الظلام، للسيد عبدالحليم الخطيب- تصحيح: حسنين مخلوف- دار المعرفة- حلب- بدون تاريخ.

- ٣١٨- الرسالة التبوكية ، لابن قيم الجوزية - تحقيق : أشرف عبدالمقصود - دار الرضوان - ١٤١١ هـ .
- ٣١٩- الرسالة الخالدة ، عبدالرحمن عزام - طبعة المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية - مصر - ط ٢ - ١٣٨٤ هـ .
- ٣٢٠- رسالة الشرك ومظاهره ، مبارك بن محمد المليي - ط مركز شؤون الدعوة بالجامعة الإسلامية - المدينة المنورة - ط ٢ - ١٤٠٨ هـ .
- ٣٢١- الرسالة القشيرية في علم التصوف ، ابو القاسم القشيري - تحقيق : معروف زريق ، وآخر - دار الخير - بيروت - ط ١ - ١٤١٢ هـ .
- ٣٢٢- رسالة الملائكة ، أبو العلاء المعري - تحقيق : محمد سليم الجندي - مطبعة الترقى - دمشق - ١٣٦٣ هـ .
- ٣٢٣- الرسالة الوافية لمذهب أهل السنة في الاعتقادات وأصول الديانات ، لأبي عمرو الدواني - تحقيق : د/ محمد بن سعيد القحطاني - دار ابن الجوزي - الدمام - ط ١ - ١٤١٩ هـ .
- ٣٢٤- رسالة في الرد على الرافضة ، للشيخ محمد بن عبد الوهاب - تحقيق : د/ ناصر بن سعد الرشيد - ط ٢
- ٣٢٥- الرسالة والرسول ، د/ أكرم ضياء العمري - ط ١ - ١٤١٠ هـ .
- ٣٢٦- الرسل والرسالات ، د/ عمر سليمان الأشقر - دار النفائس - الأردن - ط ٥ - ١٤١٤ هـ .
- ٣٢٧- الرسول والوحي ، د/ محمد المسير - دار ابن كثير - دمشق - ط ١ - ١٤٠٧ هـ .
- ٣٢٨- رماح حزب الرحيم على نهج حزب الرحيم ، عمر الفتوي - مطبع بهامش جواهر المعاني لعلي حرازم - دار الكتاب العربي - بيروت - ط ٢ - ١٩٧٣ م .
- ٣٢٩- السروح ، لابن قيم الجوزية - تحقيق : د/ بسام العموش - دار ابن تيمية - الرياض - ط ١ - ١٤٠٦ هـ .
- ٣٣٠- روح الإسلام ، للسيد أمير على ترجمة : أمين الشريف - مكتبة الآداب - القاهرة - ١٩٦١ م .
- ٣٣١- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، شهاب الدين محمود الألوسي - ط دار إحياء التراث - بيروت - ط ٢
- ٣٣٢- الروحية الحديثة دعوة هدامة - تخضير الأرواح وصلته بالصهيونية العالمية ، د/ محمد حسين - دار الإرشاد - بيروت - ط ٢ - ١٩٦٩ م .
- ٣٣٣- الروحية عند محي الدين ابن عربي ، د/ علي راضي - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة
- ٣٣٤- روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات ، محمد باقر الموسوي الخونساري - ط دار المعرفة - بيروت
- ٣٣٥- روضة الخجين ونزهة المشتاقين ، لابن قيم الجوزية - ط دار الكتب العلمية - بيروت
- ٣٣٦- روضة الناظرين عن مآثر علماء نجد وحوادث السنين ، محمد عثمان القاضي - دار البخاري - القصيم - ط ٢ - ١٤٠٢ هـ .

- ٣٣٧- رياض الصالحين ، للنووي - تحقيق : شعيب الأرنؤوط - مؤسسة الرسالة - بيروت - ط ٣ - ١٤٢٠ هـ .
- ٣٣٨- زاد المسير في علم التفسير ، لابن الجوزي - المكتب الإسلامي - دمشق - ١٣٨٤ هـ .
- ٣٣٩- زاد المعاد من هدي خير العباد ، لابن قيم الجوزية - تحقيق : شعيب الأرنؤوط ، وآخر - مؤسسة الرسالة - بيروت - ١٣٩٩ هـ .
- ٣٤٠- زعماء الإصلاح في العصر الحديث ، أحمد أمين المصري - دار الكتاب العربي - بيروت - بدون تاريخ .
- ٣٤١- الزهد ، للإمام أحمد - دار الريان - القاهرة - ١٤٠٨ هـ .
- ٣٤٢- الزهد ، للحسن البصري - تحقيق : محمد عبدالرحيم محمد - دار الحديث - القاهرة - ١٩٩١ م .
- ٣٤٣- الزهد والرفائق ، لابن المبارك - تحقيق : أحمد فريد - دار المعراج الدولية - الرياض - ١٤١٥ هـ .
- ٣٤٤- الزيارة الشرعية والشركية ، محي الدين البركوي - تخريج : د/ محمد ابن عبدالرحمن الخميس - دار العاصمة - الرياض - ط ١ - ١٤١٤ هـ .
- ٣٤٥- زيارة القبور والاستجماع بالمقبر ، شيخ الإسلام ابن تيمية - مطابع دار طيبة - الرياض .
- ٣٤٦- مجمع الحمام في حكم الإمام ، علي الجندي ، وآخرين - مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة - ١٩٦٧ م .
- ٣٤٧- سفراء النبي ﷺ ، محمود شيت خطاب - دار الأندلس الخضراء - جدة - ط ١ - ١٤١٧ هـ .
- ٣٤٨- سفير الأرواح العليا أو مقتطفات من تعاليم السيد سلفربرش ، ترجمة : د/ علي راضي - ١٩٧٥ م .
- ٣٤٩- سلاح المؤمن في الدعاء والذكر ، لابن الإمام - تحقيق : محي الدين مستو - دار ابن كثير - دمشق - ١٤١٤ هـ .
- ٣٥٠- سلسلة الأحاديث الصحيحة ، للألباني - طبعة المكتب الإسلامي - ١٣٧٨ هـ .
- ٣٥١- السلفية وأعلامها في موريتانيا ، للشيخ الطيب بن عمر بن الحسين - دار ابن حزم - بيروت - ١٤١٦ هـ .
- ٣٥٢- سمط اللآلي في شرح أمالي القالي ، للوزير البكري الأوني - تحقيق : عبدالعزيز الميمني - دار الحديث - بيروت - ط ٢ - ١٩٨٤ م .
- ٣٥٣- السنة ، للخلال - تحقيق : د/ عطية بن عتيق الزهراني - دار الراية - ط ١ - ١٠٨٩ م .
- ٣٥٤- السنة ، لابن أبي عاصم - تحقيق : الشيخ الألباني - المكتب الإسلامي - ط ١ - ١٤٠٠ هـ .
- ٣٥٥- السنة ، لعبدالله بن الإمام أحمد - تحقيق : محمد السعيد بسيوني زغلول - دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤٠٥ هـ .
- ٣٥٦- السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي ، د/ مصطفى السباعي - المكتب الإسلامي - بيروت -

ط ١٣٩٨ هـ.

- ٣٥٧- سنن أبي داود، بتعليق: عزت الدعاس، وآخر- طبعة دار الحديث - سورية.
- ٣٥٨- سنن ابن ماجه، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي - دار الريان للتراث.
- ٣٥٩- سنن الترمذي، تحقيق: أحمد محمد شاكر - مطبعة مصطفى البابي - الحلبي - مصر - ط ١ - ١٣٥٦ هـ.
- ٣٦٠- السنن الكبرى، لليهقي - مطبعة مجلس دائرة المعارف الثمانية - الهند - ١٣٤٤ هـ.
- ٣٦١- السنن والمبتدعات المتعلقة بالأذكار والصلوات، محمد عبدالسلام خضر الشقيري - ط دار الفكر.
- ٣٦٢- السيد صديق حسن خان القنوجي وآراؤه الاعتقادية، د/ اختر لقمان - دار الهجرة - الرياض - ط ١ - ١٤١٧ هـ.
- ٣٦٣- سير أعلام النبلاء، للذهبي - تحقيق: محمد العرقسوس - مؤسسة الرسالة - ط ١ - ١٩٨٢ م.
- ٣٦٤- سيف الله على من كذب على أولياء الله، صنع الله الحلبي - تحقيق: على رضا بن عبدالله - دار الوطن - الرياض - ط ١ - ١٤٢٠ هـ.
- ٣٦٥- السيف المسلول في الذب عن الرسول ﷺ، د/ عويد المطرفي - مكة المكرمة - ١٤١٤ هـ.
- ٣٦٦- شأن الدعاء، للخطابي - تحقيق: أحمد الدقاق - دار المأمون - دمشق - ١٤٠٤ هـ.
- ٣٦٧- شجرة الإرشاد، جمع: وفاء بنت حسن بن علي - مطبعة الصحف - ١٣٠٤ هـ.
- ٣٦٨- شخصية الرسول ﷺ في ضوء المقاييس الإنسانية، د/ عبدالحليم عويس - ط جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ١٤١٣ هـ.
- ٣٦٩- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، لابن العماد الحنبلي - دار الآفاق الجديدة - بيروت.
- ٣٧٠- شرح الأصول الخمسة، القاضي عبد الجبار - تعليق: أحمد بن الحسين - تحقيق: د/ عبدالكريم عثمان - مكتبة وهبة - القاهرة - ط ١ - ١٩٦٥ م.
- ٣٧١- شرح السنة، للبغوي - تحقيق: شعيب الأرناؤوط، وآخر- المكتب الإسلامي - دمشق - ١٣٩١ هـ.
- ٣٧٢- شرح الشفا، مُلاً علي القاري، دار الكتب العلمية، بيروت ١٣١٩ هـ.
- ٣٧٣- شرح العقائد النسفية، سعد الدين التفتازاني - طبعة دار سعادت - ١٣٢٦ هـ.
- ٣٧٤- شرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز الحنفي - حققها: جماعة من العلماء - خرّج أحاديثها: الشيخ الألباني - المكتب الإسلامي - ط ٩ - ١٤٠٨ هـ.
- ٣٧٥- شرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز الحنفي - تحقيق: د/ عبدالله التركي، وشعيب الأرناؤوط - مؤسسة الرسالة - بيروت ١٤٠٨ هـ.
- ٣٧٦- شرح العقيدة الأصفهانية، لشيخ الإسلام ابن تيمية - تقديم: حسنين مخلوف - دار الكتب الحديثة - القاهرة - ١٣٨٦ هـ.

- ٣٧٧- شرح العقيدة الواسطية ، للهراس -مراجعة : عبدالرزاق عفيفي - ١٤٠٧ هـ .
- ٣٧٨- شرح القصيدة التونية المسماة الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية ، لابن قيم الجوزية - شرح وتحقيق : د/ محمد خليل هراس - دار الفاروق - مصر .
- ٣٧٩- شرح المواقف ، للشريف الجرجاني - بهامش المواقف في علم الكلام للإيجي - دار الطباعة العامة بالأستانة - ١٣١١ هـ .
- ٣٨٠- الشرح الميسر للفقه الأكبر ، د/ محمد عبدالرحمن الخميس - طبعة وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف - الرياض - ١٣١١ هـ .
- ٣٨١- شرح ديوان حسان بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه ، وضعه : عبدالرحمن البرقوقي - المكتبة التجارية الكبرى - القاهرة - ١٣٤٨ هـ .
- ٣٨٢- الشرح والإبانة على أصول السنة والديانة ، لابن بطة العكبري - تحقيق : رضا بن نعان معطي - ط ٢ - ١٤١١ هـ .
- ٣٨٣- الشرك في القديم والحديث ، لأبي بكر زكريا محمد - رسالة دكتوراه - غير منشورة - الجامعة الإسلامية
- ٣٨٤- الشرك وأنواعه ، جفري وهاب - رسالة ماجستير غير منشورة - بالجامعة الإسلامية .
- ٣٨٥- الشريعة ، للأجري - تحقيق : محمد حامد الفقي - مطبعة السنة المحمدية - القاهرة - ١٣٦٩ هـ .
- ٣٨٦- شعب الإيمان ، للبيهقي - تحقيق : محمد بسيوني زغلول - دار الكتب العلمية - بيروت - ط ١ - ١٤١٠ هـ .
- ٣٨٧- الشعر والشعراء ، لابن قتيبة - ط دار الثقافة - بيروت - ١٩٦٤ م .
- ٣٨٨- الشمية والتصحيح الصراع بين الشيعة والتشيع ، د/ موسى الموسوي - طبعة لوس إنجلوس
- ٣٨٩- شفاء السقام في زيارة خير الأنام ، عبدالوهاب السبك - لجنة التراث العربي - بيروت - ١٣٧١ هـ .
- ٣٩٠- شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والتعليل ، لابن قيم الجوزية - تحقيق : الحساني حسن عبدالله - مكتبة التراث بالقاهرة .
- ٣٩١- الشفاعة ، للشيخ مقبل بن هادي الوادعي - دار الأرقم - الكويت - ط ٢ - ١٤٠٣ هـ .
- ٣٩٢- الشفاعة في الإسلام ، د/ عائش بن عياش الحبشي - رسالة ماجستير غير منشورة
- ٣٩٣- الشفيع ، عمر باشميل - دار طويق - الرياض - ١٤١٤ هـ .
- ٣٩٤- شم العوارض في ذم الروافض ، ملأ علي القاري - مخطوط في مكتبة عارف حكمت بالمدينة المنورة - برقم ١٣/ أ .
- ٣٩٥- شواهد الحق في الاستغاثة بسيد الخلق ، يوسف النبهاني - دار الفكر - بيروت - ط الأخيرة - ١٤٠٣ هـ .
- ٣٩٦- الشوقيات (ديوان أحمد شوقي) ، لأحمد شوقي - دار الكتاب العربي - بيروت .

- ٣٩٧- الشيخ إبراهيم انياس السنغالي وآراؤه وتعاليمه ، محمد الطاهر ميفري - دار العربية - بيروت - ١٤٠١هـ .
- ٣٩٨- الشيخ عبدالرحمن بن سعدي وجهوده في توضيح العقيدة ، د/ عبدالرزاق بن عبدالمحسن العباد - مكتبة الرشد - الرياض - ١٤١١هـ .
- ٣٩٩- الشيعة في التاريخ ، محمد بن حسين الزين العاملي - طبعة دار الآثار - بيروت
- ٤٠٠- الشيعة في الميزان ، د/ محمد يوسف النجرامي - دار المدني جدة - ١٤٠٧هـ .
- ٤٠١- الشيعة وأهل البيت ، إحسان إلهي ظهير - طبعة إدارة ترجمان السنة بباكستان - ط ٧ - ١٤٠٤هـ .
- ٤٠٢- الشيعة والتشيع ، إحسان إلهي ظهير - طبعة إدارة ترجمان السنة بباكستان - ط ٢ - ١٤٠٤هـ .
- ٤٠٣- الشيعة وتحريف القرآن ، محمد مال الله - تقديم : محمد أحمد النجفي - دار الوعي الإسلامي - بيروت - ١٤٠٢هـ .
- ٤٠٤- الصابون حرائين ومندائين ، د: رشدي عليان مطبعة دار السلام - بغداد - ١٩٧٦م .
- ٤٠٥- الصارم الحديد في عنق صاحب سلاسل الحديد ، تحقيق : د/ فهد ضويان السحيمي - رسالة دكتوراه غير منشورة - بالجامعة الإسلامية .
- ٤٠٦- الصارم المسلول على شاتم الرسول ، لشيخ الإسلام ابن تيمية - ط عالم الكتب .
- ٤٠٧- الصارم المنكي في الرد على السبكي ، محمد بن عبد الهادي - تحقيق : عقيل بن محمد المقطري اليماني - مؤسسة الريان - بيروت - ط ١ - ١٤١٢هـ .
- ٤٠٨- الصحاح في اللغة والعلوم (تجديد صحاح العلامة الجوهري) ، نديم مرعشلي ، وآخر ، دار الحضارة العربية ، بيروت ٩٧٤
- ٤٠٩- صحيح الجامع الصغير وزيادته ، الشيخ محمد ناصر الدين الألباني - المكتب الإسلامي - بيروت - ط ٣ - ١٤٠٨هـ .
- ٤١٠- صحيح سنن ابن ماجه ، للشيخ الألباني - مكتب التربية العربي الدولي الخليج - الرياض - ١٤٠٨هـ .
- ٤١١- صحيح سنن الترمذي ، للشيخ الألباني - مكتب التربية العربي الدولي الخليج - الرياض - ١٤٠٨هـ .
- ٤١٢- صحيح مسلم بشرح النووي ، ط دار إحياء التراث العربي - بيروت - ط ١ - ١٩٢٩م .
- ٤١٣- الصحيفة السجادية ، للسجاد زين العابدين ، تقديم محمد باقر الصدر ، ط شركة المصطفى للتوزيع ، الماتمة - البحرين ط ١ ، ١٤١٣هـ .
- ٤١٤- صراط النجاة في أجوبة الاستفتاءات ، للخوازي - تعليق : جواد التبريزي - انتشارات فؤاد طهران ١٣١٤هـ .
- ٤١٥- الصراع بين الإسلام والوثنية ، عبدالله القصيمي - مصنع القاهرة للطباعة - ١٤٠٢هـ .

- ٤١٦- صراع مع الباطل، محمد أحمد باشميل (بدون ناشر) بيروت ط ٢- ١٣٨٠ هـ.
- ٤١٧- صعود الأقوال ورفع الأعمال إلى الكبير المتعال، عبدالله سراج الدين مكتبة طيبة بالمدينة المنورة - بدون تاريخ.
- ٤١٨- صفة الجنة في القرآن الكريم، عبد الحليم السلفي - رسالة ماجستير - غير منشورة - بالجامعة الإسلامية
- ٤١٩- صفوة الآثار والمفاهيم من تفسير القرآن العظيم ، للشيخ عبدالرحمن الدوسري - شركة العبيكان للطباعة - ١٤٠٤ هـ.
- ٤٢٠- صلاة التراويح، الشيخ الألباني - دمشق - ١٣٧٧ هـ.
- ٤٢١- الصلاة المشيشية، مطبوعة بحاشية دلائل الخيرات - للجزولي - مؤسسة الأعلمي - بيروت .
- ٤٢٢- الصلاة وصف مفصل للصلاة، عبدالله الطيار - دار الوطن بالرياض - ١٤١٦ هـ.
- ٤٢٣- الصلاة ومقاصدها، الحكيم الترمذي - تحقيق : حسني زيدان - دار الكتاب العربي - مصر - ١٩٦٥ م.
- ٤٢٤- الصلوات والبشر في الصلاة على خير البشر، للفيروز آبادي - تحقيق : محمد نور الدين الجزائري، وآخر - دار التربية - دمشق - ١٤٨٥ هـ.
- ٤٢٥- الصلة بين التصوف والتشيع ، د/ مصطفى الشبيبي - دار الأندلس - بيروت - ط ٣- ١٩٨٢ م.
- ٤٢٦- الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم وفقهائهم وأدبائهم ، لابن بشكوال - تصحيح : عزت العطار مكتبة المثنى - بغداد - ١٩٥٥ م.
- ٤٢٧- الصواعق المرسلة الشهابية على الشبه الداحضة الشامية، سليمان بن سحمان النجدي - تحقيق : عبدالسلام ابن برجس آل عبدالكريم - دار العاصمة - الرياض - ط ١- ١٤٠٩ هـ.
- ٤٢٨- الصواعق المنزلة على الطائفة الجهمية والمعتلة ، لابن قيم الجوزية - تحقيق : الشيخين د/ أحمد عطية الغامدي ، ود/ علي ناصر فقيهي - مطابع الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة - ١٤٠٧ هـ.
- ٤٢٩- صورتان متضادتان عند أهل السنة والشيعة الإمامية ، لأبي الحسن الندوي - دار البشر - جدة - ١٤١٠ هـ.
- ٤٣٠- الصوفية في نظر الإسلام دراسة وتحليل ، سميح عاطف الزين - دار الكتاب اللبناني ومكتبة بيروت - بيروت - ط ٣- ١٤٠٥ هـ.
- ٤٣١- الصوفية معتقدا ومسلكا، د/ صابر طعمية - الرياض ١٤٠٥ هـ.
- ٤٣٢- صيانة الإنسان عن وسوسة الشيخ دحلان، محمد بشير السهسواني - تعليق : الشيخ إسماعيل الأنصاري - مطابع نجد التجارية ط ٥- ١٣٩٥ هـ.
- ٤٣٣- الصيد الثمين في رسائل ابن عثيمين، الشيخ محمد بن صالح العثيمين - دار الثقة - مكة المكرمة - ط ١- ١٤١٢ هـ.

- ٤٣٤- ضرورة الدعوة إلى الله وأثرها، عطية محمد سالم طبعة وزارة الشئون الإسلامية، بالرياض ١٤١٩هـ.
- ٤٣٥- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، للسخاوي- مكتبة القدس- القاهرة- ١٣٥٣هـ.
- ٤٣٦- الضياء الشارق في رد شبهات الماذق المارق، للشيخ سلمان بن سحمان- تحقيق: عبدالسلام بن برجس- دار العليان- بريدة- ط٤- ١٤١٢هـ.
- ٤٣٧- طبقات الحنابلة، لأبي يعلى- دار المعرفة- بيروت
- ٤٣٨- طبقات الشافعية الكبرى، للسبكي- تحقيق: عبدالفتاح محمد الحلو- دار إحياء الكتب العربية- بدون بيانات.
- ٤٣٩- طبقات الصوفية، للسلمي- ترتيب: أحمد الشرباصي- مطابع الشعب- القاهرة- ١٣٨٠هـ.
- ٤٤٠- الطبقات الكبرى، لابن سعد- ط دار صادر- بيروت.
- ٤٤١- الطبقات الكبرى المسماة بلواقح الأنوار في طبقات الأخيار، عبدالوهاب الشعراني- دار الجليل- بيروت- ط١- ١٤٠٨هـ.
- ٤٤٢- طبقات المفسرين، للسيوطي- تحقيق: علي عمر- مكتبة وهبة- ١٣٩٦هـ.
- ٤٤٣- طبقات المفسرين، للداوودي- تحقيق: علي عمر- مكتبة وهبة- ١٣٩٢هـ.
- ٤٤٤- طريق الهجرتين وباب السعادتين، لابن قيم الجوزية- نشر قصي محب الدين الخطيب- المطبعة السلفية- القاهرة- ١٣٧٦هـ.
- ٤٤٥- ظاهرة الغلو في الدين الأسباب والمظاهر والعلاج، عبود علي درع- دار الصميعي- الرياض- ط١- ١٤١٩هـ.
- ٤٤٦- ظاهرة الغلو في الدين في العصر الحديث، محمد عبدالكريم حامد- رسالة ماجستير- غير منشورة- الجامعة الإسلامية.
- ٤٤٧- العاقبة في ذكر الموت والآخرة، للأشبيلي- تحقيق: محمد خضر- دار الأقصى بالكويت- ١٤٠٦هـ.
- ٤٤٨- عالم الجن والشياطين، د/ عمر سليمان الأشقر- دار النفائس- الأردن- ط٨- ١٤١٤هـ.
- ٤٤٩- عالم الملائكة أسرار وخفاياه، مصطفى عاشور مكتبة القرآن بالقاهرة- بدون تاريخ.
- ٤٥٠- عالم الملائكة الأبرار، عمر سليمان الأشقر- مكتبة الفلاح بالكويت- ط٤- ١٤٠٥هـ.
- ٤٥١- عالمية الإسلام وإعداد المواطن الصالح، أحمد علي الملا- دار قتيبة- دمشق- ١٤٠٤هـ.
- ٤٥٢- العبادة والعباد، محمد بن نمر الخطيب- مطبعة الإرشاد ببغداد- ١٣٩٨هـ.
- ٤٥٣- عبدالله بن المبارك الإمام القدوة، محمد عثمان جمال- دار القلم- دمشق- ط٢- ١٣٩٩هـ.
- ٤٥٤- العبر في خبر من غبر، للذهبي- تحقيق: محمد بسيوني زغلول- دار الكتب العلمية- بيروت- ط١- ١٩٨٥م.

- ٤٥٥- العبودية ، لشيخ الإسلام ابن تيمية - المكتب الإسلامي - بيروت - ط ٦ - ١٤٠٣ هـ .
- ٤٥٦- العتبية في مسائل الإمام مالك ، محمد بن أحمد العتبي - مطبوع ضمن البيان والتحصيل لابن رشد - تحقيق : الحاج أحمد الجبالي - دار الغرب الإسلامي - بيروت - ١٤٠٤ هـ .
- ٤٥٧- العزلة ، للخطابي - تحقيق : ياسين السواس - دار ابن كثير - دمشق - ١٤٠٧ هـ .
- ٤٥٨- عصمة الأنبياء والرد على شبه الموجهة إليهم ، د/ محمد الحديدي - مطبعة الإمامة - القاهرة - ١٣٩٩ هـ .
- ٤٥٩- العصمة عند الشيعة الإمامية الاثني عشرية ، علي البار - رسالة ماجستير - غير منشورة بالجامعة الإسلامية .
- ٤٦٠- العظة والاعتبار آراء في حياة السيد البدوي الدنيوية وحياته البرزخية ، أحمد محم د=حجاب - مكتبة تاج للتراث - طنطنا - مصر - بدون تاريخ .
- ٤٦١- العقائد الإسلامية ، سيد سابق - دار الكتاب العربي - بيروت - ١٤٠٦ هـ .
- ٤٦٢- عقائد الإمامية ، محمد رضا المظفر - مطبعة النجاح - القاهرة - ١٣٩١ هـ .
- ٤٦٣- العقد النفيس في نظم جوهر التدريس ، أحمد بن إدريس المغربي - المكتبة الثقافية - بيروت
- ٤٦٤- العقل والغيب ، د/ محمد حسن هيتو - دار البشائر الإسلامية - بيروت - ط ١ - ١٤١٤ هـ .
- ٤٦٥- العقيدة الإسلامية الميسرة وأثرها في حياة المسلم ، عبدالعزيز فتحي ندا ١٤٢٠ هـ - بدون بنانات أخرى .
- ٤٦٦- العقيدة الإسلامية وأثرها في بناء المجتمع ، عزام سلهب - رسالة ماجستير - غير منشورة بالجامعة الإسلامية .
- ٤٦٧- العقيدة الإسلامية وأسسها ، الشيخ عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني - دار العلم - دمشق - ط ٥ - ١٤٠٨ هـ .
- ٤٦٨- عقيدة التوحيد في القرآن الكريم ، د/ محمد أحمد ملكاوي - دار ابن تيمية - الرياض - ط ١ - ١٤٠٥ هـ .
- ٤٦٩- عقيدة الشيخ محمد بن عبد الوهاب السلفية وأثرها في العالم الإسلامي ، د/ صالح العبود - مطابع الجامعة الإسلامية - المجلس العلمي لإحياء التراث .
- ٤٧٠- عقيدة المؤمن ، لأبي بكر الجزائري - دار الشرق - جدة - ط ٣ - ١٤٠٢ هـ .
- ٤٧١- عقيدة المسلم ، محمد الغزالي المصري - دار العلم - دمشق - ط ٧ - ١٤٠٩ هـ .
- ٤٧٢- عقيدة ختم النبوة بالنبوة المحمدية ، د/ أحمد سعد حمدان الغامدي - دار طيبة - الرياض - ١٤٠٥ هـ .
- ٤٧٣- العقيدة والأخلاق وأثرهما في حياة الفرد والمجتمع ، د/ محمد بيسار - دار الكتاب اللبناني - بيروت - ط ٤ - ١٩٧٣ م .
- ٤٧٤- العقيدة والشريعة في الإسلام ، جولد تسهير - ترجمة : محمد يوسف موسى ، وآخرين - دار

- الكتاب العربي - القاهرة - ١٩٤٦ م.
- ٤٧٥ - العلاقة بين التشيع والتصوف، فلاح بن أحمد - رسالة دكتوراه غير منشورة بالجامعة الإسلامية.
- ٤٧٦ - علل الشرائع، للصدوق - تقديم: محم دصادق بحر العلوم - المكتبة الحيدرية بالنجف - ١٣٨٢ هـ.
- ٤٧٧ - العلم الشامخ في إيفار الحق على الآباء والمشايخ، صالح بن مهدي المقبل - دار الحديث - ط ٢ - ١٤٠٥ هـ.
- ٤٧٨ - علماء آل سليم وتلامذتهم وعلماء القصيم، صالح السليمان العمري - ط ١ - ١٤٠٥ هـ.
- ٤٧٩ - علماء نجد خلال ستة قرون، للبسام - مكتبة النهضة الحديثة - مكة المكرمة - ١٣٩٨ هـ.
- ٤٨٠ - العلو للعلي الغفار، للذهبي - تحقيق: عبدالله البراك - داو الوطن - الرياض - ١٤٢٠ هـ.
- ٤٨١ - عوارف المعارف، للسهروردي - المكتبة العلامة - مصر - ١٣٥٨ هـ.
- ٤٨٢ - عيون الأنباء في طبقات الأطباء، لابن أبي أصيبعة - دار الفكر - بيروت - ١٣٧٦ هـ.
- ٤٨٣ - غاية الأماني في الرد على النبهاني، لأبي المعالي محمود شكري الألوسي - مطابع نجد التجارية - الرياض.
- ٤٨٤ - غاية السؤل في خصائص الرسول ﷺ، لابن الملتن - تحقيق: عبدالله بحر الدين - دار البشائر الإسلامية - بيروت - ١٤١٤ هـ.
- ٤٨٥ - غاية المرام في علم الكلام، للآمدي - تحقيق: حسن محمود عبداللطيف - المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية - لجنة إحياء التراث - القاهرة - ١٣٩١ هـ.
- ٤٨٦ - الغدير في الكتاب والسنة والأدب، عبدالحسين الأميني النجفي - مطبعة الحيدري بطهران - ط ٢ - ١٣٧٢ هـ.
- ٤٨٧ - غريب الحديث، لابن الجوزي - تخريج: عبدالمعطي أمين قلعة جي - دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤٠٥ هـ.
- ٤٨٨ - غريب الحديث، لأبي عبيد القاسم بن سلام - دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤٠٦ هـ.
- ٤٨٩ - الغلو في الدين في حياة المسلمين المعاصرة، د/ عبدالرحمن اللويحق - مؤسسة الرسالة - بيروت - ط ٢ - ١٤١٣ هـ.
- ٤٩٠ - الغلو في الدين نشأته - موقف الإسلام منه - مسائله آثاره، علي بن عبدالعزيز الشبل - دار الوطن - الرياض - ط ١ - ١٤١٧ هـ.
- ٤٩١ - الغلو وأثره في عقائد الرافضة، د/ جازي بخيت الجهني - رسالة دكتوراه - غير منشورة بالجامعة الإسلامية.
- ٤٩٢ - الغنية لطالبي طريق الحق، الشيخ عبدالقادر الكيلاني - مطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر - ط ٣ - ١٣٧٥ هـ.

- ٤٩٣- الغياني غياث الأمم في التياث الظلم ، للجويني - تحقيق : د/ عبدالعظيم الديب - طبعة الشؤون الدينية بقطر - ط ١ - ١٤٠٠ هـ .
- ٤٩٤- الفية، محمد بن إبراهيم النعماني - مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت - ط ١ - ١٩٨٣ م .
- ٤٩٥- فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء، جمع الشيخ أحمد بن عبدالرزاق الدويش - دار العاصمة - الرياض - ط ٣ - ١٤١٩ هـ .
- ٤٩٦- الفتاوى الهندية أو العالمكيرية، جماعة من علماء الهند - المكتبة الإسلامية - بتركيا - ط ٣ - ١٣٩٣ هـ .
- ٤٩٧- فتاوى سلطان العلماء العز بن عبدالسلام، تحقيق : مصطفى عاشور - مكتبة الساعي - الرياض - ١٩٨٧ م .
- ٤٩٨- فتاوى للموظفين والعمال، سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز، والشيخ محمد بن صالح العثيمين، والشيخ عبدالله الجبرين - جمع : محمد بن عبدالعزيز المسند
- ٤٩٩- فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني - تحقيق وتعليق : سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز - وترقيم : محمد فؤاد عبد الباقي - ط دار الفكر .
- ٥٠٠- فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن رجب الحنبلي - تحقيق : محمود شعبان ، وآخر - مكتبة الغرباء - المدينة المنورة - ١٤١٧ هـ .
- ٥٠١- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، محمد بن علي الشوكاني - مطبعة عيسى البابي الحلبي - مصر - ط ٢ - ١٩٦٤ م .
- ٥٠٢- فتح المجيد شرح كتاب التوحيد، للشيخ عبدالرحمن بن حسن آل الشيخ - تحقيق : محمد حامد الفقي - دار الكتب العلمية - بيروت .
- ٥٠٣- فتح المغيث بشرح ألفية الحديث، للحافظ العراقي - شرح السخاوي - تصحيح : حبيب الرحمن الأعظمي - المكتبة العلمية بالمدينة المنورة - بدون تاريخ .
- ٥٠٤- الفتوحات المكية ، لابن عربي الصوفي - تحقيق : د/ عثمان يحيى - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة - ١٣٩٢ هـ .
- ٥٠٥- الفتوى الحموية الكبرى، لشيخ الإسلام ابن تيمية - تقديم : محمد عبدالرزاق حمزة - مطبعة المدني - مصر - ١٤٠٣ هـ .
- ٥٠٦- فرق الشيعة ، للنوختي - دار الأضواء - بيروت - ط ٢ - ١٩٨٤ م .
- ٥٠٧- الفرق بين الفرق، أبو منصور البغدادي - تحقيق : محمد عثمان الخشت - مكتبة ابن سينا - القاهرة .
- ٥٠٨- الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، لشيخ الإسلام ابن تيمية - مطبعة المعارف - الرياض - طبعة جديدة ١٤٠٢ هـ .
- ٥٠٩- الفصل في الملل والأهواء والنحل، لابن حزم - تحقيق : د/ محمد إبراهيم نصر، وآخر - ط

دار الجليل - ١٩٨٥ م.

٥١٠- فصوص الحكم، لابن عربي الصوفي - بتعليق: أبي العلا عفيفي - دار الكتاب العربي - بيروت - ط ٢ - ١٤٠٠ هـ.

٥١١- الفصول المهمة في أحوال الأئمة، للحر العاملي - مكتبة بصيرني بقم - ط ٣.

٥١٢- فضائح الباطنية، للغزالي - تحقيق: عبدالرحمن بدوي - الدار القومية - القاهرة - ١٣٨٣ هـ.

٥١٣- فضل الصلاة على النبي ﷺ، إسماعيل القاضي - تحقيق: الشيخ ناصر الدين الألباني - المكتب الإسلامي - دمشق - ط ٢ - ١٣٨٩ هـ.

٥١٤- فضل علم السلف على الخلف، لابن رجب الحنبلي - تحقيق: محمد عبدالحكيم القاضي - دار الحديث - القاهرة - ١٤٠٨ هـ.

٥١٥- فقه العبادات، للشيخ محمد بن صالح العثيمين - إعداد: الطيار - دار الوطن - الرياض - ١٤١٦ هـ.

٥١٦- الفقيه والمتفقه، الخطيب البغدادي - تصحيح: إسماعيل الأنصاري - دار إحياء السنة النبوية - ١٣٩٥ هـ.

٥١٧- الفكر الشيعي والنزعات الصوفية حتى مطلع القرن الثاني عشر الهجري، د/ مصطفى الشبيبي - مكتبة النهضة - بغداد - ط ١ - ١٣٨٦ هـ.

٥١٨- الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة، عبدالرحمن عبدالحالق - مكتبة ابن تيمية بالكويت - ط ٢.

٥١٩- فكرة القومية العربية على ضوء الإسلام، صالح العبود - دار طيبة - الرياض - ط ١ - ١٤٠١ هـ.

٥٢٠- فلسفة النبوة والأنبياء في ضوء القرآن والسنة، آدم الألوري - مكتبة وهبة - مصر - ط ١ - ١٤٠٣ هـ.

٥٢١- الفهرست، لابن النديم - تحقيق: رضا - تجدد - طهران - ١٣٩١ هـ.

٥٢٢- الفوائد، لابن القيم - تحقيق: أيت سعيد - ط دار الفكر - ودار المعرفة - الدار البيضاء بالمغرب.

٥٢٣- الفوائد البهية في تراجم الحنفية، العلامة اللكنوي - تعليق: النعساني - دار المعرفة - ١٣٢٤ هـ.

٥٢٤- الفوائد الكفيلة بمعرفة الوسيلة، محمد بن الحسن الخديم - ط ١ - ١٤١٦ هـ.

٥٢٥- الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة، للشوكاني - تحقيق: عبدالرحمن المعلمي - المكتب الإسلامي - بيروت - ط ٢ - ١٣٩٢ هـ.

٥٢٦- الفوائد المنتقاة من فتح الباري وكتب أخرى، للشيخ عبدالمحسن العباد - مكتبة العلوم والحكم بالمدينة المنورة - ١٤١٣ هـ.

٥٢٧- الفوائد الموضوعة في الأحاديث الموضوعة، مرعي بن يوسف الكرسي، تحقيق محمد بن ل؛ في الصباغ دار الورق بالرياض، ط ٣ - ١٤١٩ هـ.



- ٥٢٨- في التصوف الإسلامي وتاريخه، نيكولسون- ترجمة : أبي العلا عفيفي - مطبعة لجنة التأليف والترجمة بالقاهرة- ١٣٦٦هـ.
- ٥٢٩- فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة، مطبوع ضمن القصور العولي- تحقيق : محمد مصطفى أبو العلا- مكتبة الجندي بالقاهرة- ط٢- ١٣٩٠هـ.
- ٥٣٠- فيض القدير، للمناوي
- ٥٣١- القائد إلى تصحيح العقائد للمعلمي تصحيح الشيخ الألباني ، المكتب الإسلامي بيروت ط ثانية ١٤٠٢هـ.
- ٥٣٢- القادريانية ، إحسان إلهي ظهير، إدارة ترجمان السنة لاهور، ط الثالثة ١٣٩٥هـ.
- ٥٣٣- قاعدة جلية في التوسل والوسيلة، لشيخ الإسلام ابن تيمية - تحقيق : د/ ربيع بن هادي المدخلي- مكتبة لبنه - مصر- ط١- ١٤١٧هـ.
- ٥٣٤- قاعدة في الرج على الغزالي في التوكل، لشيخ الإسلام ابن تيمية - تحقيق : علي الشبل دار الصميعي ١٤١٦هـ.
- ٥٣٥- قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية ، أحمد أمين ، مطبعة لجنة التأليف المصرية بالقاهرة، ١٩٥٣م.
- ٥٣٦- القاموس المخطئ، للفيروزآبادي ، مكتبة مصطفى البابي الحلبي بمصر ط٢، ١٣٧١هـ.
- ٥٣٧- القرامطة، عارف تامر ، دار مكتبة الحياة، بيروت ، بدون تاريخ.
- ٥٣٨- قصيدة البردة ، كعب بن زهير : شرح ابن الأنباري- تحقيق : محمود حسن زيني- دار تهامة - جدة- ١٤٠٠هـ.
- ٥٣٩- قصيدة البردة ، مطبوعة بأخر دلائل الخيرات للجزولي- مؤسسة الأعلمي- بيروت
- ٥٤٠- قطر الولي على حديث الولي، للشوكاني، تحقيق : إبراهيم هلال ، دار الكتب الحديثة، بمصر ١٩٧٩م.
- ٥٤١- قواعد الأحكام ، للعز بن عبد السلام، المكتبة التجارية الكبرى، بالقاهرة.
- ٥٤٢- قواعد الأديان، لشيخ الإسلام ابن تيمية ، تحقيق : إبراهيم الحمل دار الرياض ١٤١٠هـ.
- ٥٤٣- قواعد التحديث فنون مصطلح الحديث، للقاسمي ، تحقيق محمد بهجت البيطار، مطبعة الحلبي بمصر ط ثانية، ١٣٨٠هـ.
- ٥٤٤- القواعد الحسان لتفسير القرآن، للسعدي، مكتبة الرشد بالرياض، ١٤٢٠هـ.
- ٥٤٥- قواعد عقائد آل محمد الباطنية، لمحمة الديلمي تصحيح السيد عزت العطار مطبعة السعادة، بمصر ١٣٦٩هـ.
- ٥٤٦- قوت القلوب في معاملة المحبوب ، للشيخ أبي طالب المكي- ط دار الفكر
- ٥٤٧- القول البديع في الصلاة على الحبيب الشفيع، للسخاوي- المكتبة العلمية- المدينة المنورة- ط٣- ١٣٩٧هـ.

- ٥٤٨- القول الجلي في حكم التوسل بالنبي والولي، لمحمد بن عبدالسلام الشقير، بعناية يوسف السعيد، دار الهدى بالرياض ١٤١٧هـ.
- ٥٤٩- القومية العربية على ضوء الإسلام والواقع، سماحة الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز
- ٥٥٠- القومية في نظر الإسلام، محمد أحمد باشميل، بيروت ١٩٦٠م بدون ناشر.
- ٥٥١- القياس الفاسد وأثره في الانحراف في العقيدة، د/ أحمد بن شاكر الحذيفي - رسالة دكتوراه غير منشورة بالجامعة الإسلامية.
- ٥٥٢- الكافي، للكليني - تصحيح: علي أكبر الغفاري - مكتبة الصدوق بطهران - ط ٢ - ١٣٨١هـ.
- ٥٥٣- الكامل في ضعفاء الرجال، لابن عدي، تحقيق صبحي البدر، مطبعة الأعظمي بالعراق، ١٩٧٧م.
- ٥٥٤- الكامل في التاريخ، لابن الأثير - علق عليه: نخبة من العلماء - دار الكتاب العربي - بيروت - ط ٤ - ١٩٨٣م.
- ٥٥٥- كتاب البعث والنشور، أحمد بن حسين البيهقي - تحقيق: محمد بسيوني زغلول - مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت - ط ١ - ١٤٠٨هـ.
- ٥٥٦- كتاب التعريفات، للشريف الجرجاني - تحقيق: إبراهيم الأبياري - دار الريان للتراث
- ٥٥٧- كتاب الدرر فيما يجب اعتقاده، لابن حزم، تحقيق: أحمد بن ناصر وآخر، مكتبة التراث بمكة ١٤٠٨هـ.
- ٥٥٨- كتاب الدعاء المأثور، للطرطوشي
- ٥٥٩- كتاب الرد على المنطقيين، لشيخ الإسلام ابن تيمية، مكتبة الدار بالمدينة ١٤٠٢هـ.
- ٥٦٠- كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض اليعصبي - تقديم وتخريج: كمال بسيوني زغلول - مؤسسة الكتاب للثقافة - ط ١ - ١٤٠٦هـ.
- ٥٦١- كتاب العظمة، لابن أبي الشيخ
- ٥٦٢- كتاب الفتح الرباني فينا يحتاج إليه المرید التجاني، محمد بن عبدالله الطصفاوي
- ٥٦٣- كتاب المنهاج في شعب الإيمان، الحسين بن الحسن الحلبي - تحقيق: حلمي فودة - دار الفكر - ط ١ - ١٩٧٩م.
- ٥٦٤- كتاب تصفية القلوب، للإمام يحيى بن حمزة اليماني - تحقيق: حسن الأهدل - مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت - ١٤١٢هـ.
- ٥٦٥- كتاب معرفة علوم الحديث، للحاكم، تحقيق معظم حسين، المكتبة العلمية بالمدينة - ط ١ - ١٣٩٧هـ.
- ٥٦٦- كسر الصنم نقض كتاب أصول الكافي، للبرتعي، ترجمة: عبدالرحيم البلوشي، دار البيارق بعمان ١٤١٩هـ.
- ٥٦٧- كشاف اصطلاحات الفنون، للتهانوي، تحقيق لطفي عبدالبدیع وآخر المؤسسة المصرية



- للنشر ١٩٧٧ م.
- ٥٦٨- كشف الأستار عن زوائد البزار على الكتب الستة ، للهيثمي - تحقيق : حبيب الرحمن الأعظمي - مؤسسة الرسالة - بيروت - ١٣٩٩ هـ .
- ٥٦٩- كشف الأسرار ، للخميني - تقديم : د/ محمد أحمد الخطيب - دار عمار - الأردن ط ١ - ١٤٠٨ هـ .
- ٥٧٠- كشف الارتياح في أتباع محمد بن عبد الوهاب ، محسن الأمين العاملي - دار الخديرة - بيروت - ط ٣ .
- ٥٧١- كشف الحجاب عن تلافى مع الشيخ التجاني من الأصحاب ، أحمد بن الحاج سكيرج - المكتبة الشعبية - بيروت .
- ٥٧٢- كشف الخفا ومزيل الإلباس ، للعجلوني تصحيح أحمد الفلاش ، مكتبة التراث بحلب .
- ٥٧٣- كشف الشبهات في التوحيد ، الشيخ محمد بن عبد الوهاب - دار الوطن - الرياض - ١٤١٤ هـ .
- ٥٧٤- كشف الغمة ببيان خصائص الرسول ﷺ والأمة ، مصطفى بن إسماعيل - تقديم : الشيخ مقبل بن هادي الوادعي - مكتبة ابن تيمية - القاهرة - ١٤١٤ هـ .
- ٥٧٥- كشف الكربة في وصف حال أهل الغربة ، لابن رجب الحنبلي ، تحقيق : يسري البشري مكتبة السامر بالرياض ، ١٩٨٩ م .
- ٥٧٦- الكشف عن حقيقة الصوفية لأول مرة في التاريخ ، محمد عبدالرؤوف القاسم - دار طيبة - مكة المكرمة - ط ٢ - ١٤١٣ هـ .
- ٥٧٧- الكشكول ، للعاملي ، تحقيق الطاهر الزاوي ، دار إحياء الكتب بمصر ١٣٨٠ هـ .
- ٥٧٨- الكليات ، للكفوي - تحقيقك د/ عدنان درويش ، وآخر - وزارة الثقافة والإرشاد القومي - دمشق - ١٩٧٦ م .
- ٥٧٩- كليات مفاتيح الجنان ، عباس القمي - الناشر انتشارات أسوة
- ٥٨٠- كنت قبوريا ، عبد المنعم الجدائي - مطبعة المدني - القاهرة - ط ٥ - ١٤٠٧ هـ .
- ٥٨١- الكنى والألقاب ، عباس القمي - المطبعة الحيدرية - النجف - ط ٢ - ١٩٦٩ هـ .
- ٥٨٢- الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة ، للغزي - تحقيق : جبرائيل جبور - مطبعة محمد أمين دمج - بيروت - ١٩٤٥ م .
- ٥٨٣- الكواكب النيرات في المنجيات والمهلكات ، عبدالله الجارالله ، مكتبة ابن خزيمة بالرياض ١٤١٢ هـ .
- ٥٨٤- لسان العرب ، لابن منظور ، تصحيح : أمين عبد الوهاب ، دار إحياء التراث - بيروت ، ١٤١٧ هـ .
- ٥٨٥- لسان الميزان ، ابن حجر مؤسسة الأعلمي ، بيروت ، ١٣٩٠ هـ .

- ٥٨٦- لطائف المنن ، لابن عطاء الله الكندري - تحقيق : د/ عبدالحليم - محمود - مطبعة حسان
- ٥٨٧- اللمع ، لأبي نصر الطوسي - تحقيق : د/ عبدالحليم محمود ، وآخر - دار الكتب الحديثة - مصر - ١٣٨٠هـ .
- ٥٨٨- لمع برق المقامات العوالي في زيارة سيدي حسن الراعي وولده عبدالعالي ، مصطفى البكري - مطبوع بأخر شواهد الحق في الاستغاثة بسيد الخلق للنبهاني
- ٥٨٩- الله في العقيدة الإسلامية ، أحمد بهجت ، مكتبة المختار الإسلامي بمصر ط ثانية ١٣٩٩هـ .
- ٥٩٠- لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية شرح الدررة المضية في عقيدة الفرق المرضية ، للسفاريني - تعليق : الشيخ عبدالرحمن أبابطين ، والشيخ سليمان بن سحمان - المكتب الإسلامي - بيروت - ط ٣ - ١٤٠٥هـ .
- ٥٩١- مباحث في العقيدة في سورة مريم ، ناصر بن علي الشيخ - مكتبة الرشد - الرياض - ١٤١٥هـ بالجامعة الإسلامية .
- ٥٩٢- مباحث في العقيدة في سورة الزمر ، د/ محمد عبدالرحمن الشطيبي - رسالة ماجستير - غير منشورة
- ٥٩٣- مباحث في علوم القرآن ، مناع القطان - دار غريب - القاهرة - ط ٥ - ١٤٠١هـ .
- ٥٩٤- المتجر الرابع في ثواب العلم الصالح ، للدمياطي ، تحرير عبد الله حجاج ، مكتبة التراث بمصر ١٤٠٨هـ .
- ٥٩٥- متن القصيدة التونية ، لابن القيم الجوزية - مكتبة ابن تيمية - القاهرة - ط ٢ - ١٤١٧هـ .
- ٥٩٦- مجلة البحوث الفقهية المعاصرة ، السنة ٧ - العدد ٢٨ - ١٤١٦هـ .
- ٥٩٧- مجلة المنار ، محمد رشيد رضا ، مطبعة المنار ١٣١٥هـ .
- ٥٩٨- مجلة الهادي الشيعية ، العدد الرابع
- ٥٩٩- مجمع الزوائد ، للهيتمي ، مكتبة القدس بالقاهرة ١٣٥٢هـ .
- ٦٠٠- مجمل اللغة ، لابن فارس تحقيق : هادي حسن .
- ٦٠١- المجموع المفيد في تقض القبورية ونصرة التوحيد ، د/ محمد عبدالرحمن الخميس - دار أطلس - الرياض - ط ١ - ١٤١٨هـ .
- ٦٠٢- المجموع المفيد من رسائل وفتاوى الشيخ سعد بن حمد بن عتيق ، جمع وترتيب : إسماعيل بن سعد بن عتيق - ط دار الهداية - ط ٤ - ١٤١٥هـ .
- ٦٠٣- مجموع رحلات الشيخ إبراهيم انياس
- ٦٠٤- مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ، جمع وترتيب : عبدالرحمن بن قاسم النجدي - بإشراف الرئاسة العامة لشؤون المسجد الحرام والمسجد النبوي .
- ٦٠٥- مجموعة التوحيد النجدية ، لمحمد بن عبد الوهاب ، مطبعة الحكومة بمكة المكرمة ١٣٩١هـ .
- ٦٠٦- مجموعة الرسائل الكبرى ، شيخ الإسلام ابن تيمية - دار إحياء التراث العربي - بيروت

- ٦٠٧- مجموعة الرسائل الكمالية، صلاح الدين المنجد، مكتبة المعارف بالطائف، بدون تاريخ.
- ٦٠٨- مجموعة الرسائل المنيرية، إدارة الطباعة المنيرية بالقاهرة ١٣٤٣هـ.
- ٦٠٩- مجموعة الرسائل والمسائل النجدية لبعض علماء نجد الأعلام، جمع عبدالسلام بن برجس آل عبدالكريم، دار العاصمة بالرياض، ط ثانية ١٤٠٩هـ.
- ٦١٠- مجموعة المناهل العذاب فيما على العبد لرب الأرباب، صالح السعوي
- ٦١١- اغبروحين من احدثين والضعفاء والمتروكين، لابن حبان، تحقيق: محمود البستي، دار الوعي بحلب ١٣٩٦هـ.
- ٦١٢- محاضرات الجامعة الإسلامية، في موسمها الثقافي ٩٨-١٣٩٩هـ.
- ٦١٣- محبة الرسول ﷺ بين الاتباع والابتداع، عبدالرؤوف محمد عثمان- مكتبة الضياء- جدة- ١٤١٢هـ.
- ٦١٤- مخازي الولي الشيطاني الملقب بالتجاني الجاني، لإبراهيم القطان مطبوع بأخر مشتهى الخارف الجاني.
- ٦١٥- مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر الرازي- ط دار الكتاب العربي- بيروت- ١٤٠١هـ.
- ٦١٦- مختصر التحفة الاثني عشرية، للدهلوي اختصار الألويسي، مكتبة إيشبق باستنبول ١٣٩٩هـ.
- ٦١٧- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لابن قيم الجوزية- دار الفكر- ط الأخيرة ١٤٠٨هـ.
- ٦١٨- المدخل، لابن الحاج الفاسي- المطبعة المصرية- القاهرة- ١٣٤٨هـ.
- ٦١٩- مراقي السعود، بشرح محمد الأمين الجكني الشنقيطي، مطبعة المدني بالقاهرة ١٣٧٨هـ.
- ٦٢٠- مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، مُلاً علي القاري، تقديم محمد عبدالحليم إشاعة المعارف ١٣٩٠هـ.
- ٦٢١- مروج الذهب، للمسعودي- دار الكتب العلمية- بيروت- ط ١- ١٩٦٨م.
- ٦٢٢- مسألة التصريب بين أهل السنة والشيعة، د: ناصر بن عبدالله القفاري دار طيبة- الرياض- ط ٢- ١٤١٣هـ.
- ٦٢٣- مسألة القضاء والقدر وموقف المؤمن منها، محمد متولي السداوي، مطبعة المدني بالقاهرة ١٣٧٧هـ.
- ٦٢٤- مسائل الجاهلية التي خالف فيها رسول الله ﷺ أهل الجاهلية، الشيخ محمد بن عبد الوهاب- شرحها: محمود شكري الألويسي، المطبعة السلفية بالقاهرة ٣٤٧هـ.
- ٦٢٥- المسائل والرسائل المروية عن الإمام أحمد في العقيدة، تحقيق: د/ عبدالإله بن سلمان الأحمد- دار طيبة- الرياض- ط ١- ١٤١٢هـ.
- ٦٢٦- المستدرك على الصحيحين في الحديث، للحاكم- ط دار الفكر- ١٩٧٨م.

- ٦٢٧- المسك الأذخر في نشر مزايا القرن الثاني عشر والثالث عشر، محمود شكري الألوسي - تحقيق د: عبدالله الجبوري - دار العلوم - الرياض ١٩٨٢ م.
- ٦٢٨- مسند الإمام أحمد، للإمام أحمد بن حنبل، المكتب الإسلامي بيروت ط ثانية ١٣٩٨ هـ.
- ٦٢٩- مشارق أنوار اليقين، رجب البرسي - مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت.
- ٦٣٠- المشاهدات المعصومية عند قبر خير البرية، محمد سلطان المعصومي الحنفي - اعتنى بطبعه: د/ محمد عبدالرحمن الخميس، ط دار العاصمة - الرياض - ط ١ - ١٤١٤ هـ.
- ٦٣١- مشاهير علماء نجد وغيرهم، للشيخ عبدالرحمن آل الشيخ، دار اليمامة ١٣٩٤ هـ.
- ٦٣٢- مشتهى الخارف الجاني في رد زلقات التجاني الجاني، للشيخ محمد الخضر الجكني الشنقيطي - دار البشير - عمان - ط ١ - ١٤٠٥ هـ.
- ٦٣٣- مشكاة المصابيح، للتبريزي - تحقيق: الشيخ الألباني - المكتب الإسلامي - دمشق - ١٣٨٠ هـ.
- ٦٣٤- مشكلة الألوهية، د/ محمد غلاب، دار إحياء الكتب بالقاهرة، ط ثانية ١٣٧١ هـ.
- ٦٣٥- المصايد المطارد، مكشاجم، تحقيق: محمد أطلس مطبعة دار المعرفة بغداد.
- ٦٣٦- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، أحمد بن محمد المقرئ الفيومي - المكتبة العلمية - بيروت.
- ٦٣٧- مصرع الشرك والخرافة، لخالد محمد علي تحقيق: عبدالله الأنصاري، مطابع الدوحة ٢٩٨ هـ.
- ٦٣٨- المصنف، عبدالرزاق - تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي - المكتب الإسلامي - بيروت ١٩٧٠ م.
- ٦٣٩- المصنوع في معرفة الحديث الموضوع، للقاري - تحقيق: عبدالفتاح أبي غدة - مؤسسة الرسالة - بيروت - ط ٢ - ١٣٩٨ هـ.
- ٦٤٠- المصنوع به على غير أهله، مطبوع ضمن رسائل القصور العوالي - للغزالي - مكتبة الجندي - القاهرة ط ٢ - ١٣٩٠ هـ.
- ٦٤١- مظاهر الانحرافات العقيدية عند الصوفية، إدريس محمود إدريس - رسالة ماجستير غير منشورة.
- ٦٤٢- معارج الألباب في مناهج الحق والصواب، حسين بن مهدي النعمي - تحقيق: أحمد بن سعيد الأشهبي - دار الأرقم - برمنجهام ت ط ١ - ١٤٠٨ هـ.
- ٦٤٣- معارج القبول، للحكمي - الدار البيضاء للنشر والتوزيع.
- ٦٤٤- المعارف، لابن قتيبة - تحقيق: ثروت عكاشة - دار المعارف - مصر - ط ٢ - ١٩٦٩ م.
- ٦٤٥- المعارف الحسينية، حسين بن آل حيدر الكاظمي المطبعة الحيدرية بالنجف - ١٣٥٠ هـ.
- ٦٤٦- معالم الدعوة في قصص القرآن الكريم، عبدالوهاب الديلمي، مكتبة الإرشاد بصنعاء ط ثانية ١٤١٩ هـ.



- ٦٤٧ - معالم غائبة عن حياة المسلمين ، ربيع بن محمد السعدي - دار معاذ بالرياض - ١٤٠٩ هـ .
- ٦٤٨ - معاني القرآن ، للزجاج - تحقيق : عبد الجليل شلبي - عالم الكتب بيروت - ١٤٠٨ هـ .
- ٦٤٩ - المعجزة وكرامات الأولياء ، لشيخ الإسلام ابن تيمية - تحقيق : مصطفى عبدالقادر عطا - دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤٠٥ هـ .
- ٦٥٠ - معجم ألفاظ الصوفية ، د/ حسن الشرقاوي - مؤسسة مختار - مصر - ط ٢ - ١٩٩٢ م .
- ٦٥١ - معجم ألفاظ العقيدة ، عامر فالج - مكتبة العبيكان بالرياض - ١٤١٧ هـ .
- ٦٥٢ - معجم الأدباء ، ياقوت الحموي ، دار المأمون بالقاهرة ، ١٣٥٧ هـ .
- ٦٥٣ - معجم البلدان ، ياقوت الحموي - دار إحياء التراث العربي - بيروت - ١٩٧٩ م .
- ٦٥٤ - معجم الشعراء ، د/ عفيف عبدالرحمن - دار المناهل - بيروت - ١٤١٧ هـ .
- ٦٥٥ - المعجم الصوفي الحكمة في حدود الكلمة ، د/ سعاد الحكيم - دار ذندرة - بيروت - ط ١ - ١٤٠١ هـ .
- ٦٥٦ - المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والانجليزية واللاتينية ، د/ جميل صليبا ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ١٩٧٩ م .
- ٦٥٧ - المعجم الكبير ، وضعه مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، مطبعة دار الكتب بالكويت ١٩٧٠ م .
- ٦٥٨ - المعجم الكبير ، للطبراني - تحقيق : الشيخ حمدي السلفي - الدار العربية - بغداد .
- ٦٥٩ - معجم المؤلفين تراجم مصنفى الكتب العربية ، عمر كحالة - مكتبة المثنى لبنان .
- ٦٦٠ - المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم - بحاشية المصحف الشريف ، محمد فؤاد عبدالباقي - دار المعرفة - بيروت - ط ١ - ١٤٠٧ هـ .
- ٦٦١ - معجم مصطلحات الصوفية ، د/ عبدالمنعم الحنفي - دار المسيرة - بيروت - ط ١ - ١٤٠٠ هـ .
- ٦٦٢ - معجم مقاييس اللغة ، لابن فارس - تحقيق : عبدالسلام هارون - دار إحياء الكتب العربية - القاهرة - ١٣٦٦ هـ .
- ٦٦٣ - معرفة أخبار الرجال ، للكشي - مطبوعات الجديدة - ١٣١٧ هـ .
- ٦٦٤ - المعرفة والتاريخ ، يعقوب البسوي - تحقيق : د/ أكرم ضياء العمري - مطبعة الإرشاد - بغداد - ١٣٩٦ هـ .
- ٦٦٥ - معنى لا إله إلا الله ، للزركشي - تحقيق : علي القره داغي .
- ٦٦٦ - المعنى في ضبط أسماء الرجال ومعرفة كنى الرواة وألقابهم وأنسابهم ، لمحمد طاهر الفتني ، دار نشر الكتب بباكستان .
- ٦٦٧ - مفاهيم يجب أن تصحح ، محمد علوي المالكي - ط وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف بدولة الإمارات - ط ٤ - ١٤١٠ هـ .
- ٦٦٨ - مفتاح العلوم ، للسكاكي - مطبعة مصطفى البابي الحلبي - القاهرة - ١٣٥٦ هـ .
- ٦٦٩ - مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة ، لابن قيم الجوزية - ط دار الكتب العلمية .

بيروت

- ٦٧٠- المفردات في غريب القرآن، للأصفهاني- تحقيق: محمد سعيد كيلاني- دار المعرفة- بيروت
- ٦٧١- المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أحمد بن عمر القرطبي- تحقيق: محي الدين مستو- دار ابن كثير- دمشق- ١٤١٧هـ.
- ٦٧٢- مفيد المستفيد في كفر تارك التوحيد، الشيخ محمد بن عبد الوهاب- مؤسسة النور بالرياض- بدون تاريخ.
- ٦٧٣- مقارنة الأديان، د/ أحمد شلبي- مكتبة النهضة المصرية- مصر- ١٩٦٦هـ.
- ٦٧٤- المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة، للسخاوي- تصحيح: عبدالله الصديق- مكتبة الخانجي- مصر- ١٣٧٥هـ.
- ٦٧٥- مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، أبو الحسن الأشعري- تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد- مكتبة النهضة المصرية- القاهرة- ط٢- ١٩٦٩م.
- ٦٧٦- المقالات والفرق، سد الأشعري القمي- مطبعة حيدري- طهران.
- ٦٧٧- مقالة التشبيه وموقف أهل السنة منها، جابر إدريس- رسالة دكتوراه غير منشورة بالجامعة الإسلامية.
- ٦٧٨- مقدمات في الأهواء والافتراق والبدع، د/ ناصر العقل- دار الوطن- الرياض- ط٢- ١٤١٧هـ.
- ٦٧٩- المقدمة، عبدالرحمن بن خلدون- ضبط: د/ محمد الإسكندراني- دار الكتاب العربي- بيروت- ط١- ١٤١٧هـ.
- ٦٨٠- الملل والنحل، للشهرستاني- تحقيق: محمد سيد كيلاني- دار المعرفة- بيروت- ١٩٨٠م.
- ٦٨١- من عقائد الشيعة، عبدالله بن محمد السلفي
- ٦٨٢- من قضايا التصوف في ضوء الكتاب والسنة، د/ محمد السيد الجليند- دار اللواء- الرياض- ط٣- ١٤١٠هـ.
- ٦٨٣- النار المنيق في الصحيح والضعيف، لابن القيم- تحقيق: عبد الفتاح أبي غدة- مكتبة المطبوعات الإسلامية- حلب- ١٣٩٠هـ.
- ٦٨٤- مناسك حج، لآية الله العظمى فاضل النكراني
- ٦٨٥- مناهل الصفا في تخریج أحاديث الشفا، للسيوطي بتحقيق: سمير القاضي- مؤسسة الكتب الثقافية- بيروت- ١٤٠٨هـ.
- ٦٨٦- مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبدالعظيم الزرقاني- المكتبة الفيصلية- مكة المكرمة- بدون تاريخ
- ٦٨٧- المنتخبات من المکتوبات، أحمد السرهندي- جمع: حسين حلمي استانبولي- مكتبة إيشيق- ١٩٧٤م.

- ٦٨٨- المنتظم في تاريخ الأمم والملوك ، لابن الجوزي - تحقيق : محمد عبدالقادر عطا ، وآخر - دار الكتب العلمية - ط ١ - ١٩٩٢ م .
- ٦٨٩- المنتقى شرح الموطأ ، للباجي - مطبعة السعادة - القاهرة - ١٣٣١ هـ .
- ٦٩٠- المنتقى وهو مختصر منهاج السنة النبوية ، لشيخ الإسلام ابن تيمية - اختصار الذهبي
- ٦٩١- المنخل لغريلة خرافات ابن الحاج في المدخل ، د/ محمد عبدالرحمن الخميس - مطبوع ضمن المجموع المفيد في نقض القبورية ونصرة التوحيد - دار أطلس - الرياض - ط ١ - ١٤١٨ هـ .
- ٦٩٢- المنطلق ، محمد أحمد الراشد - مؤسسة الرسالة - بيروت - ط ٢ - ١٣٩٦ هـ .
- ٦٩٣- المنفرجة ، لابن النحوي - بشرح البوصيري ، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر ، ١٣٩٨ هـ .
- ٦٩٤- المنقذ من الضلال ، الغزالي - مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت - ١٤٠٨ هـ .
- ٦٩٥- منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية ، شيخ الإسلام ابن تيمية - تحقيق : د/ محمد رشاد سالم - جامعة الإمام محمد بن سعود - ١٤٠٦ هـ .
- ٦٩٦- المنهاج في شعب الإيمان ، للحليمي - تحقيق : حلمي محمود فودة - دار الفكر - بيروت - ١٣٩٩ هـ .
- ٦٩٧- منهج الإمام مالك رحمه الله في إثبات العقيدة ، سعود بن عبدالعزيز الدعجان - مكتبة ابن تيمية - القاهرة - ط ١ - ١٤١٦ هـ .
- ٦٩٨- منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد عند أهل السنة والجماعة ، عثمان بن علي بن حسن - مكتبة الرشد - الرياض - ط ١ - ١٤١٢ هـ .
- ٦٩٩- منهج الحافظ ابن رجب الحنبلي في العقيدة ، د/ علي بن عبدالعزيز الشبل - دار الصميعي - الرياض .
- ٧٠٠- منهج الرسل الكرام في الدعوة إلى الله في القرآن ، د/ أحمد عبيد رسالة دكتوراه - غير منشورة - الجامعة الإسلامية .
- ٧٠١- منهج الزمخشري في تفسير القرآن وبيان المجاز ، د/ مصطفى الحويني
- ٧٠٢- منهج السلف في العقيدة وأثره في وحدة المسلمين ، الشيخ صالح السحيمي - دار ابن حزم - الرياض - ط ١ - ١٤٠٩ هـ .
- ٧٠٣- منهج السلف والمتكلمين في موافقة العقل والنقل وأثر المنهجين في العقيدة ، جابر إدريس - مكتبة أضواء السلف - الرياض - ط ١ - ١٤١٩ هـ .
- ٧٠٤- المهندس على المفند ، خليل أحمد إلياس
- ٧٠٥- موارد النظمان في علوم القرآن ، للشيخ صابر أبي سليمان ، الدار السلفية بالهند ١٤٠٤ هـ .
- ٧٠٦- المواقف في علم الكلام ، عضد الدين الإيجي - مطبعة العلوم - ١٣٥٧ هـ .
- ٧٠٧- الموجز في تاريخ الصابئة المندائيين ، عبدالفتاح الزهيري - مطبعة أركان بغداد - ط ١ - ١٩٨٣ م .

- ٧٠٨- مورادة الظمان إلى زوائد ابن حبان الهيثمي، تحقيق: محمد عبدالرزاق حمزة- دار الكتب العلمية- بيروت.
- ٧٠٩- موسوعة أهل السنة في نقد أصول فرقة الأحباش، عبدالرحمن دمشقية- دار المسلم- الرياض ط-١٤١٨هـ.
- ٧١٠- الموسوعة العربية الميسرة، بإشراف محمد شفيق غربال- دار النهضة- بيروت- مصورة عن الأصل من طبعة ١٩٦٥م.
- ٧١١- الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة، الندوة العالمية للشباب الإسلامي- الرياض- ط٢-١٤٠٩هـ.
- ٧١٢- الموفقات في أصول الأحكام، للشاطبي، تعليق: محمد الخضر حسين وآخر المطبعة السلفية بالقاهرة ١٣٤١هـ.
- ٧١٣- الموفي بمعرفة التصوف والصوفي، للأدفوي المصري، تحقيق: محمد صالحية مكتبة دار المعرفة بالكويت، ١٤٠٨هـ.
- ٧١٤- موقف الإسلام من السحر، حياة بأخضر- دار المجتمع- جدة- ١٤١٥هـ.
- ٧١٥- موقف الإمام ابن تيمية من التصوف والصوفية، د/ أحمد بناني- دار العلم- جدة- ط١- ١٤٠٦هـ.
- ٧١٦- موقف الرافضة من القرآن الكريم، مامادو كارامبيري- رسالة ماجستير- غير منشورة- الجامعة الإسلامية.
- ٧١٧- موقف المتكلمين من الاستدلال بنصوص الكتاب والسنة عرضاً ونقداً، د/ سليمان الغصن- دار العاصمة- الرياض- ١٤١٦هـ.
- ٧١٨- موقف اليهود والنصارى من المسيح عليه السلام وإبطال شبهاتهم حوله، سارة حامد العبادي- رسالة دكتوراه- غير منشورة- جامعة أم القرى
- ٧١٩- ميزاب الرحمة الربانية في التربية بالطريقة التجانية، عبيدة بن انبوجة الشنقيطي- مطبعة مصطفى البابي الحلبي- مصر- ١٣٤٨هـ.
- ٧٢٠- ميزان الاعتدال، للذهبي- تحقيق: علي البجاوي- دار المعرفة- بيروت- ١٣٨٢هـ.
- ٧٢١- النبذة الشريفة في الرد على القبورين، محمد بن ناصر آل معمر- تحقيق: عبدالسلام بن برجس آل عبدالكريم- دار العاصمة- الرياض- ط١- ١٤٠٤هـ.
- ٧٢٢- النبوات، لشيخ الإسلام ابن تيمية- مكتبة الرياض الحديثة- ١٣٤٦هـ.
- ٧٢٣- النبوات، لشيخ الإسلام ابن تيمية- تحقيق: د/ عبدالعزيز الطويان- رسالة دكتوراه غير منشورة بالجامعة الإسلامية.
- ٤٢٣- نبوة محمد ﷺ من القرآن، حسن عتر- دار البشائر الإسلامية- بيروت- ١٤١٠هـ.
- ٧٢٤- النبوغ المغربي في الأدب العربي، عبدالله كنون- مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني-

- بيروت - ط ٣ - ١٩٧٥ م.
- ٧٢٥- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، لابن تغري بردي - طبعة المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة
- ٧٢٦- نخبة المطلوب من شرح مطهرة القلوب، محمد الحسن بن أحمد الخديم - شرح مطهرة القلوب لمحمد مولود بن أحمد فال يعقوبي - ط ١ - ١٩٩٦ م.
- ٧٢٧- نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر، عبدالحى العياشى الحسنى - مطبعة مجلس دائرة المعارف - العثمانية - باكستان - ١٣٥٠ هـ.
- ٧٢٨- نسيم الرياض في شرح الشفا للقاضي عياض، للشهاب الخفاجي - المطبعة الأزهرية - القاهرة - ١٣٢٥ هـ.
- ٧٢٩- نشر الطوالع، للمرعي - مكتبة العلوم العصرية - مصر - ١٣٤٢ هـ.
- ٧٣٠- النظرات، للمنفلوطي - المكتبة التجارية الكبرى - القاهرة - بدون تاريخ.
- ٧٣١- نظرية الاتصال عند الصوفية، سارة بنت عبدالمحسن بن جلوي آل سعود - دار المنارة - جدة - ط ١ - ١٤١١ هـ.
- ٧٣٢- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، أحمد المقري - تحقيق: إحسان عباس - ط دار صادر - ١٩٦٨ م.
- ٧٣٣- نقباء البشر في القرن الرابع عشر، آغا بزرك الطهراني - مطبعة سفيد بمشهد - إيران - ط ٢ - ١٤٠٤ هـ.
- ٧٣٤- نكت الهميان في نكت العميان، صلاح الدين الصفدي - مطبعة أحمد زكي بك - المطبعة الجمالية - مصر - ١٩٧١ م.
- ٧٣٥- نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، للقلقشندي - تحقيق: على الخاقاني - مطبعة النجاح - بغداد - ١٣٧٨ هـ.
- ٧٣٦- نهاية الإقدام في علم الكلام، للشهرستاني - تصحيح: الفرد جيوم - مكتبة المشنى - بغداد - بدون تاريخ.
- ٧٣٧- النهاية في الفتن والملاحم، لابن الكثير - تعليق: محمد خير طعمة - تخريج: خليل مأمون - دار المعرفة - بيروت - ١٤١٩ هـ.
- ٧٣٨- النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير - تحقيق: طاهر أحمد الراوي، ومحمود الطناحي - المكتبة العلمية - بيروت
- ٧٣٩- نواقض الإيمان الاعتقادية وضوابط التكفير عند السلف، د/ محمد عبدالله الوهيبي - دار المسلم - الرياض - ط ١ - ١٤١٦ هـ.
- ٧٤٠- نور الاقتباس في مشكاة وصية النبي لابن عباس، لابن رجب الحنبلي - تحقيق: تشير عيون - مكتبة المؤيد - الطائف - ١٤١٢ هـ.

- ٧٤١- الهادي إلى لغة العرب، حسن الكرمي - دار لبنان - بيروت - ١٤١٢ هـ.
- ٧٤٢- هجر البندع، بكر أبو زيد - دار ابن الجوزي - ط ٢ - ١٤١٠ هـ.
- ٧٤٣- هدى الفرقان في علوم القرآن، د/ غازي عناية - عالم الكتب - بيروت - ١٤١٦ هـ.
- ٧٤٤- هدية العارفين في أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، إسماعيل باشا البغدادي - المكتبة الإسلامية بطهران ١٣٧٨ هـ.
- ٧٤٥- الهدية الهادية إلى الطائفة التجانية، د/ محمد تقي الدين الهلالي - ط ١ - ١٣٩٣ هـ.
- ٧٤٦- هذه مفاهيمنا، الشيخ صالح بن عبدالعزيز آل الشيخ دار البخاري بالقصيم ١٤٠٧ هـ.
- ٧٤٧- هذه نصيحتي إلى كل شيعي، للشيخ أبي بكر الجزائري مكتبة أضواء المنار جدة - ط ٢ - ١٤٠٧ هـ.
- ٧٤٨- هذه هي الصوفية، عبدالرحمن الوكيل دار الكتب العلمية بيروت - ط ٤ - ١٩٨٤ م.
- ٧٤٩- هي السلفية نسبة وعقيدة ومنهجها، محمد إبراهيم شقرة - مكتبة ابن تيمية - مكة المكرمة - ط ١ - ١٤١٣ هـ.
- ٧٥٠- الوابل الصيب من الكلم الطيب، لابن القيم تصحيح محب الدين الخطيب، المكتبة السلفية بالقاهرة، ١٣٧٥ هـ.
- ٧٥١- الواسطة بين الحق والخلق، شيخ الإسلام ابن تيمية - تحقيق: محمد بن جميل زينو - مطابع الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة
- ٧٥٢- وجوب لزوم الجماعة وترك التفرق، د/ جمال بادي، دار الوطن بالرياض ط ثانية ١٤١٦ هـ.
- ٧٥٣- الوحدة الإسلامية والأخوة الدينية، محمد رشيد رضا، دار المنار بمصر ط الثالثة ١٣٦٧ هـ.
- ٧٥٤- الوحي المحمدي، محمد رشيد رضا، المكتب الإسلامي بدمشق ط الثالثة ٣٥٤ هـ.
- ٧٥٥- الورثة الصالحة للحضارة المعاصرة، د/ فاروق حمادة
- ٧٥٦- وسائل الشيعة ومستدركاتهما، جمع: محمد آية الله الشيرازي - دار التقريب بين المذاهب الإسلامية - القاهرة - ط ١ - ١٣٧٧ هـ.
- ٧٥٧- وسطية أهل السنة بين الفرق، د/ محمد باكرم، دار الراية بالرياض ١٤١٥ هـ.
- ٧٥٨- الوسطية في القرآن الكريم، علي بن محمد الصلابي، دار النفائس بالأردن ١٤١٩ هـ.
- ٧٥٩- الوسطية في ضوء القرآن الكريم، ناصر بن سليمان العمر - دار الوطن - الرياض - ١٤١٣ هـ.
- ٧٦٠- الوسيط في تراجم أدياب شقيق، أحمد بن الأمين الشنقيطي - تصحيح: فؤاد سيد - مطبعة السنة المحمدية - القاهرة - ط ٢
- ٧٦١- الوسيلة، لأبي الوفاء محمد درويش - دار القاسم - الرياض - ط ١ - ١٤١٧ هـ.
- ٧٦٢- الوظائف كتاب أدعية وسور قرآنية، محمدي أبيري البنجلاديشي
- ٧٦٣- وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، للسهمودي - تحقيق: محي الدين عبد الحميد - دار الكتب

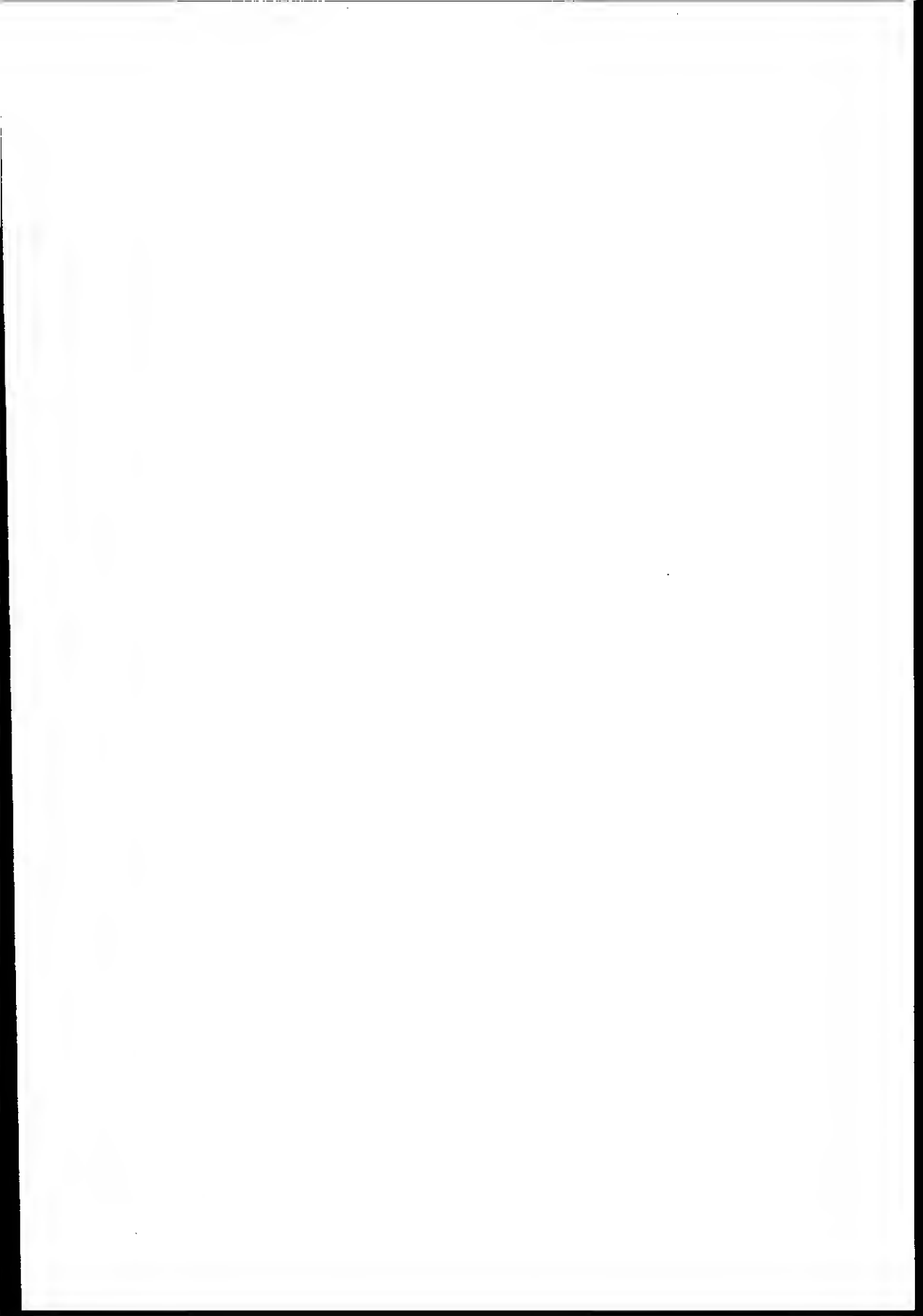
العلمية - بيروت - ط ٤ - ١٤٠٤ هـ.

٧٦٤- وفیات الأعیان، لابن خلکان - تحقیق: إحسان عباس - طبعة دار صادر ١٩٦٩ م.

٧٦٥- یتیمۃ الدهر فی محاسن أهل مصر، للشعالی، تحقیق محمد محی الدین عبد الحمید المکتبة التجاریة بمصر ١٣٧٧ هـ.

٧٦٦- الیمانیات المسلولة علی الرافضة المخذولة، زین العابدین بن یوسف الکورانی - تحقیق: المرابط محمد یسلم المجتبی - مکتبة الإمام البخاری - القاهرة - ط ١ - ١٤٢٠ هـ.

٧٦٧- الیوم الآخر القیامة الکبری، د/ عمر سلیمان الأشقر - مکتبة الفلاح - الكويت - ط ٢ - ١٤٠٨ هـ.



فهرس الموضوعات

٣	المقدمة
٥	الطوائف التي أخطأت في فهم الواسطة
٦	أسباب اختيار الموضوع
٨	الدراسات السابقة في الموضوع
٩	خطة الرسالة ، وهيكلها العام
١٣	الضوابط المنهجية التي سرت عليها في كتابة الرسالة
١٦	شكر وتقدير
١٧	همسة
١٩	التمهيد
٢٢	المبحث الأول: تعريف الواسطة في اللغة
٢٢	الواسطة في الاصطلاح
٢٢	الواسطة في اصطلاح أهل السنة
٢٨	الواسطة عند علماء الحساب والرياضيين
٢٩	الواسطة عند دعاة تحضير الأرواح
٣٠	الواسطة عند الفلاسفة
٣١	الواسطة عند الرافضة
٣٧	الواسطة عند الصوفية
٤٤	المبحث الثاني: التعريف بأهل السنة وتوضيح ألقابهم
٤٤	تعريف السنة في اللغة
٤٤	تعريف السنة في الاصطلاح
٤٤	تعريف السنة عند المحدثين
٤٥	تعريف السنة عند الأصوليين
٤٥	تعريف السنة عند الفقهاء
٤٦	المراد بالسنة عند السلف
٤٧	المراد بأهل السنة
٤٨	الأسماء والألقاب المرضية عند أهل السنة
٤٨	أ - أهل الجماعة
٥١	ب - الفرقة الناجية

- ج - السلفية أو السلفيون وأتباع السلف ٥٢
- د - أهل الحديث ٥٣
- هـ - أهل الأثر ٥٤
- و - الطائفة المنصورة ٥٥
- الألقاب التي تميز بها طوائف أهل الأهواء والبدع أهل السنة ٥٧
- المبحث الثالث: تعريف الهوى وبيان خطورته وإفساده لعقائد أهله ٦٣
- الهوى في اللغة ٦٣
- الهوى في الاصطلاح ٦٤
- ذم السلف للهوى ٦٥
- المبحث الرابع: التعريف بأهل الأهواء وبيان سماتهم ٦٩
- المطلب الأول: التعريف بأهل الأهواء ٦٩
- آ - المراد بأهل الأهواء ٦٩
- ب - سمات أهل الأهواء وعلاماتهم ٧٢
- التعريف بالطوائف التي أخطأت في فهم الواسطة ٧٧
- المطلب الثاني: التعريف بالفلاسفة ٧٨
- المطلب الثالث: التعريف بالرافضة ٧٨
- تعريف الرفض لغة ٧٨
- الرفض اصطلاحاً ٧٩
- سبب تسميتهم بالرافضة ٨١
- اعتزازهم بلقب الرافضة ٨٣
- المطلب الرابع: تعريف الصوفية ٨٤
- تعريف الصوفية لغة ٨٤
- الصوفية اصطلاحاً ٨٥
- التعريف المرضي عند الصوفية ٨٦
- المراد بالصوفية عند علماء السلف ٨٩
- المبحث الخامس: المراد بالأثر لغة واصطلاحاً ٩٢
- تعريف الأثر في اللغة ٩٢
- المراد بالأثر في الاصطلاح ٩٢
- الباب الأول: الواسطة بين الله وخلقه عند أهل السنة والجماعة ٩٥
- الفصل الأول: مفهوم الواسطة عند أهل السنة والجماعة . ٩٥

- ٩٦ المبحث الأول: حاجة الناس إلى بعثة الرسل
- ٩٦ الأغراض التي بعثت من أجلها الرسل
- ٩٧ أولاً: تحقيق عبادة الله تعالى وحده وإخلاص العمل له
- ٩٧ ثانياً: إقامة الحجّة على الخلائق
- ٩٨ ثالثاً: تعريف الناس بالعالم الغيبي وما أعدّه الله للمؤمنين .
- ٩٨ رابعاً: القدوة الصالحة والأسوة الحسنة
- ٩٩ خامساً: جمع الأمة على دين واحد ورجل واحد
- ١٠٠ سادساً: توجيه الناس وإرشادهم لما فيه الخير والصلاح .
- ١٠٣ - بيان كذب من زعم أنه يسعه الاستغناء بالعقل
- ١٠٥ المبحث الثاني: الواسطة بين الله ورسوله
- ١٠٥ تعريف الملائكة لغة وشرعاً
- ١٠٥ عدد الملائكة
- ١٠٦ أسماء الملائكة
- ١٠٦ أصناف الملائكة ووظائفهم
- ١٠٧ المطلب الأول: جبريل واسطة بين الله والملائكة
- ١١١ المطلب الثاني: جبريل واسطة بين الله ورسوله في إبلاغ الوحي
- ١١٢ أولاً: الأدلة من الكتاب العزيز
- ١١٣ ثانياً: الأدلة من السنة النبوية
- ١١٥ قيام غير جبريل من الملائكة عليهم السلام بتبليغ الوحي إلى الأنبياء
- ١١٥ أولاً: أدلته من الكتاب
- ١١٦ ثانياً: أدلته من السنة
- ١١٨ أ - نزول جبريل على إبراهيم عليهما السلام
- ١١٩ ب - نزول جبريل على لوط عليهما السلام
- ١٢٠ ج - نزول جبريل على زكريا عليهما السلام
- ١٢١ د - نزول جبريل على موسى عليهما السلام
- ١٢٢ تكليم الله تعالى لموسى بالوحي من غير واسطة ومشاركة خاتم النبيين له
- ١٢٣ هـ - نزول جبريل على عيسى عليه السلام
- ١٢٣ و - نزول جبريل على خاتم النبيين ﷺ
- ١٢٣ أدلته من الكتاب والسنة
- ١٢٥ نزول جبريل عليه السلام على النبي ﷺ يأتي على أشكال

- المطلب الثالث: الملائكة واسطة بين الله تعالى وغير الأنبياء
 أولاً: وحي الله إلى سارة بنت هاران عم إبراهيم عليه السلام
 ثانياً: وحي الله إلى مريم ابنة عمران عليها السلام
 - هل يوجد في النساء نبيات؟
 - القائلون بأن النبوة لا تكون في النساء .
 - القائلون بأن في النساء نبيات
 ثالثاً: الملك الذي أرسله الله إلى الرجل الذي أحب أخاه في الله
 رابعاً: الملك الذي بعثه الله إلى الأبرص، والأقرع، والأعمى .
 خامساً: ملائكة الليل، وملائكة النهار الذين يتعاقبون في بني آدم
 المطلب الرابع: الوحي وأنواعه
 تعريف الوحي لغة
 الوحي في الشرع
 أنواع الوحي
 المبحث الثالث: الحكمة في كون الواسطة من البشر
 أولاً: الرسول بشر يجوز عليه ما يجوز على الطبيعة البشرية
 ثانياً: النبوة سفارة ووحى، واصطفاء
 ثالثاً: الرسول البشري أنسب لحصول القدوة
 رابعاً: الملك لا يصلح أن يكون رسولا للبشر لبعدهم الفجوة .
 خامساً: لو أرسل الله إلى البشر واسطة من الملائكة .
 - لو بعث الله ملكا إلى الناس لكان محتاجا في تصديقه إلى ادعاءين
 المبحث الرابع: تقيد أهل السنة بالكتاب والسنة في فهم الواسطة
 - لا يجوز أن يعتقد أن الشيء سبب في تحصيل منفعة أو دفع مضرة .
 - الشرطان العظيمان لقبول العمل
 - من ثمرات التقيد بالكتاب والسنة في مسألة الواسطة
 الفصل الثاني: صورة الواسطة في التبليغ
 المبحث الأول: صورة الواسطة في التبليغ في الدنيا
 المبحث الثاني: صورة الواسطة في التبليغ في الآخرة
 - القائلون بإثبات التكليف في الآخرة والمانعين ذلك .
 - صورة الواسطة
 - الصورة الأولى



- ١٦٧ - الصورة الثانية
- ١٦٨ - الصورة الثالثة
- ١٧٠ المبحث الثالث : مقام الرسالة وخصائصها عند أهل السنة والجماعة
- ١٧١ - نظرة الفلاسفة للنبوّة وزعمهم إمكانها بطريق الكسب
- ١٧٥ - خصائص الرسالة المحمدية
- ١٧٥ ١ - عالمية رسالة الإسلام
- ١٧٧ ٢ - كونها خاتمة الرسالات السماوية
- ١٧٨ ٣ - شمولية رسالة الإسلام
- ١٨١ ٤ - وسطيتها وتوازنها
- ١٨٣ ٥ - شهادة هذه الأمة على أصحاب الرسالات السابقة
- ١٨٥ ٦ - حفظ الله لها من التبديل
- ١٨٧ المبحث الرابع: حقوق الرسول ﷺ على أمته.
- ١٨٧ تروطنة
- ١٨٩ أولا: الإيمان به صلى الله عليه وسلم
- ١٩٠ - إن الإيمان بالنبي ﷺ يقوم على ركيزتين عظيمتين
- ١٩٠ الأولى: تصديقه صلى الله عليه وسلم
- ١٩٢ الثانية: طاعته واتباع شريعته
- ١٩٢ - الأدلة من القرآن والسنة على وجوب الإيمان به ﷺ
- ١٩٢ أولا: الأدلة من القرآن الكريم
- ١٩٣ ثانيا: الأدلة من السنة المطهرة
- ١٩٤ ثانيا: محبته صلى الله عليه وسلم
- ١٩٥ - الأدلة من القرآن والسنة على وجوب محبته .
- ٢٠٠ ثالثا: طاعة أمره واتباع سنته ﷺ
- ٢٠٠ - الأدلة من القرآن الكريم على وجوب طاعة النبي ﷺ
- ٢٠٣ - الأدلة من السنة على وجوب طاعة النبي ﷺ
- ٢٠٧ رابعا: تعزيزه وتوقيره ﷺ
- ٢١٢ خامسا: الصلاة والسلام عليه ﷺ
- ٢١٢ أ - الأدلة من القرآن .
- ٢١٤ ب - الأدلة من السنة .
- ٢١٧ المبحث الخامس: وجوب الإيمان بعصمته ﷺ

- ٢١٧ تعريف: العصمة في اللغة والشرع
- ٢١٨ الجوانب التي عصم فيها النبي ﷺ
- ٢١٨ أولاً: العصمة في التبليغ ودعوى الرسالة
- ٢٢٠ ثانياً: عصمته ﷺ من الكفر، والشرك بعد النبوة
- ٢٢٣ ثالثاً: عصمته ﷺ من الكذب في غير الوحي والتبليغ
- ٢٢٤ رابعاً: عصمته ﷺ من الكبائر التي دون الشرك
- ٢٢٦ - مسألة وقوع الخطأ منه صلى الله عليه وسلم.
- ٢٣٠ المبحث السادس: الهداية وأنواعها وبيان ما للرسول ﷺ منها
- ٢٣٠ تعريف: الهداية في اللغة والاصطلاح
- ٢٣٢ - أنواع الهداية
- ٢٣٢ النوع الأول: الهداية العامة المشتركة بين الخلق أجمعين
- ٢٣٤ النوع الثاني: هداية البيان والدلالة والتعريف
- ٢٣٤ النوع الثالث: هداية التوفيق، والإلهام، والاصطفاء
- ٢٣٧ النوع الرابع: هداية المؤمنين إلى الجنة، والكافرين إلى النار.
- ٢٣٧ مراتب الهداية الخاصة والعامة
- ٢٣٧ المرتبة الأولى: مرتبة تكليم الله عز وجل لعبده يقظة
- ٢٣٧ الثانية: مرتبة الوحي المختص بالأنبياء
- ٢٣٨ الثالثة: إرسال واسطة من الملائكة إلى الواسطة من البشر
- ٢٣٨ الرابعة: مرتبة التحديث
- ٢٣٨ الخامسة: مرتبة الإفهام
- ٢٣٩ السادسة: مرتبة البيان العام
- ٢٣٩ السابعة: مرتبة البيان الخاص
- ٢٣٩ الثامنة: مرتبة الإسماع
- ٢٣٩ التاسعة: مرتبة الإلهام
- ٢٣٩ العاشرة: مرتبة الرؤيا الصالحة
- ٢٤٠ - بيان ما للرسول صلى الله عليه وسلم من أنواع الهداية
- ٢٤٤ المبحث السابع: الرسول ﷺ واسطة في التبليغ والبيان لا في العبادة وجزاء الإنسان
- ٢٤٦ - الفرق بين حق الله تعالى وحقوق الرسل عليهم السلام
- ٢٤٨ - الرسول ﷺ لم يقل إنه واسطة في إجابة الدعاء، وكشف البلاء
- ٢٥٥ - أصل عظيم النفع جداً

- ٢٥٦ - النبي ﷺ بشر، ولكنه بشر مؤيد بالوحي
- ٢٦٠ المبحث الثامن: وسطية أهل السنة والجماعة في باب تعظيم النبي ﷺ
- ٢٦١ - الأمور التي تتبين من خلالها وسطية أهل السنة في باب تعظيم الرسول ﷺ
- ٢٦١ ١ - مكانته الرفيعة، ومنزلته العالية ﷺ
- ٢٦٣ ٢ - التأكيد على بشريته
- ٢٦٥ ٣ - تعظيم الرسول ﷺ مع التأكيد على أن الرسل لا يملكون شيئاً .
- ٢٦٨ - صور من تعظيم الرسول ﷺ التعظيم الشرعي
- ٢٦٨ - المحبة للرسول يصدقها أمران
- ٢٦٨ أحدهما: أحدهما: تجريد التوحيد
- ٢٦٨ الثاني: تجريد متابعتة، وتحكيمه وحده في الدقيق والجليل
- ٢٧١ ليس من تعظيم الرسول ﷺ هضم جناب الربوبية
- ٢٧٢ التحذير من إطرائه ﷺ
- ٢٧٩ الفصل الثالث: صورة الواسطة في العبادة
- ٢٨١ المبحث الأول: تعريف العبادة لغة وشرعا
- ٢٨٤ - التعريف المختار للعبادة في الشرع
- ٢٨٦ المبحث الثاني: وجه كون العبادة واسطة
- ٢٨٦ - خلق الله تعالى الخلق وأرسل الرسل وأنزل الكتب لعبادته وحده
- ٢٨٧ - العبادة بأنواعها، وطرقها، ومراتبها هي الطريق الموصل إلى مرضاة الله تعالى
- ٢٨٩ - التقرب إلى الله تعالى بالنوافل بعد أداء الفرائض
- القرآن كلام الله، ودوام قراءته، وتدبره، والانشغال به، عبادة مقبولة،
- ٢٩١ وواسطة شرعية .
- ٢٩٢ - الصلاة من أعظم فرائض البدن التي تقرب من الله تعالى .
- ٢٩٣ - صورة رائعة للصلاة التامة التي تكون واسطة صحيحة
- ٢٩٥ - أعمال العبد الصالحة تناضل عنه وتدفع عند العذاب
- ٢٩٧ - العبادة صلة مؤكدة والتوسيط توغير
- ٢٩٩ المبحث الثالث: صورة الواسطة في الدعاء
- ٢٩٩ الدعاء في اللغة
- ٣٠٠ - آيات الدعاء في الكتاب العزيز
- ٣٠١ - الحث على الدعاء في السنة
- ٣٠٣ - من شروط الدعاء النافع

- ٣٠٣ أركان الدعاء وأجنحته وأسبابه
- ٣٠٦ - يتميز الدعاء من بين سائر العبادات بحضور قلبي ولذة في المناجاة .
- ٣٠٧ - أشرف مقامات العبد إظهار عبوديته وتذلل للباري عز وجل
- ٣٠٨ توسل المؤمن بدعاء أخيه الحي الحاضر وسيلة شرعية .
- ٣١٠ - متى يحصل أثر الدعاء؟
- ٣١١ المبحث الرابع: صورة الواسطة في التوسل المشروع
- ٣١١ أولاً: التوسل في اللغة
- ٣١٢ ثانياً: التوسل في الشرع
- ٣١٣ المطلب الثاني: صورة الواسطة في التوسل المشروع
- ٣١٣ - التوسل مشروع وممنوع
- ٣١٤ - أنواع التوسل المشروع
- ٣٢٠ المبحث الخامس: صورة الواسطة في العمل الصالح
- ٣٢١ - الآيات الدالة على مشروعية التوسل بالعمل الصالح
- ٣٢٢ - صورة الواسطة في العمل الصالح من السنة النبوية
- ٣٢٥ - آثار عن السلف في كون العمل الصالح واسطة مقبولة
- ٣٢٥ متى يكون العمل واسطة مقبولة؟
- ٣٢٩ الفصل الرابع: صورة الواسطة في الشفاعة في الآخرة
- ٣٣٠ المبحث الأول: تعريف الشفاعة لغة ، واصطلاحاً
- ٣٣٣ المبحث الثاني: صورة الواسطة في شفاعة النبي ﷺ في الآخرة
- ٣٣٣ ١ - الشفاعة العظمى
- ٣٣٦ ٢ - الشفاعة في استفتاح باب الجنة لأهلها
- ٣٣٧ ٣ - الشفاعة في تخفيف العذاب عمن يستحقه
- ٣٣٧ ٤ - الشفاعة في رفع درجات أقوام من أهل الجنة
- ٣٣٨ ٥ - الشفاعة في دخول الجنة بلا حساب
- ٣٣٩ ٦ - الشفاعة لأهل الكبائر
- ٣٤١ - مع ثبوت شفاعة النبي ﷺ فإنه لا يجوز أنت تتوجه إليه الآن بطلبها منه .
- ٣٤٢ المبحث الثالث: صورة الواسطة في شفاعة غير النبي ﷺ من الملائكة والنبين والمؤمنين
- ٣٤٢ أولاً: صورة الواسطة في شفاعة الملائكة
- ٣٤٢ ثانياً: صورة الواسطة في شفاعة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام
- ٣٤٣ ثالثاً: صورة الواسطة في شفاعة المؤمنين

- ٣٤٤ رابعا: صورة الوساطة في شفاعة الشهداء
- ٣٤٤ خامسا: صورة الوساطة في شفاعة أولاد المؤمنين
- ٣٤٥ ما هي الشفاعات التي يشارك فيها النبي ﷺ غيره من الشفعاء؟
- ٣٤٦ المبحث الرابع: صورة الوساطة في شفاعة القرآن والصيام
- ٣٤٦ أولا: صورة الوساطة في شفاعة القرآن الكريم
- ٣٤٧ ثانيا: صورة الوساطة في شفاعة الصيام
- ٣٤٧ - شروط الشفاعة الصحيحة
- ٣٤٩ الباب الثاني: الوساطة بين الله وخلقه عند أهل الأهواء
- ٣٥١ الفصل الأول: مفهوم الوساطة عند أهل الأهواء .
- ٣٥١ المبحث الأول: مذهب أهل الأهواء في فهم الوساطة .
- ٣٥٢ - الأمور التي يتبين منها مذهب أهل الأهواء في الوساطة
- ٣٥٢ أولا: تعلقهم بكل شيء ظنوه سببا ، وإن لم يكن سببا
- ٣٥٦ ثانيا: دعوتهم الصريحة إلى التعلق بالواسطة ، والالتفات إليها .
- ٣٦١ ثالثا: فلسفتهم الخاصة في منع العصاة والمذنبين من التوجه إلى الله تعالى مباشرة .
- ٣٦٤ رابعا: اعتمادهم على الأخبار الواهية والأحاديث المكذوبة
- ٣٦٧ - نماذج من الخرافات
- ٣٦٧ - أحدهم يقول : دعوت الله ست سنوات ليرزقني ولدا فلم أرزق .
- ٣٦٨ - حكاية أن بعض المريدين استغاث بالله فلم يغثه ، واستغاث بشيخه فأغاثه .
- ٣٦٩ - أضرحة الدواب ، مدفن فرس ، يزار كل يوم ،
- ٣٦٩ مقام الشيخ خنزير
- ٣٦٩ حمار يتمسح به الناس
- ٣٧١ خامسا: قياسهم الوساطة في العبادة على الوساطة في التبليغ
- ٣٧٢ سادسا: زعمهم أن كل من عظمه الله عز وجل واسطة بذاته .
- ٣٧٥ المبحث الثاني: غلو بعض أهل الأهواء في الوساطة الصحيحة
- ٣٧٥ أولا: الغلو في اللغة
- ٣٧٦ ثانيا: الغلو في الشرع
- ٣٧٦ - النهي عن الغلو في القرآن الكريم
- ٣٧٨ - التعريف المختار للغلو في الشرع
- ٣٧٨ - من أسباب عبادة الأصنام الغلو في المخلوق
- ٣٧٩ - الغلو عند النصارى

- ٣٧٩ - تفريط اليهود في حق عيسى عليه السلام
- ٣٨١ - أول من أظهر الغلو في الإسلام هي فرقة السبئية من الروافض
- ٣٨٣ - نماذج شعرية من غلو الصوفية في النبي ﷺ
- ٣٨٥ - المبحث الثالث: تنقيص بعض أهل الأهواء لمقام الواسطة الصحيحة
- ٣٨٥ - الطوائف التي ظهرت عندها مقالات التنقيص في الواسطة الصحيحة
- ٣٨٥ - أولاً: مقالة الفلاسفة
- ٣٨٧ - ثانياً: مقالة الرافضة
- ٣٩٣ - ثالثاً: مقالة الصوفية
- ٤٠١ - من صور التنقيص الطعن في السنة والسخرية من الملتزمين
- ٤٠٣ - المبحث الرابع: قياسهم الواسطة في العبادة على الواسطة في التبليغ
- ٤٠٣ - معارضة هذا القياس لصحيح المنقول وصريح المعقول
- ٤٠٤ - شبهتهم في تقرير هذا القياس
- ٤٠٨ - أبيات البكري في تأييد هذا القياس
- ٤١٣ - تأييد الخميني الرافضي لهذا القياس
- ٤١٥ - الفصل الثاني: الواسطة بين الله وخلقته عند الفلاسفة والرد عليهم
- ٤١٦ - المبحث الأول: بيان مقالة الفلاسفة في الواسطة
- ٤١٦ - أصحاب الهياكل يزعمون أن تقربهم إلى الهياكل يقربهم إلى الروحانيات .
- ٤١٨ - المبحث الثاني: صورة الواسطة عند الفلاسفة
- ٤١٨ - دعواهم أن المستشفع إذا توجه إلى الروحانيات فاض عليه بواسطتهم .
- ٤١٨ - أصحاب الهياكل واسطتهم الروحانيات
- ٤١٩ - أصحاب الأشخاص واسطتهم الأصنام والتماثيل
- ٤٢٢ - المبحث الثالث: بيان شبهة الفلاسفة والرد عليهم
- ٤٢٢ - تعلق الفلاسفة بمنظرة نبي الله إبراهيم عليه السلام للنمرود ودعواهم .
- ٤٢٢ - إبطال الخليل عليه السلام لمذهب أصحاب الهياكل والأشخاص .
- ٤٢٣ - أقدم أنواع الشرك شرك قوم نوح عليه السلام وكان شرك تقرب وشفاعة
- ٤٢٤ - قولهم : إن الإنسان العادي مكبل بالذنوب ، وملطخ بالمعاصي ف .
- ٤٢٤ - الرد عليهم
- ٤٢٤ - الملائكة خلق من خلق الله تعالى ، لهم خصائصهم لا يملكون شيئاً من خصائص
- ٤٢٤ - الربوبية أو الألوهية
- ٤٢٥ - شرك الفلاسفة أعظم من شرك العرب



- ٤٢٧ الفصل الثالث: الواسطة بين الله وخلقه عند الرافضة وبيان شبهاتهم والرد عليهم
- ٤٢٨ المبحث الأول: نظرة الرافضة للرسول ﷺ
- ٤٢٨ - زعم الغرابية أن الرسالة كانت لعلي فبلغها جبريل خطأ للنبي ﷺ
- ٤٢٨ - من غلاتهم من يزعم أن علياً هو الذي بعث الرسول ﷺ بالرسالة
- ٤٢٩ - ومما يبين حقيقة معتقد الرافضة في الرسول ﷺ أنهم يعدون علياً هو الأصل .
- ٤٣١ المبحث الثاني: عقيدة الرافضة في الملائكة الكرام عليهم السلام
- ٤٣١ - إنكارهم لخصائص الملائكة ووظائفهم
- ٤٣١ - زعمهم أن الملائكة خلقوا من نور علي رضي الله عنه
- ٤٣١ - لعنهم لجبريل عليه السلام وتلقيبهم له بصاحب الريش
- ٤٣٢ - زعمهم أن من الملائكة من لا وظيفة له إلا البكاء على الحسين رضي الله عنه
- ٤٣٣ - ويقولون: الملائكة خدامنا وخدام محبينا
- ٤٣٤ - زعمهم أن الملائكة تضع أجنحتها تحت أقدام الأئمة .
- ٤٣٤ - ويزعمون أن أحد الملائكة عوقب بكسر جناحه بسبب رفضه ولاية أمير المؤمنين
- ٤٣٤ - ليس للملائكة طعام ولا شراب إلا الصلاة على علي والاستغفار للشيعة
- ٤٣٦ المبحث الثالث: نظرة الرافضة لأئمتهم
- ٤٣٦ ١- زعمهم أن الأئمة خلقوا من نور
- ٤٣٧ ٢- زعمهم أن الجزء الإلهي حل في الأئمة
- ٤٣٩ ٣- ادعاهم عصمة الأئمة
- ٤٤٠ ٤- زعمهم أن الوحي ينزل على الأئمة
- ٤٤١ ٥- توسل الأنبياء بالأئمة
- ٤٤١ ٦- جعل الأئمة نصب العين عند الصلاة
- ٤٤٢ ٧- وللمختفي في السرداب نظرة خاصة
- ٤٤٣ ٨- الحج إلى مشاهد الأئمة
- ٤٤٥ ٩- من قواعدهم قاعدة: (من عرف الإمام فليصنع ما يشاء)
- ٤٤٦ ١٠- يزعمون أن الميت يعاين الأئمة عند الاحتضار
- ٤٤٦ ١١- شفاعة الأئمة يوم القيامة
- ٤٤٩ المبحث الرابع: بيان شبهات الرافضة والرد عليها
- ٤٤٩ ١- شبهة العصمة
- ٤٥٠ - الرد عليهم
- ٤٥١ طريقة جامعة في الرد على كل غال

- ٤٥٣ ٢- شبهة الرحي
- ٤٥٤ ٣- شبهة النص على الأئمة
- ٤٥٤ ٤- قياسهم الإمامة على النبوة
- ٤٥٥ ٥- شبهة الروايات المختلفة ، والأخبار المكذوبة
- ٤٥٨ تبرؤ الأئمة من كذب الرافضة
- ٤٦١ الفصل الرابع: الواسطة بين الله وخلقه عند الصوفية وبيان شبهاتهم والرد عليهم
- ٤٦٢ المبحث الأول: نظرة الصوفية للرسول ﷺ
- ٤٦٢ أولا: ما يسمى بالحقيقة المحمدية
- ٤٦٣ زعمهم أنه ﷺ خلق من نور
- ٤٦٩ الكلام على حديث النور المنسوب لمصنف عبدالرزاق
- ٤٧١ ثانيا: اعتقادهم أن الكون خلق من أجل النبي ﷺ
- ٤٧٢ ثالثا: دعواهم جواز صرف شيء من أنواع العبادة له ﷺ
- ٤٧٣ - نماذج شعرية من الغلو الزائد والإطراء المنهي عنه في الرسول ﷺ
- ٤٧٦ - جواز الاستغاثة بالنبي ﷺ عندهم
- ٤٧٦ - ومن غلاة الصوفية من يرى أن زيارة قبر النبي ﷺ أفضل من الحج .
- ٤٨٠ المبحث الثاني: مقام النبوة والولاية عند الصوفية
- ٤٨٠ - تعريف النبوة
- ٤٨٠ - تعريف الولاية الشرعية
- ٤٨٠ - شروط الولي الولاية الشرعية
- ٤٨٢ - تعريف الصوفية للولاية
- ٤٨٢ - حقيقة الولي عندهم
- ٤٨٣ - مرتبة الولاية عند الصوفية أعلى من مرتبة النبوة
- ٤٨٦ - صراع الأولياء على القطبية والبرزخية والخلافة العظمى
- ٤٨٨ - للأولياء عند الصوفية حكومة باطنة تتصرف في الكون وتحفظ عليه نظامه .
- ٤٩١ - مظاهر الولاية عند الصوفية
- ٤٩٢ المبحث الثالث: صورة الواسطة البدعية عندهم في الأحياء
- ٤٩٢ - صورة العهد والميثاق بين الواسطة والمريد
- ٤٩٤ - تصريح الأولياء في حياتهم للمريدين بأنهم هم الواسطة في النفع والضرر
- ٤٩٤ - واسطة حي يضمن لامرأة دخول الجنة
- ٥٠١ - شيخ يفتح قم المريد وينفث فيه السر

- ٥٠٢ - من أنواع الشرك سجود المريد لشيخه الواسطة
- ٥٠٥ المبحث الرابع: صورة الواسطة البدعية عندهم في الأموات
- ٥٠٥ - الفتنة بالمقبور عدوى انتقلت من الرافضة إلى الصوفية
- ٥٠٦ - زعمهم أن الشيخ الواسطة يكون اعتناؤه بمريديه بعد موته أكثر من اعتناؤه بهم .
- ٥٠٧ - تصريحات من الشيوخ للمريدين باستمرار وساطتهم بعد موتهم
- ٥٠٩ - الصلاة الغوثية عند البريلوية
- ٥١٠ - صورة الواسطة البدعية في زيارة الشيخ الجيلاني
- ٥١٠ - صورة الواسطة البدعية في زيارة السيد أحمد البدوي
- ٥١١ - صورة الواسطة في زيارة الشيخ التجاني
- ٥١٢ - صورة غريبة للواسطة البدعية في الأموات عند علي القاري
- ٥١٤ - تقسيم تخصصات المشايخ المقبورين
- ٥١٧ - مراتب ما يفعله القبوريون عند الأضرحة
- يدعي بعض الصوفية أن الولي المقبور يجيب الفقير الصوفي إذا ناداه، ولا يجيب
الفقيه السني
- ٥١٧ - بذلك أهل البدع الدعاء للميت والاستغفار له بدعائه والاستغاثة به
- ٥١٨ المبحث الخامس: نظرة الصوفية لشيروخهم
- ٥٢٠ أولا: حقيقة الشيخ الذي لا يصح إيمان، ولا هدى، ولا صلاح، إلا باتباعه .
- ٥٢١ ثانيا: عصمة الشيخ، وحفظه
- ٥٢٥ ثالثا: تقديس الشيخ والتهويل من قدراته، وطاقاته
- ٥٢٧ رابعا: الشيخ يطرح عن المريد الخطايا، والمعاصي
- ٥٢٩ خامسا: الحلف بالشيخ
- ٥٣١ سادسا: القصص، والحكايات التي تروى عن الشيخ
- ٥٣٢ المبحث السادس: بيان شبهات الصوفية والرد عليها
- ٥٣٨ أولا: الشبهات العامة
- ٥٣٨ - نحن إذا توجهنا إلى الوسائط بالدعاء والاستغاثة والتوسل لا نعبدهم بذلك وإنما
نعبد الله .
- ٥٣٨ - الصورة الأولى لهذه الشبهة عندهم
- ٥٣٩ - الصورة الثانية لهذه الشبهة عندهم
- ٥٤٠ - الرد على شبهتهم في الصورة الأولى
- ٥٤٠ - المعبودات التي عبدها الكفار قديما نوعان: عقلاء، وغير عقلاء

- أ - الرد على الصورة الثانية من هذه الشبهة ، بعده أجوبة :
 ٥٤٨ الجواب الأول: أن الصوفية مدلون وملبسون
 ٥٤٨ الجواب الثاني: توسط الأولياء من أجل أن يحبهم الله .
 ٥٥٢ الجواب الثالث: قياس أحكام الدين على أمور الدنيا جهل
 ٥٥٤ الجواب الرابع: تقديم المقربين من الوسطاء هي عقيدة القرامطة .
 ٥٥٤ الجواب الخامس: تشبيه المخلوق بشبهين .
 ٥٥٥ الجواب السادس: المسلمين والكافرين يدعون الله
 ٥٥٥ الجواب السابع: بطلان الشبهة بالأدلة السمعية والعقلية
 ٥٥٦ الجواب الثامن: لكثرة الذنوب ليس للعبد أن يدعو الله مباشرة
 ٥٥٦ الجواب التاسع : إدعاء الواسطة بهذا الوجه من الحماسة
 ٥٥٧ الجواب العاشر: في التوسيط توعيد
 ٥٥٧ الجواب الحادي عشر: أدعية الأنبياء لا تدخلها واسطة
 ب - ومن الشبهات العامة استدلال الصوفية بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾
 ٥٥٨ - الرد على هذه الشبهة
 ٥٥٨ - ومن الشبهات العامة استدلال الصوفية بأحاديث موضوعية ، وأخبار واهية
 ٥٥٩ - بطلان حديث (توسلوا بجاهي فإن جاهي عند الله عظيم) .
 ٥٦١ - بطلان حديث: (إذا أعيتكم الأمور فعليكم بأصحاب القبور) .
 ٥٦٢ - بطلان حديث: (لو أحسن أحدكم ظنه بحجر لنفعه) .
 ٥٦٢ - ومن الشبهات العامة : شبهة التسبب ، والكسب
 ٥٦٣ - الرد على هذه الشبهة
 ٥٦٤ - شبهة المجاز العقلي
 ٥٦٥ - الرد على هذه الشبهة
 ٥٦٦ ثانياً شبهات تتعلق بالأنبياء عليهم السلام
 ٥٦٧ أ - التوسل بهم
 ٥٦٧ - الكلام على التوسل الممنوع
 ٥٦٨ - لفظ التوسل يراد به ثلاثة أمور
 ٥٦٩ الشبهات التي يستدل بها أهل الأهواء لإباحة التوسل الممنوع والرد عليهم
 ٥٧١ الشبهة الأولى: حديث الضرير
 ٥٧٢ الشبهة الثانية: استدلالهم بأثر استسقاء عمر بالعباس .
 ٥٧٣

- ٥٧٥ الشبهة الثالثة: استدلالهم بتوسل آدم بالنبي عليهما الصلاة والسلام
- ٥٧٥ الشبهة الرابعة: حكاية تروى عن الإمام مالك مع الخليفة أبي جعفر المنصور .
- ٥٧٨ - شبهات أخرى تتعلق بالأنبياء والرد عليها
- ٥٧٨ ب - من الشبهات قياس واسطة الأنبياء في العبادة على وساطتهم في التبليغ
- ٥٧٩ ج - تحوير دعاء الأنبياء والاستعانة بهم ، وطلب المدد منهم بعد موتهم .
- ٥٨٣ د - ادعاؤهم جواز دعاء النبي ﷺ ، والاستغاثة به ، وهو في قبره وطلب شفاعته .
- ٥٨٤ ثالثاً: شبهات تتعلق بالأولياء، والصالحين والرد عليها
- ٥٨٤ أ - شبهة الولاية ، والكرامة
- ٥٨٤ - الجواب من هذه الشبهة من ثمان أوجه
- ٥٨٨ ب - شبهة البركة
- ٥٩٠ ج - شبهة الحكايات والمنامات
- ٥٩٠ والرد على هذه الشبهة من ثمانية أوجه
- ٥٩٢ الرد المجمل على هذه الشبهات عموماً
- ٥٩٣ سؤال المخلوق فيه ثلاثة مفاسد
- ٥٩٥ الباب الثالث: أثر الواسطة الشرعية والبدعية في العقيدة
- ٥٩٧ الفصل الأول: أثر الواسطة الشرعية في معتقد أهل السنة والجماعة
- ٥٩٧ المبحث الأول: نيل رضوان الله والجنة
- ٥٩٧ أدلة ذلك من الكتاب العزيز
- ٦٠٠ أدلة هذا الأثر من السنة المطهرة
- ٦٠٢ المبحث الثاني: تحقيق التوحيد الخالص
- ٦٠٢ أ - الإخلاص لله تعالى .
- ٦٠٢ ب - التقيد بالسنة ومتابعة الرسل
- ٦٠٨ المبحث الثالث: الطمأنينة والثبات
- ٦٠٩ - تسلية الله سبحانه وتعالى للمؤمنين .
- ٦١٤ المبحث الرابع: الشعور بالعزة والقوة والنصر
- ٦١٨ المبحث الخامس: حصول السيادة والاستخلاف في الأرض
- ٦١٨ - الآيات الدالة على هذا الأثر
- ٦٢١ المبحث السادس: تحقيق الوحدة بين المسلمين
- ٦٢٩ الفصل الثاني: أثر الواسطة البدعية في عقائد أهل الأهواء
- ٦٣٠ المبحث الأول: الوقوع في التشبيه والشرك

- ٦٣٩ - الشرك الذي وقع فيه أهل الأهواء والبدع القائلون بالواسطة البدعية
- ٦٤١ المبحث الثاني: الحيرة والشك والضياع
- ٦٤٣ - أمور خمسة تترتب على دعاء الواسطة
- ٦٤٧ المبحث الثالث: الذلة والانكسار لغير الله تعالى
- ٦٥٢ المبحث الرابع: ضياع العمل لتوزعه بين الوسائط
- ٦٥٧ المبحث الخامس: انتشار الضعف بين المسلمين وانشطار شملهم
- ٦٦٣ - الخاتمة
- ٦٧٤ - التوصيات المقترحة
- ٦٧٥ - صورة رائعة لأسلوب الحكمة في الدعوة لأحد العلماء المتأخرين
- ٦٧٥ - رجاء
- ٦٧٧ - فهرس المصادر والمراجع
- ٧١٩ - فهرس الموضوعات